

أبي
العرابي
المعري

رسائل

رسالة الصفوان

شرح وإيجاز
كامل الكيلاني



حقوق النّشر والتّوزيع محفوظة.

رسالة الغفران

شرح وإيجاز: كامل الكيلاني

النّاشر: مطبعة المعارف مصر

سنة النّشر: 1937

للمزيد من الكتب والدراسات الخاصة بفكر المعري

يرجى زيارة موقع ناجون الالكتروني

[www. najoon.org](http://www.najoon.org)



رسالة الخفراء

للشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري

شرح وإيجاز

كامل كسلاني

الجزء الاول

ALIBULOO
VTIETVIMU
YHAGALI

ملتم طبعه ونشره

مطبعة المعارف وكتبتنا بمصر



حضرة صبي المجدد السيد فاروق الكفوي

إهداء الكتاب

مولاي :

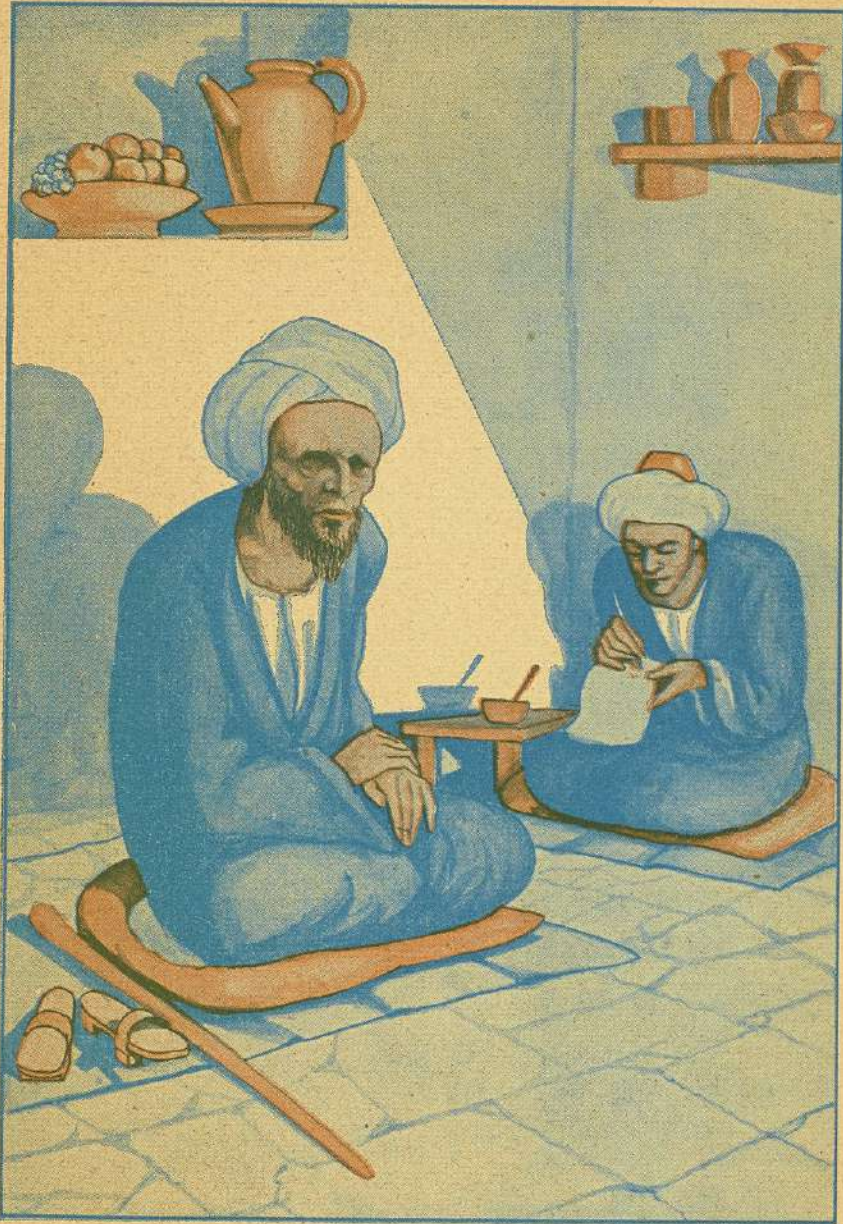
مُنذُ أَلْفِ عَامٍ - أَوْ قَرِيبٍ - تَعَنَّى صَاحِبُ العُفْرَانِ فِي مَنشُورِهِ وَمَنظُومِهِ
بِالمِثْلِ الأَعْلَى لِلْمَلِكِ الصَّالِحِ ، وَرَاحَ يَنْشُدُهُ - حَيَاتِهِ - عَلَى غَيْرِ طَائِلٍ .
وَاليَوْمَ يَتَحَقَّقُ لِشَارِحِ العُفْرَانِ فِي عَهْدِكَ الزَّاهِرِ - ذَلِكَ الحُلْمُ الذَّهَبِيُّ
الجَمِيلُ الَّذِي عَزَّ عَلَى مُوَلَّفِ العُفْرَانِ أَنْ يظْفَرَ بِهِ .

مولاي :

وَلَقَدْ رَفَعْتُ بِالأَمْسِ إِلَى سُدَّةِ أَمِيرِنَا المَحْبُوبِ - فِي أَوَّلِ نِشَاءَتِهِ
الطَّاهِرَةِ - أَوَّلَ لَبِنَةٍ سَوَّيْتَهَا فِي أُسَاسِ مَكْتَبَةِ الأَطْفَالِ .
وَاليَوْمَ يُسْعِدُنِي أَنْ أَرْفَعَ إِلَى سُدَّةِ مَلِيكِنَا المُصْلِحِ - وَهُوَ فِي مُقْتَبِلِ
شَبَابِهِ النَّاظِرَةِ - آخِرَ لَبِنَةٍ أَضَعُهَا فِي صَرْحِ مَكْتَبَةِ الشَّبَابِ .
وَأَنَا فِي هَذِهِ وَتِلْكَ لَا أَتَوَخَّى - بَعْدَ رِضَا اللّهِ (سُبْحَانَهُ) - غَيْرَ رِضَاكَ ،
رَاجِيًا أَنْ تَظْفَرَ هَذِهِ - مِنْ رِعايَةِ المَلِيكِ - بِمِثْلِ مَا ظَفَرْتَ بِهِ تِلْكَ
مِنْ عِنايَةِ الأَمِيرِ .
وَحَسْبِي أَنْ أُرَدِّدَ فِي هَذَا المَقَامِ مَا أَسْلَفْتُهُ فِي ذَاكَ مِنْ مَوْفُورِ الوِلَاةِ ،
وَصَادِقِ الدَّعَاءِ :

« فَإِذَا قَبِلْتَ هَدِيَّتِي ، وَرَضَيْتَ عَن هَذَا الكِتَابِ
أَحْيَيْتَ فِي نَفْسِي الرَّجَا ء فَأَبْدَعْتَ فِي كُلِّ بَابٍ
وَمَلَأْتَ قَلْبِي بِالبَيِّقِي نِ فَلَا أُبَالِي بِالصَّعَابِ »

كامل كيرازي



أبو العلاء كما تخيله شارح الرسالة

مقدمة

« أكتبُ هذا ، وبين يديّ طبعة لرسالة الغفران ، أذاعها « كامل كيلاني » — منذ حين — أكتبه ، وأنا أعلمُ أن هذه الطبعة قد ذاعت ، واستبقت إليها الناس استباقاً لم يكن منتظراً ولا مرجواً ، فاعتبط للطبعة نفسها ، وعناية « كامل » بها ، ثم اعتبط لما ظفر به من التشجيع على هذا الجهد ، وهذه العناية ، ثم اعتبط لأن روح أبي العلاء ، وفلسفته ، ومناهجه — في الفهم والتفكير — قد أخذت تتغلغل في طبقات المستنيرين من أهل الشرق العربي ، وليس هذا بالشئ القليل ، وما أشك في أنه سينتج آثاره الحسنة بعد حين .

تلك هي نبوءة الأستاذ العميد^(١) منذ خمس عشرة سنة ، وقد صدق الزمن نبوءته التي أوحاها إليه رواج الطبعة الأولى من هذا السفر النفيس ، فقد نفذت الطبعة الثانية كما نفذت الطبعة الأولى في زمن يسير ، ومضت نسخهما تطوّف في الآفاق ، فأصبحت كل نسخة منها مدداً في مكتبة لأديب أو متأدب ، وحقق الشباب المفكر تأميلنا فيه ، ورأى في هذا السفر الخالد مصداق ما حدثناه به : فنا من الأدب العالي يفخر به الفكر الإنساني ، ويزهى بروعته الخيال العالمي^(٢) ، فأقبل على هذه اللذائذ الفكرية المرتقيات — كما يقول شيخ

(١) انظر مقدمة الدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية التي صدرنا بها الطبعة الثانية من رسالة الغفران ، وقد أعدنا نشرها في هذه الطبعة الثالثة (ص ٦٦٩ — ٦٧٨) وما كتبه الاستاذ العميد عن الطبعة الثانية من الغفران في مقدمة كتاب « صور جديدة من الادب العربي » قوله : وقد راجت رسالة الغفران هذه — في مصر والشرق العربي ، بل رأيت من المستشرقين — في أوروبا — من يرضى عنها ، ويعجب بها .

(٢) صدرنا الطبعتين الاولى والثانية بما يلي :

الى الشباب المفكر ، الذي أدرك حقيقة الادب الحي ، وعرف قيمته وأثره في احياء النفوس ، وانهاض الشعوب . الى الشباب المفكر الذي اطلع على الآداب الغربية ، فسحرتة أنغامها العديدة ، وهاله خضمها الزاخر ، الجياش بشق احساسات الحياة وحوالها ومثلها الرائعة ، وعطف على الآداب العربية فأخرج صدره ما فيها من الخاط وسوء الاختيار ، فعزف عنها مزدرباً ناقماً — وله بعض العذر — واندفع متهافتاً على الادب الغربي الذي وجد فيه لكل خالجة وتراء ، تشجيه أنغامه ، وتملأ فراغ نفسه ، وتخلق بها في أسمى ملكوت تلمح اليه . الى هذه الفئة من الشباب ، أقدم هذا الكتاب الذي أرى فيه فناً من الادب العالي ، أجرؤ فأزعم — لا متحسناً للفننا ، ولا متعصباً لآدابنا ، ولا مجازفاً في زعمي — أنه لا يقل عن أجل أثر أخرجه أكبر رأس عربي مفكر ، وهنأ نتمسك القول حذرا من الاسراف والشطط . . . »

المرة - ونفذت الطبعة الثانية منذ عشر سنوات - أو تزيد - ثم شغلتنى مكتبة الأطفال عن إظهار هذه الطبعة إثر نفاذ سابقتها حتى أتاح الله هذه الفرصة ، وقدّر لها الظهور في هذا الثوب الأنيق .

ولا يدّهشني القارئ إذا حدثته بأن إقبال الشباب العربي على هذه الرسالة ، قد أحيا في نفسى ميت الآمال ، وحفزنى ذلك النجاح إلى إنشاء مكتبة الأطفال . فقد تحقق لى أن الطفل العربي إذا تعهدناه في أول نشأته بالتثقيف العربي ، ويسرنا له سبل البيان العربي ، حسن رأيه في أدبنا ، وصفا تفكيره ، واستقامت فطرته ، وقد أثبتت الأيام صدق ما رأيناه ، ثم بدت في هذه الأيام بشائر طيبة ، فرأينا طائفة من كرام المرين يقتفون أثرنا في هذه الطريق ويتهجون ما رسمناه من خطط ومناهج ، فحمدنا لهم تلك المحاولات المشكورة ، ودعونا لهم بالسداد والتوفيق ، وما زال أملنا معقوداً بنجاحهم القريب ، متى ضاعفوا من عزيمتهم وأخلصوا نياتهم ، وتصدى كل منهم لما يحسنه ، واقتصر الميدان على أهله .

ولئن كانت رسالة الغفران حافزة لنا إلى إظهار مكتبة الأطفال ، لقد كانت تلك المكتبة معوقة لنا عن المبادرة بإظهار هذه الرسالة إثر نفاذها .

ولقد آثرت الروية ، واخترت التريث ، ولم أدفع بالكتاب إلى المطبعة إلا بعد أن احتفلت له وحشدت - لتجويده - كل ما أملك ، حتى قربته - ما وسعنى الجهد - من الكمال الفنى المنشود ، رغبة في أن أجزى بالشكر لأبناء العروبة على ما بذلوه من تقدير وتشجيع . وإن إقبال شبابنا على الآثار العلائية المبدعة ، وتزودهم من هذا المنهل الفكرى الصافى ، لدليلاً أى دليل ، على أصالة النهضة الأدبية التى يرفع أعلامها أعلام هذا العصر ومفكره ، وإن في نفاذ الطبقات المتعاقبة من آثار المعرى لفعلاً صادقاً - كما قلت في مقدمة الطبعة الثالثة من « اللزوميات » - يبشر بخير النتائج ، وينبئ بأحمد الغايات .



ولقد جلونا هذه الطبعة الجديدة وقد أنست بالنص الكامل لرسالة ابن الفارح ، وهى الرسالة التى بعث بها صاحبها إلى أبى العلاء ، فأجابه عليها برسالة الغفران (١) .

(١) انظر (الجزء الأول ص ٢١ و ٢٢) لترى السبب الذى دعا ابن الفارح الى تأليف هذه الرسالة التى حفزت المعرى الى انشاء رسالة الغفران .

وقد أضفنا إليها طائفة صالحة من رسائل المعرى ، في فقه اللغة ، وفنون الأدب . وضروب شائقة من طريف الحكمة وجميل المودة ، ثم ذيلنا ذلك بترجمه وسيطة لجحيم « دانتي » إذ كان الباحثون قد أفاضوا — لهذا العهد — في صلتها بغفران « أبي العلاء » .

وقد أخذنا أنفسنا — في إخراج هذه المجموعة من الرسائل المبدعة — بأن نقيّد نصوصها بالشكل الكامل ، وإن يان « أبي العلاء » لجدير أن يضبط كله ، إذ كان ذلك الكاتب المتفرد مغرباً في لفظه وأسلوبه ، على عمق أغراضه ومعانيه .

وما أحوج القارئ — لآثار هذا الفيلسوف الأديب — إلى أن يضاعف يقظته لتفهم معناه البعيد ، ويحبس انتباهه لتقصى مرماه الخفي ، ويجلو فطنته لاكتناه مغزاه المستسر ، ويحشد قواه الفكرية كلها فلا يتوزعها الصواب في إعراب كلمة أو تصريفها أو وجه سياقها .

وقد يكون ذلك أجمع سهل المقادة ، ميسور التأتى ، هيّن الدرك ، للأديب المتمكن ، ولكنه — على ذلك — شديماً ما يكون حجر عثرة في طريق الشدّة من المتأدبين ، فسرعان

ما يدركهم الملل ، ويقعد بهم العجز ، ولا يلبثون أن يضجروا بمتابعة القراءة ، وبذلك يفوتهم — على الرغم منهم — أن يستمتعوا بهذه الكنوز الأدبية الجديرة بالجد والمعاناة . واستتبع هذا العمل أن نشرح الألفاظ شرحاً دقيقاً ، ينكشف به المقصود من معانيها في عرض الكلام .

ويسير غاية اليسر هذا العمل ، لو أن الكاتب غير أبي العلاء من كتاب الغريب المنصوص عليه صراحة في المعجمات ، فإن امتلاك أبي العلاء لناصية اللغة ونوادرها ، وسعة محفوظته من جزل النظم والنثر ، وتمرسه بمختلف أساليبها ، وغوصه على فرائدها ، وتهديّه لأبكار المعاني وعيون الكلام ، وتوقفه في ابتداع الصورة الفنية الرائعة . وحشده أفانين مختلفة من مُعجَب التصاوير وبارع الصيغ ، وتبحره في التاريخ ، إلى حد أن قال — وصدق — :

« ما مرّ في هذه الدنيا بنو زمن إلا وعندي — من أخبارهم — طرف »
كل أولئك قد أجرى لسانه بالكثير الأكثر من صور ألفاظ تدل — بعد الروية ، ومد البحث — على غير المعروف الظاهر من معانيها ، مما توسعت به اللغة ، وتشعب التصريف ، فصار واجباً أن نحد المراد من اللفظ في سياق الجملة حداً دقيقاً ، وأن نفسره

بما يقتضيه ذلك السياق ، معتمدين - في ذلك - على ما يقع لأيدينا من أجلاذ اللغة ،
وكتب الألفاظ ، باذلين الوسع في التحرز والتخير والتحقيق .



وقد توخينا - على ذلك - أن نترجم لمن وردت أسماءهم - في هذه المجموعة -
من الكتاب والشعراء وكل ذى فن .

وضاعف الجهد في هذا الصنيع ، أن أبا العلاء كان بعلمه مُدلاً ، ولوفرة معارفه مستخدماً ،
فكان يشير إلى الكاتب أو الشاعر أو العالم باسمه ، وهو معروف بلقبه ، أو ينعته بكنيته ،
وهو معروف بنسبته ؛ مما أثبت له في صدور معاصريه عظيم المنزلة ، وشديد الإعجاب ؛
فلقينا في كشف هذه المعميات - بالصدر الرحب - بعض العناء . وبما رسمناه لأنفسنا
في الترجمة أن تكون شرحاً لما أشار إليه أبو العلاء حين عرض لأولئك الأعلام ، حتى يغنى
القارئ عن المراجعة والاستعانة بغير الكتاب الذى بين يديه ، فيجد كفايته من توضيح
الإشارات بأدنى نظر ، وأيسر جهد . ورأينا ألا نخلى هذه المجموعة من دراسة لفلسفة
أبي العلاء وتفصيل آرائه في الحياة والناس وما وراء الكون ؛ فألزمنا أنفسنا ألا يعرض
أبو العلاء لمعنى فلسفى ، أو يلمع إلى فكرة من خواص فكره ، إلا أحققنا بها ما يماثلها فيما نقل
عنه ؛ ولا جرم أن شعر أبو العلاء ونثره يفسر بعضه بعضاً ، فهو يلمح إلى الفكرة في بيت ،
ويوضحها في بيت آخر ، ويزيدها إبانة وتوضيحاً في متناثر أبيات أخرى . فلا منتدح لمن
يتناول بالبحث إحدى نواحي أبي العلاء من أن يستقرى شعره ونثره ، ويتفطن إلى النظائر
والأشباه ، وما يتداخل من أفكاره ، وما يرجع من بعضها على بعض ؛ حتى تنفسح أمامه
سُبُل الموازنة والمقابلة والترجيح . وفي أضعاف هذه المجموعة حمل لبعض العبء عن
الباحثين ، فقد فصلنا فيها أبواباً من فلسفة أبي العلاء ، وعمرناها بمختلف أقواله في كل منها ،
وكشفنا الغطاء عن مستورها ، وجلولناها مواد مهيأة للفائدة والانتفاع ؛ آملين أن يكون
الباحثون بها في أمنٍ من الخطأ في الحكم ، والخطل في الاستشهاد .

وثمة جانب من العمل في هذه المجموعة ما كان أحرانا أن نمسك عن القول فيه ، إذ كان القول أياً كان لا يصف على الحقيقة ما عايناه منه . ذلك هو جانب التصحيح لنصوص الرسائل التي حفلت هذه المجموعة بها . ويشهد الله لقد تفشاها التحريف والتصحيف ، بل المستخ والتشويه ؛ فأحال الكثير من جعلها أعقد من ذنب الضب ؛ سواء في ذلك الرسائل التي سبق طبعها ، والرسائل التي ظلت مخطوطة حتى إعداد هذه المجموعة للطبع . وقد آلينا على أنفسنا ألا ندخر في تصحيحها من جهد ولا كد ؛ فصرنا للجامع حتى سلس ، وتأتينا للمستعصى حتى انقاد . وتوسلنا إلى ذلك بما اتسع له الامكان من وسائل المراجعة للكتب ، والتقليب للرأى ، والإذكاء للفطنة ، والحدّ للذهن ، والتوطين للنفس — مهما بعدت الشقّة — على بلوغ الغاية .

وقد انقسمت هذه المجموعة من الرسائل لذلك الجانب من التصحيح إلى قسمين : قسم حوى مباحث من فقه اللغة ، ورواية الشعر ، وعلم الأدب ، فكان من ههنا في هذه المباحث أن تصيدها في مظانها ، ثم نعارض ما في المظان بما أثر عن أبي العلاء ، مستأنسين بما نجد من هذه المباحث في استقامة الجمل ، وسلامة الألفاظ ، وصحة السياق . فأما القسم الثانى ، فهو نثر أبى العلاء الذى أملاه إنشاءً ، لا مرجع عنه إلا إليه ، ولا بديل منه إلا مرآته . فكنا نقف منه موقف الأناة والتروى ، لا نتنع في تصويبه بعفو الخاطر ، ولا نرضى فيما يظهر لنا من وجوه التصويب بأن يسير الكلام على وجه الصحة ، مؤدياً حقّ الإفهام . ولكننا كنا نستعين بما خبرنا من أساليب أبى العلاء ، وما استظهرنا من ألفاظه الدائرة ، وما عرفنا من ديباجته وطابعه في نسج العبارات . وما نزال في بحث وتقصّ ، ووزن وتفضيل ؛ حتى تنشق سحائب التحريف عن لفظ لائق بالنسق ، جارٍ من ألفاظ أبى العلاء على عرق ؛ فيأخذ اللفظ مكانه بين ما قبله من الألفاظ وما بعد ، مأخذ الدرّة من العقْد ؛ لا اجتلاب ثمّ ولا تكلف ، ولا استكراه ولا تعسف .

وما نحب أن نفيض القول في تفصيل ما بذلنا من جهد في إخراج هذه المجموعة الحافلة ، فها هي ذى بين يدي القارئ تصف نفسها بنفسها ، وتدل بيومها على أمسها . وفي مكنة

المنصفين أن يتمثلوا لأنفسهم وهم يقبلون من أوراقها المثين ، أننا وقفنا من كل كلمة في كل سطر في كل صفحة منها وقفة التحقيق والتفتيش والتحرى ، في غير ضنانه بالجهد ، ولا إشار للذعة . مجتهدين ألا نخرج من فصل إلى فصل قبل إيفائه حقه من العناية والتعهد ؛ محاذرين في مباحث التاريخ وعلوم العربية المقتضبة في مطاوي الرسائل أن ندعها متعبة للراغبين في البحث ، مضیعة لوقتهم في الرجوع إلى المصادر ؛ عامدين في أمثال هذه المباحث إلى إضاءة ما حولها ، والافاضة في بيانها ، والاستطراد إلى لبابها ، تمكيننا للدارس المستقصى من آرايه في دراسته واستقصائه . واضعين نصب أعيننا ألا يشعر قارئٌ بحاجة إلى شرح غريب ، أو تفسير غامض ، أو تجلية إشارة ، أو تفصيل مجمل ؛ إلا وجد قضاءها على حبل الذراع .

*
* *

« أما بعد » فهذا جهد — بل جهاد — بذلناه ، لا نريد به إلا وجه الأدب وحده ، وهو — كما قلنا في مقدمة ديوان ابن زيدون — زكاة الأديب ، وإنما امتثلنا مثلال الأسلاف ، الذين بذلوا من ذات أنفسهم لتظل حياة الأدب موصولة على الزمن عصرا بعد عصر ، وجيلا بعد جيل . وما رأينا كالأدب : على صاحبه الغرم إذا أخذ ، وعليه مثل ذلك الغرم إذا أعطى . فالأديب يشقى تعاما ، كما يشقى تعليما ، والأدب يضنى صاحبه في حاله ، فهو يبلى من يخدمه ، كما يبلى من يستخدمه .

على أننا قد رضينا — من قبل ومن بعد — بالشقاء والضنى ، فهل رضى الأدب عما أدينا ونوؤدى ؟ ذلك غاية ما نأمله ، فلا والله ما يعنيننا من شيء إلا أن نجيب تلك النزعة الفنية الصادقة التي نزلت منا منزل الشفاف — منذ نعومة الظفر — فحبيت إلينا الأدب ، وحفزتنا إلى التفانى له وفيه .

فإن بلغنا — بهذا الصنيع — غاية من الرضا ، فهي حسبنا ، وعند الله ثواب المحسنين .

بامل كيمرني

المقام

حدث على بن الجهم ، قال :

كان الشعراء يجتمعون — في كل جمعة — في القبة المعروفة بهم في جامع « بغداد » ينشدون الشعر ، ويعرض كل منهم على أصحابه ما يكون قد نظمه بعد مفارقتهم في الجمعة التي قبلها . فبينما أنا في جمعة من تلك الجمع ، ودعبل ، وابن أبي الشيص ، وابن أبي فتن ، والناس مجتمعون ، يسمعون إنشاد بعضهم ، أبصرت شاباً في أخريات الناس جالساً في زى الأعرابي :

فلما فرغ كل منهم وقطع إنشاده ، التفت الشاب إلينا وقال :

« قد سمعت إنشادكم — منذ اليوم — فاسمعوا إنشادي »

فقلنا : « هات » فأنشد : « فحواك عينٌ — على نجواك — يا مَذِلُّ (١) »

ثم مر فيها منشداً ، حتى أتى قوله :

« تغايرَ الشعرُ فيه — إذ سهرتُ له — حتى حَسِبْتُ قوافيه سَمَقْتِلُ »

فعقد « ابن أبي الشيص » — عند هذا البيت — خنصره ، ثم مرَّ فيها الشاب إلى أن

أتى على آخرها ، ثم أنشد أخرى . فقلنا له : « لمن هذا الشعر ؟ »

فقال : « لمن أنشدكموه . »

فقلنا له : « ناشدناك الله ! من تكون ؟ » قال : « أنا أبو تمام الطائي ! »

قال ابن أبي الشيص : « فرفعنا مجلسه — حينئذ — وعظمناه تعظيماً كبيراً . »

(١) المذل : هو الذي يفشى السر ، والشرط الثاني قوله : « حتام لا يتقضى قولك الحطل » ، والتصيدة

في مدح المعصم ، ومن أروع ما فيها قوله :

« له رياض ندى ، لم يكب زهرتها خلف ، ولم تبختر — بينها — العلل »

وقوله : « يحميه للأؤه ، أو لوذعيته من أن يذال : بمن ، أو : ممن الرجل ؟ »

فهل عرف القارىء : ماذا كان من أثر هذا البيت الرائع ^(١) الذى عقد « ابن أبي الشيص »
 خنصره عند سماعه ؟ وكيف أوحى إلى ذهن المعرى قصة هذه القوافى الممتوِّبَةِ إلى القتال ؟
 لقد وعى أبو العلاء هذا المعنى ، كما وعاه « ابن أبي الشيص » وأصحابه ، وعقد خنصره
 عند سماعه ، وأكبر من « أبي تمام » هذا الخيال البارع الذى مثل قوافيه كائنات حية ،
 توشك أن تقتتل لتظفر بشرف الخلود فى شعر أبي تمام ، واختزن المعرى هذه اللفتة البارعة ،
 كما يختزن القاصُّ الموهوب كل مشهد رائع من مشاهد الحياة ، وكل معنى مجوِّد مبتكر ،
 ليعرضه — أبهى عرض — فى مكانه الجدير به من قصصه المتخيَّر المبدع .

فما أتاحت للمعرى فرصة الكلام عن « أبي تمام » تمثل قوافيه كائنات حية ، توشك
 — لو علمت نبأ مصابه — أن تولول عليه نادبات ^(٢) .

ولم يقف خيال المعرى عند تخيل هذه القوافى كائنات حية ، تأسف وتحزن وتسير فى
 الجنائز ، فتخيل أبيات لبيد قد نقلت فى الجنة قصوراً فخمة ^(٣) .

ومتى أعجب المعرى بأبيات « لبيد » فتمثلها قصوراً فاخرة ، فلا عجب إذا دفعه تحقيره
 الرجز إلى تمثّل أبيات الرجاز قد تحولت بيوتاً حقيرة ^(٤) . ولا غرو أن يتمثّل بيت الخنساء فى
 أخيها صخر ، وقد أصبح — فى الدار الآخرة — حقيقة راهنة ، وبدا أخوها — فى الجحيم
 كالجبل الشامخ ، والنار تضطرم فى رأسه ، وهو يقول لأخته : « لقد صح مزعمك فى » .
 وإنما يعنى قولها :

« وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار ^(٥) »

كما يتمثّل معلقة امرئ القيس كلها عجوزاً فاجرة ، فيقول فى رسالة الإغريض ^(٦) :

(١) المفهوم من القصة أن هذا البيت كان بدء التعارف بين أبي تمام وابن الجهم ، ثم تمت الألفة بعد ذلك حتى قال فيه أبو تمام .

« إن يُكدر مطرف الأضياء ، فإوتنا نعدو ، ونسرى فى إضاء تالد
 أو يختلف ماء الوصال ، فإوتنا عذب ، تحدر من غمام واحد
 أو يفتقر نسب ، يؤلف بيننا أدب ، أقنناه مُقَام الوالد . »
 (٢) انظر (ص ٢٦٨) . (٣) انظر (ص ٨٦) . (٤) انظر (ص ١٨٩) .
 (٥) انظر (ص ١٣٤) (٦) انظر (ص ٥٨٩)

« وإنّ قفانك » على حسنها وقدم سنّها - لتقر بما يبطل شهادة العدل الرضى ، فكيف
بالبغى الأثنى ؟ قاتلها الله عجوزاً لو كانت بشرية ، كانت من أغوى البرية »

ثم يتخيل أعمارنا ومنايانا ، كأنهن الآيات فى النثر ، والمنايا فواصلهن ، وكأنهن الآيات
فى الشعر ، والمنايا قوافيهن ، فيقول فى الأولى :

« إن أعمارنا كآى أينت والمنايا لهن مثل الفواصل »

ويقول فى الثانية :

« وأعمارنا آيات شعر ، كأنما أواخرها للمنشدین قوافى »

ولا يفوته حين يعرض لذكر أعلام النحو والصرف أن يقول :

« أنت علل المنون فما بكاهم - من اللفظ - الصحيح ، ولا العليل »

ولو أن الكلام يحس شيئاً لكان له - وراءهم - أليل »

ولو شئنا أن نتقصى هذا اللون - وحده - من خيال المعرى - وهو ضروب وأفانين
لا تحصى ، لضاق بنا المقام الرحيب ، فكيف بهذه اللحظة العاجلة .

وإنما عنانا - فى هذه الومضة الخاطفة - أن نعرض للقارىء مثلاً من سعة خيال المعرى ،
ولوناً من ألوان تقننه وابتداعه ، وانفساح أفاقه ، وأصالة الروح القصصى فى نفسه ، وقد
اخترنا هذا المثل من بين مئات من أشباهه ونظائره المبثوثة فى نظمه ونثره لنرى القارىء
كيف أصبح الخيال القصصى فى نفس المعرى متين الأواصر ، عميق الأغوار ، تكاد كل
كل ملاحظة تعن له تتحول قصة ، أو مشهداً من قصة ، أو منظرأ من مشهد قصصى ، أو
إحياء بقصة ، أو خلاصة لها ، أو موجزاً لأقصوصة ، أو إشارة - بعيدة أو قريبة - إليها .

وسيان - فى عالم الفن الصادق - أن تطول القصة أو تقصر الأقصوصة ، فإن فى
البذرة - على ضآلتها - كل عناصر الدوحة السامقة ، ولن يضير المعرى أن يوجز بعد أن
أصاب الهدف ولم يخطئ الصميم ، كما لا ينفع غيره أن يسهب ويظيل ما دام قد تنكب
السبيل ، ولم يصب الأهداف البعيدة .

ولم يقف خيال أبي العلاء القصصى عند تمثل القوافى كائنات حية ، فقد طالما تمثل المعرى
أشباه ذلك ، فتخيل الزمن كله وليداً لاهياً فقال :

« أظن زمانى : كونه وفساده وليداً يبطن الأرض يلهو ويلعب »
كما تمثل الليل والنهار خيطى باطل ، فقال :

« نهار وليل عوقبا ، أنا فيهما - كأتى بخيطى باطل - أتثبت »
وتخيل النجوم - كما تخيل القوافى - كائنات حية ، ثم أبعده في خياله فراها كالأناسي
متنافرة ، متخالفة في أديانها ، بعد أن تمثلها مفعمة بالإحساس موفورة العواطف فقال :

فهل الكواكب مثلنا - في ديننا - لا يتفقهن ، فهائد ، أو مسلم
ولعل مكة في السماء كمكة وبها نضار ، ويذبل ، ويملك
ثم تعمق في تصويره ، وأوغل في تخيله ، فقال من قصيدة :

وإن صح أن النيرات محسة لعل سهيلاً ، وهو فخل كواكب يقولون : « تأتي فوقنا مثل ما أتى
فما ليت شعرى ! هل تراعى من الردى فتكذب ؟ إن المين فى آل آدم
فماذا نكترتم من وداد ، ومن صهر ؟
تزوج بنتاً للسماك ، على مهر
بنو الأرض ، فى حال السرار ، أو الجهر »
وتركع نسكا ، بالعشاء وبالظهر
غرائز جاءت بالنفاق وبالعهير
ثم قال من قصيدة أخرى :

سبحان خالقهن لست أقو لا ، بل أفكر : هل رزقن حجى
نجماً يميزن به من الطهر ؟ أم هل لأشاهها الحصان ، بذى الت
أم يخطب العوى السماك ويع
ل : الشهب كايية مع الدهر
نجماً يميزن به من الطهر ؟
ذكرى ، من قربى ومن صهر ؟
طبيها الذى ترضاه من مهر ؟
الآيرى القارى المنصف أن هذا التفكير الجبار قد اجتاز آفاقاً من الخيال قل أن
يرتادها أحدث القصاصين ؟ وكيف يرى القارى قصة الشيخ أبى هدرش^(١) وقصة

(١) انظر جنة العفارىت (ص ١٠٣)

الخورية^(١) وما إليهما من روائع القصص العلائى الخلاب . وثم لون من الأفاصيص تفيض
به رسائل المعرى وأشعاره ، وقد نهينا إليه في موطنه ، نجتزئ منه بقوله^(٢) :

« وباك على طائر ، رماه فتى لاه ، فأوهى بفهره^(٣) اكتفا
أو صادفته حباله نصبت ، فظل فيها كأنما كتفا
بكر يبغي المعاش مجتهداً - قصص - عند الشروق - أو تفتا
كأنه - في الحياة - ما فرع الغصن ، فغنى عليه ، أو هتفا »

ومن يدري كم قصة رائعة من قصص المعرى لم تصل إلينا لضياءها فيما ضاع من كتبه
الكثيرة الخالدة ؟ وثم أبيات لخص فيها المعرى قصصاً عالمية - قبل أن يولد مؤلفوها -
أربع تلخيص ، كتلك الأبيات الثلاثة التي قدمنا بها ترجمة « جلقر » وقد لخص في البيتين
الأولين قصة « جلقر في بلاد الأقرام والعالقة » ثم لخص في البيت الثالث مغزى القصة
وروحها ومرمى مؤلفها البعيد ، حتى خيل إلينا أن « سويفت » - مؤلف هذه القصة -
قد استوحى خيال المعرى حين كتبها ، واستلهم قوله :

« زعموا رجالا ، كالنخيل جسومهم ومعاشراً ، قاماتهم أشجار
إن يصغروا ، أو يعظموا ، فبقدره ، ولربنا الإِعظام والإِكبار
يُستصغر الحى الحقير ، وتحتته أم توهم أنه جبار »
ومن العجائب أننا حين ترجمنا قصة : « القول يبقى^(٤) » لبول إرفيه ، لم نجد مقدمة
أجدر بتلخيصها من قول أبي العلاء :

« إن شئت إبليس أن تلقاه منصلاً
تجدهم في أقاويل مخالفة
يباكرون بالباب - وإن خلصت -
قالوا ، وقلنا : دعاو ، ما تفيد لنا
بالسيف يضرب ، فاعيد للجماعات
وجه الصواب ، وأسرار مذاعات
معصية ، وبأهواء مطاعات
إلا الأذى ، واختصاماً في المداعة »

(١) انظر (ص ١٠١) (٢) ومن أمثلة ذلك ما تراه في (ص ٥٨٣ - ٥٨٦) وغيرها
من صفحات الكتاب (٣) بحجره (٤) ارجع إلى كتاب : « روائع من قصص الغرب »

ولو شاء « برنارد شو » أن يهد لقصته : « الزنجية باحثة عن الله » لما رأى في تلخيصها
أربع من الأبيات المنسوبة إلى المعري^(١) :

« عجبت لكسرى وأشياؤه وغسل الوجوه ببول البقر » الخ

*
* *

أما بعد ، فإن في أبي العلاء — من المزايا القصصية الباهرة — ما يكاد يفرد من بين شعراء العربية وكتابها ، وقد كدنا نقول : من بين شعراء الدنيا وكتابها قاطبة . ولا غرو في ذلك ، فإن أكبر ميزات القاص الموهوب موفورة عنده ، ترخرمها نفسه الحاشدة ، « ويتم بها باعه الرحيب » ، فهو — فيما يعرف قراؤه وناقده — مستوفز الحس ، واسع الخيال ، رحب الأفق ، شديد التنبه ، وقد عاش في عصر ازدهرت فيه القصة ، وبلغت شأواً عظيماً . وهو — إلى ذلك — دائم التقلب لوجوه الرأي المتباينة ، كثير المقابلة والموازنة بين فروضها المختلفة وخصائصها المنسجمة والمتفاوتة ، ساحر الأداء ، بارع السخرية ، خلاق معان ، ومستحدث أخيلة . وقل أن تجتمع هذه المزايا كلها في عليم من أعلام القصة ، إلا سمت به إلى أرفع ذروة فنية .

وقد رأى القارئ — في هذه اللوحة العابرة — أمثلة من براعته القصصية ، وتطلعه الدائم إلى الرحلات الفكرية ، وعرف كيف سرى بفكره في مجازات معنوية شاسعة ، يتيه فيها جبايرة العقول . ولم يكن بين المعري وبين أن يملا الدنيا قصصاً مطولة خالدة ، إلا أن تمهياً له الفرص ، وتخلق لأدبه المناسبات الحافزة ، كمناسبة رسالة الغفران التي أظفرت الأدب العربي منه بهذا الكنز الحافل بأروع الذخائر الفنية العالية ، الباقية — على الدهر — ما بقي الفن وأهله .

بامل كيمزنى

(١) ارجع إلى هذه الأبيات في تاريخ : أبي الفداء (ج ٢ ص ١٧٦)

رسالة ابن الفتح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اسْتَفْتَا حَاطَا بِاسْمِهِ ، وَاسْتَنْجَا حَاطَا بِبِرْكَتِهِ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، الْمُبْتَدِيِّ بِالنَّعْمِ ، الْمُنْفَرِدِ بِالْقَدَمِ ، الَّذِي جَلَّ عَنْ شَبَهِ
الْمَخْلُوقِينَ ، وَصِفَاتِ الْمُحَدَّثِينَ . وَوَلِيَّ الْحَسَنَاتِ ، الْمُبْرَأِ مِنَ السَّيِّئَاتِ .
الْعَادِلِ فِي أَعْمَالِهِ ، الصَّادِقِ فِي أَقْوَالِهِ . خَالِقِ الْخَلْقِ وَمُبْدِيهِ ، وَمُتَّبِعِهِ
— مَا شَاءَ — وَمُفْنِيهِ .

وَصَلَوَاتُهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَبْرَارِ عِزَّتِهِ وَأَهْلِيهِ ، صَلَاةً تَرْضِيهِ ، وَتُقَرِّبُهُ
وَتُدْنِيهِ ، وَتُرْزِقُهُ وَتُحْطِيهِ .

كِتَابِي — أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ مَوْلَايَ الشَّيْخِ الْجَلِيلِ ، وَمَدَّ مُدَّتَهُ ، وَأَدَامَ كِفَايَتَهُ
وَسَعَادَتَهُ ، وَجَعَلَنِي فِدَاءَهُ ، وَقَدَّمَنِي قَبْلَهُ^(١) — عَلَى الصَّحَّةِ وَالْحَقِيقَةِ ، وَبُعْدِ^(٢)
الْقَصْدِ وَالْعَقِيدَةِ ، وَلَيْسَ عَلَيَّ مَجَازِ اللَّفْظِ وَجَرَى الْكِتَابَةِ ، وَلَا عَلَيَّ تَنْقِصِ
وَخِلَابَةِ ، وَتَحْبُيبِ وَمُسَامَحَةِ ، وَلَا كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ — وَقَدْ عَادَ صَدِيقًا لَهُ — :
« كَيْفَ تَجِدُكَ ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ ؟ » وَهُوَ يَقْصِدُ تَحْبُيبًا ، وَيُرِيدُ تَمَلُّقًا ،
وَيُظَنُّ أَنَّهُ قَدْ أَسْدَى جَمِيلًا ، يَشْكُرُهُ صَاحِبُهُ إِنْ نَهَضَ وَاسْتَقَلَّ ، وَيُكَا فَنَّهُ

(١) ارجع إلى ج ٣ ص ١٩٥ (٢) ويمكن أن تكون : جد ، أو : عمد ، ولكل وجه حسن .

عَلَيْهِ إِنْ أَفَاقَ وَأَبَلَّ - عَنْ سَلَامَةٍ تَمَامَهَا بِحُضُورِ حَضْرَتِهِ ، وَعَافِيَةِ نِظَامِهَا
بِالتَّشْرِيفِ بِشَرِيفِ عِزَّتِهِ ، وَمَيِّمُونَ نَقِيبَتِهِ وَطَلَعَتِهِ .

حَنِينٌ صَادِقٌ

وَيَعْلَمُ اللهُ الْكَرِيمُ - تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ - أَنِّي لَوْ حَنَنْتُ إِلَيْهِ - أَدَامَ اللهُ
تَأْيِيدَهُ - حَنِينَ الْوَالِدِ إِلَى بَكْرِيهَا ، وَذَاتِ الْفَرْخِ إِلَى وَكْرِيهَا ، أَوْ الْحَمَامَةِ
إِلَى الْفَهْمِ^(١) ، أَوْ الْغَزَالَةِ إِلَى خَشْفِهَا^(٢) ، لَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا تُغَيِّرُهُ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ ،
وَالْعُصُورُ وَالْأَعْوَامُ . لَكِنَّهُ حَنِينُ الظَّمَانِ إِلَى الْمَاءِ ، وَالْخَائِفِ إِلَى الْأَمْنِ ،
وَالسَّلِيمِ^(٣) إِلَى السَّلَامَةِ ، وَالْعَرِيقِ إِلَى النَّجَاةِ ، وَالْقَلِقِ إِلَى الشُّكُونِ - بَلْ حَنِينُ
نَفْسِهِ النَّفِيسَةِ إِلَى الْحَمْدِ وَالْمَجْدِ ، فَإِنِّي رَأَيْتُ نِزَاعَهَا إِلَيْهِمَا ، نِزَاعَ الْأُسْتَقْصَاتِ
إِلَى عَنَاصِرِهَا ، وَالْأَرْكَانِ إِلَى جَوَاهِرِهَا .

فَضْلُ أَبِي الْعَلَاءِ

فَإِنْ وَهَبَ اللهُ لِي مَلًّا^(٤) مِنْ الْعُمْرِ ، يُؤْنِسُنِي بِرُؤْيَتِهِ ، وَيُعَلِّقُنِي بِحَبْلِ
مُودَّتِهِ ، صِرْتُ^(٥) كَسَارِي اللَّيْلِ ، أَلْقَى عَصَاهُ ، وَأَحْمَدَ مَسْرَاهُ ، وَقَرَّ عَيْنًا ،
وَنَعِمَ بِالْأَلَا ، وَكَانَ كَمَنْ لَمْ يَمَسَّهُ سُوءٌ ، وَلَمْ يَتَخَوَّفْهُ عَدُوٌّ ، وَلَا نَهَكَهُ
رَوَاحٌ وَلَا غُدُوٌّ .

وَعَسَى اللهُ أَنْ يُعِنَّ بِذَلِكَ - يَوْمِهِ ، أَوْ بِثَانِيهِ - وَبِهِ الثِّقَةُ ، وَأَنَا
أَسْأَلُ اللهُ - عَلَى التَّدَانِي وَالنَّوَى وَالْبِعَادِ - إِمْتَاعَهُ بِالْفَضْلِ الَّذِي اسْتَعْلَى عَلَى

(١) ارجع إلى ج ٣ ص ١٩٧ (٢) ولد الظبي أول مايولد (٣) الملدوغ (٤) الملا : المدة من الدهر

(٥) في الأصل : مرت

عَاتِقِهِ وَغَارِبِهِ ، فَسَنَ مَرَّ عَلَى بَحْرِهِ الْهَيْسَاجِ ، وَنَظَرَ فِي لَأْلَاءِ بَدْرِهِ الْوَهَّاجِ ،
 خَلِيقٌ بَأَن يَكْبُو قَلْمُهُ بِأَنَامِلِهِ ، وَيَنْبُو طَبْعُهُ عَن رَسَائِلِهِ ، إِلَّا أَنْ يُلْقَى إِلَيْهِ
 بِالْمُقَالِيدِ ، أَوْ يَسْتَوْهَبَهُ إِفْلِيدًا مِنَ الْأَقَالِيدِ ، فَيَكُونُ مَنْسُوبًا إِلَيْهِ ، وَمَحْسُوبًا
 عَلَيْهِ ، وَنَازِلًا فِي شِعْبِهِ ، وَأَحَدَ أَصْحَابِهِ وَحِزْبِهِ ، وَشَرَارَةَ نَارِهِ ^(١) ، وَقِرَاطَةَ
 دِينَارِهِ ، وَسَمَلَ ^(٢) بَحْرِهِ ، وَتَمَدَّ غَمْرِهِ ^(٣) . وَهَيْهَاتَ ! ضَاقَ قَتْرُهُ عَن مَسِيرِ .
 لَيْسَ التَّكْحُلُ فِي الْعَيْنَيْنِ كَالْكَحْلِ ، خُلِقُوا أَسْخِيَاءَ لَا مُتَسَاخِينَ ، وَلَيْسَ
 السَّخِيُّ مَنْ يَتَسَاخَى . وَأَخْلَاقُ النَّفْسِ تَلْزِمُهَا لُزُومَ الْأَلْوَانِ ، لِلْأَبْدَانِ ؛
 لَا يَقْدِرُ الْأَبْيَضُ عَلَى السَّوَادِ ، وَلَا الْأَسْوَدُ عَلَى الْبَيَاضِ ، وَلَا الشُّجَاعُ عَلَى الْجُبْنِ ،
 وَلَا الْجُبَانُ عَلَى الشُّجَاعَةِ ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْعَرَزَمِيُّ ^(٤) :

« يَفِرُّ جَبَانُ الْقَوْمِ عَن أُمَّ رَأْسِهِ وَيَحْمِي شُجَاعُ الْقَوْمِ مَنْ لَا يُنَاسِبُهُ
 وَيُرْزَقُ مَعْرُوفَ الْجَوَادِ عَدُوَّهُ وَيُحْرَمُ مَعْرُوفَ الْبَخِيلِ ، أَقَارِبُهُ
 وَمَنْ لَا يَكْفُ الْجَهْلُ عَمَّنْ يُوَدُّهُ فَسَوْفَ يَكْفُ الْجَهْلُ عَمَّنْ يُوَابِتُهُ »
 وَمِنْ أَيْنَ لِلضَّبَابِ ، صَوْبُ السَّحَابِ ، وَلِلْغُرَابِ ، هَدْيُ الْعُقَابِ ؟ وَكَيْفَ ،
 وَقَدْ أَصْبَحَ ذِكْرُهُ فِي مَوَاسِمِ الذِّكْرِ آذَانًا ، وَعَلَى مَعَالِمِ الشُّكْرِ لِسَانًا ^(٥) .
 فَمَنْ دَافَعَ الْعِيَانَ ، وَكَابَرَ الْإِنْسَ وَالْجَانَّ ، وَاسْتَبَدَّ بِالْإِفْكِ وَالْبُهْتَانِ ؛ كَانَ كَمَنْ
 صَالَبَ - بِوَقَاحَتِهِ - الْحَجَرَ ، وَحَاسَنَ - بِقَبَاحَتِهِ - الْقَمَرَ ، وَهَدَى وَهَذَرَ ،
 وَتَعَاطَى فَعَقَرَ ، وَكَانَ كَمَحْمُومٍ بَلَسِمَ فَعَضَرَ ، وَنَادَى عَلَى نَفْسِهِ بِالنَّقْصِ فِي الْبَدْوِ
 وَالْحَضَرِ ، وَكَانَ كَمَنْ قَالَ مَنْ لِعَيْنِهِ ، وَلَا يَشْكُ فِيهِ :

(١) في الأصل : تياره (٢) السمل : جمع سملة ، وهي الماء القليل ، أو بقية الماء في الحوض . وكان في
 الأصل : ستمك (٣) التمد : الماء القليل ، والغمر : الماء الكثير (٤) في الأصل : العزمي
 (٥) ارجع إلى ج ٣ ص ١٩٨

« كَنَا طِيحَ صَخْرَةٍ ، يَوْمًا ، لِيُوهِنَهَا ، فَلَمْ يَضِرْهَا ، وَأَوْهَى قَرْنَهُ الْوَعْلَ ^(١) »

وَرَوَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَزَادَهُ شَرَفًا لَدَيْهِ - قَالَ :
« لَعَنَ اللَّهُ ذَا الْوَجْهَيْنِ ، لَعَنَ اللَّهُ ذَا اللِّسَانَيْنِ ، لَعَنَ اللَّهُ كُلَّ شَقَّارٍ ^(٢) ،
لَعَنَ اللَّهُ كُلَّ قَتَاتٍ ^(٣) . »

في حلب

وَرَدْتُ « حَلَبَ » ظَاهِرَهَا - حَمَاهَا اللَّهُ وَحَرَسَهَا - بَعْدَ أَنْ مُنِيتُ
بِرَبْضِهَا ^(٤) بِالذُّرْخَمِيِّينَ وَأُمِّ حَبْوَكْرَى وَالْفَتَكْرِيِّينَ ^(٥) ، بَلْ رُمِيتُ بِأَبْدَةِ الْآبَادِ ،
وَالدَّاهِيَةِ النَّادِ ، فَلَمَّا دَخَلْتُهَا وَلَمْ تَسْتَقِرَّ بَعْدُ بِي الدَّارُ ^(٦) ، وَقَدْ نَكِرْتُهَا لِفِقْدَانِ
مَعْرِفَةٍ ^(٧) وَجَارٍ ؛ أَنْشَدْتُهَا بِأَكْبَارٍ :

« إِذَا زُرْتُ أَرْضًا بَعْدَ طَوْلِ اجْتِنَابِهَا فَقَدْتُ حَبِيبًا وَبِلَادُ كَمَا هِيَآ »

أَبُو الْقَطِرَانِ وَوَحْشِيَّةُ

كَانَ « أَبُو الْقَطِرَانِ » الْمُرَارِيُّ بْنُ سَعِيدِ الْفُقَيْسِيِّ ^(٨) يَهُودِي ابْنَةَ عَمِّهِ
بِنَجْدٍ ، وَاسْمُهَا « وَحْشِيَّةُ » ، فَاهْتَدَاهَا ^(٩) رَجُلٌ شَامِيٌّ إِلَى بَلَدِهِ ، فَعَمَّمَهُ بَعْدُهَا ،
وَسَاءَهُ فِرَاقُهَا ، فَقَالَ مِنْ قَصِيدَةٍ :

(١) البيت من معلقة الأعشى ، وقبله :

ألست منتبها عن نحت أثلتنا ولست ضارها ما أظت الأبل

(٢) الشقار : الكذاب . (٣) القتات : التمام ، ومن يسمع أحاديث الناس من حيث لا يعلمون ،
سواء أتهم أم لم يتهمها (٤) ريف المدينة : ماحولها (٥) الدرجمين ، وأم حبوكرى ، والفتكرين : أسماء
للداهية ، والمراد أنه أصيب بالأذى (٦) في الأصل « وبعد لم تستقر بي الدار » (٧) معرفة الرجل :
الذين يعرفهم من الناس (٨) هو شاعر غزل ، وقد جاء حديث عنه لأبي العلاء في ج ٣ ص ٢٠٣
(٩) اهتدى العروس إلى بلعها : زفها إليه

«إِذَا تَرَكْتَ» وَخَشِيَّةٌ «النَّجْدَ لَمْ يَكُنْ
رَأَى نَظْرَةً مِنْهَا فَلَمْ يَمْلِكِ الْبُكَاءُ
وَكَانَتْ رِيَّاحُ الشَّامِ تُكْرَهُ مَرَّةً
فَحَصَلَتْ مِنَ الرِّيَّاحِ، عَلَى الرَّبَّاحِ، كَمَا حَصَلَ لِأَبِي الْقَطْرَانِ مِنَ وَخَشِيَّةٍ

ذِكْرُ أَبِي الْعَلَاءِ

تَمَّ وَتَمَّ وَتَمَّ
وَتَمَّ أَجْرِي (١٠٠٠) ^(١) ذِكْرُهُ، مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ جَرَّهُ، وَغَيْرِ مُقْتَضٍ اقْتِضَاهُ. فَقَالَ:
الشَّيْخُ بِالنَّحْوِ أَعْلَمُ مِنْ «سَيَبَوِيهِ»، وَبِاللُّغَةِ وَالْعَرُوضِ مِنَ الْخَلِيلِ. فَقُلْتُ
— وَالْمَجْلِسُ يَأْذُنُ ^(٢): — «بَلْغَنِي أَنَّهُ — أَدَامَ اللَّهُ تَأْيِيدَهُ — يُصَغِّرُ كَبِيرَهُ،
وَيُنْزِرُ كَثِيرَهُ ^(٣)، فَيَصِيرُ تَصْغِيرُهُ تَكْبِيرًا، وَتَحْقِيرُهُ تَكْثِيرًا، وَهَكَذَا
شَاهَدْتُ مَنْ شَاهَدْتُ مِنَ الْعُلَمَاءِ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ أَجْمَعِينَ، وَجَعَلَهُ وَارِثَ أَطْوَلِ
أَعْمَارِهِمْ وَأَمَدِّهَا، وَأَنْضَرَهَا وَأَرْغَدِيهَا، وَمَا تَمَّ لَهُ حَاجَةٌ دَعَتْ إِلَى هَذَا . . .
قَدْ تَفَتَّحَ النُّورُ، وَتَوَضَّحَ النُّورُ، وَأَضَاءَ الصُّبْحُ لِنَدَى عَيْنَيْنِ.

رِسَالَةٌ أَبِي الْفَرَجِ الزَّهْرَجِيِّ ^(٤)

كَانَ أَبُو الْفَرَجِ الزَّهْرَجِيُّ كَاتِبَ حَضْرَةِ نَصْرِ الدَّوْلَةِ — أَدَامَ اللَّهُ حِرَاسَتَهُ —
كَتَبَ رِسَالَةً إِلَى أَعْطَانِيهَا، وَرِسَالَةً إِلَيْهِ — أَدَامَ اللَّهُ تَأْيِيدَهُ — اسْتَوْدَعْنِيهَا،
وَسَأَلَنِي بِإِصْلَاحِهَا إِلَى جَلِيلِ حَضْرَتِهِ. وَ [أَنْ] أَكُونَ نَافِعًا لَا بَاعِثًا، وَمُعْجَلًا

(١) سقط اسم من ذكر أبا العلاء من النسخة التي وصلت إليه، وغفل عنه ابن الفارح في رسالته هذه،
فقال أبو العلاء في جوابه «وقد سقط اسم الذي غلا في... الخ» انظر ج ٣ ص ٢١١ (٢) أذن له:
استمع معجبا، وأذن له أجازته، والمراد أن المجلس أجازته على كلامه. وكان في الأصل: يأزر
(٣) في الأصل: صغيره. ولا يستقيم في الكلام (٤) أقرأ ج ٣ ص ٢١٢

لَا مُوَجَّلَهَا ، فَسَرَقَ عَدِيلِي رَحَلًا لِي ، الرِّسَالَةُ فِيهِ ، فَكَتَبْتُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ
أَشْكُو أُمُورِي ، وَأُبْثُ شُقُورِي ، وَأُطْلِعُهُ طُلُوعَ عَجْرِي وَيَجْرِي ، وَمَا لَقِيتُ
فِي سَفَرِي ، مِنْ أَقْيَوَامٍ يَدْعُونَ الْعِلْمَ وَالْأَدَبَ ، وَالْأَدَبُ أَدَبُ النَّفْسِ ، لَا أَدَبُ
الذَّرْسِ ، وَهُمْ أَصْفَارٌ مِنْهُمَا جَمِيعًا ، وَلَهُمْ تَضْحِيفَاتٌ كُنْتُ إِذَا رَدَدْتُهَا عَلَيْهِمْ
نَسَبُوا التَّضْحِيفَ إِلَيَّ ، وَصَارُوا إِلْبَاءَ عَلَيَّ .

الزهرجى وابن القارح

لَقِيتُ أَبَا الْفَرَجِ الزَّهْرَجِيَّ بِأَمْدٍ ، وَمَعَهُ كُتُبُهُ ، فَعَرَضَهَا عَلَيَّ ، فَقُلْتُ :
كُتُبِكَ هَذِهِ يَهُودِيَّةٌ ، قَدْ بَرَّتْ مِنَ الشَّرِيعَةِ الْخَنِيفِيَّةِ ، فَأَظْهَرَ مِنْ ذَلِكَ إِعْظَامًا
وَإِنْكَارًا ، فَقُلْتُ لَهُ : أَنْتَ عَلَى الْمَجْرَبِ ، وَمِثْلِي لَا يَهْرَفُ بِمَا لَا يَعْرِفُ ،
وَأَبْلُغُ تَيْقَنًا . فَقَرَأَ هُوَ وَوَلَدُهُ ، وَقَالَ : صَغَرَ الْخَبَرَ الْخُبْرُ ^(١) . وَكَتَبَ إِلَيَّ رِسَالَةً
يُقَرِّظُنِي فِيهَا ، بِطَبِيعِ لَهُ كَرِيمٍ ، وَخُلُقٍ غَيْرِ ذَمِيمٍ .

المتنبي ^(٢)

قَالَ الْمَتَنَّبِيُّ : « أَذْمُ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أَهْيَلُهُ » صَغَرَهُمْ تَصْغِيرَ تَحْقِيرِ غَيْرِ
تَكْبِيرٍ ، وَتَقْلِيلِ غَيْرِ تَكْثِيرٍ ، فَفَنَفَتْ مَصْدُورًا ، وَأَظْهَرَ ضَمِيرًا مَسْتُورًا ،
وَهُوَ سَائِعٌ فِي جَبَازِ الشُّعْرِ ، وَقَائِلُهُ غَيْرُ مَمْنُوعٍ مِنَ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ ؛ وَلَكِنَّهُ وَضَعَهُ
غَيْرَ مَوْضِعِهِ ، وَخَاطَبَ بِهِ غَيْرَ مُسْتَحَقِّهِ ، وَمَا يَسْتَحِقُّ زَمَانٌ سَاعِدَهُ بِلِقَاءِ
سَيْفِ الدَّوْلَةِ ، أَنْ يُطْلَقَ عَلَى أَهْلِ الذَّمِّ ، وَكَيْفَ وَهُوَ الْقَائِلُ يُخَاطَبُهُ :
« أَسِيرٌ إِلَى أَقْطَاعِهِ ، فِي ثِيَابِهِ عَلَى طَرَفِهِ ، مِنْ دَارِهِ ، بِحُسَامِهِ »

(١) الخبر : الاختبار (٢) اقرأ ص ٢١٦ ج ٣

وَقَدْ كَانَ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يَجْعَلَهُمْ فِي خِفَارَتِهِ ، إِذْ كَانُوا مَنْسُوبِينَ إِلَيْهِ ،
وَمَحْسُوبِينَ عَلَيْهِ .

الزَّمانُ (١)

وَلَا يَجِبُ أَنْ يَشْكُوَ عَاقِلًا نَاطِقًا إِلَى غَيْرِ عَاقِلٍ وَلَا نَاطِقٍ ، إِذْ « الزَّمانُ
حَرَكَاتُ الْفَلَكَ » إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْأَفْلاكَ تَعْقِلُ وَتَعْلَمُ وَتَقْهَمُ
وَتَدْرِي بِمَوَاقِعِ أفعالِها ، بِقُصُودٍ وَإِرَادَاتٍ ، وَيَحْمِلُهُ هَذَا الْإِعْتِقَادُ عَلَى أَنْ
يُقَرَّبَ لَهَا الْقَرابينَ ، وَيُدَخِّنَ الدَّخْنَ ، فَيَكُونُ مُناقِضًا لِقَوْلِهِ :

« فِتْبًا لِدِينِ عَيْبِدِ النُّجُومِ وَمَنْ يَدَّعِي أَنَّهَا تَعْقِلُ »

أَوْ يَكُونُ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى - فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ - : « مُدْبَذَبِينَ بَيْنَ
ذَلِكَ ، لَا إِلَى هُوَآءٍ ، وَلَا إِلَى هُوَآءٍ » وَيُوشِكُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ صِفَتُهُ

رِوَايَةُ الْقَطْرِ بُلْبُلِيٍّ (٢) وَابْنِ أَبِي الْأَزْهَرِ (٣)

حَكَى الْقَطْرِ بُلْبُلِيٍّ وَابْنُ أَبِي الْأَزْهَرِ فِي تَارِيخِ اجْتِمَاعِ عَلَى تَصْنِيفِهِ - وَأَهْلُ
بَغْدَادَ وَأَهْلُ مِصْرَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ لَمْ يُصَنَّفْ فِي مَعْنَاهُ مِثْلُهُ لِصِغَرِ حَجْمِهِ ، وَكِبَرِ
عِلْمِهِ - أَنَّ الْمُتَنَبِّيَّ أَخْرَجَ بِبَغْدَادَ مِنَ الْحَبْسِ إِلَى مَجْلِسِ أَبِي الْحَسَنِ « عَلِيِّ بْنِ
عِيْسَى » الْوَزِيرِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فَقَالَ لَهُ : « أَنْتَ أَحْمَدُ الْمُتَنَبِّيُّ ؟ » فَقَالَ :
« أَنَا أَحْمَدُ الْمُتَنَبِّيُّ » وَكَشَفَ عَن بَطْنِهِ ، فَأَرَاهُ سَلْمَةً فِيهِ (٤) ، وَقَالَ : « هَذَا طَائِعٌ بُبُوْتِي ،
وَعَلَامَةٌ رِسَالَتِي » فَأَمَرَ بِقَلْعِ جَمَشِكِهِ (٥) وَصَفَعَهُ بِهِ خَمْسِينَ ، وَأَعَادَهُ إِلَى مَجْلِسِهِ .

(١) اقرأ ص ٢٢٤ ج ٣ (٢) القطريلي : منسوب إلى قطر بل الشهيرة بجودة خمرها
(٣) اقرأ ص ٢١٧ ج ٣ (٤) السلعة : زيادة في البدن كالقعدة ، تحرك إذا حركت ، وتكون
بين الجلد واللحم ، وهي من حمصة إلى بطيخة (٥) الجمشك نوع من الخفاف انظر معجم « استنحاس »

وَيَقُولُ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ :

« وَتَغْضَبُونَ عَلَى مَنْ نَالَ رِفْدَكُمْ حَتَّى يُعَاقِبَهُ التَّنْغِيصُ وَالْمِئِنَّ
كَذَبَ وَاللَّهِ ! لَقَدْ كَانَ يَتَحَرَّشُ بِالْمَكَارِمِ ، وَيَتَحَكَّكُ بِهَا ، وَيَحْسُدُ عَلَيْهَا أَنْ
تَكُونَ إِلَّا مِنْهُ ، وَبِهِ !
وَهَذَا غَيْرُ قَادِحٍ فِي طَلَاوَةِ شِعْرِهِ ، وَرَوْنِقِ دِيبَاجَتِهِ .

الزنادقة والملحدون (١)

وَلَكِنِّي أَغْتَاظُ عَلَى الزَّانِدَةِ وَالْمُلْحِدِينَ ، الَّذِينَ يَتَلَاعَبُونَ بِالذِّينِ ، وَيَرْمُونَ
إِدْخَالَ الشُّبُهَةِ وَالشُّكُوكِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَيَسْتَعْذِبُونَ الْقَدْحَ فِي بُبُوَةِ النَّبِيِّينَ ،
صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ، وَيَتَطَرَّفُونَ وَيَبْتَدِئُونَ - إِعْجَابًا بِذَلِكَ الْمَذْهَبِ :
« تَيْهَ مُغْنٌ ، وَظَرْفٌ زَنْدِيقٌ » (٢)

بشار بن برد (٣)

وَقَتَلَ الْمَهْدِيُّ بَشَارًا عَلَى الزَّانِدَةِ ، وَلَمَّا شَهَرَ بِهَا وَخَافَ ، دَافَعَ عَنْ نَفْسِهِ بِقَوْلِهِ :
« يَا بَنَ نَهْيَا » رَأْسِي عَلَى ثَقِيلٍ وَاحْتِمَالُ الرَّأْسَيْنِ عِيبٌ ثَقِيلٌ
فَادْعُ غَيْرِي إِلَى عِبَادَةِ رَبِّيْنِ ، فَإِنِّي بِوَاحِدٍ مَشْغُولٌ »

صالح بن عبد القدوس (٤)

وَأَحْضَرَ « صَالِحَ بْنِ عَبْدِ الْقُدُّوسِ » وَأَحْضَرَ النَّطْعَ (٥) وَالسِّيَافَ ، فَقَالَ :
« عَلَامَ تَقْتُلُنِي ؟ » قَالَ : « عَلَى قَوْلِكَ :

(١) اقرأ ص ٢٢٦ ج ٣ (٢) اقرأ ص ٢٣٠ ج ٣ (٣) ترجمته في ص ١٢٧ ج ٢ ص ٢٢٧ ج ٣

(٤) انظر ص ٢٣٠ ج ٣ (٥) النطع : بساط من جلد

« رَبِّ سِرِّ كَتَمْتُهُ فَكَاثِي
وَلَوْ أَنِّي أَظْهَرْتُ لِلنَّاسِ دِينِي
أَخْرَسْتُهُ ؛ أَوْ تَنَّى لِسَانِي عَقْلٌ
لَمْ يَكُنْ لِي فِي غَيْرِ حَبْسِي - أَكْلٌ »
يَا عُدَىَّ اللَّهُ وَعُدَىَّ نَفْسِيهِ :

السُّتْرُ دُونَ الْفَاحِشَاتِ ، وَلَا
يَلْقَاكَ - دُونَ الْخَيْرِ - مِنْ سِتْرٍ !

فَقَالَ : « قَدْ كُنْتُ زَنْدِيقًا ، وَقَدْ ثُبْتُ عَنِ الزَّنْدَقَةِ ! »
قَالَ : « كَيْفَ ؟ وَأَنْتَ الْقَائِلُ :

« وَالشَّيْخُ لَا يَتْرُكُ عَادَاتِهِ حَتَّى يُوَارِيَ فِي ثَرَى رَمْسِهِ
إِذَا ارْعَوْى عَادَ إِلَى غِيِّهِ كَذِي الضَّنَى عَادَ إِلَى نُكْسِهِ »
وَأَخَذَ غَفْلَتَهُ السِّيَافُ ، فَإِذَا رَأْسُهُ يَتَدَهَدَأُ (١) عَلَى النَّطْعِ ! ...

القصار الأعور

وظَهَرَ فِي أَيَّامِهِ - فِي بَلَدٍ خَلْفَ بُخَارَى وَرَاءَ النَّهْرِ - رَجُلٌ قَصَارٌ أَعُورٌ (٢)
عَمِلَ لَهُ وَجْهًا مِنْ ذَهَبٍ ، وَخُوطِبَ بِرَبِّ الْعِزَّةِ ، وَعَمِلَ لَهُمْ قَمْرًا فَوْقَ جَبَلٍ ،
ارْتِفَاعُهُ فَرَسِيخٌ ، فَأَنْفَذَ الْمَهْدِيُّ إِلَيْهِ ، فَأَحِيطَ بِهِ وَبَقَلَعْتِهِ ، فَحَرَّقَ كُلَّ
شَيْءٍ فِيهَا ، وَجَمَعَ كُلَّ مَنْ فِي الْبَلَدِ ، وَسَقَاهُمْ شَرَابًا مَسْمُومًا ، فَأَتَوْا بِأَجْمَعِهِمْ ،
وَشَرِبَ فَلَحِقَ بِهِمْ ، وَعَجَّلَ اللَّهُ بَرُوجِهِ إِلَى النَّارِ !

(١) دهدأ الحجر ودهداه : دحرجه (٢) ذلك هو ثور بن عميرة ، وقد لقب بالملقع للوجه
الذهبي الذي تراءى به . وقد ادعى الألوهية بطريق التناسخ ، وكان فيما أظهره من دلالاته صورة قرأه في
الجو تشبيهاً وتلبساً ، ويقال إن ذلك القمر الذي خيله للناس كان من عكس شعاع الزئبق .

الصناديق^(١)

وَالصَّنَادِيقُ فِي الْيَمَنِ ، وَكَانَتْ جَبُوشَةَ بِالْمَدِيخْرَةِ وَسَفَهْنَه ، وَخُوطِبَ بِالرُّبُوبِيَّةِ
وَكَوْتِبَ بِهَا ، فَكَانَتْ لَهُ دَارُ إِفَاضَةٍ ، يَجْمَعُ إِلَيْهَا نِسَاءَ الْبَلَدَةِ كُلَّهَا وَيَدْخُلُ
الرِّجَالُ عَلَيْهِنَّ لَيْلًا .

قَالَ مَنْ يُوثِقُ بِخَبْرِهِ : دَخَلْتُ إِلَيْهَا لِأَنْظُرَ ، فَسَمِعْتُ امْرَأَةً تَقُولُ :
« يَا بُنَى ! » فَقَالَ : « يَا أُمَّهُ ، يُرِيدُ أَنْ يُخْضِيَ أَمْرًا وَلِيَّ اللَّهُ فِينَا ! » وَكَانَ يَقُولُ :
« إِذَا فَعَلْتُمْ هَذَا لَمْ يَتَمَيَّزْ مَالٌ مِنْ مَالٍ ، وَلَا وَلَدٌ مِنْ وَلَدٍ ، فَتَكُونُونَ
كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ^(٢) » فَغَزَاهُ « الْحَسَنِيُّ » مِنْ صَنْعَاءَ ، فَهَزَمَهُ ، وَتَحَصَّنَ مِنْهُ فِي
حِصْنٍ هُنَاكَ ، فَأَتَقَدَّ إِلَيْهِ « الْحَسَنِيُّ » طَبِيبًا بِمَبْضِعٍ مَسْمُومٍ ، فَفَصَدَّهُ
بِهِ ، فَقَتَلَهُ .

الوليد بن يزيد^(٣)

وَالْوَلِيدُ بْنُ يُزَيْدَ ، أَقَامَ فِي الْمُلْكِ سَنَةً وَشَهْرَيْنِ وَأَيَّامًا ، وَهُوَ الْقَائِلُ :
« إِذَا مِتُّ يَا أُمَّ الْخُنَيْكِلِ » فَانْكِحِي ، وَلَا تَأْمَلِي بَعْدَ الْفِرَاقِ تَلَاقِيًا
فَإِنَّ الَّذِي حُدِّثْتَهُ مِنْ لِقَائِنَا أَحَادِيثُ طَسَمَ تَتْرُكُ الْعَقْلَ وَاهِيًا
وَرَمَى الْمُصْحَفَ بِالنُّشَابِ ، وَخَرَقَهُ ، وَقَالَ :
« إِذَا مَا جِئْتَ رَبَّكَ يَوْمَ حَشْرِ فَقُلْ : « يَا رَبُّ خَرَقْتِي الْوَلِيدُ^(٤) ! »

(١) ارجع إلى ص ٢٣١ ج ٣ (٢) ارجع إلى (ج «٣» ص «٢٣٢») (٣) ارجع إلى ج ٣
ص «٢٣٦» (٤) يروى له قبل هذا البيت قوله :

« أتوعد كل جبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد »

وكان قد فتح المصحف ذات يوم ليتفاءل به فوجد فيه : « واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد » فاحتدم
غضبه . ومزقه وقال هذين البيتين . وفي رواية أخرى : « فقل : يارب مزقتي الوليد » ارجع إلى كتابنا
« مصارع الخلفاء »

وَأَنْفَذَ إِلَى مَكَّةَ بِنَاءً مَجُوسِيًّا ، لِيَبْنِيَ لَهُ عَلَى الْكَعْبَةِ مَشْرَبَةً ، فَمَاتَ قَبْلَ تَمَامِ ذَلِكَ . فَكَانَ الْحَجَّاجُ يَقُولُونَ : « لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ ، يَا قَاتِلَ الْوَلِيدِ بْنِ زَيْدِ لَبَّيْكَ » .

وَأَحْضَرَ بُنَابِجَةً مِنْ ذَهَبٍ — وَفِيهَا جَوْهَرَةٌ جَلِيلَةٌ الْقَدْرِ — [عَلَى] صُورَةِ رَجُلٍ ، فَسَجَدَ لَهُ وَقَبَّلَهُ ، وَقَالَ : « اسْجُدْ لَهُ يَا عَلِيجُ ! » قُلْتُ : « وَمَنْ هَذَا ؟ » قَالَ : « هَذَا مَانِي ^(١) ، شَأْنُهُ كَانَ عَظِيمًا ، اضْطَحَلَ أَمْرُهُ لِطُولِ الْمُدَّةِ » فَقُلْتُ : « لَا يَجُوزُ السُّجُودُ إِلَّا لِلَّهِ » ، فَقَالَ : « قُمْ عَنَّا » .

*
* *

وَكَانَ يَشْرَبُ عَلَى سَطْحٍ — وَبَيْنَ يَدَيْهِ بَاطِيَةٌ كَبِيرَةٌ بَلُورٌ؛ وَفِيهَا أَقْدَاحٌ ، فَقَالَ لِنُدَمَائِهِ : « أَيْنَ الْقَمَرُ اللَّيْلَةَ ؟ » فَقَالَ بَعْضُهُمْ : « فِي الْبَاطِيَةِ » فَقَالَ : « صَدَقْتَ ، أَتَيْتَ عَلَى مَا فِي نَفْسِي ، وَاللَّهِ لَا أَشْرَبُ الْهَفْتَجَةَ » يَعْنِي شُرْبَ سَبْعَةِ أَسَابِيعَ مُتَابِعَةً . وَكَانَ بِمَوْضِعٍ حَوْلَ دِمَشْقَ يُقَالُ لَهُ « الْبَحْرَا » فَقَالَ : « تَلَعَبَ بِالنُّبُوءَةِ هَاشِمِيٌّ بِلَا وَحْيٍ أَتَاهُ وَلَا كِتَابٍ » فَقَتِلَ بِهَا ، وَرَأَيْتُ رَأْسَهُ فِي الْبَاطِيَةِ الَّتِي أَرَادَ أَنْ يَهْتَجِ بِهَا !

(١) « ماني » هو زعيم الذهب المانوي ومؤسسه ، ظهر في أيام سابور بن أردشير وقتله بهرام بن هرمز بن سابور سنة ٢٧٧ م . وهو يزعم أن العالم مصنوع من أصلين قديمين . هما النور والظلمة وأنهما أزيلان سرمديان . وأنه ما من شيء الا وهو من أصل قديم . وأن الخير كله من النور ، والشر كله من الظلمة ، وقد أشار المتنبي إلى ذلك في قوله يمدح كافور الأخشدي :

« وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر أن المانوية تكذب
وقاك ردى الأعداء — تسرى إليهم — وزارك فيه ذو اللدال المحجب »

أبو عيسى بن الرشيد^(١)

وَأَبُو عَيْسَى بْنُ الرَّشِيدِ ، الْقَائِلُ :

« دَهَانِي شَهْرُ الصَّوْمِ ، لَأَكَانَ مِنْ شَهْرٍ

وَلَا صُمْتُ شَهْرًا بَعْدَهُ آخِرَ الدَّهْرِ

وَلَوْ كَانِ يُعْدِيَنِي الْإِمَامُ بِقُدْرَةٍ

— عَلَى الشَّهْرِ — لَأَسْتَعْدَيْتُ دَهْرِي عَلَى الشَّهْرِ »

عَرَضَ لَهُ فِي وَقْتِهِ صَرَخٌ ، فَمَاتَ ، وَلَمْ يُدْرِكْ شَهْرًا غَيْرَهُ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ !

الجنابي^(٢)

وَالْجَنَابِيُّ ، قَتَلَ بِمَكَّةَ الْوَفَا ، وَأَخَذَ سِتَّةَ وَعِشْرِينَ أَلْفَ حِمْلٍ خَفَاءً ، وَضَرَبَ
آلَاتِهِمْ وَأَثَقَلَهُمْ بِالنَّارِ ، وَاسْتَمَلَكَ مِنَ النِّسَاءِ وَالْعِلْمَانِ ، مَنْ ضَاقَ بِهِمُ الْفَضَاءُ
كَثْرَةً وَوُفُورًا ، وَأَخَذَ حَجَرَ الْمُلتَزِمِ ، وَظَنَّ أَنَّهَا مَغْنَطِيسُ الْقُلُوبِ ، وَأَخَذَ
الْمِيزَابَ ، قَالَ : « وَسَمِعْتُ قَائِلًا يَقُولُ لِغُلَامٍ دُحْمَسَانِ^(٣) طُوَالٍ ؛ يَرْفُلُ فِي
بُرْدِيهِ ، وَهُوَ فَوْقَ الْكَعْبَةِ : « يَا رَحْمَةً ! أَقْلَعُهُ وَأَسْرِعُ^(٤) » (يَعْنِي مِيزَابَ
الْكَعْبَةِ) — فَعَلِمْتُ أَنَّ أَصْحَابَ الْحَدِيثِ صَحَّفُوهُ ، فَقَالُوا : « يَقْلَعُهُ غُلَامٌ
اسْمُهُ « رَحْمَةٌ » . كَمَا صَحَّفُوا عَلِيَّ « عَلِيٌّ » — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — قَوْلُهُ : « تَهْلِكُ

(١) ارجع الى ج «٣» ص «٢٣٧» (٢) ارجع الى ج «٣» ص «٢٣٨»

(٣) شديد السمرة سمين غليظ (٤) ارجع الى ج «٣» ص «٢٤٠» .

البَصْرَةُ بِالرَّيْحِ « فَهَلَكْتَ بِالزَّرْنَجِ »^(١). لِأَنَّهُ قَتَلَ عَلَوِيَّ الْبَصْرَةَ^(٢) فِي مَوْضِعٍ
بِهَا يُقَالُ لَهُ الْعَقِيقُ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرِينَ أَلْفًا ، عَدُّوهُمْ بِالْقَصَبِ ، وَحُرِّقَ جَامِعُهَا .

*
* *

وَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ — يُخَاطِبُ الزَّرْنَجِ — :
« إِنَّكُمْ قَدْ أَعْنَيْتُمْ بِقُبُحِ مَنْظَرٍ ، فَاشْفَعُوهُ بِقُبُحِ مَخْبَرٍ ، اجْعَلُوا كُلَّ عَامِرٍ
قَفْرًا ، وَكُلَّ يَبْتٍ قَبْرًا » .
قَالَ لِي بِدِمَشْقَ « أَبُو الْحَسَنِ الْيَزِيدِيُّ الْوَزِيرَ » : « عَلَى نَسَبِ جَدِّي
دَخَلَ ، وَإِيَاهُ ادَّعَى . . . »

(١) هلاك البصرة بالزنج : في سنة سبع وخمسين ومائتين اكتسح الزنج مدينة « البصرة » عنوة وأتوا
فيها من صنوف الفسوة والبربرية ما يفوق الوصف شناعة ووحشية ! ووقائعهم مفصلة في الطبرى وغيره .
وقد أظهر « ابن الرومي » شناعة « الزنج » ووحشيتهم في ميمية القذة التي وصف فيها دخولهم « البصرة »
وما أتوه فيها من الهول ، وهي قصيدة رائعة فياضة بالشاعرية العالية نختار منها قوله :

بينما أهلها بأحسن حال إذ رمام عبيدم باصطلام
دخلوها كأنهم قطع اللي ل ، إذا راح مدلمم الظلام
أى هول رأوا بهم ! أى هول حق منه يشيب رأس الغلام
إذ رموم بنارم عن يمين وشمال وخلفهم وأمام
كم أغصوا من شارب بشراب كم أغصوا من طاعم بطعام

إلى أن يقول :

عرجا صاحبي بالبصرة الزهراء ، تعريج مدتف ذى سقام
فأسألاها — ولا جواب لديها لسؤال — ومن لها بالكلام
« أين ضواء ذلك الخلق فيها أين أسواقها ذوات الزحام ؟ »

ثم يقول :

« رب قوم باتوا بأجمع شمل تركوا شملهم بغير نظام »

والقصيدة على هذه الوتيرة من دقة الوصف وروعة الأسلوب ، وهي طويلة يجدها القارىء في الجزء الثالث
من « ديوان ابن الرومي » من (ص ٤١٩ — ٤٢٧)

(٢) جرى حديث العلوى البصرى في (ج « ٣ » ص « ٢٣٩ ») .

قال « أبو عبد الله محمد بن علي بن رزايه الطائي الكوفي » :
 « كُنتُ بِمَكَّةَ - وَسَيْفُ الْجَنَابِيِّ قَدْ أَخَذَ الْحَاجَّ - وَرَأَيْتُ رَجُلًا
 مِنْهُمْ قَدْ قَتَلَ جَمَاعَةً - وَهُوَ يَقُولُ : « يَا كِلَابُ ! أَلَيْسَ قَالَ لَكُمْ مُحَمَّدُ
 الْمَكِّيُّ : « مَنْ دَخَلَهُ ^(١) كَانَ آمِنًا » أَيْ أَمِنَ هُنَا ؟ فَقُلْتُ لَهُ : « يَا فَتَى الْعَرَبِ !
 تُوْمِنُنِي سَيْفَكَ ، أَفَسَّرَ لَكَ هَذَا ؟ » قَالَ : « نَعَمْ » قُلْتُ : « فِيهَا خَمْسَةٌ أَجْوِبَةٌ
 الْأَوَّلُ : « مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا مِنْ عَذَابِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وَالثَّانِي « مِنْ الْفَرَضِ
 الَّذِي فَارَضْتُ عَلَيْهِ » وَالثَّلَاثُ : « خَرَجَ خُرُجَ الْخَبْرِ - وَهُوَ يُرِيدُ الْأَمْرَ ،
 كَقَوْلِهِ : وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ » وَالرَّابِعُ : « لَا يُقَامُ عَلَيْهِ الْخُذْفِيَّةُ ،
 إِذَا جَنَى فِي الْحِلِّ » وَالْخَامِسُ : « مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : إِنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا ،
 وَمِيْتَخَطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ » .

فَقَالَ : « صَدَقْتَ ! هَذِهِ اللَّحِيَّةُ إِلَى تَوْبَةٍ ؟ » فَقُلْتُ : « نَعَمْ »
 فَخَلَانِي وَذَهَبَ .

الحلاج^(٢)

وَالْحُسَيْنُ بْنُ مَنْصُورِ الْحَلَّاجِ ، مِنْ نَيْسَابُورَ وَقِيلَ مِنْ « مَرَوْ » يَدْعَى كُلَّ
 عِلْمٍ ؛ وَكَانَ مَهْوَرًا جَسُورًا ، يَرُومُ إِقْلَابَ الدُّوَلِ ، وَيَدْعَى فِيهِ أَصْحَابَهُ الْإِلَهِيَّةَ ،
 وَيَقُولُ بِالْحُلُولِ ، وَيُظْهِرُ مَذَاهِبَ الشَّيْعَةِ لِلْمُلُوكِ ، وَمَذَاهِبَ الصُّوفِيَّةِ
 لِلْعَامَّةِ ، وَفِي تَضَاعِيفِ ذَلِكَ ؛ يَدْعَى أَنَّ الْإِلَهِيَّةَ قَدْ حَلَّتْ فِيهِ ، وَنَظَرَهُ عَلِيُّ بْنُ
 عِيْسَى الْوَزِيرُ ، فَوَجَدَهُ صِفْرًا مِنَ الْعُلُومِ ؛ وَقَالَ : تَعَلَّمْتَ لِطُهُورِكَ وَفَرَضْتَ ،
 أَجْدَى عَلَيْكَ مِنْ رَسَائِلَ ، أَنْتَ لَا تَدْرِي مَا تَقُولُ فِيهَا ، كَمْ تَكْتُبُ إِلَى

(١) يعني البيت الحرام (٢) ارجع إلى (ج ٣) ص (٢٤٢) .

النَّاسِ : « تَبَارَكَ ذُو النُّورِ الشَّعْشَعَانِي الَّذِي يَمَعُ بَعْدَ شَعْشَعَتِهِ » ؟
مَا أَحْوَجَكَ إِلَى آدَبٍ !

حَدَّثَنِي أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ ، قَالَ : « رَأَيْتُ الْحَلَّاجَ وَاقِفًا عَلَى حَلْقَةِ أَبِي بَكْرٍ
الشَّيْبَانِيِّ ، فَنَفَضَ كُمَّهُ فِي وَجْهِهِ وَأَنشَدَ :

« يَا سِرَّ سِرِّ يَدِقُّ حَتَّى يَجِلُّ عَنْ وَصْفِ كُلِّ حَيٍّ
وِظَاهِرًا بَاطِنًا ، تَبَدَّى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، لِكُلِّ شَيْءٍ
يَا جُمْلَةَ الْكُلِّ لَسْتَ غَيْرِي فَمَا اغْتَذَارِي إِذْنٌ إِلَى »

وَهُوَ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْعَارِفَ ، مِنَ اللَّهِ (١) ، بِمَنْزِلَةِ شِعَاعِ الشَّمْسِ ، مِنْهَا بَدَأَ ،
وَإِلَيْهَا يَعُودُ ، وَمِنْهَا يَسْتَمِدُّ ضَوْءَهُ — أَنشَدَنِي « الظَّاهِرُ » لِنَفْسِهِ :

أَرَى جَيْلَ التَّصَوُّفِ شَرَّ جَيْلٍ فَقُلْ لَهُمْ — وَأَهْوَنُ بِالْحُلُولِ :
أَقَالَ اللَّهُ — حِينَ عَشِقْتُمُوهُ — كُلُوا أَكْلَ الْبَهَائِمِ وَارْقُصُوا لِي ؟

وَحَرَكَ يَوْمًا يَدَهُ ، فَانْتَثَرَ — عَلَى قَوْلٍ — مِسْكٌ ، وَحَرَكَ مَرَّةً أُخْرَى ، فَانْتَثَرَ
دَرَاهِمٌ ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ — مِمَّنْ يَفْهَمُ — : « أَرِنِي دَرَاهِمَ [غَيْرِ]

مَعْرُوفَةٍ — أَوْ مِنْ بَيْتِكَ ، وَخَلَقْ مَعِيَ ، إِنْ أُعْطِيتِنِي دِرْهَمًا ، عَلَيْهِ اسْمُكَ
وَاسْمُ أَبِيكَ » فَقَالَ : « وَكَيْفَ هَذَا ، وَهَذَا لَا يُصْنَعُ ؟ » قَالَ : « مَنْ أَحْضَرَ

مَا لَيْسَ بِحَاضِرٍ ؛ صَنَعَ مَا لَيْسَ بِمَصْنُوعٍ ! »

وَكَانَ فِي كُتُبِهِ : « إِنِّي مُغْرَقُ قَوْمِ نُوحٍ ، وَمُهْلِكُ عَادٍ وَثَمُودَ » فَلَمَّا سَاعَ
أَمْرُهُ ، وَعَرَفَ السُّلْطَانُ خَبْرَهُ — عَلَى صِحَّةٍ — وَقَعَ بِضَرْبِهِ أَلْفَ سَوْطٍ ، وَقَطَعَ

(١) فِي الْأَصْلِ : « الْعَارِفُ ابْنُ اللَّهِ »

يَدِيهِ، ثُمَّ أَحْرَقَهُ بِالنَّارِ، فِي آخِرِ سَنَةِ تِسْعٍ وَثَلَاثِينَ، وَقَالَ حَامِدُ بْنُ الْعَبَّاسِ:
«أَنَا أَهْلُكَ» فَقَالَ حَامِدٌ: «الآنَ صَحَّ أَنَّكَ تَدْعِي مَا قُرِفْتَ^(١) بِهِ!»

ابن أبي العزاقر

وَابْنُ أَبِي الْعَزَاقِرِ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ الشَّامِغَانِيِّ. أَهْلُهُ بِقَرْيَةٍ مِنْ
قُرَى وَاسِطٍ تُعْرَفُ بِشَامِغَانَ^(٢)، وَصُورَتُهُ صُورَةُ الْحَلَاجِ، وَيَدْعِي عَنْهُ قَوْمٌ
أَنَّهُ إِلَهٌ، وَأَنَّ اللَّهَ حَلَّ فِي آدَمَ، ثُمَّ فِي شِيثَ، ثُمَّ فِي وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ
وَالْأَوْصِيَاءِ وَالْأَئِمَّةِ، حَتَّى حَلَّ فِي الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ الْعَسْكَرِيِّ، وَأَنَّهُ حَلَّ فِيهِ.
وَكَانَ قَدْ اسْتَعْوَى جَمَاعَةً مِنْهُمْ «ابْنُ أَبِي عَوْنٍ»^(٣) صَاحِبُ كِتَابِ التَّشْبِيهَاتِ،
وَمَعَهُ ضُرِبَتْ عُنُقُهُ، وَكَانُوا يَبْدِئُونَهُ حُرْمَتَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ يَتَحَكَّمُ فِيهِمْ، وَكَانَ
يَتَعَاطَى «الْكِيمِيَاءَ» وَلَهُ كُتُبٌ مَعْرُوفَةٌ.

ابن الراوندي^(٤)

وَكَانَ أَحْمَدُ بْنُ يُحْيَى الرَّاَوْنَدِيُّ، مِنْ أَهْلِ «مَرْوِ الرَّوْزِ» حَسَنَ السِّتْرِ؛
جَمِيلَ الْمَذْهَبِ، ثُمَّ انْسَلَخَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، بِأَسْبَابٍ عَرَضَتْ لَهُ، وَلِأَنَّ عِلْمَهُ
كَانَ أَكْثَرَ مِنْ عَقْلِهِ، وَكَانَ مَثَلُهُ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

(١) أى اتهمت به، من قولهم قرفه بكنا أى أضافه إليه واتهمه به (٢) في معجم البلدان: شلمغان بفتح أوله وسكون ثانيه ثم ميم مفتوحة وغين معجمة وآخره نون. ناحية من نواحي واسط الحجاج، ينسب إليها جماعة من الكتاب منهم أبو جعفر محمد بن علي الشامغاني المعروف بابن أبي العزاقر بفتح العين المهملة والزاى وبعد الألف قاف مكسورة ثم زاء مهمله، وكان يدعى أن اللاهوت حل فيه وله في ذلك مذهب ملعون. (٣) هو إبراهيم بن محمد بن أبي عون كان يدعى في ابن أبي العزاقر الإلهية فأخذها ابن مقلة محمد بن علي وزير القعدة في ذي القعدة سنة ٣٢٢ وقد ذكر صاحب معجم الأدباء قصتهما في أخبار ابن أبي عون وارجع إلى (ص ٢٥٥) ج ٣ من هذا الكتاب (٤) ارجع إلى (ج ٣) ص ٢٦٢

« وَمَنْ يُطِيقُ مُرْدًا ^(١) عِنْدَ صَبْوَتِهِ
وَمَنْ يَكُونُ لِمَسْتُورٍ ^(٢) — إِذَا خَلَعًا ^(٣) »

مصنفات ابن الراوندى

صَفِّ كِتَابَ :

التَّاجُ : يَحْتَجُّ فِيهِ لِقَدَمِ الْعَالِمِ ، فَتَقْضُهُ أَبُو الْحَسَنِ الْخَيَّاطُ .
الزُّمْرُدُ : يَحْتَجُّ فِيهِ لِإِبْطَالِ الرِّسَالَةِ ، تَقْضُهُ الْخَيَّاطُ .
نَعْتِ الْحِكْمَةِ : سَفَّهُ اللَّهِ — تَعَالَى — فِي تَكْلِيفِ خَلْقِهِ أَمْرَهُ ، تَقْضُهُ الْخَيَّاطُ
الدَّامِغُ : يَطْعَنُ فِيهِ عَلَى نَظْمِ الْقُرْآنِ .
الْقَضِيبُ : مُثَبِّتٌ أَنْ عِلْمَ اللَّهِ مُحَدَّثٌ ، وَأَنَّهُ كَانَ غَيْرَ عَالِمٍ ، حَتَّى خَلَقَ
لِنَفْسِهِ عَالِمًا ، تَقْضُهُ الْخَيَّاطُ .

(١) شديد الرغبة ، وفي رواية أخرى «مذك» أى مسن — وهى أجود وأليق (٢) عفيف
(٣) هذا البيت من قصيدة جميلة لمحمد بن يسير الأنصارى . وقد ذكرها صاحب الأمالي
— وفي النسخة المطبوعة بدار الكتب : بشير وهو خطأ — فقال :
قال « عبد الله بن محمد بن يسير » البصرى : « علق أبى جارية لبعض الهاشميين . فبعثت إليه أى تعاتبه .
فكتب إليها الأبيات التالية :

لا تتبعين لوعة — إثرى — ولا هلعا ولا تقاسنِ بعدى — الهم والجزعا
بل انكسى تجدى — إن انكسيت — أسا بمثل ما قد فجعت اليوم — قد فجعا

ما تصنعين بعين عنك طامحة * إلى سواك . وقلب عنك قد نزعا ؟
إن قلت : « قد كنت في ودوتكومة » * فقد صدقت ، ولكن ذاك قد منعا
وأى شيء من الدنيا سمعت به * إلا — إذا صار في غاياته — انقطعا !

لم تبق عينا « حسين » عند لحظهما * لغيرها في فؤادى بعدها طمعا
وهل يطاق مُذِكُّ — عند صبوته ؟ * ومن يقوم لمستور — إذا خلعا ؟

الفريد: في الطعن على النبي، عليه الصلاة والسلام.
المرجان: في اختلاف أهل الإسلام.

احتضار ابن الرومي^(١)

مثال من طبرته

علي بن العباس بن جريج الرومي:

قال أبو عثمان الناجم: دخلت عليه في عِلته التي مات فيها، وعند رأسه جامٌ — فيه ماءٌ مثلوجٌ، وخنجبرٌ مجردٌ، لو ضرب به صدرٌ، خرج من ظهر — فقلتُ: « ما هذا؟ » قال: « الماء، أبلُّ به حلقِي، فقاما يموتُ إنسانٌ إلا وهو عطشانٌ؛ واخنجبرُ، إن زاد على الألم، نحرَّتْ نفسي » ثم قال: « أقصُ عليك قصتي، تستدلُّ بها على حقيقة تلي! أردتُ الانتقال من الكرخ إلى باب البصرة، فساورتُ صديقنا أبا الفضل، وهو مُشتقٌّ من الإفضال، فقال: إذا جئت القنطرة؛ فخذ علي يمينك، وهو مُشتقٌّ من اليمن، واذهب إلى سكة النعيم، وهو مُشتقٌّ من النعيم، فاسكن دار ابن العافي، وهو مُشتقٌّ من العافية، فخالفته لتعسي ونحسي!

فساورتُ صديقنا جعفرًا — وهو مُشتقٌّ من الجوع والفرار — فقال: « إذا جئت القنطرة، فخذ علي شمالك، وهو مُشتقٌّ من الشؤم، واسكن دار ابن قلابة، وهي هذه، لا جرمَ قد انقلبتُ بي الدنيا. وأضرُّ ما على العصافير، في هذه السدرة، تصيح « سيق، سيق » فهأنأ في السيق! »

(١) ارجع إلى ج ٣ ص ٢٦٥

ثُمَّ أَنشَدَنِي :

« أَبَا عُمَانَ ! أَنْتَ قَرِيعُ قَوْمِكَ ، وَجُودُكَ لِلْعَشِيرَةِ دُونَ لَوْمِكَ
تَمَتَّعَ مِنْ أَخِيكَ ، فَمَا أَرَاهُ يَرَاكَ ، وَلَا تَرَاهُ بَعْدَ يَوْمِكَ »

وَأَلْحَقَ بِهِ الْبَوْلُ ، فَقُلْتُ لَهُ : « الْبَوْلُ مُلِحٌّ بِكَ » فَقَالَ :

« غَدًا يَنْقَطِعُ الْبَوْلُ وَيَأْتِي الْوَيْلُ وَالْعَوَلُ

أَلَا إِنَّ لِقَاءَ اللَّهِ هَوْلٌ - دُونَهُ الْهَوْلُ »

وَمَاتَ مِنَ الْعَدِي . فَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ هَذَا الْقَوْلُ تَوْبَةً لَهُ مِمَّا كَانَ اعْتَقَدَهُ
مِنْ ذَنْبِ نَفْسِهِ ! وَالرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ : « مَنْ وَجَأَ نَفْسَهُ
بِحَدِيدَةٍ حُسْرَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَحَدِيدَتُهُ بِيَدِهِ يَجَأُ بِهَا نَفْسَهُ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِي النَّارِ !
مَنْ تَرَدَّى مِنْ شَاهِقِ حُسْرَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَتَرَدَّى عَلَى مِنْخَرِيهِ فِي النَّارِ خَالِدًا
مُخَلَّدًا ! مَنْ تَحَسَّى سُمًّا حُسْرَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسُمُّهُ بِيَدِهِ يَتَحَسَّاهُ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِي النَّارِ ! »

أبو تمام^(١)

قَالَ الْحَسَنُ بْنُ رَجَاءِ الْكَاتِبِ : « جَاءَنِي أَبُو تَمَّامٍ إِلَى خُرَّاسَانَ ، فَبَلَغَنِي أَنَّهُ
لَا يُصَلِّي ، فَوَكَلْتُ بِهِ مِنْ لَازِمِهِ أَيَّامًا ، فَلَمْ يَرَهُ صَلَّى يَوْمًا وَاحِدًا ، فَعَاتَبْتُهُ ،
فَقَالَ : « يَا مَوْلَايَ ! قَطَعْتُ إِلَى حَضْرَتِكَ مِنْ بَغْدَادَ ، فَاحْتَمَلْتُ الْمَشَقَّةَ ،
وَبَعْدَ الشَّقَّةِ ، وَلَمْ أَرَهُ يَثْقُلُ عَلَيَّ ، فَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ الصَّلَاةَ تَنْفَعُنِي ، وَتَرَكْتُهَا
يَضُرُّنِي ، مَا تَرَكْتُهَا ! » فَأَرَدْتُ قَتْلَهُ ، فَخَشِيتُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَيَّ غَيْرِ هَذَا »

المعتصم

وَفِي تَارِيخِ كَثِيرَةٍ : أَنَّهُ أَحْضَرَ الْمَازِيَارَ إِلَى الْمُعْتَصِمِ ، وَقَبْلَ قُدُومِهِ يَوْمٍ

(١) انظر ترجمته (في « ٢٠٣ ص ١٤٣ »)

سَخِطَ عَلَى « الْأَفْشِينِ » لِأَنَّ الْقَاضِيَ ابْنَ أَبِي دُوَادٍ قَالَ لِلْمُعْتَصِمِ : « أَغْرَلُ (١) وَيَطَأُ امْرَأَةً عَرَبِيَّةً ! وَهُوَ كَاتِبَ الْمَازِيَارِ ، وَزَيْنٌ لَهُ الْعِصْيَانُ » فَأَحْضَرَ كَاتِبَهُ وَهَدَدَهُ الْمُعْتَصِمُ ، فَأَقْرَأَ أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى الْمَازِيَارِ : « لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي الْعَصْرِ بَلِيَّةٌ إِلَّا أَنَا وَأَنْتَ وَبَابُكَ ، وَقَدْ كُنْتُ حَرِيصًا عَلَى حَقْنِ دَمِهِ حَتَّى كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ ، وَلَمْ يَبْقَ غَيْرِي وَغَيْرِكَ ، وَقَدْ تَوَجَّهَ إِلَيْكَ عَسَاكِرُ مِنْ عَسَاكِرِ الْقَوْمِ ، فَإِنْ هَزَمْتَهُ ، وَثَبْتُ أَنَا بِمَلِكِهِمْ فِي قَرَارَةِ دَارِهِ ، فَظَهَرَ الدِّينُ الْأَيْضُ » فَأَجَابَهُ الْمَازِيَارُ بِجَوَابٍ هُوَ عِنْدَهُ [فِي] سَفْطِ أَحْمَرَ .

فَجَمَعَ بَيْنَ الْأَفْشِينِ وَالْمَازِيَارِ ، فَاعْتَرَفَ الْمَازِيَارُ بِمَا حُكِيَ عَنْهُ ، وَقِيلَ لِلْمُعْتَصِمِ : إِنَّ وَرَاءَ الْمَازِيَارِ مَالًا جَلِيلًا ، فَأَنْشَدَ :

إِنَّ الْأَسْوَدَ الْأَسْوَدَ الْغَابِ هَمَّتْهَا
يَوْمَ الْكَرِيمَةِ فِي الْمَسْئُوبِ لَا السَّلْبِ
ذَكَرُوا أَنَّ اثْنَيْنِ قَتَلُوا ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَخَمْسَمِائَةَ ذَبَّاحِ بِالشَّيَابِ الْحُمْرِ
وَإِلْخَنَاجِرِ الطُّوَالِ ، وَأَنَّهُمْ وَجَدُوا أَسْمَاءَهُمْ فِي وَقْعَةٍ وَقَعَةٍ ، وَفِي بَلَدِ بَلَدٍ ،
وَكَانُوا يَأْخُذُونَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ عِلَامَةً خَاتَمِهِ أَوْ ثَوْبِهِ أَوْ مِنْدِيلِهِ أَوْ تَكْتِهِ .
أَتَى الْوَادِي فَطَمَّ عَلَى الْقَرِيَّ !

جعفر بن محمد

قَدْ ظَهَرَ بِالْبَصْرَةِ مَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ — عَلَيْهِمَا السَّلَامُ — وَأَنَّهُ مُتَّصِلٌ بِهِ ، وَرُوحُهُ فِيهِ ، وَمُتَّصِلَةٌ بِهِ !

وَلَوْ اسْتَقْصَيْتُ الْقَوْلَ فِي هَذَا الْفَنِّ لَطَالَ جِدًّا ، وَلَكِنْ :
لَا بُدَّ لِلْمَصْدُورِ أَنْ يَنْفُشَا وَالَّذِي فِي الصَّدْرِ أَنْ يُبْعَثَا

(١) أى لم يفتن ، والأعاجم لا تحتن . والمراد استفظاع أن يتزوج من العربية أعجمي .

بَلْ لَوْ قُلْتُ كُلَّ مَا أَعْلَمُهُ، أَكَلْتُ زَادِي فِي مَجْبِسِي، بَلْ كُنْتُ أَنْشِدُ :
 أَحْمَلُ رَأْسًا قَدْ مَلَّتْ حَمَلَهُ أَلَا فَيَّ يَحْمِلُ عَنِّي ثِقَلَهُ^(١)
 وَأَسْتَرِيحُ إِلَى أَنْ أَنْشِدَ :

لَيْسَ يَشْفِي كَلُومَ غَيْرِي كَلُومِي مَا بِهِ مَا بِهِ، وَمَا بِي مَا بِي

شكوى الزمان

إِنْ شَكَوْتُ الْعَصْرَ وَأَحْكَامَهُ، وَذَمَّمْتُ صُرُوفَهُ وَأَيَّامَهُ، شَكَوْتُ مَنْ
 لَا يُشْكِي أَبَدًا، وَذَمَّمْتُ مَنْ لَا يُرْضِي أَحَدًا. شِيمَتُهُ اصْطِفَاءُ اللَّثَامِ، وَالتَّحَامُلُ
 عَلَى الْكِرَامِ؛ وَهَمَّتُهُ رَفْعُ الْوَصِيحِ، وَوَضْعُ الْفَاضِلِ الرَّفِيعِ؛ إِذَا سَمَّحَ بِالْحَبَاءِ^(٢)،
 فَأَبْشِرْ بِوَشْكِ الْاِقْتِضَاءِ. وَإِذَا أَعَارَ، فَأَحْسِبْهُ قَدْ أَعَارَ؛ فَمَا بَيْنَ أَنْ يُقْبَلَ
 عَلَيْكَ مُسْتَبْشِرًا، وَيَتَوَلَّى عَنْكَ مُتَجَهِّمًا مُسْتَشِرًا، إِلَّا كَلَامُ صِجِّ الْبَصْرِ، وَاسْتِطَارَةُ
 الشَّرْرِ. لَمْ يَخْتَرِقْ ذِكْرُ الْوَفَاءِ مَسَامِعَهُ، وَلَمْ يَمَسَّ مَاءَ الْحَيَاءِ مَدَامِعَهُ،
 ظَاهِرُهُ يَسْرٌ وَيُونُسٌ، وَبَاطِنُهُ يَسُوءٌ وَيُونُسٌ، يُحْتَبُّ ظَنُّ رَاجِيهِ، وَيُكَذَّبُ
 أَمَلُ عَافِيهِ؛ لَا يَسْمَعُ الشُّكْوَى، وَيَسْمَتُ بِالْبَلْوَى. قَدْ ذَمَّمْتُ سَيِّئًا وَوَقَعْتُ

(١) هذا من رجز الشاعرة البرزة « أم حكيم » وهي من شواعر « الخوارج » ومن يضرب بهن المثل
 في الإيقدام والشجاعة، كانت تحمل على الناس وترتجز :

« أَحْمَلُ رَأْسًا، قَدْ مَلَّتْ حَمَلَهُ وَقَدْ مَلَّتْ دَهْنَهُ وَغَسَلَهُ

أَلَا فَيَّ يَحْمِلُ عَنِّي ثِقَلَهُ ؟ »

وفيها يقول « قطري بن الفجاءة » ميمته المشهورة :

« لِعَمْرِي إِنِّي فِي الْحَيَاةِ لَزَاهِدٌ وَفِي الْعَيْشِ - مَا لَمْ أَلْقُ أُمَّ حَكِيمٍ ؟

مِنَ الْخَفَرَاتِ الْبَيْضِ - لَمْ يَرِ مِثْلَهَا شَفَاءٌ لَدَى بَثِّ، وَلَا لِسَقِيمٍ

لِعَمْرِكَ إِنِّي - يَوْمَ أَلْطَمَ وَجْهَهَا عَلَى نَائِبَاتِ الدَّهْرِ - جَدِّ لَيْمٍ »

(٢) في الأصل : الحياء

فِيهِ ، أَنَا كَالْعَرِيقِ يَطْلُبُ مُعْلِقًا ، وَالْأَسِيرِ يَنْدُبُ مُطْلَقًا !

وَأَسْتَحْسِنُ قَوْلَ عَلِيِّ بْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ جُرَيْجِ الرَّوْمِيِّ :

« أَلَا لَيْسَ شَيْبِكَ بِالْمُنْتَزِعِ فَهَلْ أَنْتَ عَنْ غِيَّةٍ مُرْتَدِعُ ؟

وَهَلْ أَنْتَ تَبَارِكُ شِكْوَى الزَّمَانِ إِذَا شِئْتَ تَشْكُو إِلَى مُسْتَمِعِ ؟

فَشَيْبُ أَخِي الشَّيْبِ أُمْنِيَّةٌ إِذَا مَا تَنَاهَى إِلَيْهَا هَلَعٌ ^(١) »

عزوف ابن القارح عن الغواني

كُنْتُ فِي حَالِ الْحَدَاثَةِ : أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيَّ ، وَأَعَزُّهُمْ عَلَيَّ ، وَأَقْرَبُهُمْ عِنْدِي

مَنْزِلَةً ، وَأَجْلُهُمْ فِي نَفْسِي مَرَّتَبَةٌ — مَنْ قَالَ لِي : « نَسَأَلُكَ ^(٢) اللَّهُ فِي أَجْلِكَ ،

وَجَعَلَ اللَّهُ لَكَ أَمَدَ الْأَعْمَارِ وَأَطْوَلَهَا » فَلَمَّا بَلَغْتُ عَشْرَ الثَّمَانِينَ ، جَاءَ الْجُزْعُ

وَالْهَلَعُ ، فَمِمَّ أَرْتَاعُ وَالْتِمَاعُ ، وَاخْلُدُ إِلَى الْأَطْمَاعِ ، وَهُوَ الَّذِي كُنْتُ أَتَمَنَّى ،

وَيَتَمَنَّى لِي أَهْلِي ؟ أَمِنْ صُدُوفِ الْغَوَانِي عَنِّي ؟ فَأَنَا وَاللَّهِ عَنْهُمْ أَصْدَفُ ، وَبَيْنَ

وَبَادُوَاهِمِ أَعْرَفُ ، إِذْ لَسْتُ مِمَّنْ يُنْشِدُ تَحْسُرًا عَلَيْهِنَّ قَوْلَ الشَّاعِرِ :

لِلسُّودِ فِي السُّودِ آثَارٌ تَرَكْنَ بِهَا لَمَعًا مِنَ الْبَيْضِ تَثْنِي أَعْيُنَ الْبَيْضِ

وَقَوْلِ الْآخِرِ :

وَلَمَّا رَأَيْتُ النَّسْرَ عَزَّ ابْنَ دَايَةَ وَعَشَّشَ فِي وَكْرِيهِ جَاشَتْ لَهُ نَفْسِي

(١) ومن أجل ما في تلك القصيدة قوله :

وطول البقاء حبيب الفقى ولكن بأى مقيت شفيع ؟

إذا المرء طالت به مدة علا الشيب مفرقه أو صلح

وفي هذه الأبيات تلخيص رائع ، لقصة الخالدين التي يراها الفارسي في الجزء الثالث من رحلات جلفر .

(٢) في الأصل : نسأل .

وَلَا أَنْشِدُ لِأَبِي عُبَادَةَ الْبُحْتَرِيِّ :

إِنَّ أَيَّامَهُ مِنَ الْبَيْضِ بَيْضٌ مَا رَأَيْتُ الْمَفَارِقَ السُّودَ سُوْدَا
وَإِذَا الْمُحَلُّ ثَارَ ، ثَارُوا غِيُوْتَا وَإِذَا النَّقْعُ ثَارَ ، ثَارُوا اسودَا
يُحْسِنُ الذِّكْرَ عَنْهُمْ وَالْأَحَادِي مَثُ إِذَا حَدَّثَ الْحَدِيدُ الْحَدِيدَا
بَلَدُهُ تُنْبِتُ الْمُعَالِي ، فَمَا يَشَّ غُرُ الطُّفْلِ فِيهِمْ أَوْ يَسُوْدَا (١)

وَهَذِهِ صِفَةٌ مَعْرُورَةٌ النُّعْمَانِ بِهِ — أَدَامَ اللَّهُ تَأْيِيدَهُ — لَا خَلَّتْ مِنْهُ ، وَمِنْ
النُّعْمَةِ عَلَيْهِ وَعِنْدَهُ . فَقَدْ وَجَدْتُ أَهْلَهَا مُعْتَرِفِينَ بِعَوَافِيهِ ، خَلَا أَبِي الْعَبَّاسِ
أَحْمَدَ بْنَ خَلْفِ الْمُتَمِيعِ ، أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ . فَإِنِّي وَجَدْتُ آثَارَ تَفَضُّلِهِ عَلَيْهِ ظَاهِرَةً ،
وَلِسَانَهُ رَطْبًا بِذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ ، وَقَدْ مَلَأَ السَّمَاءَ دُعَاءً ، وَالْأَرْضَ ثَنَاءً .

قريش والنبي

قَالَتْ قُرَيْشٌ لِلنَّبِيِّ — عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ — : « أَتَبَاعُكَ مِنْ هَؤُلَاءِ
الْمَوَالِي ، كِبَالَالِ وَعَمَّارٍ وَصُهَيْبِ ، خَيْرٌ مِنْ قُصَيِّ بْنِ كِلَابٍ ، وَعَبْدِ مَنَافٍ ،
وَهَاشِمٍ ، وَعَبْدِ شَمْسٍ ؟ » فَقَالَ : « نَعَمْ ! وَاللَّهِ لَئِنْ كَانُوا قَلِيلًا لَيَكْثُرُنَّ ، وَلَئِنْ
كَانُوا ضَعْفَاءَ لَيَشْرَفُنَّ ، حَتَّى يَصِيرُوا نُجُومًا يُهْتَدَى بِهِمْ وَيُقْتَدَى ، فَيُقَالُ :
« هَذَا قَوْلُ فُلَانٍ ، وَذِكْرُ فُلَانٍ » فَلَا تُفَاخِرُونِي بِآبَائِكُمُ الَّذِينَ مُوتُوا فِي
الْجَاهِلِيَّةِ ، فَلَمَّا يَدْهَدُهُ الْجَعْلُ يَمْنَحِرُهُ ، خَيْرٌ مِنْ آبَائِكُمُ الَّذِينَ مُوتُوا فِيهَا ،

(١) يشعر : يثبت ثمره . والبيت من قصيدة للبحترى أولها :

« إنما الفى أن تكون رشيدا فاتقوا من ملامة ، أو فريدا
خياه وجدة اللهو — ما دا م رداء الشباب غضا جديدا »

فَاتَّبَعُونِي ، أَجْعَلْكُمْ أَنْسَابًا . وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَتَقْتَسِمُنَّ كُنُوزَ كَسْرَى
وَقَيْصَرَ ! »

فَقَالَ لَهُ عَمَّهُ أَبُو طَالِبٍ : « أَبْقِ عَلَيَّ وَعَلَى نَفْسِكَ »
فَظَنَّ — عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ — أَنَّهُ خَاذِلُهُ وَمُسْلِمُهُ ، فَقَالَ :
« يَا عَمَّ ! وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي ، وَالْقَمَرَ فِي شِمَالِي ، عَلَى أَنْ
أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ ، أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ ، مَا تَرَكْتُهُ »
ثُمَّ اسْتَعْبَرَ بِأَكْيَا ، ثُمَّ قَامَ ، فَلَمَّا وَلَّى ، نَادَاهُ : « أَقْبِلْ يَا بَنَ أَخِي ! » فَأَقْبَلَ ،
فَقَالَ : « أَذْهَبُ وَقُلُّ مَا شِئْتِ ، فَوَاللَّهِ لَا أَسْأَلُكَ لِسُوءِ أَبْدَأُ » فَكَانَ — عَلَيْهِ
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ — يَذْكُرُ يَوْمًا ، مَا لَقِيَ مِنْ قَوْمِهِ مِنَ الْجُهْدِ وَالشَّدَّةِ ، قَالَ :
« لَقَدْ مَكَثْتُ أَيَّامًا ، وَصَاحِبِي هَذَا — يُشِيرُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ — بِضِعِّ عَشْرَةِ لَيْلَةٍ ،
مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا الْبَرِيرُ^(١) فِي شَعْفِ الْجِبَالِ ! »

صبر الصحابة

عاقبة الصبر

وَكَانَ عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ يَقُولُ — إِذَا ذَكَرَ الْبَلَاءَ وَالشَّدَّةَ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا
بِمَكَّةَ — : « لَقَدْ مَكَثْنَا زَمَانًا ، مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الْبَشَامِ ، أَكَلْنَاهُ حَتَّى

ومنها :

« إن في السرب — لو يساعدا السر ب — شومسا يمشين مشيا وثييدا
يتدافعن بالأكف ويعرضن علينا عوارضا وخذودا »
إلى أن يقول :

« ذات حسن لو استزادت من الحسد بن إليه ، لما أصابت مزيدا »

(١) البرير: الأول من ثمر الأراك، وفي الأصل: البربر (٢) في الأصل: شعب . وشعف الجبال: رءوسها

تَفَرَّحَتْ أَشَدَّ أَقْنًا . وَلَقَدْ وَجَدَتْ يَوْمَ تَمْرَةَ ، فَجَعَلَتْهَا يَدِي وَبَيْنَ سَعْدٍ ، وَمَا مِنَّا
الْيَوْمَ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ أَمِيرٌ عَلَى كُورَةٍ .

وَكَانُوا يَقُولُونَ - فِيمَنْ وَجَدَ تَمْرَةَ ، فَجَعَلَهَا يَدِيهِ وَبَيْنَ صَاحِبِهِ - : « إِنَّ
أَسْعَدَ الرَّجُلَيْنِ مَنْ حَصَلَتِ النَّوَاةُ فِي قِسْمِهِ ، يَلُوكَهَا يَوْمَهُ وَلَيْلَتَهُ ، مِنْ
عَدَمِ الْقُوَّةِ » .

وَكَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « لَقَدْ رَعَيْتُ غُنِيَّاتِ
أَهْلِ مَكَّةَ لَهُمْ بِالْقَرَارِيطِ »

بدء الدعوة

وَابْتِدَاءُ أَمْرِهِ ، أَنَّهُ وَقَفَ عَلَى الصَّفَا ، وَنَادَى : « يَا صَبَاحَاهُ ! »

فَجَاءُوا يَهْرَعُونَ ، فَقَالُوا : « مَا دَهَمَكَ ؟ مَا طَرَقَكَ ؟ »

قَالَ : « بِمَ تَعْرِفُونَنِي ؟ » قَالُوا : « مُحَمَّدُ الْأَمِينُ »

قَالَ : « أَرَأَيْتُمْ ، إِنْ قُلْتُ لَكُمْ : إِنْ خَيْلًا قَدْ طَرَقَتْكُمْ فِي الْوَادِي ؛
وَإِنْ عَسَاكِرًا قَدْ غَشِيَتْكُمْ مِنَ الْفَجِّ ؛ أَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونَنِي ؟ » قَالُوا : « اللَّهُمَّ
نَعَمْ ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا قَطُّ ! » قَالَ : « فَإِنَّ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ ، لَيْسَ لِلَّهِ ،
وَلَا مِنَ اللَّهِ ، وَلَا يَرْضَاهُ اللَّهُ ! قُولُوا : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » وَاشْهَدُوا أَنِّي رَسُولُهُ ،
وَاتَّبِعُونِي تُطِيعَكُمُ الْعَرَبُ ، وَتَمْلِكُوا الْعَجَمَ ، وَإِنَّ اللَّهَ قَالَ لِي : اسْتَخْرِجْهُمْ
كَمَا اسْتَخْرِجُوكَ ، وَابْعَثْ جَيْشًا أَبْعَثْ خَمْسَةَ أَمْثَالِهِ ، وَضَمِّنْ لِي أَنَّهُ يُنْصِرُنِي
بِقُوِّمِ مِنْكُمْ ؛ وَقَالَ لِي : « قَاتِلْ بَيْنَ أَطَاعِكَ مَنْ عَصَاكَ » وَضَمِّنْ لِي أَنَّهُ
يَغْلِبُ سُلْطَانِي سُلْطَانَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ » .

ثُمَّ إِنَّهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - غَزَا تَبُوكَ فِي ثَلَاثِينَ أَلْفًا، وَهَذَا مِنْ
 قِبَلِ اللَّهِ، الَّذِي يَجْعَلُ مِنْ لَأَشَىءٍ، كُفْلَ شَيْءٍ، وَيَجْعَلُ كُفْلَ شَيْءٍ، لَأَشَىءٍ،
 يَجْمَدُ الْمَائِعَاتِ، وَيُمِيعُ الْجَامِدَاتِ، يُجْمَدُ الْبَحْرُ، ثُمَّ يَفْجُرُ الصَّخْرَ. وَمَا مِثْلُهُ
 فِي ذَلِكَ إِلَّا كَمِثْلِ مَنْ قَالَ: « هَذِهِ الرَّجَاةُ الرَّقِيقَةُ السَّخِيفَةُ أَحْكُ بِهَا هَذِهِ
 الْجِبَالُ الصَّلْدَةُ الصُّلْبَةُ الْمُتَيْفَةُ فَتَرُضُّهَا وَتَفْضُضُهَا. وَهَذِهِ النَّمْلَةُ الضَّعِيفَةُ اللَّاطِيفَةُ،
 تَهْزِمُ الْعَسَاكِرَ الْكَثِيرَةَ » وَذَا حَقِيقَةُ أَمْرِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -
 حَتَّى لَقَدْ قَالَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ لِقُرَيْشٍ؛ وَكَانَ رَسُولُهُمْ إِلَيْهِ - صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْحُدَيْبِيَّةِ: « لَقَدْ وَرَدْتُ عَلَى النَّجَّاشِيِّ، وَكَسَرْتِي، وَقَيْصَرَ،
 وَرَأَيْتُ جُنْدَهُمْ وَأَتْبَاعَهُمْ، فَمَا رَأَيْتُ أَطْوَعَ وَلَا أَوْقَرَ وَلَا أَهْيَبَ مِنْ أَصْحَابِ
 مُحَمَّدٍ مُحَمَّدٍ، هُمْ حَوْلَهُ وَكَانَ الطَّيْرُ عَلَى رُؤُوسِهِمْ، فَإِنْ أَشَارَ بِأَمْرٍ، بَادَرُوا إِلَيْهِ،
 وَإِنْ تَوَضَّأَ، افْتَسَمُوا وَضُوءَهُ، وَإِنْ تَنَحَّمَ دَلَكُوا بِالنَّخَامَةِ وَجُوهَهُمْ
 وَخَلَاهُمْ وَجَلُودَهُمْ. »

وَكَانُوا لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ أَطْوَعَ مِنْهُمْ فِي حَيَاتِهِ، حَتَّى لَقَدْ قَالَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ:
 « لَا تَسُبُّوا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ، فَإِنَّهُمْ أَسْلَمُوا مِنْ خَوْفِ اللَّهِ، وَأَسْلَمَ النَّاسُ مِنْ
 خَوْفِ أَسْيَافِهِمْ. »

فَتَأَمَّلْ كَيْفَ اسْتَفْتَحَ دَعْوَتَهُ - وَهُوَ ضَعِيفٌ وَحْدَهُ - بِأَنَّ هَذَا سَيَكُونُ،
 فَرَأَهُ الْعَدُوُّ وَالْوَلِيُّ، وَمَا كَانَ مِثْلَهُ فِي ذَلِكَ إِلَّا مِثْلَ مَنْ قَالَ: « هَذِهِ الْهَبَاءَةُ
 تَصِيرُ جَبَلًا يَعْطَى الْأَرْضَ كُلَّهَا » ثُمَّ أَنْذَرَ النَّاسَ بِهَا، فِي حَالِ ضَعْفِهَا !

العبدريّ والنبي

وَجَاءَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَوْمًا ، لِيَدْخُلَ الْكَعْبَةَ ، فَدَفَعَهُ «عُمَانُ
ابْنُ طَلْحَةَ الْعَبْدَرِيُّ» فَقَالَ : «لَا تَفْعَلْ يَا عُمَانُ ، فَكَانَتْ بِمِفْتَاحِهَا بِيَدِي ،
أَضَعُهُ حَيْثُ شِئْتُ» فَقَالَ : «لَقَدْ ذَلَّتْ يَوْمَئِذٍ قُرَيْشٌ وَقَلَّتْ» قَالَ : «بَلْ
كَثُرَتْ وَعَزَّتْ» .

مساوي الدنيا

وَأَنَا أَسْتَعِينُ بِعِصْمَةِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ ، وَأَجْعَلُهُمَا مُعِينَتِي عَلَى دَفْعِ شَهْوَاتِي ،
وَأَشْكُو إِلَيْهِ عُكُوفِي عَلَى الْأَمَانِي ، وَأَسْأَلُهُ فَهَمًا لِمَوَاعِظِ عِبَرِ الدُّنْيَا ، فَقَدْ
عَمِيَتْ عَن كُلِّ مِمَّ غَيْرِهَا بِمَا جِئْتُ^(١) عَلَى خَوَاطِرِي مِنَ الشَّغْفِ ، وَلَسْتُ أَجِدُ
مِنِّي مُنْصِفًا لِي مِنْهَا ، وَلَا حَاجِزًا لِرَغْبَتِي فِيهَا عَنْهَا ، وَأَيْنَ وَدَائِعُ الْعُقُولِ ،
وَخَزَائِنُ الْأَفْهَامِ ؟

يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ! صَفَحْنَا عَن مَسَاوِي الدُّنْيَا إِنْغَمَاضًا لِعَاجِلِ مُوَفَّقِي
التَّنْغِيصِ ، تَرْمِي إِلَيْهِ يَدُ الزَّوَالِ ، وَتَكْمُنُ لَهُ الْآفَاتُ !
قَالَ كَثِيرٌ :

« كَأَنَّ أَنَا جِي صَخْرَةَ — حِينَ أَعْرَضَتْ —

مِنَ الصَّمِّ ، لَوْ تَمَشَّى^(٢) بِهَا الْعُصْمُ زَلَّتِ »
وَأَقُولُ عَلَى مَذْهَبِ « كَثِيرٍ » : « يَا دُنْيَا ! فِي كُلِّ لَحْظَةٍ لَطَرَفِي مِنْكَ
عِبْرَةٌ ، وَفِي كُلِّ فِكْرَةٍ لِي مِنْكَ حَسْرَةٌ . يَا مَرْتَقَةَ الصَّفَا ، وَيَا نَاقِضَةَ عَهْدِ الْوَفَا !

(١) في الأصل : جسم وفي اللغة الجسم : الثقل ، فعله فعل منه ، أي ما نفل على خواطري . أو لعل
الصواب ما أبتناه (٢) في الأصل : تمشى . ويروى : العيس ، مكان : العصم .

مَا وَفَّقَ - لَحْظَةً - مَنْ عَرَّجَ نَحْوَكِ ، وَلَا سَعِدَ مَنْ آثَرَ الْمُقَامَ عَلَى حُسْنِ
الظَّنِّ بِكَ ! هَيْهَاتَ يَا مَعْشَرَ أبنَاءِ الدُّنْيَا ! لَكُمْ فِي الظَّاهِرِ اسْمٌ « الغِنَى »
وَفِي البَاطِنِ : أَهْلُ التَّقَلُّلِ لَهُمْ نَفْسٌ هَذَا المَعْنَى .

كل صفاء إلى كدر

كَمْ مِنْ يَوْمٍ لِي أَغَرَّ كَثِيرِ الأَهْلَةِ ، قَدْ أَصْحَتْ سَمَاوُهُ ، وَامْتَدَّ عَلَى ظِلِّهِ ،
تَمُدُّنِي سَاعَاتُهُ بِالمُنَى ، وَيَضْحَكُ لِي بِهَا عَنْ كُلِّ مَا أَهْوَى ، حَتَّى إِذَا اتَّصَلَ
بِكُلِّ أَسْبَابِي ، وَامْتَزَجَ سُورُهُ بِفِرْحِي وَرُوحِي وَأَتْرَابِي ، نَفِسَتْ عَلَيَّ بِهِ
الدُّنْيَا ؛ فَسَعَتْ بِالتَّشْتِيتِ إِلَى الفِتَنِ ، وَالنَّقْصِ إِلَى مُدَّتِهِ ، فَكَسَفَتْ بِهَجَّتِهِ
كُسُوفًا ، وَأَرْهَقَتْ نَضْرَتَهُ وَحَشَّةً (١) الفِرَاقِ ، وَقَطَعْتَنَا فِرْقًا فِي الآفَاقِ -
بَعْدَ أَنْ كُنَّا كَالأَعْضَاءِ المُوْتَلِفَةِ ، وَالأَغْصَانِ اللَّذَنَةِ المُنْعَطِفَةِ .

حسرة وندم

وَاحْسَرْتِي فِي يَوْمٍ يُجِئُ مَعِ شِرَّتِي (٢) كَفَنٌ وَاحِدٌ
ضَيَعْتُ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ بِالذِّي لِي مِنْهُ بُدٌّ
وَأَنْشِدُ قَوْلَ ابْنِ الرُّومِيِّ :

أَلَا لَيْسَ شَيْبُكَ بِالمُتَنَزِّعِ فَهَلْ أَنْتَ عَنْ غِيَّةٍ مُرْتَدِّعٌ؟ (٣)
فَأَقْلَقُ وَأَبْكِي مُبْكَاءَ غَيْرِ نَافِعٍ ، وَلَا نَاجِعٍ . وَيَجِبُ أَنْ أَبْكِيَ عَلَى
مُبْكَائِي . وَأَنْشِدُ :

(١) فِي الأَصْلِ : وَحَشَّتْهُ (٢) الشُّرَّةُ : النِّشَاطُ وَعِنْفُوانِ القُوَّةِ وَالجَلْدُ (٣) ارْجِعْ إِلَى ص ٣٨

لِسَانِي يَقُولُ ، وَلَا أَفْعَلُ وَقَلْبِي يُرِيدُ ، وَلَا أَعْمَلُ
وَأَعْرِفُ رُشْدِي ، وَلَا أَهْتَدِي وَأَعْلَمُ - لَيْكِنِّي أَجْهَلُ

الخمير

عَرَضَ عَلَيَّ بَعْضُ النَّاسِ كَأْسَ خَمْرٍ ، فَاَمْتَنَعْتُ مِنْهَا ، وَقُلْتُ : « خَلُونِي
وَالْمَطْبُوحَ عَلَى مَذْهَبِ الشَّيْخِ الْأَوْزَاعِيِّ » وَقُلْتُ لَهُمْ : « عَرَضَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ
الْمُهْدِيِّ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ خَازِمِ الْخَمْرَةَ ، فَاَمْتَنَعَ وَأَنشَدَ :

أَبْعَدَ شَيْبِي أَصْبُو وَالشَّيْبُ لِلْجَهْلِ حَرْبُ
سِنِّي وَشَيْبُ وَجْهَلُ أَمْرُهُ لَعَمْرُكَ صَعْبُ
يَابُنَ الْإِمَامِ فَالَا أَيَّامَ عُودِي رَطْبُ^(١) ؟
وَإِذْ مَشِيبي قَلِيلُ وَمَنْهَلُ الْحُبِّ عَذْبُ
وَإِذْ شِفَاءُ الْغَوَانِي مِنِّي حَدِيثُ وَقُرْبُ
فَالَانَ - لَمَّا رَأَى بِي أَلْ مُذَّاكَ مَا قَدْ أَحْبَبُوا
وَأَنَّسَ الرُّشْدَ مِنِّي قَوْمٌ - أَعَابُ وَأَصْبُو ؟
آلَيْتُ أَشْرَبُ خَمْرًا مَا حَبَّجَ لِلَّهِ رَكْبُ^(٢)

(١) ألا بمعنى « فهلا » وفي الأصل : يا ابن إمام (٢) « آليت أشرب » أي : لا أشرب .
وفي كتاب الله : تالله تفتأ تذكر يوسف . أي : لا نفتأ ، والقسم الذي يراد به الانيات لا بد أن يكون
جوابه مؤكداً بالنون أو اللام عند قوم ، أو بهما عند قوم آخرين . فاذا خلا الجواب منهما كان ذلك
قربة أن القسم على النفي لا على الانيات . فان قلت : والله أكرهك . كان المعنى : لا أكرهك ... !

ضراعة وتوبة

وَأَقْبَلْتُ عَلَى نَفْسِي مُخَاطِبًا، وَلَهَا مُعَاتِبًا، وَالْخِطَابُ لِغَيْرِهَا، وَالْمَعْنَى لَهَا:
 «لَقَدْ أَهْمَكُم، حَتَّى كَأَنَّهُ أَهْمَكُم؛ أَمَا تَسْتَحْيُونَ مِنْ طَوْلِ مَا لَا تَسْتَحْيُونَ؟
 فَكُنْ كَالْوَلِيدِ: ثَقَلْبَهُ يَدُ اللَّطْفِ بِهِ، عَلَى فِرَاشِ الْعَطْفِ عَلَيْهِ، تُصَرِّفُ إِلَيْهِ
 الْمَنَافِعُ بِغَيْرِ طَلَبٍ مِنْهُ، لِصِغَرِهِ، وَتُصَرِّفُ عَنْهُ الْمَضَارُّ بِغَيْرِ حَذَرٍ مِنْهُ، لِعَجْزِهِ.
 أَمَا سَمِعْتَ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، إِذْ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «اللَّهُمَّ اكْلَأْنِي
 كَلَاءَةَ الْوَلِيدِ، الَّذِي لَا يَدْرِي مَا يُرَادُ بِهِ وَلَا مَا يُرِيدُ. أَلَا مُتَعَلِّقٌ وَالْأَذْيَالُ^(١)
 أَذْيَالٌ دَلِيلِهِ؟ أَلَا مُعِدُّ مَطِيَّةً وَرَحَلًا لِيَوْمِ رَحِيلِهِ؟ يَا هِيَآءَ^(٢) الدُّجَّةُ^(٣) الدُّجَّةُ!
 إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَسْبِقْ إِلَى الْمَاءِ يَظْمَأُ. إِنَّمَا مَنَعْتُكَ مَا تَشْتَهِي ضَنْبًا بِكَ، وَغَيْرَةً عَلَيْكَ.
 قَالَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا حَمَاهُ الدُّنْيَا، وَأَنْتَ
 تَشْكُونِي إِذَا حَمَيْتُكَ، وَتَكَرَّهُ صِيَانَتِي إِذَا صُنْتُكَ، أَلَا لَأَيْدُ بُفْنَانًا لِيَعِزَّ؟
 أَلَا فَارٌّ إِلَيْنَا، لَا فَارٌّ مِنَّا؟ يَا مَنْ لَهُ بُدٌّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، أَرْحَمَ مَنْ لَا بُدَّ لَهُ
 مِنْكَ عَلَى كُلِّ حَالٍ. اللَّهُ يُغْنِي بِشَيْءٍ عَنِ شَيْءٍ، وَلَيْسَ يُغْنِي عَنْهُ بِشَيْءٍ.
 فَلِهَذَا قَالَ جِبْرِيلُ لِلْخَلِيلِ: أَلَيْكَ حَاجَةٌ؟ قَالَ: أُمَّا إِلَيْكَ فَلَا. اللَّهُ يُسْتَحَقُّ
 أَنْ يُسْأَلَ وَإِنْ أَعْنَى، لِأَنَّهُ لَا يُغْنِي بِشَيْءٍ عَنْهُ^(٤). أَطِعْهُ لِتُطِيعَهُ، وَلَا تُطِعْهُ
 لِتُطِيعَكَ، فَتَقْتَرُ وَتَعَلَّ. مَنْ تَرَكَ تَدْبِيرَهُ لَتَدْبِيرِنَا أَرْحَمَاهُ.
 جَلَّ مَنْ لَوَالِبُ الْقُلُوبِ وَالْهَمَمِ بِيَدِهِ، وَعَزَائِمُ الْأَحْكَامِ وَالْأَقْسَامِ عِنْدَهُ.

(١) في الأصل « والأذال أذبال دليله » (٢) في الأصل: يا هلاه . ولعل الصواب ما أثبتناه .
 ويا هياه : بمعنى : أقبل . أو لعلها : يا هناه ، أى : يا رجل . (٣) الدججة : السير من أول الليل .
 والمراد : المبادرة بالسير . (٤) المعنى : ان الانسان مهما عظم غناه لا يستغنى عن سؤال الله ، لأنه دائماً
 محتاج إليه . والله لا يغنى أحداً عنه البتة .

« أَنْسَيْتَ ذِكْرَ أَحِبَّةٍ يَنْسُونَ ذَنْبَكَ - عِنْدَ ذِكْرِكَ
 وَجَفَّ وَوَتَّهُمْ ، وَلَطَامًا
 وَصَبْرَتَ عِنْدَ فِرَاقِهِمْ ، مَا كَانَ عُدْرَكَ عِنْدَ صَبْرِكَ ؟

* *
 تَتْرُكَ مَنْ إِذَا جَفَوْتَهُ ، وَنَسَيْتَ ذِكْرَهُ ، وَتَعَدَّيْتَ حَدَّهُ ، وَتَرَكْتَ
 نَهْيَهُ ، وَصَيَّعْتَ أَمْرَهُ - وَتُبَّتْ إِلَيْهِ ، وَعَوَّلْتَ فِي تَفْضُلِهِ عَلَيْكَ عَلَيْهِ ، وَقُلْتَ :
 « يَا رَبِّ ! » قَالَ لَكَ : « لَبِيْكَ » (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ) إِنْ كَانَ
 الذُّبَابُ بَوَجْهِكَ فَاتَّهَمَكَ ، وَإِنْ قَطَعْتُ أَنَا أَعْضَاءَكَ فَلَا تَتَّهَمْنِي ، أَنْتَ الَّذِي
 إِذَا أَعْطَيْتُكَ مَا أَمَلْتَ ، تَرَكْتَنِي وَانْصَرَفْتَ . (وَإِذَا أُنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ
 وَنَأَى بِجَانِبِهِ) يَا وَاقِفًا بِالتَّهَمِ : كَمْ كَمْ ؟

أَلَيْسَ يَقُولُ لَكَ : « مَا عَرَّكَ بِي » فَتَقُولُ : « حِلْمُكَ ، وَإِلَّا لَوْ أُرْسَلْتَ
 عَلَيَّ بِقَعَّةٍ جَمَعْتَنِي عَلَيْكَ ، إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَجْمَعَنِي »
 أَمِنْ بَعْدِ شُرْبِكَ كَأْسِ النُّهْيِ وَشَمِّكَ رِيْحَانَ أَهْلِ النُّقْيِ
 عَشِيقَتَ فَأَصْبَحْتَ فِي الْعَاشِقِيهِ بِنَ أَشْهَرٍ مِنْ فَرَسٍ أَبْلَقَا
 أَدْنِيَا - مِنْ غَمْرِ بَحْرِ الْهَوَى - خُذِي بِيَدِي ، قَبْلَ أَنْ أُغْرَقَا
 أَنَا لَكَ عَبْدٌ ، فَكُونِي كَمَنْ - إِذَا سَرَّهُ عَبْدُهُ - أَعْتَقَا

مِيتَةٌ فَادُوهُ (١)

كَانَ بِيَعْدَادَ رَجُلٍ كَبِيرِ الرَّأْسِ ، فَبِيلِي الْأَذْنَيْنِ ، اسْمُهُ « فَادُوهُ » رَأْسُهُ فِي الْأَرْزَمَةِ
 الْأَرْبَعَةَ مَكْشُوفٍ ، لَا يَتَوَرَّعُ عَنْ رُكُوبِ خُزْيَةٍ ، يُقَالُ لَهُ : « يَا فَادُوهُ ! وَيَلْكَ

(١) اقرأ ص ٣١٣ ج ٣

تُبَّ إِلَى اللَّهِ « فَيَقُولُ : « يَا قَوْمِ ! لِمَ تَدْخُلُونَ بَيْنِي وَبَيْنَ مَوْلَايَ ، وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ » فَكَانَ فِي بَعْضِ الشُّوَارِعِ يَوْمًا ذَاهِبًا ، وَالشَّارِعُ قَدْ اتَّسَعَ أَسْفَلُهُ وَضَاقَ أَعْلَاهُ ، وَالتَّقَى جَنَاحَانِ فِيهِ ، فَتَاوَلَتْ جَارَةٌ جَارَتَهَا مِنْ رَأْسِهَا أَنْسَلَ مِنْ يَدَيْهَا عَلَى رَأْسِ « فَادُوهُ » فَهَرَسَ رَأْسَهُ ، وَخَلِطَ كَخَلِطِ الْهَرِيَسَةِ ، وَاعْجَلَهُ عَنِ التَّوْبَةِ .

وَكَانَ لَنَا وَعَظٌ صَالِحٌ يَقُولُ لَنَا : « احْذَرُوا مِيتَةَ فَادُوهُ »

قَالَ جَبْرِيلُ فِي حَدِيثِهِ : « خَشِيتُ أَنْ يُتِمَّ فِرْعَوْنُ الشَّهَادَةَ وَالتَّوْبَةَ ، فَأَخَذْتُ قِطْعَةً مِنْ حَالِ الْبَحْرِ ، فَضَرَبْتُ بِهَا وَجْهَهُ »
 يَعْنِي : طِينَهُ . وَالْحَالُ يُنْقَسِمُ ثَمَانِيَةَ أَقْسَامٍ ، مِنْهَا الطِّينُ ^(١) .
 فَكَيْفَ يَصْنَعُ مَنْ عِنْدَهُ أَنَّ التَّوْبَةَ لَا تَصِحُّ مِنْ ذَنْبٍ مَعَ الْإِقَامَةِ عَلَى آخِرٍ ؟ فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ

بدء التعارف

بَلَّغَنِي عَنْ مَوْلَايَ الشَّيْخِ - أَدَامَ اللَّهُ تَأْيِيدَهُ - أَنَّهُ قَالَ وَقَدْ ذُكِرْتُ لَهُ : « أَعْرِفُهُ جِدًّا ^(٢) » ، هُوَ الَّذِي هَجَا أَبَا الْقَاسِمِ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ الْمَغْرِبِيَّ « فَذَلِكَ مِنْهُ - أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ - رَائِعٌ لِي ، خَوْفًا أَنْ يَسْتَشِرَّ طَبْعِي ، وَأَنْ يَتَّصِرَ لِي بِصُورَةٍ مِنْ يَضَعُ الْكُفْرَ ، مَوْضِعَ الشُّكْرِ . وَهُوَ بِتَعْرِيفِ الشُّكْرِ

(١) يريد أن من معاني الحال : الطين . ومعانيه عنده ثمانية . وفي المعجمات منها أكثر من ذلك فالحال : العجلة التي يدب عليها الصبي . والرماد الحار . والكساء يمتشى فيه . وموضع اللبد من الفرس . والزوجة ، وما تحمله على ظهره . وكينة الانسان وهو ما كان عليه من خير وشر . والوقت الذي أنت فيه . واللبن . وورق السمير يخبط وينفض في ثوب ... الخ ... (٢) في الأصل : جزا . ولعل الصواب ما أثبتناه . أو لعل جزا محرفة عن : « هذا » . فيكون الكلام : أعرفه ، هذا هو ... الخ

أَنْفَعُ لِي عِنْدَهُ ، لِجَلَالَةِ قَدْرِهِ وَدِينِهِ وَنَسَبِهِ . وَأَنَا أَطْلَعُهُ طِلْمَعَهُ ، لِيَعْرِفَ
خَفْضَهُ وَرَفْعَهُ ، وَفُرَادَاهُ وَجَمْعَهُ .

ترجمة ابن القارح^(١)

دراسته و آسانتره

كُنْتُ أَدْرُسُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَالَوَيْهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَأَخْتَلَفُ إِلَى
دَارِ أَبِي الْحَسَنِ^(٢) الْمَغْرِبِيِّ؛ وَلَمَّا مَاتَ ابْنُ خَالَوَيْهِ ، سَافَرْتُ إِلَى بَغْدَادَ ، وَتَزَّيْتُ
عَلَى أَبِي عَلِيٍّ الْفَارِسِيِّ . وَكُنْتُ أُخْتَلَفُ إِلَى عُلَمَاءِ بَغْدَادَ : إِلَى أَبِي سَعِيدِ السَّيْرَافِيِّ ،
وَعَلِيِّ بْنِ عَيْسَى الرَّثْمَانِيِّ ، وَأَبِي عُبَيْدِ اللَّهِ الْمَرْزُبَانِيِّ ، وَأَبِي حَفْصِ الْكُتَّانِيِّ
صَاحِبِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ مُجَاهِدٍ . وَكَتَبْتُ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .
وَبَلَغْتُ نَفْسِي أَغْرَاضَهَا جَهْدِي ، وَالْجُهْدُ عَازِرٌ

سفره إلى مصر

مقابلة أبي الحسن المغربي

ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا إِلَى مِصْرَ ، وَلَقَيْتُ أَبَا الْحَسَنِ الْمَغْرِبِيَّ ، فَالْزَمَنِي أَنْ
لَزِمْتُهُ لُزُومَ الظِّلِّ ، وَكُنْتُ مِنْهُ مَكَانَ الْمِثْلِ ، فِي كَثْرَةِ الْإِنْصَافِ ، وَالْحَنُوءِ
وَالْتِّصَافِ^(٣) . فَقَالَ لِي سِرًّا : « أَنَا أَخَافُ هِمَّةَ أَبِي الْقَاسِمِ أَنْ تَنْزُورَ بِهِ إِلَى أَنْ
يُورِدَنَا وَرَدًّا لِأَصْدَرِ عَنَّهُ . وَإِنْ كَانَتْ الْأَنْفَاسُ مِمَّا يَكْتَبُ وَيُحْفَظُ ، فَالْكَتَبُهَا
وَاحْفَظْهَا ، وَطَالَ عِنِّي بِهَا » فَقَالَ لِي^(٤) يَوْمًا : « مَا نَرُضَى بِالْحُمُولِ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ »

(١) انظر ج ٣ ص ٣١٣ (٢) في الأصل : أبي الحسين (٣) في الأصل : التجاف

(٤) الذي قال له هو أبو القاسم ، ولد أبي الحسن المغربي ، وانظر ترجمته ص ٥٣٠

فَقُلْتُ : « وَأَيُّ خُمُولٍ هُنَا ؟ تَأْخُذُونَ مِنِّ مَوْلَانَا - خَلَدَ اللَّهُ مُلْكَهُ -
 فِي كُلِّ سَنَةٍ سِتَّةَ آلَافٍ دِينَارٍ ، وَأَبُوكَ مِنْ شُيُوخِ الدَّوْلَةِ ، وَهُوَ مُعَظَّمٌ
 مُكْرَمٌ » فَقَالَ : « أُرِيدُ أَنْ تُصَارَ إِلَى أَبْوَابِنَا الْكَتَائِبِ وَالْمَوَاكِبِ وَالْمَتَقَانِبِ ،
 وَلَا أَرْضَى بِأَنْ يُجْرَى عَلَيْنَا كَالْوِلْدَانِ وَالنِّسْوَانِ » فَأَعَدْتُ ذَلِكَ عَلَى أَبِيهِ ، فَقَالَ :

« مَا أَخَوْفَنِي أَنْ يُخْضِبَ أَبُو الْقَاسِمِ هَذِهِ مِنْ هَذِهِ » وَقَبِضَ عَلَى لِحْيَتِهِ وَهَامَتِهِ .
 وَعَلِمَ أَبُو الْقَاسِمِ بِذَلِكَ ؛ فَصَارَتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَفَقَةٌ !
 وَأَنْفَذَ إِلَى الْقَائِدِ أَبُو عُبَيْدِ اللَّهِ الْحُسَيْنِ بْنِ جَوْهَرَ ، فَشَرَّفَنِي بِشَرِيفِ
 خِدْمَتِهِ ، فَرَأَيْتُ الْحَاكِمَ كُلَّمَا قَتَلَ رَئِيسًا ، أَنْفَذَ رَأْسَهُ إِلَيْهِ ، وَقَالَ : « هَذَا
 عَدُوِّي وَعَدُوُّكَ يَا حُسَيْنُ » فَقُلْتُ : « مَنْ يُرِي يَوْمًا ، يُرِي بِهِ ؛ وَالذَّهْرُ لَا يُعْتَرُّ بِهِ »
 وَعَلِمْتُ أَنَّهُ كَذَا يُفْعَلُ بِهِ

حجج ابن القارح

فَاسْتَأْذَنَتْهُ فِي الْحِجِّ ؛ فَأَذِنَ ، فَخَرَجْتُ فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ (١) ، وَحَجَجْتُ
 خَمْسَةَ أَعْوَامٍ (٢) .

عودته إلى مصر ثم هربه

وَعُدْتُ إِلَى مِصْرَ - وَقَدْ قَتَلَهُ (٣) - فِجَاءَ نِي أَوْلَادِهِ سِرًّا ، يَرُومُونَ الرُّجُوعَ
 إِلَيْهِمْ ، فَقُلْتُ لَهُمْ : « خَيْرٌ مَا لِي وَلكُمْ الْهَرَبُ ، وَالْأَبْيَكُمُ بِنِعْدَادٍ وَدَائِعُ :
 خَمْسِمِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ ، فَاهْرُبُوا وَاهْرُبُ » فَفَعَلُوا وَفَعَلْتُ .

(١) هنا سقط ، وتام الكلام : « سبع وتسعين وثلاثمائة » فلقد ولد ابن القارح في منتصف المائة الرابعة

(٢) انظر « ج ٣ ص ٣١٤ » (٣) أى أن الحاكم قتل والد أبي القاسم

وَبَلَّغْنِي قَتْلَهُمْ بِدِمَشْقٍ - وَأَنَا بِطَرَابُلُسٍ - فَدَخَلْتُ إِلَى أَنْطَاكِيَّةَ ،
 وَخَرَجْتُ مِنْهَا إِلَى مَلَطِيَّةَ ، وَبِهَا الْمَائِسْطَرِيَّةُ حَوَالَةَ بِنْتِ سَعْدِ الدَّوَلَةِ . فَاقْتَتُ
 عِنْدَهَا إِلَى أَنْ وَرَدَ عَلَيَّ كِتَابُ أَبِي الْقَاسِمِ ، فَسَرَتُ إِلَى مِيَّافَارِقِينَ . فَكَانَ
 يُسِرُّ حَسَوًا فِي أُرْتَعَاءِ^(١) فَقَالَ لِي يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ : « مَا رَأَيْتُكَ ؟ » قُلْتُ :
 « أَعْرَضْتَ حَاجَةً ؟ » قَالَ : « لَا ، أَرَدْتُ أَنْ أَعْنِكَ ! » قُلْتُ : « فَالْعَنِّي
 غَائِبًا » قَالَ : « لَا ، فِي وَجْهِكَ أَشْفَى » قُلْتُ : « وَلِمَ ؟ » قَالَ : « لِمُخَالَفَتِكَ
 إِيَّايَ فِيمَا تَعْلَمُ ! » .

* * *
 وَقُلْتُ لَهُ - وَنَحْنُ عَلَى أُنْسٍ بَيْنِي وَبَيْنَهُ - : « لِي حُرْمَاتٌ ثَلَاثٌ :
 الْبَلْدِيَّةُ ، وَتَرْبِيَّةُ أَبِيهِ لِي ، وَتَرْبِيَّتِي لِاخْوَتِهِ » . قَالَ : « هَذِهِ حُرْمٌ مُهَيَّكَةٌ ،
 الْبَلْدِيَّةُ نَسَبٌ بَيْنَ الْجُدْرَانِ ؛ وَتَرْبِيَّةُ أَبِي لَكَ ، مِنْتَهُ لَنَا عَلَيْكَ ؛ وَتَرْبِيَّتُكَ
 لِاخْوَتِي ، بِالْخَلْعِ وَالِدَّانِيرِ » - أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ لَهُ : « اسْتَرَحْتُ مِنْ حَيْثُ
 تَعِبَ الْكِرَامُ » تَخَشَّيْتُ جُنُونََ جُنُونِهِ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ جُنُونُهُ مَجْنُونًا ، وَأَصَحُّ مِنْهُ
 مَجْنُونٌ ، وَأَجْنُ مِنْهُ لَا يَكُونُ . وَقَدْ أَنشُدَ :

جُنُونُكَ مَجْنُونٌ وَلَسْتُ بِوَاحِدٍ طَبِيبًا يُدَاوِي مِنْ جُنُونِ جُنُونِ
 بَلْ جُنَّ جِنَانُهُ ، وَرَقَصَ شَيْطَانُهُ :
 بِهِ جِنَّةٌ مَجْنُونَةٌ غَيْرَ أَنَّهَا إِذَا حَصَلَتْ مِنْهُ أَلْبٌ وَأَعْقَلُ

* * *
 وَقَالَ لِي لَيْلَةً : « أُرِيدُ أَنْ أَجْمَعَ أَوْصَافَ الشَّمْعَةِ السَّبْعَةِ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ ، وَلَيْسَ
 يَسْنَحُ لِي مَا أَرْضَاهُ » فَقُلْتُ : « أَنَا أَفْعَلُ مِنْ هَذِهِ السَّاعَةِ » قَالَ : أَنْتَ جَذِيلُهَا

(١) هذا مثل ، ومضربه فيمن يظهر أمراً ويبطن سواه .

المُحَكِّكُ ، وَعُدَيْقُهَا الْمُرْجَبُ ، فَأَخَذْتُ الْقَلَمَ مِنْ دَوَاتِهِ ، وَكَتَبْتُ بِحَضْرَتِهِ :

لَقَدْ أَشْبَهْتَنِي شَمْعَةً فِي صَبَابَتِي وَفِي هَوْلِ مَا أَلْتَقَى وَمَا أَتَوَقَّعُ :

نُحُولٌ ، وَحَرَقٌ ، فِي فَنَاءٍ ، وَوَحْدَةٌ وَتَسْهِيدُ عَيْنٍ ، وَاصْفِرَارٌ ، وَأَذْمَعُ

فَقَالَ : « كُنْتَ عَمِلْتَ هَذَا قَبْلَ هَذَا الْوَقْتِ ؟ » فَقُلْتُ : « تَمْنَعُنِي سُرْعَةَ

الْخَطْرِ ، وَتُعْطِينِي عِلْمَ الْغَيْبِ ؟ » وَقُلْتُ : « أَنْتَ ذَاكَ قَوْلَ أَبِيكَ لِي وَلَكَ

وَاللَّبِّيُّ الشَّاعِرُ ، وَلِمُحْسِنِ الدَّمَشْقِيِّ ، وَنَحْنُ فِي الطَّارِمَةِ ^(١) : اَعْمَلُوا قِطْعَةً

قِطْعَةً . فَمَنْ جَوَّدَ جَعَلْتُ جَائِزَتَهُ كَتَبَهَا فِيهَا . فَقُلْتُ :

بَلَغَ السَّمَاءَ سُمُوهُ بَيْتٌ شِيدَ فِي أَعْلَى مَكَانٍ

بَيْتٌ عَلَا حَتَّى تَوَا رَى فِي ذُرَاهُ الْفَرَقْدَانَ

فَانْعَمَ بِهِ ، لَا زِلْتَ مِنْ رَيْبِ الْخَوَادِثِ فِي أَمَانٍ

فَلَسْتَ جَادَ سُرْعَتَهَا ، وَكَتَبَهَا فِي الطَّارِمَةِ ، وَخَلَعَ عَلَيَّ .

بين المغربي وابن القارح

وَكَانَ أَبُو الْقَاسِمِ مَأُولًا ، وَالْمَلُولُ رُبَّمَا مَلَّ الْمَلَالَ ، وَكَانَ لَا يَمَلُّ أَنْ يَمَلَّ ،

وَيَحْقِدُ حِقْدَ مَنْ لَا تَلِينُ كَيْدُهُ ، وَلَا تَنْحَلُّ عُقْدُهُ . وَقَالَ لِي بَعْضُ الرُّؤَسَاءِ

مُعَاتِبًا : « أَنْتَ حَقُودٌ ، وَلَمْ يَكُنْ حَقُودًا » . فَقُلْتُ لَهُ : « أَنْتَ لَا تَعْرِفُهُ ، وَاللَّهِ

مَا كَانَ يُحْنِي عُودَهُ ، وَلَا تُرْجِي عُودَهُ ، وَلَهُ رَأْيٌ يُزِينُ لَهُ الْعُقُوقَ ، وَيَمِثُّ

إِلَيْهِ رِعَايَةَ الْحُقُوقِ ؛ بَعِيدٌ مِنَ الطَّبَعِ الَّذِي هُوَ لِلصَّدِّ صَدُودٌ ، وَلِلتَّالِفِ أُلُوفٌ

(١) بيت من خشب كالقبة .

وَدُودٌ؛ كَأَنَّهُ مِنْ كَبْرِهِ قَدْ رَكِبَ الْفَلَكَ ، وَاسْتَوَى عَلَى ذَاتِ الْحُبُكِ (١) ؛
 وَلَسْتُ مِمَّنْ يَرْغَبُ فِي رَاغِبٍ عَنْ وُصْلَتِهِ ، أَوْ يَنْزِعُ إِلَى نَارِجٍ عَنْ خُلَّتِهِ .
 فَلَمَّا رَأَيْتُهُ سَادِرًا جَارِيًا فِي قَلَّةٍ إِنْصَافِي عَلَى غُلُوائِهِ ، مَحَوْتُ ذِكْرَهُ عَنْ صَفْحَةِ
 فُؤَادِي ، وَاعْتَدَدْتُ وَدَّهُ فِيمَا سَالَ بِهِ الْوَادِي :

فَفِي النَّاسِ إِنْ رَثْتَ حِبَالَكَ وَاصِلٌ وَفِي الْأَرْضِ عَنْ دَارِ الْقَلِي مُتَحَوِّلٌ
 وَأَنْشَدْتُ الرَّجُلَ أَيْبَاتًا ، أَعْتَذِرُ بِهَا فِي قَطْعِي لَهُ :

فَلَوْ كَانَ مِنْهُ الْخَيْرُ — إِذْ كَانَ شَرُّهُ عَتِيدًا — لَقُلْنَا: «إِنَّ خَيْرًا مَعَ الشَّرِّ»
 وَلَوْ كَانَ — إِذْ لَا خَيْرَ — لَا شَرَّ عِنْدَهُ صَبْرُنَا ، وَقُلْنَا: «لَا يَرِيشُ وَلَا يَبْرِي»
 وَلَكِنَّهُ شَرٌّ ، وَلَا خَيْرَ عِنْدَهُ وَلَيْسَ عَلَى شَرٍّ — إِذَا دَامَ — مِنْ صَبْرٍ (٢)
 وَبُغِضِي لَهُ — يَشْهَدُ اللَّهُ — حَيًّا وَمَيِّتًا ، أَوْجَبَهُ أَخْذُهُ مَحَارِبَ الْكَعْبَةِ
 الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ؛ وَضَرَبَهَا دَنَانِيرَ وَدَرَاهِمَ ، وَسَمَّاهَا: الْكَعْبِيَّةَ ، وَأَنْهَبَ الْعَرَبَ
 الرَّمْلَةَ ، وَخَرَّبَ بَعْدَادَ .

وَكَمِ دَمِ سَفَاكَ ، وَحَرِيمِ أَنْتَهَا ، وَحُرَّةِ أَرْمَلِ ، وَصَبِيَّ أَيْتَمِ .

فضل أبي العلاء

وَأَنَا مُعْتَذِرٌ إِلَى الشَّيْخِ الْجَلِيلِ مِنْ تَقْرِيطِهِ ، مَعَ تَقْرِيطِي (٣) فِيهِ ، لِأَنَّهُ قَدْ
 شَاعَ فَضْلُهُ فِي جَمِيعِ الْبَشَرِ ، وَصَارَ غُرَّةً عَلَى جَبْهَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ . خُلِدَ ذَلِكَ

(١) ذات النجوم ، يعني السماء . (٢) قال الوايد بن يزيد :

إذا لم يكن خير مع الشر ، لم تجد نصيحاً ، ولا إذا حاجة حين تفرج
 وكانوا — إذا هموا بإحدى همتهم حسرت لهم رأسى ، فلا أتقنع

(٣) في الأصل : تقريظي

فِي بَدَائِعِ الْأَخْبَارِ ، وَكُتِبَ بِسَوَادِ اللَّيْلِ عَلَى بَيَاضِ النَّهَارِ . وَأَنَا فِي مُكَاتَبَةٍ
 حَضَرْتِهِ بِمَنْظُومٍ وَمَنْشُورٍ ؛ كَمَنْ أَمَدَّ النَّارَ بِالشَّرَرِ ، وَأَهْدَى الضُّوءَ إِلَى الْقَمَرِ ،
 وَصَبَّ فِي الْبَحْرِ جُرْعَةً ، وَأَعَارَ سَيْرَ الْفَلَكَ سُرْعَةً ، إِذْ كَانَ لَا يَحُلُّ النَّقْصُ
 بِوَادِيهِ ، وَلَا يَطُورُ السَّهْوُ بِنَادِيهِ . وَلَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ رَسَائِلِهِ عَقَائِلَ لَفْظٍ إِنْ
 نَعَّمْتُهَا ، فَقَدْ عَشِمْتُهَا ، وَإِنْ وَصَفْتُهَا ، فَمَا أَنْصَفْتُهَا . وَأَطْرَبْتُني — يَشْهَدُ اللهُ — إِطْرَابَ
 السَّمْعِ . وَبِاللَّهِ لَوْ صَدَرَتْ عَنْ صَدْرٍ مِنْ خِزَانَتِهِ وَكُتِبَتْ حَوْلَهُ ، يُقَلَّبُ طَرَفَهُ
 فِي هَذَا ، وَيَرْجِعُ إِلَى هَذَا ؛ فَإِنَّ الْقَلَمَ لِسَانُ الْيَدِ ، وَهُوَ أَحَدُ الْبَلَاغَتَيْنِ —
 لَكَانَ ذَلِكَ عَجِيبًا صَعْبًا شَدِيدًا . وَوَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عُلَمَاءَ مِنْهُمْ « ابْنَ خَالَوِيَه »
 إِذَا قُرِئَتْ عَلَيْهِمُ الْكُتُبُ ، وَلَا سِيَّمَا الْكِبَارُ ، رَجَعُوا إِلَى أَصُولِهِمْ كَأَلْمَقَاتِ بِلَدِينِ ،
 يَتَحَفَّظُونَ مِنْ سَهْوٍ وَتَضْجِيفٍ وَغَلَطٍ . وَالْعَجَبُ الْعَجِيبُ ، وَالنَّادِرُ الْغَرِيبُ ،
 حِفْظُهُ — أَدَامَ اللهُ تَأْيِيدَهُ — لِأَسْمَاءِ الرِّجَالِ ، وَالْمَنْشُورِ ، كَحِفْظِ غَيْرِهِ مِنْ
 الْأَذْكَيَاءِ الْمُبَرِّزِينَ الْمَنْظُومَ . وَهَذَا سَهْلٌ بِالْقَوْلِ ، صَعْبٌ بِالْفِعْلِ . مَنْ سَمِعَهُ
 طَمِعَ فِيهِ ، وَمَنْ رَامَهُ امْتَنَعَتْ عَلَيْهِ مَعَانِيهِ وَمَبَانِيهِ .

ابن خالويه وأبو الطيب اللغوي^(١)

حَدَّثَنِي أَبُو عَلِيٍّ الصَّقَلِيُّ بِدِمَشْقَ ، قَالَ : « كُنْتُ فِي مَجْلِسِ ابْنِ خَالَوِيَه ، إِذْ
 وَرَدَتْ عَلَيْهِ مِنْ سَيْفِ الدَّوْلَةِ مَسَائِلُ تَعَلَّقُ بِاللُّغَةِ ، فَاضْطَرَبَ لَهَا ، وَدَخَلَ
 خِزَانَتَهُ ، وَأَخْرَجَ كُتُبَ اللُّغَةِ ، وَفَرَّقَهَا عَلَى أَصْحَابِهِ يُفْتَشُونَهَا ، لِيُجِيبَ عَنْهَا .

(١) أنظر ج ٣ ص ٣١٥ .

وَتَرَكْتُهُ .

وَذَهَبْتُ إِلَى أَبِي الطَّيِّبِ اللُّغَوِيِّ - وَهُوَ جَالِسٌ . وَقَدْ وَرَدَتْ عَلَيْهِ تِلْكَ
المَسَائِلُ بِعَيْنِهَا وَبِيَدِهِ قَلَمُ الحُمْرَةِ - فَأَجَابَ بِهِ . وَلَمْ يُعَيِّرْهُ . قُدْرَةً عَلَى الجَوَابِ .
وَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ : قَرَأْتُ عَلَى أَبِي عُمَرَ ^(١) « الفَصِيحَ » وَ « إِصْلَاحَ
المَنْطِقِ » حِفْظًا . وَقَالَ لِي أَبُو عُمَرَ ^(٢) : كُنْتُ اعْلُقُ اللُّغَةَ عَنْ ثَعْلَبٍ عَلَى
خَرْفٍ . وَأَجْلِسُ عَلَى دِجْلَةَ ، أَحْفَظُهَا وَأَرْمِي بِهَا .

حافضة ابن القارح

وَأَنَا تَعَبْتُ ، وَحَفِظْتُ نِصْفَ عُمَرِي ، وَنَسِيتُ نِصْفَهُ ، وَذَلِكَ أَنِّي دَرَسْتُ
بِبَغْدَادَ ، وَخَرَجْتُ عَنْهَا ، وَأَنَا طَرِيءُ الحِفْظِ ، وَمَضَيْتُ إِلَى مِصْرَ ، فَأَمْرَحْتُ ^(٣)
نَفْسِي فِي الأَعْرَاضِ البَهِيمِيَّةِ والأَعْرَاضِ المَتَأَمِّيَّةِ ^(٤) ، وَأَرَدْتُ - بَرِزْعَمِي
وَخَدِيْعَةَ الطَّبْعِ المُلِيمِ - أَنْ أَذِيْقَهَا حَلَاوَةَ العَيْشِ ، كَمَا صَبَرْتُ فِي طَلَبِ العِلْمِ
وَالأَدَبِ ، وَنَسِيتُ أَنَّ العِلْمَ غِذَاءُ النَّفْسِ الشَّرِيفَةِ ، وَصَيَقَلُ الأَفْهَامِ اللَّطِيفَةِ ،
وَكَنْتُ أَكْتُبُ خَمْسِينَ وَرَقَةً فِي اليَوْمِ ، وَأَدْرُسُ مِائَتَيْنِ ، فَصِرْتُ الآنَ
أَكْتُبُ وَرَقَةً وَاحِدَةً ، وَتَحْكُنِي عَيْنَايَ حَاكًا مُؤَمِّلًا ، وَأَدْرُسُ خَمْسَ
أَوْزَاقٍ وَتَكِلُّهُ !

(١) هو أبو عمر المطرز المنبوذ بغلام ثعلب ، وهو صاحب كتب في اللغة ، منها : كتاب : المداخل ،
مخطوط بدار الكتب (٢) في الاصل : أمرجت . ويمكن تحريجه (٣) في الأصل : المؤتمية ،
وتصويبه يحتاج إلى تكاف . وانظر ج ٣ ص ٣١٦

أوقات الملل والعزوف عن العلم

ثُمَّ دُفِعْتُ إِلَى أَوْقَاتٍ لَيْسَ فِيهَا مَنْ يَرْغَبُ فِي عِلْمٍ وَلَا أَدَبٍ ، بَلْ فِي
فِضَّةٍ وَذَهَبٍ ؛ فَلَوْ كُنْتُ « إِيَّاسًا » صِرْتُ « بَاقِلًا »

وَأَضَعُ كِتَابًا عَنْ يَمِينِي ، وَأَطْلُبُهُ عَنْ شِمَالِي ، وَأُرِيدُ — مَعَ ضَعْفِي — [أَنْ]
أُرْتَادَ لِنَفْسِي مَعَاشًا ، بَظَهْرٍ غَيْرِ ظَهِيرٍ ، بِلِ كَسِيرٍ عَقِيرٍ ، وَصُلْبٍ غَيْرِ صَلِيبٍ ،
إِنْ جَلَسْتُ ، فَهُوَ كَالذَّمَلِ ؛ وَإِنْ مَشَيْتُ ، فَجَمَلَتِي دَمَامِيلٌ !

وَمَعِيَ بَقِيَّةُ نَزْرَةٍ يَسِيرَةٍ ، مِنْ جُمْلَةٍ كَثِيرَةٍ — لَوْ وَجَدْتُ ثِقَةً أَعْطَيْتُهُ
إِيَّاهَا ، لِيَعُودَ عَلَيَّ بِمَا أَرَفَهُ بِهِ جِسْمِي مِنَ الْحَرَكَةِ ، وَقَلْبِي مِنَ الشُّغْلِ ، وَأَنَا أَجِدُ
مَنْ أَدْفَعُهَا إِلَيْهِ ؛ وَبَقِيَ أَنْ يَرُدَّهَا إِلَيَّ !

فساد الثقة

دَفَعَ رَجُلٌ إِلَى صَدِيقٍ لَهُ جَارِيَةً ، أَوْدَعَهَا عِنْدَهُ ، وَذَهَبَ فِي سَفَرِهِ ، فَقَالَ
— بَعْدَ أَيَّامٍ — لِمَنْ يَأْتِسُ بِهِ ، وَتَسْكُنُ نَفْسُهُ إِلَيْهِ : « يَا أَخِي ! ذَهَبَتْ أَمَانَاتُ
النَّاسِ ! أَوْدَعَنِي صَدِيقٌ لِي جَارِيَةً ، فِي حِسَابِهِ أَنَّهَا بَكْرٌ ، جَرَّبْتُهَا ، فَإِذَا هِيَ ثَيْبٌ ! »

سارقة خالها (١)

وَمِنْ ظَرِيفِ الْأَخْبَارِ أَنَّ بِنْتَ أُخْتِي سَرَقَتْ لِي ثَلَاثَةً وَثَمَانِينَ دِينَارًا ، فَمَا
هَدَّهَا السُّلْطَانُ — أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ ، وَمَدَّ مَدَّتَهُ ، وَأَدَامَ سُمُوهُ وَرَفَعْتَهُ — وَأَخْرَجَتْ
إِلَيْهِ بَعْضَهَا ، قَالَتْ : « وَاللَّهِ لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ الْأَمْرَ يَجْرِي كَذَا كُنْتُ قَتَلْتُهُ »

فَاعْجَبُوا مِنْ هَرَيْسَتِي وَزُبُونِي !

(١) أنظر ج ٣ ص ٢١٧

وَوَاللَّهِ لَوْ لَا صَعَفِي وَعَجَزِي عَنِ السَّفَرِ ، لَخَرَجْتُ إِلَيْهِ مُتَشَرِّفًا بِمَجَالِسَتِهِ
 وَمُحَاضَرَتِهِ ، فَأَمَّا مُذَاكَرَتُهُ فَقَدْ يَبَسْتُ مِنْهَا ، لِمَا قَدِ اسْتَوَى عَلَيَّ [مِنَ] النَّسِيَانِ ،
 وَاحْتَوَى عَلَيَّ قَلْبِي مِنَ الْهُمُومِ ، وَإِلَى اللَّهِ الشُّكُورَى لَا مِنْهُ .
 وَلَيْسَ يَحْسُنُ أَنْ أَشْكُوَ مِنْ يَرْحَمَنِي ، إِلَى مَنْ لَا يَرْحَمُنِي . وَلَيْسَ بِحَكِيمٍ
 مَنْ شَكَرَ رَحِيمًا إِلَى غَيْرِ رَحِيمٍ !

أبو بكر الشبلي^(١)

وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الشَّبْلِيُّ يَقُولُ : « لَيْسَ غَيْرَ اللَّهِ غَيْرٌ ، وَلَا عِنْدَ غَيْرِ اللَّهِ خَيْرٌ »
 وَقَالَ يَوْمًا : « يَا جَوَادُ ؟ » ثُمَّ أَمْسَكَ مُفَكَّرًا ، وَرَفَعَ رَأْسَهُ ، ثُمَّ قَالَ :
 « مَا أَوْقَعَنِي ! أَقُولُ لَكَ « يَا جَوَادُ » وَقَدْ قِيلَ فِي بَعْضِ عَمِيدِكَ :
 وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ نَفْسِهِ لَجَادَ بِهَا فَلَيَتَّقِيَ اللَّهُ سَائِلُهُ
 وَقَدْ قِيلَ فِي آخِرِ :

تَرَاهُ - إِذَا [مَا] جَبَّتْهُ - مُتَهَلِّلًا كَأَنَّكَ مُعْطِيهِ النَّبِيَّ أَنْتَ سَائِلُهُ
 ثُمَّ قَالَ : « بَلَى ! أَقُولُ : يَا جَوَادًا فَاقْ كُلَّ جَوَادٍ ، وَيَجُودِهِ جَادَ مَنْ جَادَ ! »

ابن السماك والرشيدي

وَدَخَلَ ابْنُ السَّمَكَ عَلَى الرَّشِيدِ : فَقَالَ لَهُ « عَظْمِي » - وَفِي يَدِ الرَّشِيدِ كَوْزُ
 مَاءٍ - فَقَالَ : - « مَهْلًا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَرَأَيْتَ إِنْ أَقْدَرَ اللَّهُ عَلَيْكَ مُقَدَّرًا ،
 فَقَالَ : « لَنْ أُمَكِّنَكَ مِنْ شُرْبِهِ إِلَّا يَنْصِفُ مُلْكِكَ . » أَكُنْتَ فَاعِلًا ذَلِكَ ؟ »

(١) انظر « ج ٣ ص ٣٢٤ »

قَالَ « نَعَمْ » قَالَ : « اشْرَبْ — هَتَّاكَ اللَّهُ » فَلَمَّا شَرِبَ ، قَالَ : « أَرَأَيْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنْ لَوْ أُسْقِيتَ نَفْسَ هَذَا [مِنْ] الْمُتَقَدِّرِ عَلَيْكَ ^(١) ، فَقَالَ : « لَنْ أُمَكِّنَكَ مِنْ إِخْرَاجِ هَذَا الْكُوزِ إِلَّا بَأْنِ اسْتَبْدَادِ بِلْمَلِكِكَ دُونِكَ . أَكُنْتُ فَاعِلًا ذَلِكَ ؟ » قَالَ : « نَعَمْ » قَالَ : « فَاتَّقِ اللَّهَ فِي مُلْكٍ لَا يُسَاوِي إِلَّا بَوْلَةً ! »

نعم الله والآؤه

وَكَيْفَ أَشْكُو مَنْ قَاتَنِي وَعَالَانِي ، نَيْفًا وَسَبْعِينَ سَنَةً ؟ كَانَ قِيصِي ذِرَاعَيْنِ ، فَوَكَّلَ بِي وَالِدَيْنِ حَدِيثَيْنِ مُشْفِقَيْنِ ، يَتَنَاهَيَانِ فِي دِقَّةِ وَرِقَّةٍ وَطِيبَةٍ ^(٢) . فَلَمَّا صَارَ اثْنِي عَشَرَ ذِرَاعًا ، تَوَلَّاهُ هُوَ وَطَعَامِي ، فَمَا أَجَاعَنِي قَطُّ وَلَا أَعْرَانِي . « وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي » خَاطَبَ ^(٣) رَبَّهُ بِالْأَدَبِ فَقَالَ : « وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي » فَنَسَبَ الْمَرَضَ إِلَى نَفْسِهِ ، لِأَنَّهَا تَنْفِرُ مِنَ الْأَعْرَاضِ وَالْأَمْرَاضِ . وَكُلُّ شَيْءٍ يَطْرَأُ عَلَى الْإِنْسَانِ لَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِهِ ، مِثْلُ النَّوْمِ وَالْيَقْظَةِ ، وَالضَّحِكِ وَالْبُكَاءِ ، وَالنَّعْمِ وَالشَّرُّورِ ، وَالْخُصْبِ وَالْجُدْبِ ، وَالغِنَى وَالْفَقْرَ . فَهُوَ مِنْهُ — تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ — إِلَّا تَرَى أَنَّهُ لَا يَتَوَعَّدُ عَلَى فِعْلِهِ ، وَلَا يُعَاقِبُ عَلَيْهِ . وَمَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِهِ ، فَهُوَ مِنْهُ ، مِثْلُ أَنْ يُرِيدَ الْكِتَابَةَ فَلَا يَقَعُ مِنْهُ الْبِنَاءُ ، وَيُرِيدُ الْبِنَاءَ ، فَلَا تَقَعُ مِنْهُ الْكِتَابَةُ . وَمَنْ بِهِ الرَّعْشَةُ لَا يَقْدِرُ عَلَى إِمْسَاكِ يَدِهِ ، وَمَنْ لَيْسَتْ بِهِ يَقْدِرُ عَلَى إِمْسَاكِهَا .

(١) في الأصل : أسفت نفس هذا المقدر عليك . (٢) في الأصل : دنته ورقته وطيبه .

(٣) أي إبراهيم عليه السلام .

كُنْتُ - بَتَيْسٌ (١) - وَبَيْنَ يَدَيَّ إِنْسَانٌ يَقْرَأُ وَيُحْزِنُ - : « يُوفُونَ
 بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ (٢) » - وَبَيْنَكِي . نَخَطَرُ لِي خَاطِرٌ . فَقُلْتُ : « أَنَا بِضِدِّ
 هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - أَنَا لَا أُنذِرُ . وَلَا أَفِي . وَلَا أَخَافُ شَقَاءَ
 وَلَا عَنَاءَ ! » وَلَوْ كُنْتُ أَخَافُ مَا أَصْبَحْتُ إِلَّا مَحْمُومًا (٣) ! وَكُنْتُهُ !

عودة الى ابي بكر الشبلي

وَحَدَّثَنِي مَنْ أَتَى بِهِ، وَلَا أَتَمُّهُ؛ عَنْ أَبِيهِ - وَكَانَ زَاهِدًا - قَالَ : « كُنْتُ
 مَعَ أَبِي بَكْرٍ الشَّبَلِيِّ بِنَعْدَادٍ . فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ بِيَابِ الطَّاقِ . فَرَأَيْنَا شَاوِيًا ،
 قَدْ أَخْرَجَ حَمَلًا مِنَ التَّنُورِ كَأَنَّهُ بُسْرَةٌ نَضِجًا . وَإِلَى جَانِبِهِ قَدْ عَمِلَ حَلَاوَى
 فَأَلُوذَجًا ، فَوَقَفَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمَا ، وَهُوَ سَاهٍ مُفَكَّرٌ . فَقُلْتُ : « يَا مَوْلَايَ ! دَعْنِي
 أَخْذُ مِنْ هَذَا وَهَذَا وَرُقَاقًا وَخُبْزًا . وَمَنْزِلِي قَرِيبٌ ، تُشَرِّفُنِي بِأَنْ تَجْعَلَ
 رَاحَتَكَ الْيَوْمَ عِنْدِي » فَقَالَ : « يَا هَذَا ، أَظَنَنْتَ أَنَّي قَدِ اشْتَهَيْتُهُمَا ؟ . وَإِنَّمَا
 فِكْرِي فِي أَنَّ الْحَيَوَانَ كُلَّهُ ؛ لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا بَعْدَ الْمَوْتِ . وَنَحْنُ
 نَدْخُلُهَا أَحْيَاءَ ! ... »

يَا رَبِّ: عَفْوُكَ عَنْ ذِي شَيْبَةٍ وَجَل
 قَدْ كَانَ أُمَّمٌ (٤) أَفْعَالًا مُذَمَّةً - أَيَّامَ لَيْسَ لَهُ عَقْلٌ وَلَا دِينٌ
 كَأَنَّهُ - مِنْ حِذَارِ النَّارِ - مَجْنُونٌ!

(١) تبتيس كسكين : بلدة بجزيرة من جزائر بحر الروم قرب دمياط تنسب اليها الشباب الفاخرة .
 (٢) الآية في سورة « الدهر » : « يوفون بالندر ، ويخافون يوما كان شره مستطيرا ، ويطعمون
 الطعام - على حبه - مسكينا ويبتما وأسيرا ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ،
 إنما نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا ، فواقم الله شر ذلك اليوم ، واقام نضرة وسرورا ، وجزايم بما صبروا
 جنة وحريرا ، متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهيرا ، ودانية عليهم ظلالها ، وذلقت قطوفها
 تذليلا ، ويطاف عليهم بأنية من فضة وأكواب كانت قوارير : قوارير قدروها تقديرا » الخ .
 (٣) في الأصل « ما أصبحت .. محمومًا » . (٤) أُمَّم : قصد . وفي الأصل : ذمم . والكلام بها لا يستقيم

فتاوى الرسالة

تَمَّتِ الرَّسَالَةُ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَصَلَوَاتُهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَخَيْرِهِ الْآلِ . مَا فَرَعْتَ مِنْ
هَذِهِ السُّؤْدَاءِ ، حَتَّى ثَارَتْ بِي السُّؤْدَاءُ . وَأَنَا أَعْتَذِرُ مِنْ خَطَلٍ فِيهَا أَوْ زَلَلٍ .
فَإِنَّ الْخَطَأَ مَعَ الْإِعْتِدَارِ وَالْإِجْتِهَادِ وَالتَّحَرُّي ، مَوْضُوعٌ عَنِ الْمُخْطِئِ ،
« وَمَنْ ذَا الَّذِي يُؤْتِي الْكَمَالَ فَيَكْمُلُ ^(١) » . قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ :
« رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً أَهْدَى إِلَى عِيُوبِي »

وَأَسْأَلُهُ — أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ — تَشْرِيْفِي بِالْجَوَابِ عَنْهَا ، فَإِنَّ هَذِهِ الرَّسَالَةَ
— عَلَى مَا بِهَا — قَدْ اسْتَحْسِنْتُ ، وَكُتِبَتْ عَنِّي ، وَسُمِعَتْ مِنِّي . وَشَرَفْتُهَا
بِاسْمِهِ ، وَطَرَّزْتُهَا بِذِكْرِهِ . وَالرَّسَالَةُ الَّتِي كَتَبَهَا الزُّهْرَجِيُّ إِلَيَّ كَانَتْ أَكْبَرَ
الْأَسْبَابِ فِي دُخُولِي إِلَى حَلَبَ .

وَإِذَا جَاءَ جَوَابُ هَذِهِ سَيَرْتُهَا بِحَلَبَ وَغَيْرِهَا — إِنْ شَاءَ اللَّهُ — وَبِهِ الثَّقَةُ .
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ .

(١) يشير إلى قول ابن الرومي :

« أَعْيَّرْتَنِي بِالنَّقْصِ ، وَالنَّقْصُ شَامِلٌ ، وَمَنْ ذَا الَّذِي يُعْطِي الْكَمَالَ ، فَيَكْمُلُ ؟
فَأَشْهَدُ أَنِّي نَاقِصٌ ، غَيْرُ أَنِّي إِذَا قَيْسَ بِي قَوْمٌ كَثِيرٌ ، فَقَلُّوا »

الجزء الثاني

القسم الأول من الرسالة

الغفران كوميديا إلهية مسرحها الجنة والنار

الْغُفْرَانَ كَوْمِيَّ يَا إِلَهِيَّةَ مَسْرُحِهَا الْجَنَّةُ وَالنَّارُ

تَهْيِيدٌ

وَصَلَّتِ الرِّسَالَةُ^(١) الَّتِي بَجَرُهَا بِالْحُكْمِ مَسْجُورٌ^(٢) ، وَمَنْ قَرَأَهَا لَا شَكَّ مَأْجُورٌ^(٣) ، إِذْ كَانَتْ تَأْمُرُ بِتَقْيِيلِ الشَّرْعِ^(٤) ، وَتَعِيبُ مَنْ تَرَكَ أَصْلًا إِلَى فَرْعٍ ؛ وَغَرِقَتْ فِي أَمْوَاجِ بَدْعِهَا الزَّاحِرَةِ ، وَعَجِبْتُ مِنْ اتِّسَاقِ عَقُودِهَا الْفَاخِرَةِ ؛ وَمِثْلَهَا مِنْ شَفَعٍ وَنَفَعٍ ، وَقَرَّبَ عِنْدَ اللَّهِ . وَفِي قَدْرَةِ رَبِّنَا — جَلَّتْ عَظَمَتُهُ — أَنْ يَجْعَلَ كُلَّ حَرْفٍ مِنْهَا شَيْخَ نَوْرِ ، لَا يَمْتَرِجُ بِمَقَالِ الزُّورِ ؛ وَلَعَلَّهُ — سُبْحَانَهُ — قَدْ نَصَبَ لِسَطُورِهَا الْمُنْجِيَّةِ مِنَ اللَّهَبِ ، مَعَارِيجَ^(٥) مِنَ الْفِضَّةِ أَوْ الذَّهَبِ ، تَعْرُجُ بِهَا الْمَلَائِكَةُ مِنَ الْأَرْضِ الرَّاكَدَةِ إِلَى السَّمَاءِ ، بِدَلِيلِ الْآيَةِ :

« إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ »

وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ كَأَنَّهَا الْمَعْنِيَّةُ بِقَوْلِهِ : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا . »

وَفِي تِلْكَ السُّطُورِ كَلِمٌ كَثِيرَةٌ ، كُلُّهُ عِنْدَ الْبَارِيءِ — تَقَدَّسَ — أَثِيرٌ^(٦)

(١) یعنی رسالۃ ابن القارح (٢) مملوء (٣) مثاب (٤) تَقْيِيلُ الشَّرْعِ : اتِّبَاعُهُ

(٥) جمع معراج وهو : السلم والمصعد (٦) مقبول ، أو مفضل

الفصل الأول

الفردوس

وقد عُرسَ لمولايَ الشيخِ الجليلِ - إن شاء الله - بذلكِ الشَّاءِ ، شجرٌ في الجنةِ لذيذٌ اجْتَناءٌ ، كلُّ شجرةٍ منه تأخذُ ما بين المشرقِ إلى المغربِ بظِلِّ غايطٍ^(١) . والولدانُ المُخَلَّدونَ في ظلالِ تلكِ الشجرِ قيامٌ وقُعودٌ ؛ يقولون - واللهُ القادرُ على كلِّ شيءٍ عزيزٌ - : « نحنُ وهذه الشجرِ صِلَةٌ من اللهِ لِعَلِيِّ بنِ منصورٍ^(٢) ، نُخبأُ له إلى نَفْحِ الصورِ » وتجري في أصولِ ذلكِ الشجرِ : أنهارٌ تُتَخَلَّجُ^(٣) من ماءِ الحيوانِ^(٤) ، والكُوثرُ يمدُّها في كلِّ أوانٍ ، مَنْ شَرِبَ مِنْهَا التَّغَبَةَ^(٥) فلا مَوْتَ ، قد أَمِنَ هنالكِ الفَوْتَ ؛ وَسَعِدُ^(٦) مِنَ اللَّبَنِ مُتَخَرِّقَاتٌ^(٧) ، لا تَغْيِرُ بَأَنْ تَطوَلَ الأَوْقَاتُ ؛ وَجَعافِرُ^(٨) مِنَ الرَّحِيقِ^(٩) المُخْتومِ ، كما قالِ عُلَقَمَةُ^(١٠) :

(١) ظليل (٢) هو ابن القارح (٣) تُنْتَزَعُ (٤) الحياة (٥) الجرعة (٦) جمع سعيد ، وهو النهر (٧) متفجرات ، ولعل المعنى تخرقت فيها الرياح : أى ليست براكدة ، أولعله يعنى أنها متسعة ، من تخرق في الكرم : اتسع فيه (٨) أنهار صغيرة فوق الجداول (٩) أطيب الخمر (١٠) علقمة الفحل

توفى سنة ٥٦١ م

هو علقمة بن عبدة بن النعمان بن ناشرة التميمي ، شاعر جاهلي لم يدرك الإسلام . وقد سمي : علقمة الفحل ، من أجل أن يتميز في الأخبار من شاعر آخر في قبيلته يسمى : « علقمة الخصى ابن سهل » . أدرك الإسلام وأسلم . وقيل : إنما سمي الفحل لأنه خلف امرأ القيس على زوجه بعد أن طلقها لتفضيلها علقمة عليه ، حين حكماها في أيهما أشعر ؛ وهي قصة تروى كثيراً في كتب الأدب ببعض الاختلاف ، ونحن نثبتها هنا محررة عن الأغاني ، وموشح المرزباني ، وفيها مثل من حرية النساء ومنزلتهن من الأدب في الجاهلية :

تَشْفِي الصُّدَاعَ وَلَا يُؤْذِيهِ صَالِبُهَا^(١) وَلَا يُخَالِطُ^(٢) مِنْهَا الرَّأْسَ تَدْوِيمًا^(٣)

لما نزل امرؤ القيس في طيء ، تزوج امرأة منهم يقال لها أم جندب . وكان مُفَرَّكًا : تبغضه النساء إذا وقع عليهن . فأتى أم جندب من الليل ، فأبغضته ، فجعلت تقول : « أصبح ليلٌ ، يا خير الفتيان أصبحت ، أصبحت ، فقم » فقام ينظر ، فإذا الليل كهيئته ، فقال لها : ما حملك على ما صنعت ؟ قالت : لا شيء ! قال : لتخبرني ، قالت : « كرهتك ، لأنك ثقیل الصدر ، خفيف العجز ، سريع الهراقة ، بطيء الإفاقة » فلم تزل عنده . فأتاه علقمة بن عبدة ، وكان صديقاً له . فقال أحدهما لصاحبه : أينا أشعر ؟ فقال هذا : أنا ، وقال هذا : أنا ؛ فتنازعا وتلاحيا . فقال علقمة : قد رضيت بامرأتك أم جندب حكماً بيني وبينك . فحكماها . فقالت أم جندب لها : قولاً شعراً تصفان فيه الصيد ، على قافية واحدة ، وروى واحد . فقال امرؤ القيس قصيدته التي مطلعها :

« خِليُّ مَرَّأٍ بِي عَلَى أُمِّ جُنْدَبٍ نُقِضَ لِبَانَاتِ الْغَوَادِ الْمَعْدَبِ »

ففعت فيها فرسه والصيد ، حتى فرغ منها .

وقال علقمة : ذهبت من الهجران في كل مذهب ولم يك حقاً طول هذا التجنب فقالت أم جندب لامرؤ القيس : « فرس ابن عبدة أجود من فرسك . علقمة أشعر منك ! قال لها : وكيف ؟ قالت : لأنك قلت :

فلسوط ألحوب ، وللساق درة وللزجر منها وقع أخرج مهذب

(ألحوب : يعني ألهب جريه حين زجره ، وللساق درة : أي إذا عُزِزَ بالجرى . والخرج بياض في سواد ، وبه سمى الأخرج وهو ذكر النعام . ومهذب : أي مسرع في عدوه) فزجرت فرسك بصوتك ، وجهدته بسوطك ، ومريته فأتعبته بساقك .

وقال علقمة : « فأدر كهن ثانياً من عنانه يمر كمر الراح المتحلب »

فأدرك فرسه الصيد ثانياً من عنانه ، لم يضره بسوط ، ولم يتعبه .

فغضب امرؤ القيس ، وقال : ليس كما قلت ، ولكنك هو يته . ثم طلقها . فخلفه عليها علقمة . وقد غنى ابن سريج لعلقمة أبيتاً مطلعها :

« هل ما علمت وما استودعت مكتوم أم حبلها - إذ نأتك اليوم - مصروم »

وسيمر بك حديثه الخيالي مع ابن القارح في هذا الجزء . وفيه طائفة من رائع شعره

(١) صالبا : مُحْيَاها (٢) لا يخامر (٣) التدويم : الثَّوَار يعقب السكر .

وَيَعْمِدُ إِلَيْهَا الْمُعْتَرِفُ بِكُؤُوسٍ مِنَ الْعَسَجِدِ^(١) ، وَأَبَارِيقَ خُلِقَتْ مِنَ
الزَّبْرَجَدِ ؛ لَوْ رَأَاهَا أَبُو زَيْدٍ^(٢) لَعَلِمَ أَنَّهُ مَا تَشَبَّهَ بِخَيْرٍ ، وَهَزِيَّ بِقَوْلِهِ :

(١) الذهب

(٢) أبو زيد

هو حرملة بن المنذر الطائي ، كان نصرانياً ، ومات على دينه ، وهو ممن أدرك الجاهلية
والإسلام ، فعد في المخضرمين .

واسمه (أبو زيد) . وقد يسمى (زَبْدًا) للتلميح ، قال يخاطب أمه :

نفسى فداء أبى وهب وقلَّ له يا أم زيد ، فحلى اليوم أو سبرى

وقد جاء فى الأغاني : يا أم زيد ، وهو تحريف .

ونظير هذا التلميح (الزبير) فقد يسمى (زبرا)

وكانت صفيية بنت عبد المطلب أم الزبير بن العوام ترقص ولدها الزبير ، وتنشد :

« كيف رأيت زبرا

أأقطا أو تمرا ؟

أم قرشياً صقرا ؟ »

ويروى أن طول أبى زيد كان ثلاثة عشر شبراً ، وأنه كان ممن إذا دخل مكة دخلها
متنكراً لجماله . وكان من زوار الملوك ، وخاصة ملوك العجم ، عالماً بسيرهم .

وقد اشتهر بوصفه للأسد ، فإنه لقيه أثناء خروجه فى صِيَابَةِ من أشراف قبائل العرب .

فأكثر من وصفه بعد ذلك فى شعره ، حتى لامه قومه ، وقالوا له : قد خفنا أن تسبنا العرب

بوصفك له ، فلم يعرض له بعد ذلك حتى مات . وقد قص على عثمان بن عفان قصة لقائه

للأسد ، وهى قطعة أدبية من رائع البيان .

وكان أبو زيد يشرب الخمر ، ونادم الوليد بن عقبة أيام ولايته الكوفة لعثمان بن عفان .

فلما شهد الناس على الوليد بالسكر عند عثمان ، عزله عن الكوفة ، فخرج منها ، فقال أبو زيد

من قصيدة طويلة :

« وَأَبَارِيْقُ ، مِثْلُ أَعْنَاقِ طَيْرِ السَّمَاءِ ، قَدْ جِيبَ (١) فَوْقَهُنَّ خَنِيْفٌ (٢) »
ولو نظر إليها عَلَقَمَةٌ لَبَرِيْقٌ (٣) وَفَرِقٌ (٤) ، وَعِلْمٌ أَنَّهُ قَدْ طَرَقَ (٥) .
مَا بِنُّ عَبْدَةٌ وَمَا فَرِيْقُهُ ؟ قَدْ خَسِرَ وَكُسِرَ إِبْرِيْقُهُ . نَظْرَةٌ إِلَى تِلْكَ الْأَبَارِيْقِ
خَيْرٌ مِنْ بِنْتِ الْكَرْمَةِ الْعَاجِلِيَّةِ ، وَمِنْ كُلِّ رِيْقٍ ضَمِنْتُهُ هَذِهِ الدَّارُ الْخَادِعَةُ .
وَلَوْ بَصُرَ بِهَا عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ (٦) ، لَشَغِلَ عَنِ الْمُدَامِ وَالصَّيْدِ ، وَاعْتَرَفَ بِأَنَّ

من يخنك الصفاء أو يتبدل أو يزل مثل ما تزول الظلال
فاعلمن أني أخوك أخو الو د حياتي حتى تزول الجبال
ليس بخلاً عليك عندي بجال أبدأ ما أقل نعللاً قبالي
ولك النصر باللسان وبالكَف إذا كان لليدين مصال
وله مع الوليد أقاصيص ، ويروى أنه أوصى بأن يدفن إلى جنبه .

وترجمته الوافية منشورة في الجزأين الحادي عشر ، والثالث عشر من الأغاني .

- (١) شق أو قدَّ (٢) ثوب غليظ أبيض من الكتان (٣) تحير ، دهش
(٤) اشتد فزعاه (٥) ضعف عقله

(٦) عدى بن زيد العبادي

شاعر جاهلي نصراني ، قبيلته تميم ، وموطنه الحيرة ؛ دخل الأرياف ، فقتل لسانه .
ومن مختار شعره قوله :

« أعاذل ما يدريك أن منيتي الى ساعة في اليوم ، أو في ضحى الغد
ذريني ، فإنني إنما لي ما مضى أمامي من مال — إذا خفت عودي
وحمت لميقات الحى منيتي وغودرت — ان وسدت أولم أوسد —
وللوارث الباقي من المال . فاتركي عتابي ، فإنني مصلح ، غير مفسد »
وقوله من قصيدة أخرى له :

« أيها الشامت المعير بالدهر ! أنت المبرأ الموفور ؟ »

أَبَارِيْقٌ مُدَامِهِ أَمْرُهُ هَيِّنٌ لَا يُعَدِّلُ بِنَابِتٍ مِنْ حَمَصِيصٍ^(١) ، أَوْ مَا حُقِّرَ مِنْ
خَرْبَصِيصٍ^(٢) . فَأَمَّا الْأَقْيِشْرُ السَّعْدِيُّ^(٣) ، فَإِنَّهُ قَالَ - وَلَعَلَّهُ سَيَنْدُمُ - :
أَفْنَى تِلَادِي^(٤) وَمَا جَمَعْتُ مِنْ نَشَبٍ^(٥) قَرَعُ الْقَوَازِيْرِ^(٦) أَفْوَاهَ الْأَبَارِيْقِ

الى أن يقول :

« وتبين رب الخورنق إذ أشرف يوماً ، وللهدى تفكير
سره حاله وكثرة ما يملك والبحر معرضاً والسدير
فارعى قلبه ؛ فقال : « وما غبطة حى - إلى المات - يصير ! »

*
* *

ثم بعد القلاع والملك والأمة وارتهم هناك قبور
ثم صاروا كأنهم ورق جف فألوت به الصبا والدبور .

(١) بقلة رملية حامضة (٢) هنة فى الرمل لها بصيص كأنها عين الجراد ، أو نبات له
حب يتخذ منه طعام ، والغرض هنا التحقير

(٣) الأقيشر

كنيته أبو معرض . موطنه الكوفة . كان أحمر الوجه فسمى الأقيشر ، وكان خليعاً ماجناً
سكيراً ، وهجاء مقذعاً . يغضب إذا قيل له « يا أقيشر » . ومن أحسن شعره قوله :

« وصهباء جرجانية لم يطف بها حنيف ، ولم تنفر بها ساعة قدر
أتانى بها يحبى ، وقد نمت نومة وقد غابت الشعرى ، وقد خفق النسر
فقلت : اصطبجها ، أو لغيرى فاهدها فما أنا بعد الشيب - ويحك - والحجر
إذا المرء وفى الأربعين ، ولم يكن له دون ما يأتى حياء ولا ستر -
فدعه ، ولا تنفس عليه الذى أتى وإن جر أرسان الحياة له الدهر .

(٤) قديمى (٥) مال (٦) جمع قازوزة وهى قدح الشرب

ما هو وما شرايه؟ تَقَصَّتْ في الخائنة آرابه! لو عين تلك الأباريق
لأيقن أنه فُتِنَ بالغرور، وَسُرَّ بغير موجب للسرور. وكَمَ عَلَى تلك الأنهارِ
مِنَ آنية زَبْرَجِدٍ وَياقوتِ، بين أَصْفَرَ وَأَحْمَرَ وَأَزْرَقَ، يُخَالُ - إِنْ لِمَسَ -
أحرق، كما قال الصنوبري:

تَخَيَّلُهُ سَاطِعًا وَهَجُجُهُ فَتَأْتِي الدُّنُوَّ إِلَى وَهَجِهِ

وفي تلك الأنهارِ أوان على هيئة الطير السابحة^(١)، والغانية عن الماء^(٢) السابحة،
فمنها ما هو على صور الكراكي، وَأَخْرُ تُشَا كُلُّ الْمَسَاكِي؛ وعلى خَلْقِ طواويسَ
وَبَطِّ، فبعضٌ في الجارية وبعضٌ في الشطِّ؛ ينبع من أفواها شرابٌ، كأنه
- من الرقة - سرابٌ، لو جرَّع منه جرعة الحكمي^(٣) لحكم بأنه القوز، وشهد

(١) المائة (٢) البرية

(٣) ترجمة الحكمي «أبي نواس»

سنة ١٤٥ - سنة ١٩٩ هـ

الحسن بن هاني «الحكمي» ويكنى أبا نواس، مولده بالأهواز، ونشأته في البصرة
(انتقل إليها قبل أن يتجاوز الثانية من عمره)

أسلمته أمه إلى عطار، ولكن نفسه كانت لا تميل إلى هذه الصناعة، ليليه الشديد
إلى الشعر، فكان كثيراً ما يغشى أندية العلم والأدب - حتى مر به الشاعر الماجن الظريف
«الربة بن الحباب» - وكان أبو نواس معجباً به على السماع - فصحبه، وسار معه
إلى بغداد، وسنه أكثر من ثلاثين سنة، فلقى العلماء والشعراء، حتى نبه اسمه وطار صيته،
وقد اتصل بالرشيد ثم بابنه الأمين

ومن مختار شعره قوله في رثاء الأمين:

طوى الموت ما بيني وبين محمد وليس لما تطوى المنية ناشر
فلا وصل إلا عبرة تستديهما أحاديث نفس - ما لها الدهر - ذاكر

له كلُّ وَصَافٍ لِلخمر - من مُحَدَّثٍ وَعَتِيقٍ - أن أصنافَ الأَشربةِ المنسوبةِ إلى
الدارِ الفانيَّةِ ، كخمرِ عانةٍ وَأَذرعاتٍ وَغزَّةٍ وَبيتِ رَاسٍ ، وما جُلِبَ من بُصْرَى ،
وما اعتَصِرَ بَصَرَخِدٍ أَوْ أرضِ شامٍ ، وما ترددَ ذكره من كُميتِ بابلَ وَصُرَيْفِينِ ،

لئنِ عمرتِ دورَ بَينِ لا أَحِبُّهُم ، لقد عمرتِ مِمَّنِ أَحِبُّ المَقابرِ
وَكنتِ عليه أَحذرَ الموتِ وحدهِ فلم يبقَ لى شىءٍ عليه أَحاذرُ
ومن شعره الذى يمثُلُ نفسه اللاهية الماجنة قوله :

وداهريِّ سَمَا فى فرعِ مَكْرَمَةٍ من معشرِ خلقوا - فى الجودِ - غاياتِ
ناديتهِ بعد ما مالَ النجومُ ، وقد صاحَ الدجاجُ - يبشرى الصبحِ - مراتِ
فقلتِ - والليلِ يجلوه الصبحِ كما يجلو التَّبسمُ عن غرِ الثنِياتِ - :
« يا أحمدَ المرتجى فى كلِّ نائبةٍ ! قم سِدى ! نعصِ جبارِ السمواتِ ! »

*
**

وها كها قهوةٌ صفراءُ صافيةٌ منسوبةٌ لقرى رَهِيتِ وعاناتِ
صدمتهِ بِجَمِيهاها لأبسطةِ باللينِ طوراً ، وبالتشديدِ تاراتِ
حتى تغنى - وما تمَّ الثلاثِ له حلوا الشائلِ محمودِ السجياتِ :
« ياليتِ حظى من مالٍ ومن ولدِ أنى أجالسُ لُبْنى بالعشياتِ »
ومن غزلهِ فى الأَمينِ قوله (١) :

أصبحتِ صَبًّا ، ولا أقولُ بَينِ من خوفِ من لا يخافُ من أحدِ
ان أنا فُكرتِ فى هواى له حسبتِ رأسى قد طارَ عن جسدِ
انى - على ما ذُكرتِ من فرقِ - لا مِلَّ أنْ أناله ييدى

(١) رَووا أَنه كان يَشربُ يوماً مع الأَمينِ ، فتمنطُ للسباحةِ فلبسَ ثيابَ ملاحٍ . ولبسَ كوشراً (خادمِ الأَمينِ) مثلَ ذلكِ . ووقفاً فى البركةِ . فنظَرَ أبو نَواسٍ الى بَدَنِ مُحَمَّدٍ . فرأى ما لم يَرِ مثلهُ ، فلما كان من غَدٍ ، جاءَ الحُسينُ بنَ المنذرِ مسلماً عليه . فلما سأله الحُسينُ عن خبره مع الأَمينِ قالَ له أبو نَواسٍ : « وبلكَ ! رأيتُ الفتنَةَ ! » ثم حدثه بِخبره وأنشدَ تلكَ الايياتِ ، فقالَ له : « ويحك انتقِ اللهَ فى رأسِكَ . فإنه إن بلغه ذلكَ قتلَكَ » فأمسكَ أبو نَواسٍ بعد ذلكِ .

وما عَمِلَ مِنْ أَجْناسِ الْمُسْكِرَاتِ وما وُلِدَ مِنَ النَّخِيلِ : إِذَا كَانَتْ تِلْكَ النُّطْفَةُ^(١)
مَلِكَةً ، لَا تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ بِرِعايَها مُشْتَبِكَةً^(٢) . وَيَعَارِضُ تِلْكَ الْمُدَامَةَ أَنْهَارُ
مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ؛ ما كَسَبَتْهُ النَّحْلُ الْغَادِيَةَ إِلى الْأَنْوَارِ ، وَلَا هُوَ فِي مُومٍ^(٣) مُتَوَارٍ ،
وَلَكِنْ قَالَ لَهُ الْعَزِيزُ الْقَادِرُ : « كُنْ » فَكَانَ .

وَأَهاً لَدَيْكَ عَسلاً لَوْ جَعَلَهُ الشَّارِبُ الْمَحْرُورُ غِذاءً هُوَ طَوِيلُ الْأَبَدِ ، ما قُدِّرَ
لَهُ عَارِضُ مُومٍ^(٤) ، وَلَا لَبَسَ ثَوْبَ الْمَحْمُومِ ، وَذَلِكَ كُلُّهُ بِدَلِيلِ الْآيَةِ :
« مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ، فِيها أَنْهَارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ^(٥) وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ
لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ،
وَلَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ » فَلَيْتَ شِعْرِي عَنِ النَّمْرِ بْنِ تَوْلَبِ الْعُكْلِيِّ^(٦) ،
هَلْ يُقَدِّرُ لَهُ أَنْ يذوقَ ذَلِكَ الْأَرَى^(٧) ، فَيَعْلَمَ أَنَّ شُهَدَ الْفَانِيَةَ إِذا قَيْسٌ إِليه

(١) الماء القليل (٢) متصلة بها أو منسوبة إليها ، والمقصود أن هذه الخمر على جودتها
واختلافها لا تمت بصلة إلى خمر الجنة (٣) شمع (٤) مرض شديد الوطأة (٥) آسن :
متغير الطعم واللون

(٦) النمر بن تولب العكلي

شاعر جاهلي أدرك الاسلام ، قبيلته عكل ، وقد وفد على النبي ومدحه بشعره ، وكان
جواداً ، واسع العطاء ، وهو صاحب البيت المشهور :

أهيم بدعد ما حييت - فان أمت أوكل بدعد من يهيم بها بعدى

وفي رواية أخرى : « فيا ليت شعري من يهيم بها بعدى ؟ » والبيت ينسب إلى سواه أيضاً
وله مجموعة جميلة يرجع إليها من شاء في جمهرة أشعار العرب « ص ٢١٦ »

(٧) العسل

وَجَدَ يُشَاكِهِ (١) الشَّرِي (٢) ، وهو لما وَصَفَ أُمَّ حِصْنٍ (٣) ذَكَرَ حُوَّارِي (٤)
بِسْمَنِ ، وَعَسَلًا مُصَفًى ، قَالَ :

« أَلَمَّ بِصُجْبَتِي وَهَمُّ هُجُوعٍ خِيَالٌ طَارِقٌ مِنْ أُمَّ حِصْنٍ
لَهَا مَا تَشْتَهِي عَسَلًا مُصَفًى - إِذِ اشَاءَتْ - وَحُوَّارِي بِسْمَنِ »

ولو خالط من (٥) من عسل الجنان ما خلقه الله سبحانه في هذه الدار الخادعة
كَالصَّابِ وَالْمُقَرِّ (٦) ، لَعَدَّ مِنَ اللِّذَائِدِ الْمُرِّ تَقِيَاتٍ .

*
* *

وَإِذَا مَنْ اللَّه — تَبَارَكَ اسْمُهُ — بُوْرُودِ تِلْكَ الْأَنْهَارِ ، صَادَ فِيهَا الْوَارِدُ
سَمَكَ حَلَاوَةٍ — لَمْ يَرِ مِثْلَهُ — لَوْ بَصَّرَ بِهِ أَحْمَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ (٧) لَأَحْتَقَرَ الْهَدِيَّةَ الَّتِي

(١) يشابه (٢) الحنظل (٣) حبيته (٤) دقيق ينقى من لباب البر
(٥) المن : كل طل ينزل من السماء على شجر أو حجر ويحلو وينعقد عسلا ويجف جفاف
الصمغ ، والمن كيل أو ميزان يبلغ رطلين وقيل المن شرعاً مائة وثمانون مثقالاً وعرفاً مائتان
وثمانون . والمقصود مكيال صغير (٦) المر

(٧) احمد بن الحسين « المتنبى »

٣٠٣ - ٣٥٤ هـ

اسمه احمد بن الحسين ، لقبه المتنبى ، كنيته أبو الطيب ، ولادته بالكوفة ، وكان أبوه سقاء
نشأ أبو الطيب محباً للعلم والأدب ، قوى الحافظة ، فلما ترعرع حمله أبوه الى الشام يتنقل به
من باديتها الى حاضرتها ، واستمر في تلقى العلم ، فأتقن اللغة وتعمق في معرفة حواشيتها وحفظ
الكثير من شعر الجاهلية وغيره

نشأ بعيد الهمة ، كبير النفس ، فلم يقنع بالشهرة الأدبية ، بل طمحت نفسه الى السيادة بالفتح !
فدعا الى بيعته قوماً من مريديه من أبناء سنه فبايعوه ، وما كاد يتم له ذلك ، حتى وصل
خبره الى والى البلدة ، فقبض عليه وحبسه ؛ ثم أطلقه الوالى بعد حين .

أَهْدَيْتْ إِلَيْهِ ، فَقَالَ فِيهَا :

فيقال انه خرج الى بنى كلب ، وأقام فيهم وادعى أنه علوى ، ثم ادعى النبوة - وفي هذا كلام كثير ربما عدنا الى مناقشته

قالوا : « ولما شاع أمره بين الناس خرج عليه لؤلؤ ، أمير حمص من قبل الأخشيدية ، فقاتله وأسر من كان معه من بنى كلب وغيرهم من قبائل العرب ، وحبسه في السجن دهرًا طويلاً ، حتى كاد يتلف ، فسئل في أمره ، فاستتابه وكتب عليه وثيقة ، وأشهد فيها بطلان ما ادعاه ورجوعه الى الاسلام ؛ وأطلقه . فكان المتنبي كلما ذكر له قرآنه بعد ذلك حاول التنصل من تبعته »



ثم اشتهر بالشعر ، فتسابق الملوك الى استدئائه بالجوائز . ومنهم سيف الدولة بن حمدان فقدم عليه المتنبي سنة ٣٣٧ هـ ، ومدحه بكثير من غرر قصائده ، ثم وقع بين المتنبي وابن خالويه النحوى المشهور قول فى مجلس سيف الدولة ، فوثب على المتنبي ، فضرب وجهه بفتح كان معه فشجه ، ولم يدافع سيف الدولة عنه .

فغضب المتنبي ، ورحل الى مصر . وتقرّب من عدو بنى حمدان كافور الإخشيدى سنة ٣٤٦ هـ وامتدحه انتقاماً من سيف الدولة ، فأكرمه كافور ، ثم ارتاب فيه لما رأى من كبره وتعاليه ، وقال : « يا قوم ! من ادعى النبوة بعد محمد (صلعم) ، ألا يدعى الملك مع كافور ؟ »

فأم أبو الطيب بغداد ، ثم فارس ، حيث امتدح عضد الدولة ابن بويه الديلمى ، فأجزل عطاءه ، وعاد من فارس قاصداً بغداد حيث قتل فى طريقه .

ومن أجل ما نختاره من شعره قوله :

لقد تصبرت حتى لات مصطبر	فالآن أقحم حتى لات مقتحم
لأتركن وجوه الخليل عابسة	والحرب أقوم من ساق على قدم
بكل منصلت ما زال منتظرى	حتى أدلت له من دولة الخدم

أَقْلُ مَا فِي أَقْلَهَا سَمَكٌ يَلْعَبُ فِي بَرَكَةٍ مِنَ الْعَسَلِ (١)

وقوله من قصيدة أخرى :

« تمرست بالآفات حتى تركتها
وأقدمت إقدام الأثني كأن لي
ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها
ولا تحسبن المجد زقا وقينة
وتضريب أعناق الملوك ، وأن ترى
وتركك في الدنيا دويا ، كأنما

وفيها يقول :

« ومن ينفق الساعات في جمع ماله
مخافة فقر ، فالذي فعل الفقر »

*
**

وقوله من قصيدة طويلة :

« يا ساقبي ! أخرج في كؤوسكا
أصخرة أنا ؟ مالي لا تغيرني
أما لقيت من الدنيا ، وأعجبه
أم في كؤوسكا هم وتسهيده
هذي المدام ، ولا هذي الأغاريد
أني بما أنا باك منه محسود »

وقد ذكرنا نخبة مختارة من شعره الرائع في كتاب نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي
بمناسبة المقارنة التي عقدها بينه وبين ابن هانيء الشاعر الأندلسي الذي كان يعاصره ،
وفي كتابنا « صور جديدة من الأدب العربي » إلمامة تعني المستزيد فيرجع إليهما من شاء .

(١) هذا البيت من قصيدة له ارتجلها في صباه حين أهدى إليه عبيد الله بن خلكان هدية

فيها سمك من سكر ولوز من عسل ، وأولها :

« قد شغل الناس كثرة الأمل وأنت بالمكرمات في شغل »

ومنها :

« هدية ما رأيت مهيدها
أقل ما في أقلها سمك
الارأيت العباد في رجل
يسبح في بركة من العسل »

فَأَمَّا الْأَنْهَارُ الْخَمْرِيَّةُ ، فَنَلَعِبُ فِيهَا أَشْمَاكَ - هِيَ عَلَى صُورِ السَّمَكِ -
بِحَرْيَةٍ وَنَهْرِيَّةٍ ؛ فَإِذَا مَدَّ الْمُؤْمِنُ يَدَهُ إِلَى وَاحِدَةٍ مِنْ ذَلِكَ السَّمَكِ شَرِبَ مِنْ
فِيهَا عَذْبًا لَوْ وَقَعَتِ الْجُرْعَةُ مِنْهُ فِي الْبَحْرِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ مَاءُهُ الشَّارِبُ ،
حَلَّتْ مِنْهُ أَسَافِلُ وَغَوَارِبُ (١) ،

ندامى الفردوس

وَكَأَنِّي بِهِ - وَقَدْ اسْتَحَقَّ تِلْكَ الرَّثْبَةَ - وَقَدْ اصْطَفَى لَهُ نِدَامِي مِنْ أَدْبَاءِ
الْفِرْدَوْسِ ، كَأَخِي ثَمَالَةَ (٢) ، وَأَخِي دَوْسٍ (٣)

(١) الغارب هو الكاهل ، أو ما بين السنام إلى العنق ، والمقصود به هنا سطح البحر

(٢) أخو ثمالة « المبرد »

اسمه محمد بن يزيد ، ويكنى أبا العباس ، وأخا ثمالة ؛ ويلقب بالمبرد ، صاحب كتاب الكامل
الدائع الصميت ؛ وهو الذي يقول فيه الشاعر :

سألنا عن ثمالة كل حي ، فقال القائلون : « ومن ثمالة ؟ »

فقلت : « محمد بن يزيد منهم » فقالوا : « الآن زدتهم جماله ! »

(٣) أخو دوس « ابن دريد »

٢٢٣ - ٣٢١

اسمه محمد بن الحسن ، كنيته أبو بكر ، وموطنه البصرة - ولد ونشأ بها ، وأخذ من علمائها
كلرياشي والسجستاني - ثم غادرها إلى عمان أثناء فتنة الزنج التي حدثت بها « ارجع إلى
ديوان ابن الرومي (ج ٣ من ص ٤١٩ - ٤٢٧) » فأقام بها اثنتي عشرة سنة أخذاً للغة
والشعر عن الأعراب ، ورجع إلى البصرة شاخصاً إلى فارس منتجعاً للشاه بن ميكال وولده ،
وألف لهما كتاب الجهرة - في اللغة - فقلدها الديوان ، وقد أبدع في مدحهما في مقصودته
الخالدة حين قال من كلام رائع :

ها اللذان أثبتا لي أملا قد وقف اليأس به على شفا
تلافيًا العيش - الذي رتقه صرف الزمان - فاستساع ، وصفا
وأجريا ماء الحيا لي رغداً ، فاهتز غصني بعد ما كان ذوى
ها اللذان سموا بناظري من بعد إغضائي على لذع القذى
ها اللذان عمرا لي جانبا من الرجاء ، كان قدما قد عفا
إلى أن يقول :

إن ابن ميكال - الأمير - انتاشني من بعد ما قد كنت كالشيء اللقي
ومد ضبعي أبو العباس ، من بعد انقباض الذرع والباع الوزى

ولما عزلا عن عمالة فارس ، وانتقلا إلى خراسان ، ذهب ابن دريد إلى بغداد سنة ٣٠٨ هـ فاحتفي به أهلها ، وأجرى عليه الخليفة « المقتدر » خمسين ديناراً في كل شهر ، حتى أصيب بالفالج ، ومات سنة ٣٢١ .

ومن الملح التي يرويها عنه بعض من حضر مجالسه ، أنه كان يتضجر ممن يخطيء في قراءته ، فحضر غلام وضىء ، فجعل يقرأ ويكثر الخطأ - وابن دريد صابر عليه - فتمعجب أهل المجلس ، فقال رجل منهم : « لا تعجبوا ، إن في وجهه غفران ذنوبه » فسمعها ابن دريد ، فلما أراد الرجل أن يقرأ قال ابن دريد : « هات يامن ليس في وجهه غفران ذنوبه ! » قالوا : « فمعجبوا من صحة سمعه مع علو سنه » .

وقال بعضهم فيه :

« من يكن للظباء صاحب صيد فعليه بمجلس ابن دريد
إن فيه لأوجها قيدتي عن طلاب العلاء بأوثق قيد »

ويروون عنه أنه كان مولعاً بالآلات الطرب ، وقد بلغ من حبه الخمر أن سائلاً سأله شيئاً ، فلم يجد ما يعطيه إلا دن نبيد ، فأنكر عليه غلامه أن يتصدق به ، فقال : « ليس عندي سواه » وقرأ قوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون »

قالوا : وأهدى إليه بعد ذلك عشرة دنان ، فقال لغلامه : أخرجنا دنا فجاءنا عشرة ! » .

وأخباره طويلة وحياته حافلة وشعره رائع ؛ وهو جدير أن يعنى الأدباء بأدبه وتفهم شخصيته الجذابة، عناية خاصة ؛ ومقصورته الطويلة من آيات الشعر العربي . وليس يتسع هذا المقام الضيق إلى التوسع في ترجمته أو التمثل بشعره الجميل ، غير أننا نكتفي من ذلك بآيات قلائل تعد بمثابة إشارات إلى خطره العظيم وشاعريته الباهرة ، فمن ذلك قوله — وهو يعد في رأينا انتباهاً إلى أحد الأسس الثلاثة التي بنى عليها النقادة الفرنسي تين (Taine) نظريته في تفهم حياة الأدباء ، وهي : « الزمن والبيئة والجنس » — قال :

وكل قرن ناجم في زمن فهو شبيه زمن فيه بدا

ومن أبدع معانيه قوله في تلك المقصورة أيضاً :

لو كانت الأحلام ناجتني بما ألقاه يقظان ، لأصاني الردى
منزلة ، ما خلتها يرضى بها لنفسه ، ذو أدب ولا حجا
شيم سحاب خلب بارقه وموقف بين ارتجاء ومنى
في كل يوم منزل مستوبل يشتف ماء مهجتي ، أو مجتوى
ما خلت أن الدهر يثني على ضراء - لا يرضى بها ضب الكدى
أرْمق العيش على برض ، فان رمت ارتشافا، رمت صعب المنتشى

أراجع لي الدهر حولاً كاملاً إلى الذي عود ، أم لا يرتجى ؟
يادهر ! إن لم تك عتبي ، فائتد ، فان إروادك والعتبي سوا
رفه على طالما أنصبتني واستبق بعض ماء غصن ملتحي

وهنا يقول ويبدع :

لا تحسبن يا دهر أنى ضارع لنكبة تعرقني عرق المُدى
مارست من لوهوت الأفلاك من جوانب الجو عليه ما شكا
لكنها نفثة مصدور - إذا جاش لغام من نواحيها - غما
رضيت قسراً ؛ وعلى القسر رضى من كان ذا سخط على صرف القضا

وَابْنِ مَسْعَدَةَ الْمَجَاشِعِيِّ^(١) ، وَيُونُسَ بْنَ حَبِيبِ الضَّبِّيِّ^(٢) ، فَهَمْ - كَمَا جَاءَ فِي

إن الجديدين - إذا ما استوليا
ما كنت أدرى - والزمان مولع
أن القضاء قاذفي في هوة
على جديد - أذنيه للبلى
بشت ملموم ، وتنكيث قوى -
لا تستبل نفس من فيها هوى الخ الخ
ونحتم هذه المختارات بقوله من قصيدة طويلة ، فياضة بالشاعرية العالية :

وبالشعر يبدي المرء صفحة عقله
وسيان من لم يمتط اللب شعره
جوانب أرجاء البلاد مظلة
ألم تر ما أدت الينا وسيرت
هم اقتضبوا الأمثال صعبا قيادها
وقالوا : الهوى يقضان ، والعقل راقد
ومما جرى كالوسم في الدهر قوهم :
وكالنار في ييس الهشيم مقالهم :
فقد سيروا ما لا يسير مثاله
فيعلن منه كل ما كان يكتم
فيملك عطفه وآخر مفحم
تبيد الليالى ، وهى لا تتخرم
على قدم الأيام عاد وجرهم
فذل لهم منها الشريس الغشمشم
وذو العقل مذكور ، وذو الصمت أسلم
على نفسه يجنى الجهول ويجرم
ألا إن أصل العود من حيث يقضم
فصيح على وجه الزمان وأعجم

وأحب أن يرجع القارىء الى رثائه فى الجزء الثالث من كتاب الأمالى لأبى على القالى (ص ٢٢٩) ليتبين مكانه فى قلوب معاصريه . ولقد أصاب أبو العلاء وأحسن كل الإحسان حين لقبه بشيخ الأزد ، أثناء استشهاده بشعره فى الجزء الثالث من هذا الكتاب ؛ وسيمر بك ذلك فى حينه

(١) الأخنش الأوسط

نحوى ، عالم باللغة والأدب ، أخذ العربية عن سيديويه ، وصنف كتباً كثيرة ، منها :
كتاب تفسير معانى القرآن

(٢) يونس بن حبيب الضبى

أخذ الأدب عن أبى عمرو بن العلاء ، وحماد بن سلمة ؛ وغلب عليه النحو ، حتى أخذ
عنه أبو زيد الأنصارى النحوى ، وخلف الأحمر

الكتاب العزيز - : « وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ ، إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ، لَا يُمَسِّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ »
فَصَدْرُ أَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى ^(١) هُنَالِكَ قَدْ غُسِلَ مِنَ الْحَقْدِ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ يَزِيدَ ^(٢) ،
فَصَارَا يَتَصَافِيَانِ وَيَتَوَافِيَانِ ، وَأَبُو بَشِيرٍ عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ « سَيَبُويَه » ^(٣) قَدْ رَحِضَتْ ^(٤)
سُويْدَاءُ قَلْبَهُ مِنَ الضَّغْنِ عَلَى عَلِيِّ بْنِ حَمْزَةَ الْكَسَائِي ^(٥) وَأَصْحَابِهِ لِمَا فَعَلُوا بِهِ فِي

وقد عرف عنه شدة التعصب لرؤبة بن العجاج ، حتى إنه كان لا يبالي أن يسمى الى
بعض ذوى الرفعة والجاه في سبيل الذود عن أستاذه رؤبة ، ومن أدلة تعصبه له ، أنه سئل
يوماً : « من أشعر الناس ؟ » فقال : « العجاج ورؤبة » فقيل : « لم نعن الرجاز » فقال :
« هما أشعر أهل القصيد ، وإنما الشعر كلام ، وأجوده أشعره ! »

ومن مؤلفاته كتاب : « معاني القرآن » وكتاب : « اللغات » وكتاب : « الأمثال »

(١) هو المشهور بثعلب النحوى اللغوى ، وكان بينه وبين المبرد منافاة

(٢) هو أبو العباس المبرد « وقد مرت ترجمته في ص (١٦) »

(٣) سيبويه

توفى سنة ١٨٣ هـ

اسمه عمرو بن عثمان مولى الحارث بن كعب ، وكنيته أبو بشر ، ولقبه سيبويه - وهى كلمة
فارسية معناها « رائحة التفاح » - ونشأته بالبصرة ، وقد أصبحت شهرته فى النحو مضرب الأمثال ،
وذاع صيته ونبه شأنه ، ولا سيما بعد كتابه الذى ألفه فى النحو واستبق اليه الناس استباقاً ،
وبلغ من إجلال شأنه وإكبار خطره أن أبا عثمان المازنى قال فيه : « من أراد أن يعمل كتاباً
كبيراً فى النحو - بعد كتاب سيبويه - فليستح ! » وقول أبى العباس المبرد - لكل من
أراد دراسة هذا الكتاب - : « هل ركبت البحر ؟ » تعظيماً لشأنه

وسيبويه أشهر من أن يحتاج الى ترجمة أو تعريف (٤) غسلت

(٥) الكسائى (توفى سنة ١٨٩ هـ)

اسمه على بن حمزة ، ولقبه الكسائى ، وأصله فارسى . وهو أشهر نحات الكوفة ، أخذ عن

مجلس البرامكة، وأبو عبيدة^(١) صافى الطوية لعبد الملك بن قريب^(٢). «والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعمة عقيب الدار» وهو معهم كما قال البكري^(٣):

الخليل بن احمد؛ واستقدمه خلفاء بني العباس والبرامكة إلى بغداد لتعليم أبنائهم. اشتهر بعدائه لسبويه وكثرة التعريض به. ومما يذكر لها منازعتهما في مسألة الزبور والنحلة وتعصب الأمين للكسائي - مع أن الحق مع سبويه - لأنه معاهه. وقد فصلنا هذه القصة في كتابنا « صور جديدة من الأدب العربي » فلاحاجة لذكرها هنا

(١) أبو عبيدة - توفي سنة ٢٠٩ هـ .

اسمه : معمر ، اسم أبيه : المتنبى التيمي ، كنيته : أبو عبيدة
انفرد عن بقية الرواة بسعة حفظه لأخبار العرب وأنسابهم وعلومهم وآدابهم ، واشتهر بمناظراته مع الأصمعي في مجلس الرشيد
وكان متعصباً على العرب ؛ وكان يرى رأى الخوارج ، وكان لجاناً سبباً ، وقد أولع بالمثلث حتى إنه ألف فيها كتاباً ، ولم ينبج من طعنه شريف . وكان شديد الثقة بنفسه ، وقد بلغ من مغالاته في الاعتداد بها ، ما أثر عنه من قوله : « ما التقى فرسان في جاهلية أو إسلام إلا عرفتهما وعرفت فارسهما »

وهذا كلام يدل على الغرور والخيلاء ، على أنه حفظ لنا كثيراً من أخبار العرب التي كانت تضيع : لولا ما تركه من المؤلفات العديدة ، وإن كان لم يصلنا منها الا النزر اليسير
(٢) الأصمعي - توفي سنة ٢١٤ هـ

اسمه عبد الملك بن قريب ، ولقبه الأصمعي ، وقبيلته قيس ، وموطنه البصرة ، وقد قدم إلى بغداد في أيام الرشيد . كان واسع الرواية ، حاضر المحفوظ ، متبحراً في اللغة ؛ ولا أدل على ذلك من الكتب التي أفردتها خاصة بأسماء الوحوش والإبل والخليل والنبات والشجر ، إلى غير ذلك
(٣) أعشى قيس - توفي سنة ٦٢٩ م

اسمه ميمون بن قيس ، وكنيته أبو بصير ، ولقبه الأعشى ، وقبيلته بكر بن وائل ، ومسكنه الحيرة ، ومن أكبر ما امتاز به شعره أن العرب كانوا يتغنون به - كما كان هو يتغنى بشعره أيضاً -

ومن ثم دَعَوهُ « صناجة العرب » وهو لقب كبير الخطير يدل على ما أحرزه من صيت ورفعة شأن
ولعل أكبر عيوبه أنه كان — فيما يقول مؤرخو الآداب — أول من سن للشعر طريقاً
غير محمودة لتكسبه به ، ونحن ننقم عليه هذه الخلة الممقوتة إذا صحت عنه .

أما شعره فرائع فياض بأسمى العواطف والإحساسات ، وهو يمتاز بموسيقية خاصة وروح
خفيفة ، وأسلوب مشرق بالحياة والقوة . وقد اشتهر بوصفه للخمر ، وكان يشتريها من نصارى
الحيرة الذين كان يكثر التردد عليهم والاختلاط بهم ، ويحتمل أن يكون ذلك قد أثر في
عقيدته ، فقد قالوا عنه : إنه كان قدرى المذهب ، واستدلوا على ذلك بقوله :

« استأثر الله بالوفاء وبالعد ل ، وولى الملامة الرجلا »

وهذا بيت جامع دقيق يصح أن يكون خلاصة مذهب فلسفي — على إيجازه !

*
* *

أما خطره ، وأثر شعره في نفوس معاصريه الجاهليين ، فقد وصل إلى أبعد حد ، فقد كان
لا يمدح أحداً إلا رفعه ، وأكبر دليل على ذلك حكايته المشهورة مع الخلق ، فقد كانت
القاسية التي امتدحه الأعشى بها سبباً في تزويج بناته الثمانى

ولم يغفل أعداء النبي عن هذه الميزة الباهرة التي امتاز بها شعر الأعشى ، فحشوا أن يسلم
فيمدح النبي فيذيع أمره ويقبل الناس على دينه ، وعرفوا من الأعشى حبه المال وحرصه عليه ؛
فعزم أبو سفيان وقومه على إغرائه بالرجوع ورصدوه في طريقه ، فلما وصل إليهم قالوا له :
« أين أردت يا أبا بصير ؟ » فقال : « أردت صاحبكم هذا لأسلم » فقالوا : « إنه ينهك عن
خلال ويحرمها عليك ، وكلها لك موافق » قال « وما هن ؟ » فقال أبو سفيان بن حرب :
« القمار » قال : « لعلى أن أصبت منه عوضاً عن القمار ! ثم ماذا ؟ » قالوا : « الربا » قال :
« ما دنت ولا أدنت ! ثم ماذا ؟ » قالوا : « الخمر » قال : « أوه . أرجع إلى صباية قد بقيت
لى في المهراس فأشربها ! » فقال له أبو سفيان : « وهل لك في خير مما همت به ؟ » قال :
« وما هو ؟ » قال : « نحن وهو الآن في هدنة ، فتأخذ مائة من الإبل ، وترجع إلى بلدك
— سنئك هذه — وتنتظر ما يصير إليه أمرنا ، فإن ظهرنا عليه ، كنت قد أخذت خلفنا ،

نَازَعَتْهُمْ قُضْبَ الرَّيْحَانِ مُرْتَفَقًا^(١) وَقَهْوَةً^(٢) مُرَّةً^(٣) رَاوُوقَهَا^(٤) خِضْلًا^(٥)
لَا يَسْتَفِيقُونَ مِنْهَا وَهِيَ رَاهِنَةٌ^(٦) إِلَّا «بِهَاتِ» وَإِنْ عَلُوا، وَإِنْ نَهَلُوا
يَسْعَى بِهَا ذُو زُجَاجَاتٍ لَهُ نُطْفٌ^(٧) مُقْلَصٌ أَسْفَلَ السَّرْبَالِ مُعْتَمِلٌ^(٨)
وَمُسْتَجِيبٌ^(٩) تَخَالَ الصَّنِجِ^(١٠) يُسْمِعُهُ إِذَا شُرِّجَ^(١١) فِيهِ الْقَيْنَةُ الْفُضْلُ^(١٢)

وَأَبُو عُبَيْدَةَ يُذَاكِرُهُمْ بِوَقَائِعِ الْعَرَبِ ، وَمَقَاتِلِ الْفَرَسَانِ ، وَالْأَصْمَعِيِّ يُنْشِدُهُمْ
مَا أَحْسَنَ قَائِلُهُ .

وَتَهَشُّ نَفُوسُهُمْ لِلْعَبِّ ، فَيَقْذِفُونَ تِلْكَ الْآنِيَةَ فِي أَنْهَارِ الرَّحِيقِ ، وَيَصْقُقُهَا^(١٣)
الْمَازِي^(١٤) الْمُعْتَرِضُ أَيَّ تَصْفِيْقٍ ؛ وَتَقْتَرِعُ^(١٥) تِلْكَ الْآنِيَةَ ، فَيُسْمَعُ لَهَا أَصْوَاتٌ ،
تُبْعَثُ^(١٦) بِمِثْلِهَا الْأَمْوَاتُ ، فَيَقُولُ الشَّيْخُ : « آه لِمُضْرَعِ الْأَعْشَى مَيْمُونِ ! وَوَدِدْتُ أَنَّهُ

وإن ظهر علينا ، أتيته » فقال : « ما أكره ذلك » فقال أبو سفيان : « يا معشر قريش !
هذا الأعشى ، لأن أتي محمد أو اتبعه ، ليضر من عليكم نيران العرب بشعره ، فاجمعوا له مائة
من الإبل » ففعلوا ، فأخذها ، وانطلق إلى بلده ، فلما قرب من اليمامة سقط عن ناقته ،
فدقت عنقه ، ودفن بها .

(١) متلطفاً — مترفقاً ، وقيل المرتفق هو المتكىء على المرفق (٢) خمرًا (٣) لذيدة الطعم
— فيها مرارة (٤) إناءها ، وقيل الراووق هو ما يخرج من ثقب الدن (٥) مبتل — ند ،
فهو يترشف نداء (٦) معدة ، دائمة لا تنقطع (٧) النُطْفُ واحدها نُطْفٌ ، وهو القرط ؛
أما المعتمل فالدائب الخفيف الحركة (٨) قيل هو العود ، تظن أن الصنج أسمعته صوته ، فأجابه
العود (٩) نوع معروف من آلات الطرب (١٠) تُصرفه من شدة إلى لين (١١) هي المتفضلة
في ثوب واحد أي المتوشحة به مخالفة بين أطرافه على عاتقها — وقيل هي التي عليها ثوب بلا
درع أو التي تحت درعها إزار (١٢) يصفقها : يلطمها ، ويمتزج بها . والمعنى أن الماذي الذي
يعترض أنهار الرحيق يلطم الآنية ويمتزج بما فيها (١٣) العسل الأبيض (١٤) يصك
بعضها بعضاً (١٥) تحيا بعد الموت

ما صدّته قریشٌ لما توجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم^(١)، ولو أنه أسلم لجاز أن يكون بيننا في هذا المجلس فيُنشِدنا غريبَ الأوزانِ، مما نُظِم في دار الأحرانِ، ويُحدِّثنا حديثه مع هُوذة بنِ عليٍّ^(٢)، وعامر بنِ الطفيلِ^(٣) ويزيد بنِ مُسهرٍ، وغيرهم ممن مدحه أو هجاهُ، وخافه في الزمن أو رجأهُ .

(١) ذكرنا قصة ذلك عند ترجمة الأعشى في الصفحتين ٢٢ و ٢٣ من هذا الجزء

(٢) هُوذة بن علي

كان ملكاً على اليمامة، وكان نصرانياً فأسلم، ثم ارتد، وذلك أنه قال: « إن جعل لي محمد الأمر من بعده أسلمت ونصرته » فقال النبي (صلم) : « لا ، ولا كرامة ، اللهم اكفنيه » فمات بعد قليل

(٣) عامر بن الطفيل

فارس قيس ، وابن عم لبيد ، كان أعور عقيماً . أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال له : « أتجعل لي نصف ثمار المدينة وتجعلني ولي الأمر من بعدك وأسلم ؟ » فقال - صلى الله عليه وسلم - : « اللهم اكفني عامراً واهد بني عامر » فانصرف وهو يقول : « لأملأنها خيلاً جرداً ورجالاً مرداً ، ولأر بطن بكل نخلة فرساً » فطعن في طريقه فمات . ومن مختار شعره قوله :

وإني وإن كنت ابن فارس عامر وسيدها المشهور في كل موكب
فما سودتني عامر عن وراثة أبي الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكنني أحى حماها ، وأتقى أذاها ، وأرمى من رماها بمنكب

ومن أجمل شعره قوله :

قضى الله في بعض المسكاره للفتى برشد ، وفي البعض الهوى ، ما يحاذر
ألم تعلمي أني - إذا الإلف قاذي إلى الجور - لا أنقاد ، والإلف جائر

نزهة ابن القارح

ثم إنه - آدم الله تمكينه - يُخْطِرُ له حديثُ شيءٍ كان يُسمَّى « النزهة »
في الدار الفانية ، فيركبُ نجيباً^(١) من نُجُبِ الْجَنَّةِ ، خُلِقَ من ياقوتٍ ودُرٍّ ، في
سَجَسِجِ^(٢) بعدَ عن الحرِّ والقرِّ ؛ فيسيرُ في الجنةِ على غيرِ منْهَجٍ ، ومعهُ شيءٌ من
طعامِ الخلود ، فإذا رأى نجيبه يُملِّعُ^(٣) بين كُثبانِ العنبرِ ، رفعَ صوته مُتمثلاً
بقولِ البكريِّ^(٤) :

لَيْتَ شِعْرِي مَتَى تَحْبُ^(٥) بِنَا النَّا قَةَ بَيْنَ الْعُذَيْبِ فَالْصَيْبُونَ^(٦)
مُحِبِّبًا^(٧) زُكْرَةً^(٨) وَخُبْزَ رِقَاقٍ وَحِبَاقًا^(٩) وَقِطْعَةً مِنْ نُونٍ^(١٠)

حديث الأعشى

فِيهِتِفُ هَاتِفٌ : « أَتَشْعُرُ أَيُّهَا الْعَبْدُ الْمَغْفُورُ لَهُ ، لِمَنْ هَذَا الشَّعْرُ ؟ »
فيقول الشيخ : « نعم ، حدثنا أهلُ ثِقَتِنَا عن أهلِ ثِقَّتِهِمْ ، أن هذا الشَّعْرَ
لِمَيْمُونِ بْنِ قَيْسِ بْنِ جَنْدَلٍ » فيقول الهاتِفُ : « أنا ذلك الرَّجُلُ ، مَنْ اللهُ عَلَيَّ »

(١) جملاً كريماً (٢) جو معتدل (٣) يسير سيراً سريعاً وخفيفاً (٤) هو الأعشى
وقد مرت ترجمته في ص ٢١ و ٢٢ و ٢٣ من هذا الجزء (٥) الخبب : نوع من سير الإبل
(٦) العذيب والصييون مكانان ببلاد العرب (٧) واضعاً في الحقيبة (٨) زقا صغيراً للخمير
(٩) الحباق : الحزمة من القت . وقد شرحتها أبو العلاء بقوله : « جرزة البقل » ، ومنه قول الشاعر :
فأتونا بدرمق وحباق وشواء مرعبل وصاب

(١٠) النون : السمك ، ومعنى الأبيات أنه يبدي شوقه الشديد الى ركوب ناقته مسرعة به
في رحلتها نحو العذيب والصييون ، وقد وضع في حقيبته زق خمر صغيراً وخبز رقاق وحزمة
من القت وقطعة من السمك ، وهذا هو كل زاده الشهي في تلك الرحلة الجميلة التي يتوق اليها
(٤)

بعد ما صرْتُ مِنْ جَهَنَّمَ عَلَى شَفِيرٍ ، وَيَسْتُ مِنَ الْمُغْفَرَةِ « فَيَلْتَفِتُ إِلَيْهِ
 الشَّيْخُ هَشًّا بَشًّا مُرْتَاحًا ، فَإِذَا هُوَ بِشَابِّ غُرَانِقٍ ^(١) ، وَقَدْ صَارَ عِشَاءُ حَوْرًا ،
 وَأُنْحِنَاءُ ظَهْرِهِ قَوَامًا ، فَيَقُولُ : « سَجَبْتَنِي الزُّبَانِيَّةُ إِلَى سَقَرٍ ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا فِي
 عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ يَتَلَأُّ وَجْهَهُ تَلَأُّ الْقَمَرِ ، وَالنَّاسُ يَهْتَفُونَ بِهِ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ^(٢) :
 « يَا مُحَمَّدُ ! يَا مُحَمَّدُ ! الشَّفَاعَةَ ! الشَّفَاعَةَ ! نَمْتُ بِكَذَا وَنَمْتُ بِكَذَا » فَصَرَخْتُ فِي
 أَيْدِي الزُّبَانِيَّةِ : « يَا مُحَمَّدُ ، أَغْنِنِي ، فَإِنَّ لِي بِكَ حُرْمَةً ! » فَقَالَ : « يَا عَلِيُّ ! بَادِرْهُ
 فَاَنْظُرْ مَا حُرْمَتُهُ » فَبَجَّاءَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - وَأَنَا أُعْتَلُّ ^(٣)
 كَيْ أُلْتَقِيَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ، فَزَجَرَهُمْ عَنِّي ، وَقَالَ : « مَا حُرْمَتُكَ ؟ »
 فَقُلْتُ : « أَنَا الْقَائِلُ :

فَإِنَّهَا فِي أَهْلِ يَثْرِبَ مَوْعِدًا	أَلَا أَيُّهَا السَّائِلِيُّ أَيْنَ يَمَّتْ
وَلَا مِنْ حَقِّي حَتَّى تُتْلَقَ مُحَمَّدًا	فَقَالَيْتُ لَا أَرْتِي لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ
تُرِيحِي وَتَلْقَى مِنْ فَوَاضِلِهِ نَدَا	مَتَى مَا تُنَاخِي عِنْدَ بَابِ ابْنِ هَاشِمٍ
نَبِيِّ الْأَلِهَةِ حِينَ أَوْصَى وَأَشْهَدَا	أَجِدُكَ ^(٤) لَمْ تَسْمَعْ وَصَاةَ مُحَمَّدٍ
وَأَبْصَرْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ قَدْ تَرَوَدَا	إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرَحَلْ بَزَادٍ مِنَ التُّقَى
وَأَنَّكَ لَمْ تُرْصِدْ ^(٥) لِمَا كَانَ أَرْصَدَا ^(٦)	نَدِمْتَ عَلَى أَنْ لَا تَكُونَ كَمِثْلِهِ

(١) جميل (٢) الأوب: الطريق، ومن كل أوب أى من كل طريق أو من كل جهة
 (٣) يُجَرُّ بَعْنَفٍ (٤) أجْدك - بفتح الجيم وكسرها - أى: أبجد منك هذا، وهو منصوب
 على نزع الخافض (٥) أرصد الرقيب أى نصبه على الطريق (٦) معنى الأبيات: أيها
 السائلى أين تذهب بى ناقتى، إنها ذاهبة إلى يثرب، إلى محمد بن عبد الله، وقد أقسمت
 لا أريحها ولا أشفق عليها مهما تجدد من الإعياء والتعب حتى تبلغ أعتاب هذا النبى الكريم،

وقد كنت أومِنُ بالله وبالْحَسَابِ ، وَأَصْدُقُ بِالْبَعثِ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَةِ الْجُهْلَاءِ »
 فذهب عليٌّ إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : « يا رسول الله ، هذا
 أعشى قيسٍ : قد روى مدحه فيك ، وشهد أنك نبيٌّ مرسلٌ » فقال :
 « هَلَّا جَاءَ فِي الدَّارِ السَّابِقَةِ ؟ » فقال عليٌّ : « قد جاء ، ولكن صدته قريشٌ
 وحبُّهُ للخمرِ ^(١) » فشفع لي ، فَأَدْخَلْتُ الْجَنَّةَ عَلَى أَنْ لَا أَشْرَبَ فِيهَا خَمْرًا ،
 فَقَرَّتْ عَيْنَايَ بِذَلِكَ . وَإِنَّ لِي مَنَادِحَ ^(٢) فِي الْعَسَلِ وَمَاءِ الْحَيَوَانِ ^(٣) ، وَكَذَلِكَ
 مَنْ لَمْ يَتُبْ مِنَ الْحَمْرِ فِي الدُّنْيَا لَمْ يُسْقَهَا فِي الْآخِرَةِ

حديث زهير بن أبي سلمى

وَيَنْظُرُ الشَّيْخُ فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ ، فَيَرَى قَصْرَيْنِ مُنِيفَيْنِ ^(٤) فيقول في نفسه :
 « لَا بُلْغَنَ هَذَيْنِ الْقَصْرَيْنِ ، فَأَسْأَلُ : لِمَنْ هُمَا ؟ » فَإِذَا قُرْبَ مِنْهُمَا ، رَأَى عَلَى
 أَحَدِهِمَا مَكْتُوبًا : « هَذَا الْقَصْرُ لَزُهَيْرِ بْنِ أَبِي سَلْمَى الْمُرَزِيِّ ^(٥) » وَعَلَى الْآخَرِ :

فإذا انتهت إلى بابه رأته من كرمه وفواضله ما ينسبها كل ما لقيته من الجهد والنصب . وأنت ،
 ألم يبلغك بربك ما أوصى به هذا النبي لتدرك السبب الذي حفزني إلى لقائه ، لقد حث على
 التزود من التقى والعمل بما أتى به من التشريع السامح ؛ وبين مآل المتهاونين في تنفيذ تلك
 الوصايا الحكيمة ومقدار ما يلحق المفرطين من الندم الشديد حين يرون ما يزف من الخير - في
 النار الآخرة - إلى من أطاعه وعمل بنصائحه في الدار الأولى

(١) ارجع إلى ص ٢٢ و ٢٣ (٢) جمع مندوحة ، أي سعة أو غنية (٣) ماء الحياة (٤) عاليين

(٥) زهير بن أبي سلمى

توفي سنة ٦٣١ م أي قبل البعثة بسنة

هو من مزينة - إحدى قبائل مضر - وقد اشتهرت أسرته بالشعر ، واشتهر بمدحه هرم
 ابن سنان ، كما اشتهر بالتفوق في إجادة الحكم ، مع الصدق وعدم المبالغة ، والبعد عن المعازلة

« هذا القصرُ لعبيدِ بنِ الأبرصِ »

في الكلام ، وتجنب حوشى اللفظ ، ومن خير شعره قوله من معلته :

سألنا فأعطينا ، وعدنا فعدتم ، ومن أكثر التسأل - يوماً - سيحرم -
وكأن ترى من صامت لك معجب زيادته - أو نقصه - في التكلم -
لسان الفتى نصف ، ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

سئمت تكاليف الحياة ، ومن يعيش ثمانين حولاً - لا أبالك - يسأم
وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم -
رأيت المنايا خبط عشواء ، من تصب ومن لم يصب في أمور كثيرة
ومن يجعل المعروف من دون عرضه يضرس بأنياب ، ويوطأ بمنسم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله يفره ، ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يوف لا يذم ، ومن يهد قلبه على قومه ، يستغن عنه ويذم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه إلى مطمئن البر لا يتجمجم
ومن يعص أطراف الزجاج ، فإنه وإن يرق أسباب السماء بسلم
ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يطيع العوالى ، ركبت كل هذم
ومن يعترب يحسب عدواً صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومهما تكن عند امرئ من خليقة - وإن خالها تخفى على الناس - تعلم
وقوله من قصيدة أخرى :

أرونا خطة لا ضيم فيها يسوى بيننا فيها السواء
فإن ترك السواء ، فليس بيني وبينكم - بنى حصن ! - بقاء
فإن الحق مقطعه ثلاث : يمين ، أو نثار ، أو جلاء

وقوله :

ألا ليت شعري ! هل يرى الناس ما أرى من الأمر ؟ أو يبدو لهم ما بدا ليا ؟

بدا لي أن الناس تفتني نفوسهم
وأني متى أهبط من الأرض تلعنة
أراني - إذا أمسيت - أمسيت ذاهوي
إلى حفرة أهوى إليها مصمة
وأموالهم ، ولا أرى الدهر فانيا
أجد أثراً قبلي جديداً وعافيا
فتم - إذا أصبحت - أصبحت غاديا
يحث إليها سائق من ورائيا

بدا لي أن الله حق فزادني
بدا لي أني لست مدرك ما مضى
وما إن أرى نفسي تقيها منيتي
وقوله :
إلى الحق تقوى الله ، ما كان باديا
ولا سابق شيئاً إذا كان جائيا
وما إن تقي نفسي كرائم ماليا

ولا تكثر على ذي الضغن عتبا
ولا تسأله عما سوف ييدى
متى تك في صديق أو عدو
وقوله :
ولا ذكر التجرم للذنوب
ولا عن عيبه لك في المغيب
تخبرك الوجوه عن القلوب

وذي نسب ناء بعيد وصلته
وذي نعمة تمتتها وشكرتها
دفعت بمرور من القول صائب
وذي خطل في القول ، يحسب أنه
عبأت له حلاماً وأكرمت غيره
وقوله :

إن كنت لا ترهب ذي ، لما
فاخش سكوتي - إذ أنا منصت
السامع الذم شريك له
مقالة السوء إلى أهلها
تعرف من صفحي عن الجاهل
فيك لمسموع خنا القائل
ومطعم المأكول كالأكل
أسرع من منحدر سائل

الأسدي^(١) « فيعجب من ذلك ويقول : « هذان ماتا في الجاهلية ، ولكن

ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل
فلا تهرج - إن كنت ذا إربة - حرب أخى التجربة العاقل
فإن ذا العقل - إذا هجته - هجت به ذا خبل خابل
تبصر من عاجل شداته عليك غب الضرر الآجل

وهذه القصيدة تنسب لزهير مرة ، ولمحمد بن حازم الباهلي أخرى

(١) عبيد بن الأبرص الأسدي

توفي سنة ٥٥٥ م

قبيلته مضر ، وهو من بني أسد ، عمر طويلا حتى قتله المنذر بن ماء السماء حين ورد عليه في يوم بؤسه . وتفصيل ذلك أن المنذر غضب يوما ، فقتل نديمين له من بني أسد ؛ فلما أصبح ندم ، فبنى على قبريهما ضريحين أسماهما : الغريين ، وجعل لنفسه يومين في السنة يجلس فيهما هناك - أسمى أحدهما يوم النعيم والآخر يوم البؤس ؛ فكان أول من يطلع عليه في يوم النعيم يعطيه مائة من الإبل ، وأول من يطلع عليه في يوم البؤس يقتله ويطلى بدمه الغريين . وقد اتفق أن جاءه عبيد في يوم بؤسه فقتله

ومن مختار شعره قوله :

لكل ذى غيبة إياب وغائب الموت لا يؤوب

وقوله :

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

وأكثر أبيات معلقته غير جار على الوزن العربي المعروف : واختلال الوزن فيها واضطرابه ظاهران . كقوله :

أفلح بما شئت قد يبلغ بالضعف وقد يخدع الأريب

وقد أشار أبو العلاء إلى ذلك فقال :

وقد يخطيء الرأي امرؤ - وهو حازم - كما اختل في وزن القريض عبيد

رَحْمَةً رَبَّنَا وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، وَسَوْفَ اتَّمَسُّ لِقَاءَ هَٰذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ ، فَاسْأَلُهُمَا :
« بِمِ غُفْرٍ لَّهُمَا ؟ » فَيَتَدَيُّ بَزْهِيرٍ ، فَيَجِدُهُ شَابًّا كَالزَّهْرَةِ الْجَنِّيَّةِ ، كَأَنَّهُ مَا لَبَسَ
جِلْبَابَ هَرَمٍ ، وَلَا تَأْفَفَ مِنَ الْبَرَمِ ^(١) ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ فِي الْمِيمِيَّةِ :
« سَمِّتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلًا - لَا أَبَالِكَ - يَسَامٍ »
وَلَمْ يَقُلْ فِي الْأُخْرَى :

« أَلَمْ تَرِنِي عُحْرَتُ تِسْعِينَ حِجَّةً وَعَشْرًا تَبَاعًا عِشْتَهَا وَثَمَانِيًا »
فَيَقُولُ : « جَيْرٍ ، جَيْرٍ ^(٢) ، أَنْتَ أَبُو كَعْبٍ وَبِحَيْرٍ ! » فَيَقُولُ : « نَعَمْ »
فَيَقُولُ « بِمِ غُفْرٍ لَكَ ، وَقَدْ كُنْتَ فِي زَمَانِ الْفِتْرَةِ وَالنَّاسِ هَمَلٌ ، لَا يَحْسُنُ مِنْهُمْ
الْعَمَلُ ؟ » فَيَقُولُ : « كَانَتْ نَفْسِي مِنَ الْبَاطِلِ نَفُورًا ، فَصَادَفْتُ مُلَكًا غَفُورًا ، وَكُنْتُ
مَوْثِقًا بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ، وَرَأَيْتُ فِيمَا يَرَى النَّاسُ جِبَلًا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ فَمَنْ تَعَلَّقَ بِهِ مِنْ
سُكَّانِ الْأَرْضِ سَلِمَ . فَعَلِمْتُ أَنَّهُ أَمْرٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، فَأَوْصَيْتُ بَنِيَّ وَقُلْتُ لَهُمْ عِنْدَ
الْمَوْتِ : « إِنْ قَامَ قَائِمٌ يُدْعُوكُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ فَأَطِيعُوهُ » وَلَوْ أَدْرَكْتُ « مُحَمَّدًا »
لَكُنْتُ أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ . وَقُلْتُ - فِي الْمِيمِيَّةِ - وَالسَّفَهُ ضَارِبٌ بِالْجِرَانِ ^(٣) - :

وتعليل هذا الاحتلال والاضطراب في نظرنا ، أنه كان - فيما نظن - يوقع القصيدة على
نعمة خاصة به ، غير تلك التي كان يوقع عليها سواه من العرب ، فلوا هتدينا إلى طريقة
إنشاده الخاصة ، والأسلوب الذي كان يعنى به هذا الوزن الجديد ، لما أحسنا في معلقته بشيء
من الشذوذ الذي نحسه فيها اليوم

ومما يمتثل به من شعره بيته الرائع قوله :

لَا أَعْرِفُنكَ بَعْدَ الْمَوْتِ تَدْبِنِي
وَفِي حَيَاتِي مَا زَوَدْتَنِي زَادًا

(١) الضجر (٢) نعم ، نعم (٣) الجران : مقدم عنق الناقة ، والضرب بالجران

كناية عن الإقامة

فَلَا تَكْتُمَنَّ اللَّهُ مَا فِي نَفْسِكُمْ
لِيَحْفَى، وَمَهْمَا يُكْتَمَ : اللَّهُ يَعْلَمُ
يُؤَخَّرْ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ فَيُدْخَرُ
لِيَوْمِ حِسَابٍ، أَوْ يُقَدَّمَ فَيُنْتَقَمُ (١)
فيقول : أَلَسْتَ الْقَائِلَ :

وَقَدْ أَعْدُو عَلَى نُبِّةٍ (٢) كِرَامٍ
نَشَاوَى (٣) وَاجِدِينَ لِمَا نَشَاءُ
يَجْرُونَ الْبُرُودَ وَقَدْ تَمَشَّتْ
حَمِيًّا (٤) الْكَأْسِ فِيهِمْ وَالْغِنَاءُ (٥)

أَفَأُطَلِّقُ لَكَ الْحَمْرُ كغَيْرِكَ مِنْ أَصْحَابِ الْخُلُودِ، أَمْ حُرِّمْتَ عَلَيْكَ مِثْمَا حُرِّمْتَ
عَلَى أَعَشَى قَيْسٍ؟ « فيقولُ زهيرٌ : « إِنَّ أَخَا قَيْسٍ أَدْرَكَ مُحَمَّدًا ، فَوَجَبَتْ عَلَيْهِ
الْحَجَّةُ ، لِأَنَّهُ بُعِثَ بِتَحْرِيمِ الْحَمْرِ وَحَظْرِ مَا قُبِحَ ، وَهَلَكْتُ أَنَا وَالْحَمْرُ كغَيْرِهَا مِنْ
الْأَشْيَاءِ ، يَشْرِبُهَا أَتْبَاعُ الْأَنْبِيَاءِ . فَلَا حَجَّةَ عَلَيَّ » فيدعوه الشيخُ إِلَى الْمُنَادِمَةِ ،
فيجدهُ مِنْ ظُرَافِ النَّدْمَاءِ ، فَيَسْأَلُهُ عَنْ أَخْبَارِ الْقَدَمَاءِ .

حديث عبيد

ثم ينصرفُ إِلَى « عَبِيدٍ » فَذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ بَقَاءَ التَّأْيِيدِ (٦) ، فيقولُ : « السَّلَامُ
عَلَيْكَ يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ » فيقولُ : « وَعَلَيْكَ السَّلَامُ - (وَأَهْلُ الْجَنَّةِ أَذْكَاءُ) -
لَعَلَّكَ تَرِيدُ أَنْ تَسْأَلَنِي بِمِ غُفْرَ لِي ؟ » فيقولُ : « أَجَلٌ . وَإِنْ فِي ذَلِكَ لَعَجْبًا ! »

(١) يقول : اتركوا الرياء فلا فائدة منه ، ولا تخفوا ما تضرمون ، فإن الله يعلم بذات
الصدور ، وهو مجاز كل إنسان بما يضره عاجلاً أو آجلاً (٢) جماعة (٣) سكارى
(٤) حميا الكأس : سورتها وشدتها ، أو إسكارها وأخذها بالرأس (٥) معنى البيتين :
ويارب مجلس أنس غدوت اليه فنعمت فيه بمنادمة إخوان كرام صفا بهم وقتنا ، واكتمل
بجمعهم أنسنا ، ولم ينقصنا شيء من جالبات السرور ، وقد تمكنت سورة الحمر من رءوس
هؤلاء الندامى ، فمشوا مترنحين يختالون في أبرادهم (٦) التأيد : الخلود

فيقول عبيدٌ: «إني دخلتُ الهاويةَ، وكنتُ قلتُ في أيام الحياة:
من يسألُ الناسَ يحرموه وسائلُ الله لا ينجبُ
وسارَ هذا البيتُ في آفاقِ البلادِ، فلم يزلْ يُنشدُ ويحفُّ عني العذابُ،
حتى أطلقتُ من القيودِ والأصفادِ؛ ثم كرَّرَ إليَّ أن شِمتني الرَّحمةُ ببركة هذا
البيتِ. «وَإِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ»
فإذا سمعَ الشيخُ ما قالَ ذانِكَ الرَّجُلانِ، طَمَعَ في سلامةِ كثيرٍ من
أصنافِ الشعراءِ.

حديث عدى بن زيد^(١)

فيقولُ لعبيدٍ: «ألكَ علمٌ بعديِّ بنِ زَيْدِ العِبَادِيِّ؟ فيقولُ: «هذا منزلهُ
قريباً منك.» فيقفُ عليه، فيقولُ: «كيفَ كانتَ سلامتكَ على الصراطِ؟»
فيقولُ: «إني كنتُ على دينِ المسيحِ، ومنَ كانَ منَ أتباعِ الأنبياءِ قبلَ أن
يُبعثَ «مُحمَّدٌ» فلا بأسَ عليه، وإنما التَّبعةُ على من سجدَ للأصنامِ.»
فيقولُ الشيخُ: «لقد هَممتُ أن أسألكَ عن بيتِكَ الذي استشهدَ
به سيبويه وهو قولك:

أرواحٌ مُودَّعٌ أمْ مُبْكورٌ أنتَ فانظُرْ لِأَيِّ حَالٍ تَصِيرُ
فإنه يُزعمُ أنَّ (أنتَ) يجوزُ أن تُرفعَ بفعلٍ مُضمِرٍ يفسره قولك: فانظُرْ،
وأنا أستبعدُ هذا المذهبَ ولا أظنُّكَ أردتَهُ» فيقولُ عدِيُّ بنُ زَيْدٍ: «دَعْنِي مِن
هذه الأباطيلِ!»

(١) انظر ترجمته في ص ٨

« ولكنى كنتُ فى الدار الفانيةِ صاحبَ قنصٍ ، فهل لك أن تزكبَ فرسينِ من خيلِ الجنةِ ، فنبعثهما على صيرانها^(١) ، وخبيطانِ^(٢) نعامها ، وأسرابِ ظبائها ، وعاناتِ^(٣) ممرها ، فإن للقنصِ لذةً ! » فيقول الشيخ : « إنما أنا صاحبُ قلمٍ ، ولم أكن صاحبَ خيلٍ ! وما يؤمننى إذا زكبتُ طرفاً — وأنا كما قال القائلُ :

لَمْ يَزَكِبُوا الْخَيْلَ إِلَّا بَعْدَ مَا كَبُرُوا فَهَمُّ ثِقَالٌ عَلَى أَكْتافِهَا عُنْفُ
 أَنْ يَلْحَقَنِي مَا لَحِقَ صَاحِبَ الْمُسْتَجَرَّةِ لَمَّا حَمَلَ عَلَى الْيَحْمُومِ ؟ وَيَجُوزُ أَنْ
 يَقْدِفَنِي السَّابِحُ^(٤) عَلَى صَخُورِ زُمُرْدٍ ، فَيَكْسِرَ لِي عَضُدًا أَوْ سَاقًا ، فَأَصِيرَ مُضْحَكَةً
 فِي أَهْلِ الْجَنَانِ ! » فَيَتَسَمُّ عَدِيٌّ ، وَيَقُولُ : « وَيَحْكُ ! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْجَنَّةَ
 لَا يُرْهَبُ لِدَيْهَا السَّقَمُ ، وَلَا تَنْزِلُ بِسَكْنِهَا النِّقَمُ ؟ » فَيَزَكِبَانِ سَابِحَيْنِ مِنْ
 خَيْلِ الْجَنَّةِ ، مَرَكَبٌ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لَوْ عُدِلَ بِمَالِكَ الْعَاجِلَةِ مِنْ أَوْلَاهَا إِلَى
 آخِرِهَا الرَّجِجِ بها^(٥) ، وَزَادَ فِي الْقِيَمَةِ عَلَيْهَا ، فَإِذَا نَظَرَ إِلَى صُورِ^(٦) تَرْتَعُ فِي رِيَاضِ
 الْفِرْدَوْسِ ، صَوَّبَ الشَّيْخُ الرُّمْحَ لِأَخْنَسِ^(٧) ذِيَالٍ^(٨) ، فَإِذَا لَمْ يَبْقَ بَيْنَ السَّنَانِ
 وَبَيْنَهُ إِلَّا قَيْدُ ظُفْرٍ ، قَالَ : « أَمْسِكْ — رَحِمَكَ اللَّهُ — فَإِنِّي لَسْتُ مِنْ وَحْشِ
 الْجَنَّةِ الَّتِي أَنْشَأَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ ، وَلَمْ تَكُنْ فِي الدَّارِ الزَّائِلَةِ ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرُوضُ فِي

(١) الصيران جمع صيار وهى لغة فى صوار ، والصوار بالضم (ويكسر) : القطيع من بقر
 الوحش (٢) جماعات النعام (٣) العانة : القطيع من حمر الوحش (٤) الحصان الذى إذا
 جرى صار كأنه يسبح (٥) فى اللغة : رجح الشيء فى الشيء : زاد وزنه عليه . وفيها أيضاً :
 راجحه فرجحه ، أى وازنه فكان أكبر منه وزناً . ولم نجد رجح به فيما بين أيدينا من كتب اللغة -
 فعله تجوز فى التعدية (٦) جماعة من بقر الوحش (٧) ثور وحشى (٨) طويل الذيل

بعض القفار، فَرَّبَ بِي رَكْبٌ مُؤْمِنُونَ قَدْ أَكْرَمَى^(١) زَادُهُمْ، فَصَرَ عَوْنِي، وَاسْتَعَانُوا
بِي عَلَى السَّفَرِ، فَعَوَّضَنِي اللَّهُ بِأَنْ أَسْكَنَنِي فِي الْخُلُودِ». فَيَكْفُ عَنْهُ الشَّيْخُ، وَيَعْمَدُ
لِعَلِيجٍ^(٢) وَوَحْشِيٍّ، مَا التَّلَفُ عِنْدَهُ بِمَخْشِيٍّ؛ فَإِذَا صَارَ الْخَرَصُ^(٣) مِنْهُ بِقَدْرِ أُمَّةٍ
قَالَ: «أَمْسِكْ يَا عَبْدَ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ أُنْعِمَ عَلَيَّ وَرَفَعَ عَنِي الْبُؤْسَ؛ وَذَلِكَ أَنِّي
صَادَنِي صَائِدٌ بِمَخْلَبٍ، وَكَانَ إِهَابِي^(٤) لَهُ كَالسَّلْبِ^(٥)؛ فَبَاعَهُ فِي بَعْضِ الْأَمْصَارِ،
فَاتَّخَذَ مِنْهُ غَرْبًا^(٦)، شَفِيَّ بِمَاءِهِ الْكَرْبُ، وَتَطَهَّرَ بِبَزْيِعِهِ^(٧) الصَّالِحُونَ،
فَشِمِلْتَنِي بَرَكَةٌ مِنْ أَوْلَيْكَ، فَدَخَلْتُ الْجَنَّةَ ارْزُقْ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ» فيقول
الشَّيْخُ: «فَيَنْبَغِي أَنْ تَتَمَيِّزَنَ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ دَخَلَ الْفَانِيَةَ، فَمَا يَجِبُ أَنْ يَخْتَلِطَ
بِوَحُوشِ الْجَنَّةِ» فيقولُ ذَلِكَ الْوَحْشِيُّ: «لَقَدْ نَصَحْتَنَا نَصَحَ الشَّفِيقِ، وَسَوْفَ
نَتَمَثَّلُ مَا أَعْرَتَ».

حَدِيثُ الْهُدَلِيِّ^(٨)

وَيَنْصَرِفُ مَوْلَايَ الشَّيْخُ وَصَاحِبُهُ عَدِيٌّ، فَإِذَا هُمَا بِرَجُلٍ يَحْتَلِبُ نَاقَةً فِي إِتَاءِ
مَنْ ذَهَبٍ، فَيَقُولَانِ: «مَنْ الرَّجُلُ؟» فيقولُ: «أَبُو ذُوَيْبِ الْهُدَلِيِّ»،

(١) أَكْرَمَى: زَادَ وَنَقَصَ - ضَدَّ - وَالْمُرَادُ هُنَا النِّقْصَانُ (٢) الْعَلِيجُ: الْحِمَارُ
(٣) الْخَرَصُ - بَفَتْحِ الْخَاءِ وَكَسْرِهَا - : السِّنَانُ أَوْ الرَّمْحُ الْقَصِيرُ (٤) جِلْدِي
(٥) مَا يَسْلُبُهُ الرَّجُلُ مِنْ قَرْنِهِ (٦) الْغَرْبُ: الدَّلْوُ الْعَظِيمَةُ (٧) مَا يَنْتَزَعُ مِنَ الْمَاءِ

(٨) أَبُو ذُوَيْبِ الْهُدَلِيِّ

اسْمُهُ خُوَيْلِدُ بْنُ خَالِدٍ، وَهُوَ شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ إِسْلَامِيٌّ، خَرَجَ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ فِي غَزْوَةِ فَتَاتٍ
وَمَا يَرُودُهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَهْوَى امْرَأَةً مِنْ قَوْمِهِ؛ وَكَانَ قَدْ وَجَّهَ رَسُولًا إِلَيْهَا مِنْ قَوْمِهِ
يُقَالُ لَهُ خَالِدُ بْنُ زَهْرٍ، فَخَانَهُ، فَقَالَ:

فيقولان : « حَيِّتَ وَسَعِدْتَ ، ائْتَلِبُ مَعَ أَنهَارٍ مِنْ لَبَنِ ! » فيقول :
« لا بأس . إِنَّمَا خَطَرَ لِي ذَلِكَ ، مِثْلَمَا خَطَرَ لَكُمْ الْقَنْصُ ، وَإِنِّي ذَكَرْتُ قَوْلِي
فِي الدَّهْرِ الْأَوَّلِ :

تريدين كيا تجمعينى وخالدا وهل يجمع السيفان - ويحك - في غمد
أخالد ! ما راعيت منى قرابة فتحفظني في الغيب أو بعض ما تبدى
ومن غريب المصادفات أن أبا ذؤيب هذا كان قد خان في هذه المرأة ابن عمه « مالك بن
عويمر » فاتهمز خالد هذه المناسبة ليعيره بها ، ويتخذ منها تكأة يبرر بها خيانتة ، فقال :
فلا تجزعن من سنة - أنت سرتها - وأول راض سنة من يسيرها
وكنت إماماً للعشيرة ، تنتهى إليك - اذا ضاقت بأمر صدورها
ألم تنتقذها من ابن عويمر وأنت صفتي نفسها ووزيرها ؟

وفي هذه الأبيات تهكم لأذع وسخرية قاتلة ؛ وفيها أيضاً مهارة وافتنان في إظهار هذا
التهكم ، وفيها حجة مفحمة لا تقبل النقض . وأنى يتنصل ، وبأى حق يجزع من معاملة الناس
بمثل ما عاملهم به ؟ أليس من أصدق الصدق قوله : « وأول راض سنة من يسيرها » ! نعم
ولا نحسب القارئ في حاجة إلى تنبيهه إلى ما في البيتين الآخرين من الجمال والفن !
ومن مختار شعر أبي ذؤيب قوله لخالد بن زهير هذا ، وهو من أجود الشعر :

فما حمل البختي - عام غياره - عليه الوسوق برها وشعيرها
بأكثر مما كنت حملت خالداً ، وشراًمانات الرجال غرورها !

إلى أن يقول :

فإن حراماً أن أخون أمانة وآمن نفساً ليس عندي ضميرها
أحاذر - يوماً - أن تبين قرونتي ويسلمها إخوانها ونصيرها
وما يحفظ المكتوم من سر أهله إذا عقد الأسرار ضاع كبيرها
من الناس ، إلا ذو وفاء يعينه على ذلك منه صدق نفس وخيرها

رعى خالد سرى ليالى نفسه
توالى على قصد السبيل أمورها

وَإِنَّ حَدِيثًا مِنْكَ لَوْ تَعَلَّمِينَهُ جَنَى النَّحْلِ فِي أَلْبَانِ عُوذٍ^(١) مَطَافِلِ
مَطَافِيلِ أَبْكَارٍ حَدِيثٍ نِتَاجُهَا ، تُشَابُ بِمَاءٍ مِثْلِ مَاءِ الْمَفَاصِلِ^(٢)

فَقَيَّضَ اللَّهُ بِقُدْرَتِهِ لِي هَذِهِ النَّاقَةَ مُطْفِلًا ، فَقَمْتُ أَحْتَلِبُ عَلَى الْعَادَةِ .
وَأُرِيدُ أَنْ أَشُوبَ ذَلِكَ بِضَرْبِ^(٣) نَحْلِ . « فَإِذَا امْتَلَأَ إِنَاؤُهُ مِنَ الرَّسْلِ^(٤) ، كَوَّنَ
الْبَارِيُّ - جَلَّتْ عَظَمَتُهُ - خَلِيَّةً مِنَ الْجَوْهَرِ ، رَتَعَ ثَوَلُهَا^(٥) فِي الزَّهْرِ ؛ فَاجْتَنَى
ذَلِكَ أَبُو ذُوَيْبٍ وَمَزَجَ حَلِيْبَهُ ، فيقولُ : « أَلَا تَشْرَبَانِ ؟ » فيَجْرَعَانِ مِنْ ذَلِكَ
الْحَلَبِ^(٦) جُرْعًا لَوْ فُرِّقَتْ عَلَى أَهْلِ « سَقَرٍ » لَفَازُوا بِالْحَلْدِ ، فيقولُ عَدِيٌّ :
« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ، لَقَدْ جَاءَتْ
رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ . وَنُودُوا : أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »

حديث النابتين

ويعضى في نزهته تلك بشابئين يتحدان ، كل واحدٍ منهما على باب قصر
من دِرٍّ ، قد أعفى من البؤس والضرِّ ؛ فيسلمُ عليهما ويقولُ : « مَنْ أَنْتُمَا

فلما تراماه الشباب وغيره - وفي النفس منه غدرة وفجورها -
لوى رأسه عنى ، ومال بوده أغانيج خود كان قدما يزورها
تعلقه منها دلال ومقلة تظل لأصحاب السقام تديرها

(١) جمع عائد ، وهي القرية العهد بالنجاج (٢) ماء المفاصل : هو الماء بين جبلين من رمل
ورضراض ، وهو من أصفى أنواع المياه وأعذبها ، ومعنى البيتين : إن لأحاديثك الجميلة لذة
عظيمة أجدها في نفسى ، وعدوبة لا يماثلها إلا عدوبة الشهد امتزج بأصفى ألبان الإبل
(٣) الضرب : العسل (٤) اللبن (٥) الثول : جماعة النحل (٦) إناء اللبن

— رَحِمَكُمَا اللَّهُ — وَقَدْ فَعَلَ^(١) « فَيَقُولَانِ : « مَحْنُ النَّابِغَتَانِ : نَابِغَةُ بَنِي جَعْدَةَ^(٢) »
وَنَابِغَةُ بَنِي ذُبْيَانَ «

(١) أى قد رحهما الله بإدخالهما الجنة

(٢) النابغة الجعدى — توفى سنة ٥٨ هـ بأصبهان

كنيته أبو ليلي ، ولقبه النابغة الجعدى ، وهو قيس بن عبد الله الجعدى ، شاعر مخضرم ،
اشتهر بوصف الخيل وإنكار الخمر فى الجاهلية وهجر الأزلام والأوثان ، وقد عمر فى الاسلام
حتى شهد مع عليّ وقائع صفين ، وظاهره بيده ولسانه
وشخصية الجعدى من الشخصيات الجذابة ، وشعره جميل يزينه الصدق والدقة وعزة
النفس . ومن أجل ما نختاره منه رائيته المشهورة التى مدح بها النبى (ص) حين وفد
عليه ، وفيها يقول :

ولا خير فى حلم ، إذا لم يكن له بوادر ، تحمى صفوه أن يكدر

ولا خير فى جهل ؛ إذا لم يكن له حلیم - إذا ما أورد الحلم أصدر

وهذا أبرع وأشمل من بيت المتنبى الذى اقتبس فيه هذا المعنى فقال :

ووضع الندى - فى موضع السيف - بالعلی مضر ، كوضع السيف فى موضع الندى

وما أروع ما قاله الجعدى فى تلك القصيدة :

وإن جاء أمر لا تطيقان دفعه فلا تجزعنا مما قضى الله ، واصبرا

ألم تريا أن الملامة نفعها قليل ، إذا ما الشئ ولى وأدبرا

تهيج البكاء والندامة ، ثم لا تغير شيئاً غير ما كان قدرا

إلى أن يقول :

وإنما لقوم ، ما تعود خيلنا - إذا ما التقينا - أن تحيد وتنفرا

وعند ما تولى معاوية الخلافة ، كتب إلى مروان أن يأخذ أهل النابغة وماله ، فدخل النابغة
على معاوية — وعنده مروان — وأنشد أبياتاً ؛ من أروعها وأدناها على إبانته وشجاعته ،
وأدقها فى تصوير نفسه العالية وشاعريته الفيضة — قوله :

فيقول - ثَبَّتَ اللهُ وَطَأْتَهُ - :

« أَمَّا نَابِغَةُ بِنَى جَعْدَةَ ، فقد استَوْجَبَ ما هو فيه بِالْحَنِيفِيَّةِ ^(١) ، وَأَمَّا أَنْتَ يَا أَبَا أَمَامَةَ ^(٢) فَمَا أَدْرِي مَا جَهَّتْكَ ؟ » فيقولُ الذُّبْيَانِيُّ ^(٣) : « إِنْ كُنْتَ مُقِرًّا بِاللَّهِ ، وَحَجَجْتَ الْبَيْتَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلِي :

وَإِنْ تَأْخُذُ أَهْلِي وَمَالِي بِظَنَّةٍ فَإِنِّي لِحَرَّابِ الرِّجَالِ مُحْرَبٌ
صَبُورٌ عَلَى مَا يَكْرَهُ الْمَرْءُ كُلَّهُ سِوَى الظُّلْمِ ، إِنِّي - إِنْ ظَلَمْتُ - سَأَغْضِبُ
فارتاع معاوية ، والتفت إلى مروان ؛ فقال : « ما ترى ؟ » قال . « أرى ألا ترد عليه شيئاً » قال : « ما أهون والله عليك أن ينجر هذا في غار ، ثم يقطع عرضي على ، ثم تأخذه العرب فترويه ، أرؤد عليه كل شيء أخذته ! »
وستمر بك تلك المشاجرة « الخيالية » التي وقعت بينه وبين الأعشى في الجنة ، وهي تمثل شجاراً عنيفاً بين شخصيتين من أكبر شخصيات العرب إذ يقول الأعشى للجعدى :
« وان بيتاً مما بنيت ليعدل بمائة من بنائك ! وإن أسهبت في منطقتك . فإن المسهب كحاطب الليل ؛ وإني لفي الجرثومة من ربيعة الفرس ، وهل جعدة إلا رائدة ظليم نفور ! »
« أتعيرني مدح الملوك يا جاهل : ولو قدرت على ذلك لهجرت إليه أهلك وولدك ؟ ولكنك خلقت جباناً لا تدلج في الظالماء الداجية ، ولا تهجر في الوديقة الصاخدة »
فيجيبه الجعدى - مغضباً - :

« اسكت يا ضل بن ضل ، فأقسم إن دخولك الجنة من المنكرات ؛ ولكن الأفضية جرت كما شاء الله ! لحقك أن تكون في الدرك الأسفل من النار ! ولقد صلي بها من هو خير منك ! ولو جاز الغلط على رب العزة ، لقلت إنك قد غلط بك . . . الخ الخ »

(١) بالإسلام (٢) يعنى النابغة الذبياني

(٣) النابغة الذبياني (توفي سنة ٦٠٤ م)

هو زياد بن معاوية بن ضباب ، ويكنى : أبا أمامة ، وأبا عقرب ، وأبا ثامة ، كان يضرب له قبة بسوق عكاظ يحكم فيها بين الشعراء ، وكان نديم النعمان وقد مدحه بكثير من القصائد الجميلة

فَلَا لَعْمَرُ الَّذِي قَدْ زُرْتُهُ حِجَجًا^(١) وَمَاهُرِيْقٌ^٢ عَلَى الْأَنْصَابِ^٣ مِنْ جَسَدِ
وَالْمُؤْمِنِ الْعَائِدَاتِ^(٥) الطَّيْرِ تَمْسُحُهَا^(٦) رُكْبَانُ مَكَّةَ بَيْنَ الْغَيْلِ وَالسَّعْدِ^(٧)

وقولى :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً وَهَلْ يَأْتُنْ ذُو إِمَّةٍ^(٨) وَهُوَ طَائِعٌ

ثم غضب عليه النعمان لوشاية المنخل الشاعر به فى وصفه للمتجردة امرأة النعمان ، فهرب
النابعة الى بنى غسان ، ونزل بعمر بن الحارث الأصغر ، ملك الغساسنة ، فمدحه بقصيدته
الشهيرة التى افتتحها بهذه الأبيات الثلاثة الرائعة :

كِلِينِي لَهْم يَا أَمِيْمَةَ نَاصِبٍ وَلَيْلِ أَقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ
تَطَاوَلُ حَتَّى قَلْتُ : « لَيْسَ بِمَنْقُضٍ وَلَيْسَ الَّذِي يَرْعَى النُّجُومَ بِأَنْبِ »
وَصَدْرُ أَرَاحِ اللَّيْلِ عَازِبٌ هَمُّهُ تَضَاعَفَ فِيهِ الْحَزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

ثم رضى عنه النعمان ، فعاد اليه . ومن أجل شعره قوله :

قَامَتْ تَرَامِي بَيْنَ سَجْنِي كَلَّةٍ كَالشَّمْسِ يَوْمَ طُلُوعِهَا بِالْأَسْعَدِ
سَقَطَ النَّصِيفُ - وَلَمْ تَرُدْ إِسْقَاطَهُ - فَتَنَاوَلْتَهُ وَاتَّقِنَا بِالْيَدِ

وقوله :

نَظَرْتُ إِلَيْكَ بِحَاجَةٍ لَمْ تَقْضِهَا نَظَرَ السَّقِيمِ إِلَى وَجْهِ الْعُودِ
وَسَتَمَرُ بِكَ طَائِفَةٌ أُخْرَى مِنْ شَعْرِهِ وَأَخْبَارِهِ فِي مَوْضِعِهَا

(١) الحجج : السنين . ويروى : « فلا لعمر الذى مسّحت كعبته » (٢) أريق وصب

(٣) هى الحجارة التى كانوا يذبجون عليها القرابين حول الكعبة ، ومفردها نُصْبٌ (٤) دم

(٥) اللانذات أى الطير اللانذات (٦) تتبعها وتقر أيديها عليها بلطف (٧) الغيل

والسعد هنا موضعان ؛ وخلاصة معنى البيتين أنه يقسم بالله الذى حجج إلى بيته مراراً ، ويقسم

بما أريق على حجارة الكعبة المقدسة من دماء القرابين ، وبمن آمن طيور تلك الناحية التى

يلطفها ركبان مكة بين الغيل والسعد ؛ ليثبت للنعمان أنه صادق فيما يقول . (٨) الشرعة والدين

بِصُطْحِبَاتٍ مِنْ لَصَافٍ وَثَبْرَةٍ^(١) يَزُرُّنَ الْأَلَا^(٢) سَيْرُهُنَّ تَدَافِعُ^(٣)

وَلَمْ أُذْرِكِ النَّبِيَّ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — فَنَقُومَ الْحُجَّةَ عَلَىٰ بَخْلَافِهِ، وَإِنَّ اللَّهَ — تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ — يَغْفِرُ مَا عَظُمَ وَقَلَّ

فَيَقُولُ: « يَا أَبَا سَوَادَةَ يَا أَبَا أَمَامَةَ يَا أَبَا لَيْلَى ! اجعلوها ساعةً مُنَادِمَةً،

فَإِنْ مِنْ قَوْلِ شَيْخِنَا الْعِبَادِيِّ :

أَيُّهَا الْقَلْبُ تَعَلَّلْ بِدَدَنٍ إِنْ هَمَّى فِي سَمَاعٍ وَأُذُنٍ^(٤)

وَشَرَابٍ خُسْرُوَانِيٍّ إِذَا ذَاقَهُ الشَّيْخُ تَغَنَّى وَارْجَحَنَ^(٥)

فَكَيْفَ لَنَا بِأَبِي بَصِيرٍ^{(٦)؟} « فَلَا تَتِمُّ الْكَلِمَةُ إِلَّا وَأَبُو بَصِيرٍ قَدْ خَمَسَهُمْ^(٧)،

فَيَسْبَحُونَ اللَّهَ وَيُقَدِّسُونَهُ وَيَحْمَدُونَهُ عَلَىٰ أَنْ جَمَعَ بَيْنَهُمْ، وَيَتْلُو^(٨) هَذِهِ الْآيَةَ :

« وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ » فَإِذَا أَكَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ الْجَنَّةِ، وَشَرِبُوا مِنْ

شَرَابِهَا الَّذِي خَزَنَهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ، قَالَ الشَّيْخُ: « يَا أَبَا أَمَامَةَ إِنَّكَ لَخَصِيفٌ^(٩)

الرَّأْيَ لَيْبِبٌ، فَكَيْفَ حَسَنَ لَكَ لُبُّكَ أَنْ تَقُولَ لِلنُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذِرِ :

(١) لصف و ثبرة ماءان بناحية الشواجن في ديار ضبة بن أد (٢) جبل بعرفات

(٣) المعنى انه يقسم للنعمان ليزيل ما علق بنفسه من الريبة ويمحو منها الأثر السيء الذي

خلقته وشايات أعدائه ويؤكد له أنه بار في قسمه وأنه غير حاث في يمينه (٤) اللدن

أو اللد : اللهو أو اللعب . والأذن : الاستماع في إعجاب (٥) اهتز وتمايل ، والمعنى : أله أيها

القلب وانس همومك فإني مولع بسماع الغناء ومعاقرة ذلك الشراب الخسرواني الذي

ينسى الشيخ - حين يشربه - وقار شيخوخته فيتمايل من النشوة راقصاً مغنياً . وقد مرت

ترجمة العبادي هذا في ص ٨ (٦) الأعشى ، وقد مرت ترجمته في ص ٢١ (٧) صار

خامسهم (٨) أي الشيخ ابن القارح (٩) سديد أو محكم

زَعَمَ الْهُمَامُ بَأَنَّ فَاهَا بَارِدٌ عَذْبٌ، إِذَا مَا ذُقْتَهُ قُلْتَ: اَزْدَدِ
 زَعَمَ الْهُمَامُ - وَلَمْ أَذُقْهُ - بَأَنَّهُ يُشْفِي بَرْدَ لثَاتِهَا الْعَطِشُ الصِّدْيُ^(١)

ثم استمر بك القول حتى أنكروه عليك خاصة وعامة» فيقول النابغة
 - بَدَكَ كَأَنَّ وَفَهْمٌ - : «لقد ظلمني من عاب علي، ولو أنصفتني لعلم أنني احترزت
 أشدَّ احترازٍ، وذلك أن النعمان كان مُسْتَهْتَرًا^(٢) بتلك المرأة، فأمرني أن
 أذكرها في شعري، فأدرت ذلك في خلدِي، فقلت: «إِنْ وَصَفْتُهَا وَصْفًا
 مُطْلَقًا، جاز أن يكون غيرها مُعَلَّقًا» وَخَشِيتُ أَنْ أَذْكَرَ اسْمَهَا فِي النِّظْمِ
 فَلَا يَكُونُ ذَلِكَ مُوَافِقًا لِلْمَلِكِ، لِأَنَّ الْمُلُوكَ يَأْتِفُونَ مِنْ تَسْمِيَةِ نِسَائِهِمْ؛ فَرَأَيْتُ
 أَنْ أُسْنِدَ الصِّفَةَ إِلَيْهِ، فَأَقُولُ: (زَعَمَ الْهُمَامُ) إِذْ كُنْتُ لَوْ تَرَكْتُ ذِكْرَهُ لظَنَّ
 السَّمِيعُ أَنَّ صِفَتِي عَلَى الْمَشَاهِدَةِ؛ وَالْأَيَّاتُ الَّتِي جَاءَتْ بَعْدُ دَاخِلَةٌ فِي وَصْفِ
 الْهُمَامِ، فَمَنْ تَأَمَّلَ الْمَعْنَى وَجَدَهُ غَيْرَ مُخْتَلٍ. وَكَيْفَ يُنْشِدُونَ: «وَإِذَا نَظَرْتَ
 رَأَيْتَ أَقْمَرَ مُشْرِقًا» وَمَا بَعْدَهُ؟» فيقول الشيخ: «يُنْشِدُ: وَإِذَا نَظَرْتَ،
 وَإِذَا لَسْتُ، وَإِذَا طَعَنْتَ، وَإِذَا تَرَعْتَ، عَلَى الْخُطَابِ» فيقول النابغة:
 «قَدْ يَسُوعُ هَذَا، وَلَكِنَّ الْأَجُودَ أَنْ تَجْعَلُوهُ إِخْبَارًا عَنِ الْمُتَكَلِّمِ، لِأَنَّ قَوْلِي:
 «زَعَمَ الْهُمَامُ» يُوَدِّي مَعْنَى قَوْلِنَا: «قَالَ الْهُمَامُ» فَهَذَا أَسْلَمٌ، إِذْ كَانَ الْمَلِكُ إِنَّمَا يَحْكِي

(١) الشديد الظأ؛ والمعنى أن الملك النعمان حكى لنا أن رضاب زوجه المتجردة لذيذ
 حلو الطعم، كما ارتشفته ازددت هيأماً به واندفاعاً إلى رشفه، فإذا تذوقته وقد أجهدك
 العطش أزال ظمأك وأثلج صدرك، ذلك هو ما يحكيه لنا المليك أرويه عنه، وإن كنت
 لم أذقه (٢) متغانياً في حبا

عن نفسه . وإذا جعلتموه على الخطاب قبَّحَ ؛ إن نسبتموه إلى فهو مُنْذِيَةٌ (١) ،
وإن نسبتموه إلى النُّعْمَانِ فهو إِزْرَاءٌ وَتَنْقُصٌ .

فيقول : « لِّلّهِ دَرْكٌ يَا كَوْكَبَ بِنِي مُرَّةَ ! وَلَقَدْ صَحَّفَ عَلَيْكَ أَهْلُ الْعِلْمِ
مِنَ الرَّوَاةِ ، وَكَيْفَ لِي بِأَبَوَيْ عَمْرٍو الْمَازِنِيِّ وَالشَّيْبَانِيِّ ، وَأَبِي عُبَيْدَةَ ،
وَعَبْدِ الْمَلِكِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الثَّقَلَةِ ، لِأَسْأَلَهُمْ كَيْفَ يَرَوُونَ ، وَأَنْتَ شَاهِدٌ ؛ لِتَعْلَمَ
أَنِّي غَيْرُ الْمُتَخَرِّصِ (٢) وَلَا الْوَلَّاعِ (٣) » فَلَا يَقْرَأُ هَذَا الْقَوْلُ فِي حُدُوثِهِ (٤)
أَبِي أَمَامَةَ (٥) إِلَّا وَالرَّوَاةُ أَجْمَعُونَ قَدْ أَحْضَرَهُمُ اللَّهُ الْقَادِرُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ نَالْتَهُمْ ،
وَلَا كُفْلَةٍ فِي ذَلِكَ أَصَابَتَهُمْ ؛ فَيُسَامُونَ بِطُفٍّ وَرَفِقٍ ، فَيَقُولُ :

« مَنْ هَذِهِ الشُّخُوصُ الْفِرْدَوْسِيَّةُ ؟ »

فيقولون : « نحن الرواة الذين شئت إحصارهم أنفاً » فيقول : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ !
كَيْفَ تَرَوُونَ قَوْلَ النَّابِغَةِ فِي الدَّالِيَّةِ : وَإِذَا نَظَرْتُ . وَإِذَا لَمَسْتُ ، وَإِذَا طَعَنْتُ ،
وَإِذَا نَزَعْتُ : أْبِفِشْحِ التَّاءِ أَمْ بِضَمِّهَا ؟ » فيقولون : « بفتحها » فيقول : « هَذَا شَيْخُنَا
أَبُو أَمَامَةَ يَحْتَارُ الضَّمَّ ، وَيُخْبِرُ أَنَّهُ حَكَاهُ عَنِ النُّعْمَانِ » فيقولون : « هُوَ كَمَا جَاءَ فِي
الْكِتَابِ الْكَرِيمِ : « وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ ، فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ؟ »

فيقول الشيخ : « مَضَى الْكَلَامُ فِي هَذَا يَا أَبَا أَمَامَةَ ، فَأَنْشِدْنَا كَلِمَتَكَ
الَّتِي أَوْلَهَا :

(١) المنذية : الكلمة يعرق منها الجبين (٢) الكاذب (٣) الذي لا يبالي بالذم

(٤) أذن (٥) النابغة الذبياني وقد مرت ترجمته في ص ٣٩

أَمَّا عَلَى الْمَطُورَةِ (١) الْمُسْتَأْبَدَةِ (٢) أَقَامَتْ بِهَا فِي الْمَرْبَعِ (٣) الْمُسْتَجْرَدَةِ (٤)
 مُضْمَخَةٌ بِالْمِسْكِ مَخْضُوبَةُ الشَّوَى (٥) بَدْرٌ وَيَأْقُوتُ لَهَا مُتَقَلِّدَةٌ
 كَانَ ثَنَائِيهَا - وَمَا ذُقْتُ طَعْمَهَا - مُجَاجَةٌ (٦) نَحَلٌ فِي كَمِيَّتٍ (٧) مَبْرَدَةٌ
 لِيَقْرِزَ بِهَا النُّعْمَانُ عَيْنًا ، فَإِنَّهَا لَهُ نِعْمَةٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ مُجَدَّدَةٌ (٨)

فيقول أبو أمامة: « ما أذكرُ أني سلكتُ هذا القرى (٩) قطُّ » فيقول مولاي الشيخ: « إن ذلك لعجبٌ ! فمن الذي تطوعَ فنسبها إليك ؟ » فيقول: « إنها لم تنسب إليَّ على سبيل التطوع ، ولكن على معنى الغلظ والتوهم ؛ ولعلها لرجلٍ من بني ثعلبة بن سعد » فيقول نابتةُ بني جعدة: « صحبني شابٌ في الجاهلية ونحن نريدُ الحيرةَ ، فأنشدني هذه القصيدةَ لنفسه ، وذكر أنه ابنُ ثعلبة ، وصادفُ قدومهُ شكاةً (١٠) من النعمانِ ، فلم يصل بها إليه » فيقول نابتةُ بني ذبيان: « ما أجدر ذلك أن يكون ! »

- (١) الأرض التي أصابها مطر (٢) التي سكنها الوحوش (٣) محل الإقامة في الربيع
 (٤) اسم امرأة النعمان (٥) الأطراف ، ومخضوبة الشوى أى ملونة أطرافها بالحناء (٦) ريق
 (٧) خمر (٨) المعنى: عرجا على تلك الأرض التي جادها الغيث بسقياء ، حيث تقيم المتجردة
 زوج النعمان التي ينعم بحسنها الدائم التجدد كل يوم والتي تضمخت بالمسك ، وخضبت أطرافها
 بالحناء ، وتقلدت بالدر ، ومائل طعم ريقها - وإن كنت لم أذقه - شهداً ممزوجاً بخمر بارد .
 وهذه أبيات تبدو عليها مسحة التكلف والبعد عن الأسلوب الجاهلي لمن ينظر إليها بأدنى تأمل ، ونرجح أنها من مختلقات الرواة - وما أكثرها - وهي عندنا تقليد غير متقن للدالية
 النابتة التي وصف فيها المتجردة زوج النعمان ، وقد ورد ذكرها في ص (٤٢) من هذا الجزء
 (٩) قرى الماء: مسيله . والمراد هنا: الطريق أو المذهب (١٠) الشكاة: المرض ، أو أهونه

مجلس غناء

وَيَمُرُّ رُفٌّ^(١) مِنْ إَوَزِّ الْجَنَّةِ، فَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى تِلْكَ الرَّوْضَةِ، وَيَقِفُ وَقُوفٌ مُنْتَظِرٌ لِأَمْرِ، وَمِنْ شَأْنِ طَيْرِ الْجَنَّةِ أَنْ يَتَكَلَّمَ.

فَيَقُولُ: « مَا شَأْنُكَنَّ ! » فَيُقْلِنُ: « أَلْهُمْنَا أَنْ نَسْقُطَ فِي هَذِهِ الرَّوْضَةِ فَنُغْنِيَ لِمَنْ فِيهَا مِنْ شَرَبٍ » فَيَقُولُ: « عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ الْقَدِيرِ » فَيَنْتَفِضُنَ فَيَصِرُنَ جَوَارِيَّ كَوَاعِبَ، يَرْفُلُنَ^(٢) فِي وَشِي^(٣) الْجَنَّةِ، وَبِأَيْدِيهِنَّ الْمَزَاهِرُ^(٤) وَأَنْوَاعُ مَا يُيَلْتَمَسُ بِهِ الْمَلَاهِي؛ فَيَعْجَبُ - وَحَقُّ لَهُ الْعَجَبُ - وَلَيْسَ ذَلِكَ بِبَدِيعٍ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ. فَيَقُولُ لِإِحْدَاهُنَّ عَلَى سَبِيلِ الْإِمْتِحَانِ: « أَعْمَلِي قَوْلَ أَبِي أُمَامَةَ - وَهُوَ هَذَا الْقَاعِدُ - :

أَمِنْ أَلِ مِيَّةَ رَائِحٍ^(٥) أَوْ مُغْتَدٍ^(٦) عَجْلَانَ ذَا زَادٍ وَغَيْرَ مُزَوِّدٍ

ثَقِيلًا أَوَّلَ » فَتَصْنَعُهُ، فَتَجِيءُ بِهِ مُطْرِبًا، وَفِي أَعْضَاءِ السَّامِعِ مُتَسَرِّبًا؛ وَلَوْ نُحِتَ صَوْتٌ مِنْ أَحْجَارٍ، ثُمَّ سَمِعَ ذَلِكَ الصَّوْتَ لَرَقَصَ، فَيَقُولُ: « هَلُمَّ خَفِيفَ الثَّقِيلِ الْأَوَّلِ » فَتَنْبَعِثُ فِيهِ بِنَعْمٍ لَوْ سَمِعَهُ الْغَرِيضُ^(٧)، لَأَقْرَأَ أَنْ مَا تَرْتَمَّ بِهِ مَرِيضٌ؛ فَإِذَا أَجَادَتْهُ، قَالَ: « عَلَيْكَ بِالثَّقِيلِ الثَّانِي » فَتَأْتِي بِهِ، فَإِذَا رَأَى ذَلِكَ قَالَ: « سُبْحَانَ اللَّهِ ! كَمَا كَشَفَتِ الْقُدْرَةُ بَدَتِ لَهَا عَجَائِبُ، فَصِيرِي إِلَى خَفِيفِ الثَّقِيلِ الثَّانِي، فَإِنَّكَ لِمُجِيدَةٌ مُحْسِنَةٌ » ثُمَّ يَقْتَرِحُ عَلَيْهَا الرَّمْلَ وَخَفِيفَهُ، وَأَخَاهُ الْهَزَجَ،

(١) سرب (٢) يتخيلن أو يتبخترن (٣) حرير (٤) جمع مزهر، وهو نوع من آلات الطرب (٥) عائد وقت المساء (٦) ذاهب وقت الغداة أى الضحى (٧) المغنى الحاذق . وهو هنا اسم مغن معروف

فَإِذَا تَيَقَّنَ لَهَا حَذَاقَةً ، وَعَرَفَ مِنْهَا بِالْعُودِ لَبَاقَةً ، هَلَّلَ وَكَبَّرَ ، وَأَطَالَ حَمْدَ رَبِّهِ
وَاعْتَبَرَ ، وَقَالَ : « وَيْحَكَ ! أَلَمْ تَكُونِ السَّاعَةَ إِوْزَةً طَائِرَةً ، فَمِنْ أَيْنَ لَكَ
هَذَا الْعِلْمَ ؟ لَوْ نَشَأْتَ بَيْنَ مَعْبَدٍ وَابْنِ سُرَيْجٍ ، لَمَّا هَجَبْتَ السَّامِعَ بِهَذَا الْهَيْجِجِ !
فَكَيْفَ نَفَضْتَ عَنْكَ بَلَهَ الْإِوْزِ ؟ » فَتَقُولُ : « وَمَا الَّذِي رَأَيْتَ مِنْ قُدْرَةِ
بَارئِكَ ؟ إِنَّكَ عَلَى سَيْفٍ ^(١) بَحْرٍ ، لَا يُدْرِكُ لَهُ عِبرٌ ^(٢) ، سُبْحَانَ مَنْ يُحْيِي
الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ! »

حديث لبيد ^(٣)

فِينَمَا هُمْ كَذَلِكَ ، إِذْ مَرَّ شَابٌ

(١) السَّيْفُ : الشَّاطِئُ (٢) العبر : الساحل الآخر

(٣) لبيد

توفي سنة ٦٨٠ م .

هو من بني عامر بن صعصعة ، وأمه عيسية .

عاش نحو ١٤٥ سنة ، أكثرها في الجاهلية ، وأسلم وهو في التسعين من عمره ، وصحب
النبي (ص) في هجرته إلى المدينة ، ومات - في أواخر خلافة معاوية - بالكوفة .

كان بين قبيلته وبنو عيس أخواله عداوة شديدة ، فاجتمع وفداهما عند النعمان ابن المنذر ،
وكان على العبسين الربيع بن زياد ، وعلى العامرين ملاعب الأسته ، عم لبيد ؛ وكان
الربيع مقرباً عند النعمان يوماً كلكه ويناديه ؛ فأوغر صدره على العامرين ، فلما دخل وفداهم على
النعمان ، أهمله ؛ فخرجوا غضاباً ، فسألهم لبيد عن أمرهم - وكان يومئذ صغيراً يرعى إبلهم
ويسرحها - فاحتقروه لصغره ، فلما ألح عليهم أشركوه معهم ، فوعدهم بالانتقام لهم
ثم هجا الربيع بأبيات مشهورة كرهت فيه النعمان .

*

**

وقد هجر الشعر في الإسلام ، واستعاض عنه بقراءة القرآن ، ومن مختار شعره قوله في رثاء
أخيه لأمه ، وكان اسمه أربد - وقد بكى المعتصم حين سمع هذه القصيدة - :

في يده

وتبقى الجبال بعدنا والمصانع
ففارقتني جار بأربد نافع
فكل امرئ يوما له الدهر فاجع
يحور رمادا - بعد ما هو ساطع
وما المال والأهلون إلا ودائع
يتبر ما بيني ، وآخر رافع
ومنهم شقي بالعيشة قانع
لزوم العصا تحنى عليها الأصابع
أدب كأي كلكا قت راع
تقادم عهد القين . والنصل قاطع
علينا ، فدان للطوع وطلع
إذا رحل السفار ، من هو راجع
وأى كريم لم تصبه القوارع ؟
ولا زاجرات الطير ، ما الله صانع

بلينا ، وما تبلى النجوم الطوالع
وقد كنت في أكناف دار مَضنة
فلا جزع - إن فرق الدهر بيننا -
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ،
وما المرء إلا مضمرة من التقى
وما الناس إلا عاملان ، فعامل
فمنهم سعيد أخذ بنصيبه
أليس ورأى - إن تراخت منيتي -
أخبر أخبار القرون التي مضت
فأصبحت مثل السيف - أخلق جفنه
فلا تبعدن ، إن المنية موعد
أعاذل ! ما يدريك - إلا تظنينا -
أنجزع مما أحدث الدهر بالفتى ؟
لعمرك ، ما تدرى الضوارب بالحصى

وقوله :

أنحب فيقضى ؟ أم ضلال وباطل ؟
ويغنى إذا ما أخطأته الجبائل
قضى عملا ، والمرء - ما عاش - عامل
ألم يعظك الدهر ؟ أمك هابل !
ولا أنت مما تحذر النفس وائل
لعلك تهديك القرون الأوائل
ودون معد ، فلتزعك العوادل
بلى كل ذى رأى إلى الله واسل

الا تسألان المرء ، ماذا يحاول ؟
حباله مبثوثة في سبيله
إذا المرء أسرى ليلة ، خال أنه
فقولا له - إن كان يقسم أمره -
فتعلم أن لا أنت مدرك ما مضى
فإن أنت لم تصدقك نفسك فانتسب
فإن لم تجد من دون عدنان باقيا
أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم :

وكل نعيم — لا محالة — زائل
دويهية تصفر منها الأنامل
إذا كشفت عند الإله الحاصل
وكل امرىء يوماً سيعلم سعيه
وقوله من معلقته الرائعة :

أو لم تكن تدرى « نوار » بأننى
تراك أمكنة إذا لم أرضها
بل أنت لا تدرين كم من ليلة
قد بت سامرها ، وغاية تاجر

*
* *

إنّا — إذا التقت الجماع — لم يزل
ومقسم يعطى العشيرة حقها
من معشر سنت لهم أبواؤهم
لا يطبعون ولا يبور فعالمهم
فاقنع بما قسم للمليك فإنما
فضلاً وذو كرم يعين على الندى
وإذا الأمانة قسمت فى معشر
فبنى لنا بيتاً رفيعاً سمكه
وهم السعاة إذا العشيرة أفضعت
وهم ربيع للمجاور فيهم
وقوله :

تمنى ابتئى أن يعيش أبوها
إذا حان يوماً أن يموت أبوكا
وقولا : « هو المرء الذى ليس جاره
وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر ؟
فلا تخمشا وجهاً ، ولا تحلقا شعر
مضاعماً ، ولا خان الصديق ولا غدر »

مُحِبَّنٌ^(١) ياقوت ، فيسلم عليهم ، فيقولون : « مَنْ أَنْتَ ؟ » فيقول : « أنا لبيدُ
ابنِ ربيعةَ بنِ مالكِ بنِ جعفرِ بنِ كليبٍ » فيقول : « أَكْرَمْتَ ، أَكْرَمْتَ ،
لو قلتَ لبيدٌ وَسَكَتَ ، لَشَهَرْتَ بِاسْمِكَ ، فما بالكِ في مغفرةِ رَبِّكَ ! » فيقول :
« أنا بِحَمْدِ اللَّهِ في عيشٍ قَصَرَ أَنْ يَصِفَهُ الواصفون ، لا هَرَمَ ولا بَرَمَ ! »
فيقول الشيخُ : « تَبَارَكَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ ، ومن لا تَدْرِكُ يَقِينَهُ الْخُدُوسُ^(٢) ،
كَأَنَّكَ لم تَقُلْ في الدارِ الْفَانِيَةِ :

« وَلَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ الْحَيَاةِ وَطُوهَا وَسُؤَالَ هَذَا النَّاسِ : كَيْفَ لَيْدُ ؟ »
ولم تَقْهَ بقولك :

« فَتَى أَهْلِكَ فَلَا أَحْفَلُهُ^(٣) بَجَلِي^(٤) الْآنَ مِنَ الْعَيْشِ بِجَلٍ
مِنْ حَيَاةٍ قَدْ مَلَلْنَا طُوهَا وَجَدِيرٌ طُولُ عَيْشٍ أَنْ يُعْلَ^(٥) »
فَأَنْشِدْنَا مِيمِيَّتَكَ الْمعلقةَ ، فيقول : « هيهاتَ ، إِنِّي تَرَكْتُ الشَّعْرَ في الدارِ
الْخَادِعَةِ ، ولن أَعُودَ إِلَيْهِ في الدارِ الْآخِرَةِ ، وقد عَوَّضْتُ ما هو خَيْرٌ وَأَبْرُ »
فيقول : « أَخْبِرْنِي عن قولِكَ :

تَرَاكَ أَمْكِنَةَ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا أَوْ يَرْتَبِطُ بَعْضَ النُّفُوسِ حَمَاءَهَا

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن ييك حولاً كاملاً فقد اعتذر
وسيمر بك طرف من أخباره وأشعاره في الرسالة .

(١) العصا المنعطفة الرأس كالصولجان

(٢) الظنون (٣) أي فلا أبالي (٤) بجلي : حسبي وكفاني

(٥) خلاصة معنى البيتين هو : « متى وافاني أجلى لم أكرث له ، فقد طالت

حياتي ، فملت العيش » .

هل أَرَدْتَ بَعْضَ مَعْنَى كُلِّ؟ « فيقولُ لبيدٌ: « كلا . إنما أَرَدْتُ نَفْسِي ، وهذا كما تقولُ لِلرَّجُلِ : إِذَا ذَهَبَ مَالُكَ ، أَعْطَاكَ بَعْضُ النَّاسِ مَالاً . وَأَنْتَ تَعْنِي نَفْسَكَ فِي الْحَقِيقَةِ . وَظَاهِرُ الْكَلَامِ وَاقِعٌ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ ، وَعَلَى كُلِّ فِرْقَةٍ تَكُونُ بَعْضًا لِلنَّاسِ »

فيقولُ: « أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِكَ : « أَوْ يَرْتَبِطُ » هل مَقْصِدُكَ : إِذَا لَمْ أَرْضَهَا أَوْ لَمْ يَرْتَبِطْ؟ أمْ غَرَضُكَ أَتْرُكُ الْمَنَازِلَ أَوْ يَرْتَبِطُ ، فَيَكُونُ « يَرْتَبِطُ » كَالْحَمُولِ عَلَى قَوْلِكَ تَرَاكَ أَمْكِنَةٌ؟ « فيقولُ لبيدٌ: « الْوَجْهَ الْأَوَّلَ أَرَدْتُ »

غناء الحور

ويخطرُ له غِنَاءُ الْقِيَانِ بِالْفُسْطَاطِ وَمَدِينَةِ السَّلَامِ ، وَيَذَكُرُ تَرْجِيْعَيْنَ بِمِيمِيَّةِ الْمُخَبَّلِ السَّعْدِيِّ ، فَتَنْدَفِعُ تِلْكَ الْجَوَارِيُ الَّتِي نَقَلْتَهُنَّ الْقَدْرَةَ مِنْ خَلْقِ الطَّيْرِ إِلَى خَلْقِ الْحَوْرِ ، تُلَحِّنُ قَوْلَ الْمُخَبَّلِ السَّعْدِيِّ :

« ذَكَرَ الرَّبَابَ ، وَذَكَرْهَا سَقَمٌ وَصَبَا ، وَوَلَيْسَ لِمَنْ صَبَا عَزَمٌ
وَإِذَا أَلَمَّ خَيْالُهَا طَرَفَتْ عَيْنِي فَمَاءَ شُؤْنِهَا (١) سَجَمٌ (٢)
كَالْوُلُؤِ الْمَسْجُورِ (٣) تُوْبَعُ فِي سِلْكِ النَّظَامِ نَخَانُهُ النَّظْمِ (٤) »
فلا يمرُّ حَرْفٌ وَلَا حَرَكَةٌ إِلَّا وَيُوقِعُ مَسْرَّةً لَوْ عُدَّتْ بِمَسْرَاتِ أَهْلِ الْعَاجِلَةِ
— مِنْذَ خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ إِلَى أَنْ طَوَى ذُرِّيَّتَهُ — لَكَانَتْ الزَّائِدَةُ عَلَى ذَلِكَ زِيَادَةً

(١) الشُّؤْنُ : مَجَارِي الدَّمْعِ (٢) مَسْكُوبٌ (٣) الْمَنْظُومُ (٤) تَذَكَّرَ الرَّبَابَ فَشَجَاهَ ذَكَرَهَا ، وَحَنَ إِلَيْهَا فَخَارَتْ قَوَاهُ وَوَهَنَ عَزَمُهُ ، وَأَلَمَ بِهِ خَيْالُهَا فَسَحَتْ عَيْنَاهُ بِالدَّمْعِ كَمَا انْفَرَطَ عَقْدُ مِنَ الْوُلُؤِ الْمَنْظُومِ فَتَسَاقَطَ مُتَابِعًا

اللُّجَّ الْمَتَمَوِّجِ عَلَى دَمْعَةِ الطِّفْلِ ، وَالْهَضْبِ ^(١) الشَّامِخِ عَلَى الْهَبَاءَةِ ^(٢) الْمُسْتَفِضَةِ .
وَيَقُولُ لِنُدْمَائِهِ : « أَلَا تَسْمَعُونَ قَوْلَ السَّعْدِيِّ ^(٣) :

« وَتَقُولُ عَاذِلَتِي - وَليْسَ لَهَا - بَعْدِ وَلَا مَا بَعْدَهُ عِلْمٌ :

(١) الهضب : المرتفع من الأرض ، أو الجبل المنبسط ، أو كل جبل خلق من صخرة واحدة .
(٢) الهباءة : القطعة من الهباء ، وهو الغبار يشبه الدخان ويرى مبتدئاً في ضوء الشمس .
وقد وهم بعض الكتاب فظن أن المراد بالهباءة هنا : الأرض ، ومنها هباءة غطنان .
والصواب ما ذكرنا ، ويؤيده قول المعري : المنتفضة ، فهذا يقطع الشك

(٣) الخليل السعدي

اسمه ربيعة بن مالك ، وقبيلته بنو شماس من ولد أنف الناقة ، ومما رواه صاحب كتاب
« الشعر والشعراء » عن الخليل هذا أنه هجا الزبرقان بن بدر ، وذكر أخته خليدة ، ثم مر بها
- بعد حين - وقد أصابه كسر ، وهو لا يعرفها ، فأوته وجبرت كسره ، فلما عرفها قال :

« لقد ضل حلمي في خليدة ضلة سأعتب نفسي - بعدها - وأتوب

وأشهد - والمستغفر الله - أنني كذبت عليها ، والهجاء كذوب »

وهذا ندم حار يدل على توبة صادقة وضمير شريف يتأثر بالصنيع ويعترف بالجميل ،
وقل من الناس من يخلص في ندمه ، ويعترف بخطئه

ومن خير ما اختاره له « ابن قتيبة » صاحب ذلك الكتاب النفيس « الشعر والشعراء » قوله :

« فَإِنْ يَكْ غَصْنِي أَصْبَحَ الْيَوْمَ ذَاوِيَا وَغَصْنُكَ مِنْ مَاءِ الشَّبَابِ رَطِيبٌ

فإني حتى ظهري حوان تركنه عريشاً ، فمشي في الرجال ديب

وما للعظام الراجفات من البلى دواء ، وما للركبتين طيب

إذا قال أصحابي : « ربيع ! ألا ترى ؟ » أرى الشخص كالشخصين وهو قريب ^(١)

فلا يعجبك المرء ، إن كان ذا غنى ستتركه الأيام - وهو حريب

وكأن ترى - في الناس - من ذى بشاشة ومن شأنه الإقتار - وهو نجيب

(١) انظر الى افتنان ابن الرومي في أداء هذا المعنى في دالته الرائعة التي رثى بها شبابه ، فقال :

وبورك طرفي ، فالشخص حباله قرأتين ، من أدنى مدى ، وهي فرد

« ارجع الى ديوان ابن الرومي « ج ٣ من ص ٣٩٠ - ٣٩٤ » وانظر ص ٦٤ من هذا الجزء

« إِنَّ الثَّرَاءَ ^(١) هُوَ الْخُلُودُ وَإِنَّ
 الْمَرْءَ يَكْرُبُ ^(٢) يَوْمَهُ الْعُدْمَ »
 وَلَئِنْ بَنَيْتَ لِي الْمَشَقَّ ^(٣) فِي
 عَنَقَاءَ ^(٤) تَقْصُرُ دُونَهَا الْعُصْمَ ^(٥)
 لَتُنْقِبَنَّ عَنِّي الْمَنِيَّةُ ، إِنَّ
 اللَّهَ لَيْسَ كَحُكْمِهِ حُكْمٌ ^(٦) »

فيقول : « إِنَّهُ الْمِسْكِينُ قَالَ هَذِهِ الْآيَاتِ وَبَنُو آدَمَ فِي دَارِ الْحَنِّ وَالْبَلَاءِ ،
 وَالْوَالِدَةُ تَخَافُ الْمَنِيَّةَ عَلَى الْوَلَدِ ، وَالْفَقْرُ يُرْهَبُ وَيُتَّقَى ، وَالْمَالُ يُطْلَبُ وَيُسْتَبْقَى .
 فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ، الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ
 الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ ، لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ^(٧) . فَتَبَارَكَ اللَّهُ
 الْقُدُّوسُ ، نَقَلَ هُوَ لَاءِ الْمُسْمِعَاتِ ^(٨) ، مِنْ زَيْ رِبَّاتِ الْأَجْنَحَةِ ^(٩) ، إِلَى زَيْ رِبَّاتِ
 الْأَكْفَالِ الْمُرْتَجِحَةِ ^(١٠) ، ثُمَّ أَلْهَمَنَّهُ بِالْحِكْمَةِ حِفْظَ أَشْعَارٍ لَمْ تَمُرَّ قَبْلُ بِمَسَامِعِهِنَّ ،
 فَجَنَّنَ بِهَا مُتَقَنَةً ، مَحْمُولَةً عَلَى الطَّرَائِقِ مُلَحَّنَةً ! . وَلَقَدْ كَانَتْ الْجَارِيَةُ فِي الدَّارِ
 الْعَاجِلَةِ إِذَا تُفْرَسَتْ فِيهَا النَّجَابَةُ ، وَأَحْضَرَتْ لَهَا الْمَلْحَنَةَ لِتُلْقَى إِلَيْهَا مَا تَعْرِفُ

(١) فِي نَسْخَةِ الْيَازْجِي : « إِنَّ الثَّوَاءَ » وَهُوَ تَحْرِيفٌ ظَاهِرٌ ! (٢) يَدْنِي أَجْلَهُ
 وَيَقْرَبُ يَوْمَهُ (٣) هُوَ مَكَانٌ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ (٤) سَامِقَةٌ شَدِيدَةُ الْعَالُو ، وَهِيَ صِفَةٌ
 لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ هُوَ كَلِمَةٌ « قَنَّةٌ » (٥) جَمْعُ أَعْصَمٍ ، وَهُوَ الْوَعْلُ (٦) مَعْنَى الْآيَاتِ :
 تَلْحَاقِي عَاذِلَتِي عَلَى كَرْمِي ، لِأَنَّهَا تَرَى فِي الْغَنِيِّ كُلَّ مَعَانِي الرَّاحَةِ وَالْخُلُودِ ، وَتَرَى الْإِنْسَانَ إِذَا
 صَفَرَتْ يَدَهُ مِنَ الْمَالِ اسْوَدَّ عَيْشَهُ وَارْتَبَكَ أَمْرَهُ ، وَهَذَا الْعَمْرِيُّ رَأَى مَأْفُونٌ دَفَعَهَا إِلَيْهِ قَصْرَ
 نَظَرِهَا وَجَهَلِهَا بِالْغَدِّ ، وَلَوْ أَنَّهَا رَشِدَتْ لَعَلِمَتْ أَنَّ كُلَّ مَا فِي الدُّنْيَا مِنْ زَخْرَفٍ وَزِينَةٍ عِبَثٌ
 وَضَلَالٌ ، وَأَنَّ الْمَوْتَ سَيَحْتَمُّ هَذِهِ الْحَيَاةَ الْخَادِعَةَ ، فَلَا تَصْدهُ عَنَاقَتَهُ سَامِقَةً تَلُوذُ بِهَا فِي كَنَفِ
 جَبَلٍ شَاهِقٍ ، وَلَا تَقْلَتُنَا مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ حَيْلَةً ، وَإِذْنٌ فَمَا قِيَمَةُ الْمَالِ نَدْخِرُهُ وَنَبْخُلُ بِهِ ؟ ؟ وَمَنْ
 لِعَاذِلَتِي بَأَنَّ تَدْرِكُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ فَتَعْذِرُنِي وَتَكْفِرُنِي عَنْ لَوْمِي ! (٧) اللُّغُوبُ : شِدَّةُ التَّعَبِ
 وَالْإِعْيَاءِ (٨) الْمَغْنِيَاتِ (٩) الطَّيُورِ (١٠) النِّسَاءِ

من ثقيلٍ وخفيفٍ ، تُقيمُ معها الشَّهْرَ والشَّهْرَيْنِ قَبْلَ أَنْ تُلْقِنَ بَيْتًا مِنَ الْعَزْلِ
أَوْ بَيْتَيْنِ ، ثُمَّ تُعْطَى الْمِائَةَ أَوْ الْمِائَتَيْنِ ، فَسَبْحَانِ الْقَادِرِ ! » .

مَشَا جِرَةُ الْجَعْدِيِّ وَالْأَعَشِيِّ

وَيَقُولُ نَابِغَةُ بِنِي جَعْدَةَ - وَهُوَ جَالِسٌ يُسْتَمَعُ - : « يَا أَبَا بَصِيرٍ ! أَهَذِهِ
الرَّبَّابُ الَّتِي ذَكَرَهَا السَّعْدِيُّ هِيَ رَبَّابُكَ الَّتِي ذَكَرْتَهَا فِي قَوْلِكَ :

« بَعَا صِي الْعَوَازِلِ طَلَقَ الْيَدَيْنِ يُعْطَى الْجَزِيلَ وَيُرْخَى الْإِزَارَا
فَمَا نَطَقَ الدَّيْكَ حَتَّى مَلَا تُكُوبَ الرَّبَّابِ لَهُ ، فَاسْتَدَارَا
إِذَا انْكَبَّ ازْهَرُ^(١) بَيْنَ الشَّقَاةِ ، تَرَامُوا بِهِ غَرْبًا أَوْ نُضَارًا^(٢) »

فَيَقُولُ أَبُو بَصِيرٍ^(٣) : « قَدْ طَالَ عُمْرُكَ يَا أَبَا أَيْلَى ، وَأَحْسَبُكَ أَصَابَكَ
الْفَنْدُ^(٤) ، فَبَقِيَتْ عَلَيَّ فَنْدِكَ إِلَى الْيَوْمِ ! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّوَاتِي يُسَمَّيْنَ بِالرَّبَّابِ
أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُحْصَيْنَ ؟ أَفَتُظَنُّ أَنَّ الرَّبَّابَ هَذِهِ هِيَ الَّتِي ذَكَرَهَا الْقَائِلُ :

(١) الأزهر : إبريق الخمر ، قال عنتره :

ولقد شربت من المدامة بعدما ركد الهواجر بالمشوف المعلم
بزجاجة صفراء ذات أسرة قرنت بأزهر في الشمال المقدم

أى شربت الخمر بعد أن سكن قيظ الهواجر الشديد ، بالقدح الجلو المنقوش بزجاجة صفراء
مخططة قرنتها بإبريق مسدود الرأس بالفدام (٢) الغرب : الفضة ، أو القدح أو الجام الفضى
أو الذهب . ومعنى الأبيات أنه حل بساحة كريم ينفق المال غير مصيخ لعذل اللاتمات ويمشى
متبخترًا ، وأنه نادمه وقت السحر فما أذن ديك الصباح حتى دارت الكؤوس ، وكان النداحى
لفرط سرورهم بالخمر لا يكاد يوضع إبريق مدامة حتى يتراموا به متهاقنين على الشراب .

(٣) كنية الأعشى وتقدمت ترجمته في ص ٢١ من هذا الجزء (٤) الخرف : أفن الرأى والفضلال

مَا بَالُ قَوْمِكَ يَا رَبَّابُ خُزْرًا^(١) كَأَنَّهُمْ غَضَابُ
غَارُوا عَلَيْكَ ، وَكَيْفَ ذَا لِكَ وَدُونِكَ الْخُرْقُ^(٢) الْيَبَابُ^(٣)
أَوِ التِّي ذَكَرَهَا امْرُؤُ الْقَيْسِ فِي قَوْلِهِ :
دَارَ لَهْنِدٍ وَالرَّبَابِ وَفَرَّتَنِي وَلَمِيسَ ، قَبْلَ حَوَادِثِ الْأَيَّامِ

فَيَقُولُ نَابِغَةُ بِنَى جَعْدَةَ : « أَتَكَلَّمُنِي بِمِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ يَا خَلِيعَ بَنَى صُبَيْعَةَ ،
وَقَدْ مِتَّ كَافِرًا وَأَقْرَرْتَ عَلَى نَفْسِكَ بِالْفَاحِشَةِ ، وَأَنَا لَقَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَأَنْشَدْتُهُ كَلِمَتِي الَّتِي أَقُولُ فِيهَا :

« بَلَّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَسَنَاوْنَا^(٤) وَإِنَّا لَنَبْنِي فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا^(٥) »

فَقَالَ لِي : « إِلَى أَيْنَ يَا أَبَا كَيْلَى ؟ » فَقُلْتُ : « إِلَى الْجَنَّةِ بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! »
فَقَالَ : « لَا يَفْضُضُ اللَّهُ فَكًا ! »

أَعْرَكَ أَنْ عَدَّكَ بَعْضُ الْجُهَّالِ رَابِعَ الشُّعْرَاءِ الْأَرْبَعَةِ - وَكَذَبَ مُفَضَّلَكَ -
وَإِنِّي لِأَطْوَلُ مِنْكَ نَفْسًا ، وَأَكْثَرُ تَصَرُّفًا ، وَلَقَدْ بَلَغْتُ - بَعْدَ الْبُيُوتِ -
مَا لَمْ يَبْلُغْهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ قَبْلِي ، وَأَنْتِ لِأَهٍ بِعَفَّارَتِكَ^(٦) تَقْتَرِي عَلَى كِرَائِمِ
قَوْمِكَ ، وَإِنْ صَدَقْتَ نَحْزِيًّا لَكَ وَلِمُقَارَاكَ^(٧) »

(١) الخزر: ضيق العين (٢) الأرض الواسعة تتحرق فيها الرياح (٣) اليباب: الخراب
حيث لا يقيم أحد ، ومعنى البنتين : « ما الذي أسخط قومك فضاقت أعينهم من الغضب
والنظر الشرر ، أيقارون عليك من الأعداء والمغيرين وبينك وبين الناس تلك الصحراء
الواسعة التي لا يسكنها إنسان وهي وحدها كفيلة بحمايتك منهم ؟ » (٤) رفعتنا (٥) مكاناً
نصعد إليه (٦) العفارة: الخبث والنكر ، وهي أيضاً تليح النخل وإصلاحه ، والمقصود هنا
المنى الأول ، أي أنك كنت لاهيا بأضاليك وأعمالك الخبيثة (٧) مُخَالَطَكَ

فيغضب أبو بصير، فيقول: « أتقول هذا، وإن يتأ مما بنيت ليعدل بمائة من بنائك؟ وإن أسهبت في منطقتك، فإن المسهب كحاطب الليل. وإني لفي الجرثومة^(١) من ربيعة الفرس، وهل جعدة إلا رائدة ظليم^(٢) نفور؟ أتعيرني مدح الملوك يا جاهل؟ ولو قدرت على ذلك لهجرت إليه أهلك وكذلك. ولكنك خلقت جباناً، لا تدلج^(٣) في الظماء الداجية، ولا تهجر^(٤) في الوديقة^(٥) الصاخدة^(٦) »

فيقول الجعدى: « اسكت يا ضل بن ضل، فأقسم إن دخولك الجنة من المنكرات، ولكن الأفضية جرت كما شاء الله! لحقك أن تكون في الدرك الأسفل من النار، ولقد صلى بها من هو خير منك. ولو جاز الغلط على رب العزة، لقلت: إنك غلط بك، ألسنت القائل:

« فدخلت - إذ نام الرقيب - فبت دون ثيابها
حتى إذا ما استرسلت للنوم بعد لعابها^(٧)
قسمها نصفين كل مسود^(٨) يرعى بها^(٩)
فثنت جيد غريرة^(١٠) ولمست بطن حقابها^(١١)
كالحقة^(١٢) الصفرأ صا كعبيرها^(١٤) بملاها^(١٥)

(١) الصميم (٢) ذكر النعام (٣) لا تسير ليلاً (٤) لا تسير في الهاجرة
(٥) الوديقة: شدة الحر، والمراد هنا وقت الهاجرة والحر الشديد (٦) الشديدة القيظ
(٧) ملاعبتها (٨) سيد (٩) يحرزها، أو يظن به الظنون من أجلها (١٠) الجميلة،
أو التي لا تجر به لها (١١) وسطها (١٢) الحقة وعاء من خشب أو عاج (١٣) امتزج
- اختلط - لصق (١٤) العبير: أخلاط من الطيب (١٥) الملاب: نوع من العطر
أو الطيب قيل هو الزعفران

وَإِذَا لَهَا تَامُورَةٌ^(١) مَرْفُوعَةٌ لِشَرَابِهَا^(٢) »

وَاسْتَقَلَّمْتُ^(٣) بَنِي جَعْدَةَ ، وَلَيَوْمٍ مِنْ أَيَّامِهِمْ يَرْجِعُ بِمَسَاعِي قَوْمِكَ ! وَزَعَمْتَنِي جَبَانًا وَكَذَّبْتَ ، لَأَنَا أَشْجَعُ مِنْكَ وَمَنْ أَيْكَ ، وَأَصْبِرُ عَلَى إِدْلَاجِ الْمُظْلِمَةِ ذَاتِ الْأَرِيزِ^(٤) ، وَأَشَدُّ إِدْلَاجًا فِي الْهَاجِرَةِ أُمَّ الصَّخْدَانِ^(٥) ! »

وَيَثِبُ نَابِغَةٌ بَنِي جَعْدَةَ عَلَى أَبِي بَصِيرٍ ، فَيَضْرِبُهُ بِكُوزٍ مِنْ ذَهَبٍ
فَيَقُولُ الشَّيْخُ - أَصْلَحَ اللَّهُ بِهِ - : « لَا عَرَبِدَةٌ^(٦) فِي الْجِنَانِ ، إِنَّمَا يُعْرِفُ ذَلِكَ بَيْنَ السَّفَلَةِ وَالْهَجَّاجِ^(٧) ، وَإِنَّكَ يَا أَبَا لَيْلَى لَمُسْتَرَعٌّ^(٨) . وَلَوْلَا أَنْ فِي الْكِتَابِ الْكَرِيمِ : « لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ » لَظَنَّكَ أَصَابَكَ نَزْفٌ فِي عَقْلِكَ » . وَيُرِيدُ أَنْ يُصَلِّحَ بَيْنَ النَّدْمَاءِ . فَيَقُولُ : « يَجِبُ أَنْ يُحْذَرَ مِنْ مَلِكٍ يَعْبُرُ ، فَيَرَى هَذَا الْمَجْلِسَ ، فَيَرْفَعُ حَدِيثَهُ إِلَى الْجَبَّارِ الْأَعْظَمِ ، فَلَا يَجْرُ ذَلِكَ إِلَّا إِلَى مَا تَكْرَهُانِ .

(١) التامورة : الوعاء فيه الخمر أو الإبريق أو اللبن (٢) معنى الأبيات : تحيئت غفلة الرقيب فدخلت عليها ، وما زلت بها حتى استسلمت للنوم بعد أن أخذت حظها من اللعب ، فطويتها تحتي كما يفعل كل سيد جليل القدر بخيلته التي حامت حوله الظنون من أجلها ، ونعمت بضمها وعناقها ؛ وتمتعت نفسي بلمس بطنها وخاصرتها ، فكأنما لمست حقا من العاج امتزج بطيبه زعفرانه ، ثم حضر إبريق الخمر ورفع متهيناً للشراب (٣) رأيتهم قلة ، فاستخفت بهم . وما أبدع قول السموهلي في مثل هذا المعنى من لاميته المشهورة :

« تعيرنا أنا قليل عديدا فقلت لها : « إن الكرام قليل !

وما قل من كانت بقاياها مثلنا شباب تسامى للعلا وكهول

وما ضرنا أنا قليل ، وجارنا عزيز ، وجار الأكثرين ذليل ! »

(٤) الصقيع أو البرد الشديد (٥) الصخدان : اليوم الشديد الحر (٦) العربة :

الإيذاء وسوء الخلق (٧) الحمقى (٨) نزاع إلى الشر ، أو مسرع إلى ما لا ينبغي .

وَاسْتَعْنَى رَبُّنَا أَنْ تُرْفَعَ الْأَخْبَارُ إِلَيْهِ ، وَلَكِنْ جَرَى ذَلِكَ مَجْرَى الْحَفْظَةِ فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ . أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّ « آدَمَ » خَرَجَ مِنَ الْجَنَّةِ بِذَنْبِ حَقِيرٍ ^(١) ! فَغَيَّرَ آمِينَ مَنْ وُلِدَ أَنْ يُقَدَّرَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ ! فَسَأَلْتُكَ بِاللَّهِ يَا أَبَا بَصِيرٍ : هَلْ يَهْجُسُ لَكَ تَمَنِّي الْمُدَامِ ؟ « فَيَقُولُ : « كَلَّا وَاللَّهِ ، إِنَّهَا عِنْدِي كَمِثْلِ الْمُتَقَرِّ ، لَا يَخْطُرُ ذِكْرُهَا بِالْحَلْدِ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَقَانِي عَنْهَا ^(٢) السُّلْوَانَةَ ^(٣) »

✱
✱ ✱

فيقول :

« يَا أَبَا لَيْلَى ! إِنْ لِلَّهِ - جَلَّتْ قَدْرَتُهُ - مِنْ عَلَيْنَا بِهِوْلَاءِ الْحُورِ الْعَيْنِ اللَّوَاتِي حَوَّهْنَ عَنْ خَلْقٍ ^(٤) الْإِوَزِّ ، فَاخْتَرَتْ لِنَفْسِكَ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ ، فَلْتَذْهَبْ مَعَكَ إِلَى مَنْزِلِكَ تِلْجَانِكَ أَرَقَّ اللَّحَانِ ، وَتُسْمِعُكَ ضُرُوبَ الْأَلْحَانِ . »
فيقول لبيد بن ربيعة ^(٥) : « إِنْ أَخَذَ أَبُو لَيْلَى قَيْنَةً ، وَأَخَذَ غَيْرَهُ مِثْلَهَا ، أَلَيْسَ يَنْتَشِرُ خَبَرُهَا فِي الْجَنَّةِ ؟ فَلَا يُؤْمَنُ أَنْ يُسَمَّى فَأَعْلُو ذَلِكَ : أَرْوَاجِ الْإِوَزِّ ؟ » .

فَتَضْرِبُ الْجَمَاعَةَ عَنِ اقْتِسَامِ أَوْلَئِكَ الْقِيَانِ ^(٦) .

(١) ومن أجل هذا الذنب أُنحى عليه « المتنبي » بقوله - مخاطباً أبناء آدم :

« أُوَكِّمُكُمْ آدَمَ سُنَّ الْمَعَاصِي وَعَلَّمَكُمْ مَفَارِقَةَ الْجَنَانِ »

(٢) بدلني منها (٣) العسل (٤) فطرة (٥) مرت ترجمته في ص ٤٦ من هذا الجزء

(٦) انظر إلى ما في هذه الجملة الرشيقة من الدعاية الحلوقة والفن الدقيق ، فهي تمثل سداجة

القوم وطيبة قلوبهم أبداع تمثيل

حسان بن ثابت^(١)

وَيَمُرُّ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ، فيقولونَ : « أَهْلًا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ! أَلَا تَحَدَّثُ مَعَنَا

(١) حسان بن ثابت

توفي سنة ٥٤ هجرية

هو حسان بن ثابت الأنصاري ، وكنيته أبو الوليد ، ولد بالمدينة ، وعاش في الجاهلية والاسلام ، وتكسب بالشعر ، فقد مدح المناذرة والغساسنة ، وازدحمت عنده صلوات آل جفنة (من ملوك غسان) الذين غالى في مدحهم ، وقد بلغ من جهم إياه أنهم لم ينكروه بعد إسلامه ، بالرغم من نصرانيتهم

أسلم حسان مع الأنصار — حين هاجر الرسول إلى المدينة — فلما اشتد إنداء قریش للنبي بالهجاء وقال لأصحابه : « ما يمنع الذين نصرؤا لله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ — لباه حسان قائلاً : « أنا لها ! » وضرب بلسانه أرنبة أنفه وقال : « والله ما يسرنى به مقول ما بين بصرى وصنعاء ! والله لو وضعت على صخر لقلقه ، أو على شعر لخلقه ! » فقال له النبي : « كيف تهجوهم ؟ وأنا منهم ! » فقال : « أسلكت منهم كما تسل الشعرة من العجين ! » فقال : « اهجهم وروح القدس معك ! » ثم وقف شعره على مناصرته ، وانقطع إلى مدحه والنضح عنه .

وقد اشتهر حسان بأنه كان جباناً ، مخلوع القلب ؛ وسترى في هذه المناقشة «الخيالية» التي دارت بينه وبين ابن القارح ما يؤيد ذلك :

ومن أروع ما قال ، بيته الفذ :

وَإِنَّ امْرَأً أُمْسِي وَأَصْبَحَ سَالِمًا
مِنَ النَّاسِ — إِلَّا مَا جَنَى — لَسَعِيدٍ

وقد حكى أحدهم أنه سمعه — في جوف الليل — وهو ينوه بأسمائه ، ويقول : « أنا حسان ابن ثابت ! أنا ابن الفريعة ! أنا الحسام ! » فلما أصبح سأله عن السبب في ذلك وعما أعجبه ، فقال له حسان : « عاجلت بيتاً من الشعر فلما أحكمته ، نوهت بأسألي ؛ وذكر له ذلك البيت :

سَاعَةً؟ « فَإِذَا جَلَسَ إِلَيْهِمْ قَالُوا : « أَيْنَ هَذِهِ الْمَشْرُوبَةُ مِنْ سَبِيَّتِكَ ^(١) » التي
ذَكَرْتَهَا فِي قَوْلِكَ :

كَأَنَّ سَبِيَّتَهُ مِنْ بَيْتِ رَأْسِ ^(٢) يَكُونُ مِزَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاءٌ
عَلَى أَنْيَابِهَا . أَوْ طَعْمَ غَضٍّ مِنْ الثُّفَاحِ هَصْرَهُ اجْتِنَاءٌ
عَلَى فِيهَا ؛ إِذَا مَا اللَّيْلُ قَلَّتْ كَوَاكِبُهُ ، وَمَالَ بِهَا النُّعْطَاءُ
إِذَا مَا الْأَشْرِبَاتُ ذُكِرْنَ - يَوْمًا - فَهِنَّ لِطَيْبِ الرَّاحِ الْفِدَاءُ ^(٣)

وسواء أحت هذه الرواية أم لم تصح ، فإن للبيت روعة وجمالاً لا يقفان عند حد ، وهو
إلى ذلك يحوى حكمة أصيلة لا يتردد مفكر في إكبارها وإكبار الذهن الذي أخرجها !

ومثل حسان ، جدير أن يفخر بهذا البيت الخالد !

وستمر بك في هذا الحديث بضع أبيات جميلة من شعره .

(١) خمر (٢) اسم قرية بالشام مشهورة بمجودة الخمر ، وهي إحدى الأماكن التي
أحرزت شهرة كبيرة في ذلك ، وهو يصف في هذه الأبيات ريق امرأة (٣) هذه الأبيات
الأربعة من قصيدة طويلة لحسان قالها في مدح النبي - قبل فتح مكة - وهجا فيها
أبا سفيان - قبل أن يسلم - لأنه هجا النبي ، وقد ورد قبل هذه الأبيات قوله :

ديار من بنى الحسحاس قفر تعفها الروامسُ والسماءُ
وكانت لا يزال بها أنيس خالاً مروجها - نعم وشاء
فدع هذا ، ولكن من لطيف يؤرقني - إذا ذهب العشاء
لشعنا التي قد تيمته فليس لقلبه منها شفاء

كأن سبيته من بيت رأس الخ .

وقد ورد بعدها قوله :

نوليها الملامة إن المنا إذا ما كان مغت أو لحاء
ونشربها فتتركنا ملوكاً وأسداً ، ما ينهنها اللقاء

وَيَحْكُ ! مَا اسْتَحْيَيْتَ أَنْ تَذَكِّرَ هَذَا فِي مِدْحَتِكَ رَسُولَ اللَّهِ ؟ »
فيقول : « إِنَّهُ كَانَ أَسْجِحَ خُلُقًا مِمَّا تَعْظُمُونَ . وَلَمْ أَقُلْ إِلَّا خَيْرًا ، لَمْ أَذْكَرْ أَنِّي
شَرِبْتُ خَمْرًا ، وَلَا رَكِبْتُ - مِمَّا حُظِرَ - أَمْرًا ، وَإِنَّمَا وَصَفْتُ رِيْقَ امْرَأَةٍ : يَجُوزُ
أَنْ تَكُونَ حِلًّا لِي ، وَيُمْكِنُ أَنْ أَقُولَهُ عَلَى الظَّن ! وَقَدْ شَفَعَ فِي أَبِي بِصِيرٍ بَعْدَ
مَا تَهَكَّمْتُمْ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ! وَمَا سَمِعَ بِأَكْرَمٍ مِنْهُ . لَقَدْ أَفَكْتُ فِجْلَدَنِي مَعَ مِسْطِجٍ ،
ثُمَّ وَهَبَ لِي أُخْتَ مَارِيَةَ ، فَوَلَدْتُ لِي عَبْدَ الرَّحْمَنِ ، وَهِيَ خَالَةُ وَلَدِهِ « إِبْرَاهِيمَ »
وهو^(١) - زَيْنَ اللَّهِ الْأَدَابِ بِيَقَاتِهِ - يَخْطُرُ فِي ضَمِيرِهِ أَشْيَاءَ يَرِيدُ أَنْ
يَذْكَرَهَا لِحَسَانٍ وَغَيْرِهِ ، ثُمَّ يَخَافُ أَنْ يَكُونُوا لَمَّا طَلَبَ غَيْرَ مُحْسِنِينَ ، فَيُضْرَبُ
عنها إِكْرَامًا لِلجَلِيسِ .

ويقول قائل من القوم : « كَيْفَ جُبُنْتُ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ؟ »
فيقول : « أَلِي يُقَالُ هَذَا - وَقَوْمِي أَشْجَعُ الْعَرَبِ - أَرَادَ سِتَّةَ مِنْهُمْ أَنْ
يَمِيلُوا عَلَى أَهْلِ الْمَوْسِمِ بِأَسْيَافِهِمْ ، وَأَجَارُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، عَلَى أَنْ
يُحَارِبُوا مَعَهُ كُلَّ عَنُودٍ^(٢) ، فَرَمْتَهُمْ رَيْبَعَةً وَمُضْرُ وَجَمِيعُ الْعَرَبِ عَنِ قَوْسِ
الْعِدَاوَةِ ، وَأَضْمَرُوا لَهُمْ ضَعْفَ الشَّنَانِ .

وفي هذه القصيدة يقول بعد أبيات :

« أَلَا أَبْلُغُ أَبَا سَفِيَانَ عَنِي فَأَنْتَ مَجُوفٌ نَجْبٌ هَوَاءُ
بأن سيوفنا تركتك عبداً وعبد الدار سادتها الإماء
هجوت محمداً ، فأجبتُ عنه وعند الله في ذلك الجزء
أتهجوه ولست له بكفء فسر كما تلخير كما الفداء . » الخ الخ

والقصيدة طويلة مشهورة وهي في أول ديوانه ، فليرجع إليها من شاء .

(١) أي ابن القارح (٢) جائر عن القصد

وَإِنْ ظَهَرَ مِنِّي تَحَرُّزٌ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ عَلَى طَرِيقَةِ الْحَزْمِ ، كَمَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ الْكَرِيمِ : « وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ ذُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ »
ويفترق أهل ذلك المجلس ، بعد أن أقاموا فيه كعمر الدنيا أضعافاً كثيرة .

عُورَانُ قَيْسِ

فبينما هو^(١) يطوف في رياض الجنة، لقيه خمسة نفر على خمسة أيتن، فيقول :
« مَا رَأَيْتُ أَحْسَنَ مِنْ عَيُونِكُمْ فِي أَهْلِ الْجَنَانِ ، فَمَنْ أَتَمَّ خَلَدَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ النَّعِيمَ ؟ »
فيقولون : « نَحْنُ عُورَانُ^(٢) قَيْسِ : تَيْمِمْ بِنُ مُقْبِلِ الْعَجَلَانِي^(٣) ، وَعَمْرُو بْنُ أَحْمَرَ^(٤) الْبَاهِلِيَّ ، وَالشَّمَاخُ مَعْقِلُ بْنُ ضِرَارٍ ، وَرَاعِي الْإِبِلِ عَيْدُ بْنُ الْحُصَيْنِ النُّمَيْرِيُّ ، وَحَمِيدُ بْنُ ثَوْرٍ الْأَهْلَالِيُّ »

فيقول للشماخ بن ضرار^(٥) : « لَقَدْ كَانَ فِي نَفْسِي أَشْيَاءٌ مِنْ قَصِيدَتِكَ الَّتِي عَلَى الزَّيِّ ، وَكَلِمَتِكَ الَّتِي عَلَى الْجِيمِ ، فَأَنْشِدُنِيهِمَا لَا زِلْتَ مُخَلِّدًا كَرِيمًا ! »

(١) أي ابن الفارح (٢) جمع أعور (٣) ستمر بك ترجمته بعد صفحات

(٤) ترجمته في صفحة ٦٣

(٥) الشماخ معقل بن ضرار

شاعر مخضرم ، رجاز على البديهة ، ميال إلى الهجاء ، ذاع صيته في وصف القوس والحر ، وقد بلغ من إعجاب الخطيئة (الشاعر المشهور وستمر بك ترجمته) به ، أنه قال : « أبلغوا الشماخ أنه أشعر غطفان كلها ! » ولعل السر في إعجاب الخطيئة به هو اشتراكه معه في النزوع إلى الشر !
والشماخ هذا هو صاحب البيتين المشهورين في مدح عرابة الأنصاري . وهما قوله :

« رَأَيْتُ عَرَابَةَ الْأَوْسَى يَسْمُو إِلَى الْخَيْرَاتِ مَنْقَطِعَ الْقَرِينِ

إِذَا مَا رَايَةَ رَفَعْتَ لِحَدِّ تَلْقَاهَا عَرَابَةَ الْبَلِينِ »

فيقول: « لقد شغلني عنهما النعيمُ الدائمُ ، فما أذكرُ مِنْهُمَا بيتًا واحدًا » فيقولُ لِفِرطِ حُبِّهِ بِالْأَدَبِ : « لقد غفلتَ أيها المؤمنُ وأضعتَ ! أما علمتَ أن كلمتيك أنفعُ لك من ابنتيك ؟ ذكرتَ بهما في المواطنِ ، وشهرتَ عند ركبِ السَّفَرِ والقاطنِ . وإن القصيدةَ من قصائدِ النَّابِغَةِ لَأَنْفَعُ له من ابنتِهِ « عَقْرَبَ » ولعل تلك شانتُهُ وما زانتُهُ ، وأصابها في الجاهليةِ سبائُهُ^(١) ، وما وفرَّ لِأَجْلِهَا الحِباءُ^(٢) . وإن شئتَ أن أنشدَكَ قصيدَتِيكَ ، فإن ذلك ليس بِمُتَعَذِّرٍ عَلَيَّ » فيقولُ : « أنشدني - صفتَ عليك نعمةَ اللهِ - « فينشدُهُ :

« عَفَا مِنْ سُلَيْمَى بَطْنُ قَوٍّ ، فَعَايَزُ ، فَذَاتُ الْغَضَى ، فَالْمُشْرِفَاتُ النَّوَاشِرُ^(٣) »
فِيَجِدُهُ بِهَا غَيْرَ عَلِيمٍ ، وَيَسْأَلُهُ عَنْ أَشْيَاءٍ مِنْهَا فَيُصَادِفُهُ بِهَا غَيْرَ بَصِيرٍ .
فيقولُ : « شغلتني لذائذُ الخلودِ عن تعهدِ هذه المنكراتِ ، إنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ، وَفَوَاكِهٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ . كُلُّوْا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .
إِنَّمَا كُنْتُ أَسْقُ^(٤) هَذِهِ الْأُمُورَ وَأَنَا أَمَلُ أَنْ أَفْقَرَ^(٥) بِهَا نَاقَةً ، أَوْ أُعْطَى

(١) أسر (٢) العطاء (٣) « بطن قو » و « عاز » و « ذات الغضى » أسماء
أما كن ببلاد العرب - والمشرفات النواشر الجبال الشديدة الارتفاع ؛ ومعنى البيت :
أن كل تلك الأما كن - التي ذكرها - قد أفقرت من سليمان !
وهذا البيت مطلع قصيدة له . قالها في وصف القوس ومنها قوله :

« وذاق فأعطته من اللين جانباً كفى ! ولها - أن يفرق السهم - حاجز
إذا أنبض الرامون عنها ترنمت ترنم ثكلى أوجعتها الجنائز »
وما أبدع قول ابن الرومي في تشبيهه برنين القوس :

« تصمى الحب ، وتلقى - الدهر - شاكية كالفوس ؛ تصمى المنايا ، وهى مرنان »
(٤) أجمع (٥) أعطى وأمنح

كَيْلَ عِيَالِي سَنَةً، وَأَنَا الْآنَ فِي تَفَضُّلِ اللَّهِ، أَغْتَرِفُ فِي مَرَاوِدِ الْعَسْجَدِ مِنْ أَنْهَارِ
اللَّبَنِ، فَتَارَةً أَلْبَانَ الْإِبِلِ، وَتَارَةً أَلْبَانَ الْبَقَرِ، وَإِنْ شِدْتُ لَبَنَ الصَّانِ فَإِنَّهُ كَثِيرٌ
جَمًّا، وَكَذَلِكَ لَبَنُ الْمَعِيزِ؛ وَإِنْ أَحْبَبْتُ وَرَدًا مِنْ رِيسْلِ الْأَرَاوِيِّ^(١)، فَزُرْبُ نَهْرٍ
مِنْهُ كَأَنَّهُ دِجْلَةٌ أَوْ الْفُرَاتُ! وَلَقَدْ أَرَانِي فِي دَارِ الشَّقْوَةِ أَجْهَدُ أَخْلَافَ شَيْءٍ
لِحَبَاتٍ^(٢) لَا يَمْتَلِي مِنْهُنَّ الْقَعْبُ^(٣)! « فَيَقُولُ الشَّيْخُ: « فَأَيْنَ عَمْرُؤُ بْنُ أَحْمَرَ^(٤) »
فَيَقُولُ عَمْرُؤُ: « هَآنَذَا » فَيَقُولُ: أُنشِدْنِي قَوْلَكَ:

« بَانَ الشَّبَابُ، وَأَخْلَفَ الْعَمْرُ وَتَغَيَّرَ الْإِخْوَانُ وَالنَّهْرُ »

فَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي تَفْسِيرِ الْعَمْرِ - بِالْفَتْحِ - فَقِيلَ: إِنَّكَ أَرَدْتَ الْبَقَاءَ،

(١) لبن الوعول (٢) قليلة اللبن (٣) القدح الغليظ الضخم

(٤) عمرو بن أحمَر

في الموشح وغيره من كتب الأدب: عمرو بن أحمَر .

وقال العسقلاني في الإصابة: عمرو بن الأحمَر الباهلي .

وقال المرزباني: محضرم أدرك الجاهلية والإسلام، فأسلم وغزا مغازي في الروم، وأصيب
بإحدى عينيه هناك. ونزل الشام، وتوفي على عهد عثمان بعد أن بلغ سنًا عالية. وهو صحيح
الكلام، كثير الغريب .

وقال أبو الفرج: قال عمرو بن أحمَر في الإسلام شعرًا كثيرًا، ومدح الخلفاء الذين أدرَكهم
وخالد بن الوليد. وكان في حبسة الشام. ولم يلق أبا بكر، ومدح عمر فمن دونه .

* *

قال صاحب الموشح صفحة ٨٠:

أقوى عمرو في بيتين متقاربين من أبيات أولها:

ما للكواكب يا عيساء قد جعلت تزور عني وتطوى دوني الحجر

فقال فيها:

وكنت أمشي على رجلين متتدًا فصرت أمشي على أخرى من الشجر

وقيل : إنك أردت الواحد من عمور الأسنان ، وهو اللحم الذي بينها »
فيقول عمرو مُتمثلاً :

ثم قال بعده :

فقد جعلت أرى الشخصين أربعة والواحد اثنين مما بورك البصر^(١)
وأتبعه بقوله :

وقد جعلت إذا ما قت يثقلني ردفى فأنهض نهض الشارب السكر
وقال صاحب الموشح أيضاً في صفحة ٨٨ :

قال ابن أحر :

غادرني سهمه أعشى وغادره سيف ابن أحر يشكو الرأس والكبدا

أراد غادرني سهمه أعور ، فلم يمكنه ، فقال : أعشى .

قلنا : ولعل ابن أحر لم يرد التصريح بما أصابه ، ورغب في تهويله ، فعدل عن العور إلى
العشاء ، لأنه أخف ضرراً ، وأنبج في الموازنة بين ما فعل به خصمه ، وما فعل هو بخصمه .
فإذا حسن هذا التوجيه ، بطلت نقدة المرزباني . ولكل وجه .

*
* *

ويستشهد اللغويون كثيراً على الألفاظ بشعر عمرو هذا ، وكثيراً ما تجد هناك قولهم :
« قال ابن أحر » وذلك لفصاحة عمرو ، وإكثاره من الغريب في شعره ؛ فمن ذلك ما في اللسان
في استشهاده على أن العمور منابت الأسنان ، واحداها عمراً ؛ بهذا البيت الذي أورد المعري .
ومن ذلك ما في الكتاب للصولي ، قال : العرب تسمى أول ليلة من الشهر : النخيرة ،
لأن الهلال نحرها ، أي رؤى في نحرها ومطلعها ، قال ابن أحر :

ثم استمر عليها واكف همع في ليلة نحرت شعبان أوجبا

(١) أخذ ابن الرومي هذا المعنى كما نهينا على ذلك في هامش صفحة ٥١ تعليقا على قول الخليل السعدي :
« أرى الشخص كالشخصين وهو قريب »

خُذَا وَجْهَ هَرَشَى ^(١) أَوْ قَفَاهَا، فَإِنَّهُ كَلَا جَانِبِي هَرَشَى لَهْنٌ طَرِيقُ
وَلَمْ تَتْرُكْ فِي أَهْوَالِ الْقِيَامَةِ غُبْرًا ^(٢) لِلْإِنْشَادِ، أَمَا سَمِعْتَ الْآيَةَ :
« يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ
حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى، وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ »
وَقَدْ شَهِدْتَ الْمَوْقِفَ، فَالْعَجَبُ لَكَ إِذْ بَقِيَ مَعَكَ شَيْءٌ مِنْ رِوَايَتِكَ .

*
* *

فَيَقُولُ الشَّيْخُ : « إِنِّي كُنْتُ أَخْلِصُ الدُّعَاءَ فِي أَعْقَابِ الصَّلَوَاتِ - قَبْلَ أَنْ
أَنْتَقَلَ مِنَ تِلْكَ الدَّارِ - أَنْ يُتَمَعَّنِي اللَّهُ بِأَذْبِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . فَأَجَابَنِي إِلَى
مَا سَأَلْتُ، وَهُوَ الْحَمِيدُ الْمَجِيدُ . »

ثم يذكر له أشياء من شعره، فيجده، عن الجواب مستعجباً .

ومن شعر ابن أحرر ما أثبتته صاحب الإصابة :

« متى تطلب المعروف في غير أهله تجد مطلب المعروف غير يسير
وإن أنت لم تجعل لعرضك جنة من الدم سار الدم كل مسير »

(١) هرشى : ثنية في طريق مكة قريبة منها، والمراد من التمثيل بهذا البيت أن كلا
التأويلين صحيح، فليأخذ من يأخذ بأيهما شاء (٢) غير كل شيء : بقيته

حكاية تميم بن أُبَيِّ

فيقول « أَيُّكُمْ تَمِيمٌ بِنُ أَبِي؟ »^(١) فيقول رَجُلٌ مِنْهُمْ: « هَآنَذَا ! » فيقول:
« أَخْبِرْنِي عَن قَوْلِكَ :

يَا دَارَ سَلَمَى خَلَاءٍ لَا أَكَلْفَهَا إِلَّا الْمِرَانَةَ حَتَّى تَسَامَ الدِّينَا
مَا أَرَدْتَ بِالْمِرَانَةِ؟ فَقَدْ قِيلَ إِنَّكَ أَرَدْتَ اسْمَ امْرَأَةٍ! وَقِيلَ هِيَ اسْمُ

(١) تميم بن أُبَيِّ

في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة: « تميم بن أبي مقبل ». وفي بلوغ الأرب
للألويسي: « تميم بن مقبل ». وفي خزائن الأدب: « تميم بن أبي بن مقبل ». وقال:
« وَأُبَيُّ — بالتصغير وتشديد الياء — . وهو يوافق ما بين أيدينا من نسخ رسالة الغفران .

*
* *

وتميم هذا شاعر مخضرم، معدود في الفحول، لما أدرك الإسلام كان يبكي أهل الجاهلية.
وقد عاش نحو مائة وعشرين سنة .

قال البغدادي: كان تميم يهاجى النجاشي الشاعر، فهجاه النجاشي؛ فاستعدى عليه تميمٌ
عمرَ رضى الله عنه . فقال: يا أمير المؤمنين، هجاني! فقال عمر: يا نجاشي، ما قلت؟
قال: يا أمير المؤمنين، قلت ما لا أرى فيه عليه بأساً .
وأشده:

إذا الله جازى أهل لؤم بذمة فجازى بنى العجلان رهط بن مقبل
فقال عمر: إن كان مظلوماً استجيب له، وإن لم يكن مظلوماً لم يستجب له .
قالوا: وقد قال أيضاً:

قبيلته لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل
فقال عمر: ليت آل الخطاب كذلك!
قالوا: فإنه قال:

ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الورد عن كل منهل

أَمِيَّةٌ ، وَقِيلَ الْعَادَةُ » فيقول : تَمِيمٌ « وَاللَّهِ مَا دَخَلْتُ مِنْ بَابِ الْفِرْدَوْسِ وَمَعِيَ

فقال عمر : ذلك أقل للزحام .

قالوا : فإنه قال :

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكل من كعب بن عوف ونهشل
فقال عمر : يكفي ضياعاً من تأكل الكلاب لحمه !

قالوا : فإنه قال :

وما سمي العجلان إلا لقوله خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل
فقال عمر : كلنا عبد ، وخير القوم خادمهم !

قال تميم : فسله يا أمير المؤمنين عن قوله :

أولئك إخوان اللعين وأسوة الـ هجين ورهط الواهن المتذلل
فقال عمر : « أما هذا فلا أعذرك عليه » . فخبسه ، وقيل جلده .

قال الحصري القيرواني في زهر الآداب :

كان بنو العجلان يفخرون بهذا الاسم ، إذ كان عبد الله بن كعب جدهم إنما سمي العجلان
لتعجيله القرى للضيغان ، وذلك أن حيا من طيء نزلوا به ، فبعث إليهم بقراهم عبداً له ،
وقال له : أَعْجَلْ عليهم . ففعل العبد ، فأعتقه لعجلته .

فقال القوم : ما ينبغي أن يسمى إلا العجلان ، فسمى بذلك . فكان شرفاً لهم ، حتى
قال النجاشي هذا الشعر ، فصار الرجل (من رهط بن مقبل) إذا سئل عن نفسه . قال :
كعبي . ويرغب عن العجلان .

✱
✱

ومن غرر شعر تميم ما أنشد له دعبل :

« فأخلف وأتلف إنما المال عارة وكله مع الدهر الذي هو آكله
وأيسر مفقود ، وأهون هالك على الحى من لا يبلغ الحى نائله »

ومن شعره :

« خليلي لا تستعجلاً وانظراً غداً عسى أن يكون الرفق في الأمر أرسداً »

كَلِمَةٍ مِنَ الشَّعْرِ وَلَا الرَّجَزِ ، وَذَلِكَ أَنِّي حُوسِبْتُ حِسَابًا شَدِيدًا . وَقِيلَ لِي :
 « كُنْتَ فِي مَنْ قَاتَلَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ » وَانْبَرَى إِلَى النَّجَاشِيِّ الْحَارِثِيِّ ، فَمَا
 أَفَلَتْ مِنَ اللَّهَبِ حَتَّى سَفَعَنِي ^(١) . وَإِنَّ حِفْظَكَ لِمُسَبِّحِي عَلَيْكَ ، كَأَنَّكَ
 لَمْ تَشْهَدْ أَهْوَالَ الْحِسَابِ ، وَمُنَادَى الْحَشْرِ يَقُولُ : « أَيْنَ فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ »
 وَالشُّوسُ ^(٢) الْجَبَابِرَةُ مِنَ الْمُلُوكِ تَجْذِبُهُمُ الزَّبَانِيَّةُ إِلَى الْجَحِيمِ ، وَالنُّسُوءَةُ ذَوَاتُ
 التَّيْجَانِ يَصْرَنَ بِالسِّنَةِ مِنَ الْوَقُودِ ، فَتَأْخُذُ فِي فُرُوعِهِنَّ وَأَجْسَادِهِنَّ ، فَيَصْحَنُ :
 « هَلْ مِنْ فِدَاءٍ ؟ هَلْ مِنْ عَذْرٍ يُقَامُ ؟ » وَالسَّبَابُ مِنْ أَوْلَادِ الْأَكْسِرَةِ يَتَضَاغُونَ ^(٣)
 فِي سَلْسِلِ النَّارِ ، وَيَقُولُونَ : « نَحْنُ أَصْحَابُ الْكُنُوزِ ، نَحْنُ أَرْبَابُ الْفَأْيَةِ ،
 وَلَقَدْ كَانَتْ لَنَا إِلَى النَّاسِ صَنَائِعُ وَأَيَادٍ ، فَلَا فَادِيَ وَلَا مُعِين ! »

فَهَتَفَ دَاعٍ مِنْ قِبَلِ الْعَرْشِ : « أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ،
 وَجَاءَكُمْ التَّذِيرُ ، فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ » لَقَدْ جَاءَتْكُمْ الرُّسُلُ فِي
 زَمَانٍ بَعْدَ زَمَانٍ ، وَبَدَلَتْ لَكُمْ مَا وَكَّدَ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَقِيلَ لَكُمْ فِي الْكِتَابِ :
 « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ »
 فَكُنْتُمْ فِي لَذَاتِ السَّاخِرَةِ ^(٤) وَاعْغِلِينَ ^(٥) ، وَعَنْ أَعْمَالِ الْآخِرَةِ مُتَشَاغِلِينَ .
 فَلَا أَنْ ظَهَرَ النَّبَأُ « لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ »

وقد استشهد الرضى فى شرح الكافية على أن سراويل غير منصرف عند الأكثرين
 بقول تميم يصف الثور الوحشى :

أنى دونها ذب الرياد كأنه فتى فارسى فى سراويل رامج

(١) لطمنى (٢) الشجعان الجريئون على القتال (٣) يتضورون ، أو يصيحون

صياح الضعفاء المستخدين (٤) الدنيا (٥) ممعنين ومسرفين ، أى منغمسين فى لذائذها

لفصل الثاني

يوم الموقف

حكاية ابن القارح

فيقول^(١) : « أَنَا أَقْصُ عَلَيْكَ قِصَّتِي :

لَمَّا نَهَضْتُ أَنْتَفِضُ مِنَ الرَّيْمِ^(٢) ، وَحَضَرْتُ حَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ ، ذَكَرْتُ
الآيَةَ : « تَعْرِجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ،
فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا » فَطَالَ عَلَيَّ الْأَمْدُ ، وَاشْتَدَّ الظَّمْأُ ، وَأَنَا رَجُلٌ مَهْيَافٌ^(٤) ،
فَافْتَكَرْتُ^(٥) فَرَأَيْتُ أَمْرًا لَا قِوَامَ لِمِثْلِي بِهِ ، وَلَقِينِي الْمَلَكُ الْخَفِيفُ بِمَا زُبِرَ^(٦)
لِي مِنْ فِعْلِ الْخَيْرِ ، فَوَجَدْتُ حَسَنَاتِي قَلِيلَةً كَالنَّفَا فِي الْعَامِ الْأُرْمَلِ^(٧) ، إِلَّا أَنْ
التَّوْبَةَ فِي آخِرِهَا كَأَنَّهَا مِصْبَاحُ أَبِيلٍ^(٨) ، رُفِعَ لِسَالِكِ السَّبِيلِ .

(١) أى ابن القارح (٢) القبر (٣) ساحات (٤) الرجل المهيف : السريع
العطش ، كما شرحها المعرى نفسه ، وزاد غيره : أو شديده . ومثله : المهيف

(٥) فى نسخ الرسالة : افتكرت ، وكذلك يقول أبو العلاء فى لزومياته :

قال افتكار فى الحوادث صادق جعل الصعاب من الحذار مذله :

« هفت الحيفة ، والنصارى ما اهتدت ويهود حارت ، والجوس مضله

اثنا أهل الأرض : ذو عقل بلا دين ، وآخر دين لا عقل له »

أما ما فى المعاجم المعتمدة ، فهو : فكر فى الشيء وأفكر وفكر وتفكر ، وليس فيها افتكرك .

على أن المعاجم ذكرت أن الفكرة اسم من « الافتكار » كالرحلة من الارتحال .

(٦) كُتِبَ (٧) النَّفَا : الرِّياض ، وَالْعَامِ الْأُرْمَلِ : قَلِيلِ الْمَطَرِ (٨) الْأَبِيلِ

— كَأَمِيرٍ — كَلِمَةٌ مَعْرَبَةٌ ، وَمَعْنَاهَا رَئِيسُ النَّصَارَى ، أَوِ الرَّاهِبِ

حديثه مع رضوان

فَلَمَّا أَقَمْتُ فِي الْمَوْقِفِ زُهَاءَ شَهْرٍ أَوْ شَهْرَيْنِ ، وَخَفْتُ مِنَ الْعَرَقِ ، فِي الْعَرَقِ ، زَيْنَتْ لِي النَّفْسُ الْكَاذِبَةُ أَنَّ أَنْظِمَ آيَاتًا فِي رِضْوَانَ ، خَازِنِ الْجِنَانِ ، عَمِلْتُهَا فِي وَزْنٍ : « قِفَا نَبِكِ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبِ وَعِرْفَانِ » وَوَسَمْتُهَا بِرِضْوَانَ ، ثُمَّ صَانَكْتُ^(١) النَّاسَ حَتَّى وَقَفْتُ مِنْهُ بِحَيْثُ يَسْمَعُ وَيَرَى ، فَمَا حَفَلَ بِي ، وَلَا أَظُنُّهُ أَبَهُ لِمَا أَقُولُ ، فَعَبَّرْتُ^(٢) بَرُهَةً نَحْوَ عَشْرَةِ أَيَّامٍ مِنْ أَيَّامِ الْفَأْنِيَةِ ، ثُمَّ عَمِلْتُ آيَاتًا فِي وَزْنٍ :

بَانَ الْخَلِيطُ وَلَوْ طُوِوعَتْ مَا بَانَا وَقَطَّعُوا مِنْ حِبَالِ الْوَصْلِ أَقْرَانًا^(٣)

(١) ضايقت . زاحمت (٢) مكثت (٣) الخليط : الركب ، والأقران ، جمع : قرن : ومعناه في الأصل : الحبل يجمع به البعيران . والمراد في هذا البيت أنهم قطعوا ما كان يجمع بينه وبين حبيبه من أسباب اللقاء

وهذا البيت مطلع قصيدة لجرير الخطفي ، يهجو بها الأخطل ، ومن رقيق آياتها الغزلية :

قالت : أَلِمَّ بنا إن كنت منطلقاً	ولا إخالك بعد اليوم تلقانا
يا طيب هل من متاع تمتعين به	ضيفاً لكم باكرأ يا طيب عجلانا
ما كنت أول مشتاق أخى طرب	هاجت له غدوات البين أحزاننا
يا أم عمرو جزاك الله مغفرة	ردى على فؤادي كالذي كانا
قد خنت من لم يكن يخشى خيانتكم	ما كنت أول موثوق به خاننا
لقد كتمت الهوى حتى تهيمنى	لا أستطيع لهذا الحب كتماننا
لا بارك الله في الدنيا إذا انقطعت	أسباب دنياك من أسباب دنياننا
إن العيون التي في طرفها مرض	قتلنا ثم لم يحين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به	وهنّ أضعف خلق الله أركاننا

وَوَسَّمْتَهَا بِرِضْوَانٍ ، ثُمَّ دَنَوْتُ مِنْهُ ، فَفَعَلْتُ كِفْعَلِي الْأَوَّلِ ، فَكَانِي أُحْرَكُ

وهو جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي ، وكنيته أبو حرزة .
وقد ولد باليمامة في خلافة عثمان ، ونشأ بدوياً يرعى غنمه ، وكان هو وأهله فقراء يغلب عليهم الشعر يهجون به أعداءهم ، وقد هجا جرير البعيث ، وهو من قوم الفرزدق ، فانتصر الفرزدق لقومه ، فاشتبك جرير والفرزدق في مهاجة دامت عشر سنين
وقد رحل جرير إلى البصرة وظل يهاجى الفرزدق ومن يتدخل في شأنه كالأخطل ، فاتصل بولاة العراق ، كبشر بن مروان ، والحجاج بن يوسف ، ثم اتصل بعبد الملك بن مروان ، ومن بعده من خلفاء بني أمية ، وزاحم الفرزدق على أبوابهم فزحهم .
ويمتاز شعر جرير بمتانة القافية ، والبعد عن التعقيد ، والسلامة من التكلف . وامتاز نسيبه بالبرقة والعدوبة ، على أنه لم يعشق قط ، وقد قال : « لو عشقت لنسبت نسيباً تسمعه العجوز فتبكي على شبابها »

وقد قيل : أمدح بيت قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح
وأهجى بيت قوله :

ففض الطرف إنك من نير فلا كعبا بلغت ولا كلابا
وأغزل بيت قوله :

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحين قتلانا
وأفخر بيت قوله :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا
وأبلغ بيت في التهمك قوله :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشر بطول سلامة يا مربع
وأخبار جرير لا يتسع لها هذا المقام ، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعمق .

تَبِيرًا^(١) وَالتَّمِسُ مِنَ الْعِضْرِمِ^(٢) عَبِيرًا ، فَلَمْ أَزَلْ أَتَّبِعُ الْأَوْزَانَ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ يُوسَمَ بِهَا رِضْوَانٌ حَتَّى أَفْنَيْتُهَا ، وَأَنَا لَا أَجِدُ عِنْدَهُ مَعْوِثَةً ، وَلَا ظَنَنْتُهُ فَهَمَّ مَا أَقُولُ ، فَلَمَّا اسْتَقْصَيْتُ الْغَرَضَ فَتَا انْمَجَحْتُ ، دَعَوْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي : « يَا رِضْوَانُ ! يَا أَمِينَ الْمَلِكِ الْجَبَّارِ الْأَعْظَمِ عَلَى الْفَرَادِيسِ ! أَلَمْ تَسْمَعْ نِدَائِي بِكَ ، وَاسْتِغَاثِي إِلَيْكَ ؟ » فَقَالَ : « لَقَدْ سَمِعْتُكَ تَذَكَّرُ رِضْوَانُ وَمَا عَلِمْتُ مَقْصِدَكَ ، فَمَا الَّذِي تَطْلُبُهُ أَيُّهَا الْمَسْكِينُ ؟ فَاقُولُ : « أَنَا رَجُلٌ لَا صَبْرَ لِي عَلَى اللُّوَابِ^(٣) ، وَقَدْ اسْتَطَلْتُ مُدَّةَ الْحِسَابِ ، وَمَعِيَ صَكٌّ^(٤) بِالتَّوْبَةِ ، وَهِيَ لِلذُّنُوبِ كُلِّهَا مَاحِيَةٌ ، وَقَدْ مَدَحْتُكَ بِأَشْعَارٍ كَثِيرَةٍ وَوَسَّمْتُهَا بِاسْمِكَ » فَقَالَ : « وَمَا الْأَشْعَارُ ؟ » فَقُلْتُ : « الْأَشْعَارُ جَمْعُ شِعْرِ ، وَالشَّعْرُ كَلَامٌ مَوْزُونٌ تَقْبَلُهُ الْغَرِيزَةُ عَلَى شَرَائِطٍ إِنْ زَادَ أَوْ نَقَصَ أَبَانَهُ الْحُسُّ ، وَكَانَ أَهْلُ الْعَاجِلَةِ يَتَقَرَّبُونَ بِهِ إِلَى الْمُلُوكِ وَالسَّادَاتِ فَجِئْتُ بِشَيْءٍ مِنْهُ إِلَيْكَ ، لَعَلَّكَ تَأْذَنُ لِي بِالذُّخُولِ فِي هَذَا الْبَابِ ، فَقَدْ اسْتَطَلْتُ مَا لِلنَّاسِ فِيهِ ، وَأَنَا ضَعِيفٌ مَنِينٌ^(٥) وَلَا رَيْبَ أَنْي مِمَّنْ يَرْجُو الْمَعْفِرَةَ ، وَتَصِحُّ لَهُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى » فَقَالَ : « إِنَّكَ لَعَيْنُ الرَّأْيِ ، أَتَأْمَلُ أَنْ آذَنَ لَكَ بِغَيْرِ إِذْنٍ مِنْ رَبِّ الْعِزَّةِ ؟ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ! وَإِنِّي لَهُمُ التَّنَاوُشُ^(٦) مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ! »

حَدِيثُهُ مَعَ زُفْرٍ

فَتَرَكْتُهُ وَانصَرَفْتُ بِأَمْلِي إِلَى خَازِنٍ آخَرَ يُقَالُ لَهُ زُفْرٌ ، فَعَمِلْتُ كَلِمَةً وَوَسَّمْتُهَا بِاسْمِهِ ، فِي وَزْنِ قَوْلِ لَيْبِدٍ :

(١) اسم جبل (٢) قال أبو العلاء: العِضْرِمُ: تراب يشبه الجص (٣) العطش قالوا: « إذا طافت الإبل على الحوض ، ولم تقدر على الماء لكثرة الزحام ، فذلك اللوَاب. » (٤) إذن أو وثيقة (٥) المنين: الضعيف (والقوى) - ضد - والمراد هنا أنه ضعيف (٦) التناول أو الاختلاط

تَمَنَّى ابْنَتَايَ أَنْ يَعِيشَ أَبُوهُمَا وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ رَيْعَةِ أَوْ مُضَرٍّ^(١)
 وَقَرَّبْتُ مِنْهُ، فَأَنشَدْتُهَا، فَكَأَنِّي إِنَّمَا أَخْطَبُ رَكُودًا صَمَاءً، لِأَسْتَنْزِلَ^(٢) أَبُودَا
 عَصَمَاءَ^(٣)، وَلَمْ أَتْرُكْ وَزَنًا مُقَيَّدًا وَلَا مُطْلَقًا يَجُوزُ أَنْ يُوسَمَ بِزُفْرٍ إِلَّا وَسَمْتُهُ بِهِ،
 فَتَا نَجَعَ، فَقُلْتُ: «رَحِمَكَ اللَّهُ! كُنَّا فِي الدَّارِ الذَّاهِبَةِ نَتَقَرَّبُ إِلَى الرَّئِيسِ
 وَالْمَلِكِ بِالْبَيْتَيْنِ وَالثَّلَاثَةِ فَجَدُّ عِنْدَهُ مَا نُحِبُّ، وَقَدْ نَظَّمْتُ فِيكَ مَا لَوْ جُمِعَ
 لَكَانَ دِيوانًا وَكَأَنَّكَ مَا سَمِعْتَ لِي!» فَقَالَ: «لَا أَشْعُرُ بِالَّذِي حَمَمْتَ^(٤)،
 وَأُحْسِبُ هَذَا الَّذِي تَجِيئُنِي بِهِ قُرْآنَ إبْلِيسَ الْمَارِدِ، وَلَا يَنْفُقُ^(٥) عَلَى الْمَلَائِكَةِ،
 إِنَّمَا هُوَ لِلْجَانِّ، وَعَلَمُوهُ وَوَلَدَ آدَمَ. فَتَا بُغَيْتِكَ؟» فَذَكَرْتُ لَهُ مَا أُرِيدُ، فَقَالَ:
 «وَاللَّهِ مَا أَقْدِرُكَ عَلَى نَفْعٍ، وَلَا أَمْلِكُ لِخَلْقٍ مِنْ شَفْعٍ، فَمِنْ أَيِّ الْأُمَمِ أَنْتَ؟»
 فَقُلْتُ: «مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» فَقَالَ «صَدَقْتَ. ذَلِكَ
 نَبِيُّ الْعَرَبِ، وَمِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ أَتَيْتَنِي بِالْقَرِيضِ، لِأَنَّ إبْلِيسَ الْعَيْنِ نَفَثَهُ فِي
 إِقْلِيمِ الْعَرَبِ فَتَعَلَّمَهُ نِسَاءُ وَرِجَالٌ، وَقَدْ وَجَبَ عَلَيَّ نُصْحُكَ، فَعَلَيْكَ بِصَاحِبِكَ.
 لَعَلَّهُ يَتَوَصَّلُ إِلَيَّ مَا ابْتَغَيْتَ»
 فَيَسْتُمْ مِمَّا عِنْدَهُ.

(١) مر ذكر هذا البيت في أبيات في ترجمة لبيد (صحيفة ٤٦ من هذا الجزء)
 (٢) في نسخ الرسالة: لأستنزِل، ويصح به الكلام، على أنه قد يكون تحريفاً،
 صوابه: لأستزِل. واستزله: حمّله على أن يزل، فيتصيده، وبذلك تتساقق الجملة، إذ تتحقق
 المقابلة بين الزلل والاعتصام (٣) المراد بالركود الصماء، الأرض الغليظة، أو الجبل.
 والمراد بالأبود العصماء: البهيمة المتوحشة المستعصمة بالجبل (٤) حممت: قصدت

حديثه مع حمزة بن عبد المطلب^(١)

فَجَعَلْتُ أَنْتَحِلُّ الْعَالَمَ ، فَإِذَا أَنَا بِرَجُلٍ عَلَيْهِ نُورٌ يَتَلَأُّ ، فَقُلْتُ : « مَنْ هَذَا الرَّجُلُ ؟ » فَقِيلَ : « هَذَا حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ صَرِيحٌ وَحَشِيٌّ ، وَهُوَ لِأَنَّ الَّذِينَ حَوَّلَهُ مِنْ اسْتَشْهَدُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي أَحَدٍ » فَقُلْتُ لِنَفْسِي الْكَذُوبِ : « الشُّعْرُ عِنْدَ هَذَا أَنْفَقَ^(٢) مِنْهُ عِنْدَ حَارِزِ الْجَنَانِ ، لِأَنَّهُ شَاعِرٌ وَإِخْوَانُهُ شُعْرَاءُ ، وَكَذَلِكَ أَبُوهُ وَجَدُّهُ ، وَلَعَلَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ إِلَّا مَنْ نَظَّمَ شَيْئًا مِنْ مَوْزُونٍ ، فَعَمِلْتُ أَيْبَاتًا عَلَى مَنْهَجِ آيَاتِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ^(٣) الَّتِي رَثَى بِهَا حَمْزَةَ ، وَأَوَّلَهَا :

صَفِيَّةٌ قَوْمِي وَلَا تَعْجِزِي وَبِكِي النَّسَاءَ عَلَى حَمْزَةَ

وَجِئْتُ حَتَّى وَلَيْتُ^(٤) مِنْهُ ، فَنَادَيْتُ : « يَا سَيِّدَ الشُّهَدَاءِ ، يَا عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ

(١) حمزة بن عبد المطلب هو عم النبي ، وكان أسن منه بأربع سنوات أو أقل ، وقد أسلم فاعتز به الإسلام ، وشهد غزوتي بدر وأحد ، وقتله في الثانية وحشي بن حرب (٢) أروج - أجدى

(٣) كعب بن مالك

هو كعب بن مالك بن عمرو بن القين البدوي الأنصاري الخزرجي ، وهو أحد رجال الصحابة ، وكان من كبار الشعراء ، مشهوراً في الجاهلية . فلما جاء الإسلام كان من شعراء النبي صلوات الله عليه ، وشهد الغزوات . ثم كان من شيعة عثمان ، وأغاثه يوم الثورة . وكف بصره في أخريات أيامه . وعاش سبعا وسبعين سنة

قال روح بن زنباع : أشجع بيت وصف به رجل قومه ، قول كعب بن مالك :

نصِلَ السِّیُوفَ - إِذَا قَصْرْنَ - بِخَطُونَا یَوْمًا وَنَلْحَقَهَا إِذَا لَمْ تَلْحَقْ

(٤) أى دنوت وقربت . وليس فيما بين أيدينا من كتب اللغة إلا ، وَلِي فلان فلاناً ، أى دنا منه ، فعمل أبا العلاء ضَمَّنَ وَلِي معنى دنا . فقال : وَلِي منه ، كما يقال : دنا منه . وهو سائغ .

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ! يَا ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ! « فَمَا أَقْبَلَ عَلَيَّ بِوَجْهِهِ ، أَنْشَدْتُهُ
الْأَيَّاتَ ، فَقَالَ : وَيْحَكَ ! أَفِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ تَجِيئُنِي بِالْمَدِيحِ ؟ أَمَا سَمِعْتَ
الْآيَةَ ؟ « لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ »

فقلتُ : « بَلَى ، قَدْ سَمِعْتُهَا وَسَمِعْتُ مَا بَعْدَهَا « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ،
صَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ، تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ^(١) أُولَئِكَ هُمُ
الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ »

فقال : « إِنِّي لَا أَقْدِرُ عَلَى مَا تَطْلُبُ ، وَلَكِنْ أَنْفِذْ مَعَكَ تَوْرًا ^(٢) إِلَى ابْنِ
أَخِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، لِيُحَاطَبَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي أَمْرِكَ «
فَبَعَثَ مَعِيَ رَجُلًا ، فَمَا قَصَّ قِصَّتِي عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : « أَيْنَ يَبْتَئِكَ ؟ ^(٣) »

مقابلة أبي على الفارسي ^(٤)

وَكَنتُ قَدْ رَأَيْتُ فِي الْمَحْشَرِ شَيْخًا لَنَا كَانَ يَدْرُسُ النَّحْوَ فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ ،
يَعْرِفُ بِأَبِي عَلِيٍّ الْفَارِسِيَّ ، وَقَدْ امْتَرَسَ ^(٥) بِهِ قَوْمٌ يُطَالِبُونَهُ وَيَقُولُونَ : « تَأَوَّلْتَ

(١) غبرة (٢) التور : الرسول (٣) صحيفة حسناك

(٤) أبو على الفارسي : ٢٨٨ - ٣٧٧ هـ

اسمه : الحسن ، وكنيته : أبو على الفارسي : واسم أبيه أحمد بن عبد الغفار ، اشتهر في
علم النحو ، وأقام بجلب عند سيف الدولة بن حمدان مدة ، وجرت محاضرات بينه وبين
أبي الطيب المتنبي ، وانتقل إلى فارس وصحب عضد الدولة بن بويه ، وعلت منزلته هناك
ومات في بغداد سنة ٣٧٧ هـ . وقد مر في ترجمة ابن القارح - في الجزء الأول - أنه كان
تلميذاً لأبي على الفارسي ، وأنه درس عليه النحو ، ومن ثم ترى حسن المناسبة في هذا
لحديث ، إلى روعة الخيال وجمال التمثيل (٥) تعرّضوا له ، ولجؤا معه

عَلَيْنَا وَظَلَمْتَنَا « فَمَا رَأَى أَشَارَ إِلَى يَدِهِ ، فَجِئْتُهُ ، فَإِذَا عِنْدَهُ طَبَقَةٌ ، مِنْهَا
يَزِيدُ بْنُ الْحَكَمِ الْكِلَابِيُّ^(١) وَهُوَ يَقُولُ : « وَيَحْكُ ، أَنْشَدْتَ عَنِّي هَذَا
الْبَيْتَ بِرَفْعِ الْمَاءِ ، يَعْنِي قَوْلَهُ :

« فَلَيْتَ كَفَافًا كَانَ شَرُّكَ كُلُّهُ وَخَيْرَكَ عَنِّي مَا ارْتَوَى الْمَاءُ مُرْتَوَى^(٢) »

وَلَمْ أَقُلْ إِلَّا الْمَاءَ ، وَكَذَلِكَ زَعَمْتُ أَنِّي فَتَحْتُ الْمَيْمَ فِي قَوْلِي :

« تَبَدَّلَ خَلِيلًا بِي ، كَشَكِّكَ شَكْلَهُ ، فَإِنِّي خَلِيلًا صَالِحًا بِكَ مَقْتَوَى^(٣) »

(١) يزيد بن الحكم الكلابي

هو يزيد بن الحكم الثقفي ، شاعر جاهلي من بني كلاب بن ربيعة بن صعصعة . ومن
مختار شعره قوله :

دفعناكم بالقول ، حتى بطرتم وبالراح ، حتى كان دفع الأصابع
فلما رأينا جهلكم غير منته وما كان من أحلامكم غير راجع
مسسنا من الآباء شيئا ، وكلنا إلى حسب في قومه غير واضح
فلما بلغنا الأمهات ، وجدتم بني عمكم كانوا كرام المضاجع^(١)

بني عمنا لا تشتمونا ، ودافعوا * * *
وكنا بني عم - نزا الجهل بيننا - فكل يوفى حقه غير وادع

وستمر بك - بعد أسطر قلائل - قصيدته الرائعة التي تعد من غرر الشعر العربي

(٢) ما ارتوى الماء مرتوى ، أي دائما أبداً ، ومعنى البيت : « ليت خيرك يعادل شرك
فيكف هذا عنى ذاك ، وأصبح آمناً منك أبداً »

(٣) مقتوى أي متبدل به ، ومعنى البيت : « اختر لنفسك صديقاً آخر يشبهك وتشبهه ؛
فإني متبدل بك خليلاً صالحاً » وهو يخاطب ابن عمه ويقرعه على سوء سلوكه معه ، ويعلن
إليه ضيق ذرعه بما تحمله منه من الإساءة المتكررة ، ونفور طبعه من خطئه الجائرة .

وَإِنَّمَا قُلْتُ : « مُقْتَوِي » بِضَمِّ الْمِيمِ !

وهذا البيت والذي يليه من قصيدة رائعة له - هي من أجمل الشعر العربي وأجوده وأدقه في شرح النفوس وتحليلها مع براعة الأداء وقوة الشاعرية - وهي :

تكاشرني كُرْهاً كأنك ناصح
لسانك ماذى^(١) ، وغيبك علقم
فليت كفافاً كان خيرك كله
عدوك يخشى صولتي - إن نقيته -
تصافح من لاقيت لي ذا عداوة
أراك إذا لم أهو أمراً هويته
أراك اجتويت الخير مني ، وأجتوي^(٢)
وكم موطن - لولاي - طحت كاهوي
إذا ما ابنتي الجمد ابن عمك لم تعن
فإنك - إن قيل ابن عمك غام -
تملأت من غيظ عليّ ؛ فلم يزل
وما برحت نفس حسود حسبتها
وقال النطاسيون : « إنك مُشعَّرٌ
جمعت ، وخشياً ، غيبة ونميمة ،
أخشياً وجبناً ، واختناء^(٥) عن الندى
فيدحو بك الداحي إلى كل سواة
بدا منك غش طال ما قد كتتمته

وعينك تبدى أن صدرك لي دوى
وشرك مبسوط ، وخيرك منطوى
وشرك عني ، ما ارتوى الماء مرتوى
وأنت عدوي ، ليس ذاك بمستوى
صفاحاً ، وغبي بين عينيك منزوى
ولست لما أهوى من الأمر بالهوى
أذاك ، فكل يجتوي قرب مجتوي^(٣)
بأجرامه من قلة النيق^(٤) منهوى
وقلت : « ألا ياليت بنيانه خوي »
شج أو عميد أو أخو مغلة لوي
بك الغيظ حتى كدت بالغيظ تنشوي
تذبيك ، حتى قيل : هل أنت مكتوي ؟
سلالا « ألا بل أنت من حسد دوى
خصالاً ثلاثا لست عنها بمرعوى
كأنك أفعى كدية فر محجوى^(٦)
فيا شر من يدحو بأطيش مدحوى
كما كتتمت داء ابنها أم مدوى^(٧)

(١) غسل أبيض (٢) أكره (٣) كاره (٤) أرفع موضع في الجبل ، ومعنى البيت « كم موقف آزرتك فيه لحميتك من التلف ، ولو لم أفلع لهويت كما يهوى الشيء من أعلى قمة في الجبل »
(٥) الاختناء التقبض (٦) منطوى (٧) المدوى الذي يأخذ الدواية ، وهي جلدة رقيقة تركب اللبن ، يقال دوى اللبن يدوى فهو مدو . وأقبل الصبيان على اللبن يدوونه ، أى يأخذون ما عليه من الجلدة . ولأم مدو قصة طريفة ، فانظرها في الأمالي .

وَإِذَا جَمَاعَةٌ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ ، كَلَّمُهُمْ يَلُومُونَهُ عَلَى تَأْوِيلِهِ .
فَقُلْتُ : « يَا قَوْمِ إِنَّ هَذِهِ أُمُورٌ هَيِّئَةٌ ، فَلَا تُعْتَمِدُوا ^(١) هَذَا الشَّيْخَ ، فَإِنَّهُ
مَا سَفَكَ لَكُمْ دَمًا ، وَلَا اِحْتَجَنَ ^(٢) عَنْكُمْ مَالًا .

فَتَفَرَّقُوا عَنْهُ . وَشُعِلَتْ بِخِطَابِهِمْ ، وَالنَّظَرُ فِي حَوِيرِهِمْ ^(٣) ، فَسَقَطَ مِنِّي
الْكِتَابُ الَّذِي فِيهِ ذِكْرُ التَّوْبَةِ ، فَرَجَعْتُ أَطْلُبُهُ ، فَمَا وَجَدْتُهُ

حَدِيثُهُ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ^(٤)

فَأَظْهَرْتُ الْوَلَةَ وَالْجَزَعَ ، فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ : « لَا عَلَيْكَ ^(٥) أَلَّا شَاهِدُ
بِالتَّوْبَةِ ؟ » فَقُلْتُ : « نَعَمْ ! قَاضِي حَلَبَ وَعَدُو لَهَا ^(٦) » فَقَالَ : « بَيْنَ يُعْرَفُ
ذَلِكَ الرَّجُلُ ؟ » فَأَقُولُ : « بَعْبُدِ الْمُنْعِمِ بْنِ عَبْدِ الْكَرِيمِ ، قَاضِي حَلَبَ - حَرَسَهَا
اللَّهُ - فِي أَيَّامِ سِبْئِ الدَّوْلَةِ » فَأَقَامَ هُنَاكَ هَاتِفًا يَهْتَفُ فِي الْمَوْقِفِ : « يَا عَبْدَ الْمُنْعِمِ
ابْنَ عَبْدِ الْكَرِيمِ قَاضِي حَلَبَ فِي زَمَانِ سِبْئِ الدَّوْلَةِ ! هَلْ مَعَكَ عِلْمٌ مِنْ تَوْبَةِ
عَلِيِّ بْنِ مَنْصُورِ بْنِ طَالِبِ الْخَلْبِيِّ ؟ » فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ ، فَأَخَذَنِي الْهَلَعُ ^(٧) وَالرَّعْدَةُ ،
ثُمَّ هَتَفَ الثَّانِيَةَ ، فَلَمْ يُجِبْهُ مُجِيبٌ ! فَطَرَحْتُ إِلَى الْأَرْضِ ، ثُمَّ نَادَى الثَّلَاثَةَ ، فَأَجَابَهُ
قَائِلٌ يَقُولُ : « نَعَمْ قَدْ شَهِدْتُ تَوْبَةَ عَلِيِّ بْنِ مَنْصُورِ ، وَذَلِكَ بِأَخْرَةِ ^(٨) مِنْ
الْوَقْتِ ، وَحَضَرَتْ مَتَابِعُهُ عِنْدِي جَمَاعَةٌ مِنَ الْعَدُولِ ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ قَاضِي حَلَبَ
وَأَعْمَالُهَا . »

(١) لا ترهقوه ، وترفقوا به (٢) ضم إلى نفسه (٣) محاورتهم (٤) ستمر بك ترجمته
وطرف من أخباره في الجزء الثالث من هذا الكتاب (٥) لاضير عليك (٦) جمع عدل ،
وهو العادل الذي ترضى شهادته (٧) شدة الجزع (٨) جاء أخرة ، وبأخرة : أى
آخر كل شيء .

فَعِنْدَ ذَلِكَ نَهَضَتْ وَقَدْ أَخَذَتْ الرَّمَقَ (١) ، فَذَكَرَتْ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
— عَلَيْهِ السَّلَامُ — مَا أَلْتِمِسُ ، فَأَعْرَضَ عَنِّي ، وَقَالَ : « إِنَّكَ لَتَرُومُ مُمْتَنِعًا ، وَلَكَ
أَسْوَةٌ بَوْلِدِ أَيْكَ آدَمَ »

وروده الحوض

وَهَمَمْتُ بِالْحَوْضِ ، فَكِدْتُ لَا أَصِلُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ نَعَبْتُ مِنْهُ نَعَبَاتٍ (٢) لَا ظَمَاءَ
بَعْدَهَا ، وَإِذَا الْكُفْرَةُ يَحْمِلُونَ أَنفُسَهُمْ عَلَى الْوُرُودِ ، فَتَذُودُهُمْ (٣) الزَّبَانِيَةُ بَعْضِيَّ
تَضْطَرُّمُ نَارًا ، فَيَرْجِعُ أَحَدُهُمْ وَقَدْ احْتَرَقَ وَجْهَهُ أَوْ يَدَهُ ، وَهُوَ يَدْعُو بَوَيْلٍ وَبُورٍ (٤)

حديثه مع فاطمة

فَطَفْتُ عَلَى الْعِتْرَةِ الْمُسْتَحْبِينَ ، فَقُلْتُ : « إِنِّي كُنْتُ فِي الدَّارِ الذَّاهِبَةِ إِذَا
كُتِبَتْ كِتَابًا وَفَرَعْتُ مِنْهُ قُلْتُ فِي آخِرِهِ : « وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ
النَّبِيِّينَ ، وَعَلَى عِتْرَتِهِ الْأَخْيَارِ الطَّيِّبِينَ » وَهَذِهِ حُرْمَةٌ لِي وَوَسِيلَةٌ »

فَقَالُوا : « مَا تَصْنَعُ بِكَ ؟ » فَقُلْتُ : « إِنَّ مَوْلَانَا فَاطِمَةَ (٥) — عَلَيْهَا السَّلَامُ —
قَدْ دَخَلَتْ الْجَنَّةَ مِنْذُ دَهْرٍ . وَإِنَّهَا تَخْرُجُ فِي كُلِّ حِينٍ مِقْدَارُهُ أَرْبَعٌ وَعِشْرُونَ
سَاعَةً مِنْ سَاعَاتِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ ، فَتُسَلِّمُ عَلَيَّ أَيْهَا وَهُوَ قَائِمٌ لِشَهَادَةِ الْقَضَاءِ . ثُمَّ
تَعُودُ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا فِي الْجَنَانِ ، فَإِذَا هِيَ خَرَجَتْ كَالْعَادَةِ فَاسْأَلُوهَا فِي أَمْرِي

(١) بقية الروح (٢) جرجا (٣) تطردهم وتدفعمهم (٤) هلاك

(٥) فاطمة الزهراء : توفيت سنة ١١ هـ

هي بنت رسول الله صلوات الله عليه ، وقد تزوجها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ،
فولدت له الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب ، وكانت فصيحة عاقلة . وقد توفيت بعد أبيها
بسته أشهر ، ويروى عنها بعض الأحاديث النبوية .

بَأَجْمَعِكُمْ ، فَلَعَلَّهَا تَسْأَلُ أَبَاهَا فِي « فَلَمَّا حَانَ خُرُوجُهَا ، وَنَادَى الْهَاتِفُ أَنْ عُضُّوا
 أَبْصَارَكُمْ يَا أَهْلَ الْمَوْقِفِ حَتَّى تَعْبُرَ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ -
 اجْتَمَعَ مِنْ آلِ أَبِي طَالِبٍ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ ذُكُورٍ وَإِنَاثٍ مِمَّنْ لَمْ يَشْرَبْ خَمْرًا ،
 وَلَا عَرَفَ قَطُّ مُنْكَرًا ، فَلَقَوْهَا فِي بَعْضِ السَّبِيلِ . فَلَمَّا رَأَتْهُمْ قَالَتْ : « مَا بَالُ
 هَذِهِ الزَّرَافَةِ؟ ^(١) أَلَكُمُ حَالٌ تُذَكِّرُ؟ » فَقَالُوا : « نَحْنُ بِخَيْرٍ . إِنَّا نَلْتَدُّ بِتَحْفِ
 أَهْلِ الْجَنَّةِ . غَيْرَ أَنَّا مُحْبُوسُونَ لِلْكَلِمَةِ السَّابِقَةِ ، وَلَا نُرِيدُ أَنْ نَتَسَرَّعَ إِلَى الْجَنَّةِ
 قَبْلَ الْمِيقَاتِ ، إِذْ كُنَّا آمِنِينَ نَاعِمِينَ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا
 الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ^(٢) وَهُمْ فِيهَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ
 خَالِدُونَ ، لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي
 كُنْتُمْ تُوعَدُونَ » . وَكَانَ فِيهِمْ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ ^(٣) ، وَأَبْنَاهُ مُحَمَّدٌ ^(٤)

(١) الجماعة (٢) صوتها الخفي

(٣) علي بن الحسين : ٣٨ هـ - ٩٤ هـ

هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، الملقب بزین العابدين . كان يضرب
 به المثل في الحلم والورع ، ولد بالمدينة وتوفي بها . ومن شواهد نبه أنه أحصى بعد موته من
 كان يقوتهم سرّاً فإذا هم نحو مائة بيت ، حتى قال بعض أهل المدينة : « ما فقدنا صدقة السر
 إلا بعد موت زين العابدين . »

(٤) محمد بن علي : توفي سنة ١١٤ هـ

هو محمد بن علي زين العابدين بن الحسين ، وقد مرت ترجمة أبيه في هذه الصفحة ويلقب
 محمد بن علي بأبي جعفر الباقر ، وكان ناسكاً عابداً ، ويروى له في تفسير القرآن آراء وأقوال ،
 ولد بالمدينة ، وتوفي خارجها ، فنقلت جثته إليها ، ودفن بها .

وَزَيْدٌ^(١) ، وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْأَبْرَارِ الصَّالِحِينَ ، وَمَعَ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ امْرَأَةً
 أُخْرَى تَجْرِي مَجْرَاهَا فِي الشَّرَفِ وَالْجَلَالَةِ ، فَقِيلَ : « مَنْ هَذِهِ ؟ » فَقِيلَ :
 « خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى^(٢) » وَمَعَهَا شَبَابٌ عَلَى أَفْرَاسٍ
 مِنْ نُورٍ ، فَقِيلَ : « مَنْ هُوَ لَآءِ ؟ » فَقِيلَ : « عَبْدُ اللَّهِ ، وَالْقَاسِمُ ، وَالطَّيِّبُ ،
 وَالطَّاهِرُ ، وَإِبْرَاهِيمُ^(٣) ، بَنُو مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ »

(١) زيد بن علي : توفي سنة ١٢٢ هـ

زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، أقام بالكوفة ، وقرأ على واصل بن عطاء
 رأس المعتزلة ، واقتبس منه علم الاعتزال ، وخرج على هشام بن عبد الملك سنة ١٢٠ هـ
 داعياً إلى العمل بالكتاب والسنة ، ورد المظالم ، والعدل في القسمة . وكان عامل العراق
 آنئذ يوسف بن عمر النخعي ، فكتب يوسف إلى الحكم بن أبي الصلت يأمره بقتال زيد ، ففعل ،
 ودارت معارك ختمت بقتل زيد ، فحمل رأسه إلى الشام ونصب على باب دمشق . وإلى
 زيد بن علي تنسب الطوائف الزيدية الباقية إلى يومنا هذا في اليمن وغيرها .

(٢) خديجة بنت خويلد : توفيت قبل الهجرة بثلاث سنين

خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى ، أول زوجة للرسول صلوات الله عليه ،
 وكانت أسن منه بخمس عشرة سنة ، ولدت بمكة ، ونشأت في بيت شرف ويسار ،
 وتزوجت برجل مات عنها ، وكانت ذات مال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام ، فتنسأجر
 لذلك الرجال . وقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في تجارة لها إلى الشام فربحت
 ربها عظيماً ، فأرسلت إليه من يعرض عليه زواجه منها ، فلما تزوجها ولدت له القاسم وعبد الله
 (وهو الطاهر والطيب) وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، وكان بين كل ولدين سنة . ولما
 بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاها إلى الإسلام ، فأسلمت ، ومكثتا يصليان سراً إلى
 أن ظهرت الدعوة الإسلامية . وتوفيت خديجة بمكة .

(٣) هكذا في جميع النسخ . والذكور من أولاد النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة :

عبد الله ، والقاسم ، وإبراهيم . أما الطيب والطاهر فلقبان ، قيل إنهما لقباً عبد الله .

فَقَالَتْ تِلْكَ الْجَمَاعَةُ الَّتِي سَأَلْتُ: « هَذَا وَلِيٌّ مِنْ أَوْلِيَائِنَا قَدْ صَحَّتْ تَوْبَتُهُ،
وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَقَدْ تَوَسَّلَ بِنَا إِلَيْكَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ - فِي أَنْ
يُرَاحَ مِنْ أَهْوَالِ الْمَوْقِفِ، وَيَصِيرَ إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَتَعَجَّلَ الْفَوْزَ »
فَقَالَتْ لِأَخِيهَا إِبْرَاهِيمَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ - : « دُونَكَ الرَّجُلَ » فَقَالَ لِي:
« تَعَلَّقْ بِرِكَابِي » وَجَعَلَتْ تِلْكَ الْخَيْلُ تَحُلُّ النَّاسَ؛ وَتَنَكِّشُ لَهَا الْأُمَمَ
وَالْأَجْيَالَ^(١). فَلَمَّا عَظُمَ الرَّحَامُ، طَارَتْ فِي الْمَوَاءِ، وَأَنَا مُتَعَلِّقٌ بِالرَّكَابِ

حديثه مع النبي

فَوَقَفْتُ عِنْدَ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: « مَنْ هَذَا الْأَتَاوَى^(٢)؟ »
فَقَالَتْ: « هَذَا رَجُلٌ سَأَلَ فِيهِ فَلَانٌ وَفَلَانٌ » وَسَمَّتْ جَمَاعَةً مِنَ الْأُمَّةِ
الطَّاهِرِينَ، فَقَالَ: « حَتَّى يُنْظَرَ فِي عَمَلِهِ » فَسَأَلَ فِي عَمَلِي، فَوَجَدَهُ فِي الدِّيْوَانِ
الْأَعْظَمِ. وَقَدْ حُتِمَ بِالتَّوْبَةِ؛ فَشَفَعَ لِي، فَأَذِنَ لِي فِي الدُّخُولِ

عبور الصراط

فَلَمَّا خَلَصْتُ مِنْ تِلْكَ الطُّمُوشِ^(٣) قِيلَ لِي: « هَذَا الصَّرَاطُ، فَاعْبُرْ عَلَيْهِ »
فَوَجَدْتُهُ خَالِيًا لَا عَرِيبَ^(٤) عِنْدَهُ، فَبَلَوْتُ نَفْسِي فِي الْعُبُورِ، فَوَجَدْتَنِي
لَا أَسْتَمْسِكُ، فَقَالَتْ الزَّهْرَاءُ^(٥) - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهَا - لِحِبَارِيَّةٍ مِنْ جَوَارِيهَا:

فلعله سهو من أبي العلاء، إذ اشتبهت عليه الأسماء بالألقاب، فعد الذكور خمسة .
وجل من لا يسهو، فالعصمة لله وحده .

(١) الأجيال: أجناس الناس، كالترك، والروم، والزنج (٢) الغريب

(٣) جمع طمش، وهو الناس (٤) لا أحد (٥) هي السيدة فاطمة، وقد تقدمت ترجمتها

« يَا فُلَانَةُ ، أَجِيزِيهِ ^(١) » فَجَعَلَتْ تُمَارِسُنِي ^(٢) وَأَنَا أَتَسَاقَطُ عَنْ يَمِينِ وَشِمَالِ
فَقُلْتُ لَهَا : « يَا هَذِهِ ! إِنْ أَرَدْتَ سَلَامَتِي ، فَاسْتَعْمِلِي مَعِيَ قَوْلَ الْقَائِلِ
فِي الدَّارِ العَاجِلَةِ :

« سِتِّ إِنْ أَعْيَاكَ أَمْرِي فَاحْمِلِي زَقْفُونَهُ »

فَقَالَتْ : « وَمَا زَقْفُونَةٌ ؟ » قُلْتُ : « أَنْ يَطْرَحَ الْإِنْسَانُ يَدَيْهِ عَلَى كَتِفِي
الْآخِرِ ، وَيُمْسِكَ بِيَدَيْهِ ، وَيَحْمِلُهُ وَبَطْنُهُ إِلَى ظَهْرِهِ . أَمَا سَمِعْتِ قَوْلَ
الْجَحْجَبُولِ مَنْ أَهْلُ كَفْرِ طَابِ :

صَلَحَتْ حَالِي إِلَى الْخَلْفِ حَتَّى صِرْتُ أَمْشِي إِلَى الْوَرَى زَقْفُونَهُ ^(٣)

فَقَالَتْ : « مَا سَمِعْتِ بِزَقْفُونَةٍ وَلَا الْجَحْجَبُولِ وَلَا كَفْرِ طَابٍ إِلَّا السَّاعَةَ ! »

فَتَحْمِلْنِي ، وَتَجُوزُ كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ . فَأَمَّا جُرْتُ ، قَالَتِ الزَّهْرَاءُ — عَلَيْهَا

السَّلَامُ — : « قَدْ وَهَبْنَا لَكَ هَذِهِ الْجَارِيَةَ ، فَخُذْهَا كَمَا تَخْدُمُكَ فِي الْجِنَانِ . »

حواره مع رضوان

فَلَمَّا صِرْتُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ ، قَالَ رِضْوَانٌ : « هَلْ مَعَكَ مِنْ جَوَازٍ ؟ »

فَقُلْتُ : « لَا » فَقَالَ : « لَا سَبِيلَ إِلَى الدُّخُولِ إِلَّا بِهِ »

(١) اجعليه يجوز ، أى يعبر (٢) تعالجنى (٣) كفر طاب قرية من قرى الشام ،

وفيهما يقول أبو العلاء فى لزومياته :

أرى كفر طاب أعجز الماء حفره وبالس أغناها الفرات عن الحفر

كذلك مجرى الرزق ، واد به ندى ، وواد به فيض ، وآخر ذو جفر

و بالس قرية بالشام

فَبَعِلْتُ^(١) بِالْأَمْرِ ، وَعَلَى بَابِ الْجَنَّةِ - مِنْ دَاخِلٍ - شَجَرَةٌ صَفْصَافٌ ،
فَقُلْتُ : « أَعْطِنِي وَرَقَةً مِنْ هَذِهِ الصَّفْصَافَةِ ، حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى الْمَوْقِفِ ،
فَأُخَذَ عَلَيْهَا جَوَازًا » فَقَالَ : « لَا أُخْرِجُ شَيْئًا مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا بِإِذْنِ مِنَ الْعَلِيِّ
الْأَعْلَى - تَقَدَّسَ وَتَبَارَكَ »

فَلَمَّا دَجِرْتُ^(٢) بِالنَّازِلَةِ ، قُلْتُ : « إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، لَوْ أَنَّ لِلَّامِيرِ
أَبِي الْمَرْجِيِّ خَازِنًا مِثْلَكَ ، لَمَا وَصَلْتُ أَنَا وَلَا غَيْرِي إِلَى دِرْهِمٍ مِنْ خَزَائِنِهِ ! »

دخوله الجنة

وَالْتَفَتَ إِبْرَاهِيمُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ - فَرَآنِي وَقَدْ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ ، فَرَجَعَ
إِلَيَّ ، فَجَذَبَنِي جَذْبَةً حَصَلَنِي بِهَا فِي الْجَنَّةِ ، وَكَانَ مُقَامِي^(٣) فِي الْمَوْقِفِ مُدَّةَ
سِتَّةِ أَشْهُرٍ مِنْ شُهُورِ الْعَاجِلَةِ ، فَلِذَلِكَ بَقِيَ عَلَيَّ حِفْظِي ، مَا نَزَفْتَهُ^(٤) الْأَهْوَالُ ،
وَلَا نَهَكَةُ تَدْقِيقِ الْحِسَابِ .

(١) وصلت حيرتي وخوفي وسأحي الى حد لم أدر معه ما أصنع

(٢) حرت (٣) إقامتي (٤) ما أذهبتَه

الفصل الثالث

نَعِيمُ الْفِرْدَوْسِ

حديثه مع حميد بن ثور^(١)

وَيَنْصَرِفُ عَنْهُ رَشِيداً إِلَى حُمَيْدِ بْنِ ثَوْرٍ ؟ فَيَقُولُ :
« إِيهِ يَا حُمَيْدُ ! لَقَدْ أَحْسَنْتَ فِي قَوْلِكَ :

أَرَى بَصْرِي قَدْرَ ابْنِي - بَعْدَ صِحَّةٍ - وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَصِحَّ وَتَسَامَا^(٢)
وَلَنْ يَلْبَثَ الْعَصْرَانِ^(٣) يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ إِذَا طَلَبَا ، أَنْ يُدْرِكَ مَا تَيْمَمَا^(٤)

فَكَيْفَ بَصْرُكَ الْيَوْمَ ؟ » فَيَقُولُ : « إِنِّي لَأَكُونُ فِي مَغَارِبِ الْجَنَّةِ ، فَأَلْمَحُ
الصَّدِيقَ مِنْ أَصْدِقَائِي وَهُوَ بِمَشَارِقِهَا ، وَيَبِينُ مَسِيرَةَ الْوَفِّ أَعْوَامٍ

(١) حميد بن ثور الهلالي .

شاعر إسلامي من عامر بن صعصعة ، ينسبون إليه البيت المشهور الذي جرى مجرى

المثل ، وهو قوله :

ينام بإحدى مقلتيه ، ويتقي بأخرى الأعدى ، فهو يقظان نائم

(٢) في هذا المعنى يقول أبو العلاء في لزومياته :

يداوى المريض لكيما يصح وهل صحة الجسم إلا مرض ؟

(٣) الليل والنهار (٤) تيممة : قصده ، ومعنى البيتين : ضعف بصري بعد أن

كان صحيحاً ، وكفى بالصحة منذرا بالمرض ، فقد آلى الزمن ليسقمن كل صحيح ، وليس

يعجز الزمن الدائر بأيامه ولياليه أن يدرك غايته وشيكا .

لِلشَّمْسِ الَّتِي عَرَفْتَ سُرْعَةَ سَيْرِهَا فِي الْعَاجِلَةِ ، فَتَعَالَى اللَّهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ بَدِيعٍ ^(١)»
فَيَقُولُ الشَّيْخُ : « لَقَدْ أَحْسَنْتَ فِي الدَّلِيلَةِ الَّتِي فِيهَا - :

تَتَابَعَ أَعْوَامٌ عَلَيْهِمَا هَزَلْنَاهَا وَأَقْبَلَ عَامٌ ، يُنْعَشُ النَّاسَ ، وَاحِدٌ »
فَيَقُولُ حَمِيدٌ : « لَقَدْ شَغَلْتُ بِمَا وَهَبَ لِي رَبِّي الْكَرِيمُ ، وَلَا خَوْفَ
عَلَيَّ وَلَا حَزْنَ ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُعْمَلُ فِكْرُهُ السَّنَةَ وَالْأَشْهُرَ فِي الرَّجُلِ
قَدْ آتَاهُ اللَّهُ الشَّرْفَ وَالْمَالَ ، فَرُبَّمَا رَجَعَ بِالْخَبِيَةِ ، وَإِنْ أُعْطِيَ فَعَطَاءُ زَهِيدٌ ،
وَلَكِنَّ النَّظْمَ فَضِيلَةُ الْعَرَبِ »

حديثه مع لبيد ^(٢)

وَيَعْرِضُ لَهُمْ لَبِيدُ بْنُ رَيْبَعَةَ ، فَيَدْعُوهُمْ إِلَى مَنْزِلِهِ ، وَيُقْسِمُ عَلَيْهِمْ لَيْذِهِنَّ
مَعَهُمْ ، فَيَمَشُونَ قَلِيلًا ، فَإِذَا هُمْ بِأَيَّاتٍ ثَلَاثَةٍ لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ نَظِيرُهَا بَهَاءٌ
وَحُسْنًا فَيَقُولُ لَبِيدٌ : « أَتَعْرِفُ أَيُّهَا الْأَدِيبُ الْحَلْبِيُّ هَذِهِ الْأَيَّاتُ ؟ إِنَّهَا قَوْلِي :

إِنَّ تَقْوَى ^(٣) رَبَّنَا خَيْرٌ نَفْلًا ^(٤) وَإِذْ بَرَأَ اللَّهُ رَيْثِي وَعَجَلًا

أَحْمَدُ اللَّهُ ، فَلَا نِدَاءَ لَهُ بِيَدِيهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلَنُ

مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الْخَيْرِ اهْتَدَى نَاعِمَ الْبَالِ ، وَمَنْ شَاءَ أَضَلَّ ^(٥)

(١) البديع - هنا - ما اخترع على غير مثال سابق

(٢) تقدمت ترجمته في ص ٤٦ (٣) خشية (٤) غنيمة (٥) معنى

الأيات : أريج غنم يصيبه الإنسان هو خشية الله مصرف الأمور ، فله الحمد ، لا كقولهم ،

بيده الخير ، يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وهو على ما يشاء قدير

صَبَّرَهَا رَبِّي أَيْبَاتًا فِي الْجَنَّةِ أَسْكُنَهَا أُخْرَى الْأَبَدِ «
فَيَعْجَبُ هُوَ وَأَوْلِيكَ الْقَوْمُ، وَيَقُولُونَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدِيرٌ عَلَى مَا أَرَادَ!»

مأدبة في الجنة

وَيَبْدُو لَهُ^(١) أَنْ يَصْنَعَ مَأْدِبَةً فِي الْجَنَّةِ، يَجْتَمِعُ فِيهَا مَنْ أَمَكَّنَ مِنْ شِعْرَاءِ
الْخَضْرَمَةِ وَالْإِسْلَامِ، وَالَّذِينَ أَصْلُوا كَلَامَ الْعَرَبِ، وَجَعَلُوهُ مُحْفُوظًا فِي الْكُتُبِ،
وغيرِهِمْ مِمَّنْ يَتَأَسُّ بِقَلِيلِ الْأَدَبِ، وَيَخْطُرُ لَهُ أَنْ تَكُونَ كَمَا دَبِ الدَّارِ
الْعَاجِلَةِ، إِذْ كَانَ الْبَارِي لَا يُعْزُهُ - جَلَّتْ عَظَمَتُهُ - أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِجَمِيعِ
الْأَغْرَاضِ مِنْ غَيْرِ كُفَّافَةٍ وَلَا إِبْطَاءٍ، فَتُنْشَأُ أَرْحَاءُ^(٢) عَلَى الْكَوْثَرِ، تُجْعَجُ
إِطْحَنُ بُرٍّ^(٣) الْجَنَّةِ، وَإِنَّهُ لَأَفْضَلُ مِنْ بُرِّ الْهُدَلِيِّ^(٤) الَّذِي قَالَ فِيهِ:
«لَا دَرَّ دَرِي^(٥) إِنْ أَطْعَمْتُ رَائِدَكُمْ قَرَفَ الْحَتِيِّ^(٦) وَعِنْدِي الْبُرُّ مَكْنُوزٌ^(٧)»
بِعِقْدَارٍ تَفْضُلُ بِهِ السَّمَوَاتُ الْأَرْضِينَ



وَيَجْسُ^(٨) فِي صَدْرِهِ أَرْحَاءُ تَدُورُ فِيهَا الْبَهَائِمُ، فَيَمَثُلُ بَيْنَ يَدَيْهِ مَا شَاءَ
مِنَ الْبَيُوتِ فِيهَا أَحْجَارٌ مِنْ جَوَاهِرِ الْجَنَّةِ، تُدِيرُ بَعْضَهَا جَمَالَ تَسُومٍ فِي عِضَاهِ^(٩)
الْفِرْدَوْسِ، وَأَيْنُقٌ، وَصُنُوفٌ مِنَ الْبِغَالِ وَالْبَقَرِ

(١) أي ابن القارح (٢) الأرحاء، جمع رحي، وهي المعروفة (٣) قمح (٤) هو أبو
ذؤيب، وقد مرت ترجمته في ص ٣٥ (٥) لا درّ دري أي لاكثر خيري، ولا زكا على.
(٦) القرف: القشر، والحتي: قشر الرديء من ثمار شجر اللوم (٧) معنى البيت:
لا برك الله في مالي إذا أطعمت نازلكم قشر اللوم، مع وفرة ما لدى من القمح الزائد عن
حاجتي (٨) يجس: يقع في ضميره، أي يكون في خاطره على وجه التمني، ولعل اللفظ:
يهجس، أي يربباله، والمعنى لا يتغير على كلا اللفظين (٩) شجر ذو شوك

فَإِذَا اجْتَمَعَ مِنَ الطَّحْنِ مَا يُظَنُّ أَنَّهُ كَافٍ لِمَادِبَةٍ ، تَفَرَّقَ خَدْمُهُ مِنْ
الْوِلْدَانِ الْمُخْلِدِينَ ، فَجَاءُوا بِالْجَدَاءِ وَضُرُوبِ الطَّيْرِ الَّتِي جَرَتِ الْعَادَةُ بِأَكْلِهَا .
وَسَيَقَتِ الْبَقَرُ وَالْغَنَمُ ، وَالْإِبِلُ ، لِنُعْتَبَطَ ؛ فَارْتَفَعَ يُعَارُ الْمَعِزُّ وَتَوَاجُ الضَّانِ
وَصِيَاخُ الدِّيَكَةِ لِعِيَانِ الْمُدْيَةِ ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي ابْتَدَعَ خَلْقَهُ مِنْ غَيْرِ
رَوِيَّةٍ^(١) ، وَصَوْرَهُ بِلَا مِثَالٍ

فَإِذَا حَصَلَتِ النُّحُوضُ^(٢) فَوْقَ الْأَوْفَاضِ^(٣) ، قَالَ : « أَحْضَرُوا مِنْ الْجَنَّةِ
الطُّهَاءَ السَّاكِنِينَ بِحَدَبِ عَلِيٍّ مَمَرِّ الْأَزْمَانِ » فَتَحَضَّرُ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ ، فَيَأْمُرُهُمْ
بِاتِّخَاذِ الْأَطْعِمَةِ ، وَتِلْكَ لَذَّةٌ يَهَبُهَا اللَّهُ - عَزَّ سُلْطَانُهُ - بِدَلِيلِ قَوْلِهِ :
« وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ، وَتِلْكَ الْجَنَّةُ
الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؛ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ »
فَإِذَا آتَتِ الْأَطْعِمَةُ افْتَرَقَ غِلْمَانُهُ الَّذِينَ كَانَهُمُ اللَّوْلُؤُ الْمَسْكُونُ لِإِحْضَارِ
الْمَدْعُوعِينَ ، فَلَا يَبْرُكُونَ فِي الْجَنَّةِ شَاعِرًا إِسْلَامِيًّا وَلَا مُحْضَرًا ، وَلَا عَالِمًا بِشَيْءٍ
مِنْ أَصْنَافِ الْعُلُومِ ، وَلَا مُتَأَدِّبًا إِلَّا أَحْضَرُوهُ ، فَيَجْتَمِعُ خَلْقٌ كَثِيرٌ ، فَتُوضَعُ
الْحُونَ^(٤) مِنَ الذَّهَبِ ، وَالْفَوَاشِيرُ^(٥) مِنَ اللُّجَيْنِ^(٦) ، وَيَجْلِسُ عَلَيْهَا إِلَّا كَلُونَ ،
وَتُنْقَلُ إِلَيْهِمُ الصِّحَافُ^(٧)

(١) الروية : النظر والتفكير ، والمراد أن خلق الله لم يحتج منه سبحانه إلى جهد ومشقة

(٢) النحوض جمع نحض ، وهو المكتنز من اللحم (٣) الأوفاض جمع وفض ، وهو

ما يقطع عليه اللحم مثل الوضم (٤) جمع خوان (بكسر الخاء أو ضمها) وهو ما يوضع

عليه الطعام ليؤكل (٥) جمع فانور ، وهي الأخونة أيضاً ، أو الطسوت (٦) الفضة

(٧) جمع صحفة ، وهي قصعة أقل من الجفنة

مجلس أنس وغناء

فَإِذَا قَضَوْا الْأَرْبَ مِنَ الطَّعَامِ ، جَاءَتِ السُّقَاةُ بِأَصْنَافِ الْأَشْرِيَةِ ،
وَالْمُسْمِعَاتُ بِالْأَصْوَاتِ الْمُطْرِبَةِ ، وَيَقُولُ^(١) : « عَلَى بَيْنَ فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْمَغْنَنِ
وَالْمَغْنِيَّاتِ ، مِمَّنْ كَانُوا فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ ، فَقَضِيَتْ لَهُ التَّوْبَةُ » . فَتَحْضُرُ جَمَاعَةٌ
كثيرةٌ مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ ، فِيهِمْ الْغَرِيضُ ، وَمَعْبُدٌ ، وَابْنُ سُرَيْجٍ ، إِلَى أَنْ
يَحْضُرَ إِبْرَاهِيمُ الْمُوصِلِيُّ ، وَابْنُهُ إِسْحَاقُ

حديث الجرادتين^(٢)

فَيَقُولُ قَائِلٌ مِنَ الْجَمَاعَةِ ، وَقَدْ رَأَى أَسْرَابَ^(٣) قِيَانٍ قَدْ حَضَرْنَ :
« مِنَ الْعَجَبِ أَنَّ الْجَرَادَتَيْنِ فِي أَقْصَى الْجَنَّةِ ! »
فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ^(١) قَالَ : « لَا بُدَّ مِنْ حُضُورِهِمَا » فَيَرْكَبُ بَعْضُ الْخَدَمِ نَاقَةً
مِنْ نُوقِ الْجَنَّةِ ، وَيَذْهَبُ إِلَيْهِمَا - عَلَى بُعْدِ مَكَانِهِمَا - فَتُقْبَلَانِ عَلَى نَجِيمَيْنِ
أَسْرَعَ مِنَ الْبَرْقِ

فَإِذَا حَصَلَتَا عَلَى الْمَجْلِسِ ، حَيَّاهُمَا وَبَشَّ بِهِمَا ، وَقَالَ : « كَيْفَ خَلَصْتُمَا إِلَى
دَارِ الرَّحْمَةِ بَعْدَ مَا خَبَطْتُمَا فِي الضَّلَالِ ! » فَتَقُولَانِ : « قُدِّرَتْ لَنَا التَّوْبَةُ ، وَمِثْلًا
عَلَى دِينِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ »

(١) أي ابن القارح (٢) الجرادتان - فيما زعموا - مغنيتان غنتا لوفد عاد الجرهمي بمكة ،

فشغلوا عن الطواف بالبيت ، وسؤال الله فيما قصدوا له ، فهلكت عاد وهم لاهون

(٣) جمع سرب ، أي قطع من النساء

فَيَقُولُ : « أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكُمَا ، أَسْمَعَانَا شَيْئًا مِنْ الْقَصِيدَةِ الْحَائِيَّةِ الَّتِي
تُرَوَّى لِعَبِيدٍ مَرَّةً ، وَلَا أَوْسٍ أُخْرَى ، وَمَا سَمِعْنَا قَطُّ بِعَبِيدٍ وَلَا أَوْسٍ ^(١) . فَتُلْهُمَانِ
أَنْ تُعْنِيَا بِالْمَطْلُوبِ ، فَتُلْحَنَانِ :

هَبَّتْ تَلُومٌ وَلَيْسَتْ سَاعَةَ اللَّاحِي ^(٢) هَلَّا انْتظرتِ بهذا اللومِ إصباحي
قَاتَلَهَا اللَّهُ : تَلْحَانِي وَقَدْ عَلِمْتَ أَنِّي لِنَفْسِي إِفْسَادِي وَإِصْلَاحِي
إِنْ أَشْرَبِ الْخَمْرَ أَوْ أَرْزَأُ لَهَا ثَمَنًا فَلَا مَحَالَةَ يَوْمًا أَنَّنِي صَاحِي
وَلَا مَحَالَةَ مِنْ قَبْرِ بِمَحْنِيَّةٍ ^(٣) أَوْ فِي مَلِيعٍ ^(٤) كظَهَرَ التُّرْسِ وَصَاحِ

فَطُربَانٍ مَنْ سَمِعَ ، وَتَسْتَفِرَّانِ الْأَفئِدَةَ بِالشُّرُورِ .
وَيَكْثُرُ حَمْدُ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ - كَمَا أَنْعَمَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالتَّائِبِينَ ،
وَخَلَّصَهُمْ مِنْ دَارِ الشَّقْوَةِ إِلَى مَحَلِّ النِّعَمِ .

(١) يعنى أن الجاريتين تعنيانهم بما يطلبون بالرغم من أنهما لم تسمعا بهذه القصيدة
ولا باللذين تنسب إليهما من قبل (٢) اللأم (٣) محنية أو محنوة أو محناة ، جمعها محان ،
وهي معاطف الأودية (٤) المليع : طريق ضيقة ذاهبة في الأرض إلى مسافة قريبة ،
قاعها أقل من قامة ، أو هو الأرض المستوية ، أو الأرض التي لا نبات فيها

حديث جرّان العود النميري

وَيَلْتَفِتُ ، فَإِذَا هُوَ بِجِرَّانِ الْعُودِ ^(١) النَّمِيرِيِّ ، فَيَحْيِيهِ وَيُرْحَبُ بِهِ ، وَيَقُولُ
لِبَعْضِ الْقِيَانِ : « أَتَسْمَعَانَا قَوْلَ هَذَا الْمُحْسِنِ :
حَمَلْنَا جِرَّانَ الْعُودِ حَتَّى وَضَعْنَاهُ ^(٢) بَعْدِيَاءَ ^(٣) فِي أَرْجَائِهَا الْجَنُّ تَعْرِفُ ^(٤)
وَقُلْنَا : « تَمَتَّعَ لَيْلَةَ النَّأْيِ هَذِهِ ^(٥) فَإِنَّكَ مَرَجُومٌ ^(٦) غَدًا أَوْ مُسِيفٌ ^(٧) »

(١) جِرَّانُ الْعُودِ

الجِرَّانُ : مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره ، والعودُ : البعير المسن .
وجرّان العود لقب هذا الشاعر ، وإنما لقب بذلك لقوله مخاطباً امرأته - وقد أغضبته :
خذا حذراً يا جارتى ، فانتى رأيت جرّان العود قد كان يصلح
يعنى بذلك أنه كان قد اتخذ سوطاً من جرّان العود يضرب به نساءه فهو يخيفهما به ،
وكان قد لقي منهما مكروها ، فقال فى ذلك أبياتا جميلة منها :
ألا لا تغرنّ امرأاً نوقلية على الرأس بعدى أو ترائب وضّح
الى أن قال :

خذا نصف مالى ، واتركا لى نصفه ، وبيننا بدم ، فالتغرّب أروح
وأوجز ما يوصف به هذا الشاعر هو كلمة « محسن » التى وصفه بها أبو العلاء ، فان أظهر
ميزة لشعره - وهو مجموع فى ديوان صغير مخطوط بدار الكتب - هى الإحسان . وقد اقترحنا
فى الطبعتين السابقتين من هذه الرسالة على دار الكتب أن تطبع هذا الديوان النفيس ، فلبت
اقتراحنا متفضلة ، وأخرجته فى أبهى حلة وأجمل رواء ^(٢) العلياء : رأس الجبل ، أو المكان
العالى ، والمعنى أنهم وضعنى موضعاً لا يوصل إليه ^(٣) تصوّت ^(٤) مرمى بالحجارة
^(٥) مقتول بالسيف . ومعنى البيت : قلن لى : « انتهم فرصة هذه الليلة وتمتع بنا ،
فر بما كانت آخر ليلالك من الدنيا ، لأنك قد ترجم غدا بالحجارة ، أو تقتل بالسيف »

وَأَحْرَزْنَ مِنِّي (١) سَكَلَ حُجْرَةَ (٢) مِئْزَرٍ هَلْسَنَ، وَطَاحَ (٣) النَّوْفَلِي (٤) الْمُرْخَرَفُ

(١) منعن عني (٢) الحجزة معقد الإزار ، أو موضع التكة من السراويل .

(٣) سقط (٤) شيء من صوف تختمر به نساء العرب ، وقيل : هو ضرب من الحلى يدرنه على رؤوسهن تحت الحمار . والنوفلي أيضاً ضرب من الامتشاط ، وهو ما نذهب إليه هنا ، فيكون المعنى أن شعورهن المنسقة المزخرفة قد تهدلت

ويروى هذا البيت قبل سابقه في النسختين الخطية والمطبوعة من رسالة الغفران ، ولكننا آثرنا رواية الأبيات كما هي في ديوان الشاعر ، لأن المعنى ينتظم على هذه الصورة ، فالغواني يبحن له معابثهن ؛ ويشتد المزح والمغازلة ، حتى تهدل شعورهن ، فإذا أراد المزيد منعه ؛ فأحزرن منه حجز مآزرهن بالعمفة .

أما تفسير الأبيات على الرواية الأخرى ، فيحتاج إلى تكلف

*
**

وهذه الأبيات الثلاثة من قصيدة مطولة لهذا الشاعر بلغت في الإجابة شأواً بعيداً ، وإذا استشهد بعض الأدباء بوضع أبيات قلائل لعمر بن أبي ربيعة أو جميل أو غيرها ، على وجود شيء من محاولة العرب للشعر القصصي ؛ فإن في هذه القصيدة وحدها مثلاً واضحاً لتلك المحاولة ، لعلنا لا نجد له شبيهاً آخر في كل ما نقرأ من شعر العرب . وتنفى أبيات هذه القصيدة على السبعين بيتاً .

ونحب أن نحيل القارئ إلى ديوان ذلك الشاعر الحسن ، ونكتفي هنا بإيراد بضعة أبيات متفرقة منها ؛ تعطى فكرة موجزة عن أغراض القصيدة وهي :

ذَكَرْتَ الصَّبَا فَانْهَلْتَ الْعَيْنَ تَنْدُرُفُ وَرَاجِعَكَ الشُّوقَ الَّذِي كُنْتَ تَعْرِفُ
وَكَانَ فَوَادِي قَدْ صَحَا ، ثُمَّ هَاجَنِي حَامُّمٌ وَرَقٌ ، بِالْمَدِينَةِ هَتَّفُ

*
**

فَتَصِيبُ الْقَيْنَةَ وَجُبِيدُ

وقالت لنا والعيس صُعرٌ من البرى وأحجافها بالجندل الصم تقذف
فوعدك الشط الذي بين أهلنا ، وأهلك ، حتى نسمع الديك يهتف
فلما علانا الليل أقبلت خفية لموعدها ، أعلو الأكام وأظلف
فأقبلن يمشين الهوينا تهاديا قِصَار الخطا ، منهن راب ومزحف
فلما هبطن السهل واحتلن حيلة ومن حيلة الإنسان ما يتخوف
حملن جِرَان العود حتى وضعنه بعلياء — في أرجائها الجن تعزف
ولما رأين الصبح ، بادرن ضوءه ديبب قطا البطحاء ، أو هن أظف
وأدركن أعجازا من الليل بعد ما أقام الصلاة العابد المتحنف
وما أُبِنَ حتى قلن : « ياليت أننا تراب ، وليت الأرض بالناس تخسف ! »
فإن ننج من هذى ولم يشعروا بنا فقد كان بعض الخير يدنو فيصرف
فأصبحن صرعى في الحجال وبيدنا رماح العدا والجانب المتخوف
يبلغهن الحاج كل مكاتب طویل العصا أو مقعد يتزحف
ومكونة رمداء لا يحذرونها مكاتب ترمى الكلاب وتمحذف
ويقول في ختامها
فأصبحت غريد الضحى قد ومقننى وملات المحبين تشغف
أى أصبحت فرحا طروبا قد شعفن بى ، واللقاء يهتاج الشغف

فَإِذَا أُعْجِبَتِ الْجَمَاعَةُ مِنْ إِحْسَانِهَا وَإِصَابَتِهَا، قَالَتْ: « أَتَدْرُونَ مَنْ أَنَا؟ »
فَيَقُولُونَ: « لَا وَاللَّهِ! » فَتَقُولُ: « أَنَا أُمُّ عَمْرٍو الَّتِي يَقُولُ فِيهَا الْقَائِلُ:
تَصُدُّ الْكَأْسَ عَنَّا أُمُّ عَمْرٍو وَكَانَ الْكَأْسُ مُجْرَاهَا الْيَمِينَا
وَمَا شَرُّ الثَّلَاثَةِ أُمَّ عَمْرٍو بِصَاحِبِكِ الَّذِي لَا تَصْبِحِينَا ^(١) »
فَيَزِدَادُونَ بِهَا عَجَبًا، وَلَهَا إِكْرَامًا، وَيَقُولُونَ: « لِمَنْ هَذَا الشِّعْرُ؟ الْعَمْرُو
ابْنُ عَدِيٍّ اللَّحْمِيُّ، أُمُّ لِعَمْرٍو بْنِ كُثُومِ التُّغَلِيٍّ؟ »
فَتَقُولُ: « أَنَا شَهِدْتُ نَدْمَاتِي جَذِيْمَةَ: مَالِكًا وَعَقِيْلًا، وَصَبَحْتُهُمَا الْخُمْرَ
الْمُسْعِشَةَ ^(٢)، لَمَّا وَجَدَا عَمْرٍو بْنَ عَدِيٍّ، فَكُنْتُ أَصْرِفُ الْكَأْسَ عَنْهُ، فَقَالَ
هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ، فَلَعَلَّ عَمْرٍو بْنَ كُثُومٍ حَسَنَ بِهِمَا كَلَامَهُ، وَاسْتَزَادَهُمَا
فِي آيَاتِهِ ^(٣) »

رقص الحور

وَيَذْكُرُ الْآيَاتَ الَّتِي تُنْسَبُ إِلَى الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ، وَالْخَلِيلُ يَوْمَئِذٍ فِي
الْجَمَاعَةِ، وَأَنَّهَا تَصْلُحُ لِأَنْ يُرْقَصَ عَلَيْهَا، فَيُنْشِئُ اللَّهُ الْقَادِرُ بِلُطْفِ حِكْمَتِهِ
شَجَرَةً مِنَ الْجُوزِ، فَتَوْنَعُ لَوْقَتِهَا، ثُمَّ تَنْفُضُ عَادًا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللَّهُ
- سُبْحَانَهُ - وَتَنْشَقُّ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُ عَنْ أَرْبَعِ جَوَارٍ يَرْقُنُ الرَّائِينَ، يَرْقُصْنَ

(١) صَبَحَهُ، كَمَنَعَهُ: سَقَاهُ صَبُوحًا، وَهُوَ مَا أُصْبِحَ عِنْدَ الْقَوْمِ مِنْ شَرَابٍ

(٢) الْمَذْرُوجَةُ بِالْمَاءِ (٣) أَيْ فِي مَعْلَقَتِهِ الْمَعْرُوفَةِ الَّتِي مَطَّلَعَهَا:

الْأَهْبِي بِصَحْنِكَ فَأَصْبَحِينَا وَلَا تَبْقَى خُمُورُ الْأَنْدَرِينَا

عَلَى الْأَيَّاتِ الْمَنَسُوبَةِ إِلَى الْخَلِيلِ ، وَأَوَّلَهَا :

« إِنَّ الْخَلِيلَ تَصَدَّعَ ^(١) فَطِرَ بِدَائِكَ أَوْ قَع
لَوْ لَا جَوَارٍ حِسَانٌ مِثْلُ الْجَاذِرِ ^(٢) أَرْبَعٌ
لَقُلْتُ لِلظَّاعِنِ : « اظْغَن ^(٣) إِذَا بَدَا لَكَ ، أَوْ دَعَّ »
قَهْرَتُهُ أَرْجَاءُ الْجَنَّةِ .

*
* *

وَيَقُولُ : « لِمَنْ هَذِهِ الْأَيَّاتُ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ؟ » فَيَقُولُ الْخَلِيلُ :
« لَا أَعْلَمُ ! » فَيَقُولُ : « إِنَّا كُنَّا فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ نَرَوِي هَذِهِ الْأَيَّاتَ لَكَ ! »
فَيَقُولُ الْخَلِيلُ : « لَا أَذْكَرُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَا قِيلَ حَقًّا »
فَيَقُولُ : « أَنْسَيْتَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَأَنْتَ أَذْكَى الْعَرَبِ فِي عَصْرِكَ ؟ »
فَيَقُولُ الْخَلِيلُ : « إِنَّ عُبُورَ الصَّرَاطِ يَنْفُضُ الْخَلْدَ ^(٤) مِمَّا اسْتُوْدِعَ ! »

*
* *

وَيَعْبُرُ طَاوُسٌ مِنْ طَوَاوِيسِ الْجَنَّةِ ، يَرُوقُ مِنْ رَأَاهُ حُسْنًا ، فَيَشْتَهِيهِ
أَبُو عُبَيْدَةَ مَصُوصًا ^(٥) ، فَيَتَكَوَّنُ كَذَلِكَ فِي صَحْفَةٍ مِنَ الذَّهَبِ . فَإِذَا قَضَى
مِنْهُ الْوَطَرَ ، انْضَمَّتْ عِظَامُهُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، ثُمَّ تَصِيرُ طَاوُسًا كَمَا بَدَأَ ^(٦) ،
فَيَقُولُ الْجَمَاعَةُ : « سُبْحَانَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ » . هَذَا كَمَا جَاءَ فِي

(١) تفرق (٢) جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية تشبه به الحسان لجمال عينيه

(٣) ارحل أو سر ، والمعنى : قد تفرق الجمع فإذا أنا صانع بعد نأى من أحب ، ولو

خلا الركب من هؤلاء الحسان الأربع لتساوى عندى إقامته ورجيله (٤) القلب أو البال

أو النفس ، والمعنى : أن عبور الصراط ينسى المرء ما علم ، من شدة الهول والفرع

(٥) المصوص : طعام من لحم الطير ، يطبخ وينقع في الخل (٦) أى كما كان

الكتاب الكريم : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى . قَالَ : أَوْ لَمْ
تُؤْمِنِ ؟ قَالَ : بَلَى . وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي . قَالَ : فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ
فَصُرْهُنَّ ^(١) إِلَيْكَ ، ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا . ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَا تَيْنِكَ
سَعِيًّا . وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ «
وَيَفْتَرِقُ أَهْلُ ذَلِكَ الْمَجْلِسِ ، وَهُمْ نَاعِمُونَ .

حديثه مع الحوريتين

وَيَخْلُو ^(٢) بِحُورٍ يَتَيْنِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ ، فَإِذَا بَهَرَهُ مَا يَرَاهُ مِنَ الْجَمَالِ ،
قَالَ : « أَغْرَزَ عَلَيَّ بِهَلَاكِ الْكِنْدِيِّ ^(٣) :

(١) أَحْضَرَهُنَّ وَقَطَّعَهُنَّ (٢) أَى ابْنِ الْقَارِحِ

(٣) الْكِنْدِيُّ « امْرُؤُ الْقَيْسِ » : تَوَفَى سَنَةَ ٥٦٠ م

هو ابن حجر بن عمرو الكندي ، بلده نجد ، وأبوه أحد ملوك بني أسد .
كان امرؤ القيس ماجناً لاهياً ، فطرده أبوه ، فظل على لهوه وتبطله حتى قتل بنو أسد
أباه لظلمه ، فصمم على الأخذ بثأر أبيه ، وحاربهم فقهرهم مراراً ، ولكنه أبى أن يكتفى
بما أحرزه من الفوز على أعدائه ، ولم يقنع بما أدركه من الثأر ، وطلب المزيد ، فسَمَّ أصحابه
وخذلوه ؛ فاستنجد بقيصر ملك الروم على أعدائه ، فاحتفى به ، ولكن وشاية دنيئة
من أعداء امرئ القيس غيرت عليه قلب القيصر ، فأهلكه .

ويعدّه جمهور مؤرخي الآداب أخل شعراء الطبقة الأولى من الجاهليين ، ويقولون :
إنه أول من وصف النساء وشبههم بالظباء والمها ، وإنه أول من ابتكر المعاني الجميلة الدقيقة ،
وأجاد الاستعارة والتشبيه ، إلى آخر تلك الأوصاف التي أفاض في سردها نقاد الأدب الأقدمون
على أن لشعره روعة يشعر بها كل من تذوق الأدب ، وفيه سحر لا تراه إلا في شعر
القليل من فحول الشعراء ، كالأعشى والذبياني ، وقليل من أضرابهما .

إِنِّي لَأَذْكُرُ بِكُمَا

انظر إلى دقته مثلاً في وصف الليل وتبرمه بطوله - إذ يقول في معلقته الخالدة :
فيا لك من ليل كأنَّ نجومه بكل مُعَارِ الْفَتْلِ شُدَّتْ يَبْدُل
وانظر إلى ضيق ذرعه بذلك الليل الذي أمّله طوله وأضجره ، فأصبح يتربّب طلوع
الصباح بفارغ الصبر ، لينقذه من سأمته التي سببها طوله . ثم التفاتته الملوّدة بالفطنة ودقة
الملاحظة ، وانتباهه إلى أن ذلك الصباح الذي يتربّبه بلهف وشوق ليس خيراً من ليله المضجر .
فإنك لتتمثل تلك الصورة جلية شديدة الوضوح في البيت التالي - على إيجازه - :
ألا أيها الليل الطويل ! ألا انجلِّ بصبح ، وما الإصباح منك بأمثل

✱
✱

وانظر إلى ابداعه وافتنانه ، وقدرته العظيمة على تحليل أدقّ خواجه في لاميته الساحرة
التي يقول فيها :

لقد زعمت « بسباسة » اليوم أنتي كبرت ، وأن لا يحسن اللهو أمثالي
ويا رُبَّ يوم قد هوت وليلة بأنسة ، كأنها خط تمثال
تنورتها من أذرعات ، وأهلها ييثرب ، أدنى دارها نظر عال
نظرت إليها - والنجوم كأنها مصاييح رهبان ، تُشَبُّ لِقُقَال
سموت إليها بعد ما نام أهلها سمو حباب الماء ، حالاً على حال
فقلت : « سبائك الله ! إنك فاضحي ألسنت ترى السُمَّار والناس أحوالي ؟ »
فقلت : « يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي »
حلفت لها بالله حلفة فاجر : « لئاموا ، فما إن من حديث ، ولا صالي »
فأصبحت معشوقاً ، وأصبح بعليها عليه القتام - سىء الظن والبال
ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفاني - ولم أطلب - قليل من المال
ولكننا أسعى لمجد مؤنَّتل وقد يدرك المجد المؤنَّتل أمثالي
وما المرء - ما دامت حُشاشة نفسه - بمدرك أطراف الخطوب ولا آلي
(١٣)

وما أجزل قوله في معلقته :

كأني غداة البين ، يوم ترحلوا
وقوفاً بها صحبي على مطيهم
وإن شفائي عبرة مهراقة
كدأبك من أم الحُوَيْرِثِ قبلها
إذا قامتا تَصَوَّعَ المسك منهما
ففاضت دموع العين منى صبابة
ألا رب يوم لك منهن صالح
ويوم دخلت الخدر ، خدرَ عُنَيْزَةَ
تقول - وقد مال الغبيط بنا معاً - :
فقلت لها : « سيري - وأرخي زمامه
أفاطمُ مهلاً ، بعضَ هذا التمدل
أغركِ مني أن حبك قاتلي
فمثلك حبلي قد طرقت ومرضع
إذا ما بكى من خلفها انصرفت له
وما ذرفت عينك إلا لتضربني

ويبضة خدر لا يرام خباؤها
تسلت عمايات الرجال عن الصبا

وليل كوج البحر أرخي سدوله
فقلت له - لما تمطى بصلبه ،
على أنواع الهموم ليبتلى
وأردف أعجازاً ، وناء بكلكل -

كِدَابِكَ^(١) مِنْ أُمَّ الْحَوِيرِثِ قَبْلَهَا وَجَارَتِهَا أُمَّ الرَّبَابِ بِمَا سَأَلَ^(٢)
 إِذَا قَامَتَا تَضَوَّعَ^(٣) الْمِسْكُ مِنْهُمَا نَسِيمُ الصَّبَا جَاءَتْ بَرِيًّا^(٤) الْقَرْنَفُلُ^(٥)
 وَأَيْنَ صَاحِبَتَاهُ مِنْكُمَا ، لَا كِرَامَةَ لَهُمَا وَلَا نِعْمَةً ؟ لَجَسَّةٌ مَعَكُمْ بِمِقْدَارِ
 دَقِيقَةٍ مِنْ دَقَائِقِ الدُّنْيَا خَيْرٌ مِنْ مُلْكِ بَنِي آكِلِ المُرَارِ وَبَنِي النَّضْرِ بِالْحَيْرَةِ .
 وَآلِ جَفْنَةَ مَلُوكِ الشَّامِ ! »

وَيُقْبَلُ عَلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا يَتَرَشَّفُ رُضَابَهَا ، وَيَقُولُ : « إِنَّ أُمَّ الرَّبَابِ الْقَيْسِ
 لِمُسْكِينٍ مُسْكِينٍ ، تَحْتَرِقُ عِظَامُهُ فِي السَّعِيرِ ، وَأَنَا أَتَمَثَّلُ بِقَوْلِهِ :

« أَلَا أَيُّهَا اللّيل الطويل ! أَلَا انجِلِ بصبح ، وما الإصباح منك بأمثل
 فيا لك من ليل ! كأن نجومه بكل مغار القتل شدت بيدبل
 كأن الثريا علقت في مصامها بأعراس كتان إلى صم جنادل »
 وقد أعتدى ، والطير في وكناتها بمنجرد ؛ قيد الأوابد هيكل
 مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل
 ونختم هذه النخبة بقوله :

إذا قلت : هذا صاحب قد رضيته وقرت به العينان ، بدلت آخرأ
 كذلك جدى^(١) ما أصحاب صاحباً من الناس ، إلا خانني وتغيرأ

وسيمر بك طرف من أخباره وشعره في هذا الجزء ، فلنكتف بهذا القدر اليسير الآن :

(١) كعادتك (٢) اسم جبل (٣) انتشرت فبجته (٤) الريا : هي الرائحة الطيبة
 (٥) المعنى « عادتك في حب هذه ، كعادتك من قبل في حب أم الحويرث وأم الرباب
 وقد كانتا : يعبق منهما المسك أنى ذهبنا ، كما انتشر عطر القرنفل الذكي ، حملته ريح الصبا »
 ويوضح هذين البيتين قوله في البيت الذي قبلهما من معلقته

وإن شقائي عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول ؟

كَأَنَّ الْمُدَامَ وَصَوَّبَ النَّمَامَ وَرِيحَ الْخُزَامَى وَنَشَرَ الْقَطْرُ
يُعَلِّشُ بِهِ بَرْدُ أُنْيَابِهَا إِذَا غَرَدَ الطَّائِرُ الْمُسْتَحِرُّ (١)

فَسْتَعْرَبُ (٢) إِحْدَاهُمَا ضَحِكًا؛ فَيَقُولُ: «مِمَّ تَضْحَكِينَ؟» فَيَقُولُ: «فَرَحًا
بِتَفَضُّلِ اللَّهِ! أَتَدْرِي مَنْ أَنَا يَا عَلِيُّ بْنُ مَنْصُورٍ؟» فَيَقُولُ: «أَنْتِ مِنْ حُورِ
الْجِنَانِ اللَّوَاتِي خَلَقَهُنَّ اللَّهُ جَزَاءَ الْمُتَّقِينَ، وَقَالَ فَيَكُنَّ: «كَأَنَّهِنَّ الْيَاقُوتُ
وَالْمَرْجَانُ» فَيَقُولُ: «أَنَا كَذَلِكَ بِإِنْعَامِ اللَّهِ الْعَظِيمِ! عَلَى أَنِّي كُنْتُ فِي الدَّارِ
الْعَاجِلَةِ أُعْرِفُ بِحَمْدُونَةَ، وَأَسْكُنُ فِي بَابِ الْعِرَاقِ بِحَلَبَ، وَأَبِي صَاحِبُ
رَحَى، وَتَزَوَّجَنِي رَجُلٌ يُبَيْعُ السَّقَطَ (٣)، فَطَلَّقَنِي لِرَأْحَةِ كَرِهَاهَا مِنْ فِي؛ وَكُنْتُ
مِنْ أَقْبَحِ نِسَاءِ حَلَبَ، فَلَمَّا عَرَفْتُ ذَلِكَ زَهَدْتُ فِي الدُّنْيَا، وَتَوَفَّرْتُ عَلَى
الْعِبَادَةِ، وَأَكَلْتُ مِنْ مِغْزَلِي وَمِرْدَنِي (٤)، فَصَيَّرَنِي ذَلِكَ إِلَى مَا تَرَى!»

وَتَقُولُ الْآخَرَى: «أَتَدْرِي مَنْ أَنَا يَا عَلِيُّ بْنُ مَنْصُورٍ؟ أَنَا تَوَفِّيقُ السَّوْدَاءِ
الَّتِي كَانَتْ تَخْدُمُ فِي دَارِ الْعِلْمِ بَبَغْدَادَ، عَلَى زَمَانِ أَبِي مَنْصُورٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ
الْخَازِنِ، وَكُنْتُ أُخْرِجُ الْكُتُبَ إِلَى النَّسَاجِ»

(١) استحجر: أي صاح في السحر (٢) استعرب في الضحك، واستعرب -- بالبناء
المجهول -- بالغ وأغرق، وكذلك أعرب. وهذا هو المقصود، وليس المراد أنها تظهر
الغرابية في صورة الضحك، وإن كان الكلام يحتمله، ولكن الأول أدخل في باب الفصاحة،
وأشبهه بأسلوب أبي العلاء في هذه الرسالة (٣) ردئ المتاع: والحسيس الرذل من كل شيء،
وبأعمه السقطي (٤) المردن: المغزل

فَيَقُولُ : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ! لَقَدْ كُنْتَ سَوْدَاءً ، فَصِرْتَ أَنْصَعٌ مِنَ
الْكَافُورِ ! » فَتَقُولُ : « أَتَعْجَبُ مِنْ هَذَا ، وَالشَّاعِرُ يَقُولُ لِبَعْضِ الْمَخْلُوقِينَ :
لَوْ أَنَّ مِنْ نُورِهِ مِثْقَالَ خَرْدَلَةٍ فِي السُّودِ كُلِّهِمْ ، لَا يَبْيُضُّ السُّودُ »

حدائق الحور

وَيَعْرِئُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، فَيَقُولُ : « يَا عَبْدَ اللَّهِ ! أَخْبِرْنِي عَنِ الْحُورِ
الْعَيْنِ ، أَلَيْسَ فِي الْكِتَابِ الْكَرِيمِ : إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ، جَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا
عُرْبًا أُرَابًا ، لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ »

فَيَقُولُ الْمَلَكُ : « هُنَّ عَلَى ضَرْبَيْنِ ، ضَرْبٌ خَلَقَهُ اللَّهُ فِي الْجَنَّةِ لَمْ يَعْرِفْ
غَيْرَهَا ، وَضَرْبٌ نَقَلَهُ اللَّهُ مِنَ الدَّارِ الْعَاجِلَةِ لِمَا عَمِلَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةَ »
فَيَقُولُ - وَقَدْ عَجِبَ مِمَّا سَمِعَ - : « فَأَيْنَ اللَّوَاتِي لَمْ يَكُنَّ فِي الدَّارِ الْفَائِئَةِ ؟
وَكَيْفَ يَتَمَيِّزْنَ مِنْ غَيْرِهِنَّ ؟ »

فَيَقُولُ الْمَلَكُ : « أَقْفُ أُثْرِي »

فَيَتَّبِعُهُ ، فَيَجِيءُ بِهِ إِلَى حَدَائِقِ لَا يَعْرِفُ كُنْهَهَا إِلَّا اللَّهُ .

فَيَقُولُ الْمَلَكُ : « خُذْ ثَمْرَةً مِنْ هَذَا الثَّمَرِ ، فَاصْكِرْهَا ، فَإِنَّ هَذَا
الشَّجَرَ يُعْرِفُ بِشَجَرِ الْحُورِ »

فَيَأْخُذُ سَفْرَجَةً أَوْ رُمَانَةً أَوْ تَفَاحَةً ، أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنَ الثَّمَرِ ، فَيَكْسِرُهَا ،
فَتَخْرُجُ مِنْهَا جَارِيَةٌ حَوْرَاءٌ عَيْنَاءُ . تَبْرُقُ^(١) لِحُسْنِهَا حُورِيَّاتُ الْجَنَانِ ، فَتَقُولُ :

(١) برق - هنا - : دهش وتحير

« مَنْ أَنْتَ يَا عَبْدَ اللَّهِ ؟ » فَيَقُولُ : « أَنَا فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ » فَتَقُولُ :
 « إِنِّي أُمِّي بِلِقَائِكَ ، قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ الدُّنْيَا بِأَرْبَعَةِ آلَافِ سَنَةٍ »
 فَعِنْدَ ذَلِكَ يَسْجُدُ إِعْظَامًا لِلَّهِ الْقَدِيرِ ، وَيَقُولُ : « هَذَا كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ :
 أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، بَلَهٗ ^(١) مَا أَطْلَعْتُمْ عَلَيْهِ »

*
 * *

وَيَخْطُرُ فِي نَفْسِهِ ، وَهُوَ سَاجِدٌ ، أَنَّ تِلْكَ الْجَارِيَةَ - عَلَى حُسْنِهَا -
 ضَاوِيَةٌ ^(٢) ، فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ مِنَ السُّجُودِ ، وَقَدْ صَارَ مِنْ وَرَائِهَا رَدْفٌ يُضَاهِي
 كُتْبَانَ ^(٣) عَالِجٍ . فَيَهَالُ ^(٤) مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ ، وَيَقُولُ : « يَا رَازِقَ الْمَشْرِقَةِ سَنَاهَا ،
 وَمُبْلِغَ السَّائِلَةِ مُنَاهَا ، وَالذِي فَعَلَ مَا أَعْجَزَ وَهَالَ ، وَدَعَا إِلَى الْجَلْمِ الْجُهَالِ !
 أَسْأَلُكَ أَنْ تَقْصُرَ بَوْصَ ^(٥) هَذِهِ الْخُورِيَّةِ عَلَيَّ فِي مِيلٍ فِي مِيلٍ ، فَقَدْ جَازَ بِهَا قَدْرُكَ
 حَدَّ التَّأْمِيلِ ! »

فَيُقَالُ لَهُ : « أَنْتَ مُخَيَّرٌ فِي تَكْوِينِ هَذِهِ الْجَارِيَةِ كَمَا تَشَاءُ »
 فَيَقْتَصِرُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْإِرَادَةِ .

(١) قال أبو العلاء : « وبه : في معنى دع ، وكيف » (٢) نحيفة (٣) جمع كتيب
 وهو التل من الرمل ، وعالج : موضع كثير الرمل ، يضرب به المثل في الكثرة (٤) يفرع ،
 ويعظم عليه الأمر (٥) ردف

لفصل الرابع

جنة العفاريت

وَيَبْدُو لَهُ^(١) أَنْ يَطَّلِعَ إِلَى أَهْلِ النَّارِ ، فَيَنْظُرَ إِلَى مَا هُمْ فِيهِ ، لِيَعْظُمَ شُكْرَهُ عَلَى النَّعْمِ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ - تَعَالَى - : « قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ : أَأَنْتَ لِمَنِ الْمُسَدِّقِينَ ؟ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَدِينُونَ^(٢) ؟ قَالَ : هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ؟ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ، قَالَ : تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ، وَلَوْ لَا نِعْمَةٌ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ »

*
* *

فَيَرُكِبُ بَعْضَ دَوَابِّ الْجَنَّةِ وَيَسِيرُ ، فَإِذَا هُوَ بِمَدَائِنٍ لَيْسَتْ كَمَدَائِنِ الْجَنَّةِ ، وَلَا عَلَيْهَا النُّورُ الشَّعْشَعَانِيُّ^(٣) ، وَهِيَ ذَاتُ أَدْحَالٍ وَغَمَائِلٍ^(٤) . فَيَقُولُ لِبَعْضِ الْمَلَائِكَةِ : « مَا هَذِهِ يَا عَبْدَ اللَّهِ ؟ » فَيَقُولُ : « هَذِهِ جَنَّةُ الْعَفَّارِيَّتِ الَّذِينَ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَذُكُرُوا فِي الْأَحْقَافِ ، وَفِي سُورَةِ الْجِنِّ ، وَهُمْ عَدَدٌ كَثِيرٌ »

فَيَقُولُ : « لَا أَعْدِلَنَّ إِلَى هَؤُلَاءِ ، فَلَنْ أَخْلُوَ لَهُمْ مِنْ عَجُوبَةٍ » فَيَعُوجُ

(١) أى ابن القارح (٢) مجازون (٣) المتألق المنتشر (٤) الأدحال : المصانع

تجتمع فيها الماء ، والغمائل : جمع غملول (بضم الغين) وهو الوادى الضيق الكثير الشجر والنبت الملتف ؛ أو الوادى ذو الشجر الطويل القليل العرض الملتف ، أو هو كل مجتمع أظلم وتراكم من الشجر

عَلَيْهِمْ ، فَإِذَا هُوَ بِشَيْخٍ جَالِسٍ عَلَى بَابِ مَغَارَةٍ ، فَيَسَلُّ عَلَيْهِ ، فَيَحْسِنُ الرَّدَّ ،
وَيَقُولُ : « مَا جَاءَ بِكَ يَا إِنْسِي ؟ » فَيَقُولُ : « سَمِعْتُ أَنَّكُمْ جِنُّ مُؤْمِنُونَ ،
يَخْتُتُ التَّمَسُّ عِنْدَكُمْ أَخْبَارَ الْجِنَّانِ ^(١) ، وَمَا لَعَلَّهُ يُوجَدُ لَدَيْكُمْ مِنْ أَشْعَارِ
الْمُرْدَةِ » فَيَقُولُ ذَلِكَ الشَّيْخُ : « لَقَدْ أَصَبْتَ الْعَالِمَ بِبَجْدَةٍ ^(٢) الْأَمْرِ ،
فَسَلَّ عَمَّا بَدَأَ لَكَ »

فَيَقُولُ : « مَا اسْمُكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ ! » فَيَقُولُ : « أَنَا الْخَيْتَعُورُ أَحَدُ
بَنِي الشَّيْصَبَانِ ، وَلَسْنَا مِنْ وَلَدِ إِبْلِيسَ ، وَلَكِنَّا مِنَ الْجِنِّ الَّذِينَ كَانُوا يَسْكُنُونَ
الْأَرْضَ قَبْلَ وَلَدِ آدَمَ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ »

أشعار الجن

فَيَقُولُ : « أَخْبِرْنِي عَنْ أَشْعَارِ الْجِنِّ ، فَقَدْ جَمَعَ الْمَعْرُوفُ بِالْمَرْزُبَانِيِّ ^(٣)
قِطْعَةً صَالِحَةً » فَيَقُولُ ذَلِكَ الشَّيْخُ : « إِنَّمَا ذَلِكَ هَدْيَانٌ لَا مُعْتَمَدَ عَلَيْهِ ،
وَهَلْ يَعْرِفُ الْبَشَرُ مِنَ النَّظِيمِ إِلَّا كَمَا تَعْرِفُ الْبَقْرُ مِنْ عِلْمِ الْهَيْئَةِ وَمِسَاحَةِ
الْأَرْضِ ! وَإِنَّمَا لَهُمْ خَمْسَةٌ عَشَرَ جِنْسًا مِنَ الْمَوْزُونِ ، قَلَّ مَا يَعُدُّوهَا الْقَائِلُونَ ،
وَإِنَّا لَنَا لآلَافٌ أَوْزَانٍ مَا سَمِعَ بِهَا الْإِنْسُ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ تَخْطُرُ بِهِمْ أَطْيَفَالٌ
مِنَّا عَارِفُونَ ، فَتَنَفَّتْ إِلَيْهِمْ مِقْدَارَ الضُّوَاةِ ^(٤) مِنْ أَرَاكٍ ^(٥) نِعْمَانٍ ^(٦) . وَلَقَدْ

(١) الجنَّان : جمع جان ؛ والجان : اسم جمع للجن (٢) أى العالم بدخلة الأمر و باطنه

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن عمران ، ولد ببغداد ، وتوفى بها سنة ٣٨٤ هـ وهو من أئمة

الأدباء ، وله مؤلفات كثيرة ضاع أكثرها ، ومن أنفع مؤلفاته الموجودة : كتاب الموشح فى

مآخذ العلماء على الشعراء . وفى فهرست ابن النديم وصف لمؤلفاته ، انظر الجزء الأول ص ١٣٢

(٤) الشظية من السواك (٥) الاراك : شجر يستاك بقضبانة (٦) مكان معروف

نَظَمْتُ الرَّجَزَ وَالْقَصِيدَ قَبْلَ أَنْ يُخْلَقَ آدَمُ بِكُورٍ^(١) أَوْ كُورَيْنِ ، وَقَدْ
بَلَغَنِي أَنَّكُمْ مَعَشَرَ الْإِنْسِ تَلْهَجُونَ بِقَصِيدَةِ امْرِئِ الْقَيْسِ : (قِفَا نَبِكَ مِنْ
ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ) وَتَحْفَظُونَهَا الْحَزَّاءَ^(٢) فِي الْمَكَاتِبِ . وَإِنْ شِئْتَ
أَمْلَيْتُكَ أَلْفَ كَلِمَةٍ عَلَى هَذَا الْوِزْنِ ، عَلَى مِثْلِ : « مَنْزِلٍ وَحَوْمَلٍ » وَأَلْفًا عَلَى ذَلِكَ
الْفَرَى^(٣) يَجِيءُ عَلَى : « مَنْزِلٍ وَحَوْمَلٍ » وَأَلْفًا عَلَى : « مَنْزِلًا وَحَوْمَلًا » وَأَلْفًا عَلَى :
« مَنْزِلُهُ وَحَوْمَلُهُ » وَأَلْفًا عَلَى « مَنْزِلُهُ وَحَوْمَلُهُ » وَأَلْفًا عَلَى : « مَنْزِلِهِ وَحَوْمَلِهِ »
وَكُلُّ ذَلِكَ لِشَاعِرٍ مَنَّا هَلَكَ وَهُوَ كَافِرٌ ، وَهُوَ الْآنَ يَشْتَعِلُ فِي أَطْبَاقِ الْجَحِيمِ .

❖
❖ ❖

فَيَقُولُ : « أَيُّهَا الشَّيْخُ : لَقَدْ بَقِيَ عَلَيْكَ حِفْظُكَ ! »
فَيَقُولُ : « أَسْنَا مِثْلَكُمْ يَا بَنِي آدَمَ . يَغْلِبُ عَلَيْنَا النَّسِيَانُ وَالرُّطُوبَةُ .
لِأَنَّكُمْ خُلِقْتُمْ مِنْ حَمًا^(٤) مَسْنُونٍ ، وَخُلِقْنَا مِنْ مَارِجٍ^(٥) مِنْ نَارٍ »
فَتَحْمَلُهُ الرَّغْبَةُ فِي الْأَدَبِ أَنْ يَقُولَ لِذَلِكَ الشَّيْخِ : « أَفْتَمِلُ^(٦) عَلَى شَيْئًا مِنْ
تِلْكَ الْأَشْعَارِ ؟ »

فَيَقُولُ : فَإِذَا شِئْتَ أَمْلَيْتُكَ^(٦) مَا لَا تَسْقُهُ^(٧) الرِّكَابُ^(٨) ، وَلَا تَسْعُهُ
صُفُفُ دُنْيَاكَ !

(١) مائة وخمسون سنة ، أو مائتان ، أى نحو قرنين (٢) جمع حزور وهو الغلام
(٣) فى النسخة المطبوعة : العرى بالعين . ورأينا أنها محرفة عما أثبتناه هنا ، والفرى :
الماخذ والمنحى والطريقة ، يقال : هو يفرى فرية ، أى ينحو نحوه (٤) طين أسود (٥) شعلة
ساطعة ذات هب شديد ، أو نار بلا دخان (٦) أمليت عليك (٧) ما لا تحمله (٨) الإبل
(١٤)

فِيهِمْ بَأْنَ يَكْتَسِبَ مِنْهُ ، ثُمَّ يَقُولُ : « لَقَدْ شَقِيتُ فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةَ بِجَمْعِ
الْأَدَبِ ، وَلَمْ أَحْظَ مِنْهُ بِطَائِلٍ . وَلَسْتُ بِمُوقِفٍ إِنْ تَرَكَتُ لَذَاتِ الْجَنَّةِ
وَأَقْبَلْتُ أَنْتَسِخُ آدَابَ الْجَنِّ ، وَمَعَى مِنَ الْأَدَبِ مَا هُوَ كَافٍ . لَا سِيَّامًا وَقَدْ شَاعَ
النِّسْيَانُ فِي أَهْلِ أَدَبِ الْجَنَّةِ . فَصِرْتُ مِنْ أَكْثَرِهِمْ رَوَايَةً ، وَأَوْسَعِهِمْ حِفْظًا .
وَلِلَّهِ الْحَمْدُ »

وَيَقُولُ لِذَلِكَ الشَّيْخِ : « مَا كُنَيْتُكَ لِأَكْرِمَكَ بِالتَّكْنِيَةِ » فَيَقُولُ :
« أَبُو هَدْرَشَ ، أَوْلَدْتُ مِنَ الْأَوْلَادِ مَا شَاءَ اللَّهُ ، فَهَمَّ قِبَائِلُ ، بَعْضُهُمْ فِي النَّارِ
المُوقَدَةِ ، وَبَعْضُهُمْ فِي الْجَنَانِ »

فَيَقُولُ : « يَا أَبَا هَدْرَشَ : مَا لِي أَرَاكَ أَشْيَبَ ! وَأَهْلُ الْجَنَّةِ شَبَابٌ ؟ »

فَيَقُولُ : « إِنَّ الْإِنْسَانَ أَكْرَمُوا بِذَلِكَ وَحُرِّمْنَا ، لِأَنَّا أُعْطِينَا الْحَوْلَةَ ^(١) فِي
الدَّارِ الْمَاضِيَةِ ، فَكَانَ أَحَدُنَا إِنْ شَاءَ صَارَ حَيَّةً رَقَشَاءً ^(٢) ، وَإِنْ شَاءَ صَارَ عُصْفُورًا ،
وَإِنْ شَاءَ صَارَ حَمَامَةً ؛ فَمَنْعْنَا التَّصَوُّرَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَتُرِكْنَا عَلَى خَلْقِنَا
لَا تَتَغَيَّرُ ، وَعَوْضُ بَنِي آدَمَ كَوْنَهُمْ فِيهَا حَسَنٌ مِنَ الصُّورِ ، وَكَانَ قَائِلُ الْإِنْسَانِ
يَقُولُ فِي الدَّارِ الذَّاهِبَةِ : « أُعْطِينَا الْحَيْلَةَ ، وَأُعْطِيَ الْجِنُّ الْحَوْلَةَ ! » وَلَقَدْ لَقِيتُ
مِنْ بَنِي آدَمَ شَرًّا ، وَلَقُوا مِنِّي كَذَلِكَ . »

(١) القدرة على التحول والتقلب (٢) المنقطة بسواد وبياض

صرع فتاة

« دَخَلْتُ - مَرَّةً - دَارَ أَنَسِ أُرِيدُ أَنْ أَصْرَعَ فَتَاةً لَهُمْ ، فَتَصَوَّرْتُ فِي
سُورَةِ عَصَلٍ ^(١) ، فَدَعَوْنَا إِلَى الضِّيَاوَنِ ^(٢) ، فَلَمَّا أَرَهَقْنِي تَحَوَّلْتُ صِلَاً أَرْقَمَ ، وَدَخَلْتُ
فِي قَطِيلٍ ^(٣) هُنَاكَ . فَلَمَّا عَلِمُوا ذَلِكَ كَشَفُوهُ عَنِّي ، فَلَمَّا خِفْتُ الْقَتْلَ صِرْتُ
رِيحًا هَفَّافَةً ، فَلَدَحِقْتُ بِالرَّوَاغِدِ ^(٤) ، وَتَفَضُّوا تِلْكَ الْخُشْبَ وَالْأَجْدَالَ فَلَمْ يَرَوْا
شَيْئًا ، فَجَعَلُوا يَتَفَكَّنُونَ ^(٥) ، وَيَقُولُونَ : « لَيْسَ هَاهُنَا مَكَانٌ يُمْكِنُ
أَنْ يَسْتَتِرَ فِيهِ ، فَبَيْنَمَاهُمْ يَتَذَاكَرُونَ ذَلِكَ عَمَدْتُ لِكَعَابِهِمْ ^(٦) فِي

(١) جرد (٢) جمع ضيون ، وهو السنور الذكر (٣) جذع شجرة مقطوع وملقى هناك

(٤) خشب السقف (٥) التفكَّن : التعجب والتفكر والتندم ، والمراد أنهم جعلوا

يتأسفون على ما فاتهم من الظفر به (٦) الكعاب : الجارية الناهد ، قال أبو العلاء :

كم هلكت عادة كعاب ومُحَرَّتْ أُمُّهَا الْعَجْوُزُ

أحرزها الوالدان خوفاً والقبر حرز لها حريز

يجوز أن تبطئ المنايا والخلد في الدهر لا يجوز

وأول هذه الأبيات قوله :

يموت قوم وراء قوم ويثبت الأول العزيز

ولا يسعنا التمثل بهذه الأبيات دون الإشارة إلى حكاية الذهبي التي أوردتها بمناسبة رواية
أبي الفتح ، فقد حكى أبو الفتح أنه دخل على أبي العلاء بالمعرة ذات يوم في وقت خلوة بغير
علم منه - وكان يتردد إليه ويقرأ عليه - فسمعه وهو ينشد من قلبه تلك الأبيات السابقة .
ثم تأوه مرات ، وتلا : « إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له
الناس ، وذلك يوم مشهود ، وما تؤخره إلا لأجل معدود ، يوم يأتي لا تكلم نفس إلا
بإذنه ، فمنهم شقي وسعيد »

الِكَلَّةِ (١) ، فَلَمَّا رَأَتْنِي أَصَابَهَا الصَّرْعُ ، وَاجْتَمَعَ أَهْلُهَا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ، وَجَمَعُوا لَهَا الرِّفَاقَةَ ، وَجَاءُوا بِالْأَطْبَةِ ، وَبَدَلُوا الْمُنْفِسَاتِ ، فَمَا تَرَكَ رَاقٍ رُقِيَةً إِلَّا عَرَضَهَا عَلَيَّ - وَأَنَا لَا أُجِيبُ !

وَعَبَّرَتِ الْأُسَاةَ تَسْقِيهَا الْأَشْفِيَةَ ، وَأَنَا سَدِكٌ (٢) بِهَا لَا أَزُولُ ؛ فَلَمَّا أَصَابَهَا الْحُمَامُ (٣) طَلَبْتُ لِي سِوَاهَا صَاحِبَةً ، ثُمَّ كَذَلِكَ ، حَتَّى رَزَقَ اللَّهُ الْإِنَابَةَ ، وَأَثَابَ الْجَزِيلَ ، فَلَا أَفْتَأُ لَهُ مِنَ الْحَامِدِينَ !

ثم صاح وبكى بكاء شديداً ، وطرح وجهه على الأرض زمانا ، ثم رفع رأسه ، ومسح وجهه ، فقال : « سبحان من هذا كلامه ! »

قال أبو الفتح : فضبرت ساعة ، ثم سلمت عليه فرد ، وقال : متى أتيت ؟ فقلت : الساعة . ثم قلت : يا سيدى أرى فى وجهك أثر غيظ ، فقال : لا يا أبا الفتح ، بل أنشدت شيئاً من كلام الخلق ، وتلوت شيئاً من كلام الخالق ، فلحقنى ما ترى ! «

قال : « فتحققت صحة دينه وقوة يقينه . » اهـ

ونحن نؤثر ألا نعلق على هذه الحكاية بشيء من عندنا الآن ، فليس هنا موضع البحث فى عقيدة أبى العلاء

(١) الكلة : ستر رقيق ، هو ما يسمى « الناموسية » (٢) ملازم لها لا أفارقها

(٣) الهلاك ، ولا يدخلن فى روع القارئ أن أبا العلاء يدور فى خلده لحظة واحدة حدوث مثل هذه الحكاية ، وإنما هو خياله الممتع وتهكمه اللاذع ، وسخريته الدقيقة ، هى التى أملتها عليه ، وحسب القارئ - ليعرف رأى أبى العلاء ومنزعه - أن يحفظ له قوله :

فاخش المليك ولا تقعد على رهب إن أنت بالجن فى الظلماء خُشيتنا
فإنما تلك أخبار ملفقة لخدعة الغافل الحوشى ، حوشيتنا

قصة الجنى

حَمَدْتُ مَنْ حَطَّ أَوْزَارِي وَمَزَّقَهَا
 وَكُنْتُ آلفُ مِنْ أَتْرَابِ قُرْطُبَةِ
 أَزُورُ تِلْكَ وَهَدِي غَيْرَ مُكْتَرَبِ
 وَلَا أَمْرُ بَوْحِشِي وَلَا بَشَرِ
 وَأَرْكَبُ أَهْيَقٌ^(٦) فِي الظَّمَاءِ مُعْتَسِفًا
 وَأَحْضُرُ الشَّرْبِ^(٧) أَعْرُوهُمْ بِأَبْدَةِ
 فَلَا أَفَارِقُهُمْ حَتَّى يَكُونَ لَهُمْ
 وَأَصْرِفُ الْعَدْلَ^(٨) خَيْلًا^(٩) عَنْ أَمَانَتِهِ
 وَكَمْ صَرَعْتُ عَوَانًا^(١٠) فِي لَطَى لَهَبِ
 عَنِّي ، فَأَصْبَحَ ذَنْبِي الْيَوْمَ مَعْفُورًا
 خَوْدًا^(١١) وَبِالصَّيْنِ أُخْرَى بِنْتِ يَغْبُورًا
 فِي لَيْلَةٍ ، قَبْلَ أَنْ أَسْتَوْضِحَ النُّورَا
 إِلَّا وَغَادَرْتُهُ وَهَلَاكَ مَدْعُورَا
 أَوْ لَا ، فَذَبَّ رِيَادِ^(٥) بَاتَ مَعْرُورَا
 يُزْجُونَ عُدَاً وَمِزْمَارًا وَطُنْبُورًا^(٧)
 فِعْلٌ يَظْلُ بِهِ إبْلِيسُ مَسْرُورَا
 حَتَّى يَخُونَ وَحَتَّى يَشْهَدَ الزُّورَا
 قَامَتْ تُمَارِسُ لِلْأَطْفَالِ مَسْجُورَا^(١١)

(١) الخود : المرأة الشابة (٢) يغبور اسم ملك الصين ، كما يقال : كسرى ملك فارس ،
 وقبصر ملك الروم (٣) الظليم ، أى ذكر النعام (٤) سائرًا على غير هداية (٥) ثورًا وحشيًا
 وهذا البيت يمثل للقارى صورة ممتعة يلذ له أن يتخيلها ، وهى براعة تعرفها فى أبى العلاء
 الذى لم يفته أن يلائم بين سموق الجنى وطول ذكر النعام فى الشطر الأول من البيت ، و بين
 ضخامته وعظم الثور الوحشى فى الشطر الثانى ، وليس أبداع من أن يتمثل الإنسان ذلك
 الجنى راكبًا تلك النعامه الهوجاء ذات السوق الخفيفة ، أو ممتطيًا ذلك الثور الوحشى مع
 ضخامة جرمه ، وعنف جريه .

(٦) جمع شارب (٧) نوع من آلات الطرب له عنق طويل ، وستة أوتار من النحاس

(٨) العادل الذى ترضى شهادته (٩) مخادعًا اياه (١٠) العوان : المرأة النصف

(١١) المسجور : اللبن الذى ماؤه أكثر من لبنه ، والمعنى : قامت تعالج تنورًا

مسجورًا تطبخ عليه شيئًا لأطفالها ، وفى هذا البيت صورة مفاجئة إذ تتمثل فيه تلك

وَدَادِنِي^(١) الْمَرْءَ نُوحٌ عَنْ سَفِينَتِهِ
 وَطَرْتُ فِي زَمَنِ الطُّوفَانِ مُعْتَلِيًا
 وَوَدَادِنِي^(١) الْمَرْءَ نُوحٌ عَنْ سَفِينَتِهِ
 وَطَرْتُ فِي زَمَنِ الطُّوفَانِ مُعْتَلِيًا
 وَقَدْ عَرَضْتُ لِمُوسَى فِي تَفَرُّدِهِ
 لَمْ أَخْلِهِ مِنْ حَدِيثِ مَا ، وَوَسْوَسَةِ
 أَضَلَّتْ رَأْيَ أَبِي سَاسَانَ^(٩) عَنْ رَشَدِ
 ضَرْبًا إِلَى أَنْ غَدَا الظُّنْبُوبُ^٢ مَكْسُورًا
 فِي الْجَوْ حَتَّى رَأَيْتُ الْمَاءَ مَحْسُورًا^(٣)
 بِالشَّاءِ يُنْتِجُ^(٥) عُمُرُوسًا وَفَرُورًا^(٧)
 إِذْ دَكَ رَبُّكَ فِي تَكْلِيمِهِ الطُّورًا^(٨)
 وَسِرَّتْ مُسْتَخْفِيًا فِي جَيْشِ سَابُورًا^(١٠)

الأم الرؤوم تصرع في وقت يكون فيه أطفالها في أشد حاجتهم إليها : فالجنى لا يرى أبلغ في الأذى من انتهاز تلك الساعة الحرجة !

(١) رذني (٢) عظم ساقى من أمام ، أى أن نوحاً ظل يضربنى لأغادر سفينته ، حتى كسر عظم ساقى ، وفى هذا البيت دقة نخب ألا تفوت القارئ فى كلمة المرء نوح ، مع ملاحظة أن للتكلم جنى يتكلم عن الأنس ، وإن كان أبو العلاء لم يتيقيد بهذا فى قوله فى لزومياته :
 مضى المرء موسى ، وأضحت يهو د : تتلو مع الدهر أسفارها

(٣) حتى انحسر الماء عن الأرض ، أى انكشف (٤) جمع شاة (٥) ينتج : يبلى نتاجها (٦) العمروس : الخروف (٧) الفرفور : الحمل ، وهو يشير بذلك إلى حكاية رعيه الغنم لشعيب - عليه السلام - وهى معروفة ، وقد ورد ذكرها فى القرآن ، فى قوله تعالى : « قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانى حجج » وقد أشار موسى - عليه السلام - إلى ذلك حينما سأله الله عن عصاه فقال : « وأهش بها على غنمى » (٨) يشير بذلك إلى قوله : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال ربى أرنى أنظر إليك ، قال : لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه ، فسوف ترانى ، فلما تجلجى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقاً ، فلما أفاق ؛ قال : سبحانك ، تبت إليك ، وأنا أول المؤمنين » (٩) ساسان : جد دولة الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفة بالساسانية (١٠) سابور هو ابن أردشير حميد ساسان بن بابك ، ثانى ملوك الدولة الساسانية الفارسية

وَسَادَ بَهْرَامُ جُورًا^(۱) ، وَهُوَ لِي تَبَعٌ
فَتَارَةً أَنَا صِلُّهُ^(۲) ، فِي نَكَارَتِهِ ،
وَلَمْ نَكُنْ قَطُّ لَأَحُولًا وَلَا عُورًا^(۴)
أَيَّامَ يَبْنِي - عَلَى عِيَالَتِهِ - جُورًا^(۳)
وَرَبَّمَا أَبْصَرْتَنِي الْعَيْنُ عُصْفُورًا

*
*
*

ثُمَّ اتَّعَظْتُ ، وَصَارَتْ تَوَاتِي مَثَلًا
حَتَّى إِذَا انْقَضَتِ الدُّنْيَا وَنُودِيَ إِسْرَافِيلُ : « وَيَحْكُ هَلَّا تَنْفُخُ الصُّورَ ؟ »
أَمَاتَنِي اللَّهُ شَيْئًا ، ثُمَّ أَيَقْظَنِي لِمَبْعَثِي ، فَرَزِقْتُ الْخُلْدَ مَسْرُورًا

لغة الجن

فَيَقُولُ^(۵) : « لِلَّهِ دَرَكٌ يَا أَبَا هَدْرَشَ ، فَكَيْفَ أَلَسْتُمْ كُمْ ؟ أَيَكُونُ فِيكُمْ
عَرَبٌ لَا يَفْهَمُونَ عَنِ الرُّومِ ، وَرُومٌ لَا يَفْهَمُونَ عَنِ الْعَرَبِ ، كَمَا نَجِدُ فِي
أَجْيَالِ الْإِنْسِ ؟ »

(۱) بهرام جور هو ابن يزدرجرد ملك الفرس، وهو الذي بنى مدينة جور وتاريخه مفعم
بالبطولة والأعمال الجريئة (۲) جور مدينة بفارس بينها وبين شيراز عشرون فرسخا، وهي
طيبة النزهة يسير فيها الراحل من كل باب نحو فرسخ في بساتين وقصور، وإليها ينسب نوع
من الورد يعرف بالجورى، وهو شديد الحمرة ويعد أجود أصنافه، وشهرة هذه المدينة بالورد
كشهرة هجر بالتمر، ودارين بالمسك، وقطر بل بالخر (۳) حية دقيقة صفراء لا تنفع
منها الرقية (۴) يقول: إننى كنت أبدو مرة في صورة صل كرية المنظر، وأخرى في صورة
عصفور يزدهى الناظر حسنه؛ وكثيراً ما كنا نظهر للإنس في صورة الحول والعور، على حين
أننا أحماء البصر، ولكننا نختار لأنفسنا الصورة التي يحول لنا أن نبدو فيها (۵) أى ابن القارح

فَيَقُولُ : « هَيْهَاتَ أَيُّهَا الْمَرْحُومُ ، إِنَّا أَهْلُ ذِكَاكَ وَفَطْنٍ ، وَلَا بُدَّ
لِأَحَدِنَا أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِجَمِيعِ الْأَلْسُنِ الْإِنْسِيَّةِ ، وَلَنَّا بَعْدَ ذَلِكَ لِسَانَ
لَا يَعْرِفُهُ الْإِنْسُ »

حديث الرجم

وَأَنَا الَّذِي أَنْذَرْتُ الْجِنَّ بِالْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ ، أَدْلَجْتُ فِي رُفْقَةٍ نُرِيدُ
الْيَمْنَ ، فَمَرَرْنَا بِبَيْتِ رَبِّ ، فَسَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ، فَأَمَّا نَا بِهِ ،
وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا . وَعُدْتُ إِلَى قَوْمِي ، فَذَكَرْتُ لَهُمْ ذَلِكَ ، فَتَسَرَّعَتْ
مِنْهُمْ طَوَائِفٌ إِلَى الْإِيمَانِ ، وَحَثَّهِمْ عَلَى مَا فَعَلُوهُ أَنَّهُمْ رُجُّوا عَنِ اسْتِزْوَاقِ
السَّمْعِ بِكُتُبِ مُحَرَّفَاتٍ (١) »

فَيَقُولُ : « يَا أَبَا هَدْرَشٍ ! أَخْبِرْنِي - وَأَنْتَ الْخَيْرُ - هَلْ كَانَ رَجْمُ
النُّجُومِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَإِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَقُولُ : إِنَّهُ حَدَّثَ فِي الْإِسْلَامِ ! »
فَيَقُولُ : « هَيْهَاتَ ! أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ الْأَوْدِيِّ :

كَشَيْبَابِ الْقَذْفِ يَرْمِيكُمْ بِهِ فَارِسٌ فِي كَفِّهِ لِلْحَرْبِ نَارٌ
وَقَوْلَ ابْنِ حُجْرٍ :

فَانْصَاعَ (٢) كَالدَّرِيِّ (٣) يَتَّبِعُهُ تَقَعُ (٤) يَشُورُ تَحَالُهُ طُنْبًا (٥)

(١) يشير الى قوله تعالى في سورة الجن : « وأنا لسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا
شديداً وشهبا ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهبا رصدا »
(٢) انفتل راجعاً مسرعاً ومر (٣) كاللكوكب الدرّي (٤) غبار (٥) الطنب
حبل طويل يشد به سرادق البيت ، والمعنى أنه انفتل بسرعة الشهاب الساقط من السماء ، وقد
خلف وراءه غباراً مستطيلاً يشبه الحبل الطويل

وَلَكِنَّ الرَّجْمَ زَادَ فِي أَوَانِ الْمُبْعَثِ ^(١)؛ وَإِنَّ التَّخَرُّصَ لَكَثِيرٌ فِي الْإِنْسِ
وَالْجَنِّ، وَإِنَّ الصَّدَقَ لَمَعُوزٌ قَلِيلٌ، وَهَنَيْئًا فِي الْعَاقِبَةِ لِلصَّادِقِينَ
وَإِنَّ قِصَّةَ الرَّجْمِ أَقْوَلُ:

مَكَّةُ أَقْوَتْ مِنْ بَنِي الدَّرْدَيْسِ ^(٢) فَمَا لَجِنِّي بِهَا مِنْ حَسِيْسٍ ^(٣)
وَقَامَ فِي الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ ^(٤) أَزْهَرُ ^(٥) لَا يُعْفَلُ حَقَّ الْجَلِيْسِ
يَجْلِدُ فِي الْخَمْرِ وَيَشْتَدُّ فِي الْأَمْرِ وَلَا يُطْلِقُ شَرْبَ الْكَسِيْسِ ^(٦)
وَيَرْجُمُ الزَّانِيَ ذَا الْعَرْسِ لَا يَقْبَلُ فِيهِ سُؤْلَةٌ ^(٧) مِنْ رَبِيْسٍ
وَكَمَّ عَرُوسٍ، بَاتَ حُرَّاسَهَا ^{*} كَجُرْهُمٍ ^{*} ^(٨) فِي عِزِّهَا أَوْ جَدِيْسٍ ^(٩)

(١) صرح أبو العلاء بهذا الرأي في اللزوميات ، فقال :

ولست أقول إن الشهب يوماً لبعث محمد جعلت رجوماً

(٢) حتى من أحياء الجن (٣) صوت خفي (٤) قام في الصفوة من هاشم ، أي قام
في نخبة بني هاشم ، أي في خيرهم (٥) مشرق الوجه ، يعني به النبي صلوات الله عليه
(٦) الكسيس نبيذ التمر ، ومعنى البيت : أنه يحرم كل أنواع الخمر ولا يبيح حتى هذا
النوع من النبيذ (٧) شفاعة (٨) جرهم قبيلة كانت في جهات مكة نزل بينهم إسماعيل
(٩) جديس قبيلة من العرب كانت منازلها باليمامة وكان معهم بنو عمهم طسم ، فطفت
طسم على جديس ، حتى كان رئيسها عمليق يدخل بالمرأة من جديس قبل أن يدخل بها
زوجها . فلما تزوجت عفيرة وهي من سادات جديس وافترضها عمليق دون بعلاها ، خرجت
مولودة شاقة جيبها ، كاشفة عن نفسها ، وهي تقول :

لا أحد أذل من جديس أهكذا يفعل بالعروس ؟

فهاجت جديس على طسم بسبب ذلك ، وانتصرت عليها ، وانفردت بالعز دونها ؛
وظلت كذلك الى أن أبادها ملوك اليمن .



(وقد أشار إلى هذه القصة أكثر مؤرخي العرب ، ولا بأس من اختيار القطعة التالية من كتاب مروج الذهب لجمال أسلوبها الروائي وحسن خيالها المنسق . وليقرأها القارئ على أنها أسطورة لها أصل تاريخي — إذا شاركنا في الاعتقاد بأن أكثرها من عمل الرواة واخترع المحدثين :)

حكاية طسم وجديس

« كان لطسم ملك يقال له « عملاق » وكان ظالوما غشوما لا ينهأ شئ عن هواه مع إصراره وإقدامه على جديس وتعديه عليهم وقهره إياهم ، فلبثوا في ذلك دهوراً وهم أهل مظلالم قد غمطوا النعمة واتهكوا الحرمه ، وبلادهم « اليمامة » أفضل البلاد وأكثرها خيراً في صنوف الشجر والأعشاب ؛ وهي حدائق ملتفة وقصور مصطفة ، فلم يزل على ذلك حتى أتته امرأة من جديس يقال لها « هزيلة » بنت مازن ، وزوج لها قد فارقتها يقال له « ماشق » فأراد قبض ولده منها فأبى عليه ، فارتفعا إلى الملك « عملاق » ليحكم بينهما ، فقالت : « أيها الملك ! هذا الذي حملته تسعا ، ووضعته دفعا ، وأرضعته شفعا ، ولم أنل منه نفعاً ، حتى إذا تمت أوصاله ، واستوفى خصاله ، أراد أن يأخذه قسراً ، ويسلبنيه قهراً ، ويتركني منه صفراً » قال زوجها : « قد أخذت المهر كاملاً ، ولم أنل منه نائلاً ، إلا ولداً خاملاً ، فافعل ما كنت فاعلاً » فأمر الملك أن يؤخذ الولد منها ويجعل في غلمانه ، فقالت هزيلة في ذلك :

أتينا أبا طسم ليحكم بيننا فأبرم حكماً في هزيلة ظالماً
لعمري لقد حكمت لا متورعاً ولا فهما عند الحكومة عالماً
ندمت ، فلم أقدر على متزحزح وأصبح زوجي حائر الرأي نادماً

قالوا : « فبلغ الملك قول هزيلة فغضب ، وأمر ألا تزوج امرأة من جديس فتزف إلى زوجها حتى تحمل إليه فيفترعها قبل زوجها ، فلقوا من ذلك ذلاً طويلاً . ولم تزل تلك حالهم حتى تزوجت عفيرة « وقيل الشموس بنت عمار الطسمي أخت الاسود بن عفار » فلما كانت ليلة هديها إلى زوجها ، انطلق بها إلى « عملاق » الملك ، ليطأها — على عادته — ومعه الفتيات يغنين ويقلن في غنائهن :

ابداً بعملوق ، وقوى فاراكي
وبادري الصبح بأمر معجب
فما لي بكر بعدكم من مذهب

*
* *

فلما دخلت « عفيرة » على « عملوق » اقترعها وخلي سبيلها ، فخرجت عفيرة على قومها
في دماغها شاقة جيها عن دبرها وهي تقول :

« لا أحد أذل من جديس أهكنا يفعل بالعروس ! »
وقالت أيضاً في تحريض جديس على طسم وأبت أن تمضي الى زوجها — :
أصلح ما يؤتى إلى فتياتكم وأنتم رجال فيكم عدد الرمل

فإن أنتم لا تغضبوا بعد هذه فكونوا نساء لا تفروا من الكحل
ودونكم طيب العروس ، فإنما خلقتم لأنواب العروس ، ولغسل
قبيحاً وشيكا للذي ليس دافعا ويختال يمشي بيننا مشية الفحل
فلو أننا كنا رجالا ، وكنتم نساء لكننا لا نقر على الذل

*
* *

فوتوا كراماً ، واصبروا لعدوكم بحرب تلظى في القرام من الجزل
ولا تجزعوا للحرب يا قوم ، إنما تقوم بأقوام كرام على رجل
فيهلك فيها كل نكس موكل ويسلم فيها ذو النجابة والفضل
وفي ذلك يقول أخوها :

جاءت تمشي طسم في خميس كالريح في شهشة اليبس
يا طسم ! ما لقيت من جديس حقا لك الويل ، فهيسى ، هيسى

*
* *

فلما سمعت جديس قولها ، اجتمعت عصابة لذلك ، فقال لهم الأسود بن عفار
- وكان فيهم سيدا مطاعا - : « يا جديس ! أطيعوني بما أمركم به وأدعوكم اليه ، ففي ذلك
عز الدهر وذهاب الذل »

قالوا : « وما ذلك ؟ » قال : قد علمت أن هؤلاء - يعني طسما - ليسوا بأعز منكم ؛
ولكن ملك صاحبكم عليكم وعليهم هو الذي يذعننا اليه بالطاعة ، ولولا ذلك ما كان له علينا
من فضل ، ولو امتنعنا منه لكان لنا النصف ! » فقالوا : « قد قبلنا قولك ! ولكن القوم
أقراننا وأكثر منا عددا وعددا ، فنخاف - إن ظفروا بنا - ألا يقولوا ! » فقال :
« والله يا جديس لتطيعنني فيما أمركم به وأدعوكم اليه ، أو لأتكنن على سيفي فأقتل به نفسي ! »
قالوا : « فانا نطيعك فيما قد عزمت عليه » قال : « فاني صانع لعمالوق وقومه من طسم
طعاما وداعيمهم اليه ، فاذا جاءوا اليه منفصلين من الخليل والبعال نهضنا اليهم بأسيافنا
فانفردت أنا بالملك ، وانفرد كل رجل منكم برجل منهم ! » قالوا : « فافعل ما بدا لك ! »
واجتمع رأيهم عليه ، فقالت « عفيرة » لأخيها « الأسود » : « لا تفعل هذا فان الغدر فيه
ذلة وعار ، ولكن كابدوا القوم في ديارهم تظفروا بهم أو تموتوا كراما ! » قال : « لا ، ولكن
تمكر بهم فيكون ذلك أمكن لنا من نواحيهم وأبلغ في الانتقام منهم » وصنع الأسود طعاما
كثيرا وأمر قومه فاخترطوا سيوفهم ودفنوها في الرمل - حيث أعدوا الطعام - ثم قال لهم :
« اذا أتاكم القوم يرفلون في حلبيهم ، فخذوا أسيافكم ثم تقدموا عليهم قبل أن يأخذوا مجالسهم
وابدؤا بالرؤساء ، فانكم - اذا قتلتموهم - لم تبالوا بالسفلة ، ولم يكن بعد ذلك منهم حال
تكرهونها » قالوا : « نفعل ما قلت »

ثم دعا الأسود بعمالوق الطسمى ومن معه من رؤساء طسم بالجماعة ، فأسرعوا بإجابة
دعوته ، فلما توافوا إلى المدعاة ، وثبت جديس ، فاستناروا سيوفهم من الرمل ، وشدوا
على عمالوق وأصحابه ، فقتلوه حتى أفنوهم عن آخرهم ، ومضوا إلى ديارهم فاتمبوهها .

زُفْتُ إِلَى زَوْجِ لَهَا ، سَيِّدٍ مَا هُوَ بِالنَّكْسِ (١) وَلَا بِالضَّبِيْسِ (٢)
 غَرْتُ عَلَيْهَا فَتَخَلَّجَتْهَا (٣) بَوَاشِكِ الصَّرْعَةِ (٤) قَبْلَ الْمَسِيْسِ (٥)
 وَأَسْلَمْتُ (٦) الْغَادَةَ مَحْجُوبَةً (٧) فِي الْخُدْرِ ، أَوْ يَنْ جَوَارِ تَمِيْسِ (٨)
 لَا أَنْتَهَى عَنْ غَرَضِي بِالرُّقَى (٩) إِذَا أَنْتَهَى الضَّيْعُ دُونَ الْفَرِيْسِ (١٠)
 وَأَدْلِجْ (١١) الظَّامَاءَ فِي فِتْيَةٍ مَلْبَجِنَ (١٢) فَوْقَ الْمَاحِلِ (١٣) الْعَرَبِيْسِ (١٤)

ولهذه الأسطورة التاريخية الطويلة بداية ونهاية لا يتسع المقام لذكرها ، ونحب أن يطلع عليهما القارئ في الجزء الأول من كتاب « مروج الذهب » للمسعودي من (ص ٢٤١ - ٢٤٧)

*
* *

وقد ذكر أبو العلاء قبائل « طسم وجديس وجرهم » في شعره مراراً ، فمن ذلك قوله ، وهو التفاتة تاريخية رائعة :

سيسأل ناس : « ما قریش ومكة ؟ » كما قال ناس : « ماجديس وما طسم ؟ »

وقوله في موضع آخر في أثناء كلامه عن الترك :

لهم حيل في حربهم ما اهدت لها جديس ، ولا ساست بها الملك جرهم

وقوله في ميميته الفذة التي حاور فيها الديك : « ورثت هدى التذكار من قبل جرهم »

(١) الرجل الضعيف الذي لا خير فيه (٢) الجبان أو الأحمق

(٣) جعلتها تختلج (٤) بعاجل الصرعة (٥) قبل أن يمسه زوجها

(٦) أدخل فيها (٧) وهي مستورة (٨) تتبختر (٩) جمع رقية

(١٠) إذا انتهى الأسد دون ما يفترسه (١١) أسير ليلاً (١٢) من الجن ، وهي

لهجة لبعض العرب ، يقولون : وقفت ع الماء ، ونحو ذلك . وما تزال هذه اللهجة على

أسن العوام إلى يومنا هذا (١٣) الأرض الجذبة (١٤) الأرض الجافة الغليظة

فِي طَائِمٍ ^(١) تَعْرِفُ ^(٢) جَنَانَهُ أَقْفَرٌ إِلَّا مِنْ عَفَارِيْتِ لَيْسٍ ^(٣)
تَحْمِلُنَا فِي الْجَنِيحِ ^(٤) خَيْلٌ، لَهَا أَجْنَحَةٌ - لَيْسَتْ كَخَيْلِ الْإِنْسِ ^(٥)
وَأَيْتُقُ ^(٦) تَسْبِقُ أَبْصَارَكُمْ مَخْلُوقَةٌ بَيْنَ نَعَامٍ وَعَيْسٍ ^(٧)

لَا نُسْكَ فِي أَيَّامِنَا عِنْدَنَا * * * بَلْ نِكْسُ الدِّينِ، فَمَا إِنْ نِكَيْسٍ ^(٨)
فَالْأَحَدُ الْأَعْظَمُ وَالسَّبْتُ كَأَا إِثْنَيْنِ، وَالْجُمُعَةُ مِثْلُ الْخَمِيْسِ ^(٩)
لَا مَجْسُ نَحْنُ، وَلَا هُوَدُّ، وَلَا نَصَارَى يَبْتَغُونَ الْكِنَيْسِ ^(١٠)

(١) المفازة لا أثر فيها (٢) تصوت (٣) شجعان « جمع أليس » (٤) وقت الليل
(٥) الإنس (٦) نوق (٧) كرام الابل (٨) نكيس الدين في معنى أخذ من
غير وجهه ، وأهملت حقائقه ، ولا نكيس : لا نطقن ، والمعنى أننا لا نفقه شيئاً في أمور الدين
(٩) أشار أبو العلاء الى هذا المعنى مراراً في لزومياته ، فمن ذلك قوله :
لنا جمعة ، والسبت يدعى لأمة أطافت بموسى ، والنصارى لها الأحد
فهل لبواقي السبعة الزهر معشر يجولونها - ممن تنسك أو جحد ؟
وقوله :

فما هذه الأيام إلا نظائر تساوت بها آحادها وسبوتها

(١٠) بديع من أبي العلاء هذا الخيال الصافي الذي يتمثل فيه بعد الجن عن الاهتمام
بالاعتبارات الإنسيّة

وقد شغل اختلاف الأديان وتباين الملل والنحل مكانا رحبا من نفس أبي العلاء ،
فأوردته في شعره ونثره بأساليب شتى ، ولعل أول ما عرفناه له في ذلك قوله في سن مبكرة :

باللاذقية فتنة ما بين أحمد والمسيح

هذا بناقوس يد ق ، وذا بمئذنة يصيح

إلى أن يقول ساخراً :

كل يعرّز دينه ياليت شعري ، ما الصحيح ؟

ثم قال - فيما بعد - :
نحل غدت مللاً ، فكل شريعة تبدى لمضمر غيرها إكفارها
وقال :
إن الشرائع أَلقت بيننا إحنًا وعلمتنا أفانين العداوات
إلى غير ذلك مما يطول سرده .

*
* *

وبعد أن قلب هذه الفكرة على كل وجه من وجوها ؛ انتقل من تطبيقها على الإنس
إلى تطبيقها على الجن ، ثم إلى تطبيقها على الكواكب ، فمن ذلك قوله :

العالم العالى برأى معاشر كالعالم الهاوى - يحس ويعلم
زعمت رجال : « أن سياراته تسق العقول ، وأنها تتكلم »
فهل الكواكب مثلنا فى دينها لا يتفقن ، فهائد أو مسلم ؟
وفى هذه القصيدة يقول :

ولعل مكة فى السماء كمكة وبها نضادٌ ويذبلٌ ويَلْمَمُ
فأنت ترى أن فكره لم يقف عند حد الإنس والجن بل تعداها إلى الكواكب أيضاً ،
فود لو يهتدى إلى مذاهبها ونحلها ، إن كان لها مذاهب أو نحل !
وهذا خيال لا نستغربه من شاعر فيلسوف ، دقيق الحس ، عميق الفكر ، يرى
فى كل ما يحيط به - من حيوان ونبات وجماد - حياة شاملة ، ويصل به التعمق فى ذلك
إلى حد أن يقول :

أظن زمانى كونه وفساده وليداً بترب الأرض يلهو ويعبث
ثم ينظر من الناحية الأخرى من منظار الحقيقة الذى لا يفتأ يطل منه على الكون ،
فيقول :

نُزِقَ التَّوْرَةَ مِنْ هُونِهَا وَتَحَطَّمِ الصُّلْبَانَ حَطَمَ الْيَمِينِ (١)
نُحَارِبُ اللَّهَ جُنُودًا لِإِبْلِيسَ ، أَخِي الرَّأْيِ الْعَبِينِ النَّجِيسِ
نُسَلِّمُ الْحُكْمَ إِلَيْهِ - إِذَا قَاسَ - فَفَرَضَى بِالضَّمَلَالِ الْمَقِيسِ (٢)

✱
✱

نَزِينَ لِلشَّارِخِ (٣) وَالشَّيْخِ أَنْ يُفْرِغَ كَيْسًا - فِي الْخَنَاءِ - بَعْدَ كَيْسِ
وَتَقْتَرِي (٤) جَنِّ « سُلَيْمَانَ » كَيْ نَطْلِقَ مِنْهَا كُلَّ غَاوٍ حَبِيسِ (٥)

هذي الشخوص من التراب كواثر فلرء - لولا أن يُجسَّ - جِدَار
فأنت تراه يرى في الجماد حياة لا ينقصها إلا الإحساس ، وفي الأحياء جماداً لا يمتاز بغير
ذلك الإحساس .

✱
✱

ولا بأس من الإشارة هنا - بمناسبة هذا الاستطراد - إلى قوله :
شر أشجار علمت بها شجرات أثمرت ناسا
وقوله :

وهل أعظم إلا غصون وريقة وهل ماؤها إلا جنى دماء
وسنفصل ما أجملناه في هذه النقطة حين نعرض المقارنة بين أبي العلاء المعري وعمر بن الخطاب ،
فلنكتف بهذا القدر اليسير الآن .

(١) اليبيس : ما يابس من العشب ، والبقول التي تتناثر إذا يبست ، أو هو كل نبات
يابس ، ومعنى البيت أننا نحقر التوراة فنمزقها ، ونهزأ بالصلبان فنكسرهما كما نكسر النبات
اليابس (٢) نسلم حكمتنا إلى إبليس ، فنرضى بما يراه لنا من الآراء الضالة (٣) للشاب
(٤) تتبع (٥) محبوس

صَيْرَ فِي قَارُورَةٍ رُصِّصَتْ (١) فَلَمْ تُعَادِرْ مِنْهُ غَيْرَ النَّسِيسِ (٢)

(١) طليت بالرصاص (٢) بقية الروح ، والنسيس — أيضاً — عرقان في اللحم يستقيان المخ ، ومعنى البيتين : أننا نجوب أنحاء البلاد باحثين عن إخواننا من عصاة الجن الغاوين الذين سجنهم نبي الله « سليمان » بسبب عصيانهم ، في قوارير أحكم سدادها بالرصاص حتى لا يجدوا سبيلا إلى الفرار ، فلم يُبق منهم ذلك الحبس الطويل الا الرمق « أساطير الجن وسليمان النبي »

وقد شاعت أساطير « سليمان » والجن « ارجع الى كتابنا : أساطير ألف يوم » وانتشرت منذ أقدم أزمنة التاريخ فنسبوا إليه القدرة المطلقة على تسخير الجن ومعرفة لغاتهم المختلفة ، وعزوا إلى خاتمه — المشهور بما عليه من النقش — معجزات لا تحصى ، كما عزوا إلى بساطه قدرة خارقة على الطيران — بما يحمله — في الجو بسرعة لا يكاد يتصورها العقل وقد كادت تجمع تلك الأساطير على عدة أمور ، أنضجها الخيال ونسقها التواتر ، فمن ذلك أن « سليمان النبي » كان يهيمن على الجن ويتطلب منهم خدمات شتى تتفاوت صعوبة ويسرا ، وقد يعنّ له أمر هام لا يستطيع إنفاذه إلا جنى بعينه يكون مشهوراً بقدرته الخارقة ، فيرسل إليه ، فإذا لبي دعوته فذاك ، وإلا نكل به أو ختم جبهته بالنقش الذي على خاتمه فأحرقه توا ، أو سجنه في قارورة مرصّصة أو قفص من النحاس ، وربما سجنه في عامود طويل من الصخر بعد أن يوثقه بالسلاسل والأغلال وختمه بخاتمه وقد اشتهر وزيره الحكيم « آصف بن برخيا » بمساعداته القيمة لسليمان ، على إذلال الجن وإخضاعهم لأوامره

وقد ذاع من تلك الأساطير بين العامة والخاصة شيء كثير ، وافتن الناس في رواياتها بأساليب شتى وطرق متباينة ، وهذه الأساطير مصادر عدة ، نخص بالذكر منها — عدا أقاصيص رواة العرب — مصدرين رئيسين نعدهما من أخصب المصادر وأغناها ، وهما « أساطير ألف ليلة وليلة » و « أسطورة سيف بن ذي يزن »

وَنُخْرِجُ الْحَسَنَاءَ مَطْرُودَةً مِنْ بَيْتِهَا عَنْ سُوءِ ظَنِّ حَدِيثٍ

ففي « ألف ليلة وليلة » ترى :

حكاية الصيد والجنى

وموضوعها أن صياداً عائلاً طاعناً في السن كان من عادته أن يرمى شبكته كل يوم أربع مرات فخرج في صبيحة يوم حسب عادته وطرح شبكته وصبر إلى أن استقرت في الماء ثم جمع خيطانها فوجدها ثقيلة فجدبها فلم يقدر على ذلك ، فأخذ يعالجها حتى إذا تمكن من إخراجها وجد فيها حماراً ميتاً فحزن ؛ ثم أخرجه ورمى شبكته مرة ثانية ، فلما جذبها وجدها ثقيلة كما وجدها في المرة الأولى فأخذ يعالجها حتى استطاع إخراجها فوجد فيها زيراً كبيراً مملوءاً بالرمل والطين فزاد حزنه . ثم أخرج ما فيها ولما ألقاها المرة الثالثة وجدبها وجدبها شقافة وقوارير ، فعجب من سوء بخته ونكد طالعه ، وقبل أن يلقى الشبكة للمرة الرابعة - الأخيرة - توسل إلى الله أن ييسره ثم سمي باسمه ، وألقى شبكته وصبر إلى أن استقرت فإذا بها أثقل منها في المرات السابقة فبذل أشد الجهد في إخراجها حتى تمكن من ذلك بعد عناء شديد . فوجد فيها قممًا من نحاس أصفر مسدوداً بالرصاص ومطبوغاً بخاتم سليمان النبي فتبدل حزنه سروراً وقال في نفسه : « سأبيع هذا القمقم في سوق النحاس لأنه يساوي عشرة دنانير ذهباً ، ولكن لا بد من فتحه لأعلم ما يحتويه »

وأخرج مديّة كانت معه ، فعالج بها الرصاص حتى فسكه ، ثم أزال غطاء القمقم فتصاعد منه دخان كثيف إلى عنان السماء لم يلبث أن تجمع واكتمل ، ثم رأى الصياد أمامه مارداً هائلاً مروعاً من الجن ، فارتعدت فرائصه ، واضطرب ، ولم يعد رشده إليه إلا قول الجنى له : « العفو يا نبي الله سليمان ، التوبة ! التوبة ! آمنت بك ، وأطعتك ، ولم أعد أخالف لك قولاً أو أعصى لك أمراً ، فلا تقمّني فأني تائب نادم على ما فرط مني من العصيان ! »

فعاود الصياد الرمق وقال له : « أين أنت من سليمان النبي أيها الجنى ؟ لقد مات منذ عدة قرون ، فما قصتك ؟ وما سبب حبسك في هذا القمقم ؟ » فلما علم الجنى بموت سليمان النبي التفت إلى

نَقُولُ : « لَا تَقْنَعُ بِتَطْلِيْقَةِ وَأَقْبَلْ نَصِيْحًا - لَمْ يَكُنْ بِالْدَّسِيْسِ »

الصيداء قائلًا : « سأجازيك على جميلك بالقتل ، ولكنى سأترك لك اختيار ميتتك ! » فقال له الصيداء : « أهذا جزاء من أحسن إليك وأخرجك من سجنك ! » فقال له الجنى : « لقد كنت من الجن المارقين ، وقد عصيت سليمان بن داود - واسمى صخر الجنى - فأرسل إلى وزيره آصف بن برخيا فأتى بى مكرهاً وقادنى إليه ذليلاً ، فلما وقفت بين يدى سليمان النبى أمرنى بالدخول فى طاعته ، فأبيت ، فخبسنى فى هذا القمقم وختم على بالرصاص وطبعه بخاتمه المنقوش عليه « الاسم الأعظم » وأمر الجن فآلقونى فى وسط البحر ، فمكثت مائة عام وقلت فى نفسى : « كل من خلصنى أغيبته إلى الأبد » ولما مرت الأعوام المائة ولم يخلصنى أحد ، قلت : « كل من خلصنى فى خلال هذا القرن الثانى فتحت له كنوز الأرض » فلم يخلصنى أحد ومررت على أربعائة أخرى فقلت : « كل من خلصنى قضيت له ثلاث حاجات » - فلما مرت تلك المدة الطويلة كلها ولم ينقذنى أحد تملكنى الغضب الشديد فقلت فى نفسى : « كل من خلصنى - بعد هذا - قتلته ، وتركت له اختيار ميتته ، فأى ميتة تختار أن تموتها الآن ؟ » فارتقى الصيداء على أقدامه متوسلاً إليه أن يعفو عنه ، ولكنه وجد منه الإصرار على قتله فاجأ إلى الحيلة - بعد أن يئس من استعطافه - فقال للجنى : « ولكن لى سؤالاً أرجو أن تجيبنى عليه قبل أن تهلكنى ، وأن تصدقنى فى الإجابة عنه » فقال له الجنى : وما هو ؟ فقال الصيداء : « قل لى بحق الاسم الأعظم المنقوش على خاتم « نبى الله سليمان » كيف كنت فى هذا القمقم الضيق - وهو لا يسع يدك ولا رجلك ؟ » فلما سمع الجنى هذا القسم اضطرب ولكنه لم يلبث أن قال له : « ألا تصدق أنى كنت فيه ؟ » فأجابه الصيداء : « كلا ، ولن أصدق ذلك أبداً إلا إذا رأيته بعينى » فانتفض العفريت وصار دخاناً فى الجو ، ثم تجمّع وأخذ يدخل فى القمقم حتى أصبح كله فى داخله - فأسرع الصيداء بسد فم القمقم بالسداة التى كانت عليه من قبل ، فلما رأى الجنى مكر الصيداء توسل إليه أن يفك أسره .

ودار بينهما حوار طويل ممتع ، يجده القارىء مفصلاً فى الجزء الأول من كتاب ألف ليلة وليلة ، انتهى بأن أقدم له الجنى أن ينفعه إذا أطلقه ، وقد أطلق وبر للصيداء بقسمه .

حَتَّى — إِذَا صَارَتْ إِلَى غَيْرِهِ — عَادَ مِنَ الْوَجْدِ بِجِدِّ تَعْيِسَ

أما أسطورة « سيف بن ذى يزن » فنعدها — على عامية أسلوها ، وفساد خيالها واضطرابه في عدة مواضع منها — أغنى المصادر التي عنيت بذكر هذه الخرافة وأشباهاها من وصف الجن ، وبيان كفياتهم وأقدارهم ، وهيمنة السحرة عليهم ، وأثر الطلاسم فيهم ، وإظهار الفروق التي بين طوائفهم ونحلهم المختلفة وما إلى ذلك .

وقد أوسعت تلك القصة لهذا النوع من الأساطير أرحب مكان فيها ، فازدحمت بها ازدحاماً أفردتها من بين الأساطير العربية ، ولسنا نعرف في كل ما قرأناه من القصص العامية — وقد قرأنا كل ما طبع منها بلا استثناء — قصة تعدلها في هذه الخصلة غناء وخصبا .

فليس بد — لمن أراد أن يكون فكرة واسعة عن أساطير السحرة والجان والأرصاد والطلاسم — من أن يقرأ تلك القصة الطويلة الجديرة بال العناية

ومن بين أساطير تلك القصة ما ترويها لنا أسطورة « الرهق الأسود » — وقد ذكرت في موضعين منها — أولها بمناسبة سفر « سيف بن ذى يزن » إلى كنوز « النبي سليمان » وثانيهما بمناسبة حفر « شلالات النيل »

فثلث لنا ذلك « الرهق الأسود » مارداً عنيداً تخاف الجن كلها سطوته وبأسه ، ولا تتكاد تؤثر فيه الأرصاد والطلاسم ، وقد بلغ من عتوه أنه عصى « النبي سليمان » واستخف به وبسلطانه .

ففي ذات يوم كلف « سليمان » — تلبية لرغبة زوجته « بلقيس » — أعوان الجن بعمل شاق لم يستطيعوا القيام به ، فأظهروا له معجزهم عن القيام به ولفتوه إلى قدرة « الرهق الأسود » — دون غيره من الجن — على إتمامه

فكلف وزيره « آصف بن برخيا » باحضاره ، وكان « آصف » يعلم مقدار صلابة هذا الجنى وعناده ، فبعث إليه برسالة تركها له أحد الجن عند رأسه — وهو نائم — خوفاً من سطوته ، فلما أفاق قرأ فيها قوله : « إذا لم تحضر إلى بعثت إليك الوهم ! »

نُذِرُهُ مِنْهَا -- وَقَدْ زُوِّجَتْ تَعْرًا كَدْرًا فِي مُدَامٍ غَرِيسٍ

فذهب إلى « آصف » وسأله عن الوهم وأين هو؟ فاغتنم فرصة حضوره فقيده بطلاسمه التي اشتهر بمقدرته الفائقة على الافتنان فيها — ثم أمره بالقيام بذلك العمل الذي أرغمه عليه إرغاماً وبينما هو قائم بعمله الشاق — مرت « بلقيس » مصادفة فهاج بجها ، ولما رأى « سليمان النبي » طلب إليه أن يزوجه منها ووعدته بالإذعان لأوامره كلها إن فعل — فلما علم أنه يعني زوجه ، أراد أن يطبعه بالنقش الذي على خاتمه ليحرقه ، فاستغاث بالوزير آصف ؛ فاقترح على « سليمان » أن يسجنه في عامود من الرخام ليشتق بالعذاب طول حياته ؛ فسجنه في عامود طويل أحكم سداده بالرصاص وختمه بخاتمه وظل محبوساً حتى أنقذه « سيف بن ذي يزن » إلى آخر تلك الأسطورة الطويلة التي أوجزناها أشد إيجاز ، وفصلتها قصة « سيف بن ذي يزن » أبرد تفصيل « في الجزء الثامن ص ٤٥ و ٤٦ وفي الجزء الحادى عشر من ص ٤٤ إلى آخر الجزء ومن أول الجزء الثانى عشر إلى ص ٨ »

ومما هو جدير بالملاحظة في تلك الأساطير أنها تكاد تنتهى جميعاً باظهار شعف أولئك الجن العصاة بالإساءة إلى من يحسنون إليهم ويهيمنون بإطلاقهم ، مما يدل على تأصل روح الشر في نفوسهم



وقد أشار المتنبي إلى ما اشتهر به « سليمان النبي » من معرفة لغات الجن وقدرته على تفهم ألسنتهم المختلفة ، في توبيته التي مدح بها عضد الدولة وذكر فيها شعب بوان ، فقال :

ملاعب جنّة ؛ لو سار فيها « سليمان » لسار بترجمان^(١)

وأبداع النابغة في الإشارة إلى ما اشتهر عن « سليمان » من إذلال الجن واخضاعهم لأوامره ، فقال من معلقته الجميلة أثناء مدحه للنعمان :

(١) وهذا البيت هو الثالث من قصيدته التي أولها

مغان الشعب — طيباً في المغاني —
بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربى فيها غريب الوجه واليد واللسان

وَنَسَخَطُ الْمَلِكِ عَلَى الْمَشْفِقِ الْمُمْرَطِ فِي النَّصِيحِ إِذِ الْمَلِكُ سَيْسٌ
 لَا أَتَقَى الْبَرَّ لِأَهْوَالِهِ وَأَرْكَبُ الْبَحْرَ أَوْانَ الْقَرِيْسِ^(١)
 نَادَمْتُ قَابِيْلَ ، وَشَيْثَانَ ، وَهَهَا بِيْلَ عَلَى الْعَاتِقَةِ الْخَنْدَرِيْسِ^(٢)
 وَرَهْطَ لُقْمَانَ ، وَأَيْسَارَهُ عَاشَرْتُ مِنْ بَعْدِ الشَّبَابِ اللَّيْسِ^(٣)

* * *

ثُمَّتَ آمَنْتُ ، وَمَنْ يُرْزَقِ الْإِيْمَانَ يَظْفَرُ بِالْخَطِيْرِ النَّفِيْسِ
 جَاهَدْتُ فِي بَدْرِ ، وَحَامَيْتُ فِي أَحَدٍ ، وَفِي الْخَنْدَقِ رُعْتُ الرَّيْسِ^(٤)
 وَرَاءَ جِبْرِيلَ وَمِيكَالَ^(٥) نَحْنُ لِي الْهَامُ فِي الْكَبَةِ^(٦) خَلَى اللَّيْسِ^(٧)

ولا أرى فاعلاً في الخير يشبهه
 إلا « سليمان » إذ قال الأله له :
 وخيس الجن - انى قد أذنت لهم
 فمن أطاعك فانفعه بطاعته
 ومن عصاك ، فعاقبه معاقبة
 ولا أحشى من الأقوم من أحد
 « قم للبرية فاحدها عن الفند
 بينون « تدمر » بالصفاح والعمد
 كما أطاعك - وادله على الرشد
 تنهى الظلوم، ولا تقعد على ضمد

ونختم هذا الفصل بقول الأعشى - وهو يمثل منحنى آخر من اعتقاد العرب في ذلك - :

ولو كان شئ خالداً ومعمراً
 لكان سليمان البرى من الدهر
 وملكه ما بين ثريا الى مصر
 قياماً لديه يعملون بلا أجر
 وسخر من جن الملائك تسعة

(١) البرد الشديد (٢) الحجر (٣) أى الذى أخلق من كثرة اللبس (٤) بدر

وأحد والخندق : ثلاث وقائع مشهورة من غزوات النبى صلى الله عليه وسلم وهو يعنى
 بالرئيس فى واقعة الخندق : أباسفيان (٥) ميكائيل (٦) الكبة الصدمة بين الخليلين
 فى الحرب أو الزحمة (٧) يشير بذلك الى ما ورد فى القرآن من محاربة الملائكة فى جانب

وَطَارَ فِي الْيَرْمُوكِ بِي سَاحِجٍ
 حَتَّى تَجَلَّتْ عَنِّي الْحَرْبُ كَالْأَجْمَلِ^(١) الْأَنْكَدُ شَاهِدْتُهُ
 وَالْقَوْمُ فِي ضَرْبٍ وَطَعْنٍ خَلِيسٍ
 جَمْرَةٍ ، فِي وَقْدَةٍ ذَاكَ الْوَطِيسُ
 بئْسَ نَتِيجُ النَّاقَةِ الْعَنْتَرِيسِ^(٢)
 جَرْدَاءُ ، مَا سَأَسِمَهَا بِالْأَرِيسِ^(٥)
 وَزُرْتُ صِفِّينَ^(٣) عَلَى شَطْبَةٍ^(٤)
 مُجَدَّلًا^(٦) بِالسَّيْفِ أَبْطَاهَا
 وَقَازِفًا بِالصَّخْرَةِ الْمُرْمَرِيسِ^(٧)
 وَسِرْتُ قُدَّامَ عَلِيٍّ غَدَا
 وَنَهْرٍ^(٨) حَتَّى فُلَّ غَرْبُ الْخَمِيسِ^(٩)
 صَادَفَ مِنِّي وَاعِظُ تَوْبَةً
 فَكَانَتْ اللَّقْوَةُ^(١٠) عِنْدَ الْقَيْسِ^(١١)
 فَيَعْجَبُ لِمَا سَمِعَهُ مِنْ ذَلِكَ الْجَنِيِّ ، وَيَكْرَهُ الْإِطَالَةَ عِنْدَهُ ، فَيُودِعُهُ

المسلمين في تلك الوقائع كقوله تعالى : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » إلى أن يقول :
 « إذ تقول للمؤمنين : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ؟ بلى :
 إن تصبروا وتيقنوا ، ويأتوكم من فورهم هذا ، يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة
 مسومين » وقوله تعالى في سورة الأنفال « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممددكم
 بألف من الملائكة مسومين » وقوله تعالى في سورة الأحزاب « وجنوداً لم تروها »

(١) يعني أنه شاهد واقعة الجمل (٢) العنتريس : الناقة الغليظة ، ومعنى البيت :
 « وقد شاهدت ذلك الجمل المشؤم الذي سميت باسمه الموقعة ، فلا كان يوم ولدته أمه فيه ،
 فانه شر ما نتجته تلك الناقة العنتريس التي خلفته (٣) موقعة صفين التي كانت بين علي
 ومعاوية (٤) فرس معتدلة القوام (٥) الأريس الاكار أي الحراث ، يعني أن قائدها
 ليس بالغمر الذي لم يمارس أهوال الحروب (٦) رامياً بالسيف أبطاها الى الأرض
 (٧) الملساء أو الشديدة (٨) يعني واقعة النهر (٩) الجليش ، وسمى كذلك لأنه خمس
 فرق . (١٠) أي الناقة اللقوة ، وهي كل ناقة سريعة القبول لماء الفحل (١١) القبيس
 أي الفحل القبيس ، وهو كل فحل سريع الإلتاح ، ومعنى البيت : « إن الوعظ صادف
 استعداداً منه ، وهوى في نفسه ، فانتصح به ، وأقلع عما كان فيه من الضلال والغنى . »

حديث الاسد

وَيَحْمُ^(١) فَإِذَا هُوَ بِأَسَدٍ يَفْتَرِسُ مِنْ صَيْرَانِ^(٢) الْجَنَّةِ وَحَسِيلِهَا^(٣) فَلَا تَكْفِيهِ
مِائَةٌ وَلَا مِائَتَانِ ، فَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ : « لَقَدْ كَانَ الْأَسَدُ يَفْتَرِسُ الشَّاةَ الْعَجْفَاءَ^(٤) »
فَيُتَّقِمُ عَلَيْهَا الْأَيَّامَ ، لَا يَطْعَمُ سِوَاهَا شَيْئًا « فَيَلْهَمُ الْأَسَدُ أَنْ يَتَكَلَّمَ - وَقَدْ
عَرَفَ مَا فِي نَفْسِهِ - فَيَقُولُ : « يَا عَبْدَ اللَّهِ ! أَلَيْسَ أَحَدُكُمْ فِي الْجَنَّةِ تُقَدَّمُ
لَهُ الصَّحْفَةُ^(٥) فَيَأْكُلُ مِنْهَا مِثْلَ عُمَرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَلْتَذُّ بِمَا أَصَابَ ،
فَلَا هُوَ مُكْتَفٍ ، وَلَا هِيَ الْفَانِيَةُ ! وَكَذَلِكَ أَنَا أَفْتَرِسُ مَا شَاءَ اللَّهُ ، فَلَا تَأْذَى
الْفَرِيْسَةُ بِظُفْرِ وَلَا نَابٍ ، وَلَكِنْ تَجِدُ مِنَ اللَّذَّةِ كَمَا أَجِدُ^(٦) بِلُطْفِ
رَبِّهَا الْعَزِيزِ !

أَتَدْرِي مَنْ أَنَا؟ أَنَا أَسَدُ الْقَاصِرَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي طَرِيقِ مِصْرَ ، فَلَمَّا سَافَرَ
عُثْبَةُ بْنُ أَبِي لَهَبٍ يُرِيدُ تِلْكَ الْجَهَةَ ، وَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ - :

(١) يسير «أى ابن القارح» (٢) قطعان بقر الوحش (٣) أولاد البقر، مفردها: حسيلة

(٤) الهزيلة (٥) القصعة الكبيرة المنبسطة (٦) انظر الى هذا الاستدراك الجميل ،

وتأمل كيف احتاط أبو العلاء بهذه الإشارة الدقيقة ، فهو لم يفته أن ينبه الى سرور الحيوان
في الدار الآخرة ، والتذاذه بما كان يألم له من الذبح والقتل في الدار الأولى . وبهذه الإشارة
لم يتناقض أبو العلاء مع نفسه في تحريم ذبح الحيوان الذى يرى له مثل ما يرى للإنسان من
الحق في الحياة والتمتع بها ، وقد دارت بين أبي العلاء المعرى وداعى الدعاة في مصر رسائل
في أمر تحريم الحيوان ، فانتصر أبو العلاء لهذه الفكرة ، وأيدها بالحجج والأدلة القوية ، ورد
داعى الدعاة عليه « ارجع إلى كتابنا : صور جديدة من الأدب العربى »

« اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبًا مِنْ كِلَابِكَ » أَلْهِمْتُ أَنْ أَتَجَوَّعَ لَهُ أَيَّامًا ، وَجِئْتُ
وَهُوَ نَائِمٌ بَيْنَ الرَّقُقَةِ ، فَتَخَلَّتْ ^(١) بَيْنَ الْجَمَاعَةِ إِلَيْهِ
وَأَدْخَلْتُ الْجَنَّةَ بِمَا فَعَلْتُ .

حديث الخطيئة ^(٢)

..... فَيَذْهَبُ ، فَإِذَا هُوَ بَيْتٌ فِي أَقْصَى الْجَنَّةِ ، كَأَنَّهُ

(١) دخلت بينهم ، أو خلال دارهم

(٢) الخطيئة

توفى سنة ٥٩ هـ

شاعر جاهلي إسلامي ، اسمه « جرول بن أوس » ، وكنيته « أبو مليكة » ولقبه « الخطيئة »
لقب بذلك لقصره وقربه من الأرض ، وهو ينسب نفسه الى قبيلة بني عبس التي ولد فيها .
اشتهر بالعناد والنزوع إلى الشر ، وقد وصفه الأصمعي بأنه : « كان سيء الخلق ، دنىء النفس ،
فاسد الدين ، سؤولا ملحفاً جشعاً ، كثير الشر ، قليل الخير ، بخيلاً دميماً قصيراً ، رث الهيئة ،
متدافع النسب في القبائل »

وقد هجا أبا بكر - فيمن هجاه - فقال :

أطعنا رسول الله إذ كان حاضراً فيا لهفتا ! ما بال دين أبي بكر ؟
أبورثها بكراً - إذا مات بعده - وتلك - وبيت الله - قاصمة الظهر !

دفعه طبعه الشرير إلى هجاء أقرب الناس إليه ، فهجأ عمه وخاله ، بل أمه وأباه ، بل
هجأ نفسه أيضاً ، فقال في هجاء أبيه وعمه وخاله :

لحاك الله ، ثم لحاك حقاً أبا ، ولحاك من عم وخال
فنعم الشيخ أنت - لدى الخازي - وبئس الشيخ أنت - لدى المعالي
جمعت اللؤم - لاحياك ربي - وأسباب السفاهة والضلال

حَفْشٌ^(١) أُمَّةٌ رَاعِيَةٌ، وَفِيهِ رَجُلٌ لَيْسَ عَلَيْهِ نُورٌ سَكَّانِ الْجَنَّةِ، وَعِنْدَهُ شَجَرَةٌ قَيْئَةٌ^(٢)، ثَمَرُهَا لَيْسَ بِزَاكٍ^(٣)

فَيَقُولُ: « يَا عَبْدَ اللَّهِ! لَقَدْ رَضَيْتَ بِحَقِيرٍ »

فَيَقُولُ: « وَاللَّهِ مَا وَصَلْتُ إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ هَيَاطٍ وَمِيَاطٍ^(٤) وَعَرَقٍ مِنْ شَقَاءٍ، وَشَفَاعَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وَدِدْتُ أَنَّهُمْ لَمْ تَكُنْ! »

وقال في هجاء أمه :

تمحى ، واقعدى منى بعيداً أراح الله منك العالمينا
ألم أظهر لك البغضاء منى ؟ ولكن لا إخالك تعقلينا
أغر بالآ - اذا استودعت سرا ؟ وكانونا على المتحدثينا
جزاك الله شرا من عجز ولقائك العقوق من البنينا
حياتك - ما علمت - حياة سوء وموتك قد يسر الصالحينا !

وقال في هجاء نفسه - ولعله أصدق ما قال - :

أبت شفتاي - اليوم - إلا تكلمنا بسوء ، فما أدري لمن أنا قائله
أرى لى وجهها قبح الله خلقه فقبح من وجهه ، وقبح حامله
وقوله - وهو من أروع الشعر وأحسنه - :

يسوسون أحلاماً - بعيداً أناتها وإن غضبوا - جاء الحفيظة والجد
أقلوا عليهم - لا أبا لأبيكم - من اللوم ، أوسدوا المكان الذى سدوا
أولئك قوم - إن بنوا - أحسنوا البناء ، وإن عاهدوا - أوفوا ، وإن عقدوا شدوا
وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها ، وإن أتعموا لا كدروها ولا كدوا
مطاعين فى الهيجا ، مكاشيف للذحى ، بنى لهم آبؤهم ، وبنى الجد
ويعذلنى أبناء سعد عليهم وما قلت إلا بالذى علمت سعد

(١) بيت صغير جداً (٢) صغيرة حقيرة (٣) ليس نامياً (٤) هياط ومياط :

فَيَقُولُ : « مَنْ أَنْتَ ؟ » فَيَقُولُ : « أَنَا الْخَطِيئَةُ الْعَبْسِيُّ » فَيَقُولُ : « بِمِ
وَصَلْتَ إِلَى الشَّفَاعَةِ ؟ » فَيَقُولُ : « بِالصِّدْقِ » فَيَقُولُ : « فِي أَيِّ شَيْءٍ ؟ »
فَيَقُولُ : « فِي قَوْلِي :

أَبَتْ شَفَتَايَ الْيَوْمَ إِلَّا تَكَلَّمًا بِهِجْرٍ^(١) ، فَلَا أَدْرِي لِمَنْ أَنَا قَائِلُهُ ؟
أَرَى لِي وَجْهًا قَبَّحَ اللَّهُ خَلْقَهُ فَقَبَّحَ مِنْ وَجْهِهِ ، وَقَبَّحَ حَامِلُهُ
فَيَقُولُ : « مَا بَالُ قَوْلِكَ :

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ^(٢) بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ
لَمْ يُفْقِرْ لَكَ بِهِ ؟ » فَيَقُولُ : « سَبَقَنِي إِلَى مَعْنَاهُ الصَّالِحُونَ ، وَنَظَّمْتُهُ وَلَمْ
أَعْمَلْ بِهِ ، فَحَرَمْتُ الْأَجْرَ عَلَيْهِ » فَيَقُولُ : « مَا شَأْنُ الزَّبْرَقَانِ بْنِ بَدْرِ^(٣) ؟ »

اضطراب ، ومجىء وذهاب ، ودفع وزجر . وأصل الهياط : أشد السوق في الورد ، والمياط :
أشد السوق في الصدر

(١) يروى : بسوء ، والهجر : فحش من القول وقبيح من الكلام (٢) العرف :
المعروف ، وهذا البيت من قصيدته التي هجا بها الزبرقان بن بدر ، واستمر بك بعد أسطر

(٣) الزبرقان بن بدر

أحد أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعامل عمر بن الخطاب ، وقد أحسن إلى
الخطيئة وأكرم جواره ، فلم يحل ذلك دون هجاء الخطيئة إياه وممالة خصمه « بغيض بن
عامر » عليه ، فمدح بنى أنف الناقة وهجا الزبرقان بن بدر ، فشكاه إلى عمر^(١) بن الخطاب
فحبسه ، ثم استعطفه بشعره فأطلقه بعد أن حذر عليه الهجاء والخوض في أعراض الناس .

(١) - كان عمر بن الخطاب يسمع شكوى الناس من الشعراء إذا هجوه ، ويعني بذلك عنايته
بالمهم من الخصومات والقضايا . ويضاف إلى هذا المثال الذي بين أيدينا قصته مع تميم بن أبي والنجاشي
(انظر ص ٦٦ من هذا الجزء) .

فَيَقُولُ الْخَطِيئَةُ: « هُوَ رَيْسٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، انْتَفَعَ بِهَجَابِي ، وَلَمْ يَنْتَفِعْ
غَيْرُهُ بِعَدِيحِي ! »

ولما لم يكن له مورد رزق من غير هذا الباب ، وقع له « عمر » بثلاثة آلاف درهم ، فكف
عن الهجاء ، حتى مات عمر ، فعاد يهجو من يشاء . ومما قاله في الزبرقان بن بدر :
والله ما معشر لاموا امرأ جنباً في آل لأى بن شماس ، بأ كياس
ما كان ذنب بغيض - لا أبالكم - في بأس جاء يحدو آخر الناس
وقد مدحتكم عمداً لأرشدكم كيف يكون لكم متحى وأمراسى
لما بدا لى منكم عيب أنفسكم ولم يكن لجراحي فيكمم آسى
أزمت يأساً متينا من نوالكم ولن يرى طاردا للحر كالياس
جار لقوم أطلوا هون منزله وغادروه مقبياً بين أرماس
ملوا قراه وهوته كلابهم وجرحوه بأنياب وأضراس
دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى
من يفعل الخير لا يعلم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

لفضل الخامس

الجحيم

حديث الخنساء

... وَيَمَضِي ، فَإِذَا هُوَ بِامْرَأَةٍ فِي أَقْصَى الْجَنَّةِ ، قَرِيبَةً مِنَ الْمُطَّلَعِ إِلَى النَّارِ ،
فَيَقُولُ : « مَنْ أَنْتِ ؟ » فَتَقُولُ : « أَنَا الْخُنَسَاءُ السَّامِيَّةُ ^(١) ، أَحْبَبْتُ أَنْ أَنْظَرَ

(١) الخنساء

توفيت سنة ٢٤ هـ

اسمها تماضر ، واسم أبيها عمرو بن الشريد ، ولقبها الغالب عليها هو « الخنساء » والخنساء
- الظبية - وهي من بني سليم من مضر ، وقد اشتهرت بما قالته في رثاء أخويها « معاوية وصخر »
وفدت في قومها على النبي فأسلمت ، وأنشدته شعرها فأعجب به ، واستزادها . وحكايتها
مع النابغة الذبياني حين فضلها على حسان مشهورة لا داعي إلى ذكرها
ومما يحكونه عنها أن دريد بن الصمة خطبها إلى أبيها فرحب به ، وسأله أن يترث رثما
يسأل الخنساء عن رأيها في زواجها ، لأن لها في نفسها ما ليس غيرها . ثم دخل إليها وقال لها :
« يا خنساء ! أتاك فارس هوازن وسيد بني جشم - دريد بن الصمة - يخطبك ، وهو
من تعلمين » فقالت (ودريد يسمع قولها) :

« يا أبت ! أتراني تاركة بني عمي مثل عوالى الرماح ، وناحكة شيخ بني جشم هامة اليوم
أو غدا ؟ ! » ثم أنشأت تقول :

أخطبني - هبت - على دريد وقد طردت سيد آل بدر
معاذ الله ينكحني حبرك يقال : « أبوه من جشم بن بكر »
ولو أمسيت في جشم هدياً لقد أمسيت في دنس وفقر

إلى صَخْرٍ . فَاطَّلَعْتُ ، فَرَأَيْتُهُ كَأَجْبَلِ الشَّامِيخِ ، وَالنَّارُ تَضْطَرِمُ فِي رَأْسِهِ ،
فَقَالَ : « لَقَدْ صَحَّ مَزْعَمِكَ فِيَّ » يَعْنِي قَوْلِي :
وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتُمُّ الْهُدَاةَ بِهِ كَأَنَّهُ عِلْمٌ (١) فِي رَأْسِهِ نَارٌ (٢) «

قالوا : فخرج إليه أبوها فقال : « يا أبا قرّة ، قد امتنعت - ولعلها أن تجيب فيما بعد »
فقال دريد : « قد سمعت قولكما » وانصرف غضبان ، وقال يهجو الخنساء من قصيدة
نجتري منها بقوله :

« وراك الله يا ابنة آل عمرو من الأزواج أشباهي ونفسي
فلا تلدى ؛ ولا ينكحك مثلي إذا ما ليلة طرقت بنحس
وتزعم أنني شيخ كبير ، وهل خبرتها أئى ابن أمس ؟
تريد شرتبث (١) القدمين شتنا يياشر بالعشية كل كرس (٢)
وما قصرت يدي عن عظم أمر أهم به ، ولا سهى بنكس
وما أنا بالمرجى - حين يسمو عظيم في الأمور - ولا بوهس
ومن مختار شعر الخنساء قولها :

إن الزمان - وما يفنى له عجب - أبقى لنا ذنباً واستوصل الراس
إن الجليدين - في طول اختلافهما - لا يفسدان ، ولكن يفسد الناس
وقولها في رثاء « صخر » أخيها :

ألا يا صخر ! - إن أبكيت عيني فقد أضحكنتي زمناً طويلاً
دفعت بك الخطوب - وأنت حي - فمن ذا يدفع الخطب الجليلاً
إذا قبح البكاء على قتيل رأيت بكاءك الحسن الجميلاً

(١) جبل شامخ (٢) انظر إلى ما يحويه هذا التهكم من الدعابة ودقة التصوير ، فقد
أراد أبو العلاء أن يطلعك على رأيه في نقد هذا البيت ، فلجأ إلى تمثيل هذه الصورة البديعة
لترى منها رأيه مجسماً واضحاً .

حديث إبليس

فَيَطَّلِعُ ، فَيَرَى إبليسَ - لَعْنَهُ اللهُ - وَهُوَ يَضْطَرِبُ فِي الْأَغْلَالِ
وَالسَّلَاسِلِ ، وَمَقَامِعِ^(١) الْحَدِيدِ تَأْخُذُهُ مِنْ أَيْدِي الزَّبَانِمَةِ ! فَيَقُولُ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ

وهذا البيت من قصيدة جميلة للخنساء رثت بها أباها وقد غنى ابن سريج ببعض أبياتها ،
والقصيدة من أجمل شعر الخنساء ، وأولها :

قذى بعينك ! أم بالعين عوار
أم ذرفت - إذ خلت من أهلها الدار ؟
وفيها تقول

تبكى «خناس» فما تنفك - ما عمرت -
تبكى «خناس» على «صخر» وحق لها
لا بد من ميتة ، في صرفها عبر ،
إلى أن تقول :

لقد نعى « ابن نهيك » لى أختة
فبت ساهرة للنجم أرقبه
كانت ترجم عنه - قبل - أخبار
حتى أتى - دون غور النجم - أستاذ
ثم تقول :

قد كان خالصتى من كل ذى نسب
وتختمها بقولها :

ليبكه مقتر - أفنى حريته
ورقعة - حار حادهم بمهلكة -
لا يمنع القوم - إن سالوه خلعتيه
ولا يجاوزه - بالكيل - مرار

(١) مفردها : مقمعة - وهى عمود من الحديد كالمخجن يضرب به رأس الفيل ، أو

خشب يضرب بها الإنسان ليندل . والأول المراد هنا .

الَّذِي أَمَكَّنَ مِنْكَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّ أَوْلِيَائِهِ ، لَقَدْ أَهْلَكْتَ مِنْ بَنِي آدَمَ
طَوَائِفَ لَا يَعْلَمُ عَدَدَهَا إِلَّا اللَّهُ ! »

فَيَقُولُ : « مَنْ الرَّجُلُ ؟ »

فَيَقُولُ : « أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ، مِنْ أَهْلِ حَلَبَ ، كَانَتْ صِنَاعَتِي الْأَدَبَ ،
أَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى الْمُلُوكِ »

فَيَقُولُ : « بِئْسَ الصَّنَاعَةُ ! إِنَّهَا تَهَبُ غَفَّةً^(١) مِنَ الْعَيْشِ لَا يَتَسَعُّ بِهَا
الْعِيَالُ ، وَإِنَّهَا لَمَزَلَّةُ الْقَدَمِ ، وَكَمْ أَهْلَكْتَ مِثْلَكَ ، فَهَيِّئْ لَكَ إِذْ نَجَوْتَ ،
وَإِنِّي لِي إِلَيْكَ لِحَاجَةٌ فَإِنْ قَضَيْتَهَا شَكَرْتُكَ يَدَ الْمُنُونِ^(٢) »

فَيَقُولُ : « إِنِّي لَا أَقْدِرُ لَكَ عَلَى نَفْعٍ ، فَإِنَّ الْآيَةَ سَبَقَتْ فِي أَهْلِ النَّارِ ،
أَعْنِي قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ
الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ، قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ »

فَيَقُولُ : « إِنِّي لَا أَسْأَلُكَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ أَسْأَلُكَ عَنْ خَبَرِ
ثُخْبَرِيهِ : إِنَّ الْحَمْرَ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَأَحَلَّتْ لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ ،
فَهَلْ يَفْعَلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ بِالْوُلْدَانِ الْمُحَلِّدِينَ فِعْلَ أَهْلِ الْقَرِيَّاتِ^(٣) ؟ »

فَيَقُولُ : « عَلَيْكَ الْبَهْلَةُ^(٤) ، أَمَا شَعَلْتَ مَا أَنْتَ فِيهِ ؟ أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى :
« وَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » ؟

فَيَقُولُ : « وَإِنَّ فِي الْجَنَّةِ لِأَشْرِبَةً كَثِيرَةً غَيْرَ الْحَمْرِ ، فَمَا فَعَلَ بَشَارُ بْنُ بُرْدٍ ،

(١) بُلْغَةٌ (٢) دَائِمًا أَبَدًا (٣) المراد بأهل القرية قوم لوط ، قال الله تعالى في
سورة الأنبياء : « وَنَجِّنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ » وكذلك جاء في العنكبوت
والأعراف والنمل ذكر القرية وأهلها في الحديث عن قوم لوط (٤) اللعنة

فَإِنَّ لَهُ عِنْدِي يَدًا^(١) لَيْسَتْ لِغَيْرِهِ مِنْ وَلَدِ آدَمَ ، كَانَ يُفَضِّلُنِي دُونَ الشُّعْرَاءِ ،
وَهُوَ الْقَائِلُ :

إِبْلِيسُ أَفْضَلُ مِنْ أَيْكُمُ آدَمَ قَتَبَيْنَا يَا مَعْشَرَ الْأَشْرَارِ
النَّارُ عُنُصْرُهُ^(٢) ، وَآدَمُ طِينَةٌ ، وَالطِّينُ لَا يَسْمُو سُمُو النَّارِ
لَقَدْ قَالَ الْحَقُّ ، وَلَمْ يَزَلْ قَائِلُهُ مِنَ الْمُقْوَتِينَ ! «

حديثه مع بشار^(٣)

... . فَلَا يَسْكُتُ مِنْ كَلَامِهِ ، إِلَّا وَرَجُلٌ فِي أَصْنَافِ الْعَذَابِ ،

(١) جميلاً ومعروفاً (٢) أصله

(٣) بشار بن برد : توفي سنة ١٦٧ هـ ، وعمره نحو ثمانين سنة

اسمه بشار ، واسم أبيه برد ، وأصله فارسي . نشأ بالبصرة ، وكان ضخماً الجثة طویل
العنق ، مجدور الوجه ، ولد أكنه ؛ جاحظ الحدقتين ، يغشاها لحم أحمر
ينبع في أوائل العصر العباسي الأول ، وقال الشعر في العاشرة من عمره . قيل أنه نظم نحو
١٢٠٠٠ قصيدة لم يبق منها الآن إلا نتف متفرقة

لقى شعره بالبصرة رواجاً مدهشاً في أيامه ، فرواه كل غزل وغزلة ، وتكسبت به كل
نأحة ومغنية ، وكان بشار هجاءً مقدعاً فهابه كل ذي شرف يخشى ثلمه .

وكان منحاذاً للعوليين وقت قيام الدولة العباسية ، وحرص على الفتك بالمنصور ، فلما
انتصر المنصور ، انحاز إليه بشار وتلقاه ، ثم انتقل إلى بغداد ، ومدح العباسيين ، وعاصر
المهدي ، ومدح خالد البرمكي

وكانت عقيدته الدينية مزعزعة ، ويمكن عده من الفلاسفة الخائرين ، وكان يدين بالجبر ،
ومن أبدع ما قاله في ذلك :

طُبِعْتُ عَلَى مَا فِي غَيْرِ مَخْيَرٍ هَوَايَ ، وَلَوْ خَيْرتُ كُنْتُ الْمَهْدَبَا
أُرِيدُ فَلَا أُعْطَى ، وَأُعْطَى وَلَمْ أُرْدُ وَقَصْرَ عَلِيٍّ أَنْ أَنْالَ الْمَغْيَبَا

يُعْمِضُ عَيْنَيْهِ حَتَّى لَا يَنْظُرَ إِلَى مَا نَزَلَ بِهِ مِنَ النَّقَمِ ، فَيَفْتَحُهُمَا الزَّبَانِيَةَ

فأصرف عن قصدي وعلى مقصر وأمسى وما أعقت إلا التعجبا !
وقد هجا يعقوب بن داود - وزير المهدي - حين أعرض عنه ولم يأبه لمديحه -
بيتيه المشهورين :

بنى أمية ! هبوا ؛ طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود . . .
ضاعت خلافتكم يا قوم ، فالتسوا خليفة الله بين الزق والعود !
فأمر المهدي بقتله ضربا حتى مات ، ولم يخرج في دفنه أحد خوفاً من غضب الخليفة ،
ومن أبدع شعره قوله :

وحارب إذا لم تعط إلا ظلامة شبا الحرب خير من قبول المظالم
وقوله في القصيدة عينها :

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فان الخوافي قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغل أختها وما خير سيف لم يؤيد بقائم ؟
وقوله من قصيدة أخرى :

خليلى ! إن العسر سوف يفيق وإن يسارا فى غد خليق
وما كنت إلا كالزمان - إذا صحا صحوت ، وإن ماق الزمان أموق (١)
لقد كنت لا أرضى بأذنى معيشة ولا يشتكى بخلا على رفيق
خليلى ! إن المال ليس بنافع إذا لم ينل منه أخ وصدىق
وكنت إذا ضاقت على محلة تيممت أخرى - ما على مضيق
وما خاب - بين الله والناس - عامل له فى التقى أو فى الحماد ، سوق
ولا ضاق فضل الله عن متعفف ولكن أخلاق الرجال تضيق

ومن لطيف دعاياته - وقد أخطأ بعض مشايخ الأدب المعاصرين فى حسابان ذلك من سخافات - قوله :

« خليدة » ربة البيت تصب الخلل فى الزيت

(١) اللوق : الحق والغفلة

بِكَلاَ لَيْبٍ^(١) مِنْ نَارٍ ، وَإِذَا هُوَ بِبِشَارِ بْنِ بُرْدٍ قَدْ أُعْطِيَ عَيْنَيْنِ لِيَنْظُرَ بِهِمَا
بَعْدَ الْكَمَةِ^(٢) لِيَنْظُرَ إِلَى مَا نَزَلَ بِهِ مِنَ النَّكَالِ

فَيَقُولُ لَهُ : « يَا أَبَا مُعَاذٍ^(٣) لَقَدْ أَحْسَنْتَ فِي مَقَالِكَ ، وَأَسَأْتَ فِي مُعْتَقِدِكَ ،
وَلَقَدْ كُنْتُ فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ أَذْكَرُ بَعْضَ قَوْلِكَ ، فَأَتَرَحَّمُ عَلَيْكَ ، ظَنَّ أَنَّ
التَّوْبَةَ سَتَحَقِّقُكَ ، مِثْلَ قَوْلِكَ :

ارْجِعْ إِلَى سَكْنِ تَعِيشِ بِهِ ذَهَبَ الزَّمَانُ وَأَنْتَ مُنْفَرِدُ
تَرْجُو غَدًا ، وَغَدًا كَحَامِلَةٍ^(٤) فِي الْحَيِّ ، لَا يَدْرُونَ مَا تَلِدُ^(٥)
وَقَوْلِكَ :

الْحُرُّ يُلْحَى^(٦) وَالْعَصَا لِلْعَبْدِ وَلَيْسَ لِلْمُلْحِفِ^(٧) مِثْلَ الرِّدِّ
وَقَلْتُ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ : « السُّبْدِ » فِي بَعْضِ قَوَافِيهَا ، فَإِنْ كُنْتَ أَرَدْتَ جَمْعَ
سُبْدٍ ، وَهُوَ طَائِرٌ ، فَإِنْ « فَعَلًا » لَا يَجْمَعُ عَلَى ذَلِكَ ، وَإِنْ كُنْتَ سَكَنْتَ الْبَاءَ ،
فَقَدْ أَسَأْتَ ، لِأَنَّ تَسْكِينَ الْفَتْحَةِ غَيْرُ مَعْرُوفٍ .

فَيَقُولُ بِشَارٌ : « يَا هَذَا ! دَعْنِي مِنْ أَبْطِيلِكَ ، فَأَيُّي لِمَسْغُولٍ عَنْكَ ! »

لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت !

(١) جمع كلاب : وهو خشبة في رأسها عقافة من حديد . (٢) الكه : الععى .
وانظر إلى هذا التهمك اللاذع الذي تحويه هذه الجملة ، ففي الدار الأولى حيث البصر من أكبر
النعم وألزمها للإنسان يحرم بشار إياه ، ثم يُعطاه في الدار الآخرة ليرى عذابه ونكاله ،
فيغمض عينيه حتى لا يرى ما هو فيه من الهول !

وقد أشار أبو العلاء إلى حرمان بشار نعمة البصر ، فقال في لزومياته :

والحظ يقسم ، عاش بشر ما اشتكى بصراً ، ومُحَرَّمٌ أكمهاً بشار

(٣) كنية بشار (٤) كحيلي (٥) أي أن غداً مجهول ، لا يعرف ما يُجنيه من الأحداث

والتصاريف (٦) يلام (٧) المُلْحِف

حديثه مع امرىء القيس^(١)

وَيَسْأَلُ عَنِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ، فَيَقُولُ: « يَا أَبَا هِنْدٍ^(٢) أَخْبِرْنِي عَنِ التَّسْمِيْطِ^(٣) الْمَنْسُوبِ إِلَيْكَ، أَصَحِّحُ هُوَ عَنكَ؟ »
وَيُنْشِدُهُ الَّذِي يَرَوِيهِ بَعْضُ النَّاسِ:

(١) مرت ترجمته (في ص ٩٦ من هذا الجزء) ومر حديث عنه (في صفحتي ٥ و ٦ من هذا الجزء أيضاً) وقد ذكره المعري في لزومياته أكثر من مرة، فمن ذلك قوله:

أين امرؤ القيس والعداري إذ مال من تحته الغبيط
له كميّتان — ذات كاس تزد ، والساج الربيط
يباكر الصيد بالمذاكي فيأنس الموحش الهبيط
استنبط العرب في المواي بعدك ، واستعرب النبيط

وقوله:

مضى « الواقف الكندي » والسقط غابر وصاحت ديار الحى : « أين لميد؟ »
تولى ابن حجر — لا يعود لشأنه — وطالت ليال ، والمعالم بيد
وإنما سماه « بالواقف » لوقفته المشهورة بسقط اللوى — إذ يقول في أول معلقته الساحرة:
« قفانك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فومل »
ففي هذا البيت — كما يقول علماء الأدب — وقف واستوقف ، وبكى واستبكى .

(٢) كنية امرىء القيس

(٣) التسميط ضرب من الشعر ينظم مسطاً — مقسماً على أجزاء عروضية مقفاة على غير روى القافية — وقد نحلوا امرأ القيس تسميطاً آخر ذكرناه في كتابنا « نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي » (في ص ٢٥٠) — وذكرنا أنه بين البعد عن الأسلوب الجاهلي، وأوله:
توهمت من همد معالم أطلال عفاهن طول الدهر في الزمن الخالي

يَا قَوْمَ إِنَّ الْهَوَىٰ إِذَا أَصَابَ الْفَتَىٰ
فِي الْقَلْبِ ثُمَّ ارْتَقَىٰ فَهَدَّ بَعْضَ الْقَوَىٰ
فَقَدَّ هَوَى الرَّجُلُ

فَيَقُولُ : « وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ هَذَا قَطُّ ، وَإِنَّهُ لَقَرِيٌّ لَمْ أَسْلُكْهُ ، وَإِنَّ
الْكَذِبَ لَكَثِيرٌ ، وَأَحْسَبُ هَذَا لِبَعْضِ شُعْرَاءِ الْإِسْلَامِ ، وَلَقَدْ ظَلَمَنِي
وَأَسَاءَ إِلَيَّ ، أَبْعَدَ كَلِمَتِي الَّتِي أَوْلَاهَا :
أَلَا عِمَّ صَبَاحًا^(١) أَيُّهَا الطَّلُّ الْبَالِي وَهَلْ يَعْمَنُ مَنْ كَانَ فِي الْعُصْرِ الْخَالِي
وَقَوْلِي :

خَلِيلِي مَرًّا بِي عَلَىٰ أُمَّ جُنْدَبٍ لِأَفْضَىٰ حَاجَاتِ الْفَوَادِ الْمُعَذَّبِ^(٢)
يُقَالُ لِي مِثْلُ ذَلِكَ ؟ وَالرَّجْزُ مِنْ أَوْعَفِ الشَّعْرِ^(٣) ، وَهَذَا الْوِزْنُ مِنْ أَوْعَفِ
الرَّجْزِ ! « فَيَعْجَبُ لِمَا سَمِعَهُ مِنْ أَمْرِ الْقَيْسِ

مربع من هند خلت ومصائف يصيح بمغناها صدى وعواضف
وغيرها هوج الرياح العواضف وكل مسف ، ثم آخر رادف
بأسحم من نوء السماكين هطال

(١) ليكن صباحك ناعما (٢) ارجع الى ص ٥ و ٦ من هذا الجزء (٣) هذا هو
رأى أبي العلاء في الرجز ، وسيمر بك في هذه الرسالة ما يمنعك بتحماله الشديد على الرجز ،
وافتنانه في احتقارهم وتنقصهم ، وسننبه على ذلك في موضعه ، ونجتزئ هنا الآن ببعض
أبيات من لزومياته تستشف منها رأيه في الرجز والرجاز ، بصراحة لا تدع مجالاً للشك ،
وهي قوله :

قَصَّرْتُ أَنْ تَدْرِكَ الْعُلَيَاءَ فِي شَرَفِ
إِنِ الْقِصَائِدَ لَمْ يَلْحَقْ بِهَا الرَّجْزُ

حديثه مع عنتره^(١)

وَيَنْظُرُ ، فَإِذَا عَنَتْرَةٌ

وقوله :

ولم أرق في درجات الكريم وهل يبلغ الشاعر الراجز ؟

وقوله :

عجزت عن الكسب الذي يجلب الغنى وما أنت عن كسب الدنيا بها جز !
ومن لم ينل في القول رتبة شاعر تمنع في نظم برتبة راجز !

(١) عنتره العبسي

توفي سنة ٦١٥ م

أبوه عمرو بن شداد العبسي ، وأمه زبيدة الحبشية ، كان « عنتره » يرعى الابل والخيل ، ولكنه لم يلبث أن اشتهر بفروسيته ، وذات مرة أغار بعض العرب على عبس ، واستاقوا إبلهم ، ولحقهم بنو عبس وفيهم عنتره ، فقال أبوه : « كَرَّ يا عنتره » فقال : « العبد لا يحسن الكر ، إنما يحسن الحلاب والصَّر » (أى شد ضرع الناقة) فقال : « كر ، وأنت حر ! » فتفانى في القتال ، حتى هزم القوم ، ونصر قبيلته

سئل يوما : « أنت أشجع العرب وأشدّها ؟ » فقال : « لا ! » قيل : « فبماذا شاع لك هذا في الناس ؟ » قال : « كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزما ، وأحجم إذا رأيت الإحجام حزما ، ولا أدخل موضعاً لا أرى لى منه مخرجا ، وكنت أعتد الضعيف الجبان فأضربه الضربة القوية يطير لها قلب الشجاع فأنتى عليه فأقتله ! » ومن خير أبياته قوله :

بَكَرْتُ تخوفنى الختوف ؛ كأننى أصبحت عن غرض الختوف بمعزل !
فأجبتها : إن المنية منهل لا بد أن أسقى بذاك المنهل
فأقتى حياك - لا أبالك - واعلمى أنى امرؤ سأموت - إن لم أقتل
إن المنية لو تمثل مثلت مثلى إذا نزلوا بضعك المنزل

مُتَلَدِّدٌ^(١) فِي السَّعِيرِ ، فَيَقُولُ : « مَا لَكَ يَا أَخَا عَبَسٍ ! كَأَنَّكَ لَمْ تَنْطِقْ بِقَوْلِكَ :
وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ الْمُدَامَةِ بَعْدَ مَا رَكَدَ الْهَوَاجِرُ بِالْمَشُوفِ الْمَعْلَمِ
بِرُجَابَةِ صَفْرَاءَ ذَاتِ أُسْرَةٍ قُرِنْتَ بِأَزْهَرَ فِي الشَّمَالِ مُقَدِّمٌ^(٢)
وَإِنِّي إِذَا ذَكَرْتُ قَوْلَكَ : « هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمٍ^(٣) » لَأَقُولُ :
« إِنَّمَا قِيلَ ذَلِكَ وَدِيَوَانُ الشُّعْرِ قَلِيلٌ مُحْفُوظٌ ، فَأَمَّا الْآنَ فَلَوْ سَمِعْتَ مَا قِيلَ
بَعْدَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ - لَعَتَبْتَ نَفْسَكَ عَلَى مَا قُلْتَ ، وَعَلِمْتَ
أَنَّ الْأَمْرَ كَمَا قَالَ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ^(٤) :

وقوله :

وَإِذَا شَرِبْتَ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ مَالِي ، وَعَرْضِي وَافِرٌ لَمْ يَكْمِ
وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أَقْصَرَ عَنِ نَدَى وَكَمَا عَلِمْتَ شِمَائِلِي وَتَكْرَمِي

وقوله :

وَلَقَدْ خَشِيتُ بَأْنَ أَمُوتَ وَلَمْ تَدْرِ لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنِي ضَمُضِمْ
السَّائِمِيُّ عَرْضِي وَلَمْ أَشْتَمِهُمَا وَالنَّاذِرِينَ - إِذَا لَمْ أَلْقِهُمَا - دَمِي

وقوله :

كَيْفَ الْمَزَارِ وَقَدْ تَرَبَّعَ أَهْلُهَا بَعْنِيزَتَيْنِ وَأَهْلُنَا بِالْعَيْلَمِ

(١) متحير أو متبلد ، يتلفت يمينا وشمالا ، وهو مأخوذ من صفحتي عنقه

(٢) ارجع إلى تفسيرهما في ص « ٥٣ » من هذا الجزء (٣) المتردم : الموضع يُسْتَرَقَعُ

وَيُسْتَصْلَحُ لَمَّا اعْتَرَاهُ مِنَ الْوَهْنِ وَالْوَهْيِ ، أَيْ لَمْ يَتْرِكِ الشُّعْرَاءَ لِي مَعْنَى جَدِيداً أَقُولُهُ بَعْدَهُمْ

(٤) حبيب بن أوس « أبو تمام » (١٨٨ - ٥٢٣هـ)

ولد بقرية «جاسم» من أعمال دمشق ، ثم انتقل مع أبيه إلى دمشق ، وكان أبوه يحترف الحياكة ، ولما ترعرع أبو تمام ذهب إلى مصر فكان يسقي الماء بجامع عمرو ، ثم نبغ في الشعر فغادر مصر متكبساً بشعره ، فأقبل عليه الأدباء ، ووصله ممدوحوه .

فَلَوْ كَانَ يَفْتَى الشَّعْرُ أَفْنَاهُ مَا قَرَّتْ^(١) حِيَاضُكَ مِنْهُ فِي الْعُصُورِ الذَّوَاهِبِ
وَلَكِنَّهُ صَوَّبُ^(٢) الْعُقُولِ، إِذَا انْجَلَّتْ سَحَابٌ مِنْهُ أُعْقِبَتْ بِسَحَابِ

فَيَقُولُ : « وَمَا حَبِيبُكُمْ هَذَا ؟ » فَيَقُولُ : « شَاعِرٌ ظَهَرَ فِي الْإِسْلَامِ »
وَيُنْشِدُهُ شَيْئًا مِنْ نَظْمِهِ ، فَيَقُولُ : « أَمَّا الْأَصْلُ فَعَرَبِيٌّ ، وَأَمَّا الْفَرْعُ فَنَطَقَ
بِهِ غَيْبٌ ، وَلَيْسَ هَذَا الْمَذْهَبُ عَلَى مَا تَعْرِفُ قِبَائِلُ الْعَرَبِ . » فَيَقُولُ
— وَهُوَ صَاحِبُ مُسْتَبَشِرٍ — : « إِنَّمَا يُنْكَرُ عَلَيْهِ الْمُسْتَعَارُ — وَقَدْ جَاءَتْ
الْعَارِيَّةُ فِي أَشْعَارِ كَثِيرَةٍ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ ، إِلَّا أَنَّهَا لَا تَجْتَمِعُ كاجْتِمَاعِهَا فِيمَا نَظَّمَهُ
حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ^(٣) »

وَلَقَدْ شَقَّ عَلَى دُخُولِ مِثْلِكَ إِلَى الْجَحِيمِ ، وَكَانَ أَذْنِي مُصْغِيَةً إِلَى قَيْنَاتِ^(٤)
الْفُسْطَاطِ وَهِيَ تَعْرُدُ بِقَوْلِكَ :
أَمِنْ سُمِيَّةَ^(٥) دَمْعُ الْعَيْنِ تَذْرِيفٌ لَوْ أَنَّ ذَامِنَكَ قَبْلَ الْيَوْمِ — مَعْرُوفٌ^(٦)

ولما اتصل بأحمد بن المعتصم ومدحه بشعره أجازته بولاية الموصل ، فوليها عامين ، ثم مات .
وسيمر بك طرف من أخباره في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

(١) ما جمعته (٢) مطر (٣) هذا هو رأى أبي العلاء في شعر أبي تمام ، وقد ذكره
في لزومياته فقال :

وجدت عواري الحياة كثيرة كأن بقاء المرء شعر « حبيب » !

(٤) مغنيات (٥) « سمية » هي امرأة أبيه — وكان يحبها — فخرضت عليه أباه ذات
يوم ، وادعت أن عنتره راودها عن نفسها ، فغضب عليه غضباً شديداً ، وأخذ يضربه ضرباً
مبرحاً ، فلما رأت ذلك رق له قلبها ، فارتمت عليه تجلله وتحميه ، وبكت لما أصابه ، ففاضت
شاعريته بتلك الأبيات .

(٦) معنى البيت : « أحقاً تذرّفين على دموعك ؟ وما عودتني ذلك من قبل ! »

تَجَلَّلْتَنِي (١) إِذْ أَهْوَى الْعَصَا قِبَلِي كَانَهَا رَشَاءً (٢) فِي الْبَيْتِ مَطْرُوفٌ (٣)
الْعَبْدُ عَبْدُكُمْ وَالْمَالُ مَالُكُمْ ، فَهَلْ عَذَابُكَ عَنِّي الْيَوْمَ مَصْرُوفٌ ؟

حديثه مع علقمة

وَيَنْظُرُ ، فَإِذَا عَلِقَمَةُ بْنُ عَبْدِةَ (٤) يَقُولُ : « أَغْرَزُ عَلَى بَيْكَانِكَ ، مَا أَغْنَى
عَنكَ سِمْطًا لَوْ لَأَيْتُكَ (٥) ، لَوْ شَفَعْتُ لِأَحَدٍ آيَاتٍ صَادِقَةً لَيْسَ فِيهَا ذِكْرُ اللَّهِ
— سُبْحَانَهُ — لَشَفَعْتُ لَكَ آيَاتِكَ فِي وَصْفِ النِّسَاءِ ، أَغْنَى قَوْلَكَ (٦) :

(١) عَلَّتْنِي أَوْ تَكَنَّفْتَنِي (٢) ولد الظبية (٣) باكي العين

(٤) هو علقمة الفحل ، وقد مرت ترجمته في ص ٥ و ٦ من هذا الجزء (٥) قال أبو
العلاء : يعني قصيدته التي على الباء : « طحا بك قلب في الحسان طروب » والتي على الميم :
« هل ما علمت وما استودعت مكتوم » (٦) معنى الآيات واضح ، واستحسان أبي العلاء
لها إلى هذا الحد ، يدل ذلك على أنها صادفت هوى من نفسه ، وأنه ممن يدينون بهذا الرأي ،
وربما مثلت لك هذه الآيات بعض ما يعتقده في النساء ؛ فلنذكر لك بهذه المناسبة موجز :
« رأى أبي العلاء في المرأة »

فنتقول : إن كان لأحد أن يسخط على أبي العلاء ، فهو المرأة ، فقد احتقرها ،
وأنكر عليها أكثر مزاياها ، وأمعن في إساءة الظن بها ، وأسرف في ذلك إسرافاً بلغ به أن
رأى السعادة في خلو العالم وهناً نفسه على أنه خلق رجلاً ، ولم يُخلق امرأة فقال :
بدء السعادة أن لم تخلق امرأة فهل تود جمادى أنها رجب ؟

ورأى أنها لا تصلح للحياة العامة مطلقاً ؛ تَمَثَّلَهَا غَادِرَةٌ مَتَهَالِكَةٌ عَلَى لَدَاتِهَا ، مِنْهُمَكَةٌ
مُتَفَانِيَةٌ فِي شَهْوَاتِهَا ، لَا تَعْرِفُ الْوَفَاءَ ، وَلَا تَدْرِكُ لِلْحُبِّ الصَّادِقِ مَعْنَى ، تَتَجَهَّمُ لِلرَّجُلِ إِذَا قَلَّ
مَالُهُ ، وَتَخُونُهُ لِأَتْفَةِ الْأَسْبَابِ ، فَالنِّسَاءُ عِنْدَهُ : « فَوَارِسُ فِتْنَةٍ ، أَعْلَامُ غِيٍّ » وهن في رأيه :
« باعثات ركابك في مهالك مقدمات » و « حبال غي ، بهن يضيّع الشرف التليد »

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنَّنِي بَصِيرٌ بِالَّذِينَ يَأْتُوا النِّسَاءَ طَيْبٌ

✽
✽

وبهذه العقيدة المتعنتة ، اندفع يشدد عليها الحجاب ، وينهاها عن دخول الحمام ، ويحرم عليها أداء فريضة الحج ، ويحظر عليها الصلاة في المسجد ، وينصح لها بالعدول عن طلب العلم ، فإذا لم يكن لها بد من طلبه ، فحسبها منه أن تحفظ بضع آيات يلقتها إياها شيخ أعمى ، نهكه الكبر ، فخائته قواه وارتعشت من الضعف يدها ، وعليها أن تكتفي بهذا القدر اليسير دون أن تحاول الاستزادة ، أو تطمح إلى التعمق في فهم ما حفظته ، فإن ذهنها الضيق لا يتسع لذلك ، ولا حاجة بها إليه ، أما القراءة والكتابة فإنها مفسدة لها ولو شئنا سرد كل ما قاله في ذلك ، نخرجنا عما قصدنا إليه ، ولكن حسبنا أن نجتزئ هنا بقوله :

علموهن النسيج والغزل والردن وخلصوا كتابته وقراءه
فصلاة الفتاة بالحمد والإخلاص تغني عن يونس وبراهه
فهو يذهب بهذين البيتين في التشديد على النساء أكثر مما ذهب إليه عمر بن الخطاب
حين أوصى بتعليم النساء سورتي : « يونس وبراهة » لما تجويانه من آيات الزجر والترهيب
وقوله :

ولا يُدْنَيْنِ من رجلٍ ضريرٍ يلقهن آياً محكمات
سوى من كان مرتعشاً يدها ولتمه من المشغيات
وأى غضاضة على الفتاة إذا أخطأت في اللغة أو لحنت مادامت قد أدت المراد :
فما عيب على الفتيات لحن إذا قلن المراد مترجمات
وليس لأبي العلاء من حسنة تذكرها له المرأة إلا سخطه على وأد البنات — إن كان
يصح اعتبار هذا الواجب الإنساني حسنة — فقد قال :

لا تولدوا ، فإذا أبي طبع ، فلا تندوا ، وأكرم بالتراب مصاهراً
على أن هذا الرأي هو أقل ما نتظره من رجل لم تقف به الشفقة عند تحريم أكل

إِذَا شَابَ رَأْسُ الْمَرْءِ ، أَوْ قَلَّ مَالُهُ فَلَيْسَ لَهُ فِي وُدِّهِنَّ نَصِيبٌ

الحيوان على نفسه ، إشفاقاً عليه ، بل وصلت إلى حد أن أنكر على الناس قتل
البرغوث ، فقال :

تسريح كفي برغوثاً ظفرتُ به أبرُّ من درهم تعطيه محتاجا

ولم يفرقاً بين البرغوث الضئيل والملك المتوج العظيم :

لا فرق بين الأسكِّ الجونِ أطلقه وجون كئدة أمسى يعقد التاجا
وأخذ يدلل على صحة ذلك ، فقال :

كلاهما يتوقى - والحياة له عزيزة - ويروم العيش مُتاجا

على أنك ، إذا آنتت منه حرارة الدفاع عن قتل البرغوث في هذه الأبيات ، ألمك
ماتلمحه من الفتور ، حين يدافع عن وأد البنات في قوله : « وأكرم بالتراب مصاهراً »
فقد ترى فيه نهياً مشوباً بشيء من التردد والحذر ، بل إن شئت فقل من التماس العذر

*
* *

ولا يذهبن الوهم بالقارئ ، فيحسب أن أبا العلاء كان - مع كل هذا التحامل - يكرهها ؛
أو يقتص منها ليرة في نفسه منها ، فقد كان - على العكس من ذلك - شفيقاً رحيماً بها ،
وإنما دفعه إلى تمقصها وتمنى خلو العالم منها ؛ حذبه العميم على الإنسان . ولما كانت المرأة في
رأيه هي أداة النسل ومجلبته ، وهو لا يرى في غير انقراض النسل حاسماً لشقاء العالم ، فلا جرم
خصها بأكبر قسط من سخطه ، ونقم منها وجودها

وأى جرم عند أبي العلاء أفضح هولاً من النسل الذي تجلبه النساء :

صحنك ، فاستغدت بهنَّ وُلداً أصابك من أذاتك بالسمات

ومن رزق البنين ، فقير ناء بذلك عن نوائب مسقات

فن شكل يهاب ، ومن عقوق وأرزاء يجئن مصمات

وإن تعط الإناث فأى بؤس تبين في وجود مقسمات

يُرْدَنَ ثَرَاءَ الْمَالِ حَيْثُ وَجَدَنَهُ وَشَرَّحَ الشَّبَابَ عِنْدَهُنَّ عَجِيبٌ

يُردن بعولة ، ويردن حلياً ويلقن الخطوب ملومات
ولسن بدافعات يوم حرب ولا في غارة متغشحات
وقد يفقدن أزواجاً كراماً فيا للنسوة المتأيات
يلدن أعاديا ويكنن عارا إذا أمسين في التهضات

* *

فأبو العلاء يكره الزواج لما يعقبه من النسل ، فإذا عقت المرأة فلا بأس من الزواج منها :

إذا شئت يوماً وصلة بقرينة خير نساء العالمين عقيمها

على أنه إن تم من المرأة أنها أداة النسل ، فقد برم بالعيش والناس ، وتم من نسلها
حياته أيضاً دون أن يخص الذكر منه أو الأنثى ، فود لو مات المولود ساعة ولادته ليستريح
من عناء الحياة ، فقال :

فأف لعصريهم : نهار وحنس وجنسى رجالٍ منهم ونساء

وليت وليدًا مات ساعة وضعه ولم يرتضع من أمه النفساء

يقول لها من قبل نطق لسانه : « تفيدين بي أن تُنكبي وتسائي »

ولا غرو فهو القائل :

هذا جناه أبي عليّ وما جنيت على أحد

وهو القائل أيضاً :

على الولد يجنى والد ولو أنهم ولادة على أمصارهم خطباء

وقد ساعده على سوء ظنه بالمرأة واحتقاره مواهبها ، ما كانت عليه في عصره من

الانحطاط الخلقى والضعف النفسى ، وما اكتظت به الآداب العربية التي درسها من تنقص

المرأة والافتنان في ذكر مثالها (ارجع إلى ديوان ابن الرومي ج ١ ص ٢١)

* *

ولا مندوحة هنا من التنبيه على أن رأى شو بنهور الفيلسوف الألماني لا يختلف كثيراً عن

رأى أبي العلاء في المرأة ، ولا يغيب عن القارى انفاقهما في المزاج السوداوى الذى كان علة
تساؤلهما معاً

*
* *

ونختم هذا الفصل بنخبة موجزة من شعر أبى العلاء في المرأة والنسل ، تثبت ما ذهبنا
إليه ، وتكون مرجعاً عند الحاجة ، وإلى القارى بعض أشعاره في المرأة :
أعوذ بالله من ورهاء قائلة للزوج : « إني إلى الحمام أحتاج »
وهما في أمور - لو يتابعها كسرى عليها - لشين الملك والتاج

*
* *

شر على المرأة من حمامها
إرسالك الفاضل من زمامها
ومشيها تضرب في أحكامها
يفوح ريا الطيب من أمامها
زائرة المسجد في إمامها
تأتم ، والخليفة في ائمامها
بأحدل - ما عف عن كلامها -
أعاذها الخالق من إمامها
وريقها الشروب في صمامها
سام أفعى بان من سامها
إن نزلت عصماء من شمامها
فلا سقاها الطل من غمامها
إذا احتوى الريم على رمامها

لزومها البيت مع اهتمامها
حتى يجيها الوفد من حماها
وحملها المغزل في إتمامها
أوفى بما تعقد من زمامها

*
* *

إذا بلغ الوليد لديك عشرا فلا يدخل على الحرم الوليد
فإن خالفتني وأضعت نصحي فانت - وإن رُزقت حجي - بليد
ألا إن النساء حبال غي بهن يُضَيِّع الشرف التليد

*
* *

أقل الذي تجنى الغواني تبرج يرى العين منها حليها وخضابها
فإن أنت عاشرت الكعاب، فصادها وحاول رضاها واحذرن غضابها
فكم بكرت تسقى الأمر حليها من الغار، إذ تسقى الخليل رضاها

*
* *

قد أهملت للخياط إبتها فصادفت إبرة لعقربها
فهي تُسَقِّي الحليب ليلتها ولم يكن من لذيذ مشربها
وإنما الخوود - في مسارها - كربة السم في تسربها
فلا تكوني مثل التي لدغت تبدأ في شرّها بأقربها

*
* *

وإلى القارىء نخبه مختارة من شعر أبي العلاء في النسل ، يتبين منها مقدار سخطه ونقمته :
تواصل جبل النسل ما بين آدم وبينى ، ولم يوصل بلاهى باء

إذا شئت - يوماً - وصلة بقرينة
لنا طرق في كل شرق ومغرب
هي الدار يأتيها من الناس قادم
فخير نساء العالمين عقيمه
إلى الموت أعيى راكباً مستقيمه
يحث على أن يستقل مقيمه (١)

*
* *

على الولد يجني والد ، ولو أنهم
وزادك بعداً عن بنيك ، وزادهم
يرون أباً ألقاهم في مؤرب
ولاة على أمصارهم خطباء
عليك حقوداً ، أنهم نجباء
من العقد - أعياء حلة الأرباء

*
* *

وإذا أردتم بالبنيين كرامة
فالحزم أجمع تركهم في الأظهر

*
* *

كوني الثريا ، أو حضار (٢) أو الجوزاء ، أو كالشمس لا تلد
فلتلك أشرف من مؤنثة نجلت ، فضاقت بنسلها البلد

*
* *

أنتك بحبيل فتاة غدت مسائلة عن دواء الحبل
وقد حسبت من بنات السهول فجاءت بإحدى بنات الجبل (٣)

*
* *

أرى حبلاً حادثاً في النساء ، حبل أذا بهن اتصل
أتى ولد بسجل العناء فيما لیت وارده ما وصل

(١) يرى الفارسي من هذه الأبيات أن علة كره أبي العلاء للزواج هي خوفه من النسل وإشفاقه مما يلاقيه الأبناء من مكاره العيش وشقائه وما يتجرعون من غصص وآلام لا تنتهي إلا بموتهم ، ومتى ضمن الإنسان انقطاع النسل فلا بأس له من الزواج ، وإذن فخير النساء العقيم .
(٢) نجم يطلع قبل سهيل فيظن أنه سهيل (٣) فجاءت بحية .

وإن أنظرته خطوط الزما
وريع من الغَيْر الطارقا
وقال له : « صل » داعي الهدى ،
وشب ، وشاب ، وأفنى الشباب ،
ومن بعد ذلك يجيء الحما
فيا راحة النفس عند المات

الآن تفكرت قيل النسل في زمن
ترجو له من نعيم الدهر ممتنعاً
شكا الأذى ، فسهرت الليل ، وابتكرت
وأمه تسأل العراف قاضية
وأنت أرشد منها - حين تحمله

ضل الذي جعل ابناً لردى غرضاً
إن عق ، فهو على جرم يكافيه

ما يأخذ الموت من نفس لمنفرد
نفساً سواها إذا ما جال واحتشدا

نادى حشا الأم بالطفل الذي اشتملت
فإن خرجت إلى الدنيا لقيت أذى
وما تخلص يوماً من مكارهها
ورب مثلك وافاها على صغر
لا تأمن الكف من أيامها شللاً

عليه : « ويحك لا تظهر ومت كدا »
من الحوادث ، بله القيظ والجَمَدَا
وأنت لا بد فيها بالغ أمدا
حتى أسن ، فلم يحمد ولا حمدا
ولا النواظر كفاً عن ، أو رمدا

فإن أبيت قبول النصح معتدياً ، فاصنع جميلاً ، وراع الواحد الصمد
فسوف تلقى بها الآمال واسعة - إذا أجزت مدى منها - رأيت مدى
وتركب اللج تبغى أن تفيده غنى وتقطع الأرض لا تلقى بها ثمدا
- وإن سعدت - فما تنفك في تعب وإن شقيت - فمن للجسم لو همدا ؟
ثم المنايا ، فيما أن يقال : « مضي ذميم فعل » وإما : « كوكب خندا
والمرء نصل حسام ، والحياة له سل ، وأصون للهندي أن غمدا
فلو تكلم ذاك الطفل ، قال له : « إليك غنى ، فما أنشئت معتمدا »
فكيف أحمل عتباً - إن جرى قدر على - أدرك ذا جد ، ومن سمدا

*
* *

وليس أجمع لمختلف آرائه الكثيرة في المرأة والزواج والنسل من تائيته المطولة التي نعتها
تشريعه الخاص بالمرأة ، وقد أتى فيها بخلاصة مذهبه في النساء ، ونحن نجتزئ منها
بالآيات التالية :

ولا ترجع بإيماء سلاما على بيض أشرن مسلمات
ألات الظلم جئن بشر ظلم وقد واجهتنا متظلمات
فوارس فتنه ؛ أعلام غى لقينك بالأساور معلّات
ولكن الأوانس باعثات ركابك في مهالك مقتمات

وهنا يملل لك سبب سخطه عليهن ، وهو تلك الجريمة الشنعاء التي يقترفها ،
وأى جريمة في رأيه أفضع من جريمة النسل ، وأى هول أكبر من ذلك الهول :
صحبك ، فاستغدت بهنّ ولدا أصابك من أذاتك بالسمات
ومن رزق البنين - فقير ناء بذلك عن نواب مسقات

فن شكل يهاب ومن عقوق وأرزاء يجئن مصمات
وإن تعط الإناث ، فأى بؤس تبين فى وجوه مقسمات
يردن بعمولة ، ويردن حليا ويلقين الخطوب ملومات
ولسن بدافعات - يوم حرب ولا فى غارة متغشحات
ودفن - والحوادث فاجعات - لإحداهن إحدى المكرمات^(١)

(١) وقد استنتج أحد كبار أساتذة الأدب فى مصر من هذا البيت أن أبا العلاء يرى وأد البنات ومحبذه ، وليس يحتمل البيت هذا التأويل ، فليس أبو العلاء من غلظ القلب وعتوه بحيث يبيح ذلك ، بل ليس أبو العلاء خصا حقيقيا للمرأة فتبيح له الخصومة أن يأمر بوأدها ، وإنما هو مشفق ناصح - برغم ما يديه لها من النقد العنيف الذى مصدره الحنو والعطف . لا الخصومة والالدد ولا نحسبنا فى حاجة الى التذليل على ذلك . فان أبا العلاء برم بالعالم كله ، ساخط على كل من فيه من نساء ورجال :

فأف لعصريهم نهار وحنس وجنسى رجال منهم ونساء

وقد كرر هذا السخط فى كل مناسبة عنت له . فهل دفعه ذلك الى أن يوصى بآبائهم وإهلاك هذا الناس ؟ كلا بل تمى لهم الخير الشامل والرفاهية العميمة ، ورثى لما يلاقون من ظلم وأعنات ، ولكنه أوصى بالكف عن إيجاد مخلوقين جدد يعانون ما يعانى آباؤهم من الشقاء والألم ، فأظهر رأيه صريحا فى وجوب الكف عن الزواج ، وقال أكثر من مرة : إن الناس لو رأوا مثل رأيه :

لعطلوا هذه الدنيا فإ ولدوا ولا اقتنوا واستراحوا من رزاياها

ولكنه موقن أن للغرائز حكمها وأن صيغته متلاشية فى أجواز الفضاء ، ومن ثم تراد بهمس فى أذنك مثلطفا يدعوك الى تزويج ابنتك ، والكف عن تزويج ابنك !

ولكن أبا العلاء لا ينسى الأمر الواقع ولا يستطيع أن يتغافل . فهو يظل يخيفك من الزواج ويهول لك مصاعبه . فإذا أصرت وأبيت الاعناد ، لانت لك قناته قليلا فأباح لك الزواج - بشرط أن تتخير العقيم من النساء . فإذا اختل هذا الشرط وأولدت ، فإيهول الخطب والمصاب . ولكن لا بأس من النجمل بعد أن نفذ السهم الذى ليس لاحد حيلة فى رده - و ثم يوصيك بتتقيف ابنتك وتعليمه بقدر ما يحذرک من تعليم ابنتك ، وقد يبنى لو أدرك كلا من البنت والولد هامهما فيقول :

وليت وليدا مات ساعة وضعه ولم يرتضع من أمه النفساء

ولكنه لا يرى ارتكاب جريمة الوأد الشنعاء ، بل يقول لك : « لا تولد ، فإذا أولدت فلا تئد » ارجع الى ص (١٤٦) و فرق كبير بين تمى الموت الطبيعى للمولود وبين اقرار جريمة وأده أو قتله .

وقد يفقدن أزواجاً كراما فيا للنسوة المتأيمات
يلدن أعاديا، ويكنن عارا إذا أمسين في المتهضات
توهمن الظنون فكنن نارا لما أشمرنه متوهجات
وليس عكوفهن على المصلى أمانا من غوارر مجرمات
ولا تحمد حسانك - إن توافت بأيد للسطور مقومات
فحمل مغازل النسوان أولى بهن من اليراع مقلمات
سهام - إن عرفن كتاب لسن رجعن بما يسوء مسلمات
ويتركن الرشيد بغير لب أتبن لهديه متعلمات
وإن جنن المنجم سائلات فلسن عن الضلال بمنجمات

*
* *

ليأخذن التلاوة عن عجوز من اللأى فغرن مهتمات
يسبحن للمليك بكل جنح ويركعن الضحى متألمات
فما عيب على الفتيات لحن إذا قلبن المراد مترجمات
ولا يدنين من رجل ضرير يلقنهن آيا محكمات
سوى من كان مرتعشاً يده ولتمه من المتشغفات
وإن طاوعن أمرك؛ فانه غيدا يزرن عرائسا متيممات
أخذن - كرىش طاووس - لباساً، ومسكا بالضحى متلغفات
وأبعدهن من ربات مكر سواحر يعتدين معزّمات
يقان نهيج الغياب، حتى يجيئوا بالركاب مزّمات
ونعطف هاجر اخلان - كيا يزول عن السجيا المسّمات
وجمع طوائف العمار سهل علينا بالحوالب موزّمات
زعمن بأن في معنى فقير كنوزاً للملوك مصّمات

حديثه مع عمرو بن كلثوم

فَلَيْتَ شِعْرِي : مَا فَعَلَ عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ ؟

فلا يدخلن دارك باختيار فقد ألفتن مذمات
وإن خالسن غرتك ارتقاباً فحق أن يرحن مشمات

وساو لديك أتراب النصارى وعينا من يهود ومسلمات
ومن جاورت من حُنف وسرب صوابي ، فليبن مكرمات
فإن الناس كلهم سواء وإن ذكت الحروب مضرمات

ولا يتأهلن شيخ مقل بمصرة من المتنعمات
فإن الفقر عيب ، إن أضيفت إليه السن - جاء بمعظات
ولكن عرس ذلك بنت دهر تجنبت الوجوه محمات
من اللأئي - إذا لم يُجد عام تفوقن الحوادث معدمات
من الشمط اغتزلن بكل عود وأفنين السنين مجرمات
ويعتفر الغني وخطا برأس إذا كانت قواك مسلمات
وواحدة كفتك ، فلا تجاوز إلى أخرى تجيء بمؤلمات (١)
وإن أرغمت واحدة بضر فأجدر أن تروع بمعرمات (٢)
زجاج - إن رفقت به - وإلا رأيت ضروره متقصمات
وما حفظ الخريدة مثل بعل تكون به من المتحرمات
يحوط ذمارها من كل خطب ويمنعها مصاعب مقرمات
إذا « الغاران » (٣) غرتها بجل فدينك بالتورع والسمات
فهذا قول مختبر شفيق ونصح للحياة والهمات

(١) هنا يوصيك أبو العلاء - بعد أن تزوجت - أن تكفي بواحدة . ويجذر من التطلع لأخرى .

(٢) المعرمات : الشدايد (٣) البطن والفرج .

فَيَقَالُ : « هَا هُوَ ذَا مِنْ تَحْتِكَ ، إِنَّ شِدَّتَ أَنْ تُحَاوِرَهُ فَحَاوِرُهُ ^(١) »

(١) عمرو بن كلثوم

(توفي سنة ٦٠٠ م)

اسمه عمرو وكنيته أبو الأسود ، اسم أبيه كلثوم بن مالك بن عتاب ، واسم أمه ليلى بنت المهلب أخى كليب ، وكانت عزيزة النفس ، كما كان ابنها سيد قومه . واسم قبيلته تغلب . كان ابن كلثوم من أعز العرب نفساً ، وأشدهم إباءً ، وحكايته مع عمرو بن هند مشهورة ، وخلاصتها أن ابن هند قال يوماً لندمائه : « هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة أمى » ، فأجابوه : « نعم ! أم عمرو بن كلثوم » قال : « ولم ؟ » قالوا : « لأن أباهم مهلب ابن ربيعة ، وبعلمها كلثوم بن مالك أفرس العرب ، وابنها عمرو وهو سيد قومه » فأرسل ابن هند صاحب الحيرة لعمرو بن كلثوم يستزيه وأشرف قومه ، وجلس ابن كلثوم مع ابن هند ، وجلست ليلى مع هند (أم ابن كلثوم مع أم ابن هند) وكان ابن هند قد أوصى أمه أن تمنح الخدم إذا دعا بالطرف ، وتستخدم ليلى ؛ ودعا ابن هند بمائدة ، ثم دعا بالطرف ، فقالت هند : « ناولينى يا لىلى ذلك الطبق » فأجابتها : « لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها » فأعادت عليها وألحت ، فصاحت ليلى : « واذلاه ! يا لتغلب ! » فسمعها ابن كلثوم ، فثار الدم فى وجهه ، ونظر إليه ابن هند فعرف الشرفى عينيه ، ووثب ابن كلثوم الى سيف معلق لابن هند فى الرواق فضرب به رأسه ، ونادى فى بنى تغلب ، فاتهبوا ما فى الرواق ، وساقوا نجاته إلى الجزيرة .

ومن أجمل شعره قوله فى معلقته يصف نساء قبيلته :

يقتن جيانا ، ويقلن : « لستم بعولتنا — إذا لم تمنعونا »

إذا لم نحمهن فلا بقينا خير بعدهن ولا حيننا

وقوله يصف المعركة :

متى ننقل إلى قوم رحانا يكونوا فى اللقاء لها طحيننا

يكون ثفالها شرقى نجد ولهوتها قضاة أجمعينا

فَيَقُولُ : « كَيْفَ أَنْتِ أَيُّهَا الْمُصْطَبِحُ »^(١) بِصَحْنِ الْعَائِنَةِ ، وَالْمُعْتَبِقُ^(٢) مِنْ
الدُّنْيَا الْفَائِنَةُ ! لَوَدِدْتُ أَنَّكَ لَمْ تُسَانِدْ^(٣) فِي قَوْلِكَ :
كَأَنَّ مُتُونَهُنَّ مُتُونُ غُدْرٍ^(٤) تُصَفِّقُهَا^(٥) الرِّيَّاحُ إِذَا جَرَيْنَا^(٦)

وقوله :

ألا لا يعلم الأقسام أنا تضعضعنا وأنا قد ونينا
ألا لا يجلهن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقوله :

فإن قناتنا يا عمرو أعيت على الأعداء قبلك أن تلينا

ومن مختار شعره قوله أيضاً :

معاذ الإله أن تنوح نساؤنا على هالك ، أو أن تضحج من القتل
قراع السيوف بالسيوف أحلنا بأرض براح^(١) ذى أراك وذى أثل
فما أبقت الأيام من المال عندنا سوى جذم أذواد محذفة النسل^(٢)
ثلاثة أثلاث ، فأثمان خيلنا وأقواتنا ، وما نسوق من القتل^(٣)

(١) المصطبيح هو الذي يشرب الصبوح أى خمر الغداة ، وهو يشير بذلك إلى قوله في أول معلقته :

ألا هبى بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا
أى انهضى بقدحك أيتها الساقية ، واسقيننا خمر الصباح ، ولا تدخرى شيئاً مما عندك من تلك الخمر التي أحضرت من قرى الأندرين .

(٢) المعتبق هو الذي يشرب الغبوق ، أى خمر العشي (٣) أى لم تأت بالسناد في شعرك (والسناد في الشعر هو كل عيب في القافية قبل الروي) (٤) مخفف غدر؛ بضم الدال ، جمع غدِير (٥) تضربها (٦) معنى البيت أن متون تلك الدروع

(١) أحلنا بأرض واسعة مفقرة لآبات فيها (٢) لم تبق لنا الأيام الا بقية من الابل مقطوعة النسل (وأما انقطع نسلها بسبب حلولهم في تلك الأرض المفقرة) (٣) ثلث نشترى به خيولنا وثلث نشترى به أقواتنا ، وثلث نخسره في قتالنا .

فَيَقُولُ عَمْرُو: « إِنَّكَ لَقَرِيرُ الْعَيْنِ ، لَا تَشْعُرُ بِمَا نَحْنُ فِيهِ ، فَاشْغَلْ نَفْسَكَ
بِتَمَجِيدِ اللَّهِ ، وَاتْرُكْ مَا ذَهَبَ فَإِنَّهُ لَا يَعُودُ ، وَأَمَّا ذِكْرُكَ سِنَادِي فَإِنَّ الْأَخُوَّةَ
لَيَكُونُونَ ثَلَاثَةً أَوْ أَرْبَعَةً ، وَيَكُونُ فِيهِمُ الْأَعْرَجُ وَالْأَبْحَقُ ^(١) فَلَا يُعَابُونَ
بِذَلِكَ ، فَكَيْفَ إِذَا بَلَّغُوا الْمِائَةَ فِي الْعَدَدِ؟ »

*
* *

فَيَقُولُ: « أَعَزُّ عَلَيَّ بِأَنَّكَ قُصِرْتَ عَلَى شُرْبِ حَمِيمٍ ، وَأَخَذْتَ بِعَمَلِكَ الدَّمِيمِ ،
مِنْ بَعْدِ مَا كَانَتْ تُسْبَأُ ^(٢) لَكَ الْقَهْوَةُ ^(٣) تَقَابُلِكَ بِلَوْنِ الْحُصِّ ^(٤) .

وَقَالُوا فِي قَوْلِكَ « سَخِينَا » قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ فَعَلْنَا مِنَ السَّخَاءِ ،
وَالنُّونُ نُونُ الْمُتَكَلِّمِينَ ، وَالْآخَرُ أَنَّهُ مِنَ الْمَاءِ السَّخِينِ ، لِأَنَّ « الْأَنْدَرِينَ »
« وَقَاصِرِينَ » كَاتَبْنَا فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ لِلرُّومِ ، وَمِنْ شَأْنِهِمْ أَنْ يَشْرَبُوا الْحَمْرَ
بِالْمَاءِ السَّخِينِ فِي صَيْفٍ وَشِتَاءٍ »

تشبه متون الغدر اذا صفقتها الريح اثناء جريها

(١) البَحَقُ: أقبح العور، وأكثره عمصا (٢) تُشْرَى لك لتشربها (٣) الحمر

(٤) الحُصُّ هو الورس ، نبت له نوار أحمر يشبه الزعفران ، وقد أشار بذلك إلى قوله

في معلقته يصف الحمر :

مشعشة كأن الحُصَّ فيها إذا ما الماء خالطها سخينا

والمشعشة : الحمر المزوجة بالماء .

حديثه مع الحارث اليشكري^(١)

وَيَنْظُرُ، فَإِذَا الْحَارِثُ الْيَشْكِرِيُّ، فَيَقُولُ: «بَعْضُ النَّاسِ يُنْشِدُ قَوْلَكَ :
فَعِشْنِ بِخَيْرٍ لَا يَصِرُ لَكَ النَّوْكَ مَا أُعْطِيَتْ جَدًّا

فيجمع بين تحريك الشين وحذف الياء من عاش يعيش ، وذلك قليل ردىء .
وَلَقَدْ أَحْسَنْتَ فِي قَوْلِكَ :

لَا تَكْسَعُ^(٢) الشَّوْلَ^(٣) بِأَغْبَارِهَا^(٤) إِنَّكَ لَا تَدْرِي مِنَ النَّاتِجِ^(٥)

(١) الحارث بن حلزة اليشكري

توفي سنة ٥٨٠ م

قبيلته بكر وائل ، اشتهر بين العراق ، كان أبرص ، وقد اشتهر بمعلقته الرائعة ، ومن أجمل
أبياتها قوله :

وَأَنَا مِنْ الْحَوَادِثِ وَالْأَنْبَاءِ خُطِبَ نَعْنَى بِهِ وَنَسَاءِ
أَنْ إِخْوَانَنَا الْأَرَاقِمَ يَغْلُونَ عَلَيْنَا فِي قَيْلِهِمْ أَحْفَاءِ
يَخْلَطُونَ الْبَرِيءَ مِنْهُ بِنَدَى الذَّنْبِ وَلَا تَنْفَعُ الْخَلْيَ الْخَلَاءِ
أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عِشَاءَ فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ
مِنْ مَنَادٍ وَمِنْ مَجِيبٍ وَمِنْ تَصَاهَالٍ خَيْلٍ - خَلَالَ ذَلِكَ رِغَاءِ

(٢) كَسَعَ النَّاقَةَ بَعْبُرَهَا : تَرَكَ فِي خَلْفِهَا بَقِيَّةً مِنَ اللَّبَنِ لِيَغْزَرَ (٣) الشَّوْلُ : النَّاقَةُ الَّتِي
شَالَ لَبْنُهَا أَيْ ارْتَفَعَ فَلَمْ يَبْقَ فِي ضَرْعِهَا إِلَّا صَبَابَةٌ مِنْهُ (٤) الْأَغْبَارُ : جَمْعُ غَبْرٍ ، وَهُوَ بَقِيَّةُ
اللَّبَنِ فِي الضَّرْعِ (٥) هُوَ الَّذِي يَنْتِجُ النَّاقَةُ أَيْ يَلِي نَتَاجِهَا ، وَمَعْنَى الْبَيْتِ : « لَا يَكُنْ هَمَّكَ
تَعْزِيرُ إِبْلِكَ لِتَقْوِيَةِ نَسْلِهَا ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا تَضْمُرُهُ الْأَيَّامُ فَرُبَّمَا اخْتَصَّ بِنَتَاجِهَا غَيْرُكَ »
وَيَلِي هَذَا الْبَيْتَ قَوْلُهُ :

وَاحِلِبٍ لِأَضْيَافِكَ أَلْبَانِهَا فَإِنَّ شَرَّ اللَّبَنِ الْوَالِجِ

أَيْ شَرَّ اللَّبَنِ هُوَ الْمَكْسُوعُ الَّذِي يَلِجُ فِي ظُهُورِ النَّوْقِ ، فَاحِلِبِهَا لِأَضْيَافِكَ ، وَلَا تَكُنْ بِخَيْلِهَا

حديثه مع طرفة

وَيَعْمِدُ سُؤَالَ طَرْفَةَ بْنِ الْعَبْدِ ، فَيَقُولُ :

« يَا ابْنَ أَخِي يَا طَرْفَةَ^(١) - خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكَ - أَتَذْكُرُ قَوْلَكَ :

كَرِيمٌ يُرَوِّى نَفْسَهُ فِي حَيَاتِهِ سَتَعْلَمُ - إِنْ مِتْنَا غَدًا - أَيُّنَا الصَّدِيقُ^(٢)

وقال أبو العلاء : (وقد كانوا فى الجاهلية يكسعون^(١) ناقة الميت على قبره ، ويزعمون

أنه إذا نهض لحشره وجدها قد بعثت له ليركبها ، وهيمات ، بل حشروا عرابة حفاة !)

(١) انظر الى ما تحويه هذه الجملة من الحذب والرفق بطرفة بن العبد الذى مات صغيراً

(٢) يصف نفسه بأنه كريم يروى نفسه بالخر ، ويفخر بأنه سيموت ريان ، وأن عاذليه

فى شربها سيظماون عند موتهم

طرفة بن العبد

(توفى سنة ٥٥٠ م)

اسمه عمرو ، وطرفة : لقب غلب عليه ، قبيلته بكر بن وائل ، وهو من بنى قيس . كان

لاهيا سكيراً فى صباه ، هجما ملك الحيرة فأسخطه وأمر عامله بالبحرين أن يقتله ، وسمى

ابن العشرين لوفاته صغيراً ، فقد مات فى السادسة والعشرين من عمره

ومن أروع شعره قوله :

أرى الموت أعداد النفوس ، ولا أرى بعيداً غداً ، ما أقرب اليوم من غد !

وقوله :

لعمرك إن الموت - ما أخطأ الفتى - لكالطَّوْلِ المرخى^(٢) ، وثنياه باليد

متى ما يشأ يوماً يقده لحتفه ومن يك فى جبل المنية ينقد

(١) كسع الناقة - هنا - ضربها بقوائم السيف من أسفل

(٢) الطول : الحبل تشد به قوائم الدابة ، والمرخى : الممدود المطول

وَقَوْلِكَ :

أَرَى قَبْرَ نَحَّامٍ^(١) بَخِيلٍ بِمَالِهِ كَقَبْرِ غَوِيٍّ فِي الْبَطَالَةِ مُفْسِدٍ^(٢)
مَتَى تَأْتِي أَصْبَحُكَ كَأَسَا رَوِيَّةً وَإِنْ كُنْتَ عَنْهَا غَانِيًا. فَأَعْنِ وَأَزِدْ
فَكَيْفَ صَبُوحُكَ الْآنَ وَغَبُوقُكَ^(٣)؟ إِنِّي لِأَحْسِبُهُمَا حَمِيمًا !

وقوله :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا
ويأتيك بالأخبار من لم تبع له
وقوله :

وأعلم علماً - ليس بالظن - أنه
وأن لسان المرء - ما لم تكن له
وأن امرأ لم يعرف يوماً - فكاهاه -
وقوله :

ولا أغير على الأشعار أسرقها
وإن أحسن بيت أنت قائله
وقوله :

قد يبعث الأمر العظيم صغيره
والظلم فرق بين حيي وائل :
والصدق يألفه الكريم المرتجى
والإنم داء ليس يرجى برؤه
أدوا الحقوق تفرُّ لكم أعراضكم
حتى تظل له الدماء تصب
بكر تساقبها المنايا تغلب
والكذب يألفه الذئب الأخبى
والبر برء ليس فيه معطب
إن الكريم ، إذا يجرب ، يغضب

(١) بخيل ، حريص على جمع المال وادخاره (٢) معنى البيت : لا أرى أي فرق بين
قبر البخيل الذي عنى نفسه بجمع المال وادخاره ، وقبر المفسد المتلاف للمال ، فما قيمة المال إذاً ؟
ولماذا أبقى عليه ولا أمتع نفسي به ؟ (٣) الصبوح : شراب الصباح ، والغبوق : شراب المساء

وَلَقَدْ كَثُرَتْ فِي أَمْرِكَ أَقْوَابِلُ النَّاسِ ، فَفِيهِمْ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّكَ فِي مُلْكِ
النُّعْمَانِ اعْتَقَلْتَ ؛ وَقَالَ قَوْمٌ : بَلِ الَّذِي فَعَلَ بِكَ مَا فَعَلَ عَمْرُو بْنُ هِنْدٍ (١)
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ أَثْرٌ فِي النَّارِ الْعَاجِلَةِ إِلَّا قَصِيدَتُكَ الَّتِي عَلَى الدَّالِّ (٢) لَكُنْتَ

(١) يشير بذلك الى الروایتين الشائعتين عن سبب قتله ، والرواية الثانية فحوها أن طرفه كان قد هجا عمرو بن هند ، فأحفظه ذلك عليه ، وأسرها له في نفسه ، ثم أرسله مع المتلمس إلى عامله بالبحرين ، بعد أن تلفف بهما ، وأعطى كلا منهما كتاباً ، أوهمهما أن فيه أمراً بصلتهما ، وإنما فيه أمر بقتلهما ، وارتاب المتلمس في نية ابن هند ، فذهب إلى غلام يقرأ له كتابه ، فلما وجد فيه الأمر بقتله فر ، ونصح لطرفه فلم ينتصح ؛ بل ذهب لطيمته حيث لقي حتفه .

(٢) يعني معالته الرائعة التي وفق فيها كل التوفيق إلى تمثيل صورة واضحة دقيقة من نفسه المتوثبة إلى غايات الشباب النبيل ، الشديدة الحس بما يحيط بها من الجمال والحسن ، الفياضة بالشاعرية العالية ، التي تلمحها في أغلب أبياتها - إن لم نقل في كلها - وهل ترى أنصع من تلك الصورة الجميلة التي يمثل فيها نفسه ، حين يقول :

ألا أيهذا الزاجرى ، أحضرَ الوغى وان أشهد اللذات ، هل أنت مخلدى ؟
فان كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعنى أبادرها بما ملكت يدي
ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك ، لم أحفل متى قام عودى
فمنهن سبق العاذلات بشربة كميت ، منى ما تَعَلَّ بالماء تُرْبِد
وكرى - إذا نادى المضاف - مجنباً ، كسيد الغضا - نهته - للتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب بهكنة ، تحت الخباء المعمد

فانظر إليه كيف يدفع ، باستحالة الخلود ، حجة من يعذله في اقتحامه الهيجاء وتمتعه بلذاته ومن ثم يوجب اقتناص الفرص ، والتمتع بمسرات الحياة ، قبل أن تغتاله يد الموت ، وانظر إلى رغباته الثلاث التي لا يرى للحياة معنى بدونها ، وهي سبقه العاذلات بشربة من

قَدْ أَبْقَيْتَ أَثْرًا حَسَنًا »

الحجر الكئيب ، واندفاعه في ساحة الحرب بفرسه التي تشبه الذئب في سرعة العدو ، لإغاثة اللانذبه ، وتقصيره يوم الغيم ، بالتمتع بامرأة جميلة يغازها ، في سرادق مرفوع وأنظر إلى قوله بعد تلك الأبيات :

كريم يروى نفسه في حياته
أرى قبر نحام يخيل بما له
ترى جثوتين من تراب عليهما
أرى الموت يعتام الكرام ، ويصطفى
أرى العمر كنزاً ناقصاً كل ليلة
لعمرك إن الموت - ما أخطأ الفتى -
متى ما يشأ يوماً يقده لحنفه
فمالي أراني وابن عمي مالكا
يلوم ، وما أدرى علام يلومني ؟
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة
أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه
إذا ابتدر القوم السلاح وجدتنى
فإن مت فانهينى بما أنا أهله
ولا تجعلتنى كأمريء ليس هممه
فلو كنت وغلاً في الرجال لضررتى
ولكن نفي عنى الرجال جراتى
لعمرك ما أمرى على بُغمة
أرى الموت أعداد النفوس ، ولا أرى

ستعلم - إن متناغدا - أينا الصدى
كقبر غوى في البطالة مفسد
صفايح صم من صفيح منضد
عقيلة مال الفاحش المتشدد
وما تنقص الأيام والدهر ينفد
لكالطول المرخى ، وثنياه باليد
ومن يك في جبل النية ينقد
متى أدن منه ينأ عنى ويبعد
كلامنى في الحى قرط بن أعبد
على المرء من وقع الحسام المهند
خشاش كرأس الحية المتوقد
منيعاً إذا بلت بقائمه يدى
وشقى على الجيب يا ابنة معبد
كهى ولا يغنى غنائى ومشهدى
عداوة ذى الأحاب والموتود
عليهم ، وإقدامى ، وصدقى ، ومحتدى
نهارى ولا ليلى على بسرمد
بعيداً غدا ، ما أقرب اليوم من غد

فَيَقُولُ طَرَفَةٌ : « وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَنْطِقْ مِصْرَاعًا ، وَدَخَلْتُ الْجَنَّةَ مَعَ الْهَمِجِ وَالطَّغَامِ ؛ وَكَيْفَ لِي بِهَذِهِ وَسُكُونِ ، وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ ^(١) فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطْبًا »

حديثه مع أوس بن حجر ^(٢)

وَيَلْفِتُ عُنُقَهُ يَتَأَمَّلُ ، فَإِذَا هُوَ بِأَوْسِ بْنِ حَجَرٍ ، فَيَقُولُ : « يَا أَوْسُ إِنْ

سبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً
ويأتيك بالأخبار من لم تبع له
وما أبدع وأروع قوله في هذه المعلقة :

إذا القوم قالوا : « من فتى ؟ » خلت أنى
فإن تبغى في حلقة القوم تلقى
وإن يلتق الحى الجميع تلاقى
وما زال تشرابى الخمر ، ولذتى
إلى أن تحامتى العشيرة كلها
رأيت بنى غبراء لا ينكرونى
(١) الجأرون أو الحائدون عن الحق

(٢) أوس بن حجر

أوس بن حجر بن عتاب ، قالوا : « كان فحل مضر ، حتى نشأ النابغة وزهير فأخلاه »
اشتهر بالحض على مكارم الأخلاق ، كما اشتهر بوصف الخمر والسلاح ، ولا سيما القوس ،
ومن نختار شعره قوله :

تركت الخبيث - لم أشارك ولم أذق -
فقومى وأعدائى يظنون أنى
وقوله :

ورثنا المجد عن آباء صدق
أسأنا فى ديارهم الصنيعا

أَصْحَابِكَ لَا يُجِيبُونَ السَّأَلَ ، فَهَلْ عِنْدَكَ مِنْ جَوَابٍ ؟ فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ
عَنْ هَذَا الْبَيْتِ :

« وَقَارَفْتُ^(١) ، وَهِيَ لَمْ تَجْرَبْ ، وَبَاعَ لَهَا

مِنَ الْفَصَافِصِ^(٢) بِالنَّمْيِ^(٣) سِنْفِيسِيرٌ^(٤) »

إذا الحسب الرفيع توأكلته بناة السوء ، أوشك أن يضيعا
وقوله - من مرثية جليلة عالية الأسلوب - :

أيتها النفس ! أجملي جزعا إن الذي تكرهين قد وقعا
إن الذي جمع الساحة والنجمدة والحزم والقوى جُمعا
أودي ، وهل تنفع الإشامة من شيء لمن قد يحاول النزعا
الألمعي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا
المخلف المتلف المرزأ لم يمتع بضعف ، ولم يمت طبعاً

إلى أن يقول :

ليبيك الشرب والندامة والفتة يان - طرا - وطامع طمعا
وذات هديم عار نواشرها^(١) تَصُمِتُ^(٢) بالماء تولبا^(٣) جدعا^(٤)
وقوله :

وليس أخوك الدائم العهد بالذي يذمك - إن ولي - ويرضيك مقبلا
ولكنه النائي - إذا كنت آمنا وصاحبك الأذنى - إذا الأمر أعضلا

(١) خالطت الجربى فلم تجرب لقوتها (٢) جمع فصفصة ، وهي نبات تعلفه الدواب
(٣) الفلوس (٤) سانس حاذق ؛ ومعنى البيت : « أن فرسه خالطت الدواب الجربى فلم
يصبها جرب ، لأنها من الأفراس القوية التي يشرى لها علفها بالمال سانس حاذق يعني بأمرها

(١) ولتبكك فقيرة ذات كساء خلق عارية الساعدين (٢) تسكت (٣) صغيراً (٤) صبياً
سئ الغذاء ، والمعنى أنها تسكت بماء صغيرها الجائع

فَإِنَّهُ فِي قَصِيدَتِكَ الَّتِي أَوْهَمَا :

« هَلْ عَاجِلٌ مِنْ مَتَاعِ الْحَيِّ مَنْظُورٌ »

وَيُرَوَى فِي قَصِيدَةِ النَّابِغَةِ الَّتِي أَوْهَمَا :

« وَدَعَّ أَمَامَةَ ، وَالتَّوَدَّيْعُ تَعْدِيرٌ »

وَكَلا كَمَا مَعْدُودٌ فِي الْفُحُولِ ، فَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ يُحْمَلُ ذَلِكَ ؟ « فَيَقُولُ أَوْسٌ :
« قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ نَابِغَةَ ابْنِي ذُبْيَانَ فِي الْجَنَّةِ فَاسْأَلُهُ عَمَّا بَدَاكَ ، فَلَعَلَّهُ يُخْبِرُكَ ،
فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ يَعْبَى هَذِهِ الْأَشْيَاءَ ، فَأَمَّا أَنَا ، فَقَدْ ذَهَلْتُ ، نَارٌ تَوْقُدُ ، وَبَنَانٌ
يُعْقَدُ^(١) ، إِذَا غَلَبَ عَلَى الظَّمَا رُفِعَ إِلَى شَيْءٍ كَالنَّهْرِ ، فَإِذَا اغْتَرَفْتُ مِنْهُ لِأَشْرَبَ
وَجَدْتُهُ سَعِيرًا مُضْطَرِمًا ، وَلَقَدْ دَخَلَ الْجَنَّةَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنِّي ، وَلَكِنَّ
الْمُعْظَمَةَ أَرْزَاقٌ ، كَأَنَّهَا النَّسَبُ فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ ! »

فَيَقُولُ : « إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَخَذَ عَنْكَ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ فَأَتَّخِيفَ بِهَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ،
فَأَقُولُ : قَالَ لِي أَوْسٌ ، وَأَخْبَرَنِي أَبُو شَرِيحٍ ! »

حديثه مع أبي كبير الهذلي

وَيَرَى رَجُلًا فِي النَّارِ لَا يُمَيِّزُهُ مِنْ غَيْرِهِ ، فَيَقُولُ : « مَنْ أَنْتَ أَيُّهَا الشَّقِيُّ ؟ »
فَيَقُولُ : « أَنَا أَبُو كَبِيرِ الْهُذَلِيِّ عَامِرُ بْنُ الْخَلِيسِ » فَيَقُولُ : « إِنَّكَ لِمَنْ أَعْلَامِ
هُذَيْلٍ ، وَلَكِنِّي لَمْ أَوْثِرْ قَوْلَكَ :

أَرْهِيئْ هَلْ عَنْ شَيْبَةٍ مِنْ مَعْدِلٍ^(٢) أَمْ لَا سَبِيلَ إِلَى الشَّبَابِ الْأَوَّلِ^(٣)

(١) عقد البنان : شدّها ، أى عضّها ، كناية عن الندم والتعسر (٢) مصرف

(٣) هذا البيت من قصيدة له عدتها ثمانية وأربعون بيتا ، قالها في تأبط شرا ،

ابن زوجه أميمة ، وكان السبب في ذلك أنه رأى منه ما يكره ، فشكاه إلى أمه ،

وَقُلْتَ فِي الْأُخْرَى :

أَزْهَيْرُ هَلْ عَنْ شَيْبَةَ مِنْ مَصْرِفٍ أَمْ لَا خُلُودَ لِعَاجِزٍ مُتَكَفِّفٍ
وَقُلْتَ فِي الثَّالِثَةِ :

أَزْهَيْرُ هَلْ عَنْ شَيْبَةَ مِنْ مَعَكُمْ ^(١)

فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى ضَيْقِ عَطْنِكَ ^(٢) بِالْقَرِيضِ ، فَهَلَّا ابْتَدَأْتَ كَلَّ قَصِيدَةَ
بِنَفْسٍ ؟ وَالْأَصْمَعِيُّ لَمْ يَرَوْكَ إِلَّا هَذِهِ الْقَصَائِدَ الثَّلَاثَ « فَيَقُولُ أَبُو كَبِيرٍ
الْمُهَذَلِيُّ : « إِنَّمَا كَلَامُ أَهْلِ سَقَرٍ وَيَلُّ وَعَوِيلٌ ، فَأَذْهَبَ لِطَيْبَتِكَ ! »

فطلبت إليه أن يحوط لقتله ، فخرج به إلى قوم لهم ترة عنده ، حتى إذا تنور نارهم شكوا إليه
الجوع ، فذهب فوجد عليها لصين معهما إبل ، فقتلها وعاد بالإبل ، فباله أمره ، ثم انطلقا ،
فلما أقبل الليل ، أنخا الإبل ، وتناوبا حرسها ، فلما نام تأبط شرا ، وظن أبو كبير أن قد
غلبه النوم ، فبذله حصاة ، فهب من نومه ، وقال : « ما هذا ؟ » فقال : « سمعت حسا في
الإبل ؟ » فطاف ، فلم ير شيئا . ثم نام فبذله حصاة ، فاستوى وقد تناوم أبو كبير ، وقال :
« والله لئن أنبهني شيء لأقتلنك » فلبث أبو كبير يكاوؤه مخافة أن ينهيه شيء فيقتله . وفي ذلك
يقول هذه القصيدة الطويلة ، فليرجع إليها من شاء في الجزء الأول من كتاب أسرار الحماسة
ومما نختاره منها قوله :

ولقد سریت علی الظلام بمغشم جلد من الفتیان غیر منقل
إلى أن يقول :

وإذا رميت به الفجاج رأيتَه يهوى مخارمها هوى الأجلد
وإذا قذفت له الحصاة رأيتَه ينزو لوقعها نزو الأخیل

(١) محبس (٢) ضيق باعك

حديثه مع الأخطل

وَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ يَتَضَوَّرُ^(١) فَيَقُولُ : « مَنْ هَذَا ؟ » فَيُقَالُ : « الْأَخْطَلُ
التَّغْلِي^(٢) » فَيَقُولُ لَهُ : « مَا زَالَتْ صِفَتُكَ لِلخَمْرِ ، حَتَّى غَادَرَتْكَ أَكْلًا لِلجَمْرِ ،
فَكَمْ طَرِبْتَ السَّادَاتُ عَلَى قَوْلِكَ :

أَنَاخُوا ، فَجَرُّوا شَاصِيَاتٍ^(٣) كَانَتْهَا
رِجَالٌ مِنَ السُّودَانِ لَمْ يَتَسَّرَ بُلُوهَا
فَقُلْتُ : أَصْبَحُونِي^(٤) لَا أَبَا لِأَيِّكُمْ
وَمَا وَضَعُوا الْأَثْقَالَ إِلَّا لِيَفْعَلُوا

(١) يتأوه من وجع الضرب أو من ألم الجوع

(٢) الأخطل

اسمه غياث بن غياث بن الصلت ، كنيته أبو مالك ، موطنه الحيرة ، قبيلته تغلب ،

دينه النصرانية

كان سكيراً مدمناً ، وهجاءً عفيف اللفظ في هجائه ، تقرب إلى معاوية بعد أن هجى
الأنصار — حين أمره معاوية بذلك — فلما أفضت الخلافة إلى عبد الملك زاد تقربه منه ،
وبلغ من افتتانه بشعره أن سماه « شاعر بني أمية » وكان كثير الطرب إلى سماعه
قال له عبد الملك مرة : « ألا تسلم ، فنفرض لك في الفء ، ونعطيك عشرة آلاف ؟ »
فقال : « وكيف الخمر ؟ » قال : « وما تصنع بها وإن أولها لمر ، وإن آخرها لسكر ؟ »
فقال : « أما إذ قلت ذلك ، فإن فيما بين هاتين المنزلتين لمنزلة ، ما مملكك فيها إلا كلمعة
من ماء الفرات بالإصبع ! »

فضحك ، وتركه على نصرانيته ، وسهل له الدخول عليه ، حتى كان يدخل بغير إذن .
ومما يروونه عن حماد أنه قال حين سئل عن شعر الأخطل : « وما تسألونني عن رجل
حبيب شعره إلى النصرانية » وهي جملة مملوءة بالملق والرياء !

(٣) زقاقا مملوءة سائلة القوام ، أو قرابا ملئت فارتفعت قوامها (٤) استقوني خمر الصباح

فَصَبُّوا عُقَارًا^(١) فِي الْإِنَاءِ كَأَنَّهَا
وَجَاءُوا بَيْسَانِيَّةً — هِيَ بَعْدَ مَا
تَمَّ بِهَا الْأَيْدِي سَنِيحًا^(٥) وَبَارِحًا^(٦)
فَتَوَقَّفُ — أحيانًا — فَيَفْضِلُ بَيْنَنَا
فَلَذْتُ لِمُرْتَاحٍ وَطَابَتْ لِشَارِبٍ
فَمَا الْبَيْسَانُ^(١١) نَشْوَةٌ^(١٢) لِحَقَّتْ بِنَا
تَدِبُّ دَيْبِيًّا فِي الْعِظَامِ كَأَنَّهَ

— إِذَا الْمَحْوَهَا - جُدْوَةٌ^(٢) تَتَأَسَّكَلُ^(٣)
يُعَلُّ^(٤) بِهَا السَّاقِي — الذُّ وَأَسْهَلُ
وَتُوضَعُ بِاللَّهْمِ حَى^(٧) وَتُحْمَلُ
غِنَاءٌ مُعْنٍ أَوْ شَوَائِهَ مُرْعَبِلُ^(٨)
وَرَا جَعْنِي مِنْهَا مِرَاحٌ^(٩) وَأَخِيلُ^(١٠)
تَوَابِعُهَا ، مِمَّا نُعَلُّ وَنُهَلُّ
دَيْبٌ نَمَالٌ فِي نَقَا^(١٣) يَهَيِّلُ^(١٤)

فَقَالَ التَّغْلَبِيُّ : « إِنِّي جَرَزْتُ الذَّرَاعَ ، وَلَقَيْتُ الذَّرَاعَ ، وَهَجَرْتُ الْآبِدَةَ ،
وَرَجَوْتُ أَنْ تُدْعَى النَّفْسُ الْعَابِدَةَ ، وَلَكِنْ أَبَتْ الْأَقْضِيَّةُ » فَيَقُولُ :
« أَخْطَأْتُ فِي أَمْرَيْنِ : جَاءَ الْإِسْلَامُ ، فَعَجَزْتُ أَنْ تَدْخُلَ فِيهِ ، وَلَزِمْتُ
أَخْلَاقَ سَفِيهِهِ ، وَعَاشَرْتُ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ ، وَأَطَعْتُ نَفْسَكَ الْعَالِيَةَ ،
وَأَثَرْتُ مَا فَتَنِيَ عَلَى بَاقٍ ، فَكَيْفَ لَكَ بِالْإِبَاقِ^(١٥) ؟ »

(١) العقار: الخمر ، سميت كذلك لمعاقرتها ، أي لملازمتها الدن (٢) جرة ملتهبة

(٣) تحترق وتوهج

(٤) بيسان: بلدة بالشام ، والمراد بالبيسانية الخمر المنسوبة إليها ، ويُعَلُّ : يسقى بها ثانية

(٥) من الجانب الأيمن (٦) من الجانب الأيسر (٧) أي أنهم حين يضعونها

يهللون فرحين بها (٨) مُقَطَّعٌ ، لتصل إليه النار فتنضجه (٩) اشتداد الفرح ، حتى

يجاوز الإنسان حده فيتبختر ويختال (١٠) كبير (١١) لم تمهنا (١٢) سكرة

(١٣) كتيب ، أو قطعة من الرمل تنقاد محدودبة (١٤) ينهال (١٥) الهرب والفرار ،

والمراد بها هنا النجاة

فَيَزِفِرُ^(١) الْأَخْطَلُ زَفْرَةً تَعْجَبُ لَهَا الزَّبَانِيَةُ ، وَيَقُولُ : « آهَ عَلَى أَيَّامِ يَزِيدَ
أَسُوفٍ^(٢) عِنْدَهُ عُنْبَرًا ، وَأَمْرُحٌ مَعَهُ مَرْحَ خَلِيلٍ . وَكَأَنِّي بِالْقِيَانِ الصَّادِحَةِ^(٣)
بَيْنَ يَدَيْهِ تُغْنِيهِ :

وَلَهَا بِالْمَاطِرُونَ إِذَا أَكَلَ النَّمْلُ الَّذِي جَمَعَا
خِلْفَةً حَتَّى إِذَا ظَهَرَتْ سَكَنَتْ مِنْ جَلْقٍ بِيَعَا
فِي قِبَابِ حَوْلِ دَسْكَرَةٍ^(٤) حَوْلَهَا الزَّيْتُونُ قَدْ يَنْعَا
وَقَفَتْ لِلبَدْرِ تَرْقُبُهُ فَإِذَا بِالْبَدْرِ قَدْ طَلَعَا

وَلَقَدْ فَافَا كَهْتُهُ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ وَأَنَا سَكْرَانٌ مُلْتَمِخٌ^(٥) فَقُلْتُ :

أَلَا أَسْلَمَ - سَامَتَ - أَبَا خَالِدٍ وَحَيَّاكَ رَبُّكَ بِالْعَنْقَرِ^(٦)
أَكَلْتَ الدَّجَاجَ وَأَفْنَيْتَهَا فَهَلْ فِي الْخُنَانِيصِ^(٧) مِنْ مَغْمَزٍ^(٨)

فَمَا زَادَ فِي عَنِ ابْتِسَامٍ ، وَاهْتَزَّ لِلصَّلَاةِ » .

فَيَقُولُ الشَّيْخُ : « مِنْ شَمِّ أُتَيْتَ ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ عَانِدٌ ،
فَعَلَامَ أَطَلَعْتَ مِنْ مَذْهَبِهِ ، أَكَانَ مُوَحِّدًا ، أَمْ وَجَدْتَهُ فِي النَّسْكِ مُلْحِدًا ؟ »
فَيَقُولُ الْأَخْطَلُ : « كَانَتْ تُعْجِبُهُ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ :

(١) يخرج نفسه بعد مده إياه (٢) أشم (٣) اللأئي يرفعن أصواتهن بالغناء
(٤) قرية عظيمة ، أو بناء كالكصر حوله بيوت (٥) مختلط من شدة السكر
(٦) نوع من النبات ، قيل : هو الياسمين (٧) جمع خنوص ، وهو ولد الخنزير
(٨) مطعن ، ومعنى البيت : أنك أفنيت الدجاج أكلا ، فما عليك لو عطفت على

الخنزير فأكلتها ، أترى فيها مطعنا ؟

أَخْلَدَ ! هَاتِي خَبْرِي وَأَعْلِنِي ^(١) حَدِيثَكَ ، إِنِّي لَا أُسِرُّ ^(٢) التَّنَاجِيَا
 حَدِيثَ أَبِي سُفْيَانَ ، لَمَّا سَمَا بِهَا إِلَى أَحَدٍ ^(٣) ، حَتَّى أَقَامَ الْبَوَاكِيَا
 وَكَيْفَ بَعَى أَمْرًا ^(٤) عَلِيٌّ قَفَاتَهُ وَأَوْرَثَهُ الْجُدَّ ^(٥) السَّعِيدُ مُعَاوِيَا
 وَقُوِي فَعَلِيَّ ^(٦) عَلَى ذَاكَ ^(٧) قَهْوَةً ^(٨) تَحْلِبُهَا الْعَيْسِيُّ كَرَمًا ^(٩) شَامِيًا ^(١٠)

(١) جاهري به (٢) لا أأكرم (٣) يعني جبل أحد ، وهو يشير بذلك الى انتصار
 المشركين على النبي صلى الله عليه وسلم في واقعة أحد سنة (٦٢٥ م) وكان قائد المشركين
 فيها أبو سفيان ، وكان النصر محققاً للمسلمين في بدئها ، فلما خالفوا أمر النبي وانتقلوا من
 مواضعهم ، كر عليهم المشركون وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، فيهم حمزة عم النبي ، واستطاع العدو
 أن يخلص الى النبي فيرميه بالحجارة ، ووقع لشقه ، فأصيدت ربايعته ، وشج وجهه ، وكملت
 شفته ، ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ، وسقط في إحدى الحفر التي حفرها
 المشركون ليقع فيها المسلمون ، فأخذه « علي » بيده ، ورفع طلحة بن عبيد الله ، وأحاط
 به جماعة من الأنصار والمهاجرين ، استبسلا في الدفاع عنه ، وفي هذه الموقعة أظهرت أم نسيبة
 بنت كعب ، شجاعة مدهشة وإقداماً يستفز الإعجاب والروعة ؛ فقد كانت تسقي الماء في أول
 النهار ، فلما رأت هزيمة المسلمين انحازت الى النبي وتقاتت في الذود عنه ، ضاربة بسيفها مرة ،
 ورامية عن قوسها أخرى ، حتى أثنختها الجروح .

وفي نهاية المعركة صعد أبو سفيان ربوة ، ونادى المسلمين بأعلى صوته : « أنعمت فعال ،
 إن الحرب سجال ، يوم بيوم بدر ، أعلُّ هَيْبُ ! »

(٤) يشير بذلك إلى أمر الخلافة التي تنازعها معاوية وعلي ، فقتل على دونها ونالها معاوية

(٥) الحظ (٦) اسقيني (٧) نخب ذلك (٨) خمرة (٩) عنباً

(١٠) المعنى : تعالي فحدثيني وأعطني أحاديثك الجميلة ، فلست أرضى كتمانها ، حدثيني عن هزيمة
 المسلمين في أحد ، وانتصار أبي سفيان عليهم ، وولولة باكياتهم على قتلاهم ، وحدثيني عن
 فشل « علي » في الحصول على الخلافة ، وانتصار معاوية عليه ، وإحرازها دونه ، ثم اسقيني
 نخب هذه الذكريات المحبوبة لخمرة لذيدة ؛ اعتصرها العيسى من عنب شامى .

إِذَا مَا نَظَرْنَا فِي أُمُورٍ قَدِيمَةٍ وَجَدْنَا حَلَالًا شُرِبَهَا الْمُتَوَالِيَا
فَلَا خُلْفَ بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ مُحَمَّدًا تَبَوَّأَ رَمْسًا فِي الْمَدِينَةِ ثَلَاثًا (١)
فَيَقُولُ : « عَلَيْكَ الْبَهْلَةُ ! قَدْ ذَهَلَتِ الشُّعْرَاءُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ،
عَنِ الْمُدْحِ وَالنَّسِيبِ (٢) ، وَمَا شُدِّهَتْ (٣) عَنْ كُفْرِكَ وَلَا إِسَاءَتِكَ ! »

وَابْلِيسُ يَسْمَعُ ذَلِكَ الْخُطَابَ كُلَّهُ ، فَيَقُولُ لِلزَّبَانِيَةِ : « مَا رَأَيْتُ أُعْجَزَ
مِنْكُمْ إِخْوَانَ مَالِكٍ ! أَلَا تَسْمَعُونَ هَذَا الْمُتَكَلِّمَ بِمَا لَا يَعْنِيهِ ؟ فَلَوْ أَنَّ فِيكُمْ
صَاحِبَ نَحِيْزَةٍ (٤) قَوِيَّةٍ ، لَوَثَبَ وَثْبَةً حَتَّى يَلْحَقَ بِهِ فَيَجِدُّهُ إِلَى سَقَرٍ ! »
فَيَقُولُونَ : « لَيْسَ لَنَا عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ سَبِيلٌ ! »

فَإِذَا سَمِعَ مَا يَقُولُهُ ابْلِيسُ ، أَخَذَ فِي شْتَمِهِ وَعَنْهٍ ، وَإِظْهَارِ الشَّمَاتَةِ بِهِ ،
فَيَقُولُ - عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ - : « أَلَمْ تُنْهَوْا عَنِ الشَّمَاتِ يَا بَنِي آدَمَ ؟ وَآكَنْتُمْ
- بِحَمْدِ اللَّهِ - مَا زَجَرْتُمْ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا وَرَكَبْتُمُوهُ (٥) » فَيَقُولُ : « أَنْتَ الَّذِي
بَدَأْتَ آدَمَ بِالشَّمَاتَةِ ، وَالْبَادِيُ أَظْلَمُ ! »

ثُمَّ يَعُودُ إِلَى كَلَامِ الْأَخْطَلِ فَيَقُولُ : « أَنْتَ الْقَائِلُ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ :
وَأَسْتُ بِصَائِمِ رَمَضَانَ طَوْعًا وَأَسْتُ بِأَكْلِ لَحْمِ الْأَضَاحِيِّ

(١) يقول : إذا تأملنا أقوال القدماء ، لم نجد أحداً منهم يحرم الخمر ، فإذا كان محمد قد
تفرد بتحريمها وحده ؛ فيها هو ذا محمد قدم مات ، فزال بموته الخلف في شأنها

(٢) التشبيب (٣) لم تدهش ولم تتحير وتشتغل بما أنت فيه (٤) طبيعة

(٥) وفي هذا المعنى يقول أبو العلاء في لزومياته :

الظوا بالقيح وتابعوه ولو أمروا به لتجنبوه

وَلَسْتُ بِقَائِمٍ كَالْعَيْرِ (١) أَذْعُو فَيْسَلَ الصَّبِيحَ : « حَى عَلَى الْفَلَاحِ »
وَلَكِنِّي سَأَشْرَبُهَا شَمُولًا (٢) وَأَسْجُدُ عِنْدَ مُبْلِجِ (٣) الصَّبَاحِ «
فَيَقُولُ : « اجَلْ ، وَإِنِّي لَنَادِمٌ سَادِمٌ ، وَهَلْ أَغْنَتْ النَّدَامَةُ عَنِّي
أَخِي كَسْعِ (٤) ؟ »

*
*
*

وَيَمْلُكُ مِنْ خِطَابِ أَهْلِ النَّارِ ، فَيَنْصَرِفُ إِلَى قَصْرِهِ الْمَشِيدِ ، فَإِذَا صَارَ عَلَى
مِيلٍ أَوْ مِيلَيْنِ ، ذَكَرَ أَنَّهُ مَا سَأَلَ عَنُّ مُهْلِلِ التَّغْلِي ، وَلَا عَنِّ الشَّنْفَرَى
وَتَابَّطَ شَرًّا ، فَيَرْجِعُ عَلَى أَذْرَاجِهِ ، فَيَقِفُ بِذَلِكَ الْمَوْقِفِ يُنَادِي :
« أَيْنَ عَدِيُّ ابْنِ رَبِيعَةَ ؟ » فَيُقَالُ : « زِدْ فِي الْبَيَانِ » فَيَقُولُ : « الَّذِي
يَسْتَشْهَدُ النَّحْوِيُّونَ بِقَوْلِهِ :

(١) الحمار (٢) خمر باردة (٣) عند إشراق الصباح

(٤) نادم سادم : إتياع ، أو الثانية بمعنى الأولى للتأكيد ، وكسع : حى من قيس عيلان ،
ومنه غامد بن الحرث الكسعي ، وقد اتخذ قوساً وخمسة أسهم ، وكان في محباً ليصطاد ، ففر
قطيع ، فرمى عيراً ، فنفذ السهم فيه ، ثم انطلق فصدم الجبل ، فأورى ناراً ؛ فظن الكسعي
أنه قد أخطأ ، فرمى ثانية وثالثة إلى آخر الأسهم ، وهو يظن أنه لم يصب ، فجزع ، وعمد إلى
قوسه فكسرها ، ثم بات ، فلما أصبح نظر فإذا الحمر مُطْرَحَةٌ مُصْرَعَةٌ ، وأسهمه بالدم
مضرجة ، فندم ، فقطع إبهامه ، وأنشد :

ندمت ندامة لو أن نفسي تطاوعني إذا لقطعت خمسي
تبين لي سفاهة الرأي مني - لعمر أيبك - حين كسرت قوسي

ويضرب المثل بندامة الكسعي ، فيقول الفرزدق :

« ندمت ندامة الكسعي لما غدت مني مطلقة نواراً »

والأدب العربي حافل بضرب الكسعي مثلاً لكل نادم .

ضَرَبَتْ صَدْرَهَا إِلَى وَقَالَتْ : « يَا عَدِيًّا! لَقَدْ وَقَتَكَ ^(١) الْأَوَاقِ ^(٢) ! »

وَقَدْ اسْتَشْهَدُوا لَهُ بِأَشْيَاءَ كَقَوْلِهِ :

وَلَقَدْ خَبَطْنَ ^(٣) بُيُوتَ يَشْكُرُ خَبْطَةً أَخْوَالَنَا . وَهُمْ بَنُو الْأَعْمَامِ

وَقَوْلِهِ :

مَا أَرْجَى بِالْعَيْشِ بَعْدَ نَدَامَى كُلُّهُمْ قَدْ سَقُوا بِكَأْسِ حَلَاقٍ ^(٤)

فَيُقَالُ : « إِنَّكَ لَتَعْرِفُ صَاحِبِكَ بِأَمْرٍ لَا مَعْرِفَةَ عِنْدَنَا مِنْهُ ،
مَا النَّحْوِيُّونَ ؟ وَمَا الْاسْتِشْهَادُ ؟ وَمَا هَذَا الْهَدْيَانُ ؟ نَحْنُ خَزَنَةُ النَّارِ ،
فَيَيْنَ غَرَصَكَ تُجِبُ إِلَيْهِ »

(١) حفظتك وصانتك عن الأذى (٢) جمع واقية وهي الشيء يتقى به ، ومعنى

البيت أنها دقت صدرها داعية أن لا يصيبني مكروه (٣) ضربهم ضرباً شديداً

(٤) الحَلَاقُ : المنية ، ومعنى البيت : « أى خير فى الحياة بعد أن أفنى الردى كل ندماى »

وهذا البيت من قصيدة المهلهل المشهورة التى يقول فيها :

طفلة ما ، ابنة المجال بيضا ، ، اعوب ، لذيذة فى العناق

فاذهبى ما إليك غير بعيد لا يؤاتى العناق من فى الوثاق

ضربت نحرها إلى ، وقالت : « يا عديا ! لقد وقتك الأواقى ! »

ما أرحى بالعيش بعد ندماى ، أراهم سقوا بكأس حلاق !

وهكذا يروى البيت الأخير فى كتب الأدب ، مخالفاً لرواية أبى العلاء

حديثه مع مهلهل^(١)

فَيَقُولُ : « أَرِيدُ الْمَعْرُوفَ بِمُهْلِهِ التَّغْلِبِيِّ ، أَخِي كَلَيْبِ وَأَبِي الَّذِي كَانَ يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ » فَيَقَالُ : « هَا هُوَ ذَا يَسْمَعُ حِوَارِكَ ، فَقُلْ مَا تَشَاءُ »

(١) مهلهل

اسمه « عدى » واسم أبيه « ربيعة التغلبي » وهو أخو كليب وخال امرئ القيس .
موطنه نجد .

يعزو اليه المؤرخون أنه أول من طول القصائد ، وأنه أحد من غنى من العرب في شعره ، وكان لاهياً حتى لقبه أخوه كليب « زير النساء » فلما قتل كليب كان المهلهل يعاقر الحمر فاهتاج ، واستحث قومه على أخذ النار ؛ وجز شعره وقصر ثوبه ؛ وهجر النساء والقمار والشراب ، وتفرغ للحرب ، ودامت تلك الحرب بين بكر وتغلب أربعين سنة ، وكانت سجلاً بينهما ، ثم اصطلحوا بعد ذلك .

ومن مختار شعره : رائيته الفذة ، وهي أشهر من أن نذكرها ، ومن أجل ما فيها قوله :

كأني — إذ نعى الناعى كليياً — تطاير بين جنبي الشرار

سألت الحى : « أين دفنتموه ؟ » فقالوا لى : « بأقصى الحى دار »

فسرت وقد غشى بصرى عليه كما دارت بشاربها العقار

وقوله من قصيدة أخرى :

يا لبكر ! أنشروا لى كليياً

يا لبكر ! فاطعنوا أو فحلوا

وقوله من قصيدة ثالثة :

أيلتنا بنى حُسم ! أنيرى

فإن يك بالذنائب طال ليلى

وأقذنى بياض الصبح منها

إذا أنت انقضيت فلا تحورى

فقد أبكى من الليل القصير

لقد أنقذت من شر كبير

فَيَقُولُ: «يَا عَدِيُّ بْنُ رَبِيعَةَ! أَعَزُّ عَلَيَّ بُولُوجِكَ هَذَا الْمَوْجِجَ! لَوْ لَمْ آسَفْ عَلَيْكَ إِلَّا لِأَجْلِ قَصِيدَتِكَ الَّتِي أَوْلَمَهَا:

الْيَلْتَنَّا بِنَدَى حُسَمٍ^(١) أُنِيرِي إِذَا أَنْتِ انْقَضَيْتِ^(٢) فَلَا تَحُورِي^(٣)
لَكَانَتْ جَدِيرَةً أَنْ تُطِيلَ الْأَسْفَ عَلَيْكَ ، وَقَدْ كُنْتُ إِذَا أُنْشِدْتُ
أَيَّاتَكَ فِي ابْتِكَ الْمَرْوَجَةِ فِي «جَنْبٍ»^(٤) ، تَغْرُورِقُ مِنَ الْحَزَنِ عَيْنَايَ ،

الى أن يقول ويبدع :

كواكب ليلة طالت وغمت فهذا الصبح راعمة فغورى
وبعد أن غلب في الحرب ، وأخذ أسيراً ، ثم عاد إلى أهله - جعل النساء يستخبرونه ،
تسأل المرأة عن زوجها وأبيها وأخيها ، ويسأل الغلام عن أبيه وأخيه ، فقال :
ليس مثلى يخبر الناس عن آ بأهم قتلوا ، وينسى القتلا
لم أرم عرصة الكتبية حتى اذ تعمل الورد من دماء نعالا
عرفته رماح بكر ، فما يأ خذن إلا لباته والقذالا
غلبونا - ولا محالة يوما يقلب الدهر ذاك حالا فحالا

(١) اسم مكان (٢) انتهيت (٣) لا ترجعي (٤) يشير بذلك إلى ذهاب مهمل
إلى اليمن بعد أن دامت الحرب المشهورة أربعين عاما ، واصطلح الحيمان جميعا ، وأبي مهمل
أن يقيم بينهم حتى لا يرى قاتل كليب ، فسار إلى اليمن ونزل في «جنب» من بني مذحج ،
فخطب إليه أحدهم ابنته ، فأبى أن يفعل فأجبروه على تزويجها ، وساقوا إليه صداقها جلودا
من آدم ، فقال في ذلك :

أعز علي تغلب بما لقيت أخت بني الأكرمين من جُشم
أنكحها فقدما الأراقم في جن ب ، وكان الحباء من آدم !
لو بأبائين جاء يخطبها ضرج ما أنف خاطب بدم
ليسوا بأكفائنا الكرام ، ولا يغنون من عيلة ولا عدم
أصبحت لا منفساً أصبت ، ولا أبت كرمياً حرا من الندم

فَأَخْبِرْنِي : لِمَ سُمِّيتَ مُهْلَهلاً ؟ فَقَدَّ قِيلَ : إِنَّكَ سُمِّيتَ بِذَلِكَ ، لِأَنَّكَ أَوَّلُ
مَنْ هَلَهَلَ الشَّعْرَ « أَيْ رَقَّقَهُ ، فَيَقُولُ : « إِنَّ الكَذِبَ كَثِيرٌ ، وَإِنَّمَا
كَانَ لِي أَخٌ يُقَالُ لَهُ امْرُؤُ القَيْسِ ، فَأَغَارَ عَلَيْنَا زُهَيْرُ بْنُ جَنَابِ الكَلْبِيِّ ،
فَتَبَعَهُ أَخِي فِي زَرَافَةٍ ^(١) مِنْ قَوْمِهِ ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ :

لَمَّا تَوَقَّلَ ^(٢) فِي الكِرَاعِ ^(٣) هَجَّجْنَهُمْ ^(٤) هَلَهَلْتُ ^(٥) أَثَارُ مَالِكًا أَوْ صَنِيلًا
فَسَمِّيَ مُهْلَهلاً ، فَلَمَّا هَلَكَ شُبِّهْتُ بِهِ ، فَقِيلَ لِي مُهْلَهْلٌ
فَيَقُولُ : « الْآنَ شَفَيْتَ صَدْرِي بِحَقِيقَةِ اليَقِينِ ! »

حديثه مع الشنفرى ^(٦)

وَسَأَلَ عَنِ الشَّنْفَرِيِّ الأَزْدِيِّ فَأَلْفَاهُ قَلِيلًا

(١) جماعة (٢) صعَّد أو توغَّل أو رقى (٣) الكراع : أنف يتقدم الحرة ممتد ،
أى جزء خارج ، والحرة كل أرض ذات حجارة نخرة سود كأنها أحرقت بالنار
(٤) قال أبو العلاء : يعنى بالهجين زهير بن جناب (٥) قال أبو العلاء : « قاربت ،
ويقال : توقفت »

(٦) الشنفرى

(قالوا : توفى سنة ٥٤٠ م)

اسمه ثابت بن أوس الأزدي ، موطنه الين ، وهو شاعر الأزدي ، ومن أشهر عدائى العرب .
ومعنى الشنفرى : « العظيم الشمتين » ومن أروع شعره قوله لما أسره « بنو سلامان » وأرادوا
قتله ، وقالوا له : « أين تقبرك ؟ » - فقد قال :

لا تقبرونى ، إن قبرى محرّم
وإذا حتمت رأسى - وفى الرأس أكثرى
عليكم ، ولكن أبشرى أمّ عامر
وغودر عند الملتقى - ثمّ - سائرى
سجيسن اللىالى ميسلاً بالجرائر
هنالك لا أرجو حياة تسرنى

التَّشَكُّي (١) وَالتَّائِمُ لِمَا هُوَ فِيهِ ، فَيَقُولُ : « إِنِّي لَا أَرَاكَ قَلِقًا مِثْلَ قَلْقِ أَصْحَابِكَ ! » فَيَقُولُ : « أَجَلٌ ! إِنِّي قُلْتُ يُبْتَأُ فِي الدَّارِ الْخَادِعَةِ ، فَأَنَا أَتَأَدَّبُ بِهِ ، وَذَلِكَ قَوْلِي :

غَوَى فَعَوَتْ ، ثُمَّ ارْعَوَى (٢) بَعْدُ وَارْعَوَتْ

وَاللَّقْبُرُ - إِنَّ لَمْ يَنْفَعِ الشُّكُوفُ - أَجْمَلُ (٣) »

(١) قليل التشكي أى قليل التوجع والتأوه ، وبذلك وصفه قرينه تأبط شرا فى قصيدة

جميلة منها :

قليل التشكى للمهم يصيبه كثير الهوى شتى النوى والمسالك
أى قليل التوجع لما يحزنه ، كثير السفر والتحول من مكان إلى آخر ، وستمرك القصيدة
فى ترجمة « تأبط شراً » فى الصحيفة التالية

(٢) كف ورجع عن الجهل

(٣) هذا البيت من لامية « الشنفرى » المشهورة التى نختار منها قوله :

أُدِيمُ مَطَالَ الْجُوعِ حَتَّى أُمَيْتِهِ وَأَضْرِبُ عَنْهُ الذِّكْرَ صَفْحًا فَأَذْهَلُ
وَاسْتَفَّ تَرَبُّبَ الْأَرْضِ كَيْ لَا يَرَى لَهُ عَلَى مِنَ الطُّوْلِ امْرُؤٌ مَطْوُلُ
وَلَوْلَا اجْتِنَابُ الدَّامِ لَمْ يَلْفِ مَشْرَبٌ يَعْشَى بِهِ إِلَّا لَدَيَّْ وَمَأْكَلُ
وَلَكِنْ نَفْسًا حَرَّةً لَا تَقِيمُ بِي عَلَى الضَّمِيمِ إِلَّا رَيْثًا أَتْحَوْلُ

حديثه مع تأبط شرا^(١)

وَإِذَا هُوَ قَرِينٌ مَعَ « تَأْبُطَ شَرًّا » كَمَا كَانَ فِي الدَّارِ الْغَرَارَةِ ، فَيَقُولُ لِتَأْبُطَ

(١) تأبط شرا (توفي سنة ٥٩٠ م)

كان من أشهر عدائي العرب وأبصرهم وأشدهم كيداً ، وكان ينظر إلى الظباء فيعدو وراء أسمئها فلا تفوته ، قالوا : أشهر عدائي العرب الذين لا تلحقهم الخيل : تأبط شراً ، والشنفرى ، وسليك بن السلكة ، وعمرو بن براق ، وأسير بن جابر

قالوا : « وكان تأبط شرا أعدي ذى رجلين وذى ساقين وذى عينين ، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة ، فكان ينظر إلى الظباء فينتقى - على نظره - أسمئها ثم يجرى خلفه ، فلا يفوته حتى يأخذه فيذبجه بسيفه ثم يشويه فيأكله . » وقد وصف « تأبط شرا » الغيلان في شعره كما سيمر بك في الصحيفة التالية . ومن أجل ما نختاره من شعره قوله يصف صديقه « الشنفرى » من قصيدة له :

كثير الهوى ، شتى النوى ^(٢) والمسالك	قليل التشكى لهم ^(١) يصيبه
جَحِيشًا ^(٤) ، وَيَعْرُورِي ^(٥) ظهور الممالك	يظل بموماة ^(٣) ، ويمسى بغيرها
بمخرق ^(٧) من شدة ^(٨) المتدارك ^(٩)	ويسبق وفد الريح ، من حيث ينتحي ^(٦)
له كالى ^(١١) من قلب شيجان ^(١٢) فاتك	إذا حاص ^(١٠) عينيه كرى النوم ، لم يزل
إلى سله من حد أخلق ^(١٤) صائك ^(١٥)	ويجعل عينيه ريثة ^(١٣) قلبه
نواجد أفواه المنايا الضواحك	إذا هزّه في عظم قرن تهلت
بحيث اهتدت أم النجوم الشوايك ^(١٦)	يرى الوحشة الأوس الأنيس ، ويهتدى

(١) المحزن (٢) الشفر أو التحول من مكان الى آخر (٣) مفازة واسعة (٤) منفردا (٥) يركب (٦) يميل في كل وجه (٧) حيث تهب الريح (٨) لإسراعه (٩) المتلاحق بعضه ببعض (١٠) حاص : خاط ، والمعنى هنا : « إذا اشتبكت أهداب جفونه وأخذ الكرى بمعاقدها » (١١) حافظ (١٢) حذر . أو شههم غيرور على الحرم . والمعنى أن قلبه اليقظ يجرسه حين ينام (١٣) رائدا ، واصل الريثة الرجل ينتظر العدو على جبل أو مكان عال لثلاثي يدهم قومه (١٤) أملىص مصمت (١٥) لاصق ، والمعنى هنا : أن سيفه مضرع بالدم (١٦) الحجر . وإنما سميت كذلك لاجتماع النجوم فيها واشتباك بعضها ببعض . والمعنى أنه يهتدى بالنجوم في الليل

شراً : « أَحَقُّ مَا رُوِيَ عَنْكَ مِنْ نِكَاحِ الْغِيلَانَ ^(١) ؟ » فيقول : « لَقَدْ كُنَّا

ومما يروونه عنه أنه لقي - ذات يوم - رجلاً من « ثقيف » يقال له : « أبو وهب » كان جباناً أهوجاً وعليه حلة جيدة ؛ فقال « أبو وهب » لتأبط شرا : « بم تغلب الرجال يا ثابت ، وأنت كما أرى دميم ضئيل ؟ » قال : « باسمي ، إنما أقول ساعة ما ألقى الرجل : أنا تأبط شرا ، فينخلع قلبه ، حتى أنال منه ما أردت ! »

فقال له الثقيفي : « أقطُّ ؟ » قال : « قط ! »

قال : « فهل لك أن تبيعني اسمك ؟ » قال : « نعم ، فبم تبتاعه ؟ » قال : « بهذه الحلة وبكنيتي » قال له : « افعل » ففعل ، وقال له تأبط شرا : « لك اسمي ولى كنتيك » وأخذ حلته وأعطاه طعريه ثم انصرف ؛ وقال في ذلك يخاطب زوجة الثقيفي :

ألا هل أتى الحساء أن حليلها تأبط شرا واكتنيت «أبا وهب» ؟
ففيه تسمى اسمي وسميت باسمه ، فأين له صبري على معظم الخطب ؟
وأين له بأس كبأسي وسورتي وأين له في كل فادحة قلبي !

(١) ذاع عن « تأبط شراً » لقاء الغيلان ونكاحهم والحرب معهم ، وقد رووا عنه أشعاراً مختلفة في ذلك وأخباراً هي أقرب إلى الأساطير والخيال منها إلى الحقيقة ، فمن شعره في الغيلان قوله من قصيدة :

واني قد لقيت الغول تهوى بسهب كالصحيفة صحصحان
فقلت لها : « كلانا نضو أينِ أخو سفر ، فخلّي لي مكاني »
فشدت شدة نحوى ، فأهوى لها كفي بمصقول يماني
فأضربها بلا دهش فخرت صريعا لليدين وللجران
فقلت : « عد » : فقلت لها : « رويداً مكانك ! إنني ثبت الجنان »
فلم أنفك متكئاً عليها لأنظر مصبعا ، ماذا أتاني
إذا عينان في رأس قبيح كرأس الهر مشقوق اللسان
وساقا مُخَدَع ، وشواة كلب وثوب من عباء أو شانان

فِي الْجَاهِلِيَّةِ نَتَقَوْلُ وَتَخْرُصُ^(١) ، فَمَا جَاءَكَ مِمَّا يُنْكِرُهُ الْمَعْقُولُ^(٢) ، فَإِنَّهُ مِنْ
الْأَكْذِيبِ . وَالزَّمَنُ كُلُّهُ عَلَى سَجِيَّةٍ وَاحِدَةٍ^(٣) ، فَالَّذِي شَاهَدَهُ مَعْدُ بْنُ عَدْنَانَ
كَالَّذِي شَاهَدَهُ نِضَاضَةُ^(٤) وَوَلَدِ آدَمَ «

فَيَقُولُ الشَّيْخُ : « نُقِلَتْ إِلَيْنَا آيَاتٌ تُنْسَبُ إِلَيْكَ :

أَنَا الَّذِي نَكَحَ الْغِيلَانَ فِي بَلَدٍ مَا طَلَّ^(٥) فِيهَا سَمَاكِيٌّ وَلَا جَادًا
فِي حَيْثُ لَا يَعْمِتُ الْعَادِي عَمَائَتَهُ وَلَا الظَّلِيمُ بِهِ يَبْغِي تَهْبَادًا^(٦)
وَقَدْ لَهَوْتُ بِمَصْقُولٍ عَوَارِضَهَا بَكَرٍ تُنَارِعُنِي كَأَسًا وَعِنْقَادًا^(٧)
ثُمَّ انْقَضَى عَصْرُهَا عَنِّي وَأَعْقَبَهُ عَصْرُ الْمَشْيَبِ ، فَقُلْ فِي صَالِحِ بَادَا «
فَاسْتَدَلَّتْ عَلَى أَنَّهَا لَكَ لَمَّا قُلْتَ : « تَهْبَادًا »

فَقُلْتُ هَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ فِي الْقَافِيَةِ :

« طَيْفُ ابْنَةِ الْحُرِّ - إِذْ كُنَّا نُوَاصِلُهَا -

ثُمَّ اجْتَنَنْتُ بِهَا بَعْدَ التَّفْرِاقِ^(٨) »

فَلَا يُحِبُّهُ تَابَطُ شَرًّا بِطَائِلٍ

(١) نكذب (٢) المعقول : العقل ، كالمجهود بمعنى الجهد ، والمعسور بمعنى العسر ، وما
إلى ذلك من المصادر التي جاءت على زنة مفعول . (٣) في هذا المعنى يقول أبو العلاء في
سقط الزند :

ألا إنما الأيام أبناء واحد وهذى الليالي كلها أخوات
فلا تطلبن من عند يوم وليلة خلاف الذي مرت به السنوات

(٤) قال أبو العلاء : « النضاضة : آخر ولد الرجل » (٥) لم يصبها الطل - وهو المطر الضعيف

(٦) المعنى : لا يظفر فيها فرخ النعام بالهبيد « الحنظل » لياً كله (٧) عنقودا (٨) التفرق

لفضل السائس

عودة إلى الفردوس

حديثه مع آدم

فَإِذَا رَأَى^(١) قَلَّةَ الْفَوَائِدِ لَدَيْهِمْ ، تَرَكَهُمْ فِي الشَّقَاءِ السَّرْمَدِ ، وَعَمَدَ لِمَحَلِّهِ
فِي الْجَنَانِ ، فَيَلْتَقِي آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي الطَّرِيقِ ، فَيَقُولُ : « يَا أَبَانَا ،
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ ، قَدْ رَوَى لَنَا عَنْكَ شِعْرٌ مِنْهُ قَوْلُكَ :

نَحْنُ بَنُو الْأَرْضِ وَسُكَّانُهَا مِنْهَا خُلِقْنَا وَإِلَيْهَا نَعُودُ
وَالسَّعْدُ لَا يَبْتَقِي لِأَصْحَابِهِ وَالنَّحْسُ تَمْحُوهُ لِيَالِي السُّعُودِ »

فَيَقُولُ : « إِنَّ هَذَا الْقَوْلَ حَقٌّ ، وَمَا نَطَقَهُ إِلَّا بَعْضُ الْحُكَمَاءِ ، وَلَكِنِّي
لَمْ أَسْمَعْ بِهِ حَتَّى السَّاعَةِ » فَيَقُولُ : « فَلَمَعَلَّكَ يَا أَبَانَا قُلْتَهُ ثُمَّ نَسِيتَ ، فَقَدْ
عَلِمْتَ أَنَّ النَّسِيَانَ مُتَسَرِّعٌ إِلَيْكَ ، وَحَسْبُكَ شَهِيدًا عَلَى ذَلِكَ الْآيَةِ الْمُتَلَوَّةُ
فِي قُرْآنِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ - : « وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ ، فَنَسِيَ^(٢)
وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا » وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّكَ سُمِّيتَ إِنْسَانًا لِلنَّسِيَانِ ،
وَاحْتِجَّ^(٣) عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ فِي التَّصْغِيرِ « أَنْبَسِيَانِ » وَفِي الْجُمُعِ أَنْاسِيٌّ ،
وَقَدْ رَوَى أَنَّ الْإِنْسَانَ مِنَ النَّسِيَانِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَقَالَ الطَّائِيُّ :

(١) أي ابن القارح (٢) وفي ذلك يقول أبو العلاء :

احتج في الغي بالنسيان والدهم وقد غووا - بادكار - لا أقول : نسوا

(٣) أتى بالحجة

« لَا تَنْسِينَ تِلْكَ الْعُهُودَ ، وَإِنَّمَا سُمِّيتَ إِنْسَانًا لِأَنَّكَ نَاسِيٌّ »
 فيقول آدم — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — : « أَيُّتِمُّمُ الْإِعْقُوقًا وَأُذِيَّةً ، إِنَّمَا
 كُنْتُ أَتَكَلَّمُ الْعَرَبِيَّةَ ، وَأَنَا فِي الْجَنَّةِ ، فَلَمَّا هَبَطْتُ الْأَرْضَ نُقِلَ لِسَانِي إِلَى
 السُّرْيَانِيَّةِ فَلَمْ أَنْطِقْ بِغَيْرِهَا إِلَى أَنْ هَلَكْتُ ، فَلَمَّا رَدَّنِي اللهُ — سُبْحَانَهُ
 وَتَعَالَى — إِلَى الْجَنَّةِ عَادَتْ عَلَيَّ الْعَرَبِيَّةُ ، فَأَيَّ حِينٍ نَظَمْتُ هَذَا الشُّعْرَ ، فِي
 الْعَاجِلَةِ أَمْ الْآجِلَةِ ؟ وَالَّذِي قَالَ ذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ قَالَهُ وَهُوَ فِي الدَّارِ
 الْمَاكِرَةِ ، أَلَا تَرَى قَوْلَهُ : « مِنْهَا خُلِقْنَا وَإِلَيْهَا نَعُودُ » ؟ فَكَيْفَ أَقُولُ هَذَا
 الْمَقَالَ وَلِسَانِي سُرْيَانِيٌّ ؟ وَأَمَّا الْجَنَّةُ قَبْلَ أَنْ أُخْرَجَ مِنْهَا فَلَمْ أَكُنْ أُدْرِي
 بِالْمَوْتِ فِيهَا ، وَأَنَّهُ مِمَّا حُكِّمَ عَلَى الْعِبَادِ ، وَأَمَّا بَعْدَ رُجُوعِي إِلَيْهَا فَلَا مَعْنَى
 لِقَوْلِي : « وَإِلَيْهَا نَعُودُ » لِأَنَّهُ كَذِبٌ لَا مَحَالَةَ ، وَنَحْنُ مَعَاشِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ
 خَالِدُونَ مُخَلَّدُونَ ! »

فيقول : « إِنَّ بَعْضَ أَهْلِ السَّيْرِ يَزْعُمُ أَنَّ هَذَا الشُّعْرَ وَجَدَهُ يَعْرَبُ فِي
 مُتَقَدِّمِ الصُّحُفِ السُّرْيَانِيَّةِ ، فَنَقَلَهُ إِلَى لِسَانِهِ ، وَهَذَا لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ ،
 وَكَذَلِكَ يَزُورُونَ لَكَ — صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ — لَمَّا قَتَلَ قَائِلُهَا بَيْلَ :

تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا فَوَجَّهُ الْأَرْضِ مُغْبِرٌ قَبِيحٌ
 وَأَوْدَى رُبْعُ أَهْلِهَا فَبَانُوا وَعُودِرَ فِي الثَّرَى الْوَجْهُ الْمَلِيحُ
 فيقول آدم — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — : « أَعَزَّ عَلَيَّ بِكُمْ مَعَشَرَ أَيْبِي !
 إِنَّكُمْ فِي الضَّلَالَةِ مُتَهَوِّكُونَ ^(١) ! آيَةٌ ^(٢) مَا نَطَقْتُ هَذَا النَّظِيمَ وَلَا

(١) متهورون أو متحيرون ، أي أنكم واقعون في الضلالة بغير مبالاة ولا روية ، خابطون
 فيها على غير هدى (٢) أقسمت

نُطِقَ فِي عَصْرِي ، وَإِنَّمَا نَظَّمَهُ بَعْضُ الْفَارِغِينَ ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ !
كَذَّبْتُمْ عَلَى خَالِقِكُمْ وَرَبِّكُمْ ، ثُمَّ عَلَى آدَمَ أَيِّكُمْ ، ثُمَّ عَلَى حَوَاءَ أُمَّكُمْ ،
وَكَذَبَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ! »

حديثه مع ذات الصفا

ثُمَّ يَضْرِبُ^(١) سَائِرًا فِي الْفِرْدَوْسِ ، فَإِذَا هُوَ بِرَوْضَةٍ مُؤْتَقَةٍ ، وَإِذَا هُوَ
بِحَيَّاتٍ يَلْعَبْنَ ، فَيَقُولُ : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ! وَمَا تَصْنَعُ حَيَّةٌ فِي الْجَنَّةِ ؟ »
فَيُنْطِقُهَا اللَّهُ — جَلَّتْ عَظْمَتُهُ — بَعْدَ مَا أَلْهَمَهَا الْمَعْرِفَةَ بِهَا جِسِ الْخَلْدِ ، فَتَقُولُ :
« أَمَا سَمِعْتَ فِي عُمْرِكَ بِذَاتِ الصِّفَا ، الْوَافِيَةَ لِصَاحِبِ مَا وَفَى ، كَأَنْتَ تَنْزِلُ
بِوَادِ خَصِيبٍ ، وَكَأَنْتَ تَصْنَعُ إِلَيْهِ الْجَمِيلَ فِي وَرْدِ الظَّاهِرَةِ^(٢) وَالْغَيْبِ ،
فَلَمَّا تَمَّرَ بِوَدِّهَا مَا لَهُ ، ذَكَرَ عِنْدَهَا ثَارَهُ ، وَوَقَفَ عَلَى صَخْرَةٍ ، وَهَمَّ أَنْ يَنْتَقِمَ
مِنْهَا بِأَخْرَةٍ^(٣) ، وَكَانَ أَخُوهُ مِمَّنْ قَتَلْتَهُ — فَضَرَبَهَا ، فَلَمَّا وُقِيَتْ ضَرْبَةً فَاسِهِ
— وَالْحَقْدُ يُمْسِكُ بِأَنْفَاسِهِ — نَدِمَ عَلَى مَا صَنَعَ أَشَدَّ النَّدَمِ ، وَقَالَ لِلْحَيَّةِ مُخَادِعًا :
« هَلْ لَكَ أَنْ تَكُونِ خَلِينِي ؟ » وَدَعَاهَا بِالسَّفِيهِ إِلَى حِلْفٍ ، فَقَالَتْ : « لَا أَفْعَلُ ،
إِنِّي أَجِدُكَ فَاجِرًا مَسْحُورًا^(٤) تَأْتِي لِي صَكَّةٌ^(٥) فَوْقَ الرَّأْسِ ، وَيَمْنَعُكَ مِنْ
أَرْبِكَ قَبْرٌ مَحْفُورٌ^(٦) . »

(١) أي ابن القارح (٢) الظاهرة الإبل الواردة كل يوم نصف النهار (٣) آخر كل شيء

(٤) مفسدًا مخادعًا (٥) ضربة شديدة (٦) يرجع من يريد التوسع في هذه القصة

إلى ص ٦٨ ج ٣ من كتاب الحيوان للجاحظ وص ٧٧ ج ٢ من مجمع الأمثال وص ٤٨

من ديوان النابغة

وَقَدْ وَصَفَ ذَلِكَ نَابِغَةُ بَنِي ذُبْيَانَ ، فَقَالَ :

وَإِنِّي لَأَلْتَقِي مِنْ ذَوِي الضَّغْنِ مِنْهُمْ
 كَمَا لَقَيْتَ ذَاتُ الصَّفَا مِنْ حَلِيفِهَا
 فَلَمَّا رَأَى أَنَّ نَمَرَ اللَّهِ مَالَهُ (١)
 أَكَبَّ (٢) عَلَى فَأْسٍ يَجِدُّ غُرَابَهَا (٣)
 وَقَامَ عَلَى جُحْرٍ لَهَا فَوْقَ صَخْرَةٍ
 فَلَمَّا وَقَاهَا اللَّهُ ضَرْبَةً فَأَسِىَهُ
 فَقَالَ : « تَعَالَى ، نَجْعَلُ اللَّهَ بَيْنَنَا
 فَقَالَتْ : « مَعَاذَ اللَّهِ أَفْعَلُ (٤) ، إِنِّي
 أَبِي لِي قَبْرٌ لَا يَزَالُ مُقَابِلِي
 وَمَا أَصْبَحَتْ تَشْكُو مِنْ أَلْبَتِّ سَاهِرَةٍ
 وَكَانَتْ تُرِيهِ الْمَالَ غِيًّا وَظَاهِرَةٍ
 فَأَصْبَحَ مَسْرُورًا ، وَسَدَّ مَفَاقِرَهُ (٥)
 مُذْكَرَةً مِنَ الْمَعَاوِلِ بَابِرَةٍ
 لِيَقْتُلَهَا أَوْ تُحْطِي الكَفَّ بِادِرَةٍ
 وَلِلْبُرِّ عَيْنٌ لَا تُغْمِضُ نَاطِرَهُ
 عَلَى مَا لَنَا ، أَوْ تُنْجِزِي لِي آخِرَهُ (٦) »
 رَأَيْتُكَ مَسْحُورًا ، يَمِينُكَ فَاجِرَهُ
 وَضَرْبَةَ فَأْسٍ فَوْقَ رَأْسِي فَاقِرَهُ (٧) »

وَتَقُولُ حَيَّةٌ أُخْرَى : « إِنِّي كُنْتُ أُسْكِنُ فِي دَارِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ، فَيَسْتَلُو
 الْقُرْآنَ لَيْلًا ، فَتَلَقَيْتُ الْكِتَابَ مِنْ أَوْلِهِ إِلَى آخِرِهِ .
 وَيَهِيكِرُ (٨) أَرْزَلَهُ اللَّهُ مَعَ الْأَبْرَارِ الْمُتَّقِينَ لِمَا سَمِعَ مِنْ تِلْكَ الْحَيَّةِ ، فَتَقُولُ
 هِيَ : « أَلَا تُقِيمُ عِنْدَنَا بُرْهَةً مِنَ الدَّهْرِ ! فَإِنِّي إِذَا سَدَّتُ انْتَفَضْتُ مِنْ إِهَابِي (٩) ،
 فَصِرْتُ مِثْلَ أَحْسَنِ غَوَانِي الْجَنَّةِ ، لَوْ تَرَشَّفْتَ رُضَابِي (١٠) لَعَلِمْتَ أَنِّي أَفْضَلُ

(١) نماه وكثره (٢) سد مفاقره أى اغتنى وسد وجوه فقره (٣) أقبل ولزومه
 (٤) حداها (٥) نشهد الله على تحالفنا (٦) أى أقسمت لا أفعل (٧) الفاقرة :
 الداهية التى تكسر الفقار وهو ما تنضد من عظام الصلب من لدن الكاهل الى العجز أى
 خرزات الظهر ، ومعناها هنا شديدة محطة (٨) يشتد عجه (٩) جلدى (١٠) ريق المرشوف

مِنَ الدَّرِيَاقَةِ^(١) الَّتِي ذَكَرَهَا ابْنُ مُقْبِلٍ^(٢) فِي قَوْلِهِ :

سَقَّتَنِي بِصَهْبَاءِ دَرِيَاقَةٍ مَتَى مَا تَلَيْتُ^(٣) عِظَامِي تَلِينٌ^(٤)

فَيَذَعُرُ مِنْهَا وَيَذْهَبُ مُهْرُوًّا فِي الْجَنَّةِ ، وَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ : « كَيْفَ يُرَكَّنُ إِلَى حَيَّةٍ ؟ » فَتُنَادِيهِ : « هَلُمَّ إِنَّ شِدَّتَ اللَّذَّةِ ، لَوْ أَقَمْتَ عِنْدَنَا إِلَى أَنْ تُخْبِرُ وَدُنَا وَإِنْصَافَنَا ، لَنَدِمْتَ إِنْ كُنْتَ فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ قَتَلْتَ حَيَّةً أَوْ عُثْمَانًا^(٥) »
فَيَقُولُ : « لَقَدْ ضَيَّقَ اللَّهُ عَلَيَّ مَرَّاشِفَ الْخُورِ الْحَسَانِ إِنْ رَضِيتُ بِرَشْفِ هَذِهِ الْحَيَّةِ ! »

عود إلى حوريته

فَإِذَا ضَرَبَ فِي غِيْطَانِ الْجَنَّةِ لَقِيَتْهُ الْجَارِيَةُ^(٦) الَّتِي خَرَجَتْ مِنْ تِلْكَ الشَّمْرَةِ ، فَتَقُولُ : « إِنِّي لَا أَنْتَظِرُكَ مِنْذُ حِينَ ، فَمَا الَّذِي شَجَبَكَ^(٧) عَنِ الْمُرَارِ ؟ مَا طَالَتْ الْإِقَامَةُ مَعَكَ ، فَأَمِلْ بِالْمُحَاوَرَةِ مَسْعَعَكَ ! » فَيَقُولُ : « كَانَتْ فِي نَفْسِي مَآرِبٌ مِنْ مُخَاطَبَةِ أَهْلِ النَّارِ ، فَلَمَّا قَضَيْتُ مِنْ ذَلِكَ وَطَرًا عُدْتُ إِلَيْكَ ، فَاتَّبَعِينِي بَيْنَ كُشْبِ الْعُتْبَرِ وَأَنْقَاءِ^(٨) الْمِسْكِ » فَيَتَخَلَّلُ بِهَا أَهَاضِيبَ الْفِرْدَوْسِ ، وَرِيَاضِ الْجَنَانِ ، فَتَقُولُ : « أَيُّهَا الْعَبْدُ الْمَرْحُومُ ، أَظُنُّكَ تَحْتَمِدِي بِي فِعَالِ الْكِنْدِيِّ^(٩) فِي قَوْلِهِ :

(١) الدررياقة هنا : الخمر ، وأصل معناها : دواء السم (٢) تقدمت ترجمة ابن مقبل

في ص ٦٦ من هذا الجزء ، وهو تميم بن أبي بن مقبل ، فراجع إن شئت .

(٣) تجعل عظامي لينة (٤) يقال : لينته ، فلان لى (٥) العثمان : فرخ الثعبان

(٦) ارجع إلى عنوان « حقائق الخور » في ص ١٠١ من هذا الجزء (٧) حبسك

أو منعك (٨) جمع نقا ، وهي القطعة من الرمل تنقاد محدودبة (٩) امرئ القيس

فَقَمْتُ بِهَا أُمِّسِي ، تَجْرُ وَرَاءَنَا عَلَى أَثْرَيْنَا ذَيْلَ مِرْطٍ^(١) مِرْحَلٍ^(٢)
فَلَمَّا أَجْزْنَا^(٣) سَاحَةَ الْحَى^(٤) وَانْتَحَى بِنَابُطُنٍ^٥ خَبْتِ^٦ ذِي حِقَافٍ^٧ عَقَنْقَلٍ^٨
هَصَرْتُ^٩ بِفَوْدِي رَأْسَهَا^{١٠} فَتَمَائَلَتْ عَلَى هَضِيمِ الْكَشْحِ^{١١} رِيَا الْمُخْلَخِلِ^{١٢}
فَيَقُولُ: « الْعَجَبُ لِقُدْرَةِ اللَّهِ ! لَقَدْ أَصَبْتَ مَا خَطَرَ فِي السُّوَيْدَاءِ^(١٣) فَمِنْ
أَيْنَ لَكَ عِلْمٌ بِالْكِنْدِيِّ ، وَإِنَّمَا نَشَأَتْ فِي ثَمْرَةٍ تُبْعِدُكَ مِنْ جِنِّ وَأَنْبَسٍ ؟ »
فَتَقُولُ : « إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ! »

*
*
*

وَيَعْرُضُ لَهُ حَدِيثُ امْرِئِ الْقَيْسِ فِي دَارَةِ جُلْجُلِ^(١٤) ، فَيُنِشِئُ اللَّهُ

(١) المرط: كساء من خز أو صوف، وقد تسمى الملاءة مرطاً (٢) منقش بنقوش تشبه
رجال الابل، ومعنى البيت أنها حين صحبتني أخذت تجر مرطها على آثار أقدامنا لتعفيها
به في أثناء سيرنا (٣) قطعنا (٤) فناء الحى أو رحبته (٥) البطن: مكان مطمئن حوله
أمكنة مرتفعة (٦) الخبت: الأرض المطمئنة (٧) جمع حقف، وهو رمل مشرف معوج
(٨) العقنقل: المنعقد المتلبد من الرمل. ومعنى البيت: لما جاوزنا فناء الحى وصرنا إلى
أرض مطمئنة تحيط بها مرتفعات وتلال من الرمل الخ (٩) جذبت (١٠) جانبي رأسها
(١١) ضامرة الكشح، وهو منقطع الأضلاع (١٢) الخلخل: موضع الخخال من الساق،
وريا للخلخل: معناها هنا: كثيرة لحم الساقين ممتلئتهما، ومعنى البيت: « أنه جذب إليه
ذؤابتها فالت إليه » ثم أخذ في وصفها فقال: « إنها ضامرة الكشح، ممتلئة الساقين »
(١٣) حبة القلب، أى أصبت ما في نفسى (١٤) يشير إلى قصته مع حبيبتة
(ابنة عمه عنيزة) والنساء في دارة جلجل، وقد ذكر تلك القصة في معلقته فقال:

الأرب يوم لك منهن صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل الخ

وقد امتلأت بها كتب الأدب، فلا حاجة إلى ذكرها هنا، وارجع إلى ص ٥ و ٦ و ٩٦ و
٩٧ و ٩٨ و ١٤٠ و ١٤١ من هذا الجزء ليكمل لك حديث امرئ القيس

— جَلَّتْ عَظْمَتُهُ — حُورًا يَتَمَاقَلْنَ^(١) فِي نَهْرٍ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ ، وَفِيهِنَّ مَنْ تَفَضَّلْنَ ، كَصَاحِبَةِ امْرِئِ الْقَيْسِ ، فَيَتَرَامَيْنَ بِالْتَّرَمِدِ — وَإِنَّمَا هُوَ كَأَجَلٍ طِيبِ الْجَنَّةِ — وَيَعْقِرُهُنَّ الرَّاحِلَةَ^(٢) فَيَأْكُلُ وَيَأْكُلْنَ مِنْ بَضِيعِهَا^(٣) مَا لَيْسَ تَتَّعُ الصِّفَّةُ عَلَيْهِ مِنْ إِمْتَاعٍ وَلَذَاذَةٍ .

جنة الرُّجَزِ

وَيَمُرُّ بِأَبْيَاتٍ لَيْسَ لَهَا سُموقٌ^(٤) أَيْبَاتِ الْجَنَّةِ ، فَيَسْأَلُ عَنْهَا ، فَيُقَالُ: «هَذِهِ جَنَّةُ الرُّجَزِ»^(٥) فَيَقُولُ: «تَبَارَكَ الْعَزِيزُ الْوَهَّابُ ، لَقَدْ صَدَقَ الْحَدِيثُ الْمَرْوِيُّ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأُمُورِ وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا» وَإِنَّ الرُّجَزَ لِمَنْ سَفْسَافَ الْقَرِيضِ^(٦) قَصَّرْتُمْ أَيُّهَا النَّفَرُ فَقَصَّرَ بِكُمْ!»

وَيَعْرَضُ لَهُ رُوْبَةٌ فَيَقُولُ: «يَا أَبَا الْجَحَافِ! مَا كَانَ أَكْلَفَكَ^(٧) بِقَوَافٍ لَيْسَتْ بِالْمُعْجَبَةِ، تَصْنَعُ رَجَزًا عَلَى الْعَيْنِ، وَرَجَزًا عَلَى الطَّاءِ، وَعَلَى الطَّاءِ، وَعَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْحُرُوفِ النَّافِرَةِ، وَلَمْ تَكُنْ صَاحِبَ مَثَلٍ مَذْكُورٍ، وَلَا لَفْظٍ يُسْتَحْسَنُ!» فَيَغْضَبُ رُوْبَةٌ^(٨) وَيَقُولُ: «أَلِي تَقُولُ هَذَا؟ وَعَنِّي أَخَذَ الْخَلِيلُ

وقد أشار أبو العلاء الى هذه الحادثة في لزومياته ، في قوله :

أين امرؤ القيس والعدارى إذ مال من تحته الغبيط ؟

(١) يسبحن ويفطسن (٢) الراحلة: النجيب الصالح لأن يرحل من الإبل ، والقوى على الأسفار ، وهو يشير بذلك إلى قول امرئ القيس: «ويوم عقرت للعدارى مطيتي» (٣) لحها (٤) ارتفاع (٥) الرُّجَزُ: جمع راجز (٦) ارجع إلى (ص ١٤١ و١٤٢) من هذا الجزء ليتضح لك رأى أبي العلاء في الرجز (٧) أى ما كان أشد حبك وولعك

(٨) رُوْبَةٌ بن العجاج (توفى سنة ١٤٥ هـ)

هو رُوْبَةٌ بن عبد الله البصرى التميمى . كنيته أبو محمد ، (وأصل الرُوْبَةُ القطعة من

وَكَذَلِكَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ ، وَقَدْ غَبَرَتْ^(١) فِي الدَّارِ السَّالِفَةِ تَفْتَحِرُ بِاللَّفْظَةِ
تَقَعُ إِلَيْكَ ، مِمَّا نَقَلَهُ أَوْلِيكَ عَنِّي وَعَنْ أَشْبَاهِي ؟ » فَإِذَا رَأَى مَا فِي رُؤْيَاةٍ مِنْ
الْإِنْخَاءِ^(٢) قَالَ : « لَوْ شِئْتُ رَجَزُكَ وَرَجَزُ أَبِيكَ لَمْ تَخْرُجْ مِنْهُ فَصِيدَةٌ مُسْتَحْسَنَةٌ ،
وَلَقَدْ كُنْتَ تَأْخُذُ جَوَائِزَ الْمُلُوكِ بَعِيرِ اسْتِحْقَاقٍ ، وَإِنْ غَيْرُكَ أَوْلَى بِالْأَعْطِيَةِ
وَالصَّلَاتِ » فَيَقُولُ رُؤْيَاةٌ : « أَلَيْسَ رَئِيسُكُمْ فِي الْقَدِيمِ ، وَالَّذِي ضَهَلَتْ^(٣)
إِلَيْهِ الْمُقَابِيسُ ، كَانَ يَسْتَشْهَدُ بِقَوْلِي وَيَجْعَلُنِي لَهُ كَالِإِمَامِ^(٤) ؟ »
فَيَقُولُ : « لَا فِخْرَ لَكَ أَنْ اسْتَشْهَدَ بِكَلَامِكَ ، فَقَدْ وَجَدْنَا هُمْ يَسْتَشْهَدُونَ
بِكَلَامِ أُمَّةٍ وَكَعَاءِ^(٥) ، وَكَمْ رَوَى النُّحَاةُ عَنْ طِفْلِ مَالِهِ فِي الْأَدَبِ » فَيَقُولُ رُؤْيَاةٌ :
« اجْتِئْتِ لِخِصَامِنَا فِي هَذَا الْمَنْزِلِ ؟ فَامْضِ لِطَيْبَتِكَ^(٦) فَقَدْ أَخَذْتَ بِكَلَامِنَا
مَا شَاءَ اللَّهُ ! » فَيَقُولُ : « أَقْسَمْتُ مَا يَصْلُحُ كَلَامُكُمْ لِلشَّيْءِ ، تَصْكُونُ مَسَامِعَ
الْمُتَمَدِّحِ بِالْجُنْدَلِ ، وَمَتَى خَرَجْتُمْ عَنْ صِفَةِ جَهْلِ تَرْتُونَ لَهُ مِنْ طُولِ الْعَمَلِ ،
إِلَى صِفَةِ فَرَسٍ أَوْ كَلْبٍ ، فَإِنَّكُمْ غَيْرُ الرَّاشِدِينَ ! » — فَيَقُولُ رُؤْيَاةٌ :
« إِنَّ اللَّهَ — سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى — قَالَ « يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ^(٧) فِيهَا
وَلَا تَأْتِيمٌ^(٨) » وَإِنَّ كَلَامَكَ لَمِنْ اللَّغْوِ ! »

الخشب يشعب بها الإناء) واسم أبيه العجاج ، اشتهر كما اشتهر أبوه من قبله بالرجز ، وستم
بك ترجمة أبيه في ص ١٩١

- (١) مكثت أو ظلت (٢) التكبر والتعاضم (٣) ضهل إليه : رجع (٤) لعل المراد :
الخليل بن أحمد ، فقد وضع مقاييس الشعر (٥) حمقاء ، وقيل الوكعاء هي التي تسقط وجعا
(٦) أي امض لنيك التي انتويتها ، أو اذهب إلى الناحية التي كنت تقصدها وامض
إلى سبيلك (٧) اللغو : ما لا يعتد به من الكلام ، أو القول الباطل الذي يصدر لا عن
روية وفكر (٨) فعل ما لا يحل

كَإِذَا طَالَتِ الْمُحَاطَبَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رُوْبَةٍ ، سَمِعَ الْعَجَّاجُ^(١) ، فَجَاءَ يَسْأَلُ
الْمُحَاجِزَةَ^(٢)

متاع الخلد

وَيَذْكَرُ الشَّيْخُ مَا كَانَ يَلْحَقُ أَخَا النَّدَامِ ، مِنْ فُتُورٍ فِي الْجَسَدِ مِنْ
الْمُدَامِ ، فَيَحْتَارُ أَنْ يَعْضُ لَهُ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنَزِفَ^(٣) لَهُ لُبُّ
فَإِذَا هُوَ يَخَالُ فِي الْعِظَامِ النَّاعِمَةَ دَيْبَ تَمَلٍ ، أَسْرَى فِي الْمُشْقَمَةِ عَلَى رَمَلٍ ،
فَيَتَرَنَّمُ بِقَوْلِ إِيَّاسِ بْنِ الْأَرْتِّ :

أَعَاذِلُ : لَوْ شَرِبْتَ الْخُمْرَ حَتَّى يَظَلَ لِكُلِّ أَنْعَمَةٍ دَيْبُ
إِذَا لَعَذَرْتَنِي وَعَلِمْتَ أُنِّي - لِمَا أَتَلَفْتُ مِنْ مَالِي - مُصِيبُ
وَيَتَسَكَّى عَلَى مَفْرَشٍ مِنَ السُّنْدُسِ ، وَيَأْمُرُ بِالْحُورِ الْعَيْنِ أَنْ يَحْمِلْنَ ذَلِكَ
الْمَفْرَشَ فَيَضَعْنَهُ عَلَى سَرِيرٍ مِنْ سُرُرِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّمَا هُوَ زَبْرَجْدٌ أَوْ عَسَجِدٌ
فَيَسْكُونُ الْبَارِيُّ فِيهِ حَلَقًا مِنَ الذَّهَبِ تُطِيفُ^(٤) بِهِ مِنْ سُكَّرِ الْأَشْرَاءِ^(٥) ، حَتَّى
يَأْخُذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَانِ ، وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْجَوَارِي الْمُشْتَبِهَةِ بِالْجَمَانِ^(٦) ،
وَاحِدَةً مِنْ تِلْكَ الْخَلْقِ . فَيَحْمَلُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ إِلَى مَحَلِّهِ الْمُسَيَّدِ بِدَارِ الْخُلُودِ
فَكَلَّمَا مَرَّ بِشَجَرَةٍ نَضَحَتْهُ^(٧) أَغْصَانُهَا بِمَاءِ الْوَرْدِ قَدْ خُلِطَ بِمَاءِ الْكَافُورِ

(١) العجاج (توفي سنة ٩٠ هـ)

هو عبد الله بن رُوْبَةٍ . كنيته أبو الشَّمَاءِ . وهو أبو رُوْبَةٍ الرجاز المشهور وقد مرت ترجمته
في ص ١٨٩ ، وكلاهما نال درجة رفيعة وشهرة واسعة في الرجز ، وقد ترك كل منهما ديواناً
ليس فيه إلا أراجيز (٢) المسألة (٣) من غير أن يذهب له عقل (٤) تحيط به
(٥) الأنحاء ، مفردا شرى (٦) اللؤلؤ (٧) رشتته ، كفضحته

وَبِمَسْكٍ مَا جُنِيَ مِنْ دِمَاءِ الْفُورِ^(١) ، بَلْ هُوَ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ الْكَرِيمِ .

*
* *

وَتُنَادِيهِ الثَّمَرَاتُ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ، وَهُوَ مُسْتَلْقٍ عَلَى الظَّهْرِ : « هَلْ لَكَ يَا أَبَا الْحَسَنِ هَلْ لَكَ ؟ » فَإِذَا أَرَادَ عُنُقُوداً مِنَ الْعِنَبِ أَوْ غَيْرِهِ ، انْقَضَبَ^(٢) مِنَ الشَّجَرَةِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ ، وَحَمَلَتْهُ الْقُدْرَةُ إِلَى فِيهِ ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ يَلْقَوْنَهُ بِأَصْنَافِ التَّحِيَّةِ . وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ !

﴿ تمت رواية الغفران ﴾

وانتهى الجزء الثاني

(١) الفور : الطباء (جمع فائر) ومن دماغها يخرج المسك ، قال المتنبي :

فإن تفق الأنام — وأنت منهم — فإن المسك بعض دم الغزال

(٢) انقطع

الجزء الثالث

القسم الثاني من الرسالة

الرد على رسالة ابن القارح

القسم الثاني

الرد على رسالة ابن القارح^(١)

قال أبو العلاء :

« وقد أطلت في هذا الفصل^(٢) ، ونعود الآن إلى الإجابة على الرسالة »

وفاء ابن القارح

فَهَمَّتْ قَوْلُهُ : « جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَهُ » لَا يَذْهَبُ بِهِ إِلَى التَّفَاقِ^(٣) — وَبَعْدَ
ابْنِ آدَمَ مِنَ الْوَفَاقِ — وَهَذِهِ غَرِيزَةٌ خُصَّ بِهَا الشَّيْخُ دُونَ غَيْرِهِ ، وَتَعَايَشَ
الْعَالَمُ بِخِدَاعِ ، وَأَضْحَوْا مِنَ الْكُذِبِ فِي إِبْدَاعِ^(٤) .

شيرين وكسرى

لَوْ قَالَتْ شِيرِينُ الْمَلِكَةَ لِكِسْرَى : « جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ » لَخَالَبَتْهُ فِي ذَلِكَ
وَنَافَقَتْهُ ، وَإِنْ رَاقَتْهُ وَوَافَقَتْهُ ، عَلَى أَنَّهُ أَخَذَهَا مِنْ حَالِ دَنِيَّةٍ ، فَجَعَلَهَا فِي
النُّعْمَى السَّيِّئَةِ ، وَعَتَبَهُ فِي ذَلِكَ الْأَحْبَاءِ ، وَجَرَّتْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ قِصَصٌ وَأَنْبَاءٌ ،
وَقِيلَ لَهُ — فِيمَا ذُكِرَ — : « كَيْفَ تَطِيبُ نَفْسُ الْمَلِكِ لِهَذِهِ الْمُؤْمِسِ ؟ »

(١) هي رسالة ابن القارح المنشورة بالجزء الأول من هذا الكتاب (٢) أي القسم
الذي وصف فيه الجنة والنار ، وهو الجزء الثاني من هذا الكتاب (٣) يعني أن ابن القارح
قال هذا الكلام مخلصاً فيه غير منافق (٤) أي في افتنان ، وقد امتلأ شعر أبي العلاء
ونثره بهذا المعنى وأشباهه ، ومن أدق ما قاله في ذلك قوله في لزومياته :

مين يردد ، لم يرضوا بباطله حتى أبانوا - إلى تصديقه - طرقاً

فَضْرَبَ لَهُمُ الْمَثَلَ بِالْقَدَحِ : جَعَلَ فِي الْإِنَاءِ الشَّعْرَ وَالْدَّمَّ ، وَقَالَ لِلْحَاضِرِ :
« تُجِيبُ نَفْسَكَ لِشُرْبِ مَا فِيهِ ؟ » فَقَالَ : « إِنَّهَا لَا تَطِيبُ ، وَهِيَ
بِالْأَنْجَاسِ قَطِيبٌ ^(١) » . فَأَرَأَقَ ذَلِكَ الشَّيْءَ وَغَسَلَهُ ، وَهَذَّبَ وَعَاءَهُ ،
وَجَعَلَ فِيهِ - مِنْ بَعْدُ - مُدَامًا ، وَعَرَضَهَا عَلَى النَّدَامَى ، فَكَلَّمَهُمْ بِهِشَ ^(٢)
أَنْ يَشْرَبَ . فَقَالَ : « هَذَا مِثْلُ شِيرِينَ »

غريزة النفاق

كَمْ مِنْ شَيْبَلٍ نَافَقَ أَسَدًا ، وَأَضْمَرَ لَهُ غِيلاً وَحَسَدًا ، وَضَيَّعَ نَقَمَ عَلَى
فِرْهُوْدٍ ، وَوَدَّ لَوْ دَفَنَهُ بِالْوَهُوْدِ .

(وَالْفِرْهُوْدُ وَلَدُ الْأَسَدِ ، وَهُوَ - آنَسَ اللَّهُ الْإِقْلِيمَ بِقُرْبِهِ - أَجَلٌ
مِنْ أَنْ يُشْرَحَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا أَفْرَقُ مِنْ وَقُوعِ هَذِهِ الرَّسَالَةِ فِي يَدِ
غُلَامٍ مُتَرَعِّعٍ ^(٣) ، لَيْسَ إِلَى الْفَهْمِ بِمُتَسَرِّعٍ ، فَتَسْتَعْجِمَ عَلَيْهِ اللَّفْظَةُ ،
فَيَظَلُّ مَعَهَا فِي مِثْلِ الْقَيْدِ) .

وَكَمْ خَالِبَتِ الذَّنَابُ السُّلُقَ ^(٤) ، وَفِي الضَّمَائِرِ تُكْنُ الْفِلَقُ ^(٥) !
يَقُولُ الْقَائِلُ : « يَا بِي أَنْتَ ، جَادَ عَمَلُكَ وَأَتَّقَنْتَ ! » وَلَوْ قَدَّرَ لَبَتَّ
الْوَدَجَ ^(٦) ، وَإِنَّمَا جَامِلٌ أَوْ سَدَجٌ ^(٧) !

(١) ممزوجة (٢) ارتاح له وخف اليه (٣) ناشيء (٤) الإناث من الذئاب
(جمع سِلْقَة) (٥) الدواهي (٦) عرق الأخدع الذي يقطعه الذابح فلا يبقى معه حياة
(٧) كذب وتقوّل الأباطيل ، ونحو من هذا المعنى قول أبي العلاء في لزومياته :
إذا جوسل الأقوام بالحق ، أصبحوا عداة ، فكل الأصفياء على خب

وَلَعَلَّ بَعْضَ الْعَتَارِفِ^(١) يَلْفِظُ إِلَى الْبَائِضَةِ حَبَّةَ الْبُرِّ، وَيَأْنَسُ بِهَا، وَفِي
فُؤَادِهِ مِنَ الضُّغْنِ أَعَاجِيبُ!

*
* *

وَكَيْفَ يَقُولُ الْحَلِيلُ الْمُخْلِصُ: إِنَّ حَنِينَهُ حَنِينُ وَالِهِ مِنَ الشُّوقِ. وَهِيَ
الذَّاهِلَةُ إِنْ حَمَلَ عَلَيْهَا بَعْضُ الْوُسُوقِ، وَإِنَّمَا تَسْجَعُ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا، ثُمَّ يَكُونُ
سُلُوكُهَا مُتَّبَعًا. فَأَمَّا الْحَمَامَةُ الْهَاتِفَةُ، فَقَدْ رَزَقَهَا الْبَارِئُ صَيْتًا شَائِعًا، فَظَلَّ
وَصَفَهَا بِالْأَسْفِ ذَائِعًا، تَنَهَّضُ إِلَى التَّقَاطِ حَبِّ، وَتَعُودُ إِلَى جَوْزِلِهَا^(٢)
ذَاتَ أَبٍ^(٣)، فَإِنَّ هِيَ صَادِقَتُهُ أَكِيلَ بَارٍ، فَمَا هِيَ إِلَّا مِثْلُ الْحَيَوَانِ، تَمَلُّ
حَالَهَا فِي أَقْصَرِ أَوَانٍ^(٤) وَقَدْ زَعَمَ زَاعِمٌ— لَا يُصَدِّقُ— أَنَّ الْحَمَائِمَ فِي هَذَا الْعَصْرِ
يَبْكِينَ مُقْعَدًا هَلَكًا فِي عَهْدِ نُوحٍ، وَإِنَّ دَوَامَهَا عَلَى ذَلِكَ لَدَلِيلُ الْوَفَاءِ^(٥)،

وقوله: يلقاك بالماء النخير الفتى وفي ضمير النفس نار تقدا!

(١) جمع عتروف أو عتريف، وهو الخبيث الفاجر الجريء. والبائضة: الدجاجة
(٢) فرخها (٣) كلاً (٤) كرر أبو العلاء هذا المعنى بصور شتى في لزومياته.
فمن ذلك قوله عن الظبي:

عجبت للظبي، بانت عنه صاحبة لاقت جنود منايا لا تناخيا
فارتاع يوما، ويوما، ثم ثالثة ومال بعد إلى أخرى يواخيا
ما شد صرف زمان عقدة لأذى إلا ومر لياليه يراخيا

(٥) أشار أبو العلاء إلى هذا المعنى في كتابه سقط الزند بقوله:

أبنات الهديل أسعدن أو عد ن قليل العزاء بالإسعاد
إيه لله دركن فأتتن اللواتي تحسن حفظ الوداد
ما نسيتن هالكاً في الأوان ال خال أودي من قبل هلك إباد

وَمَا الْعِوَضُ عَنْ خَلِيلِ الصَّفَاءِ ؟ لَا عِوَضَ وَلَا نَائِبَ إِلَّا فِيهِ ، وَكَيْفَ يُعْتَبَرُ
الزَّمَنُ عَلَى تَجَافِيهِ ، وَإِنَّمَا حُشِيَ بِشَرٍّ وَغَدْرٍ . وَمَا أَقَلَّ صِدْقَ الْأَلْفِ ، وَلَوْ
يَبْعُوهُ مِنَ الذَّهَبِ بِأَلْفٍ !

المعري يتبرأ من العلم

وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ مِنْ حَالِي ، فَطَالَمَا أُعْطِيَ الْوَتْنَ سُعُودًا^(١) ، وَأَحْدِفُ كَيْمِينَ
أَمْرِي الْقَيْسُ :

« فَقُلْتُ : يَمِينَ اللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي »
إِنِّي لَمَكْذُوبٌ عَلَيْهِ ، كَمَا كَذَبَتِ الْعَرَبُ عَلَى الْعَوْلِ . وَكَمَا تَقَوْلَتْ
الْأُمَثَالُ السَّائِرَةَ عَلَى الضَّبِّ ، وَكَمَا تَكَلَّمَتْ عَلَى لِسَانِ الضَّبِّ وَهِيَ خَرَسَاءُ .
يُظَنُّ أَنِّي مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ^(٢) وَمَا أَنَا لَهُ بِالصَّاحِبِ ، وَتِلْكَ لَعَمْرِي بَلِيَّةٌ ،

(١) الوتن : الصنم ، ومما نختاره من لزومياته ، في هذا المعنى ، قوله :

وبالجد زار اللات أهل ضلالة وعظمت العزى ، وأكرم باجر
وهي أسماء أصنام ثلاثة أولها لتقيف وكان بالطائف ، وثانيها لقريش وكنانته ، وثالثها
لقضاة ومن والاهم

(٢) تبرأ أبو العلا في مواضع كثيرة من لزومياته ، من مظنة العلم ، ومن أحسن
ما نختاره له في هذا المعنى قوله :

أقررت بالجهل ، وادعى فهمي قوم ، فأمرى وأمرهم عجب
والحق ، أنى وأنهم هدر لست نجيباً ، ولا هم نجب
وقوله :

الله يشهد أنى جاهل ورع فليحضر الناس إقرارى وإشهادى
« ورع : جبان »

وَالْعُلُومُ تَفْتَقِرُ إِلَى مِرَاسٍ^(١) ! وَيُقَالُ : إِنِّي مِنْ أَهْلِ الدِّينِ ، وَلَوْ ظَهَرَ مَا وَرَاءَ
السَّيِّدِينَ ، مَا اقْتَنَعَ لِي الْوَاصِفُ بِسَبِّ .

وَكَيْفَ يُدْعَى لِلْعَلِيجِ الْوَحْشِيِّ ، أَنَّ تَغْرِيدَهُ فِي السَّحَرِ أَشْعَارُهُ مَوْزُونَةٌ ؟
وَهَلْ يُصَوَّرُ لِعَاقِلٍ أَنَّ الْغُرَابَ النَّاعِبَ صَدَحَ بِتَشْبِيبٍ ؟ فَبَعْدَ مَنْ زَعَمَ أَنَّ
الْحَجَرَ مُتَكَلِّمٌ ، وَأَنَّهُ عِنْدَ الضَّرْبِ مُتَنَلِّمٌ !

وَلَوْ أَنِّي لَا أَشْعُرُ بِمَا يُقَالُ فِيَّ ، لَأَرَحْتُ مِنْ إِنْكَارِي وَتَلَافِيٍّ ، وَكُنْتُ
كَالْوَشِيِّ سَوَاءٍ عَلَيْهِ أَنْ يُقَرَّ^(٢) وَأَنْ أُوقَرَّ^(٣) ، وَكَالْأَرْضِ السَّبْحَةِ مَا تَحْفَلُ
أَنْ قِيلَ : « هِيَ مَرِيعةٌ » ، أَوْ قِيلَ : « بَدَسَتْ الزَّرِّيعةُ^(٤) » .

(١) ممارسة وشدة (٢) من الوقار (٣) صدع (٤) من أحسن ما نختاره لأبي العلاء

في هذا المعنى قوله :

ما يحس التراب ثقلاً - إذا ديس - ولا الماء يتعب الجريان
وقوله :

أما الجهاد ، فإني بت أغبطه إذ ليس يعلم إما زاد أو محقا
لا يشعر العود بالنار التي أخذت فيه ، ولا الأصهب الداري إذا سحقا
وقوله :

عز الذي أعفى الجهاد فماترى حجراً يغص بما كل أو يشرق
متعرياً في صيفه وشتائه ما ريع قط للمبس يتخرق
لا حس يؤلمه ، فيظهر مجزعاً إن راح يضرب ملطس أو مطرق
إلى أن يقول :

والصخر يلبث لا يقارف مرة ذنباً ، ولا هو من حياء مطرق
ولعل هذه الميزة التي ذكرها للجهاد في هذا البيت الأخير ، هي التي جعلته يقول :
أفضل من أفضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب

وَكَيفَ اُعْتَبِطُ إِذَا تُخَرِّصَ عَلَيَّ ، وَعُزِّيتِ الْمَعْرِفَةُ إِلَيَّ ، وَلَسْتُ أَمِينًا
فِي الْعَاقِبَةِ فَضِيحَةً ، وَمَثَلِي — إِنْ جَدَلْتُ بِدَلِكَ — مَثَلُ مَنْ أَتَاهُمْ بِمَالٍ ، فَسَرَّهُ
قَوْلُ الْجَهْلَةِ إِنَّهُ خَلَفَ الْيَسَارَ ، فَطَلَبَ مِنْهُ بَعْضُ السَّلَاطِينِ أَنْ يَحْمِلَ إِلَيْهِ جُمْلَةً
وَإِفْرَةً ، فَصَادَفَ أَكْذُوبَةً زَافِرَةً^(١) ، وَضَرَبَهُ كَتَى يُقِرُّ ، وَقُتِلَ فِي الْعُقُوبَةِ !
وَقَدْ شَهِدَ اللَّهُ أَنِّي أَجْدَلُ بِمَنْ عَابَنِي ، لِأَنَّهُ صَدَقَ فِيمَا رَأَيْتُ ، وَأَهْتَمُّ لِثَنَائِكَ
مَكْذُوبٌ^(٢) ، فَغَفَرَ اللَّهُ لِمَنْ ظَنَّ حَسَنًا بِالْمُسِيِّ . وَلَوْ لَا كَرَاهَتِي حُضُورًا بَيْنَ
النَّاسِ ، وَإِثَارِي أَنْ أَمُوتَ مَيِّتَةً عَلَيْهِ^(٣) فِي كِنَاسٍ^(٤) ، فَاجْتَمَعَ مَعِيَ أَوْلِيَاكَ

(١) كبيرة (٢) يهتم له : يحزن ، ومما نختاره لأبي العلاء في هذا المعنى قوله في لزومياته :
وأزهد في مدح الفتى عند صدقه فكيف قبولى كاذبات المدائح ؟
وقوله :

إذا كان التقارض من محال فأحسن من مدائحننا التهاجي
(٣) العلب : الظبي (٤) الكناس : بيت الظبي في الشجر يستتر فيه
العزلة

وإيثار أبي العلاء العزلة معروف بل هو من أزم صفاته ، وحسبك دليلاً على ذلك ،
ما لقب به نفسه من أنه « رهن المحبين » والإفاضة في الاستشهاد بما قاله في الترغيب في
العزلة والحث عليها ، إطالة لا فائدة منها ، فلنكتف من ذلك بنخبة قليلة من شعره في بيان
فضلها عنده ، كقوله :

بعدي عن الناس خير من لقاءهم وقربهم للحجى والدين أدواء
كاليتم أفرد ، لا إبطاء يدخله ولا سناد ، ولا في اللفظ إقواء
وقوله متضجراً من التكاليف الثقيلة التي يحتمها عليه الاختلاط بالناس :
لقاء الناس أجزأني برغمي إلى حسن التجمل والنفاق

الْجَائِلُونَ ، لَصَحَّ أَنَّهُمْ عَنِ الرَّشْدِ حَائِلُونَ .

ونحب ألا يفوت القارئ جمال هذا البيت الرائع وهو قوله :
متى ما يأتني أجلى بأرضي فحي على الجنازة للغريب
وقوله معللا ميله الى العزلة وأخذه بها :
ولى مذهب - فى هجرى الأانس - نافع
أرانا على الساعات فرسان غارة
ومما يزيد العيش إخالق ملبس
وقوله :
اجتنب الناس ، وعش واحداً
لا تظلم الناس ولا تظلم
وقوله :
تمنيت أنى بين روض ومنهل
مع الوحش ، لا مصراً أحل ولا كفراً
وقوله :
يُقل الأذى والعيب فى ساحة الفتى
- وإن هو أكدى - قلة الجلساء
وقوله :
بوحداينة العلام دنا
وقوله يؤثر العزلة - حتى بعد الموت - :
إذا حان يومى فلأوسد بموضع
هم الناس - إن جازاهم الله بالذى
يرى عنتاً فى قرب حى وميت
فيا ليتنى لا أشهد الحشر فيهم
إذا تم فيما تؤنس العين مضجعى
وقوله :
وددت وفاتى فى مهمه به لامع ليس بالمعلم

وَأَمَّا وَرُودُهُ «حَلَبَ» - حَرَسَهَا اللَّهُ - فَلَوْ كَانَتْ تَعْقِلُ ، لَفَرِحَتْ بِهِ
فَرِحَ الشَّمْطَاءُ ، شَحَطَ سَلِيلُهَا الْوَاحِدُ - وَمَا هُوَ لِحَقِّهَا جَاحِدٌ - وَقَدِمَ بَعْدَ
أَعْوَامٍ ، فَتَقَعَتْ بِهِ فَرَطٌ أَوْامٍ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعَادَ الْبَارِقَ إِلَى الْعَمَامِ الْوَسْمِيِّ .

الانتحار

وَإِنِّي لِأَعْجَبُ مِنْ تَمَلُّي جَمَاعَةٍ ، عَلَى أَمْرٍ لَيْسَ بِالْحَسَنِ وَلَا الطَّاعَةِ . قَدْ
كَدتْ أَلْحَقَ بِرَهْطِ الْعَدَمِ ، مِنْ غَيْرِ الْأَسْفِ وَلَا النَّدَمِ ، وَلَكِنَّمَا أَرْهَبُ
قُدُومِي عَلَى الْجَبَّارِ ، وَلَمْ أُصْلِحْ نَحْلِي بِإِبَارٍ ، وَقِيلَ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ : « إِنْ
فُلَانًا تَلَطَّفَ حَتَّى قَتَلَ نَفْسَهُ ، وَكَرِهَ أَنْ يُمَارَسَ بَدَائِعَ الشَّرُورِ ، وَأَحَبَّ النُّقْلَةَ
إِلَى مَنَازِلِ الشَّرُورِ » فَقَالَ الْحَكِيمُ قَوْلًا مَعْنَاهُ : « أَخْطَأَ ذَلِكَ الشَّابُّ الْمُقْتَبِلُ ،
هَلَا صَبَرَ عَلَى صُرُوفِ الزَّمَانِ ، فَإِنَّهُ لَا يَشْعُرُ عَلَامَ يَقْدَمُ »
وَلَوْلَا حِكْمَةُ اللَّهِ - جَلَّتْ قُدْرَتُهُ - وَأَنَّهُ حَجَزَ الرَّجُلَ عَنِ الْمَوْتِ ،
بِالْخَوْفِ مِنَ الْعَلَزِ (١) وَالْفَوْتِ (٢) لَرَغِبَ كُلُّ مَنْ احْتَدَمَ غَضْبُهُ ، وَكَلَّ عَنْ
ضَرِيبَةِ مِقْضَبِهِ ، أَنْ تُتْرَعَ (٣) لَهُ مِنَ الْمَوْتِ كُوُوسٌ (٤)

أموت به واحدا مفردا وأدفن في الأرض لم تُظلم (١)
وأبعد عن قاتل : « لا سلمت » وآخر قال : « ألا يا اسلم ! »
أحاذر أن تجعلوا مضجعي إلى كافر - خان - أو مسلم
إذا قال : « ضايقتني في المحل » قلت : « أساؤا ولم أعلم »
(١) الأضطراب والهلع (٢) الضياع (٣) تملأ (٤) أبدع أبو العلاء في
صوغ هذا المعنى في قوله :

أبو القطران الأسدي

وَأَمَّا أَبُو الْقَطْرَانِ الْأَسَدِيُّ - وَأَيُّ الْبَشَرِ مِنَ الْخُطُوبِ مَفْدِيٌّ -
فَصَاحِبُ غَزَلٍ وَتَبَطُّلٍ ، وَتَوَفَّرَ عَلَى الْخُرْدِ وَتَعَطَّلَ ^(١) ، وَهُوَ ذَلِكَ الْمُتَهَيِّمُ إِلَى
« وَحْشِيَّة » ، وَإِنَّمَا وَدَّ الْعَانِيَةَ خِلَابٌ وَخِدَاعٌ ، وَلِلْكَمْدِ فِي هَوَاهُ ابْتِدَاعٌ ، وَلَوْ
هَلَكَتِ تِلْكَ الْمَرْأَةُ وَالْمَرَارُ ^(٢) يَعِيشُ - لَعَدَّ أَنَّهُ بَتَلْفِهَا نَعِيشٌ ، لَا سِيَّمَا
بَعْدَ السَّنِّ الْعَالِيَةِ ، وَقُوَّةِ النَّفْسِ الْآلِيَةِ ^(٣)

وَلَعَلَّ « أَبَا الْقَطْرَانِ » لَوْ مُتَّعَ بِهَذِهِ الْمَذْكُورَةِ مَا يَكُونُ قَدْرُهُ مِائَةَ
حِقْبَةٍ ^(٤) ، عَلَى غَيْرِ الْجَزَعِ وَالرَّقْبَةِ ، جَلَّازٌ أَنْ يَغْرَضَ مِنَ الْوَصَالِ - إِذَا عَلِمَ أَنَّ
حَبْلَهُ فِي اتِّصَالٍ ؛ وَلَوْ نَزَلَ بِهَا شَيْءٌ تَتَغَيَّرُ بِهِ عَنِ الْعَهْدِ ، لَتَمَنَّى أَنْ تُقْذَفَ إِلَى
غَيْرِ الْمَهْدِ ^(٥) ، لِأَنَّ ابْنَ آدَمَ بِجَيْلٍ مُلُولٌ ، وَلَوْ أَصَابَهَا الْعَوْرُ ، بَعْدَ أَنْ سَكَنَ
عَيْنَهَا الْحَوْرُ ، لَظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ نَبَأٌ لَا يُغْفَرُ وَلَا يُكْفَرُ !

وَمِنْ أَيْنَ لِدَلِكِ الشَّخْصِ الْأَسَدِيِّ مَا وَهَبَهُ اللَّهُ لِلشَّيْخِ مِنْ وَفَاءٍ ، وَإِنَّمَا
عَاشَرَ « أَبَا الْقَطْرَانِ » أَعْبُدًا فِي الْإِبْلِ وَآمِيًا ، وَلَعَلَّهُ لَوْ صَادَفَ غَانِيَةً تَزِيدُ
عَلَى « وَحْشِيَّة » بِشِقِّ الْأَبْلَمَةِ ^(٦) ، لَسَلَّاهَا غَيْرَ الْمُؤَلِّمَةِ ^(٧) ، وَإِنَّمَا دَيْدَنُ ذَلِكَ

لولم تكن طرق هذا الموت موحشة مخشية ، لاعتراها القوم أفواجا
وكان من أقت الدنيا إليه أذى يؤمها تاركا للعيش أمواجا

(١) التبطل والتعطل بمعنى واحد وهو البقاء بغير عمل ، وقد قيل : « شر الفتيان المتبطل

للتعطل » (٢) هو أبو القطران ، والتعيس : المحمول على النعش (٣) غير المستطبعة

(٤) سنة (٥) إلى غير الراحة ، أى لتمنى أن تضيق بها الحال (٦) الأبلمة بقله ،

وشق الأبلمة أى نصفها (٧) من غير أن تؤلمه

الرَّجُلَ وَنَظَرَإِيهِ صِفَةً نَاقَةً أَوْ رَبِيعٌ ، وَمَا شَجَرُهُ الْمُعْتَرَسُ بِالنَّبْعِ (١) ، إِذَا جَنَى
الْكَمَاةَ بِجَحَّ ، وَخَالَ أَنَّهُ قَدْ نَجَحَ ! وَلَوْ حَضَرَ أَخُونَهُ حَضَرَهَا « الشَّيْخُ » لَعَادَ
كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :

فَلَوْ كُنْتَ عُدْرِيَّ الْعَلَاقَةَ ، لَمْ تَبْتَ بِطِينًا ، وَأَنْسَاكَ الْهَوَى كَثْرَةَ الْأَسْكِ !
وَهُوَ — قَدَّرَ اللَّهُ لَهُ مَا أَحَبَّ — قَدْ جَالَسَ مُلُوكَ مِصْرَ الَّتِي قَالَ فِيهَا
فِرْعَوْنُ : « أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ، أَفَلَا
تُبْصِرُونَ ؟ » وَقَدْ أَقَامَ بِالْعِرَاقِ زَمَانًا طَوِيلًا ، وَبِالْعِرَاقِ مَمْلَكَةُ فَارِسَ ، وَهُمْ
أَهْلُ الشَّرْفِ وَالظَّرْفِ ، وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ قَدْ جَالَسَ بَقَايَاهُمْ ، وَاخْتَبَرَ فِي الْمُعَاشَرَةِ
سَجَايَاهُمْ ، وَعَاطَوْهُ الْأَكْوَسَ الْآتِ التَّصَاوِيرِ ، عَلَى عَادِ (٢) الْمَرَازِبَةِ وَالْأَسَاوِيرِ ،
كَمَا قَالَ الْحَكَمِيُّ (٣) :

تَدُورُ عَلَيْنَا الْكَأْسُ فِي عَسَجِدِيَّةٍ حَبَّتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ
قَرَارَتْهَا كِسْرَى ، وَفِي جَنَبَاتِهَا مَهَى تَدَّرِيهَا بِالْقِسِيِّ الْفَوَارِسِ (٤)

(١) النبع شجر تعمل منه القسي ، وفي ذلك يقول أبو العلاء في سقط الزند :
وقال « الوليد » : النبع ليس بمشعر وأخطأ ، سرب الوحش من ثمر النبع !
يعنى بالوليد البحترى ، ويرد على قوله :

وعيرتني خلال العدم آونة والنبع عريان ، ماني عوده ثمر !

(٢) عادات (٣) هو أبو نواس ، وقد مرت ترجمته في الجزء الثاني (ص ١٠)

(٤) هذان البيتان من قصيدة أبي نواس السينية الرائعة المشهورة وهي :

ودار ندای عطلوها وأدلجوا ، بها أثر منهم — جديد ودارس
مساحب من جر الزقاق على الثرى وأضغاث ريحان جنى ويا بس
حبست بها صبحي ، فجددت عهدهم وإني — على أمثال تلك — لحابس

التفصيل

وَمَا أَشْكُ أَنَّهُ - أَمْتَعَ اللَّهُ الْأَدَابَ بِبَقَائِهِ - لَوْ رُزِقَ مُحَاوَرَةَ أَبِي الْأَسْوَدِ
- عَلَى عَرَجِهِ وَبُخْلِهِ - لَكَانَتْ مِقْتُهُ لَهُ أَبْلَغَ مِنْ مِقَّةِ مَهْدِيٍّ لِيَلَاءِهِ. وَلَوْ كَانَ
أَبُو عُبَيْدَةَ أَذْفَرَ الْفَمِ، لَمَا أَمِنْتُ مَعَ كَلْفِهِ ^(١) بِالْأَخْبَارِ، أَنَّ يُقْبَلَهُ شَقَّ
الْبَلْسَةِ ^(٢)، وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ عَالِشَةَ - رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهَا: - «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ
- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُقْبَلُنِي شَقَّ التَّيْنَةِ» وَرَوَى بَعْضُهُمْ: «شَقَّ التَّمْرَةَ»
وَذَلِكَ أَنْ يَأْخُذَ الشَّفَةَ الْعُلْيَا بِيَدِهِ، وَالسُّفْلَى بِإِيدِهِ الْأُخْرَى، وَيُقْبَلُ
مَا بَيْنَ الشَّفَتَيْنِ!

فضل الموت

وَأَمَّا مَنْ فَقَدَهُ مِنَ الْأَصْدِقَاءِ لَمَّا دَخَلَ حَلَبَ - حَرَسَهَا اللَّهُ - فَتِلْكَ عَادَةُ
الزَّمَنِ، يُبَدَّلُ مِنَ الْأَيَّامِ الْمَسْكُونَةِ قُبُورًا، وَإِنَّ رَمَسَ الْهَالِكِ لَبَيْتُ الْحَقِّ،
عَلَى أَنَّهُ يُغْنِي الثَّأْوَى بِهِ بَعْدَ عَدَمٍ، وَيَكْفِيهِ الْمَوْثُونَةَ ^(٣). قَالَ الضَّبِّيُّ:

ولم أدر منهم غير ما شهدت به بشرق «ساباط» الديار البساسب
أقننا بها يوما ، ويومين بعده ، ويوما - له يوم الترحل خامس
تدور علينا الكأس في عسجدية حبثها - بأنواع التصاوير - فارس
قرارتها كسرى ، وفي جنباتها مهى تدرّيها بالقسى الفوارس
فللخمر ما زرت عليه جيوبها وللماء ما دارت عليه القلائس

(١) شدة حبه (٢) التينة (٣) يحسن أن نلتمع هنا إلى رأى أبي العلاء في

الموت ، فنقول :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ قَصْرِي حُفْرَةٌ مَا بَعْدَهَا خَوْفٌ عَلَيَّ وَلَا نَدَمٌ

هذه هي أكبر ميزة للموت ، عند أبي العلاء ، وهي التي حبيته فيه ، وربما كان أول ما يسترعى انتباهك في شعره ، تشاؤمه ، ونظرته إلى العالم بمنظار شديد السواد ، ثم سخطه على الدنيا ، وتبرمه بالحياة التي دفعته إليها المقادير برغمه ، فلاقى فيها من صنوف الأذى والعذاب ، ما كان يكفي بعضه ، لتبغيضه فيها ، ونقمته عليها ، حتى أصبح لا يرى فيها إلا سلسلة آلام طويلة متصلة الحلقات ، لا تبدأ ، بولادة الطفل ، كما زعم ابن الرومي في قوله: (١)

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها ، وإنها لأوسع مما كان فيه وأرغد
بل منذ كان جنينا في بطن أمه :

وما برح الانسان في البؤس - مذ جرت به الروح - لا مذ زال عن رأسه الغرس (٢)
ثم لا تنتهي تلك الآلام إلا بموته - وفي هذه الخالقة شك كبير عند أبي العلاء كما سندينه ،
فلا غرو إذا خص الدنيا ، بأوفر قسط من الدم ، وافتن في تقبيحها ، حتى لقبها بأمر دفر
- أي أم تنن - في أكثر ندائه إياها - وقد جعله مزاجه السوداوي يرى الحياة مأساة مفرجة
كل موضع فيها صالح للحسرة والبكاء ، وليس فيها موضع واحد ، يصلح للسرور
وله في ذلك أشعار كثيرة ، نجتزئ منها بقوله :

أعن باكيا لـج في حزنه وسل ضاحك القوم : « مم ابتهج ؟ »
وقوله :

يسمى « سرورا » جاهل متخرص بفيه البرى - هل في الزمان سرور ؟

*
* *

(١) ارجع إلى ص « ٣٩٣ » ج « ٣ » من ديوان ابن الرومي

(٢) الغرس : الجلدة الرقيقة التي تخرج على رأس الولد أو الفصيل ساعة يخرج من بطن أمه ،

فان تركت قتلته

فَأَزُورُ بَيْتَ الْحَقِّ زَوْرَةَ مَا كَثِ
فَعَلَامَ أَحْفَلُ مَا تَقَوَّضَ وَأَنْهَدَمُ

وقد أكثر أبو العلاء من التفكير في مسألة الموت ، فلا تكاد تخلو من ذكره صفحة من لزومياته ، حتى أصبح من أوليات المسائل التي يدور عليها محور فلسفته ، ولا نعرف له شبيها في هذه الخلطة ، سوى أبي العتاهية الذي نعهده - على إكثاره - مقصراً عن شأو أبي العلاء تقصيراً بيناً ، والفرق بين الرجلين في نظرنا هو فرق ما بين الفيلسوف الصادق الزهد ، والواعظ الذي اتخذ الوعظ ديدنا له .

*
* *

ويمكن الإلمام بآراء أبي العلاء في الموت - رغم تناقضها - مع الإشارة إلى سبب ذلك فيما يلي :

(١) تارة كان يصل جزعه من الموت إلى أقصاه ، ويرتاع منه ، فتنبعث من نفسه صيحة مفزعة يكاد ينخلع لها قلبه ، فيقول :

يهال التراب على من ثوى فآه من النبا الهائل !

ثم يصرخ من أعماق نفسه ، وقد تولاه الدهول :

أنبأنا اللب بقليا الردى فالغوث من صحة ذاك النبا

أو يقول :

فويهاً وواهاً لسيل المنو ن كم جر عيرا بأحمالها

أو تنبهه فكرة طارئة ، تنتابه فجأة ، فيهب مذعوراً خائفاً فيقول :

يكر الحول بعد الحول عنى وتلك مصارع الأقوم حولى
كأنى بالألى حفروا لجارى وقد أخذوا المعاول وانتحوالى

وفي البيت الثانى صورة مفزعة تمثل ما ألم به من الهلع والرعب !

(٢) وحيناً يذكر الموت فيتمناه ، ولكنه يخشى ألا تكون فيه الراحة والطأنينة اللتان

أخطأهما فى الحياة ، فيتردد فى تمنيه ويقول :

إن كان نقلى عن الدنيا يكون إلى خير ، وأرحب ، فانقلنى على عجل

وإن علمت مالى عند آخرتى شرأوأضيق ، فانساً - رب - فى الأجل

وَمَا زَالَتِ الْعَرَبُ تُسَمِّي الْقَبْرَ بَيْتًا ، وَإِنْ كَانَ الْمُسْتَقِلُّ إِلَيْهِ مَيْتًا !

وتزداد به الحيرة والارتباك فيقول :

فإن خرجت إلى بؤس فواحرى وإن نقلت إلى نعمى ، فطوبى لى
وربما خشى أن يسلبه حسه الذى يعتز به ، ويتضائل بالقياس إليه كل اعتبار آخر ، حتى
إنه حرم على نفسه الخمر ضناً أن تذهب به سورتها — كما سنبينه فى حينه — فيقول :
ولو كان يبقى الحس فى فم ميت لا ليت أن الموت فى الفم أعذب

وفى هذه الحالة ترى حينه إلى الموت مقروناً بشيء من الجزع والرهبه منه ! على أنها
نوبات فجائية ، تعرض له ، فتنطقه بما استشهدنا به من كلامه .
فأما يقينه الذى لا يفتأ يردده ، ويتغنى به فى أكثر أحيائه ، فهو النزوع إلى تفضيل
الموت ، لأنه يرى فيه المنقذ الوحيد من آلام الحياة وأوصالها .

وإليك نجبة مختارة من كلامه تزيدك اقتناعاً بإيمانه الثابت ، وبما ذكره فى رسالته هنا
عن الرمس ، من أنه « يعنى الثاوى به بعد عدم ، ويكفيه المؤونة » :

ما أعدل الموت من آت وأستره فهيجينى ، فانى غير مهتاج
العيش أفقر منا كل ذات غنى والموت أغنى — بحق — كل محتاج
إذا حياة علينا للأذى فتحت بابا من الشر ، لاقاه يارتاج

يعنى الفتى بالمنايا عن مآربه وتنفع الروح فى طفل فيفتقر

كأس المنية أولى بى ، وأروح لى من أن أكابد إثراء وإحواجا

لكون خلك فى رمس أعز له من أن يكون مليكا عاقد التاج

الملك يحتاج آلافا تناصره والميت ليس إلى خلق بمحتاج

أصبح فى لحدى على وحدتى لست إلى الدنيا بمحتاج

كشفى رأسى وافتقارى بها خير من التملك والتاج

إن يرحل الناس ولم أرحل فعن قضاء لم يفوض إلى

قال الرَّاجِزُ :

متى أتى من بعد المنية أسرتى أخبرهم أنى خلصت من الأسر
ومن الين للفتى أن يجيء الموت يسعى إليه سعياً سريعاً
لم يمارس من السقام طويلاً ومضى لم يكابد التبريحاً
رقدة الموت ضجعة يستريح الجسم فيها والعيش مثل السهاد
تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب فى ازدياد
تدعو بطول العمر أفواهنا لمن تنهى القلب فى وده
يسرّ أن مد بقاء له وكل ما يكره فى مده
دعا لى بالحياة ، أخو وداد رويدك إنما تدعو علينا
وما كان البقاء لى اختياراً لو ان الأمر مردود إلينا
آليت لا ينفك جسمى فى أذى حتى يعود إلى قديم العنصر
عل البلى سيفيد المرء فائدة فالسك يزداد من طيب إذا سحقاً
طال وقوفى وراء جسر وإنما ينظر العبور
عشنا - وجسر الموت قدامنا - فشمّر الآن لكى نعبه
أقمت برغى ، وما طأرى براض إذا أفتته الوكون
لعل الموت خير للبرايا وإن خافوا الردى وتهيبوه
تعود إلى الأرض أجسامنا وتلحق بالعنصر الطاهر
ويقضى بنا فرضه ناسك يمر اليدين على الظاهر
لعل موتا يريح الجسم من نصب إن العناء بهذا العيش مقترن
متى غدوت بيطن الأرض مضطجعاً فتمّ أفقد أوصابى وأمراضى
(١٧)

الْيَوْمَ يُدْنِي لِدُونِي بَيْتَهُ يَا رَبِّ بَيْتِ حَسَنِ بَيْتِهِ

فألى أخاف طريق الردى وذلك خير طريق سلك
يرحك من عيشة مرة ومال أضيع ، ومال ملك
هنيئاً لطفل أزمع السير عنهم فودع من قبل التعارف ظاعنا
ومسكن الروح في الجمان أسقمه وبينها عنه من سقم يعافيه
وما يحس إذا ما عاد متصلا بالترب تسفيه في الهابي سوافيه
وحبذا الأرض قفراً لا يحل بها ضد تعاديه أو خل تصافيه
« الهابي : تراب القبر »

روح إذا اتصلت بجسم لم يزل - هو وهى - في مرض العناء المكمد
إن كنت من ريح ، فياريح اسكنى أو كنت من نار ، فيا نار اخدى
بطن البسيطة أعفى من ظواهرها فوسعا لى ، أهرب من سعالها
أعفى المنازل قبر يستراح به وأفضل اللبس - فيما أعلم - الكفن
والموت ينسى كفى الحرب صارمه ودرعه ، وفتاة الحى مجوها
كم من مصائب فى الأيام فادحة - لولا الحمام - لعدت كلها هدرا
نمضى ونترك البلاد عريضة والصبح أزهر ، والنجوم زواهرا
وكيف أفضى ساعة بمسرة وأعلم أن الموت من غرمانى

وانظر الى قوله فى صباه من مرثية أبيه :

وخوف الردى آوى إلى الكهف أهله وكلف نوحا وابنه عمل السفن
وما استعذبتة روح موسى وآدم وقد وعدا من بعده جنتى عدن
ثم انظر إلى قوله فيها :

هنيئاً لك البيت الجديد موسداً يمينك فيه بالسعادة واليمن
مجاور سكن فى ديار بعيدة من الحى ، سقيا للديار والسكن

وَمِعْصَمِ ذِي بُرَّةٍ^(١) لَوَيْتُهُ لَوْ كَانَ لِلدَّهْرِ بَلَىٰ أَبْلَيْتُهُ
أَوْ كَانَ قِرْنِي وَاحِدًا كَفَيْتُهُ

مدح أبي العلاء

وَأَمَّا الْفَصْلُ الَّذِي ذَكَرَ فِيهِ أَخْلِيلَ ، فَقَدْ سَقَطَ^(٢) مِنْهُ اسْمُ الَّذِي غَلَا فِي^(٣)
وَقَرْنَ بِالنُّجُومِ الصَّلَافِي^(٤) . وَمَنْ كَانَ ، فَغَفَرَ اللَّهُ جَرَائِمَهُ ، وَحَفِظَ لَهُ
فِي الْأَبَدِ كَرَامَتَهُ ، فَقَدْ أَخْطَأَ عَلَىٰ نَفْسِهِ - فِيمَا زَعَمَ - وَعَلَىٰ ، وَلَسَبَ
- مَا لَا أُسْتَوْجِبُ - إِلَى . وَكَمْ أَعْتَذِرُ وَأَتَنَصَّلُ ، مِنْ ذَنْبٍ لَيْسَ يَتَحَصَّلُ !
وَإِنِّي لَا أَكْرَهُ - بِشَهَادَةِ اللَّهِ - تِلْكَ الدَّعْوَى الْمُبْطَلَةَ ، كَرَاهَةَ الْمَسِيحِ
مَنْ جَعَلَهُ رَبَّ الْعِزَّةِ ، فَمَا تَرَكَ اللَّفْتَيْنِ مِنْ مَهْرَةٍ^(٥) . بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى :
« وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ بَنَ مَرْيَمَ : أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَآئِي الْهَيْئِينَ

وانظر إلى قوله ، وهو يمثل ناحية أخرى من رأيه في الموت :

يا مرحبا بالموت من مُتَنْظَرٍ إن كان ثم تعارف وتلاق !
ونختم هذا المختار بتلك المشاجرة الجميلة بينه وبين الدنيا ، وقد أحسن تمثيلها في
البيتين التاليين :

أف لديناي ، فإني بها لم أخل من إثم ومن حوب
قلت لها : « امضي غير مصحوبة » فقالت : « اذهب غير مصحوب »

(١) البرة: الخللخال (٢) ذكر ابن القارح في رسالته أن شيخاً مدح أبا العلاء ،
ولكنه سها عن ذكر اسمه في رسالته (٣) غلا في مدح (٤) المتمدح بما ليس عنده
(٥) حركة

مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ قَالَ: سُبْحَانَكَ! مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ،
إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِي، وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ،
إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ^(١)»

رسالة أبي الفرج الزهرجى^(٢)

وَأَمَّا أَبُو الْفَرَجِ الزَّهْرَجِيُّ، فَمَعْرِفَتُهُ بِالشَّيْخِ تُقْسِمُ أَنَّهُ لِلْأَدَبِ حَلِيفٌ،
وَلِلطَّبْعِ أَخْيَرُ أَلِيفٌ، وَدِدْتُ أَنْ الرِّسَالَةَ وَصَلْتُ إِلَيْكَ، وَلَكِنْ مَا عَدَلُ

(١) أشار أبو العلاء إلى ذلك في موضعين من لزومياته، أولها قوله:

وقد شهد النصارى أن عيسى توخته اليهود ليصلبوه
وما أبهوا، وقد جعلوه ربا لئلا ينقصوه ويجدبوه

والثاني قوله:

عجبا للمسيح بين أناس وإلى الله والد نسبه
أسلمته إلى اليهود النصارى وأقروا بأنهم صلبوه
يشفق الحازم اللبيب على الطفل - إذا ما لداته ضربوه
وإذا كان ما يقولون في عيسى صحيحا، فأين كان أبوه؟
كيف خلى وليده للأعدى؟ أم يظنون أنهم غلبوه؟

(٢) هو كاتب نصر الدولة، وقد كتب رسالة إلى أبي العلاء، وسأل ابن القارح إيصالها
إليه، فوضعها في رحل له، فسرقه جاره المسافر معه، فكتب ابن القارح رسالته المنشورة
بالجزء الأول يعتذر إلى أبي العلاء من ضياع الرسالة، ويشكو إليه أموره وما لقي في سفره،
وتطرق من ذلك إلى مناسبات أخرى، فرد عليه المعري برسالة الغفران - جزى الله السارق
عنا خيرا!

ذَلِكَ الْعَدِيلِ^(١) ! هَلَّا افْتَتَحَ بِنَفَقَةٍ أَوْ نُوْبٍ ، وَتَرَكَ الصُّحُفَ عَنْ نُوْبٍ^(٢)
فَأَرَبَ مِنْ يَدَيْهِ ، وَلَا اهْتَدَى فِي اللَّيْلَةِ بِفِرْقَدِيهِ^(٣)
لَوْ أَنَّهُ أَحَدُ لُصُوصِ الْعَرَبِ الَّذِينَ رُوِيَتْ عَنْهُمْ الْأَمْثَالُ السَّائِرَةُ ، وَتَحَدَّثَتْ
بِهِمُ الْمُتَنَجِّدَةُ وَالْعَابِرَةُ ، لَمَّا اغْتَفَرْتُ مَا صَنَعَ بِمَا نَظَمَ ، لِأَنَّهُ أَفْرَطَ وَأَعْظَمَ^(٤) ،
وَقَدْ وُفِّقَ « أَبُو الْفَرَجِ » وَوَلَدُهُ ، لَمَّا دَرَسَ عَلَيْهِ الْكُتُبَ وَحَفِظَ عَنْهُ

أمثال العرب

وَأَمَّا حَلَبُ - حَمَاهَا اللَّهُ - فَإِنَّهَا الْأُمُّ الْبَرَّةُ ، تُعْقِدُ بِهَا الْمَسْرَةَ ، وَمَا أَحْسَبَهَا
- إِنْ شَاءَ اللَّهُ - تَظَاهِرُ بِذَمِيمِ الْعُقُوقِ ، وَلَا تُغْفِلُ الْمُفْتَرِضَ مِنَ الْحُقُوقِ .
وَ « وَحْشِيَّةٌ^(٥) » يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الشَّيْخُ جَعَلَهَا نَائِبَةً عَمَّنْ فَقَدَهُ مِنَ الْإِخْوَانِ ،
الَّذِينَ غَدِمَ نَظِيرُهُمْ فِي الْأَوَانِ . وَكَذَلِكَ تَجْرِي أَمْثَالُ الْعَرَبِ ، يَكُونُونَ فِيهَا
بِالِإِسْمِ عَنْ جَمِيعِ الْأَسْمَاءِ ، مِثَالُ ذَلِكَ أَنْ يَقُولَ الْقَائِلُ :
فَلَا تَشَلُّلُ يَدُ فَتَسَكَّتْ بِعَمْرٍو فَإِنَّكَ لَنْ تُذَكَّ وَلَنْ تُضَامَا
يَجُوزُ أَنْ يَرَى الرَّجُلُ رَجُلًا قَدْ فَتَكَ بِمَنْ اسْمُهُ « حَسَّانُ » أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ
فَيَتَمَثَّلُ بِهَذَا الْبَيْتِ . فَيَكُونُ « عَمْرٍو » فِيهِ وَقِيعًا عَلَى جَمِيعِ مَنْ يَتَمَثَّلُ لَهُ بِهِ ،
وَكَذَلِكَ قَوْلُ الرَّاجِزِ : « أوردَهَا سَعْدُ وَسَعْدُ مُشْتَمِلٌ^(٦) »

(١) هو الذي جاور ابن القارح في الحمل ، وسرق منه الرجل الذي كانت فيه الرسالة
(٢) يعني : هلا ترك الصحف مكتفياً بما سرقه من المتاع (٣) يدعو على اللص بأن
تسقط آرابه من يديه ، وأن يضل فلا يهتدى بنور الفرقدين « وهما النجمان المعروفان »
(٤) أتى عظيمة (٥) هي التي تمثل بها ابن القارح في الأبيات التي ذكرها في رسالته وأولها :
إذا تركت « وحشية » النجد ؛ لم يكن لعينيك - مما تبكيان - طيب
(٦) بعده : « ما هكذا يا سعد تورد الابل ! »

صَارَ ذَلِكَ مَثَلًا لِكُلِّ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَمْ يُحْكَمْهُ ، فَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ لِمَنْ
اسْمُهُ « خَالِدٌ » أَوْ « بَكْرٌ » أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ ، وَيَضَعُونَ فِي هَذَا الْبَابِ
الْمُؤَنَّثَ مَوْضِعَ الْمَذْكَرِ ، وَالْمَذْكَرَ مَوْضِعَ الْمُؤَنَّثِ ، فَيَقُولُونَ لِلرَّجُلِ :
« الصَّيْفَ ضَيَّعَ اللَّبَنَ » وَإِذَا أَرَادُوا أَنْ يُخْبِرُوا بِأَنَّ الْمَرْأَةَ كَانَتْ تَفْعَلُ أَخْبَرَ
ثُمَّ هَلَكْتَ ، فَأَنْقَطَعَ مَا كَانَتْ تَفْعَلُهُ ، جَازَ أَنْ يَقُولُوا : « ذَهَبَ الْخَيْرُ مَعَ
عَمْرِو بْنِ مُهَمَّةَ » وَهَذَا كَثِيرٌ .

شكاة الأدباء

وَأَمَّا شِكْوَاهُ إِلَى ، فَإِنِّي وَإِيَّاهُ لَكَمَا قِيلَ فِي الْمَثَلِ : « التَّكْلَى تُعِينُ
التَّكْلَى » وَعَلَى ذَلِكَ حَمَلَ الْأَصْمَعِيُّ قَوْلَ أَبِي دُوَادٍ :
وَيُصِيخُ أَحْيَانًا كَمَا اسْتَمَعَ الْمُضِلُّ دَعَاءَ نَاشِدٍ^(١)
كِلَانًا بِحَمْدِ اللَّهِ مُضِلُّ ، فَعَلَى مَنْ نُحْمِلُ وَعَلَى مَنْ نُدِلُّ ؟
أَمَّا الْمَطِيئَةُ فَآلِيَةٌ^(٢) ، وَأَمَّا الْمَزَادَةُ فَحَالِيَةٌ !
يَشْكُو إِلَى جَمَلِي طُولَ الشَّرَى صَبْرٌ جَمِيلٌ ، فَكِلَانًا مُبْتَلَى
وَلَا أَرْتَابُ فِي أَنَّهُ يُحْفَظُ قَوْلَ الْفَزَارِيِّ^(٣) :

(١) الناشد : الطالب ، وهو هنا الباحث عن ضلِّ (٢) مقصرة بطيئة

(٣) مالك بن أسماء الفزاري

كان أباه سادة غطفان ، وحكاية البيتين أن أخاه « عيينة بن أسماء » هوى جارية
لأخته « هند بنت أسماء » فاستعان بأخيه « مالك » على أخته ، فقال مالك هذين البيتين .
ومن مختار شعره قوله من قصيدة مشهورة :

أَعْيَنَ هَلًّا - إِذْ مُبْلِتَ بِجِبْهَا كُنْتَ اسْتَعْنَتَ بِفَارِغِ الْعَقْلِ
أَقْبَلْتَ تَبْنِي الْعَوْتِ مِنْ رَجُلٍ وَالْمُسْتَعْنَاتُ إِلَيْهِ فِي شُغْلٍ ؟
وَلَمْ يَزَلْ أَهْلُ الْأَدَبِ يَشْكُونَ الْغَيْرَ فِي كُلِّ جِيلٍ ، وَهُوَ يَعْرِفُ
الْحِكَايَةَ أَنَّ مَسَامَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ أَوْصَى لِأَهْلِ الْأَدَبِ بِجُزْءٍ مِنْ مَالِهِ ، وَقَالَ :
« إِنَّهُمْ أَهْلُ صِنَاعَةٍ مَجْفُوعَةٌ » وَأَحْسَبُ أَنََّّهُمْ وَالْحَرْفَةُ خُلِقُوا تَوَاءَمِينَ ، وَإِنَّمَا
يَنْجِحُ بَعْضُهُمْ ، ثُمَّ لَا يَلْبَثُ أَنْ تَرَلَّ قَدَمُهُ . وَإِذَا كَانَ الْأَدَبُ عَلَى عَهْدِ
بَنِي أُمَيَّةٍ يُقْصَدُ أَهْلُهُ بِالْجَفْوَةِ ، فَكَيْفَ يَسَامُونَ مِنْ بَاسٍ ، عِنْدَ مَمْلَكَةِ
بَنِي الْعَبَّاسِ ؟ وَإِذَا أَصَابَتْهُمْ الْحَنْ فِي أَيَّامِ الرَّشِيدِ ، فَكَيْفَ يُطْمَعُ لَهُمْ بِالْحُظِّ
الْمَشِيدِ ؟ وَمَنْ بَغَى التَّكْسِبَ بِهَذَا الْفَنِّ ، فَقَدْ أَوْدَعَ شَرَابَهُ فِي سِنِّ (١) ،
غَيْرِ ثِقَّةٍ عَلَى الْوَدِيعَةِ ، بَلْ هِيَ مِنْهُ فِي صَاحِبِ خَدِيعَةٍ !

*
*
*

وَأَمَّا الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ مِنَ الْمُصَحِّفِينَ ، فَغَيْرُ الْبَرَّةِ وَلَا الْمُنْصِفِينَ ، وَمَا زَالَ
السُّقْلُ (٢) يَعْزُضُ لِأَذَاةِ الْأَسَدِ ، وَمَا أَحْسَبُهُ يَشْعُرُ بِمَكَانِ الْحَسَدِ .
مَا يَضُرُّ الْبَحْرَ أَمْسَى زَاخِرًا أَنْ رَمَى فِيهِ غُلَامٌ بِحَجَرٍ

وحدث أذه ، هو مما	يشتهي السامعون ، يوزن وزنا
منطق عاقل ، وتلحن أحياء	نا ، وأحلى الحديث ما كان لحنا
.....
حبذا يومنا « بتل بود »	إذ نُسِقِي شرابنا وانغى
أينا دارت الزجاجة درنا	يحسب الجاهلون أنا جننا
ومررنا بنسوة عاطرات	وسماع وقرقف ، فنزلنا

(١) الشن : القرية الخلق الصغيرة (٢) الثعلب

أَوْ كَلِمًا طَنَّ الذُّبَابُ أَرْوَعُهُ ؟ إِنْ الذُّبَابَ - إِذَنْ - عَلَى كَرِيمٍ !
وَإِنَّ حُسَّادَ الْبَارِعِ لَكَأَقَالَ الْفَرَزْدَقُ :

فَإِنْ تَهَبَّجُ آلَ الزُّبْرِقَانَ ، فَإِنَّمَا . هَجَوْتَ الطَّوَالَ الشَّمَّ مِنْ آلِ يَذْبُلِ
وَقَدْ نَبَّحَ الْكَلْبُ النُّجُومَ ، وَدُونَهَا فَرَأَسِخُ تُقْصِي نَاطِرَ الْمُتَأَمِّلِ

أبو الطيب المتنبي^(١)

فَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ مِنْ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ : « أَذْمُ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أَهْيَلُهُ »
فَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مُوَلَعًا بِالتَّصْغِيرِ ، لَا يَقْنَعُ مِنْهُ بِخُلْسَةِ الْمُغِيرِ ، كَقَوْلِهِ :
مَنْ لِي بِفَهْمِ أَهْيَلِ عَصْرِ يَدْعَى أَنْ يَحْسَبَ الْهِنْدِيَّ فِيهِمْ بَاقِلٌ
وَقَوْلِهِ : « مَقَالِي لِلْأَحْيَمِ يَا حَلِيمٌ »
وَقَوْلِهِ : « وَنَامَ الْخُوَيْدَمُ عَن لَيْلِنَا »
وَقَوْلِهِ : « أَيْ كُلِّ يَوْمٍ تَحْتَ ضَيْبِي سُوَيْعِرٌ »

وغير ذلك مما هو موجود في ديوانه ، ولا ملامة عليه ، إنما هي عادة صارت
كالطبع ، تُعْتَفَرُ مَعَ الْحَاسِنِ وَهَذَا الْبَيْتُ الَّذِي أَوْلَهُ : « أَذْمُ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أَهْيَلُهُ »
إِنَّمَا قَالَهُ فِي عِلِّيِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ سَيَّارٍ بِإِنطَاكِيَّةَ قَبْلَ أَنْ يَمْدَحَ سَيْفَ الدَّوْلَةِ .
وَالشُّعْرَاءُ مُطْلَقٌ لَهُمْ ذَلِكَ ، لِأَنَّ الْآيَةَ شَهَدَتْ عَلَيْهِمْ بِالتَّخَرُّصِ وَقَوْلِ
الْأَبَاطِيلِ : « أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهيمُونَ ؟ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ^(٢) ؟ »

(١) ارجع الى (ج ٢ ص ١٣) (٢) أثار هذا الفصل بعد أن ظهرت الطبعتان الأولى والثانية من هذه الرسالة كثيراً من بحوث النقاد والأدباء ، وحفز جمهوراً منهم إلى الإفاضة في درس المتنبي دراسات واسعة ألقى بعضها في مهرجانه الألفي ، وأودع الكثير منها نسخة صالحة من الكتب التي ظهرت حديثاً .

حكاية القطربلي وابن أبي الأزهر

وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ مِنْ حِكَايَةِ الْقَطْرُبُلِيِّ وَابْنِ أَبِي الْأَزْهَرِ ، فَقَدْ يَجُوزُ مِثْلُهُ ،
وَمَا وَضَحَ أَنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ حُبَسَ بِالْعِرَاقِ ، فَأَمَّا بِالشَّامِ فَحَبَسَهُ مَشْهُورٌ ،
وَحَدَّثْتُ أَنَّهُ كَانَ - إِذَا سُئِلَ عَنْ حَقِيقَةِ هَذَا اللَّقْبِ - قَالَ : « هُوَ مِنْ
النَّبَوَةِ » أَي الْمُرْتَفِعِ مِنَ الْأَرْضِ ، وَكَانَ قَدْ طَمِعَ فِي شَيْءٍ قَدْ طَمِعَ فِيهِ مَنْ هُوَ
دُونَهُ ، وَإِنَّمَا هِيَ مَقَادِيرُ ، يَظْفَرُ بِهَا مَنْ وَفَّقَ ، وَلَا يُرَاعُ بِالْمُجْتَهِدِ أَنْ يُخْفِقَ ،
وَقَدْ دَلَّتْ أَشْيَاءٌ فِي دِيَوَانِهِ أَنَّهُ كَانَ مُتَأَهِّلًا . فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ :

« وَلَا قَابِلًا إِلَّا لِخَالِقِهِ حُكْمًا »

وَقَوْلُهُ :

« مَا أَقْدَرَ اللَّهَ أَنْ يُخْزِي بَرِيَّتَهُ وَلَا يُصَدِّقَ قَوْمًا فِي الَّذِي زَعَمُوا »

*
*
*

وَإِذَا رُجِعَ إِلَى الْحَقَائِقِ ، فَتُنْفَقُ اللِّسَانِ ، لَا يُبْنَى عَنْ اعْتِقَادِ الْإِنْسَانِ ، لِأَنَّ
الْعَالَمَ مَجْبُولٌ عَلَى الْكَذِبِ وَالنَّفَاقِ (١) ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُظْهَرَ الرَّجُلُ بِالْقَوْلِ تَدِينًا ،
وَإِنَّمَا يَجْعَلُ ذَلِكَ تَزِينًا ، يُرِيدُ أَنْ يَصِلَ بِهِ إِلَى ثَنَاءٍ ، أَوْ غَرَضٍ مِنْ أَعْرَاضِ
أُمَّ الْفَنَاءِ (٢) ، وَلَعَلَّهُ قَدْ ذَهَبَ جَمَاعَةٌ هُمْ فِي الظَّاهِرِ مُتَعَبِّدُونَ ، وَفِيهَا بَطْنٌ مُلْحِدُونَ

(١) وفي ذلك يقول أبو العلاء في لزوميته :

أُمسى النفاق دروعاً يستجن بها من الأذى ، ويقوى سردها الحلف

(٢) شنع أبو العلاء في كثير من أبيات لزوميته على هذه الفئة التي تتخذ الدين دائماً

وسيلة لنيل أغراض الدنيا ، ونجتزئ من ذلك بقوله :

إذا كشفت عن الرهبان حالهم فكاهم يتوخى التبر والورقا

دعبل بن علي^(١)

وَمَا يَلْحَقُنِي الشَّكُّ فِي أَنَّ دِعْبِلَ بْنَ عَلِيٍّ لَمْ يَكُنْ لَهُ دِينٌ ، وَكَانَ يَتَّظَاهَرُ
بِالتَّشْيِيعِ ، وَإِنَّمَا غَرَضُهُ التَّكْسِبُ ، وَلَا أَرْتَابُ فِي أَنَّ « دِعْبِلًا » كَانَ عَلَى رَأْيِ
الْحَكَمِيِّ^(٢) وَطَبَقْتِهِ ، وَالزُّنْدَقَةُ فِيهِمْ فَاشِيَةٌ ، وَمِنْ دِيَارِهِمْ نَاشِيَةٌ

أبو نواس

وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي أَبِي نُوَاسٍ ، ادَّعَى لَهُ التَّالِثُ ، وَأَنَّهُ كَانَ يَقْضِي صَلَوَاتِ
نَهَارِهِ فِي لَيْلِهِ ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ كَانَ عَلَى مَذْهَبِ غَيْرِهِ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ .

مذاهب جعلوها من معاشهم ، من يعمل الفكر فيها تعطه الأرقا
وقوله :

وإنما حمل التوراة قارئها كسب الفوائد ، لاحب التلاوات
وقوله :

كذب لا يزال يطعم خبزا نص عن آدم وعن قاييل
يمتريه جدلان مهتل الغيرة يبدى حزنا على هاييل
وقوله :

وليس خبر بيدع في صحابته إن رام نفعاً بأقوال تقولها
وإنما رام نسوانا تزوجها - بما افتراه - وأموالاً تمولها

(١) هو « دعبل » الشاعر المشهور بالهجاء ، وهو الذي يقول فيه أبو العلاء في لزومياته :

لو نطق الدهر هجأ أهله كأنه « الرومي » أو « دعبل »

(٢) هو أبو نواس ، وقد مرت ترجمته في (ج ٢ ص ١٠)

سذاجة العرب

وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ جَاءَهَا النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهِيَ تَرْتَعِبُ إِلَى الْقَصِيدِ، وَتَقْصُرُ هِمَمَهَا عَنِ الْقَصِيدِ، فَاتَّبَعَهُ مِنْهَا مُتَّبِعُونَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ. فَلَمَّا ضَرَبَ الْإِسْلَامُ بِيَجْرَانِهِ، وَاتَّسَقَ مُلْكُهُ، مَازَجَ الْعَرَبُ غَيْرَهُمْ مِنْ الطَّوَائِفِ، وَسَمِعُوا كَلَامَ الْأَطْبَاءِ وَأَصْحَابِ الْهَيْئَةِ وَأَهْلِ الْمَنْطِقِ، فَتَالَتْ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ كَثِيرَةٌ.

رسالة آدم

وَلَمْ يَزَلِ الْإِلْحَادُ فِي بَنِي آدَمَ عَلَى مَمَرِ الدُّهُورِ، حَتَّى إِنَّ أَصْحَابَ السَّيْرِ يَزْعُمُونَ أَنَّ آدَمَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بُعِثَ إِلَى أَوْلَادِهِ، فَأَنْذَرَهُمْ بِالْآخِرَةِ، وَخَوَّفَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، فَكَذَّبُوهُ، وَرَدُّوا قَوْلَهُ، ثُمَّ عَلَى ذَلِكَ الْمِنْهَاجِ إِلَى الْيَوْمِ.

زندقة قريش

وَبَعْضُ الْعُلَمَاءِ يَقُولُ: «إِنَّ سَادَاتِ قُرَيْشٍ كَانُوا زَنَادِقَةً» وَمَا أَجْدَرُهُمْ بِذَلِكَ. وَقَالَ شَاعِرُهُمْ يَرْتِي قَتْلِي بَدْرٍ - وَتُرْوَى لِسَدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ اللَّيْثِيِّ: -
أَمَّتْ بِالْتَّحِيَّةِ أُمُّ بَكْرٍ فَحَيُّوا أُمَّ بَكْرٍ بِالسَّلَامِ
وَكَانَتْ بِالطَّوِيِّ طَوِيٌّ بَدْرٍ مِنَ الْأَحْسَابِ وَالْقَوْمِ الْكِرَامِ
أَلَا يَا أُمَّ بَكْرٍ لَا تُكِرِّي عَلَى الْكَاسِ - بَعْدَ أَخِي هِشَامِ

وَبَعْدَ أَخِي أَبِيهِ - وَكَانَ قَرَمًا^(١) مِنْ الْأَقْرَامِ شُرَابِ الْمُدَامِ
أَلَا مَنْ مُبْلَغُ الرَّحْمَنِ عَنِّي بِأَنِّي تَارِكُ شَهْرِ الصِّيَامِ
إِذَا مَا الرَّأْسُ زَابِلَ مَنْكِبِيهِ فَقَدْ شَبِعَ الْأَيْنِسُ مِنَ الطَّعَامِ
أَيُوعِدُنَا «ابن كَبْشَةَ»^(٢) أَنْ سَنَحْيَا، وَكَيْفَ حَيَاةُ أَصْدَاءِ^(٣) وَهَامِ؟
أَتَشْرِكُ أَنْ تَرُدَّ الْمَوْتَ عَنِّي وَتُحْيِيَنِي إِذَا بَلَيْتَ عِظَامِي؟

وَلَا يَدْعِي مِثْلَ هَذِهِ الدَّعَاوَى إِلَّا مَنْ يَسْتَبْسِلُ وَرَاءَهَا لِلْحِمَامِ، وَلَا يَأْسُفُ
لَهُ عِنْدَ الْمِتَامِ .

عودة إلى أبي الطيب المتنبى

وَحَدَّثْتُ أَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ، لَمَّا حَصَلَ فِي بَنِي عَدِيٍّ، وَحَاوَلَ أَنْ يَخْرُجَ فِيهِمْ،
قَالُوا لَهُ - وَقَدْ تَبَيَّنُوا دَعْوَاهُ - : «هَا هُنَا نَاقَةٌ صَعْبَةٌ، فَإِنْ قَدَرْتَ عَلَى رُكُوبِهَا
أَقْرَرْنَا أَنَّكَ مُرْسَلٌ» وَأَنَّهُ مَضَى إِلَى تِلْكَ النَّاقَةِ وَهِيَ رَاحَةٌ فِي الْأَيْلِ، فَتَحِيلَ
حَتَّى وَثَبَ عَلَى ظَهْرِهَا، فَفَرَّتْ سَاعَةً، وَتَنَكَّرَتْ بِرُهَّةً، ثُمَّ سَكَنَ نِفَارُهَا،
وَمَشَتْ مَشَى الْمُسْمَحَةِ^(٤)، وَأَنَّهُ وَرَدَ بِهَا الْحِلَّةَ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَيْهَا، فَعَجِبُوا لَهُ
كُلَّ الْعَجَبِ، وَصَارَ ذَلِكَ مِنْ دَلَالِئِهِ عِنْدَهُمْ .

(١) سيداً عظيماً (٢) يعني به النبي صلى الله عليه وسلم و «أبو كبشة» جاهلي
كان يعبد الشعري اليمانية ، وترك دين آبائه ، وهجر عبادة الأصنام ، فاستعادت الجاهلية
هذا اللقب للنبي لخالفته لهم وعزوفه عن عبادة أصنامهم ، ودعوته إياهم إلى الإسلام .

(٣) جثث هامدة (٤) التي تلين بعد استصعاب

وَحَدَّثْتُ أَيْضًا أَنَّهُ كَانَ فِي دِيْوَانِ اللَّادِزِيَّةِ ، وَأَنَّ بَعْضَ الْكُتَّابِ
انْقَلَبَتْ عَلَى يَدِهِ سِكِّينُ الْأَفْلَامِ ، فَجَرَحَتْهُ جُرْحًا مُفْرِطًا ، وَأَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ
تَقَلَّ عَلَيْهَا مِنْ رِيْقِهِ ، وَشَدَّ عَلَيْهَا غَيْرَ مُنْتَظِرٍ لَوَقْتِهِ ، وَقَالَ لِمَجْرُوحٍ :
« لَا تَحُلْهَا فِي يَوْمِكَ » - وَعَدَّ لَهُ أَيَّامًا وَوَلِيَالِي - وَأَنَّ ذَلِكَ الْكَاتِبَ قَبْلَ
مُنْتِهِ ، فَبَرِيءُ الْجُرْحِ ، فَصَارُوا يَعْتَقِدُونَ فِي أَبِي الطَّيِّبِ أَعْظَمَ اعْتِقَادٍ ،
وَيَقُولُونَ : « هُوَ كَمُحِي الْأَمْوَاتِ ! »

وَحَدَّثَ رَجُلٌ كَانَ أَبُو الطَّيِّبِ قَدْ اسْتَحْفَى عِنْدَهُ فِي اللَّادِزِيَّةِ - أَوْ فِي
غَيْرِهَا مِنَ السَّوَاهِلِ - : أَنَّهُ أَرَادَ الْإِنْتِقَالَ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ ، فَجَرَحَ
بِاللَّيْلِ وَمَعَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ ، وَلَقِيَهُمَا كَلْبٌ أَلْحَّ عَلَيْهِمَا فِي الثُّبَاجِ ، ثُمَّ انْصَرَفَ ؛
فَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ لِذَلِكَ الرَّجُلِ وَهُوَ عَائِدٌ : « إِنَّكَ سَتَجِدُ ذَلِكَ الْكَلْبَ قَدْ مَاتَ »
فَلَمَّا عَادَ الرَّجُلُ ، أَلْفَى الْأَمْرَ عَلَى مَا ذَكَرَ

وَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ أَعَدَّ لَهُ شَيْئًا مِنَ الْمَطَاعِمِ مَسْمُومًا ، وَأَلْقَاهُ لَهُ ، وَهُوَ
يُخْفِي عَنْ صَاحِبِهِ مَا فَعَلَ .

اختلاف الخواطر

وَأَمَّا الْقَطْرُثَلِيُّ وَابْنُ أَبِي الْأَزْهَرِ ، فَمِنَ الرَّؤُولِ ^(١) اجْتَمَاعُهُمَا عَلَى تَأْلِيفِ
كِتَابٍ ، وَقَلَّمَا يُعْرَفُ مِثْلُ ذَلِكَ .

وَمُخَوِّئُهُ مِنْهُ قِصَّةُ « الْخَالِدِيِّينَ » الَّذِينَ كَانُوا فِي الْمَوْصِلِ ، وَهُمَا شَاعِرَانِ ،
وَقَدْ كَانَا عِنْدَ سَيْفِ الدَّوَلَةِ ، وَانْصَرَفَا عَلَى حَدِّ مُعَاضِبَةٍ ، وَلَهُمَا دِيْوَانٌ

يُنْسَبُ إِلَيْهِمَا ، لَا يَنْفَرِدُ فِيهِ أَحَدُهُمَا بِشَيْءٍ دُونَ الْآخِرِ إِلَّا فِي أَشْيَاءٍ قَلِيلَةٍ ،
وَهَذَا مُتَعَدِّرٌ فِي وِلْدِ آدَمَ ، إِذْ كَانَتْ الْجَمِيلَةُ عَلَى الْخِلَافِ وَقَلَّةِ الْمُوَافَقَةِ ، فَأَمَّا
أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ ثُمَّ يُتِمُّهُ الْآخِرُ ؛ فَهُوَ أَسْوَعُ فِي الْمَعْقُولِ
مِنْ أَنْ يَجْتَمَعَ عَلَيْهِ الرَّجُلَانِ

*
* *

وَالَّذِينَ رَوَوْا دِيوَانَ أَبِي الطَّيِّبِ ، يَحْكُونَ أَنَّهُ وُلِدَ سَنَةَ ثَلَاثِمِائَةٍ وَثَلَاثِ ،
وَكَانَ طُلُوعُهُ إِلَى الشَّامِ سَنَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ ^(١) ، فَأَقَامَ فِيهِ بُرْهَةً ثُمَّ عَادَ إِلَى
الْعِرَاقِ ، وَلَمْ تَطُلْ مُدَّتُهُ هُنَاكَ ، وَالِدَلِيلُ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْخَبَرِ أَنَّ مَدَائِحَهُ
فِي صِبَاهُ إِنَّمَا هِيَ فِي أَهْلِ الشَّامِ ، إِلَّا قَوْلَهُ :

« كَفَى ، أَرَانِي - وَيَاكَ - لَوْ مَكَ الْوَمَا ^(٢) »

الدَّهْرُ ^(٣)

وَأَمَّا شِكَايَتُهُ أَهْلَ الزَّمَانِ إِلَيْهِ ، فَإِنَّهُ سَلَكَ فِي ذَلِكَ مِنْهَاجَ الْمُتَقَدِّمِينَ

(١) المراد أنه طلع إلى الشام حين كانت سنة إحدى وعشرين (٢) تيممة البيت قوله :
« هم أقام على فؤاد فأبجما » . ومن أجل ما في هذه القصيدة قوله :

وخفوق قلب - لو رأيت لهيبه يا جنتي ! لظننت فيه جهنما
وإذا سحابة صد حب أبرقت تركت حلاوة كل حب علما
يا وجه داهية الذي لولاك ما أكل الضنى جسسى ورض الأعظما
إن كان أغناها السلو ، فأننى أمسيت من كبدى ومنها معدما

(٣) الدهر

أشعار أبي العلاء في الدهر كثيرة تملأ عدة صفحات من لزومياته ، فلذجتزى هنا

وَقَدْ كَثُرَ الْمَقَالُ فِي دَمِّ الدَّهْرِ حَتَّى جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: « لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ ، فَإِنَّ اللَّهَ

بِالْقَلِيلِ مِنْهَا عَنِ الْكَثِيرِ ، لِإِظْهَارِ مَنَاحِي رَأْيِهِ الْمُتَعَدِّدَةِ فِي الدَّهْرِ ، وَإِنَّمَا نَسَرَدَهَا بِلا تَعْلِيْقِ رَغْبَةٍ فِي الْإِيْجَازِ ، وَهِيَ قَوْلُهُ :

إِنْ رَابْنَا الدَّهْرَ بِأَفْعَالِهِ فَكَلْنَا بِالذَّهْرِ مَرْتَابَ

وقوله :

إِذَا قِيلَ : « غَالِ الدَّهْرَ شَيْئًا » فَأَمَّا يِرَادُ « آلهَ الدَّهْرِ » وَالدَّهْرَ خَادِمَ

وقوله :

وَلَا عَقْلَ لِلدَّهْرِ - فِيمَا أَرَى - فَكَيْفَ يِعَاتِبُ إِنْ أَذْنَبْنَا ؟

وقوله :

فَلَوْ تَكَلَّمَ دَهْرٌ كَانَ شَاكِيَهُمْ كَمَا تَرَاهُمْ عَلَى الْإِحْسَانِ يَشْكُونَهُ

وقوله :

صَحْبِنَا دَهْرُنَا دَهْرًا ، وَقَدَمَا وَغِيْظُ بَنُوهُ مِنْهُ ، وَغِيْظُ مِنْهُمْ وَمِنْ عَادَاتِهِ فِي كُلِّ جَيْلٍ أَسَاءَ بِجَهْلِهِ أَدْبَا عَلَيْهِمْ وَمَا يَخْشَى الْوَعِيدَ فَيُوعِدُوهُ رَأَى الْفَضْلَاءَ أَلَا يَصْحَبُوهُ فَعَذِبَ سَاكِنِيَهُ وَعَذَبُوهُ غِذَاهُ أَنْ يَقْلَ مَهْذَبُوهُ فَهَلْ مِنْ حِيلَةٍ فَيُؤَدَّبُوهُ وَلَا يَرْعَى الْعِتَابَ فَيُعْتَبُوهُ

وقوله :

إِنْ خَرَفَ الدَّهْرُ فَهُوَ شَيْخٌ يَحِقُّ بِالْهَيْتَرِ وَالزَّمَانَهُ أُنْخِي سَلِيمًا بِغَيْرِ دَاءٍ لَمْ تَبْدُ فِي شَخْصِهِ ضَمَانَهُ أَعْجَمَ قَدْ بَيْنَ الرِّزَايَا أَوْ جَعَلَ الشَّرَّ تَرْجَمَانَهُ

وقوله :

وَيَا دَهْرَ لِحَاكَ اللَّهُ مَا هُنَّاتَ فِرْحَانِكَ !

وقوله :

حَلْفَ الدَّهْرِ جَاهِدًا وَهُوَ بَرٌّ - إِذَا حَلَفَ لِيَبْتَنَ كُلَّ عَقْدٍ إِذَا نَظَّمَهُ اثْتَلَفَ

هُوَ الدَّهْرُ، وَقَدْ عُرِفَ مَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ، وَأَنَّ بَاطِنَهُ لَيْسَ كَظَاهِرِهِ، إِذْ كَانَ
الْأَنْبِيَاءُ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لَمْ يَذْهَبْ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَى أَنَّ الدَّهْرَ هُوَ
الْخَالِقُ وَلَا الْمَعْبُودُ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْكِتَابِ الْكَرِيمِ: «وَمَا يَهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ»

*
*
*

وَقَوْلُ بَعْضِ النَّاسِ: «الزَّمَانُ حَرَكَةٌ الْفَلَكَ» لَفْظٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَفِي كِتَابِ
«سَيَبَوِيهِ» مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الزَّمَانَ عِنْدَهُ مِزْجُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ. وَقَدْ حَدَدْتُهُ حَدًّا
- مَا أَجْدَرَهُ أَنْ يَكُونَ قَدْ سَبِقَ إِلَيْهِ - إِلَّا أَنِّي لَمْ أَسْمَعُهُ - وَهُوَ أَنْ يُقَالَ:
«الزَّمَانُ شَيْءٌ أَقَلُّ جُزْءٍ مِنْهُ يَشْتَمِلُ عَلَى جَمِيعِ الْمُدْرَكَاتِ» وَهُوَ فِي ذَلِكَ ضِدُّ
الْمَسْكَانِ، لِأَنَّ أَقَلَّ جُزْءٍ مِنْهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَشْتَمِلَ عَلَى شَيْءٍ، كَمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ
الظُّرُوفُ، فَأَمَّا الْكَوْنُ فَلَا بُدَّ مِنْ تَشْبِيهِهِ بِمَا قَلَّ وَكَثُرَ (١)

(١) الزمان

هذا التعريف - هو في اعتقادنا أدق تعريف فلسفي صحيح عرفناه للزمن ، وقد ذكره
أبو العلاء في لزومياته فقال: « وأيسر كون تحته كل عالم »
ومضى في فكرته في عجز هذا البيت فبين سرعة الزمان ، فقال: « ولا تدرك الأكوان
جرد صالدم » ثم قسم الأزمان في البيتين التاليتين من هذه القصيدة إلى ماض اندثر
فاستحالت عودته ؛ ومستقبل آت سيندثر بعد حين ، فقال :

إذا هي مرت لم تعد ، ووراءها نظائر ، والأوقات ماض وقادم
فما آب منها - بعد ما غاب - غائب ولا يعدم الحين المجدد عادم

وقد ذكر شطر هذا الرأى في « سقط الزند » فقال :

أمس الذى مر - على قربه - يعجز أهل الأرض عن رده

وَالَّذِينَ قَالُوا : « وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ » وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْمُتَقَالِ ، مِثْلَ
الْبَيْتِ الْمُنْسُوبِ إِلَى الْأَخْطَلِ - وَذَكَرَهُ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ لِشَمْعَلَةَ التَّغْلِبِيِّ (وَهُوَ :
فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَفَعَلَهُ لَكَ الدَّهْرُ - لَا عَارَ بِمَا فَعَلَ الدَّهْرُ
وَقَوْلِ الْآخِرِ :

الدَّهْرُ لَأَعَمَّ بَيْنَ الْفِتَا وَكَذَلِكَ فَرَّقَ بَيْنَنَا الدَّهْرُ
وَقَوْلِ أَبِي صَخْرٍ :

وذكر العجز منه في بيته الآخر وهو قوله :

أرى الوقت يفنى أنفسا بفنائه ويمحو ، فما يبقى الحديث ولا الرسم
وهذا الرأي ، لا يناقض قوله في الدليل على قدم الزمن :

أرى زمنا تقادم غير فان فسبحان المهيمن ذى الكمال

*
* *

و بين أن القادم من الزمان « المستقبل » مجهول لا يعرف إلا بعد مرور الزمن الذى
يكشف الغطاء عن أسراره ، فقال :

الساع آنية الحوادث ، ما حوت لم يبد إلا بعد كشف غطائها
وقد ذكر هذا المعنى « بوب » الشاعر الانجليزى ، بصيغة أخرى ، وترجمه الاستاذ
العقاد ، وهو :

إنما الغيب كتاب صانه عن عيون الخلق رب العالمين
ليس يبدو منه للناس سوى صفحة الحاضر - حيناً بعد حين

*
* *

وكثيراً ما شبه أبو العلاء الزمان بالطائر . فمن ذلك قوله :
وما الوقت إلا طائر يقطع المدى فبادره - إذ كل النهى فى بداره
وقوله :

يبغى التثبث بالأوقات جائزها هيات ! ما الوقت إلا طائر طارا

عَجِبْتُ لِسَعَى الدَّهْرِ يَبْنِي وَيَبْنِيهَا فَلَمَّا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ
لَمْ يَدَّعِ أَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ كَانَ يُقَرِّبُ لِلْأَفْلَاقِ الْقَرَّابِينَ ، وَلَا يَزْعُمُ أَنَّهَا
تَعْقِلُ ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ شَيْءٌ يَتَوَارَثُهُ الْأُمَمُ فِي زَمَانٍ بَعْدَ زَمَانٍ .

شاتم الدهر

وَكَانَ فِي عَبْدِ الْقَيْسِ شَاعِرٌ يُقَالُ لَهُ « شَاتِمُ الدَّهْرِ » وَهُوَ الْقَائِلُ :
وَلَمَّا رَأَيْتُ الدَّهْرَ وَعَرًّا سَبِيلُهُ وَأَبْدَى لَنَا وَجْهًا أَرْبَ مَجْدَعًا
وَجِبْهَةً قَرْدٍ - كَالشَّرَاكِ - ضَيْلَةً وَأَنْفًا ، وَلَوَّى بِالْعَثَانِينَ أَخْدَعًا
ذَكَرْتُ الْكِرَامَ الذَّاهِبِينَ أُولِي النَّدَى وَقُلْتُ لِعَمْرٍو وَالْحَسَامِ : « أَلَا دَعَا ! »

الزندقة والزنادقة

وَأَمَّا غَيْظُهُ عَلَى الزَّنَادِقَةِ وَالْمُلْحِدِينَ ، فَأَجْرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، كَمَا أَجْرَهُ عَلَى الظَّمَا
فِي طَرِيقِ مَكَّةَ ، وَاصْطِلَاءِ الشَّمْسِ بِعَرَفَةَ ، وَمَيْتِهِ بِالْمَزْدَلِفَةِ .
وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ ابْتَهَلَ إِلَى اللَّهِ - سُبْحَانَهُ - فِي الْأَيَّامِ الْمُتَعَدُّوَاتِ
وَالْمَعْلُومَاتِ ، أَنْ يُثَبِّتَ هِضَابَ الْإِسْلَامِ .

وَلَكِنَّ الزَّنَدَقَةَ دَائِمٌ قَدِيمٌ ، وَقَدْ رَأَى بَعْضُ الْفُقَهَاءِ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا ظَهَرَتْ
زَنْدَقَتُهُ ، ثُمَّ تَابَ فَرَعًا مِنَ الْقَتْلِ ، لَمْ تُقْبَلْ تَوْبَتُهُ . وَلَيْسَ كَذَلِكَ غَيْرُهُمْ
مِنَ الْكُفَّارِ ؛ لِأَنَّ الْمُرْتَدَّ إِذَا رَجَعَ ، قُبِلَ مِنْهُ الرَّجُوعُ ، وَلَا مِلَّةَ إِلَّا وَهَلَا
قَوْمٌ مُلْحِدُونَ !

وَقَدْ كَانَتْ مُلُوكُ الْفُرْسِ تَقْتُلُ عَلَى الزَّنَدَقَةِ ، وَالزَّنَادِقَةُ هُمُ الَّذِينَ يُسَمَّوْنَ
« الدَّهْرِيَّةَ » وَلَا يَقُولُونَ بِنُبُوَّةٍ وَلَا كِتَابٍ .

بشار بن برد^(١)

و «بِشَارٌ» إِنَّمَا أَخَذَ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِهِ، وَقَدْ رُوِيَ: إِنَّهُ وَجَدَ فِي كُتُبِهِ رُقْعَةً
مَكْتُوبٌ فِيهَا: «إِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَهْجُوَ «فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ الْهَنْشَمِيُّ» فَصَفَحْتُ
عَنْهُ لِقَرَابَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .»

وَزَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ يُشَارُ «سَيْبَوِيَّةً» وَأَنَّهُ حَضَرَ يَوْمًا حَلَقَةَ يُونُسَ بْنِ
حَبِيبٍ، فَقَالَ: «هَلْ هُنَا مَنْ يَرْفَعُ خَبْرًا؟» فَقَالُوا: «لَا» فَأَنشَدَهُمْ:

«بَنِي أُمَيَّةَ هُبُوا مِنْ رُقَادِكُمْ إِنَّ الْخَلِيفَةَ يَعْقُوبُ بْنُ دَاوُدَ
لَيْسَ الْخَلِيفَةُ بِالْمَوْجُودِ، فَالْتَمِسُوا خَلِيفَةَ اللَّهِ بَيْنَ النَّأْيِ وَالْعُودِ^(٢)»

وَكَانَ فِي الْحَلَقَةِ سَيْبَوِيَّةً^(٣) فَيَدَّعِي بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهُ وَشَى بِهِ، وَسَيْبَوِيَّةٌ
- فِيمَا أَحْسَبُ - كَانَ أَجَلَ مَوْضِعًا مِنْ أَنْ يَدْخُلَ فِي هَذِهِ الدَّنِيَّاتِ، بَلْ
يَعْمَدُ لِأُمُورِ سَنِيَّاتٍ .

*
*
*

وَحِكِي عَنْهُ أَنَّهُ عَابَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ:

«عَلَى «الْغَزَلَى» مِنْى السَّلَامُ، فَطَامَنَا لَهَوْتُ بِهَا فِي ظِلِّ مُخْضَرَّةٍ زُهْرٍ»

فَقَالَ «سَيْبَوِيَّةً»: (لَمْ تَسْتَعْمِلِ الْعَرَبُ «الْغَزَلَى»!)

فَقَالَ بِشَارٌ: «هَذَا مِثْلُ قَوْلِهِمْ «الْبَشَكِيُّ» وَ «الْجَمْزِيُّ» وَنَحْوِ ذَلِكَ»

وَجَاءَ «بِشَارٌ» فِي شِعْرِهِ بِالنِّينَانِ^(٤)، فَيُقَالُ إِنَّهُ أَنْكَرَهُ عَلَيْهِ، وَهَذِهِ

(١) ارجع الى ترجمته في (ج ٢ . ص ١٣٨) من هذا الكتاب (٢) يروى:

«ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا...» (٣) ارجع الى ترجمته في (ج ٢ . ص ٢٠)

(٤) جمع نون، وهو «الحوت»

أَخْبَارُ لَا تَثْبُتُ . وَفِيَا رُؤَى فِي كِتَابِ « سَيَمُويَه » أَنَّ « الثَّونَ » تُجْمَعُ عَلَى
« نَيْنَانٍ ^(١) » فَهَذَا تَقْضُ لِلْخَبَرِ .

* * *
وَذَكَرَ مَنْ نَقَلَ أَخْبَارَ « بَشَّار » أَنَّهُ تَوَعَّدَ « سَيَمُويَه » بِالْهَجَاءِ ، وَأَنَّهُ تَلَفَّاهُ
وَاسْتَشْهَدَ بِشَعْرِهِ ؛ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اسْتِشْهَادُهُ بِهِ عَلَى نَحْوِ مَا يَذْكُرُهُ الْمُتَدَاكِرُونَ
فِي الْمَجَالِسِ وَمَجَامِعِ الْقَوْمِ . وَأَصْحَابُ « بَشَّار » يَرَوْنَ لَهُ هَذَا الْبَيْتَ .
« وَمَا كُلُّ ذِي لُبٍّ بِمُوتَيْكَ نُصْحَهُ وَمَا كُلُّ مُوتٍ نُصْحَهُ بِلَيْبٍ »
وَفِي كِتَابِ (سَيَمُويَه) نِصْفُ هَذَا الْبَيْتِ الْآخِرِ ، وَهُوَ فِي بَابِ الْإِدْغَامِ
لَمْ يُسَمَّ قَائِلُهُ ، وَزَعَمَ غَيْرُهُ أَنَّهُ لِأَبِي الْأَسْوَدِ الدَّوَلِيِّ !

* * *
وَيُقَالُ إِنَّ « يَعْقُوبَ بْنَ دَاوُدَ » وَزَيْرَ الْمُهَدِيِّ ، تَحَامَلَا عَلَى بَشَّارٍ حَتَّى قُتِلَا .
وَاخْتَلَفَ فِي سِنِّهِ ، فَقِيلَ كَانَ - يَوْمئِذٍ - ابْنًا ثَمَانِينَ سَنَةً ، وَقِيلَ أَكْثَرَ ،
وَاللَّهُ الْعَالِمُ بِحَقِيقَةِ الْأَمْرِ .

وَلَا أَحْكُمُ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ مَا ذَكَرْتُ فِيمَا
تَقَدَّمَ ^(٢) ، لِأَنِّي عَقَدْتُهُ بِمُشِيئَةِ اللَّهِ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَحَلِيمٌ وَهَّابٌ !

* * *
وَذَكَرَ صَاحِبُ كِتَابِ « الْوَرَقَةِ » جَمَاعَةً مِنَ الشُّعْرَاءِ فِي طَبَقَةِ أَبِي نُوَّاسٍ
وَمَنْ قَبْلَهُ ، وَوَصَفَهُمْ بِالزَّنْدَقَةِ . وَسَرَّارِ النَّاسِ مُغَيَّبَةً ، وَإِنَّمَا يَعْلَمُ بِهَا عَلَّامُ
الْغُيُوبِ . وَكَانَتْ تِلْكَ الْحَالُ تُكْتَمُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ خَوْفًا مِنَ السَّيْفِ ،

(١) وتجمع أيضاً على « أنوان » (٢) تخيل أبو العلاء في الجزء الثاني أن التوبة لم

تلحق ببشار ، وأنه في أصناف العذاب ، ارجع الى (ج ٢ ص ١٤٠)

فَالآنَ ظَهَرَ نَجِيثٌ^(١) الْقَوْمِ وَانْقَاضَتِ التَّرِيكَةُ^(٢) عَنْ أَحْبَثِ رَأْلِ^(٣)

نادرة من نوادر الزنادقة:

وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ رَجُلٌ لَهُ أَصْدِقَاءُ مِنَ الشَّيْعَةِ، وَصَدِيقُ زَنْدِيقٍ، فَدَعَا
الْمُتَشَيِّعَةَ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ، فَجَاءَ الزُّنْدِيقُ، فَفَرَعَ حَلَقَةَ الْبَابِ، وَقَالَ:
« أَصْبَحْتُ جَمًّا بِلَابِلٍ^(٤) الصَّدْرِ مُتَقَسِّمِ الْأَشْجَابِ وَالْفِكْرِ »
فَقَالَ صَاحِبُ الْمَنْزِلِ: (وَيْحَكَ ! مِمَّذَا ؟) فَتَرَكَهُ الزُّنْدِيقُ وَمَضَى .
فَلَقِيَهُ صَاحِبُ الْمَسَادِبَةِ، فَقَالَ لَهُ: « يَا هَذَا ! أَرَدْتَ أَنْ تُوقِعَنِي فِيمَا أَكْرَهُ ! »
خَوْفًا مِنْ أَنْ يَظُنَّ أَصْدِقَاؤُهُ أَنَّهُ زَنْدِيقٌ، فَقَالَ: « ادْعُهُمْ ثَانِيَةً، وَأَعْلِمْنِي
بِمَكَانِهِمْ » فَلَمَّا حَصَلُوا عِنْدَهُ، جَاءَ الزُّنْدِيقُ فَقَالَ:

« أَصْبَحْتُ جَمًّا بِلَابِلٍ^(٤) الصَّدْرِ مُتَقَسِّمِ الْأَشْجَابِ وَالْفِكْرِ »
فَقَالُوا: « وَيْحَكَ مِمَّذَا ؟ » فَقَالَ: « مِمَّا جَنَاهُ عَلَى « أَبِي الْحَسَنِ^(٥) »:
« عُمَرُ » وَصَاحِبُهُ « أَبُو بَكْرٍ » ! » فَفَرِحَ الشَّيْعَةُ بِذَلِكَ . وَلَقِيَهُ صَاحِبُ
الْمَنْزِلِ، فَقَالَ: « جُزَيْتَ عَنِّي خَيْرًا، فَقَدْ خَلَعْتَنِي مِنَ الشُّبْهَةِ ! » .

نادرة أخرى

وَكَانَ يَجْلِسُ فِي مَجْلِسِ الْبَصْرَةِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَكَانَ فِيهِمْ
رَجُلٌ زَنْدِيقٌ، لَهُ سَيْفَانِ قَدْ سَمَّى أَحَدَهُمَا « الْخَيْرَ » وَالْآخَرَ « الْفَلَحَ^(٦) »

(١) أى بدا سرهم الذى كانوا يخفونه، ومن أمثالهم: بدا نجيث القوم، أى افتضح سرهم

(٢) انقضت: انكسرت وانقضت. والتريكة: بيضة النعام (٣) ولد النعام

(٤) وساوس (٥) يعنى على بن أبى طالب (٦) الفلاح: الفوز بما يعقب به

فَإِذَا سَلَّمَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ، قَالَ : « صَبَّحَكَ الْخَيْرُ ، وَمَسَّاكَ الْفَلَحُ »
ثُمَّ يَلْتَمِثُ لِأَصْحَابِهِ الَّذِينَ قَدْ عَرَفُوا مَكَانَ السَّيْفَيْنِ ، فيَقُولُ :
« سَيْفَانِ كَالْبَرْقِ إِذَا الْبَرْقُ لَمَحَ ! » .

عودة إلى أبي نواس^(١)

أَمَّا قَوْلُ الْحَكَمِيِّ^(٢) : « تَيْهٌ مُّعَنَّ وَظَرْفٌ زِنْدِيقٌ » فَقَدْ عَيْبَ عَلَيْهِ هَذَا
الْمَعْنَى ، وَقِيلَ إِنَّهُ أَرَادَ رَجُلًا مِّنْ بَنِي الْخَارِثِ كَانَ مَعْرُوفًا بِالزَّنْدَقَةِ وَالظَّرْفِ ،
وَكَانَ لَهُ مَوْضِعٌ مِّنَ السُّلْطَانِ .

صالح بن عبد القدوس

وَأَمَّا صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الْقُدُوسِ ، فَقَدْ شُهِرَ بِالزَّنْدَقَةِ ، وَلَمْ يُقْتَلْ - وَلِلَّهِ الْعِلْمُ -
حَتَّى ظَهَرَتْ عَنْهُ مَقَالَاتٌ تَوْجِبُ ذَلِكَ . وَيُرْوَى لِأَبِيهِ عَبْدِ الْقُدُوسِ :
« كَمْ أَهْلَكَتْ مَكَّةَ مِنْ زَائِرٍ خَرَبَهَا اللَّهُ وَأَبْيَأَهَا
لَا رَزَقَ الرَّحْمَنُ أَحْيَاءَهَا وَأَشْوَتِ^(٣) الرَّحْمَةُ أَمْوَاتَهَا »
وَلَقَدْ كَانَ لِصَالِحٍ وَلَدٌ ، حُبِسَ عَلَى الزَّنْدَقَةِ حَبْسًا طَوِيلًا ، وَهُوَ الَّذِي
يُرْوَى لَهُ :

خَرَجْنَا مِنَ الدُّنْيَا - وَنَحْنُ مِنْ أَهْلِهَا - فَمَا نَحْنُ بِالْأَمْوَاتِ فِيهَا وَلَا الْأَحْيَاءِ
إِذَا مَا أَتَانَا زَائِرٌ مُّتَّفَقٌ فَرَحْنَا ، وَقُلْنَا : « جَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا ! »
وَأَمَّا رُجُوعُهُ عَنِ الزَّنْدَقَةِ لَمَّا أَحْسَسَ بِالْقَتْلِ ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْخُتْلِ .

(١) ارجع الى (ج ٢ ص ١٠٠ ، وكذلك ص ٢١٩ من هذا الجزء) (٢) هو أبو نواس (٣) أخطأت

فَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ، فَقَدَّ رُؤْيَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : « بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ ، وَاخْتِيرَ مَعِ
السَّيْفِ ، وَاخْتِيرَ فِي السَّيْفِ ، وَاخْتِيرَ بِالسَّيْفِ ! » وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ :
« لَا تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مَا حَمَلَتِ السَّيْفَ »
وَالسَّيْفُ حَمَلٌ صَالِحًا^(١) عَلَى التَّصْدِيقِ ، وَرَدَّهٖ عَنْ رَأْيِ الزُّنْدِيقِ^(٢) !

الصناديقي

وَأَمَّا الْمَنْسُوبُ إِلَى الصَّنَادِيقِ ، فَإِنَّمَا يُحْسَبُ مِنَ الزُّنَادِيقِ ، وَأَحْسَبُهُ الَّذِي
كَانَ يُعْرَفُ بِالْمَنْصُورِ . ظَهَرَ سَنَةَ سَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ ، وَأَقَامَ مُرْهَةً بِالْيَمَنِ ، وَفِي
زَمَانِهِ كَانَتْ الْقِيَانُ تَلْعَبُ بِالذَّفِّ ، وَتَقُولُ :

« خُذِي الذَّفَّ يَا هَذِهِ وَالْعَبِي وَبُنَى فَضَائِلَ هَذَا النَّبِيِّ
تَوَلَّى نَبِيُّ بَنِي هَاشِمٍ وَقَامَ نَبِيُّ بَنِي يَعْرَبٍ
فَمَا تَبْتَغِي السَّعْيَ عِنْدَ الصَّفَا وَلَا زَوْرَةَ الْقَبْرِ فِي « يَثْرِبِ »

(١) هو صالح بن عبد القدوس الذي مر ذكره (٢) كرر أبو العلاء هذا المعنى في
لزومياته بطرق شتى ، فمن ذلك قوله :

إذا ما أُلحِدت أم بجهل فقابلها بتوحيد السيوف

وقوله :

تَادَوْا فِي الضَّلَالِ وَلَمْ يَتُوبُوا وَلَوْ سَمِعُوا صَلِيلَ السَّيْفِ — تَابُوا

وقوله :

أَبْدَى « الْعَتَاهِيَّ » نَسْكَا وَتَابَ مِنْ ذِكْرِ عُتْبَةَ
وَالخُوفِ أَلْزَمَ « سَفِيَا ن » أَنْ يَغْرُقَ كِتْبَهُ

وَأَمَعْنَ فِي التَّهْكَمِ وَالسَّخْرِيَةِ فِي قَوْلِهِ :

تَلَوْا بِاطْلَا ؛ وَجَلُّوا صَارْمَا وَقَالُوا : « صَدَقْنَا ؟ » فَقَلْنَا : « نَعَمْ ! »

إِذَا الْقَوْمُ صَلَّى، فَلَا تَنْهَضِي وَإِنْ صُومُوا، فَكَلِمِي وَأَشْرِبِي

*
* *

وَلَا تَحْرِي نَفْسِكَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَقْرَبِينَ وَمِنْ أَجْنَبِي (١)

(١) المزدكية

هذا الرأي هو رأي جماعة « المزدكية » وهم أتباع « المذهب المزدكي » المنسوب الى « مزدك » وهو رجل ادعى النبوة على عهد خسرو قباد ، والد أنوشروان ، وزعم أن الله بعثه ليأمر « بشيوع النساء والأموال بين الناس كافة ، كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ ، لأنهم كلهم إخوة ، أولاد أب واحد » وكان يتوهم أن ذلك يحسم أسباب المنازعات بينهم ، لأنها إنما تحدث بسبب النساء والمال ، فانقاد قباد إلى مذهبه ، وأباح له أن يخلو بالملكة زوجته ؛ فتراى ابنه أنوشروان على قدمي قياد ، باكياً متوسلاً إليه ، ليعدل عن ذلك ، وما زال به حتى رجع عن فكرته ، فلما ولي الملك بدأ يقتل مزدك ، انتقاماً منه على ما هم به ، ولم يقبل توسلاته إليه ، وقال له : « لن أنسى نتن قدميك - حين قبلتهما » ثم استأصل أصحابه وشيعته

وفي كتاب الملل والنحل للشهرستاني نبذة مفيدة في بيان هذا المذهب ، فليرجع إليها من شاء

والمنصور الصناديقي هذا ، هو أحد من اعتنقوا ذلك المذهب ودعوا إليه ، وقد جاء ذكره في رسالة ابن القارح ، وأنه كان يجمع في دار خاصة ، نساء البلد ورجالها ليلاً ؛ ويأمرهم بالاختلاط « حتى لا يتميز مال من مال ، ولا ولد من ولد ! »

*
* *

أما رأي أبي العلاء في المزدكية ، فيدلك على سخطه الشديد عليها قوله :
أقروا بالإله وأثبتهوه وقالوا : « لاني ولا كتاب . . .
ووطء بناتنا حل مباح » رويدكم ! فقد بطل العتاب
تأدوا في الضلال - ولم يتوبوا - ولو سمعوا صليل السيف ، تابوا

فَكَيْفَ حَلَّتْ لِذَلِكَ الْغَرِيبِ وَصِرَتْ مُحْرَمَةً لِلْأَبِ ؟
أَلَيْسَ الْغِرَاسُ لِمَنْ رَبَّهُ وَرَوَاهُ فِي عَالِمِهِ الْمُجْدِبِ ؟
وَمَا الْحُمْرُ إِلَّا كَمَا السَّحَابُ بِطَلْقٍ ، فَقُدِّسَتْ مِنْ مَذْهَبِ !
فَعَلَى مُعْتَقِدِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ بِهَيْلَةِ الْمُبْتَهِلِينَ ! وَهَذِهِ الطَّبَقَةُ — لَعْنَهَا اللَّهُ —
تَسْتَعْبِدُ الطَّعَامَ بِأَصْنَافٍ مُخْتَلِفَةٍ !

دعوى الربوبية

وَقَدْ كَانَ بِالْيَمَنِ رَجُلٌ يَحْتَجِبُ فِي حِصْنٍ لَهُ ، وَيَكُونُ الْوَاسِطَةَ بَيْنَهُ
وَبَيْنَ النَّاسِ خَادِمًا لَهُ أَسْوَدَ ، قَدْ سَمَّاهُ « جَبْرِيلَ » فَقَتَلَهُ الْخَادِمُ فِي بَعْضِ
الْأَيَّامِ وَانصَرَفَ ، فَقَالَ بَعْضُ الْمُجَانِّينَ :

« تَبَارَكَ اللَّهُ فِي عُلَاهُ فَرًّا مِنَ الْفِسْقِ جَبْرِيلُ
وَضَلَّ مَنْ تَزَعَّمُونَ رَبًّا وَهُوَ عَلَى عَرْشِهِ قَتِيلُ »

وَيُقَالُ : إِنَّهُ حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ مَا كَانَ يُكَلِّفُهُ مِنَ الْفِسْقِ
وَإِذَا طَمِعَ بَعْضُ هَوَؤَلَاءِ ، فَإِنَّهُ لَا يَقْنَعُ بِالْإِمَامَةِ ، وَلَا النُّبُوَّةَ ، وَلَكِنَّهُ
يَرْتَفِعُ صُعْدًا فِي الْكُذْبِ !

*
* *

وَلَمْ تَكُنِ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تُقَدِّمُ عَلَى هَذِهِ الْعِظَائِمِ ، بَلْ كَانَتْ

وقوله :

شر النساء مشاعات — يكن لنا — كالأرض — يحملن أبناء مشاعينا

عُقُولُهُمْ تَجْنَحُ إِلَى رَأْيِ الْحُكَمَاءِ ، وَمَا سَلَفَ مِنْ كُتُبِ الْقَدَمَاءِ - إِذْ كَانَ أَكْثَرُ الْفَلَاسِفَةِ لَا يَقُولُونَ بِنَبِيِّ ، وَيَنْظُرُونَ إِلَى ذَلِكَ بِعَيْنِ النَّبِيِّ .

ربيعة بن أمية بن خلف الجمحي

وَكَانَ رَيْبَعَةُ بْنُ أُمِيَّةَ بْنِ خَلْفِ الْجُمَحِيِّ جَرَى لَهُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - خُطْبٌ ، فَلَحِقَ بِالرُّومِ ، وَيُرْوَى أَنَّهُ قَالَ :

« لِحَقْتُ بِأَرْضِ الرُّومِ - غَيْرَ مُفَكِّرٍ بِتَرْكِ صَلَاةٍ مِنْ عِشَاءٍ وَلَا ظَهْرٍ
فَلَا تَتْرُكُونِي مِنْ صَبُوحِ مَدَامَةٍ فَمَا حَرَّمَ اللَّهُ السَّلَافُ ^(١) مِنَ الْخُمْرِ
إِذَا أُمِرْتُ ^(٢) « تَيْمٌ بِنُ مَرَّةٍ » فِيكُمْ فَلَا خَيْرَ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ وَلَا مِصْرٍ
فَإِنَّ يَكُ إِسْلَامِي هُوَ الْحَقُّ وَالْهُدَى فَإِنِّي قَدْ خَلَيْتُهُ لِأَبِي بَكْرٍ ! »

*
* *

وَأَفْتَتَ النَّاسُ فِي الضَّلَالَةِ ، حَتَّى اسْتَجَاوَزُوا دَعْوَى الرُّبُوبِيَّةِ ، فَكَانَ ذَلِكَ تَنْطُسًا ^(٣) فِي الْكُفْرِ ، وَجَمْعًا لِلْمَعْصِيَةِ ، وَإِنَّمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَدْفَعُونَ النُّبُوَّةَ ، وَلَا يُجَاوِزُونَ ذَلِكَ إِلَى سِوَاهُ .

سمير بن أدكن

وَلَمَّا أَجَلَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ - أَهْلَ الذَّمَّةِ عَنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْجَالِينِ . فَيُقَالُ إِنَّ رَجُلًا مِنْ يَهُودِ بَنِي خَيْبَرَ ، يُعْرَفُ بِسُمَيْرِ بْنِ أَدَكْنِ ، قَالَ فِي ذَلِكَ :

(١) ما تحلب وسال قبل العصر، وهو أفضل الحمر (٢) صارت أميرة (٣) تأنقاً

« يَصُولُ أَبُو حَفْصٍ عَلَيْنَا بِدِرَّةٍ ^(١) كَأَنَّكَ لَمْ تَتَّبِعْ حُمُولَةَ مَا أُطِيطِ فَلَوْ كَانَ « مُوسَى » صَادِقًا مَا ظَهَرَ لَكُمْ وَمَحْنٌ سَبَقْنَاكُمْ إِلَى الْمَيْنِ ، فَأَعْرِفُوا مَشِيئَتَكُمْ عَلَى آثَارِنَا فِي طَرِيقِنَا »

رُوَيْدَكَ ، إِنَّ الْمَرْءَ يَطْفُو وَيَرْسُبُ لِتَشْبَعِ ، إِنَّ الزَّادَ شَيْءٌ مُحِبَّبٌ عَلَيْنَا ، وَلَكِنْ دَوْلَةٌ ثُمَّ تَذْهَبُ لَنَا رُبْنَةُ الْبَادِي الَّذِي هُوَ أَكْذَبُ وَبُعَيْتُكُمْ فِي أَنْ تَسُودُوا وَتَرْهَبُوا »

* * *

وَمَا زَالَ الْيَمَنُ — مُنْذُ كَانَ — مَعْدِنًا لِلْمُتَكَسِّبِينَ بِالْتَدِينِ ، وَالْمُحْتَالِينَ عَلَى السُّحْتِ بِالْتَرِيثِ . وَحَدَّثَنِي مَنْ سَافَرَ إِلَى تِلْكَ النَّاحِيَةِ : أَنَّ بِهِ الْيَوْمَ جَمَاعَةً ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ الْقَائِمُ الْمُنْتَظَرُ ، فَلَا يَعْدُمُ جَبَايَةَ مِنْ مَالٍ ، يَصِلُ بِهَا إِلَى خَسِيسِ الْأَمَالِ .

القرامطة

وَحِكَايَ لِي أَنَّ لِلْقَرَامِطَةِ بِالْأَحْسَاءِ بَيْتًا يَزْعُمُونَ أَنَّ إِمَامَهُمْ يُخْرِجُ مِنْهُ ، وَيُقِيمُونَ عَلَى بَابِ ذَلِكَ الْبَيْتِ فَرَسًا بِسَرَجٍ وَجِلَامٍ ، وَيَقُولُونَ لِلْهَمَجِ وَالطَّغَامِ : « هَذَا الْفَرَسُ لِرِكَابِ الْمَهْدِيِّ ، يَرْكَبُهُ مَتَى ظَهَرَ ^(٢) » ، وَإِنَّمَا

(١) سوط يضرب به (٢) وفي ذلك يقول أبو للعلاء :

يرقب الناس أن يقوم إمام	ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن ، لا إمام سوى العق	ل مشيراً في صبحه والمساء
فإذا ما أطعته جلب الرح	مة عند المسير والإرساء
إنما هذه المذاهب أسبا	ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء
كالذي قام يجمع « الزنج » بالبح	رة « والقرمطي » بالأحساء
فانفرد ما استطعت ، فالقائل الصا	دق يضحى ثقلاً على الجلساء

غَرَضُهُمْ بِذَلِكَ خَدَعُ وَتَعْلِيلُ، وَتَوَصَّلُ إِلَى الْمَمْلَكَةِ وَتَضْلِيلُ .
وَمِنْ أَعْجَبِ مَا سَمِعْتُ أَنَّ بَعْضَ رُؤَسَاءِ الْقَرَامِطَةِ فِي الدَّهْرِ الْقَدِيمِ ، لَمَّا
حَضَرَتْهُ الْمَنِيَّةُ ، جَمَعَ أَصْحَابَهُ ، وَجَعَلَ يَقُولُ لَهُمْ - لَمَّا أَحْسَسَ بِالْمَوْتِ - :
« إِنِّي قَدْ عَزَمْتُ عَلَى النُّقْلَةِ ، وَقَدْ كُنْتُ بَعَثْتُ مُوسَى وَعِيسَى وَحَمْدًا ، وَلَا
بُدَّ لِي أَنْ أَبْعَثَ غَيْرَ هَؤُلَاءِ » فَعَلَيْهِ اللَّعْنَةُ ، لَقَدْ كَفَرَ أَعْظَمَ الْكُفْرِ فِي
السَّاعَةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يُؤْمِنَ فِيهَا الْكَافِرُ ، وَيُؤْتِيبَ إِلَى آخِرَتِهِ الْمُسَافِرُ !

الوليد بن يزيد

وَأَمَّا الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ ، فَكَانَ عَقْلُهُ عَقْلَ وَوَلِيدٍ ، وَقَدْ بَلَغَ سِنَّ الْكَهْلِ
الْجَلِيدِ ، وَقَدْ رُوِيَ لَهُ أَشْعَارٌ ، يَلْحَقُ بِهِ مِنْهَا الْعَارُ ، كَقَوْلِهِ :

« أَذْنِيَا مَنِّي خَلِيلِي « عَبْدًا » دُونَ الْإِزَارِ
فَلَقَدْ أَيَقَنْتُ أَنِّي غَيْرُ مَبْعُوثٍ لِنَارِ
وَاتْرُكَا مَنْ يَطْلُبُ الْجَنَّةَ يَسْعَى فِي خَسَارِ
سَارُوضِ النَّاسِ ، حَتَّى يَرْكَبُوا دِينَ الْحِمَارِ »

فَالعَجَبُ لِرَمَانِ صَيْرَ مِثْلَهُ إِمَامًا . وَلَعَلَّ غَيْرَهُ - مِمَّنْ مَلَكَ - يَتَعَدُّ مِثْلَهُ
أَوْ قَرِيبًا ، وَلَكِنْ يُسَايِرُ وَيَخَافُ تَرْبِيًا . وَمِمَّا يُرَوَى لَهُ :

« أَنَا الْإِمَامُ الْوَلِيدُ مُفْتَخِرًا أَجْرُ بُرْدِي ، وَأَسْمَعُ الْغَزَلَ
مَا الْعَيْشُ إِلَّا سَمَاعُ مُحْسِنَةٍ وَقَهْوَةٌ تَتْرُكُ الْفَتَى ثَمَلًا
أَسْحَبُ ذَيْلِي إِلَى مَنَازِلِهَا وَلَا أَبَالِي مَن لَامَ أَوْ عَدَلَا
لَا أُرْتَجِي الْحُورَ فِي الْخُلُودِ ، وَهَلْ يَأْمَلُ حُورَ الْجَنَانِ مَن عَقَلَا ؟

إِذَا حَبَّتْكَ الْوَصَالُ غَانِيَةً فَجَاذَهَا بِذَلْهَا ، كَمَنْ وَصَلَا
 وَيُقَالُ إِنَّهُ لَمَّا احْيَطَ بِهِ ، دَخَلَ الْقَصْرَ وَأَغْلَقَ بَابَهُ ، وَقَالَ :
 دَعُوا لِي هِنْدًا وَالرَّابَّ وَفَرَّ تَنِي وَمُسْمِعَةً ، حَسْبِي بِذَلِكَ مَا لَا
 خُذُوا مُلْكَكُمْ ، لَا تَبَّتْ اللَّهُ مُلْكَكُمْ فَلَيْسَ يُسَاوِي بَعْدَ ذَلِكَ عِقَالًا
 وَخَلُّوا سَبِيلِي قَبْلَ عَيْرٍ وَمَا جَرَى (١) وَلَا تَحْسُدُونِي أَنْ أَمُوتَ هُزَالًا
 فَأَلْبَ عَنْ تِلْكَ الْمُنْزِلَةَ أَيَّ أَلْبٍ ، وَرَوَى رَأْسُهُ فِي فَمِ كَلْبٍ ! كَانَ حَقُّ
 اخْتِلَافَةٍ أَنْ تُفْضَى إِلَى مَنْ هُوَ بِنَسْكَ مَعْرُوفٍ ، لَا تَصْرِفُهُ عَنِ الرَّشْدِ صُرُوفٌ .
 وَلَكِنَّ الْبَلَدِيَّةَ خُلِقَتْ مَعَ الشَّمْسِ ، فَهَلْ يَخْلُصُ مَنْ سَكَنَ فِي رَمْسٍ ؟

أبو عيسى بن الرشيد

وَأَمَّا « أَبُو عَيْسَى بْنُ الرَّشِيدِ » فَإِنَّ صَحَّ مَا رُوِيَ عَنْهُ ، فَقَدْ بَيَّنَّ بِذَلِكَ
 أُسْلَافَهُ ، وَمَا يَحْفَلُ رَبُّهُ بِالْعَبِيدِ ، صَائِمِينَ لِلْخَيْفَةِ وَلَا مُفْطِرِينَ (٢) وَرُبَّمَا كَانَ
 الْجَاهِلُ أَوْ الْمُتَجَاهِلُ ، يَنْطِقُ بِالْكَلِمَةِ وَخَلَدُهُ بِضِدِّهَا أَهْلًا !
 وَإِنَّمَا أَقُولُ ذَلِكَ ، رَاجِيًا أَنْ أَبَا عَيْسَى وَنُظْرَاءَهُ ، لَمْ يَتَّبِعُوا فِي النِّعَى أَمْرَاءَهُ ،
 وَأَنَّهُمْ عَلَى سِوَى مَا عَلَنَ يَبْتِئُونَ ، لَقَدْ وَعَظَهُمُ الْمَيْتُونَ . . .
 وَكَانَ « أَبُو عَيْسَى » الْمَذْكُورُ يُسْتَحْسِنُ شَعْرَهُ فِي الْبَيْتَيْنِ وَالثَّلَاثَةِ ،
 وَأَنْشَدَ لَهُ الصُّوَلِيُّ فِي نَوَادِرِهِ :

(١) قبل عير وما جرى : أى فى الحال أكثر من مرة . فمن ذلك قوله :

تورعوا يا بنى حواء عن كذب
 لم تجذبوا لقبيح من فعالكم
 فما لكم عند ربِّ صاغم خطرُ
 ولم يجسكم - لحسن التوبة - المطر

« لِسَانِي كَتُومٌ لِأَسْرَارِهِ وَدَمْعِي تَمُومٌ بِسِرِّي مُذِيعٌ
وَلَوْلَا دُمُوعِي كَتَمْتُ الْهُوَى وَلَوْلَا الْهُوَى لَمْ يَكُنْ لِي دُمُوعٌ »
فَإِنْ كَانَ فَرًّا مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ ، فَلَعَلَّهُ يَقَعُ فِي تَعْدِيبِ الدَّهْرِ !

الجنّابي^(١)

وَأَمَّا الْجَنَّبِيُّ ، فَلَوْ عُوِّبَ بَدَلًا مِنْ يَسْكُنُهُ ، لَجَازَ أَنْ تُؤْخَذَ بِهِ « جَنَابَةٌ » ،
وَلَا يُقْبَلُ لَهَا إِنَابَةٌ ، وَلَكِنَّ حُكْمَ الْكِتَابِ الْمُنْزَلِ أَجْدَرُ وَأَخْرَى ، أَنْ لَا تَزِرَ
وَأَزْرَةً وَزَرَ أُخْرَى
فَعَلَيْهِ اللَّعْنَةُ !

(١) الجنّابي

٢٨٦ — ٣٣١ هـ

اسمه سليمان بن أبي سعيد الحسن بن بهرام القرمطي ، بلده « جنّابة » من أعمال فارس
متصلة بالبحرين ، وكنيته أبو طاهر ، وقد امتلأت كتب التاريخ بخروج « القرامطة » على
الخلفاء والملوك وحروبهم معهم ، فلا حاجة الى الاضافة في ذلك ، وحسبنا أن نلم
بتاريخه موجزين :

ظهر في سنة ٢٨٦ هـ بالبحرين ، وانضم اليه عدد من الأعراب والقرامطة ، ثم ارتفع شأنه ،
وقويت شوكته ، فقتل من حوله من أهالي تلك القرى ، ولما قرب من نواحي البصرة ، جهز
اليه المعتضد بالله جيشاً فهزمه الجنّابي ، وقتل الأسرى وأحرقهم ، واستبق قائده ، ثم أطلقه بعد
أيام وقال له : « امض الى صاحبك ، وعرفه ما رأيت » ودخل بغداد في رمضان تلك السنة ،
وحضر بين يدي المعتضد ، فخلع عليه . ودخل القرامطة الشام سنة ٢٨٩ هـ وجرت وقائع بين
الفرقيين ، ثم قتله خادمه سنة ٣٣١ هـ في الحمام .

وقد مر في رسالة ابن القارح المنشورة في الجزء الأول من هذا الكتاب إشارة اليه

العلوى البصرى

وَأَمَّا الْعَلَوِيُّ الْبَصْرِيُّ ، فَذَكَرَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهُ كَانَ قَبْلَ خُرُوجِهِ
يَذْكُرُ أَنَّهُ : مِنْ « عَبْدِ الْقَيْسِ » ثُمَّ مِنْ « أَنْمَارٍ » وَكَانَ اسْمُهُ « أَحْمَدُ »
فَلَمَّا خَرَجَ تَسَمَّى « عَلِيًّا » .

وَالْكَذِبُ كَثِيرٌ جَمًّا ، كَأَنَّهُ فِي النَّظَرِ طَوْدُ أَشْمٍ ، وَالصَّدَقُ لَدَيْهِ كَالْحَصَاةِ ،
تَوَطَّأَ بِأَقْدَامِ عُصَاةٍ . وَتِلْكَ الْآيَاتُ الْمَنْسُوبَةُ إِلَيْهِ مَشْهُورَةٌ ، وَهِيَ :
أَيَا حِرْفَةَ الزَّمَنِي ! - أَلَمْ بِكَ الرَّدَى - أَمَالِي خَلَاصٌ مِنْكَ - وَالشَّمْلُ جَامِعٌ ؟
لَنْ قَنَعْتُ نَفْسِي بِتَعْلِيمِ صَبِيَّةٍ - يَدَ الدَّهْرِ - إِنِّي بِالْمَذَلَّةِ قَانِعٌ
وَهَلْ يَرْضَيْنَ حُرٌّ بِتَعْلِيمِ صَبِيَّةٍ وَقَدْ ظَنَّ أَنَّ الرِّزْقَ فِي الْأَرْضِ وَاسِعٌ ؟
وَمَا أَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ حَمَلُهُ حُبُّ الْحُطَّامِ ، عَلَى أَنْ غَرِقَ فِي بَحْرِ طَامٍ !

*
* *

وَقَدْ رُوِيَتْ لَهُ آيَاتٌ تُدَلُّ عَلَى تَأَلُّهِ ، وَمَا أَدْفَعُ أَنْ تَكُونَ قِيلَتْ عَلَى
لِسَانِهِ ، لِأَنَّ مَنْ خَبَرَ هَذَا الْعَالَمَ حَكَمَ عَلَيْهِ بِفُجُورٍ وَمَيِّنٍ . وَالْآيَاتُ :

« قَتَلْتُ النَّاسَ إِشْفَاقًا عَلَى نَفْسِي كَيْ تَبْقَى

وَحُزْتُ الْمَالَ بِالسَّيْفِ لَكِنِّي أُنْعَمَ ، لَا أَشْقَى

فَمَنْ أَبْصَرَ مَثْوَايَ فَلَا يَظْلِمُ إِذَا خَلَقَا !

فَوَاوَيْلِي إِذَا مَا مِتُّ - عِنْدَ اللَّهِ : مَا أَلْقَى ؟

أَخْلَدًا فِي جِوَارِ اللَّهِ ؟ أَمْ فِي نَارِهِ أُلْقَى ؟ »

*
* *

وَأَشَدَّنِي بَعْضُهُمْ أَيْبَاتًا قَافِيَةً طَوِيلَةَ الْوَزْنِ ، وَقَافِيَتَهَا مِثْلُ هَذِهِ الْقَافِيَةِ ،
قَدْ نُسِبَتْ إِلَى عَضُدِ الدَّوْلَةِ . وَقِيلَ إِنَّهُ أَفَاقَ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ ، فَكَتَبَهَا عَلَى
جِدَارِ الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ فِيهِ . وَقَدْ نُحِيَ بِهَا نَحْوُ أَيْبَاتِ الْبَصْرِيِّ ؛ وَأَشْهَدُ أَنَّهَا
مُتَكَلِّفَةٌ ، صَنَعَهَا رَقِيعٌ مِنَ الْقَوْمِ ، وَأَنَّ عَضُدَ الدَّوْلَةِ مَا سَمِعَ بِهَا قَطُّ .

*
**

وَأَمَّا الْحِكَايَةُ عَنْ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ أَنَّهُمْ صَحَّفُوا رَحْمَةً ، فَقَالُوا رَحْمَةً ،
فَلَا أَصْدَقُ بِمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا ، وَالْكَذِبُ غَالِبٌ ظَاهِرٌ ، وَالصِّدْقُ
خَفِيُّ مُتَضَائِلٌ (١) !

وَكَذَلِكَ ادِّعَاءُ مَنْ يَدَّعِي أَنَّ عَلِيًّا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ : « تَهْلِكُ
الْبَصْرَةُ بِالزَّنْبِ » فَصَحَّفَهَا أَهْلُ الْحَدِيثِ بِالرَّيْحِ ، لَا أَوْ مِنْ بَشَى مِنْ ذَلِكَ ،
وَلَمْ يَكُنْ عَلَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِمَّنْ يُكْشَفُ لَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ . وَفِي الْكِتَابِ
الْعَزِيزِ : « لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ » وَفِي الْحَدِيثِ
الْمَثَاوِرِ : « لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدِّ إِلَّا اللَّهُ » .

وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُخْبَرَ مُخْبِرٌ مُنْذُ مِائَةِ سَنَةٍ أَنَّ أَمِيرَ حَآبٍ - حَرَسَهَا اللَّهُ -
فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ (٢) اسْمُهُ فُلَانٌ بِنُ فُلَانٍ ، وَصِفَتُهُ كَذَا ، فَإِنْ
ادَّعَى ذَلِكَ مُدَّعٍ ، فَإِنَّمَا هُوَ مُتَخَرِّصٌ كَاذِبٌ !

(١) يقول أبو العلاء في هذا المعنى :

والحق يُهمس بينهم ويقام للسوات منبر

ويقول: إذا قلت للحال : رفعت صوتي وإن قلت اليقين : أطلت همسي !

(٢) من هذا نستنتج أن رسالة الغفران كتبت في تلك السنة، وقد أشرنا إلى ذلك في مقدماتنا للرسالة

النجوم

وَأَمَّا النُّجُومُ فَإِنَّمَا لَهَا تَلْوِيحٌ لَا تَصْرِيحٌ . وَحِكْمِي أَنَّ الْفَضْلَ بْنَ سَهْلٍ
كَانَ يَتَمَثَّلُ كَثِيرًا بِقَوْلِ الرَّاجِزِ :

« لَيْتَ نَجُوتُ وَبَجَّتْ رَكَائِي مِنْ غَالِبٍ وَمِنْ لَفِيفِ غَالِبٍ

إِنِّي لَنَجَاءٍ مِنَ الْكَرَائِبِ »

وَأَنَّ غَالِبًا كَانَ فِي مَنْ قَتَلَهُ ، فَهَذَا يَتَّفِقُ مِثْلَهُ . وَأَجْدِرُ بِهَذِهِ الْحِكَايَةِ
أَنْ تَكُونَ مَصْنُوعَةً .

فَأَمَّا مَا تَمَثَّلَهُ بِالشُّعْرِ فَعَبِيرٌ مُسْتَسْكِرٌ ، وَرُبَّمَا اتَّفَقَ أَنْ يَكُونَ فِي الْوَقْتِ
جَمَاعَةٌ يُسَمَّوْنَ بِهَذَا ، فَيُمْكِنُ أَنْ يَقْتَرِنَ مَعْنَى بِالْفِظِ . عَلَى أَنَّ فِي الْأَيَّامِ
عَجَائِبَ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ .

الأمعي

وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ « إِيَّاسَ بْنَ مُعَاوِيَةَ » الْقَاضِيَ كَانَ يَظُنُّ الْأَشْيَاءَ ، فَتَكُونُ
كَمَا ظَنَّ ، وَلِهَذَا الْعِلَّةُ قَالُوا : « رَجُلٌ نِقَابٌ ^(١) ، وَالْمَعْيُ ^(٢) » قَالَ أَوْسٌ ^(٣) :
الْأَمْعِيُّ الَّذِي يَظُنُّ بِكَ الظَّنَّ كَانَ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا ^(٣)

(١) النِّقَابُ : المتفرس ، الذي يحدث بالغايب (٢) هو أوس بن حجر التيمي ، أحد شعراء الجاهلية ، ارجع الى ترجمته في ج ٢ ص « ١٦٥ »

(٣) ومما قيل في هذا المعنى قول بعضهم :

« عليم بأخبار الخطوب بظنه كأن له في اليوم عيناً على غد »

الحلاج^(١)

وَكَمْ افْتَرَى لِلْحَلَّاجِ - وَالكَذِبُ كَثِيرٌ - وَجَمِيعُ مَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ بِمَا لَمْ تَجْرُ

وقول آخر :

بصير بأعقاب الأمور ، كأنما تخاطبه من كل أمر عواقبه

وقول ثالث :

بصير بأعقاب الأمور ، كأنما يرى بصواب الظن ما هو واقع

وقول البحترى فى سليمان بن وهب :

كأن آراءه - والحزم يتبعها - تزيه كل خفى وهو إعلان

ما غاب عن عينه ، فالقلب يكاؤه ، وإن تم عينه ، فالقلب يقظان

(١) الحلاج

اسمه الحسين بن منصور ، وكنيته أبو مغيث ، وجده مجوسى ، وبلده « البيضاء » أحد بلاد فارس ، وكانت وفاته سنة ٣٠٩ هـ

نشأ بواسط بالعراق ، واشتهر بصحبته لأبى القاسم الجنيد ، ومن فى طبقته ، كما اشتهر بكفره - وإن بالغ فى تعظيمه بعض الناس - ومن شعره قوله :

لا كنت إن كنت أدرى : « كيف كنت » ولا

لا كنت إن كنت أدرى : « كيف لم أكن »

وقوله المشهور :

ألقاه فى اليم مكتوفاً ، وقال له : « إياك إياك أن تبطل بالماء »

وكان يكثر من قوله : « ما فى الجبة إلا الله » فسمى « الجبائى » لذلك . وكان يقول

« معبودكم تحت قدمى هذا ! » وقد تصدى الإمام الغزالى للدفاع عنه فى فصل طويل عقده فى كتاب (مشكاة الأنوار) اعتذر فيه عن الألفاظ الشديدة التى صدرت منه ، وعزاها إلى

إفراطه فى محبة الله ، واستشهد بقول القائل :

أنا من أهوى ، ومن أهوى أنا نحن روحان ، حللنا بدنا

فإذا أبصرتنى أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا !

الْعَادَةُ بِمِثْلِهِ ، فَإِنَّهُ الْمَيْنُ لَا أُصَدِّقُ بِهِ . وَمِمَّا يُفْتَعَلُ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَالَ لِلَّذِينَ قَتَلُوهُ : « أَتَطُنُّونَ أَنْكُمْ إِيَّايَ تَقْتُلُونَ ؟ إِنَّمَا تَقْتُلُونَ بَعْلَةَ الْمَادِرَانِيِّ » وَأَنَّ الْبَعْلَةَ وَجِدَتْ فِي إِصْطَبْلِهَا مَقْتُولَةً .

وَفِي الصُّوفِيَّةِ — إِلَى الْيَوْمِ — مَنْ يَرْفَعُ شَأْنَهُ ، وَبَلَّغْنِي أَنْ بِيَعْدَادَ قَوْمًا يَنْتَظِرُونَ خُرُوجَهُ ، وَأَنَّهُمْ يَقِفُونَ بِحَيْثُ صُلبَ عَلَى « دِجَلَةَ » يَتَوَقَّعُونَ ظُهُورَهُ (١) .

وَلَيْسَ ذَلِكَ بِيَدْعٍ مِنْ جَهْلِ النَّاسِ ، وَلَوْ عَبْدَ عَبْدِ ظَهْرٍ كِنَاسٍ (٢) !

إجلال القرد

فرد زبيدة وقرد بزب

فَقَدْ نَزَلَ حَظٌّ عَلَى قَرْدٍ ، فَظَفِرَ بِأَكْرَمِ الْوَرْدِ ، وَقَالَتِ الْعَامَّةُ :
« اسْجُدْ لِلْقَرْدِ فِي زَمَانِهِ ! »

وفي رسالة ابن القارح طرف من أخباره

(١) كان السبب في صلبه ، كلام جرى منه في مجلس « حامد بن العباس » وزير المقتدر بحضرة القاضي أبي عمر ، فأفتى بحل دمه ، وكتب بخطه ذلك ، وكتب معه من حضر المجلس من الفقهاء ، فقال لهم الخلاج : « ظهري حمي ، ودمي حرام ، وما يحل لكم أن تقولوا علي ، وأنا اعتقادي الاسلام ، ومذهبي السنة ، وتفضيل الأئمة الأربعة ، الخلفاء الراشدين ، ولي كتب في السنة ، فالله الله في دمي ! » ولم يزل يردد هذا القول — وهم يكتبون — حتى أتوا ما هم فيه ، ونهضوا من المجلس وحملوا الخلاج إلى السجن ، ثم جلد أمام العامة حتى قُتل ، ثم صلب ، ثم قطعت أطرافه ، وجز رأسه ، وأحرقت جثته ، ثم ألقيت في « دجلة » واتفق أن فاضت مياهها في تلك السنة فيضانا كثيرا ، فادعى أصحابه أن سبب ذلك هو سحق الخلاج .

(٢) الكناس : بيت الظبي في الشجر يستتر فيه

وَأَنَا أَتَحَوَّبُ^(١) مِنْ ذِكْرِ الْقِرْدِ الَّذِي يُقَالُ إِنَّ الْقُوَادَ - فِي زَمَنٍ
« زَيْدَةَ » - كَانُوا يَدْخُلُونَ لِلسَّلَامِ عَلَيْهِ ، وَأَنَّ « يَزِيدَ بْنَ مَزِيدِ الشَّيْبَانِيَّ »
دَخَلَ فِي جُمْلَةِ الْمُسْلِمِينَ فَقَتَلَهُ .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ « يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ » كَانَ لَهُ قِرْدٌ يَحْمِلُهُ عَلَى أَتَانٍ وَحَشِيَّةٍ ،
وَيُرْسِلُهَا مَعَ الْخَيْلِ فِي الْحَلْبَةِ^(٢) .

رجعة إلى الحلاج

وَأَمَّا الْأَيَّاتُ الَّتِي عَلَى الْيَاءِ :

« يَا سِرَّ سِرِّ يَدِّ حَتَّى يَجِلَّ عَنْ وَصْفِ كُلِّ حَيٍّ »

وظاهراً باطناً تَبَدَّى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ لِكُلِّ شَيْءٍ

يَا جُمْلَةَ الْكُلِّ لَسْتَ غَيْرِي فَمَا اعْتَذَارِي إِذَنْ إِلَى ؟ »

فَلَا بَأْسَ بِنَظْمِهَا فِي الْقُوَّةِ ، وَلَكِنْ قَوْلُهُ « إِلَى » عَاهَةٌ فِي الْأَيَّاتِ ،
وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ « الْكُلِّ » فَإِنَّ إِدْخَالَ الْأَلْفِ وَاللَّامِ مَكْرُوهٌ .

وَكَانَ « أَبُو عَلِيٍّ » يُحِبُّهُ ، وَيَدْعِي إِجَازَتَهُ عَلَى « سَيْبَوِيَّةٍ » .

فَأَمَّا الْكَلَامُ الْقَدِيمُ ، فَيُفْتَقَدُ فِيهِ^(٣) (الْكُلُّ) وَ(الْبَعْضُ) .

وَقَدْ أَنْشَدُوا بَيْتًا لِسُجَيْمٍ :

(١) اجتنب الحوب ، أى الإنم ، أو أخرج منه ، وهى أيضاً بمعنى أتوجع باكياً فى جزع
وصياح (٢) الخليل تجمع للسباق (٣) قال فى اللسان : « وفى حديث عائشة رضى الله عنها
« افتقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم » أى لم أجده ، هو افتعلت ، من فقدت الشئ . أفقده
إذا غاب عنك »

« رَأَيْتُ النَّعْنَى وَالْفَقِيرَ كَلَيْهِمَا إِلَى الْمَوْتِ، يَأْتِي الْمَوْتُ لِلْكَلِّ مُعَمِّدًا. »

مذهب الحلول^(١)

وَيُنشَدُ لِقَتَى كَانَ فِي زَمَنِ الْخَلَّاجِ :

إِنْ يَكُنْ مَذْهَبَ الْحُلُولِ صَحِيحًا فَالْهَى فِي حُرْمَةِ الزَّجَّاجِ
عَرَضَتْ فِي غِلَالَةِ بَطْرَازِ بَيْنَ دَارِ الْعَطَّارِ وَالثَّلَّاجِ
زَعَمُوا لِي أَمْرًا - وَمَا صَحَّ - لَيْكُنْ هُوَ مِنْ إِفْكَ شَيْخِنَا الْخَلَّاجِ

(١) مذهب الحلولية - أو مذهب الحلول - هو الادعاء بحلول الله - سبحانه - في الأشخاص ، لأصحاب هذا المذهب ادعاءات لا يحصيها العد ، فقد ادعى بعضهم أن روح الله حلت في الأنبياء ، واحداً بعد واحد ، حتى حلت في أبي هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية ، وادعى غيرهم أنها حلت في أبي مسلم ؛ وادعى آخرون حلول الله في الصور الحسان ، فكان « الحلمانية » إذا رأوا صورة حسنة ، سجدوا لها ، واهمين أن الله حل فيها ؛ واستدل بعض هؤلاء على جواز حلول الله في الأجساد ، بقوله تعالى للملائكة في آدم : « فإذا سويته ، ونفخت فيه من روحي ، فقعوا له ساجدين » وزعموا أن الله إنما أمر الملائكة بالسجود لآدم ، لأنه خلقه في أحسن تقويم ، بدليل قوله تعالى : « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم » وزعم الحللاج أن من هذب نفسه بالطاعة ، وصبر على اللذات والشهوات ، ارتقى الى مقام المقربين ؛ ولا يزال يصفو ويرتقى في درجات المصافاة حتى يصفو عن البشرية ، فإذا لم يبق فيه منها حظ ، حل فيه روح الله ، الذي حل في عيسى بن مريم ، ولم يرد حينئذ شيئاً إلا كان كما أراد ؛ وكان جميع فعله فعل الله تعالى

ولنجتريء بهذا القدر ، فان فيما أورده أبو العلاء في هذا الفصل ، وما أورده ابن القارح

في رسالته ، غناء وكفاية

وَهَذِهِ الْمَذَاهِبُ قَدِيمَةٌ ، تَنْتَقِلُ فِي عَصْرِ بَعْدَ عَصْرٍ . وَيُقَالُ : إِنَّ فِرْعَوْنَ
كَانَ عَلَى مَذْهَبِ الْحُلُولِيَّةِ ، فَلِذَلِكَ ادَّعَى أَنَّهُ رَبُّ الْعِزَّةِ !

*
* *

وَحِكِي عَنْ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي تَسْبِيحِهِ : « سُبْحَانَكَ سُبْحَانِي ،
عُفْرَانُكَ عُفْرَانِي ! » وَهَذَا هُوَ الْجُنُونُ الْعَالِبُ ، إِنَّمَا مَنْ يَقُولُ هَذَا الْقَوْلَ
مَعْدُودٌ فِي الْأَنْعَامِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ :

« أَنَا أَنْتَ - بِلَا شَكٍّ - فَسُبْحَانَكَ سُبْحَانِي
وَإِسْخَاطُكَ إِسْخَاطِي وَعُفْرَانُكَ عُفْرَانِي
وَلِمَ أَجْلَدُ يَا رَبُّ إِذَا قِيلَ هُوَ الزَّانِي ؟ »

وَبَنُو آدَمَ بِلَا عُقُولٍ ، وَهَذَا أَمْرٌ يُلْقَنُهُ صَغِيرٌ عَنْ كَبِيرٍ « أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ
أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ؟ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا »
وَيُرْوَى لِبَعْضِ أَهْلِ هَذِهِ النَّحْلَةِ :

رَأَيْتُ رَبِّي يَمْشِي بِلَا لِكَّةٍ (١) فِي سُوقٍ يَحْيَى ، فَكِدْتُ أَنْفَطِرُ
فَقُلْتُ : « هَلْ فِي اتِّصَالِنَا طَمَعٌ ؟ » فَقَالَ « هَيْهَاتَ ، يَمْنَعُ الْحَذَرُ »
وَلَوْ قَضَى اللَّهُ الْفَقَّةَ بِهِ وَوَى لَمْ يَكُ إِلَّا الشُّجُودُ وَالنَّظَرُ

(١) هكنا وجدناها في جميع النسخ التي ظفرنا بها ، ولعل صوابها : « يمشى بمالكة »
أي برسالة .

التناسخ^(١)

وَتُوَدِّي هَذِهِ النَّحْلَةَ إِلَى التَّنَاسُخِ ، وَهُوَ مَذْهَبٌ عَشِيقٌ ، يَقُولُ بِهِ أَهْلُ
الْهِنْدِ ، وَقَدْ كَثُرَ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الشَّيْعَةِ ، نَسَأَلُ اللَّهَ التَّوْفِيقَ وَالْكَفَايَةَ .

(١) التناسخ

هو مذهب القائلين بانتقال الأرواح بعد مغادرة أجسادها ، الى أجساد أخرى ، ويرى
بعضهم أن ذلك يحدث ولو لم تكن تلك الأجساد من نوع الأجساد التي فارقتها الروح ،
وبهذا الزعم يدين الكثيرون ، منهم القرامطة ، وأحمد بن حائط ، وتلميذه أحمد بن نانوس ،
وأبو مسلم الخراساني ، ومحمد بن زكريا الرازي الطيب . ومما ذكره الرازي في بعض كتبه
قوله : « لولا أنه لا سبيل إلى تخليص الأرواح عن الأجساد المتصورة بالصورة الهيمنية ، إلى
الأجسام المتصورة بصور الانسان ، إلا بالقتل والذبح ، لما جاز ذبح شيء من الحيوان البتة »
ويزعمون أن التناسخ هو نوع من العقاب والثواب ؛ فالفاسق السيء العمل ، يعاقب على
ذلك بأن تنتقل روحه إلى أجساد البهائم الخبيثة المرتطمة في الأقدار ، والسخره الممتنه بالذبح !



وزعم بعضهم أن الله - سبحانه - أبدع خلقه أسماء سالمين عقلاء بالغين ، في دار سوى
هذه الدار الدنيا ، وخلق فيهم معرفته ، والعلم به ، وأسمع عليهم نعمه ، فابتدأهم بتكليف
شكره ، فأطاعه بعضهم في جميع ما أمرهم به ، وعصاه بعضهم في جميع ذلك ، وأطاعه بعضهم
في بعض دون بعض ، فمن أطاعه في الكل ، أقره دار النعيم التي ابتدأهم فيها ، ومن عصاه
في الكل أخرج من تلك الدار إلى دار العذاب ، وهي النار . ومن أطاعه في بعض ، وعصاه
في البعض آخر ، أخرج إلى دار الدنيا ، فألبسه هذه الأجساد الكثيفة ، وابتلاه بالبأساء
والضراء ، والشدة والرخاء ، والآلام واللذات ، على صور مختلفة من صور الناس . وسائر
الحيوانات على قدر ذنوبهم ، فمن كانت معاصيه أقل ، وطاعاته أكثر ، كانت صورته أحسن

وَيُنشَدُ لِرَجُلٍ مِّنَ النَّصِيرِيَّةِ :

وآلامه أقل ، ثم لا يزال يكون في الدنيا كرة بعد كرة ، وصورة بعد أخرى ، ما دامت معه ذنوبه وطاعاته

*
* *

واستدل من يعتقد بالتناسخ من المسلمين ، على صحة زعمهم بقوله تعالى : « يا أيها الانسان ! ما غرك بربك الكريم ؟ الذي خلقك ، فسواك فعدلك ، في أى صورة ما شاء ركبك » وبالآية الأخرى : « جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، ومن الأنعام أزواجاً ، يذروكم فيه » واستدل غير المسلمين منهم على صحة مذهبهم ، بأن النفس لا تتناهى ، والعالم لا يتناهى لأمد ، فالنفس منتقلة أبدأً ، وليس انتقالها إلى نوعها بأولى من انتقالها الى غير نوعها

*
* *

وانكرت طائفة أخرى ، انتقال الأرواح إلى غير أنواع أجسادها التي فارقتها ، بعد أن أقرت انتقالها إلى أنواع أجسادها ، فقالت : « بما أنه لا تنهى للعالم ؛ فوجب أن تتردد النفس في الأجساد أبدأً ، ولكن لا يجوز أن تنتقل إلى غير النوع الذى أوجب لها طبعها الإشراف عليه ، وتعلقها به »

وفي كتابي الملل والنحل لابن حزم والشهرستاني ، فصلان نافعان ، وقد عنى ابن حزم بتفنيد كثير من هذه الآراء وإدحاضها .

*
* *

وقد شاع في الهند هذا المذهب كما شاع فيها غيره ، منذ أقدم أزمنة التاريخ ، ثم عرفه العرب في أواخر القرن الأول ، ودان به الشيعة ، كما دانوا بمذهب الخلول والرجعة وغير ذلك من المذاهب القريبة منهما . ولم يأت القرن الرابع حتى انتشرت تلك المذاهب ، وذاع أمرها ، وساعد على انتشارها فتح محمود بن سبكتكين بلاد الهند ، وقد كان ذلك الفتح سبباً في توثق العلاقات بين المسلمين والهنود ، فكثرت تبادل الآراء بينهم ، وانتشرت تجارة الهند بالعراق ، ووفد بعض الهنود إلى مدينة السلام .

« إِعْجَبِي أَمَّنَا ! لِصَرْفِ اللَّيَالِي »

« رأى أبي العلاء في التناسخ »

فاذا شئت أن تعرف رأى أبي العلاء في التناسخ ، أمكنتك أن تلححه فيما تقرؤه له في هذا الفصل ، من السخرية والتبرم .

ولا ريب أن أبا العلاء ، درس هذا المذهب دراسة حقة ، فلم يرض عنه ، وأبدى ارتيابه فيه ، ثم شفع هذا الارتياب بالفرض الصريح في أغلب أشعاره فقد ذكر التناسخ في صباه ، على سبيل اللهو والتندر ، وان لم يفته أن يظهر ارتيابه فيه ، في بيت من قصيدة له ، في « سقط الزند » ، كتبها إلى إبراهيم بن إسحق مدحاً فيه ، وجواباً على قصيدة بعث بها إليه ، والبيت :

فلو صح التناسخ ، كنت « موسى » وكان أبوك « إسحق الذبيحا » !

ثم أنكره أكثر من مرة إنكاراً صريحاً في لزومياته ، فقال :

يقولون : « إن الجسم ينقل روحه إلى غيره ، حتى يهذبه النقل »

فلا تقبلن ما يخبرونك ، ضالة ، إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل

وتهمكم بجماعة القائلين بهذا المذهب ، وأمعن في السخرية منهم ، فقال :

يا آكل التفاح ! لا تبعدن ولا يُقم يوم ردى ثا كلك

قال النصيرى - وما قلته - فاسمع ، وشجع في الوغى نا كلك

قد كنت في دهرك تفاحة وكان تفاحك ذا آ كلك

وحرف هاج لحت فيما مضى وطالما تشكله شا كلك

والبيت الأخير سخرية من مذهب القائلين - ومنهم ابن سعيد العجلي ، وهو أحد من

ادعى أنه المهدي المنتظر - « إن الأعضاء على صور حروف الهجاء ، وأن الألف منها مثال

القدم ، والعين على صورة العين الخ »

وقد سخر من التناسخ ومن يدينون به ، في موضع آخر ، فقال :

فإبال هذا العصر ، ما فيه آية من المسخ ، إن كانت « يهود » رأيت مسخا

جُعِلَتْ أُخْتُنَا «سُكِينَةٌ» فَارَةٌ

وقال بأحكام التناسخ معشر غلوا ، فأجازوا الفسخ في ذلك والرسخا
فقد قسموا التناسخ الى أربعة أقسام . نسخ ومسح وفسخ ورسخ ، وقالوا عن الأول : إنه
انتقال الروح من جسم إنسانى إلى آخر ، أو إلى جسم إنسانى أرفع منه . وعن الثانى إنه : انتقال
الروح إلى البهائم ، وعن الثالث : إنه انتقالها إلى الحشرات . وعن الرابع : إنه انتقالها إلى
النبات أو الجماد ...

*
* *

وإنما تحفظ أبو العلاء في ارتيابه في التناسخ أحياناً ، فاحتاط في بعض أشعاره ، ووقف على
الحياد في بعض آخر ، لارتباط هذه المسألة العويصة بالروح ومآلها . وقد جهل أبو العلاء
كنهه الروح ومآلها ، فرجم عنها بالظنون والفروض ، على أنه جزم بمآل الجسم ، وعرف غايته
وتطوراتها ، فقال :

أما الجسوم ، فلتراب مآلها وعييت بالأرواح ، أئى تذهب ؟

وإذا يقن أن مآل الجسم الى التراب ، فقد افتن في صيرورته ومآله حين أرسل خياله الى
هذه الناحية ، فأبدع في ذلك ما شاء له الخيال الصافى ، والعقل الراجح الحصيف . قال :

وإذا رجعت إليه صارت أعظمى تراباً تهافت في طوال الأعصر
وقال : خفف الوطاء ، ما أظن أديم الـ أرض إلا من هذه الأجساد
وقال : ولرب أجساد جذيرات البرى بالصون صارت في طلاء جدار
وقال : لعل مفاصل البناء تضعى طلاء للسقيفة والجدار
وقال : وإن جملت - بحمد الله - في خرف يقضى الطهور ، فاني شاكر راضى
جواهر ألفتها قدرة عجب وزايلتها ، فصارت مثل أعراض
وقال : فلا يُمس فخاراً - من الفخر - عائد إلى عنصر الفخار للنفع يضرب
لعل إناء منه يصنع مرة فيأكل فيه - من أراد - ويشرب
وينقل من أرض لأخرى - وما درى - فوآهأ له ! بعد البلى - يتغرّب !

فَازْجُرِي هَذِهِ السَّنَانِيرَ^(١) عَنْهَا وَأَثْرُكِيهَا — وَمَا تَضُمُّ الْغِرَارَةَ^(٢)
وَقَالَ آخِرُ مِنْهُمْ :

تَبَارَكَ اللَّهُ كَأَشْفِ الْمِحْنِ فَقَدْ أَرَانَا عَجَائِبَ الزَّمَنِ
حَمَارُ شَيْبَانَ ، شَيْخِ بَلَدِنَا ، صَيْرُهُ جَارِنَا أَبُو السَّكَنِ
بُدِّلَ مِنْ مِشِيَةِ بِحُلَّتِهِ مِشِيَتَهُ فِي الْحِزَامِ وَالرَّسَنِ^(٣)

إلى آخر تلك الأبيات التي لا يتسع المقام لذكرها . وقد اتجه فكر « عمر الخيام » إلى هذه الناحية ، فأبدع فيها وأحسن في رباعياته ، وتمثل أكوأباً تألفت من جُسُوم آدمية ؛ تتحدث وتناقش ، كما تمثل كوباً في يد الخزاف يقص عليه تاريخ حياته ، ووردة عطرة كانت عادة فاتنة ، ماتت فاستحال جاهلها إلى عطر شذى . وقد امتلأت « رباعياته » بهذه الفكرة ممثلة في صور شتى ، وحسب القارىء أن نحيله إليها ليرى بنفسه ذلك . فقد كادت هذه الفكرة تصبح محور فلسفة الخيام في الرباعيات .

*

**

على أن أبا العلاء لم يرفض التناسخ جملة واحدة ، ولم يجزم ببطلانه جزم المتيقن الواثق في كل مرة ، بل تردد فيه أحياناً فكاد يقبله ، فإذا رأته يقول :

تقدم شخص مضى فأحدث منه البديل

وما صح إلا امرؤ تصرف ، ثم انجدل

رأيته يقول في مكان آخر :

وتقدم الأرض نفوس أتت مخلوقة من أنفس ثانوية

أو يقول : والجسم كالثوب — على روحه ينزع — إذ يخلق ، أو يتسخ

(١) الققط (٢) الجواثق ، ومعنى البيت : « فأبعدي عنها الققط حتى لا تؤذيها ،

ودعيها تأكل من الغرارة ما تشاء » (٣) يقول : « إن روح جارنا حلت في حمار شيخ

بلدتنا ، فأصبح ذلك الجار يمشي في الحزام والرسن — بعد أن كان يخطال في حلته ! »

وَيُصَوِّرُ لَهُمُ الرَّأْيَ الْفَاسِدَ أَبَاجِيرَ^(١) وَمُشَبَّهَاتٍ، فَيَسْلُكُونَ فِي التَّرَهَاتِ

مذهب التناسخ في الهند

وَحِكْمِي لِي عَنْ بَعْضِ مُلُوكِ الْهِنْدِ، وَكَانَ شَابًّا حَسَنًا، أَنَّهُ جُدِرَ، فَنَظَرَ إِلَى
وَجْهِهِ فِي الْمِرَاةِ وَقَدْ تَغَيَّرَ، فَأَحْرَقَ نَفْسَهُ، وَقَالَ: «أُرِيدُ أَنْ يَنْقُلَنِي اللَّهُ إِلَى
صُورَةٍ أَحْسَنَ مِنْ هَذِهِ!»

وَحَدَّثَنِي قَوْمٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ، مَا هُمْ فِي الْحِكَايَةِ بِكَادِبِينَ، وَلَا فِي أَسْبَابِ
النَّحْلِ جَادِبِينَ: أَنَّهُمْ كَانُوا فِي بِلَادِ مُحَمَّدٍ، وَكَانَ مَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْهِنْدِ، قَدْ
وَثِقَ بِصَفَائِهِمْ، يُفِيضُ عَلَيْهِمُ الْأَعْظِيَةَ لَوْفَائِهِمْ، وَيَكُونُونَ أَقْرَبَ الْجُنْدِ
إِلَيْهِ إِذَا حَلَّ أَوْ ارْتَحَلَ، وَأَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ سَافَرَ فِي جَيْشِ جَهْرَهُ، فَجَاءَ خَبْرُهُ
أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ، فَجَمَعَتِ امْرَأَتُهُ لَهَا حَطْبًا كَثِيرًا، وَأَوْقَدَتْ نَارًا عَظِيمَةً،
وَاقْتَحَمَتْهَا، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ. وَكَانَ ذَلِكَ أَخْبَرُ بَاطِلًا، فَلَمَّا قَدِمَ الزَّوْجُ،
أَوْقَدَ لَهُ نَارًا عَظِيمَةً لِيُحْرَقَ نَفْسَهُ، حَتَّى يَلْحَقَ بِصَاحِبَتِهِ، فَاجْتَمَعَ خَلْقٌ كَثِيرٌ
لِلنَّظَرِ إِلَيْهِ. وَأَنَّ أَصْحَابَهُ مِنَ الْهِنْدِ كَانُوا يَجِيئُونَ إِلَيْهِ فَيُوضُونَهُ بِأَشْيَاءَ إِلَى
أَمْوَاتِهِمْ^(٢). هَذَا إِلَى أَبِيهِ، وَهَذَا إِلَى أَخِيهِ. وَجَاءَهُ إِنْسَانٌ مِنْهُمْ بَوْرَدَةً، وَقَالَ:
«أَعْطِ هَذِهِ فُلَانًا» يَعْنِي مِثْلًا لَهُ. وَقَذَفَ نَفْسَهُ فِي تِلْكَ النَّارِ.

(١) أمورا عظيمة، وأعاجيب (واحد: بحر، وجمعها: أباجر، وجمع: أباجير) قال الشاعر:

فقلت لها: «بجرا» فقالت مجبتي: «أتعجب من هذا - ولي زوج آخر»

(٢) أشار أبو العلاء إلى ذلك في لزومياته فقال

تقول الهند: «آدم كان قنا لنا، فسرى إليه مخبئوه»

أولئك يجرقون الميت نسكا ويشعره لبانا ملهوه

وَحَدَّثَ مَنْ شَاهَدَ إِحْرَاقَهُمْ نُفُوسَهُمْ ، أَنَّهُمْ إِذَا لَدَغَتْهُمُ النَّارُ ، أَرَادُوا
الْخُرُوجَ ، فَيَدْفَعُهُمْ مَنْ حَضَرَ إِلَيْهَا بِالْعِصِيِّ وَالْخَشْبِ . فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، لَقَدْ
جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا! ...

ونذكر بهذه المناسبة ، قوله في تحييد ما يفعله الهند من إحراق موتاهم :

فاعجب لتحريق أهل الهند ميتهم وذلك أروح من طول التباريح
إن حرقوه ، فما يخشون من ضبع تسرى إليه ولا خفي وتطريح
والنار أطيب من كافور ميتنا غباً ، وأذهب للنكراء والريح
« والخفي : بنش الميت » وقوله :

حرق الهند من يموت ، فما زا روه في روحة ولا تبكير
واستراحوا من ضغطة القبر ميتاً وسؤال لمنكر ونكير!
وقوله :

إذا حرق الهندي بالنار نفسه فلم يبق نحض للتراب ولا عظم
فهل هو خاش من نكير ومنكر وضغطة قبر — لا يقوم لها نظم؟

بل لقد وصل إكباره وإعجابه بذلك ، إلى حد أن فضله على الجهاد ، فقال :
يجرق نفسه الهندي خوفاً ويقصر — دون ما صنع — الجهاد
وما فعلته عبادة النصارى ولا شرعية صباؤا وهادوا
يقرب نفسه للنار عمداً وذلك منه دين واجتهاد
وهنا يحن أبو العلاء إلى الموت حينئذ — كما هي عادته الغالبة عليه — فيقول :
وموت المرء نوم طال جداً عليه ، وكل عيشته سهاد

وهو أسلوب آخر من فكرته التي أودعها داليتها الخالدة في قوله :

ضجعة الموت رقدة يستريح ال جسم فيها ، والعيش مثل السهاد
وارجع الى ص ٢٠٥ و ٢٠٦ من هذا الجزء ، لتعرف رأى أبي العلاء في الموت

ابن هانيء الأندلسي

وَفِي النَّاسِ مَنْ يَتَّظَاهِرُ بِالْمَذْهَبِ وَلَا يَتَّقِدُهُ ، يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الدُّنْيَا
الْفَانِيَةِ^(١) ، وَهِيَ أَغْدَرُ مِنَ الْوَرَهَاءِ الزَّانِيَةِ . وَكَانَ لَهُمْ فِي الْمَغْرِبِ رَجُلٌ

(١) ردد أبو العلاء هذا المعنى بصور شتى في كثير من أشعاره ، وأنحى على تلك الطائفة
التي اتخذت الدين وسيلة للكسب والنفع . وقد أتينا ببضع أمثلة من ذلك في ص « ٢١٧ »
من هذا الجزء ، وإليك نخبة من أبداع ما نختاره له في ذلك :

بخيفة الله تعبدتنا وأنت عين الظالم اللاهي
تأمرنا بالزهد في هذه الدنيا ، وما همك إلا هي !

تلاوتكم ليست لرشد ولا هدى ولكن لكم فيها التكاثر والكبر

وليس حبر يبدع في صحابته إن سام نفعاً بأخبار تقوِّها
وإنما رام نسواناً تزوجها — بما افتراه — وأموالا تموِّها
لا يخدمك داع قام في ملأ بخطبة زان معناها وطوِّها
فما العظا — وإن راعت — سوى حيل من ذى مقال على ناس تحوِّها

رويدك قد غررت — وأنت حر — بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صباحا ويشربها — على عمد — مساء
يقول لكم : « غدوت بلا كساء » وفي لذاتها رهن الكساء !

طلب الخسائس وارتقى في منبر ويكون غير مصدق بقيامة

وكم من فقيه خابط في ضلالة وحجته فيها الكتاب المنزل
وقارئكم يرجو بتطريبه الغنى فأض كما غنى — ليكسب — ززل

« وززل » هذا معنٍ يضرب به المثل في اتقان الضرب بالعود

يَعْرِفُ بَابِنِ هَانِيٍّ، وَكَانَ مِنْ شُعْرَائِهِمُ الْمُجِيدِينَ، فَكَانَ يَفْعَلُو فِي مَدْحِ « الْمُعِزِّ »
عُلوًّا عَظِيمًا، حَتَّى قَالَ فِيهِ - وَقَدْ نَزَلَ بِمَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ « رِقَادَةَ » -

« حَلَّ بِرِقَادَةَ الْمَسِيحِ حَلَّ بِهَا آدَمُ وَنُوحُ
حَلَّ بِهَا اللَّهُ ذُو الْمَعَالِي وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ رِيحٌ »

عودة الى المخرج

وأدلُّ رُتَبِ الْحَلَّاجِ أَنْ يَكُونَ شَعْوَذِيًّا، لَا ثَابِقَ الْفَهْمِ وَلَا أُخُوذِيًّا^(١)،
عَلَى أَنَّ الصُّوفِيَّةَ تَعْظُمُهُ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ، مَا هِيَ لِأَمْرِهِ شَائِفَةٌ

ابن أبي عون

وَأَمَّا ابْنُ أَبِي عَوْنٍ، فَإِنَّهُ أَخَذَ فِي لَوْنٍ بَعْدَ لَوْنٍ، وَقَدْ تَجَدَّدَ الرَّجُلُ حَازِقًا
فِي الصَّنَاعَةِ، بَلِيغًا فِي النَّظَرِ وَالْحُجَّةِ، فَإِذَا رَجَعَ إِلَى الدِّيَانَةِ أَلْفَى كَأَنَّهُ عَيْرٌ
مُقْتَادٌ، وَإِنَّمَا يَتَّبِعُ مَا يَعْتَادُ. وَالتَّأَلُّهُ مَوْجُودٌ فِي الْغَرَائِزِ، وَيُلَقِّنُ الطِّفْلُ
النَّاشِئُ مَا سَمِعَهُ مِنَ الْأَكْبَرِ، فَيَلْبَثُ مَعَهُ. وَالَّذِينَ يَسْكُنُونَ فِي الصَّوَامِعِ،
وَالْمُتَعَبِّدُونَ فِي الْجَوَامِعِ، يَأْخُذُونَ مَا هُمْ عَلَيْهِ، كَنَقْلِ الْخَبَرِ عَنِ الْمُخْبَرِ،
لَا يُمَيِّزُونَ الصِّدْقَ مِنَ الْكَذِبِ. فَلَوْ أَنَّ بَعْضَهُمُ أَلْفَى أُسْرَةً مِنَ الْمُجُوسِ
خَرَجَ مَجُوسِيًّا^(٢). وَإِذَا الْمُعْقُولُ جُعِلَ هَادِيًّا، نَقَعَ بِرِيَّةٍ صَادِيًّا. وَلَسَكِنَ أَيْنَ مَنْ

(١) يسوق الأمور أحسن مساق لعلمه بها، والأخوذى أيضاً: الحاذق المشتمر للأموال القاهر لها، لا يشد عليه شيء (٢) من أبداع ما نختاره لأبي العلاء، في هذا المعنى، قوله في لزومياته:

وينشأ ناشيء الفتيان منا على ما كان عوده أبوه
وما دان الفتى بحجبا، ولكن يعلمه التدين أقربوه
وظفل الفارسي، له ولالة بأفعال التمجس دربوه

يَصْبِرُ عَلَى أَحْكَامِ الْعَقْلِ^(١)؟ هَيْهَاتَ! غُدِمَ ذَلِكَ فِي مَنْ تَطَّلَعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ،

(١) لو شئنا الاستشهاد بكل ما كتبه أبو العلاء في النعي على التقليد؛ والحث على تمجيد العقل، والاعتزاز به، والدعوة إلى تحكيمه في كل شيء؛ لملأنا صحفاً كثيرة، لا يسمح لنا بها هذا المقام. فلنجزىء من ذلك بالقليل عن الكثير، وإليك ما نختاره له:

اللب قطب، والأمور له رحي فيه تدبر كلها وتدار

العقل يوضح للنس لك منهجاً، فاحذ حذوه

وليس يظلم قلب وفيه لب جذوه

كذب الناس، لا إمام سوى العقه ل مشيراً في صبحه والمساء

فإذا ما أطعته جلب الرحة عند المسير والإرساء

صدقت ياعقل، فليبعد أخوسفه صاغ الأحاديث إفكا أو تأولها

فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل

نكذب العقل في تصديق كاذبهم والعقل أولى يا كرام وتصديق

وينفر عقلي مغضباً إن تركته سدى، واتبع الشافعي ومالكا

والعقل يعجب، والشرائع كلها خبر يقلد، لم يقسه قانس

وإذا الرياسة لم تعن بسياسة عقلية، خطيء الصواب السائس

قالوا، فمانوا، فلما أن حدودهم إلى القياس، أبانوا العجز واعترفوا

وإذا ما سألت أصحاب دين غيروا بالقياس ما رتبوه

لا يدينون بالعقول، ولكن بأباطيل زخرف كذبوه

وجاءتنا شرائع كل قوم على آثار شيء رتبوه

وَمَنْ ضَمِنَهُ فِي الرَّمِّ رَمَسٌ، إِلَّا أَنْ يَشُدَّ رَجُلٌ فِي الْأَمِّ، يُخَصُّ مِنْ فَضْلِ بَعْمٍ.

وغير بعضهم أقوال بعض وأبطلت النهي ما أوجبه
فاحذر، ولا تدع الأمور مضاعة وانظر بقلب مفكر متبصر
تفكر، فقد حار هذا الدليل وما يكشف النهج غير الفكر
الفكر حبل متى يمسك على طرف منه، ينط بالتريا ذلك الطرف
فكروا في الأمور يكشف لكم بعض الذي تجهلون بالتفكير
فكري أنت، ربما هدى الإنسان للمشكلات بالتفكير
إذا كان التقى بلها وعيها فأعيار المذلة أتقياء
وما تريك مرأى العين صادقة فاجعل لنفسك مرآة من الفكر
وجدت أباك مقترياً حديثاً فأنت على مقص الشيخ تفرى
عاشوا كما عاش آباء لهم سلفوا وأورثوا الدين تقليداً كما وجدوا
فما يراعون ما قالوا وما سمعوا ولا يباليون — من غي — لمن سجدوا
في كل أمرك تقليد رضيت به حتى مقالك: « ربي واحد أحد »
جاءت أحاديث إن صحت فإن لها شأنًا، ولكن فيها ضعف إسناد
فشاور العقل، واترك غيره هدرا فالعقل خير مشير ضمه النادى
إذا رجع الحصيف إلى حجاجه تهاون بالمذاهب وازدراها
فخذ منها بما أداه لب ولا يغمسك جهل في صراها
وهت أديانهم من كل وجه فهل عقل يشد بها عراها؟
هل صح قول من الحاكي فتقبله أم كل ذاك أباطيل وأسمار؟
أما العقول فألت أنه كذب والعقل غرس، له بالصدق إثمار

رُبَّمَا لَقِينَا مَنْ نَظَرَ فِي كُتُبِ الْحُكَمَاءِ ، وَتَبِعَ بَعْضَ آثَارِ الْقُدَمَاءِ ، فَالْفِينَاءُ
يَسْتَحْسِنُ قَبِيحَ الْأُمُورِ ، إِنَّ قَدَرَ عَلَى فَطِيحِ رَكْبَةٍ ، وَإِنْ عَرَفَ وَاجِبًا
نَكْبَهُ ، كَأَنَّ الْعَالَمَ سَعَوْا لَهُ فِي إِفْقَادِ ، فَهُوَ يَعْتَقِدُ شَرَّ اعْتِقَادٍ ؛ وَإِنْ أُودِعَ
وَدِيعَةً خَانَ ، وَإِنْ سُئِلَ عَنْ شَهَادَةٍ مَانَ^(١) ، وَإِنْ وَصَفَ لَعْلِيلَ صِفَةً ، فَمَا يَحْفَلُ :
أَقْتَلَهُ بِمَا قَال ، أَمْ ضَاعَفَ عَلَيْهِ الْأَثْقَالَ ؟ بَلْ غَرَضُهُ فِيمَا يَكْتَسِبُ ، وَهُوَ إِلَى
الْحِكْمَةِ مُنْتَسِبٌ . وَرُبَّ زَارٍ بِالْجَهَالَةِ عَلَى أَهْلِ مِلَّةٍ ، وَعِلَّتُهُ الْبَاطِنَةُ أَدَهَى عِلَّةً !
وَإِنَّ الْبَشَرَ لَكَمَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ : « كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ
فَرِحُونَ^(٢) » وَيَحْضُرُ الْمَجَالِسَ أَنَسٌ طَاغُونَ ، كَانَهُمْ لِلرُّشْدِ بَاغُونَ ، وَأَوْلَيْكَ
— عِلْمُ اللَّهِ — أَصْحَابُ الْبِدْعِ وَالْمَكْرِ .

كَمْ مُتْظَاهِرٍ بِاعْتِرَالٍ ، يَزْعُمُ أَنَّ رَبَّهُ — عَلَى الذَّرَّةِ — يُخَلِّدُ فِي النَّارِ^(٣) ، بَلَّةُ
الدَّرْهِمِ وَبَلَّةُ الدِّينَارِ ، وَمَا يَنْفَكُ يَحْتَقِبُ^(٤) مِنْ الْمَأْثِمِ عِظَائِمَ ، وَيَنْهَمُكَ عَلَى
الْهَارِ وَالْفِسْقِ . قَدْ صَيَّرَ الْجَدَلَ مَصِيدَةً ، يُنْظِمُ بِهِ مِنَ الْعَيِّ قَصِيدَةً^(٥) .

*
*
*

وَحُدِّثْتُ عَنْ إِمَامِهِمْ ، يُوقَرُ وَيَتَّبَعُ ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا جَلَسَ فِي الشَّرْبِ^(٦) ،

(١) مان : كذب (٢) وفي هذا المعنى يقول أبو العلاء :

وفرقتهم على — علائها — ملل وعند كل فريق أنهم ثقفوا

(٣) ذكر أبو العلاء هذا المعنى في لزومياته ، فقال :

جنوا كبار آثام ، وقد زعموا أن الصغائر تجني الخلد في النار

وقال : لقد أفلحوا إن كان لم يجر عندهم من الوزر إلا تركهم للمآزر !

(٤) احتقب الشيء : وضعه في حقيبة ، والمراد : يقترف ويكتسب (٥) ارجع الى

ص « ٢٥٤ » من هذا الجزء لتستوفي هذا المعنى (٦) الشرب : مجلس الشراب

وَدَارَتْ عَلَيْهِمُ الْمُسْكِرَةُ ، وَجَاءَهُ الْقَدْحُ ، شَرِبَهُ ، فَاسْتَوْفَاهُ ، وَأَشْهَدَ مَنْ
حَضَرَهُ عَلَى التَّوْبَةِ !

عبد الله بن ميمون القداح

وَالشَّيْخَةُ يَزْعُمُونَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَيْمُونِ الْقَدَّاحَ - وَهُوَ مِنْ «بَاهِلَةَ» - كَانَ
مِنْ عَدِيَّةِ أَصْحَابِ «جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ» وَرَوَى عَنْهُ شَيْئًا كَثِيرًا ، ثُمَّ ارْتَدَّ بَعْدَ
ذَلِكَ . فَخَدَّثَنِي بَعْضُ شُيُوخِهِمْ أَنَّهُمْ يَرَوُونَ عَنْهُ ، وَيَقُولُونَ : « حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ
ابْنُ مَيْمُونِ الْقَدَّاحِ ، كَأَحْسَنِ مَا كَانَ ! » أَيْ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ . وَيَرَوُونَ لَهُ :

هَاتِ اسْقِنِي الْحَمْرَةَ يَا سَنَبْرُ فَلَيْسَ عِنْدِي أَنْنِي أَنْشُرُ

أَمَا تَرَى الشَّيْخَةَ فِي فِتْنَةٍ يَغُرُّهَا مِنْ دِينِهَا «جَعْفَرُ» ؟

قَدْ كُنْتُ مَغْرُورًا بِهِ بِرُهَةٍ ثُمَّ بَدَأَ لِي خَبْرٌ يُسْتَرُ

وَمِمَّا يُنْسَبُ إِلَيْهِ :

مَشَيْتُ إِلَى جَعْفَرٍ حِقْبَةً فَأَلْفَيْتُهُ خَادِعًا يَحْلُبُ

يَجْرُ الْعَلَاءَ إِلَى نَفْسِهِ وَكُلُّهُ إِلَى حَبْلِهِ يَجْدِبُ

فَلَوْ كَانَ أَمْرُكُمْ صَادِقًا لَمَا ظَلَّ مَقْتُولِكُمْ يُسْحَبُ

وَلَا غُضَّ مِنْكُمْ قَتِيلٌ ، وَلَا سَمَا «عُمَرُ» فَوْقَكُمْ يَخْطُبُ

وَالْحُلُولِيَّةُ قَرِيبَةٌ مِنْ مَذْهَبِ التَّنَاسُخِ ، وَخَدَّثْتُ عَنْ رَجُلٍ مِنْ رُؤَسَاءِ

الْمُنْجِمِينَ^(١) مِنْ أَهْلِ «حَرَّانَ» ، أَقَامَ فِي بَلَدِنَا زَمَانًا ، فَخَرَجَ مَرَّةً مَعَ قَوْمٍ

(١) رأى أبي العلاء في المنجمين

لأبي العلاء في المنجمين والعرافين أسوأ رأى ، فهو يحتقرهم ويتنقصهم في كل مناسبة
تعن له ، وقد بلغ من سخطه عليهم أن تمنى لو كان له من الأيدي والسلطان ما يمكنه من استئصال

يَتَزَهُونَ ، فَسَرَ وَالثَّوْرُ يَكْرُبُ ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ : « لَأَشْكَّ فِي أَنَّ هَذَا الثَّوْرُ

شَاقِقُهُمْ ، فَقَالَ :

لو كان لي أمر يطاوع لم يشن
 يغدو بزخرفه يحاول مكسبا
 وقفت به الورهاء - وهي كأنها
 سألته عن زوج لها متغير ،
 ويقول : « ما اسمك واسم أمك ؟ إنني
 يولى بأن الجرن تطرق بيته
 إلى آخر تلك القصيدة الجميلة . وإني أحيل القارئ إليها في اللزوميات ، وأحب ألا تفوته .
 وللمعري في المنجمين والعرافين أشعار كثيرة ، نختار منها النخبة التالية :

سألت منجمها عن الطفل الذي في المهدي : « كم هو عأش من دهره ؟ »
 فأجابها : « مائة » ليأخذ درهما وأنى الحمام وليدها في شهره !

كان منجم الأقوام أعشى لديه الصحف يقرؤها بلس
 قطع الطريق بجمه ونظيره في المصر ، فعل منجم ومعزم
 شكا الأذى ، فسهرت الليل ، وابتكرت به الفتاة إلى شمطاء ترقيه
 وأمه تسأل العراف قاضية عنه النذور ، لعلى الله يبقيه
 وأنت أرشد منها حين تحمله إلى الطيب يداويه ويستقيه

لقد بكرت في خفها وإزارها لتسأل بالأمر الضرير المنجما
 وما عنده علم فيخبرها به ولا هو من أهل الحجا فيرجما
 يقول : « غداً أو بعده وقع ديمة يكون غياتاً أن تجود وتسجما »

(١) يد الحياة : طولها ، أي أبد الدهر (٢) الزعفران

رَجُلٌ كَانَ يَعْرِفُ بِمُخْلَفِ «بِحِرَّانَ» وَجَعَلَ يَصِيحُ بِهِ : « يَا خَلْفُ ! » فَيَتَّفِقُ
أَنْ يَخُورَ ذَلِكَ الثَّوْرُ ، فَيَقُولُ لِأَصْحَابِهِ : « أَلَا تَرَوْنَ صِحَّةَ مَا خَبَرْتُكُمْ بِهِ !؟ »

*
* *

وَحِكِي لِي عَنْ رَجُلٍ آخَرَ مِمَّنْ يَقُولُ بِالتَّنَاسُخِ ، أَنَّهُ قَالَ : « رَأَيْتُ فِي النَّوْمِ
أَبِي ، وَهُوَ يَقُولُ : « أَبْنَى ! إِنَّ رُوحِي قَدْ نُقِلَتْ إِلَى جَمَلِ أَعُورٍ فِي قِطَارِ فُلَانٍ ،
وَإِنِّي قَدْ اشْتَهَيْتُ بَطِيخَةً » فَأَخَذْتُ بَطِيخَةً ، وَسَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ الْقِطَارِ ،
فَوَجَدْتُ فِيهِ جَمَلًا أَعُورًا ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ بِالْبَطِيخَةِ ، فَأَخَذَهَا أَخْذَ مَرِيْدٍ مُشْتَهٍ »

ويوم جهال المحلة أنه	يظل لأسرار الغيوب مترجما
ولو سألوه بالذي فوق صدره	لجاء بيمين أو أرمم وجهما
كان سحابا عمهم بضلالة	فليس إلى يوم القيامة منجما
إذا قال أهل اللب : « حان نسفاره »	تداركه غيم سواه فأعجما
فإن كنت قد وقفت ، فانج بوحدة	وخل البرايا من فصيح وأعجما
ولاتك - فيما يكره القوم - ساعيا	ولا مسرجا في نصر غيرك ملجما

وانظر إلى قوله في السخط على المنجمات في قصيدة « المرأة » الرائعة :

وأبعدهن عن ربات مكر	سواحر يفتدين معرمت
يقان نهيج الغياب ، حتى	يجيئوا بالركاب مزعمت
ونعطف هاجر الخلان ؛ كما	يزول عن السجايا المسمت
وجمع طوائف العمار ، سهل	علمنا بالجواب موزمات
زعمن بأن في مغنى فقير	كنوزا للملوك مصمات
فلا يدخلن دارك باختيار	فقد ألفتين مذمات
وإن خالسن غرمتك ارتقابا	فحق أن يرحن مشمات

أَفَلَا يَرَى مَوْلَايَ الشَّيْخُ إِلَى مَا رُبِّي بِهِ هَذَا الْبَشَرُ مِنْ سُوءِ التَّمْيِيزِ ؟ .

ابن الراوندى^(١)

وَأَمَّا ابْنُ الرَّاَوْنَدِيِّ ، فَلَمْ يَكُنْ إِلَى الْمَصْلَحَةِ بِمَهْدِيٍّ ، وَأَمَّا تَاجُهُ فَلَا يَصْلُحُ

(١) ابن الراوندى

اسمه أحمد بن يحيى بن إسحق الراوندى ، كنيته أبو الحسين ، وهو ينسب إلى « راوند » إحدى قرى أصبهان ، مات فى سن الأربعين فى سنة ٢٤٥ هـ . ، وكان أبوه يهودياً فأسلم ، فكان اليهود يقولون للمسلمين : « ليفسدن عليكم هذا كتابكم ، كما أفسد أبوه التوراة علينا ! » وكان من متكلمى المعتزلة ، وانفرد بمذاهب نقلها أهل الكلام عنه فى كتبهم ؛ قالوا : « ولم يكن فى زمانه أحقق منه بالكلام ، ولا أعرف بدقيقه وجليله » وكان يلزم أهل الإلحاد ؛ فإذا عوتب فى ذلك ، ادعى أنه يريد معرفة مذاهبهم ، ثم صار بعد ملحداً زنديقاً وأوجز ما نفعته به ، أنه رجل لا يستقر على مبدأ ، وليس للمبادئ قيمة عنده ، فقد كان مسلماً ، ولكن ذلك لم يمنعه أن يصنف « كتاب البصيرة » لليهود ، رداً على الاسلام ، نظير أربعمائة درهم دفعوها له ، فلما قبض المال ، رام نقضه ، فلما أعطوه مائة درهم أخرى عدل عن ذلك ! وكان من متكلمى المعتزلة ، فلم يمنعه ذلك من أن يؤلف كتابه الذى سماه : « فضيحة المعتزلة » وقد ألف كتباً أخرى متناقضة ، ولكن أكثرها كان إلحادياً شديداً الجرأة .

وقد نيفت كتبه على المائة — ذكر ابن القارح أهمها وأشنعها فى رسالته — وكان له ذوق خاص فى تسمية كتبه ، فقد أطلق اسم « الزمردة » على كتابه الذى دلل فيه على فساد الرسالة والرسول ، وازدرى فيه بالنبوات ، وعلل هذه التسمية بأن من خواص الزمرد ، أن الحية — إذا نظرت إليه — ذابت وسالت عيناها ، وكذلك يحدث لخصومه حين يقرأون كتابه ! ومما زعمه فيه قوله : « إنا نجد فى كلام « أ كشم بن صيفى » شيئاً أحسن من « إنا أعطيناك الكوثر » وإن الأنبياء كانوا يستعبدون الناس بالظلام الخ »

أَنْ يَكُونَ نَعْمًا ، وَهَلْ تَاجُهُ^(١) إِلَّا كَمَا قَالَتِ الْكَاهِنَةُ : « أَفْ وَتُفَّ » مَا تَاجُهُ
بِتَاجِ مَلِكٍ ، وَلَكِنْ دُعِيَ بِالْمَهْلِكِ ؛ وَلَا اتَّخِذْ مِنَ الذَّهَبِ ، وَسَوْفَ يُصَوَّرُ
مِنَ اللَّهَبِ !

وَأَمَّا « الدَّامِغُ^(٢) » فَمَا إِخَالُهُ دَمَغَ إِلَّا مَنْ أَلْفَهُ . . .
بِئْسَ مَنْ نُسِبَ إِلَى « رَاوِنْدَ » إِنَّمَا هَتَكَ قَيْصَهُ ، وَأَبَانَ لِلنَّاطِرِ خَمِيصَهُ !

القرآن الكريم

وَأَجْمَعَ مُلْحِدٌ وَمُهْتَدٍ ، أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ

وقد ذكر في كتبه الأخرى آراء لا تقل عن هذه جرأة وشناعة على الأنبياء والدين ،
فقد طعن على النبي صلى الله عليه وسلم في كتابه (الفريد) وطعن على القرآن ، وعاب نظمه
في كتابه (الدامغ) . ومما ورد فيه قوله : « إن الله - سبحانه وتعالى - ليس عنده من
الدواء إلا القتل ، فعل العدو الحنق الغضوب ، فما حاجته إلى كتاب ورسول ؟ . . . وقال في
وصف الجنة : « فيها أنهار من لبن لم يتغير طعمه » وهو الحليب ، ولا يكاد يشبهه إلا الجائع ،
وذكر العسل ؛ ولا يطلب صرفا . والزنجبيل ، وليس من لذيذ الأشربة . والسندس ، وهو
يقترش ولا يلبس . وكذلك الاستبرق ، وهو الغليظ من الديباج ، ومن تخايل بأنه في
الجنة يلبس هذا الغليظ ، ويشرب الحليب والزنجبيل ، صار كعروس الأكراد والنبط ! »
وقد مر بك طرف من أخباره في رسالة ابن القارح ، وسيمر بك طرف آخر في فصل
آخر من هذا الكتاب ، فلنكتف بهذا القدر هنا .

(١) يعني كتاب « التاج » الذي ألفه ابن الراوندي يحتاج فيه لقدم العالم .

(٢) هو اسم الكتاب الذي ألفه ، وطعن فيه على نظم القرآن .

عَلَيْهِ - كِتَابٌ بِهِرَ بِالْإِعْجَازِ ، وَ لَقِيَ عَدُوَّهُ بِالْإِرْجَازِ ، مَا حُذِيَ عَلَى مِثَالِ ،
وَلَا أَشْبَهَ غَرِيبَ الْأَمْثَالِ . مَا هُوَ مِنَ الْقَصِيدِ الْمَوْزُونِ ، وَلَا الرَّجَزِ ، وَلَا شَاكِلِ
خِطَابَةِ الْعَرَبِ ، وَلَا سَجْعِ الْكُهْنَةِ . وَجَاءَ كَالشَّمْسِ ، لَوْ فَهَمَهُ الْهَضْبُ لَتَصَدَّعَ .
وَإِنَّ الْآيَةَ مِنْهُ - أَوْ بَعْضَ الْآيَةِ - لَتَعْتَرِضُ فِي أَفْصَحِ كَلِمٍ يَقْدِرُ عَلَيْهِ
الْمَخْلُوقُونَ ، فَتَكُونُ فِيهِ كَالشَّهَابِ الْمُسْتَلْأَلِيِّ فِي جُنْحِ غَسَقٍ ، وَالزُّهْرَةِ الْبَادِيَةِ
فِي جَدُوبٍ . فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ !

وَأَمَّا « الْقَضِيبُ »^(١) « فَمَنْ عَمِلَهُ أَحْسَرَ صَفْقَةً مِنْ « قَضِيبٍ »^(٢) ، وَخَيْرُهُ لَهُ
مِنْ إِنْشَائِهِ ، لَوْ رَكِبَ قَضِيبًا^(٣) عِنْدَ عِشَائِهِ^(٤) ، فَقَذَفَتْ بِهِ عَلَى قِتَادٍ^(٥) ،
وَنَزَعَتْ الْمَفَاصِلَ كَنَزْعِ الْأَوْتَادِ :
إِنَّ الطَّرِمَاحَ يَهْجُونِي لِأَشْتِمَهُ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ! عَيْلَتُ - دُونَهُ - الْقَضِيبُ

وَأَمَّا « الْفَرِيدُ »^(٦) « فَأَفْرَدَهُ مِنْ كُلِّ خَلِيلٍ ، وَالْبَسَهُ - فِي الْأَبَدِ - بُرْدَ
الدَّلِيلِ ، وَمَنْ أَنْفَرَدَ بَعِزَّهُ لَوْفَارَتِهِ ، فَإِنَّ « فَرِيدَ » ذَلِكَ الْجَاهِدِ يَنْفَرِدُ
لِحِقَارَتِهِ ، كَأَنَّهُ الْأَجْرَبُ . وَإِذَا جَدَلَتِ الْغَائِنِيَّةُ بِفَرِيدِ النُّظَامِ ، فَهَوَّ

(١) هو اسم الكتاب الذي ألفه ابن الراوندي في إثبات أن الله محدث وأنه كان غير عالم ،
حتى خلق لنفسه علماً (٢) هو تمّار بالبحرين يضرب به المثل ، وحكايته أنه اشترى
« قوصرة تمر » وكان فيها بكرة ، فلحقه صاحبها واستردها ، واستخرج البكرة منها ، فقتل
(قضيب) نفسه لهفة عليها (٣) ناقة لم ترض (٤) أي ليلاً ، والناقة التي لم ترض ، إذا مشت
بالليل ، تحقق لراكبها الويل . . . ! (٥) شجر صلب له شوك كالإبر (٦) هو اسم
الكتاب الذي ألفه ابن الراوندي في الطعن على النبي صلوات الله عليه

قِلَادَةٌ مَا شِئِمَّ عِظَامٍ . وَأَمَّا « الْمَرْجَانُ » فَإِذَا قِيلَ : إِنَّهُ صِغَارُ اللُّؤْلُؤِ ، فَمَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ « مَرْجَانُهُ »^(١) صِغَارَ حَصَى ، بَلْ أَحْسَنُ مِنْ أَنْ يُذَكَّرَ !

ابن الرومي^(٢)

وَأَمَّا « ابْنُ الرَّوْمِيِّ » فَهُوَ أَحَدُ مَنْ يُقَالُ : « إِنَّ أَدَبَهُ كَانَ أَكْثَرَ مِنْ

(١) « المرجان » هو اسم الكتاب الذي ألفه ابن الروندي في اختلاف أهل الإسلام

(٢) ابن الرومي — ٢٢١ — ٢٨٣ هـ

اسمه على بن العباس بن جريح (أوجور جيس) مولى عميد الله بن عيسى بن جعفر ، وكنيته أبو الحسن ، ويعرف بابن الرومي (نسبة إلى أصله)

كانت ولادته بعد طلوع فجر يوم الأربعاء لليلتين خلتا من رجب سنة ٢٢١ هـ في الموضع المعروف « بالعقبة ودرب الختلية » في دار بازاء قصر عيسى بن جعفر — ووفاته يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ٢٨٣ هـ فدفنوه في مقبرة البستان . وكانت ولادته وموته في بغداد .

وعلى ذلك يكون « ابن الرومي » قد أظلمت تسع خلافات ، وهي خلافات : « المعتصم^(١) » و « الواثق^(٢) » و « المتوكل^(٣) » و « المنتصر^(٤) » و « المستعين^(٥) » و « المعتز^(٦) » و « المهتدي^(٧) » و « المعتمد^(٨) » و « المعتضد^(٩) » .

وكان شعره غير مرتب ، رواه « المتنبى » عنه ، ثم جمعه « أبو بكر الصولي » ورتبه على الحروف ، وجمعه « أبو الطيب » وراق بن عبدوس ، وزاد في جميع النسخ نحو ألف بيت

« سبب موته »

وصل « ابن الرومي » في الهجو والتصرف بمعانيه وأساليبه ، والإفخاش في ذلك ، إلى حد

(١) « ٢١٨ — ٢٢٧ هـ » (٢) « ٢٢٧ — ٢٣٢ هـ » (٣) « ٢٣٢ — ٢٤٧ هـ »

(٤) « ٢٤٧ — ٢٥٢ هـ » (٥) « ٢٥٢ — ٢٥٢ هـ » (٦) « ٢٥٢ — ٢٥٥ هـ »

(٧) « ٢٥٥ — ٢٥٦ هـ » (٨) « ٢٥٦ — ٢٧٩ هـ » (٩) « ٢٧٩ — ٢٨٩ هـ »

عَقْلِهِ « وَكَانَ يَتَعَاطَى عِلْمَ الْفَلَسَفَةِ

خافه معه معاصروه ، فلم يكد يسلم أحد من خوفه ، حتى لقد خافه « أبو الحسين القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب » وزير الإمام « المعتضد » مع ما اشتهر به هذا الوزير من الاستبداد ، والجرأة على سفك الدماء !

اشتهر ابن الرومي بالجرأة على هجاء الأمراء — بلا هوادة ولا رفق — واشتهر الوزير « القاسم » بالليل إلى الانتقام ، وعدم التردد في قتل من يناوئه ويناصبه العداء ، وكان يخشى فلتات لسان ابن الرومي ، ويعلم أنه لن يسلم من هجائه أو سلاطته يوماً ما . فلما هجاه « ابن الرومي » استشاط غضباً ، وفكر في قتله انتقاماً منه . فهدس إليه « ابن فراس » — وهو ممن أخش « ابن الرومي » في هجائهم — فأطعمه « خشكناة » مسمومة — وهو في مجلس « القاسم » — فلما أكلها « ابن الرومي » أحس بالسم ، وأدرك المكيدة ، فقام ، فقال له الوزير : « إلى أين تذهب ؟ » فأجابته : « إلى الموضوع الذي بعثتني إليه ! » فقال له : « سلم على والدي » فقال : « ليس طريقى على النار ! »

وخرج من مجلسه ، وأتى منزله ، وأقام أياماً ، ومات

« دقة ابن الرومي وتغلغله في المعاني »

« يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكانها ، ويبرزها في أحسن صورة ، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ، ولا يبق فيه بقية » « ابن خلكان »

قال أحد كتاب الانجليز : « ليست الصعوبة التي تعترض الكاتب أو الشاعر هي أن يكتب أو ينظم في موضوع ما ، ولكنها في أن يقول كل ما يعنيه بالضبط في هذا الموضوع ! » وأبدع الشاعر العربي في صوغ هذا المعنى ، فقال :

وفضلتني في القول والشعر أنني أقول على علم ، وأعلم ما أعني

*
* *

هذا في اعتقادنا هو أكبر فارق جوهرى بين الكاتب الجيد أو الشاعر الفحل المطبوع ، وبين غيرها من الكتاب أو الشعراء الكثيرين ؛ وهذا الفارق هو أول ما نبحث عنه حين نشرع في

مطبته مع أبي بكر بن السراج

وَاسْتَعَارَ مِنْ « أَبِي بَكْرٍ بْنِ السَّرَاجِ » كِتَابًا ، فَتَقَاضَاهُ بِهِ « أَبُو بَكْرٍ »

تعرف شاعر أو كاتب قديم أو حديث ، وإن هذا الفارق هو أول ميزة تبدهك من شعر ابن الرومي الحافل بالميزات الكثيرة ...

*
* *

خصائص ابن الرومي هي : الدقة التامة في أداء المعنى الذي قام بنفسه ، واستقصاؤه ، وتحديد ما يعنيه بالضبط ، والغوص على أخفى خفاياه ، والتمشي معه إلى أبعدها ، وسبر أقصى أغواره ، وإظهار كل ناحية من مناحيه المختلفة ، في كلام واضح جلي ، والتوفيق في الاهتداء إلى كل ذلك ، والوصول إليه بلا كلفة ولا تعمل . فهو فطن - دقيق في فطنته - إلى كل ما تتطلبه صورته الشعرية من الألوان والأصباغ ، ينشر ظلالها وأضواءها ، ويلائم بين ألوانها وأصباغها ، حتى إذا انتهى منها ، وجدت ما قام بذهنه من المعاني ماثلاً أمامك في صورة ناطقة ، مكتملة الحياة ، مشرقة بها في كل جزء من أجزائها

*
* *

ذلك هو أول ما يسترعى انتباهك حين تقرأ شعر ابن الرومي ، وهو من الصفات التي لازمتها فصارت له كالطبع ، واتسم بها تفكيره ، فأصبح نثره - على ندرة ما وصلنا منه - مشتركاً مع شعره في هذه الميزة الباهرة ، كما ترى ذلك في الرسالة التالية :

« ترفع عنى ظلمي - إن كنت بريئاً ، وتتفضل بالعفو - إن كنت مسيئاً ؛ فوالله إني لأطلب العفو من ذنب لم أجنه ، وألمس الإقالة مما لا أعرفه ، لتزداد أطولاً ، وأزداد تذلاً ، وأنا أعيد حالي عندك بكرمك من واش يكيدها ، وأحرسها بوفائك من باغ يحاول إفسادها ، وأسأل الله - تعالى - أن يجعل حظي منك ، بقدر ودي لك ، ومحلي من رجائك بحيث أستحق ، والسلام » .

فَقَالَ لَهُ «ابْنُ الرَّوْمِيِّ» : «لَوْ كَانَ «المشترى» حَدَثًا ، لَكَانَ عَجُولًا !»

تشبيعه

وَالْبُعْدَايُونَ يَدْعُونَ أَنَّهُ «مُتَشَبِّعٌ» وَيَسْتَشْهِدُونَ عَلَى ذَلِكَ بِقَصِيدَتِهِ
الْجَيْمِيَّةِ (١) :

فانظر ملياً، هل ترى فرقاً بين شعره ونثره في طريقة الأداء وأسلوب التفكير؟ وهل تتردد لحظة واحدة في الحكم على هذا الكلام بأنه شعر لا ينقصه إلا الوزن والقافية؟ هذه - في نظرنا - هي أكبر ميزات ابن الرومي وأجدرها بالذكر، فلنكتف بها في هذه الإلمامة الآن، تاركين الكلام في بقية النقط الأخرى - مثل تأثر «المتنبي» بشعره، وفساد عصره، وأثر ذلك في نفسه، ووجوه الشبه والاختلاف بين تفكيره وتفكير «المعري»، والعنت الذي لقيه من معاصريه، وأثر ذلك في شعره، وإقذاعه في الهجاء، ورأيه في الجبر والاختيار، وعشور جدّه، وشراسته ونهمه في الأكل، وإطالته القصائد مع المحافظة على الإيجاد، والأمن - في أكثر الأحيان - من السقط والتكرير، وما إلى ذلك من المباحث - إلى رسالة خاصة نعلها عن ابن الرومي، ونرجو أن نوفق في إظهارها قريباً. ونحب أن يرجع القارئ إلى كتابنا «صور جديدة من الأدب العربي» ليقراً الفصل الذي كتبناه عنه وعنوانه: «ابن الرومي، كيف أغفله صاحب الأغانى؟»

(١) هي قصيدته الخالدة التي رثى بها «أبا الحسين يحيى بن عمر بن حسين بن زيد بن علي» وأبدع فيها ما شاء له إبداعه وافتنانه وعبقريته الغذة، التي يراها القارئ ممثلة في كل بيت من أبياتها، والقصيدة هي :

أمامك فانظر : أي نهجيك تهج	طريقان شتى ، مستقيم وأعوج
ألا أيهنا الناس : طال ضريركم	بآل رسول الله ، فاحشوا ، أو ارتجوا
أكل أوان للنبي محمد	قتيل زكى - بالدماء مضرج ؟
تبيعون فيه الدين شر أئمة	فله دين الله ، قد كاد يبرج !
لقد ألحجوكم في حبال فتنة ،	وللملحجوكم في الحبال ألحج

بنى المصطفى ! كم يأكل الناس شلوكم ؟
أما فيهم راع لحق نبيه ؟
لقد عمهوا ما أنزل الله فيكم
ألا خاب من أنساه منكم نصيبه

لبلواكم - عما قليل - مُفَرَّج
ولا خائف من ربه يتحرَّج ؟
كأن كتاب الله فيهم مجمع
متاع من الدنيا قليل وزبرج

*
* *

أبعد المكثي بالحسين شهيدكم
لنا وعلينا - لا عليه ولا له -
وكيف نبكى فائزاً عند ربه
وقد نال في الدنيا سناء وصيته
فإلا يكن حياً لدينا، فإنه
وكنا نرجيه لكشف عمية
فساهنا ذو العرش في ابن نبيه
مضى ، ومضى الفراط من أهل بيته
فأصبحت ، لاهم أبسووني بذكره (٤)
ولا هو نساني أسأى عليهم
أبيت - إذا نام الخلى - كأنما

تضىء مصابيح السماء فتُسرج ؟
تسحح أسراب الدموع وتنشج
له في جنان الخلد عيش مخرفج (١)
وقام مقاما لم يقره مزلاج (٢)
لدى الله حى ، في الجنان مزوج
بأمثاله أمثالها تبلج
فهاز به ؛ والله أعلى وأفلج (٣)
يؤم بهم ورد النية منهمج
كما قال قبلى فى البسوء مؤرَّج
بلى ! هاجه ، والشجو للشجو أهيج
تبطن أجفانى سَيال (٥) وعوسج

*
* *

أيحيى العلى ! لهفى لذكراك لهفة
أحين تراءتك العيون جلاءها
بنفسى - وإن فات الغداء بك الردى -
لمن تستجد الأرض بعدك زينة
سلام وريحان وروح ورحمة

يباشر مكواها الفؤاد فينضج
وأفداءها ، أضحت مرائبك تنسج !
محاسنك اللأى تُمَّج فتتهج
فتصبح فى أثوابها تتبرج ؟
عليك ، وممدود من الظل سَجَسج (٦)

(١) واسع (٢) الناقص المروءة (٣) أغلب (٤) أنسونى بذكره
(٥) السيال (مفردة سيالة) نبات شائك (٦) السجسج : المعتدل ، لا حر فيه ولا قُر

ولا برج القاع الذى أنت جاره
ويا أسفى ألا ترد تحية
ألا إنما ناح الحامم بعدما
يرف عليه الأفحوان المفلج
سوى أرج من طيب رمسك يارج
ثويت، وكانت - قبل ذلك - تهزج !

* *
أذم إليك العين أن دموعها
وأحمدها - لو كففت من غروبها
وليس البكا أن تسفح العين ، إنما
أتمنى عيني عليك بدمعة
فإني - إلى أن يدفن القلب داءه -
عفاء على دار ظفنت اغيورها
تداعى بنار الحزن - حين توهج
عليك ، وختت لاعج الحزن يلعبج
أحر البكا أين البكاء الموج
وأنت لأذيال الروامس مدرج ؟
ليقتنى الداء الدفين ، لأحوج
فليس بها للصالحين معرج

* *
ألا أيها المستبشرون بيومه
أكلكم أمسى : اطمان مهاده
فلا تشمتوا ، وليخسأ المرء منكم
فلو شهد الهيجا بقلب أبيكم
لأعطى يد العانى ، أو ارتد هاربا ،
ولكنه ما زال يغشى بنحره
وحاش له من تلكم ، غير أنه
وأين به عن ذلك ؟ لا أين - إنه
كأنى به - كالليث يحمى عرينه
كدأب « على » فى المواطن قبله
كأنى أراه - والرماح تنوشه
كأنى أراه - إذ هوى عن جواده
أظلت عليكم غمة لا تفرج
بأن رسول الله فى القبر مزعج ؟
بوجه : كأن اللون منه اليرندج
- غداة التقى الجمعان - والخليل تمعج
كما ارتد بالقاع الظلم المهيج
شبا الحرب ، حتى قال ذو الجهل : « أهوج »
أبى خطة الأمر الذى هو أسمعج
إليه بعرقه الزكيين محرج
وأشباله - لا يزدهيه المههيج
أبو حسن ، والغصن من حيث يخرج
شوارع - كالأشطان تدلى وتخلج
وعفر بالترب الجبين المشجج

فَحُبَّ به جسا الى الأرض - إذ هوى -
أردتيم « يحيى » ولم يطو أياطل
تأنت لكم فيه منى السوء هينة ؛
تهدون فى طغيانكم وضلالكم
أجنوا بنى العباس ! من شأنكم
وخلوا ولاة السوء منكم وغيرهم ،
نظار لكم أن يرجع الحق راجع
على حين لا عُذرى لمعتذريكم
فلا تلقوا الآن الضغائن بينكم
غررتم ، لئن صدقتم أن حالة
لعل لهم فى منظوى الغيب نائرا
بمجر تضيق الأرض من زفواته
إذا شيم بالأبصار أبرق يبضه
توامضه شمس الضحى ، فكأنما
له وقدة بين السماء وبينه ،
إذا كرت فى أعراضه الطرف أعرضت
يؤيده ركنان ثبات ، رجلة
عليها رجال كالليوث بسالة
تدانوا ، فما للتعق فيهم خصاصة
فلو حصبتهم بالفضاء سحابة
كأن الزجاج اللهذميات فيهم
بود الذى لا قوه أن سلاحه

وَحُبَّ بها روحا - إلى الله تعرج
طراداً ، ولم يدبر من الخيل منسج ؟
وذاك لكم بالغي أغرى وألهج
ويستدرج المغرور منكم فيدرج
وأوكوا على ما فى العياب ، وأشرجوا^(١)
فأحر بهم أن يفرقوا حيث لججوا
إلى أهله يوما ، فتشجوا كما شجوا
ولا لكم من حجة الله مخرج
وبينهم ، إن اللواقح تنتج
تدوم لكم ، والدهر لوان أخرج^(٢)
سيسمو لكم ، والصبح فى الليل موج
له زجل^(٣) ينقى الوحوش وهرمج^(٤)
بوارق لا يستطيعهن المحجج^(٥)
يرى البحر فى أعراضه يتوج
تلم بها الطير العوافى فتهرج^(٦)
حراج تحار العين فيها فتخرج^(٧)
وخيل - كأرسال الجراد - وأوشج
بأمثالها يثنى الأبى فيعنج
تنفسه عن خيلهم - حين ترهج
لظل عليهم حصبها يتدريج
فتيل بأطراف الردينى مسرج
هنالك خلخال عليه ودملج

(١) شدوا على ما فى قريكم بالكاء : (رباط القربة) وخطوا رءوسها حتى لا ينفذ شىء مما تحويه
(٢) الأخرج : ذو اللونين (٣) جلبة (٤) أصوات مختلطة (٥) المحدق الفزع
(٦) تحجير أبصارها من شدة الحر (٧) تنفور فيضيق عليها منافذ البصر

فيدرك ثأر الله أنصار دينه ،
ويقضى أمام الحق فيكم قضاءه
وتظمن - خوف السبي - بعد إقامة ،
وقد كان في « يحيى » مدمر خطة
هنالكم يشفى تبيخ جهلكم
محضتكم نصحي ، وإني بعدها

*
* *

مه لا تعادوا غرة البغي بينكم
أفى الحق أن يمساو خاصا ، وأنتم
تمشون مختالين في حجراتكم
وليدهم بادي الضوى ، ووليدكم
تذودونهم عن حوضهم بسيوفكم
فقد أجتهم خيفة القتل عنكم

*
* *

بنفسى الألى كظتهم حسراتكم
ولم تقنعوا - حتى استنارت قبورهم
وعيرتوهم بالسواد ؛ ولم يزل
ولكنكم زرق ، يزين وجوهكم

*
* *

لئن لم تكن بالهاشميين عاهة
بآية أن لا يبرح المرء منكم
بييت - إذا الصهباء روت مشاشه -
لما شكلكم - تالله - إلا المعهلج
يُكبُّ على حر الجبين فيعفج
يساوره عالج من الروم أعلج

وَمَا أَرَاهُ إِلَّا عَلَى مَذْهَبِ غَيْرِهِ مِنَ الشُّعْرَاءِ ، وَمَنْ أَوْلَعَ بِالطَّيْرَةِ ، وَإِنَّمَا

فيظننه في «سبة السوء» طعنة
لذلك، بنى العباس! يصبر مثلكم،
فهل عاهة إلا كهذي، وإنكم
فلا تجلسوا وسط المجالس حسراً
يقوم لها من تحته وهو أفحج (١)

*
*
*
أبي الله إلا أن يطبوا وتخبثوا
وإن كنتم منهم وكان أبوكم
وأن يسبقوا بالصالحات ويفاجوا
أباهم، فإن الصفو بالرنق يمزج

*
*
*
لعمري لقد أغرى القلوب «ابن طاهر»
سعى لكم مسعاة سوء ذميمة
فلن تعدموا - ما حنت النيب - فتنة
وقد بدأت - لوتزجرون بريجها -
ببغضائكم ما دامت الريح تنأج
سعى مثلها مستكره الرجل أعرج
تحش كما حش الحريق المؤجج
بوائجها من كل أوب تبوج

*
*
*
بنى مصعب! ما للنبي وأهله
دماء بنى عباسكم وعليهم
يل سفكها العوران والعرج منكم،
وما بكم أن تنصروا أولياءكم
ولو أمكنتكم في الفريقين فرصة،
إذن لاستقدتم منها وتر فارس،
أبي أن تحبوه - يد الدهر - ذكركم
عدو سواكم - أفصحوا، أو فاجلجوا
لكم كدماء الترك والروم تهرج
وغوغاؤكم - جهلاً بذلك - تبهج
ولكن هنات في القلوب تنجنج
لقد بينت أشياء تلوى وتجنج
وإن ولياكم فالوشأج أوشج
ليالي لا ينفك منكم متوج

*
*
*
وإني على الاسلام منكم لخائف
بوائق شقي، باهبا الآن مرتج

(١) ألا ترى إلى ابن الرومي لا يحجم عن الأفاش حتى في مقام الرثاء !!!

هِيَ شَرٌّ مُتَعَجِّلٌ ، وَ لِلْأَنْفُسِ أَجَلٌ مُؤَجَّلٌ (١) ، وَ كُلُّ ذَلِكَ حَدَرٌ مِنْ

وَفِي الْحَزْمِ أَنْ يَسْتَدْرَجَ النَّاسَ أَمْرَكُمْ وَ حَبْلَهُمْ مُسْتَحْكَمَ الْعَقْدِ مَدْمَجٌ

نَظَارَ فَإِنَّ اللَّهَ طَالِبٌ وَ تَرَهُ بَنِي مُصْعَبٍ ! لَنْ يَسْبِقَ اللَّهُ مَدْبِجَ
لَعَلَّ قُلُوبًا قَدْ أَطْلَمَتْ غَلِيلَهَا سَتُظْفَرُ مِنْكُمْ بِالشِّعَاءِ ، فَتُثَلَّجُ

(١) الطيرة والتشاؤم

أبو العلاء متشائم شديد التشاؤم ، بل هو من أشد من عرفناهم تشاؤماً ، ولكنه — مع تشاؤمه الذي لا يقف عند حد — ليس من جماعة المنطيرين ، بل هو أبعد من عرفناهم عن التطير وإما نعى بالتشاؤم ذلك المذهب الذي يسميه الأفرنج (Pessimisme) ونرى أن نسميه بالعربية : سخطاً ، ونسمى أصحابه ساخطين ، وهو مذهب جماعة المتبرمين بالعالم ، الذين لا يرون فيه إلا شراً مستطيراً ، لا يستطيعون حملة ، ولا أمل لهم في دفعة أو تهوينه ، ولا ينظرون إليه إلا بمنظار شديد السواد ، وعلى العكس من ذلك مذهب الرضا ، و يسميه الأفرنج (Optimisme) وهو مذهب من يحسنون الظن بالأيام ، وينظرون إلى العالم بمنظار رائق ناصع البياض ؛ فيرون كل ما فيه يدعو إلى الغبطة ، ويرونه سائراً في طريق التقدم والكمال ، وفي هذا مجلبة رضاهم وارتياحهم ، وقد أشبع « ما كس نورداو » جماعة الساخطين ، سخرية وتعنيفاً ، ورامهم بنقص في عقولهم ، في مقاله التي كتبها عن السخط والرضا (Pessimisme & Optimisme) في كتابه الفلسفي الذي سماه (الغرائب Paradoxes) وهي مقالة جميلة ، نحب ألا تفوت القارئ ، وقد لخصتها مجلة البيان في سنتها الرابعة في جزئها الثاني والثالث ، تاختيصاً لا يخلو من الفائدة والنفع ، لمن لا تتاح له قراءتها كاملة في الكتب الأفرنجية .

أما الطيرة (Manvais Augure) ، ونقيضها الفأل — أو التيمن (Bon Augure) ، فذهب آخر يختلف في نظرنا عن مذهب السخط والرضا كل الاختلاف ، فقد يكون الانسان

المَوْتِ الَّذِي هُوَ رَبِّقٌ فِي أَعْنَاقِ الْحَيَوَانِ ، حُكْمٌ لِقَاؤُهُ فِي كُلِّ أَوَانٍ !

ساخطاً أو راضياً ولكنه لا يتطهر ولا يتفاءل . وعلى العكس من ذلك ، قد يكون من المتطهرين والمتفائلين ، ولكنه في الوقت نفسه ساخط على الحياة أو راض عنها .

*

**

وإنما الطيرة مذهب أساسه ربط الحوادث بغير أسبابها الحقيقية ، وتعليل النفس بما لا يفيد ، وترقب المناسبات والمصادفات ، لاستنتاج شيء وهمي لا أساس له من الصحة ، ولا قيمة له — عند العقلاء — وإنما يدعو إليها ، في نظرنا ، عدم اطمئنان القلب ، وخفة العقل ؛ ولعله لو رجع المرء إلى نفسه يسألها في أي ساعاتها تميل إلى التعلل بأشياء هذه الخرافات ، لرأى أن ذلك كثيراً ما يحدث في أوقات الملح والذعر من جراء مصاب فادح مُذهل ، تملك على الانسان قلبه ، وأطار لبه ، وحرمه طمأنينته ، فجعله كالغريق يتلمس أطفه الأسباب وأقفا غناء ، لينقذ نفسه من الهلاك . فأما في ساعات اطمئنانه فقلما يأبه لذلك ، اللهم إلا إن كان من هؤلاء الذين أصبح لهم التطير ديدناً وطبعاً ، وهذا غير السخبط الذي أساسه سوء الظن ، وشدة الحذر ، والنقمة على الحياة ، والنظر إليها من جانبها الأسود !

*

**

انظر إلى تطير الأمين — مثلاً — حين حاصره « طاهر » ولم نكن سمعنا بتطيره من قبل — قال « ابراهيم بن المهدي » وكان حينئذ مع الأمين :

« خرج الأمين ذات ليلة يريد أن يتفرج من الضيق الذي هو فيه ، فصار إلى قصر له بناحية « الخلد » ثم أرسل إلى فحضرت عنده ، فقال : « ترى طيب هذه الليلة وحسن القمر في السماء وضوءه في الماء على شاطئ « دجلة » ... فهل لك في الشرب ؟ » فقلت : « شأنك » فشرب رطلاً وسقاني آخر ، ثم غنيته ما كنت أعلم أنه يحبه ، فقال لي : « ما تقول فيمن يضرب عليك ؟ » فقلت : « ما أحوجني إليه ! »

فدعا بجارية متقدمة عنده ، اسمها « ضعف » فتطيرت من اسمها ونحن في تلك الحال

فقال لها : « غني » فغنت بشعر الجعدي :

وَفِي النَّاسِ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ الشَّيْءَ - إِذَا قِيلَ - جَازَ أَنْ يَقَعَ !

كليب لعمرى كان أكثر ناصراً وأيسر جرماً منك ضرج بالدم
فاشدد ذلك عليه ، وتطير منه ، وقال « غنى غير ذلك » فغنت :

أبكي فراقكم عيني فأرقها إن التفرق للأحباب بكاء
ما زال يعدو عليهم ريب دهرهم حتى تقانوا - وريب الدهر عدا

فقال لها : « لعنك الله ! أما تعرفين من الغناء غير هذا ؟ » فقالت : « ما تغنيت إلا ما ظننت
أنك تحبه » ثم غنت آخر :

أما ورب السكون والحرك إن المنايا كثيرة الشرك
ما اختلف الليل والنهار ، وما دارت نجوم السماء في الفلك
إلا لنقل السلطان عن ملك قد زال سلطانه إلى ملك
وملك ذى العرش دائم أبداً ليس بفان ولا بمشترك

فقال لها : « قومي ، غضب الله عليك ولعنك ! » وكان له قدح من بلور حسن الصنعة ،
وكان موضوعاً بين يديه - فعثرت الجارية به فكسرتة ، فقال : « ويحك يا إبراهيم ، أما
ترى ما جاءت هذه الجارية ، ثم ما كان من كسر القدح ، والله ما أظن أمرى إلا قد قرب »
فقلت : « يديم الله ملكك ، ويعز سلطانك ، ويكبت عدوك »

فما استتم الكلام حتى سمعنا صوتاً : « قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ! »

فقال : « يا إبراهيم ! أما سمعت ما سمعت ؟ » قلت : « ما سمعت شيئاً » وكنت قد سمعت ،
قال : « تسمع حسناً » فدنوت من الشط فلم أر شيئاً - ثم عاودنا الحديث ، فعاد الصوت
بمثله ؛ فقام من مجلسه مغتماً إلى مجلسه بالمدينة

قال : « فما مضى إلا ليلة أو ليلتان حتى قتل »

*

**

فانظر إلى هذه الحكاية المحزنة ، وتأمل قليلاً ، ألسنت ترى أن ضعف نفسيهما وحده هو السبب
الأكبر في كل هذه الاستنتاجات ؟ ومثل لنفسك أن كل ما حدث في تلك الليلة المروعة قد
حدث في ليلة أنس وطرب ، بل في ليلة عادية - إن شئت - فهل كانا يهتمان به كل هذا الاهتمام ؟

وهذا الروع الذى أحسه إبراهيم المهدي — حين سمع اسم الجارية « ضعف » هل كان يحس مثله — إذا تبدل الموقف وكان انتصاراً وفوزاً — أو لم تكن هذه الجارية متقدمة عند الأمين؟ فما له لم يتطير من اسمها قبل هذه المرة؟

وهل تحسبها غنت إلا ما حسبت أن مولاها يحبه — وكم غنته — هى أو غيرها — مثل هذه الأبيات ، فطرب وانتخى ، ومن يدري فرجما كان الأمين يميل إلى هذا النوع من الشعر المشجى ، وكان هذا الميل مغرباً للجارية على غناء تلك الأبيات ! وتمثل الأمين عاقب مسيئاً بالقتل ، على جرم فرط منه ، فخامره شيء من الندم . وإنه لكذلك — إذ غنته هذه الجارية نفسها هذا البيت بعينه :

كليب لعمري كان أكثر ناصراً وأيسر جرماً منك ضرج بالدم
ألم يكن فيه حينئذ راحة يثلج لها فؤاده ، وتمثل الجارية تغنيه هذا البيت قبل أن يقتل ذلك المسيء وهو يفكر فى ذلك ، أكان يتطير منه — إذ ذاك — وأى أثر يكون له فى نفسه حينئذ من سماعه؟ ألا يكون فيه إغراء بقتل ذاك المسيء؟

*
* *

وتمثل البيتين الآخرين قد غنتهما الجارية فى موقف غير هذا ، فى موقف غرام مثلاً ، فى ساعة يفكر فيها الأمين فى معشوق له ، مات ولم ينعم به طويلاً ، فكيف يكون أثرها فى نفسه ، وكيف يتمثل قولها : « إن التفرق للأحباب بكاء ؟ » ولكن تغير الموقف ، فتغير المعنى وعاكس الآية ، فتمثل الأمين — فى مكان المأمون — وأنه قد أوشك أن ينتصر على أخيه ، وأنه قد سمع الأبيات الأخيرة وهو يحاصر مدينته ، فأى أثر يتركه فى نفسه قولها :

« ما اختلف الليل والنهار وما دارت نجوم السماء فى الفلك

الا لنقل السلطان عن ملك قد زال سلطانه الى ملك ! »

وهكذا غير الظروف ، وتمثل آثار تلك الأبيات فى نفسيهما ، تجدها مختلفة يصل اختلافها إلى مسافة ما بين الضد والضد أحياناً

ثم ماذا في هذه الجملة التي نعمت الأمين : « قضى الأمر الذي فيه تستفتيان ؟ » ألم يكن فيها متأول حسن — لو شاء ! ألم يسمعها عقب دعاء له بدوام ملكه ، وإعزاز سلطانه ، وكبت عدوه ، فإذا قضى هذا الأمر ، فقد تم له ما أراد ؟ . .

(ارجع الى كتابنا مصارع الخلفاء ، وقرأ فيه مصرع الأمين)

ولكن إخوان هذه الخليفة — كما يقول أبو العلاء — لا يحملون الأشياء الواردة على الحقيقة ! ومن أجمل ما رووه عن التطير والتناول قول الرسول — عليه الصلاة والسلام — : « ثلاثة لا يسلم منهم أحد — الطيرة ، والظن ، والحسد » ، قيل له : « فما الخرج منهم يا رسول الله ؟ » قال : « إذا تطيرت فلا ترجع ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا حسدت فلا تبغ »

*
* *

إذا أقررنا ذلك ، سهل علينا أن ندرك ، كيف كان أبو العلاء ساخطاً ، ولم يكن متطيراً . أما « ابن الرومي » فقد لا يكون شديد السخط على الحياة ، ولكنه كان — على الرغم من ذلك — إماماً من أئمة المتطيرين ، وإذا أضفت هذا الفصل إلى ما في رسالة ابن القارح ازدادت اقتناعاً بطيرته ، وحسبك أن تعلم أنه كان لا يلبس ثيابه الا بعد أن يتعوذ ، فإذا وصل الى الباب نظر من خلال ثقب المفتاح ، فإذا رأى ذلك الأحدث الذي تعود مضايقته ، جالساً ؛ جبن فلم يخرج ، وخلع ثيابه ثانية ، وقد عرف « ابن الرومي » كيف ينتقم منه ، ويثأر لنفسه ، ببئتيه اللذين وسمه بهما آخر الأبد ، وهما قوله :

« قَصْرَتْ أَخَادِعُهُ ، وَطَالَ قَدَّالُهُ فَكَأَنَّهُ مَتْرَبِصٌ أَنْ يُصْفَعَا
وَكَأَنَّمَا صُفِعَتْ قَفَّاهُ مَرَّةً وَأَحْسَنَ ثَانِيَةً لَهَا فَتَجَمَّعَا

ولابن الرومي — في تطيره — أخبار شتى . منها أن أبا الحسن الأخفش ، غلام المبرد ، كان كثيراً ما يقرع بابه ، فإذا رد عليه ابن الرومي مستفسراً ، أجابه : « مرة بن حنظلة » فيتطير من ذلك ، ولا يجسر على الخروج بقية يومه ، وقد هجاه في ديوانه مراراً هجاء مؤلماً مقذعاً

ولما كان هذا المقام أضيّق من أن يحتمل شيئاً من الإسهاب في تفصيل هذه النزعات وتحليلها والموازنة بينها ، فإننا نكتفي بهذا القدر على إيجازه — ونشير إلى رأى أبى العلاء في مذهب المتطيرين والمتفائلين ، وتمهكه اللاذع بأصحابه ، وسخريته الشديدة منهم ، علاوة على ما ترى في هذا الفصل من حججه الباهرة وبراهينه القوية التي دلت بها على فساد ذلك المذهب . ثم يتبعها بنخبة مختارة تبين لك نزعة ابن الرومي إلى التطير .
وإليك نخبة من كلام أبى العلاء في ذلك :

نخبة من شعر أبى العلاء في الطيرة

تروم قياساً للحوادث ضلة وتلك أصول ليس يجمعها الحصر
تعرض للطير السوانح زاجراً أما لك من عقل — يكفك — زاجر؟
أغربانك السحيم استقلت مع الضحى سوانح؟ أم مرت حمامك الورق؟
لا تفرحن بفأل — إن سمعت به — ولا تطير ، إذا ما ناعب نعبا
فالخطب أظع من سراء تأملها والأمر أيسر من أن تضم الرعبا
آليت لا يدري بما هو كائن متفائل بالأمر أو متطير
كالدار صبحها سوى سكانها فتووا بها ، وتحمل المتدير
زجر الغراب تطيراً ، وتقيضه ديك لأهل الدار أبيض أفرق
شاهدت قبرة فحفت تطيراً ما كل ميت — لا أبالك — يقبر
لا يتطير بناعب أحد فكل ما شاهد الفتى طيره
وما طير اليمين بمهجاتي فأخشى لهم من طير الشمال
وقد سمى المرء « الهزبر » تفاؤلاً وليس يباق في الليالي هزبرها
وما أسر لتعشير الغراب أسي ولا أبكى خليطاً حل نشارا
ولا توهمت أنثى الأنجم امرأة ولا ظننت سهيلاً كان عشارا

أى لا أضمر حزناً إذا سمعت الغراب يصيح عشرة أصوات متتابعة ، ولا أبكى جمعاً ذهب
إلى ذلك البلد المسمى « نشارا » ولا أتوهم أن الزهرة امرأة ، كما يفعل العرب ، ولا أن سهيلاً
كان عشراً بالين

وهل لحق التثريب سكان يثرب من الناس ؟ لا ، بل فى الرجال غباء !
وذونجب - إن كان ما قيل صادقاً - فما فيه إلا معشر نجباء !
وانظر إلى سخريته الدقيقة فى قوله :

رأى - فى الكرى - رجل ، كأنى - من الذهب - اتخذت غشاء راسى :
« قلنوسة - خصصت بها - نضارا كهرمز ، أو كملك أولى خراس
فقلت - معبراً : - « ذهب ذهابى وتلك نباهة لى - فى اندراسى »

أقت - وكان بعض الحزم يوماً - لركب السفن أن تلقى المراسى
نخبة مختارة

من شعر ابن الرومى فى الطيرة والقال

وإلى القارى نخبة مختارة من شعر ابن الرومى تبين منزعه واعتقاده فى الطيرة والقال :
لا تهاون بطيرة أيها النظار ، وأعلم بأنها عنوان
قف - إذا طيرة تلمتكت وانظر واستمع - ثم - ما يقول الزمان !
قلما غاب من أمورك عنوان مبين ولزمان لسان (١)

لا تصدق عن النبیین ، إلا بحديث - يلوح فيه البيان

(١) قال ابن رشيق :

« وكان ابن الرومى كثير الطيرة . ربما أقام المدة الطويلة لا ينصرف - تطيراً يسوء ما يراه ويسمعه -
حق إن بعض إخوانه من الأمراء افتقده وأعلم بحاله فى الطيرة ، فبعث إليه خادماً اسمه إقبال ليتفأل به . فلما
أخذ أهبطه للركوب . قال للخادم : « انصرف إلى مولاك فأنت ناقص ، ومنكوس اسمك « لا بقا »
وابن الرومى القائل : القال لسان الزمان ، والطيرة عنوان الحدثنان . وله فى ذلك احتجاجات وشعر كثير »

قد أتى عن نبينا حبه الفأ ل ، مضيقاً بذلك البرهان
فدع الهزل والتضاحك بالطيرة ، فالنصح مشمن مجبان
أترى من يرى البشير بشيراً يمتري في النذير ، يا وسنان (١)

*
* *

خبر الله أن مشامة كما نت لقوم ، وخبر القرآن
أفزور الحديث تقبل ، أم ما قاله ذو الجلال والفرقان ؟
وقد تفاءلت له - زاجراً كنيته ، لاجراً ثعلبا
إني تأملت له كنية - إذا بدا مقلوبها - أعجبا
يصوغها العكس « أبا سابع » وذاك فال لم يعد معطبا
بل ذاك فال ضامن سبعة مثل الصقور استشرفت أربنا
يأتون من صلب فتى ماجد لا كذب الله ولا خيبا
وقد أتاه منهم واحد فليتنظر ستة غيبا
في مدة تغمرها نعمة يجعلها الله له ثربيا
حتى نراه جالسا بينهم أجل من رضوى ومن ككببا
كالدر وافي الأرض في نوره بين نجوم سبعة ، فاحتبي
يعدى على الدهر - إذا ما اعتدى ويؤمن الناس - إذا استرهبنا

تفاءلت والفأل لى معجب فقلت - وما أنا بالعابث - :
« أبو حسن وأبو مثله كنيّا أبي حسن ثالث ! »

(١) كان ابن الرومي يحتج للطيرة ويقول : « إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل ويكره الطيرة . أفتراه كان يتفأل بالمىء ولا يتطير من ضده ؟ » ويقول : « إن النبي صلوات الله عليه من رجل - وهو يرحد ناقة ويقول : « يا ملعونة » فقال : « لا يصحبنا ملعون » وأن عليا رضى الله عنه - كان لا يغزو غزاة - والقمر في العقرب ! »

أحذر أهل الأرض شؤم ابن طالب
وقد جربت منه على « آل مخلد »
أزيرق مشثوم ، أحيمر قاشر
وهل أشبه المريخ - إلا وفعله
أعوذ بعز الله من أن يضمني
شبيه « قدار » بل « قدار » شبيهه

وهل يتارى الناس في شؤم كاتب
ويدعى أبوه « طالباً » وكفاكم
ألا فاهربوا من « طالب » و « ابن طالب »

قل لغراب البين - تبا له -
أو رفع الصوت - بشدو له
« اسكت ، لحاك الله - من قائل
لا تنطقن الدهر في محفل
أنت غراب - خير أحواله
فاترك نعيها - شؤمه راجع
يا بين ، أنت البين في عزة
ينتقل الناس وأحوالهم
إذا جلا عن منزل أهله
أنت أثنافيه وأناؤه

والقصيدة طويلة يحسن الرجوع إليها في ديوان ابن الرومي « في ص ٤٤٧ ج ٣ »

(١) من أبدع ما قرأناه في إنصاف الغراب وتبرئته من تهمة التفريق ، قول بعض الشعراء :
والناس يلحون « غرا ب البين » لا جهلوا
وهل « غراب البين » إلا ناقة . أو جل ؟
وما على ظهر « غرا ب البين » تطوى الرحل !
(٢) الصرد (٣) جمع رانب وهو الثابت

وَكَذَلِكَ قَالَتِ الْعَامَّةُ: «الْإِرْجَافُ أَوَّلُ الْكُونِ» (١) !
وَيُقَالُ: إِنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تَمَثَّلَ بِهَذَا الْبَيْتِ
- وَلَمْ يُتَمِّمْهُ - :

تَفَاعُلٌ بِمَا تَهَوَّى يَكُنْ ، فَلَقَمْنَا يُقَالُ لَشَيْءٍ : «كَانَ» إِلَّا تَحَقَّقًا (٢)
وَمَهْمًا ذَهَبَ إِلَيْهِ اللَّيْبُ ، فَالْخَيْرُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا قَلِيلٌ جِدًّا (٣) وَالشَّرُّ
يَزِيدُ عَلَيْهِ بِأَجْزَاءٍ لَيْسَتْ بِالْمُحْصَاةِ ، وَقَالَ عَلْقَمَةُ :
« وَمَنْ تَعَرَّضَ لِلْغُرْبَانِ يَزْجُرْهَا عَلَى سَلَامَتِهِ ، لَا بُدَّ مَشْئُومٍ »

وَكَانَ «ابن الرومي» معروفاً بالتطير ، وَمَنْ ذَا الَّذِي أُجْرِيَ عَلَى التَّخِيرِ ؟
وَقَدْ جَاءَتْ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ ، تَدُلُّ عَلَى كَرَاهَةِ
الِاسْمِ الَّذِي لَيْسَ بِحَسَنِ ، مِثْلَ مُرَّةٍ ، وَشِهَابٍ !

* *
* *

(١) وقريب من ذلك قول ابن الرومي في نونيته الجميلة :

وإذا ما ظننت شراً فحفته رب شر يقينه مظلونه

وكان «ابن الرومي» يقول : «إن الطيرة موجودة في الطباع ، قائمة فيها ، وإنما في
بعض طباع الناس أظهر منها في بعض ؛ وإن الأكثر في الناس - إذا لقي ما يكرهه -
قال : «على وجه من أصبحت اليوم ؟»

(٢) ارجع الى ص «٢٧٤» في هذا الجزء (٣) وفي ذلك يقول أبو العلاء :

نعم ثم جزء من ألوف كثيرة من الخير ، والأجزاء - بعد - شرور

على أن هذا الجزء القليل جداً من الخير ، لقد أنكره أبو العلاء في مكان آخر ، فقال :

لا أزعم الخير مازجا كدراً بل مزعماً أن كله كدر

وَنَحْوُهُ مِنْ حِكَايَةِ ابْنِ الرُّومِيِّ الَّتِي حَكَاهَا النَّاجِمُ^(١) مَا حَكَيْتُ عَنْ امْرَأَةٍ
مِنَ الْعَرَبِ أَنَّهَا قَالَتْ لِلْأُخْرَى : « سَمَّيْنِي أَبِي « غَاضِيَةً » وَإِنَّمَا تِلْكَ نَارُ ذَاتِ
غَضَى ، وَتَزَوَّجْتُ مِنْ بَنِي جَمْرَةَ رَجُلًا كَانَ اسْمُهُ « تَوْرَبًا » وَإِنَّمَا ذَلِكَ تُرَابٌ ،
فَسَمَّيْتُ بِي الْأَتْرَابُ ، وَكَانَ اسْمُ أُمِّي « سَوَّارَةَ » فَلَمْ تَزَلْ تُسَاوِرُنِي فِي الْخِصَامِ .
فَقَالَتْ الْأُخْرَى : « لَكِنْ سَمَّيْنِي أَبِي « صَافِيَةً » فَصَفَوْتُ ، وَزَوَّجَنِي
مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرِ ، فَبَكَرَ عَلَيَّ السَّعْدُ ، وَاسْمُ زَوْجِي « مَحَاسِنُ » - جُزِيَ
الصَّاحِلَةَ - فَقَدْ حَاسَنَ وَمَا لَاسَنَ ، وَاسْمُ أَبِيهِ « وَقَافٌ » - رَعَاهُ اللَّهُ - فَقَدْ وَقَفَ
عَلَيَّ خَيْرُهُ ، وَاسْمُ أُمِّي « رَاضِيَةً » رَضَيْتُ أَخْلَاقِي ، وَلَمْ تَجْنَحْ إِلَى طَلَاقِي !

*
*
*

وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ خُشْرَمًا^(٢) ، لَمْ يَزَلْ فِي الْكَشْكَشِ^(٣) أَرِمًا ، إِنْ رَأَى
حَمَامَةً فَفَرَّقَ مِنَ الْحِمَامِ^(٤) كَمَا قَالَ الطَّائِيُّ :

هُنَّ الْحِمَامُ - فَإِنْ كَسَرْتَ عِيَافَةً^(٥) مِنْ حَائِنٍ - فَإِنَّهُنَّ حِمَامٌ

وَإِنْ آتَسَ نَعَامَةً فَمَا يَأْخُذُهَا مِنَ النَّعِيمِ ، وَيَجْعَلُهَا بِالْهَلَاكَةِ مِثْلَ الزَّعِيمِ !
يَقُولُ مِنَ الْفَنْدِ^(٦) : « أَوْهَلَا نَعِي » . وَإِنْ نَظَرَ إِلَى عُصْفُورٍ ، قَالَ : « عَصْفُ
مِنَ الْخَوَادِثِ بُوْفُورٍ » فَهُوَ - طُولَ أَبَدِهِ - فِي عَنَاءٍ !

*
*
*

وَلِهَذِهِ الطَّوِيلَةِ جَعَلَ ابْنُ الرُّومِيِّ « جَعْفَرًا » مِنَ الْجُوعِ وَالْفِرَارِ ، وَلَوْ هُدِيَ

(١) هي الحكاية التي رواها عثمان الناجم عن ابن الرومي ، وذكرها ابن القارح في رسالته

(٢) متطيلاً (٣) التراب (٤) الهلاك (٥) العيافة : زجر الطير

(٦) الخطأ في الرأي

صَرَفَهُ إِلَى النَّهْرِ الْجَرَّارِ ، لِأَنَّ الْجُعْفَرَ : النَّهْرُ الْكَثِيرُ الْمَاءِ ، وَلَكِنَّ إِخْوَانَ
هَذِهِ الْخَلِيقَةِ ، لَا يَحْمِلُونَ الْأَشْيَاءَ الْوَارِدَةَ عَلَى الْحَقِيقَةِ ^(١)

وَأَرَادَ بَعْضُهُمُ السَّفَرَ فِي أَوَّلِ السَّنَةِ ، فَقَالَ : « إِنْ سَافَرْتُ فِي الْمُحَرَّمِ ،
كُنْتُ جَدِيراً أَنْ أُحْرَمَ ، وَإِنْ رَحَلْتُ فِي صَفَرٍ ، خَشِيتُ عَلَى يَدِي أَنْ تَصْفَرَ »
فَأَخَّرَ سَفَرَهُ إِلَى شَهْرِ رَيْبَعٍ ، فَأَمَّا سَافِرٌ مَرِضٌ فَلَمْ يَحْظَ بِطَائِلٍ ، فَقَالَ :
« ظَنَنْتُهُ مِنْ رَيْبَعِ الرِّيَاضِ ، فَإِذَا هُوَ مِنْ رِبْعِ ^(٢) الْأَمْرَاضِ »

*

* *

وَأَمَّا إِعْدَادُهُ الْمَاءَ الْمَشْلُوجَ فَتَعَلَّةٌ ، وَمَا تُنْقَعُ بِالْحَلِيلِ عُلَّةٌ ، وَتَقْرِيْبُهُ الْخَنْجَرَ
تَحْرُورٌ مِنْ جَانٍ ، وَتُنْقُضُ الْأَقْضِيَّةُ وَمَا بَنَى الْبَانِي . وَرُبَّ رَجُلٍ يَحْتَفِرُ لَهُ

(١) ومما يروونه عن تطير ابن الرومي ما حكاه عنه « علي بن عبد الله بن المسيب » قال :
دخل علي ، يوم المهرجان ، وقد أهدى إلى عدة من جوارى القيان ، وكانت فيهن صبية
حولاء ، وعجوز في إحدى عينها نكتة ، فتطير من ذلك ، ولم يظهر لي أمره ؛ وأقام باقي
يومه ، فلما كان بعد مدة يسيرة سقطت ابنة لي من بعض السطوح فماتت ، وجفاه القاسم
الوزير ، فجعل سبب ذلك المغنيتين ، وكتب إلي :

أيها المتحفي بحول وعور أين كانت عنك الوجوه الحسان؟
لقد لعمرى ركبت أمراً مهيباً ساءنا فيك أيها الخلصان
فتحك المهرجان بالحول والعو ر ، أرانا ما أعقب المهرجان
كان من ذاك فقدك أبتك الحرمة مصبوغة بها الأكفان
وتجاني مؤملاً لي خليل لج فيه الجفاء والمهران

إلى آخر القصيدة ، وارجع إلى ص « ٢٨٠ » من هذا الجزء ، فلقد أسلفنا نخبة مختارة
من شعر ابن الرومي في الطيرة (٢) حتى الربع : تأخذ يوماً وتترك يومين ، ثم تجيء في
اليوم الرابع . وذلك أنها تأخذ في الأيام الثلاثة ثماني عشرة ساعة - وهي ربع ساعات تلك
الأيام الثلاثة - فسميت كذلك باعتبار الساعات .

قَبْرًا بِالسَّامِ ، ثُمَّ يُجَسِّمُهُ الْقَدْرُ بَعِيدَ الْإِجْشَامِ ، فَيَمُوتُ بِالْيَمَنِ أَوْ بِالْهِنْدِ ،
وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .

وَكَمَا أَنَّ النَّفْسَ جَهَلَتْ مَدْفَنَ عِظَامِهَا ، فَهِيَ الْجَاهِلَةُ بِالْقَاطِعِ لِنِظَامِهَا .
كَمْ ظَانَ أَنَّهُ يَهْلِكُ بِسَيْفٍ فَهَلَكَ بِحَجَرٍ ^(١) ، وَمُوقِنٍ أَنَّ شَجَبَهُ ^(٢) يُقَدِّرُ
عَلَى مِهَادٍ ، فَأَلْقَتْهُ الْأَسْلُ ^(٣) بِيَعْضِ الْوَهَادِ .

*
*
*

وَالْبَيْتَانِ اللَّذَانِ رَوَاهُمَا النَّاجِمُ عَنِ ابْنِ الرَّوْمِيِّ مُقَيَّدَانِ ، وَمَا عَلِمْتُ أَنَّهُ جَاءَ عَنِ
الْفُصْحَاءِ هَذَا الْوِزْنَ مُقَيَّدًا ، إِلَّا فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ ، يَتَدَاوَلُهُ رِوَاةُ اللَّغَةِ ، وَالْبَيْتُ :
« كَأَنَّ الْقَوْمَ عَشُوا لَحْمَ ضَائِنٍ فَهَمَّ نَعِجُونَ ^(٤) قَدْ مَالَتْ طُلَاهُمْ »
وَهَذَا الْبَيْتُ مُؤَسَّسٌ ، وَالَّذِي قَالَ ابْنُ الرَّوْمِيِّ بغيرِ تَأْسِيسٍ ، وَمَا
يَدْرِي النَّاجِمُ ^(٥) - وَلَعَلَّهُ بِالْفِكْرِ رَاجِمٌ - أَفِي الْجَنَّةِ حَصَلَ ذَلِكَ الشَّيْخُ
أَمْ فِي السَّعِيرِ ؟

أبو تمام ^(٦)

وَأَمَّا « أَبُو تَمَّامٍ » ، فَمَا أَمْسَكَ مِنَ الدِّينِ بِرِمَامٍ ، فَإِنَّ قُدْفَ فِي النَّارِ
« حَيِّبٌ ^(٧) » فَمَا تُعْنِي الْمِدْحُ وَلَا التَّشْيِيبُ !

(١) وهذا قريب من قوله :

بيننا امرؤ يتوقى الذئب عن عرض أتاه ليث - على العلات - يفترس

(٢) هلاكه (٣) أطراف السيوف (٤) المفرد : « نعج » وهو السمين ،

أو الذي أكل لحم الضأن حتى ثقل على قلبه ، وطلاهم : أعناقهم (٥) يعني : أبا عثمان الناجم

(٦) ارجع إلى ترجمته في ص « ١٤٣ » في الجزء الثاني (٧) هو أبو تمام

مناهج القصائد (١)

وَلَوْ أَنَّ الْقَصَائِدَ لَهَا عِلْمٌ؛ لَأَقَامَتْ عَلَيْهِ الْمَمْدُودَاتُ اللَّتَانِ فِي أَوَّلِ دِيْوَانِهِ
مَأْتَمًا، فَنَاحَتْ عَلَيْهِ كَابْنَتِي لَبِيدٍ، وَقَالَتَا مَا زَعَمَهُ «الْكَلَابِيُّ» فِي قَوْلِهِ :
« وَقُولَا : « هُوَ الْمَيْتُ الَّذِي لَأَحْرِيْمَةُ أَضَاعَ ، وَلَا حَانَ الصَّدِيقُ وَلَا غَدَرَ »
إِلَى الْحَوْلِ ، ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا وَمَنْ يَبْكُ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدْ اعْتَذَرَ »
وَكَأَنِّي بِهِمَا - لَوْ قُضِيَ ذَلِكَ - لَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِمَا الْمَمْدُودَاتُ ، كَمَا تَجْتَمِعُ
نِسَاءٌ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ، وَلَوْ فَعَلْنَا ذَلِكَ لَبَارَشُنَّ « الْبَائِيَّاتُ » بِمَا تَمَّ أَعْظَمَ
رَيْنًا . وَإِذَا كَانَ مَأْتَمُ الْمَمْدُودَاتِ فِي مِائَةِ ثَمَنٍ يُسْعِدُهُنَّ وَيُظَاهِرُهُ ، وَجَبَ
أَنْ يَكُونَ مَأْتَمُ الْبَائِيَّاتِ فِي آلاَفٍ ، لِأَنَّ الْبَاءَ طَرِيقُ رَكُوبٍ (٢) ، وَالْمَدُّ
- فِي الْقَصَائِدِ - سَبِيلُ مَنْكُوبٍ (٣) . وَمَا نَظَّمَهُ عَلَى « النَّاءِ » ، فَإِنَّهُ لَا يُعْجِزُ
عَنِ الْإِيْتَاءِ ، وَتَجِيءُ الثَّائِيَّتَانِ فِي حَالِكِ اللَّوْنِ - وَإِنَّ النَّاءَ لَقَلِيلَةٌ فِي
شِعْرِ الْعَرَبِ - إِلَّا أَنَّهُمَا تَسْتَعِينَانِ كَلِمَةً كَثِيرًا :

« حِبَالُ السَّلَامَةِ أَضَحَّتْ رَثَانًا فَسَقِيًّا لَهَا - جُدْدًا أَوْ رَمَانًا »
وَبَارَاجِيْزِ رُوْبَةِ (٤) وَمَا كَانَ نَحْوَهَا مِنَ الْقَوَائِي الْمُتَكَلِّفَةِ ، وَالْأَشْعَارِ
الْمُتَعَسِّفَةِ ، وَلَهُمَا - فِيمَا نَظَّم « ابْنُ دُرَيْدٍ (٥) » - أَعْوَانُ !
فَأَمَّا الدَّلَائِيَّاتُ وَالرَّائِيَّاتُ وَمَا بُنِيَ عَلَى الْحُرُوفِ الذَّلُّ ، كَاللِّيمِ وَالْعَيْنِ وَاللَّامِ
وَمَا جَرَى مَجْرَاهُنَّ ، فَلَوْ اجْتَمَعَ كُلُّ حَيْزٍ مِنْهُنَّ ، لَضَاقَ عَنْهُنَّ الصَّدْرُ وَالْإِيرَادُ ،

(١) تمثل أبو العلاء قصائد أبي تمام أحياء تندب صاحبها ، كما تمثل من قبل في
(ص ٨٦ م ٨٧ في الجزء الثاني) أبيات لبيد الثلاثة قصورا في الجنة (٢) طريق
ركوب ، أي مطروق مدلل (٣) يتنكبها الناس ، أي لا يسلكونه (٤) ارجع الى
ترجمته في ص ٨٩ في الجزء الثاني (٥) ترجمته في ص ١٦ في الجزء الثاني

وَزِدْنَ عَلَى مَا ذُكِرَ أَنَّهُ اجْتَمَعَ فِي جَنَازَةِ «أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ» (١) مِنَ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ
وَيُقَالُ إِنَّهُ لَمْ يَجْتَمِعْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَلَا الْإِسْلَامِ جَمْعٌ أَكْثَرُ مِمَّا اجْتَمَعَ فِي
مَوْتِ أَحْمَدَ ، حُزِرَ (٢) الرِّجَالُ بِأَلْفِ أَلْفٍ ، وَالنِّسَاءُ بِسِتِّمِائَةِ أَلْفٍ ، وَاللَّهُ الْعَالِمُ
بِیَقِینِ الْأَشْیَاءِ !

وَإِنْ كَانَ «حَبِيبٌ» صَيَّعَ صَلَوَاتِهِ ، فَإِنَّهُ لَصَالٌّ ، لَا يَبْلُغُ فِيهِ كَيْدُ الْعُدَاةِ ،
مَا بَلَغَ مِنْ إِهْمَالِ غَدَاةٍ . وَإِنِّي لَأَضُنُّ بِتِلْكَ الْأَوْصَالِ ، أَنْ يَظَلَّ جَسَدُهَا وَهُوَ
بِالْمُوقَدَةِ صَالٍ . لِأَنَّهُ كَانَ صَاحِبَ طَرِيقَةٍ مُبْتَدِعَةٍ ، وَمَعَانٍ كَاللُّوْلُوِّ يَسْتَخْرِجُهَا
مِنْ غَامِضِ بَحَارٍ ، وَيَفْضُ عَنْهَا الْمُسْتَعْلِقَ مِنَ الْمَحَارِ ، فَلَيْتَهُ كَأَجْعَدِي (٣)
أَوْ لَيْتَهُ لِحَقِّ زَيْدِ بْنِ مَهْلَهْلٍ ، فَقَدْ وَفَدَ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
وَطَرَحَ عَنْهُ ثَوْبَ الْعَبِيِّ !

المزيار

وَأَمَّا «الْمَازِيَارُ» ، فَحَلَالٌ بِالسَّفَهِ سَيَّارٌ ، وَحَسْبُهُ مَا يَتَجَرَّعُ مِنَ الْحَمِيمِ ،

(١) أحمد بن حنبل

توفي ٢٤١ هـ

نشأته ببغداد ، اشتهر بحفظه وروايته للحديث ، وكان من أصحاب الشافعي ، صنف كتابه
«المسند» وجمع فيه من الأحاديث ما لم يتفق لغيره ، وكان ورعاً ، حسن الوجه ، يخطب
بالحناء خصباً خفيفاً

وحدثت في زمنه المسألة المشهورة ، وهي القول بخلق القرآن ، فدعى إلى الموافقة عليها ،
فلم يجب ، فضرب وحبس

وروا : أنه لما مات حضر جنازته ثمانمائة ألف رجل ، وستون ألف امرأة ، وروى غير
ذلك كما يقول أبو العلاء (٢) أي قدرُوا (٣) ارجع إلى ترجمته في ص ٣٨ في الجزء الثاني

وَيَحْتَمِلُ مِنَ الْمُقَالِ الذَّمِيمِ ؛ وَقَدْ خَلَدَ لَهُ فِي الْكُتُبِ مَا يُوجِبُ لَعْنَهُ إِلَى
يَوْمِ الدِّينِ .

ابو مسلم الخراساني

وَالعَجَبُ لِأَبِي مُسْلِمٍ ، حَطَبَ لِنَارِ أَكَلَتَهُ ، وَقَتَلَ فِي طَاعَةِ وُلَاةٍ قَتَلْتَهُ ،
وَلَيْسَ بِأَوَّلِ مَنْ ذَابَ لِسِوَاهُ ، وَأَغْوَاهُ الطَّمَعُ فِيمَنْ أَغْوَاهُ ، وَإِنَّمَا سَهَرَ لِأَمِّ
دَفْرٍ ^(١) ، وَتَبَعَ سَرَابًا فِي قَفْرِ ، فَوَجَدَ ذَنْبَهُ غَيْرَ الْمُعْتَفَرِ ، عِنْدَ صَاحِبِ الدَّوَلَةِ
« أَبِي جَعْفَرٍ ^(٢) »

وَكُلُّ سَاعٍ لِلْفَانِيَةِ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ النَّدَمِ ، فَذَمْنَا هَا يُحْسَبُ مِنَ الضَّلَالِ ،
كَمَا تَمَنَّى الْقَنَعَ أَخُو الْإِقْلَالِ ، وَهَذِهِ زِيَادَةٌ فِي النَّصَبِ ، وَفَازَ بِالسَّبْقِ حَازِمُ
الْقَصَبِ ، يَذْمُهَا عَلَى غَيْرِ جَنَائِيَةٍ — وَلَمْ نَخْصُ أَحَدًا بِالْعِنَايَةِ — بَلْ أَبْنَاؤُهَا
فِي الْمِحْنِ سَوَاءٍ ، لَا تُسَاعِفُهُمُ الْأَهْوَاءُ !

أعباء الفقير وأصحابه الفتي

قَرُبَ حَامِلِ حُرْمَةِ عَضِيدٍ ^(٣) ، يَعْجِزُ ثَمَنُهَا عَنِ الْقُوتِ ، وَيُكَابِدُ شَطْفَ

(١) الدنيا — وأبو العلاء يكتنيتها بهذه الكنية ، ومعناها « أم نتن » ، لنفتمته عليها ،
فهو لا يكاد يذكر الدنيا إلا كنهاها بها .

(٢) انظر إلى قول أبي العلاء في ذلك في لزومياته :

لو بعث المنصور ، نادى : « أيا مدينة التسليم ؛ لا تسلمى »

« قد سكن القفر » بنوهاشم « وانتقل الملك إلى الديلم »

لو كنت أدرى أن عقباهم كذاك ، لم أقتل أبا مسلم »

ونحب أن يرجع القارئ إلى مصرع « أبي مسلم » في كتابنا « مصارع الأعيان »

(٣) العضيد : الحطب من الشجر اليابس يقطع بالعضد

عَيْشٍ مَمْقُوتٍ ، يَلِجُ سَلَامًا^(١) فِي قَدَمِهِ ، وَيَخْضِبُهُ الشَّائِكُ بِدَمِهِ ، وَهُوَ أَقْلٌ أَشْجَانًا
مِنَ الْوَائِبِ عَلَى السَّرِيرِ . يَنْعَمُ بِرَشَاءٍ غَرِيرٍ ، يُجْمَعُ لَهُ الذَّهَبُ مِنْ غَيْرِ حِلٍّ بِإِعْنَتِ
الْأُمِّ ؛ وَإِذَا مَلَأَ بَطْنَهُ مِنْ طَعَامٍ^(٢) وَسَبَحَ فِي بَحْرِ مِنَ التَّرَفِ ، فَتَلَكَ النَّعْمُ
وَلَذَائِهِ ، تَحَدَّثُ لَهَا أَذَانُهُ ؛ يَخْتَلِجُهُ الْقَدَرُ عَلَى عُقُولٍ ، وَغَايَةُ السَّفَرِ إِلَى قُفُولٍ .

*

وَمَا يَدْرِي الْعَاقِلُ - إِذَا افْتَكَرَ - أَيَّ الشَّخْصِينَ أَفْضَلُ ؟ أَرَيْبٌ عُقِدَ
عَلَيْهِ إِكْلِيلٌ ، أَمْ أَرْقَشُ ظِلُّهُ فِي الْمَلِكِ ظَلِيلٌ ، كِلَاهُمَا بَلَغَ آرَابًا ، وَأَحَدُهُمَا
يَأْكُلُ تَرَابًا ، وَالْآخَرُ يُعَلُّ بِالرَّاحِ ، وَيُجْتَهَدُ لَهُ فِي الْأَفْرَاحِ .

*

وما علمنا النُّسُكَ مُوقِيًّا ، وَلَا فِي الْأَسْبَابِ الرَّافِعَةَ مُرْقِيًّا . وَالْعَالَمُ
بِقَدَرٍ عَامِلُونَ - أَخْطَأَهُمْ مَاهُمْ أَمِلُونَ - وَمَا آمَنُ أَنْ تَكُونَ الْآخِرَةَ بِأَرْزَاقٍ^(٣)

(١) شوكة النخل، واحده سلاءة (٢) وفي هذا المعنى يقول أبو العلاء في لزومياته :

ساس الأنام شياطين مسلطة في كل مصر من الوالين شيطان
من ليس يحفل خصص الناس كلهم إن بات يشرب خمراً - وهو مبطلان

(٣) الجدد

ذكر أبو العلاء هذا المعنى على لسان أوس في (ص ١٦٧ ج ٢) وذكره في مكان
آخر من لزومياته فقال :

والبخت في الأولى أنال العلاء وليس في آخرة بخت
كذلك قالوا ، وأحاديثهم يبين فيها الجزل والشخت
وكرره في قوله :

أخشى عذاب الله ، والله عادل وقد عشت عيش المستضام المعذب
نعم ! ، إنها الأرزاق ؛ والمرء جاهل يهذب من دنياه ما لم يهذب
ولأبي العلاء أشعار أخرى كثيرة في الجدد ، نجتزىء منها هنا بقوله :

عَلَى أَنَّ السَّرَّ مُغَيَّبٌ ، وَكُنَّا - فِي الْمُلْتَمَسِ - مُخَيَّبٌ ، وَالْجَاهِلُ - وَفَوْقَ

والسعد يدرك أقواماً فيرفعهم وقد ينال إلى أن يعبد الحجر
وشرفت « ذات أنواط » قبائلها ولم تباين - على علاقتها - الشجرا
سيطلبني رزقي الذي لو طلبته لما زاد ، والدنيا حظوظ وإقبال
لا تطلبن بألة لك رتبةً قلم الأديب ، بغير حظ ، مغزَل
سكن السما كان السماء كلاهما هذا له رمح ، وهذا أعزل
إذا صدق الجد افتري العم للفتى مكارم لا تكرر - وإن كذب الخال
الجد : الحظ ، والعم : الجماعة ، ولا تكرر : لا تنفذ ، والخال : الخيلة .

موجز رأى الشعراء في الحظ

ويحسن في هذه المناسبة أن نذكر نجبة من آراء الشعراء في الجد ، ويمكن القول بأن آراءهم
جميعاً ، تكاد تجمع على أنه حليف الغباوة ، قال المتنبي :

هو الجد حتى تفضل العين أختها وحتى يصير اليوم لليوم سيدا
وما الجمع بين الماء والنار في يد بأصعب من أن أجمع الجد والفهما
وقال أبو تمام :

ينال الفتى من دهره ، وهو جاهل ويكدي الفتى من دهره - وهو عالم
ولو كانت الأرزاق تأتي على الحجا إذن هلكت من جهلهم البهائم
وقال الضالى :

إذا جمعت بين امرئين صناعة فأحبيت أن تدري الذى هو أحذق
فلا تتفقد منهما غير ما جرت به لهما الأرزاق حين تفرق
فحيث يكون الجهل ، فالرزق واسع وحيث يكون العلم ، فالرزق ضيق !
وقال ابن وهبون :

وحيث ترى زند النجاة واريا فثم ترى زند السعادة كايا

الْجَاهِلِ - مَنْ ادَّعَى الْمَعْرِفَةَ ، وَاللَّعْنَةُ عَلَى الْكَاذِبِينَ

وقال ابن الخياط :

وما زال شؤم الحظ من كل طالب
وقد يحرم الجلد الحريص مرامه
كفيلا يبعد المطلب المتداني
ويعطى مناه العاجز المتواني

وقال المروزي الضرير :

تنافى العقل والمال
فمما بينهما شكل
فعقل حيث لا مال
ومال حيث لا عقل

وقال القاضي الفاضل :

وزيادتي في الخدق، فه
ى زيادة فى نقص رزقى!

وقال ابن سناء الملك :

هو الجد خذه إن أردت مسلماً
ولا تطلب التعليل ، فالأمر مبهم !

ومما نختاره من شعر ابن الرومى فى « الجد » قوله :

عزت مطالب دنيا كل ذى أدب
وقدر الله فيها أن يذلها
فليس ينفك ذو علم وتجربة
وذو الجهالة منها فى بلهنية
تبارك العدل فيها - حين يقسمها
وقوله : لا تعجب لمرزوق أخى هوج
فخائقُ الناس أعراء بلا وبر
مازلت أعرف أهل العجز فى دعة
أما ترى هذه الأنعام قد كفيت
وقوله : دنيا علا شأن الوضيع بها
كالبحر يرسب فيه لؤلؤه
وهان مطلب دنيا الأحمق الخرق
فهان مطلبها للجاهل الحق
من ما كل جشب، أو مشرب رنق
من مسمع حسن ، أو منظر أنق
بين البرية قسما غير متفق !
حظا تخطى أصيل الرأى طرفا
كاسى البهائم أو باراً وأصوفا
لا يكفون ، وأهل الكيس كلافا
فما تساووم بالأخفاف أخفافا ؟
وهوى الرفيع - يحطه شرفه
سجلاً ، وتطفو فوقه جيفه

علي بن أبي طالب^(١)

أَمَّا الَّذِينَ يَدْعُونَ فِي «عَلِيٍّ» عَلَيْهِ السَّلَامُ — مَا يَدْعُونَ ، فَتِلْكَ ضَلَالَةٌ

وقوله :

رأيت الدهر يرفع كل وغد ويخفض كل ذى شيم شريفه
كمثل البحر يغرق فيه حى ولا ينفك يطفو فيه جيفه
أو الميزان يخفض كل واف ويرفع كل ذى زنة خفيفه

ونختم هذا المختار بتلك القصة الجميلة ، التي يحكيها لنا أحد الشعراء عن نفسه ، وهى :
ولما لمست الرزق فانجذ حبله ولم يصف لى من بجره العذب مشرب
خطبت إلى الإعدام إحدى بناته فزوجنيها الفقر — إذ جئت أخطب
فأولدتها الحزن الشقي ؛ فما له على الأرض غيرى والد ، حين ينسب
فلو تهت فى البيداء — واللبل مسبل على جناحيه — لما لاح كوكب
ولو خفت شرّاً فاستترت بظلة لأقبل ضوء الشمس من حيث تغرب
ولو جاد إنسان على بدرهم لرحت — إلى رحلى — وفى الكف عقرب
ولو يطر الناس الدنانير ، لم يكن بشيء سوى الحصاء رأسى يحصب
وإن يقترف ذنباً ببرقة مذنب فإن برأسى ذلك الذنب يعصب
وإن أر خيراً فى المنام ، فنازح وإن أر شرّاً ، فهو منى مقرب
أمامى من الحرمان جيش عرمرم ومنه ورأى جحفل حين أركب
وسيمر بك قول ابن الراوندى فى الجد فى ص «٢٩٦» فى هذا الجزء

(١) لبعض الشيعة آراء متطرفة فى علي بن أبي طالب — رضى الله عنه — ودعاوى لا تقف عند حد ، وقد ادعى قوم أنه لم يقتل ، وإنما الذى قتله « ابن ملجم » شيطان تصور للناس فى صورته ، أما على فقد صعد الى السماء ، وسينزل إلى الدنيا وينتقم من أعدائه . وهى دعوى تشبه ما قيل فى عيسى .

وادعى قوم أن الله أرسل جبريل إلى على ؛ فذهب إلى محمد خطأ — لشدة الشبه بين

قَدِيمَةٌ ، وَدِيمَةٌ مِنَ الْغَوَايَةِ تَتَّصِلُ بِهَا دِيمَةٌ ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ حُرِّقَ « عَبْدُ اللَّهِ

النبي والإمام علي ، وهذه الفرقة تقول : « العنوا صاحب الريش » أي جبريل
وادعى آخرون أن الله خلق محمداً ، ثم فوض إليه تدبير العالم وتعميره ، فهو الذي خلق
العالم دون الله ، ثم فوض محمد تدبير العالم إلى علي بن أبي طالب ، فهو المدبر الثالث
وزعم غيرهم أن علياً هو الله ، وشتموا محمداً ، وزعموا أن علياً بعثه ليثني عليه فادعى
الأمر لنفسه

ويدعى فيه قوم آخرون أن الرعد والبرق صوته ، ومن سمع منهم صوت الرعد ، قال :
« عليك السلام يا أمير المؤمنين » وفي هذه الطائفة يقول أبو إسحاق ابن سويد العامري :

برئت من الخوارج لست منهم من الحجاج منهم وابن باب
ومن قوم — إذا ذكروا علياً — يردون السلام على السحاب

ولا يزال كثير من العامة يعتقد إلى اليوم أن علياً راكب ناقة يطير بها فوق السحاب ،
ومما نذكره بهذه المناسبة — على سبيل التندر والفكاهة — أن أحد أشيخنا المعممين ،
المشتغلين بنظم الكلام ، أراد أن ينتكر . ليقنع الناس بأنه غير عاكف على أساليب التفكير
القديمة ، ويدفع عن نفسه معرفة الجود والجهل بمحقيقة الشعر الحى ، الذى يتطلبه هذا العصر
المملوء بالحياة والتفكير ، فحسب أن كل ما يتطلبه ذلك التطور الفكرى العظيم — من الشاعر —
هو أن يستبدل وصف النوق والحياد بوصف قطر البخار والطيارات ، فورط نفسه فى الأخذ
بتلك الخرافة ، ودعا الله أن يهبه طيارة يسمو بها الى السحاب ، حتى اذا بلغه حظى بلقيا
على بن أبى طالب ، فقال :

« فهب لى ذات أجنحة ، لعلى بها ألقى على السحب الإماما »

فلم يزدنا اقتناعاً بجموده ، ولكنه وفق إلى اثبات فنده وخرفه بهذا البيت الرائع !

*
*
*

وقد نسبوا الى « علي بن أبى طالب » علم الجفر ، وهو ما يطلقونه على العلم الاجمالى بلوح
القضاء والقدر ، المحتوى على ما كان وما يكون كلياً وجزئياً ، وتدعى طائفة أنه وضع الحروف

ابن سبأ ، لما جاهر بذلك التبا ! - واعتقاد « الكيسانية » في « محمد بن الحنفية » عجب ، لا يصدق بمثله عجيب !

الهجائية في جلد الجفر ، وأنه يمكن استخراج - ما يأتي به الغيب - منها بطريقة خاصة ، ويدعون أن هذا علم انفرد به آل البيت ومن ينتمى إليهم ، وأنهم يتوارثونه . وادعى آخرون أن فهم أسرار هذا الجفر مقصور على المهدي المنتظر ، وأنه - دون غيره - يستطيع أن يفقه حقيقة ما في هذا الكتاب الذي سموه بهذا الاسم ، لأن علياً كتبه حروفاً متفرقة في ورق مصوغ من جلد البعير ، وقد اشتهر بين الناس ، لاحتوائه ما حدث للأولين والآخرين ، وفيه يقول أبو العلاء :

يقولون : « مسك الجفر » أودع حكمة إذا كتبت أطراسها ملأت جفرا (١)

ولا يزال بعض العامة يعنى بهذه الخرافات وأشباهاها ، ويأخذها بلا تدبر ولا روية . ونحو من هذه الخرافة ما يروونه عن الخضر ، وعن المسيخ الدجال ، وغير ذلك من الترهات ؛ وقد وقف أبو العلاء قسماً كبيراً من رسالة الغفران واللزوميات ، على محاربة أشباه هذه البدع ، والتشجيع على من يقولون بها . وحسبنا أن نستدل بقوله مندداً بتلك الخرافة التي يشيعونها عن الخضر :

يقول الغواة : « الخضر حي » عليهم عفاء ، نعم ليل من الفتن أخضراً
ولو صدقوا ما انفك في شر حالة يعانى بها الأسفار ، أشعث مغبراً
جنى قائل بالمين ، يطلب ثروة ويعذر فيه من تكسب مضطراً
وقوله مندداً بالمهدي المنتظر :

مجوسية وحنيفية ونصرانة ويهودية
تراقب مهديها أن يقوم فتلقى الى الحق مهديه

وقد ندد بظهوره في مكان آخر - في (ص ٢٣٥) في هذا الجزء - فليرجع من شاء

دعوى الربوبية

وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا بِالْبَصْرَةِ يُعْرِفُ «بِشَابَاسَ» تَزْعُمُ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ أَنَّهُ رَبُّ الْعِزَّةِ، وَتُجْبَى إِلَيْهِ الْأَمْوَالُ الْجَمَّةُ، وَيَحْمَلُ إِلَى السُّلْطَانِ مِنْهَا قِسْمًا وَإِفْرًا، لِيَكُونَ - بِمَا طَلَبَ - ظَافِرًا.

وَحَدَّثْتُ عَنْ امْرَأَةٍ بِالْكُوفَةِ يُدَّعَى لَهَا مِثْلُ ذَلِكَ .

ربعة الى ابن الراوندى

وَقَدْ سَمِعْتُ مَنْ يُخْبِرُ أَنَّ لِابْنِ الرَّائِدِيِّ مَعَاشِرَ تَذَكُرُ أَنَّ اللَّاهُوتَ سَكَنَهُ، وَيَحْتَرِصُونَ لَهُ فَضَائِلَ، يَشْهَدُ الْخَالِقُ وَأَهْلُ الْمَعْقُولِ، أَنَّ كَذِبَهَا غَيْرُ مَصْقُولٍ، وَهُوَ - فِي هَذَا - أَحَدُ الْكُفَرَةِ، وَقَدْ أَنْشَدَ لَهُ مُنْشِدٌ :

قَسَمْتَ بَيْنَ الْوَرَى مَعِيشَتَهُمْ قِسْمَةَ سَكَرَانَ بَيْنَ الْغَلَطِ
لَوْ قَسَمَ الرِّزْقَ هَكَذَا رَجُلٌ قُلْنَا لَهُ: «قَدْ جُنِنْتَ، فَاسْتَعِطِ^(١)»
وَلَوْ تَمَثَّلَ هَذَانِ الْبَيْتَانِ، لَكَانَا فِي الْإِصْرِ، يَطُولَانِ أَرْمَى مِصْرَ^(٢)

أبو هوف

وَقَدْ ظَهَرَ فِي الضَّيِّعَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالتَّيْرَبِ، رَجُلٌ يُعْرِفُ بِأَبِي جَوْفٍ،

(١) أى أدخل السعوط في أنفك لتفتيق، والسعوط هو ما يدخل الأنف من مسحوق دقيق كالتبغ. ولابن الراوندى في هذا المعنى، بيتان آخران، أقل شناعة من هذين البيتين، وهما قوله :

كم عاقل عاقل، أعيت مذاهبه وجاهل جاهل، تلقاه مرزوقا
هذا الذى ترك الأوهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا !

(٢) أى هرمى مصر

كَانَ يَدْعِي النُّبُوَّةَ ، وَيُخْبِرُ بِأَخْبَارِ مُضْحَكَةٍ ، وَكَانَ لَهُ قُطْنٌ فِي بَيْتٍ ، فَقَالَ
إِنَّ قُطْنِي لَا يَحْتَرِقُ ، وَأَمَرَ ابْنَهُ أَنْ يُدِنَ سِرَاجًا إِلَيْهِ ، فَأَخَذَ فِي الْقُطْنِ ،
وَصَرَخَتْ النِّسَاءُ ، وَاجْتَمَعَتِ الْجِيرَةُ .

*
*

وَحَدَّثَنِي مَنْ شَاهَدَهُ : أَنَّهُ كَانَ يُكْثِرُ الضَّحِكَ مِنْ غَيْرِ مُوجِبٍ ، وَلَا
عِنْدَ حَادِثٍ مُعْجَبٍ ؛ فَقِيلَ لَهُ : « لِمَ تَضْحَكُ ؟ » فَقَالَ كَلَامًا مَعْنَاهُ : « إِنَّ
الْإِنْسَانَ لَيَفْرَحُ بِهِيْنِ قَلِيلٍ ، فَكَيْفَ مَنْ وَصَلَ إِلَى الْعَطَاءِ الْجَلِيلِ ! »
وَكَانَ بَيْنَ الْجُنُونِ ، لَيْسَ خَبْلُهُ بِالْمَكْنُونِ ، فَاتَّبَعَهُ الْأَغْيَاءُ ، وَكَذَّبَ
مَا تَقُولُهُ الْأَنْبِيَاءُ ، حَتَّى قَتَلَهُ وَإِلَى حَلَبَ

عودة الى علي بن أبي طالب

وَبَعْضُ الشَّيْعَةِ يُحَدِّثُ أَنَّ « سَامَانَ الْفَارْسِيَّ » كَانَ فِي نَفَرٍ جَاءُوا يَطْلُبُونَ
عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ — سَلَامٌ لِلَّهِ عَلَيْهِ — فَلَمْ يَجِدُوهُ فِي مَنْزِلِهِ ، فَبَيْنَمَا هُمُ
كَذَلِكَ ، جَاءَتْ بَارِقَةٌ ، تَتَّبَعُهَا رَاعِدَةٌ ، وَإِذَا عَلِيٌّ قَدْ نَزَلَ عَلَى إِجَارِ الْبَيْتِ
فِي يَدِهِ سَيْفٌ مَخْضُوبٌ بِالدَّمِ ، فَقَالَ : « وَقَعَ شَجَارُهُ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ،
فَصَعِدَتْ لِأُصْلِحَ يَدُهُمَا ! »

أَفَلَا يَرَى هَذِهِ الْأُمَّةَ كَيْفَ افْتَنَّتْ فِي الضَّلَالَةِ ، كَافْتِنَانَ الرَّبِيعِ فِي
إِخْرَاجِ الْأَكْلَاءِ ! وَلِلْكَذِبِ سُوقٌ لَيْسَتْ لِلصِّدْقِ ...

*
*

وَأَمَّا الَّذِي ذَكَرَهُ مِنْ بُلُوغِ السَّنِّ ، فَإِنَّ اللَّهَ — سُبْحَانَهُ — خَلَقَ مَقْرَأًا وَشُهَدَاءَ ،
وَرَغْبَةً فِي الْعَاجِلَةِ وَزُهْدًا ، وَإِذَا اللَّيِّبُ أَنْعَمَ النَّظَرَ لَمْ يَرَ الْحَيَاةَ إِلَّا تَجْذِبُهُ

إِلَى الضَّيْرِ، صُبْحٌ يَتَبَسَّمُ وَإِمْسَاءٌ، كَانَهُمَا سَيِّدَا إِضْرَاءَ، وَالْعُمُرُ ثَلَاثَةٌ، وَهُمَا عَلَى السَّارِحِ يُعِيرَانِ، فَيُفِينَانِ السَّائِمَةَ^(١) وَيُبِيرَانِ !

الزواج

وَقَدْ تَحَدَّثَ بَعْضُ طُلَّابِ الْأَدَبِ، أَنَّهُ ذَكَرَ التَّزْوِيجَ - يُرِيدُ الْخِدْمَةَ - فَسَرَّنِي ذَلِكَ، لِأَنَّهُ دَلَّ عَلَى إِقَامَةِ بِالْوَطَنِ، وَفِي قُرْبِهِ الْفَرَحَةُ، إِذْ كَانَ كَالشَّجَرَةِ الْوَارِفِ ظِلَالُهَا فِي الْهَوَاجِرِ، وَالطَّيِّبِ ثَمَرُهَا لِلذَّائِقِ، وَالْأَرَجِ نَسِيمُهَا لِلنَّاشِقِ. وَهُوَ يَعْرِفُ حِكَايَةَ الْخَلِيلِ عَنِ الْعَرَبِ: « إِذَا بَلَغَ الرَّجُلُ السِّتِينَ فَأَيَّاهُ وَإِيَّاءَ الشَّوَابِّ، وَلَيْكِنِ النَّصَفَ^(٢) »

(١) وفي هذه المعنى يقول أبو العلاء في لزومياته :

هل الناس إلا نظير السوام وأجالهم أسد تقترس ؟

(٢) كرر أبو العلاء هذه النصيحة أكثر من مرة في لزومياته، فمن ذلك قوله :

إذا ما ابن ستين ضم الكعاب إليه فقد حلت البهله

هو الشيخ، لم يرضه أهله ولم يرض في فعله أهله

فلا يتزوج أخو الأربعين إلا مجربة كهلته

رأى الشيب في عارضيه المسن، فنعم القرين له الشهله

وقوله : إذا أنت رُوجت العجوز، على الصبا فأيامها صن عليك وصنبر

وقوله : كأنك - بعد خمسين استقلت لمولدك - البناء، دنا ليهوى

وإنك - إن تزوج بنت عشر - لأخيب صفقة من شيخ مهو

وحكاية « شيخ مهو » مشهورة، لا نطيل بذكرها هنا، فليرجع إليها من شاء، في

(ص ٣٥٨ جزء ٢) من اللزوميات

وَلَوْ نَشِطَ لَهُذِهِ الْمَارُبَةُ ، لَتَنَافَسَتْ فِيهِ الْعَجُزُ وَالْمُسْكَنَهَاتُ ، وَهَلْ هُوَ
إِلَّا كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ :

« يَا عَزُّ أَهْلُ لَكَ فِي شَيْخٍ فَتَى أَبَدًا وَقَدْ يَكُونُ شَبَابٌ غَيْرُ فِتْيَانٍ »

فَلَيْسَ بِأَوَّلٍ مَنْ تَرَوَّجَ - عَلَى السُّنِّ - عَجُوزًا ، كَمَا قَالَ :

« إِذَا مَا أَعْرَضَ الْفَتِيَاتُ عَنِّي فَسَنُ لِي أَنْ تُسَاعِفَنِي عَجُوزُ

كَأَنَّ مَجَامِعَ اللَّحْيَيْنِ مِنْهَا - إِذَا حَسَرْتَ عَنِ الْعَرِينِ - كُوزُ »

وَيُرَوَّى لِلْحَارِثِ بْنِ حِلْزَةَ ، وَلَمْ أَجِدْهُ فِي دِيْوَانِهِ :

وَقَالُوا مَا نَكَحْتُ ؟ فَقُلْتُ خَيْرًا عَجُوزًا مِنْ عُرَيْنَةَ ذَاتِ مَالٍ

نَكَحْتُ كَبِيرَةً ، وَغَرَمْتُ مَالًا كَذَلِكَ الْبَيْعُ مُرْتَخِصٌ وَغَالٍ (١)

وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِمَّا قَالَهُ الْآخَرُ :

عَجُوزٌ لَوْ أَنَّ الْمَاءَ يُسْقَى بِكَفِّهَا لَمَا تَرَكَتْنَا بِأَلْمِيَاهِ نَجُوزُ

وَمَا زَالَتِ الْعُرْبُ تَحْمَدُ الْحَيْرَبُونَ وَالشَّهْلَةَ ، وَلَا تَكْرَهُ - مَعَ الشَّرِيحِ -

الْكَهْلَةَ .

زواج النبي بمحمدجة

وَقَدْ تَرَوَّجَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ ، وَهُوَ

شَابٌ ، وَهِيَ طَاعِنَةٌ فِي السُّنِّ ، وَقَالَتْ لَهُ أُمُّ سَلَمَةَ ابْنَةُ أَبِي أُمَيَّةَ : « يَا رَسُولَ

اللَّهِ ، إِنِّي امْرَأَةٌ قَدْ كَبُرْتُ وَمَا أُطِيقُ الْغَيْرَةَ » فَقَالَ : « أَمَا قَوْلُكَ قَدْ كَبُرْتُ ،

(١) نذكر بهذه المناسبة قول بعض الشعراء :

لا تنكحن عجوزاً ، إن دعيت لها وإن حبيت على تنكحها الذهبا

فإن أتوك ، وقالوا : إنها نصف فإن أطيب نصفها الذي ذهباً !

فَأَنَا أَكْبَرُ مِنْكَ ، وَأَمَّا الْغَيْرَةُ فَإِنِّي سَوْفَ أَدْعُو اللَّهَ أَنْ يُرِيَلَهَا عَنْكَ

مما: السبغ الى الزواج

وَلَا أَشْكُ أَنَّهُ قَدِ اسْتَخْدَمَ فِي مِصْرَ أَصْنَافَ جَوَارٍ ، وَلَوْلَا أَنَّ أَخَا الْكِبْرَةَ
يَقْتَرُ إِلَى مُعِينٍ ، لَكَانَتْ الْحَزَامَةُ أَنْ يَقْتَسِمَ بِيُورِدِ الْمَعِينِ ، فَهُوَ يَعْرِفُ
قَوْلَ الْقَائِلِ :

« مَا الْعَيْشُ إِلَّا الْقَفْلُ وَالْمِفْتَاحُ وَغُرْفَةٌ تُحَرِّقُهَا الرِّيَّاحُ »
« لَا صَخْبُ فِيهَا وَلَا صِيَاخُ »

الخدم

وَحَدَّثَنِي « ابْنُ الْقَسْرِيِّ » الْمُفْرِيُّ — : أَنَّهُ سَمِعَهُ يَسْأَلُ عَنْ غُلَامٍ
لِلْخِدْمَةِ . وَرُبَّمَا كَانَ اسْتِخْدَامُ الْأَحْرَارِ ، يَمْنَعُ مِنَ الْقَرَارِ ، فَقَدْ قَالَ أَبُو عُبَادَةَ :
أَنَا مِنْ « يَاسِرٍ وَيُسْرٍ وَنَجِجٍ » لَسْتُ مِنْ « عَامِرٍ » وَلَا « عَمَّارٍ »
مَا بَارِضَ الْعِرَاقِ يَا قَوْمَ حُرٍّ يَقْتَدِينِي مِنَ خِدْمَةِ الْأَحْرَارِ ؟
وَأَنْ يَخْدُمَ نَفْسَهُ الْوَحِيدُ ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَلِجَ بَيْنَهُ الْعَبِيدُ ، فَطَالَمَا أَحْوَجُوا
الْمَالِكِ إِلَى ضَرْبٍ .

لثوم الخدم^(١)

وَرُبَّ نَازِلٍ مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ فِي حَانَ ، يَخْدُمُهُ صَبِيٌّ هُوَ مِنَ الرِّقِّ حُرٌّ ،
وَفِي خِدْمَتِهِ السَّرِقُ وَالضَّرُّ ، إِذَا أَرْسَلَهُ بِالذَّرَاهِمِ لِيَأْتِيَهُ بِالْبَطِيخَةِ — حِينَ

(١) قال أبو العلاء :

ومن عناء الليالي خادم ضغن إن يُؤمر الأمر يفعل غير ما أُمر

يَكْثُرُ الْبَطِيخُ - سَرَقَ فِي السَّبِيلِ الْقِطْعَ ، وَانْتَهَى فِي الْخِيَانَةِ وَتَنَطَّعَ ، ثُمَّ وَقَفَ بِالْبَائِعِ فَغَبَّنَهُ ، فَأَخَذَ صَغِيرَةً مِنْ بَطِيخٍ ، ثُمَّ انصَرَفَ بِهَا لِأَعْيَابٍ ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَلَقَّفُ بِهَا فِي الطَّرِيقِ حَتَّى كَسَرَهَا ، فَاخْتَلَطَ حَبًّا بِالْخُصْبَاءِ .

وَيَجُوزُ أَنْ يَحْمِلَهَا - فِي حَالِ السَّلَامَةِ - وَيَمْضَى لِيَسْمَحَ مَعَ الْفَتِيَانِ ، فَإِذَا تَزَلَّ فِي الْمَاءِ اخْتَطَفَهَا بَعْضُ الْعَرِمَةِ مِنَ الصَّبِيَانِ ، فَأَكَلَهَا وَهُوَ يَرَاهُ ، لَا يَحْفِلُ بِأَدِيمِهَا إِذْ فَرَاهُ .

وَقَدْ يُرْسَلُهُ بِالْغَضَارَةِ ^(١) يَلْتَمِسُ لَبَنًا ، فَيُقَابِلُ مِنْ سُوءِ الرَّأْيِ غَبْنًا ، فَإِذَا حَصَلَ فِيهَا الْهَدِيدُ ^(٢) ، عَثَرَ فَإِذَا هُوَ عَلَى الصَّحْرَاءِ مُتَبَدِّئًا ، وَصَارَتْ الْفَخَّارَةُ خَزَفًا لَا يُرَادُ .

* *

وَأَمَّا أَهْلُ بَلَدِي - حَرَسَهُمُ اللَّهُ - فَإِذَا كَانَ الْحُظُّ قَدْ أَعْطَانِي حُسْنَ ظَنِّ الْعُرَبَاءِ ، فَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يُعْطِيَنِي تِلْكَ الْمُنْزِلَةَ مِنَ الرَّهْطِ الْقُرْبَاءِ ، وَلَكِنَّهُمْ مَعِيَ كَطَّلَابِ الْخُطْبَةِ مِنَ الْأَخْرَسِ !

التوبة

وَأَمَّا إِشْفَاقُ الشَّيْخِ ، فَتِلْكَ سَجِيَّةُ الْأَنْبِيَاءِ ، لَا يَخْتَصُّ بِهَا أَخُو الْجَبْنِ عَنِ الشُّجَاعِ ، وَمِنَ الْقَسُوطِ تَعْرِضُ بِالْقُنُوطِ « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ » .

* *

كَمْ مِنْ أَدِيبٍ شَرِبَ وَطَرِبَ ثُمَّ تَابَ ، فَقَدْ يَضِلُّ الدَّلِيلُ فِي ضَوْءِ الْقَمَرِ ،

ثُمَّ يَهْدِيهِ اللَّهُ ، وَكَمْ اسْتُنْقِذَ مِنَ اللّٰجِ غَرِيْقٌ فَسَلِمَ .

الفضيل بن عياض

وَقَدْ كَانَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ ، يُسَمَّى فِي أَوَّلِ رِيَاضٍ ، ثُمَّ حُسَيْبَ فِي الزَّهَّادِ ،
وَجُعَلَ مِنْ أَهْلِ الْإِجْتِهَادِ ، وَرُبَّ خَلِيْعٍ وَهُوَ فَتَى ، تَصَدَّرَ - لَمَّا كَبُرَ -
وَأَفْتَى ، وَمُعَنَّ بِطَنْبُورٍ أَوْ عُوْدٍ ، قُدِّرَ لَهُ تَوَلَّى السُّعُوْدِ ، فَرَقِيَ مِنْبَرًا لِلْعُضَاتِ !

عمر بن عبد العزيز

وَلَعَلَّهُ قَدْ نَظَرَ فِي طَبَقَاتِ الْمُعْنَنِ ، فَرَأَى فِيهِمْ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيْزِ
وَمَالِكَ بْنَ أَنَسٍ ، هَكَذَا ذَكَرَ « ابْنُ خُرْدَادْبَةَ » فَإِنَّ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ !

ابو حذيفة وحماد عجرد

وَالْحِكَايَةُ مَعْرُوفَةٌ ، أَنَّ أَبَا حُذَيْفَةَ ^(١) كَانَ يُشَارِبُ حَمَّادَ عَجْرَدٍ وَيُنَادِمُهُ ،
فَنَسِكَ أَبُو حُذَيْفَةَ ، وَأَقَامَ حَمَّادٌ فِي النُّعَى ، فَبَلَغَهُ أَنَّ أَبَا حُذَيْفَةَ يَذْمُهُ وَيَعِيْبُهُ ،
فَكَتَبَ إِلَيْهِ حَمَّادٌ :

إِنْ كَانَ نُسُكُكَ لَا يَتِمُّ بِغَيْرِ شَيْءٍ وَانْتَقَاصِي
فَأَقْعُدْ وَقُمْ بِي كَيْفَ شِئْتَ مَعَ الْأَدَانِي وَالْأَقَاصِي
فَلَطَمًا زَكَّيْتَنِي وَأَنَا الْمُقِيمُ عَلَى الْمَعَاصِي
أَيَّامَ تُعْطِيْنِي وَتَأْخُذُ فِي أَبَارِيْقِ الرَّصَاصِ

(١) هو واصل بن عطاء ، تلميذ الحسن البصرى ، وصاحب مذهب الواصلية ، ورئيس تلك الطائفة المعروفة المنسوبة إليه . وكان في زمن عبد الملك وهشام ابنه ، ومذهبه مبين في كتاب الملل والنحل للشهرستاني ، فليرجع إليه من شاء

عمر بن الخطاب

أَلَيْسَ الصَّحَابَةُ - عَلَيْهِمُ رِضْوَانُ اللَّهِ - كُلُّهُمْ كَانَ عَلَى ضَلَالٍ ، ثُمَّ تَدَارَكَهُ
الْمُقْتَدِرُ ذُو الْجَلَالِ ؟

وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ يُرِيدُ مُجْمَعًا
كَانُوا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ لِلْقِمَارِ ، فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ أَحَدًا ، فَقَالَ لِأَذْهَبَنَّ إِلَى الْخَمَارِ لَعَلِّي
أَجِدُ عِنْدَهُ خَمْرًا ، فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُ شَيْئًا ، فَقَالَ لِأَذْهَبَنَّ وَلَا سَمَانَ ! ...
وَالْتَوْفِيقُ يَجِيئُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ !

عودة الى النبي

وَفِيمَا خُوطِبَ بِهِ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى »
وَذَكَرَ أَبُو مَعْشَرٍ الْمَدَنِيُّ ، فِي كِتَابِ « الْمُبْعَثِ » حَدِيثًا مَعْنَاهُ أَنَّ النَّبِيَّ
- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ذَبَحَ ذَبِيحَةً لِلْأَضْنَامِ ، فَأَخَذَ شَيْئًا مِنْهَا ، فَطُبِخَ لَهُ ،
وَحَمَلَهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ، وَمَضِيَ لِيَأْكُلَاهُ فِي بَعْضِ الشُّعَابِ ، فَلَقِيَهُمَا « زَيْدُ بْنُ
عَمْرٍو بْنِ مُنْقِيلٍ » وَكَانَ مِنَ الْمُتَاهِلِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَدَعَاهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِيَأْكُلَ مِنَ الطَّعَامِ ، فَسَأَلَهُ عَنْهُ ، فَقَالَ : « هُوَ شَيْءٌ ذَبَحْنَاهُ
لِالْهَيْتَانَا » فَقَالَ زَيْدُ بْنُ عَمْرٍو : « إِنِّي لَا آكُلُ مِنْ شَيْءٍ ذُبِحَ لِلْأَضْنَامِ ، وَإِنِّي
عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَمَرَ النَّبِيُّ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ بِالِقَاءِ مَا مَعَهُ .

تميم بن أوسى الدارى

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ - وَقَدْ سَمِعْتُهُ بِإِسْنَادٍ - أَنَّ تَمِيمَ بْنَ أَوْسٍ الدَّارِيَّ^(١)

(١) نسبة إلى « الدار » وقال أبو العلاء : والدار قبيلة من « نخم »

كَانَ يُهْدِي إِلَى النَّبِيِّ - فِي كُلِّ سَنَةٍ - رَاوِيَةً مِنْ خَمْرٍ ، نَجَاءً فِي بَعْضِ
السِّنِينَ ، وَقَدْ حُرِّمَتِ الْخَمْرُ ، فَأَرَأَيْهَا .

أحمد بن حنبل والخمر

وَقَدْ ذُكِرَ عِنْدَ ثَعْلَبٍ ، أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ ، وَإِنْ كَانَ شَرِبَ النَّبِيدَ قَطُّ ،
وَالنَّبِيدُ - عِنْدَ الْفُقَهَاءِ - غَيْرُ الْخَمْرِ ، فَقَالَ ثَعْلَبٌ : « أَنَا سَقَيْتُهُ بِيَدِي ! »

الخمر

وَإِنَّمَا لَذَّةُ الشَّرْبِ فِيمَا يَعْزُضُ لَهُمْ مِنَ السُّكَّرِ ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ ، لَكَانَ
غَيْرُهَا مِنَ الْأَشْرِبَةِ أَعْذَبَ وَأَدْفَأَ (١) ، وَإِنْ كَانَ الشَّيْخُ قَدْ شَرِبَ ، فَلَهُ

(١) رأى أبي العلاء في الخمر

يعد أبو العلاء الخمر من اللذاتذ ، ويعرف لها مزاياها ؛ ولا يمتري فيما تحدثه في نفس شاربيها
من نشوة الفرح والطرب ، ويعلم أن ذلك هو السر في تهافت الناس على شربها - على
اختلاف العصور والأمكنة .

فهو من أعرف الناس بمزايا الخمر ، وإن كان لم يذق لها طعماً ، وقد قرأ جل ما كتبه عنها
شعراء العربية - جاهليين وإسلاميين وعباسيين - ودرسه ، كما درس غيره - فأصبح من
أعلم الناس بها - وليس ذلك مستغرباً ، فقد أبدع أبو العلاء في أشعاره كثيراً من التشبيهات
الرائعة التي تعتمد على البصر

وحسبك ما أتى به من الأوصاف الكثيرة الدقيقة ، في وصف الدروع وغيرها . ونكتفي
من ذلك كله ببيته المشهور ، الذي وصف به سهيلاً فقال :

« وسهيل كوجنة الحب في اللو ن ، وقلب الحب في الخفقان »

ولم يقصر « بشار » في كثير من تشبيهاته عن شأو المبصرين ، وإجادة الأوصاف

أَسْوَةٌ بِشَيْخِ الْأَزْدِ « مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ » إِذْ قَالَ :

التي كان من حقهم أن ينفردوا بها دون سواهم ، وآية ذلك ، بيته الرائع المشهور :
« كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا - ليل تهاوى كواكبه »

*
* *

إذن فقد كان أبو العلاء يعرف الخمر ، ويدرك مزاياها حقاً ؛ نعم ، وقد تمنى شربها في كثير من أشعاره ، وود لو أنها أصبحت طلبة محللة ، ولكن لم يفته أن يعقب - في كل موضع تمنّاها فيه تقريباً - بالسبب الرئيس الذي يدفعه الى العزوف عنها ، والإحجام عن شربها ، وهو : « إزراؤها باللب » وقد عرفت أن أبا العلاء كان يعتز بالعقل كل الاعتزاز ويحمله ، ويفتن في تمديسه « انظر إلى ص ٢٥٦ في هذا الجزء » حتى تضائل أمامه كل اعتبار قيس إليه ، وقد أظهرنا أن من أكبر الأسباب التي أزعجته من لقاء الموت - رغم حنينه الدائم إليه - هو خوفه أن يسلبه الردى ذلك العقل الذى يحرص عليه ، ويضن به . (ارجع إلى ص ٢٠٨ من هذا الجزء)

ولهذا السبب نفسه ، ارتاع من الكبر ، فقال :

وما أتوقى ، والخطوب كثيرة من الدهر ، إلا أن يحل بي الهتر
ويمكثنا أن نتخذ البيت التالى مفتاح فلسفته فى الخمر ، وهو :
ولولا أنها باللب تزرى لكنت أخوا الندامة والنديم

*
* *

والخمر - بعد ذلك -- قد حرمها الإسلام ؛ ولو حلل شربها ، لما شربها أبو العلاء :

أياتى نبي يجعل الخمر طلبة فتحمل ثقلان همومى وأوزارى ؟

وهيات ! لو حلت - لما كنت شاربا مخففة فى الحلم كفة ميزانى

وليس ذلك بيدع على من حرم على نفسه أكل اللحم ، مع إباحة الشرع ذلك .

فهو إذا كان قد دفعته الشفقة على الحيوان ، فلم يأكله ، فقد دفعه الإشفاق على عقله

أن يحرم على نفسه الخمر - ولو حللها دينه - وهو لم يحللها بعد !

ومن ثم تدرك السر فى رغبته عنها ، بالرغم من تمنيه إياها أحيانا ، فقد تمنّاها فى لاميته

بَلْ رَبِّ لَيْلٍ جَمَعَتْ قُطْرِيهِ لِي بِنْتُ ثَمَانِينَ - عَرُوسٌ تُجْتَلَى !

التي قالها - وهو بالعراق - وأظهر فيها حنينه ووجده الشديد إلى بلده « المعرة » فقال :

« تمنيت أن الخمر حلت لنشوة تجهلني كيف اطأنت بي الحال

فأذهل أنى - بالعراق - على شفا ، رزى الأمانى ، لا أنيس ولا مال

مقل من الأهلين يسر وأسرة كفى حزناً بين مُشت وإقلال !

على أنها أمنية اليأس الذى يفضل الموت على الحياة !

وإليك نخبة مختارة مما قاله فى الخمر ، نستدل بها على ما ذهبنا إليه :

لو كانت الخمر حلاً ، ما سمحت بها لنفسى الدهر ، لا سرّاً ولا علناً

ويهجر طيب الراح خوفاً من السكر

هى الراح أهلاً لطول الهجاء وإن خصها معشر بالمدح

فلا تعجبنيك عروس المدام ولا يطرّبك مغن صدح

ومن يفتقد له ساعة فقد مات فيها بخطب فدح

وقد شرح فى الآيات التالية ، ما ينجم عن الذهول ، الذى تحدّثه الخمر فى نفوس شاربيها ،

فقال :

البابلية باب كل بلية فتوقين هجوم ذلك الباب

جرت ملاحاة الصديق وهجره ، وأذى النديم ، وفرقة الأحباب

هتكت حجاب المحصنات ؛ وجشمت مهن العميد تهضم الأرباب

وتوهم الشيب المدالف ، أنهم لبسوا - على كبر - برود شباب

وإذا تأملت الحوادث ، ألفت صهب اللدان أعادى الأبواب

*
*
*

وجام القول أن أبا العلاء أكثر من ذكر الخمر والتشنيع عليها ، فى أشعاره ، وكما

تستطيع أن تفرد لبعض الشعراء - كأبي نواس مثلاً - ديواناً فى مدح الخمر ، تستطيع

أن تفرد لأبى العلاء كذلك ، ديواناً فى ذمها !

ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِ الْقَصِيدَةِ^(١)
فَإِنَّ أُمَّتٌ فَقَدْ تَنَاهَتْ لَدَنِي وَكُلُّ شَيْءٍ بَلَغَ الْحَدَّ انْتَهَى
وَمَا اخْتَارَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ بِقَوْلِ الْحَكَمِيِّ :
قَالُوا: «كَبُرَتْ» فَقُلْتُ: «مَا كَبُرَتْ يَدِي عَنْ أَنْ تَسِيرَ إِلَى فَمِي بِالْكَاسِ^(٢) !»
وَقَدْ أَنْ لِمَوْلَايَ الشَّيْخِ أَنْ يَزْهَدَ فِي شَيْمَةِ حُمَيْدِ الْأَمْجِيِّ، قَائِلٍ هَذِهِ الْأَيَّاتِ :
« شَرِبْتُ الْمُدَّامَ فَلَمْ أَقْلِعْ وَعَوَّيْتُ فِيهَا، فَلَمْ أَرْجِعْ
« حُمَيْدُ » الَّذِي أَمِجُّ دَارَهُ أَخُو الْحَمْرِ، ذُو الشَّيْبَةِ، الْأَصْلَعُ
عَلَاهُ الْمُسَيْبُ عَلَى حُبِّهَا وَكَانَ كَرِيماً فَلَمْ يَنْزِعْ ! »
وَقَالَ آخَرَ :

(١) يعني مقصورة « ابن دريد » المشهورة التي أولها :
يا ظبيّة أشبهه شيء بالها ترعى الخزامى بين أشجار النقا
وقد مر بعض أبياتها في (ج ٢ ص ١٨ م ١٩)
(٢) الحكمي : هو أبو نواس ، وقد مرت ترجمته في (ج ٢ ص ١٠ م ١١) وهذا البيت
من سينيته الجميلة التي يقول فيها :

كيف النزوع عن الصبا والكاس
وإذا عددتُ سِنِي « كم هي ؟ » لم أجد
قَالُوا: « كَبُرَتْ » فَقُلْتُ: « مَا كَبُرَتْ يَدِي
صفراء ، زان رواءها مخبورها
وكان شاربها - لفرط شعاعها
فأراح طيبة ، وليس تمامها
قس ذا لنا ، يا عاذلي بقياس !
للشيب عذراً في النزول براسي
عن أن تسير إلى فمي بالكاس ! »
فلها المهذب من ثناء الحاسي
بالليل - يكرع في سنا مقباس
إلا بطيب خلائق الجلاس !

تُعَاتِبُنِي فِي الرَّاحِ أُمُّ كَبِيرَةَ
تَقُولُ: « أَلَا تَجْفُو الْمُدَامَ ، فَعِنْدَنَا
وَمَا قَوْلُهَا - فِيمَا أَرَاهُ - مُصِيبُ
مِنَ الرَّزْقِ تَمْرٌ مُكْشِبٌ وَزَيْبٌ ؟ »
وَلَيْسَ لَتَمْرٍ فِي الْعِظَامِ دَيْبٌ
فَقُلْتُ: «رَوَيْدًا، مَا الزَّيْبُ مُفْرَجِي
فَإِنَّ « حَمِيدًا » عَلَيْهَا فِي شَبَابِهِ
وَلَمْ يَصْحُ مِنْهَا - حِينَ لَاحَ مَسِيْبُ! »

توبة ابن القارح

وَإِذَا تَسَامَعْتَ الْمُحَافِلُ بِتَوْبَتِهِ ، اجْتَمَعَ عَلَيْهِ الشَّبَانُ الْمُقْتَبِلُونَ ، وَالْأَدْبَاءُ
الْمُكْتَمِلُونَ ، وَكُلُّ أَشْيَبٍ ؛ فَيَقْتَبِسُونَ مِنْ آدَابِهِ ، وَيُضْعَوْنَ الْمَسَامِعَ خِطَابِهِ ،
وَجَلَسَ لَهُمْ فِي بَعْضِ الْمَسَاجِدِ بِحَلَبَ ، حَرَسَهَا اللَّهُ ، فَإِنهَا مِنْ بَعْدِ « أَبِي عَبْدِ اللَّهِ
ابْنِ خَالَوَيْهِ » عَطَّلَتْ مِنَ الْأَدَبِ

هدية طالوت

ذَكَرَ مَنْ نَظَرَ فِي كِتَابِ « الْمُبْتَدَأِ » حَدِيثَ « طَالُوتَ » لَمَّا أَمَرَ ابْنَتَهُ ،
وَهِيَ امْرَأَةٌ « دَاوُدَ » - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ تُدْخِلَهُ عَلَيْهِ - وَهُوَ نَائِمٌ -
لِيَقْتُلَهُ ، فَجَعَلَتْ لَهُ فِي فِرَاشِ « دَاوُدَ » زِقَّ خَمْرٍ ، وَدَسَّتْهُ عَلَيْهِ ، وَضَرَبَتْهُ
بِالسَّيْفِ ، وَسَأَلَتْ الْخَمْرُ ؛ فَظَنَّ أَنَّهَا الدَّمُ ، فَأَذْرَكَهُ الْأَسْفُ وَالنَّدَمُ . فَأَوْمَأَ
بِالسَّيْفِ لِيَقْتُلَ نَفْسَهُ - وَمَعَهُ ابْنَتُهُ - فَأَمْسَكَتْ يَدَهُ ، وَحَدَّثَتْهُ مَا فَعَلَتْهُ ،
فَشَكَرَهَا عَلَى ذَلِكَ !

عودة الى ذكر الحور

وَإِذَا صَحَّتِ الْأَخْبَارُ الْمُنْقُولَةُ بِأَنَّ أَهْلَ الْآخِرَةِ يَعْلَمُونَ أَخْبَارَ أَهْلِ
الْعَاجِلَةِ ؛ فَلَعَلَّ جَوَارِيَهُ الْمُعَدَّاتِ لَهُ فِي الْخُلْدِ ، يَسْأَلْنَ عَنْ أَخْبَارِهِ مَنْ يَرِدُ

عَلِيَّهِنَّ مِنَ الصُّلْحَاءِ ، فَيَسْمَعْنَ مَرَّةً أَنَّهُ بِالْفُسْطَاطِ ، وَتَارَةً أَنَّهُ بِالْبَصْرَةِ ، وَمَرَّةً أَنَّهُ بِيَعْدَادَ ، وَخَطْرَةً أَنَّهُ بِحَلَبَ ؛ فَإِذَا شَاحَ أَمْرُ التَّوْبَةِ ، وَمَاتَ نَاسِكٌ مِنْ أَهْلِ حَلَبَ ، أَخْبَرَهُنَّ بِذَلِكَ ، فَسُرِرْنَ وَابْتَهَجْنَ ، وَهَنَّهُنَّ جَارَاتُهُنَّ !

وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ قَدْ سَمِعَ حِكَايَةَ الْبَيْتَيْنِ الثَّابِتَيْنِ فِي كِتَابِ : « الْإِعْتِبَارِ » :
أَنْعَمَ اللَّهُ بِالْخَيْالَيْنِ عَيْنًا وَبِمَسْرَاكِ يَا أُمِّمُ إِلَيْنَا
عَجِبًا ! مَا جَزَعْتَ مِنْ وَخْشَةِ اللَّحْدِ ، وَمِنْ ظُلْمَةِ الْقُبُورِ عَلَيْنَا

رجعة الى الخمر

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ قَوْمٍ يَحْشُهُمُ الْمَشِيبُ عَلَى أَنْ يَسْتَكْتَبُوا مِنْ أُمَّ زَبَقٍ (١)
قَالَ حَاتِمٌ :

وَقَدْ عَلِمَ الْأَقْوَامُ لَوْ أَنَّ حَاتِمًا
يَفْكُ بِهِ الْعَانِي وَيُؤَسِّكُ طَبِيبًا
أُ « مَاوَى » إِنْ يُصْبِحُ صَدَايَ بَقْفَرَةٍ
تَرَى أَنَّ مَا أَهْلَكَتُ لَمْ يَكُ ضَرَّرَنِي
وَقَالَ طَرْفَةُ :

فَإِنْ كُنْتَ لَا تَسْطِيعُ دَفْعَ مَيْتِي
وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُعْتَزِّ :

فَدَعَنِي أَبَادِرَهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي (٢)
لَا تَطِلْ بِالْكُؤُوسِ مَطْلِي وَحَبْسِي
لَيْسَ يَوْمِي يَا صَاحِبِي مِثْلُ أَمْسِي

(١) هي الخمر (٢) ترجمة طرفة وحديث معلقته - التي منها هذا البيت - في ج ٢

لَا تَسْلِنِي ، وَسَلَّ مَشِيبِي عَنِّي مُذْ عَرَفْتُ الْخَمْسِينَ أَنْكَرْتُ نَفْسِي
فَهَذَا حَتُّهُ كَثْرَةُ سِنِيهِ عَلَى أَنْ يَسْتَكْتَبِرَ مِنَ السَّلَافَةِ ، وَمَا حَفِظَ حَقَّ الْخِلَافَةِ !
وَأَنَا أَضْنُ بِهِ ^(١) أَنْ يَكُونَ كَأَبِي عُثْمَانَ الْمَازِنِي ، عُوتِبَ فِي الشَّرَابِ ،
فَقَالَ : « إِذَا صَارَ أَكْبَرَ ذُنُوبِي تَرَكَتُهُ ! »

المعتصم و ابراهيم المهدي

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الْمُعْتَصِمَ دَعَا إِبْرَاهِيمَ كَمَا دَتِهِ ، فَعَنَاهُ وَبَكَى ، فَقَالَ لَهُ
الْمُعْتَصِمُ : « مَا يُبْكِيكَ ؟ » فَقَالَ : « كُنْتُ عَاهَدْتُ اللَّهَ إِذَا بَلَغْتُ سِتِّينَ سَنَةً أَنْ
أَتُوبَ ، وَقَدْ بَلَغْتُهَا » . فَأَعْفَاهُ الْمُعْتَصِمُ مِنَ الْعِنَاءِ ، وَحُضُورِ الشَّرَابِ !

الهيام بالخمر

وَكَانَ فِي بَلَدِنَا رَجُلٌ مُغْرَمٌ بِالْقَهْوَةِ ^(٢) فَلَمَّا كَبِرَ رَغِبَ فِي الْمَطْبُوخِ ، وَكَانَ
يُحْضِرُ مَعَ نَدَامَاهُ ، وَعِنْدَهُمْ قَدْحٌ وَاحِدٌ ، فَيَشْرَبُ هُوَ مِنَ الْمَطْبُوخِ وَيَشْرَبُ
أَصْحَابُهُ مِنَ اللَّبِيِّ ، فَإِذَا جَاءَ الْقَدْحُ إِلَيْهِ لِيَشْرَبَ ، غَسَلَهُ مِنْ أَثْرِ الْخَمْرِ ، وَشَرِبَ
فِيهِ ، فَإِذَا فَرَّغَ الْمَطْبُوخَ ، رَجَعَ فَشَرِبَ مِنْ شَرَابِ إِخْوَانِهِ !

*
* *

وَأَمَّا مُخَاطَبَتُهُ غَيْرَهُ - وَهُوَ يَعْنِي نَفْسَهُ - فَهُوَ كَقَوْلِهِمْ فِي الْمَثَلِ : « إِيَّاكَ
أَعْنِي وَاسْمِعِي يَا جَارَهُ » وَلَا عُنْدَ ^(٣) عَنِ الْجَبَلَةِ ، يُرِيدُ الْمَتَسَّكَ أَنْ يَنْصَرِفَ
جُبُهُ عَنِ الْعَاجِلَةِ ، وَلَيْسَ يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ ، كَمَا لَا تَقْدِرُ الظَّبْيَةُ أَنْ تَصِيرَ لَبْوَةً

(١) أى ابن القارح (٢) الخمر (٣) فى اللغة : مالى عن ذلك عندد ، كجندب ،

وقنفذ ؛ أى مالى عنه بد ، والمعنى : لا سبيل إلى الخلاص من الفطرة التى فطر الناس عليها

وَلَا الْحِصَاةُ أَنْ تُتَّصَرَ لَوْ لُؤْلُؤَةٌ^(١) « يُوسُفُ : أَعْرِضْ عَنْ هَذَا . وَاسْتَغْفِرِي
لذَنبِكَ إِنَّكَ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ »
لَقَدْ عَلِمْتُ ، وَلَا أَنَّهُكَ عَنْ خُلُقٍ
أَلَّا يَكُونَ امْرُؤٌ إِلَّا كَمَا خُلِقَ^(٢)

(١) الجبر

كرر أبو العلاء هذا المعنى في لزومياته ، وهو بلا ريب في مقدمة من يدينون بالجبر ،
ونجتزئ من أشعاره الكثيرة بالأبيات التالية ، للاستدلال بها على يقينه الثابت وإيمانه الذي
لا يتزعزع ، بمذهب الجبر ، وإذعانه للقضاء والقدر ، وهي :

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سببته المقادير
وفي الأصل غش ، والفروع توابع وكيف وفاء النجل ، والأب غادر ؟
إذا اعتلت الأفعال جاءت علية كحالاتها ؛ أفعالها والمصادر
فقل للغراب الجون - إن كان سامعاً - « أنت على تغيير لونك قادر ؟ »
والعقل زين - ولكن فوقه قدر - فإله في ابتغاء الرزق تقدير
ويجري قضاء ما لكم عنه حاجز فألقوا إلى مولاكم بالمقالد^(١)
نهاب أموراً - ثم نركب هولها على عنت - من صاغرين قماء !^(٢)
ونحاذر الأشياء - بعد يقيننا ألا يرد الكائنات حذار
وجيلة الناس الفساد ، فضل من يسمو بحكمته إلى تهذيبها
يتحارب الطبع - الذي مزجت به مهج الأنام - وعقلهم ، فيفله
وقيل : نفوس الناس تستطيع فعلها وقال رجال : « بل تبين جبرها »
ولا ألوم غيبا في غباوته فبالقضاء أتته قلة الفطن
لا تمدحن ولا تمدن امرأ فيها ، فغير مقصر كقصر !
(٢) هذا يشبه قول ذى الإصبع العدواني :

(١) المقالد كالمقاليد : المفاتيح (٢) أى : يا لنا من صاغرين قماء ، على الحذف .

وَكثِيرٌ مِنَ الَّذِينَ يَتْلُونَ آيَةَ: «مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ، فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» وَهُمْ بِهَا مُصَدِّقُونَ، وَمِنْ خَشْيَةِ إِيَّاهُمْ مُشْفِقُونَ، يَضُنُّونَ بِالْقَلِيلِ التَّافَهُ، وَلَا يَسْمَحُونَ لِلسَّائِلِ^(١)؛ فَكَيْفَ تَكُونُ حَالُ مَنْ يُنْكِرُ حَدِيثَ الْجَزَاءِ، وَلَا يَقْبَلُ عَنِ الْفَانِيَةِ حُسْنَ الْعَزَاءِ؟

أبو طلحة واليهودى

وَقَدْ مَرَّ حَدِيثُ «أَبِي طَلْحَةَ» أَوْ «أَبِي قَتَادَةَ» وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ خَاصِمٌ يَهُودِيًّا إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكَانَ لِأَبِي طَلْحَةَ حَدِيقَةٌ نُخْلٍ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الْيَهُودِيِّ خُلْفٌ فِي نُخْلَةٍ وَاحِدَةٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِلْيَهُودِيِّ: «أَتَسْمَحُ لَهُ بِالنُّخْلَةِ حَتَّى أَضْمَنَ لَكَ نُخْلَةً فِي الْجَنَّةِ» وَنَعَتْهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِنُعُوتِ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: «لَا أُبِيعُ عَاجِلًا بِأَجَلٍ!» فَقَالَ «أَبُو طَلْحَةَ»: «أَتَضْمَنُ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ كَمَا ضَمِنْتَ لَهُ حَتَّى أُعْطِيَهُ الْحَدِيقَةَ؟» فَقَالَ: «نَعَمْ» فَرَضِيَ أَبُو طَلْحَةَ بِذَلِكَ، وَأَخَذَ الْيَهُودِيُّ وَذَهَبَ إِلَى حَدِيقَتِهِ، فَوَجَدَ فِيهَا امْرَأَتَهُ وَأَبْنَاءَهُ، وَهُمْ يَأْكُلُونَ مِنْ جَنَاهَا، وَجَعَلَ يَدْخُلُ إِصْبَعَهُ فِي أَفْوَاهِهِمْ فَيُخْرِجُ مَا فِيهَا مِنْ تَمَرٍ، فَقَالَتْ امْرَأَتُهُ: «لِمَ تَفْعَلُ هَذَا بِبَنِيكَ!»

كل امرئ صائر يوماً لشيئته وإن تخلق أخلاقاً إلى حين
وقريب منه قول الآخر:

لا ترجع الأنفس عن غيرها ما لم يكن منها لها رادع
(١) افتن أبو العلاء في نظم هذا المعنى فقال:

دُتِمَ بَأَن سِيَجَازِيكُمْ إِلَهُكُمْ فَمَا لِأَفْعَالِكُمْ أَفْعَالُ إِهْمَالِ؟

فَقَالَ: «إِنِّي قَدْ بَعْتُ الْحَدِيثَةَ» فَقَالَتْ: «إِنْ كُنْتَ بَعْتَهَا بِعَاجِلٍ، فَبِئْسَ مَا فَعَلْتَ!» فَقَصَّ عَلَيَّهَا أَخْبَرَ، فَفَرِحَتْ بِذَلِكَ.

مرض الناس

وَلَوْ قِيلَ لِبَعْضِ عِبَادِ هَذَا الْعَصْرِ: «أَعْطِ لَبِنَةً، لِتُعْطَى فِي الْآخِرَةِ لَبِنَةً مِنْ فِضَّةٍ» لَمَا أَجَابَ. وَلَوْ سُئِلَ أُمَّةٌ عَوْرَاءَ، يُعَوِّضُ مِنْهَا فِي الْآخِرَةِ بِحَوْرَاءَ، لَمَا فَعَلَ؛ عَلَى أَنَّهُ مِنَ الْمُصَدِّقِينَ!... فَكَيْفَ مَنْ غَدَى بِالتَّكْذِيبِ، وَجَحَدَ وَقُوَّعَ التَّعْذِيبِ؟

ميتة فازه

وَأَمَّا «فَازِهِ» فَلَقِيَ طَائِرَ الْحَيْنِ، مُتَّكِفِيًا مِنْ بَيْنِ جَنَاحَيْهِ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مَا أَعَدَّ الْمُهْرَاسُ لِیُفْضَخَ^(١) بِهِ الرَّأْسُ! وَلَكِنْ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ! مَتَّهَ نَفْسُهُ التَّوْبَةَ، فَكَانَتْ كَصَاحِبَةِ امْرِئِ الْقَيْسِ - لَمَا قَالَ لَهَا: «مَتَيْتَنَا بَعْدَ، وَبَعْدَ غَدٍ، حَتَّى يَخْتِ كَأَسْوَأِ الْبَخْلِ»

أبو الهذيل العلاف

وَيُحْكِي عَنْ «أَبِي الْهَذَايِلِ الْعَلَّافِ» أَنَّهُ كَانَ يَمُرُّ فِي الْأَسْوَاقِ عَلَى حِمَارٍ وَيَقُولُ: «يَا قَوْمِ: أَحْذَرُوا تَوْبَةَ غُلَامِي!» وَكَانَ لَهُ غُلَامٌ يُعِدُّ نَفْسَهُ التَّوْبَةَ، فَسَقَطَتْ عَلَيْهِ آجُرَةٌ، فَقَتَلَتْهُ...

بدء التعارف بين المعري وابن القارح

وَأَوَّلُ مَا سَمِعْتُ بِأَخْبَارِ الشَّيْخِ، مِنْ رَجُلٍ وَاسِطِيٍّ، يَتَعَرَّضُ لِعِلْمِ الْعَرُوضِ،

(١) الفضخ: الكسر، ولا يكون إلا في شيء أجوف نحو الرأس والبطيخ. ويقال:

فضخ عينه، أي: فقأها

ذَكَرَ أَنَّهُ شَاهَدَهُ بِنَصِيْبَيْنِ ، وَفِيهَا رَجُلٌ يُعْرَفُ بِأَبِي الْحُسَيْنِ الْبَصْرِيِّ ، مُعَلِّمًا
لِبَعْضِ الْعُلَمَاءِ ، وَكَانَ غُلَامٌ يَخْتَلِفُ إِلَيْهِ يُعْرَفُ « بِابْنِ الدَّانِ » وَقَدْ اجْتَاَزَ
الشَّيْخُ بِلَدْنَاهُ - وَالْوَاسِطِيُّ يَوْمَئِذٍ فِيهِ - وَقَدْ شَاهَدْتُ عِنْدَ أَبِي أَحْمَدَ عَبْدَ السَّلَامِ
- رَحِمَهُ اللَّهُ - كُتِبًا عَلَيْهَا سَمَاعُ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ حَلَبَ ، وَمَا أَشْكُ أَنَّهُ الشَّيْخُ ،
وَهُوَ لَا يَفْتَقِرُ إِلَى تَعْرِيفٍ بِالْقَرِيضِ ، كَمَا قَالَ الطَّائِيُّ :
تَحْمِيهِ لِأَلَاؤِهِ - أَوْ لَوَدَعِيْتَهُ - مِنْ أَنْ يُدَالَ بِنَنْ ، أَوْ يَمِّنَ الرَّجُلُ ؟

أمانرة ابن القارح

وَأَمَّا الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ لَقِيْتَهُمْ ، فَأُولَئِكَ مَصَابِيحُ النَّاجِيَةِ ، وَكَوَاكِبُ الدَّاجِيَةِ ،
وَإِنَّ فِي النَّظَرِ إِلَيْهِمْ لَشَرَفًا ، فَكَيْفَ يَمِّنُ اغْتَرَفَ - مِنْ سُكْلِ بَحْرِ وَجَدَ -
غُرْفًا ؛ وَإِنَّمَا أَقُولُ ذَلِكَ عَلَى الْاِقْتِصَارِ ، وَلَعَلَّهُ قَدْ نَزَفَ بِحَارَمِهِ بِالْقَلَمِ وَالْفَهْمِ ،
وَسَهَّلُوا لَهُ مَا صَعَبَ مِنْ جِبَالِ الْعَرَبِيَّةِ

حجج ابن القارح

وَأَمَّا حِجْجُهُ الْخُمْسُ ، فَهُوَ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - يَسْتَعْنِي فِي الْحُشْرِ بِالْأَوْلَى
مِنْهُمْ ، وَيَنْظُرُ فِي الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، فَلَا رَيْبَ أَنَّهُ يَجِدُ فِيهِمْ مَنْ لَمْ
يَحْجُجْ ، فَيَتَصَدَّقُ عَلَيْهِمْ بِالْأَرْبَعِ وَكَأَنِّي بِهِ ، وَعَمَّا عِمُّ الْحَجِيحِ ، يَرْفَعُونَ التَّلْبِيَةَ
بِالْحَجِيحِ ، وَهُوَ يُفَكِّرُ فِي تَلْبِيَاتِ الْعَرَبِ ؛ وَأَنَّهَا جَاءَتْ عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ :
مَسْجُوعٍ لَا وَزْنَ لَهُ ، وَمَنْهُوكِ ، وَمَشْطُورٍ ... !

*

وَكَأَنِّي بِهِ لَمَّا اغْتَرَمَ عَلَى اسْتِئْلَامِ الرُّكْنِ ، وَقَدْ ذَكَرَ قَوْلَ الْقَائِلِ :

ذَكَرْتُكَ وَالْحَجِيحُ لَهُ عَجِيحٌ بِمَكَّةَ ، وَالْقُلُوبُ لَهَا وَجِيحٌ

فَقُلْتُ - وَنَحْنُ فِي بَلَدٍ حَرَامٍ - بِهِ - اللَّهُ - أَخْلَصَتِ الْقُلُوبُ :
« أَتُوبُ إِلَيْكَ يَا رَبَّاهُ - مِمَّا جَنَيْتُ - فَقَدْ تَظَاهَرَتِ الذُّنُوبُ
فَأَمَّا مِنْ هَوَى « لَيْلَى » وَحُبِّي زِيَارَتَهَا ، فَإِنِّي لَا أَتُوبُ ! »
وَلَعَلَّهُ قَدْ ذَكَرَ هَذِهِ الْأَيَّاتِ فِي الطَّوَافِ :

أَطُوفُ بِالْبَيْتِ - فِيمَنْ يَطُوفُ وَأَرْفَعُ مِنْ مِثْرَى الْمُسْبَلِ
وَأَسْجُدُ بِاللَّيْلِ حَتَّى الصَّبَاحِ وَأَتَلُو مِنَ الْمُحْكَمِ الْمُنْزَلِ
عَسَى فَارِجُ الْكَرْبِ عَنْ يُوسُفَ يُسَخِّرُنِي لِي رَبَّةَ الْمِحْمَلِ
وَذَكَرَ عِنْدَ تَفَرُّقِ النَّاسِ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ :

وَدَعَى الْقَلْبَ « يَا قَرِيبُ » وَجُودِي لِمُحِبِّ فِرَافُهُ قَدْ أَحْمَا
لَيْسَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ إِلَّا أَنْ يَرُدُّوا جِهَالَهُمْ قَتْرَمَا
وَكَأَنِّي بِهِ وَقَدَّمَرًا بِأَنْطَاكِيَّةَ ، فَذَكَرَ قَوْلَ امْرِئِ الْقَيْسِ :
عَلَوْنَ بِأَنْطَاكِيَّةٍ فَوْقَ عَقْمَةٍ كَجَرِمَةِ نَحْلِ ، أَوْ كَجَنَّةِ يَثْرِبِ

أبو الطيب اللغوي

وَأَمَّا أَبُو الطَّيِّبِ اللُّغَوِيُّ ، وَاسْمُهُ « عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنِ عَلِيٍّ » وَلَا أَشْكُ أَنَّهُ
قَدْ ضَاعَ كَثِيرٌ مِنْ كُتُبِهِ وَتَصْنِيفَاتِهِ ، لِأَنَّ الرُّومَ قَتَلُوهُ وَأَبَاهُ ، فِي فَتْحِ
حَلَبَ . وَكَانَ « ابْنُ خَالَوَيْهِ » يُلقَبُهُ « دُحْرُوجَةَ الْجَبَلِ » لِأَنَّهُ كَانَ قَصِيرًا .
وَقَدْ كَانَ « أَبُو الطَّيِّبِ اللُّغَوِيُّ » بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي الْعَبَّاسِ بْنِ كِلَابٍ « الْبَكْتَمَرِيُّ »
مَوَدَّةً وَمُؤَانَسَةً ، وَلَهُ يَقُولُ :

يَا عَبْدَ (١) ! إِنَّكَ عِنْدَ الْقَلْبِ جَنَّتُهُ حُبًّا ، وَإِنَّكَ - عِنْدَ الطَّرْفِ - نَاطِرُهُ

(١) يريد « يا عبد الواحد »

أَزْمَعْتَ سَيْرًا، فَقُلْ مَا أَنْتَ قَائِلُهُ وَاذْكُرْ لِرَاعِي الْهَوَى مَا أَنْتَ ذَاكِرُهُ
لَا أَشْتِكِي سَهْرًا طَالَتْ مَسَافَتُهُ اللَّيْلُ يَعْلَمُ أَنَّ الدَّهْرَ سَاهِرُهُ
وَقَدْ كَانَ « أَبُو الطَّيِّبِ » يَتَعَاطَى شَيْئًا مِنَ النَّظْمِ .

وَقَدْ عَلَّمَ اللَّهُ أَنِّي لَا فِي الْعَيْرِ وَلَا فِي النَّفِيرِ، كَلِمًا رَغِبْتُ فِي الْحُمُولِ، قُدِّرَ
لِي غَيْرُ الْمَسَامُولِ . كَانَ حَقُّ الشَّيْخِ - إِذْ أَقَامَ فِي « مَعْرَةَ النُّعْمَانِ » سَنَةً - أَلَّا
يَسْمَعَ لِي بِذِكْرٍ، وَلَا أَخْطُرُ لَهُ عَلَى فِكْرٍ، وَالْآنَ قَدْ غَمَّرَ إِفْضَالُهُ، وَأَظْلَمَنِي
دَوْحُ أَدْبِهِ . وَهُوَ كَرِيمُ الطَّبَعِ، وَالكَرِيمُ يُخَدِّعُ، وَمَنْ سَمِعَ جَازًا أَنْ يَخَالَ!

ابن القارح في مصر

وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ مِنْ مَيْلِهِ فِي مِصْرَ إِلَى بَعْضِ اللَّذَاتِ، فَهُوَ يَعْرِفُ الْحَدِيثَ:
« أَرِيحُوا الْقُلُوبَ تَعِ الذِّكْرَ » وَقَالَ أَحْيَحَةُ بْنُ الْجَلَّاحِ:

صَحَوْتُ عَنِ الصَّبَا، وَاللَّهُوَ غُولٌ وَنَفْسُ الْمَرْءِ - آوَنَةٌ - مَلُوكٌ
وَقَدْ عَاشَرَ مَلُوكًا وَوُزَرَءًا، وَقَدْ سَمِعَ أَنْبَاءَ النُّعْمَانِ الْأَكْبَرِ، إِذْ فَارَقَ مُلْكُهُ،
وَتَعَوَّضَ مِنَ الْحَرِيرِ الْمُسْوَحِ، وَإِيَّاهُ عَنَى الْعِبَادِيُّ^(١) فِي قَوْلِهِ:

وَتَذَكَّرْتُ رَبَّ الْخَوَزَنْقِ إِذْ فَكَّرَ يَوْمًا، وَلِلْهَدَى تَفْكَيرُ
سَرَّهُ مُلْكُهُ وَكَثْرَةُ مَا يَمْلِكُ، وَالْبَحْرُ مَعْرَضًا، وَالسَّدِيرُ
فَارَعَوَى جَهْلُهُ، فَقَالَ: « وَمَا غِبْطَةٌ حَتَّى إِلَى الْمَمَاتِ يَصِيرُ » ؟

الهنود والخرم

وَالشُّكْرُ^(٢) مُحْرَّمٌ فِي كُلِّ الْمَلَلِ، وَيُقَالُ: إِنَّ الْهِنْدَ لَا يَمْلِكُونَ عَلَيْهِمْ
رَجُلًا يَشْرَبُ مُسْكِرًا، لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ مُسْكِرًا، وَيَقُولُونَ: يَجُوزُ أَنْ يَخْدُثَ فِي

(١) هو عدى بن زيد، وترجمته في ج ٢ ص ٨ و ٩ (٢) ارجع إلى ص ٣٠٤ و ٣٠٥ و ٣٠٦ في هذا الجزء

الْمَمْلَكَةِ نَبَأً، وَالْمَلِكُ سَكْرَانٌ « لُعِنَتِ الْقَهْوَةُ !

*
* *

وَيَبْغَى أَنْ يُرْهَدَهُ فِي الصَّهْبَاءِ، أَنْ نَدَامَاهُ الْأَكْرَمِينَ أَصْبَحُوا فِي الْأَجْدَاثِ الْعَافِيَةَ،
كَمْ جَلَسَ مَعَ فِثْيَانٍ، أَتَى عَلَيْهِمُ الزَّمَنُ كُلَّ الْإِثْيَانِ، فَكَانَ كَمَا قَالَ الْجَعْدِيُّ^(١) :
تَذَكَّرْتُ وَالذِّكْرَى تَهِيحُ لِي الْهَوَى وَمِنْ حَاجَةِ الْمُحْزُونِ أَنْ يَتَذَكَّرَا
نَدَامَايَ عِنْدَ الْمُنْذِرِ بْنِ مُحَرَّقٍ فَأَصْبَحَ مِنْهُمْ ظَاهِرُ الْأَرْضِ مُقْفِرًا
وَهُوَ يَعْرِفُ الْأَيَّاتَ الَّتِي أَوْهَى :

خَلِيلِيَّ ! هُبَّا، طَالَمَا قَدْ رَقَدْتُمَا أَجِدُّكُمْ لَا تَقْضِيَانِ كِرَامِكُمَا
وَهَلْ يَعِجْزُ أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ الْآخَرُ :

أَمَّا الطَّلَاءُ، فَإِنِّي لَسْتُ ذَائِقَهَا حَتَّى الْأَقَى بَعْدَ الْمَوْتِ جَبَّارًا !

دنانير ابن القارح

وَسَرَّتْنِي فَيْئَةُ^(٢) الدَّنَائِرِ إِلَيْهِ، فَتَلَكَ أَعْوَانُ، تَشْتَبِهُ مِنْهَا الْأَلْوَانُ، وَلَهَا عَلَى
النَّاسِ حُقُوقٌ، تَبْرُّ إِنْ خِيفَ عُقُوقٌ - قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ لِمُعَاوِيَةَ :
« رَأَيْتُ فِي النَّوْمِ أَنَّ الْقِيَامَةَ قَدْ قَامَتْ، وَجِئْتُ بِكَ وَقَدْ أَجْمَكَ الْعَرَقُ ! »
فَقَالَ مُعَاوِيَةَ : « هَلْ رَأَيْتَ شَيْئًا مِنْ دَنَائِرِ مِصْرَ شَيْئًا ؟ ! »

وَهَذِهِ - لَارِيْبَ - مِنْ دَنَائِرِ مِصْرَ، لَمْ تَجِيْ مِنْ عِنْدِ الشُّوْقِ، وَلَكِنْ مِنْ
عِنْدِ الْمُلُوكِ، وَلَمْ تَكُنْ مَهْرَ هَلُوكِ . فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَمَّاهَا إِلَى هَذَا الْوَقْتِ،
وَلَمْ تَكُنْ كَذَهَبٍ مَحْزُونٍ، صَارَ إِلَى الْخُمَارَةِ مَعَ الْمُوَزُونِ، كَمَا قَالَ :

(١) هو نابغة بنى جعدة ، وترجمته في ج ٢ ص ٣٨ (٢) عودة

وَحَمَارَةٌ مِنْ بَنَاتِ الْمَجُوسِ تَرَى الزُّقَّ - فِي بَيْتِهَا - سَائِلًا
 وَزَنَانًا لَهَا ذَهَبًا جَامِدًا ، فَكَالَتْ لَنَا ذَهَبًا سَائِلًا
 أُخِذَتْ مِنْ جَوَائِزِ كِرَامِ صَيْدٍ ، تَارَةً بِاخْدَمَةٍ وَتَارَةً بِالْقَصِيدِ ؛ وَلَمْ تَكُنْ
 فِي الْعَبْدِيَّةِ مُرَهَّنَاتٍ ، وَلَا - عِنْدَ الْغَرَضِ - مُوهَّنَاتٍ ! وَهِيَ عِنْدَ الْبَلَاءِ
 وَالْكَيْسِ ، أَجُودٌ مِنَ الْخَلَاتِمِ الَّذِي ذَكَرَهُ « ابْنُ قَيْسٍ » ، فَقَالَ :
 إِنْ خُتِمَتْ ، جَارَ طِينُ خَاتِمِهَا كَمَا تَجُوزُ الْعَبْدِيَّةُ الْعُنُقُ (١)

بائع كبنه

وَلَوْ أَخَذَ مِثْلَهَا النَّادِمُ عَلَى بَيْعِ كُمَيْتِهِ ، لَأَسْكَنْتِ الْبَهْجَةَ فِي خَلْدِهِ (٢) وَبَيْتِهِ ،
 وَلَمْ يَأْسَفْ أَنْ عُوضَ حِمَارًا مِنْ فَرَسٍ ، وَلَوْ جِدَّ - عَلَى الشُّكُوفِ -
 ذَا خَرَسٍ ، وَلَمْ يَقُلْ :

نَدِمْتُ عَلَى بَيْعِ « الْكُمَيْتِ » وَإِنَّمَا
 وَلَمَّا أَتَانِي بِالْذَّنَائِرِ سَائِمِي
 وَقَالَتْ : « أَيْمُ الْبَيْعِ ، وَاشْتَرِ غَيْرَهُ ،
 فَأَنْفَقْتُ فِيهِمْ مَا أَخَذْتُ - وَلَمْ يَزَلْ
 إِلَى أَنْ تَدَاعَى الْجُنْدُ بِالْغَزْوِ - وَأَنْجَلَتْ
 وَأَعُوزَنِي مِنْ مَهْرٍ - يَكُونُ مَكَانَهُ -
 حَيَاةُ الْفَقِي هَمٌّ لَهُ وَخَسَارٌ
 أَصَاخَتْ ، وَهَشَّتْ - لِلْبَيْاعِ - « نَوَارٌ »
 فَوَلَّكَ - فِي الْمَشْتَا - بَنُونَ صِفَارٌ
 لَدَى شَرَابٍ رَاهِنٍ (٣) ، وَقُتَارٌ (٤)
 غَيُومٌ شِتَاءٍ - سُحْبُهُنَّ غِزَارٌ
 كَأَنَّ لَيْسَ - بَيْنَ الْعَالَمِينَ - مَهَارٌ

(١) قال أبو العلاء : « أراد بالعبدية دنانير نسبها إلى عبد الملك بن مروان » وقد ضرب
 دنانير باسمه، وفي عهده بنى الحجاج داراً للسُّكَّةِ في العراق، فكانت ترسل منها الدنانير المضروبة إلى
 سائر الممالك الإسلامية (٢) الخلد : القلب (٣) معد حاضر (٤) الدخان من المطبوخ، فهو دليل عليه

وَسَارَ - عَلَى الْخَيْلِ الْمُغَدَّةِ - صَاحِبِي ، وَسِرْتُ ، وَتَحْتِي - لِلشَّقَاءِ - حَمَارًا !

وَلِلَّهِ الْمَتَّةُ كَمَا نَجَّاهَا - بِالْقَدْرِ - مِنْ بُكُورٍ ، لَيْسَ مِنْ بَكَرِهِ بِالْمَشْكُورِ ،
يَحْمِلُ مَعَهُ دَنَايِرَ ، وَلَا يَصْحَبُ مِنَ الْقَوْمِ صَنَائِرَ (١) ، فَيَقِيمُ بِهِمْ فِي الدَّسْكَرِ
أَيَّامًا ، أَيْقَاطًا - فِي الشُّكْرِ - أَوْ نِيَامًا ، فَتَفْنِي الذَّهَبَ ، قَالَ الْجَعْدِيُّ (٢) :
وَدَسْكَرَةٌ - صَوْتُ أُبُوَابِهَا كَصَوْتِ الْمَوَاتِحِ فِي الْحَوَابِ (٣)
سَبَقَتْ إِلَيْهَا صِيَاخَ الدِّيُوكِ وَصَوْتُ نَوَاقِيسَ ، لَمْ تُضْرَبْ
وَقَالَ آخَرُ :

وَقَبْضَةٌ مِنْ دَنَايِرٍ غَدَوْتُ بِهَا لِلدَّسْكَرِيِّ - وَحَوْلِي فَتِيَّةٌ سُمِّحُ
وَلَمْ يَزَلْ - ثُمَّ - يَسْقِينَا ، وَيَأْخُذُهَا حَتَّى اسْتَقَلَّ بِمَا فِي الصَّرَّةِ الْقَدْحُ !

وَدَنَايِرُهُ - بِإِذْنِ اللَّهِ - مُقَدَّسَاتٌ ، وَإِنْ كَانَتْ زَائِدَةً عَلَى الثَّمَانِينَ ، فَقَدْ
أَوْفَتْ عَلَى عِدَّةِ أَصْحَابِ « مُوسَى » الَّذِينَ جَاءَ فِيهِمْ : « وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ
سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا » وَعَلَى عِدَّةِ الْإِسْتِغْفَارِ فِي قَوْلِهِ : « إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ
سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ » وَعَلَى عِدَّةِ أَذْرُعِ السَّلْسِلَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :
« فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا ، فَاسْلُكُوهُ » .

وَلَوْ كَانَتْ سِنُورُ « زُهَيْرٍ » مِثْلَهَا ، لَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِالسَّامَةِ ، وَلَوْ أَدْرَكَهُ
عُرْوَةُ بْنُ حَزَامٍ ، وَهُوَ يَقُولُ :
يُكَلِّفُنِي عَمِّي ثَمَانِينَ نَاقَةً وَمَالِي يَا « عَفْرَاءُ » غَيْرُ ثَمَانٍ (٤)

(١) الصنابير: البخلاء، جمع صنوبر (٢) ارجع الى ترجمته في (ج «٢» ص ٣٨)

(٣) الدلو (٤) انظر قصيدته الجميلة التي منها هذا البيت في ذيل الأمل

لَجَازَ أَنْ يَرِقَّ لَهُ ، فَيُعِيثُهُ مِنْ هَذِهِ الثَّمَانِينَ بِيَعِضِهَا ، أَوْ يَسْمَحَ لَهُ بِكُلِّهَا ،
لأنه كريم طبع . ولو صارت في يد عروّة هذه الثمانون ، لبلغ بها الأُمِّيَّة ،
لأنّ الناقة في ذلك الزمان كانت رُبَّمَا اشترت بعشرة دراهم . وفي بعض
أخبار الفرزدق ، أنّ رجلاً من ملوك بني أمية أعطاه مائة من إبل الصدقة ،
فباعها بألف وخمسمائة درهم ، بعد ما عني به ، وزيد في الثمن .

الجمل في زمن المنصور

وقد مرّت به الحكاية التي يذكُرُها أصحابُ التاريخ : « أنّ الجمل كان يُباعُ
في زمن أبي جعفر المنصور بدرهم ، وأنه صادَرَ قَوْمًا مِنْ أَصْحَابِهِ . وَكَانَتْ لَهُمْ نِعَاجٌ ،
فَبَاعُوهَا ثَمَانِي نِجَاجٍ بِدِرْهَمٍ » هذا ما وجدَ بخط الميرزباني^(١) في تاريخ ابن شجرة .

فضل الذهب

وهي أنصر^(٢) من الثمانين التي ذكرها العلوي البصري في قوله :
عبرت إليهم في ثمانين فارسًا فأدركت منهم بُعيتي ومُراديا
لله درّ الذهب من خليل^(٣) ، فإنه يفيّ بظلّ ظليل ، ما هو - كغيره - بال .

(١) ترجمته في ج ٢ ص ١٠٤ (٢) أكثر نصرة (٣) من أجل ما قرأناه في

وصف الدينار مدحا وذما ، قول « الحريري » في مقامته الثالثة في مدحه :

أكرم به أصفر - راقص صفرته جواب آفاق - ترامت سفرته
مأثورة سمعته وشهرته قد أودعت سر الغنى أسرته
وقارت - نبح المساعي - خطرته وحببت - إلى الأنام - غرته
كلأما - من القلوب نقرته به يصول من حوته صرته

وإن تفانت - أو توانت - عترته !

والذُرُّ إِذَا كَسِرَ ذَهَبَتْ قِيَمَتُهُ، وَرُبَّ ذَهَبٍ فِي سِوَارٍ، جُعِلَ فِي خَلْخَالٍ، ثُمَّ نُقِلَ
إِلَى جَامٍ أَوْ كَاسٍ، وَهُوَ - بِحَسَنِهِ - مَا تَغْيِرُ لِبَشَارِ النِّيرَانِ !

ابنة أخته

وَأَمَّا ابْنَةُ الْأَخْتِ، فَإِنَّهَا أَدَلَّتْ عَلَى الْخَالِ - إِذْ كَانَ أَحَدَ الْوَالِدَيْنِ ! وَلَا تَجْعَلُهَا
أَخْتًا لِلْهَجْرَسِ لِأَنَّهُ طَالِبَ خَالِهِ بِنَارٍ، فَلَمْ يَقْبَحْ مَا فَعَلَ مِنَ الْآثَارِ

يا حبذا نضاره ، ونضرته وحبذا مغناته ونضرته
كم أمر ، به استتبت إمرته ، ومترف - لولاه - دامت حسرته
وجيش هم - هزمته كرته ومستشيط ؛ تتلظى جمرته
أسرَّ نجواه - فلانت شرته ، وكم أسير أسلمته أسرته
أنقذه - حتى صفت مسرته

وحق مولى أبداعته فطرته - لولا التقي - لقلت: «جلت قدرته!»

*
* *

ثم ذمه - بعد ذلك - في المقامة نفسها - فقال :

تبًا له ! من خادع مماذق أصفر - ذى وجهين - كاللنافق
يبدو بوصفين ، لعين الرامق زينة معشوق ، ولون عاشق
لولاه - لم تقطع يمين سارق ولا بدت مظلمة من فاسق
ولا اشتمأز من بخيل طارق ولا شكا المطول مطل العائق
ولا استعيد من حسود راشق وشر ما فيه من الخلائق
أن ليس يعنى عنك في المضايق ، إلا إذا فر فرار الآبق

*
* *

وهاً لمن يقذفه من حلق ، ومن - إذا ناجاه نجوى الوامق -
قال له - قول المحب الصادق - : « لا رأى في واصلك لى ، ففارق ! »

« قاتل ماله »

ولكن تُشبهه أن تكون أختاً لابن مُضَرِّس - حين فانتشها الأخوة من الهجرس!
وهو المعروف بالحثوث ، واسمه « توبة » وكان له أخ يُقال له : « طارق »
فقتله رهط خاله ، فرأى أن يقتل خاله ، وقال :

بَكَتْ جَزَعًا أُحَى « رَمِيْلَةٌ » أَنْ رَأَتْ دَمًا - مِنْ أُخِيهَا - فِي الْمَهْدِ بَادِيًا
فَقُلْتُ لَهَا : « لَا تَجْزَعِي ، إِنَّ طَارِقًا حَمِيمِي ، الَّذِي كَانَ الْخَلِيلَ الْمُصَافِيَا »
« وَمَا كُنْتُ - لَوْ أُعْطِيتُ الْفَى نَجِيمَةً وَأَوْلَادَهَا - لَعَوًّا (١) تُسَاقُ - وَرَاعِيَا »
« لِأَرْضَى بَوْتِرٍ مِنْهُمْ - دُونَ أَنْ أَرَى دَمًا مِنْ « بَنِي عَوْفٍ » عَلَى السَّيْفِ جَارِيَا »
« وَمَا كَانَ فِي « عَوْفٍ » دَمٌ لَوْ أَصَبْتُهُ لِيُوفِيَنِي - مِنْ طَارِقٍ - غَيْرَ خَالِيَا ! »

أدب الخوولة

ويجوز أن يكون قد وشج إلى هذه المرأة شيء من أدب الخوولة ، فليتنق
معرفة بيانها ، أكثر من اتقائه خلصة بناتها !

فهو يعلم أن الشعرَ ورثه « زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُهْلٍ » من خاله « بَشَامَةَ بْنِ
الغدير » ولم يكن في « مُزَيْنَةَ » شعرٌ يُذكر . وحضره « زُهَيْرٌ » عند الوفاة ،
فأراد أن يُعْطِيَهُ شيئًا من ماله ، فقال « بَشَامَةُ » : « أَمَا يَكْفِيكَ أُنَى وَرَثَتِكَ
غَرَائِبَ الْقَصِيدِ ؟ »

غريزة المرأة

وربما كان في نساء « حَلَبَ » شَوَاعِرٌ ، فلا يأمنُ من أن تكونَ هذه منهنَّ ،
فطالما كنَّ أَجْوَدَ غَرَائِرَ من رِجَالِهِنَّ !

(١) اللغو : ما لا يُعَدُّ في الدِّية ، قال جرير : « كما أُلغيت - في الدِّية - الحُورَا »
والحُوراء : ولد الناقة من حين يرضع إلى أن يفظم ويفصل عن أمه .

وَحَدَّثَ رَجُلٌ ضَرِيرٌ، مِنْ أَهْلِ «آمِدَ» يَحْفَظُ الْقُرْآنَ، وَيَأْنَسُ بِأَشْيَاءَ مِنْ الْعِلْمِ، أَنَّهُ كَانَ - وَهُوَ شَابٌ - لَهُ امْرَأَةٌ مُقَيَّمَةٌ (تُزِينُ النِّسَاءَ فِي الْأَعْرَاسِ) وَكَانَ يُنَجِّمُ عَلَى الطَّرِيقِ، وَكَانَتْ لَهُ قُرْعَةٌ^(١) فِيهَا أَشْعَارٌ - كَنَحَوِ مَا يَكُونُ فِي الْقُرْعِ - وَكَانَ يَعْتَمِدُ حِفْظَ تِلْكَ الْأَشْعَارِ وَيَدْرُسُهَا فِي بَيْتِهِ - وَلَا غَرِيزَةَ لَهُ فِي مَعْرِفَةِ الْأَوْزَانِ، فَيَكْسِرُ الْبَيْتَ، فَتَقُولُ لَهُ امْرَأَتُهُ الْمَاشِطَةُ: «وَيْلِي! مَا هَذَا جَيْدًا!» فَيَلَاجُهَا - وَيَزْعَمُ أَنَّهَا مَخْطِئَةٌ! . . .

فَإِذَا أَصْبَحَ مَضَى، فَسَأَلَ مَنْ يَعْرِفُ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَهُ بِأَنَّ الصَّوَابَ مَعَهَا، وَعَرَفَهُ كَيْفَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ؛ فَإِذَا لَقِنَهُ عَنْهُ، عَادَ فِي اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ، فَذَكَرَهُ - وَقَدْ أُصْلِحَ - فَتَقُولُ الْمَاشِطَةُ: «هَذَا السَّاعَةَ جَيْدًا»

*

وَكَانَ لِي كَرِيٌّ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ يَعْرِفُ بَعْلَوَانَ، وَهِيَ امْرَأَةٌ، تَزْعَمُ أَنَّهَا مِنْ «طَيِّ» فَكَانَ لَا يَعْرِفُ مَوْزُونَ الْآيَاتِ مِنْ غَيْرِهِ، وَكَانَتْ الْمَرْأَةُ تُحْسِبُ بِذَلِكَ، وَكَانَتْ تَتَأَسَّفُ عَلَى طِفْلِ مَاتَ لَهَا، يُقَالُ لَهُ: «لَاجِبٌ» وَكَانَتْ تَتَشَدَّى هَذَا الْبَيْتَ:

«إِذَا كُنْتُ مِنْ جَرًّا رَجِيْبِكَ مُوجِعًا فَلَا بُدَّ - يَوْمًا - مِنْ فِرَاقِ حَبِيْبِ»

فَقَالَتْ يَوْمًا: «إِذَا كُنْتُ مِنْ جَرًّا رَجِيْبٍ مُوجِعًا» فَعَلِمْتُ أَنَّ الْوِزْنَ مُخْتَلٌ، فَقَالَتْ: «إِذَا كُنْتُ مِنْ جَرًّا رَجِيْبٍ مُوجِعًا»، فَحَرَكْتُ التَّنْوِينَ، وَأَنْكَرْتُ تَحْرِيكَهُ بِالطَّبَعِ، فَقَالَتْ: «إِذَا كُنْتُ مِنْ جَرًّا رَجِيْبِكَ مُوجِعًا» فَأَضَافْتُهُ إِلَى الْكَافِ، فَاسْتَقَامَ الْوِزْنَ وَاللَّفْظُ!

وَفِي الْكِتَابِ الْعَزِيْزِ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ، وَإِنْ تَعَفَوْا وَلَتَنْفَحُوا وَتَعَفَرُوا، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»

أبو بكر الشبلي

وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ الشَّبْلِيُّ — رَحِمَهُ اللهُ — فَلَا رَيْبَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْفَضْلِ ،
وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ سَالِمًا مِنْ مَذْهَبِ الْخُلُولِيَّةِ ، وَأَنْشَدَنِي لَهُ مُنْشَدٌ :

« بَاحٌ مَجْنُونٌ عَاوِرٌ بِهَوَاهُ وَكَتَمْتُ الْهُوَى فَفَزْتُ بِوَجْدِي
وَإِذَا كَانَ فِي الْقِيَامَةِ نُودِي : أَيْنَ أَهْلُ الْهُوَى ؟ تَقَدَّمْتُ وَحْدِي ! »

فَإِنْ صَحَّ أَنْ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ لَهُ . فَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَمْتَرِضَ عَلَيْهِ قَائِلٌ ، فَيَقُولَ :
« إِنَّ ادِّعَاءَهُ الْإِنْفِرَادَ مِنَ الْعَالَمِ ، لَا يُسَلِّمُهُ إِلَيْهِ الْبَشَرُ ، إِنْ كَانَ هَوَاهُ لِلْمَخْلُوقِينَ
أَوْ الْخَالِقِ فَلَهُ فِي الْأَمَمِ نَظْرَاءٌ كَثِيرٌ »

ختم الرسالة

وأنا أعتذرُ إلى مولاي الشيخ الجليل ، من تأخيرِ الإجابة ، فإن عوائقَ الزمنِ
منعت من إيملاءِ السَّوْدَاءِ ، وأنا مُسْتَطِيعٌ بِغَيْرِي ، فَإِذَا غَابَ الْكَاتِبُ فَلَا إِمْلَاءَ ؛
وَلَا يَنْكُرُ الْإِطَالَةَ عَلَيَّ ، فَإِنَّ الْخَالِصَ مِنَ النَّضَارِ ، طَالَمَا اشْتَرَى بِأَضْعَافِهِ — فِي الزَّيْنَةِ —
مِنَ اللَّحْيَيْنِ ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الثَّمَنُ مِنَ النَّفِيَّاتِ ^(١) اللَّائِي يَوْجَدُنَ فِي الطَّرِيقِ مَرْمِيَّاتٍ ؟
وَعَلَى حَضْرَتِهِ الْجَلِيلَةِ سَلَامٌ ، يَتَّبِعُ قَرُومَهُ ^(٢) فَالَهُ ^(٣) ، وَتَلْحَقُ بِعُودِهِ ^(٤) أَطْفَالَهُ .

﴿ تمت رسالة الغفران ، وانتهى الجزء الثالث ﴾

(١) جمع نفية وهي ما تنفيه الحوافر من حصى وغيره ، ومعناها هنا الأشياء الحفيرة

التافهة (٢) جمع قرم وهو البعير أو الفحل (٣) جمع أفيل وهو صغير الإبل

(٤) جمع عائد وهي الناقة الحديثة العهد بالتاج .

الجزء الرابع

نصوص ودراسات

ملقى السبيل،^(١)

١ - كَمْ يَجْنِي الرَّجُلُ وَيُخْطِئُ ، وَيَعْلَمُ أَنَّ حَتْفَهُ لَا يُبْطِئُ :
إِنَّ الْأَنَامَ لَيُحْطِئُونَ ، وَيَغْفِرُ اللَّهُ الْخَطِيئَةَ

(١) قبسنا هذه الرسالة من رسائل البلغاء التي جمعها الأستاذ محمد كرد علي بك ، وعيننا بضبطها وشرحها ، ورد المحرف فيها إلى وجهه .

وقد مهد لهذه الرسالة سعادة ناقلها أمير اللواء حسن حسني عبد الوهاب حاكم نابُل في تونس ، بمقدمة كتبها في العاشر من ربيع الأول عام ١٣٢٩ نقطف منها ما يلي :

« أما النسخة التي اعتمدنا عليها في النقل فهي محفوظة بمكتبة الاسكريال من بلاد الأندلس تحت نمرة ٤٦٧ ، وهي بخط الراوي لها القاضي الامام الشريف أبي محمد عبد الله ابن القاضي أبي الفضل عبد الرحمن بن يحيى الديباجي العثماني ، رسمها بالاسكندرية أوائل القرن السادس ، وقد اعتنى برسمها وضبط جملها بطريقة ثابتة مدققة . وهي - فيما اعتقده - أقدم نسخة لملقى السبيل ، ولا يبعد أن تكون هي التي عول عليها أدياء الأندلس في معارضاتهم لها فقد جاء في نفتح الطيب : أن الحافظ أبا الربيع الكلاعي الأندلسي المتوفى بالجهاد سنة ٦٣٤ هـ . عارض هذه الرسالة بتأليف سماه : « مفاوضة القلب العليل ، ومنابذة الأمل الطويل ، بطريقة المعري في ملقى السبيل » . كما تحتوي مكتبة الأسكريال نفسها على كتاب (نمرة ٥١٩) من وضع الكاتب الشهير أبي عبد الله محمد بن أبي الخصال وزير يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين ، عارض به « ملقى السبيل » أيضاً . ومن جهة أخرى يوجد بمقدمة النسخة التي لدينا - وهي كما قدمنا صورة فوتوغرافية من الأصل الأندلسي - كثير من الإجازات تنبئ بقراءة هذه الرسالة على أساتذة متضلعين ، تلتحق رواياتهم بالراسم الأول ، نعني عبد الله الديباجي . وأقدم توقيع من هذا النمط مؤرخ سنة ٥٦٢ ، وهو مما يستدل به أيضاً على اهتمام الأندلسيين بتأليف المعري . »

كَمْ مُبِطِثُونَ عَنِ الْجَمِيلِ ، وما منايهم بَطِئَهُ (١)

٢ - ابنُ آدمَ في سَيْرٍ وَسُرَى ، يَهْجُرُ - بِحَرْصِهِ - الكَرَى ، وَطَالَما
كَذَبَ وَافْتَرَى ، لِيَصِلَ إِلَى خَسِيسِ القَرَى ، وَإِنَّمَا يَحْصُلُ عَلَى الثَّرَى ،
كَأَنَّهُ لَا يَسْمَعُ وَلَا يَرَى :

أَمَّا يُفِيقُ المَرءُ مِنْ سُكْرِهِ مُجْتَهِدًا فِي سَيْرِهِ وَالسُّرَى (٢)
نِمْتَ عَنِ الأُخْرَى ، فَلَمْ تَنْشَبْ (٣)
كَمْ قَائِلٍ ، رَاحَ إِلَى مَعْشَرٍ أَبْطَلَ فِيمَا قَالَهُ وَافْتَرَى (٤)
أَبْطَلَ فِيمَا قَالَهُ وَافْتَرَى (٥)

(١) ألم أبو العلاء بهذا المعنى في صور شتى ، فقال في هذه الرسالة (ص ٣٣٧) :

« يجوز أن تبطئ المنايا والخلد - في الدهر - لا يجوز »

وقال في لزومياته :

« هم أسارى منايهم ، فما لهم إذا أناهم أسير لا يفكونه ؟ »
وقال : « أيعلم الليث لما راح مقترساً بأنه - عن قريب - سوف يفترس ؟ »

(٢) السرى : السير ليلًا (٣) قال أبو العلاء :

فما نفيق من السكر المحيط بنا
(٤) قال في وصف الواعظ الكاذب :

« يقول : لقد غدوت بلا كساء وفي لذاته رهن الكساء ! »

(٥) قال أبو العلاء :

يفعدو إلى المين من قلت دراهمه
وقال : طلب الخسائس ، وارتقى في منبر
فيجمع المال ما يفري ويختلق
وقال : ويكون غير مصدق بقيامة
يصف الحساب لأمة ليهولها
أضحى يمثل في النفوس ذهولها
وقال : لا يعجبك خطيب قام في ملائ
بخطبة زان معناها وطولها
من ذى مقال على ناس تحوّلها
فما العظا - وإن راعت - سوى حيل

عَلَى الْقَرَارِ^(١) يَحْمِلُ أَثْقَالَهُ وَإِنَّمَا يَأْمُلُ نَزَرَ الْقَرَى^(٢)
يَفْتَقِرُ الْحَى ، وَيُثْرِى ، وَمَا يَصِيرُ إِلَّا جَشْوَةً^(٣) فِي الشَّرَى
اسْمَعُ ، فَهَذَا قَائِلٌ صَادِقٌ أَرَاكَ عُقْبَاكَ ، فَهَلَّا تَرَى ؟
٣ - يَفْتَقِرُ - إِلَى اللَّهِ - الْأَرْبَابُ^(٤) ، وَبِالْكَافِرِ يَحُلُّ التَّبَابُ^(٥) ،
وَتَنْقَطِعُ - بِالْمَوْتِ - الْأَسْبَابُ ، وَفِي الْخَالِقِ تَحَارُّ الْأَلْبَابُ^(٦) :
دَانَتْ - لِرَبِّ الْفَلَكَ - الْأَرْبَابُ وَبِالْكَفُورِ^(٧) يَلْحَقُ التَّبَابُ
كَمْ قُطِعَتْ - لِمَيْتَةٍ - أَسْبَابُ وَافْتَرَقَتْ - بَرِغْمَهَا - الْأَحْبَابُ^(٨)

(١) على الظَّهْرِ (٢) قال المعري :

وإنما حمل التوراة قارئها حبُّ الإنَاوة ، لا حبُّ التلاوات
(٣) كومة ، يقال : « صار فلان جشوة من تراب » أى كومة منه ، وقريب منه قوله :
« جاران : ملك ومسكين ، أتى زمن عليهما ، فتساوى البؤس والترف ! »

(٤) قال أبو العلاء :

« إله الأنام ، ورب الغمام لنا الفقير دونك ، والملك لك ! »

(٥) البوار والخسران (٦) قال أبو العلاء :

« تعالى الله ، وهو أجل قدراً من الإخبار عنه بالتعالى ! »
وقال : « تعالى الله ، وهو بنا خير قد اضطرت - إلى الكذب - العقول بأف الأمر ليس كما تقول »
نقول - على الجواز - وقد علمنا ورب النجوم ، ورب النيبك
وقال : « وإن إلهى - إله السماء - فما زال يهرف حتى ارتبك »
سألت المحدث عن أمره ،

(٧) الكفور والكفران : ضد الإيمان (٨) قال أبو العلاء :

« حلف الدهر جاهداً وهو برُّ إذا حلف

ليبتنَّ كل عية ، إذا نظمه ائتلف »

وقال : « صاح الزمان ، فعاد الجمع مفترقا ، كالضأن لما أحست صوت ربئال »

٤ - النَّفْسُ تَصَرَّفَتْ وَأَنْصَرَفَتْ ، وَالْأَعْضَاءُ تَأَلَّفَتْ ثُمَّ تَلِفَتْ (١) ،
وَالْأَقْضِيَّةُ - بِحَقِّ - هَتَفَتْ : مَا أُعْفِيَتْ الْمَحَلَّةُ لَكِنْ عَفَتْ ، كَمْ سُفِيَتْ
الْمُدْنَفَةُ فَمَا أُسْتَفَّت :

نَفْسُ الْفَتَى - فِي دَهْرِهِ - تَصَرَّفَتْ ، وَأَنْصَرَفَتْ
تَأَلَّفَتْ أَعْضَاءُؤُهُ وَأَفْتَرَقَتْ إِذْ تَلِفَتْ
أَقْضِيَّةُ اللَّهِ دَعَتْ فَأَسْمَعَتْ إِذْ هَتَفَتْ :
مَا أُعْفِيَتْ دِيَارُهُمْ مِنْ الرِّزَايَا ، بَلْ عَفَتْ (٢)
كَمْ سُفِيَتْ (٣) مَرِيضَةٌ - مِنْ مَرَضٍ - فَمَا أُسْتَفَّتْ

(١) قال أبو العلاء :

« جواهر ألفتها قدرة عجب
وقال : « أرى جوهرًا حل فيه عرض
وقال : « وعزيز على خلط الليالى
وقال : « كم صائن عن قبلة خده
وحامل ثقل الثرى جيده
وقال : « نفس الفتى وليت له جسدا
وقال : « والجسم للروح دار طالما لقيت

(٢) قال أبو العلاء :

« أرواحنا ظلمت ، فتلك بيوتها
وقال : « وقد أهلت - بانحنا - دوركم

(٣) أى : كم طلب لها الشفاء .

٥ - مِنْ أَعْظَمِ الْحَدَثِ ، سُكْنَى الْجَدَثِ ^(١) :
يَدُومُ الْقَدِيمُ إِلَهُ السَّمَاءِ وَيَفْنَى - بِإِقْدَارِهِ - مَا حَدَثَ
وَمَا أَرْغَبَ الْمَرْءَ فِي عَيْشِهِ ^(٢) وَلَكِنْ قُصَّارَاهُ سُكْنَى الْجَدَثِ
٦ - الْعَجَبُ بِجَاهِلٍ مُدَاجٍ ، يَأْسُفُ لِبَيْنِ الْأَحْدَاجِ ، وَيَعْصِي
الْمَلِكَ وَاللَّيْلُ دَاجٍ ، وَمَا هُوَ مِنَ الْحَتْفِ بِنَاجٍ :
يَأْيُهَا الْعَافِلُ الْمُدَاجِي وَكَيْلُهُ - بِالسَّقَاهِ - دَاجِي
كَأَنَّمَا عَيْنُهُ - إِذَا مَا تَحَمَّلَ الْحَى - فِي زُجَاجٍ
كَمْ أَعْمَلَ النَّاجِيَّاتِ ^(٣) حِرْصًا وَلَيْسَ مِنْ حَتْفِهِ بِنَاجٍ
رَجَا أُمُورًا ، فَلَمْ تُتَقَدَّرْ وَكُلَّ مَا فِي الْحَيَاةِ رَاجِي ^(٤)

(١) قال أبو العلاء :

« من أعظم الأحداث وضعك غابرا في التراب ، يأكله تراب أخبر »
وقال : « يهال التراب على من ثوى فاه من النبأ الهائل »
ارجع إلى رأيه في الموت (ج ٣ ص ٢٠٥) من هذا الكتاب

وقال : « سيموت محمود ، ويهلك آلك ويدوم وجه الواحد الخلاق »
وقال : « تفادى نفوس العالمين من الردى ولا بد للنفس المشيخة من أخذ »

(٢) قال أبو العلاء :

« والنفس آلفة الحياة ، فدمعها يجرى - لذكر فراقها - منهله »
وقال : « يُسِيئُ امرؤُ منا فيبغض دائماً ودنياك ما زالت تسيئُ وتومقُ
أسرَّ هواها الشيخ والكهل والفتى بجهل ، فمن كل النواظر ترمق
وما هي أهل أن يؤهل مثلها بود ولكن ابن آدم أحق »

(٣) الناجيات : مفردها ناجية ، وهي الناقة السريعة تنجو بمن ركبها (٤) قال أبو العلاء :

« أنشأت تطلب منها غير مسعفة وما لها - أيها الإنسان - أنشيتا »

۷ - إِنَّ ابْنَ آدَمَ لَشَحِيحٌ^(۱)، سَوْفَ يَمْرُضُ - مِنَ الْقَوْمِ - صَحِيحٌ،
تَعْصِفُ - بَعْقَلِهِ - رِيحٌ، فَإِذَا هُوَ لَقِيَ طَرِيحٌ، ثُمَّ يُحْفَرُ لَهُ ضَرِيحٌ،
إِنَّ ذَلِكَ هُوَ التَّبْرِيحُ :

يَأْيُهَا الْمُمْسِكُ الشَّحِيحُ سَيَمْرُضُ السَّالِمُ الصَّحِيحُ
مَالِكٌ : لَمْ تَتَّعِفْ بَعْقَلٍ ؟ هَلْ عَصَفْتَ - بِالْعُقُولِ - رِيحٌ^(۲) ؟
إِنَّ شَيْدَ الْقَصْرِ - فِي سُرُورِ - فَبَعْدَهُ يُحْفَرُ الضَّرِيحُ
يَطْرَحُ أَهْمٌ بِالْمَنَآيَا مَنْ جِسْمُهُ فِي الثَّرَى طَرِيحٌ^(۳)

- وقال : « يود الفتى أن الحياة بسيطة
وقال : « تبغى - من الآمال - ذلة مسعف
وقال : « حسبتم - يا بنى حواء - أمرا
وقال : « بينا امرؤ يتوقى الذئب عن عرض
(۱) قال : « ففرق مالك الجا
وقال : « قر البخيل ، فأمسى من تحفظه
يشكو الشتاء فيرجو أن يدفئه
وقال : « ولبئس نفس المرء نفس حسنت
ورهاء مفسدة أهانت عرضها
وقال : « لعن الحرص ، كم تحكرت قوتاً
(۲) قال : « يتحارب الطبع الذى مزجت به
ويظل يعمل ما سناه بنافع
وقال : « حجبى مثل مهجور المنازل دائر ،
لقد ضل حلم الناس - مذ عهد آدم -
وقال : « نكذب العقل فى تصديق كاذبهم
(۳) قال : « الموت حظ لمن تأهله
- وأن شقاء العيش ليس بييد
تلك المصاعب أتعبت من راضها
فجاءكم الذى لم تحسبوه
أناه ليث - على العلات - يفترس
وخل الأرض تسبيلا
يلقى على الجسم ديناراً فدينارا
أوقد صلاةك ، ليس المسجد النارا !
فعل القبيح له ، فنص شنارها
حتى أصيب ، وأكرمت دينارها
ثم خلفت بره والشاميرا
مهج الأنام وعقلهم فيفله
كالشمس ، يسترها الغمام وظله
وجهل كمسكون الديار مشيد
فهل هو من ذاك الضلال نشيد ؟
والعقل أولى بأكرام وتصديق
وليس فى العيش - إن تؤمل - حظ

۸ - بَكَى عَلَى الْمَيِّتِ - مُوَاحٍ ، كَأَنَّ أَجَلَهِ فِي تَرَاحٍ ، فَلْتُنْتَهَ الْبَاكِىةَ
عَنِ الصَّرَاحِ (۱) :

فِي اللَّهِ أَخَى قَتَى لَيْبُ
بَكَى عَلَيْهِ ، فَهَلْ تَرَاهُ
أَعْتَقِدِ الْحَقَّ ، وَأَعْتَمِدْهُ ،
وَأَسْلَمَ الْهَالِكِ الْمُوَاحِي
فِي أَجَلٍ دَائِمٍ التَّرَاحِي
لَا تَزْرَعِ الْحَبَّ فِي السَّبَاخِ !

۹ - أَمَّا بَصْرُكَ فَحَدِيدٌ ، وَأَمَّا ثَوْبُكَ فَحَدِيدٌ ، وَظِلُّكَ - بِقَضَاءِ اللَّهِ -

وقال : « إذا غدوت - بيطن الأرض - مضطجعاً
وقال : « لما ثوت في الأرض - وهى لطيفة -
لم يستريحوا من شرور ديارهم
وقال : « جدث أريج وأستريح بلعده
وقال : « أصبح في لمدى - على وحدتى -
وقال : « ما أعدل الموت من آت وأستره
العيش أفقر منا كل ذات غنى
إذا حياة علينا للأذى فتحت
وقال : « لَكُونْ خَلِكْ فِي رَمْسٍ ، أَعَزَّ لَهُ
فالملك يحتاج أَلْفًا لَتَنْصُرَهُ

(۱) قال أبو العلاء :

« لو يعقلون لهنوا أهل ميتهم
وقال : « إذا مات ابنها صرخت بجهل
ستتبعه - كهطف الغاء - ليست
وقال : « لا تَلْفَيْنِ عَلَى مَنْ مَاتَ مَلْتَهْفًا
ولم تقم لوليد فيهم البُشْرُ
وماذا استفيد من الصراخ ؟
بجمل ، أو كتمَّ على التراخي
فالناشئات - إذا طال المدى - عُجْزُ»

مَدِيدُهُ، وَحَوْلَكَ الْعُدْدُ وَالْعَدِيدُ، وَلَكِنَّكَ سِوَاكَ السَّيِّدُ . طَرَقَكَ وَعَدُّ
وَوَعِيدُ، فَهَلْ تُبْدِي وَهَلْ تُعِيدُ، أَمْ غَيْرُكَ (١) هُوَ السَّعِيدُ ؟ :

أَرَى مَلِكًا (٢) تَخَفُ بِهِ مَوَالٍ لَهُ نَظَرٌ إِلَى الدُّنْيَا جَدِيدُ
صَفَا بُرْدُ الشَّبَابِ عَلَيْهِ حَتَّى مَضَتْ حَقَبُ، وَمَلْبَسُهُ جَدِيدُ
يَزُولُ الْقَيْظُ - فِي صَيْفٍ وَمَشَى - وَيَسْتُرُ شَخْصَهُ ظِلُّ مَدِيدُ
وَفَتْ عُدْدٌ لَدَيْهِ، فَمِنْ دُرُوعٍ وَأَسْيَافٍ، يَنْوَأُ بِهَا عَدِيدُ
وَكَانَ السَّعْدُ صَاحِبَهُ زَمَانًا وَلَكِنْ طَالَمَا شَقِيَ السَّعِيدُ
بَدَا شَخْصُ الْمُنُونِ لِنَاطِرِيهِ وَقِيلَ لَهُ: أَتُبْدِي؟ أَمْ تُعِيدُ؟
تَفَرَّقَتِ الْجُنُودُ، فَمَا حَمَّتْهُ (٣)

(١) في الأصل : « غريك » فأصلحناه كما ترى

- (٢) قال : « كم أمير أمير في عاصفات
بعد ما حاب في الحياة وحابي »
وقال : « فكم ملك شيد المكرمات
ونال بها الصيت ، ثم انقرض »
(٣) قال : « تشاد المغاني ، والقبور دوارس
وما يمنع المطروق باب وحارس »
وقال : « إن دنا من فارس أجل ،
كل من حانت منيته »
وقال : « وما منعت عن الملك المنايا
لم تدافع دونه حرس »
وقال : « لا يمنع الملك الجبار من قدر
مقانبه ولا مكتبوه »
ولو غدا الكوكب المريح في يده
يغير الحال ، ما أجدى وما جاسا
وقال : « هو الموت ، مثر عنده مثل مكثر
كالسهم ، واتخذ البرجيس برجاسا »
ودرع الفتى - في حكمه - درع غادة
وقاصد نهج مثل آخر ناكب
وأبيات كسرى من بيوت العناكب !

١٠ - أَمَّا الْعَيْشُ النَّاعِمُ فَيَلْدُ ، وَلَكِنَّ سَبَبَهُ يُجَدُّ :
يَلْدُ الْفَتَى غَفَلَاتِ أَحْيَاةٍ وَلَيْسَ بِمُتَّصِلٍ مَا يَلْدُ
يُمْدُ لَهُ الظَّنُّ آمَالَهُ وَلَكِنَّهَا - عَنْ قَلِيلٍ - تُجَدُّ (١)

١١ - أَلْعَاجِلَةُ سَبِيلُ مَنْفُودَةٍ ، وَهِيَ - عِنْدَ أَهْلِ الرُّشْدِ - مَنْبُودَةٌ ،
وَالْأَنْفُسُ - بِحَقِّ - مَأْخُودَةٌ ، لَا الدَّرْعُ تَنْفَعُ وَلَا الْخُودَةُ :

أَنْفُدْ مِنَ الدُّنْيَا ، وَلَا تَلْتَفِتْ فَإِنَّهَا - بِالْعُنْفِ - مَنْفُودَةٌ (٢)
حَازَتْكَ فَأَبْدُهَا إِلَى أَهْلِهَا فَهِيَ لَدَى الْأَخْيَارِ مَنْبُودَةٌ
وَلَا تَمَسَّكَ بِجِبَالِهَا تَصْبِحُ - فِي كَفِّكَ - مَجْدُودَةٌ (٣)
مَأْخُودَةٌ مَانِعَةٌ فِي الْوَرَى نَفْسٌ - بِحُكْمِ اللَّهِ - مَأْخُودَةٌ
لَا سَقِيَّةٌ أَعْنَتْ ، وَلَا رُفِيَّةٌ وَلَا تَمِيمَاتٌ وَلَا عُودَةٌ (٤)

١٢ - لَقَدْ هُجِرَتْ أَخْدُورُ ، وَغَدَرَ بِهَا الزَّمَانُ الْغَدُورُ ، فَإِذَا أَخْدُرُ

- (١) قال : « فما نفيق من السكر الحيط بنا
وقال : « ورب نفس أصابت عيشة رغداً
(٢) قال : « رأى بنو الحزم أن العيش فائدة ،
وقال : « صحبنا دهرنا دهرًا ، وقدمًا
(٣) قال : « فإن جبال العيش ما عقلت بها
وقال : « نهار وليل عوقبا ، أنا فيهما
(٤) قال : « صوارمهم عقلت بالكشوح
وما يمتع الخائفين الحما
- إلا إذا قيل : هذا الموت قد جاء »
لو لم تبت من منايها على خطر »
حتى استبانوا ، فقالوا : « حبذا التلف »
رأى الفضلاء ألا يصحبوه »
يد الحى ، إلا وهى تخشى انقضابها »
كأنى - بخيطى باطل - أتثبت »
مكان تمنعهم والعود
م لبس دروعهم والعود »

عَوْضُهُ قَبْرٌ^(١) ، هَلْ يَنْفَعُكَ جَزَعُ أَوْ صَبْرٌ ؟ .

مِنْ بَارِكٍ يَجْرِي الْمَقْدُورُ ، وَتَفْنَى الشَّهْبُ وَالْبُدُورُ :

تُظْهِرُ أَسْرَارَهَا أَخْدُورُ بِمَا قَضَى الْوَاحِدُ الْقَدِيرُ

كَمْ دَارَ - فِي خَاطِرٍ - ضَمِيرُ مِنْ فَلَكَ ذَائِبٍ يَدُورُ

وَصَاقَ صَدْرُ بِمَشِكَلَاتٍ تَضِيقُ - عَنِ مِثْلِهَا - الصُّدُورُ

يَثْبُتُ فَرْدٌ بِلَا نَظِيرٍ^(١) وَتَهْلِكُ الشَّهْبُ وَالْبُدُورُ^(٢)

١٣ - لَا تَبْرُزِي يَا غَايِبِي ، فَإِنَّهَا الدَّارُ الْفَانِيَّةُ ، سَتَرَكَ - بِكَلَّةٍ -

وَالِدَاكَ ، فَلْتَمْسِكِي - بِالنُّسْكِ - يَدَاكَ .

(١) قال : « يعطل منزل ، ويزار قبر وما تبقى الديار ، ولا القبور »

(٢) وفي رواية : بلا قرين

(٣) قال : « وما أظن المنايا تخطو كواكب جرّبه

ر والسماك وتربه »

قتشن عن كل نفس شرق الفضاء وغربه

وزرن عن غير بر عجم الأنام وعربه »

وقال : زحل أشرف الكواكب دارا من لقاء الردى على ميعاد

وقال : « إذا نزل المقدار لم يك للقطا نهوض ، ولا للمخدرات إباء »

وقال : « والموت ينسى كمي الحرب صارمه ودرعه ، وفتاة الحى مجوّلها

ويسترد من النفس التي شرفت ما كان في سالف الأيام خوّلها »

وقال : « ولنار - المريخ من حدثان الدهر - مطف ، وإن علت في اتقاد

والثريا رهينة بافتقاد الشمس حتى تعد في الأفراد »

وقال : « يجوز أن تطفأ الشمس التي وقدت من عهد عاد ، وأذكى نارها الملك

فإن خبت في طوال الدهر جمرتها فلا محالة من أن ينقض الفلك »

الْوَرَعُ ذَهَبٌ إِبْرِيذٌ^(۱) ، وَأُجِدَتْ حِرْزُ حَرِيْرٍ ، قَدْ تَهَلَّكَ فِتَاةٌ رُوْدٌ ،
وَتَلَبَّتْ مُسِنَّةٌ تَرُوْدٌ :

يَمُوتُ قَوْمٌ وَرَاءَ قَوْمٍ^(۲) وَيَثْبُتُ الْأَوَّلُ الْعَزِيْزُ
كَمْ هَلَكَتْ غَادَةٌ كَعَابٌ وَعُمِّرَتْ أُمَّهَا الْعَجْبُوزُ
أَحْرَزَهَا الْوَالِدَانِ خَوْفًا وَالْقَبْرِ حِرْزٌ لَهَا حَرِيْرُ
يَجُوزُ أَنْ تُبْطِئَ الْمَتَايَا وَأُخْلِدُ فِي الدَّهْرِ - لَا يَجُوزُ^(۳)

١٤ - يَا بَنَ آدَمَ : كَمْ تَحْرُسُ وَتُحْتَرِسُ ، وَالْمَوْتُ أَسَدٌ تَفْتَرِسُ .
وَإِنْ كُنْتَ بِجَبَلٍ أَوْ وَادٍ ، فَإِنَّ الْأَوْدِيَةَ مِثْلُ الْأَطْوَادِ ، يَسْمَعُهَا مِنَ اللَّهِ دَاعٍ ،
جَلَّ رَبُّ الْعِظَمَةِ وَالْإِبْتِدَاعِ :
أَيُّحْتَرِسُ الْمَرْءُ مِنْ حَتْفِهِ وَمَا حَادَ - عَنْ يَوْمِهِ - الْمُحْتَرِسُ^(٤)

(١) قال : « ذوو النسك خير الناس في كل موطن
(٢) قال : « وكم درست هدى البسيطة علما
(٣) قال : « كيف يبقى فرع نابذة
وهذا قريب من قول أبي نواس :
« وما الناس إلا هالك وابن هالك
وقال المعري :

« لو كنت كالقمر المنير
لعلمت أنى للثرى
(٤) قال : « يهاب الناس إيجاف المنايا
وهل حاد القضاء عن الهَيُوبِ ؟ »
وزيهم - بين المعاشر - خير زى
وعالم جيل من عوائده الدرس
أصلها - في الموت - مغترس ؟
« أو الغزاة ، وهي أكبر
أُدعى ، وأنى فيه أٌقبر »
وهل حاد القضاء عن الهَيُوبِ ؟ »

هَلِ النَّاسُ إِلَّا نَظِيرُ السَّوَا م ، وَآجَالُهُمْ أَسَدٌ تَفْتَرِسُ
يَحُلُّ الرُّبِي ، وَيَحُلُّ الْوَهُو د ، وَلَا بُدَّ لِلرَّبْعِ أَنْ يَنْدَرِسَ

١٥ - لَا تَكُ ذَا طَيْشٍ ، وَأَعْجَبَ لِمَا ذَهَبَ (١) مِنَ الْعَيْشِ . مَا فَعَلَ
آدَمُ وَبُنُوهُ؟ كَمْ أَدْرَكَ الثَّمَرَ مُجْتَنُوهُ . يُبْدِي التَّوَفُّرَ أَخُو الْمَعِيشَةَ ، وَالْجَبَلَ (٢)
مِثْلُ الرِّيْشَةِ . الْمَنْزِلُ لِأَمْرِ مَعْرُوشٍ ، وَبِالْقَدْرِ تَثَلُّ الْعُرُوشُ :

أَيْنَ مَضَى « آدَمُ » وَ « شَيْثُ » وَأَيْنَ - مِنْ بَعْدِهِ - أَنْوَشُ (٣)
مَرَّ أَبِي تَابِعًا أَبَاهُ (٤) وَمُدَّ وَقْتٌ ، فَكَمْ أَعِيشُ
لَا مُلْكَ إِلَّا لِرَبِّ عَرْشٍ تَثَلُّ - عَنْ أَمْرِهِ - الْعُرُوشُ
خَفَّ - مِنَ الْخَوْفِ - كُلُّ طَوْدٍ حَتَّى كَانَّ الْجِبَالَ رِيشُ

وقال: « والموت حاس ما تعيف آجنا وتضيف الأعراب والأنباطا »
وقال: « يحلف: لا يبقى على واحد وبر - في إيمانه - الحالف »
وقال: « الناس مثل غمام جاد وابله والناس يدعون - لو أغنى الدعاء - : « قَطِ »
وقال: « وتأكلنا أيامنا ، فكأنما تمر بنا الساعات ، وهي أسود »

(١) وفي رواية: « وهب » (٢) لعل الصواب: « والجبل - من الخوف - مثل الريشة »
(٣) قال المعري :

« لقد نأش الأقوام في الدهر مُخْلَصًا وعادوا بلا نجح ، فكيف تنوش
وآدم ولى - عن بنيه - بحسرة ، وودع شيث أهله وأنوش »
ويقال: « أول من خدش الخدوش أنوش »

(٤) قال: « وما الناس إلا خالف بعد سالف كذلك نبت الأرض يتبعه النبت »

تَطِيشُ نَبَلِ الرَّمَاةِ مَنَّا وَأَسْمُهُمْ أَحْتَفٍ لَا تَطِيشُ^(١)
وَلَمْ يَزَلْ لِمَنْوَتِ جَيْشُ تَفَلُّ - مِنْ ذِكْرِهِ - الْجِيُوشُ^(٢)
يَحْتُ بِالتَّعْشِ حَامِلُوهُ ، وَشَدَّ مَا سَارَتِ التَّعُوشُ
لَا حَبَّذَا الْإِنْسُ وَالْخَطَايَا وَحَبَّذَا النَّسْكَ وَالْوُحُوشُ

١٦ - الْمَرْءُ - عَمَّا وَجَبَ - نَا كِصُّ ، وَالشَّخْصُ - لِلْحَدَثِ -
شَاخِصٌ ، إِنَّ ظِلَّ الْفَائِنَةِ لِقَالِصٌ ، فَهَلْ خَلَصَ - إِلَى اللَّهِ - خَالِصٌ^(٣) ؟
إِنَّ دِينَكَ لَوَدِيعَةٌ فِي الْمَحَارِ ، إِنَّمَا يُدْرِكُ بَعْوَصِ الْبِحَارِ .
وَعُدِمَ دِينَ فِي الْأَنَامِ ، وَكَانَ كَالْحَلْمِ فِي الْمَنَامِ :

مَنْ ادَّعَى النَّسْكَ عَلَى غِرَّةٍ فَقُلْ لَهُ : « مَا صَدَقَ الْخَارِصُ »
وَالنَّسْكَ مِثْلُ النَّجْمِ - فِي بُعْدِهِ - وَأَخْلَقُ - أَنْ يَبْلُغُهُ - نَا كِصُّ
كَالذَّرَّةِ الْعُذْرَاءِ^(٤) ، مَا نَالَهَا إِلَّا امْرُؤٌ - فِي بَحْرِهَا - غَائِصُ

(١) قال : « أما ترين قسى الدهر وترها رام مصيب أعار النبل تفويقا »
من قصيدة أولها :

« قل للحمامة قد أصبحت شادية فهجت للذاكر المحزون تشويقا

كسك ربك ريشاً تدفعين به قر الشتاء ، وحلى الجيد تطويقا

فهل تراعين من باز على شرف يهدى إليك عن الفرخين تعويقا »

(٢) قال : « ودرع الفتى فى حكمه - درع غادة وأبيات كسرى من بيوت العناكب »

(٣) قال : « وأقسم ما فى عالم الأرض زاهد بقلب ، ولا الرهبان أهل الصوامع »

(٤) وفى رواية : « الغراء »

فِي لُجَّةٍ قَامِصَةٍ سُنْفَهَا^(١) ، وَيُصْرَعُ الْمُسْتَمْسِكُ الْقَامِصُ
تَلْعَبُ - بِالْأَلْوِاحِ - أَمْوَاجُهَا ، كَأَنَّمَا مَرَّ كِبَهَا رَاقِصُ^(٢)
نَحْنُ كَنَبْتِ ، عَامَةٌ مُجْدِبٌ وَمَاؤُهُ مُسْتَنَكِرٌ نَاقِصُ

١٧ - دَيْنُكَ عَنَاهُ الْمَرَضُ^(٣) ، ضَاعَتِ النَّافِلَةُ وَالْمُفْتَرَضُ ، وَخَدَعَكَ
هَذَا الْعَرَضُ ، وَجِسْمُكَ ضَعِيفٌ حَرَضُ ، لَقَدْ بَعْدَ مِنْكَ الْغَرَضُ ، وَسَوْفَ
يُطَلَبُ الْمُفْتَرَضُ :

دَيْنُكَ مُضَيٌّ أَصَابَهُ سَقَمٌ وَأُخْسِرُ فِي أَنْ يُيْتِيَهُ الْمَرَضُ
وَهَلْ تُرَجِّي لَدَيْكَ نَافِلَةٌ مِنْ بَعْدِ مَا ضَاعَ مِنْكَ مُفْتَرَضُ
غَرَضْتَ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ ، فَهَلْ غَرَّكَ - فِيمَا تَرُومُهُ - غَرَضُ؟
تَمِيلُ - مِنْ جَوْهَرٍ - إِلَى عَرَضٍ ، وَالرُّوحُ - فِي جَوْهَرِهَا - عَرَضُ
حَرَضَكَ الشَّيْبُ أَنْ تَتُوبَ ، فَمَا تَبَّتْ ، فَهَلَّا يَذْكَرُ الْخُرَضُ
أَقْرَضْتَ عُمْرًا ، فَمَا صَنَعْتَ بِهِ سَوْفَ يَرُدُّ الْأَنَامُ مَا أَقْتَرَضُوا^(٤)

١٨ - فَوَدُّكَ عِلَاةُ الشَّمَطِ ، وَالْمَرَّةُ يُنْقَضُ وَيُعْمَطُ ، كَالطُّفْلِ كَهَلِكِ فَهَلَّا

- (١) قال : « يوج بحرك ، والأهواء غالبية براكييه ، فهل للسفن إرساء »
وقال : « تسير بنا هذى الليالي ، كأنها سفائن بجر ما لهن مراسي »
(٢) قال : « ركبنا على الأعمار - والدهر لجة - فما صبرت للموج تلك السفائن »
(٣) قال :

غدوت مريض العقل والدين ، فالقنى لتسمع أنباء الأمور الصحاح
وسيمر بك حديث هذا البيت في رسائل داعي الدعاة والمعري وهي منشورة في هذا الجزء
(٤) مثل هذا قول القائل :

« وما الناس والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أن ترد الودائع »

يُقَمِّطُ^(١)؟ لَقَدْ عُرِفَ هَذَا النَّمَطُ، وَالنَّفْسُ تَطَعْنُ وَلَا تُضَبُّطُ، وَأَجْرُ مَنْ
كَفَرَ يَجْبُطُ. أَيْنَ مُوَفَّقٌ لَا يَغْلَطُ^(٢)، وَالسَّوْتُ - فِي الْعَالَمِ - مُسَلِّطٌ،
وَعَائِدُ الْمَلِكِ لَا يُقْنَطُ:

إِلَامَ الْحِرْصِ وَالرَّغْبَةِ فِي أَشْيَبَ كَأَلْشَمَطُ
وَكَالطَّفَلِ غَدَا الْكَهْلُ، فَمَا لِلْكَهْلِ لَا يُقَمِّطُ؟
وَلَا يَغْضِبُ أَخُو الرَّيْبَةِ أَنْ يَنْقُصَ أَوْ يُعَمِّطُ
فَمَا الْخَاسِرُ إِلَّا كَا فِرٌّ، أَعْمَالُهُ تَجْبُطُ
بَنِي آدَمَ إِنْ تَعَصُّوا فَمَا أَخْسَرَ مَنْ يَقْنَطُ^(٣)

- (١) قال: «حبا الشيخ - لا طامعا في النهوض -
وقال: «قل للشيب: يد الأيام دائبة
لو كنت كالجبل الراسي لأودنى
وكيف يقطع إنسان مدى أجل
فلا الأساة، أطالت في تفكرها
لما صبيت سقيت الوجد منحنيا
لا قاك بالخطر مغرور - على خطر -
يقص آثار أقوام أولى سفه
يا صبغة الله من أعطاك واقية
(٢) قال: «أين الذي هو صاف لا يقال له
وقال الحريري:

«من ذا الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط؟»

(٣) يشير إلى الآية الكريمة: «إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الخاسرون»

غَبَطْتُمْ صَاحِبَ الثَّرْوَةِ ، وَالزَّاهِدُ لَا يُغَبَطُ^(١)
أَمَا تَغْلَطُ فِي الدَّهْرِ بَانَ تُوْجَدَ لَا تَغْلَطُ؟

١٩ - أَمَا دِينِكَ فَمَتَشَيْطٌ ، وَأَنْتَ - عَلَى الْفَانِيَةِ - مُتَغَلِّطٌ^(٢) ،
مُتَقَرَّبٌ - بِالْمَيْنِ - مُتَحَظٌّ :

أَصْبَحْتَ فِي غَمْرَةٍ وَهَوٍ تَجِيءُ بِالْمَيْنِ كَيْ تُحْطَى
أَحْذَرُ عَلَى الدِّينِ مِنْ تَشَيْطٍ ، فَالْدُّرُّ مُلْقَى إِذَا تَشَطَّى^(٣)

- (١) قال : ويحقرون أبا الإعدام بينهم
وقال : « فما أتمنى أننى كأجلكم
(٢) قال : « وحىي للدنيا كحكك خالص
(٣) قال : « خف يا كريم على عرض تعرضه
إن الزجاجة لما حطمت سبكت
وقال : « واهأ لديانا الذميمة منزلا
وهويتها ، فرأيت خلة غادر
وقال : « كلفت بدنيانا التي هي خدعة
إذا سمحت عادت لما سمحت به
ولو لم يكن فينا هواها غريزة
وقال : « ولم أر إلا أم دفر ظعينة
وقال : « سلوا معشر الموتى الذي جاء وافداً
يحدثكم أن البلاد مقيمة
ولم تغتأ الدنيا تغر خليلها
تريه الدجى - في هيئة النور - خدعة
وقد حملته فوق نعش ، وطلما
ولم تترك من حيلة لتغره
- وإن أفضل منهم للذى احتقروا
ولكن أضاىي المقترين الصعالكا
وفى عقيننا - من هوى - جعلت ريقا
لعائب ، فلتسليم لا يقاس بكا
وكم تحطم من در فما سبكا
لو أن هذا الشخص فيها يترك
ورضيت أنك في وصالك تشرك
وهل خلة منها أغرّ وأفرك
وكم أذنت ، والذنب بالأرض يعرك
لكان - إذا جر الممالك - يترك
تحب - على غدر قبيح - وتفرك
إليكم ، يخبر ، فهو أقر بكم عهدا
على ما عهدتم ذلك الهضب والوهدا
وتبدله من غمض أجفانها سهدا
وتطعمه صابا ، فيحسبه شهدا
سرى فوق عنس ، أو علا فرسانهدا
ولم يبق في إخلاصه حبها جهدا «

لَوْ هَابَ حَرَّ اللَّظِي مُسِيءٌ مَا أَهْتَجَ حِرْصًا وَلَا تَلَطَّى
فَأَبْدِ لِلسَّائِلِينَ لِينًا ، وَلَا تَكُنْ - فِي الْجَوَابِ - فُظًّا

٢٠ - الْمَرَّةُ خَدَعَهُ الطَّمَعُ ، مَرَأَى - فِي الزَّمَنِ - أَوْ مَسَمَعُ ، يَدَابُ
الرَّجُلُ وَيَجْمَعُ ، خَلْبٌ وَمِيضٌ يَلْمَعُ ، وَالْعَيْنُ - لِلْحَذَرِ - تَدْمَعُ ،
وَالسُّحْبُ - بِالْأَفْضِيَةِ - مُهْمَعٌ ، وَفِي الْآخِرَةِ يُكُونُ الْمَجْمَعُ :

غَرَّكَ مَا يَخْدَعُ مِنْ زُخْرَفِ الدُّ
عَلِمْتَ أَنَّ الدَّهْرَ - فِي صَرْفِهِ -
سَمِعْتَ بِالْخُطْبِ وَعَايَنْتَهُ (١)
تَدْمَعُ جَفْنَاكَ عَلَى زَائِلِ
كَمْ أَوْمَضَ الْبَارِقُ فِي عَارِضِ
سُحْبٌ تَجَلَّى خَالِيًا دَجْنَهَا

نِيًّا ، فَزَادَ الْحِرْصُ وَالْمَطْمَعُ
مُفْرَقٌ عَنْكَ الَّذِي تَجْمَعُ
هَلْ كَفَّ (٢) مَا تُبْصِرُ أَوْ تَسْمَعُ ؟
وَالْعَيْنُ - لِلرَّهْبَةِ - لَا تَدْمَعُ
فَأَلْفِي الْكَاذِبَ إِذْ يَلْمَعُ
عَنْكُمْ ، وَسُحْبٌ - بَعْدَهَا - مُهْمَعٌ

٢١ - إِنَّكَ - إِلَى الدُّنْيَا - مُصْنِعٌ ، وَحُبَّهَا - لِلْبَشْرِ - مُطْعِمٌ ،
لَوْ أَنَّكَ - لِشَأْنِهَا - مُلْمِعٌ ، أَبْغَاكَ - مَا تَأْمُلُهُ - مُبِغٌ :

صَاغَكَ اللهُ لِلْجَمَالِ بِقَلْبٍ
تُكْثِرُ اللَّغْوَ - فِي الْمَقَالِ - وَلَوْ وَفَّ
لَمْ تَرَلْ تَرْجُرُ الطُّغَاةَ ، فَلَا تَطُ
لَوْ بَغَيْتَ الَّذِي أَرَادَ بِكَ اللِّ

مُعْرِضٍ عَنِ نَصِيحَةِ لَيْسَ يُصْنِعِي
قَتَ - مَا كُنْتَ لِلدِّيَانَةِ مُلْمِعِي
بِغَ ، فَحَبُّ الدُّنْيَا - لِإِمْلَاكَ - مُطْمِنِي
هُ ، لِأَعْطَاكَ فَوْقَ مَا أَنْتَ تَبْغِي

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَعَايَنْتَ » (٢) فِي الْأَصْلِ : « هَلْ كَفَّكَ »

٢٢ - طَالَ الْكَلْفُ وَالْكُفُّ ، فَأَيْنَ أَخْلَفُ وَالسَّلْفُ ؟ إِنَّ الْعَاقِبَةَ هِيَ
السَّلْفُ^(١) ، وَعِنْدَ الْبَارِي يُكُونُ الزَّلْفُ .

إِلَامَ تَكْذِبٍ وَتَحْلِيفٍ ، وَلِلْإِثْمِ - لَوْ ظَهَرَ - أَكْلَفُ :

كَلِيفَتَ - بَدْنِيَاكَ - شَرَّ الْكَلْفِ - جَفَاءَتِكَ - مِمَّا صَنَعْتَ - الْكَلْفُ
تَبِعْتَ الْغُورَاةَ وَمَا أَسْلَفُوا ، فَهَلَّا أَخَذْتَ بِقَوْلِ السَّلْفِ
وَصَدَقْتَ نَفْسَكَ - فِي ظَنِّهَا - وَكَمْ قَائِلٍ ، مَانَ ، لَمَّا حَلَفَ
تُخَلِّفُ مَالِكَ لِلْوَارِثِينَ ، وَكَانُوا - بِعِلْمِكَ - بِئْسَ أَخْلَفُ
تُرْجَى الْحَيَاةَ وَأَسْبَابَهَا ، وَتَطْلُبُ - عِنْدَ الْمَلِكِ - الزَّلْفَ
وَلَوْ ظَهَرَ الْإِثْمُ ، لِلنَّاطِرِينَ ، لَرَاعَكَ - فِي الْوَجْهِ مِنْهُ - كَلْفُ
نَصَحْتِكَ ، فَأَذِنَ إِلَى مَنْ يَقُولُ : « تَلَفَ أُمُورَكَ قَبْلَ التَّلْفِ »

٢٣ - قَلْبِكَ مُعْنَى يَخْفِقُ ، يَخَافُ - مِنْ عَاجِلَتِكَ - وَيُشْفِقُ ،
وَبَارِتُكَ هُوَ الْمُوَفَّقُ .

أَصْبَحْتَ - مِنْ عُمْرِكَ - تُنْفِقُ ، تُرْقِعُ الْمَذْرَ وَتُلْفِقُ ، وَأَنْتَ
- فِي مَطْلَبِكَ - مُخْفِقٌ ، يَطُولُ تَعْبُكَ فَهَلَّا تَرْفُقُ :

إِنْ خَفِقَ الْبَارِقُ فِي عَارِضٍ ، فَالْقَلْبُ - مِنْ رَوْعَتِهِ - يَخْفِقُ
تَأْسَفُ إِنْ أَنْفَقْتَ مَالًا ، وَلَا تَأْسَفُ مِنْ عُمْرِكَ إِذْ تُنْفِقُ
تَظَلُّ - مِنْ فَقْدِ الْغِنَى - مُشْفِقًا ، وَمِنْ قَيْحِ الْإِثْمِ لَا تُشْفِقُ

(١) قال : « ودعوت ربي بالسلامة جاهداً ليصحنى ، فإذا السلامة داء ! »

ومثله قول القائل : « يداوى المريض لكيما يصحَّ وهل صحة الجسم إلا مرض ؟ »

ولعل صواب الجملة هو : « إن العاقبة هي التلف »

مُرْتَفِقًا - فِي وَطَنٍ - حَافِظًا ، تَسْأَلُ مَا هَانَ ، فَلَا تَرْفُقُ
يَعُودُ - عَنِ غَيْمِكَ - مَنْ شَامَهُ وَهُوَ شَدِيدٌ ظَمُوءُهُ مُخْفِقُ
٢٤ - سَبَّحَ إِلَهَنَا الْفَلَكَ ، وَقَدَّسَ الْبَشَرَ وَالْمَلَكُ ، وَالْجِسْمُ - فِي الْعَفْرِ -
يُسْتَهْلِكُ ، وَالْمَرْءُ - بِالْعَارِفَةِ - يَمْلِكُ ، وَالنَّهْجُ - لِلْآخِرَةِ - يُسَلِّكُ :
سَبَّحَ مَعَ الشَّهْبِ كَمَا سَبَّحَ - مِنْ قَبْلُ - الْفَلَكَ
قَدَّسَ إِنْسَانَ عَلَى الْأَرْضِ ، وَفِي الْجَوِّ مَلَكٌ
لَا تَبْكُ لِلْمَيِّتِ ، فَكَمْ مَاتَ كَرِيمٌ وَهَلَكَ
مَا خَبَرَ الْغَائِبُ عَنْ دَفِينِهِ ، أَيْنَ سَلَكَ (١) ؟
مَا لَكَ شَيْءٌ (٢) ، وَإِذَا أَطَعْتَ ، فَالرَّحْمَةُ لَكَ

(١) قال أبو العلاء :

« مضى الأنام ، فلولا علم حالهم لقلت قول زهير : أية سلكوا »
وقال : « أسكني الردي : لا تبعثون رسالة إلينا ، ولستم سامعي كلم الرسل ؟ »
وقال : « لو جاء من أهل البلى ميت سألت عن قوم وأرخت هل فاز بالجنة عمالها وهل ثوى - في النار - نوبخت ؟ »
وأول من أثار هذه المعاني فيما قرأنا ، هو قس بن ساعدة الإيادي ، في قولته المشهورة :

« لما رأيت موارد الموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يمضي الأصغر والأكابر
لا يرجع الماضي إلى ولا من الباقيين غابر
أيقنت أنني - لا محالة - حيث صار القوم صائر »

(٢) قال أبو العلاء :

« فقير كل من في الأَرْضِ ، إن العبد لا يملك »
وقال : ويقول : « داري » من يقول « وأعبدى »
مه ! فالعبيد لربنا والدار

٢٥ - غَرَّكَ تَفْصِيلٌ وَجَمَلٌ، وَالْحَى خَدَعَهُ الْأَمَلُ، سَعَيْكَ فَسَدَ وَالْعَمَلُ،
مَا نَفَعَكَ حَبٌّ وَلَا رَمَلٌ، كَأَنَّكَ - بَيْنَ الْجَهْلِ - هَمَلٌ :

مَا زِلْتَ مَشْغُولًا بِلَا خَشْيَةٍ يَغُرُّكَ التَّفْصِيلُ بَعْدَ الْجَمَلِ
تَحْمِلُكَ الْأَرْضُ عَلَى ظَهْرِهَا وَأَنْتَ سَارٌ فَوْقَ ظَهْرِ الْأَمَلِ
مَا لِي أَرَى عَيْنَيْكَ لَمْ تَهْمَلَا كَأَنَّمَا أَنْتَ مُخَلَّى هَمَلٌ
مَا يَشْفَعُ الْحُسْنَ لِأَصْحَابِهِ، إِنْ حَسَنَ الْوَجْهَ وَسَاءَ الْعَمَلُ (١)
رَمَلَتْ (٢) فِي مَكَّةَ - تَبْعِي الْهُدَى - فَهَلْ نَهَاكَ السَّعَى بَعْدَ الرَّمَلِ ؟

٢٦ - أَفِي مَسْمَعِكَ حَلَّ الصَّمَمِ، أَمْ لُبِّكَ أَصَابَ اللَّمَمِ، وَتَحْسِمُ
لِلْأَيْسِ الْهَمَمِ، وَفِي التَّرَابِ تَطْوَى الرَّمَمِ، وَفِي الْبَاطِنِ تُخَانُ الدَّمَمِ، عَلَى
ذَلِكَ تَمُرُّ الْأَمَمُ :

مَا لَكَ لَمْ تُصْنِعْ إِلَى عَاذِلٍ أَحَلَّ فِي السَّمْعِ - مِنْكَ - الصَّمَمُ ؟
أَعَاقِلٌ (٣) أَنْتَ فَتُلْحَى عَلَى الْعِصْيَانِ، أَمْ مَسَّ حِجَاكَ اللَّمَمُ ؟

(١) في هذا إشارة إلى قول القائل :

فلا تجعل الحسن الدليل على الفتى فما كل مصقول الحديد يمان
وقول المتنبي :

« مما أضر بأهل العشق أنهم هوروا، وما عرفوا الدنيا، ولا فطنوا
تفنى عيونهم دمعاً ، وأنفسهم في إثر كل قبيح، وجهه حسن »

(٢) هَرَوَلَتْ

(٣) وفي رواية : « أجاهل أنت فتلحى » ، قال بشار :

« الحرُّ يُلْحَى والعصا ، للعبد ، وليس للملحف غير الرد »

هَمَّتْكَ أُلْعِيَا هَوَتْ فِي الثَّرَى ، وَشِيمَةُ الزَّائِكِي عُلُوُّ الْهَمَمِ
 لَمْ تَفِ بِالذِّمَّةِ لِلْحُرِّ ، وَالْحُرُّ مُرَاعٍ وَافِيَاتِ الذِّمَمِ
 وَالذِّكْرُ^(١) يَبْقَى لِلْفَتَى بُرْهَةً ، وَإِنْ تَوَارَتْ فِي التُّرَابِ الرِّمَمِ
 تَيْمَمِ الْخَيْرِ وَلَا تَرْهَبِ الْمَمُوتَ ، فَلِلْمَوْتِ تَصِيرُ الْأُمَمِ
 ٢٧ - لِلَّهِ الْكَرَمُ وَالْمِنَّةُ ، وَعَنْ بَارِيكَ تَزُولُ الظَّنُّ ، لَا يَسْتُرُكَ
 - مِنْ الْمَوْتِ - الْجَنُّ ، وَبِالْعَاصِفِ يُرَاعُ الْفَنُّ ، لَا تَعْصِمُكَ تِلْكَ الْفَنُّ :
 وَيَحْكُ ! لَا تَمَنَّ عَلَى مُنْعَمٍ عَلَيْهِ ، فَأَخَالِقُ رَبُّ الْمِنَّةِ
 فَظُنَّ خَيْرًا بِالْأَخْلَاءِ وَالْأَفِّ ، إِنَّ الْخَيْرَ يَجْفُو الظَّنَّ^(٢)
 يُجْنِكَ الْقَبْرُ ، فَلَا تُلْفَ كَالْمَجْنُونِ يَبْغِي وَاقِيَاتِ الْجَنِّ
 وَأَفْتَنِّي فِي خَوْفِكَ رَبُّ الْعُلَا وَأَنْتَ فِي سَرْحِكَ - مِثْلُ الْفَنِّ
 إِنَّكَ قِنْ لِيْلِيكَ ، حَوَى الْمُلْكَ ، فَلَا تَعْصِمُ مِنْهُ الْقَنْ
 لَتَقْرَعَ السَّنَّ غَدًا نَادِمًا ، إِنْ كُنْتَ ضَيَّعْتَ جَمِيلَ السَّنِّ
 ٢٨ - الْمَرْءُ نُهِيَ فَمَا أَنْتَهَى ، مَا زَالَ - فِي الْعَاجِلَةِ - يُزْدَهِي ، إِنْ قِيلَ :

(١) وقال: «وخول ذكرك - في الحياة - سلامة، ودهاك من أمسى بذكرك شاهراً»
 وقال: «ولو جرت النباهة في طريق الـ خمول إلى ، لاخترت الخمولا»
 وقال: «عرفتني - حتى شهرت - الليالي، ثم صالت علي بالتنكير»
 وقال: «صروف الليالي إن سمحن لماجد بذكر جميل، عُدن يعصفن بالذكر»

(٢) الظنن: التهم، مفردا ظنة، وهي: التهمة، وقد ورد هذا البيت في الأصل مختل

الوزن، فأصلحناه كما ترى، أما نصه في المطبوع فهو:

«ظنن خيراً بالأخلاء وإلا فالخير يجفو الظنن»

مَا أَحْسَنَ وَمَا أَبْهَى ، فَأَيْنَ صَاحِبِكَ لَمَّا وَهَى ، وَطَالَمَا نَعِمَ وَهَلَا ، وَنَالَ
- فِي الْعُمُرِ - مَا أَشْتَهَى ، مَا بَيْنَ غِزْلَانٍ وَمَهَى ، دَهَاهُ الزَّمَنُ فِي مَنْ دَهَا ،
وَاللَّهُ عَمَّرَ بِاللَّهِ ، مُصَوِّرُ الْقَمَرِ وَالسَّهَا :

الْمَرْءُ مَعْتُوبٌ عَلَى فِعْلِهِ كَمْ سَمِعَ النَّهْيَ فَأَلَا^(١) أَنْتَهَى ؟
زَايِلُهُ اللَّهْوُ ، وَزَارَ الْبَلَا ، وَطَالَمَا عَايَنْتُهُ مُزْدَهَى
بَاهَى زَمَانًا بِالَّذِي نَالَهُ ثُمَّ آتَى الْمَوْتَ ، فَأَيْنَ الْبَهَى
وَهَتْ عُقُودٌ كَانَ فِي عَصْرِهِ أَحْكَمَهَا ، لَا عَاقِدُ مَا وَهَى
مَا شَهَوَاتُ الْحَى إِلَّا آذَى ، إِنْ نَالَ - مِنْ مُدَّتِهِ - مَا أَشْتَهَى
كَانَ يَرَى فِي غَزَلٍ دَائِمًا مَا بَيْنَ غِزْلَانٍ لَهُ ، أَوْ مَهَى
دَهَاهُ بِالْمَقْدُورِ لَمْ يَدْفِعِ الْخَطْبَ عَنْ مُهْجَتِهِ إِذْ دَهَى
سَهَا عَنِ الْوَاجِبِ ، فَأَغْتَالَهُ مُصَوِّرُ الْبَدْرِ ، وَرَبُّ السَّهَا

٢٩ - أُمَّا صَحْبِكَ فَقَدْ غَوَوْا ، عَبَّوْا - فِي الْمَوْرِدِ - فَمَا أَرْتَوَوْا ، أَبَادْتَهُمْ
الْأَقْضِيَّةَ حَتَّى تَوَوْا^(٢) ، خَلَّوْا - لِلْوَارِثِ - مَا أَخْتَوَوْا ، طَوَّاهُمْ الْقَدْرُ
فَأَنْطَوَوْا ، وَلَا قَتْمُهُمْ إِلَّا خِرَّةٌ بِمَا نَوَوْا :

لَا تَعَوْ - فِي دُنْيَاكَ - مُسْتَهْتَرًا فَإِنَّ أَصْحَابَكَ فِيهَا غَوَوْا
عَنْ نَهْمٍ - فِي سِرِّيهِمْ - مَوْرِدٌ لَوْ كَانَ يُرَوَى مِثْلُهُ لَأَرْتَوَوْا
نَادْتَهُمُ الْأَقْدَارُ : يَا سَاكِنِي الْأَرْضِ : أَلَا تَتَوُونَ ؟ حَتَّى تَوَوْا
خَلَّوْا أَحَادِيثَهُمْ ، وَأَخْتَوَى أَخِذُ مِيرَاثٍ عَلَى مَا حَوَوْا

(١) فَأَلَا : فَبَلَّا

(٢) قال : « وَيَأْتِي قِضَاءُ مَا لَكُمْ عَنْهُ حَاجِزٌ فَالْتَمِسُوا إِلَى مَوْلَاكُمْ بِالْمَقَالِدِ »

أَنْتَشَرُوا - فِي عَيْشِهِمْ - أَغْصَرًا ثُمَّ طَوَاهُمْ قَدَرٌ ، فَانطَوَوْا
فَلْتَحْسُنِ النِّيَّةَ - مِنْ بَعْدِهِمْ - فَالنَّاسُ يُجْزَوْنَ عَلَى مَا نَوَوْا
٣٠ - كُلُّ غَدَا يُجْذَمُ أَمَلًا ، يُسِيءُ - فِي مَا بَطَنَ - عَمَلًا ، يُصْبِحُ
- بِسَيْفِهِ - مُشْتَمَلًا ، يَطْلُبُ (١) رِزْقَهُ مُخْتَفِلًا ، وَالرِّزْقُ لَا يَتْرُكُ مُتَوَكِّلًا (٢) ،
لَمْ يَرِدْ فِي الْعَالَمِ حَيْلًا :

مَا فِي الْبَسِيطَةِ مِنْ عَبْدٍ وَلَا مَلِكٍ
يُحْتِ نَفْسًا عَنِ الْإِحْسَانِ عَاجِزَةٌ
فَهَلْ تَرَى الدَّهْرَ أَثْنَى ، أَوْ تَرَى رَجُلًا ،
يَرُومُ بِالسَّيْفِ رِزْقًا جَاءَ فِي عُنْفٍ
يَبْغِي الْمَعَالِي - فِي أَوْفَى مُجَاهِدَةٍ -
يَا سَا كِنِي التُّرْبِ : مَا عِنْدِي لَكُمْ حَبْرٌ ،
لَمْ تَأْتِنَا مِنْكُمْ رُسُلٌ مُخْبِرَةٌ ،
٣١ - الْحَى - بَعْدَ الْعَيْشَةِ - رَدِي ، وَجَاءَهُ الْقَدَرُ فَمَا فُدِي ، وَشَخْصُهُ
- بِالْقَاضِيَةِ - رَدِي ، ثُمَّ لَا يُرْزَقُ النَّهْلَ إِنْ صَدِيَ . لَكِنَّهُ - عَنِ ذَلِكَ -

(١) فِي الْأَصْلِ : « لَا يَطْلُبُ »

(٢) قَالَ : « سَيَطْلُبُنِي رِزْقِي الَّذِي لَوْ طَلَبْتَهُ لَمَا زَادَ ، وَالدُّنْيَا حُظُوظٌ وَإِقْبَالٌ »

(٣) قَالَ : « أَعَانَنَا اللَّهُ ، كُلُّ فِي مَعِيشَةٍ يَلْقَى الْعَنَاءَ ، فَدَرَيْ فَوْقَنَا دُبْسٌ »

(٤) قَالَ : « أَسْكِنِي الرَّدِي لَا تَبْعَثُونَ رِسَالَةَ إِلَيْنَا ، وَلَسْتُمْ سَامِعِي كَلِمِ الرُّسُلِ »

وَقَدْ أَلْمَنَّا بِأَمْثَالِ هَذِهِ الْمَعَانِي فِي مَنَاسِبَاتٍ شَتَّى مَرَّتْ بِالْقَارِي فِي هَذَا الْكِتَابِ .

عَدِي، أَظَلَّتْهُ الْعَاجِلَةُ فَمَا هُدِي، وَجَادَتْهُ الْأَسْمِيَّةُ فَمَا نَدِي، وَقَتَلَتْهُ الْخَلْدِيَّاتُ
فَمَا وُدِي :

الْمَرْءُ - فِي أَرْضِيهِ لَوْنَتْ - عَاشَ، وَلَكِنْ - بَعْدَ هَذَا - رَدِي
فَدَى الْأَسَارِي زَمَنَا ذَاهِبًا وَجَاءَهُ الْمَوْتُ، فَأَلَّا (١) فُدِي ؟
فِي أَرْضِي الْعَقْلِ : إِنَّ الْفَقِي لَمْ يَدْفَعِ الْمَقْدُورَ حَتَّى رَدِي
ظَلَّ صَدَاهُ - فِي التَّرِي - سَاكِنًا وَنَتْ لَهُ الْأَعْدَاءُ أَنْ عَايَنْتَ
وَلَمْ يَصَادِفْ مِنْهَا (٢) إِذْ صَدِي كَانَ الْهُدَى يَهْدِي إِلَى قَلْبِهِ
صَاحِبَهَا - عَنِ كُلِّ خَيْرٍ - عَدِي جَادَتْ لَهُ الْأَسْمِيَّةُ بُرْهَةً ،
- مِنْ سَمِعِهِ - لَوْ أَنَّهُ يَهْتَدِي لَا يُطَلَبُ الشَّارُّ لِمَيْتٍ ، وَلَا
وَعَادَ يَبْسُا غُصْنُهُ مَا نَدِي (٣) يُودِي (٤) - لَعَمْرُ اللَّهِ - فِي مَنْ وُدِي

(١) فَأَلَّا : فَهَلَّا

(٢) وَفِي رَوَايَةٍ : « مُورِدًا إِنْ صَدِي »

(٣) قَالَ : « مَرَحَتْ كَالْفَرَسِ الذِّيَالِ آوَنَةٌ وَ « أَبُو سَعْدٍ » : كُنْيَةُ الشَّيْخُوخَةِ .
ثُمَّ اعْتَرَاكَ أَبُو سَعْدٍ ، فَقَدْ شَكَكَكَ »

(٤) يُودِي : يُعْطَى وَلِيهِ دَيْتُهُ ، قَالَ أَبُو الْعَلَاءِ :

« يَدٌ - بِخَمْسِ مِثْقَالِ عَسْجَدٍ - وَوَدِيْتٌ مَا بَالَهَا قَطَعْتَ فِي رُبْعِ دِينَارٍ ؟ »

بين المعري وداعي الدعاة^(١)

« علم الإمام ، ولا أقول بظنة
أن الدعاة — بسعيها — تتكسب »
أبو العلاء

- ١ -

تمهيد

أحقا أن داعي الدعاة لم يحفره إلى كتابة هذه الرسائل إلى أبي العلاء ، إلا قول « المعري »
من قصيدة له في اللزوميات :

« غدوت مريض العقل والدين ، فالتفتي لتسمع أنباء الأمور الصحاح ؟ »
وأن داعي الدعاة أراد أن يتعرف من أبي العلاء أنباء الأمور الصحاح — كما حاول أن
يقنعا بذلك في رسائله — ليهدى بهديه ؟ لقد حاول داعي الدعاة أن يدخل في روعنا ذلك ،
كما حاول الرواة أن يقنعونا بأن هذا البيت وحده هو السبب الذي حفزه إلى كتابتها .
على أننا جديرون أن نتساءل مستفسرين :

« هل دارت بين المعري وداعي الدعاة رسائل أخرى — غير هذه الرسائل — فقد أخبرنا
بعض الرواة أن المعري كتب إلى داعي الدعاة يقول :

« يد بخمس مئين عسجد وديت ما بالها قطعت في ربع دينار؟^(٢)
تناقض ما لنا إلا السكوت له وأن نعوذ بمولانا من النار ! »
فكتب إليه داعي الدعاة يقول :

« عز الأمانة أغلاها ، وأرخصها ذل الخيانة ، فافهم حكمة البارئ ! »

(١) قبسنا هذا الفصل من كتابنا : « صور جديدة من الأدب العربي »

(٢) ويقولون : إن ذلك كان بينه وبين ابن حزم

ثم لا يزيد الرواة على هذا الخبر المبتور شيئاً ، فلا يقولون لنا :

« متى كانت هذه المكاتبة ؟ وكيف اقتضرت على هذه الأبيات ، وختت من عبارات

الجمالة والأدب التي نراها في بقية الرسائل التي دارت بين المعري وداعى الدعاة ؟

وأيّن بقيتها إن كان لها بقية ؟ وأية مناسبة دعت « المعري » إلى التحرش بداعى الدعاة

وهو لا يجهل خطره ومكانته الدينية ؟

ومتى أرسل « المعري » هذين البيتين ؟ أكان ذلك قبل تبادل هذه الرسائل ؟ فكيف

لم يشر إليها داعى الدعاة ؟ وما باله يسأل أبا العلاء عن مذهبه ودينه — مستفسراً — بعد

أن كاشفه المعري بهذين البيتين ؟ وما باله يطلب الهدى ممن لا هدى عنده ؟ وما حاجته

إلى السؤال بعد أن ظهر السر وانكشف الغطاء ؟

أم أرسل البيتين بعد هذه الرسائل ؟ والرواة يخبروننا بأنها قد انتهت بموته ، فيحدثنا بعضهم

أن آخر رسالة وردت من داعى الدعاة إلى المعري لم تصل إليه ، لأنه انتقل إلى العالم الآخر

— وقت وصولها — ويقول بعضهم : « بل مات بوفودها » ويقول بعضهم : « بل عقب

ورودها بقليل . »

*
**

ولعل الأقرب إلى المعقول أن يكون داعى الدعاة قد سمع هذين البيتين من أفواه بعض

الناس في إحدى مجالسه — الخاصة أو العامة — فرد عليها حينئذ بقوله :

« عز الأمانة أغلاها ، وأرخصها ذل الخيانة ، فافهم حكمة البارئ . »

وهو بيت — على ما فيه من ركافة وضعف — قلق القافية ، متكلف ، جدير أن يلحق

بنظم الفقهاء .

على أننا لا نستبعد أن تكون هذه الرواية مختلفة من أولها إلى آخرها ، فقد اضطرب رواتها

فيها كل الاضطراب ، فزعم بعضهم أنها حدثت بين المعري وداعى الدعاة . وروى آخرون

أنها حدثت للمعري في « بغداد » وأن فقهاء بغداد أغروا به إغراء ، وردوا عليه بهذا البيت .

وقال آخرون : « بل بعث بهذين البيتين إلى ابن حزم ، فأجابه عليهما بذلك البيت . »

وفي هذا الاضطراب ما يكفي للشك في أمرهما .
على أن أولى الرسائل التي بعث بها داعي الدعاة إلى المعري ، تشعرنا بأنها كانت فاتحة
المكاتبات بينهما .

لم كتبت هذه الرسائل ؟

ونعود إلى السؤال الأول ، لتعرف السبب الذي حفز داعي الدعاة إلى مكتبة أبي العلاء ،
أهو الرغبة الصحيحة في الاهتداء بهديه — كما يزعم — أم الرغبة في التحرش به ، والتشجيع
عليه ، وكشف مستوره ، وتقسيقه أمام الناس ؟
ونحسب أن نظرة هادئة إلى هذه الرسائل كافية في إقناعنا بأنها كانت أقرب إلى تحديه
والتحرش به ، منها إلى الاستفادة من علمه ورأيه .

فما الذي يحفز داعي إلى ذلك ؟ أمي غيرته الدينية ؟

كلا ! فلم يكن داعي الدعاة ممن تحفزه الغيرة الدينية إلى مهاجمة « المعري » والتحرش
به ، فقد كان داعياً للدعاة الذين قال فيهم « أبو العلاء » :

« علم الإمام — ولا أقول بظنة — أن الدعاة — بسعيها — تتكسب .
وقد كانت دعوته من الدعوات الخطيرة ، وكان يسلك في إذاعتها أخبث الطرق ، فقد كان
باطنياً يدعو إلى المذهب الإسماعيلي ، وهو مذهب ينفيه الإسلام ويبرء منه ، وسنوجزه في
آخر هذا الفصل .

فإذا علمنا أن الغيرة الدينية ، لم تكن الباعث على مهاجمة « المعري » فأى باعث آخر أغرى
داعي الدعاة به ؟

لقد كان « أبو العلاء » يمت النفاق ، ويلعن المتجرين بالدين ، والمتكسبين بالعقيدة ، فيقول :
« والدين متجرٌ ميّت ، فلذلك لا تلفيه في الأحياء إلا كاسدا »
وقد امتلأت كتبه — واللزوميات خاصة — بمثل هذه اللعنات ، ونحن نجزيء من ذلك بقوله :
« طلب الخسائس ، وارتقى في منبر يصف الحساب لأمة ليهولها
ويكون غير مصدق بقيامة أضحى يمثل — في النفوس — ذهولها . »

وقوله :

« رويدك قد غررت - وأنت ندب - بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صباحاً ، ويشربها - على عمد - مساء
يقول : لقد غدوت بلا كساء وفي لذاتها رهن الكساء
إذا فعل الفتى ما عنه ينهى فمن جهتين - لا جهة - أساء »

وقد كان داعي الدعاة من تلك الفئة التي تعيش من الاتجار بالدين ، والتظاهر بالورع
والتقوى ، وتتخذ من ذلك أحبولة لتصيد الأغرار .

على أن أبا العلاء لم يقتصر على ذم هذه الفئة - على وجه التعميم ، بل ذم الدعاة - على
وجه التخصيص ، فقال :

« علم الإمام - ولا أقول بظنة - أن الدعاة - بسعيها - تتكسب »
وقال في مكان آخر من الزوميات :

« ضاع دين الداعي فرحت تروم الد - ين عند القسيس والشماس . »
وقال في مكان ثالث :

« لا يعجبنيك داع قام في ملاءٍ بخطبة زان معناها وطوؤها
فما العظا - وإن راعت - سوى حيل من ذى مقال على ناس تحوؤها
وإنما رام نسوانا تزوجها - بما اقتراه - وأموالاً تموؤها . »
وما نحسب مثل هذا التشنيع بالهين وقعه على داعي الدعاة ، وهو صاحب النفوذ العظيم .

*
* *

فإذا تركنا ذلك جانباً ، رأينا أبا العلاء يسخر في لزومياته أيضاً من الحاكم بأمر الله
الفاطمي - بعد موته - ويهزأ علانية من القائلين بعودته ، فيقول :

« مضى « قئيل مصر » إلى ربه وخلي السياسة للخائل
وقالوا : « يعود » فقلنا : « يجوز » بقدره خالقنا الآثل
إذا هبَّ « زيد » إلى طيِّ وعاد « كليب » إلى وائل . »

إلى أن يقول :

« وتصنى إلى المين أسمعنا وتصبو إلى زخرف القائل »

وما نحسبه إلا يعنيه حين يقول :

« لو قال سيد غضا بعثت لأمة من عند ربى ، قال بعضهم : نعم »

وقد كرر هذا المعنى فى رسالة الغفران أكثر من مرة^(١) . ولا تنس أنه عرض بيمينون

القдах فى رسالة الغفران أيضاً ، وميمون القдах هو رأس الدولة الفاطمية ، يغضبون له ، وإن كانوا لا يجيرون للناس بالانتماء إليه .

ونحسب أن فى بعض هذا ما يكفى للتحرش بأبى العلاء ، والكيد له ، والرغبة فى تفسيقه

أمام الناس .

ولقد حاول « المعرى » أن يترضى داعى الدعاة — بكل ما أوتى من قوة ، وبما سلك

من عبارات الجمالة وأدب الخطاب — فلم يفلح ، وأبى « داعى الدعاة » إلا إخراجهم وإذاعة

رأيه على الناس جهرة ، كأن له ترةً عنده .

وقد اتخذ لهذه المناوشة قول أبى العلاء :

« غدوت مريض العقل والدين ، فالقنى لتسمع أنباء الأمور الصحاح . »

تكأة يبرر بها سؤاله ، والتظاهر بالرغبة فى الإفادة من علمه وهديه ، كما زعم .

ولقد كان لهذه الرسائل صيت ذائع ، ودوى عظيم ، وافتن الناس فى أقوالهم ، فقال بعضهم :

« إن داعى الدعاة أحمه ، ثم دس له السم ، فمات . »

(١) على أن « المعرى » لم يقتصر على ذم الحاكم وحده ، فقد ذم جميع الولاة والحكام فى مواطن

كثيرة ، وكان ذلك مما يغضبهم عليه ، وقد شكوا « المعرى » من أن الولاة كانوا يغرون بتعذيبه .

وكيف لا يغرون بتعذيبه والكيد له ، وهو القائل :

« ظلموا الرعية واستباحوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها »

والقائل :

ساس الأنام شياطين مسلطة

« من ليس يحفل خص الناس كلهم

والقائل :

« يسوسون الأمور بغير عقل

فينفذ أمرهم ، ويقال : ساسه »

ونحن نستبعد أن يكون « داعى الدعاة » قد دس له السم، لأنه لم يكن يعنيه أن يفتك بالمعرى قدر ما يعنيه أن يشنع عليه، ويظهره بمظهر المكابر المائل عن الشريعة .

وقد لجأ « المعرى » إلى كثير من عبارات التناء التي ألفناها منه ، والتي نعتقد أنها كانت من أكبر الأسباب التي حبت فيه سائليه ، وجعلتهم له أنصارا ، فإن أكثر الناس لا يعينهم الدفاع عن رأى قدر ما يعينهم الدفاع عن أنانيتهم ، وإرضاء ذواتهم ، فإذا مدحت أحدهم مجاملا نسي ما جاءك به ، ورجع عما أُراده من الخاصمة واللجاج .

وقد ذكر بعض الرواة : أن « المعرى » شرب السم — بعد أن فضحه داعى الدعاة وأمره بالحضور إليه والإقرار أمامه بالإسلام — وهو قول لم يؤيده دليل ، على أنه لو وقع لكان له صدق عظيم ، ولأشار إليه ولو واحد من الشعراء الذين رثوه ، وقد نيفوا على الثمانين شاعراً .
ويقول بعض الناس :

« لعله مات غما بعد أن ظهر أمره ، وهتك ستره . »

وتقول بدورنا :

« ولعل أجله المحتوم قد وافاه حينئذ ، فأول الناس هذه المصادفة شتى التأويلات »
ومن حق القارىء أن يعرف من هو داعى الدعاة ، وما هو مذهبه الاسماعيلي الذى وعدنا بالإشارة إليه فى هذا المقال ، حتى يقدر شخصية مناظر أبى العلاء حق قدرها ، ويتبين مرمى فيلسوف المعرفة .

أما داعى الدعاة ، فقد كانت رتبته — فى ما يقولون — تلى قاضى القضاة ، وكان يتزيا بزيه ، وكان ينوب عنه أحيانا ، وهو يتناول مائة دينار كقاضى القضاة سواء بسواء .

قالوا : « وكان علماً بجميع مذاهب أهل البيت ، يقرأ عليه ، ويأخذ العهد على من ينتقل من مذهبه إلى مذهبهم . وبين يديه من نقباء المعلمين اثني عشر نقيبا ، وله نواب كنواب الحاكم فى سائر البلاد ، ويحضر إليه فقهاء الدولة ، ولهم مكان يقال له دار العلم ، ولجماعة منهم — على التصدر بها — أرزاق واسعة . »

قالوا : « وكانت وظيفته من مفردات الدولة الفاطمية . »

المذهب الإسماعيلي

أما المذهب الذي نصبوا أنفسهم لإذاعته ، والدفاع عنه ، فهو المذهب الإسماعيلي . ويسمون الإسماعيلية بالباطنية لأنهم يقولون : « إن لكل ظاهر من الأحكام الشرعية باطنا ، ولكل تنزيل تأويلا . »

والإسماعيلية - كما قالوا - مرتبة على تسع منازل ، دعوة بعد دعوة ، وسرها محجوب عن غير أهلها ، وقد بالغوا في تكتمه والاحتفاظ به ، ووضعوا لذلك نظاماً أدق من نظام الماسونية ، وأحفظ لأسرارها .

ومن أعجب ما في الإسماعيلية أنها تنتهي بالاحتكام إلى العقل ، وترك الشرائع والديانات ظهيرياً ، على حين أن أصحابها يسلكون في الوصول إلى هذه النتيجة كل طريق يأبأها العقل ، ولا تلام المنطق الصحيح ، لأنها معتمدة على المغالطات اللفظية ، والمشابهات العرضية ، والبعد عن جواهر الأشياء ، وحقائق معانيها ، وتلمس مواطن السفسطة فيها . والدعاة يبدؤون بالتمدح بالشريعة الإسلامية ، والتغني بفضائل النبي ، ثم يتخذون من ذلك وسيلة إلى بث آرائهم الخبيثة . وبعد أن يخذل إليهم المسترشد بالثقة ، ويلقى إليهم بقياده ؛ يبدؤون :

المرتبة الأولى

بتشكيكه في دينه ، ويعرضون عليه طائفة من المعميات والأسرار الغامضة ، لينزلوا بها عقيدته و يقينه الثابتين ؛ فإذا تم لهم ذلك ، ضنوا عليه بكشف هذه الأسرار ، وفك تلك الطلاسم^(١) . وثمة يقول له الداعي :

(١) وكان يقول له الداعي : « ولا تعجل ، فإن دين الله أعلى وأجل من أن يبذل غير أهله ، ويجعل غرضاً للعبث » ثم يأخذ عليه عهداً ومواريق مستنداً في ذلك إلى تأويل الآية : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً » وما يماثلها من الآيات . ثم يقولون له : « فأعطنا صنفقة من يمينك وعاهدنا بالوؤدك من أيمانك وعهودك أن لا نقشي لنا سرّاً ، ولا نظاهر علينا أحداً ، ولا نطلب لنا غيلة ولا تكتمنا نصحاً ، ولا توالي عدواً » ألخ ، فإذا أعطى العهد ، قال له الداعي : « أعطنا جعلاً من مالك إلقاء ما نكشف لك من الأسرار . » وحينئذ يقدر الداعي الجمل الذي يراه ، فإن امتنع أمسك عنه .

« يا هذا ، إن الدين مكتوم ، وإن الأ أكثر له منكرون ، وبه جاهلون ، ولو علمت هذه الأمة ما خص الله به الأئمة من العلم لم تختلف . وإن الآفة التي نزلت بهذه الأمة ، وشتتت الكلمة ، وأورثت الأهواء المضلة ، هي ذهاب الناس عن أئمة نصبوا لهم ، وأقيموا حافظين لشرائعهم يؤدونها على حقيقتها ، ويحفظون معانيها ويعرفون بواطنها . غير أن الناس لما عدلوا عن الأئمة ، ونظروا في الأمور بعقولهم ، واتبعوا ما حسن في رأيهم ، وقلدوا سفلتهم ، وأطاعوا سادتهم طلباً للدنيا التي هي بأيدي الفسقة الذين يحبون العاجلة ، ويجتهدون في مكيدة الرسول — صلى الله عليه وسلم — في أمته ، وتغيير كتاب الله ، ومعاودة الخلفاء الأئمة . »
وهكذا إلى أن يقول :

« فإن دين محمد ليس — كما عرفته العامة — سهلاً هيناً ، بل هو صعب مستصعب ، وعلم خفي غامض ، ستره الله في حجه ، وعظم شأنه من ابتدال أسراره . فهو سر الله المكتوم الذي لا يطيق حمله ، ولا ينهض بأعبائه إلا ملك مقرّب ، أو نبي مرسل ، أو عبد امتحن قلبه للتقوى . » فإذا أنس منه إقبالا نقله إلى :

المرتبة الثانية

وفي هذه المرتبة يقرر له أن الله اختار لعباده أئمة يهدونهم إلى الصواب ، ويبينون لهم شريعته التي نصبهم الله لحفظها على ما أراه . فإذا عرف ذلك نقله إلى :

المرتبة الثالثة

فيقرر له أن الله جعل عدد الأئمة سبعة ، كما جعل عدد الكواكب السيارة سبعة^(١) ، كما جعل السموات سبعا ، والأرضين سبعا ، ومانفذ الوجه سبعا ، إلى آخر هذه المغالطات . ويعدون من هؤلاء الأئمة « محمد بن إسماعيل » زعيم مذهبهم ، ولا يلبثون أن يقرروا له أن عنده وحده علم المستورات وبواطن الأمور التي لا يمكن أن توجد عند غيره ، فهو وحده الذي عنده سر الله تعالى وتأويل آياته الخ . ويقررون له أن دعائه هم العارفون بذلك كله من بين سائر طوائف الشيعة لأنهم أخذوا عنه . فإذا أقنعوه بذلك نقلوه إلى :

(١) وقد كانوا حينئذ لا يعرفون منها إلا سبعة .

المرتبة الرابعة

وثمة يقرر له الداعي أن عدد الأنبياء الناسخين للشرائع المبدلين لأحكامها سبعة - كعدد الأئمة وعدد الكواكب - الخ ، وأن كل واحد منهم لا بد له من صاحب يأخذ عنه دعوته ، ويظهره عليها في حياته ، ثم يورثها خلفاً له وهكذا . ويعدون من هؤلاء السبعة : « محمد بن إسماعيل » الذي انتهى إليه علم الأولين والآخرين وعلم بواطن الأمور وكشفها الخ . ويؤكدون له أن الهداية والرشد في موافقته والحيرة في العدول عنه . فإذا تم ذلك نقلوه إلى :

المرتبة الخامسة

وفيها يقررون أنه لا بد لكل إمام قائم في كل عصر من حجج متفرقين في جميع الأرض وعدتهم اثنا عشر رجلاً - بعدد بروج الكواكب وشهور السنة - لأن الله لم يخلق هذا النظام عبثاً . ثم ينقلونه إلى :

المرتبة السادسة

وفيها يفسرون شرائع الإسلام - من صلاة وزكاة وحج وطهارة - بأنها رموز وفروض قد وضعت لمصلحة العامة وسياستهم حتى يشتغلوا بها عن بغي بعضهم على بعض ، وأن لهذه الرموز معاني غير ما تدل عليه ظواهرها . ويحقرون له أمر السمعيات ويهونون عليه شأنها طالبين إليه أن يقتصر على الأدلة العقلية وحدها - بعد أن يجيبوه في الفلسفة والنظر في كلام « أفلاطون » و « أرسطو » و « فيثاغورس » وأضرابهم . ثم ينقلونه بعد أن يتقوا به إلى :

المرتبة السابعة

فيقررون له أن الناصب للشيعة لا يستغنى بنفسه ، ولا بد له من صاحب معه يعرضه ليكون أحدهما : الأصل ، والآخر هو الذي صدر عنه - كالعالم السفلى - الذي صدر عنه ثم ينقلونه إلى :

المرتبة الثامنة

وفيها أن مدبر العالم إنما تقدم على الصادر عنه تقدم العلة على المعلول، وثمة كانت الأعيان كلها ناشئة وكائنة عن الصادر الثاني . وأن السابق — مع ذلك — لا اسم له ولا صفة ولا يعبر عنه ولا يقيد ، فلا يقال : « هو موجود ولا معدوم ، ولا قادر ولا عاجز ، ولا قديم ولا محدث » بل القديم أمره وكلمته ، والمحدث خلقه وفطرته . وأن الثاني يدأب في أعماله حتى يلحق بمنزلة السابق ، وليس معنى يوم القيامة والقرآن والثواب والعقاب — كما يفهمه العامة — بل هو حدوث أدوار عند انقضاء أدوار من أدوار الكواكب . ثم ينقلونه إلى :

المرتبة التاسعة

وهي نهاية ما يرمى إليه الداعي — بكل ما سلكه من ضروب السفسطة والمغالطات والثرثرة — وفيها يقول المدعو :

« إن كل ما ذكر — من الحدوث والأصول — رموز إلى معاني المبادئ ، وتقلب الجواهر ، وليس الوحي إلا صفاء النفس ، وإن الأنبياء ينظمون الشرائع بحسب حاجة الدهماء ، فهم لا يصلحون للخاصة . أما أنبياء الخاصة فهم الفلاسفة وحدهم . »
ويقولون لهم :

« إن وجود الإمام إنما هو في العالم الروحاني إذا صرنا إليه بالمعارف والرياضة، وإن ظهوره الآن إنما هو ظهور أمره ونواهيته على لسان أوليائه . »

✽

✽

أرأيت من هو داعي الدعاة الذي يتصدى لتفسيق المعرى والتشنيع عليه باسم الدين ؟
أرأيت هذا الرجل الذي ينقض الدين من أساسه ، ثم يعنف « المعرى » جاهداً لأنه خالف الدين مخالفة صريحة حين ترك أكل اللحوم رحمة بالحيوان ؟

« جنوا كبائر آثام ، وقد زعموا أن الصغائر تجني الخلد في النار »

ألا ترى إلى هذا الرجل الذي ينطبق عليه قول المعرى :

« يا ظالماً عقد اليدين مصلياً من دون ظلمك يعقد الزنار ! »

وقوله :

« بخيفة الله تعبدتنا وأنت عين الظالم اللاهي »
« تأمرنا بالزهد في هذه الدنيا ، وما همك إلا هي ! »

*
* *

والآن - بعد أن عرفنا حقيقة هذا الرجل - نفحص في ضوءها عما حوته الرسائل التي
دارت بينه وبين المعري .

بين المعري وداعى الدعاة^(١)

« أنا ذلك المريض رأيا وعقلا ،
وقد أتيتك مستشفى فاشفى »
« داعى الدعاة »

قلنا فى المقال السابق : إن داعى الدعاة لم يرد مناقشة أبى العلاء للاسترشاد والاستفادة منه ، بل قصد إلى التحرش به قصدا ، ورمى إلى استفزازه وإحراجة وتسوى سمعته . وقد لخصنا المذهب الإسماعيلى الذى كان يدعو إليه داعى الدعاة ، ليعرف القارى أن الغيرة الدينية كانت آخر شئ يدور بخلد داعى الدعاة ، وأن الخصومة الشخصية ، والمآرب السياسية هما وحدهما الحافز الأول والأخير .

وما كان « المعري » ليجهل خطر داعى الدعاة ومرامى كلماته ، وما كان لينسى أن فى ثنايا تواضعه الذى يذيعه - فى أثناء كلامه - كبرياء وسخرية دونهما كل كبرياء وسخرية . ولعل القارى لا يخفى عليه ما يعنيه بقوله :

« أنا ذلك المريض رأيا وعقلا ، وقد أتيتك مستشفى فاشفى . »
فهو يقرع « المعري » ويسخر منه فى صورة المتواضع المسترشد .

وقد جامله « المعري » فى رسائله بكل ما وسعه طوقه من مجاملة ، وغمره بعبارات الثناء والمدح رغبة فى صد هجماته ، ودفعاً لشره وأذاه ، فما أغنت هذه الجاملات إلا قليلا ، وكان « المعري » لا يكاد يجيبه عن سؤال إلا زج فى تضاعيف إجابته أمثال هذه الجمل :

« سيدنا الرئيس الجليل ، عصمة المؤمنين ، هدى الله الأمم بهدايته ، وسلك بهم طريق الخير على يده . » « ضَوْأَ اللَّهِ الظُّلَمَ ببصيرته ، وأذهب شكوك الأفتدة برأيه »
« أيد الله الحق بحياته » « أدام الله قدرته » ، « لازالت القلوب معمورة بعظاته » « لا زال يُصَوِّئُ قلوب المؤمنين . » « جعل الله بحياته الشريعة ، ونصر بحجته الملة . »

فإذا رآه يتمثل ببیت للمتنبي في إحدى رسائله، أكبر منه هذا وعده تفضلاً منه على المتنبي، وقال: «وأما تمثله ببیت أبي الطيب، فلو بلغه ذلك لا تبهج، إذ كان مثله يتمثل بشيء مما نظمه.» وبيالغ «المعري» في مجاملته والتعجب إليه، فيقول:

«ولو ناظر أرسطاطاليس لجاز أن يفحمه، أو أفلاطون لنبد حججه خلفه.»

وقد حاول «المعري» أن يتنصل من الرد عليه - حين رأى ما يرمى إليه - وتعلل بضعفه وشيخوخته، وأنه لو مثل في حضرة «داعي الدعاة» لعلم أنه لم يبق فيه بقية لأن يسأل ولا أن يجيب، لأن أعضائه متخاذلة، وقد عجز عن الصلاة قائماً، وإنما يصلي قاعداً. ثم يقول:

«وإني لأعجز - إذا اضطجعت - عن القعود، فر بما استعنت بإنسان، فإذا هم بإعانتى وبسط يديه، لينهضني اضطربت عظامي، لأنهن عاريات من كسوة كانت عليهن، فعرتهن منها الأوقات المتتالية، وإنما عنيت ما كان من اللحم.»^(١)

ويقول:

«وسيدنا الرئيس الأجل صاحب ورع ودين وهداية ينتفع بها المهتدون، ومن استرشد بمثل العبد الضعيف العاجز»^(٢) فإنما مثله مثل من طلب - في القتادة - ثمر النخلة، وإنما

(١) وقريب من هذا قوله في رسالة الملائكة:

«وحق لثلي ألا يسأل، فإن سئل تعين عليه ألا يجيب، فإن أجاب، ففرض على السامع ألا يسمع منه، فإن خالف باستماعه ففريضة ألا يكتب ما يقول، فإن كتب فواجب ألا ينظر فيه، فإن نظره فقد خبط خبط عشواء، وقد بلغت سن الأشياخ، وما صار يبدى نفع من هذا الهديان، والظعن إلى الآخرة قريب الخ.»

وقوله في الزوميات:

«أصبحت كلقوس - حنتها أساورها - وكنت كالسيف أو كالسهم ينصت.»
(٢) عودنا «المعري» الافراط في التواضع، كما عودنا الافراط في ذم نفسه وتنقصها دائماً، فهو القائل:
«نصحتك لا تغترر يا أخي
ولو كنت ملق بظهر الطريق
وهو القائل: «دعيت أبا العلاء وذاك مين
والقائل: «تشابه أنف الحشرات نفسى
والقائل: «أقررت بالجهل وادعى فهى
والحق أنى وأنهم هدر
في فأنا الرجل الساقط
لم يلتقط مثلى الا لقط.»
ولكن الصحيح أبو النزول
يكون لهن - بالضيف - ارتباط.
قوم، فأمرى وأمرهم عجب
لست نجيباً ولا هم نجب»

حمل سائله على ذلك حسن الظن الذى هو دليل على كرم الطبع ، وشرف النفس ، وطهارة المولد ، وخالص الخليم .

ومن استرشد بسيدنا الرئيس الأجل المؤيد فى الدين — أجزل الله حظ الإسلام بدوام أيامه — كان كطالب الذهب من معدنه . «

ويقول :

« وهو بكتابه إلى متواضع ، ومن أنا حتى يكتب مثله لمثلى ، مثله فى ذلك مثل الثريا كتب إلى الثرى الخ . »

ولكن ماذا يعنى مناظره من ذلك كله ؟ إنه يريد من « المعرى » — كما يقول — جواباً صريحاً يشفى الغلة ، وقد رأى — فى هذه الجاملات — ما يضيع عليه القصد ، فقال فى ختام رسائله : إنه يريد منه الاستدلال ، ورفض الحشمة ، وحذف تكلف الخطاب بـ « سيدنا » و « الرئيس » وما يجرى هذا الجرى ، لأنه — فيما يزعم — لا يريد أن يتخلل كلامها شىء من زخارف الدنيا . وقد طلب إلى « المعرى » أن يكف عن السجع ، حتى لا تضيع المعانى بين شتى أسجاعه ، فقال :

« ثم إن قام من الشيخ نشطةُ الجواب ، أعفانى فيه من قصد الإسجاع ، ولزوم ما لا يلزم ، فإن ملتمسى فيه المعانى لا الألفاظ »

وقد أدرك « المعرى » ما يعنيه داعى الدعاة بهذا الرجاء ، فلم يأل جهداً فى إضاعة قسم كبير من رسالته التالية فى الدفاع عن السجع والانتصار له . وقد أحسن « المعرى » فى دفاعه عن السجع ، وتخير لذلك الدفاع أقوى الحجج والبراهين ، وأيد دفاعه بما استشهد به من الأحاديث والآيات القرآنية ليسد عليه هذه الطريق .

دفاع المعرى عن السجع

على أن السجع كاد يصبح من مقتضيات هذا العصر ولوازمه ، وقد أفلتت من داعى الدعاة عدة سجمات — جاءت عفواً فى رسائله — لتغلب السجع عليه وعلى معاصره جميعاً .

ولم يكن بدعاً أن يولع « المعري » بالسجع بعد أن رأيناه يولع بكل قيد — من قيود الحياة — فيرضى لنفسه الحبس ، ويحرمها لذات الحياة ونعمها الجمانية ، ويروضها على التزام ما لا يلزم في الشعر ، فيضاعف قيد القافية ، إلى آخر ما أخذ به نفسه من هذه القيود .

وقد دافع « المعري » عن السجع بأن الناس — في الإسلام — قد استحسنا السجعات ، وكثرت في خطبهم ومراسلاتهم ، فقلما يخطب بخطبة على منبر إلا وفيها سجع ، قال :
« وأما خطباء العراق فلم يخطبوا من أولها إلى آخرها مسجوعة — على الباء أو التاء وغيرها من الحروف — وروى أن بعض الملوك قال لبعض الفقهاء :

« بلغني أنك تحب السجع . » فقال : « نعم »

وقرأ عليه آيات من قوله تعالى :

« والشمس وضحاها »^(١)

*
* *

والفواصل التي جاءت في الكتاب الأشرف على ضروب ، منها ما هو متباعد لا يجري مجرى السجع ، وفيها ما يجري مجرى المسجوعات ، كقوله تعالى :

« والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر » وكذلك قوله : « ألم تركيب فعل ربك بعاد »^(٢)

وقد أبدع « المعري » ما شاء له ظرفه وكياسته أن يبدع ، فقال يداعب داعي الدعاة ،

و يسخر من الذين يحرمون السجع :

« ولو علمت الحماهم الساجعة أن الله — سبحانه — أو نبيه صلوات الله عليه يكره

سجعتها على الغصون ، لحرست عنه ، وتبرأت منه ، وكذلك النوق الموصوفة بأنها ساجعات ،

كما قال « متمم بن نويرة » :

« إذا حنت الأولى سجعن لها معاً »

(١) يشير إلى الآيات الكريمة : « والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها الخ . »

(٢) يشير إلى الآيات الكريمة : « ألم تركيب فعل ربك بعاد ؟ لرم ذات العمد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وشمود الذين جاؤوا الصخر بالواد ، وفرعون ذي الأوتاد . »

ثم علل النهى عن السجع بقوله :

« وإنما كرهه النبي صلوات الله عليه لأنه أكثر في كلام الكهان . فنهى عنه غير محرم له ، وقد روى عنه كلام مسجوع الخ »

محور الرسائل

أما المحور الذى دارت عليه الرسائل ، فهو سر امتناع « المعرى » عن أكل اللحم ، وقد أحسن « المعرى » ظنه بسائله فى رسالته الأولى ، فلما رأى فى رده عليه ما يبئته له ، رجع على أعقابهِ ، وراح يتامس — من العاذير — كل ما وسعه ، وما زال مناظره يضيق عليه الخناق ، حتى دفع آخر عذر له ، وهو الفقر ، فقال له :

« وقد كاتبته مولاى تاج الأمراء — حرس الله عزه — أن يتقدم بإزاحة العلة فيما هو بُلغة مثله من ألد الطعام ، ومرعاته على الإدِّرار والدوام ، لتتكشف عنه غاشية هذه الضرورة ، ويجرى أمره على أحسن ما يكون من الصورة (١) »

ولكن « المعرى » اعتذر عن قبول الزيادة فى رزقه بأبلغ اعتذار وأرق أسلوب ، فقال : « وأما ما ذكره من المكاتبة فى توسيع الرزق ، فيدل على إفضال ورثه عن أب فأب ، وجد فى أثر جد ، حتى يصل النسب إلى التراب ، فالعبد الضعيف العاجز ما له رغبة فى التوسع ومعاودة الأطعمة — وتركها صار له طبعاً ثانياً — وإنه ما أكل شيئاً — من حيوان — خمساً وأربعين سنة .

« والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى فى ثرى رمسه »

« وقد عُلِم أن السيد الأجل تاج الأمراء ، فخر الملك ، عمدة الإمامة ، وعدة الدولة ومجدها ، لو فتحت يأجوج ومأجوج لجاز أن يضمن لهم قرى الأضياف ، وود العبد الضعيف العاجز لو أن قلعة حلب وجميع جبال الشام جعلها الله ذهباً لينفقه تاج الأمراء ، نصير الدولة النبوية — على إمامها السلام ، وكذلك على الأئمة الطاهرين آبائه — من غير أن يصير إلى العبد الضعيف من ذلك قيراط . وهو يستحى من حضرة « تاج الأمراء » أن ينظر إليه

(١) وهذه أمثلة من سجمات داعى الدعاة الذى نهى « المعرى » عن السجع .

بعين من رغب في العاجلة — من بعد ما زهد وهو يرضى أن يلقى الله — جلت قدرته —
وهو لا يطالب إلا بما فعل من اجتناب اللحوم ، فإن وصل إلى هذه المرتبة فقد سعد . «

*
* *

وليس عجيباً من داعى الدعاة هذا الإصرار ، وما هو بعجيب من أبى العلاء أن يصر على
امتناعه وإبائه ، رغم ما فى هذا الإصرار من اسخاط مناظره العنيد .

وكيف يرضى « أبو العلاء » أن يريق دم حيوان ، بعد أن وصل به العطف على كل
ذى روح إلى أبعاد غاياته ، فأصبح يشفق على البرغوث وينهى عن قتله ، ويدلل على رأيه
تدليلاً جدياً — غير عابث ولا هازل — فيقول :

« تسريح كفك برغوثاً ظفرت به أبرُّ من درهم تعطيه محتاجاً »

ولماذا :

« كلاهما يتوقى — والحياة له — عزيزة — ويروم العيش مهتاجاً »

ثم يغضب للغراب ، فيطلب إليه أن يجزى الناس — على ظلمهم — عدواناً بعدوان ،
وإساءة بإساءة ، إذ يقول :

« جُرُّ يا غراب وأفسد ، لا أرى أحداً إلا مسيئاً ، وأى الناس لم يجرُّ

لو كنت حارس أثمار لهم ينعت — وصادفوك — لما أخلوك من حجر »

ويتألم للعصفور يعذبه الوليد القاسى — بلارحمة ولا شفقة — فيقول :

« وابك على طائر — رماه فتى لاهٍ — فأوهى بفهره^(١) الكتفا

بكرَّ يعنى المعاش معتبطاً فقص — عند الشروق — أو نتفا

كأنه فى الحياة ما فرَّع^(٢) الغصن ، فغنى عليه أو هتفا »

وينهى عن أكل البيض فيقول :

« ولا تأخذ ودائع ذات ريش فما لك أيها الإنسان بصنَّه »

إلى آخر هذه الأمثلة التى امتلأت بها لزومياته .

ومن أظرف ما يلاحظه المتأمل أن « المعرى » لم يظهر رضاه عن ذبح الحيوان في الدار الآخرة — في رسالة الغفران — إلا بعد أن تخيل أن الحيوان يجد في ذبحه لذة لا تعادلها لذة ، وأنه — بعد أن يذبح — يعود سيرته الأولى ، فإذا عظامه قد اكتسبن لحمًا ، وسار يتخطر في مشيته في الفرايس كما كان يفعل قبل ذبحه .

*
* *

وما لنا نذهب بعيداً ، وقد ألم « المعرى » بفلسفته النباتية في قصيدته الحائية التي اتخذها داعي الدعاء تكأة يبرر بها هذه المناظرة الحامية الوطيس .

فهو يقول في هذه القصيدة الرائعة التي نلخص فيها شريعته النباتية أبداع تلخيص :

« فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالمًا ولا تبغ قوتًا من غريص الذبائح »

ويدافع عن ذلك بقوله في رسائله :

« ولا يقدر أحد أن يدفع أن الحيوان البحري لا يخرج من الماء إلا وهو كاره ، وإذا

سئل المعقول عن ذلك لم يقبح ترك أكله — وإن كان حلالاً — لأن المتدينين لم يزالوا يتركون ما هو لهم حلال مطلق . »

ثم ينهى عن استعمال اللبن في قوله :

« ... ولا يبيض أمماتٍ أرادت صريحه لأطفالها دون الغواني الصرائح . »

وهو يريد بالبيض « اللبن »

ويقول في تبرير رأيه في رسائله هذه : « وإذا قيل إن الله — سبحانه وتعالى —

يساوى بين عباده في الأقسام ، فأى شيء أسلفته الذبائح من الخطأ حتى يمنع حظها من الرأفة والرفق ؟ »

ثم يقول :

« ولا تفجعن الطير — وهى غوافل — بما وضعت ، فالظلم شر القبائح . »

وقد دلل « أبو العلاء » على صحة رأيه هذا ، متخذاً من قول الرسول : « أقرؤا الطير

في وكناتها . » . وما ورد في القرآن — من النهى عن صيد الحرم — تكأة يبرر بها قصده ، فقال :

« إنه لا لوم عليه إذا طاب التقرب إلى رب السموات والأرضين بأن يجعل صيد الحل
أمناً كصيد الحرم ! »

وقد نهى عن استعمال العسل — كما نهى عن استعمال اللبن — فقال :

« ودع صرَب النحل الذي بكرت له كواسب من أزهار نبت فوايح
فما أحرزته كي يكون لغيرها ولا جمعه للندى والمناخ . »

وعزز هذا الرأي في رسائله بقوله :

« لما كانت النحل تحارب الشائر عن العسل بما تقدر عليه ، وتجتهد أن ترده عن ذلك ،
فلا غرو أن أعرض عن استعماله رغبة في أن تجعل النحل كغيرها مما يكره ذبح الأكيل ،
وأخذ ما كان يعيش به لتشربه النساء كي يبدن . »

ولو عرف داعي الدعاة توكيد جمهرة من العلماء أن بعض النحل هادىء وديع لا يحارب
الشائر عن العسل كالنحل الكرنيولى والقوقازى ، لاحتج بهذا الرأي على أبى العلاء !
وقد ذكر « أبو العلاء » شيئاً من كلام العرب ليدلل به على صحة رأيه ، ويثبت ما يعانیه
الحيوان من الألم ، كقول قائلهم ، يصف ما يلحق الناقة من الألم والوجد إذا فقدت فصيلها :
« فما وجدت كوجدى أم سقب أضلته فرجعت الحنينا . »

وقد قال « المعرى » :

« وإن الضائنة تكون في محل القوم — وهى حامل — فإذا وضعت وبلغ ولدها شهراً
— أو نحوه — اعتبطوه فأكلوه ورجبوا في اللبن ، وباتت أمه ثاغية ، لو تقدر لسعت له باغية . »
وفى هذه الصورة من الألم والروعة ودقة التصوير ما لا يخفى على القارىء .

*
* *

وقد نظم « المعرى » في لزومياته قصيدة طويلة تمتدح فيها الديك ويتغنى بفضائله ، وينعى
على الصائم أن يفطر على إزهاق روح ، فقال مخاطباً الديك :
« ولو كنت لى ما أرهفت لك مدية ولا رام إفتاراً بأكلك صائم . »

ونحب أن يتمتع القارئ نفسه بقراءة هذه القصيدة الفذة في لزومياته .



ولكن ما لداعى الدعاة وهذه الخيالات الشعرية ، إن الله قد أحل ذبح الحيوان وأكله ،
فما قيمة هذه الاعتبارات بعد ذلك ؟ وما بال « المعري » يستأثر بالزهد في هذه الطيبات ؟

إنه — بلا شك — رجل معاند جاحد ، ولا بد من إرغامه على أكل اللحم وإجراجه بكل
وسيلة ، فإذا عجز داعى الدعاة عن ذلك فلا أقل من أن يظفر من كلامه بسقطة يظهر بها
أمام الناس بمظهر المعاند ثم يقول في ختام رسائله :

« وقبل وبعد ، فأنا أعتذر عن سرله أذعته ، وزمان بالقراءة والإجابة شغلته ، لأننى
— من حيث ما نفعته — ضررته . »

الخير والشر (١)

« تباركت يارب السموات صغتها
فليتك في سواتها لم تبارك ! »
« أبو العلاء »

« أبو العلاء » - كما قلت في مقدمة اللزوميات - رجل سوداوى المزاج ، ممعن في السخط على الحياة ، بالغ في برمه مدى لا يشركه فيه إلا القليل النادر من الفلاسفة المتشائمين . والمعرى لا ينظر إلى الحياة إلا بمنظار شديد السواد ، فهو يراها طافحة بالشر ، مملوءة بالويلات والمصائب ، مُتَرَعَّة بالأحزان والمتاعب ، وهو إن قال :

« نعم ، ثمَّ جزء من ألوف كثيرة من الخير ، والأجزاء بعد شرور .
لم يلبث أن يستكثر على الحياة أن يكون فيها جزء من ألوف كثيرة من الخير ، فيقول :
« لا أزعم الصفو مازجا كدرا بل مزعمى أن كله كدر . »
وقد ملأ لزومياته بالسخط والتبرم على الحياة ، بعد أن برم بها - في سقط الزند -
في مناسبات شتى فقال :

« تعب كلها الحياة فما أء جب إلا من راغب في ازدياد

وقال :

« تدعو بطول العمر أفواها لمن تناهى القلب في وده

يسر أن مد بقاء له والشركل الشر في مده . »

على أن هذه الفلتات التي نعثر بها أحياناً في « سقط الزند » قد أصبحت من الدعائم التي بنيت عليها فلسفته في لزومياته ، فأصبح القارىء لا يكاد يظفر بصفحة واحدة فيها خالية من السخط والنقمة على ما يغمر العالم من شرور وآلام . واللزوميات كلها صاحبة صارخة بهذه المعاني حافلة بالتعبير عنها ، في سخرية هازئة مرَّة ، وفي جد قاس مرة أخرى ، وفي ألم لاذع مرة ثالثة ، وفي يأس مميت في أكثر الأحيان ، ألا تراه يقول :

« دعا لى بالبقاء أخو وداد رويدك إنما تدعو عليًا
وما كان البقاء لى اختيارا لو ان الأمر موكول إليًا »
ويقول :

يسمى : « سروراً » جاهل متخص - بفيه البرى - هل فى الزمان سرور ؟
إلى آخر هذه الأبيات التى امتلأت بها لزومياتة كلها .

*
* *

والحق أن « المعرى » لو بعث رسولاً لدعا على قومه دعوة « نوح » - عليه السلام - فقال :
« رب لا نذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك - إن تذرهم - يضلوا عبادك
ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » .

*
* *

وما لنا نتخيل ذلك وقد دعا على الناس هذه الدعوة نفسها ، وأربنى عليها إرباء ، فقال
من قصيدة ملتهبة عنيفة :

« هل ينظرون سوى الطوفان يهلكهم - كما يقال - أو الطير الأبايل^(١) »
والمعرى يمقت المرأة لأنها أداة النسل ، وهو لا يرى فى النسل إلا شراً مستطيراً ، ويرى
فيه جنابة الآباء على الأبناء ، ولو نال الأبناء أقصى مراتب الرفعة :
« على الولد : يجنى والد ولو أنهم ولاية - على أمصارهم - خطباء »
ويقرر - فى صراحة - أنه يود أن تخلو الدنيا من ساكنيها ليخلصوا من شرورها ،
ويقول إن الناس لورأوا رأيه :

(١) وفى هذه القصيدة يقول « المعرى » :

بالشر من قبل هاييل وقاييل
لما تحصل شيء فى الغراييل
أجسادهم وأبت أكل السراييل

« مضى الزمان ونفس الحى مولعة
لو غربل الناس كيا يعدموا سقطا
أو قيل للنار : « خصى من جنى » أكلت
إلى أن يقول :

أمرأ يتقود إلى خبل وتخيل
وإء الشفاه إلى لثم وتفيل «

« سبحان من ألهم الأجناس كلهم
لحظ العيون وأعوأ النفوس وإء

« لعطلوا هذه الدنيا ، فما ولدوا ولا اقتنوا ، واستراحوا من رزاياها »
وهو يرى الشر متأصلاً في النفس ، والخير لا يأتي إلا عرضاً ، فيقول :
« ألم تر أن الخير يكسبه الحجي طريفاً ، وأن الشر - في الطبع - متلد . »
إلى آخر هذه الآيات التي يضيّق المقام عن ذكر القليل منها بله الكثير .
والمرعى يمقت الظلم السائد في العالم أشد المقت ، ويتألم من فتك القوى بالضعيف ، ويند
بذلك في كل مناسبة ، وهو يقرر - في صراحة تامة لا لبس فيها ولا إبهام - أن الطبائع
كلها مفضورة على هذا الجور ، مجبرة عليه ، وأن البازي يقتصر - بطبعه - القطا ،
لأن الله - سبحانه - قد أراد له ذلك :

« ولو لم يرد جور البزاة على القطا مكوِّئها ، ما صاغها بمناسر^(١) »

وهو يرى الظلم مركباً في طبيعة الضعيف والقوى على السواء :
« كادت تساوى نفوس الناس كلهم في الشر ما بين منبوز ونباز
ظلم الحمامة في الدنيا - وإن حسبت في الصالحات - كظلم الصقر والباز »

هذه هي وجهة الفلسفة العلائية في تفهم الخير والشر . فانظر إلى وجهة مناظره - داعي
الدعاة - ترها على النقيض منها ، وتجد داعي الدعاة « الذي يتوكأ على عصا العقل »
- على حد تعبيره - يحاول إقناع « المرعى » بوجوب أكل اللحم ، فيقرر له نظريات يدين
« المرعى » بما يناقضها كل المناقضة .

(١) وفي ذلك يقول أيضاً :

« ولو لم يقدر خالق الليث فرسه لمطعمه ، لم يعطه الثاب والظفرا . »
وما يجدر ذكره في هذا المقام بهذه المناسبة قول « المرعى » :
« سبحانه من ألهم الأجناس كلهم أمراً يقود إلى خيل وتخييل »
وقوله :

« والله يحمد كلما طال المدى طمت المرور وقلت الأخيार »
إلى آخر هذا الحمد الساخر الذي يذكرنا بقول القائل :
« لك الحمد ، أما ما نحب فلا نرى وتنتظر ما لا نشتهي ، فلك الحمد ! »

فيقول داعى الدعاة :

« أليس النبات موضوعاً للحيوان الذى يمتار منه ، وبوجوده وجوده واستقامته فى حفظ أعوانه وولادة مواليدته ؟ وإنما يستولى الحيوان على النبات بالقوة الحساسة التى ترجح بها على النبات من حيث كونه نامياً فقط وليس بحساس ، وعلى ذلك فالقوة الإنسانية مستولية على الحيوان استيلاء الحيوان على النبات لرجحانها عليه بالنطق والعقل ، وما ينبغى أن يكون^(١) أرف بها من خالقها »

ويرى داعى الدعاة : « أن الله يريد ذلك ، كما يدل عليه وقوع المشاهدة لجنس السباع وجوارح الطير التى خلقها الله — سبحانه — على صنيعه لا تصلح إلا لنتش اللحم وفسخه ، وتمزيق الحيوان وأكله . وإذا كان هذا الشكل قائم العين فى الفطرة ، كان جنس البشر وسيع العذر فى أكل اللحوم . »

ويقول داعى الدعاة :

« وإما أنه^(١) يجد سفك دماء الحيوان خارجاً من أوضاع الحكمة ، وذلك اعتراض منه على الخالق الذى هو أعرف بوجوه الحكمة »

*
* *

فأنت ترى الهاوية السحيقة التى تفصل بين النظريتين ، وترى من ذلك أن « المعرى » لم يكن له بد من تقرير نظريته مع ما فى ذلك من الخطر الجسيم الذى يتهده حين يقررها . وقد أفاض « المعرى » فى إقناع مناظره أن الحيوان كله إحساس يقع به الألم ، ثم انتقل إلى المشكلة الخطيرة التى عرض لها داعى الدعاة فى رسائله ، فقال : « إذا بنينا القضية المركبة من مُسند ومُسند إليه ، ولها واسطتان إحداها نافية والأخرى استثنائية ، فقلنا : « الله لا يفعل إلا خيراً » أفهذه القضية كاذبة أم صادقة ؟

فإن قيل : « إنها صادقة » رأينا الشرور غوالب ، فعلعنا أن ذلك سرخفى . ثم ذكر « المعرى » طائفة من الشرور التى لا يستطيع مناظره أن يجحد أنها شرور ،

(١) يعنى المعرى

كموت إبراهيم ولد النبي (صلوات الله عليه) ، وقتل « حمزة » عمه ، وقتل « الحسين » ،
وسم « الحسن » وقتلى أحد ، وكيف فجع « أبو ذؤيب » في بنيه السبعة الذين شربوا من
لبن قد شربت منه حية ، ثم قاءت فيه ، فهلكوا في يوم واحد الخ .

وسأل مناظره :

« أفهذه الأشياء خيرات أم شرور ؟ »

فإن قال قائل : « هي مخوفة منكرة » فقد أبطل القضية التي هي مقدمة ، وإن قال :
« القضية المذكورة لا تصح ، فالسائل بسىء الأدب يلح » . وإن قال : « القضية منعكسة »
فقد لزمه أن يقول :

« إن الله — سبحانه — يفعل الخير والشر . » فإن أبي ذلك رجع إلى ما يقوله المجوس
من أن للعالم خالقين ، أحدهما فاعل الخير ، والآخر فاعل الشر . ومعاذ الله أن تقول هذه المقالة
ثم قال « المعرى » : « وللسائل أن يقول : « إن كان الخير لا يريد ربنا سواه ،
فالشر لا يخلو من أحد أمرين ، إما أن يكون قد علم به ، وإما أن يكون غير عالم به
— ونعوذ بالله من هذه المقالة — فإن كان عالماً به فلا يخلو من أحد أمرين : إما أن يكون
مريداً له أو غير مرید ، فإن كان مريداً له فكأنه هو الفاعل . كما أن القائل يقول :
« قطع الأمير يد السارق » فالأمير قطعها ، إلا أنه لم يل ذلك بنفسه . وإن كان غير مرید له
فقد جاز عليه ما لا يجوز على أمير — له في الأرض نظراء كثير — لأنه إذا فعل في ولايته
شيء لا يرضاه ، نكره أشد نكير ، وأمر بزواله .

هذه هي العقدة التي جهد في حلها المتكلمون — من أهل الشرائع — فلم يجدوا لها
انحلالاً ، وأصبح مقالهم ضلالاً .

*
* *

ولما أحس « المعرى » أنه قد ضيق على مناظره الخناق ، أخذ يناقشه في مسألة « الرأفة »
التي بنى عليها نظريته ، فقال « المعرى » بجرأة عجيبة :

ويقول القائل : « قد ذكرت الأنبياء أن البارئ — جلت قدرته — رءوف رحيم ،
ونشاهد ما هو — على غير ذلك — دليل ، لأنه لو رآف بيني البشر لوجب أن يرآف بغيرهم
من أصناف الحيوان الذي يجد الألم بأذى شيء ، ولم يخصص الإنس بذلك وهم الذين يجنون
الكبائر ، ويقدمون على إتيان الذنوب ؟ وقد رأينا الجيشين المنتسب كل واحد منهما إلى
الشرع المنفرد ، وكلاهما في مدد ، ويقتل بينهما آلاف ، أفهذا محسوب من أى الوجهين ؟
وإذا قيل إن البارئ رءوف رحيم ، فلم يسلط الأسد على افتراس نسمة إنسية ؟ ولم مات
بلدغ الحيات جماعة مشهورة ؟ وما الطير الراضية بلقط الحبة ، الراجعة بها إلى الأحبة ،
فسلط عليها باز أو صقر ، فمنعها من النقر ؟

وإن القطة لتدع فراخها ظمأً ، وتبتكر لترد ماء ، فيصادفها أجدل ، فينال الظفر بقوته ،
ويهلك أفراخها أواماً .

وقال بعض الملحة في الآية : « وأنه أهلك عاداً الأولى ، وثمود فما أبقى ، وقوم نوح
— من قبل — إنهم كانوا هم أظلم وأظفى ، والمؤتفكة أهوى ، فغشاهما ما غشى »

إن كان البارئ — جلت قدرته — خلقهم وهو يعلم أنهم مجرمون ، يجرمون التوبة
ولا يرحمون ، فكان ينبغى ألا يخلقهم ، وإن كان لا يعلم بما يصيرون إليه فهو كغيره
من الفاعلين . وقد يربي الرجل ولدًا فيكون عاقًا ، أو يملك عبدًا فيخرج معاندًا مُشاقًا ،
ومعاذ الله أن نقول ذلك ؟

*
* *

وقد لخص « المعرى » في هذه السطور القليلة فلسفته المبعثرة في أشتات آثاره
— واللزوميات خاصة — وأبان بصريح العبارة عما يعتقده اعتقادًا جازمًا ، وإن حاول أن
ينسب هذه الآراء إلى غيره ، ويقنع داعى الدعاة بأنه راوية لا أكثر ولا أقل . فقد طالما
ألفنا منه هذا الأسلوب في رسالة الغفران واللزوميات وغيرها من كتبه .

على أن داعى الدعاة قد أدرك غرض « المعرى » إدراكًا صحيحًا ، وبعث إليه يقول :

« أهذه هي أنباء الأمور الصحاح التي يهدى بها من استهدى ؟ وهل زاد السقيم بدوائه هذا إلا سقماً ، والأعمى الأصم - في دينه وعقله - إلا عمى وصمماً ؟ »

ويقول : « وأما ما تبع هذا الفصل من ذكر نجمة رسول الله (صلوات الله عليه) بابراهيم ولده - عليه السلام - وذكر سم الحسن وقتل الحسين الخ الجاري كله على سياقة واحدة ، والاستخبار عن كون ذلك خيراً أو شراً ، فهو داخل في مضمار التقاسيم المذكورة التي عدتها ، وتركها في غواشي ظلماتها . فقد سبق القول : إنه ما حل في السؤال الأول عقلاً ، بل زاد بهذه الأسئلة تيهًا وضلالاً . »

وأما قوله : اللحوم لا يوصل إليها إلا بإيلام الحيوان الخ ، فقد سبق القول بأنه لا يكون أرف بها من خالقها ، فليس يخلو كونه عادلاً أو جائراً ، فإن كان عادلاً فإنه - سبحانه - يقبض الآكل والمأكول جميعاً ، وذلك مسلم له ، وإن كان جائراً لم ينبغ أن نرجح على خالقنا بعدلنا وجوره .

وأما قوله : « وللسائل أن يقول إن كان الخير هو الذي لا يريد ربنا سواه الخ . »

فأقول في الجواب : « قيل : إن إنساناً ضاع له مصحف فقيل له :

« اقرأ : والشمس وضحاها ، فإنك تجده ! » فقال : « وهذه السورة أيضاً فيه . . . »

فكذلك أقول : « إن هذا أيضاً من ذاك . وجميعه ظلمات ، فأين النور ؟ وإنما قصدناه

للنور ، لنعرف أنباء الأمور الصحاح ! »

أثر هذه الرسائل في تسوية سمعة المعري

« وقبل وبعد ، فأنا أعتذر عن سر له
أذعته ، وزمان بالكتابة والاجابة شغلته
فلينني - من حيث ما نفعته - ضررته . »
« داعي الدعاة »

وهكذا أصدر داعي الدعاة قرار الاتهام من أعلى منصة تشريعية في ذلك الزمن المنكود ،
وأصدر داعي الدعاة حكمه بإدانة المعري الذي مات قبل أن يبلغه نص الحكم ، فلم يستطع له
مناقشة أو استئنافاً بعد أن صار في عالم الخلود .

وهالت جمهرة الناس لهذا الحكم ، وصفق له طربا الأغرار وذوو المآرب والحاجات
والأحقاد جميعاً .

وقد أصدر داعي الدعاة حكمه في صيغة الاعتذار ، بعد أن دس فيه الاتهام صريحاً لا مواربة
فيه ولا لبس .

داعي الدعاة يعتذر للمعري عن كشف أسراره وإذاعة عقيدته للملأ — عن غير قصد —
وهو الذي لم يكتب رسائله إلا ليصل بكل حرف منها إلى هذه الغاية كما أسلفنا القول .
ومم يعتذر داعي الدعاة ؟ وما هي تلك الأسرار الخطيرة التي كشفها ؟ وأي كلام قاله
« المعري » في رسائله هذه من غير أن يوجزه مرة ويفصله أخرى في لزومياته وغفرانه وغيرها
من عيون آثاره ؟

ولكن داعي الدعاة — الذي ظهر مجزؤه واضحاً في إقامة دليل واضح يثبت به دعاواه —
قد أفلح في زعمه أنه هتك أستار « المعري » وأذاع من مستوره ما كان يحرص كل الحرص
على إخفائه ، فتوهم البسطاء — من معاصريه وغير معاصريه على السواء — أن عقيدة
« المعري » زائغة لا محالة . وإلا ففيم كان يسترها ؟ وحسبوا أن « المعري » كان يخفي عقيدته ،
حتى جاء داعي الدعاة فأزاح عنها الأستار وهتك عنها الحجب ، فإذا « المعري » — الذي يميل
إلى التقيية — زنديق فاجر .

ومن الذى أصدر هذا الحكم القاسى على « المعرى »؟ هو رجل له مظهر رائع ونخب خبيث ، فأما مظهره الرائع فذلك لأنه داعى الدعاة ، الذى تلى رتبته قاضى القضاة والذى يتزيا بزيه فى اللباس وغيره ، وينوب عنه أيضاً ، والذى يحيط علمه بجميع مذاهب أهل البيت ويقرأ عليه ، يأخذ العهد على من ينتقل من مذهبهم إلى مذهبه ، والذى بين يديه من نقباء المعلمين اثنا عشر نقيباً ، وله نواب كنواب الحاكم فى سائر البلاد ، والذى يحضر إليه فقهاء الدولة وعلماءها فى مكان يطلقون عليه « دار العلم » ولجماعة منهم — على التصدر بها — أرزاق واسعة ، ووظيفته — كما يقولون — من مفردات الدولة الفاطمية .

*
* *

هذا هو مظهر داعى الدعاة الذى يطالع جمهرة الناس وسوادهم أخذاً رائعاً ، وهذا هو جاهد الذى تتخلع أمامه قلوب المتملقين ذوى المنافع ، وتزيغ أبصارهم حين يضىء لهم بريقه وسناه . أما مخبره ، فقد فصلناه بعض التفصيل فى مقالنا الأول ، وأظهرنا طريقته الخبيثة التى كان يسلكها فى زلزلة عقائد المسلمين ، وسلخهم عن دينهم بما أوتيه من قدرة شيطانية بارعة ، جعلت « المعرى » يعرض به مراراً فى لزومياته ، مما أثار حقدده عليه ، ودفعه إلى مقابلة الشر بالشر والعدوان بالعدوان ، فراح يدبج هذه الرسائل المنمقة ليصل إلى غايته التى كان يتحرق شوقاً إليها — وهى تسوية سمعة المعرى — وقد نجح فى ذلك كل النجاح .

*
* *

فأنت ترى حقيقة هذا الرجل الذى أفلح فى تسوية سمعة أبى العلاء ، وترى أنه رجل لا عمل له إلا تضليل الناس ، وزعزعة عقائدهم ، لبيت فيها سموم المذهب الباطنى . وأنت ترى أن داعى الدعاة هو أجدر من ينطبق عليه قول المعرى :

« جنوا كبائر آثام ، وقد زعموا : أن الصغائر تجنى الخلد فى النار ^(١) . »

(١) وقريب من هذا المعنى قول المعرى :

« يعيب أناس أن قوما تعرضوا
لقد أفلحوا إن كان لم يجبر عندهم
بجماعهم نصب العيون الشوازر
— من الوزر — إلا تركهم للمآزر »

والناس قلما يهنون بحقيقة من يصدر الحكم ، وإن عنوا دائماً بظهوره ورفعة منصبه ،
وحسبهم أن يتلقفوا الحكم من القاضى ^(١) قضية مسئلة — مهما يبعد عن الصواب — حتى
يصدر حكم آخر من مقام أرفع ، فينقض سابقه .

على أن الشرأعلق بالنفوس وألصق ، وأكثر إذاعة من الخير ، وللمعرى خصوم يتلمسون
له سقطه يملأون بها الدنيا وقيمونها ويقعدونها . والجمهور لا صبر له على متابعة تفاصيل المناقشة
الدقيقة والحكم عليها بنفسه ، وحسب المناظر اللبق أن يزعم لنفسه الفوز ويسجله ، ثم يتظاهر
برحمة مناظره ، والأسف على ما لحقه من خذلان ، فينخدع بكلامه الجمهور ، ويعتقد أنه
غالب منتصر .

وهذا ما فعله داعى الدعاة .

*
* *

وقد مات « المعرى » قبل أن يقرأ الرسالة الأخيرة ، فلم يستطع أن يفند شيئاً من مزاعم
خصمه في الانتصار عليه .

ولقد كان كثير من الناس يشغلون أنفسهم بتعرف عقيدة « المعرى » ويميل بعضهم إلى
تكفيره ، كما يميل آخرون منهم إلى حسن الظن بدينه وعقيدته ، حتى جاءت هذه الرسائل
فرجحت كفة الاتهام أيما رجحان .

ولسنا نزعم أن هذه الرسائل — هى وحدها — التى سوات سمعة « المعرى » ، ولكننا
نميل إلى الزعم بأنها كانت من أكبر الأسباب التى تضافت على خلق هذا الجو المكفر
حول عقيدته .

(١) وقد أبدع الكاتب الانجليزى الذائع الصيت « برنارد شو » فى تحليل هذا الرأى فى روايته :
« Getting Married » فذكر حواراً بين زوج يريد أن يفسخ عقد الزواج ، وآخر ينشئ بتحريم
ذلك ! « لأن ما يعقده الرب لا يحله العيد » فيقول له الزوج : « ولكن القسيس الذى عقد الزواج عبد مثلنا »
فيجيبه : « ولكنه يمثل سلطة الرب » وتمت المناقشة فينفد صبر الزوج ويقول له : « لقد عزل هذا القسيس
بسبب تهتكه وسوء سلوكه ، ألا تزال مصراً — بعد ذلك — على أن ما عقده لا يزال ثابتاً لا نستطيع أن
نتنقه ؟ »

وقد خدع ياقوت — في جملة من خدع — بهذه الرسائل ، وظهر تحامله على « المعرى »
واضحاً في مناسبات كثيرة ، فشم « المعرى » وسفه آراءه ، وقال مرة : « إن المعرى — حمار »

ولما لخص رسائله هذه قال في مقدمة تلخيصه :

« ونقلها على هذا الوجه يطول ، فلخصت منها الغرض دون تفاسيح المعرى وتشدقه »
ولم يقل : « دون تفاسيح داعي الدعاة وتشدقه » أو على الأقل : « دون تفاسيحها معاً »
فينفي بذلك تهمة التحيز والهوى .

والعجيب أن « ياقوت الرومي » — على فضله — لا يكاد يدع فرصة يذكر فيها اسم
« المعرى » دون أن يشتمه أو يتقصه .

فإذا روى « المعرى » — وهو الحجة الثابت الصادق في روايته ، الذي عرف بالأمانة
والدقة وسعة الاطلاع — بعض أبيات قالها أحد اليهود في الخليفة « عمر »^(١) علق عليها
« ياقوت » بقوله :

« وهذا يشبه أن يكون شعر « المعرى » قد نحل هذا اليهودي ، أو أن يراده لمثل هذا
واستلذاذ به من أمارات سوء عقيدته وقبح مذهبه »

أرأيت إلى أي مدى تعسف « ياقوت » في حكمه واشتط ؟ ولكنه الهوى :

« وآفة الرأي الهوى ، فمن علا على هواه عقله فقد نجا »

(١) يعني قول « المعرى » في رسالة الغفران — انظر الجزء الثالث ص ٣٣٤ — : « ولما أجلي
عمر بن الخطاب أهل الذمة عن جزيرة العرب شق ذلك على الجالين ، فيقال إن رجلاً من « يهود خيبر »
يعرف بسمير بن أدكن ، قال في ذلك :

يصول أبو حفص علينا بكرة	رويدك ، إن الرء يطفو ويرسب
كأنك لم تتبع حمولة ماقط	لتشبع ، إن الزاد شيء محجب
فلو كان موسى صادقا ، ما انتصرتم	علينا ، ولكن دولة ثم تدهب
ونحن سيقناكم إلى المين ، فاعرفوا	لنارتية البادي الذي هو أكذب
مشيتم على آثارنا في طريقنا	وبغيتكم في أن تسودوا وترهبوا »

وهذا الخبر — كما يراه القارئ — طبيعي ، والابيات لا يستبعد صدورهما من يهودي ممتور أجلاه
الخليفة هو وقومه عن جزيرة العرب . والمعرى يفتح الخبر بكلمة : « يقال » ثم لا يزيد ، ولكن « ياقوت »
لا يريد أن يقتنع ، ويأبى إلا اتهام شيخ المعرة بسوء النية والتلفيق .

وقد أورد « ياقوت » — في كتابه معجم الأدباء — شيئاً من أخبار الزارين على « المعري » وذكر حين تكلم عن ذي الفضائل^(١) ما يأتي :

« قرأت في ديوان شعره بخطه :

أنشدت لأبي العلاء :

« هفت الحنيفة ، والنصارى ما اهدت ، ويهود حارت ، والمجوس مضلله
اثنان أهل الأرض : ذو عقل بلا دين ، وآخر دين لا عقل له »
قلت مجيباً له :

« الدين آخذه وتاركة لم يخف رشدهما وغيرهما
اثنان أهل الأرض ، قلت : فقل يا شيخ سوء ، أنت أيهما ؟ »

*
* *

والبيتان « هفت الحنيفة » لا يفهم منهما هذا الفهم الذي فهمه « ذو الفضائل » وأقره « ياقوت » فأثبته من غير مناقشة . وما أجدر من يتصدى لنقد « المعري » أن يتقصى معانيه حتى لا يزل قدمه ، فإن « المعري » كثيراً ما يطرق المعنى بأساليب شتى — يوضح بعضها بعضاً — وكثيراً ما يظهر المعنى خفياً في بعض عباراته جلياً في الأخرى ، وليس من الإينصاف أن نفهم كلامه فهماً سطحياً ثم نشنع عليه بعد ذلك من غير حق .

والمعري لا يريد أن يقول : إن كل متدين لا عقل له ، وإن كل عاقل غير متدين . ولكنه يأسف لأنه يرى أكثر المتدينين مقلدين لا يحكمون العقل ، وأكثر من يحكمون العقل يغالون فلا يأخذون بأسباب الدين ، وقد قال « المعري » في لزومياته : « كن ديناً وليبياً » وقال في مكان آخر منها :

« إذا كان التقى بلها وعيا فأعيار المذلة أتقيا »

وهو يعني بالحنيفة أتباعها ، فهو يقول : « هفا المسلمون والنصارى واليهود والمجوس وضلوا عن طريق الحق والصواب » وهذا كلام لا غبار عليه ، فهو يرى من الناس دائماً

(١) وهو من أدباء القرن السادس ، توفي سنة ٥٢٨ هـ .

شراً لا خير فيه . وقد قال في موضع آخر من لزومياته ما يوضح قوله : « هفت الخنيفة » وهو قوله :

« كتاب محمد وكتاب موسى وانجيل ابن مريم والزبور
هدت أمماً فما قبلت ، وبارت نصيحتها ، فكل القوم بور »

إلى آخر هذه الأقوال التي يطول بنا الكلام إذا ذكرناها .

وليس « ياقوت » وحده هو المتحامل على « المعرى » فله مشبهون ونظراء كثيرون ، فقد سمع « ابن أبي كدية » قائلاً ينشد قول « المعرى » :

« ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البرية أن يبكوا
تخطئنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك »
فقال ابن أبي كدية :

« كذبت - وبيت الله - حلفه صادق سيسبكنا - بعد الردى - من له الملك
ونرجع أجساماً صحاحاً سليمة تعارف في الفردوس ، ما عندنا شك ! »

والبيتان - على ما فيهما من ضعف وركاكة - يدلان على تعسف في فهم كلام « المعرى » الذي لم يتعرض فيهما لذكر الآخرة^(١) فهو يقول : إن الموت هو آخر الحياة الدنيا ونهايتها ، وإن غرور الناس ينسيهم هذه الحقيقة - على بساطتها - فيجعلهم يتخيّلون الموت رحلة هينة قصيرة المدى كما يقول في بعض أبياته :

« يوصى الفتى عند الحمام كأنه يروح - ليقضى حاجة - ويعود »

وهو يريد أن يقول لهؤلاء الناس :

« كلالن تعودوا إلى الحياة مرة أخرى ، فأقلوا من أطاعكم في الدنيا ، وحرصكم عليها ،

(١) وقد قال « المعرى » في معنى البيت الأول :

« أعن باكياً لِح في حزنه وسل ضاحك القوم : مم ابتهج ؟ »
وقال أيضاً

« يسمى سرورا جاهل متحرص وفيه البرى ، هل في الزمان سرور ؟ »
ويوضح معنى البيت الثاني قوله :

« افطر وسم » أو صم وأفطر - جاهداً - صوم المنية ما له إفطار . »

فأتم زجاج لا يعاد له سبك ، ولا أمل لكم في العودة ، فلا توصوا ، فهي رحلة لا عودة لكم منها . »

وما تريد أن ندافع عن « المعري » ولكننا نريد أن نبين للقارئ تحامل ناقديه عليه ، وتعسفهم في تقده .

*
* *

ولقد لقي « المعري » الأهوال ، وكيلت له التهم — من معاصريه وغيرهم على السواء — وأغرى بعض الولاة بتعذيبه^(١) ، واتهمه بعض معاصريه : « بأنه وضع كتاب الفصول والغايات في معارضة القرآن » ورماه غيرهم بالإلحاد .

وقال « ابن الجوزي » في كتابه « تلبس إبليس » ما يأتي : « ومن زنادقة الإسلام من لم يبرح على تعثره ، ففاته الدنيا والآخرة ، مثل ابن الراوندي والمعري » .
وقال الذهبي :

« والمعري صاحب التصانيف المشهورة ، والزندقة المأثورة ، وله رسالة الغفران ، قد احتوت على مزديكية واستخفاف . »

إلى آخر هذه المزاعم التي يطول بنا الكلام إذا ذكرناها وناقشناها .

وحسبنا أن نقول : إن « المعري » كان مفتوناً بالقرآن وأسلوبه ، وقد كتب في رسالة الغفران نفسها أروع وأبلغ ما يكتبه إنسان في وصف القرآن ، وشنع على من تصدى لمحاكاته ، وقد حمل على « ابن الراوندي » حملة شعواء ، وسفهى كل التسفيه لاستخفافه بالدين ، وتصديه إلى محاكاة القرآن .

وقد فند « المعري » آراء المزدكية بأبلغ حجة وأقوى بيان ، وندد بإباحتهم — في رسالة الغفران واللزوميات — بصراحة لا موارد فيها

(١) وفي ذلك قول :

« كأتى — كل حول — محدث حدثنا يرى به — من تولى المصر — إغرابي »

فقال مرة :

« شر النساء مشاعات — يكن لنا كالأرض — يحملن أبناء مشاعينا »
وقال في مناسبة أخرى :

« أقروا بالإله وأثبتوه وقالوا : لا نبي ولا كتاب
ووطء بناتنا^(١) حل مباح رويدكم فقد بطل العتاب
تمادوا — في الضلال — ولم يتوبوا ولو سمعوا صليل السيف تابوا »

كلمة ختامية

وبعد ، فقد شغل الناس بمقيدة « المعري » وفلسفته كما شغلوا بشعر « المتنبي » وشاعريته ،
واختلفوا في ذلك اختلافاً بلغت مسافته من الضد إلى الضد . ولا بدع في ذلك ، فقد
ألف الناس أن يشتغلوا بالعظيم ، ويختلفوا في تقديره .

*
* *

وقد خلد ذكر « المعري » — رغم أنف حاسديه — وضاع ذكر داعي الدعاة في غمار
الخاملين والجهولين ، حتى ليصعب على الباحث المؤرخ أن يتعرف من هو « أبو نصر
هبة الله بن موسى » — ممثل منصب داعي الدعاة — وما هي آثاره العلمية أو الأدبية ،
وإن كان من اليسير أن يعرف الكثير عن منصب داعي الدعاة الذي يمثله « أبو نصر » هذا
وغيره من الممثلين الدينيين الذين لا خطر لهم ولا قيمة إلا بمناصبهم الرفيعة وجاههم العظيم .

(١) يشير « المعري » بهذا إلى قول هذه الفئمة — وقد أثبتته « المعري » في رسالة الغفران هذه —
وروى أن قيامهم كانت تضرب بالدف وتقول :

« خذى الدف يا هذه واضربي تولى نبي بنى هاشم فلا تبغى السعى عند الصفا إذا القوم صلوا فلا تنهضى ولا تحرمى نفسك المؤمنين فكيف حلت لذاك الغريه أليس الغراس لمن ربه وما الحجر إلا كماء السحبا	وبئى فضائل هذا النبي وجاء نبي بنى يعرب ولا زورة القبر في يثرب وإن صوموا فكلنى واشتربنى من أقربين ومن أجنبي ب وصرت محرمة للأب ؟ ورواه في عامه المحجذب ؟ ب طلق ، فقدست من مذهب »
--	---

وقد شفع « المعري » رواية هذه الأبيات — كعادته — بلعن قائلاً .
وقد مر هذا كله بالفارىء في ج ٣ ص ٢٣٢ و ٢٣٣ — من هذا الكتاب .

رَسَائِلُ الْحَيَوَانِ

رَوَى يَاقُوتٌ فِي مُعْجَمِهِ أَنَّ السَّبَبَ فِي إِنْشَاءِ تِلْكَ الرِّسَالِ ، وَمَا فِيهَا مِنْ
جَوَارٍ وَمُنَاقَشَاتٍ مُتَمَعَّةٍ : أَنَّ أَبَا نَصْرَ بْنَ أَبِي عِمْرَانَ - دَاعِيَ الدِّعَاةِ بِمِصْرَ -
لَمَّا قَرَأَ قَوْلَ أَبِي الْعَلَاءِ :

عَدَوْتُ مَرِيضَ الْعَقْلِ وَالِدِينَ . فَالْقِنِي لِتَسْمَعَ أَنْبَاءَ الْعُقُولِ الصَّحَائِحِ (١)

(١) هذا البيت هو مطلع قصيدته التي نعتها تشريعه الخالص في أمر الحيوان ، وقد
أورد فيها حججه ، وبين الأسباب القاهرة التي دعته إلى تحريم أكل اللحوم على نفسه ،
ويلى هذا البيت قوله :

فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالماً	ولا تبغ قوتاً من غريض الذبائح
ولا يبيض أمات ^(١) أرادت صريحه	لأطفاها - دون الغواني الصرائح
ولا تفجعن الطير - وهي غوافل -	بما وصّعت ؛ فالظلم شر القبائح
ودع ضرب النحل الذي بكرت له	كواسب من أزهار نبت فوائح
فما أحرزته - كي يكون لغيرها ،	ولا جمعته للندى والمنائح
مسحت يدي من كل هذا ، فليتنى	أبهت لشأني ، قبل شيب المسائح !
بني زمني ! هل تعلمون سرائراً	علمت ؟ ولكني بها غير بأح
سريتم على غي ، فهلا اهتديتم	بما خبرتم صافيات القرائح ؟
وصاح بكم داعي الضلال ، فما لكم	أجبت - على ما خيلت ^(٢) - كل صائح
متى ما كشفتكم عن حقائق دينكم	تكشفتكم عن مخزيات الفضائح
فإن ترشدوا لا تخضبوا السيف من دم	ولا تلزموا الأميال ^(٣) سبر الجرائح

(١) أمات الحيوانات : أمهاتها (٢) أي من غير تدبر وروية وقصد (٣) الأميال جمع ميل ،

كُتِبَ إِلَى الْمَعْرِيِّ يَقُولُ لَهُ : أَنَا ذَلِكَ الْمَرِيضُ رَأِيًا وَعَقْلًا ، وَقَدْ أَتَيْتَكَ
مُسْتَشْفِيًا ، فَاشْفِنِي »

ودارت بينهما مراسلات في ذلك .

قال ياقوت : « ولما وَقَفْتُ عَلَى ذَلِكَ ، اشتهيت أَنْ أَقِفَ عَلَى صُورَةٍ مَا دَارَ بَيْنَهُمَا
عَلَى وَجْهِهِ ، حَتَّى ظَفَرْتُ بِمُجَلِّدٍ ، وَفِيهِ عِدَّةُ رَسَائِلَ مِنْ أَبِي نَصْرِ هَبَةَ اللَّهِ بْنِ مُوسَى
ابْنِ أَبِي عِمْرَانَ إِلَى الْمَعْرِيِّ فِي هَذَا الْمَعْنَى ، انْقَطَعَ اِخْتِطَابُ بَيْنَهُمَا عَلَى الْمَسَاكَةِ »
قَالَ : « وَنَقَلُهَا عَلَى الْوَجْهِ يَطُولُ ، فَلَخَّصْتُ مِنْهَا الْغَرَضَ ، دُونَ تَفَاصِيحِ
الْمَعْرِيِّ وَتَشَدُّقِهِ ! »

وَنَحْنُ نَأْسَفُ عَلَى فِقْدَانِ ذَلِكَ « الْمَجْلَدِ النَّفِيسِ » الَّذِي نَشَعُرُ بِشَدَّةِ الْحَاجَةِ
إِلَيْهِ ، وَنَشْكُرُ لِيَاقُوتَ تَلْخِصَهُ الَّذِي حَفِظَ لَنَا جَوْهَرَ الرِّسَائِلِ ، وَإِنْ وَدِدْنَا
لَوْ أَنَّهُ نَقَلَهَا كَمَا هِيَ بِإِلَاجِازٍ ، وَلَكِنَّ بَعْضَ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ .
وَالِى الْقَارِئِ تِلْكَ الرِّسَائِلُ كَمَا أوردَها ياقوت (١) :

إلى آخر القصيدة التي يرجع إليها القارئ — إن شاء — في الجزء الأول من اللزوميات
ص (١٨٤ — ١٨٥)

(١) هذا ما أثبتناه في الطبعة الثانية لهذه المجموعة ، سنة ١٩٢٤ — ١٩٢٥ ، وبعده ذلك
ببضع سنين عثر الأستاذ محب الدين الخطيب على نصوص هذه الرسائل في خزانة المرحوم
أحمد تيمور باشا ، فنشرها في مجلته « الزهراء » ثم ظفرنا بنسخة مخطوطة من مجالس داعي
الدعاة ، المعروفة بالمجالس المؤيدية ، ومجموعها سبعمائة مجلس ، ووجدنا فيها نصوص رسائل
داعي الدعاة في المائة السادسة منها ، وهي عند صديقنا العالم الهندي السيد محمد حسن الأعظمي ،
نقلها بخطه من الخزانة الإسماعيلية في مدينة « سورت » بالهند ، فقابلنا المخطوطة بالطبوعة ،
واستدركنا ما فاتها ، ثم ضبطناها ، وعلقنا عليها ، وأصلحنا ما بقي محررفا فيها ، وها هي
ذى كاملة مصححة .

الرسالة الأولى :

من داعى الدعاة

الشهادة لأبي العمراء بالأدب

الشيخ — أَحْسَنَ اللهُ تَوْفِيقَهُ — النَّاطِقُ بِلِسَانِ الْفَضْلِ وَالْأَدَبِ ، الَّذِي تَرَكَ مَنْ عَدَاهُ صَامِتًا ؛ مَشْهُودٌ لَهُ بِهَذِهِ الْفَضِيلَةِ ، مِنْ كُلِّ مَنْ هُوَ فَوْقَ الْبَسِيطَةِ .

غَيْرَ أَنَّ الْأَدَبَ الَّذِي هُوَ جَالِينُوسُ طَبِّهِ ، وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ غَيْبِهِ ، لَيْسَ مِمَّا يُفِيدُهُ كَبِيرَ فَايِدَةٍ فِي مَعَاشِهِ أَوْ مَعَادِهِ ، سِوَى الذِّكْرِ السَّائِرِ بِهِ الرَّكْبَانَ ، مِمَّا هُوَ إِذَا نَشَأَ مَعَ الْمَذْكَورِ بِهِ عِلْمٌ أَنَّهُ لَهُ بِمَكَانَةِ الْجَمَالِ وَالزَّيْنَةِ مَا دَامَ حَيًّا ، فَإِذَا رَمَتْ بِهِ يَدُ الْمُنُونِ مِنْ ظَهْرِ الْأَرْضِ إِلَى بَطْنِهَا ، فَلَا بِحُسْنِ ذِكْرِهِ يَنْتَفِعُ ، وَلَا بِقُبْحِهِ يَسْتَضِرُّ^(١) .

وجوب التعلُّقِ بالعلم النافع

وَإِذَا كَانَتْ الصُّورَةُ هَذِهِ ، كَانَ مُسْتَحِيلًا مِنْهُ — أَيَّدَهُ اللهُ — مَعَ وُفُورِ عَقْلِهِ ، أَنْ جَعَلَ مَوَادَّهُ كُلَّهَا مُنْصَبَةً إِلَى إِحْكَامِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالتَّقَرُّعِ فِيهَا ، وَأَسْتِيفَاءِ أَقْسَامِ الْفَاطِحَاتِ وَمَعَانِيهَا ، وَوَفَرِ حُمْرُهُ عَلَى مَا لَا نَتِيجَةَ لَهُ مِنْهَا : فَتَرَكَ نَفْسَهُ الْمُتَوَقِّدَةَ نَارَ ذِكَائِهَا خِلْوًا مِنَ النَّظْرِ فِي شَأْنِ مَعَادِهِ ؛ وَأَنْ يَمْتَارَ^(٢)

(١) في هذا المعنى يقول أبو العمراء :

ولا يسالى الميت فى لحده بدمه شيع أم حمده

(٢) امتار : جَلَبَ اللَّيْرَةَ ، أَى الطَّعَامَ ، وَالْمَرَادُ هُنَا أَنْ يَأْخُذَ مِنَ الْعِلْمِ مَا يَنْفَعُ .

مِنْ عِلْمِهِ مَا هُوَ أَنْفَعُ^(١) ، فَيَمْتَكُتُ إِذَا ذَهَبَ الزَّبْدُ جُفَاءً مِنْ غَيْرِهِ ؛ فَإِذَا هُوَ - حَرَسَ اللَّهُ عِزَّهُ - بِمُقْتَضَى هَذَا الْحُكْمِ ، مُرْتَوٍ مِنْ عَذْبٍ مَشْرَبٍ هَذَا الْعِلْمِ ، وَإِنَّمَا لَيْسَ يَبُوحُ بِهِ لِضَرْبٍ مِنْ ضُرُوبِ السِّيَاسَةِ .

دليل نظره في الاخرة

وَالدَّلِيلُ عَلَى كَوْنِهِ نَاطِرًا لِمَعَادِهِ ، بِدَقِيقِ النَّظَرِ الَّذِي لَا يَكَادُ يَجْرِي مَعَهُ جَارٌ فِي مِيدَانِهِ ، سُلُوكُهُ الْمَسْلُوكَ الَّذِي سَلَكَهُ فِي الزُّهْدِ ، وَقَصْدُهُ^(٢) شَطْفَ الْعَيْشِ ، وَتَعَوُّضُهُ عَنْ لَدِيدِ الطَّعَامِ بِالْكُرْهِ ، وَعَنْ لَيْنِ اللَّبَاسِ بِالْحَشِينِ ، وَتَعَفُّفُهُ عَنْ أَنْ يَجْعَلَ جَوْفَهُ لِلْحَيَوَانَ مَدْفِنًا ، أَوْ أَنْ يَذُوقَ مِنْ دَرِّهَا لَبَنًا ، وَأَنْ يَسْتَطْعِمَ مِنْ طَعَامِ اسْتَكَدَّتْ^(٣) عَلَيْهِ فِي حَرْتِهِ وَإِنْشَائِهِ . وَلَيْسَتْ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ إِلَّا طَرِيقَةٌ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّهَا إِذَا آَلَمَهَا ، وَنَالَ نَيْلًا مِنْهَا ، اسْتَوَى فِي جِزَاءِ فِعْلِهِ بِهَا .

وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ نُصْبَتَهُ^(٤) فِي سَلَامَةِ الْبَهِيمَةِ الْعَجْمَاءِ مِنْهُ ، فَكَيْفَ فِي إِثَارِ سَلَامَةِ الْإِنْسَانِ النَّاطِقِ الْعَاقِلِ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ ؟ وَلَعَمْرُ اللَّهِ لَقَدْ أَمْتَدَّ بِهَذَا الْبَالِ^(٥) إِلَى أَقْصَى الشَّوْطِ مِنْ مِيدَانِ الزُّهْدِ ، وَأَنْتَهَى فِيهِ إِلَى أْبْعَدِ الْبُعْدِ .

(١) في المخطوطة: ينفع (٢) أي إثارته وتوحيه . (٣) استكده الأمر: طلب منه الكد .

في المخطوطة: استكدت في حرتيه... (٤) النصبة: السارية ، وتكون للهداية في الطريق ، وقد قال المطرزي في تعليل قولك: « جعلت هذا نصب عيني »: « أي منصوبها ، أي مرئيهارؤية ظاهرة بحيث لا ينسى ولا يغفل عنه » وهذا التعليل يصلح للنصبة كما صلح للنصب

(٥) من معاني البال: الحال ، وهو المقصود هنا . وفي المخطوطة: الباب

شهرته بالفضل

وَمَا رَأَيْتُهُ — عَلَى ظَهْرِ الْغَيْبِ — قَدْ تَمَيَّزَ بِمَا ادَّعَى النَّاسُ لَهُ مِنَ الْفَضْلِ ،
وَشَفَعَهُ بِالزُّهْدِ الْمُسْتَمْلَى عَنْ مَقَرِّ الْفَهْمِ وَالْبَصِيرَةِ ، دُونَ الْجَهْلِ ، مِمَّا يَقُولُهُ
جُهَالُ الزُّهَّادِ ، الَّذِينَ يَهَيِّمُونَ مِنَ الْعَمَاةِ فِي كُلِّ وَادٍ . وَسَمِعْتُ دَاعِيَةَ الْبَيْتِ
الَّذِي يُعْزَى إِلَيْهِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ :

عَدَوْتُ مَرِيضَ الدِّينِ وَالْعَقْلِ ، فَالْقَنِي لَتَعْلَمَ ^(١) أَنْبَاءَ الْأُمُورِ الصَّحَائِحِ
وَهِيَ تَدْعُو إِلَى الْإِسْتِنَارَةِ بِأَنْوَارِهِ ، وَالْإِهْتِدَاءِ بِمَنَارِهِ ؛ شَدَدْتُ إِلَيْهِ
رَاحِلَةَ الْعَلِيلِ فِي دِينِهِ وَعَقْلِهِ ، إِلَى الصَّحِيحِ الَّذِي يُنْبِئُ أَنْبَاءَ الْأُمُورِ الصَّحَائِحِ ،
كَمَا أَهْدَى إِلَيَّ ^(٢) مَا يُوقِظُ مِنْ سِنَةِ الْعَفْلَةِ مَقْبُولَ النَّصَائِحِ .

وَأَنَا أَوَّلُ مُلَبِّ لِدَعْوَتِهِ ، مُعْتَرِفٍ بِمُخْبَرَتِهِ ، مُعْتَرِفٍ مِنْ بَحْرِ إِرْشَادِهِ
وَهِدَايَتِهِ . وَهُوَ حَقِيقٌ بِأَنْ يَكُونَ عِنْدَ آخِرِ ^(٣) وَعَدِهِ بِالتَّبَيُّنِ وَالْإِيضَاحِ ،
وَأَنْ يَتَوَقَّدَ — لِكَشْفِ حَنَادِسِ فِكْرَتِي — تَوَقُّدَ الْمُصْبَاحِ ، وَأَنْ لَا يُوطِئَنِي
الْعَشَوَاءَ فَيَسْلُكَ بِي فِي الْمَجَاهِلِ ؛ وَلَا يَعْتَمِدَ — فِي إِرَادِ مَا يُورِدُهُ — أَنْ
يَلْبَسَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ .

وَأَوَّلُ سُؤَالِي — أَدَامَ اللَّهُ سَلَامَتَهُ — سُؤَالٌ خَفِيفٌ فِيمَا لَيْسَ يَهُمُّ كَثِيرًا ،
أَقْصِدُ فِيهِ أَعْتِبَارَ ^(٤) فِعْلِهِ بِي فِي الْجَوَابِ ، فَإِنْ اسْتَشَقَّقْتُ نَسِيمَ الشِّفَاءِ ،

(١) في اللزوميات : لتسمع . والفرق ليس بالكبير . (٢) في المخطوطة : فيما يوقظ

(٣) في المخطوطة : أحسن (٤) المراد بالاعتبار هنا المعرفة والقياس ، والمراد أنه

سُئِلَتْ السُّؤَالُ إِلَى الْمُهْمِّ . وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى وَقَفْتُ بِحَيْثُ انْتَهَيْتُ .
وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ :

عنه محرم اللحوم والالبان

أَسْأَلُهُ عَنِ الْعِلَّةِ فِي تَحْرِيهِ عَلَى نَفْسِهِ اللَّحُومَ وَالْأَلْبَانَ ، وَكُلَّ مَا يَصْدُرُ
إِلَى الوجودِ مِنْ مَنَافِعِ الْحَيَوَانِ ؛ سُؤَالٌ مَنْ يَعْرِفُ بِكُونِهَا مَخْلُوقَةٌ
لِلْأَشْخَاصِ الْبَشَرِيَّةِ - مِمَّا هُوَ قَوْلُ أَهْلِ الشَّرَائِعِ - مِنْ الْقَوْلِ ، وَيَتَوَكَّأُ
عَلَى عَصَا الْعَقْلِ .

وَأَقُولُ : أَلَيْسَ النَّبَاتُ مَوْضُوعًا لِلْحَيَوَانِ الَّتِي تَمْتَارُ مِنْهَا ، وَبِوُجُودِهَا
وُجُودُهَا^(١) وَاسْتِقَامَتُهَا ، فِي حِفْظِ أَعْوَانِهَا^(٢) ، وَوِلَادَةِ مَوَالِيدِهَا ؟ وَإِنَّمَا يَسْتَوْلِي
الْحَيَوَانُ عَلَيْهَا بِالْقُوَّةِ الْحَسَّاسَةِ الَّتِي تَرْجَحُ بِهَا عَلَى النَّبَاتِ مِنْ حَيْثُ كَوْنِهَا
نَامِيَةً فَقَطْ ، وَلَيْسَتْ بِحَسَّاسَةٍ ؛ فَلَوْ لَمْ يَكُنِ الْحَيَوَانُ ، لَكَانَ مَوْضُوعُ
النَّبَاتِ بَاطِلًا لَا مَعْنَى لَهُ .

وَعَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ ، فَإِنَّ الْقُوَّةَ الْإِنْسَانِيَّةَ مُسْتَوِيَّةً عَلَى الْحَيَوَانِ ، أُسْتِيْلَاءً
الْحَيَوَانِ عَلَى النَّبَاتِ ، لِرُجْحَانِهَا عَلَيْهَا بِالنُّطْقِ وَالْعَقْلِ ؛ فَهِيَ مُسَخَّرَةٌ بِجَمِيعِهَا .
فِيهَا مَا تَأْكُلُ مِنَ لُحُومِهِ وَالْبَانِهِ ، وَمِنْهَا مَا تَسْتَنْفَعُ بِجُلُودِهِ وَأَوْبَارِهِ ،
وَمِنْهَا مَا تَسْتَنْفَعُ بِمِرَائِرِهِ^(٣) ، وَمِنْهَا مَا تَنْتَفِعُ بِأَنْبَابِهِ وَمَخَالِبِهِ ؛ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ

(١) أى وجود الحيوان موقوف على وجود النبات . وداعى الدعاة يؤنث الحيوان
والنبات ، ويجوز هذا ، على أن يكون من باب الحمل على المعنى ، أو باعتبار الأفراد .

(٢) فى المخطوطة : أعيانها (٣) المرائر : القوى والعزائم . والمراد : الحيوانات القوية

التي تتخذ للجر والحمل .

ذَلِكَ كَذَلِكَ ، لَكَانَ مَوْضُوعُ الْحَيَوَانِ بَاطِلًا ، عَلَى حَسَبِ مَا قَدَّمَ نَاهُ مِنْ ذِكْرِ
النَّبَاتِ ، وَكَوْنِ مَوْضُوعِهَا - لَوْلَا وُجُودُ الْحَيَوَانِ - بَاطِلًا .

وَإِذَا كَانَ تَرْتِيبُ مَوْجُودَاتِ الْعَالَمِ هَذَا التَّرْتِيبَ ، فَتَجَانِبِ الشَّيْخِ
- وَفَقَهُ اللَّهِ - عَنِ الْإِنْتِفَاعِ بِمَا هُوَ مَخْلُوقٌ لَهُ ، إِبْطَالُ التَّرْتِيبِ الْخَلْقَةِ ،
وَدَفْعُهُ فِي وَجْهِ الْمَصْلَحَةِ .

ثُمَّ إِنْ اِمْتَنَاعَهُ مِنْ أَكْلِ لَحُومِ الْحَيَوَانِ ، لَيْسَ يَخْلُو الْقَصْدُ فِيهِ مِنْ أَحَدِ
أَمْرَيْنِ : إِمَّا أَنْ تَأْخُذَهُ رَافَةٌ بِهَا ، فَلَا يَرَى تَنَاوُلَهَا بِالْمَكْرُوهِ ؛ وَمَا يَنْبَغِي أَنْ
يَكُونَ أَرْأَفَ بِهَا مِنَ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ - الَّذِي خَلَقَهَا وَهَيَّأَهَا لِمَصَالِحِ الْبَشَرِ .
فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : إِنْ الَّذِي أَطْلَقَ الْقَوْلَ بِأَنَّ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ هُوَ
بَعْضُ الْبَشَرِ - يَعْنِي أَصْحَابَ الشَّرَائِعِ - وَأَنَّ الْخَالِقَ مَا أَبَاحَ إِزَاقَةَ دَمِ حَيَوَانٍ
وَلَا أَكَلَ لَحْمِهِ ؛ كَانَ الدَّلِيلُ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِهِ ، وَقُوعَ الْمُشَاهَدَةِ لِنَسَبِ السَّبَاحِ ،
وَجَوَارِحِ الطَّيْرِ ، الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - عَلَى صَنِيعَةٍ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِتَنْشِ
اللُّحُومِ وَفَسْخِهَا ، وَتَمْزِيقِ الْحَيَوَانِ وَأَكْلِهَا^(١) . وَإِذَا كَانَ هَذَا الشَّكْلُ قَائِمًا
الْعَيْنِ فِي الْفِطْرَةِ ، كَانَ جِنْسُ الْبَشَرِ وَسَبِيحَ الْعُذْرِ فِي أَكْلِ اللَّحُومِ ، وَكَانَ مَنْ
أَحَلَّ^(٢) ذَلِكَ لَهُمْ : مُحِقًّا لَا مُبْطِلًا ، وَصَادِقًا لَا كَاذِبًا .

(١) لم يفعل أبو العلاء عن هذا ، فقد قال :

« ولو لم يرد جور البزاة على القطا مصورها ، ما صاغها بمناسر »

ثم أوغل في هذا المعنى فقال :

« ظلم الحامة في الدنيا - وإن حسبت في الصالحات - كظلم الصقر والبازي »

(٢) كان في الطبوعة : من أجل

فَهَذَا أَحَدُ الْبَابَيْنِ .

وَأَمَّا أَنَّهُ يُجِدُ سَفَكَ دِمَاءِ الْحَيَوَانِ ، وَنَزَعَهَا عَنْ أَرْوَاحِهَا ؛ خَارِجًا مِنْ أَوْضَاعِ
الْحِكْمَةِ ؛ وَذَلِكَ اعْتِرَاضٌ مِنْهُ عَلَى الْخَالِقِ — سُبْحَانَهُ — الَّذِي هُوَ أَعْرَفُ
بِوُجُوهِ الْحِكْمَةِ .

وَهَذَا الْبَابُ الْآخِرُ .

طلب الجواب

وَإِذَا أُنْعِمَ الشَّيْخُ — أَدَامَ اللَّهُ تَوْفِيقَهُ — وَتَفَضَّلَ ، وَسَاقَ إِلَى حُجَّةٍ
أَعْتَمِدُهَا فِي هَذَا الْبَابِ ، رَجَوْتُ كَشْفَ الْمَرَضِ — الَّذِي وَقَعَ اعْتِرَافِي بِهِ
فِي مُسْتَأْنَفِ السُّؤَالِ — بِمَطْلَعِ صُبْحِ يَبَانِهِ ؛ فَيَكُونُ قَدْ غَرَسَ مِنِّي غَرْسًا
زَكِيًّا ، وَهَدَانِي صِرَاطًا سَوِيًّا . وَيَزِدَادُ — بِمَكَانِهِ ذَلِكَ — فِي مَوَاجِ
الْخَيْرِ وَوُلُوجًا ، وَفِي مَعَارِجِ أَكْتِسَابِ فَضِيلَةِ الشُّكْرِ وَالْأَجْرِ عُرُوجًا .
بِمَسِيئَةِ اللَّهِ وَعَوْنِهِ .

من أبي العلاء

قَالَ الْعَبْدُ الضَّعِيفُ الْعَاجِزُ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سُلَيْمَانَ :

أَوَّلُ مَا أَبْدَأُ بِهِ أَنِّي أَعُدُّ سَيِّدَنَا الرَّئِيسَ الْأَجَلَ الْمُؤَيَّدَ فِي الدِّينِ - أَطَالَ
اللَّهُ بَقَاءَهُ ، وَأَدَامَ عِلَاءَهُ - يَمُنُّ وَرِثَ حِكْمَةَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَعُدُّ نَفْسِي الْخَاطِئَةَ
مِنَ الْأَغْيَاءِ . وَهُوَ - بَكِتَابِهِ إِلَيَّ - مُتَوَاضِعٌ ، وَغَيْرُ شَرْفِهِ الْخَاضِعُ^(١) ؛ بَلْ هُوَ
مَعَ الشُّجُومِ جَارٍ ، لَا يَفْتَقِرُ لِنَلْبِهِ إِلَى الْإِفْجَارِ . وَاللَّفْظَةُ مِنْ كَلَامِهِ ، تَقْضِي
عَلَى كُلِّ مَنْ خَالَفَ بِمَلَامِهِ ، وَقَدْ حَضَرْتَنِي فِيمَا نَطَقَ بِهِ دَفَائِقُ ، هُنَّ لَدَى
الْكَشْفِ حَقَائِقُ .

نواضع أبي العلاء

وَمَنْ أَنَا حَتَّى يَكْتُبَ إِلَيَّ ؟ مِثْلُهُ فِي ذَلِكَ مِثْلُ الثَّرِيَاءِ الطَّالِعَةِ كَتَبَتْ إِلَيَّ
الثَّرِيءُ ، وَهُوَ لَا يَسْمَعُ وَلَا يَرَى . وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ سَمْعِي ثَقِيلٌ ، وَبَصْرِي
عَنِ الْأَبْصَارِ كَلِيلٌ^(٢) . قُضِيَ عَلَيَّ وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعٍ ، لَا أَفْرُقُ بَيْنَ الْبَازِلِ وَبَيْنَ
الرُّبْعِ^(٣) ؛ ثُمَّ تَوَالَتْ مَحْنِي ، حَتَّى أَشْبَهَ شَخْصِي الْعُودَ الْمُنْحَنِي ؛ وَمُنِيئْتُ فِي
أُخْرَى الْعُمُرِ بِالْإِقْعَادِ ، وَعَدَانِي عَنِ النَّهْضَةِ عَادٍ !

(١) خضع : تطامن ، فالشرف الخاضع : غير السامي (٢) وفي رواية : ثقيل ،
والثقل : الغريب ، والمعنى يستقيم بشيء من التحليل ، أى غريب عن الإبصار (٣) البازل :
الجل الذي يكون في تاسع سنه ، والرُّبع - كصرد - الذي ينتج في الربيع ، وهو أول النتائج

شهوة أبي العلاء

وَأَمَّا اشْتِهَارُ أَسْمِي ، فَقَدْ شَهِدَ اللَّهُ - جَلَّتْ عَظَمَتُهُ - أَنَّ لَأَرْغَبُ فِيهِ ،
إِذْ نَفْسِي - لَدَيَّ - حُقَّتْ بِالتَّسْفِيهِ . وَالذَّمُّ فِي ذَلِكَ لِعَيْرِي ، لِأَنَّهُ يَظُنُّ ظُنُونًا
كَاذِبَةً ، لَا تَزَالُ عَنْ صِدْقِ عَازِبَةَ^(١) . وَالكَرِيمُ الصَّادِقُ يَقِيسُ سَجِيَّاتِ
العَالَمِ عَلَى سَجَايَاهُ ، فَيَظُنُّ الْمُبْطِئَةَ مِنْ نَجَايَاهُ^(٢) .

عذر أبي العلاء

فَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ سَيِّدُنَا الرَّئِيسُ الْأَجَلُ الْمُؤَيَّدُ فِي الدِّينِ - لَا زَالَ مُفْهِمًا
لِلْمُخَالَفِ ، وَنَاصِرًا لِلْمُوَالِيِ الْمُؤَوَّلِ فِي - فَالْعَبْدُ الضَّعِيفُ الْعَاجِزُ يَذْكَرُ لَهُ
بِمَا عَانَاهُ^(٣) طَرَفًا ، لَعَلَّ عُذْرَهُ يُسْمَى مُعْتَرَفًا .

فَأَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ - عَزَّتْ عَظَمَتُهُ - حَكَمَ عَلَيَّ بِالْإِزْهَادِ ، فَطَفِقْتُ مِنْ
الْعُدْمِ فِي جِهَادٍ . وَتَعَرَّضْتُ لِلدُّنْيَا الْخَادِعَةِ تَعَرُّضَ نَاكِلٍ^(٤) عَاجِزٍ ، لَيْسَ
لِيْخُطُبُ بِهَا^(٥) بِالْمُنَاجِزِ ، فَرَمَحْتَنِي كَرَمِيْحِ الشَّمْسِ^(٦) ، وَقَالَتْ لِي : عَلَيْكَ بِالرَّمُوسِ .
وَنَادَتْ : صَاحِبِي سِوَاكَ ، وَلَنْ أَبْلُغَ هَوَاكَ !

وَأَنْصَرَفْتُ كَمَا قِيلَ فِي الْمَثَلِ : مُكْرَهُ أَخُوكَ لَا بَطْلُ ، وَحَظِّي مِنَ الْخُلِيِّ
الْعَطْلُ . فَعَفَلْتُ بَرْهَةً ثُمَّ أَهَيْتُ^(٧) ، وَنَبَهَنِي الْفِكْرُ فَانْتَبَهْتُ .

-
- (١) عازبة : بعيدة (٢) نوق نجايا : سراع ، جمع : نجية ، ويقال أيضا : ناجية .
(٣) في معجم ياقوت : عاياه . (٤) الناكل ، الضعيف . وفي المطبوعة : نكل .
(٥) كان في المطبوعة ، والخطوطة : خطوتها . والمعنى لا يستقيم بها ، فأصلحناها بما ترى .
(٦) الفرس الشموس : التي تمنع ظهرها . (٧) أبة الشيء : نسيه ، ثم تفظن له .

وَهُوَ^(١) يَجِلُّ أَنْ أَكُونَ سَائِلًا لَهُ أَوْ مَسْئُولًا ، بَلْ هُوَ الْإِيكُ أَتْبَعُهُ
سَوْوَلًا^(٢) . وَلَكِنِّي أَحْكِي الْمَسْئَلَةَ عَنْ غَيْرِي ، وَإِنْ كُنْتُ أَتَّبِعِي بِهَا مَيْرِي .

احساس الحيوان

وَأَمَّا قَوْلُ الْعَبْدِ الضَّعِيفِ :

غَدَوْتُ مَرِيضَ الدِّينِ وَالْعَقْلِ ، فَالْقِنِي لِتَسْمَعَ أَنْبَاءَ الْأُمُورِ الصَّحَائِحِ
فَإِنَّمَا خَاطَبَ بِهِ مَنْ غَمَرَهُ الْجَهْلُ ، لَا مَنْ هُوَ لِلرِّيَاسَةِ عَلمٌ وَأَهْلٌ .
وَقَدْ عَلمٌ - جَمَلَ اللهُ الْحِكْمَةَ بِبِقَائِهِ - أَنَّ الْحَيَوَانَ كُلَّهُ حَسَّاسٌ ، يَقَعُ
بِهِ الْأَلَمُ ، وَحَالُهُ فِي ذَلِكَ يُعَلَمُ .

اختلاف القدماء

وَقَدْ سَمِعَ الْعَبْدُ الضَّعِيفُ الْعَاجِزُ شَيْئًا مِنْ اخْتِلَافِ الْقَدَمَاءِ ، يَكُونُ
- فِيمَا سَمِعَهُ سَيِّدُنَا الرَّئِيسُ الْأَجَلُّ الْمُؤَيَّدُ فِي الدِّينِ - لَا فِتْيَةً إِلَى الْمَنَارِ^(٣)
هَادِيًا ، وَعَلَى مَنْ اخْتَدَاهُ لِلْمَصْلَحَةِ حَادِيًا - جُزْءًا مِنْ أَجْزَاءِ تَجَاوُزِ فِي الْعَدَدِ
الْوَفَا ، وَيُوجَدُ يَقِينُهَا مَا لَوْفًا .

قضية الخبر والشر

فَأَوَّلُ مَا يُبْدَأُ بِهِ أَنْ قَاتِلًا مِنَ الْبَشَرِ لَوْ قَالَ : إِذَا بَنِينَا^(٤) الْقَضِيَّةَ الْمُرَكَّبَةَ
مِنَ الْمُسْنَدِ وَالْمُسْنَدِ إِلَيْهِ ، وَلَهَا وَاسِطَتَانِ ، إِحْدَاهُمَا نَافِيَةٌ وَالْأُخْرَى
اسْتِثْنَائِيَّةٌ ، فَقُلْنَا : « اللهُ لَا يَفْعَلُ إِلَّا خَيْرًا » أَفَهَذِهِ الْقَضِيَّةُ كَاذِبَةٌ أَمْ صَادِقَةٌ ؟

(١) أى داعى الدعاة (٢) كان بالأصل : مؤولاً (٣) يشير إلى الحديث : « إن

للإسلام صومى ومناراً كمنار الطريق » (٤) فى المطبوعة : تبينا ، والسياق يدل على أنه
يركب قضية على قياس المنطق ، فأصلحنا اللفظ بما ترى

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّهَا صَادِقَةٌ ؛ رَأَيْنَا الشَّرُّورَ غَوَالِبَ ، وَلِلْخَيْرَاتِ الْمُكْتَمَسَةِ قَوَالِبَ .
فَعَلِمْنَا أَنَّ ذَلِكَ سِرٌّ خَفِيٌّ ، لَا يَشْعُرُ بِهِ إِلَّا الْخَفِيُّ (١) .

وَفِي الْكِتَابِ الْكَرِيمِ : « وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ ، يَقُولُوا : هَذِهِ مِنْ عِنْدِ
اللَّهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ، يَقُولُوا : هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ . قُلْ : كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، فَمَا
لَهُمْ لِآءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ؟ » فَإِنْ قَالَ الْقَائِلُ : قَدْ رَوَى أَنَّ
النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ السَّفَرَ ، قَالَ : « اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ ،
وَكَاثِبَةِ الْمُنْقَلَبِ ، وَسُوءِ الْمُنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْوَالِدِ » أَفْهَذِهِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي
تَعُوذُ مِنْهَا خَيْرَاتٌ أَمْ شُرُورٌ ، لَا يَكْمُلُ بِهَا الشَّرُّورُ ؟

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : هِيَ مَخُوفَةٌ مُنْكَرَةٌ ، فَقَدْ أَبْطَلَ الْقَضِيَّةَ الَّتِي هِيَ مُتَقَدِّمَةٌ ،
لِأَنَّهَا - لِمَا سَلَفَ - طُرُودٌ مُعْدِمَةٌ .

وَإِنْ قَالَ : الْقَضِيَّةُ الْمَذْكُورَةُ لَا تَصِحُّ ، فَالَسَّائِلُ بِسَيِّءِ الْأَدَبِ يُلْدِحُ .

فاعل الشر

فَإِنْ قَالَ : الْقَضِيَّةُ مُنْعَكِسَةٌ ، وَهِيَ بَعْدَ بَحْثٍ مُتَكِسَةٌ . فَقَدْ لَزِمَهُ
أَنْ يَقُولَ : إِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - يَفْعَلُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ . فَإِنْ أُلِيَ ذَلِكَ ، رَجَعَ
إِلَى مَا يَقُولُهُ الْمَجُوسُ مِنْ أَنَّ لِلْعَالَمِ خَالِقَيْنِ : أَحَدُهُمَا : بُرْدَانُ ، وَهُوَ فَاعِلُ الْخَيْرِ ،
وَالْآخَرُ : أَهْرَمُزُ ، وَهُوَ فَاعِلُ الشَّرِّ .

وَمَعَاذَ اللَّهِ أَنْ تَقُولَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ ؛ بَلْ نُكْرِمُ شَرْعَنَا ، وَنَبْسِطُ - فِي
اتِّبَاعِهِ - ذَرْعَنَا .

(١) الْخَفِيُّ : كَفَيْ ، الْعَالِمُ ، يَتَعَلَّمُ بِاسْتِقْصَاءٍ ، وَيَلْحَفُ فِي السُّؤَالِ

الحزب على الراملين

وَمَا تُؤْتِيْ اِبْرَاهِيْمَ^(١) - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بَكَى عَلَيْهِ ، فَقِيْلَ : يَا رَسُوْلَ اللّٰهِ ،
اَنْتَ تَنْهَانَا عَنِ الْبُكَاءِ . فَقَالَ : « تَدْمَعُ الْعَيْنُ ، وَيَخْشَعُ الْقَلْبُ ، وَلَا نَقُوْلُ
مَا يُسْخِطُ الرَّبَّ ، وَاِنَّا عَلَيْنَا يَا اِبْرَاهِيْمَ لَمَحْزُونُونَ » .

أَمَوْتُ اِبْرَاهِيْمَ مِمَّا كَانَ النَّبِيُّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَرَاهُ خَيْرًا أَمْ شَرًّا ؟
وَيَقُوْلُ الْقَاتِلُ الْمُجْتَرِيُّ : أَمَا كَانَ مِنْ قَتْلِ الْحُسَيْنِ وَسَمِّ الْحُسَيْنِ ، الْمَشْرِدِ
عَنِ الْعَيْنِ طَيْبِ الْوَسَنِ ، أَخَيْرًا أَمْ شَرًّا ؟ فَإِنْ قَالَ : إِنَّهُ خَيْرٌ . فَعَلَامَ نَلْعَنُ
الْقَاتِلَ فِي صُبْحِ وَمَسَاءٍ ، وَنَزَعُمُ أَنْ سَفَنَهُ فِي الْمَأْتَمِ ذَوَاتُ إِرْسَاءٍ ؟
وَلِلْبَارِي - عَزَّتْ قُدْرَتُهُ - أَسْرَارٌ ، وَقَفَّ ذُوْمَهَا الْأَبْرَارُ . وَلَعَلَّ هَذِهِ
الْأَشْيَاءُ مُخْفَاةٌ ، إِلَى أَنْ تَقْبِضَ الْحَيَّ وَفَاةٌ .

شهداء الفتح

وَكَذَلِكَ الَّذِينَ قُتِلُوا يَوْمَ أُحُدٍ ، سَأَلْتُهُمْ مُشِكِلٌ ، وَالنَّظْرُ فِي حَدِيثِهِمْ يُشِكِلُ^(٢) .
أَفَقَتَلُ حَمْزَةَ^(٣) حُسْبَ مِمَّا يُحْمَدُ ، أَمْ هُوَ عِبْرَةٌ لِلْعَيْنِ وَرَمَدٌ ؟ وَالْحَدِيثُ
الْمَشْهُورُ أَنَّ الْغُرَاةَ لَمَّا رَجَعُوا إِلَى الْمَدِيْنَةِ ، بَكَتِ النِّسَاءُ عَلَى قَتْلِهَا ، فَقَالَ (ص) :
« لَكِنْ حَمْزَةُ لَا بَوَاكِي لَهُ ! » فَصَارَ النِّسَاءُ يَبْدَأْنَ بِبُكَاءِ حَمْزَةَ ، ثُمَّ يَنْتَقِلْنَ
إِلَى مَنْ فَارَقَهُنَّ .

وَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيُّ :

صَفِيَّةٌ قَوْمِي وَلَا تَعْجِزِي وَبَكَى النِّسَاءُ عَلَى حَمْزَةَ

(١) ولد النبي صلوات الله عليه (٢) أشكل الأمر : غمض والتبس .

(٣) مر حديث عنه في ص ٧٤ من الجزء الثاني من هذا الكتاب

وَلَا تَتْرُكِي أَنْ تُطِيلِي الْبُكَاءَ ۚ عَلَى أَسَدِ اللَّهِ فِي الْهَزَّةِ
وَالْبُكَاءِ إِنَّمَا يَحْدُثُ مِنَ الْحُزَنِ ، وَإِنَّ الْأَيَّامَ لَكَثِيرَةٌ مِنَ الْحُزَنِ !

هجران اللحوم

وَلَمْ يَزَلْ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَى الدِّينِ يَرْغَبُ فِي هِجْرَانِ اللَّحُومِ ، لِأَنَّهَا لَا يُوَصَّلُ
إِلَيْهَا إِلَّا بِالْإِيلَامِ لِحَيَوَانٍ ، يَفِرُّ مِنْهُ فِي كُلِّ أَوَانٍ .
وَإِنَّ الضَّائِنَةَ^(١) لَتَكُونُ فِي مَحَلِّ الْقَوْمِ وَهِيَ حَامِلٌ ، فَإِذَا وَضَعَتْ وَبَلَغَ
وَلَدُهَا شَهْرًا أَوْ نَحْوَهُ ، أُعْتَبَطَ فَأُكِلَ نَحْضُهُ^(٢) ، وَرَغِبُوا فِي اللَّبَنِ ، وَلَمْ يَعْتَدُوا
ذَلِكَ مِنَ النَّبَنِ . وَبَاتَتْ أُمُّهُ نَاعِيَةً^(٣) ، لَوْ تَقَدَّرَ لَسَعَتْ لَهُ بَاعِيَةً !

هبنين الحيوارة في شعر العرب

وَقَدْ تَرَدَّدَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ ذِكْرُ مَا يَلْحَقُ الْوَحْشِيَّةَ مِنَ الْوَجْدِ ، وَتَرَدَّدَهَا
مِنَ الْغُلَّةِ بِنُورٍ وَنَجْدٍ . وَكَذَلِكَ وَلَدَ النَّاقَةَ إِذَا فَقَدَتِ الْفَصِيلَ ، ذَكَرَتْهُ
عَدَاتُهَا وَالْأَصِيلَ . كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :
فَمَا وَجَدَتْ كَوْجِدِي أُمَّ سَقْبٍ^(٤) أَضَلَّتْهُ فَرَجَعَتْ الْحَيْنِنَا
وَلَا شَمَطَاءَ لَمْ يَتْرُكْ شَقَاهَا لَهَا - مِنْ تِسْعَةٍ - إِلَّا جَنِينَا
وَقَالَ الْآخَرُ :

فَمَا وَجَدْتُ أَظَارٍ^(٥) ثَلَاثَ رَوَائِمٍ أَصْبَنَ مَجُورًا مِنْ جَوَارٍ وَمَصْرَمًا

(١) الأنثى من الضأن ، وفي النسخة المطبوعة : الضائنية . ولا وجه لها (٢) نحضه : لحمه

(٣) نَعَتِ الْغَنَمَ : صَوَّتَتْ . وكان في النسخة المطبوعة : ناعية . والأولى ما أثبتناه

(٤) السقْب : ولد الناقة ، أو ساعة يولد (٥) الأظَار جمع : ظئر ، وهي العاطفة على

يُدْكِرْنَ ذَا السَّجْوِ الْحَزِينَ بِسَجْوِهِ
بِأَوْجَدَ مِنِّي ، يَوْمَ فَارَقْتُ مَالِكًا
وَإِذَا نَاحَتِ الْأُولَى ، سَجَعْنَ لَهَا مَعَا
فَأَصْبَحْتُ مَحْزُونًا لِذَلِكَ مُفْجَعًا
وَقَالَ الْآخَرُ :

كَأَنَّ قُتُودَ رَحْلِي يَوْمَ صَمَمْتُ
عَلَى وَخَشِيَّةٍ خَلَجَتْ خُلُوجًا
حَوَالِبَ غُرَزًا وَمَعِي جِيَاعًا
وَكَانَ لَهَا طَلًّا طِفْلًا فُضَاعًا
فَكَرَّتْ عِنْدَ فَيْقَتِهَا إِلَيْهِ
لَعِينَ بِهِ .. فَلَمْ يَتْرُكْ إِلَّا
إِهَابًا قَدْ تَمَزَّقَ أَوْ كُرَاعًا

شَبَّهُ نَاقَتَهُ -- فِي سُرْعَتِهَا وَتَرَدُّدِهَا -- بِالْوَحْشِيَّةِ الْمَفْجُوعَةِ بِوَلَدِهَا ،
لِأَنَّهَا نِهَائِيَّةٌ فِي الْأَسْفِ وَالْقَلْقِ .

النفيع على الأبناء

وَقَالَ أَبُو ذُوَيْبٍ الْهُذَلِيُّ (١) :

أُودَى بَنِي ، وَأَعْقَبُونِي حَسْرَةً
فَالْعَيْنُ بَعْدَهُمْ كَأَنَّ حِدَاقَهَا
بَعْدَ الرَّقَادِ ، وَعَبْرَةٌ مَا تُقْلَعُ
مُصِلَتْ بِشَوْكٍ ، فَهِيَ عُورٌ تَدْمَعُ
أَفْهَذَا خَيْرٌ أَمْ شَرٌّ ؟

وَقَالَ أَبُو ذُوَيْبٍ أَيْضًا :

فَدَعُ عَنْكَ هَذَا وَلَا تَبْتَهِّجْ
وَخَفِضْ عَلَيْكَ مِنَ الْحَادِثَا
خَيْرٍ ، وَلَا تَبْتَسِسْ عِنْدَ ضُرِّ
تِ ، وَلَا تُتْلِفَيْنِ كَثِيرًا بِشَرِّ
تِ ، فَاسْتَبِقْنِ (٢) أَحَبَّ الْجُزْرِ
فَإِنَّ الرَّجَالَ إِلَى الْحَادِثَا

(١) ترجمته وحديث عنه في ص ٣٥ و ٣٦ من الجزء الثاني من هذا الكتاب .

(٢) كان بالأصل : فاستبقين

أَبَعَدَ ابْنَ عَجْرَةَ - لَيْتَ الْعَرِيِّينَ - أُمْسَى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ ذَا نَفَرٍ
وَهُمْ سَبْعَةٌ - كَعَوَالِي الرِّمَاءِ ح - حِسَانُ الْوُجُوهِ، لَطَافُ الْأَزْرُ
فَيُقَالُ : إِنَّ ابْنَ عَجْرَةَ قُتِلَ لَهُ سَبْعَةٌ بَنِينَ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ .
وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ أَبَا ذُوَيْبٍ كَانَ لَهُ سَبْعَةٌ بَنِينَ ، فَشَرِبُوا مِنْ لَبَنٍ قَدْ شَرِبَتْ
مِنْهُ حَيَّةٌ ، ثُمَّ قَاءَتْ فِيهِ . فَهَلَكُوا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ .

علم الله بالخير والشر

وَالسَّائِلِ أَنْ يَقُولَ : « إِنَّ كَانَ أَحْيَرُ لَا يُرِيدُ رَبَّنَا - عَزَّتْ قُدْرَتُهُ -
سِوَاهُ ، فَالشَّرُّ لَا يَخْلُو مِنْ أَحَدٍ أَمْرَيْنِ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ عَلِمَ بِهِ ، وَإِمَّا أَنْ
يَكُونَ غَيْرَ عَالِمٍ بِهِ - وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْمَقَالَةِ - فَإِنْ كَانَ عَالِمًا بِهِ ،
فَلَا يَخْلُو مِنْ أَحَدٍ أَمْرَيْنِ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُرِيدًا لَهُ ، أَوْ غَيْرَ مُرِيدٍ .
فَإِنْ كَانَ مُرِيدًا ، فَكَانَتْهُ الْفَاعِلُ ، كَمَا أَنَّ الْقَائِلَ يَقُولُ : قَطَعَ الْأَمِيرُ
يَدَ السَّارِقِ ، فَأَلَامِيرُ قَطَعَهَا ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَلِ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ .
وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مُرِيدٍ لَهُ ، فَقَدْ جازَ عَلَيْهِ مَا لَا يَجُوزُ مِثْلُهُ عَلَى أَمِيرٍ ، لَهُ فِي
الْأَرْضِ نَظْرَاءُ كَثِيرٌ ، لِأَنَّهُ إِذَا فُعِلَ فِي وِلَايَتِهِ شَيْءٌ لَا يَرْضَاهُ ، نَكَرَهُ أَشَدَّ
النَّكَيرِ ، وَأَمَرَ بِرَوَالِهِ عَنْ غَيْرِ^(١) .

هَذِهِ الْعَقْدُ قَدْ جَهَدَ فِي حَلِّهَا الْمُتَسَكِّمُونَ - مِنْ أَهْلِ الشَّرَائِعِ - فَلَمْ يَجِدُوا
لَهَا انْحِلَالًا ، وَأَصْبَحَ مَقَالَتُهُمْ ضَلَالًا .

الرأفة بالحيوان

وَيَقُولُ الْقَائِلُ : قَدْ ذَكَرَتِ الْأَنْبِيَاءُ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - أَنَّ الْبَارِيَّ

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ . وَلَمْ نَعْرِفْ لَهُ وَجْهًا .

- جَلَّتْ قُدْرَتُهُ - رَهْوفٌ رَحِيمٌ ، وَنُشَاهِدُ مَا هُوَ - عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ - دَلِيلٌ ،
لِأَنَّهُ لَوْ رَأَفَ بَيْنِي آدَمَ ، لَوَجِبَ أَنْ يَرَأْفَ بَعِيْرِهِمْ مِنْ أَصْنَافِ الْحَيَوَانِ ،
الَّذِي يَجِدُ الْآلَمَ بِأَذْنِي شَيْءٍ . وَلِمَ يُخْصُ الْإِنْسَ بِذَلِكَ ؟ وَهُمْ الَّذِينَ يَحْنُونَ
الْكِبَائِرَ ، وَيُقَدِّمُونَ عَلَى إِيْتَانِ الذُّنُوبِ ؟

وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ الْوَحْشَ الرَّائِعَةَ ، يَدْنُو إِلَيْهَا الْفَارِسُ ، فَيَطْعَنُ الْعَيْرَ وَالْأَتَانَ ،
وَرُبَّمَا كَانُوا جَمَاعَةً ، فَصَادُوا الْأُنَّ وَالْأَعْيَارَ ، وَهُنَّ مَا أَسْدَيْنَ إِلَيْهِمْ أَذَاهُ ،
وَلَا أُشْتَكُوا مِنْهُمْ شِدَاةً ^(١) . وَلَمْ يَقْنَعُوا بِالْكَافِي الْعَاجِلِ ، دُونَ مَا قُدِّرَ
فِي الْآجِلِ .

وَلِأَيِّ حَالٍ اسْتَوْجِبَ مَنْ يَفْعَلُ بِهَا هَذَا الرَّأْفَةَ ، وَهِيَ لَمْ تَشْرَبْ مِنْ
الْمَآثِمِ بِذُنُوبٍ ^(٢) ، وَلَمْ تُحْسَ مَا يُكْتَبُ مِنَ الذُّنُوبِ ؟

تقاتل الانسان

وَقَدْ رَأَيْنَا الْجِيْشَيْنِ الْمُنْتَسِبِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى الشَّرْعِ الْمُنْفَرِدِ ، يَلْتَقِيَانِ
وَكِلَاهُمَا فِي مَدَدٍ ، وَيُقْتَلُ بَيْنَهُمَا آلَافٌ عَدَدٍ .
أَفَهَذَا مُحْسُوبٌ مِنْ أَيِّ الْوَجْهَيْنِ ، فَلَيْسَ عِنْدَ النَّظَرِ بِهِيْنِ ؟

مباهة أبي العمراء

فَلَمَّا رَأَى الْعَبْدُ الضَّعِيفُ الْعَاجِزُ اخْتِلَافَ الْأَقْوَالِ ، وَأَيَقَنَ بِتَفَادٍ وَزَوَالٍ .
وَبَلَغَ ثَلَاثِينَ عَامًا ، سَأَلَ رَبَّهُ إِنْ عَامًا ، فَرَزَقَهُ صَوْمَ الدَّهْرِ ، فَلَمْ يُفْطِرْ فِي السَّنَةِ

(١) الأذاهة، والشدة: الأذى (٢) الذنوب: الدلو

وَلَا الشَّهْرَ . إِلَّا فِي الْعِيدَيْنِ ، وَصَبَرَ عَلَى تَوَالِي الْجُدَيْدَيْنِ . وَلَزِمَ الْإِمْسَاكَ عَنِ الْمَاكِلِ ، إِلَّا أَنْ يَلْحَقَهُ الْمَرَضُ ، فَيَخَافُ مَعَهُ الْجَرَضُ . وَظَنَّ اقْتِنَاعَهُ بِالنَّبَاتِ ، يُثَبَّتُ لَهُ فِي الْعَاقِبَةِ حَمِيلَ الْإِثْبَاتِ . وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ ، لَأَسْتَكْرَثْتُ مِنَ الْخَيْرِ . وَفِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ : « إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يَضِلُّ ، وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » .

*
*
*

وَقَدْ عَلِمَ سَيِّدُنَا الرَّئِيسُ الْأَجَلُ الْمُؤَيَّدُ فِي الدِّينِ — لَا بَرَحَ كَوَكْبًا يَفْزَعُ إِلَيْهِ الْحَايِرُ ، وَنُورًا يَهْتَدِي بِهِ السَّارِي وَالسَّائِرُ — أَنِّي إِلَى إِرْشَادِهِ أَفْقَرُ مِنْهُ إِلَى إِرْشَادِي ، وَقَدْ أَسْلَفَ إِلَى الْأَيَادِي .

وَالْعَبْدُ الضَّعِيفُ الْعَاجِزُ يَسْأَلُ أَنْ يَشْفَعَ يَدًا يَبِيدُ ، لِيُعِمَّ تَفْعُمًا فِي الْأَبَدِ . وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ نَظَرَ فِي الْكُتُبِ الْمُسْتَقَدِّمَةِ ، وَمَا حُكِيَ عَنْ جَالِينُوسَ وَغَيْرِهِ مِنْ انْتِقَادٍ ، يَدُلُّ عَلَى حَيْرَةِ الْإِعْتِقَادِ ^(١) .

فترك الحيوان بالانسان

وَإِذَا قِيلَ: إِنَّ الْبَارِيَّ رَوْوْفٌ رَحِيمٌ ، فَلِمَ يُسَلِّطُ الْأَسَدَ عَلَى افْتِرَاسِ نَسَمَةِ إِنْسِيَّةٍ ، لَيْسَتْ بِالْمُفْسِدَةِ وَلَا الْقَسِيَّةِ ؟ وَلِمَ مَاتَ بِلَدَغِ الْحَيَاتِ جَمَاعَةُ مَشْهُورَةَ ، مَا هِيَ بِالزَّلَلِ مَهْوَرَةَ ^(٢) ؟

(١) كان بالأصل (من اعتقاد ، يدل على خيرة الانتقاد) وهو كلام لا يستقيم ، وقد أصلحناه بما ترى ، فلم نزد ولم نقص ، إلا فيما كان من رد « خيرة » إلى حيرة ، وتقديم كلمة « انتقاد » ووضع كلمة الاعتقاد مكانها . فاستقام الكلام . (٢) هاره بكذا : ظنه به . فالمهورة بالزلل : التي يُظن منها هذا . أي أنها معروفة بالخطر والساد

وَقَدْ قَالَ الْقَائِلُ — بَعْدَ أَنْ وَصَفَ رَجُلًا بِشَجَاعَةٍ وَإِقْدَامٍ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ
مِنَ اللَّئَامِ الْأَفْدَامِ ^(١) — :

« فَضَى ، وَأَذْرَكَهُ الْحَمَامُ بِقَفْرَةٍ فِي رَأْسِ صِلٍ كَالْهَرَاوَةِ أَغْصَلِ ^(٢) »
وَقَالَ الْهُدَلِيُّ :

« كَحَيَّةِ جُحْرِ فِي وَجَارٍ مُقِيمَةٍ تَنْمَى لَهَا سُوقُ الْمُنَى وَالْجَوَالِبُ »

نقاتل الطير

وَمَا الطَيْرُ الرَاضِيَةُ بِلَقْطِ الحَبِيَّةِ ، الرَّاجِعَةُ بِهَا إِلَى الْأَحِبَّةِ . فَسَلَّطَ عَلَيْهَا
بَازِيًّا أَوْ صَقْرًا ، فَمَنْعَهَا مِنَ التَّقَرُّ ؟ وَإِنَّ القَطَاةَ لَتَدْعُ فِرَاحَهَا ظَمَاءً ، وَتَبْتَكِرُ
لِتَرْدِمَاءَ . تَحْمِلُهُ إِلَيْهَا فِي القَرْبَةِ ، وَتَرْجِعُ بِهِ إِلَى الذَّرْبَةِ ؛ فَيُصَادِفُهَا دُونَ
المُدْهِنِ ^(٣) أَجْدَلُ ، مَا هُوَ بِصَيْدِهَا مُبْدَلٌ . فَيَنَالُ الظَّفَرَ بِقُوْتِ ، مَا هُوَ عَلَيْهِ
بِالْمَقُوتِ . وَيَهْلِكُ أَفْرَاحُهَا أَوْمًا ، أَفْرَادًا فِي الغِمَصِ لَا تَوْأَمًا .
أَلْحَقَتِ الرَّافَةُ بِبَازِيًّا أَوْ كُدْرِيَّةً ، فَأَخَذَتْ غَضَبًا أَوْ دَرِيَّةً ^(٤) ؟ « وَمَا الحَيَاةُ
الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الغُرُورِ » .

فعلو العصاة

وَقَالَ بَعْضُ الْمُتَلَحِّدَةِ — وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ أَحَدَ الْمُعْتَرِضِينَ ، الَّذِينَ هُمْ

(١) القدم : العاجز الغبي . والجمع : أفدام

(٢) الصل : الحية ؛ والهرأوة : العصا ؛ والأعصل : الموعج في صلابه .

(٣) المدهن : مستنقع الماء ، أو كل موضع حفره سيل (٤) أي ختلًا

للسَّخَطِ مِنَ الْمُتَعَرِّضِينَ^(١) - فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ : « وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ،
وَتَوَدَّ مَا أَبْقَى ، وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِيَّاهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ، وَالْمُؤْتَفِكَةَ
أَهْوَى ، فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى » . إِنْ كَانَ الْبَارِئُ - جَلَّتْ قُدْرَتُهُ - خَلَقَهُمْ
وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ مُجْرِمُونَ ، يُحْرَمُونَ التَّوْبَةَ وَلَا يُرْحَمُونَ . فَكَانَ يَنْبَغِي
أَلَّا يَخْلُقَهُمْ ؛ لِأَنَّ خَلْقَهُمْ أَذَاهُمْ إِلَى الْعَذَابِ ، وَالتَّجَرُّعِ مِنَ الصَّابِ^(٢) .
وَإِنْ كَانَ لَا يَعْلَمُ بِمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ ، فَهُوَ كَعَبْدِهِ مِنَ الْفَاعِلِينَ .
وَقَدْ يُرَبِّي الرَّجُلُ وُلْدًا ، فَيَكُونُ عَاقًا ؛ أَوْ يَمْلِكُ عَبْدًا ، فَيَخْرُجُ
مُعَانِدًا مُشَاقًّا .

وَمَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَقُولَ ذَلِكَ ، بَلْ نُسَلِّمُ ، وَنَتْلُو الْآيَةَ : « مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ،
وَمَنْ يَضِلَّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَاِلْيًا مَرشِدًا » .
وَقَدْ أَقْدَمَ الْكُفْرَةَ عَلَى أَعْظَمِ خَطْبٍ ، وَخَطَبُوا عَلَى ظُهُورِهِمْ أَشْأَمَ خَطْبٍ .

إِمَامَهُ أَبِي الْعَمَلَاءِ بِالْبَعِثِ

وَفِي الْكِتَابِ الْأَشْرَفِ : « أَوْلَمَ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ
فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ : مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ
وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » .
وَهَذِهِ حُجَّةٌ بِالْبَعِثِ فِي أَنَّ خَلْقَهَا مُبْتَدَعَةٌ ، أَلْبَعْدُ مِنْ إِنْشَائِهَا مُرْتَجِعَةٌ .
ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ : « الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا ، فَإِذَا أَنْتُمْ

(١) كانت في الأصل : « الذين هم للسخط معترضين » وهو لا يستقيم معنى وإعراباً .

فأصلحناه بما ترى (٢) الصاب ، جمع : صابة ، وهي الشجر المر .

مِنْهُ تُوقِدُونَ » فَتَبَارَكَ اللَّهُ الْعَظِيمُ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يُحْرِقَ بِوَرَقَةٍ خَضْرَاءَ ،
مَنْ فَوْقَ الرَّائِدَةِ وَالنَّبْرَاءِ « أَوْلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ
عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ، إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ
يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »
أَشْهَدُ اللَّهَ الَّذِي يَأْذِنُهُ لِنَشْأَتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أُنِّي مُقَرَّبٌ بِالْقُدْرَةِ
عَلَى الرَّجْعَةِ ، وَالْخَوْفِ مِنَ الْآخِرَةِ . أَحَافِظُ عَلَى صَلَاتِي وَأُصُومُ ، وَأَعْتَصِمُ
لَعَلِّي مَعْصُومٌ .

وَأَبْرَأُ مِنْ قَوْلِ الْكَافِرِ (١) :

أَلَمْتُ بِالتَّحِيَّةِ أَمْ بَكَرٌ ،	فَحَيُّوا أَمْ بَكَرٌ بِالسَّلَامِ
وَكَأَنَّ بِالطَّوِيِّ : طَوِيٌّ بَدْرٌ	مِنَ الشَّيْزِيِّ تُكَلَّلُ بِالسَّنَامِ
أَلَا يَا أُمَّ بَكَرٍ لَا تُكْرِي	عَلَى الْكَاسِ بَعْدَ أَخِي هِشَامِ
وَبَعْدَ أَخِي أَبِيهِ ، وَكَانَ قَرَمًا	مِنَ الْأَفْرَامِ شُرَابِ الْمُدَامِ
أَلَا مَنْ مُبْلِغُ الرَّحْمَنِ عَنِّي	بَانِي مُفْطِرُ شَهْرِ الصِّيَامِ
إِذَا مَا الرَّأْسُ زَايِلٌ مَنَكِبِيهِ	فَقَدْ شَبِعَ الْأَيْسُ مِنَ الطَّعَامِ
أَبُو عِدْنَانَ « ابْنُ كَبْشَةَ » أَنْ سَنَحِيَا ،	وَكَيفَ حَيَاةُ أَصْدَاءِ وَهَامِ ؟
أَيْتَرُكُ أَنْ يَرُدَّ الْمَوْتَ عَنِّي ؟	وَيُحْسِنِي إِذَا بَلَيْتَ عِظَامِي

*

**

وَلَعَنَ اللَّهُ الْقَائِلَ - وَيُقَالُ إِنَّهُ الْوَلِيدُ بْنُ يُزَيْدَ [أَوْ (٢)] ابْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ - :

(١) قال أبو العلاء : تروى لشداد بن الأسود الليثي . وارجع إلى (ص ٢١٩ ج ٣)
من هذا الكتاب ، فهناك اختلاف في الرواية (٢) أضفنا هذا الحرف ، ولم يكن في الأصول

أَدْنِيَا مِنِّي خَلِيلِي : «عَبْدَلَا»^(١) «دُونَ الْإِزَارِ
فَلَقَدْ أَيَقَنْتُ أَنِّي غَيْرُ مَبْعُوثٍ لِنَارِ
سَأْرُوضِ النَّاسِ حَتَّى يَرْكَبُوا دِينَ الْحِمَارِ
وَأَتْرُكُنْ مَنْ يَطْلُبُ الْجَنَّةَ يَسْعَى فِي خَسَارٍ

وَهَذَانِ الْبَيْتَانِ يُوَوِّبَانِ لِرَجُلٍ يُقَالُ لَهُ : «الْوَلِيدُ»

قِيلَ : هُوَ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَقِيلَ : هُوَ الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ .

وَأَيُّهُمَا كَانَ ، فَقَدْ أَقْدَمَ عَلَى الْهَسَاوِيَةِ ، بِنَفْسٍ لَيْسَتْ لِمَا حُمِدَ بِالنَّوِيَةِ ،
وَلَا مِنْ لَهَيْبِ جَهَنَّمَ بِالنَّاجِيَةِ . وَذَلِكَ أَنَّهُ^(٢) كَتَبَ لَهُ مُصْحَفٌ ، فَأَمَّا كَمَلُ
نَظَرٍ فِيهِ ، فَاتَّفَقَ أَنْ خَرَجَتْ لَهُ الْآيَةُ ، وَهِيَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : «وَاسْتَفْتَحُوا
وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» فَزَقَّهُ ، وَقَالَ^(٣) :

«أَتُوَعِدُ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ؟ فَهَأَنْذَاكَ جَبَّارُ عَنِيدٍ

إِذَا لَاقَيْتَ رَبَّكَ يَوْمَ حَشْرِ فَقُلْ : «يَا رَبَّ ! : مَزَقَنِي الْوَلِيدُ»

وَالْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ كَانَ لِحَنًا لِحَنًا لَا يَقْدِرُ صَاحِبُهُ أَنْ يَنْظِمَ مِثْلَ
هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ .

انظر أبي نواس للبعث

وَوَيْلٌ لِلْحَكَمِيِّ^(٤) إِنْ كَانَ يَعْتَقِدُ مَا يُقَالُ إِنَّهُ وَجِدَ فِي بَيْتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ
مَكْتُوبًا ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ :

(١) كان في الأصل المطبوع : «عند لا» وارجع الى (ص ٢٣٦ ج ٣) من هذا الكتاب .

(٢) المشهور أنه الوليد بن يزيد (٣) ارجع إلى مصرع الوليد في كتابنا : «مصارع

الخلفاء» (٤) هو أبو نواس ، وقد مرت ترجمته في (ج ٢ ص ١٠ و ج ٣ ص ٢١٨)

« بَاحَ لِسَانِي بِمُضْمَرِ السَّرِّ وَذَكَ أُنِّي أَقُولُ بِالذَّهْرِ
وَلَيْسَ - بَعْدَ الْمَمَاتِ - حَادِثَةٌ وَإِنَّمَا الْمَوْتُ بِيَضَةِ الْعُقْرِ »

ربك المجن

وَوَيْحٌ لِعَبْدِ السَّلَامِ بْنِ رَعِيَانَ الْمُتَلَقِّ بِدِيكَ الْجِنِّ ، إِنْ كَانَ مَاتَ وَهُوَ
مُصِرٌّ عَلَى قَوْلِهِ :

« هِيَ الدُّنْيَا - وَقَدَّوْ عِدُّوَا بِأُخْرَى - وَتَسْوِيفُ الظُّنُونِ مِنَ الشُّوَاظِ
فَإِنَّ يَكُ بَعْضُ مَا قَالُوهُ حَقًّا ، فَإِنَّ الْمُبْتَدِيكَ هُوَ الْمُعَافِي »

حديث سب الدهر

فَأَمَّا قَوْلُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « لَا تَسُبُّوا الذَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ
الذَّهْرُ » فَإِنَّمَا أَرَادَ أَنَّ الَّذِي يَقْضِي عَلَيْكُمْ بِذَلِكَ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الَّذِي
تَسْجُدُ لَهُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، وَتَشْهَدُ بِهِ كُلُّ الْمَخْلُوقَاتِ .

وَلَمْ تَزَلِ الْعَرَبُ تَذُمُّ الذَّهْرَ فِي قَدِيمٍ وَحَدِيثٍ .

قَالَ الشَّاعِرُ :

« الذَّهْرُ أَبْلَانِي وَمَا أَبْلَيْتُهُ وَالذَّهْرُ غَيْرِنِي وَمَا يَتَغَيَّرُ
وَالذَّهْرُ قَيْدَنِي بِقَيْدِ مُبْرِمٍ وَمَشَيْتُ فِيهِ ، فَكُلُّ يَوْمٍ يَقْضُرُ »
فَقَالَ مَنْ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ اللَّهَ - تَبَارَكَتْ أَسْمَاؤُهُ - يَفْعَلُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ ،
فَيُطْلَقُ أَفْضَلُ أُمَّ مُقَيَّدٌ ، مَوْسُومٌ بِالنُّوبِ مُمَيَّدٌ ؛ بَعْدَ مَا كَانَ يَفْرِي الْفَرِيَّ ،
وَيُحْسَبُ السَّرِيُّ . وَقَالَ نَفَرٌ بْنُ عَبْدِ الْقَيْسِ جَدُّ الطَّرِمَاحِ الطَّائِي :

« أَلَا قَالَتْ بِهِيْثَةُ : مَا لِنَفْرٍ أَرَاهُ غَيَّرَتْ مِنْهُ الدَّهْوَرُ
فَقُلْتُ : وَأَنْتِ قَدْ غَيَّرْتِ بَعْدِي ^(١) ، وَكُنْتَ كَأَنَّكَ الشَّعْرَى الْعَبُورُ »
أَفْخَيْرُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَكُونَ كَالْوَأْحِدَةِ مِنَ الشَّعْرِيِّينَ ، أَمْ كَوْنَهَا تَجُوزًا
تَعَجُّزٌ عَنِ حَمَلِ الْمَدْرِيِّينَ ^(٢) ؟

فقر أبي العلاء

وَمِمَّا حَثَّنِي عَلَى تَرْكِ أَكْلِ الْحَيَوَانِ أَنَّ الَّذِي لِي فِي السَّنَةِ نَيْفٌ وَعِشْرُونَ
دِينَارًا ، فَإِذَا أَخَذَ خَادِمِي بَعْضَ مَا يَجِبُ ، بَقِيَ مَا لَا يُعْجَبُ . فَاقْتَصَرْتُ عَلَى
قَوْلٍ وَبُلْسُنٍ ^(٣) ، وَمَا لَا يَعْذُبُ بِاللَّسُنِ .
فَأَمَّا الْآنَ ، فَإِذَا صَارَ إِلَيَّ مَنْ يَخْدُمُنِي ، [وهو ^(٤)] عِنْدِي وَعِنْدَهُ هَيْنٌ ،
فَمَا حَظِّي إِلَّا الْيَسِيرُ الْمُتَعِينُ .
وَلَسْتُ أُرِيدُ فِي رِزْقِي زِيَادَةً ، وَلَا أُؤْتِرُ لِسُقْمِي عِيَادَةً . وَأَضْمِرُ مِنْ
عُقْبَائِي الْحَذَرَ ، وَذَكَرْتُ مَا ذَكَرْتَهُ لِأَعْذَرَ .
وَالسَّلَامُ .

(١) قريب من هذا قول الشاعر :

« وقد زعمت أني تغيرت بعدها ومن ذا الذي — يا عز — لا يتغير »

(٢) المدري: المشط (٣) البلسن: العدس ، أو حب آخر يشبهه (٤) هذه الكلمة

من داعى الدعاة

حُوشَى الشَّيْخُ - أَدَامَ اللهُ سَلَامَتَهُ - مِنْ أَنْ يَكُونَ - مِمَّنْ فَطِنَ فِي مَرَضِ
دِينِهِ وَعَقْلِهِ لِعَلَّتِهِ ، وَأَجَابَ دَعْوَةَ الدَّاعِي مِنْهُ بِالْبَيْتِ الشَّائِعِ عَنْهُ لِنَيْلِ شِفَاءِ
عَلَّتِهِ - يَزِيدُهُ عِلَّةً^(١) إِلَى عِلَّتِهِ ، وَقَدْ ضَمِنَ لَهُ الصَّحَّةَ ؛ وَضَيْقَةَ إِلَى ضَيْقَتِهِ ،
مِنْ حَيْثُ أَمَلَ^(٢) الْفُسْحَةَ . إِذَنْ يَكُونُ كَمَا قَالَ الْمُتَنَبِّي :

أَظْمَتِي الدُّنْيَا ، فَأَمَّا جِشُّهَا مُسْتَسْقِيًا ، مَطَرَتْ عَلَى مَصَابِيهَا

هلوى النبات للحيوان ، والحيوان للإنسان

كَانَ سُوءَ إِلَى آلهُ - حَرَسَهُ اللهُ - فِي شَيْءٍ يَخْتَصُّ بِنَفْسِهِ ، فِي هَجْرِهِ مَا يَشُدُّ
الْجِسْمَ ، مِنَ اللَّحْمِ الَّذِي يُنْبِتُ اللَّحْمَ .

وَقُلْتُ : إِنَّ الْمَوْجُودَ مِنْ تَرْتِيبِ الْخَلْقَةِ ، أَنَّ النَّبَاتَ مَخْلُوقَةٌ لِلْحَيَوَانَ ،
وَالْحَيَوَانَ الْعَجْمَاءُ مَخْلُوقَةٌ لِمَنَافِعِ الْإِنْسَانِ . وَأَنَّهُ إِنْ أَنْكَرَ مُنْكَرٌ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى
فَسَحَ فِي ذُبْحِهَا ، وَالتَّنَاوُلِ مِنْ لَحْمِهَا ؛ قُلْنَا لَهُ : إِنْ الدَّلِيلَ عَلَى بَطْلَانِ قَوْلِهِ ،
مَا نَرَاهُ مِنْ بَعْضِ أَجْنَاسِ خَلِيقَتِهِ^(٣) سِبَاعًا وَطَيْرًا . وَكَوْنُهُ مَخْلُوقًا^(٤) لِنَفْسِخِ

(١) كان بالأصل: يزيد به إلى علته علة ، فجعلناها كما ترى ، ليستقيم نسق السجع المرصع

(٢) في المخطوطة: « من حيث أهل الفسحة » (٣) في المطبوعة: كلمة « الحيوان »

مكان كلمة: « خليقته » (٤) في المخطوطة: وكونها مخلوقة

اللَّحْمُ (١) وَأَكْلِهِ ، وَالِإِنْتِفَاعُ بِهِ (٢) ؛ فَبِالْحَرِيِّ أَنْ يَكُونَ لَنَا السَّبِيلُ عَلَى مَا نَأْكُلُ مِنْ لُحُومِهِ ، وَنَتَنَفَعُ بِأَصْوَابِهِ وَأَوْبَارِهِ .
وَنَحْنُ أَفْضَلُ مِنَ السَّبَاعِ وَجَوَارِحِ الطَّيْرِ .
وَإِنَّ الَّذِي يَمْتَنِعُ أَنْ يَمَسَّهُ بِسُوءٍ ، مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَرْحَمَ وَأَرْأَفَ بِهِ مِنْ الصَّانِعِ سُبْحَانَهُ .

قضية الخبر والشر

فَقَالَ (٣) فِي الْجَوَابِ : « إِنَّ قَائِلًا مِنَ الْبَشَرِ لَوْ قَالَ : إِذَا بَنَيْنَا الْقَضِيَّةَ التَّنَوِّيَّةَ ، فَقُلْنَا : « اللَّهُ لَا يَفْعَلُ إِلَّا خَيْرًا » - فَهَذِهِ الْقَضِيَّةُ كَاذِبَةٌ أَمْ صَادِقَةٌ ؟ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ (٤) : « إِنَّهَا صَادِقَةٌ » فَقَدْ رَأَيْنَا الشُّرُورَ غَوَالِبَ ، وَلِلْخَيْرَاتِ الْمُكْتَمَسَةِ قَوَالِبَ ...

إِلَى قَوْلِهِ (٥) : « رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ (ص) أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ - إِذَا أَرَادَ السَّفَرَ - :
« اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ ، وَسُوءِ الْمُنْظَرِ ، فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْوَالِدِ » فَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي تَعُوذُ مِنْهَا النَّبِيُّ (ص) خَيْرَاتٌ أَمْ شُرُورٌ ؟
فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ (٦) : « لَا » ، بَلْ هِيَ مَخُوفَةٌ مُنْكَرَةٌ » فَقَدْ أَبْطَلَ الْقَضِيَّةَ الْأُولَى أَنَّهُ لَا يَفْعَلُ إِلَّا خَيْرًا . وَإِنْ قَالَ : « إِنَّ قَضِيَّةَ خَيْرٍ وَحْدَهُ لَا تَصِحُّ »
فَالسَّائِلُ - إِذَا سَأَلَهُ - يُسِيئُ الْأَدَبَ وَيُلْحِشُ . فَإِنَّ أَبِي أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّرَّ جُمْلَةً ،

(١) في المطبوعة : « اللحوم » (٢) في المطبوعة : « وأكلها والانتفاع بها »

(٣) أي أبو العلاء في جوابه المتقدم (٤) في المخطوطة : « فإن قيل »

(٥) أي إلى قول أبي العلاء في رسالته السابقة (٦) لم ترد كلمة « لا » في المطبوعة

كَانَ مَرْجِعُهُ إِلَى قَوْلِ الْمَجُوسِ فِي إِثْبَاتِ خَالِقَيْنِ : أَحَدُهُمَا يَفْعَلُ الْخَيْرَ ،
وَالْآخَرُ يَفْعَلُ الشَّرَّ . . .

وَقَوْلِ الشَّيْخِ - أَيَّدَهُ اللَّهُ - بَعْدَ اقْتِصَاصِ ذَلِكَ كُلِّهِ : « وَمَعَاذَ اللَّهِ أَنْ
نَقُولَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ ، بَلْ نَلْزِمُ شَرْعَنَا ، وَنَبْسُطُ - فِي اتِّبَاعِهِ - ذَرْعَنَا ! . . . »

رد راعى الدعاء

فَأَقُولُ مُجِيبًا : أَهَذِهِ « أَنْبَاءُ الْأُمُورِ الصَّحَائِحِ » الَّتِي يَهْدِي بِهَا مَنْ
اسْتَهْدَى ، وَيُجِدِي بِعَمَلِهَا عَلَى مَنْ اسْتَجَدَى ؟ وَهَلْ زَادَ السَّقِيمَ بِدَوَائِهِ هَذَا
إِلَّا سَقَمًا ، وَالْأَعْمَى الْأَصْمَ فِي دِينِهِ وَعَقْلِهِ ^(١) إِلَّا عَمَى وَصَمًا ؟

وَقَوْلُهُ بَعْدَ تَقْسِيمِ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ : « وَمَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَقُولَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ ،
بَلْ نَلْزِمُ شَرْعَنَا . . . » أَفَشَرْعُنَا دَاخِلٌ فِي جُمْلَةِ هَذِهِ التَّقْسِيمِ ، أَمْ خَارِجٌ عَنْهَا ؟
فَإِنْ كَانَ دَاخِلًا فِيهَا ، فَأَيُّ أَقْسَامِهَا أَوْلَى بِالِاتِّبَاعِ عَلَى رَأْيِهِ - حَرَسَهُ اللَّهُ -
فَنَتَّبِعُهُ ؟ وَإِنْ كَانَ خَارِجًا عَنْهَا فَمَا هُوَ ؟ وَأَيُّ شَيْءٍ هُوَ ^(٢) ؟

عَلَى أَنْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ كُلُّهَا ^(٣) - مِنْ أَوْلَاهَا إِلَى آخِرِهَا - بِنَجْوَةٍ عَنْ سُؤَالِ
الْأَوَّلِ ، وَمَعَزِلٍ عَنْهُ ، وَلَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ .

وَأَمَّا مَا تَبِعَ هَذَا الْفَصْلَ مِنْ ذِكْرِ فَجِيعَةِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ -
بِإِزَاهِيمَ وَلَدِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَذِكْرِ سَمِّ الْحُسَيْنِ ، وَقَتْلِ الْحُسَيْنِ ، وَقَتْلِ حَمْرَةَ
عَلَيْهِمُ السَّلَامُ . الْجَارِي كُلُّهُ عَلَى سِيَاقَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ وَالِاسْتِخْبَارِ عَنْ كَوْنِ جَمِيعِ

(١) زيدت هنا في المخطوطة جملة : « كما هو قال » (٢) ليس في المطبوعة كلمة : « شئ »

(٣) ليست كلمة « كلها » في المطبوعة

[ذَلِكَ] خَيْرًا أَوْ شَرًّا ، فَهُوَ دَاخِلٌ فِي مِضْمَارِ التَّقْسِيمِ الْمَذْكُورَةِ ، الَّتِي
عَدَّدَهَا^(١) ، وَقَدْ تَرَكَهَا فِي غَوَاشِي ظُلُمَاتِهَا .
وَقَدْ سَبَقَ الْقَوْلُ فِي أَنَّهُ مَا حَلَّ - فِي السُّؤَالِ الْأَوَّلِ - مِنْ الشُّبُهَةِ عَقْلًا ،
بَلْ زَادَ - بِهَذِهِ الْأَسْئَلَةِ - تَيْهًا وَضَلَالًا .

ابن ميمون الحيوان

وَأَمَّا الْقَوْلُ : إِنَّ^(٢) اللُّحُومَ لَا يُوصَلُ إِلَيْهَا إِلَّا بِإِيلَامِ الْحَيَوَانِ ، وَإِتْيَانُهُ
بِأَشْعَارِ الْعَرَبِ فِي حُرُوقِ النَّاقَةِ الْمُفْجَعَةِ بِفَصِيلِهَا ؛ فَقَدْ سَبَقَ الْجَوَابُ :
لَا يَتَكُونَنَّ^(٣) أَرْأَفُ بِهَا مِنْ خَالِقِهَا . فَلَيْسَ يَخْلُو مِنْ كَوْنِهِ عَادِلًا أَوْ جَائِرًا :
فَإِنْ كَانَ عَادِلًا فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ - يَقْبِضُ أَرْوَاحَ الْأَكْلِ وَالْمَأْكُولِ جَمِيعًا ، وَذَلِكَ
مُسَلِّمٌ لَهُ . وَإِنْ كَانَ جَائِرًا ، لَمْ يَنْبَغِ أَنْ تَرْجَحَ^(٤) عَلَيَّ خَالِقِنَا بَعْدَ لَنَا وَجُورِهِ .

علم الله بالخير والشر

وَأَمَّا قَوْلُهُ : « وَلِلسَّائِلِ أَنْ يَقُولَ : إِنْ كَانَ الْخَيْرُ هُوَ الَّذِي لَا يُرِيدُ رَبَّنَا
سُبْحَانَهُ سِوَاهُ ، فَالْشَّرُّ لَا يَخْلُو مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ عَلِمَ بِهِ أَوْ لَا ،
فَإِنْ كَانَ عَلِمَ بِهِ فَلَا يَخْلُو مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُرِيدًا لَهُ أَوْ غَيْرِ
مُرِيدٍ ، فَإِنْ كَانَ مُرِيدًا لَهُ^(٥) فَكَانَتْهُ الْفَاعِلُ ؛ وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مُرِيدٍ ، فَفَعَلُ
مَا لَا يُرِيدُهُ الْأَمِيرُ فِي وِلَايَتِهِ مَذْمُومٌ ، فَكَيْفَ فِي وِلَايَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ ؟ »

(١) جاء في المطبوعة : « عددها ، وتركها في غواشي ظلماتها ، فقد سبق القول » وجاء
في المخطوطة ما أثبتنا نصه للقارئ (٢) في المطبوعة : « في أن » (٣) في المطبوعة :
« فقد سبق القول [بأنه] لا يكون » (٤) في المطبوعة : « ترجع » (٥) ليست كلمة « له »
في المطبوعة

فَأَقُولُ فِي الْجَوَابِ : قِيلَ (١) : إِنَّ إِنْسَانًا صَاعَ لَهُ مُصْحَفٌ ، فَقِيلَ لَهُ :
 اقْرَأْ : « وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا » فَإِنَّكَ تَجِدُهُ ، فَقَالَ : « وَهَذِهِ السُّورَةُ أَيْضًا فِيهِ ... »
 فَكَذَلِكَ أَقُولُ : إِنَّ هَذَا أَيْضًا مِنْ ذَلِكَ ؛ وَجَمِيعُهُ ظُلُمَاتٌ ، فَأَيْنَ الثُّورُ ؟
 وَإِنَّمَا قَصَدْنَاهُ لِلثُّورِ ، لِنَعْرِفَ أَنْبَاءَ الْأُمُورِ الصَّحَائِحِ ، كَمَا قَالَهُ .

صوم أبي العلاء

وَأَمَّا قَوْلُهُ - حَرَسَهُ اللَّهُ - : « إِنَّهُ (٢) لَمَّا رَأَى اخْتِلَافَ الْأَقْوَالِ ، وَآيَقَنَ
 بِنِفَادِ وَزَوَالِ ؛ سَأَلَ رَبَّهُ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَهُ صَوْمَ الدَّهْرِ ، فَلَمْ يَفْطُرْ إِلَّا فِي
 الْعِيدِينَ (٣) ؛ وَلَزِمَ الْإِمْسَاكَ عَنِ الْمَتَأَكْلِ ؛ وَظَنَّ اقْتِنَاعَهُ بِالنَّبَاتِ ، يُثَبِّتُ
 لَهُ فِي الْآخِرَةِ جَمِيلَ الْإِثْبَاتِ (٤) . فَمَا صَحَّ لِي أَنْ الرَّبَّ الَّذِي سَأَلَهُ
 أَنْ يَرْزُقَهُ صَوْمَ الدَّهْرِ ، هُوَ الَّذِي يُرِيدُ أَحْيَرَ وَحَدَهُ ، وَلَا يُرِيدُ الشَّرَّ
 [أَوِ الَّذِي يُرِيدُ الشَّرَّ وَحَدَهُ (٥)] أَوِ الَّذِي يُرِيدُهُمَا جَمِيعًا ، وَالصَّوْمُ فَرَعٌ
 عَلَى أَصْلِ (٦) ؛ مِنْ شَرَعِ يَأْتِي بِهِ رَسُولٌ ، وَالرَّسُولُ يَتَعَلَّقُ بِرُسُلِ ، وَقَضَيْتُنَا
 فِي الْمُرْسَلِ مُشْتَبِهَةٌ : يَبْعَثُ رَسُولًا ؛ فَيُرِيدُ أَنْ يُطَاعَ أَمْ لَا يُطَاعَ ؟ فَإِنْ كَانَ
 يُرِيدُ أَنْ يُطَاعَ ، فَهُوَ مَغْلُوبٌ عَلَى إِرَادَتِهِ ، فَمَنْ لَا يُطِيعُهُ (٧) أَكْثَرُ ؛ وَإِنْ كَانَ يُرِيدُ

(١) في المخطوطة : « ما قيل » (٢) ليست كلمة : « إنه » في المطبوعة (٣) ليست
 في المطبوعة جملة : « سأل ربه تعالى أن يرزقه صوم الدهر ، فلم يفطر إلا في العيدين »
 (٤) في المخطوطة : « ينبت له جميل الإنبات » (٥) زيدت هذه الجملة في المطبوعة
 وكتب في الهامش : « إن الزيادة من معجم الأدباء » (٦) في المخطوطة كلمة « الأصل »
 (٧) في المطبوعة : « لأن من لا يطيعه » ، وفي المخطوطة : « فمن لا يطيعه . وكذلك

أَنْ لَا يُطَاعَ ، فَإِذَا سَأَلَهُ إِيَّاهُ مُحَالٌ ، وَطَلَبَهُ حُجَّةٌ عَلَى الضَّعْفَاءِ لِيُعَذِّبَهُمْ .
فَإِنْ كَانَ مَوْضِعُ صَوْمِهِ عَلَى هَذَا ، فَلَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا ، وَإِنْ كَانَ عَلَى غَيْرِهِ
مِمَّا هُوَ جَلِيٌّ وَوَاضِحٌ ؛ فَهُوَ الَّذِي أَطْلُبُهُ ، وَمَنْ أَجَلَّهُ شَدَّدَتْ رَاحِلَتِي إِلَيْهِ .

افتناع أبي العلاء بالنبات

وَأَمَّا اقْتِنَاعُهُ بِالنَّبَاتِ لِثَبَاتٍ فِي الْآخِرَةِ^(١) ؛ فَالنَّبَاتُ الْمُخْتَصُّ لِلْحَيَوَانَ
الْعَجَمَاءِ^(٢) الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا خُلِقَ النَّبَاتُ ، وَلَيْسَ لَهَا فِي الْآخِرَةِ قَدَمٌ وَلَا ثَبَاتٌ !
وَأَمَّا مَا اقْتَصَّه مِنْ أَمْرِ جَالِينُوسَ فِي اعْتِقَادِ حَيَرَةِ الْأُمَمِ ، وَقَوْلِهِ مَنْ قَالَ :
« إِنَّ الْبَارِيَّ رَهَوفٌ رَحِيمٌ ، فَلِمَ سَلَّطَ الْأَسَدُ عَلَى مَا يَفْتَرِسُ ؟ »
فَهَذَا كُلُّهُ دَاخِلٌ فِي ضَمَنِ مَا أوردناه^(٣) ، وَغَيْرُ خَارِجٍ عَنْ حُكْمِهِ^(٤) .
وَإِنَّمَا الْهَرْبُ إِلَيْهِ لِهَذِهِ الْجِهَةِ ، لَوْ لَمَعَ^(٥) سَنَا بَرْقِ إِرْشَادِهِ ، وَفَاءَ لِلْبَيْتِ^(٦)
الَّذِي قَالَهُ بِمِعَادِهِ^(٧) .

فلو الله للعصاة

وَأَمَّا حِكَايَتُهُ قَوْلَ بَعْضِ الْمُلْحِدِينَ ، وَاسْتِعَاذَتُهُ بِاللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ مِنْ
الْمُعْتَرِضِينَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : « وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ، وَثَمُودَ فَمَا أَبَقِي »

- (١) لم ترد كلمة « ثبات » في المخطوطة (٢) جاء في المطبوعة كلمة : « للعجماء »
بدلاً من : « العجماء » (٣) جاء في المطبوعة كلمة : « ما أوردناه »
(٤) جاء في المطبوعة : « وغير محتاج عن حكمه » (٥) في المطبوعة « لولمحت »
(٦) أي إنما نهرب إلى أبي العلاء في تفسير هذه المشكلات ، وفقاً لقوله : فالقني لتسمع
أبناء الأمور الصالح (٧) في المطبوعة : « وفاء للبيت من الشعر الذي بميعاده »

الآيات . . . إِنْ كَانَ الْبَارِئُ - سُبْحَانَهُ - خَلَقَهُمْ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ مُجْرِمُونَ ،
وَلِلتَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ يُجْرِمُونَ . فَكَانَ الْأُولَى بِهِ - وَهُوَ الرَّءُوفُ الرَّحِيمُ -
أَلَّا يَخْلُقَهُمْ ، لِئَلَّا يُعَذِّبَهُمْ . وَإِنْ كَانَ لَا يَعْلَمُ ، فَهُوَ - كَأَمْثَلِنَا - مِمَّنْ
يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَلَا يَدْرِي مَا يَكُونُ مِنْهُ .

وَقَوْلُ الشَّيْخِ بَعْدَهُ : « مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَقُولَ ذَلِكَ ، بَلْ نُسَلِّمُ ، وَنَتَلَوُ الْآيَةَ :
« مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّمْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا » فَلَيْسَ
الْمُلْحِدُ إِذَا قَالَ : إِنْ الشُّكْرَ حُلُوًّا ، وَاخْتَلَّ حَامِضٌ ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ لِكَوْنِهِ مُلْحِدًا .
وَقَوْلُهُ يُقْتَضِي جَوَابًا ، فَإِنْ كَانَ عِنْدَ الشَّيْخِ - أَيْدَهُ اللَّهُ - جَوَابٌ (١) . فَهُوَ
الَّذِي نَبَغِيَ أَوْلًا ؛ فَقَوْلُهُ : « مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَقُولَ ذَلِكَ ، بَلْ نُسَلِّمُ » فَمَا التَّسْلِيمُ
فِي هَذَا الْمَوْضِعِ إِلَّا التَّسْلِيمُ لِلْمُلْحِدِ ، لَا شَيْءَ غَيْرُهُ !

القول بالرجعة

وَأَمَّا تَقْنِيدُهُ لِرَأْيٍ مَنْ لَا يَرَى رَأْيَ الرَّجْعَةِ ، وَلَا يُؤْمِنُ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ :
« قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ » وَقَوْلُهُ : « إِنَّ هَذِهِ حُجَّةٌ قَاطِعَةٌ ، لِأَنَّ خَلْقَهَا
مُبْتَدَعَةٌ ، أَبَعْدُ مِنْ إِنْشَائِهَا مُرْتَجِعَةٌ » وَإِشْهَادُهُ اللَّهُ - تَعَالَى - عَلَى نَفْسِهِ
بِكَوْنِهِ مُقَرَّرًا بِالرَّجْعَةِ ، وَلِلْخَوْفِ مِنَ الْآخِرَةِ ، يُحَافِظُ (٢) عَلَى صَلَاتِهِ
وَصَوْمِهِ ؛ وَيَبْرَأُ مِنْ قَوْلِ الْكَافِرِ وَلَوْ مِمَّه :

أَلَمْتُ بِالتَّحْيَةِ أَمْ بِكْرِ فَحْيُوا أَمْ بِكْرِ بِالسَّلَامِ

(١) فِي الْمَخْطُوطَةِ : « فَإِنْ كَانَ عِنْدَ الشَّيْخِ جَوَابٌ » (٢) فِي الْمَطْبُوعَةِ : « مُحَافِظٌ »

إلى قوله^(١) :

أَلَا مَنْ مُبْلِغُ الرَّحْمَنِ عَنِّي بَأَنِّي مُفْطِرُهُ شَهْرَ الصِّيَامِ
أَيُوعِدُنَا ابْنُ كَبْشَةَ أَنْ سَنَحْيَا وَكَيْفَ حَيَاةُ أَصْدَاءِ وَهَامِ؟
وَيَلْعَنُ مَنْ قَالَ - أَيْضًا^(٢) - فِي آخِرِ آيَاتِهِ :

سَأُرْوِضُ النَّاسَ حَتَّى يَرْكَبُوا دِينَ الْحِمَارِ
وَالَّذِي قَالَ أَيْضًا يَسُبُّ الْمُصْحَفَ وَيُحَاطِبُهُ :

إِذَا لَاقَيْتَ رَبَّكَ يَوْمَ حَشْرِ فَقُلْ: يَا رَبِّ! مَرْقَنِي^(٣) الْوَلِيدُ

وَمَا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى .

فَمَنْ الَّذِي اتَّهَمَهُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَاشَاهُ؟ وَمَا الَّذِي أَوْجَبَ الْإِذْكَارَ
بِكُفْرِيَّاتٍ شِعْرِهِمْ^(٤) وَاقْتَضَاهُ؟

وَمَا كَانَتْ بِهِ حَاجَةٌ إِلَى اسْتِطْرَادِ ذِكْرِهِمْ ، وَإِنْشَادِ شِعْرِهِمْ .

سب الدهر

وَأَمَّا رَوَايَتُهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : « لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ »
وَتَفْسِيرُهُ لِلْخَبَرِ بِكَوْنِ الَّذِي يَقْضِي عَلَيْكُمْ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الَّذِي تَسْجُدُ
لَهُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، وَتَشْهَدُ بِهِ كُلُّ الْمَخْلُوقَاتِ « فَهُوَ جَالِينُوسُ طِبِّ اللُّغَةِ^(٥) ،
وَيَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنْ هَذَا تَفْسِيرٌ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ لَفْظُ الْخَبَرِ ، فَمَنْ أَيْنَ؟ وَإِلَى
أَيْنَ؟ وَإِنَّمَا هُوَ الْمَقْصُودُ لِيُخْرِجَ مِنَ التَّيْبِ ، لَا لِأَنْ يَمْرَحَ فِيهِ^(٦) .

(١) ليست هذه الكلمة في المطبوعة (٢) ليست كلمة : « أيضاً » في النسخة المطبوعة

(٣) في المخطوطة كلمة : « خرقني » (٤) في المخطوطة كلمة : « أشعارهم »

(٥) في المخطوطة زيدت كلمة : « العربية » والمعنى أن أبا العلاء في اللغة كجالينوس في الطب

(٦) في المخطوطة : « لا أن يمرح فيه . »

فقر أبي العلاء

وَأَمَّا خَتْمُهُ الرَّسَالَةَ بِقَوْلِهِ : « إِنَّ الَّذِي حَتَّهُ عَلَى تَرْكِ أَكْلِ الْحَيَوَانِ أَنَّ الَّذِي لَهُ فِي السَّنَةِ نَيْفٌ وَعِشْرُونَ دِينَارًا يَصِيرُ إِلَى خَادِمِهِ مُعْظَمًا ، وَيَبْقَى لَهُ أَيْسَرُهَا ؛ فَالضَّرُورَةُ تَدْعُو إِلَى مُدَافَعَةِ نَفْسِهِ بِالْفِطَامِ عَنِ لَذِيذِ الطَّعَامِ ، وَالِاقْتِصَارِ بِهَا عَلَى جَرِيشَةٍ » .

فَجِسْمُهُ — مِنَ الْفَضْلِ وَالْأَدَبِ — لِلْفَوَائِدِ يَنْبُوعٌ ، وَحَمَاهَا (١) — مَا دَامَ بَاقِيًا ثَابِتًا — مَمْنُوعٌ ، وَمَحْمَلٌ مُؤَنَّةِ الْقَدْرِ الَّذِي يَطْعُمُهُ لَوْ كَانَ ثَقِيلًا لَوْجَبَ تَحْمَلُهُ ، فَكَيْفَ وَهُوَ الْخَفِيفُ مَحْمَلُهُ ؟ .

وَقَدْ كَاتَبْتُ مَوْلَايَ تَاجَ الْأُمَرَاءِ ثَمَالَ بْنَ صَالِحٍ (٢) — حَرَسَ اللَّهُ عِزَّهُ — أَنْ يَتَقَدَّمَ بِإِزَاحَةِ الْعِلَّةِ — فِيمَا هُوَ بُلْغَةٌ مِثْلُهُ — مِنَ الذُّطْعَامِ ، وَمُرَاعَاتِهِ بِهِ عَلَى الْإِذْرَارِ وَالذَّوَامِ . لَتَنْكَشِفَ عَنْهُ غَاشِيَةٌ هَذِهِ الضَّرُورَةُ ، وَيَجْرِي أَمْرُهُ فِي مَعِيشَتِهِ عَلَى أَحْسَنِ مَا يَكُونُ مِنَ الصُّورَةِ .

وَهَذَا بَابٌ يَنْتَجِزُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَعَوْنِهِ .
ثُمَّ إِنَّ قَامَ مِنَ الشَّيْخِ — حَفِظَهُ اللَّهُ — نَشْطَةً لِجَوَابِ يَكْتُبُهُ عَنْ هَذَا التَّعْلِيقِ ، أَعْفَانِي فِيهِ مِنْ قَصْدِ الْإِسْجَاعِ ، وَزُومَ مَا لَا يَلْزَمُ ؛ فَإِنَّ مُلْتَمَسِي فِيهِ الْمَعَانِي لَا الْأَلْفَاظَ وَالسَّلَامَ .

(١) في المخطوطة : « وحماها » (٢) ليس في الطبوعة كلمة : « مولاي » ولا : « ثمال بن صالح »

من أبي العلاء

سَيِّدَنَا الرَّئِيسَ الْأَجَلَ ، الْمُؤَيَّدَ فِي الدِّينِ ، عِصْمَةَ الْمُؤْمِنِينَ ، هَدَى اللَّهُ
الْأُمَّمَ بِهِدَايَتِهِ ، وَسَلَكَ بِهِمْ طُرُقَ الْخَيْرِ عَلَى يَدِهِ :

طلب الرشد

فَقَدْ بَدَأَ الْمُعْتَرِفُ بِجَهْلِهِ ، الْمُتَقَرِّطُ بِخَيْرَتِهِ ، وَالِدَّاعِي إِلَى اللَّهِ — سُبْحَانَهُ —
أَنْ يَرْزُقَهُ مَا قَلَّ مِنْ رَحْمَتِهِ ؛ فِي أَوَّلِ مَا خَاطَبَهُ بِهِ — أَنْ ذَكَرَ اعْتِقَادَهُ
فِي سَيِّدِنَا الرَّئِيسِ الْأَجَلَ ، الْمُؤَيَّدِ فِي الدِّينِ — ضَوْأً اللَّهُ الظُّلْمَ بِبَصِيرَتِهِ ،
وَأَذْهَبَ شُكُوكَ الْأَفْتِدَةِ بِرَأْيِهِ — وَمَا نَفْسُهُ عَلَيْهِ مِنَ الدَّلَّةِ وَالْحَقَرِيَّةِ
عِنْدَهُ ، وَأَنَّهُ يَحْسَبُهَا سَاكِنَةً فِي بَعْضِ السَّوَامِ .

وَعَجِيبٌ أَنْ مِثْلَهُ يَطْلُبُ الرُّشْدَ مِمَّنْ لَا رُشْدَ عِنْدَهُ ، فَيَكُونُ كَالْقَمَرِ الَّذِي
هُوَ دَائِبٌ فِي خِدْمَةِ رَبِّهِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، يَطْلُبُ الْحَقِيقَةَ مِنْ أَقْرَبِ بَقْلَةٍ ، يَرُدُّ
الْمَاءَ عَلَى الصَّائِدِ ، وَيُصِيبُ قَلْبَهُ بِسَهْمٍ !

فصيرة أبي العلاء

وَقَدْ ذَكَرَ — أَيَّدَ اللَّهُ الْحَقَّ بِحَيَاتِهِ — نَيْتًا مِنْ أُنْيَاتِ عَلَى الْخَاءِ ذَكَرَهَا
وَلَيْتُهُ ، لِيَعْلَمَ غَيْرُهُ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْاجْتِهَادِ فِي التَّدِينِ ، وَمَا حِيلَتْهُ فِي الْآيَةِ :
« مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا » .

أسرار الله

وَالْأَيَّاتُ أَوْلَاهَا :

غَدَوْتَ مَرِيضَ الدِّينِ وَالْعَقْلِ فَالْقِنِي لِتَسْمَعَ أَنْبَاءَ الْأُمُورِ الصَّحَائِحِ
وَهُوَ - أَدَامَ اللهُ قُدْرَتَهُ - يَعْلَمُ أَنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ - لَهُ أَسْرَارٌ لَا يَقِفُ
عَلَيْهَا إِلَّا الْأَوْلِيَاءُ ، وَأَنَّ الْمَعْقُولَ لَهُ فِي الْعَالَمِ عَمَلٌ عَظِيمٌ ، لَا يَصِلُونَ إِلَى
الْمَنْفَعَةِ إِلَّا بِهِ ، وَهُوَ يَدُلُّهُمْ عَلَى عِبَادَةِ اللهِ - عَزَّ سُلْطَانُهُ - وَعَلَى جَمِيعِ
مَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ مِنْ مَأْكُولٍ وَمَشْرُوبٍ وَمَلْبُوسٍ ، وَيَدُلُّهُمْ عَلَى طَلَبِ الْمَعَايِشِ ،
وَالسَّعَةِ فِي الْأَرْزَاقِ .

كرهه السمك للخروج من الماء

وَبَعْدَ هَذَا الْبَيْتِ :

فَلَا تَأْكُلَنَّ مَا أَخْرَجَ الْمَاءُ ظَالِمًا وَلَا تَبِيعِ قُوْتًا مِنْ غَرِيضِ الذَّبَابِحِ
وَإِذَا سَلَّمَ الْمُسْلِمُ أَنَّ الْبَارِيَّ - تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ - لَهُ سِرٌّ خَفِيٌّ لَا يَعْلَمُهُ
إِلَّا الْأَنْبِيَاءُ وَمَنْ أَخَذَ عَنْهُمْ مِنَ الْأُمَّةِ . وَلَا يُقَدِّرُ أَحَدٌ أَنَّ الْحَيَوَانَ الْبَحْرِيَّ
لَا يَخْرُجُ مِنَ الْمَاءِ إِلَّا وَهُوَ كَارَهُ لِلْخُرُوجِ ، وَإِذَا سُئِلَ الْمَعْقُولُ عَنْ ذَلِكَ
لَمْ يَقْبَحْ تَرْكَ أَكْلِهِ وَإِنْ كَانَ حِلًّا ، لِأَنَّ الْمُسْتَدِينِينَ لَمْ يَزَالُوا يَتْرَكُونَ
مَا هُوَ لَهُمْ مُطْلَقٌ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، أَنَّهُ كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ حَتَّى تَقَرَّحَتْ قَدَمَاهُ ،
فَقِيلَ لَهُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، لِمَ تَفْعَلُ ذَلِكَ ، وَقَدْ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ
وَمَا تَأَخَّرَ ؟ فَقَالَ : أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا ؟

رخصة الحيوان

وَأَبْيَضٌ^(١) أُمَّاتٍ أَرَادَتْ صَرِيحَهُ لِأَطْفَالِهَا دُونَ الْعَوَانِي الصَّرَائِحِ
وَمَشْهُورٌ فِي الْأُمَمِ أَنَّ الْأُمَّ إِذَا ذُبِحَ وَلَدُهَا وَجَدَتْ عَلَيْهِ وَجْدًا عَظِيمًا،
وَسَهَرَتْ لِذَلِكَ اللَّيَالِي، وَقَدْ أَخَذَ لَحْمَهُ، وَتَوَفَّرَ عَلَى أَصْحَابِ أُمِّهِ مَا كَانَ يَرْضَعُ
مِنْ لَبَنِهَا .

فَأَيُّ ذَنْبٍ يَلْسَنُ تَحَرَّجَ عَنِ ذُبْحِ السَّلِيلِ، وَلَمْ يَرْغَبْ فِي اسْتِعْمَالِ اللَّبَنِ،
وَلَيْسَ يَعْتَقِدُ فِيهِ ذَلِكَ، وَلَا يَزْعُمُ أَنَّهُ مُحَرَّمٌ، وَإِنَّمَا تَرَكَهُ اجْتِهَادًا فِي التَّعَبُّدِ
وَرَحْمَةً لِلْمَذْبُوحِ، رَغْبَةً أَنْ يُجَازَى عَنِ ذَلِكَ بِغُفْرَانِ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَإِذَا قِيلَ إِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - سَاوَى بَيْنَ عِبَادِهِ فِي الْأَقْسَامِ، فَأَيُّ شَيْءٍ
أَسْلَفَتْهُ الذَّبَائِحُ مِنَ الْخَطَا، حَتَّى تُتَمَنَعَ حَظُّهَا مِنَ الرَّأْفَةِ وَالرَّفْقِ؟

ظلم الطير

وَلَا تَفْجَعَنَّ الطَّيْرَ وَهِيَ غَوَافِلٌ بِمَا وَضَعْتَ، فَالظُّلْمُ شَرُّ الْقَبَائِحِ
وَقَدْ نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنِ صَيْدِ اللَّيْلِ، وَذَلِكَ أَحَدُ الْقَوْلَيْنِ فِي قَوْلِهِ ﷺ:
« أَقْرِوْا الطَّيْرَ فِي وُكُنَاتِهَا » وَالْإِسْلَامُ وَرَدَّ بِأَنَّ لَا يُضَارَّ طَائِرٌ وَلَا سِوَاهُ .
وَفِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ - يَا سَيِّدَنَا الرَّئِيسَ الْمُؤَيَّدَ فِي الدِّينِ، عِصْمَةَ الْمُؤْمِنِينَ،
لَا زَالَتْ الْقُلُوبُ مَعْمُورَةً بِعِظَاتِهِ - مَا هُوَ أَعْلَمُ بِهِ مِنْ سِوَاهُ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ:
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا

(١) قال أبو العلاء - بعد ذكر البيت - : « والمراد بالأبيض : اللبن »

فَجَزَاءُ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ « وَقَالَ فِي آخِرِ الْآيَةِ : « وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ » .

وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا : أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ، أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ ، إِلَّا مَا يُبْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ، إِنَّ اللَّهَ يَخْتَصُمُ مَا يُرِيدُ » .

*
* *

فَإِذَا سَمِعَ مَنْ لَهُ أُذُنِي حِسِّ بِهَذَا الْقَوْلِ ، فَلَا لَوْمَ عَلَيْهِ إِذَا طَلَبَ التَّقَرُّبَ إِلَى رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِأَنْ يَجْعَلَ صَيْدَ الْحِلِّ كَصَيْدِ الْحُرْمِ ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لَيْسَ بِمَحْظُورٍ .

دفاع النحل عن نفسها

وَدَعَّ ضَرْبَ النَّحْلِ الَّذِي بَكَرَتْ لَهُ كَوَاسِبَ مِنْ أَزْهَارِ نَبْتٍ فَوَائِحُ لَمَّا كَانَتْ النَّحْلُ تُحَارِبُ الشَّائِرَ عَنِ الْعَسَلِ بِمَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ ، وَتَجْتَهِدُ فِي أَنْ تَرُدَّهُ مِنَ الْجَانِينِ ، فَلَا غَرَوْا إِنْ أَعْرَضَ عَنِ اسْتِعْمَالِهِ رَغْبَةً فِي أَنْ يَجْعَلَ النَّحْلَ كغَيْرِهَا ، تَكْرَهُ ^(١) مَنْ ذَبَحَ الْأَكِيلَ ، وَأَخَذَ مَا كَانَ يَعِيشُ بِهِ ، لَيْسَ بِهِ النَّسَاءُ — كَتَى يَيْدُنُ ^(٢) — وَغَيْرِهَا مِنْ بَنِي آدَمَ .

وَقَدْ وَصَفَتِ الشُّعْرَاءُ ذَلِكَ ، فَقَالَ أَبُو ذُوؤَيْبٍ الْهُذَلِيُّ ، يَصِفُ مُشْتَارَ الْعَسَلِ :
إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ ، لَمْ يَرْجُ لَسَعَهَا ، وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نَوْرِ عَوَامِلِ

(١) في الأصل : « ما تكره » (٢) يصبحن بادنات سمينات

وَقَالَ أَيْضًا :

فَلَمَّا جَلَّاهَا بِالْأَيَّامِ تَفَرَّقَتْ ثُبَاتٌ ، عَلَيْهَا ذُهَا وَأَكْتَابَهَا^(١)
وَالْأَيَّامُ : الدُّخَانُ ، وَقِيلَ : عُوْدٌ فِيهِ نَارٌ يَدْخُلُ فِي مَوْضِعِ النَّحْلِ لِيَهْرَبَ .
وَقَالَ سَاعِدَةُ بْنُ جُوَيْيَةَ :

قَلِيلُ مَتَاعِ الْمَالِ ، إِلَّا مَسَائِيًا وَأَخْرَاجَهَا ، تُعْنَى بِهَا ، وَتُقِيمُهَا
فَمَا بَرِحَ الْإِنْسَانُ حَتَّى وَضَعْنَهُ إِلَى الثَّوْلِ ، يُبْقَى حَبًّا وَيُثْمَرُهَا^(٢)

تَقْسِفُ عَلَى

وَرَوَى عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ — صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ — حِكَايَةَ مَعْنَاهَا :
أَنَّهُ كَانَ لَهُ دَقِيقٌ شَعِيرٍ فِي وَعَاءٍ يُخْتَمُ عَلَيْهِ ، فَإِذَا كَانَ صَائِمًا أَفْطَرَ عَلَى شَيْءٍ
مِنْ ذَلِكَ الدَّقِيقِ ، وَكَانَ أَوَّلَ مَا يَطْعَمُ . فَاطَّلَعَ عَلَى ذَلِكَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ ،
فَقَالَ لِحَارِيَّةٍ لَهُ : « أَمَا تَتَّقُونَ اللَّهَ فِي هَذَا الشَّيْخِ ؟ » فَقَالَتْ :
« وَمَا نَصْنَعُ بِهِ ؟ هُوَ الَّذِي يُخْتَارُ ذَلِكَ ! »

*
* *

وَقَدْ كَانَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — يَصِلُ إِلَى غَلَّةٍ كَثِيرَةٍ ، وَلَكِنَّهُ يَتَصَدَّقُ بِهَا ،
وَيَقْتَنِعُ أَشَدَّ اقْتِنَاعٍ .

وَرَوَى عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُ قَالَ فِي بَعْضِ خُطْبِهِ : « إِنَّ غَلَّتَهُ تَبْلُغُ
— فِي السَّنَةِ — خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ . وَرَوَى أَنَّهُ قَدَّمَ إِلَيْهِ خَيْصٌ فِي

(١) الأيَّام : التدخين على النحل لتخرج ، فيُشْتَارَ عسلها . وثبات : جماعات

(٢) قال أبو العلاء : « يثومها : أى يدخل الأيَّام في بيتها »

الكُوفَةِ ، فَقَالَ : « هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَكَلَهُ ؟ فَقَالُوا :
« لَا » فَأَمَرَ بِرَفْعِهِ .

تَقْسِفُ الْمُجْتَهِدِينَ

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُجْتَهِدِينَ - مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَئِمَّةِ - يَقْصُرُونَ
نُفُوسَهُمْ ، وَيُؤَثِّرُونَ مَا يَفْضَلُ مِنْهُمْ لِأَهْلِ الْحَاجَةِ . وَفِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ :
« وَيُؤَثِّرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » حَسْبُهُمْ مِنَ الشَّرَفِ
مَا ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ تَحْمِيدِ الْإِنْتِفَاعِ ، وَالِإِثَارِ بِالْقَلِيلِ .

اسْتِرْشَادُ أَبِي الْعَمَاءِ بِرَاعِي الرِّعَاةِ

وَقَدْ قُلْتُ فِي مُخَاطَبَةِ سَيِّدِنَا الرَّئِيسِ الْأَجَلِّ الْمُؤَيَّدِ فِي الدِّينِ ، عِصْمَةِ
الْمُؤْمِنِينَ - لَا زَالَ ضِيَاءُ قَلْبِهِ يُضَوِّي قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ - : إِنِّي هَبْتُ
حَضْرَتَهُ الْجَلِيلَةَ ، وَنَسَبْتُ الْإِسْتِرْشَادَ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنِّي رُتْبَةً ، لِأَدْخُلَ
فِي الْمُنْتَفَعَةِ بِجَوَابِهِ .

التَّنْفُلُ وَالزِّيَارَةُ فِي الْفَضَائِلِ

وَقَدْ سَأَلْتُ مَنْ يُسْتَرْشَدُ أَنْ يُسْأَلَ عَنْ قَضَايَا خَمْسٍ ، لَمْ يُجِبْ مِنْهَا عَنْ
وَاحِدَةٍ ، وَعَدَلَ سَيِّدِنَا الرَّئِيسُ الْأَجَلُّ الْمُؤَيَّدُ فِي الدِّينِ إِلَى الْإِيْمَاءِ بِأَنَّ مَنْ
تَرَكَ أَكْلَ اللَّحْمِ ذَمِيمٌ .

وَلَوْ أَخَذَ بِهَذَا الْمَذْهَبِ ، لَوَجَبَ عَلَى الْإِنْسَانِ الْأَيُّصَلِيِّ صَلَاةَ إِلَّا مَا افْتَرَضَ
عَلَيْهِ ، لِأَنَّهُ إِذَا زَادَ عَنْ ذَلِكَ أَدَاءَهُ إِلَى كُلْفَةٍ .
وَاللَّهُ - تَبَارَكَ اسْمُهُ - لَا يُرِيدُ ذَلِكَ .

وَلَوْ جَبَّ أَنْ الَّذِي يَكُونُ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ، إِذَا أَخْرَجَ عَنِ الذَّهَبِ رُبْعَ الْعَشْرِ،
لَا يَحْسُنُ بِهِ أَنْ يَزِيدَ عَلَى ذَلِكَ .

وَقَدْ بَعَثَ النَّاسَ عَلَى النَّفَقَاتِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ ،
كَتَوَلِهِ - تَعَالَى جَدُّهُ - : « وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ
الْمَوْتُ ، فَيَقُولَ : رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ
الصَّالِحِينَ » .

وَفِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ » .
وَالْمُرَادُ بِالْقَرْضِ ، مَا لَا يَجِبُ عَلَى الرَّجُلِ مِنْ إِخْرَاجِ الزَّكَاةِ ، لِأَنَّ زَكَاتَهُ دِينَ
لِلْمَسَاكِينِ عَلَيْهِ .

وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ عَيْدٌ أَطْعَمَ اثْنَيْنِ مِنْهُمْ وَتَرَكَ بَقِيَّةَ الْعَيْدِ ، فَاقْتَنَعَ
أَحَدُ الْعَيْدِ بَعْضَ مَا رُزِقَ ، وَأَطْعَمَ بَاقِيَةَ لِلْعَيْدِ الَّذِينَ لَمْ يَطْعَمُوا شَيْئًا ،
وَاسْتَعَانَ بَعْضُهُمْ عَلَى مَآرِبِ تَوَدِّيهِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ ، كَاتِبَانِهِ بِالْمَاءِ الطَّهُورِ ،
وَتَعَمَّدِهِمْ مَا دَلَسَ مِنْ لِبَاسِهِ بِالْغَسَلِ ؛ لَمْ يَكُنْ ذَمِيمًا فِي ذَلِكَ ، وَلَمْ يَسْتَحِقَّ
مِنْ مَوْلَاهُ الْعُقُوبَةَ .

مرض أبي العلاء وضعفه

وَالْعَبْدُ الضَّعِيفُ الْعَاجِزُ قَدْ افْتَقَرَ إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ ، وَلَوْ مِثْلَ فِي حَضْرَتِهِ
السَّامِيَةِ لَعَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِيهِ بَقِيَّةٌ لِأَنَّ يُسْأَلُ وَلَا أَنْ يُجِيبَ ، لِأَنَّ أَعْضَاءَهُ
مُتَخَذِلَةٌ . وَقَدْ عَجَزَ عَنِ الصَّلَاةِ قَائِمًا وَإِنَّمَا يُصَلِّي قَاعِدًا . وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

وَكَيْفَ لَهُ أَنْ يَكُونَ يَصِلَ إِلَى أَنْ يَدِبَّ عَلَى عَمَّكَارٍ ، أَوْ يَتَّبِعَ مِنْ اتَّفَقَ لَهُ
مِنْ قَائِدٍ ، كَمَا قَالَ أَغْشَى بَكْرٍ :

« إِذْ كَانَ هَادِي الْفَتَى - فِي الْبَلَاءِ - صَدْرُ الْقَنَاةِ ، أَطَاعَ الْأَمِيرَا
وَهَابَ الْعِثَارَ - إِذَا مَا مَشَى - وَخَالَ السَّهْوَلَةَ وَعَشَا وَغُورَا »
وَكَيْفَ لِلْعَبْدِ الضَّعِيفِ الْعَاجِزِ أَنْ يَكُونَ إِذَا مَشَى يَعْتُرُ ، لِأَنَّهُ لَا يَعْتُرُ
إِلَّا وَهُوَ عَلَى الْمَشَى قَادِرٌ ، وَكَيْفَ لَهُ أَنْ تَكُونَ حَالُهُ كَحَالِ لَبِيدٍ لَمَّا قَالَ :

« الْيَسَّ وَرَائِي إِنْ تَرَخْتُمْ مَنِيَّتِي رُكُوبُ الْعَصَا تُحْنِي عَلَيْهَا الْأَصَابِعُ ^(١)
أَخْبِرْ أَخْبَارَ الْقُرُونِ الَّتِي مَضَتْ ، أَدِبٌ كَأَنِّي - كَلَّمَا قُمْتُ - رَاكِعٌ »

كَيْفَ لِي بِهَذِهِ الرَّثْبَةِ ؟ وَلَكِنْ حِيلَ بَيْنَ الْعَيْرِ وَالنَّزْوَانِ ، كَمَا قَالَ صَخْرُ
ابْنِ عَمْرٍو بْنِ الشَّرِيدِ :

« أَهْمٌ بِأَمْرِ الْحَزْمِ - لَوْ أَسْتَطِيعُهُ - وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الْعَيْرِ وَالنَّزْوَانِ
وَلَمَمْتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ كَانَتْهَا مُعْرَسٌ يَمْسُوبٌ بِرَأْسِ سِنَانٍ »
وَإِنِّي لِأَعْجِزُ - إِذَا اضْطَجَعْتُ - عَنِ الْقُعُودِ ، فَرُبَّمَا اسْتَعْنَتْ بِإِنْسَانٍ ،

(١) من أرفع ما قرأناه في هذا المعنى قول الشاعر :

« حننتي حانياً الدهر ، حتى كأني خاتل يدنو لصيد

قليل الخطو ، يحسب من رأني - ولست مقيداً - أني بقيد »

وقول ابن حمد يس يصف عصاه :

كأنها - وهي في كفي - أهش بها على الثمانين عاماً ، لا على غنمي

وقول المعري :

« مرحت كالفرس الذبَّال - آونة - ثم اعتراك أبو سعد ، فقد شكلك

وهو يعني بأبي سعد : الشيخوخة .

فَإِذَا هُمْ بِإِعَانَتِي وَبَسَطَ يَدَيْهِ لِيُنْهَضَنِي ، اضْطَرَبَتْ عِظَامِي ، لِأُمَّهِنَّ عَارِيَاتٌ
مِنْ كِسْوَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِنَّ ، فَعَرَّتْهُنَّ مِنْهَا الْأَوْقَاتُ الْمُتَمَادِيَةَ .
وَإِنَّمَا عَنَيْتُ مَا كَانَ عَلَيْهِنَّ مِنَ اللَّحْمِ .

تمثل داعي الرعاية بيوت لأبي الطيب

وَأَمَّا تَمَثُّلُهُ بِيُوتِ أَبِي الطَّيِّبِ ، فَلَوْ بَلَغَهُ ذَلِكَ لَا يَتَّبِعُ ، إِذْ كَانَ مِثْلُهُ يَتَمَثَّلُ
بِشَيْءٍ مِمَّا نَظَّمَهُ ، وَقَدْ قَالَ لِعَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَمْدَانَ لَمَّا سَمِعَهُ يُنْشِدُ بَيْتَيْنِ
مِنْ شِعْرِ النَّابِغَةِ - أَغْلَبُ الظَّنُّ أَنَّ الْأَوَّلَ مِنْهُمَا :
« وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سِيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُوكُ مِنْ قِرَاعِ الْكُتَائِبِ » - :

* *
* *

« سَمِعْتُكَ مُنْشِدًا بِيُنْتَى زِيَادٍ ، نَشِيدًا - مِثْلَ قَائِلِهِ - كَرِيمًا
فَمَا أَنْكَرْتُ مَوْضِعَهُ ، وَلَكِنْ غَبَطْتُ - بِذَلِكَ - أَعْظَمَهُ الرَّمِيمَا »
وَلَوْ بَلَغَهُ هَذَا الْخَبْرُ لَكَانَ سُرُورُهُ بِهِ أَعْظَمَ مِنْ سُرُورِهِ بِتَمَثُّلِ ابْنِ حَمْدَانَ ،
لِأَنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ كَانَ صَاحِبَ سَيْفٍ ، وَسَيِّدُنَا الرَّئِيسُ الْأَجَلُ صَاحِبُ وَرَعٍ
وَدِينٍ ، وَهَدَايَةٍ يَنْتَفِعُ بِهَا الْمُتَهْتَدُونَ

الاسترشاد بأبي العمراء

وَمَنْ اسْتَرْشَدَ بِمِثْلِ الْعَبْدِ الضَّعِيفِ الْعَاجِزِ ، فَإِنَّمَا مِثْلُهُ مِثْلُ مَنْ طَلَبَ فِي
الْقِتَادَةِ ثَمَرَ النُّخْلَةِ ، وَإِنَّمَا حَمَلَ سَائِلُهُ عَلَى ذَلِكَ حُسْنُ الظَّنِّ الَّذِي هُوَ دَلِيلٌ عَلَى
كَرَمِ الطَّبَعِ ، وَشَرَفِ النَّفْسِ ، وَطَهَارَةِ الْمَوْلِدِ ، وَخَالِصِ الْإِلِيمِ .

وَمَنْ اسْتَرْشَدَ بِسَيِّدِنَا الرَّئِيسِ الْأَجَلِّ الْمُؤَيَّدِ فِي الدِّينِ - أَجْزَلَ اللَّهُ
حَظَّ الْإِسْلَامِ بِدَوَامِ أَيَّامِهِ - كَانَ كَطَالِبِ الذَّهَبِ مِنْ مَعْدِنِهِ^(١)

توسيع رزق أبي العلاء

فَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ مِنَ الْمُسْكَاتِبَةِ فِي تَوْسِيعِ الرِّزْقِ عَلَيَّ ، فَبَدَلُ إِفْضَالٍ وَرَثَةٍ
عَنْ أَبِي قَابٍ ، وَجَدِّي فِي أَثَرِ جَدِّي ، حَتَّى يَصِلَ النَّسَبُ إِلَى التُّرَابِ الَّذِي خَلَقَ
اللَّهُ مِنْهُ آدَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كَمَا قَالَ الْأَسَدِيُّ :

« فَضَلْنَا النَّاسَ : أَنَا أَوْلَاهُمْ ، وَأَنَّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ فِيْنَا
أَبَا قَابًا - إِذَا نَحْنُ انْتَسَبْنَا - إِلَى أَنْ يَبْلُغَ الْإِنْسَانُ طِينًا »

وَأَمَّا الْعَبْدُ الضَّعِيفُ الْعَاجِزُ ، فَمَا لَهُ رَغْبَةٌ فِي التَّوَسُّعِ وَمُعَاوَدَةِ الْأَطْعَمَةِ ،
وَتَرَكْهَا صَارَ لَهُ طَبَعًا ثَانِيًا ، وَ لَهُ - مَا أَكَلَ شَيْئًا مِنْ حَيَوَانٍ - خَمْسٌ
وَأَرْبَعُونَ سَنَةً . وَقَالَ الشَّاعِرُ :

وَالشَّيْخُ لَا يَتْرُكُ عَادَاتِهِ حَتَّى يُوَارِيَ فِي ثَرَى رَمْسِهِ
وَأَرْجُو الْأَيْكُونَ الْعَبْدُ الضَّعِيفُ الْعَاجِزُ أَحَدَ الْجَاهِلِينَ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ الشَّاعِرُ :
مَا يَبْلُغُ الْأَعْدَاءُ مِنْ جَاهِلٍ مَا يَبْلُغُ الْجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ

أصبر هلب في عهد أبي العلاء

وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ السَّيِّدَ الْأَجَلَّ^(٢) تَاجَ الْأَمْرَاءِ ، فَخَرَّ الْمُلْكَ ، عُمْدَةَ الْإِمَامَةِ ،

(١) في المطبوعة بعد ذلك : « في النيل ومشبهه » و يظهر أن هنا سقطا

(٢) تقدم في الرسالة السابقة أن اسمه « ثمال بن صالح »

وَعُدَّةَ الدَّوْلَةِ وَمَجْدَهَا وَعِزَّهَا ، ذَا الْفَخْرَيْنِ ، أَعَزَّ اللَّهُ نَصْرَهُ - يُضِيفُ أَوْلَادَ
سَامَ وَمَنْ وَلَدَهُ أَخُوهُ حَامُ ، وَكَذَلِكَ نَسْلَ يَافِثَ ، وَلَوْ فُتِحَتْ يَا جُوجُ وَمَأْجُوجُ
بَلَّازَ أَنْ يَضْمَنَ لَهُمْ قِرَى الْأَضْيَافِ .

وَوَدَّ الْعَبْدُ لَوْ أَنَّ قَلْعَةَ حَلَبَ - حَمَاهَا اللَّهُ - وَجَمِيعَ جِبَالِ الشَّامِ ،
جَعَلَهَا اللَّهُ الْقَادِرُ ذَهَبًا ، لِنَفَقَةِ السَّيِّدِ الْأَجَلِّ تَاجِ الْأُمَرَاءِ ، خَلَدَ اللَّهُ إِمَارَتَهُ
فِي نَصْرِ الدَّوْلَةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى إِمَامَتِهَا السَّلَامِ ، وَكَذَلِكَ عَلَى الْأَيْمَةِ الطَّاهِرِينَ
آبَائِهِ - مِنْ غَيْرِ أَنْ يَصِيرَ إِلَى الْعَبْدِ الضَّعِيفِ الْعَاجِزِ مِنْ ذَلِكَ قَيْرَاطًا .

زهد أبي العلاء في العاجلة

وَهُوَ يَسْتَحِي مِنْ حَضْرَةِ تَاجِ الْأُمَرَاءِ ، أَدَامَ اللَّهُ جَلَالَتَهُ ، أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ
بِعَيْنٍ مِنْ رَغْبٍ فِي الْعَاجِلَةِ مِنْ بَعْدِ مَا زَهَدَ ، وَقَدْ رَضِيَ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ
- جَلَّتْ قُدْرَتُهُ - وَهُوَ لَا يُطَالِبُ إِلَّا بِمَا فَعَلَ ، مِنْ اجْتِنَابِ اللَّحُومِ ،
فَإِنْ وَصَلَ إِلَى هَذِهِ الرُّتْبَةِ فَقَدْ سَعِدَ .

سجع أبي العلاء

وَفَهِمْتُ مَا نَهَى عَنْهُ مِنْ اجْتِنَابِ السَّجْعِ ، وَقَدْ أَدَّبَنِي بِمَا قَالَ
النَّبِيُّ ﷺ حِينَ قَالَ لَهُ الْقَائِلُ لِمَا ذَكَرَ الْجَنِينِ : « أَرَأَيْتَ مَنْ لَا شَرِبَ
وَلَا أَكَلَ ، وَلَا صَاحَ وَلَا اسْتَهَلَ ؛ أَلَيْسَ مِثْلَ ذَلِكَ بَطَلٌ - وَيُرْوَى : يُطَلُّ - »
فَقَالَ ﷺ : « أَسَجَعًا كَأَجَاهِلِيَّةٍ ؟ »

الاضمحاج للسمع

عَلَى أَنَّ النَّاسَ فِي الْإِسْلَامِ قَدِ اسْتَحْسَنُوا السَّجَعَاتِ ، وَكَثُرَتْ فِي خُطْبِهِمْ
وَمُرَاسِلَاتِهِمْ ، فَقَلَّ مَا يُخْطَبُ بِخُطْبَةٍ عَلَى مَنبَرٍ إِلَّا وَفِيهَا سَجَعٌ .
وَأَمَّا خُطْبَاءُ الْعِرَاقِ فَتَمَّعَهُمْ خُطْبٌ تَكُونُ — مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا —
مَسْجُوعَةً عَلَى الْبَاءِ أَوْ التَّاءِ أَوْ غَيْرِهَا مِنْ الْحُرُوفِ .
وَرُوي أَنَّ بَعْضَ الْمُلُوكِ قَالَ لِبَعْضِ الْفُقَهَاءِ : بَلَّغْنِي أَنَّكَ تُحِبُّ السَّجَعَ .
فَقَالَ : نَعَمْ . وَقَرَأَ عَلَيْهِ آيَاتٍ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا » !

فواصل القرآن

وَالْفَوَاصِلُ الَّتِي جَاءَتْ فِي الْكِتَابِ الْأَشْرَفِ عَلَى ضُرُوبٍ : مِنْهَا مَا هُوَ
مُتَّبَعٌ لَا يَجْرِي مَجْرَى السَّجَعِ ، وَفِيهِ مَا يَجْرِي مَجْرَى الْمَسْجُوعَاتِ ، كَقَوْلِهِ
تَعَالَى : « وَالْفَجْرُ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ، وَالشَّفْعُ وَالْوَتْرُ »
وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ »
وَإِذَا جَاءَتْ الْكَلِمَاتُ مُخْتَلِفَاتِ الْأَعْرَابِ — بَعْضُهَا مَرْفُوعٌ ، وَبَعْضُهَا
مَنْصُوبٌ ، وَبَعْضُهَا مَخْفُوضٌ — فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَرَى ذَلِكَ سَجَعًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا
يُدْخِلُهُ فِي بَابِ الْمَسْجُوعِ . فَإِذَا اخْتَلَفَتْ أَوَائِلُ الْكَلِمَاتِ فِي الضَّمِّ وَالْفَتْحِ
وَالْكَسْرِ ، فَفِيهِ اخْتِلَافٌ كَاخْتِلَافِهِمْ فِي الْأَعْرَابِ

سمع الحمايم

وَلَوْ عَلِمَتْ أَحْمَائِمُ السَّاجِدَةُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ ، أَوْ نَبِيَّهُ ﷺ ، يَكْرَهُ سَجْعَهَا

عَلَى الْغُصُونِ ، نَحَرَسَتْ عَنْهُ ، وَتَبَرَّاتُ مِنْهُ ، وَكَذَلِكَ التُّوقُ الْمُوصُوفَةُ بِأَنَّهَا
سَاجِعَاتٌ ، كَمَا قَالَ تَمِيمُ بْنُ نُوَيْرَةَ :

إِذَا حَنَّتِ الْأُولَى سَجَعْنَ لَهَا مَعًا

كراهة الرسول السجع

وَإِنَّمَا كَرَاهَةُ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — لِأَنَّهُ قَدْ كَثُرَ فِي كَلَامِ السُّكَّانِ ، فَهِيَ
عَنْهُ غَيْرُ مُحَرَّمٍ لَهُ ، وَقَدْ رُويَ عَنْهُ كَلَامٌ مَسْجُوعٌ فِي حَدِيثِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ
الْبَجَلِيِّ ، مِنْهُ قَوْلُهُ — لَمَّا سَأَلَهُ عَنِ الْمَرْعَى وَالْمَاءِ — : « خَيْرُ الْمَاءِ الشَّبْمُ ، وَخَيْرُ
الْمَرْعَى السَّلَمُ . إِذَا سَقَطَ صَارَ دَرِينًا ، وَإِذَا خُبِطَ جُعِلَ لَجِينًا ^(١) »

فطنة راعي الدعاة

وَسَيِّدُنَا الرَّئِيسُ الْأَجَلُّ الْمُؤَيَّدُ فِي الدِّينِ — لَا زَالَتْ حُجَّتُهُ بِأَهْرَةَ ،
وَدَوْلَتُهُ غَالِبَةٌ — كَمَا قَالَ زُهَيْرٌ :

« لَعَمْرُ أَبِيكَ مَا هَرَمُ بْنُ سَمَى . بِلِحْيِ إِذَا اللُّؤْمَاءُ لِيَمُوا
وَلَا سَاهِي الْفُوَادِ وَلَا عِيَّيِّ الِإِ . إِذَا تَشَاجَرَتِ الْأُخُصُومُ »

وَكَأَنَّ قَالَ تَعْلَبَةُ بْنُ صُعَيْرِ الْمَازِنِيِّ :

« وَالرُّبَّ قَوْمِ ظَالِمِينَ — ذَوِي سُدَى — تَغْلِي صُدُورَهُمْ بِهَيْتِرِ هَاتِرِ
لَدِّي ، ظَارَهُمْ عَلَى مَا سَاءَ أَعْمَهُمْ . وَخَسَاتُ بَاطِلِهِمْ بِحَقِّ ظَاهِرِهِ »

وَلَوْ نَاطَرَ أَرْسُطَاطَالِيْسَ لَجَازَ أَنْ يُفْحِمَهُ ، وَأَفْلَاطُونَ لِنَبَذَ حُجَجَهُ خَلْفَهُ .

وَاللَّهُ يُجَمِّلُ بِحَيَاتِهِ الشَّرِيعَةَ ، وَيَنْصُرُ بِحُجَّتِهِ الْمِلَّةَ . وَالسَّلَامُ

(١) شَبْمُ الْمَاءِ : بَرْدٌ . خَيْرُ الْمَاءِ مَا كَانَ بَارِدًا . وَالسَّلَمُ : شَجَرٌ مِنَ الْمَضَاءِ . وَاللَّجِينُ :
مَا بَلِيَ مِنَ الْحَشِيشِ . وَاللَّجِينُ : الْعَلْفُ الْمَتَّخِذُ مِنَ الْوَرَقِ الْمَدْقُوقِ الْمَحْلُوطِ بِدَقِيقِ أَوْ شَعِيرِ .

من داعى الدعاة^(١)

مَا فَاتَحْتُ الشَّيْخَ — أَحْسَنَ اللهُ تَوْفِيقَهُ — بِالْقَوْلِ إِلَّا مُفَاتِحَةً مَتَنَاكِرٍ ،
مُوَثَّرٍ لِأَنَّ لَا يَخْفَى مِنْ أَيْنَ جَاءَهُ السُّؤَالُ ، فَيَكُونُ الْجَوَابُ بِاسْتِرْسَالٍ وَرَفُضٍ
حِشْمَةٍ ، وَحَذْفٍ تَكَلَّفِ الْخُطَابِ بِسَيِّدِنَا ، وَالرَّئِيسِ ، وَمَا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى ،
إِذْ كَانَ حُكْمُ مَا تَجَارَى فِيهِ مُوجِبًا أَنْ لَا يَتَخَلَّلَهُ شَيْءٌ مِنْ زَخَارِفِ الدُّنْيَا ،
وَلِأَنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّ « سَيِّدِي » — بِالْحَقِيقَةِ — مَنْ تَسْتَقِلُّ دُونَ يَدِهِ يَدِي أَخْذًا
مِنْهُ لِلدُّنْيَا ، أَوْ تَمْتَارُ نَفْسِي مِنْ نَفْسِهِ اسْتِفَادَةً مِنْ مَعَالِمِ الْآخِرَى .

فَلَا أَدْرِي كَيْفَ انْعَكَسَتْ الْحَالُ ، حَتَّى صَارَ الشَّيْخُ — أَدَامَ اللهُ تَأْيِيدَهُ —
يُخَاطِبُنِي بِسَيِّدِنَا وَالرَّئِيسِ ، وَلَسْتُ مُفَضَّلًا عَنْهُ فِي دُنْيَا وَلَا دِينٍ ، بَلْ شَاذَّ رَاجِلَتِي
إِلَيْهِ لِاسْتِفَادَةٍ ؛ إِنْ وَرَدَتْ مُوَرَّدَهَا ، أَوْ صَادَفَتْ نَهْلًا أَوْ عَلَا مِنْهَا ، قَابَلْتُهَا
بِالشُّكْرِ لِنِعْمَتِهِ ، وَالِاسْتِجَابِ عَلَى نَفْسِي بِسَيَادَتِهِ .

معرفة داعى الدعاء للناس

وَبَعْدُ فَإِنِّي أَعْلَمُهُ — أَدَامَ اللهُ سَلَامَتَهُ — أَنَّنِي شَقَقْتُ بَطْنَ الْأَرْضِ مِنْ
أَقْصَى دِيَارِي إِلَى مِصْرَ ، وَشَاهَدْتُ النَّاسَ بَيْنَ رَجْدَيْنِ :
إِمَّا مُتَّجِلًا لِشَرِيعَةٍ صَبَا^(٢) إِلَيْهَا ، وَلِهَجَّ بِهَا إِلَى الْحُدِّ الَّذِي إِنْ قِيلَ لَهُ مِنْ
أَخْبَارِ شَرْعِهِ : إِنْ فَيْلًا طَارَ ، أَوْ جَمَلًا بَاضَ ، لَمَا قَابَلَهُ إِلَّا بِالْقَبُولِ وَالتَّصْدِيقِ ،
وَلَكَانَ يُكْفَرُ مَنْ يَرَى غَيْرَ رَأْيِهِ فِيهِ ، وَيُسْفَهُهُ وَيَلْعَنُهُ !

(١) قالوا : وقد مات أبو العلاء قبل أن يصل إليه هذا الكتاب (٢) صبا إلى الشيء : مال

فَالْعَقْلُ عِنْدَ مَنْ هَذِهِ سَبِيلُهُ فِي مَهْوَاةٍ وَمَضْيَعَةٍ ، فَلَيْسَ يَكَاذُ يَنْبَعِثُ لِأَنَّ
يَعْلَمَ أَنَّ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ الَّتِي يَنْتَجِلُهَا لَمْ يُطَوَّقْ طَوْقَهَا ، وَلَمْ يُسَوِّرْ سِوَارَهَا إِلَّا
بَعْدَ لَمُوعِ نُورِ الْعَقْلِ مِنْهُ ، فَكَيْفَ يَصِحُّ تَوَلِّيَتُهُ أَوْلًا وَعَزْلُهُ آخِرًا ؟ وَلِمَ
لَا يَتَسَاوَى طَرَفَاهُ وَوَلَايَةٌ ، أَوْ يَتَسَاوَى طَرَفَاهُ عَزْلًا ؟ « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا
لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ » .

أَوْ مُتَّحِلًا لِلْعَقْلِ يَقُولُ : « إِنَّهُ حُجَّةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ » مُبْطَلًا لِجَمِيعِ
مَا النَّاسُ فِيهِ ، مُسْتَخْفًا بِأَوْضَاعِ الشَّرَائِعِ ، مُعْتَرِفًا مَعَ ذَلِكَ بِوُجُوبِ الْمُسَاعَدَةِ
عَلَيْهَا ، وَعَظْمِ الْمَنْفَعَةِ بِمَكَانِهَا ، لِكُونِهَا مَقْمَعَةً لِلْجَاهِلِينَ ، وَلِجَامًا عَلَى
رُءُوسِ الْمُجْرِمِينَ الْمُجَازِفِينَ . لَا عَلَى أَنَّهَا ذَخِيرَةٌ لِلْعَقْبِيِّ ، أَوْ مَنجَاةٌ فِي
الدَّارِ الْآخِرَى .

سَمَاعُ أَبِي الْعَمَاءِ

فَلَمَّا رَمَتْ بِنَى الْمَرَامِي إِلَى دِيَارِ الشَّامِ وَمِصْرَ . سَمِعْتُ عَنِ الشَّيْخِ — وَفَقَّهُ
اللَّهُ — بِفَضْلِ فِي الْأَدَبِ وَالْعِلْمِ ، قَدِ اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ الْأَقْوِيلُ ، وَوَضَحَ بِهِ
الْبُرْهَانَ وَالذَّلِيلُ . وَرَأَيْتُ النَّاسَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِدِينِهِ مُخْتَلِفِينَ ، وَفِي أَمْرِهِ
مُتَبَلِّغِينَ : فَكُلٌّ يَذْهَبُ فِيهِ مَذْهَبًا ، وَيَتَّبِعُهُ مِنْ تَقَاسِيمِ الظُّنُونِ سَبَبًا .

أَقْوَالُ النَّاسِ فِي أَبِي الْعَمَاءِ

وَحَضَرْتُ مُجَلِّسًا جَدِيلًا أُجْرَى فِيهِ ذِكْرُهُ ، فَقَالَ الْخَاضِرُونَ فِيهِ غَثًّا وَسَمِينًا .
فَحَفِظْتُهُ بِالْغَيْبِ ، وَقُلْتُ : إِنَّ الْمَعْلُومَ مِنْ صَلَابَتِهِ فِي زُهْدِهِ يَحْمِيهِ مِنَ الظَّنَّةِ

وَالرَّيْبِ . وَقَامَ فِي نَفْسِي أَنَّ عِنْدَهُ مِنْ حَقَائِقِ دِينِ اللَّهِ سِرًّا ، قَدْ أَسْبَلَ عَلَيْهِ
مِنَ التَّقِيَّةِ سِتْرًا ، وَأَمْرًا تَمَيَّزَ بِهِ عَنْ قَوْمٍ يُكْفَرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَيَلْعَنُ
بَعْضُهُمْ بَعْضًا .

رابعة البيت

وَمَا سَمِعْتُ الْبَيْتَ :

غَدَوْتُ مَرِيضَ الدِّينِ وَالْعَقْلِ فَالْفَنَى لَتَسْمَعَ أَنْبَاءَ الْأُمُورِ الصَّحَائِحِ
وَوَثِقْتُ مِنْ خَلْدِي فِيمَا حَدَسْتُ عُقُودَهُ ، وَتَأَكَّدْتُ عُهُودَهُ . وَقُلْتُ :
إِنَّ لِسَانًا يَسْتَطِيعُ بَعْمَلِ هَذِهِ الدَّعْوَى نَطْقًا ، وَيَفْتِقُ مِنْ هَذَا الْعَظِيمِ رَتْقًا ،
لِلْسَانِ صَامِتٌ عِنْدَهُ كُلُّ نَاطِقٍ ، وَنَاطِقٌ مِنْ ذِرْوَةِ جَبَلٍ مِنَ الْعِلْمِ شَاهِقٌ .
فَقَصَدْتُهُ قَصَدَ مُوسَى — عَلَيْهِ السَّلَامُ — لِلطُّورِ أَقْبَسُ مِنْهُ نَارًا ،
وَأَحْوَلُ أَنْ أَرْفَعَ بِالْفَخْرِ مَنَارًا ؛ بِمَعْرِفَةِ مَا تُخَلِّفَ عَنْ مَعْرِفَتِهِ الْمُتَخَلِّفُونَ ،
وَاخْتَلَفَ فِي حَقِيقَتِهِ الْمُخْتَلِفُونَ .

فَأَدَلَيْتُ دَلْوِي بِالْمَسْأَلَةِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي سَأَلْتُ ، تَرْقِيًّا مِنْ دُونَِ إِلَى فَوْقِ ،
وَتَدَرُّجًا مِنْ صَغِيرٍ إِلَى كَبِيرٍ .

جواب أبي العمراء

فَكَانَ جَوَابُهُ أَنَّهُ يَصْعُرُ عَنْ أَنْ يَكُونَ لِلِاسْتِرْشَادِ مَحَلًّا ، وَأَنْ يَشُدَّ إِلَيْهِ
شَادٌّ فِيهِ رَحَلًا ، فَقُلْتُ : هَذَا زِيَادَةٌ فِي فَضْلِهِ ، وَمَا يَجُوزُ صُدُورُ مِثْلِهِ عَنْ مِثْلِهِ .
ثُمَّ انْتَهَى إِلَى الْإِحَالَةِ عَلَى كَوْنِ النَّاسِ — مَنْ تَقَدَّمَ مِنْهُمْ وَتَأَخَّرَ — فِي وَادِي
الْحَيْرَةِ تَائِهِينَ ، وَبَادِيَاهَا مُتَعَتِّرِينَ .

فَمَنْ قَاتِلٍ يَقُولُ : إِنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ . وَحُجِبَ يُجِيبُهُ :
هَلْ كَانَ مَا يَسْتَعِيدُ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكُلِّ مُسْتَعَاذٍ مِنْهُ
خَيْرًا أَوْ شَرًّا ؟ فَإِنْ كَانَ خَيْرًا فَلَا سْتِعَاذَةَ مِنْهُ بَاطِلَةٌ ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا
وَاللَّهُ مُرِيدُهُ ، فَلَا سْتِعَاذَةَ مِنْهُ فَضُولٌ وَزِيَادَةٌ فِي الْمَعْنَى .

وَسُؤَالٍ مَنْ يَسْأَلُ : هَلْ كَانَ سَمُّ الْحَسَنِ وَقَتْلُ الْحُسَيْنِ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ -
خَيْرًا أَوْ شَرًّا ؟ فَإِنْ كَانَ خَيْرًا فَاللَّعْنَةُ عَلَى الْقَاتِلِ مِنْ أَىِّ جِهَةٍ ؟ وَإِنْ كَانَ
شَرًّا وَاللَّهُ مُرِيدُهُ ، زَالَ اللَّوْمُ عَنِ الْقَاتِلِ .

وَقَاتِلٍ يَقُولُ : إِنَّ الْخَيْرَ مِنَ اللَّهِ ، وَالشَّرَّ مِنْ غَيْرِهِ .
وَحُجِبَ يُجِيبُهُ بِالْجَوَابِ ، الَّذِي يَقْطَعُ بِهِ الْأَسْبَابَ .
وغير ذلك مما أطل الخُطابَ به من أشعار المُلحدَةِ وأقوالهم .

جواب داعى الدعاء

فَكَانَ جَوَابِي لَهُ - أَدَامَ اللَّهُ سَلَامَتَهُ - أَنِّي مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذَكَرْتَهُمْ
هَرَبْتُ إِلَيْكَ ، وَتَطَارَحْتُ عَلَيْكَ . وَإِنَّ كَلَامَهُمْ - قَبْلَ أَنْ عَلَّمْتَهُ - عَلِيلٌ ،
وَهُوَ عَلَى مَسَامِعِ الْقُبُولِ مِنِّي ثَقِيلٌ . فَافْتَحْ لِي - إِلَى مَا عِنْدَكَ - بَابًا ،
وَأَفْسَحْ لِي مِنْ لَدُنْكَ جَنَابًا . فَلَمْ يَفْعَلْ .

المنافسة في أكل اللحوم

ثُمَّ خَاطَبْتُهُ عَلَى امْتِنَاعِهِ مِنْ أَكْلِ اللَّحْمِ ، فَاحْتَجَّ بِكَوْنِهِ مُتَحَرِّجًا مِنْ
قَصْدِهَا - أَعْنِي الْبِهَائِمَ - بِالْمُضَرَّةِ وَالْإِيْلَامِ ، مُتَعَفِّفًا عَنْهَا لِهَذِهِ الْجِهَةِ .
فَقَطَّعْتُ لِسَانَ حُجَّتِهِ بَعْدَ تَبَاهِيهَا .

وَقُلْتُ : إِذَا كَانَ اللَّهُ سَلَطَ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ يَأْكُلُهُ ، وَهُوَ أَعْرَفُ
بِوُجُوهِ الْحِكْمَةِ ، وَأَرْأَفُ بِالْخَلِيقَةِ ؛ فَلَا يَكُنْ أَرْأَفَ بِهَا مِنْ رَبِّهَا ،
وَلَا أَعْدَلَ فِيهَا مِنْ خَالِقِهَا .

ذكر أبي العلاء لعجزه وضعفه

ثُمَّ عَدَلَ إِلَى ذِكْرِ قُصُورِ يَدِ الْإِسْتِطَاعَةِ دُونَ ذَلِكَ ، إِذْ كَانَ الْقَدْرُ الَّذِي
هُوَ لَهُ فِي السَّنَةِ مَصْرُوفًا - إِلَى مَنْ تَوَلَّى خِدْمَتَهُ - أَكْثَرُهُ ، وَخَالِصًا لَهُ أَقْلُهُ .

امتناعه من قبول المعونة

فَقَطَعْتُ الْحُجَّةَ فِي هَذَا الْبَابِ أَيْضًا ، وَعَيَّنْتُ لَهُ عَلَى جِهَةِ كَرِيمَةٍ مِنَ الَّذِينَ
لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَى ، [مَا] يَقُومُ بِقَدْرِ كِفَايَتِهِ مِنْ أَطِيبِ
مَا يَأْكُلُونَ ، وَأَزْكَى مَا - فِي الْبُيُوتِ - يَدَّخِرُونَ .

فَتَجَافَتْ نَفْسُهُ - وَقَاهَا اللَّهُ السُّوءَ - عَنْ هَذَا الْبَابِ أَيْضًا . وَكَتَبَ
فِي الْجَوَابِ الثَّانِي بَأَنَّهُ لَا يُؤَثِّرُهُ ، وَلَا يَرْغَبُ فِيهِ ، وَلَا يَخْرِقُ عَادَتَهُ الْمُسْتَمِرَّةَ
فِي التَّرَكِّ .

طلب الرشد

وَابْتَدَأَ يَقُولُ : إِنِّي أَطْلُبُ الرَّشْدَ مِمَّنْ لَا رُشْدَ عِنْدَهُ ، وَإِنَّ الْبَيْتَ - الَّذِي
قَالَهُ - مِمَّا جَعَلْتُهُ حُجَّةً إِلَى اسْتِقْرَاءِ طَرِيقَتِهِ وَمَذْهَبِهِ - إِنَّمَا أَرَادَ الْإِعْلَامَ
بِاجْتِهَادِهِ فِي الدِّينِ ، وَمَا حِيلَتْهُ فِي الْآيَةِ الْمُنَزَّلَةِ : « مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ،
وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا »

فَجَمَعَ بَيْنَ الْمُتَضَادِّينِ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ . إِنْ كَانَتْ الْآيَةُ حَقًّا ، كَانَ
الاجْتِهَادُ بَاطِلًا .

وَقَالَ : إِنْ لِلَّهِ — سُبْحَانَهُ — أَسْرَارًا لَا يَقِفُ عَلَيْهَا إِلَّا الْأَوْلِيَاءُ ، فَنَحْنُ
عَلَى ذَلِكَ نَدْوَرُ ، وَعَلَى بَابٍ مَنْ هُوَ عِنْدَهُ نَطُوفُ .

فَإِنْ قُلْنَا : إِنَّهُ — حَرَسَهُ اللَّهُ مِنْ أَصْحَابِهِ — بِدَعْوَى صِحَّتِهِ فِي دِينِهِ وَعَقْلِهِ ،
وَمَرَضِ النَّاسِ ، عَلَى مُوجِبِ قَوْلِهِ فِي بَيْتِهِ ^(١) . قَالَ : لَا رُشْدَ عِنْدِي !

فَنَظَّمَهُ فِي هَذَا الْمَعْنَى يُخَالِفُ نَثْرَهُ ، وَنَثْرُهُ يُخَالِفُ نَظْمَهُ ، فَكَيْفَ الْحِيلَةُ ؟

صحة الدين والعقل

ثُمَّ قَالَ : إِنْ الْبَيْتَ الْمَقُولَ :

غَدَوْتَ مَرِيضَ الدِّينِ وَالْعَقْلِ ، فَالْقِنِي

يُؤَدِّي مَعْنَاهُ إِلَى الْبَيْتِ الثَّانِي :

فَلَا تَأْكُلَنَّ مَا أَخْرَجَ الْمَاءُ ظَالِمًا

فَكَانَ مَرَضَ الْعَقْلِ وَالدِّينِ مِنْ جِهَةِ أَكْلِ الْأَحْوِمِ ، وَشُرْبِ الْأَلْبَانِ ، وَتَنَاوُلِ
الْعَسَلِ . فَمَنْ تَرَكَ هَذِهِ الْمَطَاعِمَ كَانَ صَحِيحًا فِي دِينِهِ وَعَقْلِهِ .
وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ مَصْحَحَةَ الْأَدْيَانِ وَالْعُقُولِ لَا تَقُومُ بِذَلِكَ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « نَيْتَهُ » وَلَا مَعْنَى لَهَا ، وَهِيَ مُحَرَّفَةٌ عَنْ « بَيْتِهِ » أَي الْبَيْتِ الَّذِي هُوَ
مَطْلَعُ قَصِيدَةِ أَبِي الْعَلَاءِ : غَدَوْتَ مَرِيضَ الدِّينِ وَالْعَقْلِ . . . الخ ، وَهُوَ الْحُورُ الَّذِي دَارَتْ
عَلَيْهِ الرِّسَالُ بَيْنَ دَاعِيِ الدُّعَاةِ وَالْمَعْرَى

وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْبَيْتُ الثَّانِي نَاسِخًا لِحُكْمِ الْأَوَّلِ .

فَيَكُونُ مَحْصُولُ دَعْوَاهُ فِي فَقْرِ النَّاسِ إِلَى أَنْ يُصَحَّحَ عَقْلُهُمْ وَدِينُهُمْ ،
أَنْ يَقُولَ لَهُمْ : لَا تَأْكُلُوا اللَّحْمَ ، وَلَا تَشْرَبُوا اللَّبْنَ !

كرهه السمك للمخرج من الماء

وَأَمَّا قَوْلُهُ : إِنْ الْحَيَوَانَ الْبَحْرِيَّ كَرِهَهُ لِأَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْبَرِّ ؛ وَأَنَّهُ لَيْسَ يَقْبَحُ
فِي الْعُقُولِ تَرْكُ أَكْلِهِ وَإِنْ كَانَ حَلَالًا ، لِأَنَّ الْمَتَدَيِّينَ لَمْ يَزَالُوا يَتْرَكُونَ
مَا هُوَ لَهُمْ طَلِقٌ مُبَاحٌ .

فَمَا مِنْ حَيَوَانَ بَرِّيٍّ وَلَا بَحْرِيٍّ هُوَ أَجَلٌ مِنْ هَذَا الْإِنْسَانِ الْحَيِّ الْعَاقِلِ
النَّاطِقِ ، وَهُوَ كَرِهَهُ لِأَنْ يَأْكُلَهُ شَيْءٌ . وَالذُّودُ يَأْكُلُهُ فِي قَبْرِهِ !
فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ صَادِرًا عَنْ مَوْضِعِ حِكْمَةٍ ، كَانَ مَا ذَكَرَهُ مِنَ الْحَيَوَانَ
الْبَرِّيِّ وَالْبَحْرِيِّ جَارِيًا فِي مِضْمَارِ هَذَا مِثْلًا بِمِثْلٍ ، وَإِنْ كَانَ مَعْدُولًا بِهِ عَنْ
وَجْهِ الْحِكْمَةِ ، كَانَ مُحَالًا أَنْ يَكُونَ صَانِعِي سَفِيهَاً ، وَأَكُونَ - أَنَا مَصْنُوعُهُ -
حَكِيمًا .

تنقل النبي ونعبده

وَأَمَّا قَوْلُهُ : إِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَنْ تَقَرَّحَتْ قَدَمَاهُ ، فَقِيلَ لَهُ فِيهِ ،
فَقَالَ : « أَفَلَا أَحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا ؟ » فَمَا هَذَا مِمَّا نَحْنُ عَلَيْهِ فِي شَيْءٍ .
وَالْإِنْسَانُ لَهُ أَنْ يُصَلِّيَ مَا شَاءَ مِنَ الصَّلَوَاتِ فِي الْأَوْقَاتِ الَّتِي تَجُوزُ فِيهَا
الصَّلَاةُ ، عَلَى الْأَزِيدِ فِي الْفَرَائِضِ ، وَلَا يَنْقُصُ مِنْهَا .

وَهَذَا الْكَلَامُ شَرَعِيٌّ ، وَكَانَتْ الْقَضِيَّةُ فِي التَّكَلُّمِ عَلَى الْعَقْلِيَّاتِ

ترك الحلال

وَأَمَّا قَوْلُهُ: إِنَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حَرَّمَ صَيْدَ الْحَرَمِ، وَإِنَّ لِعَيْرِهِ أَنْ يُحْرِمَ صَيْدَ الْحَلِّ، تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ. فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُحَلِّلَ أَوْ يُحْرِمَ غَيْرَهُ

نَقَسَ عَلَى

وَأَمَّا قَوْلُهُ إِنَّ عَلِيًّا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمَّا قَدَّمَ لَهُ الْخَبِيصَ، سَأَلَ: هَلْ أَكَلَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهُ؟ فَقَالُوا: لَا. فَرَفَعَهُ، وَلَمْ يَأْكُلْهُ. فَهَذِهِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ لِأَلِهِ. فَإِنَّ النَّاسَ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَفَارِقْ أَكْلَ اللَّحْمِ، وَلَمْ يَهْجُرْهُ دَهْرُهُ، وَذَلِكَ بِالضُّدِّ سَوَاءٍ.

وَلَوْلَا أَنَّهُ - حَرَسَهُ اللَّهُ - لَمْ يَسْتَظْهِرْ عَلَى الشَّرِيعَةِ، وَلَمْ يَجَاوِزْ نُصْبَةَ الْعَقْلِ، لَصُنَّتُهُ عَنْ هَذَا الْجَوَابِ الَّذِي عَسَى أَنْ يَشْغَلَ سِرَّهُ! وَيَعِزُّ عَلَى ذَلِكَ.

شَكَوَى أَبِي الْعَلَاءِ مِنَ الضَّعْفِ

وَأَمَّا مَا شَكَاهُ مِنْ ضَعْفِهِ، وَقُصُورِ حَرَكَتِهِ. وَقَوْلُهُ: إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِيهِ بَقِيَّةٌ لِأَنَّهُ يُسْأَلُ، وَلَا أَنْ يُجِيبَ:

فَمَا هُوَ - حَرَسَهُ اللَّهُ - عَلَى عِلَاتِهِ مِنَ الضَّعْفِ وَالْقُوَّةِ، إِلَّا مِنْ مَحَاسِنِ الزَّمَانِ، وَمِمَّنْ سَارَتْ بِذِكْرِ فَضْلِهِ الرُّكْبَانُ

إِلَّا أَنَّهُ - عَلَى عُدْوَانِ الدَّهْرِ عَلَيْهِ - عَدَا عَلَى نَفْسِهِ بِحُرْمَانِهَا مَلَاذَ ذُنْيَاهَا، فَإِنَّ وَثِقَتْ نَفْسُهُ بِمَلَاذَ يَعْتَاضُ عَنْهَا، مِمَّا هُوَ خَيْرٌ وَأَبْقَى مِنْهَا؛ فَمَا خَسِرَتْ صَفْقَتَهُ، وَقَامَ مِصْدَاقُ قَوْلِهِ بِالْبَيْتِ الْمَقْدَمِ ذِكْرُهُ؛ وَإِنْ كَانَ تَوَسَّمَ بِمِيسَمِ الشُّحِّ، بِمَنْعِ الْمُسْتَجْعِينَ، وَرَدِّ السَّائِلِينَ.

وَإِنْ كَانَ شَقَّ عَلَى نَفْسِهِ عَنْ غَيْرِ بَصِيرَةٍ ، كَمَا يَدْعِيهِ الْآنَ خَوْضًا مَعَ
الْخَائِضِينَ ، وَتَحْيِيرًا مَعَ الْمُتَحْيِرِينَ ؛ فَقَدْ أَضَاعَهَا وَجَنَى عَلَيْهَا ، وَادَّعَى فِي
الْبَيْتِ الْمُقَدَّمِ ذِكْرَهُ مَا لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ .

وَالنَّعْرَضُ - فِي السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ - الْفَائِدَةُ ؛ فَإِذَا عُدِدَتْ ، فَقَدْ خَفَّفَ
اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَتَّكَلَّفَ جَوَابًا .

فِي الْأُسْجَاعِ

وَأَمَّا الْأُسْجَاعُ ، وَمَسْأَلَتِي التَّخَلِّيَ عَنْهَا ، فَمَا كَانَتْ إِلَّا شُحًّا بِالْمَعَانِي أَنْ
يَصِلَ تَتَبُعَهَا ^(١) . وَلِكِنِّي إِذَا تَتَبَعْتُ فَضْلَهُ - بِمُصَنَّفَاتِهِ فِي الْأَدَبِ وَالشَّعْرِ -
وَجَدْتُ فِي أَرْضِهِ مُرَاعِمًا ^(٢) كَثِيرًا . وَمِنْ أَيْنَ لِي أَنْ أَظْهَرَ عَلَى مَكُونِ جَوَاهِرِ
عُلُومِ دِينِهِ ، كَظُهُورِي عَلَى مُصَنَّفَاتِ أَدَبِهِ وَشِعْرِهِ ؟

اعْتذار داعي الرعاية

وَقَبْلُ وَبَعْدُ ، فَأَنَا أَعْتَذِرُ عَنْ سِرِّ لَهْ - أَدَامَ اللَّهُ سَلَامَتَهُ - أَدِيَّتِهِ ^(٣) ،
وَزَمَانٍ مِنْهُ بِالْقِرَاءَةِ وَالْإِجَابَةِ شَغَلْتُهُ ، لِأَنَّي - مِنْ حَيْثُ مَا نَفَعْتُهُ - ضَرَرْتُهُ .
وَاللَّهُ - تَعَالَى - يَعْلَمُ أَنِّي مَا قَصَدْتُ بِهِ غَيْرَ الْإِسْتِفَادَةِ مِنْ عِلْمِهِ ،
وَالْإِعْتِرَافِ مِنْ بَحْرِهِ .
وَالسَّلَامُ .

(١) إى إبقاء على المعاني ، ورجبة فى أن يصل أبو العلاء متابعتها ؛ فلا تعوقه الحفاظة
على السجع عن المتابعة والاسترسال فى أدائها . (٢) مذهباً أو مهرباً (٣) فى معجم
ياقوت : « أدعته » .

رِسَالَةُ الْمَلَائِكَةِ

تمهيد^(١)

لَيْسَ مَوْلَايَ الشَّيْخُ — أَدَامَ اللهُ عِزَّهُ — بِأَوَّلِ رَائِدٍ ظَعَنَ فِي الْأَرْضِ

(١) في الطبعة الثانية لرسالة الغفران التي قدمناها للطبع سنة ١٩٢٤ وظهرت للجمهور القراء سنة ١٩٢٥ — أثبتنا موجزاً لرسالة الملائكة ، نقلا عن النسخة المطبوعة من هذه الرسالة ، وقد عاجنا في هذا الموجز تصحيح ما تشاه من التحريف في اللفظ والأسلوب . وقد توخينا — في هذه الطبعة الثالثة — أن ننشر النص الكامل لرسالة الملائكة ، فراجعنا ما وصلت إليه أيدينا من نسخها المطبوعة والمخطوطة ، وأصلحنا ما أمكن مما بقي فيها من تحريف ، وفصلنا موضوعاتها تفصيلا يجلو ما فيها من بحوث في اللغة ، وضبطناها بالشكل الكامل كما صنعنا في رسالة الغفران وملقى السبيل والرسائل التي دارت بين داعي الدعاة وأبي العلاء . وقد شرحنا من ألفاظها ما تمس حاجة القارئ إلى شرحه ، وعلقنا على بعض موادها العامية تعليقات يسيرة .

ولعلنا بهذا قد مهدنا لرسالة الملائكة مكاناً بين الرسائل اللغوية الفريدة ، تتحقق به أمنية العلماء والباحثين فيها ، ورجاؤهم منها . والله الموفق .

الْعَازِبَةَ^(١) ، فَوَجَدَهَا مِنَ النَّبَاتِ قَفْرًا ؛ وَلَا آخِرَ شَأْمٍ ظَنَّ أَخْبَرَ بِالسَّحَابَةِ ،
فَكَانَتْ مِنْ قَطْرِ صِفْرًا !

جَاءَتْنِي مِنْهُ فَوَائِدُ ، كَانَتْهَا فِي الْحُسْنِ بِنَاتُ مَخْرٍ^(٢) ، مُتَمَثِّلًا بِيَدَيْ صَخْرٍ :
لَعَمْرِي ! لَقَدْ نَبَّهتِ مَنْ كَانَ نَائِمًا وَأَسْمَعَتْ مَنْ كَانَتْ لَهُ أُذُنَانِ
إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ، أَوْلَيْكَ يَنَادُونَ
مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ...

تبرؤه من مظنة العلم

وَكُنْتُ فِي عُقُوفَانِ الشَّيْبَةِ أَوْذُ أَنْبِي مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، فَسَجَنْتَنِي عَنْهُ
سَوَاجِنِ^(٣) ، غَادَرْتَنِي مِثْلَ الْكُرَةِ رَهْنِ الْمَحَاجِنِ^(٤) ؛ فَالآنَ مَشَيْتُ رُؤْيَدًا ،
وَتَرَكْتُ « عَمْرًا » لِلضَّارِبِ وَ « زَيْدًا »^(٥) !
وَمَا أَوْثِرُ أَنْ يُزَادَ فِي صَحِيفَتِي خَطًّا^(٦) فِي النَّحْوِ ، فَيَخْلُدُ آمِنًا مِنَ الْمَحْوِ ...

(١) عَزَبَتِ الْأَرْضُ : لم يكن بها أحد ، مخصبة كانت أو مجدبة ، والمراد أن الرائد
حلَّ في أرض غير مأهولة ، بغية تثيرها ، فإذا هي ممحلة لا نبات بها .

(٢) تسمى : بنات مخر ، وبنات بخر ، وبنات بجر ، وهي سحائب يجهن — قبل
الصيف — منتصبات رفاقًا .

(٣) سجنه عن الأمر : حبسه عنه ، والمراد أنه شغلته عن العلم الشواغل .

(٤) المحاجن : الصولج ، واحدها : محجن (٥) إشارة إلى المثل النحوي السائر :

« ضرب زيد عمرا » (٦) وفي نسخة « خَطُّ »

لا كذب مع الشيب

وَإِذَا صَدَقَ فَجُرِّ اللَّهُ (١) ، فَلَا عُدْرَ لِصَاحِبِهَا فِي الْكَذِبِ ، وَمَنْ لِمُعَذِّبِ
الْعَطَشِ بِالْعَذِبِ (٢) ؟ وَصِدْقُ الشَّعْرِ فِي الْمَفْرَقِ ، يُوجِبُ صِدْقَ الْإِنْسَانِ
فِي الْفَرْقِ (٣) ؛ وَكَوْنُ الْحَالِيَةِ بِالْأَخْرُصِ (٤) ، أَجْمَلُ بِهَا مِنَ التَّخْرُصِ (٥) ؛ وَفِيَامُ
النَّادِبَةِ بِالْمَنَادِبِ (٦) ، أَحْسَنُ بِالرَّجُلِ مِنَ الْقَوْلِ الْكَاذِبِ .

الثناء على صاحبه

وَهُوَ - أَدَامَ اللَّهُ الْجَمَالَ بِهِ - يَلْزِمُهُ الْبَحْثُ عَنْ غَوَامِضِ الْأَشْيَاءِ ،
لِأَنَّهُ يُعْتَمَدُ بِسُؤَالِ رَائِحِ وَغَادٍ ، وَحَاضِرٍ - يَرْجُو الْفَائِدَةَ - وَبَادٍ ؛ فَلَا
غَرَوْ أَنْ كَشَفَ عَنْ حَقَائِقِ التَّصْرِيفِ ، وَاحْتَجَّ لِلتَّنْكِيرِ وَالتَّعْرِيفِ ؛
وَتَكَلَّمَ فِي هَمْزٍ وَإِدْغَامٍ ، وَأَزَالَ الشُّبُهَةَ عَنْ صُدُورِ الطَّغَامِ .

حياة أبي العلاء

أَمَّا أَنَا فَحِلْسُ (٧) الْبَيْتِ ، إِنْ لَمْ أَكُنِ الْمَيْتَ فَشَيْبِهِ بِالْمَيْتِ ، لَوْ أَعْرَضَتْ
الْأَغْرِبَةُ عَنِ النَّعِيبِ ، إِعْرَاضِي عَنِ الْأَدَبِ وَالْأَدِيبِ ؛ لَأَصْبَحْتُ لَا تُحْسِنُ
نَعِيبًا ، وَلَا يُطِيقُ هَرْمُهَا زَعِيبًا (٨) .

(١) اللمة - بكسر اللام - الشعر المجاوز شحمة الأذن ، والمراد بصدق الفجر : تفشى
الشيب (٢) ماء عذب - ككتف - مطحلب ، غير صافي (٣) الفرق : الفرع الشديد .
(٤) الخرص - بالضم ويكسر - حلقة الذهب والفضة ، أو حلقة القرط ، أو الحلقة
الصغيرة من الخلي . (٥) الكذب والادعاء . (٦) المنادب : الماتم .
(٧) يقال : فلان حلس بيته ، إذا لم يبرح مكانه . (٨) وفي الأصل : لا تحسن .
(٩) زعب الغراب : نعب

مسائل الصرف

وَلَمَّا وَافَى شَيْخُنَا أَبُو فُلَانٍ بَتِلْكَ الْمَسَائِلِ، أَفْقَيْتُهَا فِي اللَّذَّةِ كَأَنَّهَا الرِّاحُ،
يَسْتَفِرُّ مَنْ سَمِعَهَا الْمِرَاحُ؛ وَكَانَتْ الصَّهْبَاءُ الْجُرْجَانِيَّةَ طَرَقَ بِهَا عَمِيدُ كَفْرِ،
بَعْدَ مَيْلِ الْجُوزَاءِ وَسُقُوطِ الْغَفْرِ^(١). وَكَانَ عَلَى مُجَيَّاهَا، جُلَيْتَ إِلَيْنَا الشَّمْسُ
وَإِيَّاهَا^(٢) - فَلَمَّا حَلَّتِ النَّدَى، ذَكَرْتُ مَا قَالَ الْأَسَدِيُّ^(٣) :

فَقُلْتُ: اضْطَبَّحَهَا أَوْ لِيغْرِى فَأَهْدِيهَا فَمَا أَنَا بَعْدَ الشَّيْبِ وَيَيْكَ^(٤)! وَالْحَمْرُ
تَجَالَّتْ عَنْهَا فِي السِّنِينَ الَّتِي مَضَتْ فَكَيْفَ التَّصَابِي بَعْدَ مَا كَلَّا الْعُمْرُ؟
وَمَا رَغَبْتِي فِي كَوْنِي كَبَعْضِ الْكِرْوَانِ^(٥)، تَكَلَّمُ فِي خَطْبِ جَرَى، وَالظَّلِيمُ
يَسْمَعُ وَيَرَى، فَقَالَ الْأَخْفَشُ أَوْ الْفَرَّاءُ: أَطْرُقُ كَرًا^(٦)، إِنَّ النِّعَامَةَ فِي الْقَرَى!

شيخوخة أبي العلاء

وَحَقُّ مِثْلِي أَلَّا يُسْأَلَ، فَإِنْ سُئِلَ تَعَيَّنَ عَلَيْهِ الْأَيُّ حَيْبَ؛ فَإِنْ أَجَابَ فَقَرَضُ
عَلَى السَّامِعِ أَلَّا يَسْمَعَ مِنْهُ؛ فَإِنْ خَالَفَ بِاسْتِمَاعِهِ فَقَرِيضَةٌ أَلَّا يَكْتُبَ مَا يَقُولُ،
فَإِنْ كَتَبَ فَوَاجِبٌ أَلَّا يَنْظُرَ فِيهِ؛ فَإِنْ نَظَرَ فَقَدْ خَبَطَ خَبَطَ عَشَوَاءُ!

(١) قال القاموس: « الغفر: منزل للقمر ثلاثة أنجم صغار . »

(٢) قال القاموس في باب الألف اللينة: « إيا الشمس - بالكسر والقصر - نورها

وحسنا» وكان في الأصل: على بجباها، فأصلحناه (٣) هو الأقيشر، وقد مرت هذه الأبيات
مع ترجمة له في الجزء الثاني من هذا الكتاب (ص ٩) وله ترجمة وافية في الجزء العاشر من
الأغاني، وكان في الأصل: « فلما جلبت الهدى » (٤) ويبيك: ويحك، وتروى: ويحك
و (ويلك) (٥) الكِرْوَان - بكسر الكاف - جمع كروان بفتحها (٦) الكرا: ذكر

الكروان، « وأطرق كرا»: مثل يضرب لمن يخدع بكلام يلطّف له، ويراد به الغائلة .

وَقَدْ بَلَغْتُ سِنَّ الْأَشْيَاحِ ، وَمَا حَارَّ^(١) بِيَدِي نَفْعٌ مِنْ هَذَا الْهَدْيَانِ ؛
وَالظَّنُّ إِلَى الْآخِرَةِ قَرِيبٌ

حديثه مع ملك الموت

أَفْتَرَانِي أَدَا فِعُّ مَلَكِ الْمَوْتِ ، فَأَقُولُ :
أَصْلُ مَلَكٍ : مَأْلَكٌ^(٢) ، وَإِنَّمَا أُخِذَ مِنَ الْأَلْوَكَةِ ، وَهِيَ : الرِّسَالَةُ ،
ثُمَّ قَلِبَ .

وَيَدُلُّنَا عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُمْ فِي الْجَمْعِ : الْمَلَائِكَةُ ، لِأَنَّ الْجُمُوعَ تَرُدُّ الْأَشْيَاءَ
إِلَى أَصُولِهَا .

(١) حَارَّ الشَّيْءُ : رَجَعَ ، أَيْ لَمْ تَبْقَ فِي يَدِي فَائِدَةٌ مِنْ هَذَا الْعِلْمِ
(٢) أَصْلُ مَلَكٍ : مَأْلَكٌ ، وَهُوَ مَفْعَلٌ مِنَ الْأَلْوَكِ ، وَهِيَ الرِّسَالَةُ ؛ ثُمَّ قَلِبْتَ الهمزة فِي
مَأْلَكٍ إِلَى مَوْضِعِ اللامِ ، وَقَدِمْتَ اللامَ ؛ فَقِيلَ : مَلَآكٌ ؛ ثُمَّ خَفَفْتَ الهمزة — أَيْ حَذَفْتَ —
لِكَثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ ؛ بَأَنَّ أَلْقَيْتَ حَرَكَتَهَا عَلَى السَّاكِنِ الَّذِي قَبْلَهَا ، فَقِيلَ : مَلَكٌ .
عَلَى أَنَّهُ قَدْ يَسْتَعْمَلُ « مَلَآكٌ » مَتَمِّمًا بِلا حَذْفٍ . إِلَّا أَنَّ الحذفَ أَكْثَرَ .
وَمِنْ شَوَاهِدِ عَدَمِ الحذفِ قَوْلُ أَبِي وَجْزَةَ :

فَلَسْتَ لِإِنْسِيٍّ وَلَكِنْ لِمَلَآكٍ تَنْزَلُ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ

وَأَمَّا « مَلَائِكَةُ » فَهِيَ جَمْعُ مَلَآكَةٍ ، وَقَدْ رُدُّ فِي الْجَمْعِ مَا حَذَفَ فِي الْمَفْرَدِ ، وَهُوَ مَلَكٌ
وَدخُولِ الهاءِ فِي مَلَائِكَةٍ ، كدخولِها فِي القشاعةِ والصياقلةِ وما إِلَيْهِمَا ، فَلَيْسَتْ الهاءُ هُنَا
لِعَجْمَةٍ وَلَا لِنَسْبٍ .

وَقَدْ اسْتَعْمَلَ الْعَرَبُ « الْمَلَائِكُ » بِلا هاءٍ . قَالَ أُمِيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ :

وَكأَن بَرَقَعَ وَالْمَلَائِكُ حَوْلَهُ سَدِيرٌ تَوَاكَلَهُ الْقَوَائِمُ أَجْرَدٌ

وَأَنْشِدُ قَوْلَ الشَّاعِرِ :

فَلَسْتُ لِإِنْسِي ، وَلَكِنْ لِمَلَكٍ تَنْزَلَ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ^(١)

فِيَعْجِبُهُ مَا سَمِعَ ، فَيَنْظُرُنِي سَاعَةً لِاشْتِعَالِهِ بِهَا
فَإِذَا هُمْ بِالْقَبْضِ ، قُلْتُ :

وَزَنُّ مَلَكٍ عَلَى هَذَا : مَعَلٌ ، لِأَنَّ الْمِيمَ زَائِدَةٌ^(٢) .

وَإِذَا كَانَ الْمَلَكُ مِنَ الْأَلْوَكَةِ ، فَهُوَ مَقْلُوبٌ مِنْ « أَلَك » إِلَى « لَأَك »
وَالْقَلْبُ فِي الْأَهْمَزِ وَهَمْزِ الْعِلَّةِ مَعْرُوفٌ عِنْدَ أَهْلِ الْمَقَائِيسِ .

فَأَمَّا جَبَذَ وَجَذَبَ ، وَلَقِمَ الطَّرِيقَ وَلَمَقَهُ ، فَهُوَ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ : قَلْبٌ ،
وَالنَّحْوِيُّونَ لَا يَرَوْنَهُ مَقْلُوبًا ، بَلْ يَرَوْنَ اللَّفْظَيْنِ : كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَصْلٌ فِي بَابِهِ .

وزن الملائكة

فَوَزْنُ الْمَلَائِكَةِ - عَلَى هَذَا - : مَعَا فِلَةٌ ، لِأَنَّهَا مَقْلُوبَةٌ عَنْ : مَالِكَةٌ ،
يُقَالُ : الْكِنِي إِلَى فُلَانٍ .
قَالَ الشَّاعِرُ :

الِكِنِي إِلَى قَوْمِي السَّلَامِ رِسَالَةً بِأَيَّةِ مَا كَانُوا ضِعَافًا وَلَا عَزْلًا^(٣)

(١) ينسب هذا البيت لأبي وجزة ، وينسب إلى علقمة ، وينسب إلى غيرها . ويرويه
الأعلم بقاء المخاطبة ، ويقول في شرحه : « يا بنت الإنس في أخلاقك ، أشبهت الملائكة
في طهارتك وفضلك ، فكأنك لملك ولدك » ثم قال : « ويصوب : ينزل » وفي نسخة :

« لمالك » (٢) وفي نسخة : « مقل » (٣) البيت لعمر بن شاس . وصلته :

ولا سيبى زبي إذا ما تلبسوا إلى حاجة يوماً مخيسة بزلاً

وَقَالَ الْأَعْشى فِي الْمَأْلِكَةِ :

أَبْلِغْ يَزِيدَ بَنِي شَيْبَانَ مَأْلِكَةَ أَبَا مُبَيْتٍ أَمَا تَنْفَكُ تَأْتِكِلُ^(١) ؟
فَكَأَنَّهُمْ فَرُّوا مِنْ الْمَأْلِكَةِ مِنْ أُنْبِدَائِهِمْ ، ثُمَّ بَحَثُوا بَعْدَهَا بِالْأَلْفِ ،
فَرَأَوْا أَنْ حِجْيَاءَ الْأَلْفِ أَوْ لَا أَخْفُ ، كَمَا فَرُّوا مِنْ شَأَى إِلَى شَاءَ ، وَمِنْ نَأَى
إِلَى نَاءَ ؛ قَالَ عُمَرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ :

بَانَ الْحُمُولُ فَمَا شَأُونَكَ نَقَرَةً وَلَقَدْ أَرَاكَ تُشَاءُ بِالْأَظْعَانِ^(٢)
وَأَنْشَدَ أَبُو عُبَيْدَةَ :

أَقُولُ ، وَقَدْ نَأَيْتُ بِهِمْ غُرْبَةَ النَّوَى نَوَى خَيْتَعُورٍ ؛ لَا تَشِطُّ دِيَارَكَ

وقال في شرحهما الأعلام الشنتمري :

« وصف أنه تغرب عن قومه بني أسد ، فحمل رجلا إليهم السلام ، وجعل آية كونه منهم
ومعرفته بهم ، ما وصفهم به من القوة على العدو ، ووفادتهم عليه بأحسن الزى .
ومعنى : ألكنى ، بلغ عنى ، وكن رسولى ، وهو من الألوكة ، وهى الرسالة ؛ والآية :
العلامة ، والغزل الذين لا سلاح معهم ، واحد هم : أعزل ، ومعنى « تلبسوا » : ركبوا وغشوا ،
والخيسة : المذلة بالركوب ، يعنى الرواحل ، والبزل : المسنة . واحدها بازل ، وهو جمع غريب »
وقال أبو العلاء :

« أَلِكْنِي إِلَى مِنْ لَهُ حِكْمَةٌ أَلِكْنِي إِلَيْهِ ، أَلِكْنِي ، أَلِكْ ! »

(١) أبو ثبيت : تصغير أبى ثابت ، وهو : يزيد بن مسهر الشيبانى ، وقد هجاه الأعشى
أيضاً فى قوله :

« أبا ثابت : لا تعلقنك رماحننا أبا ثابت ، واقعد فإنك طاعم »

(٢) ينسب البيت إلى الحرث بن خالد الحزومى ، ويروى :

مر الحمول

وشأونك — هنا — : أحرزتك

جواب الملك

فَيَقُولُ الْمَلِكُ :

مَنْ ابْنُ أَبِي رَبِيعَةَ؟ وَمَا أَبُو عُبَيْدَةَ؟ وَمَا هَذِهِ الْأَبْطِيلُ؟
إِنْ كَانَ لَكَ عَمَلٌ صَالِحٌ، فَأَنْتَ السَّعِيدُ، وَإِلَّا فَأَخْسَأُ وَرَأَيْكَ!

وزن عزرائيل

فَأَقُولُ :

فَأَمْهَلْنِي سَاعَةً، حَتَّى أُخْبِرَكَ بِوِزْنِ «عَزْرَائِيلَ» وَأُقِيمَ الدَّلِيلَ عَلَى أَنَّ
الْهُمَزَةَ فِيهِ زَائِدَةٌ

*
* *

فَيَقُولُ الْمَلِكُ :

هَيْهَاتَ! لَيْسَ الْأَمْرُ إِلَيَّ، «إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً
وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ»!

حديث منكر ونكير

أَمْ تُرَانِي أَدَارِي^(١) مُنْكَرًا وَنَكِيرًا، فَأَقُولُ :

كَيْفَ جَاءَ أَسْمَاءُ كَمَا عَرَبِيَّيْنِ مُنْصَرَفَيْنِ، وَأَسْمَاءُ الْمَلَائِكَةِ كُلِّهَا مِنْ
الْأَعْجَمِيَّةِ؛ مِثْلُ: إِسْرَافِيلَ، وَجِبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ؟

فَيَقُولَانِ :

هَاتِي حُجَّتَكَ، وَخَلِّ الزُّخْرُفَ عَنْكَ!

(١) وفي نسخة: «إِذَا أَرَى مُنْكَرًا وَنَكِيرًا»

وزن جبرائيل وميكائيل

فَأَقُولُ - مُتَقَرِّبًا إِلَيْهِمَا - : « كَأَنَّ يَتَّبَعِي لَكُمْ أَنْ تَعْرِفَا مَا وَزَنُ جِبْرَائِيلَ ^(١) وَمِيكَائِيلَ ^(٢) عَلَى اخْتِلَافِ اللُّغَاتِ ، إِذْ كَانَا أَخَوَيْكُمْ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ »
فَلَا يَزِيدُهُمَا ذَلِكَ إِلَّا غَيْظًا ، وَلَوْ عَلِمْتُ أَنَّهُمَا يَرْغَبَانِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْعِلَلِ ،
لَأَعَدْتُ لَهُمَا شَيْئًا كَثِيرًا مِنْ ذَلِكَ

وزن موسى

وَأَقُلْتُ : « مَا تَرَيَانِ فِي وَزَنِ مُوسَى ، اسْمِ كَلِيمِ اللَّهِ الَّذِي سَأَلْتُمَاهُ عَنْ
دِينِهِ وَحُجَّتِهِ ، فَأَبَانَ وَأَوْضَحَ ؟ فَإِنْ قَالَا : « مُوسَى أَعْجَمِيٌّ ، إِلَّا أَنَّهُ يُوَافِقُ مِنْ
الْعَرَبِيَّةِ عَلَى وَزَنِ مُفْعَلٍ وَفُعْلَى ، أَمَّا مُفْعَلٌ إِذَا كَانَ مِنْ بَنَاتِ الْوَاوِ مِثْلِ
أَوْسَيْتُ وَأُورَيْتُ ، فَإِنَّكَ تَقُولُ : مُوسَى ، وَمُورَى
وَإِنْ كَانَ مِنْ ذَوَاتِ الْهَمْزِ ، فَإِنَّكَ تُخَفِّفُ ، حَتَّى تَكُونَ الْوَاوُ خَالِصَةً مِنْ
مُفْعَلٍ ، تَقُولُ : آئِنْتُ الْفَسَادَ ، فَهُوَ مُوئِيٌّ . وَإِنْ خَفَّفْتَ ، قُلْتَ : مُونِي ،
قَالَ الْحَطِيبِيُّ :

وَآئِنْتُ الْعِشَاءَ إِلَى سُهَيْلٍ - أَوِ الشُّعْرَى - فَطَالَ بِي الْإِنَاءُ

(١) من معاني الجبر: الرجل، والعبد، وأضيف إلى إيل ومعناه الربوبية، فكأنه:
عبد الله، فهو أعجمي معرب، وفيه لغات: جَبْرَيْلُ، و: جِبْرَيْلُ، و: جَبْرَيْلُ،
و: جِبْرَائِلُ، و: جِبْرَائِيلُ، و: جَبْرَائِلُ، و: جِبْرَائِلُ، و: جِبْرَائِلُ،
و: جِبْرَيْلُ، و: جِبْرَيْلُ، و: جِبْرَيْنُ.
(٢) يقال فيه، ميكائيل، على البدل.

وَحَكَى بَعْضُهُمْ هَمْزَ مُوسَى إِذَا كَانَ اسْمًا ، وَزَعَمَ النَّحْوِيُّونَ أَنَّ ذَلِكَ
لِمَجَاوِرَةِ الْوَاوِ الضَّمَّةَ ، لِأَنَّ الْوَاوَ إِذَا كَانَتْ مَضْمُومَةً ضَمًّا لَغَيْرِ إِعْرَابٍ ، أَوْ
غَيْرِ مَا يُشَاكِلُ الْإِعْرَابَ ، جَازَ أَنْ تُحَوَّلَ هَمْزَةً ، كَمَا قَالُوا : أُفِيَّتْ . وَوَفِيَّتْ
وَحَمَامٌ وَرُقٌ وَارِقٌ ، وَوُسِّحَتْ وَأُسِّحَتْ . قَالَ الْهَيْدَلِيُّ :

أَبَا مَعْقِلٍ إِنْ كُنْتَ أَشِّحْتَ حُلَّةً أَبَا مَعْقِلٍ فَانظُرْ لِسَهْمِكَ : مَنْ تَرَى ؟
وَقَالَ حَمِيدُ بْنُ ثَوْرٍ الْهَلَالِيُّ :

وَمَا هَاجَ هَذَا الشُّوقَ إِلَّا حَمَامَةٌ دَعَتْ سَاقَ حُرٍّ (١) نَوْحَةً وَتَرْتَمًا
مِنَ الْأَرْقِ حَمَاهُ الْعِلَاطِينَ (٢) بَاكَرَتْ عَسِيْبًا أَسْمًا مَطْلِعَ الشَّمْسِ أُسْحَمًا
وَقَدْ ذَكَرَ الْفَارِسِيُّ هَذَا الْبَيْتَ مَهْمُوزًا :

أَحَبُّ الْمُؤَقِدِينَ إِلَى مُوسَى وَحَرَزَةٌ لَوْ أَضَاءَ لِي الْوَقُودُ
وَعَلَى مَجَاوِرَةِ الضَّمَّةِ جَازَ الْهَمْزُ فِي سُوقِ جَمْعِ سَاقٍ فِي قِرَاءَةٍ مِنْ قَرَأَ كَذَلِكَ ،
وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ جُمِعَ عَلَى فِعْلٍ ، مِثْلَ أُسْدٍ فَيَمْنُ ضَمَّ السَّيْنِ ، ثُمَّ هُمَزَتْ
الْوَاوُ ، وَدَخَلَهَا الشُّكُونُ ، بَعْدَ أَنْ ذَهَبَ فِيهَا حُكْمُ الْهَمْزِ ، وَإِذَا قِيلَ : إِنْ
مُوسَى : فَعَلَى ، فَإِنَّ جُعِلَ أَصْلُهُ الْهَمْزَ وَافَقَ فَعَلَى ، مِنْ : مَا سَ بَيْنَ الْقَوْمِ ،
إِذَا أَفْسَدَ بَيْنَهُمْ قَالَ الْأَفْوَةُ :

إِمَّا تَرَى رَأْسِي أُرزَى بِهِ مَا سَ زَمَانَ ذِي أَنْتِكَاسٍ مَوْسَى
وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فَعَلَى مِنْ مَاسٍ (٣) يَمِيسُ ، فَكَلِبَتْ أَلْيَاءُ وَوَاوًا لِلضَّمَّةِ ، كَمَا

(١) دعت ذكر القهارى . (٢) الأرق : الورق (جمع ورقاء) والحمام : السوداء

والعلاطان : الرقمتان تراهما فى أعناق القهارى . وقد مرت ترجمة حميد فى الجزء الثانى

(٣) ماس : تحرك ، وتهادى .

قَالُوا: الْكُوسَى مِنَ الْكَيْسِ. وَلَوْ بَنَوْا الْفُعْلَى مِنْ قَوْلِهِمْ: هَذَا أَعْيَشُ مِنْ هَذَا وَأَغْيَظُ مِنْهُ، فَقَالُوا: الْعَوْشَى وَالْعَوْظَى.
فَإِذَا سَمِعْتُ ذَلِكَ مِنْهُمَا، قُلْتُ: «لِلَّهِ دَرُّ كَمَا! لَمْ أَكُنْ أَحْسِبُ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْطِقُ بِمِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ، وَتَعْرِفُ أَحْكَامَ الْعَرَبِيَّةِ.»

وزن الإِرْزَبَةِ

فَإِنَّ عُشْبَى عَلَى مِنَ الْخَيْفَةِ، ثُمَّ أَفَقْتُ وَقَدْ أَشَارَا إِلَى الْإِرْزَبَةِ^(١)، قُلْتُ:
تَبَيَّنَا رَحِمَكُمَا اللَّهُ! كَيْفَ تُصَغَّرَانِ الْإِرْزَبَةَ، وَتَجْمَعَانِهَا جَمْعَ تَكْسِيرٍ؟
فَإِنْ قَالَا: أُرِزْبَةٌ وَأَرَازِبٌ بِالتَّشْدِيدِ. قُلْتُ: هَذَا وَهَمْ، إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ أُرِزْبَةٌ، وَأَرَازِبٌ بِالتَّخْفِيفِ.
فَإِنْ قَالَا: كَيْفَ قَالُوا: عَلَابِي، فَشَدَّدُوا^(٢)

(١) الْمِرْزَبَةُ، وَالْإِرْزَبَةُ: عُصْبَةٌ مِنْ حَدِيدٍ. قَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ: إِذَا قُلْتَ: الْمِرْزَبَةُ بِالْمِيمِ خَفَفْتَ الْبَاءَ، ثُمَّ قَالَ: وَالْمِرْزَبَةُ الْمَطْرُقَةُ الْكَبِيرَةُ الَّتِي تَكُونُ لِلْحَدَادِ.
(٢) الْعَلَابِيُّ — جَمْعُ عَلَبَاءِ الْبَعِيرِ — أَيْ عَصَبُ عُنُقِهِ، وَفِي الْأَصْلِ: «عِلَابِيَّةٌ» وَهُوَ مُحْرَفٌ.

وقد جاء بالأصل بعد هذه الكلمة قوله:
« كما قال القريني :

وذى نجوات طامح الطرف جاوبت حوالى ، فلوى من علايته مرى »

وعلق عليه السيد الراجكوتى بما يلي :

القريني — وفى أخرى — العريني ، وكلاهما نكرة لم تتعرف ، وقد ورد فى معجم

الأدباء (ج ٥ ص ٢٧٦) اسم شاعر يدعى العريني العنسي (بالنون)

قُلْتُ : لَيْسَ الْيَاءُ كغَيْرِهَا مِنَ الْحُرُوفِ . فَإِنَّهَا - وَإِنْ لَحِقَهَا التَّشْدِيدُ -
فَفِيهَا عُنْصُرٌ مِنَ اللَّيْنِ .

فَإِنْ قَالَا : أَلَيْسَ قَدْ زَعَمَ صَاحِبُكُمْ عَمْرُو بْنُ عُمَانَ الْمَعْرُوفُ بِسَبْيُوَيْهِ أَنَّ
الْيَاءَ إِذَا شُدَّتْ ذَهَبَ مِنْهَا اللَّيْنُ ، وَأَجَازَ فِي الْقَوَافِي طُيًّا مَعَ طِيٍّ (١) . قُلْتُ :
وَقَدْ زَعَمَ ذَلِكَ ، إِلَّا أَنَّ السَّمَاعَ عَنِ الْعَرَبِ لَمْ يَأْتِ فِيهِ نَحْوُ مَا قَالَ ، إِلَّا أَنْ
يَكُونَ نَادِرًا قَلِيلًا .

علم الملائكة

فَإِذَا عَجِبْتُ مِمَّا قَالَاهُ ، أَظْهَرَ لِي تَهَؤُنَا بِمَا يَعْلَمُهُ بَنُو آدَمَ . وَقَالَا : لَوْ
جُمِعَ مَا عَلَيْهِ أَهْلُ الْأَرْضِ عَلَى اخْتِلَافِ اللُّغَاتِ وَالْأَزْمِنَةِ ، مَا بَلَغَ عِلْمٌ وَاحِدٌ
مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَعُدُّونَهُ فِيهِمْ لَيْسَ بِعَالِمٍ !

الشوم والفوم

فَأَسْبَحَ اللَّهُ وَأَجْمَدُهُ ، وَأَقُولُ : « قَدْ صَارَتْ لِي بِكُمَا وَسِيلَةٌ ، فَوَسَّعًا لِي
فِي الْجُدَّتِ ، إِنْ شِئْتُمَا بِالثَّاءِ ، وَإِنْ شِئْتُمَا بِالْفَاءِ (٢) ، فَإِنَّ إِحْدَاهُمَا تُبَدَّلُ مِنْ

ثم قال تعليقا على هذا البيت :

قوله : ذى نجوات ، فى أخرى : ذى نخوات ؛ وقوله جادبت ، فى أخرى : جاذبت ؛
وقوله : علايته ، فى أخرى علائيه - وهو تحريف - وقوله : مرى فى أخرى مدى ، أو
مدلى ، وأكثر هذه الروايات مصحف قد حرت فيه اه . »

(١) فى بعض النسخ : « ظبا مع ظى » وفى أخرى : « طيا مع طى » .

(٢) من الأقوال فى « الفوم » أنها لغة فى الثوم . قال ابن سيده : « وأراه على البدل »

وقال ابن جنى : « ذهب بعض أهل التفسير فى قوله تعالى : وفومها وعدسها ، إلى أنه أراد

الأخرى ، كما قالوا : معائيرُ ومعافيرُ ، وأفاني وأثافي ، وفُومٌ وثُومٌ (١) .
وكيفَ تَقْرَأَن - رَحِمَكُمَا اللهُ - هَذِهِ الْآيَةُ : « وَثُومِهَا وَعَدَسِهَا » - بِالنَّاءِ
كَمَا فِي مُصْحَفِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ، أَمْ بِالْفَاءِ كَمَا فِي قِرَاءَةِ النَّاسِ ؟
وَمَا الَّذِي تَخْتَارَانِ فِي تَفْسِيرِ الْفُومِ ؟ أَهْوَاؤُ الْحِنْطَةِ كَمَا قَالَ أَبُو سَجْنِ الثَّقَفِيِّ :
قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُنِي كَأَغْنَى وَاجِدٍ قَدِمَ الْمَدِينَةَ مِنْ زِرَاعَةِ فُومٍ
أَمْ الثُّومُ الَّذِي لَهُ رَائِحَةٌ كَرِيهَةٌ ؟ وَإِلَى ذَلِكَ ذَهَبَ الْفَرَاءُ ، وَجَاءَ فِي
الشَّعْرِ الْفَصِيحِ . قَالَ الْفَرَزْدَقُ :
مِنْ كُلِّ أَغْبَرَ كَالرَّاقُودِ حُجْرَتُهُ إِذَا تَعَشَّى عَتِيقَ التَّمْرِ وَالْفُومِ (٢)

الثوم ، فالفاء على هذا عنده بدل من الناء ، والصواب عندنا أن الفوم : الحنطة ، وما يخبز
من الحبوب «

وقال الزجاج محتجاً لهذا الرأي : « ومن قال الفوم ههنا الثوم ، فإن هذا لا يعرف ، ومحال
أن يطلب القوم طعاماً لا بُرَّ فيه ، وهو أصل الغذاء »

ولكن اللحياني يقول : « الثوم والفوم للحنطة » وبذلك يبطل النزاع

(١) روى ابن منظور عن بعض أهل اللغة أنه قال : « العرب تبدل الفاء ناء ، فيقولون :
جدف ، وجدث ، للقبر . ويقولون : وقع في عافور شر ، وعاثور شر » والعاثور : المهلكة
من الأرضين ، وهي : العافور أيضاً ، وجمعها معافير ، ومعائير . والأثافي (بالتشديد) ، والأثافي
(بالتخفيف) ، مفردا أثقيّة : ما يوضع عليها القدر . وثني القدر تنفية : وضعها على الأثافي ،
وأثفاها : جعل لها أثافي

(٢) الراقود : الدن . وحجزة الإزار : معقده ، والجمع حُجَزَ ، قال جرّان العود :

فأحـرزـن مني كل حـجـزة منـدر لهـن ، وطاح النوفلي المزخرف

الريم بمعنى القبر

فَيَقُولَانِ ، أَوْ أَحَدُهُمَا : « إِنَّكَ لَمُهْدَمُ الْحَوْلِ ، وَإِنَّمَا يُوسَّعُ لَكَ فِي رَيْمِكَ عَمَلُكَ » . فَأَقُولُ لَهُمَا : « مَا أَفْصَحَكُمَا ! لَقَدْ كُنْتُ سَمِعْتُ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَنَّ الرَّيْمَ : الْقَبْرُ ، وَسَمِعْتُ قَوْلَ الشَّاعِرِ :

إِذَا مُتُّ فَأَعْتَادِي الْقُبُورَ فَسَلِمِي عَلَى الرَّيْمِ ، أَسْقَيْتِ السَّحَابَ الْغَوَادِيَا

وَكَيْفَ تَبْنِيَانِ - رَحِمَكُمَا اللَّهُ - مِنَ الرَّيْمِ مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ : أَتْرِيَانِ فِيهِ رَأَى أَخْلِيلَ وَسَيْبَوِيَهَ ، فَلَا تَبْنِيَانِ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ ؟ أَمْ تَذَهَبَانِ إِلَى مَا قَالَهُ سَعِيدُ بْنُ مَسْعَدَةَ ، فَتُحِيزَانِ أَنْ تَبْنِيَا مِنَ الْعَرَبِيِّ مِثْلَ الْأَعْجَمِيِّ ؟ »

فَيَقُولَانِ : « تُرْبَا لَكَ ، وَلِمَنْ سَمَّيْتَ ! أَيُّ عِلْمٍ فِي وِلْدِ آدَمَ ؟ إِنَّهُمْ الْقَوْمُ الْجَاهِلُونَ ! »

واحد الزبانية

وَهَلْ أَتَوَدَّدُ إِلَى مَالِكٍ ، خَازِنِ النَّارِ ، فَأَقُولُ :

« رَحِمَكَ اللَّهُ ، أَخْبِرْنِي : مَا وَاحِدُ الزَّبَانِيَّةِ ؟ فَإِنَّ بَنِي آدَمَ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ .

يَقُولُ بَعْضُهُمْ : الزَّبَانِيَّةُ لَا وَاحِدَ لَهُمْ مِنْ لَفْظِهِمْ . وَإِنَّمَا يُجْرُونَ مُجْرَى

السَّوَاسِيَّةِ ، أَيِ الْقَوْمِ الْمُسْتَوِينَ فِي الشَّرِّ . قَالَ :

سَوَاسِيَّةٌ سُودُ الْوُجُوهِ كَأَنَّهَا بَطُونُهُمْ مِنْ كَثَرَةِ الزَّادِ أَوْطُبُ

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : وَاحِدُ الزَّبَانِيَّةِ : زَبْنِيَّةٌ ؛ وَقَالَ آخَرُونَ : وَاحِدُهُمْ :

زَبْنِيٌّ ، أَوْ زَبَانِيٌّ . »

تصريف غسلين

فَيُعْبَسُ لِمَا سَمِعَ وَيَكْفَهَرُ . فَأَقُولُ : « يَا مَالِ ! ^(١) رَحِمَكَ اللَّهُ ، مَا تَرَى فِي نُونِ غَسْلَيْنِ ^(٢) ، وَمَا حَقِيقَةُ هَذَا اللَّفْظِ ؟ أَهْوَى مَصْدَرٌ كَمَا قَالَ بَعْضُ النَّاسِ ، أَمْ وَاحِدٌ ، أَمْ جَمْعٌ أُعْرِبْتَ نُونُهُ تَشْبِيهًا بِنُونِ مَسْكِينٍ ، كَمَا اثْبَتُوا نُونَ قُلَيْنَ وَسَيْنِينَ فِي الْإِضَافَةِ ، وَكَمَا قَالَ سُحَيْمُ بْنُ وَثِيلٍ :

وَمَاذَا يَدْرِي الشُّعْرَاءُ مِنِّي وَقَدْ جَاوَزْتُ حَدَّ الْأَرْبَعِينَ ؟
فَأَعْرَبَ النَّوْنَ .

تصريف جهنم

وَهَلِ النَّوْنُ فِي جَهَنَّمَ ^(٣) زَائِدَةٌ ؟ . أَمَّا سَيِّبِيُّوَيْهِ فَلَمْ يَذْكُرْ فِي الْأَبْنِيَّةِ

(١) أَى : يا مالك ، فهو ترخيم . (٢) اختلف علماء اللغة في اشتقاق لفظ غسلين ، واختلفوا في معناه . فاقيل في لفظه : إن الياء والنون فيه زائدة ، كما زيدت في عَفْرَيْنَ ، وقيل : غسلين فعلين من الغسل . ويرى الأصمعي أنه يعرب بالحركات . وقد ورد هذا اللفظ في قول الله تعالى : « فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَيْبَةٌ حَمِيمٌ ، وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسْلَيْنِ ، لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ » فاقيل في تفسيره أقوال شتى . منها : أنه ما يسيل من جلود أهل النار كالقيح وغيره ، أو ما انغسل من لحومهم ودمائهم ، أو ما أنضجت النار من لحومهم فسقط فأكلوه . ومنها : أن الغسلين والضريع شجر في النار ، أو طعام من طعام أهلها . ومنها : أن غسلين معناه : شديد الحر . فيكون المعنى : لا يأكلون إلا طعاما شديد الحرارة . وفي كتب اللغة والتفسير كلام كثير ، نكتفي منه بما أثبتناه . (٣) من الأقوال في جهنم ما قاله الجوهري من أنه ملحق بالجناسي بتشديد الحرف الثالث منه ، ويمنع من الصرف للعلمية والتأنيث . وقال غيره : هو عربى من قولهم : بئر جُهْنَمِمْ وجهنم : بعيدة القعر ، فسميت به نار الآخرة لبعدها . والقول الذى عليه كثير من اللغويين — وهو الأقرب إلى الصواب — أنها كلمة أعجمية ، وهى معرب كهنام بالعبرائية .

فَعَمَلًا إِلَّا قَلِيلًا ، وَجَهَنَّمَ اسْمٌ أَعْجَمِيٌّ . وَلَوْ سَمَلْنَا عَلَى الْإِسْتِثْقَاقِ لَجَازَ أَنْ
يَكُونَ مِنَ الْجَهَامَةِ فِي الْوَجْهِ ، وَمِنْ قَوْمِهِمْ : تَجَهَّمْتُ الْأَمْرَ ، إِذَا جَعَلْنَا
النُّونَ زَائِدَةً ، وَأَعْتَقَدْنَا زِيَادَتَهَا فِي هَجَنَفٍ وَأَنَّهُ مِثْلُ هَجَفٍ ، وَكِلَاهُمَا صِفَةٌ
الظَّلِيمِ ، قَالَ الْهَذَلِيُّ :

كَانَ مَلَأَتْني عَلَى هَجَفٍ^(١) تَفِرُّ مَعَ الْعَشِيَّةِ لِلرِّثَالِ

وَقَالَ جِرَانُ الْعَوْدِ^(٢) :

يُشَبِّهَهَا الرَّائِي الْمَشْبُوبَةَ بِيضَةً غَدَا فِي النَّدَى عَنْهَا الظَّلِيمُ الْهَجَنَفُ
وَقَالَ قَوْمٌ : رَكِيَّةٌ جِهَنَامٌ ، إِذَا كَانَتْ بَعِيدَةً الْقَعْرِ . فَإِنْ كَانَتْ جَهَنَّمَ
عَرَبِيَّةً ، فَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مِنْ هَذَا .

وَزَعَمَ قَوْمٌ أَنَّهُ يُقَالُ : أَحْمَرُ جِهَنَامٌ ، إِذَا كَانَ شَدِيدَ الْحُمْرَةِ .
وَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ اسْتِثْقَاقُ جَهَنَّمَ مِنْهُ .

تصريف سقر

فَأَمَّا سَقْرٌ^(٣) فَإِنْ كَانَ عَرَبِيًّا فَهُوَ مُنَاسِبٌ لِقَوْلِهِمْ : سَقَرْتُهُ ، إِذَا آلَمْتَ
دِمَاعَهُ . قَالَ ذُو الرُّمَّةِ^(٤) :

(١) الهجف : الظليم : ذكر النعام ، وكذلك الهجنف . (٢) مرت ترجمته في (ج ٢ ص ٩١) (٣) السَّقْرُ : حر الشمس وأذاه ، والساقور : الحر ، والحديدة تحمى ويكوى بها . والصَّقْرُ - أيضاً - : شدة وقع الشمس . واكثر معاني سقر مذكورة في سقر .
فهى مما يتعاقب فيه السين والصاد . (٤) ذو الرمة : ولد عام ٧٧ هـ . وتوفى عام ١١٧ هـ .
وهو أبو الحارث غيلان بن عقبة العدوى المضرى ، شاعر من فحول الطبقة الثانية في عصره .
قال أبو عمرو بن العلاء - على عادة نقاد عصره - : « فتح الشعر بامرئ القيس ،
وختم بنى الرمة »

إِذَا دَانَتْ الشَّمْسُ اتَّقَى سَقَرَاتِهَا بِأَفْنَانِ رُبُوعِ الصَّرِيحَةِ مُقْبِلِ
وَالسَّيْنِ وَالصَّادِ يَتَعَاقَبَانِ فِي الْحَرْفِ إِذَا كَانَ بَعْدَهُمَا قَافٌ أَوْ خَافٌ أَوْ غَيْنٌ
أَوْ طَاءٌ تَقُولُ : سَقَبَ وَصَقَبَ ^(١) ، وَسَوِيقٌ وَصَوِيقٌ ، وَبَسَطَ وَبَصَطَ ،
وَسَلَّغَ الْكَبْشُ وَصَلَّغَ ^(٢) .

فَيَقُولُ مَالِكٌ : « مَا أَجْهَلَكَ ! وَأَقْلَّ تَمْيِيزَكَ ! مَا جَلَسْتُ هُنَا لِلتَّصْرِيفِ ،
وَإِنَّمَا جَلَسْتُ لِعِقَابِ الْكُفْرَةِ وَالْقَاسِطِينَ ! »

مخاطبة المشني بلفظ الواحد

وَهَلْ أَقُولُ لِلسَّائِقِ وَالشَّهِيدِ - اللَّذِينَ ذُكِرَا فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ :
« وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ » - : « يَا صَاحِبِ ! أَنْظِرَانِي ! » فَيَقُولَانِ :
« تُخَاطِبُنَا مُخَاطَبَةَ الْوَاحِدِ ، وَنَحْنُ اثْنَانِ ؟ فَاقُولِ : « أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّ ذَلِكَ جَائِزٌ مِنْ
الْكَلَامِ . وَفِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ : « وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَى عَنِيدٍ ، أَلْقِيَا فِي
جَهَنَّمَ كُلَّ كِفَّارٍ عَنِيدٍ ^(٣) » . فَوَحَّدَ الْقَرِينَ وَاتَّيَّ فِي الْأَمْرِ ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

وشعره في الغزل وبكاء الأطلال شديد الوعورة . وقد ذاع عشقه ، وعرفت حبيته
« مَيَّةٌ » به بتغزله فيها .

(١) سقبت الدار وصقبت : قربت (٢) صلغ الكبش وصلغ : خرج نابه ، وكباش
صوالغ وسوالغ . (٣) قال التعالبي في سفره : « سر العربية » ، وهو القسم الثاني من فقه
اللغة : « تقول العرب : افعلنا ذلك ، والمخاطب واحد كما قال الله عز وجل : « ألقيا في جهنم
كل كفار عنيد » وهو خطاب لمالك خازن النار . وكما قال الأعشى :

« وصلّ على حين العشيات والضحى ولا تعبد الشيطان ، والله فاعبدا »

ويقال : إنه أراد « والله فاعبدن » فقلب النون الخفيفة ألفاً . وكذلك في قوله عز وجل :
« ألقيا في جهنم ... »

فَإِنْ تَزَجْرَانِي يَا بَنَ عَفَّانَ ، أَنْزَجِرُ وَإِنْ تَدَعَانِي ، أَحْمَرُ عَرَضًا مُمْنَعًا
وَكَأَنَّ قَالِ امْرُؤُ الْقَيْسِ (١) :

خَلِيلِي مُرًّا بِي عَلَى أُمَّ جُنْدَبِ لِنَقْضِي حَاجَاتِ الْفُؤَادِ الْمُعَذِّبِ
أَلَمْ تَرَ أَنِّي كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقًا وَجَدْتُ لَهَا طِيبًا وَإِنْ لَمْ تَطِيبِ (٢)
هَكَذَا أَنْشَدَهُ الْفَرَّاءُ . وَبَعْضُهُمْ يُنْشِدُ : أَلَمْ تَرَيَانِي ...
وَأَنْشَدَ أَيْضًا :

فَقُلْتُ لِصَاحِبِي لَا تَحْبِسَانَا بِنَزْعِ أَصُولِهِ وَأَجْتَنِّبُ شَيْحَا
فَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْخُرُوجَ مِنْ مَخَاطَبَةِ الْوَاحِدِ إِلَى الْإِثْنَيْنِ ، أَوْ مِنْ
مَخَاطَبَةِ الْإِثْنَيْنِ إِلَى الْوَاحِدِ - سَائِعٌ عِنْدَ الْفُصْحَاءِ .

حديث رضوان

وَهَلْ أَجِيءُ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ جَهَابِدَةِ الْأَدْبَاءِ ، قَصَرَتْ أَعْمَالُهُمْ عَنْ دُخُولِ
الْجَنَّةِ ، وَلِحَقِيقِهِمْ عَفْوُ اللَّهِ ، فَزَحْزَحُوا عَنِ النَّارِ ؛ فَتَقِفُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ ، فَتَقُولُ :
« يَا رِضْوُ (٣) ! . لَنَا إِلَيْكَ حَاجَةٌ »

(١) مرت ترجمة امرئ القيس في الجزء الثاني ص ٩٦ (٢) قال الوزير أبو بكر عاصم
ابن أيوب في شرحه لديوان امرئ القيس : « أخذ المتنبي هذا المعنى فأحسن فيه ، قال :

أنت زائرٌ ما خامر الطيب ثوبها وكالمسك من أردانها يتضوع »

(٣) رضو : مرخم رضوان ، قال أبو العلاء :

« يا رضو لا أرجو لقاءك لك ، بل أخاف لقاء مالك »

وقد اتبع أبو العلاء طريقة ترخيم الأسماء في شعره ، على عادة العرب في ذلك ، ومن قوله :

« يا صاع ، لست أريد صاع مكيلة فأضيفه ، لكن أرخم صاعدا »

وَيَقُولُ بَعْضُنَا: « يَا رِضْوُ! فَيَضُمُّ الْوَاوَ . فَيَقُولُ رِضْوَانُ: « مَا هَذِهِ
الْمُخَاطَبَةُ الَّتِي مَا خَاطَبَنِي بِهَا قَبْلَكُمْ أَحَدٌ. »

فَنَقُولُ: « إِنَّا كُنَّا فِي الدَّارِ الْأُولَى نَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ الْعَرَبِ، وَإِنَّهُمْ يُرَخِّمُونَ
الَّذِي فِي آخِرِهِ أَلِفٌ وَنُونٌ، فَيَحَذِفُونَهُمَا لِلتَّرْخِيمِ . وَلِلْعَرَبِ فِي ذَلِكَ لُغَتَانِ
يَخْتَلِفُ حُكْمَاهُمَا . قَالَ أَبُو زَيْدٍ (١):

يَا عُمُ ! أَدْرِكْنِي فَإِنَّ رَكِيَّتِي صَلَدَتْ فَأَعْيَيْتَ أَنْ تَقِيضَ بِمَايَا

حاجة أهل الجنة إلى العربية

فَيَقُولُ رِضْوَانُ: « مَا حَاجَتُكُمْ؟ » فَيَقُولُ بَعْضُنَا: « إِنَّا لَمْ نَصِلْ إِلَى
دُخُولِ الْجَنَّةِ، لِتَقْصِيرِ الْأَعْمَالِ؛ وَأَدْرَكْنَا عَفْوُ اللَّهِ، فَنَجَّوْنَا مِنَ النَّارِ .
فَبَقِينَا بَيْنَ الدَّارَيْنِ

وقال :

أفهم أخاك بما تشاء ولا تُبَلِّ
يا حارٍ قلت هناك، أو: يا حارٍ
وغير الفتى الإخبار عما عنده
ومن الرجال بقوله سحار

وقال :

« يا كند: ما خلت السُّكُونُ تحركت
بعد السُّكُونِ ولا أخوها السكسك »
وقد جرى العرب على هذا، قال الشاعر:

يا حارٍ لا أُرْمِينِ مِنْكُمْ بدهيية
لم يلقها سوقة قبلى ولا ملك
وقال آخر :

« فيا حارٍ إنا لو تساط دماؤنا تزايلن حتى ما يمس دم دما »
وهذا البيت أعنف ما قرأناه في وصف الحقد وتغلغله، وقريب منه قول الشاعر:

« ولو أنا على صخر ذبجنا جرى الدميان بالخبر اليقين »

(١) مرت ترجمته في هذا الكتاب (ج ٢ ص ٧) - وعثم : يريد عثمان

وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ أَنْ تَكُونَ وَاسِطَتَنَا إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَإِنَّهُمْ لَا يَسْتَعِينُونَ
عَنْ مِثْلِنَا . وَإِنَّهُ لَقَبِيحٌ بِالْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَنَالَ هَذِهِ النِّعَمَ ، وَهُوَ إِذَا
سَبَّحَ اللَّهَ لَحَنَ . وَلَا يَحْسُنُ بِسَاكِنِ الْجَنَانِ أَنْ يُصِيبَ مِنْ ثَمَارِهَا فِي الْخُلُودِ ،
وَهُوَ لَا يَعْرِفُ حَقَائِقَ تَسْمِيَتِهَا .

تصريف الكمثرى

وَلَعَلَّ فِي الْفِرْدَوْسِ قَوْمًا لَا يَدْرُونَ : أَحْرُوفُ الْكُمَثْرَى كُلُّهَا أَصْلِيَّةٌ ،
أَمْ بَعْضُهَا زَوَائِدُ ؟
وَلَوْ قِيلَ لَهُمْ : مَا وَزْنُ كُمَثْرَى ، عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ التَّصْرِيفِ ؟
لَمْ يَعْرِفُوا فَعَلًى .

وَهَذَا بِنَاءٌ مُسْتَنْكَرٌ ، لَمْ يَذْكَرْ سِيبَوِيهِ لَهُ نَظِيرًا .
وَإِذَا صَحَّ قَوْلُهُمْ لِلْوَّاحِدَةِ : كُمَثْرَاءُ ، قَالُوا كُمَثْرَى لَيْسَتْ لِلتَّأْنِيثِ .
وَزَعَمَ بَعْضُ أَهْلِ اللُّغَةِ أَنَّ الْكُمَثْرَةَ : تَدَاخُلُ الشَّيْءُ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ ،
فَإِنْ صَحَّ هَذَا ، فَذَلِكَ أَشْتِقَاقُ الْكُمَثْرَى (١) .

تصريف السفرجل

وَمَا يَحْمَلُ بِالرَّجُلِ مِنَ الصَّالِحِينَ أَنْ يُصِيبَ مِنْ سَفَرَجَلِ الْجَنَّةِ ، وَهُوَ
لَا يَعْلَمُ : كَيْفَ تَصْغِيرُهُ وَجَمْعُهُ ؟ وَلَا يَشْعُرُ إِنْ كَانَ يَجُوزُ أَنْ يُشْتَقَّ مِنْهُ فِعْلٌ

(١) من اللغويين من يرى أن الكمثرى غير عربية ، ومنهم من يرى أنها عربية مشتقة ،
ومن هؤلاء صاحب القاموس ، إذ يقول : « الكثرة اجتماع الشيء وتداخل بعضه في بعض ،
والكمثرى منه ، والواحدة كمثرأة ، والجمع كمثریات » .

أَمْ لَا؟ وَالْأَفْعَالُ لَا تُشْتَقُّ مِنَ الْخُمَاسِيَّةِ . لِأَنَّهُمْ تَقْصُوهَا عَنْ مَرْتَبَةِ الْأَسْمَاءِ ،
فَلَمْ يَبْلُغُوا بِهَا بَنَاتِ الْخُمُسَةِ . مِثْلَ : إِسْفَرَجَلَ يَسْفَرَجِلُ إِسْفَرَجَالًا .

تصريف السندس

وَهَذَا السُّنْدُسُ الَّذِي يَطْوُهُ الْمُؤْمِنُونَ وَيَفْرُسُونَهُ ، كَمْ فِيهِمْ مِنْ رَجُلٍ
لَا يَدْرِي : أَوْزَنُهُ فُعْلُلٌ أَمْ فُنْعَلٌ ؟

وَالَّذِي نَعْتَقِدُ فِيهِ أَنَّ النُّونَ زَائِدَةٌ ، وَأَنَّهُ مِنَ السُّدُوسِ ، وَهُوَ الطَّيْلَسَانُ
الْأَخْضَرُ ، قَالَ الْعَبْدِيُّ :

وَدَاوَيْتُهَا حَتَّى شَتَّتَ حَبَشِيَّةً كَانَ عَلَيْهَا سُنْدُسًا وَسُدُوسًا
وَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ سُنْدُسٌ فُعْلُلًا ، وَلَكِنَّ الْأَشْتِقَاقَ يُوجِبُ
مَا ذُكِرَ (١) .

تصريف طوبى

وَشَجَرَةٌ طُوبَى : كَيْفَ يَسْتَبْطِئُ بِهَا الْمُسْتَقُونَ وَيَجْتَنُّونَهَا آخِرَ الْأَبَدِ ،
وَفِيهِمْ كَثِيرٌ لَا يَعْرِفُونَ : أَمِنْ ذَوَاتِ الْوَاوِ هِيَ أَمْ مِنْ ذَوَاتِ الْيَاءِ (٢) ؟
وَالَّذِي نَذْهَبُ إِلَيْهِ - إِذَا حَمَلْنَاهَا عَلَى الْأَشْتِقَاقِ - أَنَّهَا مِنْ ذَوَاتِ الْيَاءِ .

(١) هذا قول أبي العلاء وبعض اللغويين ؛ ولكن هناك قولاً بأنه معرب ، وليس بعرابي ،
وقد قال الفيروزبادي : السندس بالضم ضرب من رقيق الديباج معرب بلاخلاف .

قلنا : وليست كلمة (بلاخلاف) هنا يراد بها أن اللغويين متفقون على هذا ، ولكنه يراد بها تأكيد
رأيه ، وإظهار الثقة به (٢) طوبى ، وطيبى : اسم شجرة في الجنة ؛ ويرى بعض الأئمة أنها اسم
الجنة بالهندية ، فليست الكلمة على هذا بعرابية ، وبذلك يرتفع هذا النزاع الشديد في اشتقاقها .

لَأَنَّا إِذَا بَيْنَنَا فِعْلًا وَنَحْوَهُ مِنْ ذَوَاتِ الْوَاوِ قَلَبْنَا يَاءً ، فَقُلْنَا : عِيدٌ ، وَقِيلَ ،
وَهَا مِنْ عَادَ يَعُودُ ، وَقَالَ يَقُولُ .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : فَلَعَلَّ قَوْلَهُمْ : طَابَ يَطِيبُ ، مِنْ ذَوَاتِ الْوَاوِ ، وَجَاءَ
عَلَى مِثَالِ حَسِبَ يَحْسِبُ ، وَقَدْ ذَهَبَ إِلَى ذَلِكَ قَوْمٌ فِي قَوْلِهِمْ : تَاهَ يَتِيهُ ،
وَهُوَ مِنْ : تَوَهَّتْ .

قِيلَ لَهُ : يَمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ :
طَيَّبْتُ الرَّجُلَ ، وَلَمْ يَحِكْ أَحَدٌ : طَوَّبْتُهُ .
وَالْمُطَيَّبِينَ : أَحْيَاءَهُ مِنْ قُرَيْشٍ اخْتَلَفُوا ، فَعَمَسُوا أَيْدِيَهُمْ فِي طِيبٍ ^(١) .
فَهَذَا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ الطَّيْبَ مِنْ ذَوَاتِ الْيَاءِ .
وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ : هَذَا أَطِيبٌ مِنْ هَذَا .

فَأَمَّا حِكَايَةُ أَهْلِ اللُّغَةِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : أَوْبَةٌ وَطَوْبَةٌ ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ عَلَى مَعْنَى
الِاتِّبَاعِ ، كَمَا يَعْتَقِدُ بَعْضُ النَّاسِ فِي قَوْلِهِمْ : حَيَّاكَ اللَّهُ وَيَيَّاكَ ، أَنَّهُ إِتْبَاعٌ ^(٢) ،
وَأَنَّ أَصْلَ بَيَّاكَ : بَوَّاكَ ، أَيْ بَوَّاكَ مَنزِلًا تَرْضَاهُ .

(١) لما أراد بنو عبد مناف أخذ ما في أيدي بني عبد الدار من الحجابة والرفادة واللواء
والسقاية ، وأبى بنو عبد الدار — عقد كل قوم على أمرهم حلفًا مؤكدًا على ألا يتخاذلوا ،
ثم خاطوا أطيابًا ، وغمسوا أيديهم فيها ، وتعافدوا ؛ ثم مسحوا السكبة بأيديهم تأكيدًا ،
فسموا : المطيبين .

وتعافدت بنو عبد الدار وحلفاؤها حلفًا آخر مؤكدًا ، فسموا : الأحلاف .
وكان النبي — صلى الله عليه وسلم — من المطيبين .

(٢) يقال : إن آدم عليه السلام قتل ابنه ، فمكث مائة سنة لا يضحك ، فقيل له :
حياك الله ويياك .

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ لِلْأَجْرِ: طُوبُ، فَإِنَّ كَانَ عَرَبِيًّا صَحِيحًا، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اسْتِثْقَاةً
مِنْ غَيْرِ لَفْظِ الطَّيِّبِ، إِلَّا عَلَى رَأْيِ أَبِي أَحْسَنِ سَعِيدِ بْنِ مَسْعَدَةَ، فَإِنَّهُ إِذَا
بَنَى فِعْلًا مِنْ ذَوَاتِ أَلْيَاءٍ يَقْلِبُهُ إِلَى الْوَاوِ، فَيَقُولُ: الطُّوبُ وَالْعَوْشُ. فَإِنَّ كَانَ
الطُّوبُ الْأَجْرُ اسْتِثْقَاةً مِنَ الطَّيِّبِ؛ فَإِنَّمَا أَرِيدَ بِهِ — وَاللَّهُ أَعْلَمُ — أَنَّ الْمَوْضِعَ
الَّذِي يُبْنَى بِهِ طَابَتْ الْإِقَامَةُ فِيهِ. وَلَعَلَّنَا لَوْ سَأَلْنَا مَنْ يَرَى طُوبِي فِي كُلِّ
حِينٍ: لِمَ حُذِفَ مِنْهَا الْأَلِفُ وَاللَّامُ؟ لَمْ يُجِرْ فِي ذَلِكَ جَوَابًا!.

وَقَدْ زَعَمَ سَيْبَوِيهِ أَنَّ الْفُعْلَى الَّتِي تُؤْخَذُ مِنْ أَفْعَلَ مِنْكَ، لَا تُسْتَعْمَلُ إِلَّا
بِالْأَلِفِ وَاللَّامِ أَوْ الْإِضَافَةِ، تَقُولُ: هَذَا أَصْغَرُ مِنْكَ، فَإِذَا رَدَدْتَهُ إِلَى الْمُؤَنَّثِ،
قُلْتَ: هَذِهِ الصُّغْرَى، أَوْ صُغْرَى بِنَاتِكَ.

وَيَقْبَحُ عِنْدَهُ أَنْ يُقَالَ: صُغْرَى، بِغَيْرِ إِضَافَةٍ وَلَا أَلِفٍ وَلَا مِمْ، وَقَالَ سَحِيمٌ^(١):

وقد اختلف اللغويون في تفسير كلمة « بياك » .

ف قيل : إنها أضحكك

وقيل : إنها قرّبك ، أو جاء بك .

وقيل : إنها بوأك . كما قال المعري .

وقيل : إنها إتباع لحياك . فلا معنى لها في ذاتها . وقد ذكرت هذه الأقوال معجمات اللغة .

ومنع بعض الأئمة أن يكون هذا إتباعاً ، لأنه معطوف على حياك بالواو ، والاتباع
لا يكاد يكون بالواو . (انظر باب الاتباع في المزهرة للسيوطي ، والمخلص لابن سيده)

(١) هو سحيم ، عبد بنى الحسحاس ، شاعر مخضرم ، كان أسود شديد السواد ، لأنه

حبشي ، وكان ينطق الحاء هاء ، فيقول أهسنت والله ، يريد : أحسنت والله !

وقد أنشد رسول الله — صلوات الله عليه — قول سحيم :

الحمد لله حمداً لا انقطاع له فليس إحسانه عنا بمقطوع

ذَهَبَنَ عَيْسُوا كِي وَغَادَرَنَ مُذْهَبًا مِنْ الصَّوْغِ فِي صُغْرَى بِنَانِ شِمَالِيَا
 وَقَرَأَ بَعْضُ الْقُرَّاءِ : « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنِي » عَلَى فِعْلِي بَغَيْرِ تَنْوِينٍ . وَكَذَا
 قَرَأَ فِي الْكَهْفِ : « إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنِي » عَلَى فِعْلِي
 بَغَيْرِ تَنْوِينٍ .

فَذَهَبَ سَعِيدُ بْنُ مَسْعَدَةَ ، أَنَّ ذَلِكَ خَطَأٌ لَا يَجُوزُ وَهُوَ رَأْيُ أَبِي إِسْحَاقَ
 الزَّجَّاجِ ، لِأَنَّ « الْحُسْنِي » عِنْدَهُمَا — وَعِنْدَ غَيْرِهِمَا مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ — يَجِبُ أَنْ
 تَكُونَ بِالْأَلْفِ وَاللَّامِ ، كَمَا جَاءَ فِي مَوْضِعٍ : « وَكَذَّبَ بِالْحُسْنِي » وَكَذَلِكَ :
 « الْيُسْرَى » وَ : « الْعُسْرَى » لِأَنَّهَا أَنْثَى أَفْعَلُ مِنْكَ .

فقال : « أحسن وصدق ، وإن الله يشكر مثل هذا ، ولئن سدد وقارب إنه لمن
 أهل الجنة »

وكان عبد الله بن أبي ربيعة قد اشتراه ، وكتب إلى عثمان بن عفان : « إني قد ابتعت
 لك غلاماً شاعراً حبشياً » فكتب إليه عثمان : « لا حاجة لي به ، فاردده ، فإنما قصارى أهل
 العبد الشاعر : إن شبع أن يشب بنسائهم ، وإن جاع أن يهجوهم ! »
 وقد صدق حدس عثمان ! فإن سجيا لما اشتراه أبو معبد شبب ببنته عميرة ،
 وفحش ، وشهرها ، فأحرقه أبو معبد بالنار .

وقيل في موته غير ذلك من الأخبار ، وكلها تجتمع على أنه قُتِلَ أَخْذًا بئار عرض مرقه ،
 وشهر به . ويروى أنه لما قُدِّمَ ليقتل ، قال :

شدوا وثاق العبد لا يغلبكم إن الحياة من المات قريب
 فلقد تحدر من جبين فتاتكم عرق على ظهر الفراش وطيب !

وكذلك يروى أنه لما انطلق به سيده ليقتله ، رآته امرأة كان بينه وبينها شيء ، فضحكت ،
 فقال : إن تضحكي مني فيارب ليلة تركتك فيها كالقباء المفرج !
 وترجمته طويلاً ممتعة ، فارجع إليها إن شئت في الجزء الأول من خزانة الأدب

وَقَدْ زَعَمَ سَيِّبِيُّهُ أَنَّ أُخْرَى مَعْدُولَةٌ عَنِ الْأَلْفِ وَاللَّامِ .
وَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ حُسْنِي مِثْلَهَا .
وَفِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ : « وَمَنَاةُ الثَّلَاثَةُ الْأُخْرَى » وَفِيهِ : « لِزُرَيْكَ مِنْ
آيَاتِنَا الْكُبْرَى » . قَالَ عُمَرُ ابْنُ أَبِي رَيْبَعَةَ :
وَأُخْرَى أَتَتْ مِنْ دُونِ نَعْمٍ ، وَمِثْلَهَا نَهَى ذَا النُّهْيِ لَوْ يَرَعَوِي أَوْ يُفَكِّرُ
فَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ تُعَدَلَ حُسْنِي عَنِ الْأَلْفِ وَاللَّامِ ، كَمَا عُدِلَتْ « أُخْرَى » .
وَ« أَفْعَلُ مِنْكَ » ، إِذَا حُذِفَتْ مِنْهُ « مِنْ » بَقِيَ - عَلَى إِرَادَتِهَا - نَكْرَةً ،
أَوْ عُرِّفَ بِاللَّامِ . وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ « مِنْ » وَبَيْنَ حَرْفِ التَّعْرِيفِ .

تصريف الحيوان

وَالَّذِينَ يَشْرَبُونَ مَاءَ الْخِيَّوَانِ فِي النَّعِيمِ الْمُتَّقِمِ : هَلْ يَعْلَمُونَ مَا هَذِهِ الْوَأْوِ
الَّتِي بَعْدَ أَلْيَاءِ؟ وَهَلْ هِيَ مُنْقَلِبَةٌ كَمَا قَالَ الْخَلِيلُ؟ أَمْ هِيَ عَلَى الْأَصْلِ كَمَا قَالَ
غَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ؟

تصريف الحور

وَمَنْ هُوَ مَعَ الْحُورِ الْعَيْنِ خَالِدًا مُخَلَّدًا : هَلْ يَدْرِي مَا مَعْنَى الْحُورِ (١)؟

(١) قال الفيروزبادي : الحور - بالتحريك - : أن يشتد بياضُ بياضِ العين ،
وسوادُ سوادِها ، وتستدير حدقتها ، وترق جفونها ، ويبيض ما حوالها .
وقال أبو عمرو بن العلاء : الحور أن تسود المقلة كلها مثل أعين الظباء والبقر ، وليس في
بني آدم حور ، وإنما قيل للنساء : حور العين ، على التشبيه .
أما الأصمعي فقد قال : لا أدري ما الحور ! وقال الفيومي صاحب المصباح
ناقلا عن مختصر العين : ولا يقال للمرأة حوراء ، إلا إذا كانت بيضاء .

فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ: هُوَ الْبَيَاضُ، وَمِنْهُ اشْتِقَاقُ الْخَوَارِيِّ ^(١) مِنَ الْخُبْزَةِ، وَالْخَوَارِيِّينَ إِذَا أُرِيدَ بِهِمُ الْقَصَّارُونَ ^(٢)، وَالْخَوَارِيَّاتُ إِذَا أُرِيدَ بِهِنَّ نِسَاءَ الْأَمْصَارِ.

وَقَالَ قَوْمٌ: الْخَوْرُ فِي الْعَيْنِ أَنْ تَكُونَ كُلَّهَا سَوْدَاءَ، وَذَلِكَ لَا يَكُونُ فِي الْإِنْسِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ فِي الْوُحُوشِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: الْخَوْرُ شِدَّةُ سَوَادِ الْعَيْنِ، وَشِدَّةُ بَيَاضِهَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْخَوْرُ: سَعَةُ الْعَيْنِ، وَعِظْمُ الْمُقْلَةِ.

وَهَلْ يَجُوزُ - أَيُّهَا الْمُتَمَتِّعُ بِالْخَوْرِ الْعَيْنِ - أَنْ يُقَالَ: حَيْرٌ، كَمَا يُقَالُ:

خَوْرٌ؟ فَإِنَّهُمْ يَنْشِدُونَ هَذَا الْبَيْتَ بِالْبَيَاءِ:

إِلَى السَّلَفِ الْمَاضِي وَآخِرَ وَاقِفٍ إِلَى رَبِّبِ حَيْرٍ حِسَانٍ جَادِرُهُ

وَإِذَا صَحَّتِ الرَّوَايَةُ فِي هَذَا الْبَيْتِ بِالْبَيَاءِ، قَدَحَ ذَلِكَ فِي قَوْلٍ مَنْ يَقُولُ:

إِنَّمَا قَالُوا: الْحَيْرُ إِنِّبَاعًا لِلْعَيْنِ، كَمَا قَالَ الرَّاجِزُ:

هَلْ تَعْرِفُ الدَّارَ بِأَعْلَى ذِي الْقُورِ قَدْ دَرَسَتْ غَيْرَ رَمَادٍ مَكْفُورِ

مُكْتَتَبِ اللَّوْنِ مَرُوحٍ مَمْطُورِ أَرْمَانَ عَيْنَاءِ سُرُورِ الْمَسْرُورِ

خَوْرَاءَ عَيْنَاءِ مِنَ الْعَيْنِ الْحَيْرِ ^(٣)

(١) الخواري - بضم الخاء وتشديد الواو وفتح الراء - الدقيق الأبيض، وهو لباب

الدقيق. ويسمى: السميد، وهو في استعمال الناس الآن: «السميط».

(٢) الخواري: الناصر، أو ناصر الأنبياء، وسمى الخواريون كذلك لأنهم كانوا قصَّارين،

أو لأنهم كانوا يحوِّرون الثياب أي يبيضونها. والأقوال في هذه الكلمة مختلفة. وقد استعملت

كلمة الخواري بمعنى الناصر في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الزبير بن العوام ابن عمتي،

وحواري من أمتي» (٣) استشهد أبو العلاء بالشرطين الأولين من هذه الأرجوزة في

مقدمة لزوم ما لا يلزم على أن من منازل الردف أن يكون بينه وبين انقضاء البيت حرف

واحد، وذلك في الشعر المقيد، فالواو - في «القوم» و«مكفور» - هي الردف.

جمع الاستبرق وتصغيره

وَكَيْفَ يَسْتَجِيزُ مَنْ فَرَسُهُ مِنَ الْإِسْتَبْرِقِ أَنْ يَمُضِيَ عَلَيْهِ أَبَدٌ بَعْدَ أَبَدٍ ،
وَهُوَ لَا يَدْرِي : كَيْفَ يَجْمَعُهُ جَمْعَ التَّكْسِيرِ ؟ وَكَيْفَ يُصَغِّرُهُ التَّحْوِيلُونَ ؟

يَقُولُونَ فِي جَمْعِهِ : أَبَارِقَ ، وَفِي تَصْغِيرِهِ : أَبِيرِقُ ^(١)

وَكَانَ أَبُو إِسْحَاقَ الرَّجَّاجُ يَزْعُمُ أَنَّهُ فِي الْأَصْلِ سُمِّيَ بِالْفِعْلِ الْمَاضِي ،
وَذَلِكَ الْفِعْلُ اسْتَفْعَلَ مِنَ الْبَرَقِ ، أَوْ مِنَ الْبَرَقِ .

وَهَذِهِ دَعْوَى مِنْ أَبِي إِسْحَاقَ .

وَإِنَّمَا هُوَ اسْمٌ عَجْمِيٌّ عَرَبٌ .

نسبة العبقرى

وَهَذَا الْعَبْقَرِيُّ الَّذِي عَلَيْهِ اتَّكَأَ الْمُؤْمِنِينَ : إِلَى أَىِّ شَيْءٍ نَسِبَ ؟ .
فَإِنَّا كُنَّا نَقُولُ فِي الدَّارِ الْأُولَى : إِنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَقُولُ : إِنَّ عَبَقَرَ بِلَادِ
يَسْكُنُهَا الْجِنُّ ، وَأَنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا شَيْئًا جَيِّدًا ، قَالُوا : عَبَقَرِيٌّ ، أَىُّ كَأَنَّهُ عَمَلُ
الْجِنِّ ، إِذْ كَانَتْ الْإِنْسُ لَا تَقْدِرُ عَلَى مِثْلِهِ .

ثُمَّ كَثُرَ ذَلِكَ حَتَّى قَالُوا سَيِّدُ عَبَقَرِيٌّ ، وَظَلَمُ عَبَقَرِيٌّ ^(٢) ، قَالَ ذُو الرِّمَّةِ :

حَتَّى كَانَ حُرُوفَ الْقَفِّ الْبَسْمَا - مِنْ وَشَى عَبَقَرَ - تَجْلِيلٌ وَتَنْجِيدٌ

(١) الاستبرق هو الدياتج الغليظ ، وهو - كما قال أبو العلاء - عجمي ، أصله معرب :

استبروه ، ويقال إنه ديباج يعمل بالذهب ، أو ثياب حرير صفاق . ويقال غير ذلك ،
وهي على أي حال نوع من الثياب الحريرية .

(٢) قال في القاموس : « العبقرى : الكامل من كل شيء » وهو يؤيد قول أبي العلاء

وَقَالَ زُهَيْرٌ :

بَخِيلٍ عَلَيْهَا جَنَّةٌ عَبْقَرِيَّةٌ جَدِيرُونَ يَوْمًا أَنْ يَنَالُوا وَيَسْتَعْلَمُوا
وَإِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ عَارِفِينَ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ ، قَدْ أَلْهَمَهُمُ اللَّهُ الْعِلْمَ بِمَا يَحْتَاجُونَ
إِلَيْهِ — فَلَنْ يَسْتَعْنِي عَنْ مَعْرِفَتِهِ الْوَالِدَانُ الْمُخَلَّدُونَ . فَإِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَقَعْ إِلَيْهِمْ .
وَإِنَّا لَنَرْضَى بِالْقَلِيلِ مِمَّا عِنْدَهُمْ أَجْرًا عَلَى تَعْلِيمِ الْوَالِدَانِ ! »

شغل أصحاب الجنة

فَيَسِيمُ إِلَيْهِمْ رِضْوَانٌ ، وَيَقُولُ : « إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ
فَاكِهُونَ ^(١) ؛ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأُرَائِكِ مُتَّكِنُونَ » . فَأَنْصَرِفُوا
رَحِمَهُمُ اللَّهُ ؛ فَقَدْ أَكْثَرْتُمُ الْكَلَامَ فِيمَا لَا مَنَفْعَةَ فِيهِ . وَإِنَّمَا كَانَتْ هَذِهِ
الْأَشْيَاءُ أَبْطِيلَ زُخْرِفَتْ فِي الدَّارِ الْفَانِيَةِ ، فَذَهَبَتْ مَعَ الْبَاطِلِ .
فَإِذَا رَأَوْا جَدَّهُ فِي ذَلِكَ ، قَالُوا : « رَحِمَكَ اللَّهُ ! نَحْنُ نَسْأَلُكَ أَنْ تُعَرِّفَ بَعْضَ
عُلَمَائِنَا الَّذِينَ حَصَلُوا فِي الْجَنَّةِ بِأَنَّا وَاقِفُونَ عَلَى الْبَابِ نُرِيدُ أَنْ نُخَاطِبَهُ فِي أَمْرٍ .
فَيَقُولُ رِضْوَانٌ : « مَنْ تَوَثَّرُونَ أَنْ أُعْلِمَ بِمَسْكَانِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ الَّذِينَ
عُفِّرَ لَهُمْ ؟ »

دعوة الخليل

فَيَسْتَوِرُونَ طَوِيلًا ، ثُمَّ يَقُولُونَ : « عَرَّفَ بِمَوْقِفِنَا هَذَا الْخَلِيلَ بْنَ
أَحْمَدَ الْفُرْهُودِيَّ ^(٢) .

(١) فَكِهِ الرجل فهو فاكِهٌ : طابت نفسه ، وضحك بشراً وسروراً (٢) أو الفراهيديّ،

وقدم حديثه في (ج ٢ ص ٩٤ و ٩٥) والمعنى : يصفه هناك بأنه : أذكى العرب !

فَيُرْسِلُ إِلَيْهِ رِضْوَانٌ بَعْضُ أَصْحَابِهِ ، فَيَقُولُ : « عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ قَوْمٌ قَدْ
 أَكْثَرُوا الْقَوْلَ ، وَإِنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُخَاطَبُوكَ » .
 فَيَشْرَفُ عَلَيْهِمْ أَخْلِيلٌ ، فَيَقُولُ : « أَنَا الَّذِي سَأَلْتُمْ عَنْهُ ، فَمَاذَا تُرِيدُونَ ؟ »
 فَيَعْرِضُونَ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا عَرَضُوا عَلَى رِضْوَانَ .
 فَيَقُولُ أَخْلِيلٌ : « إِنَّ اللَّهَ — جَلَّتْ قُدْرَتُهُ — جَعَلَ مَنْ يَسْكُنُ الْجَنَّةَ مِمَّنْ
 يَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ الْعَرَبِ ، نَاطِقًا بِأَفْصَحِ اللُّغَاتِ ، كَمَا نَطَقَ بِهَا يَعْرُبُ بْنُ قَحْطَانَ ،
 أَوْ مَعَدُّ بْنُ عَدْنَانَ ، لَا يُدْرِكُهُمُ الزَّيْغُ وَلَا الرَّزْلُ . وَإِنَّمَا افْتَقَرَ النَّاسُ — فِي الدَّارِ
 الْغَرَارَةِ — إِلَى عِلْمِ اللُّغَةِ وَالتَّحْوِ ، لِأَنَّ الْعَرَبِيَّةَ الْأُولَى أَصَابَهَا تَغْيِيرٌ ؛ فَأَمَّا الْآنَ
 فَقَدْ رُفِعَ عَنِ أَهْلِ الْجَنَّةِ كُلِّ أَخْطَإٍ وَالْوَهْمِ . فَاذْهَبُوا رَاشِدِينَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » .
 فَيَذْهَبُونَ ، وَهُمْ مُخْفِقُونَ فِيمَا ^(١) طَلَبُوهُ .

عود إلى جواب الرسالة

ثُمَّ أَعُوذُ إِلَى مَا كُنْتُ مُتَكَلِّمًا فِيهِ قَبْلَ ذِكْرِ الْمَلَائِكَةِ :
 مَنْ أَهْدَى الْبَرِيرَةَ إِلَى نَعْمَانَ ^(٢) ، وَأَرَاقَ النُّطْفَةِ عَلَى الْفُرَاتِ ، وَشَرَحَ
 الْقَضِيَّةَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ^(٣) ؛ فَقَدْ أَسَاءَ فِيمَا فَعَلَ . وَدَلَّنِي كَلَامُهُ عَلَى أَنَّهُ بَحْرٌ
 يَسْتَجِيشُ مَنِيَّ تَمَدًّا ^(٤) ، وَجَبَلٌ يَسْتَضِيْفُ — إِلَى صُخُورٍ — حَصَى ، وَغَاضِيَةٌ ^(٥) مِنْ

(١) كان بالأصل «مما» (٢) البرير، والبريرة: الأول من ثمر الأراك، ونعمان:
 واد وراء عرفة، يسمى: نعمان الأراك. لكثرة ثمره فيه (٣) المراد به علي بن أبي طالب
 كرم الله وجهه، وكان ألعياً عادلاً، فليس بحاجة إلى أن تشرح له قضية، وفي المثل:
 «قضية ولا أبا حسن لها» وأصله أن عمر كان يقول: «أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن!»
 (٤) التمد — بالسكون ويحرك — الماء القليل (٥) الغاضية: العظيمة من النيران .

النيرانِ تَجْتَلِبُ إِلَى جِجَارِهَا سَقَطًا^(١). وَحَسَبُ تِهَامَةَ مَا فِيهَا مِنَ السَّمْرِ^(٢) !
وَسُؤَالُ الشَّيْخِ مَوْلَايَ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ :

فَهَذِي سِيُوفُ يَا عَدِيُّ بْنُ مَالِكٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ أَيْنَ بِالسَّيْفِ ضَارِبٌ؟
لَا هَيْتَمَ اللَّيْلَةَ لِلْمَطِيِّ ، قَضِيَّةٌ وَلَا أَبَا حَسَنٍ لَهَا ؛ وَشَكَاءٌ ، فَأَيْنَ الْحَارِثُ
ابْنُ كَلْدَةَ^(٣) ؟ وَخَيْلٌ لَوْ كَانَ لَهَا فَوَارِسٌ . « وَاللَّهِ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ » !

عود إلى براءته من مظنة العلم

وَالْوَاجِبُ أَنْ أَقُولَ لِنَفْسِي : وَرَأُوكِ أَوْسَعُ لَكَ^(٤) ، فِي الصَّيْفِ ضَيَّعَتْ
اللَّبَنَ ، وَلَا يَكْذِبُ الرَّائِدُ أَهْلَهُ . وَلَوْ كَانَ مَعِيَ مِلُّ السَّقَاءِ ، لَسَلَكْتُ
فِي الْأَرْضِ الْمَقَاءَ^(٥) .

وَسَوْفَ أَذْكَرُ طَرْفًا مِمَّا أَنَا عَلَيْهِ غَرِيبٌ فِي الْعَامَّةِ مِنْ شَبِّ إِلَى دَبِّ^(٦)

آراء الناس في أبي العلاء

يَزْعُمُونَ أَنَّي مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ . وَأَنَا مِنْهُ خِلْوٌ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ . وَمَنْزِلَتِي إِلَى
الْجُهَّالِ ، أَذْنِي مِنْهَا إِلَى الرَّهْطِ الْعُلَمَاءِ . وَلَنْ أَكُونَ مِثْلَ الرَّبْدَاءِ^(٧) : أَرْعَمُ فِي
الْإِبِلِ أَنَّي طَائِرٌ ، وَفِي الطَّيْرِ أَنِّي بَعِيرٌ سَائِرٌ !

(١) ما سقط من الشرر بين الزند قبل أن يستحكم الوري ، وهو لاخير فيه ، وقد أسمى
أبو العلاء ديواناً له : « سَقَطَ الزَّند » (٢) السمر : شجر يكثر في تهمامة (٣) هو طيب
العرب ، فالفيه الشكاة من العلة (٤) أى ليس لك فى هذا شىء ، يراد به الزجر (٥) اللقاء :
البعيدة الأطراف (٦) أى طول حياتى : شباباً وشيبة (٧) الربداء : النعامة

وَالْتَمَوِيَهُ خُلِقَ ذَمِيمٌ . وَلَكِنِّي صَبٌّ لَا أَهْمَلُ وَلَا أَطِيرُ ، وَلَا تَمْنِي فِي الْبَيْعِ
خَطِيرٌ . أَقْتَنِعُ مِنَ الْحِيلَةِ بِالسَّحَاءِ ^(١) ، وَالْعَوَازِ مِنْ بَنِي آدَمَ فِي مَسَاءٍ وَصَحَاءٍ .
وَإِذَا خَلَوْتُ فِي بَيْتِي تَعَلَّتُ ، وَإِنْ فَارَقْتُ مَاوَايَ صَلَّتُ .

ذَكَرَ ابْنُ حَبِيبٍ أَنَّهُ يُقَالُ فِي الْمَثَلِ : « أَحْيَرُ مِنْ صَبٍّ » ، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا
فَارَقَ بَيْتَهُ فَأَبْعَدَ ، لَمْ يَهْتَدِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِ .

وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ - تَعَالَتْ قُدْرَتُهُ - أَنِّي لَا أَبْتَهِجُ بِأَنْ أَكُونَ فِي الْبَاطِنِ
أَسْتَحِقُّ تَثْرِيبًا ، وَأُدْعَى فِي الظَّاهِرِ أَرِيبًا ؛ وَمَثَلِي مَثَلُ الْبَيْعَةِ ^(٢) الدَّامِرَةِ ، تُجْمَعُ
طَوَائِفٌ مِنَ الْمَسِيحِيَّةِ أَنهَا تُبْرِيءُ مِنَ الْحُمَى أَوْ مِنْ كَذَا ؛ وَإِنَّمَا هِيَ جُدْرٌ
قَائِمَةٌ ، لَا تَفْرُقُ بَيْنَ مِلْطَسٍ ^(٣) الْهَادِمِ ، وَالْمِسِيعةِ ^(٤) بِيَدِ الْهَاجِرِيِّ ^(٥) ؛ وَسَيِّانٍ
عِنْدَهَا صِنْ الْوَبْرِ ^(٦) ، وَمَا يُعْتَصَرُ مِنْ ذِكْرِ الْوَرْدِ ! ...
وَلَيْسَ بَدْعًا مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ ، وَأُدْعَى لَهُ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ .

تَكْذِيبُ الْمَادِحِينَ

وَقَدْ نَادَيْتُ بِتَكْذِيبِ الْقَالَةِ ^(٧) ، نِدَاءً مِنْ خَصٍّ وَعَمٍّ ؛ وَأَعْتَرَفَ بِالْجَهَالَةِ ،
عِنْدَ مَنْ نَقَصَ وَأَمَّ ^(٨) . وَأَعْتَذَرْتُ بِالتَّقْصِيرِ إِلَى مَنْ هَزَلَ وَجَدَّ . وَقَدْ حُرِّمَ

(١) أى بالقشر دون اللباب وكان بالأصل : « بالحيلة والسحاء » (٢) البيعة : معبد
النصارى ، وجمعه : بيع . (٣) الملتطس ، والملطاس : الممول الغليظ لكسر الحجاره . وجمع
الأول : ملاطس ، وجمع الثاني : ملاطيس . (٤) المسيعة : حديدة أو خشبة ممساة يُطَبَّن
بها . وكان فى الأصل : « المبيعة » (٥) الهاجرى : البناء . (٦) الوبر : حيوان يشبه
السنور إلا أنه أصغر منه ، وصنه : بوله ، وهو منتن الرائحة (٧) القالة : القول الذى قيل
فى شأنه ، أو جمع : قائل (٨) أم القوم : صار إماماً لهم . فالمعنى أنه اعترف عند أئمة القوم
وعامتهم . ويجوز أن تكون : نقص وأتم ، أو : نقص وتم

عَلَى الْكَلَامِ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ، لِأَنِّي طَلَقْتُهَا طَلَقًا بَاطِلًا لَا أَمْلِكُ فِيهِ الرَّجْعَةَ .
وَذَلِكَ لِأَنِّي وَجَدْتُهَا فَوَارِكٌ^(١) ، فَقَابَلْتُ فَرَكَهَا بِالصَّلْفِ . وَأَلْقَيْتُ الْمَرَامِي^(٢)
إِلَى النَّازِعِ ، وَخَلَيْتُ الْخُطْبَ لِرُقَاةِ الْمُنَابِرِ .

وَكُنْتُ فِي عِدَادِ الْهَمَلِ^(٣) ، أَجْدُ — إِذَا زَاوَلْتُ الْأَدَبَ — كَأَنِّي عَارِ
يَتَعَمَّمُ^(٤) . أَوْ أَقْطَعُ الْكَفَيْنِ يَتَخَمُّ !

وَيَنْبَغِي لَهُ — أَدَامَ اللَّهُ تَمَكِينَهُ — إِنْ ذَكَرَ فِي عِنْدَهُ ذَاكِرٌ ، أَنْ يَقُولَ :
دُهْدُرَيْنِ ! سَعْدُ الْقَيْنِ^(٥) !

إِنَّمَا ذَلِكَ أَجْهَلُ مِنْ صَعَلِ الدَّوِّ^(٦) ، خَالٍ كَخُلُوِّ الْبَوِّ^(٧)

(١) الفوارك : النساء يبغضن أزواجهن ، والمعنى أن هذه المسائل كانت — فيما يقول
تواضعاً — لا تلين له ولا تسلس ، أو أنها تذهب عنه كلما حصَّأها . (٢) إما أن تكون
جمع مرمي ، وهو آلة الرمي ، وإما أن تكون جمع مرماة ، وهي السهم الصغير الضعيف .
(٣) وفي الأصل « وكنت في عِدَادِ الْمُهَلَّةِ » ويجوز أن تكون أيضاً : « وَكُنْتُ فِي
عِدَادِ الْهَمَلِ ، أَوْ : الْهَامِلَةِ ، أَوْ : الْهَمَلَى . » (٤) في بعض الأصول : ينضم
(٥) هذا مثل ، ودهدرين : اسم للباطل والكذب ، ودهدرين ، سعد القين ، أي
بطل « سعد » الحداد بالآيحد من يستخدمه في عمل له ، لاشتغال الناس بما نزل بهم من
قحط ، ويقال : إن أصله أن قينا « حداداً » ادعى أن اسمه سعد زماناً ، ثم تبين كذبه ،
فقيل ذلك له ، أي جمعت باطلاً إلى باطل ياسعد الحداد . وقيل في أصل الكلمة :
« دهدرين » إنها فارسية ، كان يقولها ذلك الحداد الفارسي حين يغادر بقعة إلى بقعة ،
ومعناها الوداع . وقيل غير ذلك (٦) صعَل الدو : الظلم في الصحراء يترك بيضه ، ثم
ينسى مكانه . (٧) البو : جلد الحوار يحشى تبناً ، فيقرب من أم الفصيل ، فتمطف
عليه ، فندر .

تقاعد ابي العلاء

وَلَوْ كُنْتُ فِي جَنِّ الْعُمَرِ كَمَا قِيلَ ، لَكُنْتُ قَدْ أَنْسَيْتُ أَوْ نَسَيْتُ . لِأَنَّ
حَدِيثِي لَا يُجْهَلُ فِي لُزُومِ عَطْنِي الضِّيقِ . وَانْقِطَاعِي عَنِ الْمَعَاشِرِ ذَهَابَ الشَّقِيقِ ^(١) .
وَلَوْ أَنَّي كَمَا يُظَنُّ ، لَفَعَلْتُ كَمَا اخْتَرْتُ ، وَبَرَزْتُ لِلْأَعْيُنِ فَمَا
اسْتَتَرْتُ .

وَهُوَ يَرَوِي الْبَيْتَ السَّائِرَ لَزُهَيْرٍ :

« وَالسُّتْرُ دُونَ الْفَاحِشَاتِ ، وَلَا يَلْقَاكَ - دُونَ أَخْيَرٍ - مِنْ سِتْرِ »

وَإِنَّمَا يَنَالُ الرُّتَبَ مِنَ الْآدَابِ مَنْ يَبَاشِرُهَا بِنَفْسِهِ ، وَيُفْنِي الزَّمَانَ بِدَرْسِهِ .
وَيَسْتَعِينُ الزُّهْلِقَ ^(٢) ، وَالشُّعَاعَ الْمُتَالِقَ . لَا هُوَ الْعَاجِزُ ، وَلَا هُوَ الْمُحَاجِزُ :
وَلَا جَنَامَةٌ فِي الرَّحْلِ مِثْلِي وَلَا بَرْمٌ - إِذَا أَمْسَى - نَوْؤُومٌ ^(٣)

علة السؤال

وَمِثْلُهُ لَا يَسْأَلُ مِثْلِي لِلْفَائِدَةِ ، بَلْ لِلِامْتِحَانِ وَالْخَبَرَةِ . فَإِنْ سَكَتُ جَازَ
أَنْ يَسْبِقَ إِلَيَّ الظَّنُّ الْحَسَنُ ، لِأَنَّ السُّكُوتَ سِتْرٌ يُسْبَلُ عَلَى الْجُهُولِ .
وَمَا أَحِبُّ أَنْ يَفْتَرِيَ عَلَيَّ الظُّنُونُ ، كَمَا افْتَرَتِ الْأَلْسُنُ فِي ذِكْرِهَا
أَنِّي مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ .

(١) أى انقطاع المشتاق إليها (٢) الزهلق : السراج ما دام في القنديل ، وموضع النار
من الفتيل (٣) الجنامة : البليد ، أو النوم ؛ من جثم : إذا لزم مكانه فلم يبرح .
ويروى : « ولا خيامة »

وَأَحْلِفُ بِخَزْوَةِ^(١) الْكَذُوبِ : لِأَنَّ أُرْمَ^(٢) صَابَةً أَوْ مَقْرًا ، آثَرُ لَدَى مَنْ
أَنْ أَتَكَلَّمَ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ كَلِمَةً !

رمية من غير رام

وَقَدْ تَكَلَّفْتُ الْإِجَابَةَ . فَإِنْ أَخْطَأْتُ ؛ فَمَنْبِتُ الْخَطِئِ وَمَعْدِنُهُ ، غَاوٍ تَعَرَّضَ
لِمَا لَا يُحْسِنُهُ !

وَإِنْ أَصَبْتُ ، فَمَا أُحْمَدُ عَلَى الْإِصَابَةِ :

رُبَّ دَوَاءٍ يَنْفَعُ ، وَصَفَهُ مَنْ لَيْسَ بِأَسِ^(٣) ؛ وَكَلِمَةٌ حُكْمٌ تَسْمَعُ ، مِنْ
حَلِيفٍ وَسَوَاسِ^(٤) !

(١) خزوة الكذوب : خزيه . وكان بالأصل : « بمرورة الكذوب » وفي نسخة :
« بمرورة » (٢) أرم : آكل . قالوا : ومنه الحديث : « البقر ترثم من كل شجر »
(٣) الآسى : الطيب (٤) يقول : « رب دواء ناجع وصفه غير طيب ، وكلمة حكيمه
فاه بها غير أريب » .

رَسَالَةُ الشَّيَاطِينِ^(١)

ترحيب

الطَّرَبُ مُؤْتَابٌ ، وَالْخِيَالُ مُنْتَابٌ^(٢) ، وَالشَّوْقُ — فِي الصُّدُورِ — وَاقِعٌ ،
وَإِنْ أَضَحَّتِ الدِّيَارُ بِلَاقِعٍ .
مَا هَذَا الزَّوْرُ^(٣) الطَّارِقُ ، الَّذِي وَمَضَ كَأَنَّهُ بَارِقٌ ، يَذْكُرُ أُمَّمًا خَالِيَةً ،
كَانَتْ — بِالْأَدَبِ — خَالِيَةً :

(١) بعث المعري بهذه الرسالة المعجبة الفريدة جواباً عن كتاب رجل يعرف بأبي الحسين أحمد بن عثمان النُّسَكَتِي البصري . وألم فيها أروع إلمام بشياطين الشعراء ، فأطلقنا عليها اسم : رسالة الشياطين ، ونشرناها بعد رسالة الملائكة ، لقرب الشبه بينهما ، ووثاقه الصلات بين أغراضهما . ففي رسالة الملائكة عرض المعري — كما رأى القارئ — لطائفة من أمهات المسائل الصرفية ، وفي هذه الرسالة عرض لبعض هذه المسائل ، وأضاف إليها طائفة من المعلومات العروضية وغيرها ، في أروع صورة ، وأبهى حلة . وجرى فيها على عادته في الترقى من مناسبة إلى أخرى ، متلطفاً في الوصول إلى أهدافه البعيدة .

وكان النُّسَكَتِي قد حرف اسم المعري ، وقصر كنيته ، فدعاه محمداً — وهو أحمد — وقال : أبو العلاء — بالقصر — فوجد أبو العلاء — في هذه الهنة اليسيرة — مجالاً لافتنانه وإبداعه

(٢) مؤتاب : مُلَابِسٌ ، ومنتاب : يزور مرة بعد أخرى (٣) الطيف

أَنَا اهْتَدَيْتَ لِتَسْلِيمِ عَلَى دِمْنِي بِ«الْعَمْرِ» غَيْرَهُنَّ الْأَعْصُرُ الْأَوَّلُ !
فَمَرَّحَبًا بِكِتَابِ الشَّيْخِ — أَطَالَ اللَّهُ بِقَاءَهُ — مَا ائْتَلَفَ مُتَحَرِّكٌ وَسَاكِنٌ ،
وَاخْتَلَفَتِ الْأَزْمِنَةُ وَالْأَمَاكِنُ .

عَلَى أَنَّهُ — كَمَا قَالَ اللَّهُ جَلَّ اسْمُهُ — : «وَأَدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ^(١) ، أَنَا أَنْبِئُكُمْ
بِتَأْوِيلِهِ ، فَأَرْسِلُونِ » .

جِنِّيُّ أَمْ مَلَكٌ ؟

لَقَدْ بَهَرَ بِذَيْبِرٍ وَنَظِيمٍ ، فَسُبْحَانَ رَبِّهِ الْعَظِيمِ ، يَرِيدُ — فِي الْخَلْقِ —
مَا يَشَاءُ ، إِنَّ اللَّهَ — عَلَى كُلِّ شَيْءٍ — قَدِيرٌ .

أَسَيْدِي الشَّيْخُ : جَرِيرٌ ؟ فَهُوَ أَنْسَبُ النَّاسِ !

أُمُّ الْفَرَزْدَقُ ؟ فَالْسَّلَامُ عَلَيْهِ ، إِنْ كَانَ أَبَا فِرَاسٍ^(٢)

فَلَيْتَ شِعْرِي : مَنْ يَقُولُ الْمَنْظُومَ فِي خَاطِرِهِ ؟ أَجِنِّيُّ تَمَرَّدَ ؟ أَمْ مَلَكٌ
بِالْعِبَادَةِ تَفَرَّدَ ؟ قَدْ حَرَّتْ فِي ذَلِكَ !

*
*
*

خَلَدَهُ مَا هُوَ بِالْقُرْآنِ ، فَلَا يَسْلُكُ عِفْرِيَّتُ فِي صَدْرِهِ ؛ وَالْمَلَائِكَةُ لَا تَنْطِقُ
بِعِشْلِ شِعْرِهِ ، وَلَا نَعْلَمُ أَحَدًا رَوَى شِعْرًا عَنِ الْمَلَائِكَةِ .

(١) بعد حين ، قال تعالى : « ولئن أخرجنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة » أي : إلى

حين . (٢) كنية الفرزدق

مَنَاحَةُ الْجِنِّ عَلَى عُمَرَ

فَأَمَّا الْجِنُّ فَقَدْ وَرَدَ عَنْهَا مَا يَعْلَمُهُ مِنْهُ أَنْ كَثِيرًا مِنْ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ رَوَوْا أَنَّ الْجِنَّ نَاحَتْ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، فَقَالَتْ :
قَضَيْتَ أُمُورًا ثُمَّ خَلَفْتَ بَعْدَهَا بَوَائِحَ فِي أَكْمَامِهَا لَمْ تُفْتَقِ (١)
فَزَعَمُوا أَنَّ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ سُمِعَتْ قَبْلَ قَتْلِ عُمَرَ .
وَهِيَ فِي الْحِمَاسَةِ مَنْسُوبَةٌ إِلَى الشَّامِخِ .

وَقَدْ ذَكَرَ رِوَايَةَ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي كِتَابِهِ الْمَوْضُوعِ لِغَرِيبِ حَدِيثِ النَّبِيِّ (ص) وَالصَّحَابَةِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ . وَرَوَى أَصْحَابُ السِّيَرِ أَنَّ سَعْدَ بْنَ عِبَادَةَ مَالَ إِلَى سُبَاطَةَ (٢) قَوْمِ فَبَالَ . ثُمَّ مَالَ مَيْتًا ، وَأَنَّ الْجِنَّ قَالَتْ :
قَدْ قَتَلْنَا سَيِّدَ الْخَزْ رَجِ سَعْدَ بْنَ عِبَادَةَ
فَرَمَيْنَاهُ بِسَهْمَيْنِ فَلَمْ نُحْطِ فُؤَادَهُ
فِي أَشْبَاهِهِ لِهَذَا لَا تُحْصَى .

مَلَائِكَةُ الشَّعْرَاءِ

وَلَهُ - أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ - أَنْ يُحْتَجَّ بِقَوْلِ النَّبِيِّ (ص) لِحَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ -
لَمَّا أَمَرَهُ بِإِجَابَةِ شَعْرَاءِ قُرَيْشٍ - : « رُوحُ الْقُدُسِ مَعَكَ ! » .
فَامْتَدَّحَ أَنْ يَقُولَ : « إِنَّ حَسَّانَ وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُ مِنْ قَالَةِ الْحَقِّ ، تُعِينُهُمُ
الْمَلَائِكَةُ عَلَى ذَلِكَ » .

(١) البوائج: الدواهي . والمعنى ، أن عمر بن الخطاب ، ترك - بعد موته - معضلات ودواهي لم يدرك الناس خطرها بعد ، لأنها لم تفتتح عن أكمامها . (٢) السباطة : الكناسة تطرح في أفنية البيوت ، والموضع الذي يرمى فيه التراب والأوساخ .

لِلَّهِ سَيِّدِي الشَّيْخُ؛ لَقَدْ نَثَرَ، فَمَا عَثَرَ؛ وَشَعَرَ، فَكَانَ فِكْرُهُ كَاللَّهَبِ
لَمَّا اسْتَعَرَ؛ وَلَوْ رَجَزَ، لَمَا عَجَزَ.

شَيَاطِينُ الشُّعْرَاءِ

لَقَدْ أَهْدَى إِلَى رِيَاضًا أَرْجَةً، لَا تَزَالُ الْأَلْبَابُ بِهَا مُعْرَجَةً: مِنْ طَوِيلٍ
فَرَعَ بَوَازِيهِ، وَكَامِلٍ كَمَلٍ فِي حُسْنِهِ؛ وَوَافِرٍ^(١)، يُجْعَلُ تَعَلَّةَ الْمُسَافِرِ،
كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ:

«بِهَا تُنْفَضُ الْأَخْلَاسُ^(٢) — وَالذَّيْكَ نَائِمٌ —

وَتُعْقَدُ الْأَنْسَاعُ^(٣) الْمَطِيُّ، وَتُطْلَقُ»

وَلَا يُنْكَرُ — أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ — مَا ذَكَرْتُهُ مِنْ أَمْرِ الْجِنِّ — فَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ
مَشْهُورٌ عِنْدَ الْعَرَبِ أَنَّ لِكُلِّ شَاعِرٍ شَيْطَانًا يَقُولُ الشُّعْرَ عَلَى لِسَانِهِ .
وَلَا شَكَّ أَنَّهُ قَدْ رَوَى قَوْلَ الرَّاجِزِ:

«إِنِّي — وَإِنْ كُنْتُ صَغِيرَ السِّنِّ، وَكَانَ فِي الْعَيْنِ نُبُوٌّ عَنِّي —

(١) الطويل والكامل والوافر من أبحر الشعر، وهي معروفة. وفرع، أي علا، قال أبو العلاء:

وابك على طائر رماه فتى لاه، فأوهى — بفهره — المكتفا

بكر يبغى المعاش — مجتهداً — فقص — عند الشروق — أو نتفا

كأنه — في الحياة — ما فرع الغصن، فغنى عليه، أو هتفا

يقول: كأن هذا الطير — الذي قذفه الفتى بحجره — لم يعل الغصن ولم يغرد عليه في حياته.

(٢) الأخلاس: ما تجلج به الدواب من أبواب (٣) الأنساع: الحبال تشد بها رحال

الأبل، قال أبو العلاء في سقط الزند:

ياناق: سيرى، فقد أفتت أناتك بي صبرى، وحلمى، وأحلاسى، وأنساعى

فَإِنَّ شَيْطَانِي أَمِيرُ الْجِنِّ (١) يَذْهَبُ بِي - فِي الشَّعْرِ - كُلَّ فَنٍّ «
وَقَدْ زَادَ ادِّعَاؤُهُمْ لِنَدِكَ ، حَتَّى سَمَّوْا الشَّيَاطِينَ بِأَسْمَاءِ يَعْرِفُونَهَا بَيْنَهُمْ ؛
قَالَ الْأَعْشَى :

« دَعَوْتُ خَلِيلِي : « مِسْحَلًا » ، وَدَعَوْا لَهُ

جَهَنَّمَ (٢) ، بُعْدًا لِلْغَوِيِّ الْمُدْمَمِ »

فَزَعَمُوا أَنَّ « مِسْحَلًا » شَيْطَانُ الْأَعْشَى .

وَقَدْ رَوَوْا أَخْبَارًا - فِي ذَلِكَ - كَثِيرَةً ، لَا رَيْبَ فِي أَنَّهُ قَدْ اطَّلَعَ عَلَيْهَا .

شَيْطَانُ ابْنِ دُرَيْدٍ

وَحَدَّثَنَا صَدِيقُهُ « أَبُو الْقَاسِمِ الْمُبَارَكُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ » - رَحِمَهُ اللَّهُ -
عَنْ « أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَالَوَيْهِ » عَنْ « ابْنِ دُرَيْدٍ » حَدِيثًا مَعْنَاهُ مَا أَذْكَرُهُ :
وَهُوَ أَنَّ « أَبَا بَكْرٍ بْنَ دُرَيْدٍ » ذَكَرَ لِأَصْحَابِهِ أَنَّهُ رَأَى - فِيمَا يَرَى النَّائِمَ -
أَنَّ قَائِلًا يَقُولُ : « لِمَ لَا تَقُولُ فِي أَحْمَرَ شَيْئًا ؟ » . فَقَالَ : « وَهَلْ تَرَكَ أَبُو نُوَّاسٍ
مَقَالًا ؟ » . فَقَالَ لَهُ : « أَنْتَ أَشْعَرُ مِنْهُ حَيْثُ تَقُولُ :

(١) قريب من هذا قول القائل :

« إني وكل شاعر من البشر شيطانه أنتي وشيطاني ذكر »

(٢) الجهنم : البعيد القاع ، وقد مرت هذه اللفظة بالقرأء في رسالة الملائكة حين

عرض المعرى لتصريف جهنم ، وأنها أعجمية ، أو مشتقة من : بر جهنم ، أى بعيدة القعر .

فارجع إليها إن شئت في ص (٤٥٥) من هذا الجزء

وَمَهْرَاءَ قَبْلَ الْمَرْجِ ، صَفْرَاءَ بَعْدَهُ أَنْتَ بَيْنَ ثَوْبِي نَرْجِسٍ وَشَقَائِقِ
حَكَتْ وَجْهَةَ الْمَعْشُوقِ صِرْفًا فَسَلَطُوا عَلَيْهَا مِزَاجًا فَكَتَسَتْ لَوْنَ عَاشِقِ «

فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ : « مَنْ أَنْتَ ؟ » . فَقَالَ : « أَنَا شَيْطَانُكَ ^(١) » . وَسَأَلَهُ
عَنِ اسْمِهِ . فَقَالَ : « أَبُو زَاجِيَّةَ » وَخَبَّرَهُ أَنَّهُ يُسْكِنُ بِالْمَوْصِلِ

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الْجِنَّ تَطُولُ أَعْمَارُهُمْ ، حَتَّى إِنْ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ يَكُونُ قَدْ لَقِيَ
نُوحًا ، وَيَلْقَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(٢) !

فَإِنْ كَانَ الشَّاعِرُ مِنْهُمْ يَنْتَقِلُ مِنْ رَجُلٍ إِلَى رَجُلٍ . فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَدْ
انْتَقَلَ إِلَيْهِ — أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ — صَاحِبُ النَّابِغَةِ ^(٣) أَوِ الْكِنْدِيِّ ^(٤) ، فَمَا ذَلِكَ
بِبَدِيعٍ وَلَا بَدِيٍّ ^(٥) .

أَبُو زَاجِيَّةَ

وَقَدْ مَرَّ فِي أَسْفَارِهِ بِالْمَوْصِلِ : وَأَغْلَبُ ظَنِّي أَنَّ « أَبَا زَاجِيَّةَ » عَلِقَ بِهِ ،
وَرَغِبَ فِي مُحَبَّتِهِ . لِأَنَّهُ ذَكَرَهُ بِصَاحِبِهِ الْأَزْدِيِّ ^(٦) . وَلَا مَرِيَّةَ فِي أَنَّهُ قَدْ أَسْلَمَ ،

(١) زعموا أن اسم شيطان امرىء القيس هو : لافظ بن لاحظ ، وشيطان النابغة الذبياني :
هاذر بن ماذر ، وشيطان الكميت : مُدْرِكُ بنِ واغِم .

وأطلقوا اسم : « الهوبر » على شيطان الشعر الجيد ، واسم : « الهوجل » على شيطان الشعر
الردىء (٢) ارجع إلى الفصل الممتع الذى خص به المعرى مزايا الجن وعجائبهم وأشعارهم ،
فى الجزء الثانى من هذا الكتاب (ص ١٠٣ وما بعدها) (٣) يعنى : « هاذر بن ماذر »

شيطان النابغة الذبياني (٤) يعنى « لافظ بن لاحظ » شيطان امرىء القيس

(٥) عجيب . (٦) أى ابن دريد

وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَرْعَبْ فِي اسْتِصْحَابِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ لِكِتَابِ اللَّهِ
- جَلَّ سُلْطَانُهُ - عَالِمِ بَلْغَةِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُتَظَاهِرٍ
بِالصِّيَانَةِ وَحُسْنِ الْمَذْهَبِ ، مُذْ كَانَ فِي الْمَهْدِ ، إِلَى أَنْ هَمَّ بِرُمَيْحِ أَبِي سَعْدٍ (١) .
أَوْ لَيْسَ قَدْ جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ - حَدِيثٌ مَعْنَاهُ أَنَّ الْإِنْسَانَ
لَا يَخْلُو مِنْ شَيْطَانٍ مُوَكَّلٍ بِهِ ، قِيلَ : « وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ » .
قَالَ : « وَلَا أَنَا ، وَلَكِنِّي أُعِنْتُ عَلَيْهِ ، فَاسْأَلِمَ . . . » .
وَكَيْفَ لَا يُسَلِّمُ صَاحِبُهُ (٢) - أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ - وَقَدْ أَمَلَى فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ
الْإِخْلَاصِ كِتَابًا نُسِخْتُهُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ الْمُؤَدَّبِ ، أَدَامَ اللَّهُ سَلَامَتَهُ ؟

غريزة الشاعر

وَأَنَا أَقْسَمُ الْأُمُورَ فِي كَيْفِيَّةِ نِظَامِهِ لِلْأَوْزَانِ : أَيْعَرُضُ أَفَانِينَ الْقَرِيضِ ،
عَلَى ضُرُوبِ الْأَعَارِيضِ ؟ أَمْ يَقُولُهَا بِغَرِيزَةٍ ، غَيْرِ مُؤْتَشِبَةِ النَّحِيزَةِ (٣) ؟ فَإِنَّ
كَانَ يَبْنِي الْبَيْتَ كَمَا بَنَاهُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ بِطِبَاعِ (٤) ، لَا يَعْرِفُ مَكَانَ تَوْجِيهِ
يُذَكِّرُ وَلَا إِشْبَاعِ . فَكَيْفَ نَأَى الْعِيَّ ، وَلَمْ يَكْفِ السَّبَاعِي (٥) ؛ وَقَدْ كَفَّتُهُ
مُخُولُ الشُّعْرَاءِ ؟

(١) الرَّمِيحُ : الْعُصِيَّةُ . وَأَبُو سَعْدٍ : كُنْيَةُ الشَّيْخُوخَةِ أَوْ الْهَرَمِ ، قَالَ أَبُو الْعَلَاءِ :

« رَيْبِتْ شَبَلًا ، فَلَمَّا أَنْ غَدَا أُسْدًا عَدَا عَلَيْكَ ، فَلَوْلَا رَبُّهُ أَكَلَكَ

مَرَحْتَ كَالْفَرَسِ الذِّيَالِ - آوَنَةٌ - ثُمَّ اعْتَرَاكَ أَبُو سَعْدٍ ، فَقَدْ شَكَلَكَ »

(٢) أَيْ الْجَنِّي الْمَصَاحِبِ لِلنَّكْتِيِّ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِ كِتَابُ أَبِي الْعَلَاءِ (٣) بَطْبَعُ خَالِصِ

لَا تَعْقِيدُ فِيهِ (٤) بِسَلِيْقَةٍ (٥) أَيْ لَمْ يَحْذَفِ النُّونَ مِنْ مَفَاعِيلِنِ الْمُؤَلِّفَةِ مِنْ سَبْعَةِ أَحْرَفٍ ،
وَقَدْ أَهْبَبَ الْمَعْرَى فِي تَفْصِيلِ الْأَوْزَانِ وَمَا يَمْتَوِرُهَا مِنْ آفَاتٍ وَعِلَلٍ ، فَضَرَبْنَا عَنْهَا صَفْحًا

وَإِنْ كَانَ - أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ - يَقُولُ الشَّعْرَ بِقِيَاسِ الْعَرُوضِ ، فَكَيْفَ تَفَرَّعَ ^(١) هَذِهِ الْأَوْزَانُ الَّتِي هِيَ سَلِيمَةٌ قَوِيمةٌ ؛ وَلَمْ يَجْرَ عَلَيْهِ مَا جَرَى عَلَى رَزِينِ الْعَرُوضِيِّ لَمَّا مَدَحَ الْحُسَيْنَ بْنَ سَهْلٍ بِقَصِيدَتِهِ الْكَافِيَّةِ الَّتِي أَوْهَلَهَا :

« قَرَّبُوا جَمَاهُمْ لِلرَّحِيلِ غُدًّا وَهَةً : أَحْبَبْتُكَ الْأَقْرَبُوكَ »

وَقَدْ شَاهَدْنَا بَعْضَ مَنْ يَقُولُ الشَّعْرَ بِالْعَرُوضِ ، رُبَّمَا رَكِبَ وَزْنَ قَصِيدَةِ الْمَرْقَشِ ^(٢) ، وَعِنْدَهُ أَنْ غَرَّائِزَ النَّاسِ الْيَوْمَ لَا تَنْفِرُ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ . وَأَحْسَبُهُ - جَمَلُ اللَّهِ بِهِ - قَدْ جَمَعَ بَيْنَ طَبِيعِ كَالْبَحْرِ الْخَضَمِ ، وَعِلْمِ الْكَتْسَبَةِ جَمًّا .

أَهْلُ الْبَصْرَةِ

وَدَلَّنِي كِتَابُهُ عَلَى أَنَّهُ يُحْسِبُنِي قَدْ أَضَعْتُ وَدَّهُ ، وَتَنَاسَيْتُ فِي طُولِ الزَّمَانِ عَهْدَهُ ... إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ !

عَرَّفَنِي بِنَفْسِهِ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ ، وَقَدْ صَحَّ مَعِيَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْبَصِيرَةِ الْأَسَّاكِنَةِ فِي خَلْدِهِ ، وَتِلْكَ أَجَلٌ مِنَ الْبَصْرَةِ بَلَدِهِ . وَهَلِ الْبَصْرَةُ إِلَّا حِجَارَةٌ يَبِيضُ ، يَطْوُهَا إِنْسٌ وَرَبِيضُ ^(٣) ؟ أَلَيْسَ قَدْ رُوِيَ قَوْلُ ذِي الرِّمَّةِ :

لضييق صفحات الكتاب المحدودة ، فمن شاء الاستزادة فليرجع إلى رسائل المعري المطبوعة وإلى مقدمة لزومياته . وقد عرض لهذا في رسالة أخرى ، فقال :

« ولست أطوى وداده طىّ الضرب الأول من المنسرح ، ولا أقبضه قبض عروض الطويل ، ولا أقطعُه قطع الوتر ، ولا أجعله كالسبب المضطرب ، يقع به الزحاف والعلّة اللازمة ، ولكنني أصونه من التغيير ، كما صين الروي عن إقواء أو إكفاء ، وأدوم على الإخلاص والصفاء ... الخ . (١) تفرّغ الرجل الشيء : ركبته ، والمراد هنا من التفرّغ : المعالجة والمعاينة (٢) يعني المرقش الأصغر (٣) الأغنام ورعاتها

إِذَا سَاقِيَانَا أَفْرَغَا فِي إِزَائِهِ عَلَى قُلُوصٍ بِالْمُقْفِرَاتِ حِيَامٍ^(١)
« تَدَاعَيْنِ - بِاسْمِ الشَّيْبِ^(٢) - فِي مُتَمَلِّمٍ جَوَانِبُهُ مِنْ بَصْرَةٍ وَسَلَامٍ »
... وَأَهْلُ « الْبَصْرَةِ » - سَلَّمَهُمُ اللَّهُ - يُنْسَبُونَ إِلَى قِلَّةِ الْحَيْنِ ،
أَلَيْسَ قَدْ مَرَّتْ بِهِ هَذِهِ الْحِكَايَةُ ؟ وَهِيَ أَنَّهُ وُجِدَ عَلَى حَجَرٍ مَكْتُوبٍ :
« مَا مِنْ غَرِيبٍ - وَإِنْ أَبَدَى تَجَلَّدُهُ - إِلَّا سَيِّدُ كُرٍّ - عِنْدَ الْعِلَّةِ - الْوَطْنَا »
وَقَدْ كُتِبَ تَحْتَهُ : « إِلَّا أَهْلُ الْبَصْرَةِ ! ... » .
فَإِذَا كَانَتْ تِلْكَ سَجِيئَتُهُمْ مَعَ أَهْلِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ ، فَكَيْفَ بِالَّذِينَ
عَرَفُوهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمْ ؟

تحريفُ الاسمِ

وَالدَّلِيلُ عَلَى مَا قُلْتُ أَنَّهُ - أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ - لَمْ يُثَبِتِ اسْمِي .
جَعَلَنِي : « مُحَمَّدًا » وَاسْمِي : « أَحْمَدُ » .
فَإِنْ احْتَجَّ بَأَنَّ هَذَيْنِ الْإِسْمَيْنِ سَوَاءٌ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى :
« مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ... »
وَلِقَوْلِهِ - فِي مَوْضِعٍ آخَرَ - :
« بَرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ، اسْمُهُ أَحْمَدُ . »
فَإِنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ خَاصَّةً ، لِأَنَّهُ قَالَ :

(١) على نياق عطاش (٢) الشَّيْبُ : حكاية أصوات مشافر الإبل عند الشرب ،
والمتملِّم : الحوض . والبصرة ، والسلام : نوعان من الحجارة .

« اسْمِي فِي السَّمَاءِ أَحْمَدُ ، وَفِي الْأَرْضِ مُحَمَّدٌ . »
فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ :

« إِنَّ الْعَرَبَ قَدْ يَكُونُ لِلرَّجُلِ مِنْهُمْ الْإِسْمَانِ وَالثَّلَاثَةُ »
وَاحْتِجَّ بِقَوْلِ دُرَيْدِ بْنِ الصَّمَّةِ :

تَنَادَوْا ، فَقَالُوا : « أَرَدْتَ الْخَيْلُ فَارِسًا »

فَقُلْتُ : « أَعْبَدُ اللَّهَ ذَلِكُمْ الرَّدِي ؟ »

وَقَالَ فِيهَا :

« فَإِنْ تَنْسِنَا الْأَيَّامَ وَالْعَصْرُ تَعَلَّمُوا »

— بَنِي قَارِبٍ — أَنَا غِيضَابٌ بِمَعْبَدٍ (١) »

فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَخْلُو مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ :

إِمَّا أَنْ يَكُونَ لِلرَّجُلِ اسْمَانِ ، وَلَسْتُ كَذَلِكَ !

وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الشَّاعِرُ غَيْرَ اسْمِهِ ضَرُورَةً .

تَغْيِيرُ الْأَسْمَاءِ

وَلَوْ كَانَ غَيْرَ اسْمِي فِي النَّظْمِ — دُونَ النَّثْرِ — لَكَانَ عُذْرُهُ فِي ذَلِكَ مُنْبَسِطًا ،

لِأَنَّ الشُّعْرَاءَ الْجَلِيلَةَ يُغَيِّرُونَ الْأَسْمَاءَ ، قَالَ الْخَطِيبِيُّ :

« وَمَا رَضِيَتْ لَهُمْ حَتَّى رَفَدْتَهُمْ مِنْ وَابِلِ رَهْطٍ بِسَطَامٍ بِأَصْرَامٍ

فِيهِ الرَّمَاخُ ، وَفِيهِ كُلُّ سَابِغَةٍ قَضَاءً ، مُحْكَمَةً ، مِنْ نَسِيجِ سَلَامٍ »

(١) أى غضبون منه ، حاقدون عليه . و « معبد » و « عبد الله » علان على شخص واحد .

أَرَادَ : « سُلَيْمَانَ » عَلَيْهِ السَّلَامُ .
وَهَذَا تَغْيِيرٌ عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ ، لَا يُسَلَكُ بِهِ مَسَلَكَ غَيْرِهِ ، مِنْ قَوْلِهِمْ :
« عَالِيَةٌ وَعُلْيَاءٌ » وَ « فَاطِمَةٌ وَفُطَيْمَةٌ » فِي الْقَصِيدَةِ الْوَاحِدَةِ ، يَعْنُونَ
امْرَأَةً بَعَيْنِهَا .

ترخيم التصغير^(١)

وَلَا تَجْرَى قَوْلُهُمْ : « أَبُو قَابُوسَ ، وَأَبُو قُبَيْسٍ » لِلنُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذِرِ^(٢) ،
وَ « زَبَّارٌ وَالزُّبَيْرُ » يَعْنُونَ : « الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ » ، لِأَنَّ هَذَا تَرْخِيمُ التَّصْغِيرِ ،
وَهُوَ قِيَاسٌ مُطَّرَدٌ ، قَالَ الْقَطَّاعِيُّ :

« أُمَسَّتْ « عُلْيَاءٌ » يَرْتَاخُ الْفُؤَادُ لَهَا وَلِلرَّوَّاسِمِ - فِيمَا دُونَهَا - عَمَلٌ »
وَقَالَ فِيهَا :

« الْمَلْحَةُ - مِنْ سَنَا بَرَقٍ - رَأَى بَصْرَى

أَمْ وَجَهَ عَالِيَةً أُخْتَلَتْ بِهِ الْكِلَالُ ؟ »

وَقَالَ الْمُرْقَشُ :

« أَفَاطِمَ لَوْ أَنَّ النِّسَاءَ بِبِلْدَةٍ ، وَأَنْتِ بِأُخْرَى ، لَا تَبْعَثُكِ هَاهُنَا^(٣) »

(١) عرض المعري لهذا البحث مرة أخرى في رسالة الأخرسين (ص ٥٢٢) فليرجع إليها
القارئ ليتابع هذا البحث ، بأسلوب المعري البارع (٢) قال النابغة الذبياني في معلقته المعروفة :

« نَبَتْ أُنَّ أَبَا قَابُوسٍ أَوْعَدَنِي وَلَا قَرَارَ عَلَى زَارٍ مِنَ الْأَسَدِ »

(٣) قصة المرقش مع فاطمة بنت المنذر معروفة ذائعة ، وقد ذكرها الأغاني في الجزء
الخامس (ص ١٨٣ طبعة الساسي المغربي) فليرجع إليها من شاء ، وفي هذه القصيدة يقول
المرقش ويتناهى في الإبداع :

« صَحَا قَلْبُهُ عَنْهَا ، عَلَى أُنَّ ذَكْرَةً - إِذَا خَطَرَتْ - دَارَتْ بِهِ الْأَرْضُ قَائِمًا »

وَإِنِّي لَأَسْتَحْيِي فُطَيْمَةَ ، جَائِعًا
وَقَالَ عَمْرُو بْنُ حَسَّانَ الشَّيْبَانِيُّ :

أَلَا - يَا أُمَّ عَمْرٍو - لَا تَلُومِي
أَفِي بَكَرَيْنِ ، نَاهِلَهُمَا سَوَافٍ
وَهَلْ أَحْيَا - هُدَيْتِ - أَبَا قَيْسٍ
بَنِي بَدَا « النُّعْمَرُ » أَكَيْدَ مُكْفَهْرًا (٣)
فَإِنَّمَا يُرِيدُ بِأَبِي قَيْسٍ : أَبَا قَابُوسَ .

وَزَعَمَتِ الرُّوَاةُ أَنَّهُ كَانَ لِصَفِيَّةَ ابْنَةَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَلَدَانِ : « الزُّبَيْرُ »
« وَالسَّائِبُ » ، وَكَانَ السَّائِبُ يُعَقِّبُهَا ، فَقَالَتْ فِيهِ :
يَسْتَمِينِي « السَّائِبُ » مِنْ خَلْفِ الْجُدُرِ لَيْكِنْ « أَبُو الطَّاهِرِ » « زَبَّارٌ » أَبْرٌ
مُبَذَّرٌ لِمَالِهِ ، بَرٌّ ، غُفْرٌ
فَالزُّبَيْرُ تَرْخِيمٌ « الزُّبَّارِ » - فِي التَّصْغِيرِ - فَرَدَّتْهُ إِلَى أَصْلِهِ .

(١) يقول : أمن أجل فتين من الجمال أصابهما الردى ، تتوجع زوجتى ولا تنام حزناً
عليهما (٢) الرُّكَّامُ : المتراكمة ، يقول : هل منعت هذه النعم - على كثرتها -
عن النعمان بن المنذر منيته ؟ وفي هذا المعنى يقول المعري :
« وما منعت - عن الملك - المنايا مقابله ، ولا مُتَكْتَبُوه »
ويقول آخر :

« ولئن بنيت لى المشقَّرَ - فى
لتنقبن عنى المنية إنَّ
الله ، ليس ككككك حكم »
ويقول طرفة :

« فإن كنت لا تستطيع دفع منيتى
فدعنى أبادرها بما ملكت يدي »
(٣) قصراً منيعاً

اسماء الآباء

وَلَا نَدْفَعُ أَنَّ الشُّعْرَاءَ قَدْ سَمَّوْا الرَّجُلَ بِاسْمِ أَبِيهِ — عَلَى سَبِيلِ الضَّرُورَةِ —
أَلَيْسَ قَالَ الرَّاجِزُ :

صَبَّحَنَ — مِنْ « كَاظِمَةٌ » — الْحِصْنَ الْخَرْبِ
يَحْمِلُنَ « عَبَّاسَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ »

وَقَالَ « أَوْسُ بْنُ حُجْرٍ » :

فَهَلْ لَكُمْ فِيهَا إِلَى ، فَإِنِّي بَصِيرٌ بِمَا أَعْيَا النَّطَاسِيَّ : « حَذِيمًا »
يُرِيدُ : « ابْنَ حَذِيمٍ »

*
* *

وَقَالَ « ذُو الرُّمَّةِ ^(١) » ، وَذَكَرَ يَوْمَ « الْكُلَّابِ ^(٢) » الثَّانِي :

« عَشِيَّةَ فَرِّ الْحَارِثِيَّانِ ، بَعْدَ مَا قَضَى نَحْبَهُ — فِي مُلْتَقَى الْخَيْلِ — هَوْبَرٌ »

وَإِنَّمَا يُرِيدُ : « ابْنَ هَوْبَرٍ » ، يَدُلُّكَ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ « عُمَرَ بْنِ لَجَاءِ » :

« وَنَحْنُ ضَرْبْنَا — بِالْكُلَّابِ — « ابْنَ هَوْبَرٍ »

وَجَمَعَ بَنِي الرِّيَّانِ حَتَّى تَبَدَّدَا . «

(١) الرُّمَّةُ : القطعة من الحبل ، و به كنى هذا الشاعر ، وتقول : أخذت الشيء برُمته أى جميعه ، وأصل هذا المثل : أن رجلا باع بعيراً وفي عنقه جبل ، فقيل : « أدفعه برُمته » ثم صار كالمثل في كل ما يؤخذ ولا ينقص منه شيء . (٢) اسم مكان ، وقد صار علماً على يوم من أيام الجاهلية حدثت وقاعه فيه .

التماس العذر

وَأَنَا أَسَامِحُ لَهُ - أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ - بِهَذِهِ ، وَأَعْدُهَا زَيْنًا لَا شَيْنًا ، إِذْ
كَانَتْ قِذَاءً فِي بَحْرِ مُزِيدٍ ، بَلْ أَثَرُ سُجُودٍ فِي جَبْهَةٍ مُتَعَبِّدٍ !
وَلَهُ أَنْ يَقُولَ :

« إِنَّهُ تَشَبَّهَ بِالْكُنْيَةِ ، فَاسْتَعْنَى بِهَا عَنِ الْإِسْمِ . »
أَمَّا أَنَا ، فَحَفِظْتُ اسْمَهُ وَنَسَبَهُ وَكُنْيَتَهُ ، وَلَمْ أَنْسَ أَيَّامَهُ وَلَا مُذَاكَرَتَهُ .
وَقَدْ جَعَلْتُ جَوَابَ كِتَابِهِ نَائِبًا مَنَابَ الْإِجْتِمَاعِ مَعَهُ ، فَلَا يُنْكَرُ عَلَيَّ
الْإِسْنَابُ فِي الْمَحَاوِرَةِ ، وَالْإِكْثَارُ مِنَ الْمُفَاوِضَةِ .

جفوة البصريين

وَمَا عِبْتُ عَلَى أَهْلِ « الْبَصْرَةِ » قِلَّةَ التَّفَاهِمِ إِلَى الْأَوْطَانِ ، وَإِنَّمَا وَصَفْتُهُمْ
بِقُوَّةِ الْقُلُوبِ وَالْأَكْبَادِ ، لِأَنَّ الْعَرَبَ تَصِفُ نَفْسَهَا بِذَلِكَ . أَلَيْسَ قَدْ
بَلَغَهُ قَوْلُ « قَتَادَةَ بْنِ مَسْلَمَةَ الْخَنْفِيُّ » :
يُنْكَى عَلَيْنَا ، وَلَا يُنْكَى عَلَى أَحَدٍ لَنَحْنُ أَغْلَظُ أَكْبَادًا مِنَ الْإِبِلِ »

ضرورات النظم

وَقَدْ تَفَقَّدْتُ مَوْضِعًا آخَرَ فِي مَنْظُومِهِ - أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ - وَلَيْسَ ذَلِكَ عَلَى
سَبِيلِ الْإِنْتِقَادِ ، بَلْ عَلَى مِنْهَاجِ الْمُدَاكِرَةِ الصَّادِرَةِ عَنْ حُسْنِ اعْتِقَادٍ .
قَدْ بَرَأَ النَّظْمَ مِنَ الضَّرُورَاتِ الصَّدْرِيَّةِ وَالْعَجْزِيَّةِ وَالْحَشْوِيَّةِ ، وَلَمْ يَحْدِفِ
التَّنْوِينَ ، كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :

« كَفَانِي - مَا خَشِيتُ - «أَبُو فِرَاسٍ»^(١) »

وَمِثْلُ «أَبِي فِرَاسٍ» كَفَنِي ، وَزَادَا .

وَلَا حَذْفَ الْيَاءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ الْحَذْفِ ، كَمَا قَالَ الْأَعَشَى :

« وَأَخُو الْغَوَانِ^(٢) - مَتَى يَشَأْ - يَصْرَمْنَهُ

وَيَصِرْنَ أَعْدَاءَ ، بُعِيدَ وَدَادِ »

وَكَمَا قَالَ خِفَافٌ :

« كَنَوَاحٍ^(٣) رِيَشِ حَمَامَةٍ نَجْدِيَّةٍ وَمَسَحَتْ بِاللَّثَيْنِ عَصْفَ الْإِمْدِ^(٤) »

وَلَا رَخَمَ - فِي غَيْرِ النَّدَاءِ - كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :

« أَوْدَى «أَبْنُ جُلْهَمٍ»^(٥) : عَبَادُ^(٦) بِصِرْمَتِهِ^(٦) »

إِنَّ «أَبْنُ جُلْهَمٍ» أَمْسَى حِيَةَ الْوَادِي^(٧) »

وَقَالَ زُهَيْرٌ :

« خُذُوا حَقِّكُمْ - يَا آلَ عِكْرَمٍ^(٨) - وَاذْكُرُوا

أَوَاصِرَنَا ، وَالرَّخْمُ^(٩) - بِالغَيْبِ - تُذَكِّرُ »

وَقَالَ الْآخَرُ :

« إِنَّ «أَبْنَ حَارِثَ» - إِنْ أَشْتَقَ لِرُؤْيَيْتِهِ ،

أَوْ أَمْتَدِحُهُ - فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ عَلِمُوا »

(١) لقب الفرزدق الشاعر (٢) حذف الشاعر ياء « الغواني » لضرورة الوزن

(٣) حذف الشاعر ياء « نواحي » - جمع ناحية - لضرورة الوزن (٤) الكحل .

(٥) أصله : « ابن جُلْهَمَة » وقد رخمه الشاعر في غير النداء ، وهو قبيح وقد ضبط

أبو العلاء هذا الاسم بضم الجيم في أول كتابه : « عبث الوليد » (٦) الصَّرْمَة : القطعة

من الإبل نحو الثلاثين في بعض الأقوال (٧) حية الوادي : الداهية الخبيث (٨) أصله :

« عكرمة » وقد رخمه الشاعر (٩) القرابة

وَلَا حَذَفَ - مِنَ الْإِسْمِ مَا يُحِلُّ بِهِ ، كَمَا قَالَ لَبِيدٌ :
« دَرَسَ الْمَنَا ، بِمَتَالِح ، فَأَبَانَ ^(١) »

يُرِيدُ : « الْمَنَازِلَ »

وَكَمَا قَالَ « عَلْقَمَةُ » :

« كَانَ إِبْرِيْقُهُمْ ظَبِيٌّ بِرَابِيَةٍ ،
أَبْيَضٌ ، أَبْرَزُهُ - لِلصَّحْحِ ^(٢) - رَاقِبُهُ ^(٣) »
مَنْطِقٌ قُضِبَ الرِّيحَانَ مَفْعُومٌ ^(٤) ،
مُقَلَّدٌ بِسَبَابِ الْكُتَّانِ ، مَفْدُومٌ ^(٥) »

يُرِيدُ : « بِسَبَابِ ^(٦) الْكُتَّانِ » .

وَكَمَا أَنشَدَ « ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ » :

أَنَاسٌ تُنَالُ الْمَاءَ قَبْلَ شِفَاهِهِمْ

لَهُمْ وَارِدَاتُ الْغُرُوضِ شُمُّ الْأَرَانِبِ ^(٧) »

أَرَادَ : « الْغُرُوضُوفَ »

وَلَا عَوَّضَ مِنَ الصَّحِيحِ حَرْفًا مُعْتَلًّا ، كَمَا قَالَ الرَّاجِزُ :

« وَمَنْهَلٍ لَيْسَتْ لَهُ حَوَازِقٌ ^(٨) وَلِضَفَادِي جَمِّهِ تَفَاقِقٌ ^(٩) »

(١) متالع ، وأبان : جبلان (٢) مملوء (٣) للشمس (٤) حارسه

(٥) موضوع عليه الفِدام ، وهو مصفاة تجعل على فم الإبريق ليصفي به ما فيه

(٦) سباب الكتان ، الستائر المصنوعة منه . (٧) الوارد : الطويل ، تقول : فلان

وارد الأرنبة ، أي : طويل الأنف ، والغرضوف : مارن الأنف ، والأرانب (جمع أرنبة) :

وهي طرف الأنف . يعني أنهم طوال الغراضيف ، شم الأنوف (٨) الحازقة ، والحزاقة :

الجماعة من الناس وغيرهم (٩) الجم : معظم الماء ، يقول : ولضفادع ماء هذا المنهل نقيق

وَكَمَا قَالَ الْآخِرُ :

« لَهَا أَشَارِيرٌ ^(١) مِنْ لَحْمٍ تُشْمَرُهُ ^(٢) مِنْ الثَّعَالِي وَوُخْزٌ ^(٣) مِنْ أَرَانِيهَا »

أَرَادَ : الْأَرَانِبَ ، وَالثَّعَالِبَ

وَلَا سَكَنَ الْحَرَكَةَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ التَّسْكِينِ ، كَمَا قَالَ الْآخِرُ :

« إِذَا أُعْوجِجْنَ قُلْتُ : صَاحِبُ قَوْمٍ - فِي الدَّوِّ - أَمْثَالُ السَّفِينِ الْعَوْمِ ^(٤) »

وَكَمَا أَنْشَدَ سَيْبُوِيَهَ لِأَمْرِئِ الْقَيْسِ :

« فَالْيَوْمَ أَشْرَبُ غَيْرَ مُسْتَحَقِّبٍ إِثْمًا مِنْ اللَّهِ وَلَا وَاغِلٍ ^(٥) »

وَلَا بَنَى الْإِسْمَ غَيْرَ بِنْيَتِهِ ، أَعْنَى الْأَسْمَاءِ الشَّائِعَةِ .

فَأَمَّا أَسْمِي فَقَدْ سَبَقَ فِيهِ مَا سَبَقَ ، وَإِنَّمَا عَنَيْتُ مِثْلَ مَا قَالَ بَعْضُهُمْ :

« كَأَنَّ فَاهَا عَبْقُرٌ بَارِدٌ أَوْ رِيحٌ رَوْضٍ مَسَّهُ تَرَشَاشُ رُكٍّ ^(٦) »

وَإِنَّمَا هُوَ عَلَى قَوْلِ بَعْضِ النَّاسِ : « عَبْقُرٌ » عَلَى مِثَالِ : « جَعْفَرٍ » .

وَأَمَّا « عَبْقُرٌ » - عَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ - فَبِنَاءٌ مُسْتَنْكِرٌ ، لَمْ يَذْكَرْهُ

« سَيْبُوِيَهَ » فِي الْأَبْنِيَّةِ .

(١) الأشارير (جمع إشرارة) والإشرارة - هنا - : القطعة من القديد (٢) تشره :

تقطعه إزبًا إزبًا (٣) الوخز : القليل من كل شيء (٤) يقول : إذا أعوججتن قلت

يا صاحبي قومها من المفازة ، كما تقوم السفائن العائمة في الماء (٥) يقال : وغل في الشيء :

ذهب وأبعد ، ووجل على القوم في شرايبهم : دخل عليهم فشرب معهم من غير أن يدعى .

(٦) الرُّكُّ : المطر القليل .

كنية المعري واسمه

فَمَنْ هَجَرَ هَذِهِ الضَّرُورَاتِ وَغَيْرَهَا - مِمَّا لَوْ ذَكَرْتَهُ لَطَالَ بِهِ
الْكِتَابُ: كَالْتَقْدِيمِ، وَالتَّأْخِيرِ، وَالْفَرْقِ بَيْنَ الْمُضَافِ وَالْمُضَافِ إِلَيْهِ....
فَكَيْفَ اسْتَجَازَ أَنْ يَقْصِرَ كُنْيَةَ صَدِيقِهِ؟

أَمَّا السِّمَةُ فغَيْرَهَا، وَأَمَّا الْكُنْيَةُ فَقَصَرَهَا^(١)، فَإِنَّا لِلَّهِ، وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ!
هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ، لَيْسَ هُوَ مِنْ ضَعْفِ الشَّاعِرِ، وَلَا وَهْنِ الْقَائِلِ،
وَلَكِنَّهُ مِنْ سُوءِ الْحُظِّ لِمَنْ خُوِطِبَ، وَالاتِّفَاقِ الرَّدِيِّ لِمَنْ سُمِّيَ وَذُكِرَ.

عتاب المعري

وَلَا يَقُلْ سَيِّدِي الشَّيْخُ، أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ:
«قَدْ قَصَرْتَ الشُّعْرَاءَ - قَدِيمَهَا وَمَوْلَدُهَا، وَأَوْهَاهَا السَّالِفُ وَآخِرُهَا،
وَفَصَّيْحُهَا الطَّبِيعِيُّ وَمُتَكَلِّفُهَا.»

فإِنَّهُ، لَوْ كَانَ اسْتَعْمَلَ ضَرُورَةً غَيْرَ تِلْكَ، لَقَبِلَتْ حُجَّتُهُ، وَلَكِنَّهُ أَلْغَى
الضَّرُورَاتِ بِأَسْرَهَا، وَرَفَضَ الْعُيُوبَ فَلَمْ يَسْتَعْمَلِهَا.
وَإِنَّمَا تَعَوَّثَ^(٢) مِنْ ذَلِكَ، لِأَنِّي قَصِيرُ الْهَيْمَةِ، قَصِيرُ الْيَدِ، مَقْصُورُ
النَّظَرِ (أَي مَكْفُوفٌ) مَقْصُورٌ^(٣) فِي الْبَيْتِ (أَي لَازِمٌ لَهُ) فَكَأَنِّي

(١) السمة: الاسم، وقد غير اسم المعري فأطلق عليه اسم محمد بدلاً من أحمد، وقصر
كنيته فقال: «أبو العلاء» بدلاً من «أبي العلاء» (٢) طلبت الغوث (٣) قصره في
بيته: حبسه، والمقصور: المحبوس في البيت، لا يخرج، ومنه: «حور مقصورات في
الخيام» وكذلك القصيرة، قال الشاعر:

وَأنتِ التي حبيت كل قصيرة إلى، ولم تشعر بذاك القصائر
عنيت قصيرات الحجال، ولم أرد قصار الخطا، شر النساء البحاتر

مَجْبُوسٌ فِيهِ ، فَمَا كَفَانِي ذَلِكَ مَعَ قَصْرِ الْجِسْمِ ، حَتَّى يُضَافَ إِلَيْهِ قَصْرُ الْأِسْمِ .
لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ !

لَوْ كُنْتُ أَطْوَلَ مِنْ ظِلِّ الرَّمْحِ ، لَصِرْتُ أَقْصَرَ مِنْ سَالِفَةِ الذُّبَابِ (١) ،
قَدْ كِدْتُ أَمْصَحُ (٢) فِي الْأَرْضِ كَمَا تَمْصَحُ الظُّلُّ ، مِثْلَمَا قَالَ الْقَائِلُ :

« وَأُبْتُ ، إِلَى أَنْ يَنْبُتَ الظِّلُّ بَعْدَمَا تَقْاصِرَ ، حَتَّى كَادَ فِي الْأَرْضِ يَمْصَحُ (٣) »

لَوْ كُنْتُ أَطْوَلَ الْأَسْمَاءِ ، وَهُوَ الْمَصْدَرُ الَّذِي فَعَلُهُ عَلَى سِتَّةِ أَحْرَفٍ ،
مِثْلُ : أَحْرَبْجَامٍ وَأَسْتِخْرَاجٍ - فَحَذِفَ مِنِّي - لِكُلِّ صِنْفٍ مِنْ هَذَا
الْقَصْرِ - حَرْفٌ ، لَمْ يَبْقَ مِنِّي شَيْءٌ !

فروضٌ عروضيةٌ

أَوْ كَانَ أَرْفَعَ مَنَازِلِي أَنْ أَبْقَى عَلَى حَرَفَيْنِ : الْأَوَّلُ مُتَحَرِّكٌ ، وَالثَّانِي
سَاكِنٌ - وَذَلِكَ أَقْصَرُ الْأَصْوَاتِ الَّتِي لَا يُمَكِّنُ النُّطْقُ بِأَقْلٍ مِنْهُ -
لَكُنْتُ أَصِيرُ سَبَبًا (٤) مُضْطَرَبًا ، فَيُدْرِكُنِي الْقَبْضُ وَالْكَفُّ وَالْقَصْرُ ،
وَيَجْتَرِيءُ عَلَى الشُّعْرَاءِ ، فَأَحْذَفُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يَتَأْتَى فِيهِ حَقٌّ لِي
مُتَعَارَفٌ بَيْنَ النَّاسِ ، كَمَا قَالَ أَبُو دُوَادٍ :

« أَكُلُّ أَمْرِيءَ تَحْسَبِينَ امْرَأً ، وَنَارٍ تَحْرِقُ - بِاللَّيْلِ - نَارًا »

(١) سالفة الذباب : صفحة عنقه ، وهي من الصغر بحيث لا تكاد ترى بالعين المجردة ،
والذباب أيضاً : ذباب الرمح أى طرفه الذى يضرب به ، والرأى الأول هو الصحيح المعروف
(٢) فى القاموس : مَصَحَ الظلُّ : قَصَرَ ، وَالْأَمْصَحُ : الظلُّ الناقص الرقيق .

(٣) يَمْصَحُ - هنا - يذهب (٤) يعنى سبباً من أسباب العروض

وَالْفَقْدُ الْمُسْتَأْصَلُ أَرْوَحُ مِنَ الْحَيَاةِ فِي هَذِهِ الْمَنْزَلَةِ !
وَلَوْ كُنْتُ السُّبَاعِيَّ الَّذِي فِي الْكَامِلِ ، ثُمَّ قُصِرْتُ هَذَا الْقَصْرَ لَكُنْتُ جَدِيرًا
أَنْ أَصِيرَ الْحَرْفَ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الضَّرْبُ السَّابِعُ - مِنَ الْكَامِلِ - مُذَالًا ^(١) .
وَلَوْ كُنْتُ سُبَاعِيَّ الرَّمَلِ ، ثُمَّ صُنِعَ بِي ذَلِكَ ، لَكَانَتْ الْبَقِيَّةُ مِنِّي
تَسْبِيغًا ^(١) فِي الرَّابِعِ .

فَأَمَّا مُخَاسِيُ الْبَسِيطِ ، فَلَوْ كُنْتُهُ - ثُمَّ صُنِعَ بِي مِثْلُ هَذَا - لَدَهَبَتْ
الْبَتَّةَ ، فَلَمْ يَبْقَ مِنِّي مَا يَكُونُ دَلِيلًا لِلثَّلَاثِ

فروض صرفية

وَهَبْنِي أَسْمَاءَ مُخَاسِيًا . فَيُرْخَمُ تَرْخِيمًا أَوْلَى ، ثُمَّ تَرْخِيمًا ثَانِيًا - عَلَى الْقِيَاسِ ،
لَا عَلَى السَّمَاعِ - ثُمَّ ثَالِثًا - فِي رَأْيِ الْأَخْفَشِ وَالْفَرَاءِ ، دُونَ غَيْرِهِمَا مِنْ أَهْلِ
الْعِلْمِ - ثُمَّ يَجِبُ أَنْ يُكْفَ بَعْدَ ذَلِكَ وَلَا يُحْدَفُ مِنْهُ شَيْءٌ فِي كُلِّ الْمَذَاهِبِ .
اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَتَأَوَّلَ فِي الْمَذْهَبِ الَّذِي حَكَاهُ « أَبُو عُبَيْدَةَ » عَنِ الْعَرَبِ ،
مَنْ أَنْ بَعْضُهُمْ يَقُولُ : « أَلَا تَأَ ؟ »
فَيَقُولُ الْآخَرُ : « بَلَى فَأَلَا ؟ »
يُرِيدُ : « أَلَا تَذْهَبُ ؟ » وَ : « بَلَى ، فَأَذْهَبُ . »

(١) المذال - من البسيط والكامل - ما زيد على آخر وتده المجموع حرف ساكن ،
كأن ذلك الحرف بمنزلة الذيل من القميص ، وإن كان آخره سبباً قيل له : « التسبيغ »
ويختص بفاعلاتن الواقع ضرباً لمجزوء الرمل

وَعَلَى هَذَا يُحْمَلُ قَوْلُ الرَّاجِزِ :
« قَدْ وَعَدْتَنِي « أُمُّ عَمْرٍو » أَنْ تَأْتِدْهَنَ رَأْسِي ، وَتُفْلِيَنِي وَآ
وَتَمْسَحَ الْعُنُقَاءَ حَتَّى تَنْتَشَا ^(١) »

حروف الجر وحروف المعاني

وَلَعَلَّ سَيِّدِي الشَّيْخَ - أَدَامَ اللهُ عِزَّهُ - ظَنَّ أَنَّي مُكَلَّنِي بِعَلَى الَّتِي هِيَ
حَرْفُ خَفْضٍ ، مِنْ قَوْلِكَ : « عَلَى زَيْدٍ مَالٌ »
وَلَوْ كُنْتُ كَذَلِكَ لَوَجِبَ أَنْ يُقَالَ : « أَبُو عَلِيٍّ » بِغَيْرِ أَلِفٍ وَلَا مٍ ، لِأَنَّ
هَذِهِ الْحُرُوفَ - إِذَا خَرَجَتْ مِنْ أَسْمَاءِهَا - صَارَتْ مُتَعَرِّفَةً تَعْرِيفَ الْأَعْلَامِ ،
مِثْلَ : « زَيْدٍ وَعَمْرٍو » ، وَهِيَ صِدْهُ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ ، لِأَنَّ تِلْكَ - فِي بَابِهَا -
بِغَيْرِ أَلِفٍ وَلَا مٍ ، فَإِذَا خَرَجَتْ لِحَقِّهَا عَلَامَةُ التَّعْرِيفِ ، فَقِيلَ الْبَاءُ وَالنَّوْءُ
وَالثَّاءُ ، فَإِذَا عَدِمَتْ ذَلِكَ ، فَهِيَ نِكَرَاتٌ .

وَعَلَى وَأَخْوَانُهَا لَيْسَتْ كَذَلِكَ ، وَمَا عَنَيْتُ حُرُوفَ انْخَفَاضٍ وَحَدَّهَا ،
بَلْ جَمِيعَ حُرُوفِ الْمَعَانِي ، أَلَيْسَ قَدْ رُويَ بَيْتُ أَبِي زَيْدٍ :

لَيْتَ شِعْرِي وَأَيْنَ مِنِّي لَيْتُ إِنَّ لَوْأَ وَإِنَّ لَيْتًا عَنَاءُ
وَقَالَ النَّابِغَةُ :

أَلَا يَا لَيْتَنِي - وَالْمَرْءُ - مَيْتُ وَمَا تُعْنِي مِنَ الْخُدْنَانِ لَيْتُ ^(٢)

(١) يعني بالعنقاء : فرسه الطويلة العنق ، والمعنى : « وتمسح فرسي حتى تنتهي »

(٢) وقال الشاعر :

« لیت وهل یفنع شیئاً لیت ؟ لیت شبابا یوع فاشتریت »

وَقَالَ النَّمِرُ :

بَكَرَتْ فِي الصُّبْحِ تَلْحَانَا فِي بَعِيرٍ ضَلَّ أَوْ حَانَا^(١)

عَلِقَتْ « لَوْأ » تُكْرَرُهُ إِنَّ « لَوْأ » ذَاكَ أَعْيَانَا !

وَلَعَلَّهُ - أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ - يَتَأَوَّلُ أَنَّ الْأَلِفَ وَاللَّامَ دَخَلَتْ عَلَيْهَا كَمَا

دَخَلَتْ عَلَى « الْعَمْرُو » فِي قَوْلِ أَبِي النَّجْمِ :

« خَلَصَ أُمَّ الْعَمْرُو مِنْ أُسَيْرِهَا »

وَكَأ دَخَلَتْ عَلَى « الْأَوْبَرِ » فِي قَوْلِ الْقَائِلِ :

« وَلَقَدْ جَنَيْتُكَ أَكْمُومًا وَعَسَاقِلًا ، وَلَقَدْ نَهَيْتُكَ عَنْ بَنَاتِ الْأَوْبَرِ^(٢) »

وَكَأ قَالَ :

« وَجَدْنَا « الْيَزِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ » مُبَارَكًا ، شَدِيدًا - بِأَحْنَاءِ^(٣) الْخِلَافَةِ - كَاهِلُهُ »

وَإِنَّمَا الْكَلَامُ :

« أُمَّ عَمْرُو » وَ « يَزِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ » وَ « ابْنُ أَوْبَرٍ » لِضَرْبٍ مِنَ الْكَمَامَةِ ،

كَمَا أَنْشَدَ « أَبُو حَاتِمٍ » عَنِ « الْأَصْمَعِيِّ » :

بوع يعنى : بيع ، وقال ابن الرومي :

يا ليمت شعري ، وليت غير مجدية

لأى أمرٍ - مراد بالفتى - جمعت

تجاورت في غصون ، لسن من شجر

تلك الغصون اللواتي في أكمتها

(١) حان : هلك (٢) الأكمؤ (جمع كمؤ) ، والعساقل (جمع عسقول) وبنات

أوبر ، كلها أنواع لنبات واحد ، فالأكمؤ : لونها أغبر ، والعساقل : لونها أبيض ،

وبنات أوبر هي صغارها على لون التراب (٣) ويروى : بأعباء

وَمِنْ جَنَى الْأَرْضِ: مَا تَأْتِي الرِّعَاءُ بِهِ مِنْ ابْنِ أُوْبَرَ، وَالْمَعْرُودِ، وَالْفِقْعَةَ^(١) «
وَلَكِنَّ هَذِهِ مَوَاضِعُ ضَرُورَاتٍ .
وَزَعَمُوا أَنَّ الشَّاعِرَ قَالَ: «الْيَزِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ مُبَارَكًا» ، فَاجْتَرَأَ عَلَى مَجِيءِ
الْأَلْفِ وَاللَّامِ فِي: «يَزِيدَ» لَمَّا جَاءَتْ فِي «الْوَلِيدِ» ، فَكَانَ الْمَعْرُوفُ
ثَبَاتَهُمَا فِيهِ .

فرض جديد

وَإِنْ كَانَ — أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ — تَأْوَلُ: أَنِّي مَكْنِي بِـ «عَلَا» ، الَّذِي هُوَ
فَعْلٌ مَاضٍ ، فَهُوَ — فِي التَّعْرِيَةِ مِنَ التَّعْرِيفِ بِالْأَلْفِ وَاللَّامِ — مِثْلُ الْأَوَّلِ .
أَلَيْسَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ الْقُلَاحِ:
«أَنَا الْقُلَاحُ بْنُ الْقُلَاحِ بْنِ جَلَا» : أَبُو خَنَاشِيرٍ ، أَقْوَدُ جَمَلًا^(٢) .

(٤) الرعاء (جمع راع) ، وابن أوبر ، والمغرود ، والفقعة ، كلها ضروب من الكمأة ، وقد
أشار «ابن مالك» في ألفيته الخالدة إلى دخول الألف واللام اضطراراً على لفظ «أوبر» فقال:
وقد تزداد لازماً ، كالكلمات والآن والذين ، ثم اللات
ولا اضطرار : كبنات الأوبر كذا ، وطبت النفس يا قيسُ السرى «
وهو يعني باللات الأولى اسم صنم كان يعبد بمكة .

وقد أشار المعري إلى كلمة أوبر — في لزومياته — إشارة ظريفة فقال :

« زعم الفلاسفة الذين تنطسوا : أن المنية ، كسرُّها لا يجبر
قالوا : « وآدم مثل أوبر ، والورى كبناته ، جهل امرؤ ما أوبر! »
كل الذي تحكون عن مولاكم كذب أتاكم عن يهودٍ يحبر
رامت به الأخبار كسب معيشة فبغوه ، والعمل القبيح يتبر »

وقال « سَحِيمُ بْنُ وَثِيلِ الرَّيَّاحِيِّ » :

أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الشَّيْبَانِيَا (١) مَتَى أَضَعَ الْعِمَامَةَ تَعْرِفُونِي

وَلَيْسَ فِي قَوْلِ الْفَرَزْدَقِ حُجَّةٌ لِدُخُولِ الْأَلْفِ وَاللَّامِ عَلَى الْأَفْعَالِ
حَيْثُ قَالَ :

مَا أَنْتَ بِالْحَكَمِ التُّرَضَى حُكُومَتُهُ وَلَا الْأَصِيلِ وَلَا ذِي الرَّأْيِ وَالْجَدَلِ

وَلَا فِي قَوْلِ « طَارِقِ بْنِ دَيْسِقٍ » :

وَيَسْتَخْرِجُ الْيَرْبُوعُ مِنْ نَافِقَائِهِ (٢) وَمِنْ بَيْتِهِ ذِي الشَّيْخَةِ (٣) الَّتِي تَقْصَعُ (٤)

لِأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ لَا يَرَى هَذِهِ الرَّوَايَةَ شَيْئًا، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهَا صَحِيحَةٌ، فَإِنَّمَا
يَحْمِلُهَا عَلَى الضَّرُورَةِ .

اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَزْعُمَ — أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ — أَنَّ هَذَا جَارٌ مَجْرِي قَوْلِ النَّحْوِيِّينَ
فِي الدُّبُلِ (٥) إِذَا كَانَ عَلَى مِثَالِ فُعِلَ ، لِأَنَّ « سَيَبُويَه » لَمْ يَذْكُرْ هَذَا المِثَالَ فِي
الْأَمْثِلَةِ الثَّلَاثِيَّةِ ، وَهُوَ اسْمٌ مَشْهُورٌ . فزَعَمَ الْمُحْتَجُّونَ فِي ذَلِكَ : أَنَّ قَوْلَهُمْ
بِهَذِهِ الدُّوَيْبِيَّةِ : « الدُّبُلُ » كَانَ — فِي الْأَصْلِ — فِعْلًا ، كَأَنَّهُ دُئِلَ ، مِنْ قَوْلِهِمْ :
« دَأَلَ الْمَاشِي دَأْلَانًا » (٦) ، وَهَذَا مَكَانٌ مَدْوُولٌ فِيهِ . « ثُمَّ سُمِّيَ بِهِ وَهُوَ فِعْلٌ ،
وَدَخَلَتْ عَلَيْهِ الْأَلْفُ وَاللَّامُ لَمَّا وُضِعَ اسْمًا لِلْجِنْسِ .

(١) الجبال والعقبات (٢) باب جحره (٣) رملة بيضاء ببلاد أسد (٤) اليتقصع

أى الذى يتخذ له قاصعاء ، ومعنى القاصعاء : المدخل وهذا البيت يروى لدى أَلْحَرَقِ الطُّهَوِيِّ ، ويروى : ومن جحره بالشيخة (٥) دويبة تشبه ابن عرس

(٦) الدألان : المشى فيه ضعف

وَهَذَا يُشْبَهُ قَوْلَهُمْ لِخَرَزَةٍ مِنْ خَرَزِ النِّسَاءِ : « الْيَنْجَلِبُ » كَأَنَّهَا سُمِّيَتْ
بِقَوْلِهِمْ : « يَنْجَلِبُ » وَهُوَ يَنْفَعِلُ مِنْ جَلَبْتُ ، كَأَنَّهَا تَجَلِبُ بِهَا زَوْجَهَا
إِلَى مَا تُرِيدُ .

قَالَتْ أُمْرَأَةٌ مِنَ الْعَرَبِ :

« أَخَذْتُهُ بِالْيَنْجَلِبِ فَلَمْ يَرَمْ ^(١) ، وَلَمْ يَغِبْ
وَلَمْ يَزَلْ عِنْدَ الطُّنْبِ »

وَهَذَا قَلِيلٌ مِنْ كَلَامِهِمْ .

بين عمر وابن عباس

وَأَنَا أَجِيبُ سَيِّدِي الشَّيْخَ إِلَى هَذَا التَّأْوِيلِ ، وَلَا أَتْرُكُ - لِلْعَتَبِ -
سَلَامًا إِلَى تَفْضِيلِهِ ، وَلَا لِلتَّقْوُلِ سَبِيلًا عَلَى مَنَّتِهِ ، وَكَيْفَ ؟ وَقَدْ غَلَا فِي وَصْفِي ،
وَأَعْطَانِي مَا لَا يَسْتَحِقُّهُ مَوْضِعِي .

الْبَيْتُ قَدْ بَلَغَهُ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْوِيِّ عَنْ « عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ » رَحِمَهُ اللَّهُ -
أَنَّهُ خَرَجَ لَيْلَةً يَمْشِي ، وَيَدُهُ عَلَى كَتِفِ « ابْنِ عَبَّاسٍ » فَقَالَ :
« أَنْشِدْنِي لِأَشْعَرِ شُعْرَائِكُمْ »

فَقَالَ لَهُ « ابْنُ عَبَّاسٍ » : « وَمَنْ هُوَ ؟ »

قَالَ : « الَّذِي لَا يُعَاطِلُ ^(٢) بَيْنَ الْبَيْتَيْنِ ، وَلَا يَتَّبِعُ حُوشَى الْكَلَامِ ،

وَلَا يَمْدَحُ الرَّجُلَ إِلَّا بِمَا فِيهِ . »

يَعْنِي : « زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سَلَمَى . »

(١) لم يغادر مكانه (٢) عاظل - في القافية - ضمن

إسرافُ الشعراء

فَسَيِّدِي الشَّيْخُ قَدْ أَخَذَ بِمُحَلَّتَيْنِ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثِ : لَمْ يُعَاظِلْ بَيْنَ الْبَيْتَيْنِ ،
وَلَا اتَّبَعَ حُوشَى الْكَلَامِ ؛ وَقَدْ مَدَحَنِي بِمَا لَيْسَ فِيَّ .

وَلِكِنَّهُ - فِي ذَلِكَ - عَلَى مَذْهَبِ أُلْطَبَاءِ وَالشُّعْرَاءِ !

وَزَعَمَ صَاحِبُ الْمَنْطِقِ - فِي كِتَابِهِ الثَّانِي مِنَ الْكُتُبِ الْأَرْبَعَةِ - أَنَّ
الْكَذِبَ لَيْسَ بِقَبِيحٍ فِي صِنَاعَةِ الشُّعْرِ وَالْخُطَابَةِ ، وَلِذَلِكَ اسْتَجَازَتِ الْعَرَبُ
أَنْ تَقُولَ فَتُفْرِطَ ، وَتُسْرِفَ - فِي الشَّيْءِ - فَتُفْرِقَ ، قَالَ الشَّاعِرُ فِي
وَصْفِ السَّيْفِ :

« تَرَى ضَرْبَاتِهِ - أَبَدًا - خَطَايَا^(١) إِلَى أَنْ يَسْتَبِينَ لَهُ قَتِيلٌ »

وَقَالَ النَّمِرُ بْنُ تَوَلِّبٍ :

أَبْقَى الْخَوَادِثُ مَا أَبْقَيْنَ مِنْ نَجْرِ
تَظَلُّ تَحْفِرُ عَنْهُ إِنْ ضَرَبْتَ بِهِ
أَسْبَابَ سَيْفٍ قَدِيمٍ إِثْرُهُ بَادٍ
بَعْدَ الذَّرَاعَيْنِ وَاللَّيْتَيْنِ^(٢) وَالْهَادِي

وَفِي كِتَابِهِ - أَدَامَ اللَّهُ عَزَّهُ - شَكْوَى رَعَشَةٍ ، وَمَا أَعْرَفُ سَبَبًا يُؤَدِّي
إِلَى ذَلِكَ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْإِفْرَاطُ فِي دَرَسِ الْعِلْمِ ، فَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ :

أَرَعَشْتَنِي الْحَمْرُ مِنْ إِدْمَانِهَا
وَلَقَدْ أَرَعَشْتُ مِنْ غَيْرِ كَبْرٍ

(١) خطايا : مخطئة غير مصيبة (٢) الليتان : صفحتا العنق ، والهادي : العنق ، وجمعه

هوادي ، قال المعري يخاطب ناقته :

« ولا يهولنك سيف للصباح بدا فإنه - للهوادي - غير قطاع »

وقال في داليتة الخالدة :

« وعزيز عليّ خلط الليالي رَمَّ أقدامكم برمّ الهوادي »

وَهُوَ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - يَعِيشُ أَكْثَرَ الْأَعْمَارِ ، مِنْ غَيْرِ تَمَارٍ ^(١) . لَا يَفْتَرُ لَهُ فِي الْأَدَبِ نِيَّةٌ ، وَلَا تُنْقَضُ مِنْهُ تَدَيُّةٌ ^(٢) . بَلْ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مِثْلَ « أَبِي لَيْلَى : نَابِغَةَ بَنِي جَعْدَةَ ^(٣) » ، فَإِنَّهُ الَّذِي يَقُولُ :

« فَمَنْ يَكُ سَائِلًا عَنِّي فَإِنِّي مِنْ الْفِتْيَانِ فِي زَمَنِ اخْتَانِ
مَضَتْ مِئَةٌ لِعَامٍ وُلِدْتُ فِيهِ وَعَشْرٌ بَعْدَ ذَلِكَ وَاثْنَتَانِ
وَقَدْ أَبَقْتُ صُرُوفُ الدَّهْرِ مِنِّي كَمَا أَبَقْتُ مِنَ السَّيْفِ الْيَمَانِي »

فضـل العـرـبـة

وَسَمِعْتُهُ ذَمَّ الْعُرْبَةَ فِي كِتَابِهِ - أَوْ عَرَّضَ بِذَمِّهَا - وَلِمَ فَعَلَ ذَلِكَ ، أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ ؟ أَلَا يَرْضَى الرَّجُلُ أَنْ يَسْتَنَّ بِسِنَّةِ « مُوسَى » - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ - كَمَا قِيلَ فِيهِ : « وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدِينٍ ، قَالَ : عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ . »

أَنْسَى دُخُولَهُ إِلَى الْمَسَاجِدِ فِي أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ ، وَإِفْضَاءَهُ إِلَى الْمَدَائِنِ ^(٤) مِنْ بَعْدِ الْفَلَوَاتِ ؟ أَمَا يَذْكَرُ ، وَقَدْ مَرَّ بِهِ - فِي كِتَابِ الْمَجَازِ لِأَبِي عُبَيْدَةَ - قَوْلُ الرَّاجِزِ :

« يَا حَبَّذَا الْقَمْرَاءِ ^(٥) وَاللَّيْلِ السَّاجِ ^(٦) وَطُرُقِ مِثْلِ مُلَاءِ النَّسَاجِ ^(٧) »

(١) بلا امتراء (٢) سن من أسنانه (٣) مرت ترجمته في (ج ٢ ص ٣٨)

(٤) و بلوغه المدائن (٥) القمراء : الليلة القمراء (٦) الساكن ، قال تعالى :

« واللَّيْلِ إِذَا سَجَا » (٧) الملاء : جمع ملاءة ؛ أي مثل الملاء التي ينسجها الناسج

فَطَرَبَ لِهَذَا الْبَيْتِ، حَتَّى شَوَّقَ الْحَاضِرِينَ إِلَى رُكُوبِ السَّفَرِ، وَالتَّعْرِيسِ عَلَى الْعَفْرِ (١).

وَالْعُرْبَةُ، بِهَا تُحْلَى الْأُرْبَةُ، وَطَالَمَا أَضْحَى الْغَرِيبُ، وَهُوَ - مِنْ إِدْرَاكِ الْعَرَضِ - قَرِيبٌ.

وَكَيفَ بِهِ إِذَا أَضَافَ - إِلَى مُبْلُوغِهِ مَحَابَّةً - مُشَاهَدَةَ أَهْلِ الْأَدَبِ فِي الْأُمُصَارِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَمُنَاطَرَتَهُ الْمُتَحَقِّقِينَ بِالْعِلْمِ فِي الْمَسَائِلِ الْمُؤْتَنَفَةِ؟

على ظهر ناقة

وَكَيفَ بِهِ إِذَا سَامَرَ الْفَرَقْدَ، وَبَاتَ بِلَيْلَةِ ابْنِ أَنْقَدَ (٢)؟
أَلَا يَشْتَاقُ إِلَى تَحَامُلِ اللَّهَيْدِ (٣)، وَحَادٍ يَهْتَفُ بِهِيْدٍ (٤)؛ وَرَاءَ قَلَائِصِ (٥)
كَقَلَائِصِ النَّجْمِ، لَا تَسَامُ عِيُونُهَا مِنَ السَّجْمِ؛ أَخْفَافُهَا - بِالْدَمِ - رَاعِفَةٌ،
وَتَسَاوُهَا (٦) - بِالذَّمِيلِ - مُسَاعِفَةٌ

وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، كَانَ رَحْلُهُ عَلَى حَرْفِ ضَامِرٍ (٧)، لَا تَعْبُدُ
- سِوَى الْحِدَاةِ - مِنْ سَامِرٍ، تَسْتَنُّ - فِي السَّرَابِ - كَالثَّوْنِ (٨)، وَتَنْظُرُ
بِعَيْنِ مَجْنُونٍ، مَا دَرَّتْ - قَطُّ - عَلَى فَصِيلٍ، وَلَا أَبَسَّ الْعَبْدَانِ بِهَا - لِلْحَلْبِ -
فِي السَّحَرِ وَلَا الْأَصِيلِ

(١) أى النزول على الأرض للاستراحة من عناء السير (٢) أى بات بليلة القنفذ - ساهراً لا ينام، والعرب تزعم أن القنفذ لا ينام الليل كله (٣) المتعب (٤) كلمة يهتف بها الحداة لئذجر الإبل (٥) القلائص النوق الفتية (٦) عروق من الورك إلى الكعب (٧) ناقة (٨) تسير في السراب كأنها الحوت، قال ابن دريد يصف النون في مقصورته: «يرسبن في بحر الدجى، وبالضحى يطفون - فى الآل - إذا الآل طفا»

على ظهر جواد

أَوْ يَكُونُ عَلَى طَرْفِ أَعْوَجِيٍّ^(١)، مَا هُوَ - لِعِثَارٍ - بِالنَّجِيِّ^(٢)، كَانَ جِسْمَهُ مِنْ عَسَجِدٍ، وَحَوَافِرُهُ مِنَ الزَّبْرَجِدِ؛ تَحْسَبُ غُرَّتَهُ كَوْكَبَ لَيْلٍ، وَجِرَاءَهُ^(٣) أَتَى السَّيْلَ، لَا يُفْقِرُ مَنْ رَكِبَ إِلَيْ : « هَابٍ وَهَبٍ^(٤) »، بَلْ يَحْتَدِمُ بِشِدَّةٍ مُلْهَبٍ .

يُسَامِي الْمُلْجِمَ بُعُوقِ جَذْعِيٍّ^(٥)، وَيُبَارِي الشَّمَالَ^(٦) بِحَسَبِ غَيْرِ دَعْيٍ، فَكَلَّمَ عَرَضَ رَبْرَبٍ^(٧) أَوْ إِجْلٍ، فَلَهُ - مِنْ ذَلِكَ الْفَرَسِ - حِجْلٌ^(٨). فَهُوَ زَادُ الرَّكْبِ غَرِيضٍ^(٩)، قُوَّتُهُمْ عَلَيْهِ - فِي الْبَيْدَاءِ - قَرِيضٌ. وَهُوَ لِعَلِجٍ أَلْعَانَةِ عَدُوٍّ، يَرُوعُهُ بِهِ الْعُدُوُّ. كَأَنَّهُ أَجْدَلُ^(١٠) هَوَى مِنْ نَيْقٍ^(١١)، أَوْ يَنْظُرُ بَعَيْنِي سَوْدَنِيْقٍ^(١٢). يَتْرُكُ النِّعَامَةَ يَتِيمَةَ الرِّئَالِ^(١٣)، وَيَتَكَبَّرُ عَنْ نِقَالِ الْأَجْرَالِ. وَتَلْمَحُ فَارِسَهُ عُمُونَ الْأَعْدَاءِ، كَأَنَّجِمَ بِالْأَفْقِ بَدَا لِأَهْتِدَاءِ. لَا تُشْرَعُ إِلَيْهِ أَسِنَّةُ الرِّمَاحِ، وَلَا يُدْرِكُ بِسِوَى الطَّرْفِ اللَّمَّاحِ^(١٤).

(١) جواد ندب كريم (٢) سريع، أى أنه لا يسرع إلى العثار (٣) ركضه

(٤) كلمتان لزجر الخيل (٥) طويل كجذع الشجرة (٦) ريح الشمال (٧) قطع من

المها، أى : بقر الوحش، قال ابن الرومي :

وإذا قامت إلى ملعبها كهاة الرمل في ريربها

سألت أردافها أعطافها : هل رأيت أوطأ من مركبها ؟

(٨) قيد (٩) غريض : طرى، وقد مر بالقارى قول المعري في قصيدته التي حفزت

داعى اللعاة إلى مراسلته : « ولا تبغ قوتا من غريض الذبأخ » (١٠) صقر

(١١) النيق : أعلى الجبل . قال يزيد بن الحكم الكلابي :

« وكم موقف - لولاي - طحت، كماهوى بأجرامه من قلة النيق منهوى »

(١٢) شاهين (١٣) الرأل : ولد النعام (١٤) البصر الحديد يرى إلى أبعد مدى .

على ظهر بغل

فَإِنْ عَدَاهُ ذَلِكَ ، فَجَهَّازُهُ عَلَى مُدْرَجٍ شَحَّاجٍ ^(١) ، بِمِثْلِهِ يُبْلَغُ قِضَاءُ الْحَاجِ .
قَوْلَ بَيْنَ الْعَيْرِ ^(٢) وَالْفَرَسِ ، وَأُغِيرَ خَلْقَهُ إِغَارَةَ الْمَرَسِ ^(٣) . بِنِظِيرِهِ تَطْوَى
الْأَرْضُ النَّطِيئَةُ ، وَتَرَامُ الطَّيِّبَةُ ^(٤) .

شَاهِدُهُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ ابْنِ الرُّقِيَّاتِ :

« خَلَفُوا أَرْضُنَّ الْجِيَادِ وَسَارُوا قَارِنِيهَا بِشَاحِحَاتِ الْبِغَالِ » . . .

على ظهر حمار

وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَقْتَضِيَ مَنْ لَهُ صِيَّتٌ فِي السَّمَاءِ ، بِأَنْ يَرَى كَبَّ قَصِيرٍ الْأَطْمَاءِ ^(٥) .
وَكَمْ خَيْرٍ ، وَوَصَلَ إِلَيْهِ بِالْعَيْرِ ؛ وَكَمْ رَاكِبٍ حِمَارٍ ، أَفْضَلُ مِنْ رَاكِبِ جَوَادٍ
غَيْرِ اثْتِمَارٍ ^(٦) .

قَالَ اللَّهُ جَلَّ أَسْمُهُ : « وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ ، وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ » .

المطية الأطلحية ^(٧)

وَلَا بَأْسَ أَنْ يَسْلُبَ اللَّهُ الرَّجُلَ حُلَّةَ الْأَغْنِيَاءِ ، فَيَلْبَسَ - بِتَفَضُّلِ اللَّهِ -

(١) يقول : فإن عز عليه أن يظفر بذلك الطرف الأصيل في ترحاله ، فليسافر على بغل
شحَّاج ، والشحيج صوت البغل ، ويقال للبغل : « ابن شحَّاج » (٢) الحمار (٣) أى أنه
غير رهل الجسم ، وأن خلقه محكم . يقال : أغار الحبل ، إذا شد فتله (٤) يقول : بمثل
هذا البغل القوى يطوى من الأرض بعيدها ، وتحقق لراكبه أمنيته

(٥) الأطماء (جمع ظم) والظم : ما بين الشربتين ، قالوا : والحمار سريع العطش ، فهو
- لذلك - قصير الأطماء (٦) يعنى جواد عاصياً لا يأتمر بأمر راكمه (٧) يعنى العصا ،
سميت لذلك لأنها من شجر الطلح ، وهو يعنى بذلك ركوب رجله ، أى السير راجلاً

حُلِّلَ الْأَنْبِيَاءَ . فَيَسْتَعِينَ عَلَى السَّفَرِ بِمِطِيَّةٍ أُطْلِحِيَّةٍ ، لَيْسَتْ بِالْمَلُومَةِ وَلَا
بِالْمُدْحِيَّةِ . إِذَا حَلَّ فِي الْمَنْزِلِ أَعْتَنَتْهُ عَنِ الْمَلَأِ (١) ، بِنِعْمَتِهَا عَنْ مَاءٍ وَكَلَاءٍ .
وَهِيَ فِي التَّلَفِ ، قَرِيبَةٌ أَخْلَفَ (٢) . حَبِذَا تِلْكَ مِطِيَّةً (٣) !
قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

« وَمَا تِلْكَ يَمِينِكَ يَا مُوسَى ؟ قَالَ : هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهْوَسُ بِهَا
عَلَى غَنَمِي (٤) . وَوَلِي فِيهَا مَأْرَبٌ أُخْرَى » .
وَإِنَّمَا حَمِدَتْ الْعُرْبَةَ ، وَذَكَرْتُ - بَعْدَ ذَلِكَ - مَشَقَّةَ السَّفَرِ ، لِأَنَّ
الْمَكَارِمَ قُرِنَتْ بِالْجُهْدِ ، وَالْخُطْبَانَ (٥) جُعِلَ سُمَامًا إِلَى الشَّهِدِ ، وَقَدْ قَالَ الْأَوَّلُ :
« لَا تَحْسَبِ الْمَجْدَ تَمْرًا - أَنْتَ آكَلُهُ - لَنْ تُذْرِكَ الْمَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبْرَ (٦) »

خاتمة الرسالة

قَدْ أَطَلْتُ - أَطَالَ اللَّهُ بِقَاءِ سَيِّدِي الشَّيْخِ - وَمَنْ أَطَالَ ، خَالَفَ الْأَبْطَالَ ،
وَهَذَا أَوْانُ : « أَخْتَصِرُ ، وَأَقْتَصِرُ »

(١) الناس (٢) يسهل إحضار بديلها إذا تلفت

(٣) قال أبو العلاء في مدح العصا :

والعصا للضرير خير من القا تُد فيسه الفجور والعصيان

وسيمر بك حديث عن العصا في رسالة الأخرسين (ص ٥٢٠)

(٤) من أبرع ما قرأناه في وصف العصا ، قول ابن حمديس :

« كأنها - وهي في كفي - أهش بها على الثمانين عاما ، لا على غنمي »

(٥) الحنظل (٦) أكثر الشعراء من صوغ هذا المعنى في صورته ، نذكر منه قول المعري :

« ألم تر أن المجد تلقاك - دونه - شدائد ، من أمثالها وجب الرعب ؟ »

إِنَّمَا أَجِبْتُهُ بِبَثِيرٍ دُونَ نَظِيمٍ ، لِأَنِّي مُنْذُ سَنَوَاتٍ ، قَدْ أَعْرَضْتُ عَنْ
تِلْكَ الْهِنَوَاتِ .

أبو حمزة

وَأَمَّا صَدِيقُنَا « أَبُو حَمَزَةَ ^(١) » رَحِمَهُ اللَّهُ ، فَقَدْ نَقَلَهُ اللَّهُ - جَلَّ اسْمُهُ -
مِنْ دَارِ الشَّقَاءِ ، إِلَى دَارِ النَّعِيمِ وَالْبَقَاءِ ، وَقَدْ رَوَّضَ جَدَّتَهُ ^(٢) عَامًا بَعْدَ عَامٍ ،
وَصَارَ جَسَدُهُ - لِلْأَرْضِ الْمُتْلَهَمَةِ - مِثْلَ الطَّعَامِ .

تحيّة الختام

وَأَنَا وَالْجَمَاعَةُ نَبَعْتُ إِلَى سَيِّدِي الشَّيْخِ - مَعَ رَاكِبِ الطَّرِيقِ ، وَنَسِيمِ
الرِّيحِ الْخَرِيقِ ^(٣) ، وَالْعَقِيقِ الْمَوْمِضِ ^(٤) ، وَالْحَيَالِ الْمُتَعَرِّضِ - سَلَامًا تَارِجُ
رِحَالِ الرُّفْقَةِ إِذَا أُسْتُودِعَتْهُ ، وَتَبْتَهِجُ قُلُوبِ النَّفَرِ إِنْ الْإِذَانُ مِنْهُمْ سَمِعَتْهُ !
وَحَسْبِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ .

(١) يعني أبا حمزة التنوخي الذي رثاه المعري بقصيدته السائرة التي مطلعها :

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح بالك ولا ترنم شادي

(٢) جعل قبره كالروض (٣) الدائمة الهبوب (٤) البرق اللامع

رِسَالَةُ الْأَخْرَسِيِّنَ

توصية

أَنْهَى إِلَى حَضْرَةِ أَسْتَاذِي ، أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ : « بَنِي عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ
ابْنِ سَلَامَةَ » ، قَدْ كَثُرَ لَهُ دَاعِيهِمْ ، وَوَعَى الثَّنَاءَ - بِكْرَمِهِ - وَاعِيهِمْ ، وَهُمْ
جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ ، وَالصَّدَقَةُ - لِبَعْضِهِمْ - أَثِيرَةٌ .

خرس الخلخالين

وَفِيهِمْ رَجُلَانِ ، مَا اغْتَابَا - قَطُّ - وَلَا يَغْتَابَانِ ، وَلَا كَذَبَا وَلَا يَكْذِبَانِ ،
مَا نَطَقَا بِكَلِمَةٍ ذَمِيمَةٍ ، وَلَا فَاهَا - مَعَ الْبَشَرِ - بِالنَّمِيمَةِ .
يُوصَفَانِ صِفَةَ الْخَلْخَالَيْنِ ، وَقَدْ نَظَرَا - مِنَ النَّصْفَةِ - إِلَى خَالَيْنِ (٢) ، وَإِذَا
نَعَتَتِ الْكَرِيمَةَ رَبَّةُ الْخُرْسِ ، قِيلَ : « خَلْخَالُهَا مُبِينُ الْخُرْسِ » .

(١) تركنا شرح هذه الرسالة المبدعة للمعري ، وتحاشينا - جهدنا - أن نفصل بينه وبين
القارئ بشيء من شروحننا ، على أننا ذيلنا ما عن لنا من الملاحظات القليلة بكلمة : « الشارح »
لنميز بين الشرحين (٢) النصفة : الإنصاف والعدل ، والخال : البرق ، والسحاب لا
يخلف مطره ، والرعاية ، وما توسمت من خير . قال الحريري : « أنجز حرما وعد ، وسح
خال إذ رعد . » « الشارح »

قَالَ الشَّاعِرُ :

« وَبِالرَّمْلِ - مِنْ أَنْقَاءِ « يَبْرِينَ » - رَبْرَبٌ ،

بَعِيدٌ - مِنَ الرَّامِينَ - خُرْسٌ خَلَاخِلُهُ »

خرس الحجلين

وَهَذَانِ يُشْبِهَانِ حِجْلِي الْمَرْأَةِ الَّتِي نَسَبَ بِهَا « زِيَادٌ » ، فَقَالَ وَلَهُ - عَنِ الْقَوْلِ - زِيَادٌ^(١) :

« عَلَى أَنْ حِجْلَيْهَا - وَإِنْ قُلْتُ : أَوْسَعَا -

صَمُوتَانِ ، مِنْ مَلٍّ ، وَقِلَّةٍ مَنْطِقٍ »

خرس الدار

وَكَلاهُمَا - عَلَى الْفَطَنِ^(٢) وَالْكَيْسِ - كَالدَّارِ ذَكَرَهَا « أَمْرُؤُ الْقَيْسِ » ، فَقَالَ :

« أَلَمْ تَرَامِ الدَّارَ الْكَثِيبَ بَعْسَعَسَا^(٣) كَأَنِّي أَنْادِي - أَوْ أَكَلِمُ - أَخْرَسَا »

الصحيح الأخرس

وَمِنْ غَيْرِ تَحْرُصٍ وَلَا مَيْنٍ ، يُذَكِّرَانِ كَذِكْرِ الْقَلَمَيْنِ ، لِأَنَّ الْقَلَمَ يُقَالُ لَهُ : « الصَّحِيحُ الْأَخْرَسُ »^(٤) ، وَمِنْ آيَاتِ الْمَعَانِي :

« هَلْ تَذَكِّرَانِ : إِذِ الْمَوْدَّةُ - يَنْسَأُ - سَيَّانٍ ، مِنْ شَجَرِ الْوِدَادِ الْأَمْلَسِ إِذِ سِرُّكُمْ عِنْدَ الصَّدِيقِ ، وَسِرُّهُ يُهْدِي إِلَيْكَ مِنَ الصَّحِيحِ الْأَخْرَسِ »

(١) الزياد : الطراد والدفع ، أى : له ما يدفعه عن هذا القول (٢) الفطنة « الشارح »

(٣) يروى : ألمّا الربع القديم بعسعسا « الشارح » (٤) لعلها : « الصحيح الأخرس » « الشارح »

خَرَسُ الْفَتَيَيْنِ^(١)

يَكُونَانِ عِنْدَ كُلِّ إِنْسَانٍ ، كَالْفَتَيَيْنِ : لِأَنَّهُمَا - فِي طُولِ الْأَبَدِ -
أَخْرَسَانِ ، وَيُنْشَدُ :

(١) يعنى بالفتيين الليل والنهار ، وقد أكثر من ذكرهما في نثره ونظمه ، فلنجتزئ
من ذلك بقوله :

« فلك دائر ، أبا فتياه ، ونيسة ، أو يفرق الفتيان »
وقال :

ها الفتيان ، استوليا بتعاقب
إذا مضيا لم يرجعا ، وتلاهما
وكل غنى يسلبان من الغنى
وكم نزلا في مهمه ، وتحملا
وما حملا رحلين طوراً ، فيؤنسا
ويبتريان العظم والنحب ذائباً
وقد خطرا - فحلين - لو زال عنهما
وما برحا - والصمت من شيمتهما -
وقد شهرا سيفين في كل معشر
وقال :

« كَأَنِّي نَبْتُ مَرَّةٍ يَوْمَ وَلِيْلَةٍ
ها بدويان الطريقَ تعرضا
قويان عزاني عليه ، وأوقعا
وما ضيقاً أرضي ، ولكن أراها
وما أكلا زادي ، ولكن أكلته
ولم يرضيا إلا بنفسى من القرى ،
على - وكانا مُنْفِضِينَ - فجزاني
وبردي - من نسج الشبيبة - جزاني
بغيري ما بي أوقعا ، فجزاني
إلى الضنك - من وجه البسيطة - لجزاني
وقد نهاني - للشرى - واستفزاني
ولو صنته - عن طارق - لأجزاني

« وَالْأَخْرَسَانِ تَعَادِيَا ، وَتَتَابَعَا بِهَلَاكِ آلِ مُحَرِّقٍ ، وَالْمُنْذِرِ »

وما هاج ذكرى بارق نحو بارق
بل الفتيان : اعتاد قلبي أذاها
عزيزان بالله الذي ليس مثله ،
وكم فتكا والحس قد بان عنهما
وما تركا ترك القِيَابِ ، وغادرا
سلا غاب ترَجِّجِ والائِنَعِم : « كم ثوى
وقال :

« أرى فَتَيَّ دُنْيَاكَ - إن حَرَجَ الفَتَى -
وكم من رحيب يُلقِيَانِ مُلَاءة
جديدان ، لما يبليَا بتقدام ،
إذا حزن الأصحاب ، لم يحزننا لهم ،
وقال :

أُمْسَى - وَأُمْسَى فِي شَحَط - وإن غدى ،
إنَّ الفَتَيَيْنِ - بالفَتَيَانِ فِي لَعِب -
ويوديان بما قالوا ، وما صنعوا ،
والله يخلف أزماناً بمشبهها
تُلَقِّي المَقَادِير - فِي آنَافِهِم - خُطَا
أذوين آل زهير ، وارتعين بنى
وقال :

كم عبد الفتيان الخلق عن عُرْضِ
أما الجديدان - من ثوى ، ومن جسدى -
برد الشباب ، وبرد الناسج : ابتدلا
بذلة ، وهما - لله - عبدان
فبيليان ، ولا يبلى الجديدان
وهل يدوم - على البُرْدِين - بردان «
« الشارح »

يُسِيرَانِ إِشَارَةً تَفْهَمُ، وَيُحْكِمُ بِهَا فَلَا تُفْهَمُ، كَمَا قَالَ «الْوَالِيدُ بْنُ عَبِيدٍ» (١):
تَحْسَبُ الْعَيْنُ أَنَّهُمْ جَدُّ أَحْيَا ءَ، لَهُمْ - بَيْنَهُمْ - إِشَارَةُ خُرْسٍ
وَحَقُّ السُّلْطَانِ - أَعَزَّ اللَّهُ لَصْرَهُ - عَنِ مِثْلِهِمَا يُوضَعُ وَيُبْطَلُ، إِذْ كَانَا
مِمَّنْ شَبَّهَ بِهِ «الْأَخْطَلُ»، لَمَّا فَرِقَ مِنْ عِدَاةِ، وَتَوَقَّعَ أَنْ يَنْزَلَ بِهِ رِذَاةُ، فَقَالَ:
«إِذَا طَلَعَ الْعَيْوُوقُ وَالنَّجْمُ، أَوْلَجَتْ هَوَادِيهَا بَيْنَ السَّمَائِ كَيْنِ وَالْقَلْبِ
يَجِدْنَ بِنَا عَنْ كُلِّ حَيٍّ، كَأَنَّآ أَخْرِسُ، عَيُّوَابِ الْكَلَامِ وَبِالنَّسَبِ» (٢)

(١) يعني البحترى، وهذا البيت من سينيته المعروفة التي وصف بها إيوان كسرى، وأولها:
«صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن ندى كل جيس»
«الشارح»

(٢) قال: «أخارس»، وإنما المنهاج الواضح: خُرْسٌ، لأن الأخرس نعت، وباب
النعته أن يجمع على «فعل». فإن جاء «أفعل» - في هذا الجنس - فهو شاذ قليل.
فأما قولهم: الأحامرة - يعنون الجليل، والأحامرة - يعنون الخمر واللحم والزعفران،
فإنهم أقاموا الصفة مقام الموصوف، فقالوا: «أهلك الناس الأحران»، يعنون:
الخمر واللحم، والمعنى: الشيطان الأحران، وهذا الشعر يختلف في قوله، أعنى قوله:
«إن الأحامرة الثلاثة أهلكت مالى، وكننتُ بهنَّ قِدمًا مولعا
الخمر، واللحم الطريُّ، وأطلي بالزعفران، فلن أزال مُردعا»
فإن حُمَلَ الجيس - على ما نطق في الكتيبة - فكأنهما في المخاطبة خميسان حَيَّانِ،
وكأنهما في الأرض رميسان، لأن الميت يوصف بالخرس، ومنه قول القائل:
«وقفتُ فحيت ابن ليلى ملاءة، فلم أُلْفِ إلاَّ أخرسا، لا يكلم»
وإنما قيل للكتيبة: «خرساء»، تشبيهاً بالصخرة، أى هي صلبة مثلها، لا تجيب
إلى ما يُسأل، إذ كانت الصخور طالما أنبت الملائس، فيراد أن الكتيبة لا يقدر لها
على كسر.

وقيل: «إنما قيل لها خرساء لأن الأصوات لا تفهم فيها، فكأنها لا تنطق».

الناقة الخرساء

وَلَهُمَا شَبَهُهُ بِالنُّوقِ الْكُتْمِ ، فِي الْهَوَاجِرِ وَفِي اللَّيَالِي الْعُتْمِ ^(١) .
وَيَكُونَانِ عَلَى قِلَّةٍ غَبْنٍ ، كَبَعْضِ مَا يَخْتَرُ مِنَ اللَّبَنِ ، يُقَالُ : « جَاءَ
بِإِدْلَةٍ خَرَسَاءً » ^(٢) لَا تَتَخَضَّضُ فِي الْإِنَاءِ ، فَيُسْمَعُ لَهَا صَوْتُ .

وذلك مثل ما قال الأفوه :

« زَجِلُّ الْأَصْوَاتِ حَتَّى مَا بِهِ لَيْسَ شَتَّى حَزَقِ الْقَوْمِ شِعَارُ »

(١) يقال : « ناقة خرساء » : إذا كانت لا ترغو ، قال « أبو زيد » :

« عَرَفْتُ نَاقَتِي الشَّمَائِلَ مِنِّي فَهِيَ - إِلَّا تَبِعْمَا - خَرَسَاءُ »

ويقال لها أيضاً : « الْخُرْسِيُّ » ، قال الشاعر :

« مَهَلًا أَيْتِ اللَّعْنُ لَا تَأْخُذْنَهَا فَتَجَشَّمُ خُرْسَاهَا مِنَ الْعُجْمِ مَنْطِقًا »

وخرساء - بالمد - أنثى أخرس ، لا يراد به التفضيل ولا يتصل به من كذا ،

« وَالْخُرْسِيُّ » مُقَدَّرَةٌ عَلَى قَوْلِهِمْ : هَذَا أُخْرَسُ مِنْ هَذَا : أَيْ أَشَدُّ خَرَسَاءً مِنْهُ .

(٢) وَالْإِدْلَةُ : اللَّبَنُ الْحَامِضُ . خَرَسَاءُ ، أَيْ : خَائِثَةٌ ، لَا تَتَخَضَّضُ فِي الْإِنَاءِ ،

فَيَسْمَعُ لَهَا صَوْتَ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

« جَاءَتْ « زُرَيْتُهُ - إِذْ تَهَوَّرَ لَيْلَهَا - بِالزَّوْلِ - مِنْ إِدْلَاتِهَا الْخُرْسِ »

بَحَلَّتْ بِمَعْبُوطِ السَّوَامِ عَلَى فَتَى حَلَوِ الشَّمَائِلِ ، لَيْسَ بِالنَّكْسِ »

يقال : « إِدْلَةٌ وَإِدْلَاتٌ - بِكسْرِ الدَّالِ - وَإِدْلَاتٌ بِفَتْحِهَا ، وَإِدْلَاتٌ بِسُكُونِهَا .

ولما كان التصويت يسمى : « نطقًا » وإن كان غير مفهوم سمي تركه خرساء ، لأنهم يجعلون

أصوات الدجاج نطقًا ، قال لبيد :

« فَصَدَّهَا مَنْطِقُ الدَّجَاجِ مَعَ الصَّبْرِ ح ، وَصَوْتُ النَّاقُوسِ ، إِذْ ضُرِبَا »

وجعلوا الدلالة على الشيء كالنطق ، كما قال :

« أَخْبَرْتُ عَنْ فَعَالِكِ الْأَرْضِ ، وَاسْتَنْدَ طَقَ مِنْهَا الْيَبَابَ وَالْمَعْمُورَا »

وكذلك قول الراجز :

وَهَذَانِ الرَّجْلَانِ كَتِمْتَالِي حَاجٍ، لَيْسَ لَهُمَا - بِالْكَلِمِ - مِنْ مَعَاجٍ، قَالَ :
« عِنْدِي - مِثَالِكَ - لُعْبَةٌ عَاجِيَةٌ لِيَكُنَّ خَرَسَاءً ، لَا تَتَكَلَّمُ »
وَيُسَمَّى الدَّنُّ : « خَرَسَاءً » ، قَالَ « الْجُعْدِيُّ » :

« خَرَسٌ كَجَوْزِ الحِمَارِ جَرَدَهُ البَيْدُ طَارًا ^(١) ، لَا نَافِسٍ وَلَا هَزِيمٍ »
فَإِنْ كَانَ عَرِيًّا - فِي الْأَصْلِ ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الخَرَسِ ، كَأَنَّهمْ
أَرَادُوا أَنَّهُ صُلْبٌ لَا عَيْبَ فِيهِ ، شَبَّهَ بالصَّخْرَةِ الخَرَسَاءُ . وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ
فَلَهُ بِهَذَيْنِ تَنَسُّبٌ ، وَلَيْسَ فِيهِ - لِلْمَآثِمِ - تَكْسِبٌ ؛ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ رَاحٍ
تُودَعُ فِيهِ ، وَإِنْ هِيَ لَعِبَتْ بِلُبِّ السَّفِيهِ ، وَمَا عَلِمَ : الْأَخِذُ مِنْهُ أَرَى أُمَّ
خَمْرٍ ؟ لَقَدْ خَفِيَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ .

وَلَا ذَنْبَ عَلَيْهِ إِنْ شَرِبَ مَا سُبِيَ مِنْهُ ، فَجَرَتْ هُنَاكَ عَرَابِدُ وَهَنَوَاتٌ ،
لَا تَدْرُسُ أَذَاهَا السَّنَوَاتُ .

مَا دَرَى الدَّنُّ الَّذِي كَانَتْ فِيهِ خَمْرٌ شَرِبَهَا القَائِلُ :

« شَرِبْتُ الخَمْرَ حَتَّى ضَلَّ عَقْلِي كَذَلِكَ الخَمْرُ تَلْعَبُ بِالْعُقُولِ »
وَلَا شَعَرَ « حَنْتَمٌ ^(٢) » حِينَ خَرَجَتْ مِنْهُ مُدَامَةٌ تُفَوِّقُهَا الَّذِي اصْطَبَّحَ ، فَقَالَ :
« سَقَانِي خَلِيلَايَ مِنْ قَرَفٍ فَأَصْبَحْتُ أَحْسِبُ « رَضْوَى » « ثَبِيرًا »
أَرُومُ الكَوَاكِبِ بِالرَّاحَتَيْنِ وَأَطْمَعُ فِي أَنْ أُنَالَ الصَّبِيرَ ^(٣) »

مستأسد ذبانه في غيطل يقول للرائد : « أعشبت ، أنزل . »
(١) يشبه الدن بوسط الحمار بعد أن جرده البيطار من ثوبه ونزع عنه شعره « الشارح »

(٢) الحنتم : الجرة الخضراء ، أو : الدن « الشارح »

(٣) الصبير : السحاب « الشارح »

زواج الخرساء

وَيُرَوَّى أَنَّ رَجُلًا مِّنَ الْعَرَبِ خَطَبَ - إِلَى آخَرَ - ابْنَةَ لَهُ ، فَقَالَ
الْمَخْطُوبُ إِلَيْهِ : « قَدْ زَوَّجْتُكَ خَرَسَاءَ اللِّسَانِ ، خَرَسَاءَ الدُّمْلِجِ ، خَرَسَاءَ
الْخَلْخَالِ » .

فَقَالَ : « قَدْ تَزَوَّجْتُ ، وَرَضَيْتُ » .

فَلَمَّا زَفَّتْ إِلَيْهِ ، وَجَدَ بِلِسَانِهَا الْخَرَسَ ، فَذَكَرَ لِأَيِّهَا ذَلِكَ ، قَالَ :
« أَلَمْ أُخْبِرْكَ : أَنَّهَا خَرَسَاءُ اللِّسَانِ ؟ »

قَالَ : « ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُرِيدُ : أَنَّهَا قَلِيلَةُ الْكَلَامِ وَالصَّخْبِ ، لَا أَنَّهَا
عَاجِزَةٌ عَنِ النُّطْقِ » .

فَتَرَفَعًا إِلَى بَعْضِ الْقُضَاةِ ، فَحَكَمَ عَلَيْهِ بِتَامِ التَّرْوِيجِ ، لِأَنَّ الْخَرَسَ لَيْسَ
مِنَ الْعُيُوبِ الَّتِي يُرَدُّ بِهَا النِّكَاحُ .

وَأَقَامَتْ عِنْدَهُ ، فَوَلَدَتْ لَهُ أَوْلَادًا مُجَبَّاءَ ، فَقَالَ :

وَإِنَّ بَنِي الْخَرَسَاءِ أَمْطَارُ شَتْوَةٍ إِذَا الْعَامُ أَزْرَى بِالْبَيْخِيلِ الْمَزْنَدِ
هُمُ النَّفْرُ الْحَامُونَ فِي مَوْقِفِ الْوَعْيِ وَهُمْ خُطْبَاءُ الْحَيِّ فِي كُلِّ مَشْهَدِ

*
* *

وكان رجلٌ من « كلب بن وبرة » جالساً مع قومِهِ ، فجعلوا يتحدثون وهو
ساکتٌ ، فقال له بعضهم : « بِحَقِّ مَا سَمَّيْتُمْ : خُرْسُ الْعَرَبِ (١) ! »
فلهذا المعنى ، اغترَّ الخاطبُ بقولِ القائلِ : « زَوَّجْتُكَ خَرَسَاءَ اللِّسَانِ »

(١) يعني أنهم قليلو الكلام .

خراسان

وَلَوْ كَانَتْ « خُرَّاسَانُ » - هَذَا الْبَلَدُ - عَرَبِيَّةً ، لَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ
اشْتِقَاقُهَا مِنَ الْخُرْسِ ، لِأَنَّ الْعَرَبَ لَا تَقِفُهُمْ كَلَامَ أَهْلِهَا ، فَكَانَتْهُمْ خُرْسٌ ،
وَكَذَلِكَ الْفُرْسُ .

وَلَوْ صَحَّ ذَلِكَ ، لَجَازَ أَنْ يُعْزَى هَذَانِ الرَّجُلَانِ إِلَى « خُرَّاسَانَ » .
وَقَدْ قَالُوا فِي النَّسَبِ إِلَيْهَا : خُرَّاسَانِيٌّ ، وَخُرَّسَانِيٌّ ، وَخُرَّاسِيٌّ ، وَخُرْسِيٌّ (١) .

القيد الآخرس

وَيُوصَفُ الْقَيْدُ بِأَنَّهُ أُخْرَسٌ - عَلَى مَعْنَى الْخُلْخَالِ - وَذَلِكَ أَنَّهُ ضَيِّقٌ ،
فَهُوَ مِنَ الْحَرَكَةِ خَالٍ . قَالَ :

« أَلَمْ تَرِيَانِي وَالْعَقِيلِي دَائِبًا ، نَرُوحُ وَنَعُدُّو ، فِي خَلَاخِيلِنَا الْخُرْسِ »

(١) فأما خراسانيٌّ : على التمام ، وأما خُرَّسَانِيٌّ ، فلأنهم قالوا : خُرَّسَان ، وينشد
لبشار بن برد :

« بُنَيْتِي ، لَيْسَ بِهَا ظَبْطَابُ فِي السَّرْمَنِ « خُرَّسَان » لَا تُعَابُ

زَيْنُ مِنْهَا النَّحْرُ وَالرَّهَابُ

يقال : ما به ظَبْطَابُ : أي داء ، والرَّهَابُ : مجال القلادة ، ويقال : الرَّهَابَةُ : العظم
الدهيق الذي يشرف على المعدة .

وأما خُرَّاسِيٌّ ، فعلى حذف الألف والنون ، لأنهما زائدتان . وأما خُرْسِيٌّ فعلى
حذفِ كَلِمَاتِهَا .

وقلما تجيء « خراسان » في أشعار الجاهلية ، وإنما تجيء في أشعار العرب بعد الإسلام
كما قال مالك بن الرِّيب :

« لعمرى لئن غالت خراسانُ هامتي لقد كنت - عن بابي خراسان - نائياً

رَهْبِنِي تَوَاءَ - بَعْدَ طُولِ إِقَامَةٍ - عَلَى غَرَضٍ مِنَّا بِمَنْزِلِنَا الشَّاسِ (١) «
فَكَانَ هَاتَيْنِ النَّسْمَتَيْنِ قَيْدَانِ ، مَا لُهُمَا بِالنُّطْقِ يَدَانِ .

طعام النفساء

وَقَالُوا : « خَرَسَتْ النُّفْسَاءُ » ، إِذَا عَمِلَتْ لَهَا طَعَامًا ، وَهِيَ : الْخُرْسَةُ ، وَالْخُرْسُ .
قَالَ الرَّاجِزُ :

« كُلَّ الطَّعَامِ تَشْتَهِي رَيْبَعَهُ : الْخُرْسُ ، وَالْإِعْذَارُ ، وَالنَّقِيعَةُ (٢) »
وَقَالَ بَعْضُ الْعَرَبِ ، فِي صِفَةِ الرُّطْبِ :
« لَيْسَ الصَّقْرُ فِي رُءُوسِ الرَّفْلِ ، الرَّاسِخَاتِ فِي الْوَحْلِ ، الْمُطْعِمَاتِ
فِي الْمَحَلِّ ، بُلْغَةَ الْكَبِيرِ ، وَصُمْتَةَ الصَّغِيرِ .
وَخُرْسَةُ « مَرِيَمَ » - عَلَيْهَا السَّلَامُ - كَالزَّيْبِ ، إِنْ تَرَكَتَهُ غَرِثًا ،
وَإِنْ أَكَلْتَهُ ضَرَسْتَ (٣) » .

(١) ولا بد - هاهنا - في الشَّاسِ - من هَمْزٍ ، لِأَجْلِ التَّافِيَةِ . (٢) فالخرس : طعام
النفاس ، والإعذار : طعام الختان ، والنقاعة : طعام الغائب يقدّم ، أو البناء يتمّم ، وقال الهذليُّ :
« إِذَا النُّفْسَاءُ لَمْ تُخْرَسْ بِبِكْرِهَا غَلَامًا ، وَلَمْ يَسْكُتْ بِحَيْثَرٍ قَطِيعُهَا »
وقال قوم : « الخرسة : ما تطعمه النفساء ، والخرس ، ما يطعمه الناس المدعوون لذلك .
(٣) الصَّقْرُ : الدبس الذي يكون في الرطب ، والرَّفْلُ : النخل الطَّوَالُ .
وقوله : « خرسة مريم » لأن في الكتاب العزيز : « وهزى إليك بجذع النخلة تساقطُ
عليك رطبًا جنينًا ، فكلّي واشربني وقرّئي عِينًا . »

و بعض الناس يخرس - إذا أكل الزبيب - قال الشاعر :
قَرَوْنَا زَبِيبًا لَمْ يَزَلْ فِي ضُرُوسِنَا لَهُ قَادِحٌ ، حَتَّى مَضَى اللَّيْلُ أَجْمَعُ

البكر : الخروس

وَيُقَالُ لِلْبَكْرِ إِذَا وَلَدَتْ : « خَرُوسٌ » أَيْ : تَفْتَقِرُ إِلَى أَنْ تُتَّخَذَ لَهَا
خُرْسَةٌ إِلَى أَنْ يَدِرَّ لَبْنُهَا ، إِذْ كَانَتْ أَقَلَّ لَبْنًا مِنَ الْعَوَانِ ، قَالَ الشَّاعِرُ :
« سَأَلْتُ بَنِي لَأَيٍّ ، فَأَلْفَيْتُ خَيْرَهُمْ قَلِيلًا ، كَدَّرَ مِنْ خَرُوسِ الْأَرَانِبِ »

الأخرس والخرساء : الحية

وَيُقَالُ لِلْحَيَّةِ الذَّكْرِ : « أَخْرَسٌ » وَالْأُنْثَى : « خَرَسَاءٌ » ، فَكَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ
بِذَلِكَ : أَنَّهُ لَا يُجِيبُ الرُّقَاةَ ، وَلِذَلِكَ وَصَفُوهُ : بِالصَّمَمِ ، وَالصَّمْتِ ، وَالشُّكُوتِ .
وَمِنْ أَيْبَاتِ الْمَعَانِي :

« أَلَمْ تَرَ لِلسَّيْفِ قُرْبَ نَفْسِهِ

لِخَضْرَاءٍ فِيهَا مَوْجُهَا وَقَسِيْبُهَا (١)

فَصَارَ ، وَدُونَ الدَّرِّ خَرَسَاءٌ ، لَمْ يَكُنْ

لِيَسْفِي مِنْهَا مَنْ تُصِيبُ ، طَيْبِيهَا »

وَهَذَانِ الْأَخْوَانِ لَيْسَا كَالصَّلِيِّينِ ، وَلَكِنَّهُمَا لِلجَارِ الْمُصَاقِبِ إِزَاءَ الْخَلِيِّينِ .

وإنما قيل لهذا الطعام : « خرسة » لأن النفساء إذا أكلته دَرَّ لبنها ، فأرضعت ولدها ، فلم يبك ، فكأنه إذا صمت : أخرس .

(١) السَّيْفِيُّ : رجل من أهل سيف البحر ، أَيْ : ساحله ، والقسيب : صوت الماء .

وهم يزعمون : « أن الثرة تكون عندها حية موكلة بها »

وهذا من أحاديث الأعراب ، فيدعون أنها ربما لدغت الغواص . وقال آخر :

« ما تزدرى من حية جبلية سُكَاتٍ ، إذا ما عض ليس بأدردا »

امثال الخرس

وَيُقَالُ فِي الْمَثَلِ : « رُبَّ خَرَسٍ ، أُنْجِيَ مِنْ فَرَسٍ ^(١) »

ويقال : « رُبَّ خَرَسٍ ، أَنْفَعُ مِنْ مَرَسٍ ^(٢) » .

ويقال : « عُذُّ بِالْجَرَسِ ، إِلَى الْخَرَسِ ^(٣) » .

وَيُقَالُ : « الْخَرَسُ ، أَهْلَكَ الْخَرَسَ ^(٤) » .

وقال الأسدی :

وكم دون بيتك من صفصف ومن حنش جاجرٍ في مكا
أصمٌ ، صموتٍ ، طويل السبأ ت ، أجرَد ، ذى حمة كالرثا

(١) وكان أصل ذلك أن قوماً قُتل منهم رجل ، فطلبوا قاتله ، فوجدوا أخويه ، وكان أحدهما أخرس ، فلم يقتلوه . وركب الآخر فرساً لينجو عليه فأدركه الطلب فقتل ، فقيلت تلك المقالة (٢) وأصل ذلك أن امرأة أيمًا كان لها مرس ، أى : حبل شديد القتل ، فكانت تعيره السقاة ويسقون أبنقاً لها ، وكان في الحى امرأة خرساء ، فبدأ السقاة بسقى ذودها على سبيل الرحمة ، وتركوا أبنق صاحبة المرس ، فقالت هذا الكلام .

(٣) أصل هذا أن رجلاً كان يؤذى آخر ، فيحوجه إلى شكيبته ، فقال : « عد بالجرس ، إلى الخرس » .

أى : إنك لو لم تحملنى على الكلام لم أتكلم ، إذ كان الجرس لا يصوت إلا إذا حركه غيره .

(٤) وهذا يحتمل وجهين : أحدهما أن يكونوا ناموا ، ففقدت أصواتهم ، فظفروهم عدوهم . والآخر أن يكونوا حرسوا ملكاً استيقظ بالليل ، ففقد أصواتهم ، فسأل عنهم ، فوجدهم سكارى ، فأمر بقتلهم .

الخطيب الأخرس

وَكَانَ - لِبَعْضِ النَّاسِ - جَارُ أَخْرَسٍ فِتْوَى ، فَرَأَهُ فِي النَّوْمِ ، فَجَعَلَ
يُومِيئُ إِلَيْهِ - كَمَا كَانَ يَفْعَلُ فِيمَا سَلَفَ - فَأَجَابَهُ بِلِسَانٍ طَلِقٍ :
« يَا فَلَانُ ، صِرْتُ بَعْدَكَ مِنْ خُطْبَاءِ الْجَنَّةِ ، كَمَا مَضَتْ أَرْبَعٌ وَعِشْرُونَ
سَاعَةً مِنْ سَاعِ الدُّنْيَا ، نُصِبْتَ لَنَا مَنَابِرٌ مِنَ الْيَاقُوتِ ، فَنَمَجِدُ عَلَيْهَا اللَّهَ ،
وَيُقَالُ لَنَا : « هَذَا بِمَا أُمْسِكْتَ أَلْسِنَتِكُمْ فِي دَارِ الْغُرُورِ »
فَنَحْنُ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :

« خُطْبَاءُ عَلَى الْمَنَابِرِ ، فُرْسَا نٌ عَلَيْهَا ، وَقَالَ غَيْرُ خُرْسٍ »

دعاء الأخرس

وَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الصَّالِحِينَ :
« لِأَنِّي يَدْعُو لِي رَجُلٌ أَخْرَسٌ ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَدْعُو لِي أَلْفٌ خَطِيبٍ
عَلَى أَلْفِ مَنَبِرٍ ، لِأَنَّ ذَلِكَ يَوْمِيئُ إِلَى اللَّهِ - سُبْحَانَهُ - بِلِسَانٍ مَا أَفِكَ ، وَلَا قَالَ
الْبُهْتَانَ ، وَأَوْلَيْكَ جَدِيرُونَ أَنْ يَكُونُوا كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ :
« يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ »

الجار الأخرس

وَكَانَ لِرَجُلٍ أَخٌ عَلَى غَيْرِ مَنَهَاجِ الْخَيْرِ ، وَكَانَ لَهُ جَارٌ أَخْرَسٌ ، فَكَانَ يَجْلِسُ
إِلَى جَانِبِهِ ، وَيُتَرَجِّمُ عَنْهُ مَا يُرِيدُ .
فَهَلَكَ ذَلِكَ الرَّجُلُ الدَّمِيمُ ، فَرَأَهُ أَخُوهُ فِي النَّوْمِ ، فَقَالَ :

« مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ ؟ »

قَالَ : « غَفَرَ لِي »

قَالَ : « بِمَاذَا ؟ وَقَدْ كُنْتَ أَحَدَ الْقَاسِطِينَ ؟ »

قَالَ : « بِالترَّجَمَةِ عَنْ أَبِي نُعْمَيْرٍ »

يَعْنِي ذَلِكَ الْأُخْرَسَ .

عصا الأعمى

وَقِيلَ لِرَجُلٍ مَكْفُوفٍ :

« لِمَ تَوَثَّرُ عَصَاكَ عَلَى قَائِدِ يَفُودِكَ ، مِنْ النَّاسِ ؟ »

قَالَ : « لِأَنَّهَا مُقَهِّبَةٌ ^(١) ، لَا تَطْعَمُ وَلَا تَشْرَبُ ، وَلَا تُقَابِلُنِي بِمَا أُكْرَهُ ^(٢) ! »

مُسْتَحِقُّ الصَّدَقَةِ

وَمَرَّ بَعْضُ الْمُتَعَبِّدِينَ بِأُخْرَسٍ ، وَأَعْمَى ، وَمُقْعَدٍ .

فَقَالَ لِصَاحِبِهِ :

« هَلْ مَعَكَ شَيْءٌ لِلصَّدَقَةِ ؟ »

قَالَ : « مَعِيَ دِرْهَمٌ »

قَالَ : « أَعْطِهِ الْأُخْرَسَ ، فَإِنَّهُ أَحَقُّ الثَّلَاثَةِ بِهِ . »

وَهَذِهِ قِصَّةٌ قَلَمًا يَتَّفِقُ مِثْلَهَا .

(١) أقهى الرجل : امتنع من الطعام . « الشارح » (٢) مرفى رسالة الشياطين حديث

عن العصا ، ومدح أبي العلاء لها ، وإيثارها على القائد (ص ٥٠٤) « الشارح »

المكفوفون

أَنَا مَكْفُوفُ الْعَيْنَيْنِ ، أَتَكَلَّمُ فِي مَكْفُوفِي اللَّسَانَيْنِ ، وَلَوْ وَجَدْتُ مُقْعَدًا
يَتَوَجَّهُ إِلَى « حَلَبَ » - حَرَسَهَا اللَّهُ - فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَحْمِلَ هَذِهِ الرَّسَالَةَ لِتَكُونَ
الْأَشْبَاهُ مُتَوَالِيَةً ، وَالْأَشْكَالُ مُتَتَالِيَةً ، فَيَكُونُ مِثْلَهَا مِثْلَ قَوْلِ طَرَفَةَ :

« تَذْكُرُونَ إِذْ تَقَاتِلُكُمْ لَا يَضُرُّ مُعْدِمًا عَدْمَهُ ^(١) »

وَقَوْلِ « الرَّبِيعِ بْنِ زِيَادٍ » :

« أَفْبَعْدَ مَقْتَلِ مَالِكِ بْنِ زُهَيْرٍ تَرْجُو النِّسَاءَ عَوَاقِبَ الْأَطْهَارِ ^(٢) »

وَقَوْلِ الشَّنْفَرِيِّ :

« أَرَى أُمَّ عَمْرٍو أَرْمَعَتْ ، فَاسْتَقَلَّتْ وَمَا وَدَّعَتْ جَارَاتِهَا ، إِذْ تَوَلَّتِ ^(٣) . »

أم بشار وأولادها

وَنَكُونُ كِبْشَارَ وَأَخْوِيهِ ، لِأَنَّ أُمَّهُ تَزَوَّجَتْ ثَلَاثَةً ، فَوَلَدَتْ مِنْهُمْ ثَلَاثَةً :
فَبَشَارٌ : أَكْمَهُ ، وَالْآخِرُ : أَصَمُّ ، وَالثَّلَاثُ : أَعْرَجُ !

أبناء الفأر

وَفِي الْفَأْرِ ثَلَاثَةٌ أَصْنَافٌ ، يُخْلِفْنَ ذَوَاتِ عَاهَاتٍ :
فَالْحُلْدُ : أَكْمَهُ . وَالزَّبَابَةُ : صَمَاءٌ ^(٤) . وَالْقَزْلَاءُ ^(٥) : فَأَرَةٌ تُخْلَقُ عَرَجَاءً .

(١) لأنه يسمي : مكفوفاً (٢) لأنه يسمي : مقعداً (٣) لأن الفراء يزعم

أن التاء حرف أخرس . (٤) قال الحارث بن حلزة :

« ولقد رأيت معاشرًا قد جمَّعوا مالاً وولداً

وهم زباب حائرٌ لا تسمع الأذان رعداً »

(٥) والقزل : العرج .

المكدون الثلاثة

وَيُرَوَّى أَنَّهُ كَانَ بِالْبَصْرَةِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ « سَعِيدٌ » مَكْفُوفٌ ، وَآخِرُ يُقَالُ لَهُ : « جَعْدٌ » أَخْرَسٌ ، فَكَانَا يَجْلِسَانِ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ مُتَعَرِّضِينَ لِلصَّدَقَةِ ، وَمَعَهُمَا رَجُلٌ مُقْعَدٌ .

فَكَانَ الْمَكْدُونُ يَقُولُونَ :

« غَلَبْنَا عَلَى الصَّدَقَةِ : « سَعِيدٌ » وَ « جَعِيدٌ » وَ « قُعِيدٌ ^(١) » !

(١) عرض المعرى لتصغير الترخيم في رسالة « الشياطين » (ص ٤٨٥)

ثم عرض لهذا الموضوع ، في هذا الموضوع من الرسالة ، فقال :

غلبنا على الصدقة سَعِيدٌ ، وَجَعِيدٌ ، وَقُعِيدٌ .

فَسَعِيدٌ ، تَرْخِيمٌ سَعِيدٍ فِي التَّصْغِيرِ ، وَإِذَا صَغُرَ — بغير تخريم — قيل : سَعِيدٌ .

وَقُعِيدٌ ، تَرْخِيمٌ مُقْعَدٌ — فِي التَّصْغِيرِ أَيْضًا — وَلَوْ صَغُرَ بغير تخريم أقيل : مُقْعِيدٌ .

وإنما جاز ذلك كما أخرج من حال الصفات إلى حال الأسماء ، لأن هذا الباب يكثر في

الأعلام ، ويقال في الصفات .

فيقولون :

« قُبَيْسٌ » فِي « قَابُوسَ » ، وَ « ثُبَيْتٌ » فِي « ثَابِتٌ » ، قَالَ الْأَعْشَى :

« أبا ثَابِتٍ : لَا تَعْلَمَنَّكَ رِمَاحُنَا أبا ثَابِتٍ ، واقعد ، فَإِنَّكَ طَاعِمٌ »

يعني بأبي ثبيت : يزيد بن مُسَهَّرِ الشيباني .

وقال ، وهو يعني هذا الرجل في الأخرى :

أبلغ يزيد بن شيبان مألكتة ، أبا ثبيت . أما تنفك تأتكل

وأبو قابوس : النعان بن المنذر ، يجعلونه في الشعر : أبا قبيس — على هذا النحو —

قال الشيباني :

اللغة الربعية

وَيُقَالُ عَلَى اللُّغَةِ الرَّبَعِيَّةِ :

خَرْسٌ ^(١) الرَّجُلُ ، وَلِلثَلَاثِينَ خَرْسًا ، وَلِلْجَمِيعِ : خَرْسُوا ، وَلِلْمَرْأَةِ :
خَرْسَتْ ، وَلِلْمَرَّاتَيْنِ : خَرْسَتَا ^(٢) .

وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ : « هُوَ أَخْرَسُ ، أَمْرَسُ » ^(٣) .

وَيُقَالُ لِلْحَجَرِ وَالْجَبَلِ : « أَخْرَسُ ، أَحْرَسُ » ^(٤) .

« وهل أحيا - هبئت - أبا قبيس عمود الملك ، والنعم الركام ؟ »
وأهل البصرة يجيزون ترخيم التصغير في الصفات ، وأهل الكوفة يابون ذلك إلا في
الأسماء الأعلام .

ومعنى ترخيم التصغير : أن الزوائد تحذف من مُكَبَّرِ الاسم .

فإذا قالوا : « رَجُلٌ مُسْتَحِثٌّ » :

جَازَ - على قول أهل البصرة - أن يُصَغَّرَ مُسْتَحِثٌّ - في الترخيم - فيقال :
« هذا رَجُلٌ حُثِّثٌ . »

فإذا سَمَّوْا رَجُلًا مُسْتَحِثًّا ، جَازَ أَنْ يُقَالَ فِي تَرْخِيمِ تَصْغِيرِهِ : « حُثِّثٌ » في المذهبين .

(١) (بسكون الراء) (٢) فإذا قالوا : خَرْسَنَ النِّسَاءَ ، لم يجيزوا إسكان الراء ، لأن

السين ساكنة ، ولا يجمع بين ساكنين في هذا الموضع .

وأُنشِدَ الْمُفَجَّعُ فِي التَّرْجُمَانِ :

« صاح الغراب بين من أحببته صمَّ الغراب وخرس ، ماذا ينثر ؟ »

وقال آخر :

« هبتا تعذلان في الراح ، هلا خرسنا قبل هبة للملام ! »

(٣) إنباع ، كما قالوا : « عطشان نطشان » و « حسن بسن » (٤) فأخرس ، لأنه

لا ينطق ؛ وأخرس ، أي : قد مرَّ عليه خرس من الدهر ، وهي برهة طويلة .

فضل الخرس

وَمِنْ فَضَائِلِ الْخَرَسِ ، إِجْمَاعُ الْأُمَّةِ عَلَى حَمْدِ الصَّمْتِ ^(١) ، حَتَّى قَالَ الْقَائِلُ :
« الصَّمْتُ حُكْمٌ ، وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ »
فَالْأَخْرَسُ قَدْ أَجْبَرَهُ اللَّهُ - تَعَالَى - عَلَى أَنْ يَتْرَكَ الْكَلَامَ ، فَقَدْ صَارَ
إِلَى مِثْلِ حَالِ الصَّمْتِ .

يقال : خَرَسَ ، وَأَخْرَسُ فِي الْجَمِيعِ .

وهذا البيت ينسب إلى امرئ القيس :

« لمن طلل دائر عهده تقادم في سالف الأخرس »

وقال آخر :

« وعلمَ أحرَسَ فوق عَنزٍ »

يعنى - بالعلم - حجارة تنصب يهتدى بها ، والعنز : الأكمة السوداء .

(١) مما قاله المعري في مدح الصمت ، وهو كثير :

« رأيت سكوتي متجراً ، فلزمته إذا لم يفد رجلاً ، فليست بخاسر »

ومما قاله العرب في مدحه - وهو أكثر من أن يحصيه مستقص - قول ابن دريد :

« وقالوا : الهوى يقظان ، والعقل نائم وذو القول مذكور ، وذو الصمت أسلم »

ورحم الله القائل :

« ما إن ندمت على سكوتي - مرة - ولقد ندمت على الكلام مراراً »

وأبا نواس القائل :

« مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام »

إنما العاقل من ألجم فاه بلجام « « الشارح »

وَإِذَا لَمْ تَفْقَهُمُ الْعَرَبُ كَلَامَ الْعَجَمِيِّ ، فَهُوَ - عِنْدَهُمْ - : « أَخْرَسُ » ،
قَالَ الْهَنْدَلِيُّ :

« يَمِشِي - يَمِينًا - حَانُوتُ خَمْرٍ مِنْ أَخْرَسِ الصَّرَاصِرَةِ الْقِطَاطِ (١) »

طلب العناية

وَإِذَا طُلِبَتِ الْعِنَايَةُ مِنْهُ ، فَتِلْكَ بِلَاغَةٌ تُلْتَمَسُ مِنْ « سَحْبَانَ » ، وَطَالَمَا
صَدَعَ بِالْقَوْلِ وَأَبَانَ .

وَبَعْضُ النَّاسِ ، إِذَا طُلِبَ نَفْعُهُ ، وَرُجِيَ - عِنْدَ الْمَلِكِ - شَفَعُهُ ، وَجِدَ
كَمَا قَالَ الْكَلْبِيُّ :

« مَا كُنْتُ إِذْ طُلِبْتُ يَدَايَ بِكَ الْغِنَى إِلَّا كَطَالِبِ خُطْبَةٍ مِنْ أَخْرَسِ »

مزرعة الخرس

وَهَذِهِ الْمَزْرَعَةُ الَّتِي يَتَكَلَّمُ فِيهَا هَوَاءُ الْقَوْمِ ، تُعْرَفُ « بَبَلُونَسَ » .
وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا الْإِسْمَ رُومِيٌّ ، وَمِنْ شَأْنِ الرُّومِ أَنْ يَرِيدُوا السَّيْنَ فِي
آخِرِ كَلَامِهِمْ ، حَتَّى قَالَ بَعْضُ الْعَرَبِ :

« إِنَّ السَّيْنَ - فِي الرُّومِيَّةِ - كَالْتَّنْوِينِ فِي الْعَرَبِيَّةِ ، إِلَّا أَنَّ السَّيْنَ أَقْوَى
وَأَشَدُّ ، فَإِذَا حُذِفَتِ السَّيْنُ مِنْ هَذَا الْإِسْمِ ، بَقِيَ : « بَلُونٌ » (٢) ، وَقَدْ بَلِيَ
هَوَاءُ الْقَوْمِ بِهِذِهِ الْخُرْبَةِ ، كَمَا بَلِيَ « ذُو الرِّمَّةِ » بِ« مِيَّةَ » . وَلَوْ حُمِلَتْ عَلَى

(١) قوله : « حانوت خمر » أى : صاحب حانوت خمر ، والقطاط : الجعاد الشعر ،
يقال : « رجل قَطَط ، وشعره قَطَط » . (٢) من : بلاه الله ، يبلوه ، إذا اختبره

العَرَبِيَّةِ ، لَوْجَبَ أَنْ يَكُونَ اسْتِقَافِيًّا مِنْ : « أَبْلَسَ ^(١) » ، فَإِذَا عَدَّاهَا مَعْنَى
الْيَأْسِ ، فَلَعَلَّهَا مِنَ الْبَلَّاسِ ^(٢) . فَإِنْ عَدَّاهَا ذَلِكَ فَهِيَ مِنَ الْبُلْسُنِ ^(٣) ، عَلَى
أَنْ تُجْعَلَ نُونُهُ زَائِدَةٌ - وَإِنَّهُ لَطَعَامٌ ضَارٌّ ، مَا هُوَ بِالْمُعْجَبِ وَلَا السَّارِّ .

*
* *

وَيُحْكَمُ عَلَى نُونِ « بَلَوْنَسَ » بِالزِّيَادَةِ ، إِذَا أُدْخِلَتْ فِي الْعَرَبِيَّةِ ، لِأَنَّ
مِثْلَهَا فَقَدَ فِي الْأَصُولِ ، كَمَا حُكِمَ عَلَى نُونِ : « كَنْهَبِلٍ » بِذَلِكَ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ
فِي الْكَلَامِ مِثْلُ « سَفَرَجُلٍ »

أصل الكلمة

وَمِنَ الْعَرَبِ مَنْ يَزِيدُ السِّينَ بَعْدَ كَافِ التَّائِيثِ ، فَيَقُولُ :
« ضَرَبْتُ كِسَ » فَإِنْ قَالَ الْأُسْتَاذُ : « إِنَّهَا مِنَ الْبَلْسِ - وَهُوَ التِّينُ -
فَإِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - لَا يُجْرِي عَلَى لِسَانِهِ إِلَّا مَا حَسُنَ ، إِذَا مِيلَ - عَنِ
الْجَمِيلِ - الْأَلْسُنِ .

وَإِنْ أُخِذَتْ مِنَ الْبَلْسِ ، فَتَا هُوَ بَطَائِلٌ وَلَا حَمِيدٌ ، وَلَا فِي الثَّمَرَةِ بِالْعَمِيدِ ؛
إِنْ فَقَدَ الشَّجَرَةَ - شَهْرًا - سَاسَ ^(٤) ، وَقَالَ لِلْمَلْتَمِسَةِ : « لَا مِسَاسَ » .
وَالْغَالِبُ عَلَى هَذِهِ الْمَتْرَعَةِ أَنَّهَا مِنْ « إِبْلِيسَ » وَإِنَّمَا هُوَ نِفَاقٌ وَشِقَاقٌ .
أَوِ الْبَلْسُ : وَإِنَّمَا هُوَ حُرْقَةٌ وَإِحْرَاقٌ . وَمَنْ يَنْتَفِعُ بِهَا ضَالُّ الْعَقْلِ ، وَزَمِنْ
لَا يَقْدِرُ عَلَى النُّقْلِ .

(١) أبلس ، إذا يئس (٢) وهي مُسُوْح خَشنة تكون بناحية المدينة ومكة

(قال الشارح : البلاس للمفرد ، والجمع : بُلْس)

(٣) وهو العَدَس (٤) وقع فيه السوس « الشارح »

مُقْعَدُ الْفِرَاحِ

فَلَيْتَهُ كَانَ كَمُقْعَدِ الْفِرَاحِ ، يَنْهَضُ وَلَوْ بَعْدَ تَرَاحٍ ، وَالْفِرَاحُ يُسَمَّى :
« مُقْعَدًا » ، أَوْ « قَعِيدًا » ، قَالَ « ذُو الرُّمَّةِ » :
« إِلَى مُقْعَدَاتٍ تَنْفُضُ الرِّيحَ - إِنْ جَرَتْ
عَلَيْهَا - حَصَادًا مِنْ يَبِيسِ الْفَلَافِلِ »

*
* *

وَأَمَّا قَوْلُ الرَّاجِزِ :

« أَبُو سُلَيْمَانَ وَرَيْشُ الْمُقْعَدِ ، وَضَالَةٌ مِثْلُ الْجَحِيمِ الْمُوقَدِ ^(١)
فَإِنَّهُ يُرْوَى بِفَتْحِ الرَّاءِ ، وَ « رَيْشٌ » بِكَسْرِهَا ^(٢) .

الشُدَى الْمُقْعَدِ

وَلَيْسَ مَنْ أَقْعَدَ مِنَ الرَّعِيَّةِ بِمَنْزِلَةِ مُقْعَدِ الشُّدَى ، يُوصَفُ مِنَ الْفِتَاةِ
الْهَدْيِيَّةِ ، كَمَا قَالَ النَّابِغَةُ :

« وَالْبَطْنُ ذُو عُكْنٍ خَمِيصٌ لِينٌ وَالنَّحْرُ تَنْفُجُهُ بِشُدَى مُقْعَدِ »

السَّنَامُ الْمُقْعَدِ

وَلَا كَالْمُقْعَدِ مِنَ السَّنَامِ ، إِذْ هُوَ - عَلَى الْكَلَامِ - نَامٌ ، كَمَا قَالَ :
« إِنَّا كَفِينَا رَحِيلَ الضَّيْفِ عَنْ سُحُطٍ ، بِمُقْعَدَاتٍ كَأَطْفَالِ الْأَحْيَاشِ »

(١) وَيُرْوَى : وَصِيغَةُ مِثْلِ الْجَحِيمِ الْمُوقَدِ « الشَّارِحُ » (٢) فَإِذَا رُوِيَ بِالْفَتْحِ ،

فَالْمُقْعَدُ : رَجُلٌ كَانَ يَهْرِي السَّهَامَ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

« إِنْ تَطَعْنُوا بِالزَّاعِيِّ ، فَعِنْدَنَا مِلٌّ الْكِنَانِ ، رَاشِهِنَّ لِلْمُقْعَدِ »

وَإِذَا رُوِيَ : « وَرَيْشٌ » - بِالْكَسْرِ - احْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْفِرَاحُ وَالرَّجُلُ جَمِيعًا .

وَهَذَا كَالْبَيْتِ الْمُنْسُوبِ إِلَى ابْنَةِ « لَبِيدِ بْنِ رَيْعَةَ » :
« بِمُدْفَأَةٍ كَانَتْ عَلَى ذُرَاهَا رَجَالًا - مِنْ بَنِي « حَامٍ » قُعودًا »
وَكُلُّ مَا وُصِفَ بِأَنَّهُ قَاعِدٌ ، فَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّهُ مُقْعَدٌ ، لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ :
« الْقَاضِي قَاعِدٌ لِلْحُكْمِ »
وَيُحْوِزُ أَنْ يُقَالَ : « مُقْعَدٌ » ، لِأَنَّ غَيْرَهُ أَقْعَدُهُ .

قَاعِدِ النَّخْلِ

وَكَذَلِكَ الْقَاعِدُ مِنَ النَّخْلِ الَّذِي لَهُ جُذُوعٌ ، يَحْتَمِلُ أَنْ يُقَالَ : « مُقْعَدٌ »
لِأَنَّ الَّذِي غَرَسَهُ يَحْوِزُ أَنْ يُقَالَ : « أَقْعَدَهُ » كَأَنَّهُ غَرَسَهُ .

الْأَضْدَادُ

وَذَكَرَ « التَّوَزِيءُ » - فِي الْأَضْدَادِ - : أَنَّهُ يُقَالَ : « قَعَدَ » فِي مَعْنَى : « قَامَ »
وَهَذَا لَا يَمْتَنِعُ فِي الْقِيَّاسِ ، إِلَّا أَنْ لَهُ أَصْلًا يَرْجِعُ إِلَيْهِ . وَلَا يُرَادُ بِهِ :
الْقِيَّامُ - عَلَى الْحَقِيقَةِ - وَلَكِنَّهُ مُسْتَعَارٌ ، كَمَا يُقَالَ : « قَدَ قَامَ الْأَمِيرُ
بِأَمْرِ الْبَلَدِ » .

لَيْسَ يُرِيدُونَ بِهِ إِلَّا النَّهْضَةَ ، لِأَنَّ التَّنْقَالَ مِنْ حَالِ الْجُلُوسِ إِلَى حَالِ الْقِيَّامِ .
فَأَمَّا قَوْلُ الشَّاعِرِ :

« قُلْتُ لِبَيْضَاءَ يَهُودِيَّةٍ :
أَلَا أَصْبَحِينَ قَهْوَةً تُرْعَدُ
كَرْمِيَّةً - لَيْسَتْ بِنَخْلِيَّةٍ -
صَهْبَاءَ ، مِمَّا حَلِبَ الْمُقْعَدُ »

فَقِيلَ : أَرَادَ بِالْمُقْعَدِ : « الدَّنَّ » ، وَقِيلَ : « أَرَادَ : عُنُقُودَ الْعِنَبِ ، إِذَا
ضَحَّمْ ، وَاعْتَمَدَ عَلَى الْأَرْضِ . »

*
* *

وَلَوْ كَانَ لِقَوْلِ الْأَعْشىٰ :

وَمُصَابُ غَادِيَةٍ كَانَ تِجَارَهَا نَشَرَتْ عَلَيْهِ بَزَّهَا وَرِحَالَهَا
مَا شَاءَ اللَّهُ - مِنَ الثَّمَرِ وَالْعَلَّةِ - لَمْ تَعْرِضْ لِأَخْذِهِ : « قِفَا نَبِكَ »
لِأَنَّهَا مِلْكَةٌ ، وَلِأَنَّهُ مُقْعَدٌ .

واجبات السلطان

وَالسُّلْطَانُ الْمُنْتَصِرُ الْمُؤَيَّدُ - خَلَدَ اللَّهُ مُلْكَهُ - تَجِبُ عَلَيْهِ أَنْوَاعُ
صَدَقَاتٍ ، وَهُوَ قَائِمٌ بِهَا - فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ - وَالْفُقَهَاءُ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ
مَا سَقَّتَهُ السَّمَاءُ ، فِيهِ الْعُشْرُ ، وَمَا سَقَى بِالسَّانِيَةِ^(١) فَفِيهِ نِصْفُ مَا سَقَى بِالسَّحَابِ .
وَلَمْ تَزَلِ السَّلَاطِينُ تَكْرَهُ أَنْ تَنْزِعَ الشَّيْءَ مِنْ أَيْدِي أَهْلِ الْمِحْنِ اللَّازِمَةِ
وَهُوَ لِأَنَّ الْجَمَاعَةَ يَسْأَلُونَ السُّلْطَانَ : أَنْ يَتَصَدَّقَ عَلَيْهِمْ مِنْ جَاهِهِ ،
وَيَقُولُونَ مَا قَالَ إِخْوَةٌ « يُوسُفَ » لِلْعَزِيزِ :

« أَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ، وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ، إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ » !

(١) السانية : الغرب مع أدواته (أى : اللو العظيمة) ، والناقعة يُسْتَقَى عليها
من البئر ، يقال : « أذل من السانية » ومنه المثل : « سير السوانى سفر لا ينقطع » .

بين المعري والمغربي

أبو القاسم المغربي

قلما اجتمع لأحد من أولى الأمر — في زمن المعري — مثل ما اجتمع للوزير أبي القاسم من خصوم وأنصار ، وأصفياء وحساد ، فقد اختلف معاصروه فيه أيما اختلاف (١) ، ولقى من صنوف المدح والهجاء ، مقدار ما لقي من ألوان الشدة والرخاء .
ولقد نشأ الوزير أبو القاسم من أسرة تالدة المجد (٢) ، باذخة السلطان ، أنجبت صفوة

(١) وصفه أحد المؤرخين فقال : « كان مولوا حقودا ، لا تلين كبده ، ولا تنحل عقده ، ولا يجنى عوده ، ولا ترجى وعوده ، وله رأى يزين له العقوق ، ويبغض إليه رعاية الحقوق ، كأنه — من كبره — قد ركب الفلك ، واستولى على ذات الحبيك » . يعني السماء ذات النجوم . وقد وصفه ابن الفارح فقال : « وكان أبو القاسم مولوا ، والمول ربما مل الملل ، وكان لا يعل أن يعل ، ويحقد حقد من لا تلين كبده ، ولا تنحل عقده الخ » إلى أن يقول : « وبغضى له — شهد الله — حيا وميتا أوجه أخذ محارب الكعبة : الذهب والفضة ، وضربها دنانير ودرام ، وسماها : الكعبية ، وأتهب العرب الرملة ، وضرب بغداد ، وكم دم سفك ، وحريم انتهك ، وحررة أرمل ، وصبي أيم الخ » مما يراه القارئ في رسالة ابن الفارح المنشورة في الجزء الأول من هذا الكتاب . وقد اتهمه بعض معاصريه بأنه كان ينسب في الأزد ويتعصب بقحطان على عدنان وللانصار على قريش ، قالوا : « وكان غالبا في ذلك مع تشيعة » ونسبوا إليه أحيانا تبرأ منها وجدها ، وكانت تلك الأبيات سبباً في تفور « القادر » منه . فكأنما بلاه الله — كما يلي صفيه أبا العلاء — بالدساسين والمتخرفين . وقد رماه القدر العاتي — وهو في مصر — بمنافسه الوزير النصراني منصور بن عبدون ، قالوا : « وكان نصرانيا خميثا ، وبينه وبين أبي القاسم ووالده عداوة قديمة — لأن أبا القاسم صرف به عن ديوان السواد ، فواصل أبو القاسم الواقعة فيه ، وكان منصور هذا يعتمد فيهم مثل ذلك ، إذ كان الناظر في الدواوين بمصر ، حتى تقدم الحاكم إلى السيف أن يقتل أبا الحسن (والد أبي القاسم) ومحمد بن المغربي ، ففعل الخ » وكان ذلك في سنة ٤٠٠ هـ .

(٢) قال المقرئ :

« استقدم العزيز ابن المغربي إلى مصر ، ولم يزل بها حتى مات العزيز بالله .
وقام من بعده الحاكم بأمر الله أبو علي منصور .
فكان هو وولده أبو القاسم حسين من جلسائه .
فلما شرع الحاكم بأمر الله في قتل رجال الدولة من القواد والكتاب والقضاة .
قبض على عليّ ومحمد ابني المغربي وقتلهما ، ففر منه أبو القاسم حسين بن علي بن المغربي إلى حسان بن مفرج ابن الجراح ، فأجاره ، وقلد الحاكم « يا رجكتين » الشام .
نخافه ابن الجراح لكثرة عساكره .

من سرارة الأعيان والوزراء ، وقد استقدم أباه « العزيز بالله » إلى مصر ، ولم يزل بها حتى

فحسن له ابن المغربي مهاجته .

فطرق « يارجتكين » في مسيره — على غفلة — وأسره .

وعاد إلى الرملة ، فشن الغارات على رساتيقها ، وخرج العسكر الذي بالرملة ، فقاتل العرب قتالاً شديداً وكادت العرب أن تنهزم ، لولا أن ثبته ابن المغربي ، وأشار عليهم باشهار النداء باباحة النهب والغنيمة ، فثبتوا ونادوا في الناس ، فاجتمع لهم خلق كثير ، وزحفوا إلى الرملة فملكوها .

وبالغوا في النهب والهتك والقتل ، فانزعج الحاكم انزعاجاً عظيماً ، وكتب إلى مفرج بن جراح يحذره سوء العاقبة ، ويلزمه باطلاق « يارجتكين » من يد « حسان » ابنه ، وإرساله إلى القاهرة . ووعده على ذلك بخمسين ألف دينار .

فبادر ابن المغربي لما بلغه ذلك إلى حسان ، وما زال يغيره بقتل يارجتكين حتى أحضره وضرب عنقه .

فشق ذلك على مفرج ، وعلم أنه فسد ما بينهم وبين الحاكم .

فأخذ ابن المغربي يحسن لمفرج خلع طاعة الحاكم والدعاء لغيره ، إلى أن استجاب له .

فراسل أبا الفتوح الحسن بن جعفر العالوي أمير مكة يدعوه إلى الخلافة ، وسهل له الأمر ، وسير إليه بابن المغربي يحثه على السير .

وجراه على أخذ مال تركه بعض الياشير ، ونزع الحاربي الذهب والفضة المنصوبة على الكعبة ، وضربها دنانير ودرهم ، وسماها الكعبية .

✽

✽ ✽

وخرج ابن المغربي من مكة ، فدعا العرب — من سليم ، وهلال ، وعوف بن عامر — ثم سار به وعين اجتمع عليه من العرب حتى نزل الرملة .

فتلقاه بنو الجراح ، وقبلوا له الأرض ، وسلموا عليه بإيمرة المؤمنين .

ونادى — في الناس — بالأمان ، وصلى بالناس الجمعة .

فامتعض الحاكم لذلك .

وأخذ في استمالة حسان ومفرج وغيرها ، وبذل لهم الأموال ، فتنكروا على أبي الفتوح .

وقلده أيضاً مكة بعض بنى عم أبي الفتوح ، فضعف أمره .

وأحسن من « حسان » بالقدر ، فرجع إلى مكة ، وكان الحاكم واعتذر إليه ، فقبل عذره .

✽

✽ ✽

أما ابن المغربي ، فانه لما انحل أمر أبي الفتوح ، ورأى ميل بنى الجراح إلى الحاكم ، كتب إليه :

وأنت — وحسي أنت — تعلم أن لى لساناً أمام المجد ، بيني ويهدم

وليس حلياً من تباس يمينه فيرضى ، ولكن من تعض فيحلم

فسير إليه أماناً بخطه .

مات العزيز ، وقام من بعده الحاكم بأمر الله ، فكان أبو القاسم ووالده من جلساء الحاكم وأصفيائه .

وكان أبو القاسم شديد الطموح ، بعيد الهمة ، كما ثما عنه المتنبي بقوله :

« أريد - من زمني ذا - أن يبلغني ما ليس يبلغه من نفسه الزمن »

وقد مر بالقارىء قوله لابن القارح (١) :

« ما نرضى بالتحول الذى نحن فيه » .

وتوجه ابن المغربي - قبل وصول أمان الحاكم إليه - إلى بغداد .
وبلغ القادر بالله خبره ، فأنهه بأنه قدم في فساد الدولة العباسية .
فخرج إلى واسط ، واستعطف القادر فعطف عليه . وعاد إلى بغداد .
ثم مضى إلى قرواش بن المقلد - أمير العرب - وسار معه إلى الموصل ، فأقام بها مدة .
وخافه وزير قرواش فأخرجه إلى ديار بكر ، فأقام عند أميرها نصير الدولة أبي نصر أحمد بن مروان الكردى وأقام هناك مدة طويلة في أعلى حال وأجل رتبة وأعظم منزلة ، ثم كوتب بالسير إلى الموصل ليستوزره صاحبها ، فسار عن ميفارقين وديار بكر إلى الموصل ، فتقلد وزارتها وتردد إلى بغداد في الوساطة بين صاحب الموصل وبين السلطان أبي على ابن سلطان الدولة أبي شجاع بن بهاء الدولة بن بويه .
واجتمع برؤساء الديلم والأتراك ، وتحدث في وزارة الحضرة ، حتى تقلدها بغير خلع ولا لقب ولا مفارقة الدراعة في شهر رمضان سنة خمس عشرة وأربعمائة .
فأقام شهوراً ، وأغرى رجال الدولة بعضهم ببعض ، وكانت أمور طويلة آلت إلى خروجه - من الحضرة - إلى قرواش .

قال المقرئى :

« فتجدد للقادر بالله فيه سوء ظن ، بسبب ما أثاره من الفتنة العظيمة بالكوفة ، حتى ذهبت فيها عدة نفوس وأموال .

ففر إلى أبي نصر بن مروان ، فأكرمه وأقطعته ضياعاً ، وأقام عنده ، فكوتب من بغداد بالعود إليها .
فبرز عن ميفارقين يريد السير إلى بغداد ، فسم هناك .
وعاد إلى المدينة فأت بها لأيام خلت من شهر رمضان سنة ثمان عشرة وأربعمائة .
ومولده بمصر ليلة الثالث عشر من ذى الحجة سنة سبعين وثلثمائة .

(١) ارجع إلى رسالة ابن القارح المنشورة في الجزء الأول من هذا الكتاب . وقد وصف أبا القاسم بعض المؤرخين فقال : « كان أبو القاسم أسمر شديد السمرة ، عالماً ، بليغاً ، مترسلاً ، متفتناً في كثير من العلوم الدينية والأدبية والنحوية » . قال : « وكان مشاراً إليه في قوة الذكاء والفطنة ، وسرعة الخاطر والبدئية ، عظيم القدر ، صاحب سياسة وتديير ، وحيل كثيرة ، وأمور عظام . دوخ الممالك ، وقلب الدول . وسمع الحديث ، وروى ، وصنف عدة تصانيف » .

فقال له ابن القارح : « وأى خمول هنا ؟ تأخذون من مولانا - خلد الله ملكه - في كل سنة ستة آلاف دينار ، وأبوك من شيوخ الدولة ، وهو معظم مكرم » .

فقال أبو القاسم : « أريد أن تصار إلى أبوابنا الكتائب والمقانب ، ولا أرضى بأن يُجرى علينا ، كالولدان والنسوان ! » .

فلما أعاد ابن القارح كلام أبي القاسم على أبيه ، ارتاع وقبض على لحيته وهامته من الذعر ، لجرأة ولده ، وقال :

« ما أخوفنى أن يخضب أبو القاسم هذه من هذه » .

وقد صحح تكهّن أبيه ، إذ كان في طموح أبي القاسم مصرع أبيه وعمه وأخويه وتشتيت أسرته . وهنا نترك القول للمؤرخ البارع الثقة ، ابن خلكان ، ليم لنا قصة هذا الوزير الخطير ، قال :

« وكان الوزير من الدهاة العارفين .

ولما قتل الحاكم - صاحب مصر - أباه وعمه وأخويه ^(١) ، وهرب الوزير ، وصل إلى الرملة ، واجتمع بصاحبها المتغلب عليها حسان بن مفرج وبنيه وبنى عمه ، وأفسد نياتهم على الحاكم - صاحب مصر المذكور - ثم توجه إلى الحجاز ، وأطعم صاحب مكة في الحاكم ، ومملكة الديار المصرية .

وعمل - في ذلك - عملاً ، قلق الحاكم - بسببه - وخاف على ملكه - (وقصته في ذلك طويلة) - إلى أن أرضى الحاكم بنى الجراح ، ببذل الأموال لهم . واستألم إليه .

وكان صاحب « مكة » ، وهو : أبو الفتوح الحسن بن جعفر العلوى ، قد استدعوه ، ووصل إليهم ، وبايعوه بالخلافة ، ولقبوه بالرشيد - بتدبير أبي القاسم المذكور - فلم يزل الحاكم يعمل الحيل حتى استمال بنى الجراح إليه ، وانتقض أمر أبى الفتوح ، وهرب إلى مكة .

وقصد الوزير « أبو القاسم » العراق - هارباً من الحاكم ، ومفارقاً لبنى الجراح - وقصد فخر الملك : أبا غالب بن خلف الوزير .

*
* *

ورفع خبره إلى الإمام : القادر بالله ، فاتهمه بأنه ورد لإفساد الدولة العباسية .

(١) فعل ذلك في الثالث من ذى القعدة سنة أربعائة .

وراسل « فخر الملك » في إبعاده ، فاعتذر عنه فخر الملك ، وقام في أمره .
واتفق انحدار « فخر الملك » من بغداد إلى واسط ، فأخذ أبا القاسم - في جملته - وأقام
معه بواسط ، على جملة من الرعاية ، إلى أن توفي فخر الملك مقتولاً .
وشرع الوزير : « أبو القاسم » في استعطاف قلب الإمام : « القادر بالله » والتنصل
مما نبذ به ، حتى صلح له بعض الصلاح .
وعاد إلى بغداد ، وأقام قليلاً ، ثم أصدع إلى الموصل .

*
* *

واتفق موت أبي الحسن بن أبي الوزير ، كاتب معتمد الدولة « أبي المنيع قرواش » :
أمير بني عقيل ، فتقلد كتابته موضعه .
ثم شرع « أبو القاسم » يسعى في وزارة الملك : « مشرف الدولة البويهى » ولم يزل
يعمل السعى ، إلى أن قبض على الوزير : مؤيد الملك أبي علي .
فكوتب الوزير : « أبو القاسم » بالحضور من الموصل إلى الحضرة ، وقد الوزارة
من غير خلع ، ولا لقب . وأقام كذلك حتى جرى من الأحوال ما أوجب مفارقة
« مشرف الدولة » بغداد .

فخرج معه منها ، وقصداً أبا سنان غريب بن محمد بن مقن ، ونزلاً عليه .
وبينا هو على ذلك ، إذ عرض له إشفاق من مخدمه : « مشرف الدولة » دعاه
إلى مفارقتة .

*
* *

فانتقل بعد ذلك إلى أبي المنيع : « قرواش » - بالموصل - وأقام عنده .
ثم تجدد من سوء رأى الإمام القادر فيه ، ما ألجأته الضرورة - بسبب ما كوتب به
قرواش - إلى مفارقتة ، والإبعاد عنه .

*
* *

وقصد أبا نصر بن مروان ، بميافارقين ، وأقام عنده - على سبيل الضيافة -
إلى أن توفي .

وقيل : إنه لما توجه إلى ديار بكر ، وزر لسلطانها : أحمد بن مروان — المقدم ذكره — وأقام عنده إلى أن توفي في ثالث عشر شهر رمضان سنة ثمانى عشرة وأربعمائة .

*
* *

وكانت وفاته بميسافارقين ، وحمل إلى الكوفة بوصية منه .
وله — فى ذلك — حديث يطول شرحه ، ودفن بها فى تربة مجاورة لشهد الإمام على بن أبى طالب .

رسائل « أبى القاسم »

لم نظفر من رسائل المعرى لأبى القاسم إلا برسالتين طويلتين ، ورقة موجزة ، ولم نظفر من رسائل أبى القاسم إلى المعرى إلا برسالة واحدة يراها القارىء فى ختام هذا الفصل .
وقد عرفنا من رسائله أن الوزير أبى القاسم قد صحب المعرى زمناً حين كان الوزير مع أبيه فى حلب (وهى قريبة من المعرة) وأنه قد سحر بيدان المعرى ، كما فتن المعرى بالمعيتة .
حتى إذا وصل أبو القاسم إلى مصر بعث إلى صفيه المعرى بأشواقه ، وأهدى إليه باكورة تواليفه ، وهو : « مختصر إصلاح المنطق ^(١) » .

والرسائل التى دارت بين الصديقين تمثل الحب والإكبار ، وتدل على الوفاء والصفاء ، وقد

(١) وقد وجد بخط والد الوزير المعرى — على ظهر مختصر إصلاح المنطق الذى اختصره ولده الوزير ما مثاله :

« ولد — سلمه الله ، وبلغه مبالغ الصالحين — فى أول وقت طلوع الفجر من ليلة صباحها يوم الأحد ، الثالث عشر من ذى الحجة سنة سبعين وثلثمائة ، واستظهر القرآن وعدة من الكتب الجردة فى النحو واللغة ، ونحو خمسة عشر ألف بيت من مختار الشعر القديم ، ونظم الشعر ، وتصرف فى النثر ، وبلغ من الخط إلى ما يقصر عنه نظراؤه — من حساب المولد والجبر والمقابلة — إلى ما يستقل بدونه الكاتب ، وذلك كله قبل استكمال أربع عشرة سنة .

واختصر هذا الكتاب ، فنتاهى فى اختصاره ، وأوفى على جميع فوائده ، حتى لم يفته شىء من ألفاظه .
وغير من أبوابه — ما أوجب التدبير تغييره ، للحاجة إلى الاختصار ، وجمع كل نوع إلى ما يليق به .
ثم ذكرت له نظمه — بعد اختصاره — فابتدأ به ، وعمل منه عدة أوراق فى ليلة — وكان جميع ذلك قبل استكمال سبع عشرة سنة ، وأرغب إلى الله فى بقاءه ، ودوام سلامته . »

دافع المعري عن صديقه بعد مماته في رسالته إلى ابن القارح^(١)، دافع الصديق الحبيب . فقال :
« وأما صديقه الذي جُدب عند السَّبْرِ^(٢) ، فهو يعرف المثل : « أعرِضْ عن ذى قبر » .
إذا حَجَزَ - دون الشخص - تراب ، فقد تقصّت الآراب . مَنْ لِمَ في حياته ، استحق
المعذرة في مماته .

واعله نطق - بما نطق - في معنى انبساط ، ولا هو بالكلم ساطٍ ، ومن غفر ذنب حيٍّ
وهو يُلْحِقُ به الأذاة ، فكيف لا يغفر له - بعد الميتة - وقد عَدِمَ منه الشداة ؟
وسلام على رمس من مخالس ، يُعدّل بألف تسليمه في الجالس ، وهو يعرف ما قالوه
في معنى البيت : « وآتى صاحبي حيث ودّعا » أى : أزور قبره .
وقال :

« والمثل السائر : « على أهلها تجنى براقش » .

وذكر الصوّلى : أنه دخل على المتقى - بعد ما قتلَ بنو حمدانَ مُحَمَّدَ بن رائق -
فسأله عن أبيات نَهْشَل بن حَرِيّ :

ومَوَلَّى عصاني ، واستبد برأيه كما لم يطع - بالبقّتين - قصير
فلما رأى ما غِيبَ أمرى وأمره وناءت - بأعجاز الأمور - صدور
تمّى - نَيْشاً^(٣) - أن يكون أطاعنى ، وقد حدثت - بعد الأمور - أمور
وقال :

« وما زال الشبان - المحسون من أنفسهم بالنهضة - يبغون ما شرف من المراهص^(٤) ،
وكيف بالسلامة من الواهص^(٥) ، والمثل السائر : رأى الشيخ خير من مشهد الغلام .

(١) سجل المعري هذه الآراء في رسالة الغفران عام ٤٢٤ أى بعد وفاة الوزير أبى القاسم بست سنوات تقريبا .

(٢) جذب عند السبر ، أى : « عيب عند الاختبار » .

(٣) قال المعري : « يقال : « فعل كذا نَيْشاً » أى بعد ما فات ، قال الشاعر :

إنك يا قطين - ولست منهم - لألأم مالك عقباً وريشاً

تئات منكم « عدس بن زيد » فلم تعرفكم إلا نَيْشاً »

(٤) المراهص : المنازل والمراتب ، (جمع مرهصة) يقال : « كيف مرهصة فلان عند الملك ؟ » وقيل :

المراهص : المراتب ، ولم يسمع واحدا (٥) القاصم

وربما سار الطالب سورة ، فواجهت من القدر زورة ، إن الغفّة^(١) من العيش ، لتغنى
الجتهد عن البرى والریش ، ولكن لا موئل من القضاء المحتوم ، وآه من عمرٍ - بالتلف -
مختوم :

« وَسُورَةٌ عَلِمَ لَمْ تُسَدِّدْ ، فَأَصْبَحَتْ وَمَا يُتَمَارَى أَنَّهَا سُورَةٌ الْجَهْلِ »
وذكر أبو العلاء صديقه ابن القارح بفضل والد الوزير أبي القاسم عليه ، وعلى الأدب
والأدباء ، فقال :

« وأما انخيازه إلى أبي الحسن^(٢) - رحمه الله - فقد كان ذلك الرجل سيداً ، ولمن
ضعف - من أهل الأدب - مؤيداً ، ولمن قوى منهم واداً ، ودونه - للتوب - مُحَادًا ،
وكان كما قال القائل :

« وَإِذَا رَأَيْتَ صَدِيقَهُ وَشَقِيقَهُ لَمْ تَدْرَ : أَيُّهُمَا ذُوو الْأَرْحَامِ ؟ »
وكما قال الطائي :

« كُلُّ شَعْبٍ كُنْتُمْ بِهِ آلٌ وَهَبِ : فَهُوَ شِعْبِي ، وَشِعْبُ كُلِّ أَدِيبٍ »
* * *

ولقد غمر المعرى صديقه أبا القاسم بسيل من الجمالة والتودد والإعجاب في رسائله ،
ولكنه سجل رأيه فيه بين ثنايا هذه المظاهرات البلاغية الصاخبة . فقال - في رسالته
الإغريضية - إنه : « يجمع بين اللفظ القليل ، والمعنى الجليل ، جمع الأفعوان - في لعبه -
بين القلّة ، وفقد البيلة ! »

فلما مات أبو القاسم أبدع المعرى في رثائه حين بلغه نعيه ، ولم يرث في لزومياته غيره .
فقال :

لَيْسَ يَبْقَى الصَّرْبُ الطَّوِيلُ - عَلَى الدَّهْرِ - وَلَا ذُو الْعِبَالَةِ الدَّرْحِيَّةِ^(٣)
يَا أبا الْقَاسِمِ الْوَزِيرَ تَرَحَّلْتَ ، وَخَلَفْتَنِي نِفَالِ^(٤) رَحَايَةِ

(١) البلغة من العيش ، قال الشاعر : « وغفة من قوام العيش تكفيني » (٢) يعنى انخياز ابن القارح
إلى الوزير أبي الحسن والد الوزير أبي القاسم المغربي . (٣) يقول : ليس يبقى على حدثنان الدهر الندب
الحنيف ، ولا الغليظ القصير . وقد كان أبو القاسم - على سمرته الشديدة - ندبا ، بساطا في الجسم .
(٤) الجلدة التي توضع أسفل الرحى

وَتَرَكْتَ الْكُتُبَ الثَّمِينَةَ لِلنَّاسِ ، وَمَا رُحْتَ عَنْهُمْ بِسَحَابِهِ (١)
 لَيْتَنِي كُنْتُ - قَبْلَ أَنْ تَشْرَبَ الْمَوْءُوتَ أَصِيلاً - شَرِبْتُهُ بِضَحَائِهِ
 إِنْ نَحَتِكَ الْمُنُونُ - قَبْلُ - فَإِنِّي مُنْتَحَاهَا ، وَإِنِّي مُنْتَحَايَهُ
 أَمْ دَفِرٌ (٢) تَقُولُ - بَعْدَكَ - لِلذَّا قِ : « لَا طَعَمَ لِي ، فَإِنَّ فَحَايَهُ ؟ » (٣)

إِنْ يَخُطَّ الذَّنْبَ الْيَسِيرَ حَنِيفًا كَ ، فَكَمَ مِنْ فَضِيلَةٍ مَحَايَهُ (٤)

شعر أبي القاسم

وإلى القارىء أمثلة من شعر أبي القاسم المغربي :

- (١) أقول لها ، والعيس تحدج للسرى : أَعْدَى - لِقْدَى - ما استطعت من الصبر
 سأنفق ريعان الشبيبة آنفأ ، على طلب العلياء ، أو طلب الأجر
 أليس من الخسران أن ليالياً تمر - بلا نفع - وتُحَسَّب من عمرى ؟
 (٢) إني أبشك من حديثي ، والحديث له شجون :
 غَيَّرْتُ مَوْضِعَ مَرْقَدِي لِيلاً ، ففارقني السكون
 قل لي : « فَأَوْلُ لَيْلَةٍ - فِي الْقَبْرِ - كَيْفَ تُرَى أكون ؟ »
 (٣) أرى الناس - في الدنيا - كراع تنكرت مراعيه ، حتى ليس فيهن مرتع
 فإني بلا مرعى ، ومرعى بغير ما ، وحيث ترى ماء ومرعى ، فمَسْبَعُ
 (٤) وأوصى أن يكتب على قبره :

كنت - في سفرة الغواية والجهل - مقياً ، فإني متى قدوم
 تبت من كل مأثم ، فعسى يمحى - بهذا الحديث - ذاك القديم
 بعد خمس وأربعين لقد ما طلت ، إلا أن الغريم كريم

(١) لم تظفر منها بالقمصر بله اللباب (٢) كنية الدنيا (٣) يقول : إن الدنيا لا طعم لها إذا خلت من
 أبي القاسم ، فإنه لها كالتواويل للطعام ، إذا خلا منها فقد طعمه . (٤) يشير بهذا البيت إلى قول أبي القاسم :
 « تبت من كل مأثم ، فعسى يمحى - بهذا الحديث - ذاك القديم »

رسالة أبي القاسم

[عرضنا على القارىء نماذج من شعر أبي القاسم المغربي الرائع ، فالآن نعرض عليه نموذجاً من نثره ، وهو رسالته التي بعث بها إلى المعري وأخيه ، وجمع فيها بين منشوره ومنظومه ، فقال] :

هَذِهِ — أَطَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِسَيْدِي الشَّيْخَيْنِ ، فِي سُبُوغِ النِّعْمَةِ الْبَقَاءِ ، وَأَدَامَ
لَهُمَا فِي ذِرْوَةِ الْمَجْدِ الْإِرْتِقَاءَ ، وَجَعَلَ لَهُمَا مِنْ كُلِّ سُوءِ الْفِدَاءِ وَالْوَقَاءِ — نَفْثَةً
مَصْدُورٍ ، وَضَجْرَةً مَأْسُورٍ ، بَعَثَهُمَا صَبَابَةٌ هَوَى ، تَذَكِيهِمَا نَارُ الْغَرَامِ فِي
صَبَابَةِ لِقَاءِ :

« بَقِيَّةٌ شِلْوٍ كَسَّرَ الْبَيْنَ عَظْمَهُ ، وَمَزَّقَ جِلْدًا ، كَانَ يَسْتُرُ مَا بَقِيَ
أَقَامَ ، فَلَا تِلْكَ الْخَوَافِي تُطِيعُهُ مُهُوضًا ، وَلَا تِلْكَ الْقَوَادِمُ تَرْتَقِي »
وَلَا بُدَّ لِلْمَصْدُورِ أَنْ يَنْفُثَ ، وَلَا غَرَوْ لِلْمَأْسُورِ أَنْ يَتَلَهَّثَ .
وَجَمَلَتْهَا أَنْبِي كَتَبَتْ ، وَمَالِي جَارِحَةٌ ، إِلَّا وَهِيَ جَرِيحَةٌ حُبِّهَا ؛ وَلَا جَانِحَةٌ ،
إِلَّا وَهِيَ جَانِحَةٌ إِلَى قُرْبِهِمَا ، وَلَا قَلْبٌ إِلَّا وَهُوَ — كَيْفَمَا تَرَدَّدَ وَتَقَلَّبَ —
فِي مَرْضَاتِهِمَا ، وَلَا نَفْسٌ إِلَّا وَهُوَ — كَيْفَمَا تَصَعَّدَ وَتَصَوَّبَ — فِي مَوَالِيهِمَا .

*
**

فَاللَّهُ يَحْرُسُ عَلَيَّ ، مُوقِدِي جَزَلِ الْغَضَى بَيْنَ جَنِيٍّ ، وَمُوفِدِي جَيْشِ
الصَّبَابَةِ — كُلَّ يَوْمٍ — إِلَيَّ ، الَّذِينَ إِنْ قَابَلْتُ بِهِمَا الْمُرُوءَةَ ، طَلَعَ
سَعْدُهَا ؛ أَوْ وَاجَهْتُ بِهِمَا الْفُتُوَّةَ ، أَسْفَرَ مُرْبِدُهَا ، وَسَرَّ مُكْمِدُهَا :
« أَرَدُّدُ فِيهِمَا فِكْرًا فَتَرَجِعُ — حُسْرًا — فِكْرِي
كَذَلِكَ الشَّمْسُ تَذْنِي الْعَيْنَ ، مُعْشَاةً عَنِ النَّظَرِ »

فَإِذَا هَاجَتْ بِلَابِلِي ذِكْرَاهُمَا ، وَاشْتَقْتُ أَنْ أَرَاهُمَا ، وَلَمْ أَجِدْ عِوَضًا
عَنْ سِوَاهُمَا :

« أَرُومٌ - بِالذِّكْرِ - شِفَاءَ الَّذِي يُقْلِقُنِي مِنْ لَوْعَةِ الذِّكْرِ
وَلَسْتُ بِالْحَاصِلِ إِلَّا عَلَى إِطْفَاءِ جَمْرٍ ، بِلَطَى جَمْرٍ
وَعَلَّةُ الْكُونِ - إِذَا طُولَتْ بِالْجُرَى فِي الْإِفْسَادِ - لَمْ تَجْرِ »

مَثَلْتُ نَفْسِي لَدَيْهِمَا ، وَقَرَّرْتُ مَكَانِي بَيْنَ أَيْدِيهِمَا :

وَخَلَوْتُ أَجْتَلِبُ الرِّقَادَ ، لَعَلَّنِي فَأَنْجَابَ لِي - مِنْ لَيْلَتِي - فُجْرَاهُمَا
وَإِذَا سُمِّتُ : « بَيْنَ تَهِيمِ صَبَابَةٍ ؟ » قُلْتُ : « اللَّذَانِ هُمَا ، اللَّذَانِ هُمَا ! »

الْمُوفِيَانِ بَعْهَدِي بِالْغَيْبِ ، وَالسَّاتِرَانِ - لِمَا فِي - مِنْ عَيْبِ الْمُحْسِنَانِ بِي
إِذَا أَسَأْتُ ، وَالْمُصِيبَانِ - فِي أَمْرِي - إِذَا أَخْطَأْتُ :

« دَلِيلَايَ - إِنْ جَارَ بِي مُهْتَدٍ وَعَوَّنَايَ ، إِنْ خَذَلَ النَّاصِرُ
وَلَوْلَا تَرَدُّدُ فِكْرِيهِمَا لَمَا كَانَ لِي - فِي الدُّجَى - سَامِرٌ »

مَنْ أَجْتَلِي غُرَّرَ مُحَاسِنِيهِمَا ، مِنْ جِبَهَاتِ الدَّهْرِ ؛ وَاقْتَبَسُ بِهِجَتِيهِمَا ؛ مِنْ
صَفَحَاتِ الْعَصْرِ ؛ وَأَطَالِعُ طَلَعَتِيهِمَا ، مِنْ مِرَاةِ التَّخْيِيلِ ؛ وَأَشَاهِدُ سَمْتِيهِمَا ،
بِعَيْنِ التَّذَكُّرِ وَالسَّأْمَلِ . وَلَا غَرَوَ إِنْ قَرَّبَ الْوُدُّ ، إِذَا بَعُدَ الْعَهْدُ ؛ وَلَا ضَيْرَ إِنْ
تَنَاءَتِ الْأَشْبَاحُ ، إِذَا تَدَانَتْ الْأَرْوَاحُ :

« وَ لَكِنْ إِذَا حَاسَبْتُ نَفْسِي ، تَأَمَّلْتُ ، فَلَمْ تَرَ إِلَّا فِكْرَةً قَلَّمَا تُجْدِي
فَلَا الْقَلْبُ يُلْقِي غَيْرَ مَا كَانَ مِنْ أَسَى وَلَا الْعَيْنُ تَرَعَى غَيْرَ مَا كَانَ مِنْ وَجْدٍ »

وَإِنِّي لَجَافِي الْبُعْدِ ، وَالْبُعْدُ قَاتِلِي
فَوَا أَسْفَا ، مَنْ ذَا الْوَمِّ عَلَى النَّوَى ؟
وَكَمْ قَدْ أَقَلْتُ الدَّهْرَ مِنْ خَطَايِي ،
فَنَفَّتَ مِنْ كَرْبٍ ، وَفَرَّجَ مِنْ أَسَى ،
وَهَيْهَاتَ ! هُوَ الَّذِي يَسُوهُ بَادِرًا ، وَيَسُرُّ نَادِرًا ؛ وَيُحْسِنُ مُبْتَدِيًا ،
وَيَسُوهُ آخِرًا :

« وَيَجُودُ ، ثُمَّ يُحِيدُ أَخَذَ صِلَاتِهِ
وَإِلَى الزَّمَانِ أَذْمُ مَا أَلْقَاهُ - مِنْ
وَإِذَا شَكَّوتُ إِلَيْهِ سُوءَ صَنِيعِهِ
فَعَسَاهُ أَنْ يَسْمَحَ بِاجْتِمَاعِ ، لَا يَنْفُضُهُ ارْتِدَاعُ ؛ وَتَلَاقٍ ، لَا يَكْدِرُهُ
افْتِرَاقُ . وَلَوْ لَا مَا أَرْجُوهُ مِنْ عَوْدِهِ إِلَى مَا عَوَّدَ ، مِنْ جَمْعِ الْفَرِيقَيْنِ ،
وَلَمْ ذَاتِ الْبَيْنِ ؛ لَمِتُ كَمَدًّا ، وَلَمْ أَطُقْ - عَلَى مَا أَقَاسِيهِ - جَلْدًا .

قَامًا حَالِي وَمَا أَنَا عَلَيْهِ ، فَجَمَلْتَهَا أَنِّي أَصْبِحُ وَأُمْسِي فِي غُلِّ التَّدْيِيرِ ،
وَأَرْوَحُ وَأَغْدُو فِي سِجْنِ الْمَقَادِيرِ ؛ هَدَفًا لِسِهَامِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ ، وَغَرَضًا
لِاسْتِنَةِ الْأَحْوَالِ وَالْأَعْوَامِ ؛ أَجِدُ مَا لَا أَرِيدُ ، وَأَرِيدُ مَا لَا أَجِدُ :
« وَلَيْتَنِي - مِنْ زَمَانِي -
فَلَمْ يَنْلِنِي بِخَيْرٍ ،
وَكُنْتُ أَصْبِحُ حُرًّا ،
وَلَمْ يُصِبنِي بِبِئْسِ
بَيْنَ ارْتِجَاءٍ وَيَأْسٍ »

وَهُمَا يَرِيَانِ ذَلِكَ فِي اضْطِرَابِ خَطِّي، وَرُجُوعِ الْفَاطِي - شَيْئًا فَشَيْئًا - إِلَى
حُطِّي، فَإِذَا هُمَا صَرَفَا التَّمَلُّلَ إِلَيَّ، وَأَقْبَلَا - بِكَلِيَّةٍ فَهَمِيمِهِمَا - عَلَيَّ، وَجَدَانِي :
« وَقَدْ اسْتَحَالَ الِهْمُّ بِي، فَتَخَالَنِي - مِنْ طُولِ مَا أَجِدُ الْجَوِي - مَسْرُورًا
وَقَدْ انْطَوَتْ مِنِّي الضُّلُوعُ عَلَى هَوَى لَوْ كَانَ مَحْسُوسًا، لَكَانَ سَعِيرًا »

*
* *

وَأَخْلَقُ بَيْنَ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتُهُ، أَنْ يَتَسَاوَى - عِنْدَهُ - الصِّحَّةُ وَالسَّقْمُ ؛
وَأُخْرَى بَيْنَ كَانَ هَذَا نَعْتُهُ، أَنْ يَتَمَثَّلَ عِنْدَهُ الرَّاحَةُ وَالْأَلَمُ :

« بَأَيِّ فُؤَادٍ أَقَاسِي الِهْمُومَ وَفِي أَيِّ جَفْنٍ أَحْسُ الشَّهَادَا ؟
وَمَا تَرَكَ الدَّمْعُ لِي مُقَلَّةً وَلَا خَلْفَ الْبَيْنِ - عِنْدِي - فُؤَادًا »

وَأَنَا - مَعَ كَمَالِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ - أَخَاشِنُ الْحَجَرَ، وَأُحَاسِنُ الْقَمَرَ،
وَأُفْضِلُ الْهِجَانَ بِالْهَجَنِ، وَأُفْضِلُ الْعَثَاثَةَ عَلَى السَّمَنِ :

« أَتَعَاطَى نَزْحَ الرَّكِيِّ ^(١) وَإِنْ قَصَّ رَ عَنِّي أَنْ يَنَالَ مَاءَ رَشَاءِ
وَلَعَهْدِي بِيَفْكَرْتِي وَهِيَ تَنْجَا بُ بِهَا - عَن صَبَاحِهَا - الِأَمَاءِ
غَيْرَ أُنِّي، وَإِنْ تَعَاوَرَنِي الِهُدَى مٌ، وَشَاءَ الزَّمَانُ مَا لَا أَشَاءُ
فَرَمَانِي مُسْتَيْقِنًا أَنْ قَلْبًا - يَبْنِي جَنبِي - صَخْرَةٌ صَمَاءِ
لَا أَبَالِي : أَطَالَ لَيْلِي، أَمْ يَوْمٌ مِي ؟ كَلَا الرَّبْتَيْنِ عِنْدِي سَوَاءِ
وَالْمُعَادِي : هُوَ الْمُرَاوِحُ مِنْ هَ مِي، وَهَذَا الصَّبَاحُ : ذَلِكَ الْمَسَاءِ

(١) الرَّكِيُّ : اسم جنس للبئر، الواحدة رَكِيَّةٌ، والجمع رُكِيٌّ

وَإِذَا الْعَيْنُ لَمْ تَعَيْنِ سِوَى الشُّوْءِ ، فَسَيَّانِ ظُلْمَةٌ وَضِيَاءٌ
وَأَبْنِي أُلْهَمُ ، لَا ابْنَهُ أَنَا ، إِذْ كُنْتُ لِي ابْنِ هَمٍّ : بَلِيَّةٌ عَمِيَاءُ !
وَهَذَا قَوْلٌ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْهُ ، وَأَسْأَلُ التَّجَاوُزَ عَنْهُ ، وَأَنْ يُجَمَعَنَا عَلَى حَالٍ
تَسْرُّ الصَّدِيقَ ، وَتَكْمُدُ الْعَدُوَّ ، بِمَنْنِهِ وَوَيْمَنْهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ .

رسالة أبي العلاء

وقد بعث أبو العلاء بالرقعة التالية إلى صديقه أبي القاسم ، رداً على إحدى رسائله ، وهي تدل على أن المغربي قد استدعاه إليه . فأجابه المعري معتذراً ، فقال :

كَلَّمَا هَمَّ خَبْرِي بِالْهُمُودِ ، وَأَشْرَفْتُ عَلَى الْخُمُودِ ، لَعَشَنِي اللَّهُ بِسَلَامٍ — يَرِدُ
مِنْ حَضْرَتِهِ — يَجْعَلُ أَثْرِي كَالرَّوْضَةِ الْحَزْنِيَّةِ ^(١) ، وَالْبَارِقَةِ الْمُرْتَبِيَّةِ ^(٢) .

وَلَوْ كُنْتُ عَنْ نَفْسِي رَاضِيًا ، لَشَرَفْتُهَا بِزِيَارَةِ حَضْرَتِهِ ، وَكَيِّنِي عَنْهَا غَيْرُ
رَاضٍ ، وَمَا أَقْرَبَنِي إِلَى انْقِرَاضِ ^(٣) .

وَإِنَّمَا أَنَا قَضِيضُ التَّمْرَادِ ^(٤) ، وَمُتَخَلِّفُ الْمُرَادِ ^(٥) ، قَدْ عُدِدْتُ فِي النَّاسِ
قِيلَ فِيهِمْ :

-
- (١) الروضة الحزنية : هي الروضة تنبت في الحزن (وهو ما غلظ من الأرض)
(٢) السحابة الماطرة (٣) هلاك وفناء (٤) التمراد : برج صغير للحمام في بيت
الحمام لمبيضه ، فإذا جعلت نسقاً بعضها فوق بعض فهي التماريد ، وهو يعني بقضيض التمراد :
فريخ الحمام (٥) أي مقصر عن الغاية .
وهذا هو الاسلوب الذي درج عليه المعري في الاعتذار إلى كل من يستدعيه من الأمراء
والوزراء وأعيان الدولة ، وقريب منه قوله معتذراً لمن استدناه إلى حضرة الأمير عزيز الدولة :

« تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَا مَا كَسَبَتْ ، وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ، وَلَا تُسْأَلُونَ
عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

فَإِنْ نَعِمْتَ أَوْ شَقِيتُ ، فَدَعَائِي مُتَّصِلَةٌ - بِحَضْرَتِهِ - مَا بَقِيَتْ !

وإنما ذكرت ذلك لينتهى إلى حضرة السيد عزيز الدولة - أعزه الله نصره - أنى تخلفت
عن خدمته بمرض ، منع من أداء المفترض ، وإن الذكر - للرجل - ليطير ، وغيره
الخطير . كم من شجرة شاكّة ظلها ليس برحب ، وثمرها غير عذب ، اسمها السّمرة ،
وكنيها : « أمّ غيلان » تذكر في آفاق البلاد . وغيرها من أشجار الثمار ، إن ذكر نُسكّر ،
والإرماء لا توجهه للشئ . الأسماء . رب أسود كرية الرائحة ، يسمى كافوراً أو عنبراً ، وقبيح
الصورة - من البشر - يدعى هلالاً أو قرأاً !

وكيف يتأدى إلى العلم وأنا رجل ضريع ، وكفى من شر سماعه .
ونشأت في بلد لا عالم فيه ، وإنما تشبث النامية بالجوازع ، ولم أكن صاحب ثروة ،
فكيف الهداء بغير بغير ؟ .. »

إلى أن يقول :

« والسيد عزيز الدولة - أعز الله نصره - يعين الكسير بالجبر ، فكيف يأمر بإخراج
ميت من قبر ؟ ولو كنت بارئاً من هذا العلة ، لخشيت أن أصح ، فأفتضح ، لأبى
ما أنصفت ، إذ وُصفت . الخ »

رِسَالَةُ الْمُنِيحِ (١)

فاتحة

إِنْ كَانَ لِلآدَابِ — أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ سَيِّدِنَا — نَسِيمٌ يَتَضَوَّعُ ، وَلِلذِّكَاءِ

(١) المنيح : من قدح الميسر ، وهو قدح بلا نصيب ، أو هو قدح يُسْتَعَارُ تَمِينًا بفوزه ، أو قدح له سهم مما لا نصيب له إلا أن يمنح صاحبه شيئاً . وهو أحد سهام الميسر الثلاثة التي لا نصيب لها ، أو هو السهم الثامن من سهام الميسر العشرة ، وقد كتب للسبعة الأولى منها الفوز ، وللثلاثة الباقية الخيبة .

وقد أَلِفَ العرب في جاهليتهم أن يقامروا بقدح الميسر العشرة على جَزورٍ يشترية أحد أغنيائهم يقطعونه ثمانى وعشرين قطعة متساوية ، ثم يتساهمون عليها بقدح عشرة يطلقون عليها اسم الأزلام ، ويكتبون على كل قدح منها اسمه ، وهى : الغد ، والتوأم ، والرقيب ، والحلس ، والنافس ، والمسبل ، والمعلى ، فللأول نصيب واحد والثانى نصيبان وهكذا حتى يصلوا إلى السابع فيظفر بسبعة أنصباء . أما الثلاثة الباقية ، وهى : « المنيح ، والسنيح ، والوغد ، فليس لها من الأنصباء شيء . وكانوا يضعون هذه القداح العشرة في خريطة ثم يحركها أحد العدول بيده ، ثم يخرج القدح الأول باسم رجل بعينه ، والثانى باسم آخر ، وهكذا ، ثم يعطى كل واحد منهم نصيبه ، فمن خرج له قدح غَارِمٍ — غير فائز — وجب عليه أن يدفع ثمن الجزور كله .

نَارُهُ شَرْقٌ وَتَلْمَعُ . فَقَدَّ فَعَمَّنَا^(١) - عَلَى بُعْدِ الدَّارِ - أَرْجُ أَدِيهِ ، وَمَحَا اللَّيْلَ
عَنَّا ذَكَوُّهُ بِتَلْهَبِهِ ؛ وَخَوَلَ الْأَسْمَاعَ سُئُوفًا^(٢) غَيْرَ ذَاهِبَةٍ ، وَأَطْلَعَ
- فِي سُؤِيدَاتِ^(٣) الْقُلُوبِ - كَوَاكِبَ لَيْسَتْ بِغَارِبَةٍ .

نفاسة الكتاب

وَذَلِكَ أَنَّنَا - مَعَشَرَ أَهْلِ هَذِهِ الْبَلَدَةِ - وَهَبَ لَنَا شَرْفَ عَظِيمٍ ، وَالْقِيَّ
إِلَيْنَا كِتَابٌ كَرِيمٌ ؛ صَدَرَ عَنْ حَضْرَةِ السَّيِّدِ الْحَبْرِ ، وَمَالِكِ أَعْنَةِ النَّظْمِ
وَالنَّثْرِ ؛ قِرَاءَتُهُ نُسْكٌ ، وَخِتَامُهُ - بَلْ سَائِرُهُ - مِسْكٌ : « وَفِي ذَلِكَ
فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ . »

أَجَلَ عَنِ التَّقْيِيلِ ، فَظَلَّالَهُ الْمُقْبَلَةَ ؛ وَتَزَّهُ أَنْ يُبْتَدَلَ ، فَنَسَخَهُ^(٤) الْمُبْتَدَلُ .
وَإِنَّهُ عِنْدَنَا لِكِتَابٍ عَزِيزٌ .

وكان الفائزون يفرقون أنصباهم على الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام ، ولا يختصون
أنفسهم بشيء منها .

وقد ألف العرب هذه العادة - قبل أن يجرمها عليهم الإسلام - فأطلقوا في جاهليتهم
على كل من لا يدخل في تلك المقامات اسم : « البرم » أى اللثيم الذى لا مروءة له .
وقد أشار أبو العلاء - في لزومياته - إلى هذه القداح ، فقال :

« يُغْنِيكَ قَطْرُ بَلِّ مَنْكَ الصَّدَى - فِي الْعَيْشِ - أَنْ تَزْدَادَ قُطْرُ بَلِّ

وَالغَدَّ يَكْفِيكَ ، إِذَا فَاتَكَ الرَّقِيبُ ، وَالنَّافِسُ ، وَالْمَسْبِلُ »

(١) ملاً خياشيمنا (٢) الشنوف : الأقرط تعلق في الآذان (٣) حبات القلوب .

(٤) النسخ : ما ينسخ من الكتاب ، وهى دون الأصل نفاسة وشرفاً ، قال ابن الرومى هاجياً :

« لِمَ أَنْتَ أَصِيدُ تَزْهَوُهُ نِظَافَتُهُ وَلَمْ أَبُوكْ عَلَيْهِ الذَّلُّ وَالْوَسْخُ ؟ »

وَلَوْلَا الْإِلَاحَةُ^(١) ، عَلَى مَا ضَمَّنَ مِنَ الْمَلَاحَةِ . وَالْحُشِيَّةُ عَلَى دُجَى مِدَادِهِ
مِنَ التَّوَرُّعِ ، وَنَهَارَ مَعَانِيهِ مِنَ التَّشْتُّتِ وَالتَّقَطُّعِ ؛ لَعَكَفَتْ عَلَيْهِ الْأَفْوَاهُ
بِاللَّثَمِ ، وَالْمُتَوَارِنُ^(٢) بِالْإِنْتِشَاءِ^(٣) وَالشَّمِّ ، حَتَّى تَصِيرَ سَطُورُهُ لَمَى^(٤) فِي الشِّفَاهِ ،
وَخَيْلَانًا^(٥) عَلَى مَوَاضِعِ السُّجُودِ مِنَ الْجِبَاهِ .

حكم الأزلام

وَلَوْلَا مَا حَظَرَهُ الدِّينُ مِنَ الْقِمَارِ ، وَعَابَهُ مِنْ رَأْيِ الْجَهْلَةِ الْأَثْمَارِ ؛ وَأَنَّ
شَرِيعَةَ الْإِسْلَامِ ، أَعْتَرَضَتْ دُونَ إِجَالَةِ الْأَزْلَامِ^(٦) ؛ لَضَرَبْنَا عَلَيْهِ بِالسَّبْعَةِ
الْفَائِزَةِ ، وَالثَّلَاثَةِ الَّتِي لَيْسَتْ — لِحِطِّ — بِالْحَائِزَةِ .

وَمَعَاذَ الْأَحْلَامِ^(٧) أَنْ يَطْمَئِنَّ خَلْدُ الْمُنَافِسِ الشَّحِيحِ ، إِلَى أَحْكَامِ النَّافِسِ
وَالْمُنِيحِ^(٨) . وَإِنَّمَا كَانَتْ أَوْلِيَاءَ سَيِّدِنَا — جَعَلَ اللَّهُ لِيَشَانِيهِ كَوْكَبَ الرَّجْمِ ،
وَحَادِي النَّجْمِ^(٩) — تَيْسِرُ^(١٠) عَلَى إِقَامَةِ الصَّحِيفَةِ فِي الْمَنَازِلِ لِلْأُنْسِ الْمَطْلُوبِ ،

فقال : لا تَلْحِينًا — في تفاوتنا — فإننا كتب ، آباؤنا — نسخ !

وقال أيضاً — وفي الأمثال متسع — : قد يُخْرِجُ النُّخْلَةَ الْمُوصُوفَةَ السَّبِيحَ «

(١) الحذر والخوف (٢) الأنوف (٣) الشم (٤) سمرة مستملحة في الشفتين

(٥) جمع خال ، وهو النكته السوداء في الجلد ، علامة الحسن ، قال الشاعر :

وبين الخد والشفتين خال كزنجبي أتى روضاً صباحا

تخبر في الزهور ، فليس يدرى أيجني الورد؟ أم يجني الأقاها؟

(٦) سهام الميسر (٧) العقول (٨) سهمان أولهما فائز والآخر لا نصيب له .

(٩) كوكب نحس ، وهو الدبران ، والعرب تتشام به (١٠) تقامر لاعبة بالقدر

العشرة : (الأزلام)

لَا عَلَى مَقَادِيرِ السَّحَاءِ^(١) مِنْ ذَلِكَ الطَّرْسِ^(٢) الْمَكْتُوبِ .
وَأَحْسَبُهُمْ يُوقِعُونَ عَلَيْهَا السُّهْمَةَ^(٣) الْوَاقِعَةَ عَلَى كِفَالَةِ الْبَتُولِ^(٤) ،
وَأَحْكَامَةَ فِي السَّفَرِ بَيْنَ صَوَاحِبِ الرَّسُولِ^(٥) .
فَيَأْشُرْفُهُ مِنْ صَكِّ بِالْفَخْرِ ، يُنَجِّحُ بِهِ عَلَى النُّظْرَاءِ حَيْرَى الدَّهْرِ^(٦) ؛ مُوشِحًا
بِكُلِّ شَذْرَةٍ أَعْدَبَ مِنْ سُلَافِ الْعُنُقُودِ ، وَأَحْسَنَ مِنَ الدِّينَارِ الْمُنْقُودِ ؛ بَجَاءِ
كُلِّ وَائِحِ الْبُرُوقِ ، أَوْ يُوحِ^(٧) عِنْدَ الشَّرُوقِ .
وَلَمْ يَزَلْ لَوْلِيَّهِ إِلَى جَنَابِهِ جَنْبُ الْفَائِنَةِ ، إِلَى عَيْشِ الْغَائِنَةِ^(٨) ؛ وَأَنْضَاءِ
الْإِعْلَالِ ، إِلَى إِفْضَاءِ الْإِبْلَالِ^(٩) .

شوق المعرى

وَلَوْ أَنَّ شَوْقَهُ إِلَى حَضْرَتِهِ الْجَلِيلَةِ تَمَثَّلَ ، فَثَلَّ ؛ وَتَجَسَّمَ ، حَتَّى يُتَوَسَّمِ^(١٠) ؛
لَمَلَأَ ذَاتَ الطُّولِ وَالْعَرْضِ ، وَشَغَلَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . وَلَمْ يَكْتَفِ حَتَّى
يُكَلِّفَ أَلْخَطْوَةَ ، أَنْ تَسَعَّ صَهْوَةٌ^(١١) ، وَالرَّاحَةَ ؛ أَنْ تَكُونَ مِثْلَ السَّاحَةِ .

(١) أجزاء القرطاس ، يقول : « وما نريد أن نقسم الصفحة ثمانى وعشرين قطعة ،
ثم نجعل عليها الأوزان ليظفر كل فائز منا بنصيب من هذا الكتاب النفيس » (٢) الكتاب
(٣) القرعة (٤) البتول : مريم عليها السلام ، وهو يشير إلى الاقتراع على كفالته
وفوز زكريا — عليه السلام — بهذه الغاية . ارجع إلى تفسير الآية الكريمة : « إذ يلقون
أقلامهم ، أمهم يكفل مريم » (٥) يعنى اقتراعه صلى الله عليه وسلم بين أزواجه كلما هم بالسفر
(٦) أبرد الدهر (٧) الشمس (٨) شوق العجوز إلى عودة الصبا (٩) تلهف
من نهكهم المرض وأنضتهم العلة على الشفاء منها (١٠) يرى (١١) الصهوة : المطمئن
من الأرض ، تأوى إليه ضوال الإبل

وَبَلَغَ وَلِيَّهُ السَّلَامُ الَّذِي لَوْ مَرَّ بِسَلِمَةَ وَارِيَةَ ، لِأَعْدَقَتْ^(١) ؛ أَوْ سَامَةَ^(٢)
عَارِيَةَ ، لِأَوْرَقَتْ ؛ فَحَمَلَ فُؤَادِي مِنَ الطَّرْبِ عَلَى رَوْقِ الْيَعْفُورِ^(٣) ، بَلْ فَوْقَ
جَنَاحِ الْمُصْفُورِ .

سحر الكيمياء

فَكَأَنَّمَا رَفَعَنِي الْفَلَكَ ، أَوْ نَاجَانِي الْمَلِكُ . جَدَلًا بِمَا لَوْ جَازَ تَبَدُّلُ الْغَرِيزَةِ ،
وَتَحَوُّلُ النَّحِيذَةِ^(٤) ؛ لِنَقَلَنِي مِنْ آلِي^(٥) الْعَامَّةِ ، إِلَى عَلِي السَّامَةِ^(٦) : نَقَلَ
الْكَيمِيَاءُ مَا خَالَطَ مِنَ الْمُرَاقِبِ الْجَائِرِ ، إِلَى جُمْلَةِ النُّصَارِ^(٧) الْمُتَمَازِ .
وَكَذَتْ لَوْ لَا اسْتِمَالُ الْمَخَافِ عَلَى هَذِهِ الْمَحَلَّةِ ، وَأَسْتِعَالُ الضَّمَائِرِ بِقَبَسِ
الْعُلَّةِ ؛ أَحْسَبُ سَلَامَهُ : السَّلَامَ الَّذِي ذَكَرَهُ الْبَارِيُّ - جَلَّ اسْمُهُ - فِي
قَوْلِهِ : « ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ » .

أَفَبَلَدْتَنَا جَنَانًا ، أَمْ وَضَحَ لِأَهْلِهَا الْغُفْرَانَ ؛ أَمْ نُشِرُوا بَعْدَ مَا قُبِرُوا ،
أَمْ جُرُوا الْغُرْفَةَ^(٨) بِمَا صَبَرُوا ؟ فَهَمْ يُلْقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا .

(١) أى : لو مرَّ بزئد وارٍ تقتدح منه النار لندى ذلك الزند الوارى وابتل (٢) شجرة
(٣) قرن الغزال (٤) الطبع (٥) الآلى : المتخلف والمقصر (٦) السامة : الخاصة
(٧) الذهب الخالص ، وهو يشير إلى النظرية التي كانت متعارفة في عصره ، وهى
تحويل الكيمياء النحاس إلى ذهب ، وقد أشار إليها ابن الرومى في هجائه أبا الصقر ، فقال :

« عجب الناس من أبى الصقر إذ وُلِّىَ - بعد الإجارة - الديوانا
ولعمري ما ذاك أعجب من أن كان عِلجاً فصار من شيبانا
إن للحظ كيمياء - إذا ما مس كلباً - أحاله إنسانا
يفعل الله ما يشاء كما شا ء ، متى شاء ، كأننا ما كانا »

(٨) السماء السابعة ، يعنى : الجنة .

بلاغته معجزة

وَإِنْ نَالُوا بِمَنِّهِ أَوْصَافَ الْأَتْقِيَاءِ الْأَبْرَارِ ، فَقَدْ تَرَلَّتْ بِهِمْ خَلَّةٌ مِنْ خِلَالِ
 الْأَشْقِيَاءِ الْكُفَّارِ . وَذَلِكَ أَنَّهُمْ بِأَسَدِ الْبَلَاغَةِ أَفْتَرَسُوا ، وَبِأَسْبَابِهَا عُقِدَتْ
 أَلْسِنَتُهُمْ عَنِ الْجَوَابِ نَحْرَسُوا . فَكَأَنَّمَا قِيلَ لَهُمْ : هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ، وَلَا يُؤْذَنُ
 لَهُمْ فَيَعْتَدِرُونَ . وَإِنَّمَا غَرِقُوا فِي لُجِّ التَّبَانَةِ^(١) ، فَصَمَّتُوا ؛ وَسَمِعُوا صَوَاعِقَ الْإِبَانَةِ ،
 فَخَفَّتُوا ؛ فَقَلِمَ كَاتِبِهِمْ عُودُ النَّكَاتِ^(٢) ، وَجَوَابُ بَلِيغِهِمْ حَيْرَةُ السَّائِكِ .
 عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ رَامُوا تَصْرِيْفَ الْخُطَابِ فَصُرِفُوا ، وَعَرَفُوا مَكَانَ فَضْلِهِ
 فَأَعْتَرَفُوا ، وَتَرَاءَوْهُ مِنْ مَبَارِكِ الْعُرُوجِ ، فَلَمَحَّوهُ فِي مَارِكِ الْبُرُوجِ^(٣) .
 وَاسْتَنْهَضَتْهُمْ أَلْهَمُهُ إِلَى مُدَانَاتِهِ فَعَجَزُوا ، وَوَعَدُوا هَوَا جِسْمِهِمُ التَّبَلُّدَ فَأَنْجَزُوا .
 وَلَنْ تُوجَدَ آثَارُ الشُّوقِ ، فِي أَوْكَارِ الْأَنْوُقِ^(٤) ؛ فَهَمُّ يَتَأَمَّلُونَ وَمِيضَةُ الْآلِقِ^(٥) ،
 وَيَحْمَدُونَ الْإِلَهَ الْخَالِقِ ، عَلَى مَا مَنَحَهُ سَيِّدُهُمْ مِنَ الْإِقْتِدَارِ ، بِدَقِيقِ الْأَفْكَارِ ،
 عَلَى إِعَادَةِ أَلِيمِ^(٦) كَالْغَدِيرِ الْمُسَمَّى بِالْغَدْرِ ، وَالْخَالِقِ الشَّهِيِّ^(٧) بِالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ .
 وَلَمْ يَزَلِ الْمَاشِي الْعَازِمُ ، أَسْرَعَ مِنْ رَاكِبِ الرَّازِمِ^(٨) .

(١) الفطنة (٢) الحائر ينكت الأرض بعود أو قلم من شدة حيرته (٣) العروج :
 قطعان الإبل . والمآرك : المواضع . يقول : إنهم لمحو مكان فضله وهم في مبارك الإبل ،
 فراؤه يحل منازل الشمس وبروجها (٤) العقاب (٥) المتألق (٦) البحر (٧) كوكب
 صغير ، وقد أشار إليه المعري في لاميته الشهيرة ، فقال :

« وقال السهي للشمس : أنت ضئيلة وقال الدجي للصبح : لونك حائل

وطاولت الأرض السماء سفاهة وعير قسًا - بالفصاحة - باقل »

(٨) العازم : القوى العزيمة ، والرازم : البعير الخائر العزم ، المهزول الجسم

الطبع الصادق

فَكَيْفَ بَيْنَ أُمَّتَيْ عَزْمُهُ كِتْدٌ^(١) الرِّيحِ ، وَحَكْمَ لَهُ سَعْدُهُ بِالسَّعْيِ
النَّجِيحِ ؛ وَخَصَّهُ بَارِئُهُ - تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ - بِطَبِيعِ رَاضٍ ، صِعَابِ الْأَغْرَاضِ ،
حَتَّى ذَلَّلَهَا ، وَأَبَسَ^(٢) بِيُحُوشِ اللُّغَاتِ فَأَهْلَهَا . فَصَارَ حَزَنُ كَلَامِ الْعَرَبِ
- إِذَا نَطَقَ بِهِ - سَهْلًا ، وَرَكِيكُهُ - إِنْ أَيْدَهُ بَصْنَعَتِهِ - قَوِيًّا جَزَلًا .
فَمَثَلُهُ مِثْلُ جَارِسَةِ الْكِحْلَاءِ^(٣) تَسْمَحُ بِالمَسَائِبِ المِلاءِ ؛ تَطْعُمُ الْعَرَبَ^(٤) ،
وَتَجُودُ بِالضَّرْبِ ؛ وَتَجْنِي مَرَّ الْأَنْوَارِ ، فَيَعُودُ شُهْدًا عِنْدَ الإِشْتِيَارِ . وَكَالهَوَاءِ
فِي مَذْهَبٍ لَا أَعْتَقِدُهُ ، وَقَوْلٍ سِوَايَ مَنْ يُسَدِّدُهُ^(٥) : يَجْتَذِبُ أَجْزَاءَ البُخَارِ ،
فَيَسْتَقِي مَنْ تَحْتَهُ عَذْبَ الأمْطَارِ . وَمَنْ لَنَا بَانَ اللَّفْظُ المَشُوفُ^(٦) ، يُمَثَّلُ
عَلَيْهِ التَّمْثِيلَ عَلَى الحُرُوفِ ؛ فَتَكَلَّفَ البَابُنَا إِقْتِضَابَ العَسِيرِ ، وَرُكُوبَ مَا لَيْسَ
بِيسِيرٍ ، فَعَسَاهَا تُبَلُّ^(٧) بِفِقْرَةٍ زَاهِرَةٍ ، أَوْ تَظْفَرُ بِأَسْتِخْرَاجِ لُؤْلُؤَةٍ فَاخِرَةٍ .
عَلَى أَنَّهُ مِنَ العَنَاءِ سُؤَالُ البَرِّمِ ، وَرِيَاضَةُ المَهْرِمِ . وَهَيِّاتَ بَعْدَتْ مَحَالُّ

(١) الكتد : مجتمع الكتفين (٢) ذلها وراضها (٣) جارسة الكحلأء : النحلة تجرس
الشجر ، أى : تجنيه لتمجه ضرباً ، والضرب : العسل ، وفى هذا المعنى يقول المعرى من
قصيدته إلى صديقه أبى الخطاب :

« ردت لطافته ، وحدة ذهنه وحش اللغات أو انسا بخطابه

والنحل يجنى المرء - من نور الرثبي - فيعود شهداً فى طريق روضابه »

(٤) المسائب الملاء : أوعية العسل الملووءة . والغرب : نبت مر (٥) ليت المعرى

قال : « وكالهواء فى مذهب أعتقده ، وقول سواى من لا يسدده » ليساير بذلك الحق ،

ويرضى الصحيح . (٦) المصقول المجاؤ (٧) تشفى

الْغَفْرَ الطَّالِعِ ^(١) ، عَنْ مَزَالِ الْغَفْرِ ^(٢) الطَّالِعِ ^(٣) ؛ وَأَعْجَزَ الْبَارِقِ ، يَدَ السَّارِقِ ؛
وَجَلَّتِ الشُّمُوسُ ، عَنْ سُكْنَى الرُّمُوسِ .

وَلَوْ أُجْتَهَدَ اخْزُزُ ^(٤) - مَدَى عُمُرِهِ - مَا أَشْبَهَ ضَعِيفُهُ ^(٥) زَيْبَرَ الْأَسَدِ ،
وَلَنْ يَصِيرَ سَوْطٌ بَاطِلٍ ^(٦) - فِي الْقُوَّةِ - كَالْمَسَدِ . وَلَوِدِدْتُ لَوْ رُزِقَ لَامُهُ ^(٧) ،
مَا رُزِقَ كَلَامُهُ ؛ لَيْنَالِ خُلُودِ الزَّمَانِ ، وَتُعْطِيَةُ الْحَوَادِثِ أَوْ كَدَّ أَمَانِ . فَإِنَّهُ
أَوْلَى النَّاسِ ، بِإِضَاءَةِ النَّبْرَاسِ ؛ إِذْ كَانَ فِي زَكَاءِ ^(٨) الْهَمَّةِ مَغْرَسُهُ ، وَبِأَجْذَالِ ^(٩)
الْحِكْمَةِ مُدْ نَشَأَ تَمْرُسُهُ ؛ حَتَّى عَلَا مِنْهَا سِرَاةَ الْمُنْبِرِ ، وَرَكَبَ طَالِبُهُ أَصُولَ
السَّخْبِرِ ^(١٠) .

عجز المنافسين

وَقَدْ كَانَ - فِيمَنْ مَضَى - قَوْمٌ جَعَلُوا الرَّسَائِلَ ، كَالْوَسَائِلِ ؛ وَتَرَيْنُوا
بِالسَّجْعِ ، تَزِينَ الْمُحُولِ بِالرَّجْعِ ^(١١) . مَا رَقُوا فِي دَرَجَتِهِ ، وَلَا وَصَعُوا قَدَمًا عَلَى
مَحَجَّتِهِ ^(١٢) ؛ لِكِنَّهُمْ تَعَايَنُوا ، فَتَا تَبَايَنُوا ؛ وَتَنَاضَلُوا ، فَلَمْ يَتَفَاضَلُوا . وَلَوْ طَمِعُوا

- (١) منازل النجم الطالع (٢) ولد الوعول (٣) الأعرج (٤) الأرنب
(٥) الضغيب : صوت الأرنب (٦) سوط باطل : جبل منسوج من ضوء الشمس ،
يراه الراي من كوة أشبه شيء بالهباء (٧) اللام : الشخص ، قال أبو العلاء :
« تواصل جبل النسل ما بين آدم ويني ، ولم يوصل بلاجي باء »
أى لم توصل أنتى بشخصى ، يعنى أنه لم يتزوج قط (٨) نماء (٩) الأعواد (١٠) شجر
طويل ينتنى من أصوله ، فيضرب به المثل لمن ينكث عهده ، فيقال : « ركب فلان أصول
السَّخْبِرِ » أى : غدر . (١١) أى تزين الأراضى المحلة الجذباء بالمطر ، قال تعالى :
« وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج »
وفى رواية : « تزين المحول بالرجع » والمحول : الطفل ابن سنة ، والرجع : الوشم (١٢) منهاجه

فِي الْوُصُولِ ، إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الْفُصُولِ ؛ لَأَخْتَارُوا الرَّتَبَ ، عَلَى الرَّتَبِ (١) ؛
وَرَضُوا أَعْتِسَافَ السَّبِيلِ ، وَأَرْتَعَاءَ الْوَيْبِلِ (٢) ؛ لِيُذَرِكُوا بِطَلَبِهِمْ مَا أَدْرَكَهُ
عَنْ غَيْرِ جِدِّ ، وَأُعْتَرَفَهُ مِنْ بَدِيهِهِ الْعِدِّ (٣) .

وَكُلُّهُمْ لَوْ شَاهَدَهُ لَرَضِيَ بِأَنْ يُدْعَى السُّكَيْتَ (٤) فِي حَلْبَةِ سَيِّدِنَا فِيهَا سَابِقُ
الرَّهَانِ ، وَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ زُجَّجًا (٥) فِي قَنَاةٍ هُوَ مِنْهَا مَوْضِعُ السَّنَانِ .

وَلَمَّا وَرَدَتْ مَعَ عَبْدِهِ مُوسَى تِلْكَ الْغَرَائِبُ الْمُؤَنِّسَةُ ، وَالْقَلَائِدُ الْمُتَنَفِّسَةُ ؛
كَانَتْ بِمَنْزِلَةِ الْآيَاتِ التَّسْعِ الَّتِي أَلْقَاهَا الرَّحْمَنُ ، عَلَى ابْنِ عِمْرَانَ (٦) : أَبْطَلَتْ
كَيْدَ السُّجَّارِ ، وَعَصَفَتْ بِهَشِيمِ الْأَشْعَارِ . وَوَرَدَ فِي الْوَاحِدِ عَصَوَانَ (٧) : الْمِيْمِيَّةُ ،
وَالْوَاوِيَّةُ ؛ فَوَجَدَ فِي وَطْنِهِ أَشْبَاحَ أَوْزَانَ تَتَخَيَّلُ ، وَأَنْقَاءَ (٨) أَذْهَانَ تَتَهَيَّلُ ؛
فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ .

(١) أى لا تروا شظف العيش على رفيع المناصب (٢) اعتساف السبيل : السير على
غير هدى ، قال أبو العلاء على لسان « الخيتور » الجنى الذى مر بك فى الجزء الثانى :
وأركب الهيق فى الظلام معتسفاً أولاً ، فذّب رياد بات مغروراً

والارتعاء : الرعى ، والوييل : المرتع الوخيم

(٣) الذى لا ينقطع فيضه ولا ينضب معينه (٤) العاشر من خيل السباق ، وهو آخر
فرس يجىء فى الحلبة (٥) حديدية فى أسفل الرمح ، قال زهير بن أبى سلمى :

« ومن يعص أطراف الزجاج ينلنه يطيع العوالى ، ركبت كل كهذم »

(٦) أشار المعرى إلى ذلك فى سقط الزند فقال :

« نبي من الغربان ، ليس على شرع يخبرنا أن الشعوب إلى صدع

أصدقه فى مرية ، وقد امترت صحابة موسى بعد آياته التسع »

(٧) قصيدتان (٨) الأنقاء : كثنان الرمال .

مَا خَبَرَ عَبْدُهُ حَتَّى اخْتَبَرَ، وَلَا عَبَّرَ إِلَّا بَعْدَ مَا أُعْتَبِرَ^(١). شَاهِدْنَا فِيهَا سَمِعْنَاهُ :
الْمَعْنَى الْخَصِيرَ^(٢)، فِي الْوِزْنِ الْقَصِيرِ؛ كَصُورَةِ كَسْرَى فِي كَأْسِ الْمَشْرُوبِ^(٣)،
وَتَمَثَالِ قَيْصَرَ فِي الْإِبْرِيذِ الْمَضْرُوبِ^(٤)؛ لَمْ يُزْرَ بِهِ ضَيْقُ الدَّارِ، وَقَصْرُ الْجِدَارِ.
إِنْ تَغَزَلَ، فَحَيْنُ الْعُودِ؛ أَوْ تَجَزَلَ^(٥)، فَهَدِيرُ الرَّغُودِ.

همة العظیم

وَإِنْ كَانَ - أَدَامَ اللَّهُ شَرَفَ الدُّنْيَا بِهِ - اسْتَصْفَرَ مِنْ ذَلِكَ مَا اسْتَكْبَرْنَاهُ،
وَأَسْتَنْزَرَ^(٦) مِنْ أَدَبِهِ الَّذِي اسْتَعْمَرْنَاهُ^(٧)؛ فَالْسَّرْبُ الْوَحْشِيُّ^(٨) يَعْجَبُ مِنْ
وُفُوفِ الْأَجْدَلِ^(٩)، عَلَى شُرَفَاتِ الْمَجْدَلِ^(١٠)؛ وَهُوَ غَيْرُ حَافِلٍ بِمَا آتَى، وَلَا
مُعْتَقِدٍ أَنَّهُ اسْتَعْلَى. وَإِنْ كَانَ فِي وَانِيَةِ آدَابِنَا بَقِيَّةً إِرْقَالَ^(١١)، وَلَا نِيَّةً أَفْهَامِنَا
خَفِيَّةً صِقَالًا؛ فَسَوْفَ تَنْتَفِعُ وَهُوَ - أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ - ذَرِيْعَةَ الْإِتْفَاعِ، وَتُضِيءُ
بِمَا أَهْدَى إِلَيْهَا مِنَ الشُّعَاعِ؛ إِضَاءَةَ الصُّفْرِ^(١٢)، بِمَا قَابَلَ مِنَ التَّيْرَاتِ الزُّهْرِ.
وَقَدْ يُرَى خَيْالَ أَجْوَزَاءِ، عَلَى رِفْعَتِهَا؛ فِي أَضَاةِ الْمَعْرَاءِ^(١٣)، مَعَ ضَعْفِهَا.
وَيُورِقُ الْعُودُ، بِبَرَكَاتِ السُّعُودِ؛ وَتَفِيضِ الرُّدْهَةِ^(١٤)، عَنْ نَوْءِ الْجُبْهَةِ^(١٥).

- (١) أى لم ينطق إلا بعد روية وتدبر (٢) الخصير : المستوعب ، من : حصره :
استوعبه . وقد أشار إلى هذا مرة أخرى في رسالة الإغريض فقال : يجمع بين اللفظ القليل
والمعنى الجليل ، جمع الأفعوان في لعابهِ بين القلة وفقد البلية (٣) يشير إلى عادة الفرس التي
جروا عليها في تصوير كسرى على كؤوسهم (٤) يشير إلى صورة قيصر على الدينار
(٥) نطق بالجزل الفخم من الألفاظ (٦) استصغر (٧) ما استكثرناه (٨) جماعة
الغزلان (٩) الصقر (١٠) القصر العالى (١١) إن كان في آدابنا الفاترة مجال للإسراع
(١٢) النحاس (١٣) الأضياء : الماء أو : مستنقع الماء ، والمعراء : الأرض الصلبة
(١٤) الحفرة (١٥) الجهة : منزل من منازل القمر

نحر المعرة

وَلَوْ تَفَوَّهَ بِمَقَالٍ ، جَامِدٍ ؛ وَهَمَّ بِأَخْتِيَالٍ ، هَامِدٍ ؛ لَنَشَرَتْ الْمَعْرَةَ صُحُفَ
الْإِفْتِيخَارِ ^(١) ، وَسَحَبَتْ ذَيْلَ الْعُظْمَةِ وَالْإِسْتِكْبَارِ ؛ عَجَبًا أَنْ فِكْرَهُ يَلْحَظُهَا لِحْظَ
السَّاهِي السَّامِدِ ، وَإِنْ كَانَ لَا يَلْفِظُ بِذِكْرِهَا لَفِظَ الْحَامِدِ الْعَامِدِ . وَإِنَّمَا هُوَ
فِي الرَّحِيلِ عَنْهَا كَجِسْمِ ذِي رُوحٍ ، نُقِلَ مِنَ الْعَرِيقِ ^(٢) إِلَى اللُّوَجِ ^(٣) . وَهِيَ
بَعْدَهُ كَقَسِيمَةِ الْوَسِيمَةِ ^(٤) : ذَهَبَ عِطْرُهَا ، وَبَقِيَ نَشْرُهَا . وَإِنَّمَا شَرُفَتْ عَلَى
مَا سِوَاهَا ، وَطَالَتْ عَنِ الْبِلَادِ دُونَ مَا وَالَاهَا ^(٥) ؛ لِإِقَامَتِهِ بِهَا فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ ،
وَإِنَامَتِهِ عَنْ أَهْلِهَا نَوَاطِرَ أَرْزَامِ ^(٦) . فَعُرِفَتْ عِنْدَ ذَلِكَ بِهِ ، وَنَالَتْ خَيْرَهَا ^(٧)
مِنْ حَسْبِهِ ؛ كَمَا تَنَالُ كُلُّ دَارٍ يَحْلُمُهَا .

منازل القمر

وَإِنَّمَا الْمَنَازِلُ الَّتِي يَنْزِلُهَا ، كَالشُّهُبِ الشَّامِيَّةِ وَالْيَمَانِيَّةِ ، الْمُؤَفِّيَّةِ عَلَى الْعِشْرِينَ
بِمَانِيَّةِ ^(٨) : نَزَلَ بِهَا الزُّبْرَقَانُ ^(٩) فَاشْتَهَرَتْ ، وَنَسَبَتْ الْعَرَبُ إِلَيْهَا كُلَّ
سَحَابَةٍ أَمْطَرَتْ .

(١) المعرة: بلد العري، وقد أشار إليها في قوله:

« يعيرنا لفظ المعرة ، أنه من العرّ ، قوم في العلا غرباء
وهل لحق التثريب سكان يثرب من القوم ، لا ، بل في الرجال غباء
وذو نجب - إن كان ما قيل صادقاً - فما فيه إلا معشر نجباء »

(٢) العريق: القشرة الرقيقة داخل البيضة ، أي: الغلالة بين قشرتها الظاهرة وبياضها

(٣) الهواء (٤) حُق العطر للحسنة (٥) ما جاورها (٦) سنة الأزمة والجذب

(٧) الخير: السؤدد والشرف (٨) يعني منازل القمر الثمانية والعشرين (٩) القمر

وَكَمْ فِي أَدِيمِ الْخَضْرَاءِ^(١) ، مِنْ أَشْبَاحِ مُضِيئَةِ زَهْرَاءَ ، اجْتَنَبَهَا فِي السَّيْرِ
فَحَمَلَتْ ، وَلَمْ يُنْسَبْ إِلَيْهَا قَطْرُ سَحَابَةٍ هَمَلَتْ وَرَأَى عُنْدَهُ أَنْ ضَرْبَةَ اللَّازِمِ ،
عَلَى التُّدَابِّ الْحَازِمِ ؛ اتَّخَذَ آثَارِهِ - عَاشَ حَاسِدُهُ بِالْحُلُقِ الشَّكِسِ ، وَاجْدُ
الْمُنْعَكِسِ - مَشَاهِدَ لِلْأَدَبِ مُحْضُورَةً ، وَمَحَافِلَ بِالْمُدَاكِرَةِ مَعْمُورَةً ، كَمَا يَتَّخِذُ
تَتِي الْخَلْفِ ، مَوَاطِيءَ زَكِيِّ السَّلَفِ : مَوَاقِفَ يَتَخَيَّرُهَا ، لِطَهَارَتِهَا ؛ وَمَسَاجِدَ
يَتَدِيرُهَا^(٢) ، لِأَثَرَتِهَا^(٣) . وَإِنَّمَا فَضَّلَ الطُّورُ بِالْكَلِيمِ^(٤) ، وَالْمَقَامُ^(٥) بِإِبْرَاهِيمَ .
وَلَقَدْ سَمَوْنَا بِمُجَاوَرَتِهِ ، قَبْلَ مُحَاوَرَتِهِ : سُمُوَ الْيَثْرِي^(٦) ، بِجِوَارِ النَّبِيِّ .
وَلَعَلَّ الْمَعْرَةَ قَدْ نَظَرْتَ أَصَحَّ النَّظَرَ ، وَفَكَّرْتَ فِيهَا لَا يَنْتَقِضُ مِنْ
الْفِكْرِ ؛ فَعَلِمْتَ أَنَّهُ عَقْدٌ لَا يَصْلُحُ لِمُقَلَّدِهَا^(٧) ، وَسَوَارِيزٌ تَفْعُ - لِجَلَالَتِهِ -
عَنْ يَدَيْهَا ؛ وَتَاجٌ لَا يُطِيقُ حَمْلَهُ مَفْرُقُهَا ، وَجَوْنَةٌ^(٨) يَشْرُقُ بِذُرُورِهَا مَشْرِقُهَا .
وَهُوَ - أَدَامَ اللَّهُ تَأْيِيدَهُ - مِثْلُ مَا نُقِلَ مِنَ الْمَحَارِ ، إِلَى مَفْرِقِ
الْمَلِكِ الْجَبَّارِ .

المعاني الأولى

وَمَعَانِيهِ الْأُولَى كَالشَّجَرَةِ ، بَعْدَ اجْتِنَاءِ الثَّمَرَةِ ؛ وَالصَّدْفَةَ بغيرِ جَوْهَرَةٍ ؛
وَالْكِنَانَةَ ، أُخْلِيَةَ مِنَ السَّهَامِ ؛ وَالْعَنَانَةَ^(٩) ، الْجَالِيَةَ فِي الْجَهَامِ^(١٠) . وَلَمْ يُخَفِّ

(١) السماء (٢) يسكنها (٣) لشرفها (٤) أى شرف جبل طورسيناء بمقدم
موسى - عليه السلام - إليه (٥) مقام إبراهيم بالكعبة ، وهو الحجر الذى كان يقف
عليه وهو يرفع القواعد من البيت (٦) ساكن يثرب (٧) المقلد : مكان القلادة
من العنق (٨) شمس (٩) السحابة (١٠) السحاب الذى أريق ماؤه

عَلَيْنَا أَنْ نَغِيثَ مِنَ الدُّجُونِ^(١) ، فِي مِثْلِ السُّجُونِ ؛ وَأَنَّ مَوْضِعَ الزُّهْرَةِ ،
أَعْلَى الْعَبْهَرَةِ^(٢) ؛ وَأَنَّ الْقَمَرَ ، لَمْ يُخْلَقْ لِلسَّمْرِ . وَلَيْسَ لِلْمُسْتَعْبِرِ أَنْ يَحْسَبَ
الْعَارِيَةَ هِبَةً ، وَلَا يَظُنَّ رَدَّهَا إِلَى الْمُهَيَّرِ مِثْلِيَّةً^(٣) . لَكِنْ شَرَفٌ لِلصُّعْلُوكِ ،
الْعَارِيَةُ مِنَ الْمُلُوكِ .

وَقَدْ أَفَادَتْ هَذِهِ الْبُقْعَةُ الصَّيِّتَ الْبَعِيدَ ، وَأَنْقَادَتْ لَهَا أَرْمَةٌ الْجَدِّ السَّعِيدِ ؛
لِيَالِي أَمْنِهَا الْمَكَارِمُ عَلَيْهِ ، وَأَسْتَوَدَعْتَهَا الْبِرَاعَةَ حِدَّةً أَصْغَرِيهِ^(٤) . فَظَنَّ
وَأَرْجُهُ مُقِيمٌ ، وَأَرْتَحَلَ وَاللِّسَاءُ تَخِيمٌ . فَهِيَ كَشَهْرِي رَيْبِ سُمِّيَا مَعَ الشُّهُورِ ،
فِي أَوَائِلِ الدُّهُورِ . ثُمَّ انْتَقَلَ مِنَ الْجِدَّةِ^(٥) ، إِلَى الشَّدَّةِ ؛ وَكَانَ مَعَهُمَا جُمَادِيَانِ
فَصَارَتَا بَعْدَ الْجَمْدِ ، إِلَى الْوَمَدِ^(٦) . وَأَبَتْ الْأَلْقَابُ ، التَّعْيِيرَ بِمَرِّ الْأَحْقَابِ ؛
فَنَفَدَتْ الرُّسُومُ^(٧) ، وَخَلَدَتْ الْوُسُومُ . وَلَوْلَا جَفَاءُ التُّرْبَةِ وَالْأَحْجَارِ ، عَنِ
التَّخْلُقِ بِأَخْلَاقِ الْجَارِ ؛ لَأَصْبَحَتْ سَاحَتُهَا لِلتَّأْدِبِ مُخْتَارَةً ، وَالْفَصَاحَةُ مِنْ
عِنْدِ أَهْلِهَا مُثْمَارَةً^(٨) . فَقَدْ قِيلَ إِنَّ أَصْلَ الطَّيِّبِ عَنِ عِبْدَةِ الْأَبْدَادِ^(٩) ،
أَنَّ آدَمَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هَبَطَ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ ؛ وَلَكِنْ أَبِي الْجَلْمُودِ ،
قَبُولَ الطَّبَعِ الْمُحْمُودِ ، وَعُذِرَتِ الْكَابِيَّةُ^(١٠) فِي الْهَلْمُودِ . وَالْإِنْسُ بِاجْتِنَابِ
الْخَلِيقَةِ أُخْلِقُ ، وَحَوَاسِئُهُمْ بِطَلَابِ الْفَضِيلَةِ أَوْلَى وَالسُّيُقُ . فَلَوْلَا تَذَبُّهُوا
وَقَدْ نَبَّهُوا ، وَأَشَبَّهُوا الْمَرْئِيَّ إِذْ تَشَبَّهُوا .

(١) الغيم (٢) زهرة النرجس أو الياسمين (٣) منقصة (٤) قلبه ولسانه .
(٥) النضرة (٦) شدة الحر مع سكون الريح (٧) عفت الآثار (٨) مجلوبة
(٩) الأصنام (١٠) الكابية ، أى : النار الكابية ، المغطاة بالرماد

وَمَا هَمَّ ابْنُ دَايَةَ ، بِصَيْدِ الْجَدَايَةِ ^(١) . فَكَيْفَ يَلْتَقِطُ الْقَارَ ^(٢) ، بِالْمِنْقَارِ ؟
 وَيَسْتُرُ الْقِرْوَاخَ ^(٣) ، بِالْجَنَاحِ ؟ أَمْ كَيْفَ يُمِدُّ الطَّرَافَ ^(٤) مِنْ النَّسْعِ ^(٥) ؟
 وَيُقَدُّ النَّجَادَ ^(٦) مِنَ الشَّسْعِ ^(٧) ؟ هَذَا مَا لَا يَكُونُ ، وَلَا تَسْبِقُ إِلَيْهِ الظُّنُونُ !
 وَالظُّلْمُ الْبَيِّنُ ، وَالْحَطْبُ الَّذِي لَيْسَ بِهِيْنِ ؛ تَكْلِيفُ الْقُطْبِ الثَّابِتِ ^(٨) ،
 مُدَانَاةُ الْقُطْبِ الثَّابِتِ ؛ وَإِزَامُ نَسْرِ الْحَافِرِ ^(٩) ، مَرَامُ النَّسْرِ الطَّائِرِ . وَإِذَا غَلَا
 الْمِرْجَلُ ^(١٠) ، مِنْ عَدْوِ الْأَرْجَلِ ^(١١) ؛ وَخَلَا الْفَقِيرُ ، بِالْوَقِيرِ ^(١٢) ؛ فَإِنَّمَا ذَلِكَ
 اتِّفَاقٌ ، لَا إِحْقَاقٌ ؛ وَغَايَةٌ ، لَيْسَ وَرَاءَهَا نِهَايَةٌ . وَقَدْ ضَمَّ الْمَسَانَّ وَمِهَارَةَ
 مَيْدَانَ الْقِيَاسِ ^(١٣) ، وَشَمَلَ أَخْشَاشَ ^(١٤) وَجَوَارِحَهُ جَوْ الْمِرَاسِ ؛ فَسَبَقَ
 الْغَدَوِيُّ ^(١٥) ، وَاقْتَصَصَ الْقُمْرِيُّ .

اتفاق الأسماء واختلاف الصفات

وَإِنْ قِيلَ فُلَانٌ أَدِيبٌ ، وَفُلَانٌ أَرِيبٌ ؛ فَإِنَّ وِفَاقَ الْأَسْمَاءِ ، لَا يَمْنَعُ الْفِرَاقَ
 عِنْدَ الرَّمَاءِ ^(١٦) : الْعَرَادَةُ ^(١٧) ، سَمِيَّةُ الْجُرَادَةِ ؛ وَالذَّبَابُ ، سَمِيُّ طَرَفِ الْقِرْضَابِ ^(١٨) ؛

- (١) أى أن الغراب لا يهتم بصيد الغزالة (٢) الآكام (٣) الناقة الطويلة القوائم
 (٤) قبة أو بيت من الجلد (٥) حزام الناقة وجمعه أنساع (٦) حائل السيف
 (٧) سير النعل، وهو زمام بين الإصبع الوسطى والتي تليها (٨) الشجيرة (٩) ظفر الجواد
 (١٠) المرجل: القندر (١١) الأرجل - من اللواب - ما كان فى إحدى رجله بياض
 (١٢) القطيع من الغنم، وقيل: صفارها، وقيل: الغنم بكلبها وحمارها وراعيتها
 (١٣) المسان (جمع مسن) أى هرم . والمهار جمع مهر، والقياس: المباراة، يقول:
 وقد جمعت حلبة السباق بين الكبار والصغار من الجياد (١٤) الخشاش من الطير ما لا قدرة
 له على الصيد كالعصافير وما إليها (١٥) الصغير من الخيل (١٦) التراعى بالسهم،
 والمراد: المناجزة (١٧) العرادة: انثى الجراد، تسمى بها الفرس
 (١٨) القرضاب: السيف، وطرف القرضاب يسمى الذباب أيضا

وَقَدْ تَدْعَى الثَّمَامَةَ^(١)، جَلِيلَةَ؛ وَبَعْضُ الْهَامَةِ، قَبِيلَةٌ^(٢)؛ وَلَيْسَ كُلُّ مُثَوَّبٍ^(٣)،
مُبَشَّرًا؛ وَلَا كُلُّ مُثَنَّبٍ، مُؤَشَّرًا. أَعْرَضَ شَاوُ لَا يَتَعَلَّقُ بِنَصَبِهِ^(٤)، وَعَنْ
أَمْدٍ لَا يَتَعَبُ فِي طَلَبِهِ؛ وَإِنَّمَا يُحْكَمُ بِشَمْرِ الْجَبَّارِ^(٥)، لِمَنْ أَصْلَحَهُ فِي وَقْتِ
الْإِبَارِ^(٦)؛ وَيَصِيدُ ظَلِيمَ^(٧) الْمُقَاءِ^(٨)، مَنْ زَهَدَ فِي ظَلِيمِ السَّقَاءِ^(٩).
نَامَ وَاللَّهِ الْلَاغِبُ^(١٠)، وَأَذْلَجَ الرَّاعِبُ.
تَسَانَى أُمَّ وَهَيْبٍ جَمَلًا يَمْشِي رُوَيْدًا، وَيَكُونُ الْأَوْلَا!

* * *

فَأَصْبَحَتْ مِنْ لَيْلَى الْعُدَاةِ كَنَاطِرٍ مَعَ الصَّبْحِ فِي أَعْقَابِ نَجْمٍ مُغْرَبٍ
وَلَيْسَ حُسْنُ الظَّاهِرِ لِمَتَّظَاهِرٍ، وَلَا الْبَهَارُ بِالْبَاهِرِ؛ وَمِنْ الزُّورِ، أَدْعَاءُ
الْمَشَاءِ لِلزُّورِ^(١١). وَإِنْ جُنَّتِ^(١٢) الرِّيَاضُ، فِي الْأَنْوَاضِ^(١٣). وَأَعْتَمَّ الْعَقِيقُ^(١٤)،
بِالشَّقِيقِ؛ فَإِنَّ الْأَبَارِقَ^(١٥)، لَمْ تَبْسُطْ بِالنَّمَارِقِ^(١٦)؛ وَالْقَرَى^(١٧)،
لَمْ يُفْرَشْ بِالْعَبْقَرَى^(١٨).

(١) النبتة الضعيفة (٢) الهامة: الرأس، والقبيلة إحدى قبائله، وهي التقطع المشعوب بعضها من بعض في الرأس (٣) المثوب: المشير بطرف ثوبه ليبشر بنياً سار. وربما فعل ذلك طالباً للنجدة (٤) مؤشّر: محرز الأسنان في أطرافها، والعرب تمدح بهذا والنصب: الغاية (٥) النخل العالى (٦) التلقيح (٧) ذكر النعام (٨) الأرض الواسعة (٩) لبن يشرب قبل أن يبلغ الرّوْب (١٠) المجهود المتعب (١١) أى: ومن الكذب أن تدعى للمرأة القليلة الولد أنها كثيرة الأولاد (١٢) جنت: أزهرت (١٣) الأنواض: مسابيل المياه من المواضع المرتفعة إلى السهول (١٤) الوادى (١٥) جمع أبرق، وهو: ما غلظ من الأرض فيه حجارة ورمل وطين (١٦) الوسائد الصغيرة (١٧) مسيل الماء (١٨) نوع من البُسط

هَدَىٰ أَبِي الْقَاسِمِ

وَنَحْنُ عَلَىٰ شَحَطِ الْمَعَانِ ^(١)، وَأَعْتَاضِ الشُّهُوبِ دُونَنَا وَالرَّعَانِ ^(٢)؛ لَا نَعْدَمُ
مِنْ قَبْلِهِ تَثْقِيفَ الْمَائِلِ، وَالْإِرْشَادَ إِلَى الْمَنَارِ الْمَائِلِ ^(٣)؛ بِكِتَابِ حِكْمَةٍ يُوفِدُهُ،
وَعَهْدِ بَصِيرَةٍ يَعْهَدُهُ؛ وَالْمَشْتَرِي وَالزُّهْرَةَ وَإِنْ نَائِبًا، يُبَلِّغَانِ الْمَحَابَّ مَنْ تَوَلَّيَا؛
فِي زَعْمِ الْمُنْجِمِينَ، وَبَعْضِ الْفَلَاسِفَةِ الْمُتَقَدِّمِينَ .

نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْمَقَالَةِ، وَنَسْتَكْفِيهِ الْإِيغَالَ فِي طُرُقِ الْجَهَالَةِ؛ وَلَكِنْ
الْمَثَلَ مَضْرُوبًا، وَأَخْلَقَ مُدَبَّرًا مَرْبُوبًا ^(٤).

وَإِنْ ضَرَبَ أَرْوَاقَ التَّيْبَةِ ^(٥)، بِمِصْرٍ؛ وَأُسْتَحْفَ مِنْ الْأَشْغَالِ السَّيِّئَةِ، كُلَّ
إِصْرٍ ^(٦)؛ فَزِلْنَا ^(٧) - بِإِذْنِ اللَّهِ - مِمَّا يَرْعَاهُ، وَمَزَارِعَهَا أَحَدًا مَا يَكْلُوهُ وَيَتَوَلَّاهُ.
فَالسِّيَّارُ الْفَرْدُ ^(٨) عِنْدَهُمْ يَشْتَمِلُ بِوِلَايَتِهِ عَلَى الْأَفْطَارِ الْمُتَنَائِيَةِ، وَيَنْتَظِمُ بِهَا
أَقَالِيمَ ضِدِّ الْمَتَسَاوِيَةِ .

وَكُلُّ خَالِصِ السَّامِ ^(٩)، وَقَدِيمِ سُمِّي ^(١٠) الْحُسَامِ؛ وَأَخِي حُشَّاشَةٍ مِنَ اللَّبِّ
يَسْتَنْجِدُهَا، وَفَرَّاشَةٍ مِنَ التَّمْيِيزِ يَسْتَرْفِدُهَا؛ مُذْ رَأَى رَيْقًا ^(١١) سَامِهِ، وَأُجْتَلَى

(١) على تنائي الدار (٢) السهوب: السهول، والرعان: رهوس الجبال (٣) المائل: القائم

(٤) شبيهه بهذا المعنى قوله :

« عش مجبراً، أو غير مجبر فالخلق مربوب مدبر »

(٥) أي حلّ ونزل (٦) ثقّل (٧) قرانا ومنازلنا (٨) أحد الكواكب السبعة

(٩) الذهب (١٠) السُمِّي - هنا - : الصييت (١١) الرَيْقُ - من كل شيء - أفضله

— بِالتَّدْبِيرِ — رَوَتْ حُسَامِهِ ؛ كَالسَّرَطَانِ (١) فِي انْقِطَاعِ الصَّوْتِ النَّابِسِ ،
وَزَحَلِ (٢) فِي الْمِزَاجِ الْقَارِسِ . فَعِيَهُمْ (٣) أَطْوَلُ مِنْ رِذَاءِ الْعَرُوسِ ، وَوَعِيَهُمْ
أَبْكَاءُ (٤) مِنْ دَرِّ الْخُرُوسِ (٥) . فَلَيْتَهُمْ كَذَوَاتِ الْأَصْوَاتِ الْمُتَنَصِّفَةِ (٦) ،
وَالنَّاطِقِينَ بِأَسْلِ (٧) مُنْحَرَفَةٍ ؛ فَإِنَّ الْعُجْمَةَ ، لِأَسْهَلُ مِنَ الْبُكْمَةِ ؛ وَالْحَبْسَةَ ،
أَقْلُ ضَرَرًا مِنَ الْخُرْسَةِ ؛ وَتَمَنَّى الْفَائِتِ ، كَمَحَاوَلَةِ إِحْيَاءِ الْمَائِتِ . وَمَنْ
يَجْعَلُ الرَّبُوبَةَ (٨) رُوبَةً (٩) ، وَالسَّبْتَ عَرُوبَةً (١٠) ؛ وَضَائِعُ آدَاءِ الْفُرُوضِ قَبْلَ
دُخُولِ الْأَوْقَاتِ ، وَالْإِحْرَامِ بَعْدَ مَجَاوِزَةِ الْمِيقَاتِ .

وَإِنْ كَانَ مَا اخْتَلَسَ مِنْهُمْ لَا قِيَمَةَ لَهُ فِي النِّقِمَةِ (١١) ؛ وَلَا إِشَارَةَ ، إِلَيْهِ مِنْ
أَهْلِ الشَّارَةِ (١٢) ؛ فَارْتِيَا حُ اللَّا قِطَّةِ ، بِسَاقِطَةِ النُّقْدِ ؛ كَارْتِيَا حُ الْمَاشِطَةِ ، بِوَاسِطَةِ
الْعِقْدِ (١٣) . وَلَا يُزِينُ لِأَمِّ السَّمْعَةِ ، مَقَمَهَا حُسْنُ الْبَهْجَةِ ؛ وَلَكِنْ تَحْنُو عَلَيْهَا
طَوْلُ الْحَيَاةِ ، وَتَحْزَنُ لِفَقْدِهَا عِنْدَ الْمَمَاتِ .

(١) السرطان : حيوان من خلق الماء لا صوت له (٢) زحل كوكب مشهور أكثر
المعرى من ذكره ، في شعره ونثره ، وقال في دليته المشهورة :

« زحل : أشرف الكواكب دارا ، من لقاء الردى على ميعاد ،

ولنار المريح - من حدثان الدَّ هُر - مطف - وإن علت في اتقاد

الثرِيَا رهينة بافتراق الشَّ حل ، حتى تعد في الأفراد »

(٣) معجزهم (٤) أقل لبناً (٥) البكر إذا وضعت البطن الأول ، وهي - حينئذ -

أقل الناس لبناً ، وقد مر ذلك في رسالة الأخرسين (٦) الحيوان الأعجم (٧) جمع أسلة ،

وهي طرف اللسان ، يريد : العجم (٨) المرتفع من الأرض (٩) المنخفض من

الأرض (١٠) جمعة (١١) النقيمة : الخلد والنفس (١٢) أهل الفطنة والكياسة

(١٣) الواسطة : أنفس جوهرية في العقد ، قال ابن الرومي :

« توخى حمام الموت أوسط صبيتي قلله : كيف اختار واسطة العقد ؟ »

وَجَوْزُهُ نَحْرُ الْأَفِيلِ^(١) ، إِذَا لَمْ يَسْتَقِلَّ بِعَبِّ الْفِيلِ ؛ وَهَدْمُ سَخِيفَاتِ
الدُّورِ ، إِذَا فَرَعَتْهَا^(٢) مُنِيفَاتُ الْقُصُورِ ؛ وَكَسْرُ الْمِرْمَاةِ^(٣) ، لِقِصَرِهَا عَنِ
الْقَنَاةِ^(٤) ؛ وَدَفْنُ النَّابِ^(٥) ، إِذَا لَمْ تَلْحَقْ بِالشَّوَابِ .

إِجْلَالُ التَّقْدِيسِ

وَلَوْلَا ذَلِكَ لَوَجَبَ تَرْكُ النَّعْمِ^(٦) ، إِلَّا مَا كَانَ : كـ « لا ، وَنَعَمْ » ؛ يُخْبِرُ بِهِ
عَنِ الْإِرَادَةِ ، وَيَمْنَعُ قَلِيلُهُ مِنَ الزِّيَادَةِ . وَأَحْرَمَ - - إِجْلَالًا لِمَا قَالَ - - سَجْعُ
الْكَلِمَتَيْنِ ، وَتَقْفِيَةُ الْبَيْتَيْنِ . وَقَدْ كَانَتْ الْمُتَحَمِّسَةُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا^(٧) ، وَسَدَنَةُ
الْأَوْثَانِ عَلَى أَوْلِيَّتِهَا ؛ لَا تَتَّخِذُ بَيْتًا مَرَبِّعًا ، إِجْلَالًا لِلْكَعْبَةِ وَتَوَرُّعًا . وَهَلْ
طَالِبُ ذَلِكَ - - سِوَاهُ - - إِلَّا كَمَفْنِي الشَّبِيبَةِ ، فِي نَسِجِ السَّبِيبَةِ^(٨) ؟ وَمُضِيعُ
الشَّرِيخِ^(٩) ، فِي التَّمَاسِ الْبَرِّمِ^(١٠) وَالْمَرِيخِ^(١١) ؟ وَالسَّحْمِ^(١٢) ، لَا يَقْطَعُ الْوَحْمَ ؛
وَالنَّشْمِ^(١٣) ، لَا يُحْسَبُ مِنَ الرَّشْمِ^(١٤) . وَكُلُّهُمُ - - غَيْرُهُ - - يُنْفِقُ مِنْ رَأْسِ
مَالٍ تَزْرٍ ، وَلَا يُحْكَمُ - - عَلَى مَدَّةٍ - - بِالْجُزْرِ ؛ وَلَكِنْ يَنْفِدُ الثَّغْبُ ، بِالنُّغْبِ^(١٥) ؛

(١) الأفيل : الصغير من الإبل ، أو : هو ولد الناقة إذا فصل عن أمه (٢) علقتها

(٣) السهم الصغير (٤) القناة : الرمح ، قال المتنبي :

« كلما أُنبت الزمان قناة ركب المرء - في القناة - سنانا »

(٥) الناقة المسنة (٦) يعني : الكلام (٧) المتحمسون في دينهم من عرب الجاهلية

(٨) السبيبة : الشقة من الثياب ، وهي أيضاً : الخصلة من الشعر (٩) وقت الشباب

(١٠) ثمر العضاء (١١) المرخ : شجر كثير النار (١٢) السحْم : نبت

(١٣) شجر تعمل منه القسي (١٤) أول ما يظهر من النبت

(١٥) الثغْب : ذوب الجعد ، أو هو : الغدير في ما غلظ من الأرض ، والنُّغْبُ : الجرع

من الماء ، يقول : إن ماء الثغْب تفنيه الجرعات

وَيَفْنَى الشَّمْعُ ، بِجَفِيَّاتِ اللَّعْمِ ؛ وَهُمْ فِي هَذَا الصَّقْعِ ، كَأَسْنَانِ الْمَسَارِحِ ^(١) ،
وَنَوَاجِدِ الْقَمْرِ الْقَوَارِحِ ^(٢) : تَنَكَّبَهُمُ الْفَوَائِدُ تَنَكَّبَ السَّهْمَ الْعَائِرِ ،
وَالرَّكَبَ الْجَائِرِ :

« بِنَاحِيَةٍ ، أَمَا الْعَدُوُّ فَنَازِلٌ ، مُطِيفٌ بِهَا فِي مِثْلِ دَائِرَةِ الْمُهْرِ »
يُحَوِّلُ فِيهَا الْجَرِيضَ ^(٣) ؛ دُونَ الْقَرِيضِ ؛ وَالْحَذَارُ ، دُونَ أَدَاءِ الْأَعْتِدَارِ .
فَقَدَّ أَدْمَى الْخُفِّ ، وَطَهُهُ الْخُفُّ ^(٤) ؛ وَذَهَبَ الْخَارِبُ ^(٥) ، بِذِي الْغَارِبِ ^(٦) .
وَإِنَّمَا هُوَ رِفْقٌ شَمٌّ أَقْتَسَارُهُ ، وَلَيْسَ بَعْدَ السَّلْبِ إِلَّا الْإِسَارُ ؛ فَهَمْ يَتَوَقَّوْنَ
كِفَّةَ الْحَابِلِ ؛ وَيَتَوَقَّعُونَ رَشْقَ النَّابِلِ ؛ عَلَى أَنَّ الْقَارِبَ ^(٧) ، أَخُو الشَّارِبِ ؛
وَالهُبَّعَ ^(٨) ، طَرِيدُ الرَّبْعِ ^(٩) .

مَا أَقْرَبَ طَسْمًا مِنْ جَدَيْسٍ ^(١٠) ، وَأَدْنَى الْبَازِلِ ^(١١) مِنْ السَّدَيْسِ ^(١٢) !

(١) الأمشاط ، يقول : إنهم كأَسْنَانِ الْمَشْطِ ، كما يقال أيضاً ، كأَسْنَانِ الْحِمَارِ ، أَيْ
أَنَّهُمْ مُسْتَوُونَ فِي الدَّمِ كَمَا تَسْتَوِي تِلْكَ الْأَسْنَانُ فِي الْحَجْمِ (٢) القمر القوارح : الحمير
(٣) الريق يغص به ، وهو مثل يضرب للأمر تحول العوائق دون إنجازها ، وقد قاله
عبيد بن الأبرص قبيل هلاكه (٤) يقول : « أدمى باطن القدم مشيها على ما غلظ من
الأرض » (٥) سارق الإبل (٦) الغارب : هو ما قدام السنم (٧) السائر الذي لم يبق
بينه وبين الماء إلا ليلة (٨) الفصيل يولد في آخر النتاج (٩) الفصيل الذي ينتج في
الربيع ، وهو أول النتاج (١٠) قبيلتان مر بالقارى ذكرهما في الجزء الثاني في التعليق على
قصيدة الجنى ، وقد قال المعرى :

« سَيْسَالُ نَاسٍ : مَا قَرِيضٌ وَمَكَّةُ ؟ كَمَا قَالَ نَاسٍ : مَا جَدَيْسٌ وَمَا طَسْمٌ ؟ »
(١١) البازل من الإبل ما بزل نابه أى ظهر ، ويكون ذلك في التاسعة من عمره ، قال الشاعر :
« عذرت البزل إذ هي غالبتي فما بالي وبال ابني لبون ؟ »

(١٢) السديس : أصغر من البازل بعام واحد .

ذَعْرُ الْمَعْرَةِ

لَا يَزَالُونَ يُمَارِسُونَ جَابَةً^(١) ، تَنْفِي التَّجَابَةِ^(٢) ؛ نَفْيُ الدَّبْرِ^(٣) ، لِلْوَبْرِ ؛
وَالسَّمْعِ ، لِابْنِ الضَّمْعِ ؛ وَبَيْنَ الزَّلَلِ ، فِيهِمْ مِنْ خَوْفِ الشَّلَلِ^(٤) ؛ كَمَا بَانَ
الْقَلْحُ^(٥) ، مِنْ وَرَاءِ الْفَلْحِ^(٦) .

فَقَلِيلُ الْعِلْمِ مِنْهُمْ يُسْتَطْرَفُ ، وَيُسْتَعْرَبُ وَلَا يَكَادُ يُعْرَفُ ؛ كَالشَّنُوفِ^(٧) ،
عَلَى الْأَنْوِفِ ؛ وَالْحَقَابِ ، فِي وَسْطِ الْعُقَابِ ؛ وَالْوَدَعِ ، فِي عُنُقِ الصَّدَعِ^(٨) ؛
وَالْفُورِ^(٩) ، بَيْنَ أَهْلِ الْكُفُورِ . لِأَنَّ سَالِمَهُمْ هَامَةٌ الْيَوْمِ أَوْ غَدِ^(١٠) ، وَإِنْ
لَمْ يَكُنْ مَا خَافَ فَكَانَ قَدْ .

وَلَوْ رَحَلُوا ، قَبْلَ أَنْ يُوحَلُوا ؛ وَتَوَكَّلُوا ، عَلَى اللَّهِ — فِي الْمَسِيرِ — قَبْلَ أَنْ
يُوكَلُوا ؛ لَنَفَعَ الْفِرَارُ ، الْفِرَارُ^(١١) ؛ وَأَسْتَرَّاحَ الْفَقَارِ^(١٢) ، إِلَى وَضْعِ الْأَوْقَارِ^(١٣) .
وَكَمْ مُصَابِرَةٌ الذَّرْعِ ، لِابْسِ الذَّرْعِ^(١٤) ؛ وَالْبِرِّ^(١٥) ، الْهَرِّ ؟ !

وَإِنْ كَانَ دُونَ كَسْبِ الْعِتَادِ ، مُمَارَسَةُ خَرْطِ الْقِتَادِ ؛ فَتَقْدُمُ^(١٦) الْمَالِجِ^(١٧) ،
أَوْطَأَ مِنْ الْعَتِدِ^(١٨) ذِي الْقَالِجِ ؛ وَالْمَرْقَدُ ، جَافٍ عَلَى ابْنِ أَنْقَدِ^(١٩) . وَإِنَّمَا يَشْدُو

(١) أى : يمارسون عيشاً غليظاً خشناً (٢) كرامة الحسب (٣) قرح فى ظهور
الإبل يمنع إنبات الوبر (الشعر) (٤) الهلاك (٥) صفرة الأسنان (٦) شق فى الشفة
السفلى (٧) الأقرط (٨) الحمار الغتى ، أو هو الوعل (٩) الظباء (١٠) وشيك الهلاك
(١١) الفرار : ولد البقرة الوحشية (١٢) سلسلة الظهر (١٣) الأثقال (١٤) الذرع :
ولد البقرة الوحشية ، ولابس الذرع : الذئب (١٥) البر : الفأرة (١٦) خشب الرحل
(١٧) الناقة السريعة (١٨) الفرس المعد للجرى (١٩) القنفذ .

— بِالْتَرْتِمِ — شَادِيهِمْ ، وَيَعْدُو — فِي أُولَى الدَّعْوَى — غَادِيهِمْ ، يَبِينُ أَنْاسٍ
يَقْظَةُ أَحَدِهِمْ أَقْصَرُ مِنْ لَحْظَتِهِ ، وَسِدْنَتُهُ أَطْوَلُ مِنْ سَنَّتِهِ ، وَحِلْيَةُ النَّوَاةِ ،
لَدَيْهِ أَحْلَى الْأَدْوَاتِ ، وَحُسْنُ الْبِرَاعَةِ ، أَحْسَنُ الْبِرَاعَةِ .

فَإِذَا جَاءَ بَعْضُهُمْ بِسِمَارٍ^(١) ، وَمَارَى — بِتَفْضِيلِهِ — مُمَارٍ ، فَقَدْ سَجَدَ
السَّفْسَافُ^(٢) ، لِإِسَافٍ^(٣) ، وَأَهْدَى الْهَسَمِ^(٤) ، لِلصَّمِّ . وَالسَّرْفَةُ^(٥) ، تَتَّخِذُ
— لِسِنْفَعَتِهَا — الْعُرْفَةَ ، وَرُبَّمَا عَنَتِ الْقَرَارَةَ^(٦) ، بِالْعَرَارَةِ^(٧) ، وَجُعِلَ الْخِمَارُ ،
عَلَى وَجْهِ الْخِمَارِ .

وَلَيْسَ الضَّرْبُ^(٨) ، بِالْمَرْعَى الْمَرْبِيعِ^(٩) ، عَلَى أَنَّ التَّفْكِيرَ ، قَبْلَ التَّكْبِيرِ .
وَالْخُطْبَةُ^(١٠) ، ثُمَّ الْخُطْبَةُ^(١١) .

فَأَمَّا بِحُضْرَةِ سَيِّدِنَا — بَقِي ، وَوُقِيَ ؛ حَتَّى يَلْبَسَ^(١٢) الْهَجْرَ^(١٣) ، إِلَى ضِيَاءِ

(١) اللبن المشوب بالماء ، ويراد به هنا : الخلط في الحديث (٢) السفساف : الردي
من كل شيء ، قال ابن الرومي :
« أشعري سفساف ؟ فلم يجتوبونه وإن لم تكن هذى ، فلم لا أتوب ؟ »
وقال :

« ويح القوافي ! ما لها سفسفت حظي ؟ كأني كنت سفسفتها »

(٣) إساف : اسم صنم يزعمون أن عمر بن لحي قد وضعه على الصفا (٤) التمر
(٥) دويبة سوداء الرأس حمراء الجسد تتخذ لنفسها بيتاً مراً بعداً من حطام العيدان الدقيقة
وتضم بعضها إلى بعض بلعابها وتدخله فتموت فيه (٦) عنت ، أى أنبتت ، والقرارة :
الطمئن من الأرض (٧) واحدة العرار ، وهو نبت طيب الريح ، قال الشاعر :

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشيّة من عرار

(٨) نبات يابس خبيث ينبت على وجه الماء لا ينتفع به (٩) الخصب (١٠) طلب الزواج

(١١) خطبة العقد بين الزوجين (١٢) يدنو ، أو يدخل (١٣) نصف النهار

الفجر، ولوب صلاة العصر، من القصر^(١) - فما يسعهم غير الاستماع،
والتسليم بعد الإجماع.

فإن ذكر له - أدام الله تأييده - أن حافر القلب، أنبط المحض
الحليب^(٢)، وأن الرسل^(٣)، حلب العسل، وأن نجلاً من راج^(٤)، ظهر في
هجل براح^(٥) - فعارضته^(٦)، أعلم بالمعارضة؛ واربة أربته^(٧)، أفدر على
المناقضة. حسب التربة، نطفة تشفى الكربة، والناق، غلبة^(٨) عند
الإفاقة^(٩)، والجمجمة^(١٠)، النياية عن السحابة المضمجة^(١١).

سرور الشاكر

وذكره عبده بما يشبه مننه صنيعة يضيق عنها باع الشكر، وأبعث وهي
منى على ذكر، غرست الشورور في سريرتي، وعامت النفاسة نفسي، وخذت
الغبطة في خلدي؛ إلى أن أمسى خبي الراميس^(١٢)، ونجى هند الأحاميس^(١٣).
هضب، حسي بعد ما نضب^(١٤)، وبغش، لسيسي - وقد نس - فانتعش^(١٥)،

(١) آخر النهار (٢) يشير إلى استحالة أن يحدثه حدث بأنه قد حفر بئراً فأخرج منها
لبناً خالصاً (٣) الإبل (٤) ينبوعاً أو نبعاً من الخمر (٥) هجل: سهل مطمئن من
الأرض وبراخ: متسع لا زرع فيه ولا شجر (٦) قدرته على المنطق والجدال (٧) قوة
عقله وفطنته (٨) قدح من خشب يجلب فيه (٩) الراحة بين الحلبتين (١٠) البئر تحفر
في الأرض السبخة أو الغليظة (١١) التي يكثر مطرها ويدوم (١٢) أي حتى يواريني
الرمس أي الجدث، والرامس: الدافن (١٣) هند الأحامس: هي النية (١٤) أي أن
حسي قد أمطر وفاض بعد أن غاض ماؤه (١٥) بغشه المطر: أصابه منه شيء،
والنيس: بقية النفس، ونس: يبس.

وَعَرَّتْنِي الْأَزْيَحِيَّةُ^(١) ، الْمُشْتَقَّةُ مِنَ الرِّيَّاحِ الْعَرِيَّةِ^(٢) ، فَمَلَأَتْ الصَّدْرَ ،
وَأَمَرْتَنِي بِمُجَاوَزَةِ الْقَدْرِ ، لِأَنَّ الْجَنُوبَ ، تُهَيِّجُ نَقَعَ الْجُبُوبِ^(٣) ، وَالشَّمَالَ ،
تُحَرِّكُ سَاكِنَ الرَّمَالِ ، حَتَّى عَاتَبْتُ الضَّمِيرَ ، وَانْفَتَتْ إِلَى السَّرِّ الْخَمِيرِ^(٤) ،
فَقُلْتُ : السِّمَّةُ^(٥) ، فِي الْقِسْمَةِ^(٦) ، أَزِينُ مِنَ الْأَشْرِ^(٧) ، لِلدَّشْرِ ، وَطَالَ مَا عَصَفَ ،
النَّسِيمُ فَقَصَفَ .

احلام البهجة

وَلَنْ أَكُونَ كَالْغُبَارِ ثَارَ مِنَ الْمَلَاطِسِ ، فَزَارَ الْمُعَاطِسِ^(٨) ! أَسْكِرَانُ أَنَا
أَمْ هَكِرَانُ^(٩) ؟ إِنْ كُنْتُ أَنْتَشَيْتُ ، فَالْتَّمَلْ^(١٠) ، يُقَوِّى الْأَمَلَ : أَوْ اغْفَيْتُ ،
فَالْوَسْنَ ، يُرَى الْحُلْمَ الْحَسَنَ . هَذَا مَعَ إِحَاطَةِ الْيَقِينِ أَنَّ الْغَدَمَةَ^(١١) ، لَا تُشَدُّ
مِنْهَا الْوَدَمَةَ^(١٢) ، وَأَنَّ الْبَرَقَ^(١٣) ، لَا يَسْتَحِقُّ كَسْوَةَ السَّرَقِ^(١٤) ، وَأَنَّ
الْبَدِيْعَ^(١٥) ، لَا يُمَلَأُ مِنْ رِسْلِ الصَّدِيْعِ^(١٦) . تَزِيدُ الْعُرَارَةَ ، بِسُقْيَا الْعُرَارَةِ^(١٧) ،

- (١) هزة الارتفاع والفرح (٢) الباردة (٣) الجنوب : الأرض ، يعنى أن ريح
الجنوب تثير غبار الأرض وتهيجها (٤) المستور الخفي (٥) السمة : الوسم : أثر الكي
وفي الكتاب الكريم : « سَنَسِمُهُ عَلَى الْخَرْطُومِ » أى على أنفه (٦) الوجه (٧) البطر
(٨) الملاطس : العفوس تكسر بها الحجارة والصخور ، والمعاطس : الأنوف ، قال المعري :
« قد يرفع الله الوضيع بنكبة كالنقع ، زار معاطسا بملاطس
فاذهب لشأنك في الأمور ، ولا تبت كالنكس : يجنح من حذار العاطس »
(٩) نائم (١٠) السكر (١١) ضرب من النبت (١٢) سيور تشد
بها الدلو (١٣) الحمل (١٤) الشقق من الحرير (١٥) الزق الجديد
(١٦) لبن الوعل الفتى (١٧) نبت مر ، فهو يسقى الماء العذب ، فينمو مرًا .

وَرِيُّ الْمَقْرِ^(١) ، لَا يَخْلَعُ عَلَيْهِ لَوْنُ الشَّقْرِ^(٢) ، وَمَنْ أَنَا حَتَّى يَصِفَنِي بِالنَّقَالِ^(٣) ،
وَيَزِنَ بِي النَّقَالَ ، الْبَرِيرُ^(٤) ، يُسَوِّدُ فَمَّ الْغَرِيرِ^(٥) ، وَأَنَّى بِالنَّوُورِ^(٦) لِلنَّوَارِ^(٧) ،
وَصَوَارِ الطَّيْبِ^(٨) لِلصَّوَارِ^(٩) ؟ هَلْ أَدْبَى فِي أَدْبِهِ ، إِلَّا كَالْقَطْرَةِ ، فِي
الْمَطْرَةِ ، وَالنَّحْلَةَ ؛ عِنْدَ النَّحْلَةِ ؟

القوة والضعف

وَإِنَّمَا صَاحِبُ الدَّرْهَمَيْنِ ، غَنِيٌّ عِنْدَ صَاحِبِ الدَّرْهَمِ ، وَالْأَفْطَسُ أَسْمُ فِي
تَخْيِيلِ الْأَكْشَمِ^(١٠) . فَأَمَّا شَدَادُ بْنُ عَادٍ ، وَعَاقِرُ الْجِيَادِ^(١١) ، فَأَلْبَدِيُّ ،
تَوَهَّمَهُمَا التَّرَاءُ الْيَدِيَّ^(١٢) ، عِنْدَ جَالِبِ الْعَضْدِ^(١٣) ، وَبَائِعِ الْخُضْدِ^(١٤) .
فَصَاقَ ذَرْعِي فِي جَزَاءِ مَا تَطَوَّلَ بِهِ ، ضَيْقَ ذَرْعِ النَّمْلَةِ ، بِاتِّخَاذِ الشَّمْلَةِ ،
وَالْحُمْنَانَةِ^(١٥) ، بِثَقْبِ الْجُمَانَةِ^(١٦) ، فَلَيْتَهُ — أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ — أَطْلَعَ مِنْ عَبْدِهِ عَلَى
كَنِينِ الْأَعْتِقَادِ ، وَجَنِينِ السَّوَادِ^(١٧) ، فَيَعْلَمُ أَنَّ الرُّوعَ^(١٨) ، وَجَوَانِحَ الضُّلُوعِ ،
مُنْفَعَةٌ لَهُ بِالْإِعْظَامِ ، مُتْرَعَةٌ^(١٩) بِمِجْحَبَتِهِ إِتْرَاعِ الْجَامِ^(٢٠) . لِأَنَّهُ جَعَلَ حَصَاتِي
كَثِيرٍ^(٢١) ، وَخَلَطَ عَثِيرِي بِالْعَبِيرِ^(٢٢) ، وَلَا لِأَنَّ سَيِّدَنَا الرَّئِيسَ الْأَجَلَ وَاللَّهُ ،

(١) الصبر (٢) شقائق النعمان (٣) ضرب من سير الخليل (٤) ثمر الأراك

(٥) الفتى من الظباء (٦) دخان الشحم وهو: النيلج (٧) الظبية النافرة

(٨) رأحته (٩) القطيع من بقر الوحش (١٠) مقطوع الأنف (١١) شداد هو

باني إرم ذات العماد، وعافر الجياد هو سليمان عليه السلام (١٢) البدى: العجيب، واليدى:

الواسع (١٣) ما يقطع من الشجر (١٤) ما يؤخذ من أطراف العيدان الرطبة بالعضد

(١٥) الحمناة: الصغيرة من القراد (١٦) اللؤلؤة (١٧) يعنى سواد القلب

(١٨) القلب (١٩) مملوءة (٢٠) إناء من فضة يشرب فيه الحجر (٢١) أى: لأنه يجعل

عقلي راجحاً رجحان جبل ثبير (٢٢) العثير: الغبار، والعبير: الزعفران، أو أخلاط من الطيب

أَدَامَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ: سَبَقَ ، مِنْ الْإِفْضَالِ بِمَا رَبَّقَ^(١) ، وَقَدَّمَ ، مِنْهُ مَا كَانَ لَشْرِهِ
السَّدَمَ^(٢) ، وَلَكِنْ لَمَّا أُوتِيَ أَقَالِيدَ^(٣) الْحَوَارِ ، وَنَطَقَ بِفِرُودِ حَضَارٍ^(٤) ؛ وَعَلِمَتْ
أَنَّهُ فِي صَاغِيَةِ الْأَدَبِ^(٥) ، كَتَبَعَ فِي طَاغِيَةِ الْعَرَبِ ، لَهَجَتْ بِحُبِّهِ لَهَجَ السُّوقَةِ ،
بِحُبِّ الْمَلِيكِ الرُّوقَةِ^(٦) ، إِذَا أَخَذَ بِالْفَضْلِ ، وَحَكَمَ بِالْقَضَاءِ الْفَضْلَ ، وَنَصَحَتْ
لَهُ نَصَحَ الْهُدْهُدِ لِسُلَيْمَانَ ، وَشَيَّعَتْ مَا أَذْكَرُ مِنْ نُبْلِهِ بِالْإِيمَانِ . أَصِفُ
وَكُلُّ وَصْفِي صَبِيحٌ ، وَأَحْلِفُ وَحَلْفِي تَسْبِيحٌ ، حَتَّى اسْتَجْهَلَنِي الَّذِي لَا يَعْلَمُ ،
وَتَكَلَّمَ فِي تَضْلِيلٍ مَنْ تَكَلَّمَ ، لِأَنِّي مَا أَقْتَنَعْتُ بِتَفْضِيلِهِ عَلَى الْأَخْدَاتِ ، دُونَ
سُكَّانِ الْأَجْدَاتِ ، وَلَا غَلَبْتُهُ عَلَى الْغَابِرِ ، دُونَ الْكَابِرِ ؛ وَلَكِنْ وَجَبَتْ^(٧)
الشُّخَيْرِ^(٨) ، وَرَجَبَتْ^(٩) الطَّرْفَ^(١٠) الْأَخِيرَ .

أصالة الفضل

وَلَيْسَ النَّصْرُ ، بِقَدَمِ الْعَصْرِ ، وَلَا التَّجْوِيدُ ، بِذَهَابِ أَيْدِ الْأَيْدِ^(١١) ،
الرَّوِي^(١٢) بَعْدَ التَّوْجِيهِ^(١٣) ، وَأَخْدَرَ^(١٤) أَقْدَمَ مِنَ الْوَجِيهِ^(١٥) . وَإِنْ كَانَتْ السَّيْرُ ،

- (١) بما قيد أى بما طوق عنقى (٢) السدم : الدين ، يقول إنه — أى المعرى —
تخذ ديدنا له إذاعة ما أسداه إليه أبو الوزير المغربي من أياد ونعم (٣) مفاتيح (٤) فرود
النجم : التى تطلع فى آفاق السماء . وحضار : نجم . يريد : هذا النجم وما يتبعه من الكواكب
(٥) أهل الأدب (٦) الشاب الرائق الحسن (٧) حقرته وألزمته السكوت
(٨) الحمار (٩) عظمت وأكبرت (١٠) الجواد الأصيل الكريم الأبوين
(١١) أيد الأيدى : طول الدهر (١٢) الروى : الحرف الذى تبنى عليه القصيدة
(١٣) التوجيه حركة ما قبل الروى فى الشعر المقيد (١٤) وأخدر : حمار أليف
توحش فنزا على آتن وحشية فنسبت إليه حمر الوحش . (١٥) الوجيه : اسم فرس من
كرام خيل العرب . وصدق المتنبي : بجمهة العير يفدى حافر الفرس .

بَعِيرٍ غَيْرٍ ، وَالْحَبْرُ فَاقِدٌ لِلْحَبْرِ ، فَالْحَبَّةُ بَعْدَ الْحَبَّةِ ، وَالضِّيَاءُ تَالِيُ الْكُهْبَةِ ^(١) ،
 وَمَا جَحَدَ أَحَدٌ ضَحَاهُ ، وَلَا وَحَى مَخْلُوقٌ مِثْلَ مَا وَحَاهُ . وَلَكِنْ لِلْمَهِيحِ ،
 بِالْفَارِطِ لَهْيَجٍ ، وَالْإِحَادَةُ ، عَنِ الْعَادَةِ ، تَخْلُطُ الْمُورَ ، بِالتَّمُورِ ^(٢) ، وَتُبَاشِرُ ظِلَامَ
 اللُّوبِ ^(٣) ، بِظِلَامِ الْقُلُوبِ ، وَقَدْ أَنْكَرَ مَنْ أَعْظَمَ الْعُزَى وَاللَّاتَ ، مَا جَاءَ بِهِ
 مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْآيَاتِ . فَلَمْ أَفْتَأُ — وَاللَّهُ شَهِيدٌ — أَصْبَغُ الْأَفْقَ ،
 بِالشَّفَقِ ، وَأَذْبِغُ الْأَدِيمَ ، بِالسَّدِيمِ ^(٤) . حَتَّى أَصْبَحَ الْيَافِعُ ، النَّاْفِعُ ، وَاللَّهْمُ ،
 الْمُدْرَمُ ^(٥) ، وَمَنْ يَبْنِيهِمَا مِنْ وَارِفٍ فِي السَّنِّ ، وَكَهْلٍ مُقْسِنٍ — أَحَدَ رَجُلَيْنِ :
 إِمَّا عَالِمٍ ، فَهُوَ مِنْ أَجْهَلِ سَالِمٍ ، وَإِمَّا بَلِيدٍ ، أَهْتَدَى بِالتَّقْلِيدِ . وَهُوَ — آدَامَ اللَّهِ
 قُدْرَتَهُ — الْفَرْعُ الَّذِي نَبَعَ مِنْ أَصْلِ زَاكِ . فَسَمَقَ ^(٦) إِلَى السَّمَاءِ ، وَحَفِظَ التُّومَ ^(٧) ،
 قَبْلَ أَنْ يَلْفِظَ بِالمَكْتُومِ ، وَلَمْ يَزَلْ ضَبُّ ^(٨) الْآفَنِ ^(٩) ، لِعَبِّ ^(١٠) الصَّافِنِ ^(١١) ،

(١) الحبر : يراد به هنا الكذب . والحبة : حبة القمح . والحبة : بذرة العشب . والكهبة :
 الظلمة — يقول : إذا سحت الأخبار المنقولة وختت من أكاذيب المتخرصين ، فان بذرة العشب
 سبقت حبة القمح ، لأن الحيوان رعى العشب قبل أن يخلق الناس ، وكذلك أشارت تلك
 الأخبار إلى أن الظلمة سبقت النور ، فلم تفضل بذرة العشب ولا الظلمة بالسبق .

(٢) المور : التراب أو الغبار ، والتامور : دم القلب (٣) اللوب : الأرضون السود
 ذات الحجارة السوداء (٤) الأفق : الجلود ما دامت في الدباغ . والسديم : الضباب .
 والمعنى أنه ظل يعمل المستحيل (٥) الغافى الذى سقطت أسنانه من الشيوخوخة (٦) ارتفع وعلأ
 (٧) التوم (جمع تومة) وهى اللؤلؤة الكبيرة يريد : لآلى العلم والأدب (٨) الضب :

الحلب بكثرتا اليبدين (٩) الآفن : الذى يجلب فلا يبقى فى الضرع شيئاً من اللبن
 (١٠) العبُّ (١١) الصافى — هنا — الرجل يصف قدميه ، يريد القائم الذى لم يجلب

وَإِهْوَاءِ الرَّادِسِ (١) ، لِإِرْوَاءِ الْقَادِسِ (٢) . حَتَّى التَّامَّتِ اللَّامَةُ (٣) ، مِنْ الزَّرْدِ ،
وَتَأَلَّفَتِ الْعِمَامَةُ ، مِنْ الْقَرْدِ (٤) . وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِاسْتِرْفَادِ حَضْرَتِهِ الْبَهِيَّةِ مِنْ
بَدَائِعِهِ مَا يَفْضُلُ الْمَالِ . وَيَكُونُ الْجَمَالَ ، فَعَدَانِي عَنْ ذَلِكَ إِعْطَايَ لَهُ
وَأَسْتِحْقَارِي نَفْسِي ، وَأَرْعَوْتُ بِي الْهَيْبَةَ إِلَى إِرْمَامِي (٥) وَكَفَى .

وَعْدُ كَرِيمٍ

وَأَبَى اللَّهُ أَنْ يَكُونَ التَّقْضُلُ إِلَّا مِنْ قِبَلِهِ ، فَوَعَدَ التَّشْرِيفَ بِمَا سَنَحَ مِنْ
الْمُنْثُورِ وَالْمَنْظُومِ ، فَلِلْقُلُوبِ إِلَى وَعْدِهِ هَيْأَمُ الظَّامِيَةِ ، إِلَى النُّطْقَةِ الطَّامِيَةِ ،
وَلَا تَزَالُ تَقْتَضِينَاهُ اقْتِضَاءَ الْمُدْنَفِ الْعَائِفِيَةِ ، وَالْبَيْتِ الْقَائِفِيَةِ ، وَمَنْ لِلْعَفْرِ ،
بِالذَّفْرِ (٦) ، وَالْقَفْرِ ، بِالْمَامِ السَّفْرِ (٧) ؟ وَأَقْدَمْتُ عَلَى خِدْمَةِ حَضْرَتِهِ بِالْمَكَاتِبَةِ
لِأَنِّي إِلَيْهَا مَا أَنَا عَلَيْهِ ، لَا تَكَثَّرًا بِرِصْفِ الْمَنْطِقِ عِنْدَهُ ، وَهَلْ أَبْلُغُ أَنْ
أُدْعَى فِي تَأْلِيفِ الْقَوْلِ عَبْدُهُ ؟ وَقَدْ تُقْبَلُ صَلَاةُ الْأَمِيِّ ، وَيَسْمَعُ دُعَاءُ الْأَعْجَمِيِّ .

وَقَدَّهُ - أَدَامَ اللَّهُ تَأْيِيدَهُ - يَكْبُرُ عَنْ تَصَفِّحِ أَمْرِي ، وَتَجَاوُزِهِ يَسْتَرْزَلِي
وَعَثْرِي . لِأَنَّ الْمُدْيَةَ ، لَا تَصِلُ إِلَى ضَبِّ الْكُدْيَةِ (٨) ، إِلَّا بَعْدَ التَّبْرِيحِ ،
بِدَوَاتِ التَّسْرِيحِ (٩) ، وَالْإِتْيَانِ ، عَلَى مَالِ الْفِتْيَانِ . وَاللَّهُ أَسْتَجِيرُ مِنْ كَلِمَةٍ ، كَطَوْقِي

(١) الرادس: الذي يلقى بالحجر في حوض الماء أو في البئر ليرفع الماء ، أو يسبر غورها
ويتعرف هل فيها ماء (٢) القادس: الحجر يقسم به الماء بين الإبل في الحوض أي إرواء
إبل القادس (٣) الدرع (٤) السحب الصغيرة تتألف منها الغمامة الكبيرة (٥) سكوتي
(٦) العفر: التراب ، والذفر الرائحة الذكية النشر . (٧) يقول : وأنى للمفازة المجدبة
المقفرة من النبات والماء أن يحل بها المسافرون . (٨) الضب : معروف ، والكديّة :
الأرض الغليظة (٩) يعني ما يسرح في المرعى من ماشية وإبل

العِكرمة^(١) ، يُحَسَّبُ لَهَا كَالزُّيْنَةِ ، وَكَأَنَّهُ مِنْ حَدَادِ الحَزِينَةِ . فَقَدْ حَلَيْتُهَا
بِعَبْقُرٍ^(٢) ، وَخَلَيْتُهَا تُرْعَدُ مِنَ القُرِّ^(٣) ، مِنْ دُونِهَا يَظْهَرُ الضَّفْدَعُ ، تَحْتَ
الشَّبْدِيعِ^(٤) ، وَيُحْكَمُ بِالْجِلْسَامِ^(٥) ، عَلَى الأَجْسَامِ . وَالعِنَايَةُ ، بِجَارِمِ الجِنَايَةِ ،
تَمْنَعُ الرُّوَابِجَ^(٦) ، مِنْ الأَبْتِ بِالْحُكْمِ الوَاجِبِ .

وَأَتَّبِعُ قَوْلِي لِمَا مَضَى ، وَأَشِيعُهُ إِذَا انْقَضَى ، بِأَنَّ أَقُولَ : إِنْ كُنْتُ
أَوْطَأْتُ نَفْسِي فِي تَفْضِيلِهِ عِشْوَةً ، أَوْ بَغَيْتُ عَلَى إِظْهَارِ الحَقِّ رِشْوَةً ، فَمُنَيْتُ
بِالْحَاصِبِ^(٧) ، وَالْعَذَابِ الوَاصِبِ^(٨) .

لَيْلُ الخُرْصِ^(٩) ، أَنْعَمُ مِنْ لَيْلِ المِتَخَرِّصِ^(١٠) ، وَنَهَارُ الكَاذِبِ ، أَبَاسُ
مِنْ نَهَارِ العَاذِبِ^(١١) .

غَنَاؤُهُ عَنِ المَدْحِ

وَغَنَاؤِي فِي تَقَرُّيظِهِ عَنِ المَيْنِ ، وَمُسَاوَاةِ القَيْنِ^(١٢) ، غَنَاؤُ الوَصِيفِ^(١٣) ،
عَنْ لُبْسِ النِّصِيفِ^(١٤) ، وَالغَلَامِ ، عَنْ الأَخْتِصَابِ بِالغَلَامِ^(١٥) ،

(١) الحمّامة (٢) عبقر وحبقر : البرد وحب الغمام ، ويقال : أبرد من حبقر .

(٣) البرد (٤) الشبدع : اللسان ، والضفدع غدة صلبة تظهر تحت اللسان

(٥) الجلسام : البرسام ، وهو التهاب يعرض للحجاب الذي بين الكبد والقلب

(٦) الرواجب : مفاصل الأصابع والمراد : الأيدي (٧) الريح تحمل الحصباء أي الحصا

(٨) الدائم (٩) الذي يعاني ألى الجوع والبرد (١٠) الكاذب (١١) العاذب :

الممسك عن الطعام والشراب (١٢) القين : يعنى به «سعد القين» حداد كان كذاباً . وقد

مر بك حديثه في أواخر رسالة الملائكة (١٣) الغلام دون المراهق (١٤) النصيف :

الخمار أو العمامة (١٥) العلام : الحناء

وَأَنَا عَلَى إِسْهَابِي كَخَابِطِ الظَّمَاءِ ، وَبَاسِطِ الْيَدِ الْجُذْمَاءِ ^(١) .
 وَلَوْ جِئْتُ مِنَ الزَّرْقِ ^(٢) بَكْرًا ^(٣) ، مَا كَافَأْتُ عَلَى الْفَرِيدَةِ مِنَ الدَّرِّ ^(٤) .
 وَلَيْسَ سِرْبُ الْقَطَا وَإِنْ كَثُرَ ، بِمُقَاوِمِ الْبَارِزِيِّ وَلَوْ لُطْفَ وَصَغُرَ . وَمِنْ
 الْعِبَاوَةِ مُبَاهَاةُ الشَّمْسِ بِسِرَاجٍ ، وَمُؤَاهَاةُ عَطَالَةَ بِالزُّجَاجِ ^(٥) .
 وَإِنَّ أَدْبِي لَيَنْظُرُ إِلَى أَدْبِهِ نَظَرَ جَرَبَاءِ الْعُنُوقِ ، إِلَى جَرَبَاءِ الْعَيْوُقِ ^(٦) ،
 وَأَيْنَ الْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ ، وَمَوْقِعِ السَّيْلِ ، مِنْ مَطْلِعِ سَهَيْلٍ ، وَالنَّعَائِمِ ^(٧)
 الشَّارِدَةِ ، مِنْ النَّعَائِمِ ^(٨) الصَّادِرَةِ وَالْوَارِدَةِ .
 وَتَالَهُ أُسَاجِلُ ^(٩) — بِشَمْدِي ^(١٠) — بَحْرَهُ ، وَلَنْ يَهْلِكَ أَمْرٌ وَعَرَفَ قَدْرَهُ .
 وَالسَّلَامُ .

(١) باسط اليد الجذماء : أى اليد المقطوعة ، وقد مر بك فى رسالة الملائكة قوله : « أجد — إذا زاولت الأدب — كأننى عار يتعمم ، أو أقطع السكفين يتختم » وهو يجرى فى هذا وأمثاله على أسلوبه فى الجملة والتواضع (٢) الزرق : ضرب من الخرز (٣) السكر : مكيال ، قالوا : « وهو نحو أربعين أردبا » (٤) شبيه بهذا قوله فى ختام رسالة الغفران « ولا ينكر على الإطالة ، فان الخالص من النضار ، طالما اشترى بأضعافه — فى الزنة — من اللجين ، فكيف إذا كان الثمن من النفقات ، اللأئى يوجدن فى الطرق مرميات . » (٥) واهاه : كاسره وغالبه . وعطالة : جبل ، يقول : « كمن يحاول أن يضعف الجبل ويوهنه بزجاجة »
 (٦) الجرباء : المصابة بالجرب ، والعنوق : الإناث من ولد المعزى قبل أن تستكمل الحول ، وجرباء العيوق : السماء (٧) جمع نعامة وهى الحيوان المعروف (٨) أحد منازل القمر صورته شبيهة بصورة النعام (٩) جواب القسم محذوف ، أى : لا أساجل . ومن مثله قول امرئ القيس :

فقلت : يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

(١٠) الثمد : الماء القليل

أى : لا أبرح . . .

رِسَالَةُ الْإِغْرِیضِ (١)

حكمة أبي القاسم

السَّلَامُ عَلَیْكَ أَيْتَهَا الْحِكْمَةُ الْمَغْرِبِيَّةُ ، وَالْأَلْفَاظُ الْعَرَبِيَّةُ .
أَيُّ هَوَاءٍ رَقَّكَ ؟
وَأَيُّ غَيْثٍ سَقَّكَ ؟
بَرْقُهُ كَالْإِحْرِیضِ (٢) ، وَوَدْقُهُ (٣) مِثْلُ الْإِغْرِیضِ .

- (١) الإغريض : الطلع ، وهو : أول حمل النخل ، ورسالة الإغريض ، أو : الرسالة الإغريضية ، قد بعث بها المعري — كما أسلفنا — إلى أبي القاسم المغربي ، لما أنفذ إليه مختصر إصلاح المنطق ، وقد وصف المعري في هذه الرسالة فضل أبي القاسم وبراعته التي تجلت في هذا المختصر ، وأثنى عليه ، ونبه على كثرة فوائده ، وفي هذه التسمية إشارة لبقية إلى أن باكورة أبي القاسم — التي ألفها وهو لم يبلغ السابعة عشرة من عمره — هي أشبه شيء بالإغريض ، وهو أول ثمر يجود به النخل ، وقد أسمى أبو العلاء أول دواوينه « سقط الزند » وهو ما يسقط من النار إذا قدح الزند ، قبل استحكام الوري ، وعنى بذلك أنه باكورة عمله
- (٢) الإحريض : العصفرة (٣) قطره

حَلَلْتِ الرَّبُوءَةَ^(١) ، وَجَلَلْتِ عَنِ الْهَبُوءَةِ^(٢) .
أَقُولُ لَكَ مَا قَالَ أَخُو عُمَيْرِ^(٣) ، لِفَتَاةِ بَنِي عُمَيْرِ^(٤) :
« زَكَالِكَ صَالِحٌ ، وَخَلَاكَ ذَمٌّ وَصَبَّحَكَ الْإِيَّامِينَ ، وَالسَّعُودُ »

قصة الغراب الحجازي

لَأَنَا آسَفٌ عَلَى قُرْبِكَ ، مِنْ الْغُرَابِ الْحِجَازِيِّ ، عَلَى حُسْنِ الرَّيِّ ، لَمَّا
أَقْفَرَ ، وَرَكِبَ السَّفَرَ ؛ فَقَدِمَ جِبَالَ الرُّومِ فِي نَوِّ ، أَنْزَلَ الْبُرْسَ^(٥) مِنْ الْجَوِّ .
فَأَلْتَفَتَ إِلَى عِطْفِهِ — وَقَدْ شَمِطَ^(٦) — فَأَسَى ، وَتَرَكَ النَّعِيبَ أَوْ نَسَى^(٧) .

(١) الربوة : المرتفع من الأرض ، حيث تزكو الثمرات ويؤتي الزرع ضعفى أكله ، وقد
مر بالقارى في رسالة المنيح قول المعري : « الروضة الحزنية » وهو يعنى بها مثل هذا المعنى أيضاً
(٢) الغبار (٣) يعنى الراعى الشاعر المعروف صاحب البيت المشهور :
« ألا ليت اللحي كانت حشيشاً فنعلفها خيول المسلمينا »
(٤) فتاة بنى عمير هي هند معشوقة الراعى الشاعر التي يخاطبها ويدعو لها في هذا البيت
الذى تمثل به المعري .

(٥) النمو : يراد به المطر ، والبرس : القطن ، ويراد به هنا الثلج الذى يشبهه به ، يقول :
إن أسقى على زمن القرب أشد من أسف الغراب الحجازي الذى ندم على فقدانه جمال هيئته ،
لما جاب القفار حتى بلغ جبال الروم وتساقطت عليه الأمطار من الجو جليداً أشبه بالقطن
(٦) يقول : إن الغراب الذى لا يشيب أبداً ، قد علا عطفه الشيب (٧) أشار المعري
إلى هذا المعنى إشارة أخرى في رسالة الملائكة ، فقال : « لو أعرضت الأغرابة عن النعيب ،
إعراضى عن الأدب والأديب ، لأصبحت لا تحسن نعيماً ، ولا يطيق هرمها زعيماً . »

وَهَبَطَ الْأَرْضَ فَمَشَى فِي قَيْدٍ^(١) ، وَتَمَثَّلَ بَيْتِ دُرَيْدٍ :
صَبَاً - مَا صَبَاً - حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ فَلَمَّا عَلَاهُ ، قَالَ لِلْبَاطِلِ : « أُبْعَدِ^(٢) »

(١) يعنى مشية الغراب ، التي تخيل لرائيه أنه مقيد ، ورحم الله القائل :

حنتى حانبات الدهر حتى كأنى خاتل يدنو لصيد
قريب الخطو ، يحسب من رآنى - ولست مقيداً - أنى بقيد «

(٢) يقول : « وقد حاول ذلك الغراب الحجازى أن يعود إلى وطنه ، فحال دون أمنيته خوفه من شماتة أعدائه وسخرتهم ، لحلول الشيب به ، فاستسلم الغراب للحزن والأسى ، وظل في غربته حتى لقي حمامه » .

وقد أولع المعرى بأمثال هذه التشبيهات القصصية النادرة ، وامتاز عن الكثيرين من كتاب العربية وشعرائها بهذا اللون المشرق من البيان الخلاب ، وقد ذاعت رواه في هذا الباب ، وخلدت بدائمه في هذا الفن ، فازدان بها الأدب العربى نثراً ونظماً ، وقد مرت بالقارىء مناجاته لديك في قصيدته التي أولها :

« أياديك : عُدَّتْ - من أياديك صيحةٌ بعثت بها ميت الكرى وهو نائمٌ »

وسيرى القارىء طرفاً رائعة من تشبيهاته القصصية بعد صفحات قليلة حين عرض لبنات الهديل ، وقد قبسنا نخبة من أشعاره (ص ٢٧٩ ج ٣) حين عرضنا « للتشاؤم والتفاؤل » وإلى القارىء طائفة قليلة أخرى مما قاله المعرى في الغراب من رسالة طريفة ، قال :

« ولما كان اليوم الذى ورد فيه كتابه المشتمل على حسن الظن بوليه - على ما لا يستوجبه ، عكفت على الغرابان مبشرات ، مثلثات للنعيب ومُعشَّرات .

لو أنس إلى ابن ذأبة لم أخله - إن رغب فى الحُلَى - من حجل ، فى الرَّجُل ، أو تقليد ، يقع بالجيد ؛ ولضمخت جناحه مسكا وعنبراً ، ولكسوته وشياً وحبراً ، على أنه يَحْتَمَل من لون الشيبية ، فى أجمل سببية .

وَأَرَادَ الْإِيَابَ ، فِي ذَلِكَ الْجِلْبَابِ ، فَكِرَةَ الشَّمَاتِ ، فَكَمِدَ حَتَّى مَاتَ .

يا غراب : لغريك - بعدها - التراب ، إن قضى الله نبذت لك ما تؤثّر من الطعام ،
إتاوة في كل يوم لا في كل عام .

وقال :

وما أُسِرُّ - تمعشير الغراب - أسي ولا أبكى خليطاً حلّ تعشارا

وقال :

جر يا غراب وأفسد ، لن ترى أحداً
وخذ من الزرع ما يكفيك عن عُرضٍ
وما ألومك ، بل أوليك معذرة
فأل حواء راعوا الأسد مخدرة
ومن أتاها بظلم ، فهو عندهم
هم المعاشر ضاموا كل من صحبوا
لو كنت حافظاً أثمار لهم ينعت

إلا مسيئاً ، وأى الناس لم يجبر
وحاول الرزق في العالى من الشجر
إذا خيطفت ذُبال القوم في الحجر
ولم يغادوا بسلم ربة الوجر
كجلب التمر مغتراً إلى هجر
من جنسهم ، وأباحوا كل محتجر
وصادفوك ، لما أخلوك من حجر

وقال :

يدعو الغراب أناس : « حاتمياً » سفها
هذا التكذب ، ما للجنون معرفة
السيد البر ، من لا يستجيز أذى
الغامر الطارق المحتاج نائله
لا يرفع الصوت بالقول الهراء نحي ،
لأنه بفرار عندهم حتماً
ولا يبالي : أنال للمدح أم شتماً
ولا يبوح بسر عنده كتماً
أو ابن مرية من أماته يتما
ولا يدب - إلى جاراته - عتماً

والبيت الأول من هذه القصيدة يذكرنا بقول القائل :

والناس يلحون غراب البين لما جهلوا

وَرُبَّ وَلِيٍّ أَعْرَقَ فِي الْإِكْرَامِ ، فَوَقَعَ فِي الْإِبْرَامِ ، إِبْرَامَ السَّلَامِ (١) ،
لَا إِبْرَامَ السَّلَامِ (٢) .

دعاء

خَرَسَ اللَّهُ سَيِّدَنَا حَتَّى تُدْغَمَ الطَّاءُ فِي الْهَاءِ (٣) ، فَتَلْكَ حِرَاسَةً بغيرِ انْتِهَاءٍ .
وَذَلِكَ أَنَّ هَذَيْنِ صِدَّانِ ، وَعَلَى التَّضَادِّ مُتْبَاعِدَانِ : رِخْوٌ ، وَشَدِيدٌ ، وَهَآوٍ ،
وَذُو تَصْعِيدٍ ، وَهُمَا فِي الْجَهْرِ وَالْهَمْسِ ، بِمَنْزِلَةِ غَدٍ وَأَمْسٍ .
وَجَعَلَ اللَّهُ رُتْبَتَهُ الَّتِي كَالْفَاعِلِ وَالْمُبْتَدَأِ ، نَظِيرَ الْفِعْلِ فِي أَنَّهَا لَا تَنْخَفِضُ
أَبَدًا ، فَقَدْ جَعَلَنِي : إِنْ حَضَرْتُ عُرْفَ شَانِي ، وَإِنْ غَبْتُ لَمْ يُجْهَلْ مَكَانِي ،

وما غراب البين إلا ناقة ، أو جمل

وما على ظهر غراب الـ بين تطوى الرحل

وقال المعري :

فقل للغراب الجون ، إن كان سامعاً : « أنت على تغيير لونك قادر ؟ »

وقال في قصيدته التي ودع بها أهل بغداد :

« نبي - من الغربان - ليس على شرع ، يخبرنا : أن الشعوب إلى صدع

أصدقه - في مريّة - وقد امترت صحابة موسى بعد آياته التسع »

وقال في قصيدته التي رثى بها الشريف الرضي ، يصف الغراب :

« من شاعر - للبين - قال قصيدة يرثي الشريف على روى القاف »

(١) الإملال والإضجار (٢) السَّلَام : شجر العضاة ، الواحدة : سَلَمَة ، وأبرم السلم :

ظهر بَرْمُهُ (٣) يشير إلى أن الطاء لا تدغم في الهاء أبداً ، فهو يدعو له بالسلامة إلى أبد

الآبدين ، ومثل هذه الدعوة قوله في رسالة أخرى : « حتى يستغنى فرض الحج عن طواف ،

وقر يضُّ عن قواف . »

كَيْبًا فِي النَّدَاءِ^(١)، وَالْمَحذُوفِ مِنَ الْإِبْتِدَاءِ، إِذَا قُلْتَ: «زَيْدٌ أَقْبَلُ»، وَ«الْإِبْلُ الْإِبْلُ»^(٢)، بَعْدَ مَا كُنْتَ كَهَاءَ الْوَقْفِ، إِنْ أَلْقَيْتُ فَبِوَجِبٍ، وَإِنْ ذُكِرْتُ فَغَيْرُ لَازِبٍ^(٣).

إِنِّي وَإِنْ غَدَوْتُ فِي زَمَنِ كَثِيرِ الدِّدِ^(٤)، كَهَاءَ الْعَدَدِ، لَزِمَتْ الْمَذَكَّرُ، فَاتَتْ بِالْمُنْكَرِ^(٥)، مَعَ الْفِ يَرَانِي فِي الْأَصْلِ، كَالْفِ الْوَصْلِ^(٦)، يَذُكُرُنِي بغيرِ الشَّاءِ، وَيَطَّرِحُنِي عِنْدَ الْإِسْتِغْنَاءِ.

وَحَالَ كَالْهِمَزَةِ، تُبَدَلُ الْعَيْنُ^(٧)، وَتُجْعَلُ يَيْنَ يَيْنَ، وَتَكُونُ تَارَةً حَرْفَ لَيْنٍ، وَتَارَةً مِثْلَ الصَّامِتِ الرَّصِينِ^(٨)، فَهِيَ لَا تَتَّبِعُ عَلَى طَرِيقَةٍ، وَلَا تُدْرِكُ لَهَا صُورَةٌ فِي الْحَقِيقَةِ.

(١) يعني «يا» التي تحذف في النداء للاستغناء عنها، كما تقول: «فلان» تناديه بغير «يا» وكما قال أبو سفيان: «يوم بيوم بدر، اعلُّ هُبْلُ» تحذف «يا» مستغنياً عنها، والمعري يقول إنه أصبح معروفاً — إن حضر أو غاب — كما عرفت «يا» في النداء، إذا ذكرت أو أسقطت (٢) يعني تلك هي الإبل، تحذف المبتدأ لأنه معروف، قال ابن مالك في ألفيته الخالدة:

وفي جواب: «كيف زيد؟» قل: «دنف»

فزيدٌ اسْتُغْنِيَ عَنْهُ إِذْ عَرَفَ «

(٣) يعني أن ذكرها ليس فرضاً محتوماً (٤) اللهو (٥) يشير إلى أن هاء العدد إذا لزمت المذكر أنثت (من ثلاثة إلى عشرة) قال ابن مالك:

«ثلاثة بالناء قل للعشرة في عدا ما أحاده مذكّره»

(٦) يشير إلى أن ألف الوصل تأتي بها في أول الكلمة لتمكنك من النطق بالساکن، فإذا سبقتها حركة استغنيت عنها وطرحتها من الكلام.

(٧) يشير إلى إبدال الهمزة عيناً في بعض اللغات (٨) يعني: الحروف غير اللينة

وَنَوَائِبَ أَحَقَّتِ الْكَبِيرَ ، بِالصَّغِيرِ ، كَأَنَّهَا تَرْخِيمُ التَّصْغِيرِ (١) ، رَدَّتْ
الْمُسْتَحْلِسَ إِلَى حُلَيْسٍ ، وَقَابُوسًا إِلَى قُبَيْسٍ (٢) .
لَأَمْدُ صَوْتِي بِنَتِكَ الْآلَاءِ ، مَدَّ الْكُوفِيَّ (٣) صَوْتَهُ فِي هُوَءِ الْآءِ ، وَأُخْفِفُ
عَنْ سَيِّدِنَا الرَّئِيسِ الْحَبْرِ ، تَخْفِيفَ الْمَدْنِيِّ (٤) مَا قَدَرَ عَلَيْهِ مِنَ النَّبْرِ (٥) .

*
* *

إِنْ كَاتَبْتُ فَلَسْتُ مُلْتَمِسَ جَوَابٍ ، وَإِنْ أَسْهَبْتُ فِي الشُّكْرِ فَلَسْتُ
طَالِبَ ثَوَابٍ ، حَسْبِي مَا لَدَيَّْ مِنْ أَيَادِيهِ ، وَمَا غَمَّرَ مِنْ فَضْلِ السَّيِّدِ
الْأَكْبَرِ أَبِيهِ .

دعوات عروضية

أَدَامَ اللَّهُ لَهُمَا الْقُدْرَةَ مَا دَامَ الْأَضْرَبُ الْأَوَّلُ مِنَ الطَّوِيلِ صَحِيحًا ،
وَالْمُنْسَرِحُ خَفِيفًا سَرِيحًا (٦) ، وَقَبِضَ اللَّهُ يَمِينِ عَدُوِّهِمَا عَنْ كُلِّ مَعْنٍ ، قَبْضَ
الْعَرُوضِ مِنْ أَوَّلِ وَزْنٍ (٧) ، وَجَمَعَ لَهُ الْمَهَانَةُ إِلَى التَّقْيِيدِ ، كَمَا جُمِعَ فِي ثَانِي

(١) ارجع إلى رسالة الشياطين ورسالة الأخرسين لتكمل ما قاله المعري في ترخيم التصغير

(٢) يعني أن تصغير الترخيم تحذف فيه حروف الزيادة (٣) يعني بالكوفي: « حمزة

ابن حبيب » (٤) المدني هو « نافع » الذي روى عنه « عثمان بن سعيد المعروف بورش » :
أن حركة الهمزة في مثل « هل أتى » و « قد أفلح » تنقل إلى لام « هل » ودال « قد » ثم تحذف
من الكلام (٥) الهمز (٦) السريح : السهل (٧) ألف المعري أمثال هذه التشبيهات
العروضية فقال في بعض رسائله : « وخبري في الائتناف ، لقب الجزء السالم من الزحاف ،
ولساني بشكره كثير الحركة في كل أوان ، كأنه الكامل من الأوزان » وقد عرض المعري
لأمثال هذا في رسالة الشياطين ، فارجع إليها إن شئت .

الْمَدِيدِ ، وَقَلِمَ قَلَمَ الْفَسِيطِ^(١) ، وَخَبِلَ كَسْبَاعِي الْبَسِيطِ ، وَعَصَبَ اللَّهُ الشَّرَّ
بِهَامَةٍ شَانِهِمَا وَهُوَ مَخْزُومٌ ، عَصَبَ الْوَافِرِ وَهُوَ مَجْزُومٌ ، بَلْ أَضْمَرْتَهُ الْأَرْضُ
إِضْمَارًا ثَالِثَ الْكَامِلِ ، وَعَدَاهُ أَمَلُ الْأَمِلِ .

وَسَلِمَ سَيِّدَانَا - أَعَزَّ اللَّهُ نَصْرُهَا - وَمَنْ أَحْبَبَاهُ وَقَرَّبَاهُ ، سَلَامَةٌ مُتَوَسِّطٌ
الْمَجْمُوعَاتِ^(٢) ، فَإِنَّهُ آمِنٌ مِنَ الْمُرُوعَاتِ ، فَقَدْ أَفْتِنَنْتُ فِي نَعِيمِهَا الرَّائِعَةِ ،
كَافْتِنَانَ الدَّائِرَةِ الرَّابِعَةِ^(٣) ، وَذَلِكَ أَنَّهَا أُمُّ سِتَّةِ مَوْجُودِينَ ، وَثَلَاثَةِ مَفْقُودِينَ^(٤) .

ثُرَيَّا سَهِيلِ

وَأَنَا أَعِدُّ نَفْسِي مُرَاسَلَةَ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا الْجَلِيلَةِ عِدَّةَ ثُرَيَّا اللَّيْلِ^(٥) ، وَثُرَيَّا
سَهِيلِ^(٦) ، هَذِهِ الْقَمَرِ ، وَتِلْكَ عُمَرَ ، وَأَعْظَمُهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ ، إِعْظَامًا فِي مِقَّةٍ^(٧) ،
وَبَعْضُ الْإِعْظَامِ فِي مِقَّةٍ .

(١) الفسيط : قلامة الظفر (٢) المجموعات ، يعني : الأوتاد من الشعر (٣) الدائرة
الرابعة هي أكثر الدوائر أجناساً لأنها تشتمل على تسعة أجناس (٤) يعني ستة مستعملة ،
وثلاثة مهملة (٥) يعني الثريا المعروفة ، وقد ذكرها المعري فقال في داليتها الباقية :

« والثريا رهينة بافتقاد الشمل حتى تظل كالأفراد »

(٦) ثريا سهيل هي امرأة معروفة من قریش ، تزوج منها سهيل بن عبد العزيز بن مروان ،
وقد أشار إلى قصتها عمر بن أبي ربيعة ، فقال :

« أيها المنكح الثريا سهيلاً عمرك الله ، كيف يلتقيان ؟

هي شامية ، إذا ما استقلت ، وسهيل - إذا استقل - يمان

(٧) حب

قُبَّةُ أَبِي الْقَاسِمِ

فَقَدْ نَصَبَ - لِلآدَابِ - قُبَّةً^(١)، صَارَ الشَّامُ فِيهَا، كَشَامَةِ الْمُعَيْبِ^(٢)،
وَالْعِرَاقُ كَعِرَاقِ^(٣) الشَّعِيبِ^(٤).

أَحْسَبُ^(٥) ظِلَالَهُمَا مِنَ الْبُرْدَيْنِ^(٦)، وَأَغْنَتِ الْعَالَمَ عَنِ الْهِنْدَيْنِ^(٧)؛
هِنْدِ الطَّيِّبِ، وَهِنْدِ النَّسِيبِ؛ رَبَّةِ الْخُمَارِ^(٨)، وَأَرْبَابِ قِمَارِ^(٩)؛ أَخْدَانَ
التَّجْرِ^(١٠)، وَخَدِينَةَ الْهَجْرِ^(١١)

(١) شبه أبا القاسم المغربي بالنايعة الديراني الذي كانت تضرب له قبة في سوق عكاظ حيث يحكم بين الشعراء ، وقد حفلت بأخباره كتب الأدب . (٢) الشامة - في الجسد - هي الخلال (والجمع شامٌ وشامات) ورجل أشيم : بجسده شامة ، والمعري يعني أن القبة التي أقامها أبو القاسم قد انتظمت الآداب كلها فأصبحت فيها الشام كالخال الذي يشوه منظر الجسم (٣) العراق الأول معروف وهو البلد ، والعراق الثاني : الجلد المثني الخروز في أسفل المزادة (٤) الشعيب : المزادة ، أو : السقاء البالي . (٥) كفي (٦) يعني : الغداة والعشي (٧) يعني بالهنديين : الهند ، البلد المعروف الذي ينسب إليه أجود أنواع الطيب ، وهند الحبيبة ، التي يتغزل فيها الشعراء (٨) يعني بربة الخمار : هند الحبيبة (٩) قمار : البلد الذي ينسب إليه العود القهاري الطيب الرائحة ، وهو من بلدان الهند (١٠) يعني بأخدان التجر : التجار الذين يتجرون في ذلك الطيب القهاري (١١) يعني هند الحبيبة التي مرَّ بالقاريء ذكرها .

قصة ذات الطوق

مَا حَامِلَةٌ طَوْقٍ مِنَ اللَّيْلِ ، وَبُرْدٍ — مِنَ الْمُرْتَبِعِ ^(١) — مَكْفُوفِ الذَّيْلِ ،

(١) ذات الطوق ، هي : الحمامة ، وهو يعنى بالطوق من الليل : الطوق الأسود فى عنقها ، ويعنى بقوله : « برد من المرتبع » : ثوباً ملوناً كأنه من وشى الربيع . و « مكفوف الذيل » من (كُفِّه القميص) : وهو ما استدار حول الذيل ، وقيل : كل ما استطال كحاشية الثوب . وقد وعدنا القارئ — منذ صفحات قليلة — حين عرضنا لقصة الغراب الحجازى أن نعرض لبعض آراء المعرى وتشبيهاته فى الحمامة ، وإلى القارئ ما وعدنا به .

قال فى بعض رسائله :

« ما ذات طوق لا تنزعه ، و بُرد — من الربيع — ليست تخلعه ، جاد الوسمى لها فأرنت ، وبكت شجوها لا تغنت ، عالية ذؤابة فن غص ، فهى لا فى السماء ولا فى الأرض ، تكرر القيل ، وتنطق الخفيف والثقل ، بأشوق إلى هديلها ، منى إلى مشاهدته ، ولا آسف على خليلها ، من قلبى على فانت خدمته .

وإن عقلت نفسى بترك المسكاتبه عقوق الضب ولده ، والسارق يده ، فإنما ذلك لهمم واغل ، وخطب شاغل ، وتوخيا للتخفيف ، وتنكبا عن التكليف .

وإنى لأصب إلى لقائه صبابة العود إلى وطنه ، وذى الشجن إلى شجنه ، وأحن — فى خلال ذلك — إلى مناجاته ، حنين الشوارف ، إلى السقاب ، والهوائف ، إلى ورود النقاب .
ورحم الله القائل :

« فما وجدت كوجدى أم سبق أضلته ، فرجعت الحنينا »

وقال من رسالة أخرى :

« ما حمامة ذات طوق ، يضرب بها المثل فى الشوق ، كانت فى وكر مصون ، بين الشجر والغصون ، تألف أبناء جنسها ريداً ، فيتراسلان تغريداً ، مسكنها نيمان الأراك ، تأمن به غوائل الأشراك ، وتمر — فى بكرتها — بالبيت الحرام ، لا تفرق لمكان صائد ولا رام ،

فغرتها القدر ، إذ لم ينفع الحذر ، فخرجت من الأرض المحرمة ، فأصبحت وهي جد مغرمة ، صادها وليد في الحل ، ما حفظ لها من إله ، وأودعها سجننا للطير ، ومنعها من كل مير ، فإذا رأت — من خصاص القفص — بواكر الحمام ، ظلت تمارس جرع الحمام ، تسأل بطرفها أهاها : « ما فعل — بعدها — فرخاها ؟ » ، فيقول : « أصبحا ضائعين ، قد سترها الورق عن كل عين . »

فَرِيحَانِ يَنْصَاعَانِ فِي الْفَجْرِ كَمَا أَحْسَا دَوَى الرِّيحِ ، أَوْ صَوْتِ نَاعِبِ
بأشوق إلى المعيشة النضرة ، منى إلى تلك الحضرة .
وقال في رسالة :

« وشوق — إلى حضرته الجليلة — شوق حمامة ، أسرت باليامة ، صيدت في يوم دجن ، فوقعت — من القفص — في سجن ؛ إلى أوطانها النجدية ، غير المفتكة ولا المفدية ، فارقت الأخدان فما رجعت ، فكالمع صبح سجت . »
وقال في لزومياته :

عجبا للقطا — من الكدر والجو ن — غدت في عنائها المتواصل
لقطت حبة — وجاءت بها الأفراخ ثم استقت لها في الحواصل
من بلاد بعيدة ، لسراب ال هجر فيها لوامع كالمناصل
فأغانت — بوردها — مودعات في هجول ، تقل فيها الصلاصل
هاتقات ، قد مزق الحر عنها ال أهب ، أو هم أن يميز الفاصل
راعها أجدل — من الطير أو با ز ، فود — قبل الوصول — وواصل
صاليات ، وما لها من صلاة صائمات — بغير نسك — تواصل
ثم باد المصيد من بعد — والصا ند ، لا شئ — غير ذلك — حاصل
فاتق الله ، وافعل الخير ، فالمو ت حسام — يفرى البرية — فاصل

لا تغير هذا البياض ، فإن تأ
بَ ، فلا تجزعنَّ إن قيل : ناصل
إن أعمارنا كآيٍ أُبِينَتْ ،
والمنايا لهن مثل الفواصل «
وقال :

« قل للحامة : قد أصبحت شادية
كسك ربك ريشا ، تدفعين به
فهل تُراعين من باز — كَلَى شَرَفَ —
أما ترين قِسيَّ الدهر ، وترها
يغنيك وكرك عن بيت يزيتنه
وقال :

« رجزت — بتسبيح المليك — حمامة
والطير — مثل الأنس — تعرف ربها
فيهن مسهبٌ يَعُدُّ ، وناطق
فأسأل حجاجك ، إذا أردت هداية
وقال :

« كادت تساوى نفوس الناس كلهم
ظلم الحمامة في الدنيا — وإن حُسيبت
وقال في سقط الزند :

« بلاد ، للحامة أن تغني
وقال :

« يابنات الهديل : أسعدن ، أو عِدُّ
وقال :

« كحائم ظلمات ، فنادى أجدل :
إن كنت ظالمة ، فإنني أظلم «

أَوْفَتِ الْأَشْءَ، فَقَالَتْ - لِلْكَيْبِ - مَا شَاءَ^(١) .
 تُسْمِعُهُ غَيْرَ مَفْهُومٍ ، لَا بِالرَّمَلِ وَلَا بِالْمَزْمُومِ^(٢) . كَانَ سَجِيعَهَا قَرِيضٌ ،
 وَرَأْسُهَا الْغَرِيضُ^(٣) ؛ فَقَدِمَ مَادَ - لِشَجْوَهَا - الْعُودُ ، وَفَقِيدُهَا لَا يَعُودُ .
 تَنْدُبُ هَدِيلاً^(٤) فَاتَ ، وَأُتِيحَ لَهُ بَعْضُ الْآفَاتِ .
 بِأَشْوَقَ إِلَى هَدِيلِهَا ، مِنْ عَبْدِهِ إِلَى مُنَاسِمَةِ أَنْبَاءِهِ^(٥) ؛ وَلَا أَوْجَدَ
 عَلَى الْفِهَا ، مِنْهُ عَلَى زِيَارَةِ فِنَائِهِ .

هَاتِفُ الْحَمَامِ

وَلَيْسَ الْأَشْوَاقُ ، لِذَوَاتِ الْأَطْوَاقِ^(٦) ، وَلَا عِنْدَ السَّاجِعَةِ ، عَبْرَةٌ مُتَرَاجِعَةٌ .
 إِنَّمَا رَأَتْ الشَّرَطِينَ ، قَبْلَ الْبُطَيْنِ ، وَالرِّشَاءَ^(٧) ، بَعْدَ الْعِشَاءِ ، فَحَكَتْ
 صَوْتِ الْمَاءِ فِي الْخُرَيْرِ ، وَأَتَتْ بِرَاءِ دَائِمَةِ التَّكْرِيرِ .

ولا بأس أن نختم هذا الفصل بقول المعري في بعض الطير الذي يصلح الشجر ، لتسجل
 له لفتة زراعية بارعة ، وانتباهة علمية نادرة ، إذ يقول :

«عجبت لطيور بلطف المليك - مخلوقة لصلاح الثمر
 تنقبه مولعات به - ولو لم تزره تهاوى فمر
 تحل محلاً لها ثانياً وتترك منزلها قد دمر»

(١) الأشاء : صغار النخل ، يقول : إن الحمامة لما باغت الشجر هتفت للمحزون بما تهش
 لسماعه نفسه (٢) الرمل : لحن من ألحان الموسيقى . وكذلك المزوموم (٣) الغريض : المغنى
 المعروف النائع الصيت (٤) الهديل : جد الحمام - فيما يزعمون - يُنسب إليه ، فيقال لهن :
 «بنات الهديل» وقد أجمعت الأساطير على هلاكه في زمان «نوح» وزعمت أن الحمام تبكيه
 إلى اليوم . (٥) مناسمة أنبائه : تنسّم أخباره . (٦) الحمام (٧) الشرطان والبطين والرشاء :
 من منازل القمر ، قالوا : والشرطان : نجمان ، قيل : هما أول منازل القمر ، وهما معترضان من

فَقَالَ جَاهِلٌ: «فَقَدَّتْ حَمِيمًا، وَتِكَلَّتْ وَلَدًا قَدِيمًا»، وَهَيْهَاتَ يَا بَا كِيَةَ:
أَصْبَحْتَ، فَصَدَحْتَ. وَأَمْسَيْتَ، فَتَنَاسَيْتَ.
لَا هَمَامَ، لَا هَمَامَ^(١). مَا رَأَيْتُ أُعْجِبَ مِنْ هَاتِفِ الْحَمَامِ: سَلِمَ فَنَاحَ،
وَصَمَّتَ وَهُوَ مَكْسُورُ الْجَنَاحِ!
إِنَّمَا الشَّوْقُ لِمَنْ يَدَّ كُرًّا فِي كُلِّ حِينٍ، وَلَا يُذْهِلُهُ^(٢) مُضِيُّ السِّنِينَ.

بلاغة أبي القاسم

وَسَيِّدُنَا — أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ — الْقَائِلُ النَّظْمَ فِي الذِّكَاءِ^(٣): مِثْلَ الزَّهْرِ،
وَفِي الْبَقَاءِ^(٤): مِثْلَ الْجَوْهَرِ. تَحَسَّبُ بِأَدْرَتِهِ: التَّاجِ، أُرْتَفَعَ عَنِ الْحِجَاجِ^(٥)،
وَعَابَرْتَهُ: الْحِجْلِ، فِي الرَّجْلِ.
يَجْمَعُ بَيْنَ اللَّفْظِ الْقَلِيلِ، وَالْمَعْنَى الْجَلِيلِ، جَمَعَ الْأَفْعَوَانَ — فِي لُعَابِهِ —
بَيْنَ الْقَلَّةِ، وَفَقَدِ الْبِلَّةِ^(٦).

خَسَنَ، فَحَسَنَ، وَلَا نَ، فَمَا هَانَ. لَيْنُ الشَّكِيرِ^(٧)، يَدُلُّ عَلَى عِتْقِ

الشمال إلى الجنوب، وقيل: هما نجمان — من الحمل — وهما قرناه، يقال: «طلع الشَّرَطَانُ»
وذلك في أول الربيع، وإلى الجانب الشمالي منهما كوكب صغير، ومنهم من يعدّه معهما،
فيقول: هذا المنزل ثلاثة كواكب، ويسميا الأشرط. والبطين: منزل من منازل القمر
وهو ثلاثة كواكب صغار مستوية التثليث، كأنها أثافي، وهو بطن الحمل. والرشاء:
كواكب كثيرة صغار على صورة السمكة.

(١) لا أهم بذلك ولا أفعله. (٢) لا ينسيه (٣) في سطوع الرأحة، وانتشار
الطيب. (٤) البقاء: الخلود (٥) الحجاج: العظم ينبت عليه الحاجب. (٦) البيلة
الشفاء، ويقال: «فإن النكسة بعد البيلة، شرّ أدواء العلة» (٧) الشكير: الشعر في أصل
عرف الفرس كأنه زغب، وما ولي الوجه والقفاه من الشعر

المَحْضِيرِ^(١) . وَحَرَشَ^(٢) الدِّيَارَ ، آيَةً كَرَّمَ النَّجَارَ^(٣) .
فَصَنُوفُ الْأَشْعَارِ - بَعْدَهُ - كَأَلْفِ « السَّلْمِ »^(٤) ، يُلْفِظُ بِهَا فِي الْكَلَامِ .
وَلَا تَثَبَّتْ لَهَا هَيْئَةٌ بَعْدَ اللَّامِ . خَلَصَ مِنْ سَبْكِ النَّقْدِ خُلُوصَ الذَّهَبِ ، مِنْ
اللَّهَبِ . وَاللَّجِينِ^(٥) ، مِنْ يَدِ الْقَيْنِ^(٦) . كَأَنَّهُ لَالَ ، فِي أَعْنَاقِ حَوَالِ^(٧) . وَسِوَاهُ
لَطٌّ^(٨) ، فِي عُنُقِ لَطٍّ^(٩) . مَا خَاتَمَتْهُ قُوَّةُ الْخَائِطِ الْأَمِينِ ، وَلَا عَيْبَ بِسِنَادٍ^(١٠)
وَلَا تَضْمِينٍ^(١١) . وَأَيْنَ النَّثْرَةُ ، مِنْ الْعَثْرَةِ^(١٢) . وَالْفَرْقَدُ^(١٣) ، مِنْ الْغَرَقَدِ^(١٤) ؟

(١) الفرس الشديد العدو . (٢) خشونة (٣) الأصل . (٤) هي الألف التي
تظهر في النطق ولا تثبت في الكتابة ، إذا قلت : هذا ، والرحمن ، وهؤلاء ، وقد عنى أبو العلاء
أن ألف السلام تسقط إذا كتبت من رسم المصحف ، ولكنها تثبت في النطق (٥) الفضة
(٦) الحداد ، أو : الصائغ (٧) نساء لابسات حلين (٨) قلادة من حب الحنظل
(٩) الثظ ، والأثظ : الثقيل البطن ، أو الكوسج الذي لحيته على ذقنه لا على العارضين ،
أو الذي لا شعر في وجهه ، يقال : « كسج الرجل ، أي لم تثبت له لحية »
(١٠) السناد من عيوب القافية ، قال أبو العلاء :

« بعدى عن الناس خير من لقاءهم وقربهم - للحجى والدين - أدواء
كاليث أفرد ، لا إبطاء يدخله ولا سناد ، ولا في اللفظ إقواء »

(١١) عيب من عيوب الشعر ، وهو أن يتم البيت دون أن يتم المعنى .
(١٢) النثرة : من منازل القمر . والعثرة : العشار ، أو الزلّة (١٣) الفرقد :
واحد الفرقدين ، وهما النجمان المعروفان . قال أبو العلاء :

« وكيف تنام الطير في وكناتها وقد نصبت - للفرقدين - الحباثل ؟ »

(١٤) الغرقد : نوع من الشجر ، واحده : غرقدة ، وهو العوسج الذي هجاه ابن الرومي فقال :

« عذرنا النخل في إبداء شوك
يدود به الأنامل عن جناه
فما للعوسج الملعون ، أضحى
له شوك ، بلا ثمر نراه
فلا يتسلحن لدفع كيف ،
كفاه لؤم مجناه ، كفاه »

وَالسَّاعِي فِي أَثَرِهِ فَارِسُ عَصَا بَصِيرٍ ، لَا فَارِسُ عَصَا قَصِيرٍ ^(١) .

خاطر الأملعى

وَأَنَا ثَابِتٌ عَلَى هَذِهِ الطَّوِيَّةِ ^(٢) ثَبَاتَ حَرَكَةِ الْبِنَاءِ ، مُقِيمٌ تِلْكَ الشَّهَادَةَ
بِغَيْرِ اسْتِشْأَاءٍ . غَنِيٌّ عَنِ الْأَيْمَانِ فَلَا عَدَمَ ^(٣) ، مُقَسِّمٌ عَلَى مَا قُلْتُ فَلَا
حِنْتَ ^(٤) وَلَا نَدَمَ . وَإِنَّمَا تُحِبُّ الدُّرَّةَ ، لِلْحَسَنَاءِ الْحُرَّةِ . وَيُجَادُ بِالْيَمِينِ ،
فِي الْعَلِقِ ^(٥) الثَّمِينِ . مَا أَنْفَسَهُ خَاطِرًا أُمْتَرَى الْفِضَّةَ ، مِنْ الْقِضَّةِ ^(٦) .

(١) عصا بصير ، أى عصا الأملعى ، و « عصا قصير » ، عصا : اسم فرس ، وقصير هو ابن سعد اللخمي ، وهو صاحب جذية بن الأبرش ، وكان لجذية هذا فرس يقال له « العصا » قالوا : فلما أحاط أعداؤه به تعرض له قصير بالعصا لعله يركبها فيمنجو عليها ، حتى إذا يئس « قصير » من ذلك ، نجا « قصير » على ظهرها . قالوا : فنظر إليها جذية وهي تجرى بقصير ، فقال : يا ضل ما تجرى به العصا !

(٢) الطوية : النية (٣) أى فلا حاجة بي إلى الإقسام (٤) الحنت : الخلف في اليمين (٥) العلق : النفيس ، وجمعه أعلق ، قال ابن زيدون :

« يَا عَلِقِي الْأَخْطَرَ ، الْأَسْنَى ، الْحَيْبِ إِلَى

قَلْبِي ، إِذَا مَا اقْتَنِى الْأَحْبَابِ أَعْلَقَا

كان التجازى بمحض الودِّ — مذ زمن —

ميدان أنس ، جرينا فيه أطلاقا

فاليوم — أحمد ما كنا لهدمكم —

سلوتم ، وبقينا نحن عشاقا »

وقال الحريري في بعض مقاماته :

« أبيت اللعن ، إن سكابِ علقِ نفيس ، لا يعار ولا يباع »

(٦) امترى الفضة من القضة ، أى : استخرج الفضة من صغار الحصى .

وَالْوَصَاةَ^(١)، مِنْ مِثْلِ الْخِصَاةِ . وَرُبَّمَا نَزَعَتْ الْأَشْبَاهُ ، وَلَمْ يُشْبِهِ الْمَرْءَ أَبَاهُ .
وَلَا غَرَوْ لِنَدِّكَ : الْخَضِرَةُ ، أُمُّ اللَّهَيْبِ^(٢) ، وَالْخَمْرَةُ ، بِنْتُ الْغَرِيبِ^(٣) .

مزايا أبي القاسم

وَكَذَلِكَ سَيِّدُنَا ، وَلَدٌ مِنْ سِحْرِ الْمُتَقَدِّمِينَ ، حِكْمَةً لِلْحَنَفَاءِ^(٤)
الْمُتَدِينِينَ وَكَمْ لَهُ مِنْ قَافِيَةِ تَبْنِي السُّودِ^(٥) ، وَتَثْنِي الْحُسُودِ : كَالْمَيْتِ ، مِنْ
شُرْبِ الْعَاتِقَةِ الْكُمَيْتِ ، نُشُورُهُ^(٦) قَرِيبٌ ، وَحِسَابُهُ تَثْرِيْبٌ^(٧) .
أَيْنَ مُشَبَّهُو النَّاقَةِ بِالْفَدَنِ^(٨) ، وَالصَّحَّاحِ^(٩) بِرِذَاءِ الرَّدَنِ^(١٠) ؟
وَجَبَّ الرَّحِيلُ ، عَنِ الرَّبْعِ الْمُجِيلِ^(١١) . نَشَأٌ - مِنْ بَعْدِهِمْ - وَاصِفٌ ،

- (١) الوصاة : النخلة تنبت من النواة (٢) الخضرة أم اللهيب ، يعني أن الشجر الأخضر تخرج منه النار ذات اللهيب (٣) الغريب : العنب الأسود .
(٤) الحنفاء : المسامون ، سموا كذلك ، لأنهم مالوا عن الأديان الأخرى التي سبقتهم .
(٥) السود : السؤدد ، وهو الشرف والرفعة (٦) يُريد : صحوه .
(٧) تثريب : لوم وتفنيد . (٨) الفدن : القصر المشيد ، يقال : فدن الإبل تفدينا أي : سمنها وصيرها كالفدن ، قال عنتره :
« فَوَقَفْتُ فِيهَا نَاقَتِي ، وَكَأَنَّهَا فَدَنٌ ، لِأَقْضَى حَاجَةِ الْمُتَلَوِّمِ »
(٩) الصَّحَّاحُ ، وَالصَّحَّاحُ ، وَالصَّحَّاحَانُ : مَا اسْتَوَى مِنَ الْأَرْضِ وَجَرَدَ ، يُقَالُ :
« سَرْنَا فِي صَحَّاحٍ مِنَ الْأَرْضِ وَصَحَّاحَانِ » وَجَمْعُهُ صَحَّاحٌ (١٠) رداء الرذن : ثوب الخبز ، قال الأعشى :
« فَأَفْنَيْتُهَا ، وَتَعَالَتْهَا عَلَى صَحَّاحٍ ، كَرْدَاءِ الرَّدَنِ »
(١١) الربع المجيل : الربع المتغير ، يقول : أين أولئك المشبهون والواصفون ليروا براءة هذا الواصف البارع ، فيقلعوا عن تلك التشبيهات التي أصبحت كالربع المجيل ، ويأخذوا - كما أخذ - بأسباب التجديد .

غُودِرُوا لَهُ كَأَنَّ صَافٍ^(١) . إِذَا سَمِعَ أَخْفِضُ^(٢) صِفَتَهُ لِلسَّهْبِ الْفَسِيحِ^(٣) ،
وَالرَّهْبِ الطَّلِيحِ^(٤) ، وَدَّ أَنْ حَشَيْتَهُ^(٥) بَيْنَ الْأَحْنَاءِ^(٦) ، وَخَلُوقَهُ^(٧) عَصِيمِ^(٨)
أَلْهِنَاءِ^(٩) ، وَحَلَمَ بِالْقُودِ ، فِي الرُّقُودِ^(١٠) ، وَصَاعَ بَرَى^(١١) ذَوَاتِ الْأَرْسَانِ ،

(١) المناصف : الخدم ، يعني أن أولئك الوصاف بعد أن جاء هذا السيد العظيم قد أصبحوا له — لما أوتيته من بلاغة وسحر — كالخدم . (٢) اخفاض : الناعم بعيشة رغد (٣) يعني : الغلاة الواسعة (٤) الرهب : الناقة المعيبة التي أضناها السير وهزلها السفر حتى بدت — من هزلها — عظامها . والطيح : المعيبة المذمومة (٥) حشيته : وسادته (٦) الأحناء (جمع حنو) وهي خشب الرّحل (٧) الخلق : ضرب من الطيب . يريد : طيبه (٨) العصيم : البقية (٩) الهناء : القار الذي يطلى به البعير ليشفي من الجرب . والمعنى : أن الخفاض الناعم المترف إذا قرأ وصف أبي القاسم للسهب الفسيح والناقة السقيمة المهزولة عشق ذلك السهب وتلك الناقة — لبلاغة الوصف — وودّ أن يجعل نومه بين خشب رحلها ، ويتخذ طيبه من القار الذي يطلى بها .

وقريب من هذا المعنى قول أبي العلاء أيضاً :

« وَأَبْغَضْتُ فِيكَ النَّخْلَ ، وَالنَّخْلُ مُشِيرٌ وَأَعْجَبَنِي — مِنْ حَبِّكَ — الطَّلْحُ وَالضَّالُّ »

فهو يؤثر الطلح والضال على النخل ، كما يؤثر ذلك المترف الناعم ركوب الناقة المهزولة والتطيب بالهناء الذي تطلّى به الجرب من النوق على ما ألف من عيش ناعم وطيب ذكى النشر (١٠) القود (جمع أقود) ، وهو الذلول من البعران ، أو هو الطويل العنق مع تطامن ، والرعود : النوم . يعني أنه — لهيامه بما سمع من بلاغة الوصف — يبيت يحلم بتلك النوق في رقاد (١١) البرى (جمع بُرة) وهي حلقة من نحاس ونحوه — من جواهر الأرض — توضع في أنف البعير . قال ابن دريد في مقصودته الرائعة :

« أَلْيِيَّةً بِالْيَعْمَلَاتِ : يَرْتَمِي بِهَا النَّجَاءُ ، بَيْنَ أَجْوَاзِ الْفِلا
خُوصٍ كَأَشْبَاحِ الْخَفَايَا ، ضَمَّرَ ، يَرْعُنُ — بِالْأَمْشَاجِ — مِنْ جَذْبِ الْبُرَى

مِنْ بُرَى^(١) أَلْبَيْضِ الْحَسَانِ ، شَنْفًا^(٢) لِدُرِّ النَّحُورِ ، وَعُيُونِ الْحُورِ ،
وَشَعْفًا^(٣) بَدْرٍ بَكِيٍّ^(٤) ، وَعَيْنِ مِثْلِ الرَّكِيِّ^(٥) ، وَإِعْرَاضًا عَنِ بُدُورٍ ، سَكَنَ
فِي الْخُدُورِ ؛ إِلَى حَوْلِ^(٦) ، كَأَهْلَةِ الْمُحُولِ . فَهِنَّ أَشْبَاهُ الْقَيْسِيَّةِ^(٧) ، وَنِعَامِ السِّيِّ^(٨) .

يَرْسُبْنَ فِي بَحْرِ الدَّجَى ، وَبِالضَّحَى يَطْفُونَ - فِي الْآلِ - إِذَا الْآلِ طَفَا «

وهو يعنى بذوات الأرسان : النوق والبعران

(١) البُرَى (جمع بُرَة) وهى - هنا - السُّوَار ، أو : الخللخال ، أو الدمليج ،

قال الراجز :

« اليوم يبنى - لدويد - بيتُهُ يارب وجهه حسن رأيتُهُ
ومعصم - ذى بُرَّة - لوئيتُهُ ، لو كان للدهر بلي ، أبلتته
أو كان قرني واحدًا كُفيتُهُ

(٢) الشَّنْفُ : البغض . يقال : « شَنَفْتُ لَهُ » إذا أبغضته (٣) الشعف : شدة الحب

والوجد يقال : شعفته الحب ، أى : أحرقه وفي نسخة : شعفًا (٤) الدرُّ : اللبن ، والبِكِيَّةُ :

القليل (٥) الرَّكِيُّ : الآبار ، مفردها رَكِيَّة (وهى البئر) قال الحريري فى إحدى مقاماته :

« نُحِمْتَ عَلَى رَكِيَّةٍ بَكِيَّةٍ » يعنى : نُحِمْتَ عَلَى بئر قليلة الماء . وقد مر بك - فى رسالة

أبى القاسم إلى أبى العلاء - قوله :

« أتعاطى نزع الرَّكِيِّ ، وَإِنْ قَصَّ رَعْنٌ أَنْ يِنَالَ مَاءَ رِشَاهُ »

وهو يعنى بقوله : « وعين مثل الرَّكِيِّ » أن عينها غائرة كالبئر ، قالوا : « وتشبه

عين البعير - إذا غارت أطول السفر - بالبئر »

(٦) الحَوْلُ : النياق التى لم تحمل ولم تلد (مفردها حائل) قالوا : « والحيال محمود فى الناقة

التي تطلب للسفر » وأهلة الحَوْل ، أى أهلة الجذب ، وهى أخفى من غيرها لاغبرار الأفق

إذا أمحل الناس (٧) منحنيات كالأقواس (٨) السى : أرض ببلاد العرب يكثر فيها

النعام . قالوا : والعرب تشبه النياق بالنعام .

وَإِنْ أَخَذَ فِي نَعْتِ الْخَيْلِ فَيَا خَيْبَةً مِنْ سَبِّهِ الْأَوَابِدَ بِالتَّقْيِيدِ^(١) ، وَشَبَّهَ
 الْحَافِرَ بِقَعَبِ^(٢) الْوَلِيدِ ، نَعْتًا غَبَطَ بِهِ الْهَجِينِ^(٣) الْمَنْسُوبِ ، وَالْبَارِئُ
 الْيَعْسُوبُ^(٤) ، إِذْ رُزِقَ مِنَ الْخَيْرِ ، مَا لَيْسَ لِكَثِيرٍ مِنْ سِبَاعِ الطَّيْرِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ
 عَلَى الصَّغَرِ ، سَمِيَ بَعْضُ الْغُرَرِ . وَقَدْ مَضَى حَرَسٌ^(٥) ، وَخَفَّتْ جَرَسٌ^(٦) .
 وَلِلْقَالِجِ^(٧) ، أَبْغَضُ طَالِجِ ، وَالْأَزْرَقُ ، يُجْنَبُكَ عَنْهُ الْفَرَقُ^(٨) . فَالآنَ
 سَمَّيْتُ الْجِبَّةَ^(٩) مِنْ الْمَعْضِ^(١٠) ، وَشَمَلْتُ بَعْضَهَا بِرَكَاتٍ بَعْضٍ . فَأَيُّقَنَ
 النَّطِيطِجُ^(١١) ، أَنْ رَبَّةً لَا يَطِيحُ^(١٢) ، وَالْمَهْقُوعُ^(١٣) ، نَجَاءَ رَاكِبِهِ مِنَ الْوُقُوعِ .

(١) سَبَّهَ : أذْهَلَ ، رَفَى نَسَخَةً : شَبَّهَ . وَالْأَوَابِدَ : الْوَحُوشَ ، وَإِنَّمَا وَصَفُوهَا بِذَلِكَ لِأَنَّهَا
 تَعِيشُ أَبَادًا طَوِيلَةً ، وَهُوَ يَشِيرُ إِلَى قَوْلَةِ امْرِئِ الْقَيْسِ الْمَشْهُورَةِ :

« وَقَدْ أَغْتَدَى — وَالطَّيْرُ فِي وَكَنَاتِهَا بِمَنْجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلٌ »

وَهَذَا التَّعْبِيرُ « قَيْدِ الْأَوَابِدِ » أَيْ حَبْسِهَا مِمَّا اسْتَحْسَنَهُ نَقَادُ الْعَرَبِ ، وَعَدُوهُ مِنْ مَفَاخِرِ
 امْرِئِ الْقَيْسِ ، وَلَكِنَّهُ إِذَا قُورِنَ بِبِلَاغَةِ أَبِي الْقَاسِمِ — فَيَا يَرَى الْمَعْرَى — عَدَمَ مِنَ الْخُزِّيَّاتِ

(٢) الْقَعْبُ : الْقَدْحُ الصَّغِيرُ ، وَيَشْبَهُ بِهِ حَافِرُ الْفَرَسِ ، قَالَ امْرِؤُ الْقَيْسِ :

لَهَا حَافِرٌ : مِثْلُ قَعْبِ الْوَلِيدِ رَكِبَ فِيهِ وَظَيْفٌ عَجْرٌ

(٣) الْهَجِينُ : الَّذِي وَلَدَتْهُ بَرْدُونَةٌ مِنْ جَوَادِ عَرَبِيٍّ ، قَالُوا : « وَالْهَجِينَةُ — فِي النَّاسِ وَالْخَيْلِ —

إِنَّمَا تَكُونُ مِنْ قَبْلِ الْأُمِّ » (٤) الْيَعْسُوبُ : النَّمْلَةُ وَذَكَرَ الْجَرَادُ وَالْجَعْلُ ، وَالْيَعْسُوبُ أَيْضًا

اسْمٌ لِلْبَيَاضِ الَّذِي فِي وَجْهِ الْفَرَسِ إِذَا اسْتَطَالَ وَرَقَ وَقَارَبَ الْأَنْفَ ، وَيُسَمَّى غِرَّةً أَيْضًا

(٥) زَمَنٌ (٦) صَوْتُ (٧) دَائِرَةٌ فِي جِسْمِ الْفَرَسِ تَحْتَ اللَّبَدِ وَهِيَ مَكْرُوهَةٌ

فِي الْفَرَسِ (٨) إِشْرَافٌ إِحْدَى الْوَرَكَيْنِ عَلَى الْأُخْرَى وَهُوَ مَكْرُوهٌ فِي الْفَرَسِ أَيْضًا

(٩) الْخَيْلِ (١٠) مَا يَغْضَبُ أَوْ تَسُوءُ ذَكَرَاهُ ، تَقُولُ : « مَعْضَتُ الرَّجُلِ وَأَمْعَضَتُهُ ،

إِذَا ذَكَرْتَهُ بِمَا يَغْضِبُهُ » (١١) الْفَرَسُ فِي جِهَتِهِ دَائِرَتَانِ وَهُوَ مَكْرُوهٌ (١٢) لَا يَهْلِكُ

(١٣) الْمَهْقُوعُ — مِنَ الْخَيْلِ — مَا كَانَ بِهِ دَائِرَةٌ بَعْرُضِ زُورِهِ ، يَتَشَامَمُ بِهَا

فَلَنْ يُحْرَبَ^(١) ، قَائِدُ الْمُعْرَبِ^(٢) ، وَلَنْ يُرْجَلَ^(٣) ، سَائِسُ الْأَرْجَلِ^(٤) .
وَالْعَابُ^(٥) ، وَإِنْ لِحَقَّ الْكَعَابُ^(٦) ، نَاكِبٌ ، عَنْ نَاقِلَاتِ الْمَرَائِبِ . وَقَالَتْ
خَيْفَانَةُ^(٧) امْرَأَةُ الْقَيْسِ : « الدُّبَاءَةُ^(٨) ، لِرَاعِي الْمِبَاءَةِ^(٩) ، وَالْأَنْفِيَّةُ^(١٠) ،
لِلْقَدْرِ الْكَفِيَّةِ^(١١) » تَقَمَّا^(١٢) عَلَى جَاعِلٍ عُذْرَهَا كَفَرُونَ الْعُرُوسِ^(١٣) ، وَجَبَّهَتْهَا :

(١) لن يصيبه الحرب وهو الهلاك (٢) المُعْرَبُ : أبيض البياض ، يصفون به الجواد الذي
ايض وجهه ورأسه ، وهو مما يتطير به (٣) لن يُرْجَلَ : لن يترجل عن فرسه (٤) الأرجل
(من الدواب) ذو الترجيل ، وهو : بياض في إحدى رجلي الدابة ، وهو مكروه ينفرون منه
إذا لم يجمع إلى ذلك بياض غرته (٥) العاب : العيب (٦) الكعاب : الجارية الناهد
(٧) الخيفانة : الفرس الضامر ، الخطف البطن ، قالوا : « وأصل هذا الوصف في الجراد »
يقال : « جرادة خيفانة » إذا كان فيها لونان ، وقال بعضهم : « الخيفانة : الضامرة » وإنما
استعمل هنا على سبيل التشبيه (٨) الدُّبَاءَةُ (واحدة الدُّبَاءِ) وهو : القَرَعُ . وتشبه الفرس
الأنثى بالدبابة وهي القرعة ، أو النخلة الطويلة للمساء ، ولا يشبه بها الفرس الذكر لأن
الإناث من الخيل توصف بدقة القاديم وطول العنق ، فلذلك تُشَبَّه بالدُّبَاءَةِ . وهو يعنى بذلك
قول امرئ القيس :

« وأركب - الرِّوَع - خيفانة كسى وجهها سعف مُنْتَشِرٌ
إذا أقبلت ، قلت : « دُبَاءَةٌ - من الخضر - مغموسة في العُدْرُ »
وإن أدبرت ، قلت : « أَنْفِيَّةٌ مملعة ليس فيها أشر »

(٩) المباءة : المنزل ، قالوا : « وإنما سمي بها المنزل ، لأن أهله يوءون إليه ، أى يرجعون »
(١٠) حجر من الحجارة التي توضع عليها القدر (١١) مصدر : نغم منه ، إذا أنكر
عليه وعابه (١٢) العُدْرُ ، (جمع عذرة) وهى : الناصية ، أو : الخصلة من الشعر ،
والشعر على كاهل الفرس . وقرون العروس : ذوائبها

كَمَحْدَفٍ (١) التُّرُوسِ (٢) .

وَأَنِّي لِلْكَنْدِيِّ (٣) ، قَوَافٍ كَهَجْمَةِ السَّعْدِيِّ (٤) :

« إِذَا اصْطَكَّتْ - بِضِيقٍ - حُجْرَتَاهَا (٥) »

تَلَاقَ الْعَسْنُ جَدِيَّةً وَاللَّطِيمُ (٦) »

البلاغة الساحرة

فَالْقَسِيبُ (٧) ، فِي تَضَاعِيفِ النَّسِيبِ ، وَالشَّبَابُ ، فِي ذَلِكَ التَّشْبِيبِ ،
لَيْسَ رَوِيَّةً (٨) بِمَقْلُوبٍ ، وَلَكِنَّهُ مِنْ إِرْوَاءِ الْقُلُوبِ ، وَقَدْ جَمَعَ أَلِيلَ (٩) مَاءِ

(١) المَحْدَفُ : المصنوع ، أو المتقن ، يقال : « حذف الصانع الشيء » أى : « سواه
تسوية حسنة » وحذف شعره : طَرَّرَهُ ، وسواه ، وهو أن يأخذ من نواحيه حتى يستوى ،
ومن ذلك قولهم : « فلان محذف الكلام » (٢) التروس (جمع تُرس) وهو المجن ،
والمعرى يشير بهذا إلى قول امرئ القيس في القصيدة نفسها :

« لها جبهة كسرة الجنِّ ، حذفها الصانع المقتدر »

يعنى بسرة الجن : ظهر الترس . (٣) الكندي هو : امرؤ القيس (٤) الهجمة :
ما بين الستين إلى المائة من الإبل ، والسعدى منسوب إلى سعد بن زيد مناة .

(٥) الحجرة : الناحية ، وحجرتهاها ، يعنى بهما : جانبيها (٦) العسجد واللطيم :
فحلان تنسب إليهما الإبل ، والعسجد معناه : الذهب ، ومعنى اللطيم : المسك ، أى الإبل
التي تحمل الذهب والمسك (٧) القسيب : صوت الماء الجارى (٨) الروى : الحرف
الذى تبني عليه القصيدة (٩) الأليل : الصوت ، وماء الصبا : رونقه ونضارته

الصَّبَا ، وَصَلِيلٌ ^(١) ظِمَاءُ الظُّبَا ^(٢) . فَأَلْمِضْرَاعُ كِمْرَاةِ الغَرِيْبَةِ ، حَكَتِ الزَّرِيْبَةَ
وَالرِّيْبَةَ ، وَأَرَتِ الحُسْنَاءَ سَنَاهَا ، وَالسَّمَجَةَ مَا عَنَاهَا ^(٣) .

*
* *

فَأَمَّا الرَّاحُ ، فَلَوْ ذَكَرَهَا لَشَفَّتْ ، مِنْ الهَرَمِ ، وَانْتَفَتْ ، مِنْ السَّكْرَمِ ،
إِلَى السَّكْرَمِ ، وَلَمْ تَرَضْ دِنَانُ العُقَارِ ، بِلِبَاسِ القَارِ ^(٤) ، وَتَسِيحِ العُنَاكِبِ ، عَلَى
المُنَاكِبِ ، وَلَكِنْ تُكْسَى - مِنْ وَشِي - ثِيَابًا ، وَيُجْعَلُ طِلَاؤُهَا زَرِيَابًا ^(٥) .
وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ ذَكَرَ حَيْمَةَ يُعْبِطُ المِسْكَ جَارَهَا مِنَ الشِّيَامِ ^(٦) ، وَيُوَدُّ سَعْدُ
الأَخْبِيَةَ ^(٧) أَنَّهُ سَعْدُ الحِيَامِ .

مختصر إصلاح المنطق

وَوَقَفْتُ عَلَى مُخْتَصَرِ إِصْلَاحِ المَنْطِقِ الَّذِي كَادَ بِسِمَاتِ ^(٨) الأَبْوَابِ ، يُغْنِي

(١) الصليل : صوت السيوف (٢) والظُّبَا (جمع ظُبة) وهي حد السيف
قال السموأل :

« تسيل - على حدِّ الظُّبَاة - نفوسنا ، وليست - على غير الظُّبَاة - تسيل »
والعري يقول : « إن صاحبه قد جمع في شعره بين العذوبة والقوة ، فالتقى فيه صوت ماء
الصبا ، وصوت السيوف الظامئة إلى القتال » .

(٣) الغريبة : المغتربة عن وطنها ، وإنما ضربت الأمثال بمرآتها - في الصفاء - لأنها
تكثر من تعهدا والعناية بأمرها ، فليس لها في غربتها غيرها من ناصح يصدِّقها الخبر ، ويريهما
مفاتها ومساويها ، ويصف لها زيتها وريبتها ، ويريهما مواضع جهالها ، ومواطن قبورها .
(٤) لباس القار : الذي تظلي به الدنان . (٥) الزرياب : ماء الذهب .

(٦) الشيام : التراب (٧) سعد الأخبية : منزل من منازل القمر ، يقول : إن
أبا القاسم لما وصف الخيمة شرفها ورفع من قدرها ، فأصبح المسك يحسد ما جاورها من
التراب ، وود القمر لوحل فيها بدلا من حلوله في منزلته السماوية (٨) سمات الأبواب : علاماتها

عَنْ سَائِرِ الْكِتَابِ ، فَعَجِبْتُ كُلَّ الْعَجَبِ مِنْ تَقْيِيدِ الْأَجْمَالِ (١) ، بِطِلَاءِ (٢)
الْأَجْمَالِ ، وَنَقْلِ قَلْبِ الْبَحْرِ ، إِلَى قَلْتِ النَّحْرِ (٣) ، وَإِجْرَاءِ الْفُرَاتِ ، فِي مِثْلِ
الْأَخْرَاتِ (٤) .

شَرَفًا لَهُ تَصْنِيفًا شَفَى الرَّيْبَ ، وَكَفَى مِنْ ابْنِ قُرَيْبٍ (٥) ، وَدَلَّ عَلَى جَوَامِعِ
اللُّغَةِ بِالْإِيْمَاءِ ، كَمَا دَلَّ الْمَضْمَرُ (٦) عَلَى مَا طَالَ مِنَ الْأَسْمَاءِ ، أَقُولُ فِي الْإِخْبَارِ :
« أَمَرْتُ أَبَا عَبْدِ الْجَبَّارِ » ، فَإِذَا أَضْمَرْتُهُ ، عُرِفَ مَتَى قُلْتُ : « أَمَرْتُهُ » .

وَأَبْلَ (٧) مِنَ الْمَرَضِ وَالتَّمْرِ يَضِ ، بِمَا أَسْقَطَ مِنْ شُهُودِ الْقَرِيضِ ، كَأَنَّهِمْ
فِي تِلْكَ الْحَالِ ، شَهَدُوا بِالْمُحَالِ ، عِنْدَ قَاضٍ ، عَرَفَ أَمَانَتَهُمْ بِالْإِنْتِقَاضِ ، عَلَى
حَقِّ عِلْمِهِ بِالْعِيَانِ ، فَاسْتَعْنَى فِيهِ عَنْ كُلِّ بَيَانٍ .

شواهد الإِصْلَاحِ

وَقَدْ تَأَمَّلْتُ شَوَاهِدَ إِصْلَاحِ الْمُنْطِقِ ، فَوَجَدْتُهَا عَشْرَةَ أَنْوَاعٍ ، فِي عِدَّةِ

(١) الأجمال (جمع : جمل) (٢) الطلاء : الخيط ، يقول : إنني عجبت كيف استطاع
أن يقيد الجمل القوى بتلك الخيوط التي لا يقيد بها الا الحمل الضعيف .
(٣) القلّت : النقرة في الجيد ، وإنما سميت كذلك تشبيها لها بقلت الصخرة ، وهي النقرة
يجمع الماء فيها (٤) الأخرات (جمع خرت) وهو ثقب الإبرة ، أو ثقب الأذن ، يقول :
وعجبت كيف جمع كل هذه الفوائد في مثل هذا المختصر الصغير ، فهو بذلك كان كمن قدر
على وضع البحر في نقرة النحر ، وجمع ماء الفرات في مثل ثقب الأذن (٥) ابن قريب
هو : الأصمعي ، وقد مرت بك ترجمته في الجزء الثاني من هذا الكتاب
(٦) المضمَر : الضمير (٧) أبل : شفى .

إِخْوَةَ الصِّدِّيقِ ^(١)، لَمَّا تَظَاهَرُوا عَلَيَّ غَيْرِ حَقِيقٍ ، وَتَزِيدُ عَلَيَّ الْعَشْرَةَ بِوَاحِدٍ ،
كَأَخِ لِيُوسُفَ لَمْ يَكُنْ بِالشَّاهِدِ ^(٢) .
وَالشُّعْرُ الْأَوَّلُ ^(٣) وَإِنْ كَانَ سَبَبَ الْأَثَرِ ، وَصَحِيفَةَ الْمَأْثَرَةِ ^(٤) ، فَإِنَّهُ
كَذُوبُ الْقَالَةِ ، نَوْمُ الْإِطَالَةِ .

وَإِنَّ «فَقَا نَبِكَ» ^(٥) — عَلَى حُسْنِهَا ، وَقَدِمَ سِنِّيهَا — لَتُقَرَّرُ بِمَا يُبْطَلُ شَهَادَةَ
الْعَدْلِ الرَّضَى ^(٦) ، فَكَيْفَ بِالْبَغِيِّ الْأَنْثَى ^(٧) ؟ قَاتَلَهَا اللَّهُ عَجُوزًا لَوْ كَانَتْ
بَشَرِيَّةً ، كَانَتْ مِنْ أَعْوَى الْبَرِيَّةِ .

رجز الضب

وَقَدْ تَمَادَى بِأَبِي يُوسُفَ ^(٨) — رَحِمَهُ اللَّهُ — الْاجْتِهَادُ ، فِي إِقَامَةِ الْأَشْهَادِ ^(٩) ،
حَتَّى أَلْشَدَّ رَجَزَ الضَّبِّ ^(١٠) ، وَإِنَّ مَعَدًّا — مِنْ ذَلِكَ — جِدُّ مُغْضَبٍ . أَعْلَى

-
- (١) يعنى يوسف الصديق — عليه السلام — وقصته مع إخوته ذائعة معروفة .
(٢) يعنى بنيامين أخا يوسف الصديق ، فهو لم يشهد ما فعله إخوته به (٣) الشعر الأول ،
يعنى : شعر الأوائل القدماء ، وهم شعراء الجاهلية (٤) المأثرة : المكرومة المتوارثة ، والمفخرة
التي تُوَثَّرُ وتُروى (٥) يعنى معلقة امرئ القيس المعروفة ، وأولها :
« فقا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى ، بين الدخول فحول »
(٦) الرضى : العدل من الشهود ، وهو مصدر على معنى اسم المفعول (٧) البغى الأنثى ،
يعنى بها معلقة امرئ القيس ، لأنها جمعت كثيراً من أفانين الفحش
(٨) يعنى صاحب كتاب إصلاح المنطق : أبا يوسف يعقوب بن السكيت
(٩) الأشهاد : الشواهد والأمثلة (١٠) رجز الضب معروف ذائع ، وقد وضعه بعض
قصاصى العرب على لسانه ، وزعموا أن الضب هو قائل هذا الرجز ، وقد اشتهى أن يرد العراد
والصليان ، (والعراد : نوع من الحمض ، والصليان : نبت تأكله الإبل والحمير الوحشية) فقال :

فَصَاحَتِهِ يُسْتَعَانُ بِالْقَرَضِ؟ وَيُسْتَشْهَدُ بِأَحْنَشِ (١) الْأَرْضِ؟ مَا رُوْبَةٌ (٢) عِنْدَهُ فِي نَفِيرٍ (٣)، فَمَا قَوْلُكَ فِي ضَبِّ دَائِي الْأَظْفِيرِ (٤)؟

كتاب ابن السكيت

وَمَنْ نَظَرَ فِي كِتَابِ «يَعْقُوبَ» وَجَدَهُ كَأَلْمَهَمِلِ، إِلَّا بَابَ فَعَلٍ وَفَعَلٍ، فَإِنَّهُ مُؤَلَّفٌ عَلَى عَشْرِينَ حَرْفًا، سِتَّةٌ مُذَلِّقَةٌ (٥)، وَثَلَاثَةٌ مُطَبِّقَةٌ (٦)، وَأَرْبَعَةٌ مِنْ الْحُرُوفِ الشَّدِيدَةِ (٧)، وَوَاحِدٌ مِنَ الْمَزِيدَةِ (٨)، وَنَفِيثَيْنِ (٩): الثَّاءُ وَالذَّالُ، وَآخَرَ مُتَعَمَلٍ (١٠)، وَالْأَخْتَيْنِ: الْعَيْنِ وَالْحَاءِ (١١)، وَالشَّيْنِ مُضَافَةً إِلَى حَيْزِ الرَّاءِ.

«أصبح قلبي صردا لا يشتهي أن يردا
إلا عرادا عردا، وصلينا انا بردا»

- (١) أحناش الأرض: حشراتهما، والمعنى أن «معد بن عدنان» رأس البلاغة العربية شديد الغيظ والحنق على استشهاده «ابن السكيت» صاحب إصلاح المنطق، برجز الضب — وهو من أحناش الأرض — على فصاحته، وفي هذا من الغرض بشأنه ما لا يعتفره له.
- (٢) رُوْبَةٌ: هو الراجز المعروف، وقد مرت بك ترجمته في الجزء الثاني حين عرض المعري لجنة الرجاز (٣) النفير: الكفاء، تقول: «ما هو بنفير فلان» أي أنه ليس بكفئته في المنافرة (٤) يقول: إذا كان معد بن عدنان لا يرى في «رُوْبَةٌ ابن العجاج» — الذي يستشهد بكلامه نقاد العرب ورواتهم — كفئًا له، فكيف بالضب الحقيق، يتخذ مما يجري على لسانه شاهداً على فصاحة معد بن عدنان؟ (٥) يعني أحرف: الراء واللام والنون والفاء والباء والميم (٦) يعني أحرف «الصاد والضاد والطاء»، قالوا: «والطاء من حروف الإطباق، ولكن يعقوب لم يؤلف عليهما في هذا الباب» (٧) يعني أحرف: «الجيم والذال والكاف والطاء» (٨) يعني حرف السين (٩) أحرف النفث هي: «الثاء والذال والطاء» (١٠) يعني حرف القاف، لأنه من حروف الاستعلاء (١١) هما من حروف الخلق

فَرِحِمَ اللهُ «أَبَا يُوسُفَ» ، لَوْ عَاشَ لَفَازَ كَمَدًا^(١) ، أَوْ أَحْفَازًا^(٢) حَسَدًا .
سَبَقَ ، ابْنُ السُّكَيْتِ ، ثُمَّ صَارَ السُّكَيْتِ^(٣) ؛ وَسَمَقَ^(٤) ، ثُمَّ حَارَ
وَتِدًا لِلْبَيْتِ^(٥) .

فضل الموجز

كَانَ الْكِتَابُ^(٦) تَبْرَأَ فِي تُرَابِ مَعْدِنٍ ، بَيْنَ الْحُتِّ^(٧) وَبَيْنَ الْمُنْدِنِ^(٨) ،
فَاسْتَخْرَجَهُ سَيِّدُنَا وَاسْتَوْشَاهُ^(٩) ، وَصَقَلَهُ فِكْرُهُ وَوَشَّاهُ ، فَعَبَّطَهُ النَّيِّرَاتُ
عَلَى التَّرْقِيشِ^(١٠) ، وَالْأَلِ النَّقِيشِ^(١١) .

فَهُوَ مُحْبُوبٌ لَيْسَ بِهِيْنِ ، عَلَى أَنَّهُ ذُو وَجْهَيْنِ ، مَا نَمَّ قَطُّ وَلَا هَمَّ^(١٢) ،
وَلَا نَطَقَ وَلَا أَرَمَ^(١٣) ، فَقَدْ نَابَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الصِّمِيمِ ، مَنَابَ مِرَاةٍ

(١) فاظ كمدًا: مات حزنًا وأسى (٢) يقال: «احفظت الجيفة» أي: «انتفخت».

(٣) السُّكَيْتُ والسُّكَيْتُ: هو آخر فرس يجي في حلبة السباق (٤) سمق: علا،

وارتفع (٥) حار: رجع، الوتيد: ما رز في الأرض أو الحائط من خشب، وفي الأمثال:

«أذل من غير أو وتيد»، قال الشاعر:

«وما يقوم على ضمير يراد به إلا الأذلان: غير الحى، والوتيد»

هذا على الخسف مربوط برمته وذا يدق، فلا يرثى له أحد»

(٦) يعني كتاب «ابن السكيت» (٧) الحت: التراب اليابس والرمل الخشن

(٨) المندين: اللين (٩) يقول: «مخلص التبر من التراب، ونفي القشر واستبقى اللباب،

فأصبح الكتاب بعد تلخيصه ذهبًا خالصًا من كل شائبة» (١٠) يعني: حسدته الكواكب

النيرة على بهائه وزينته (١١) النقيش: المنقوش، والآل: الشخص (١٢) يعني:

«ما نَمَّ، ولا هَمَّ بالنيمة» (١٣) أرم: سكت، يعني أنه: لم ينطق ولم يسكت

الْمُنْجَمِ (١) فِي عِلْمِ التَّنْجِيمِ (٢) ، شَخْصَهَا صَلَّ مَأْمُومٌ ، وَفِيهَا الْقَمَرَانِ
وَالنَّجْمُومُ (٣) .

تكرار اللفظ

وَأَقُولُ - بَعْدُ - فِي إِعَادَةِ اللَّفْظِ : « إِنَّ حُكْمَ التَّأْلِيفِ فِي ذِكْرِ الْكَلِمَةِ
مَرَّتَيْنِ ، كَالْجَمْعِ فِي النَّكَّاحِ (٤) بَيْنَ أُخْتَيْنِ ، الْأُولَى : حِلٌّ يُرَامُ ، وَالثَّانِيَةُ :
بَسَلٌ (٥) حَرَامٌ » . كَيْفَ يَكُونُ فِي الْهُودِجِ لِمَيْسَانَ (٦) ؟

(١) المنجم : الفلكي (٢) يعنى بالتنجيم : علم الفلك (٣) أبداع ابن الرومي في صوغ
هذا المعنى بأسلوب آخر ، في هجائه لابن الخبازة ، إذ يقول :

« كضمير الفؤاد يلتهم الذن يا جميعاً ، وتحويه دفنا حيزوم . »

(٤) الزواج (٥) البسل : الحرام . (٦) لميس : اسم محبوبة ، والمعنى :

« كيف يجمع المرء - في هودجه - حبيبتين ؟ »

وليس : اسم يطلق على الحبيبة كما تطلق لمبى وزينب ودعد ولبنى ولبنى وبثينة ،
وكهن من ذوات الأسماء التي يشبب بها . فأما لميس ، فحسبنا منها قول الراجز :

« ياليتنى وأنت يا لميس في بلدة ليس بها أنيس

إلا اليعافير ، وإلا العيس »

وقول المعري :

يارب لا أدعو « لميس » كما دعا « أوس » ولا دعوى « زهير » : « حار »

وهو يعنى بأوس : ابن حُجْر بن عتاب الشاعر الجاهلي . ويشير إلى قوله :

« تنكرت منا - بعد معرفة - لميس »

أما « حار » الذي أشار إليه المعري ، فهو قول الشاعر :

يا حار : لا أرمين منكم بداهية لم يلقها سوقة - قبلي - ولا ملك

وأما زينب فقد أشار إليها المعري في (صفحة ٣٥٥ ج ١) من اللزوميات في قوله :

لزينب يحلو جَنِيَّ أمر وقد علقت كفها بالقمر

وقوله (في ج ١ ص ٢٠٦ من اللزوميات) ، وفيه إشارة إلى زينب ودعد :

« وزينب إن أصابتها المنايا فهند - من وسائقها - ودعد »

وأما ليلى فهي مضرب الأمثال في الشعر العربي ، وحسبنا أن نجتزئ بقول الشاعر :

تداويت من ليلى - بليلى - من الهوى ، كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

وقول الجنون :

أليس وعدتني - يا قلب - أنى - إذا ما تبنت عن ليلى - تتوب

فها أنا تائب عن حب ليلى
وأما دعد فحسبنا منها شاعر اليتيمة :

« لهفي على دعد ، وما خلقت إلا ل طول تلهفي دعد

وإذا الحب شكك الصدود ، ولم يعطف عليه فقتله عمد

وإذا صبرت لجهد نازلة فكأنه ما مسك الجهد »

وقول المعري :

« خذ حساما - سعد - أو قلما وخذي - يا دعد - عرناسا »

والعرناس من آلات الغزل . وأما لبني ، فحسبنا منها قول قيس بن ذريح :

« فيا قلب خبرني - إذا شطت النوى بلبني وصدت عنك - ما أنت صانع ؟

أتصبر للبين المشت مع الجوى أم أنت امرؤ ناسي الحياء ، فجازع ؟

وقد نشأت في القلب منكم محبة كما نشأت في راحتين الأصابع »

وأما ليلى ، فحسبنا منها قول « صرّدر » :

وقد كشف الغطاء ، فما نبالي أصرحنا بذكرك أم كنبينا

وَفِي السَّبَّةِ خَمِيسَانَ^(١)؛ يَا أُمَّ الْفَتَيَاتِ: حَسْبُكَ مِنَ الْهُنُودِ^(٢)، وَيَا أَبَا الْفَتَيَانَ: شَرُّكَ^(٣) مِنَ السُّعُودِ^(٤). عَلَيْكَ أَنْتِ بَزْيَنْبَ وَدَعْدِ، وَسَمَّ أَيُّهَا الرَّجُلُ

نسائل عن ثمامات بِحُزْوَى ، وبأن الرمل يعلم من عندنا ولو أنا ننادى : « يا سليمى » فقالوا : « ما عنيت سوى لبينى ! »
وأما بثينة فحسبنا منها قول جميل :
وإني لأرضى — من بثينة — بالذى لو أبصره الواشى ، تقرت بلابله بلا ، وبألا أستطيع ، وبالمنى ، وبالأمل المرجو قد خاب آمله وبالنظرة العجلى ، وبالحول تنقضى وأواخره — لا نلتقى — وأوائله .
وأما عزة ، فحسبنا منها قول كثير :

وقد زعمت أنى تغيرت بعدها ومن ذا الذى — يا عز — لا يتغير؟
(١) السَّبَّةُ : البرهة من الزمن ، وقد خصصها المولودون بأيام الأسبوع — كما فى محيط المحيط — فالمعنى على هذا أن الأسبوع لا يجتمع فيه يوماً خميس ، بل يوم خميس واحد .
وقد يكون المراد من السبّة ما أريد بها فى قول ابن الرومى :

فيطعنه فى سبّة السوء طعنة : يقوم لها — من تحته — وهو أفحج

وقد مر بالقارئ هذا البيت فى جيميته فى الجزء الثالث فى آخر ص ٢٧٢ من هذا الكتاب ويراد من الخميسين : الرمحان (وقد سمى الرمح خميساً لأن طوله خمس أذرع) .
وفى هذا إشارة إلى قول الشاعر :

تريدين كىما تجمعينى وخالدا وهل يجمع السيفان ويحك فى غمد؟

(٢) يقول : حسبك يا أم الفتيات أن تسمى إحدى بناتك « هنداً » ثم تسمى غيرها من الأخوات أسماء أخريات ، أما أن تسمى — من بناتك — هنتين ، فذلك سخف وفساد ذوق . (٣) شرعك : حسبك (٤) يقول : « وحسبك يا أبا الفتيان أن تسمى واحداً من أبنائك سعداً ، أما أن تسمى ولديك سعدين فذلك رأى سقيم ، فإن الأسماء كثيرة » . وهو ينتقد — بهذا المثال — ما وقع فى كتاب « يعقوب » من تكرار الكلمة مرتين .

بِسْوَى سَعْدٍ ، مَا قَلَّ أَثِيرُهُ ، وَالْأَسْمَاءُ كَثِيرُهُ .

مَثَلُ يَعْقُوبَ مَثَلُ خَوْدٍ^(١) كَثِيرَةِ الْحُلِيِّ ضَاعَفْتُهُ عَلَى التَّرَاقِ^(٢) ، وَعَطَلْتُ
الْحَصْرَ وَالسَّاقَ !

ورود الكتاب

كَانَ يَوْمٌ قُدُومِ تِلْكَ النُّسْخَةِ يَوْمَ ضَرِيبٍ^(٣) ، حَشَرَ الْوَحْشَ مَعَ
الْإِنْسِ ، وَأَضَافَ الْجِنْسَ إِلَى غَيْرِ الْجِنْسِ ، وَلَمْ يَحْكُمْ عَلَى الطَّبَّاءِ ، بِالسَّبَاءِ^(٤) ،
وَلَا رَمَى الْأَجَالَ^(٥) . بِالْأَوْجَالِ . وَلَكِنَّ الْأَضْدَادَ تَجْتَمِعُ ، فَتَسْتَمِعُ ،
وَتَنْصَرِفُ بِلَذَاتٍ ، مِنْ غَيْرِ أَذَاةٍ .

*
* *

وَإِنَّ عَبْدَهُ « مُوسَى » لَقِيْنِي نِقَابًا^(٦) ، فَقَالَ : هَلُمُّ^(٧) كِتَابًا ، يَكُونُ
لَكَ شَرَفًا ، وَلَوْلَا لَيْتُكَ^(٨) فِي حَضْرَةِ سَيِّدِنَا - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ - مُعْتَرِفًا .
فَتَلَوْتُ عَلَيْهِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ : « إِنَّ لَكَ الْأَلْبَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرِى ،
وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى^(٩) » .

وَأَحْسَبُهُ رَأَى نُورَ السُّوُودِ ، فَقَالَ - لِمُخَلَّفِيهِ^(١٠) - مَا قَالَ « مُوسَى »

(١) الخود : الفتاة الحسنة الناعمة الجسم ، وقيل : الحية . (٢) التراق : أعلى
الصدر ، قال تعالى : « حتى إذا بلغت التراق ، وقيل : من راق ، وظن أنه الفراق . »
(٣) الضريب : النالج ، والجليد ، والصقيع (٤) بالأسر (٥) الأجال : قطعان
الغزلان أو : بقر الوحش ، والأوجال : المخاوف (٦) مصادفة على غير موعد (٧) هلك .
(٨) ولحبتك . (٩) أضحى : أصابته الشمس بجرها . (١٠) لمن تركهم خلفه .

- عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِأَهْلِيهِ : « إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ، لَعَلِّي آتَيْكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ ^(١) أَوْ أَجْدُ - عَلَى النَّارِ - هُدًى . »

الأخلاق الباهرة

فَلَيْتَ شِعْرِي : مَا يَطْلُبُ ؟ أَقْبَسَ ذَهَبٍ ؟ أَمْ قَبَسَ هَبِّ ؟
بَلْ يُتَشَرَّفُ بِالْأَخْلَاقِ الْبَاهِرَةِ ، وَيُسَبَّرُكَ بِالْأَحْسَابِ الطَّاهِرَةِ :

« بَاتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلِي ، يَقْتَبِسُنَّ لَهَا جَزَلَ الْجَذَى ، غَيْرَ حَوَّارٍ وَلَا دَعِرٍ ^(٢) »

*
* *

وَقَدْ آبَ - مِنْ سَفَرَتِهِ الْأُولَى - وَمَعَهُ جُدْوَةٌ مِنْ نَارٍ ، إِنْ لُمِسَتْ ، فَنَارُ
إِبْرَاهِيمَ ^(٣) ، أَوْ أُونِسَتْ ، فَنَارُ الْكَلِيمِ ^(٤) ، وَأُجْتِنَى بَهَارًا ^(٥) حَيَّتْ بِهِ
الْمُرَازِبَةُ ^(٦) « كِسْرَى » ، وَجَمَلَ فِي فَكَاكِ الْأَسْرَى ، وَأَدْرَكَ « نُوحًا » مَعَ
الْقَوْمِ ، وَبَقِيَ غَضًّا ^(٧) إِلَى الْيَوْمِ ، وَمَا أَنْتَجَعَ ^(٨) « مُوسَى » إِلَّا الرَّوْضَ
الْعَمِيمَ ، وَلَا أَتْبَعَ إِلَّا الْأَصْدَقَ مُعْجِمًا ^(٩) .

- (١) شعلة (٢) الحواطب (جمع حاطبة) يعني : باتت الحواطب يحْتَطِبْنَ لليلِ .
ويجمعن لها الجزل ، أى الغليظ من الحطب . والجدى جمع جدوة ، وهى القطعة الجزلة الملتهبة
من الخشب ، أو . العود فيه نار ، والحوار : الضعيف ، والدَّعِر : الذى يدخن ولا تذكو ناره .
(٣) نار إبراهيم ، يعنى أنها برد وسلام . (٤) الكليم ، هو : موسى الكليم ، وقصته
معروفة . (٥) البهار : نبت طيب الرائحة . (٦) المرازبة : أعيان الفرس ورؤسأوهم .
(٧) أى لا زال محتفظًا بنضارته إلى اليوم (٨) انتجع : ذهب يطلب الكلاً .
(٩) المعجم : السحاب يؤذن بالمطر .

مقدمُ الزهيريّ

وَوَرَدَ عَبْدُهُ « الزَّهَيْرِيُّ » مِنْ حَضْرَتِهِ الْمُطَهَّرَةِ ، كَأَنَّهُ زَهْرَةٌ بِقَيْعٍ (١) ،
أَوْ وَرْدَةٌ رَيْعٍ ، كَثِيرَةُ الْوَرَقِ ، طَيِّبَةُ الْعَرَقِ .

وَلَيْسَ هُوَ - فِي نِعْمَتِهِ - كَالرَّيْمِ (٢) ، فِي ظِلَالِ الصَّرِيمِ (٣) ، وَالْجَابِ (٤) ،
فِي السَّحَابِ الْمُتَجَابِ (٥) ، لِأَنَّ الظَّلَامَ يُسْفِرُ (٦) ، وَالْعَمَامَ يَنْسِفِرُ (٧) ،
وَلَكِنَّهُ مِثْلُ النُّونِ فِي اللَّحْجَةِ (٨) ، وَالْأَعْفَرِ تَحْتَ جَرِبَةٍ (٩) .

المعري والأدب

وَقَدْ كُنْتُ عَرَفْتُ سَيِّدَنَا - فِيمَا سَلَفَ - أَنَّ الْأَدَبَ كَعُهُودٍ (١٠) فِي آثَرِ
عُهُودٍ ، أَرَوَّتِ النَّجَادَ (١١) فَمَا ظَنُّكَ بِالْوُهُودِ (١٢) ؟ وَأَنِّي نَزَلْتُ مِنْ ذَلِكَ

(١) البقيع : المكان الفسيح ، فيه أروم الشجر من ضروب شتى (٢) الريم : الغزال
الأيض . (٣) الصريم : الليل (٤) الجاب : الأسد ، أو : حمار الوحش
(٥) المتجاب : المنكشف (٦) يسفر : ينجاب ، ينكشف (٧) ينحسر
(٨) النون في اللجة : الحوت في البحر (٩) الأعفر تحت جربة : الظبي تحت
السماء . وقد مر بك قول المعري في لزومياته :

« وما أظن المنايا تخطو كواكب جربه
ستأخذ النَّسْرَ ، والغف ر ، والسَّمَاكُ ، وتربه »

فهو بقوله : « كواكب جربه » ، يعني : كواكب السماء ، وجربة - من أسماء السماء -
معرفة ، لا تدخلها ألف ولام (١٠) أمطار (١١) النجاد (جمع نجد) ، وهو
ما ارتفع من الأرض (١٢) الوهود : الوديان ، مفردها : الوهد ، وهو الوادي ، أو هو :
كل ما انخفض من الأرض

الغَيْثِ (١) بِبَلَدِ طَسْمِ (٢) ، كَأَثَرِ الْوَسْمِ (٣) ، مَنَّعَهُ الْقِرَاعِ (٤) ، مِنْ الْأَمْزَاعِ (٥) .
يَا بُؤْسَ بَنِي سَدُوسٍ (٦) . الْعَدُوُّ حَازِبٌ (٧) ، وَالْكَلاَّ عَازِبٌ (٨) .
يَا خِصْبَ بَنِي عَبْدِ الْمَدَانِ (٩) ، صَانٌ فِي الْحُرْبِ (١٠) وَصَانٌ فِي السَّعْدَانِ (١١) .
فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ أَتَعَبْتُ الْأَظْلَ (١٢) ، فَلَمْ أَجِدْ إِلَّا الْخُنْظَلَ ، فَلَيْسَ فِي
الْلَيْبِ (١٣) ، إِلَّا الْهَيْبِ (١٤) ، جَنَيْتُهُ مِنْ شَجَرَةٍ أُجْتَمَّتْ (١٥) مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ
مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ .

(١) الغيث : المطر (٢) الطسم : الدارس . (٣) الوسم : الكي ، فإذا وقع في الجلد لم ينبت عليه وبر أو غيره . يقول : إن بلده دارس ممحل لا ينبت فيه شيء ، فهو كأثر الكي في الجلد لا ينبت عليه شيء .

(٤) القراع : المقارعة ، وهي الحرب ، قال الشاعر :

« ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهنَّ فلول من قراع الكتائب »

(٥) الإمراع : الخصب ، يقول : إن توالى الحروب قد حالت بين رفاهية بلده وإخصابه

(٦) هذا مثل ، و بنو سدوس قبيلة من العرب من ذهل بن شيبان (٧) قريب

(٨) بعيد (٩) هذا مثل ، و بنو عبد المدان من بني الحرث بن كعب .

(١٠) الحربت : نبت مبسوط ، له ورق طوال ، رقاق ، وهو طيب الرائحة ، يزيل بخر الفم

(١١) السعدان : نبات ترعاه الإبل (١٢) الأظل : باطن القدم ، أو باطن الخف ،

أو بطن الإصبع . (١٣) الليبد : العدل ، أو : الجوالق الصغير (١٤) الهيب : حب

الخنظل ، وقد مر بك قول تأبط شرًّا :

في حيث لا يعمّ الغادي عمائته ولا الظليم به يبغي تهبادا

(١٥) استوصلت

لَبْنُ الْإِبِلِ عَنِ الْمُرَارِ (١) مُرَّةٌ ، وَعَنِ الْأَرَاكِ (٢) طَيْبٌ حُرَّةٌ .

المعرى والنشب

هَذَا مَثَلِي فِي الْأَدَبِ ، فَأَمَّا فِي النَّشَبِ (٣) ، فَلَمْ تَزَلْ لِي — بِحَمْدِ اللَّهِ ،
وَبَقَاءِ سَيِّدِنَا — بُلُغَتَانِ (٤) : بُلُغَةٌ صَبْرٍ ، وَبُلُغَةٌ وَفْرِ (٥) ، أَنَا — مِنْهُمَا — بَيْنَ
اللَّيْلَةِ الْمَرْعِيَّةِ (٦) ، وَاللَّقُوحِ الرَّبْعِيَّةِ (٧) : هَذِهِ عَامٌ ، وَتِلْكَ مَالٌ وَطَعَامٌ (٨) .

وَالْقَلِيلُ سَلَّمَ إِلَى الْجَلِيلِ ، كَالْمُصَلِّي يُرِيغُ الضُّوءَ (٩) ، بِإِسْبَاغِ الْوُضُوءِ (١٠) ،
وَالتَّكْفِيرِ ، بِإِدَامَةِ التَّعْفِيرِ (١١) ، وَقَاصِدِ بَيْتِ اللَّهِ لَغَسَلِ الْحُوبِ (١٢) ،
بَطُولِ الشُّحُوبِ (١٣) .

-
- (١) شجر مرّ ، إذا رعته الإبل قلعت مشافرها ، ومرت ألبانها .
(٢) الأراك : شجر طيب الرائحة ، قالوا : « وأطيب ألبان الإبل ابن الأوارك ، وهي :
الإبل التي ترعى الأراك ، وهو نبت طيب . » والمعرى يقول لأبي القاسم : « إننا لم نزع
— في بلدتنا المعرة — إلا أحببت مرعى من مراعى الأدب ، فكيف يزكو بياننا ويطيب أدبنا
وتنضج ثمارنا » (٣) النشب : المال (٤) البلغة : ما يتبلغ به من العيش (٥) وفر : مال
(٦) الليلة المرعية : الساهرة التي ترعى كواكبها (٧) الناقة التي تنتج في أول الربيع . قالوا :
اللقوح : الناقة التي تنتج ، فهي لقوح شهرين أو ثلاثة ، ثم هي — بعد ذلك — لبون
(٨) هذه ، يعني ليلة السهر ، فهي تشبه في طولها العام ، وتلك ، يعني : نوقه التي تنتج في
أول الربيع ، فهي له مال وطعام (٩) يرُيغ الضُّوءُ : يطلب الضُّوءُ ، أي : النور
(١٠) إسباغ الوضوء : تعميم الماء في الوضوء حتى يستوفي كل عضو حقه من الماء
(٧) يعني كطالب الغفران والتكفير عن ذنوبه ، يطيل تمر يريغ وجهه في التراب ليحو أوزاره
(١٢) الحوب : الذنب أو : الإثم (١٣) الشحوب : الاصفرار من جوع أو سفر أو ضنى

سَبَّأُ بْنُ يَعْرُبَ

وَأَنَا - فِي مَكَاتِبَةِ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا الْجَلِيلَةِ ، وَالْمَيْلِ عَنْ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا
الْأَجَلِّ : وَالِدِهِ ، أَعَزَّ اللَّهُ سُلْطَانَهُ - كَسَبَا بْنُ يَعْرُبَ ، لَمَّا ابْتَهَلَ فِي التَّقَرُّبِ ،
إِلَى خَالِقِ النُّورِ ، وَمُصَرِّفِ الْأُمُورِ : نَظَرَ ، فَلَمْ يَرِ أَشْرَقَ - مِنْ الشَّمْسِ -
يَدًا ، فَسَجَدَ لَهَا تَعَبُّدًا .

مدائح الشعراء

وَعَبِيرٌ مَلُومٌ سَيِّدُنَا لَوْ أَعْرَضَ عَنْ شَقَائِقِ النُّعْمَانِ الرَّبِيعِيَّةِ ^(١) ، وَمَدَائِحِهِ
الْيَرَبُوعِيَّةِ ^(٢) ، مَدْلَامٍ مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ الْمُضَافِ إِلَى هَذَا الْإِسْمِ ^(٣) ؛ فَغَيْرٌ مُعْتَذِرٍ ^(٤) ،
مَنْ أَبْغَضَ - لِأَجْلِهِمْ - بَنِي الْمُنْذِرِ .
وَهُمْ ^(٥) - إِلَى حَضْرَتِهِ السَّيِّئَةِ - رَجُلَانِ : سَائِلٌ ، وَقَائِلٌ .
أَمَّا السَّائِلُ ، فَالْحَجَّ ، وَأَمَّا الْقَائِلُ ، فَغَيْرٌ مُسْتَمْلِحٍ .

(١) شقائق النعمان الربعية ، أى : التى تنبت فى الربيع ، والمعرى بهذه الإشارة يُورَى بلباقته وحذقه أبداع تورية ، فهو من معرفة النعمان يهذى أزهار بيانه ويشبهها بشقائق النعمان ، ويلتمس لأبى القاسم العذر فى إعراضه عن الشقائق النعمانية ، لأنها تذكره بهذه الشقائق . قالوا : « وكان النعمان يعجبه هذا الضرب من النبات ، ويحمى مناقبه ، فينسب إليه »

(٢) المدائح اليربوعية ، هى مدائح نابغة بنى ذبيان التى خص بها النعمان بن المنذر ، والنابغة من بنى يربوع ، فلها نسب المعرى مدائحها إلى قبيلته (٣) البلد المضاف إلى هذا الاسم : يعنى اسم النعمان ، فإن معرفة النعمان مضافة إليه (٤) فغير معتمد : أى ليس فى حاجة إلى الاعتذار ، لأن عذره واضح بين (٥) يعنى بنى وطنه من قاطنى المعرفة

وَقَدْ سَتَرْتُ نَفْسِي عَنْهَا سَتْرَ الْخَمِيصِ ^(١) ، بِالْقَمِيصِ ، وَأَخِي الْهَتْرِ ^(٢) ،
بِسُجُوفِ ^(٣) السَّتْرِ ، فَظَهَرَ لِي فَضْلُهُ الَّذِي مَثَلُهُ مَثَلُ الصَّبِيحِ - إِذَا لَمَعَ - تَصَرَّفَ
الْحَيَوَانَ فِي سُوءُونِهِ ، فَخَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ الْيَرْبُوعُ ^(٤) ، وَبَرَزَ الْمَلِكُ مِنْ أَجَلِّ
الرُّبُوعِ ، وَقَدْ يُوَلَعُ الْهَجْرَسُ ^(٥) ، بِأَنَّ يَجْرَسُ ^(٦) ، فِي الْبَلَدِ الْجَرْدِ ^(٧) ، قُدَّامَ
أَسَدٍ وَرْدٍ ^(٨) .

خاتمة الرسالة

وَإِنِّي خَبَرْتُ أَنَّ تِلْكَ الرَّسَالَةَ الْأُولَى عُرِضَتْ بِالْمَوْطِنِ الْكَرِيمِ ، فَأَوْجَبَ
ذَلِكَ رَحِيلَ أَخْتِيهَا ، مُتَعَرِّضَةً لِمِثْلِ بَحْتِهَا ، وَكَيْفَ لَا تَنْتَفِعُ ^(٩) ، وَفِي الْيَمِّ ^(١٠) تَقَعُ؟
وَهِيَ بِمَقْصِدِ سَيِّدِنَا فَآخِرَةٌ ^(١١) ، وَلَوْ نُهِيتِ الْأُولَى لَأَنْتَهتِ الْآخِرَةُ ^(١٢) .

(١) الخميص : الضامر البطن من الجوع (٢) الهتر : الخبل والخرف ، قال أبو العلاء
في لزومياته :

« وما أتوق ، والخطوب كثيرة - من الدهر - إلا أن يحلَّ بي الهتر . »

(٣) السجوف : الأستار (٤) جنس من الفأر (٥) الهجرس : ولد الثعلب ، ويقال
في الأمثال : « أجبن من هجرس » زعموا أنه لا ينام إلا وفي يده حجر ، مخافة الذئب أن
يأكله . (٦) يجرس : يصوت أو يتكلم . يقول : لا غرو إذا خاطبتك وجرؤت على
مراسلتك ، فقد يولع ولد الثعلب - على جنبه وضعفه - بأن يصوت أمام الأسد

(٧) الجرد : الممحل أو الدارس (٨) أسد ورد : هصور (٩) أي : كيف
لا تُروى الظما ؟ (١٠) اليم : البحر أو النهر (١١) فآخرة : مفتخرة ، مزهوّة
(١٢) نُهِيت : مُنعت ، أو : زجرت ، يقول : ولو زجرني مولاي حين بعثت إليه بالرسالة
الأولى ، لما جرؤت على إلحاق هذه الرسالة الثانية بها .

الكوميديا الإلهية

تمهيد

إذا باهت الأمم بأمجاد شعرائها ، واعتزت بترائها الفكرى الخالد ، فتاهت انجلترا بشكسبير ، وألمانيا بجوته ، وفرنسا بقولتير ، وأسبانيا بسرثانيس ، وأمة العرب بالمعري ، فإن إيطاليا لتباهى فاخرة معتزة بشاعرها العالمى الفذ « دانتي اليجيرى ^(١) » مؤلف : « الكوميديا الإلهية » التى توفر النقد - فى السنوات الأخيرة - على درسها والموازنة بينها وبين رسالة الغفران ، وكتبوا فى ذلك مقالات مستفيضة ، وألفوا كتباً ينتصرون فيها لآرائهم ، وهم بين مؤيد ومنكر . ولقد حفزنا هذا النضال إلى تلخيص هذه « الكوميديا الإلهية » ، ليرى فيها الباحث العربى المنصف رأيه ، ويوازن بينها وبين الغفران ما وسعته الموازنة ، دون أن يضطر إلى تقليد غيره من النقاد فيما أبرموه من أحكام حاسمة متباينة .

(١) ولد هذا الشاعر العظيم عام ١٢٦٥ فى مدينة « فيرتسيه » « Firenze » من أعمال مقاطعة توسكانى ، ومات فى مدينة : « رافنا » Ravenna فى عام ١٣٢١ م . وقد لقبوه بخالق اللغة الايطالية ، لأنه أول من برع فى تأليفه بها ، وكان الخاصة - إذا ألقوا - كتبوا باللاتينية ، فإذا تحدثوا لجثوا إلى لغتهم العامية ، وهى اللغة الايطالية ، فلما ألف دانتي « رسالته الإلهية » باللغة الايطالية ، كانت خطوة جريئة موفقة ، شجعت غيره من أفذاذ الخاصة على محاكاته ، وثم أصبحت الايطالية لغة الكتابة والحديث جميعاً . وقد أطلقوا عليه اسم « هوميروس إيطاليا » كذلك ، لأن رسالته الإلهية أكسبت إيطاليا مثل ما أكسبته إلياذة هوميروس من نخر ليونان .

وقد نشأ « شاعر الطليان » ميالا إلى الثقافة الدينية فتزود منها - فى حياته الأولى - ما وسعه أن يتزود ، ودرس - فى نشأته - علوم النحو والجغرافية ، وألم بمبادئ الهندسة والفلك والحساب ، ثم تعلم المنطق ، ومارس اللغة اللاتينية وقرأ مؤلفات « فرجيل » شاعر اللاتين وأعجب بخياله الرائع أيما إعجاب ، وكان يطرب للموسيقى ، ويعرف من مبادئ الرسم ، ولكن براعته تجلت فى النطق فى الدين والبراعة فى الشعر .

وقد أحب وهو فى التاسعة من عمره ، فكان هذا الحب مصدر إلهام وتعذيب ، ولقى من جرائه أفانين من الويل ، وسما بنفسه ذلك الحب إلى آفاق عالية من الخيال المعجب . ففى عام ١٢٧٤ لقي « بياتريس » فهام بها

ولئن ضاقت بهذا الأثر النفيس الطبعتان : « الأولى والثانية » من رسالة الغفران ، لقد وجدنا في هذه الطبعة الثالثة بضع صفحات تكفي لرسم صورة صحيحة مجملة يستعين بها الباحث على تتبع دراسات النقاد المستفيضة والحكم — لها أو عليها — بما هي جديرة به من رفض أو قبول .

منذ النظرة الأولى ، وكان كلاهما في التاسعة من عمره ، وخامرت قلبه غشية الحب ، فأصبح كما يقول شاعرنا العربي :

« وإن لتعروني — لذكراك — هزة
كما انتفض العصفور ، بالله القطر »
وأصبح — منذ ذلك اليوم — وكأما عناه القائل :

« فما هو إلا أن أراها — بجاءة —
فأبتهت ، حتى ما أكاد أجيب »

ثم التقيا في المرة الثانية وهما في الثامنة عشرة — من سنينهما — خيته ياتريس ، نخيل إليه أن قد ظفر بالخلود . ولقد حاول « دانتى » أن يساو هواها ، أو يعزى عن حبها ، فاندفع في تيار العبت والمجون ، لعله ينساها ، فلم يزد ذلك إلا غراما بها :

« ولما أبى إلا جمحا فؤاده
ولم يسئل عن « لبلى » بمال ولا أهل
تسلى بأخرى — غيرها — فاذا التي
تسلى بها ، تغرى بلبلى ، ولا تسلى »

وقد جزع دانتى لموت حبيبته ياتريس في ريعان شبابها وهي في الرابعة والعشرين من عمرها ومرض لذلك مرضاً شديداً ، ولم ينسها طول حياته الحافلة بالمصاولة والنضال والنفي والتشريد . ولم يكن دانتى موقفاً في حياته السياسية ، فقد تألبت عليه عزة نفسه وكيد أعدائه وأعداء وطنه فشرده وصادروا أملاكه ، ثم أصدروا عليه حكماً بالإحراق حياً إذا ظفروا به .

واتمى به المطاف إلى مدينة « رافنا » حيث لقي من رعاية أميرها : « جويد نوفيللو » ما لم يلقه من أحد ، وكان دانتى حينئذ قد بلغ الخامسة والخمسين من عمره . ولولا عطف هذا الأمير على هذا الشاعر ورعايته إياه لمات كدأ ، فقد فوجئ — وهو في رافنا — بنفى ولديه وتشريداه عن أرض الوطن انتقاماً منهما لما يدينان به من عقيدة سياسية سامية .

ولم يكد دانتى يستقر به المقام حتى بدأ في نظم رسالته الإلهية ولم يكد يتمها حتى وافاه حمامه في العام الذي آتمها فيه ، أعنى عام ١٣٢١ وكانت حمى الملاريا قد ألحت عليه بالنقم حتى أودت به .

أما أمير « رافنا » فلم يأل جهداً في تعهد شاعر الطليان بالرعاية والعناية ، فكان يزوره دائماً ويواسيه في مرضه ، حتى إذا اقتربت منيته طفق يهذى — وهو على فراش الموت — هذيان المحوم ويردد اسم حبيبته « ياتريس » ويتوعد خصومه وأعداءه الألداء ، وينذر البابا « بونيفاشيو » بالويل والثبور . وقد فاضت روحه في سبتمبر عام ١٣٢١ ومن حوله ولداه وابنته ليكون لفقده مر البكاء .

المكاشفة

تعرف هذه القصة ، أعنى جحيم دانتي ، بأنها أروع الفواجع الإنسانية العالمية حوادث ، وإن قل قراءها ، لصعوبة نظمها وغموض معانيها ، فهي تدق وتلتوى على القارئ المسرع ، فينفر - وقد تملكه الضجر - من متابعة دانتي في رحلته الطويلة بين أجواز سقر . على أن وعورة مسلكها ، وصعوبة الوصول إلى فهمها ، لا تقللان من عظمتها ، فإنها - على ذينك - من عيون الأتار الفنية الخالدة التي تماثل روائع « شكسبير » و « ملتون » في قوة الخيال وبراعته .

والكوميديا الإلهية ، تصف السماء والجحيم والأعراف (المَطَهَر) في أسلوب تخيره الشاعر ، وآثر أن يكون رؤية حالم يقص ما شهد من حياة الأرواح بعد موتها ، متخذاً - من ذلك - رمزاً لما يحتاج إليه الإنسان من قبس روحي وإرشاد معنوي ، وهداية سماوية ، ليظفر بالنجاة والسعادة في المعاد .

ويجدر بنا - قبل أن نصحب دانتي في رحلته الخيالية خلال مناطق الجحيم - أن نذكر أن الجحيم - كما صورها دانتي - جياشة بالحياة ، ماثلة للقارئ حقيقة راهنة لا يتطرق إليها شك ، واضحة التقسيم كأنما نقشت فصولها وحوادثها نقشا لا يحوه - من الذاكرة - كائن كان ، وقد أصبحت هذه الرحلة - لوفرة ما في أسلوبها من حياة مجلوة في أوضح بيان - تماثل رحلات « روبنسن كروزو » ، ورحلات « جلغر » .

ولقد أنشأ « دانتي » من مناظر الجحيم الهائلة صوراً خالدة لا تمحوها الأحداث من الخاطر ، ولا يعفى آثارها النسيان ، بل تظل ممثلة في الذهن أروع تمثيل .

وقد مثل لنا جحيمه على هيئة حفرة عظيمة هائلة ، تشبه مخروطاً مقلوباً ، رأسه في مركز الأرض ، وجوانبه تنقسم إلى طبقات عدة ، كل واحدة تحت الأخرى ، متناقصة حجومها كلما تدرجت إلى أسفل ، واقتربت من رأس المخروط ، حيث يجلس جمهور الأئمة الموعظين في الخطيئة في الدرك الأسفل من النار .

وتبدأ القصة بتصوير « دانتي » وهو ضال في غابة مظلمة حيث يقابله « فرجيل » وهو في حالك اليأس ، ويعده بإتقاذه مما هو فيه من آلام ، ثم يقوده إلى الجحيم ليريه كيف يعذب العصاة ، فإذا بلغا بابها قرأ دانتي عليه الكلمات التالية :

« من هنا يذهب زائري إلى مدينة الأوصاب ، ومن بابي هذا يدخل إلى حيث يلتقي النكال السرمدي والعذاب الأبدي ، وعن طريقي يلحق بمن حقت عليهم اللعنة ، وكتب عليهم الهلاك . لقد شيد الخالق العليّ بناي ، إحقاقاً للحق ، وانتصافاً للعدالة ، وصنعتني يد القوة الإلهية والحكمة الأبدية السامية والحب الإلهي السرمدي ، فأوجدتني منذ القدم لأبقى خالدة أبد الآبدين ، ولم يسبق وجودي غير القديم الأزلي . فاترك — أيها الداخل — كل أمل » .

*
* *

وما كاد الشاعر يدخل باب الجحيم — في رفاقة صاحبه فرجيل — حتى رأى الظلام الحالك تنبعث من أجوازه الأنات والصيحات المنكرة ، مترددة في هواء لا تتخلله النجوم ، فبكى دانتي من هول ما رأى ، وقد أبصر أرواح الأنانيين والكسالي وغيرهم تلسعها الزنابير ، فتدوى صيحات الألم بمختلف اللغات مقرونة بحركات المعذبين في ذلك الجو الخائض الموبوء ، وترطم الأيدي — بعضها ببعض — وتدور نفوس الأئمة دورات أبدية لا تنتهي ، وقد خيل إلى رأيهم أن الظلام يلطخ الهواء ، فيشبه الرمل تدرره الرياح . ثم يعبران السهل إلى أن يصلوا إلى نهر « كيرُنْتِيَه » ، نهر الأسى وينبوع الأحزان ، حيث تزدحم الجماهير وتتكدس في مركب شيخ الزبانية ليذهب بهم إلى الشاطئ الآخر ، ويقتمدح الشرر من عيني ذلك الزبني الشيخ فتبدوان كأنهما مجلتان من الذهب ، فيتهافت الناس على مركبه ذعراً ورعباً .

ها هو ذا يقبل عاويها صاحبا ، وهو شيخ طاعن في السن ، قد كست الشيوخوخة شعره بياضاً ، وهو يصيح لاعناً : هلم أيتها الأرواح الخبيثة الخاطئة ، هلم أيها العصاة إلى الويل والشبور ، إلى اليأس الذي لا يتطرق إليه الرجاء ، إلى حيث لا ترون السماء ، إلى حيث الظلام الأبدي ، إلى حيث تسكنون في شواطئ من الذهب وقارس من الزمهرير .

ويخر « دانتي » صريع الإغماء ، ويسلمه الفزع إلى نوم عميق ، ثم يجلب رعد قاصف فيفيق « دانتي » من سباته ، فيرى أرواح العصاة قد عبرت نهر « أكيرونتي » وذهبت إلى الدرك الأول من النار .

وتمّ يلقي « دانتي » أرواح العطاء من الوثنيين الذين عاشوا حياة نبيلة ، ولكنهم لم يدخل الإيمان في قلوبهم ، ومن هذه الطائفة « هوميروس » و « هوارس » و « أوثيد » فيرحبون بدانتي أكرم ترحيب و يعدونه واحداً منهم . ثم يسفل إلى الدرك الثاني من الجحيم ، فيلمح — عند دخوله — « مينوس » قاضى سقر وهو عظيم الجثة له مثل وجه الكلب ، فيشهد عقاب العشاق المذنبين تعصف بهم الزوابع العاصفة أيما عصف ، فيعلو صراخهم المحزن مرة أخرى ، وتردد أصواتهم المولولة الشاكية في أذنيه حينما حل . وينجو كل ضوء ، وتحل مكانه التأوهات والأنين والصخب ، فيخيل إليه أن بحراً هائجاً مزبدا تعنف بأواذيه الأعاصير ، ويمتزج سعيير الجحيم الملتهبه بهياج الأرواح المتدافعة الغاضبة ، وقد تملكها الضجر ، والعواصف تحملها إلى آخر مدى الهلاك ، حتى إذا بلغت علت أصواتها ، واشتد نجيبها ، وتصاعدت لعناتها الكافرة لخالق السماء .

وتمّ رأى الشاعران — دانتي وفرجيل — « سميراميس » و « كليو بطرة » ثم تطلعا إلى أعلا فرأيا « فرنشسكارميني » وحبيبها « پاولو » الذي خلد على المدى ، وقد أفضت بحديثها إلى دانتي ، وقصت عليه كيف باغتهما زوجها ، وكيف ذبحها وعاشقها معاً . ثم رأيا « حنا الأعرج » : حاكم رميني وهو يعنى عليه بما يتجرع من صنوف النكال والأذى .

وقالت « فرنشسكا » :

« لقد استولت علينا نشوة الفرح والابتهاج ونحن نقرأ قصة العاشق « لانشالوتو » منفردين لا ثالث معنا ، ومازلنا نقرأ حتى قرأنا في ذلك السفر كيف قبل العاشق المتيم ثغر معشوقته ، فقبل ثغري صاحبي هذا ، وقد انتظمتة رجفة الوجل ، ثم سقطنا إثر هذه القبلة جثتين هامدتين ، وكان ذلك المصراع آخر عهدنا بالكتاب . »

ثم يرى « دانتى » نفسه - بعد أن يعود إلى رشده - فى الدرك الثالث حيث يرقد ذرو الشره ملطخين بالوحول يُطَرون وابلاً هتوناً من البرد والجليد، وقد وقف على حراستهم « شوبيروس » أحد الزبانية الغلاظ الأكباد ، وهو على هيئة كلب كبير الجرم ، ذى أفواه ثلاثة ، تنبح وتزجر جميعاً ، وتمزقهم تمزيقاً .

ثم ينتقل « دانتى » و « فرجيل » إلى مدينة الشيطان فى أول الدرك الرابع من الجحيم ، فيريان « بولتوس » أحد الزبانية يحرس المبذرين والبخلاء الذين أنفقوا أعمارهم فى اكتتاز المال وجمعه ، وهم يقضون أوقاتهم فى الجحيم مرهقين بالصخور الكبيرة يدحرجونها بلا وناء ، حتى إذا التقى الجمعان : المبذرون والبخلاء ، وتقابلا صفيين ، لام كلا الفريقين صاحبه على ما اقترف من إثم وعصيان ، فصاح أولئك يسألون أصحابهم : « كيف أسرفتم ؟ » فيجيبوهم « وكيف بخلتم ؟ »

ثم رأيا - فيما بعد - جمهرة منغمسة فى الوحول ، وقد أنشب كل منهم أسنانه وأظافره فيمن يقابله ، وهؤلاء هم جماعة الأشرار الذين استسلموا للغضب والحماقة .

ثم وصلا فى النهاية إلى قاعدة برج مرتفع على ذروة قلعة حصينة شائخة ، ورأيا اللهب المستعر داخل مدينة « ديتى » أو « مدينة الشيطان » : مثنوى المتكبرين والخبثاء .

ثم اعتليا مركب الشيخ « فليجياس » - أحد الزبانية - بعد إباء منه شديد ، وعبرا تلك البحيرة القذرة ، حتى بلغا الشاطئ الآخر .

فأبصرا النار الموجهة المتوهجة ، ورأيا جمهرة عظيمة من الزبانية تحرس الأبواب والأسوار ، وبلدت أمام عيونهما بعض ربات الجحيم ، فرأيا ثلاث نساء مضرجة أوجههن بالدماء مطوقة أعناقهن وغداثرهن بالأفاعى تمزقهن تمزيقاً ، وكن يصحن غاضبات : « هلمى إلينا يا « ميدوسا » لنمسحك حجراً » .

ثم قدم عليهما ملك رسول يسرع الخطى فوق البحيرة - بحيرة ستيجة - فلا يبلى الماء قدميه ، وهو يفسح لها الطريق وينحى عنهما تلك الوحوش المفترسة .

ورأيا أمواج البحيرة المفزعة صاحبة عكرة ، وقد جلجلت أواذيتها وارتفعت ، كما تهب العاصفة الهوجاء على الغابة الكثيفة فتقصف أشجارها وتكتسح ما يعترضها من حيوان وإنسان .

وما كاد الشعاران يَدْخُلان المدينة حتى وجدا سهلين قد اكتظت أرضاهما بقبور وأجداث كثيرة ، لا غطاء لها ، والنار متصاعدة من أثنائها ، ممزجة بأنات الخاطئين .

*
* *

وقد رأيا في أحد هذه القبور « فاريناتا » المتكبر ، رافعاً رأسه وقد بدا كأنما يحتقر الجحيم ، هابطاً في الدرك السابع ، جائئاً في صندوق تكتنفه الصخور . ثم يسيران حتى يبلغا نهر الدماء حيث يعذب الطَّغاة والظَّلمة القساة القلوب ، وهم جماعة الغاصبين الذين استمروا الاستبداد والتسلط .

ورأيا — في الدرك السابع — غابة موحشة أشجارها نابثة من جماعات المتحررين ، الذين أصبحت أرواحهم أشجاراً حالكة خشنة عاجزة عن النمو ، أثمارها أشواك سامة يتغذى بها الطيور والوحوش البشعة .

ووراء هذه الغابة سهل منبسط فسيح ، يغطيه رمل متقد يكتنفه نهر الدم ، ويتأجج منه السعير ، وتجرى مياهه حمياً يشوى البطون .

وما زالساثنين حتى بلغا شلالاً في خليج ، وكان « دانتي » بمنطقاً بحزام ، فأمره فرجيل أن يحمله ، ثم ألقى به في هوة ، فلاح لهما — حينئذ — شبح مفزع متوحش ، وهو يسبح في الهواء المظلم ، فعرفا أنه « جيريون » ذلك الوحش الهائل الغلاب المنتصر على كل عقبة ، طلاع الثنايا ، ومخترق الجدران ، وعابر الجبال ، ومصدر البلايا والرزايا التي حاقت بالعالم الأرضي ، وكان وجهه وجه إنسان ، وجسمه جسم ثعبان .

ثم وصلا إلى الدرك الثامن حيث الغاسقون والمَلَقُونَ والمتجرون بالدين منغمسة رءوسهم في الأدناس والأرجاس في حفر ضيقة عميقة ، وأقدامهم تحترق كما تحترق المصاييح فوق مستوى الصخور ، ثم رأيا مدعى النبوة وقد التوت أعناقهم خلف ظهورهم . ثم رأيا أرواح المختلسين تكتنفها الشياطين ذوو الأجنحة السوداء وقد دُججوا بالأشواك .

ثم رأيا المرثين في الهوة التالية وقد طليت قلائسهم بالرصاص ، ورأيا اللصوص يتحولون ثعابين ، وإلى جانبهم الذين يغشون في نصحهم وهم ملتهبون يرقصون كالذباب المشتعل .

ثم رأيا الخونة والخوارج تمزق أجسادهم الجراح المفزعة ، ومن بينهم ذلك الذي ثار ضد هنرى الثانى ملك إنجلترا وقد شد شعر رأسه ، وعانى من ألوان العذاب ما عانى .

ثم ذهب الشاعران إلى الدرك التاسع فسمعا صوت أتون عظيم يشبه الرعد ، وسرعان ما رأيا ثلاثة من القردة تقف على الحافة السفلى من جهنم ، وقد جلس أحدهم على قاعدة الخليج ، وهى بحر من الجليد الخالد تظهر على حفافيه أشباح المعذنين كأنها ذباب بلورى الشكل .

فوقها أسفل سافلين فى الحفرة المظلمة تحت قدم مارد جبار ، وأخذ « دانتي » ينعم النظر وإذا بصوت ينبعث متألماً : « انظر كيف تسير ، وحذار أن تطأ الرؤوس : رؤوس إخوانك التاعسين » .

فالتفت فرأى تحت قدمه بحيرة ، وقد ظهر سطحها الجامد : أقرب إلى الزجاج منه إلى الماء . ثم رأيا فى الدرك الأسفل من النار روحين جامدين فى حفرة واحدة ، أحدهما يأكل جمجمة الآخر كما يفعل الكلب ، ثم يرفع أسنانه ، ليقص على الشاعرين قصته المفزعة الهائلة : إنه « إيچوليني » الذى انتهت حياته فى حصن الجوع حيث لقى مصرعه جائعاً ، وإن قصة موت ولديه لهى إحدى الفواجع الهائلة التى تثير إشفاق كل عاطفة فى الدنيا ، وزميله فى مرقد الثلج هو « دوجيرو » الذى أرسله مع أولاده إلى حصن الجوع ، وقضى فيهم ذلك القضاء الوحشى الجائر .

ثم وصلا إلى آخر مكان فى الجحيم حيث رأيا عطاء الخونة والمخادعين ، ورأيا إبليس - رئيس الشياطين - ملتحقاً فى أفكاكه الثلاثة الضخمة ثلاثة من الأئمة المجرمين ، ومرسلاً من أجنحته عاصفة من الزمهرير لومرت على بحر لجد .

ثم خرجا من ظلام الجحيم تاركين خلفهما الآلام والمصائب ، حتى وصلا إلى الأعراف حيث رأيا أضواء النجوم بعد انقطاعها عنهما خلال تلك الرحلة .

الفصل الأول

ضلال دانتي في الغابة

ما كدت أبلغ - من طريق في الحياة - منتصفها^(١) ، حتى رأيتني - ذات يوم - أجوس خلال غابة مظلمة^(٢) ، بعد أن ضللت الصراط المستقيم .
شد ما يستولى على الخوفُ الرابع كلما ذكرت هذه الغابة ، أو عن لي أن أصف ما لقيت - في أثنائها - من وحشة وهول مُتجدِّدين ، تهون مرارة الموت إذا قيست إليهما .
على أن هذه الرحلة المفزعة لم تخل من فائدة أفدتها ، ونعمة أصبتها ، وإني لخاصُّ عليك نبأها :

أما كيف وُلِجتُ هذه الغابة - على وجه التحقيق - فذلك ما يدق عن فهمي ، ويَجِلُّ عن إدراكي ، فقد كانت عيناى مثقلتين - حينئذ - بالنوم ، وكان الكرى يعقد أجفانهما حين ضللتُ سواء الطريق .

على أنني بلغت - آخر الأمر - سفح رابية في نهاية ذلك الوادى المفزع الهائل ، الذى ملأ قلبى ذُعراً . وما كدت أبلغ تلك الرابية حتى لمحت ذروتها وقد انتظمتها أشعة الشمس ، ذلك الكوكب الذى ينير لكل إنسان سبيله ، وتبصَّره أضواؤه بطرائق الحياة . وثمَّ هدأ روعى قليلاً ، وذهب عن نفسه بعض ما ساورها من فزع في هذه الليلة المؤلمة التى أمضيتها

(١) يرى شراح الرسالة أن دانتي إنما يعنى بقوله : « منتصف طريق الحياة » : سن الخامسة والثلاثين قالوا : وهذا يذكركنا بما قاله الشاعر « لى بتكليه » فى مؤلف نثرى له ، يقرر فيه أن سن الخامسة والثلاثين هى - على العموم - نصف الحياة الإنسانية التى يحياها الانسان ، فقد ولد دانتي فى عام ١٢٦٥ ، وأدرك الخامسة والثلاثين فى عام ١٣٠٠ ، فهو قد افترض حينئذ - أنه قد بدأ سياحته كلها ستة أيام ، فقد غادر « دانتي » مارس عام ١٣٠٠ م . أى فى ليلة الجمعة المقدسة ، وكانت مدة سياحته كلها ستة أيام ، فقد غادر « دانتي » الفردوس يوم الأحد .

(٢) يؤخذ من أقوال الشراح : أن « الغابة المظلمة » تدل فى وقت واحد - على الحال الروحية لنفسى حرمت نور السماء ورحمة الله ، ثم تدل على الحال السياسية التى كانت تعانيتها إيطاليا فى ذلك العهد ، وكانت قد بلغت أقصى غايات الاضطراب والفوضى من جراء الحرب الأهلية الطاحنة التى وقعت بين الجيلف والجليين وقد اضطربت حياة دانتي بسببها ولقى من عنق النفى والتشريد والاضطهاد ما أفعم نفسه ألماً وبأساً .

في الغابة الموحشة . وكنت حينئذ أشبه شيء بالغارق نجا من مغالبة الأمواج ، وبلغ الشاطئ بعد أن أشرف على التلف ويئس من الحياة ، فأدار وجهه صوب الماء الذي كاد يغرقه ويودي بحياته ، وهو لا يصدق بنجاته من خطره وقسوته .

وهكذا تلفتت إلى الوراى روحى — التى كاد يزهقها الرعب — لتشهد هذا المر الذى لم يطرقه حى من الأناسى قط . وما كاد جسمى المتعب المنهوك يخلد إلى الراحة — شيئاً — حتى استأنفت السير فى طريق المقفر الخيف ، وأنا أتيد فى خطواتى ، وأحرك إحدى قدمي إلى الأمام ، بعد أن أثبتت الأخرى تثبتاً^(١) .

الوحوش الثلاثة^(٢)

وإنى لأخطو — فى أول هذه الطريق — إذ لاح لى فتى — من فتیان النمر — جم النشاط سريع الحركة ، يكسو جسمه جلد أرقت ، وقد اعترضنى فى طريقى ووقف حيث هو ، فلم يتقدم خطوة إلى ، ولكنه حال بينى وبين الصعود إلى الذروة ، فتلفت — مرات — لأرجع أدراجى ، وأعود من حيث أتيت .

وكانت أولى ساعات الصباح ، وقد قدمت الشمس وفى صحبتها الكواكب التى كانت تكنتفها منذ شاء الله أن يغمركون بحبه الإلهى ، فخلق له تلك المصابيح السماوية المتألقة . وثم رأيت فى جلد ذلك النمر من زاهى الألوان ما أتاح لى فرصة للرجاء التأميل . ولكن أملى لم يطل عمره ، فقد بدا أمامى أسد ترمى عيناه بالشرر ، فامتلاً قلبى خوفاً وهو يتقدم نحوى شامخ الرأس ، بادى الطوى ، شديد الهياج ، ييث الرعب والفزع حوله حتى لترتاع الرياح وترعد من سطوته وخطره .

(١) تأول الفراح معنى هذه الفقرة لغموضها فى الأصل وتامسوا لها وجوها مختلفة من المعانى ، ولكن جمهورهم يجمع على أن دانتى إنما أراد أن يعبر عن سير المبطى الوجل ، الذى لا يخطو خطوة جديدة إلا بعد لآى ، ولا يتقدم إلى الأمام إلا بشق النفس .

(٢) أراد شاعر الطليان أن يرمز للصفات المعنوية والأدبية بالوحوش الثلاثة : « النمر ، والأسد ، والذئبة » فالنمر يدل على الحسد ، والأسد على الكبر وحب العظمة ، والذئبة على الدناءة والحسة ، وهى الرذائل الثلاث التى تعترض الإنسان فى طريقه إلى الخير .

وقد اتخذ « دانتى » من هذه الوحوش رموزاً سياسية كذلك ، تدل على الدول الثلاث (من الجيلف) فى ذلك العصر ، وقد عدها الشاعر حجر عثرة فى طريق السعادة الوطنية لاطاليا .

ثم جاءت - في إثره - ذئبة بادية الهزال ، تلوح على سماتها كل أمارات الشره
والخساسة والشراسة التي نكبت سواد الجنس الإنساني .

ولقد فرّعتني منظر هذه الذئبة أيما تفرّيع ، فانتظم الخوف جسمي ، وتملكني
الاضطراب - من هول ما ينبعث من عينيها ، ورأيتني أندفع إلى الوراء - صوب الغابة
الحاكمة التي قدمت منها - فخاب ما أملتة وفقدت الرجاء في النجاة من الهاوية إلى الأبد ،
وأصبحت - حينئذ - كمن فقد في لحظة واحدة ، كل ما ادخره جاهداً ، وأضاع كل
ما كسب ، فاستولى عليه الأسى ، وتملكه اليأس المميت .

وهكذا رأيت ذلك الحيوان الشكس يدفعني - شيئاً فشيئاً - إلى حيث يجبو ضوء
الشمس^(١) ، ويحدرني صوب الهاوية ، وإني لكذلك إذ لاح - فجأة - أمام عيني شبح
رجل مهزول ، يلوح لرأيه كأنما هو نصف ميت لطول ما ألف من الصمت^(٢) .

وما كدت أراه في تلك الصحراء الفسيحة ، حتى أهبتُ به مُغوَّناً : « حنانيك أمها
القادم ، هلمّ لنجدتي رحمةً بي - كأننا من كُنْت - شبح خيال ، أو حقيقة إنسان ! » .

(١) حيث يجبو ضوء الشمس ، أو على الأدق « حيث تصمت الشمس » يعني بذلك « في أبعد مستقر
مظلم من الهاوية »

(٢) لعل دانتني أراءد بهذه الصورة أن يلعب إلى ما آلت إليه منظومات « فرجيل » - في ذلك العصر -
وما نسج عليها من نسيان وإغضاء طوال القرون الهمجية الماضية .

الفصل الثاني

حديث « فرجيل »

فأجابني :

« لقد كنتُ - فيما سلف من الزمان - انسانا ، أما الآن فلا ! ولقد كان أبواي من لمبارديا ، وكانت « منتوفا^(١) » وطناً لهما .

أما أنا فولدتُ في عهد « يوليوس^(٢) » ، وُحِّرتُ - بعد وفاته - زمنا طويلاً ، فقَدِمْتُ « رُومَةَ » في عهد « أغسطس الطيب^(٣) » أيام كان يسودها الزائفون من الآلهة الخادعين ، وقد كُنتُ - ثمة - شاعراً ، ولطالما تغنيت بتاريخ هذا العادل : « ابن أنكيزي » الذي قدم من « طوريا^(٤) » بعد أن أكلت النار « إيليون » العظيم^(٥) .

حوار « دانتى » و « فرجيل »

ولكنْ خَبَّرني ما خَطْبُكَ ؟ وما بالك تستسلم لهذا الحزن الرابع ؟ ولماذا تحاول أن تعود أدراجك من هذه الغابة المقفرة ؟

وماذا يعوقك أن تُصعِّد في الجبل ، فتبدأ - بذلك - سعادتك ، وتتاح لك فرصة بهيجة ؟
فقلت له وقد امتزج الرَّعب والاحترام ، في نفسى :

« أنت فرجيل ؟ أنت الشاعر الطَّرَاف ؟ أنت مصدر تلك البدائع ، وينبوع هاتيك الطَّرَاف ؟ حَيِّتَ يا فخر الشعراء ومصباحهم المتألق المنير .

(١) منتوفا مدينة معروفة من أعمال مقاطعة لمبارديا

(٢) كانت ولادته قبل الميلاد بمائة عام ، ولقي مصرعه قبل الميلاد بأربعة وعشرين عاماً .

(٣) أغسطس الطيب ، أو أغسطس الصالح ، أو أغسطس قيصر ، هو امبراطور رومة الذى ولد في

عهده المسيح .

(٤) يعنى : أمير ترويا وهى مدينة تاريخية ، وكانت حاضرة لتروادة وقد حرقها اليونان بعد أن

حاصروها زهاء عشرة أعوام (١١٩٣ - ١١٨٣ ق.م) وانتهى حصارهم باحراقها وتدميرها

يشير إلى ضلال مركبه في البحر - بعد احتراق بلده ، قالوا : ثم انتهى به المطاف ، وحل في « لاتسيو »

وكان من نسله مؤسس « مملكة رومة »

(٥) يعنى بذلك : « إينيه » أمير ترويا ، وهو بطل أنشودة فرجيل .

لقد وقفت حياتي على درس آثارك ، وَمَحْضَتِكَ الْوُدَّ ، وتملك حبك قلمي كله . فأنت أستاذي ، وأنت هادي ، ومصدر الوحي لشاعريتي ، وأنت مُلهمي هذا الأسلوب الرائع من البيان العجيب ، الذي شَرَّفَ اسمي وفضَّلني على النظراء^(١) .

أَعْنِي أَيُّهَا الْحَكِيمُ عَلَى هَذَا الْحَيَوَانَ الْمَائِلِ أَمَامِي ، حتى لا يضطرنني إلى النكوص على عَقْبِي ، فقد انتظمت الرعدة والاضطراب عروقي ورثتي جميعاً .

فأجابني « فرجيل » - وقد رأى بكائي وجزعي - :

ألا يرضيك أن أهديك طريقاً أخرى ، تنجيك من هذا المكان الموحش ؟ وتخلصك من هذا الحيوان الرابع الذي سبب إزعاجك وبكاءك ، فإنه لن يدع إنساناً يمر في طريقه ، دون أن يُرْدِيَهُ ويفترسه ، فهو يجمع إلى شراسة الطبع الشَّكْسِ ، نهم الجائع المقترس ، الذي يزداد سغباً كلما انتهى من التهام فريسة .

والرأى عندي - لخيرك ومصلحة نفسك - أن تتبعضني وتتخذ مني دليلاً لك وهدايا ، لأخرجك من هذا المكان إلى عالم الخلود .

وسترى - في طريقك إلى الخلد - وتسمع أنات اليأسين ، وعويل البأسين ، من أرواح القدامى الهائمة المتألمة ، حيث يكابدون من العذاب المميت القاتل ألواناً .

ثم ترى جمهرة أخرى من سكان الجحيم ، فتلمح في أساريرهم غبطة الآمل^(٢) - على ما يكابدون من آلام فيها - لأن ثقتهم بالفوز ، عاجلاً كان أو آجلاً ، والحلول في دار السعادة - حيث تنعم أرواح الذين سَعِدُوا - تهون عليهم ما يلقون في الجحيم .

* *

فإذا بلغت هذه الغاية ، وتاقت نفسك إلى المزيد ، وأرادت السموات إلى ما فوقها ، لتبلغ هذه الدار السعيدة ، فإني تاركك إلى روح أجدر مني بهذه المرتبة وأخلق ، يسمو بك إلى تلك الآفاق العالية .

(١) الأسلوب الرائع الذي يعنيه دانتى هو أسلوبه الذي قبسه من أستاذه « فرجيل » وبثه في مقطوعاته وقصائده التي نظمها قبل أن يؤلف « الكوميديا الإلهية » .

(٢) يعني أرواح من في الأعراف ، وهم بمنزل بين الجحيم والفرديوس ، وسيمر بهم دانتى في صحبة فرجيل فإذا بلغا هذه الغاية ، قدمت عليه حبيبته « بياتريس » وسارت معه إلى الفرديوس . وهذه الفتاة تمثل فيها دانتى السلطة الروحية ، كما تمثل في فرجيل : السلطة العقلية ، وجعله رمزاً لها .

فقد حكم عليّ خالق العالم ألا أدخل جنته ، لأنني جهلت شأنه ، وتمردت على شريعته .
فقلت له :

« أقسمت عليك بالله — الذي جهلته واحتجبتُ عنك معرفتهُ — أن تسرع فتنقذني
من هذا الحرج الذي أكابد ، وتنجينني من هذا الشر الذي أعاني .

هلم ، فخذ يدي إلى حيث وعدتني ، حتى تبلغ بي — يا سيدي — باب السماء ، بعد أن
أمر على أولئك الناعسين الذين أرهقهم الألم . »
وثمة مشى فرجيل ، ومشى دانتى في أثره .

وهنا خشى دانتى أن تحونه قواه الضعيفة ، فلا يقوى على متابعة هذه الرحلة المضنية ،
فطمأنهُ « فرجيل » ، وقوّى من عزمه حين أفضى إليه بسر مقدّمه عليه ، فقال فرجيل :
« لقد كنت في ساحة الغفران^(١) ، وإذا بسيدة من فضليات النساء ، يُشرق نور السعادة
على وجهها ، وهي تناديني بصوت ملائكي :

« لقد بلغ صديق العزيز الشاطيء الصحراوي ، وضل في طريقه إلىَّ — بعد أن خذله
الخط — فامض متفضلاً إلى نجدته وإنقاذه .

إن أسمى « بياتريس » وقد جئت إليك من دار النعيم يدفعي حُبِّيهِ ، ويحفزني وُدِّيهِ ،
إلى استنجادك ، فماذا أنت صانع ؟ فإنني شديدة الرغبة في التعجيل بالعودة إلى مكاني من
الفردوس الأعلى »

فقلت لها :

« لبيك ، فإنني منجز كل ما تشائين . »

ثم أسرعْتُ إليك مبتدراً ، لأنّ ذلك مما أنت فيه ، تلبية لأمر بياتريس .

وتم يطحن الفرع على دانتى لما سمعه من بهيج الأنباء ، فيعلن لصاحبه استعداده — لاحتفال
كل شيء — في سبيل متابعتها والإذعان لمشيئته ، ثم يقول :

« سر أمامي — يا سيدي — ولتكن إرادتنا واحدة مشتركة بيننا ، فأنت لي مرشد
ودليل ، وأنت لي مولى وأستاذ . »

(١) يعني حيث تلتقي أرواح الصالحين الذين برئوا من الأرجاس والدنايا ممن لم تصل إليهم الرسالة .

الفصل الثالث

على باب الجحيم

ورأيت الكلمات التالية مكتوبة بأحرف قائمة على باب الجحيم :

« من هنا يدخل الإنسان إلى مدينة الأوصاب والشقاء ، ومن هذا الباب يذهب إلى حيث النكال السرمدي ، وعن طريق يلحق بين كتبت عليهم العنة ، وحق عليهم الهلاك . لقد شيد الخالق العليُّ بناًئاً ، إحقاقاً للحق ، وانتصافاً للعدالة ، وصنعتي يد القوة الإلهية ، والحكمة الأبدية السامية ، والحب الإلهي السرمدي .

لقد وُجِدَتْ منذ القدم ، كُتِبَ لى الخلود ، ولم يَسْمِقْ وجودى غير القديم الأزلى . فاترك - أيها الداخل من هذا الباب - كل أمل ^(١) .

آلام العصاة

فلما قرأت هذه الجملة المؤسسة ، قلت لهادى « فرجيل » وقد تملكنى الوجل :

« شدّ ما يفرز عني فحوى هذه الكلمات القائمة ! »

فقال لى فى لهجة حازمة حصيفة :

« ما أجدرك أن تنضو لباس الخوف عنك ، فلا تدع للخور والجهن منفذاً يتسربان منه

إلى نفسك .

(١) متى فقد الانسان الأمل ، فقد فقد كل شيء ، ورحم الله الطغرائى القائل :

« أعلل النفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيش ، لولا فسحة الأمل »

وقد أشار بعض شراح الرسالة إلى اقتباس الشاعر الإنجليزي العظيم « ملتن » طرفاً من هذا المعنى فى القسم الأول من كتابه الخالد : « الفردوس المفقود » إذ يقول : « ولن يعاوده الأمل قط ، ذلك الأمل الذى لا ينال منه مكان »

ونحب أن نذكر الفارسي بقول مهبّار الديلمى ، فقد وفق إلى هذا المعنى الرائع أبرع توفيق حين قال :

« أعلل فيك قلباً ضائق حتى غدا : ما للمنى فيه مجال »

لقد بلغنا المكان الذي حدثتكَ به ، حيث ترى أرواح من أضلهم الهوى ، وأطاش ألبابهم فأفقدتهم الأمل في لقاء الله .

ثم وضع فرجيل يده في يدي ، ووجهه يفيض بشراً وحبوراً ليشد من أزرى ، ويقوى من عزى ، فسرّى بذلك عن نفسه شيئاً ، ثم أدخلني ذلك المكان المخفوف بالأحاجي والأسرار .

*
* *

وتمّ تصاعدت الأناث ، وعلت التنهدات ، ودوّت — في أطباق الجحيم — صرخات الألم المفزعة ، حيث لا يطلع نجم ، ولا يبرز كوكب ، فاستولى علىّ الهم ، واستسلمت للبكاء . لقد عرفت كيف يكون اختلاط الألسن ، فقد اضطربت اللغات المختلفة ، وارتفعت أصوات العنات الرهيبة ، وسمعت جمجمة المعدنين المرهقين ، والألم يبرح بهم كل مُبرّح ، فتصعد أصوات الغضب مقرونة بحركات الأيدي ، ممتزجة بالصخب والهياج ، مُدوّية في هواء سقر ، ذلك الهواء المظلم الحالك الذي لا يعرف للزمن حساباً ، فيخيّل إليك عاصفة من الرمال تزجها ريح صرصر عاتية .

*
* *

وتمّ قلت ، وقد اضطرب رأسي ، واختلّطت^(١) :

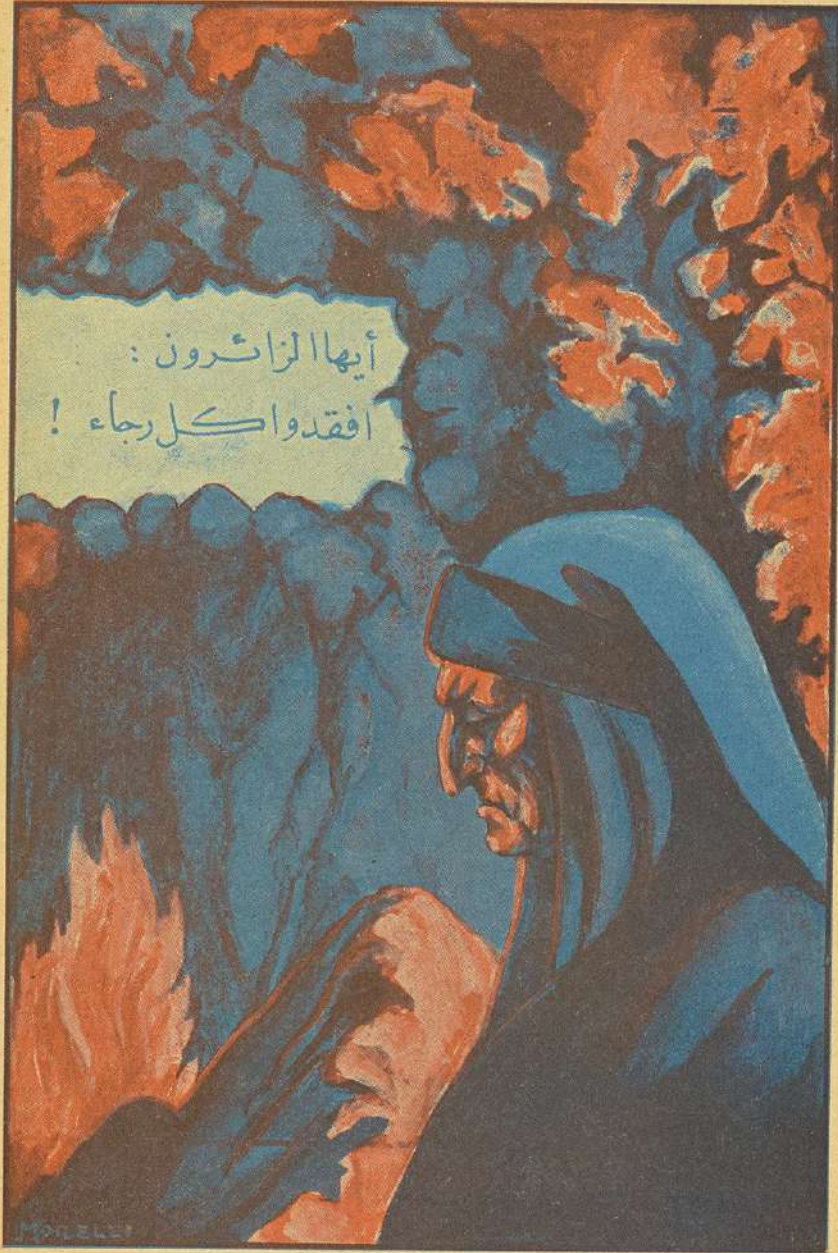
« أَى ضجيج أسمع ، أيها الأستاذ ؟ ومن يا ترى هؤلاء المعدبون الذين أناخ عليهم البؤس بكلّ كاله ، وغمرهم الشقاء والعذاب ؟ »

فقال لي :

« إنها أصوات التاعسين ، منبعثة من قلوب مكاومة ، ونفوس حزينة ، هي نفوس من عاشوا ، لا يقترفون إثماً ، ولا يُقدّمون خيراً .

ومن بين هؤلاء طائفة من الملائكة الذين وقفوا بنجوة — من الخالق — وقفة المتردد الحائر ، فلم يعلنوا إخلاصهم ، ولم يجهروا بعصيانهم .

(١) يعنى أن عقله قد اضطرب من شدة الخوف ، فلم يستطع أن يفقه شيئاً مما يكتنفه .



أيها الزائرون :
افقدوا كل رجاء !

J. MORELLI

فلفظتهم السماء ، حتى لا يسكنوها فيقل رواؤها وبهجتها ، ولفظتهم أعماق الجحيم ، حتى لا يفوضوا على المتوغلين في المعصية ، الممعنين في الإثم شيئاً من رؤاهم . ورأيت سواداً ضخماً من الهالكين الخائري العزم ، وما كنت أحسب أن عدد الموتى يبلغ هذا المقدار^(١) ، وقد عرفت من أستاذي فرجيل أنهم جماعة المترددين الذين لم يعملوا صالحاً فيلحقوا بال صالحين ، ولا سيئاً فيلحقوا بالمجرمين ، ورأيتهم عراة الأجسام ، ملطخة وجوههم بالدماء ممزوجة بعبراتهم ، من أثر الزنايبير اللاسبة والبعوض الفتاك . وقد تجمع عند أقدامهم دود ، مُرَوِّع المنظر ، يمتص تلك الدماء .

نهر كيرُنْتِيه

ثم وصل السائحان إلى شواطئ « نهر كيرُنْتِيه » الذي يكتنف الجحيم ، فأقبل الشيخ « كيرُنْتِيه » - من فوره - في مركبة - وهو شيخ من زبانية الجحيم - وعنقهما غاضباً ، ثم قال :

« الويل لكما والثبور عليكما ، أيها الروحان الشريران ! ألا لا يتسربَّت الأمل إلى نفسيكما ، ولا يخامرَنَّ الرجاء قلبكما في أن تظفرا برؤية السماء ، هُمماً لأذهب بكما في حلك الظلمات الأبدية » .

ثم التف الشيخ « كارون » إلى « دانتى » الشاعر ، وقال :

« وأنت أيها الروح الحى ، اعتزل - من فورك - أرواح الموتى وتنحَّ عن طريقها ! »

فقال له فرجيل :

« صه يا كيرُنْتِيه فانها إرادة السماء نُفُنْدُها ، فلا تدخُل في ما لا يعينك .

فارعوى الشيخ كارتيه ، وكفَّ عن اعتراضه ، ولكن الشرركان يتطاير من نظراته الحاقدة ...

(١) قال أبو العلاء :

« إن صح ما قال رسطاليس - من قدم - وهب من مات ، لم يجمعهم الفلك »

ورأينا على الشاطئ أرواحاً أخرى جدّ مُتَعَبَةً ، وقد حالت ألوانها ، واصطكت أسنانها ، حين سمعت ذلك الوعيد المحزن المميت ، وهى تولول لاعنة صاحبة ، حائرة النظرات .
ثم ألق المركب بتلك الأرواح ، والشيخ « كارتنيه » يجمعهم فيه ويضرب بمجدافيه كل من توانى أو نكص على عقبيه ، فترتمى تلك الأرواح متهاقطة على الزورق بإرادة إلهية غالبة قاهرة ، تبدل إحجامهم تقدماً واندفاعاً .

*
* *

ثم دوّت رعود قاصفة وجلجلت فى أجواز الجحيم — فأفاق دانتى من سباته وإذا هو وصاحبه فى « اليموس » وهو الدائرة الأولى التى تحف بالهاوية ، فلم يسمعا غير تهديدات منبعثة من وادى الجحيم ، حيث رأيا أطفالاً ماتوا قبل أن يظفروا بالتعميد .

ثم انحدرنا إلى أسفل ، فرأيا نوراً يخرق ظلمات سقر ، فتضى جوانبها ، وتمّ شهدا حكماء العصور الغابرة السحيقة ، ورأيا أفاضل الوثنيين الصالحين الذين لم ينقص فضلهم إلا شىء واحد ، هو جهلهم حقيقة الدين المسيحى .

ورأى « دانتى » من بين هؤلاء الفضلاء — « هوميروس » و « سقراط » و « أفلاطون » ومن إليهم من أفاضل المفكرين ، وقد اتفتوا إلى « دانتى » وحيوه أكرم تحية ، فابتهج أستاذه فرجيل لما ظفر به تلميذه من تكريم أولئك الأعلام .

ثم سار الشاعران قاصدين إلى الدائرة الثانية ، وما كادا يبلغان منها الوصيد حتى رأى الشيخ « مينوس » يقضى قضاءه — ولا راد لحكمه — بين الأثمة والعصاة ، ثم ينفذ حكمه فيهم بما يراهم أهلاً له من العقوبة على ما اقترفوا من آثام ، ويلقى بهم فى الدرك الجدير بخطاياهم من سقر . وما كادا يتركانه ويتعدان عن حكومته الراهبة حتى ذهبوا إلى حيث تعذب الأرواح التى أضلها الهوى ، فنبذت العقل ظهرها واستسلمت لشهواتها الجامحة .

وقد رأى من بين هؤلاء سميراميس وكليوباترة وهيلين وأخيل ومن إليهم وقد عصفت بهم عواصف مُسَعَّرَة .

ولكن شبحين من تلك الأشباح المعذبة قد استرعيا بصر الشاعر ، واستوليا على ذهنه ، فشغله التفكير في أمرهما عن كل ما عداه .

وما كان هذان الشبحان إلا « فرنشيسكا داريميني » وعشيقتها « باولو » .

وقد كاد يغمى على الشاعر « دانتي » لفرط حزنه على هذين الشبحين ، فلما اقتربا منه سألهما محزوناً :

« خبراني أيها الروحان الحائران ، أى جرم اقترقتما فحق عليكما هذا العقاب ؟ »
فأجابته « فرنشيسكا » :

لقد أحببت « باولو » هذا الذى تراه ، ولكنهم زوجوني من سيد آخر غاية فى الدمامة ، وهو شقيقه السيد « جانشوتو » الذى يجمع إلى قماء الجسم دمامة الخلق .

فبقيت وفيه لهذا الحبيب حتى وشى بنا خادم ، فبعث بقصتنا إلى السيد جانشوتو ، فقدم إلينا على عجل ، وفاجأنا ونحن فى أسعد ساعة تذوقناها ، ولقى كلانا حتفه على يديه

ثم سار الشاعران حتى بلغا الدائرة الثالثة حيث يعذب الأنايون ذوو الشره الذين استولت عليهم الشهوات ، فرأيا الأمطار تهيم عليهم سيولاً جارفة ، ثم تتجمع من تحتهم بركاً ومستنقعات ورأيا الشيخ « شربيرو » ذا الأفواه الثلاثة والرؤوس الثلاثة ينبج العصاة نباحاً عالياً منكر الصوت ، ويخمشهم بمخالبه الحادة فيضطربهم من شدة العذاب إلى محاكاته فى نباحه المزعج . وقد رأى شاعرنا « دانتي » — من بين هؤلاء المعذبين — صديقه « شياكو » الذى جمع إلى وفرة الغنى ألمعية الخاطر ، ولكنه — على هاتين الميزتين — قد شغل فى حياته الدنيا بلذائذ الأطعمة والأشربة المرتقيات ، وكان « شياكو » بآدى الحزن ، شديد الألم مما أغرق فيه بنو وطنه من المنازعات الدائمة ، وقد كاشف صديقه « دانتي » بما يؤمن به لهم من سيئ المنقلب ، ووخيم العقاب .

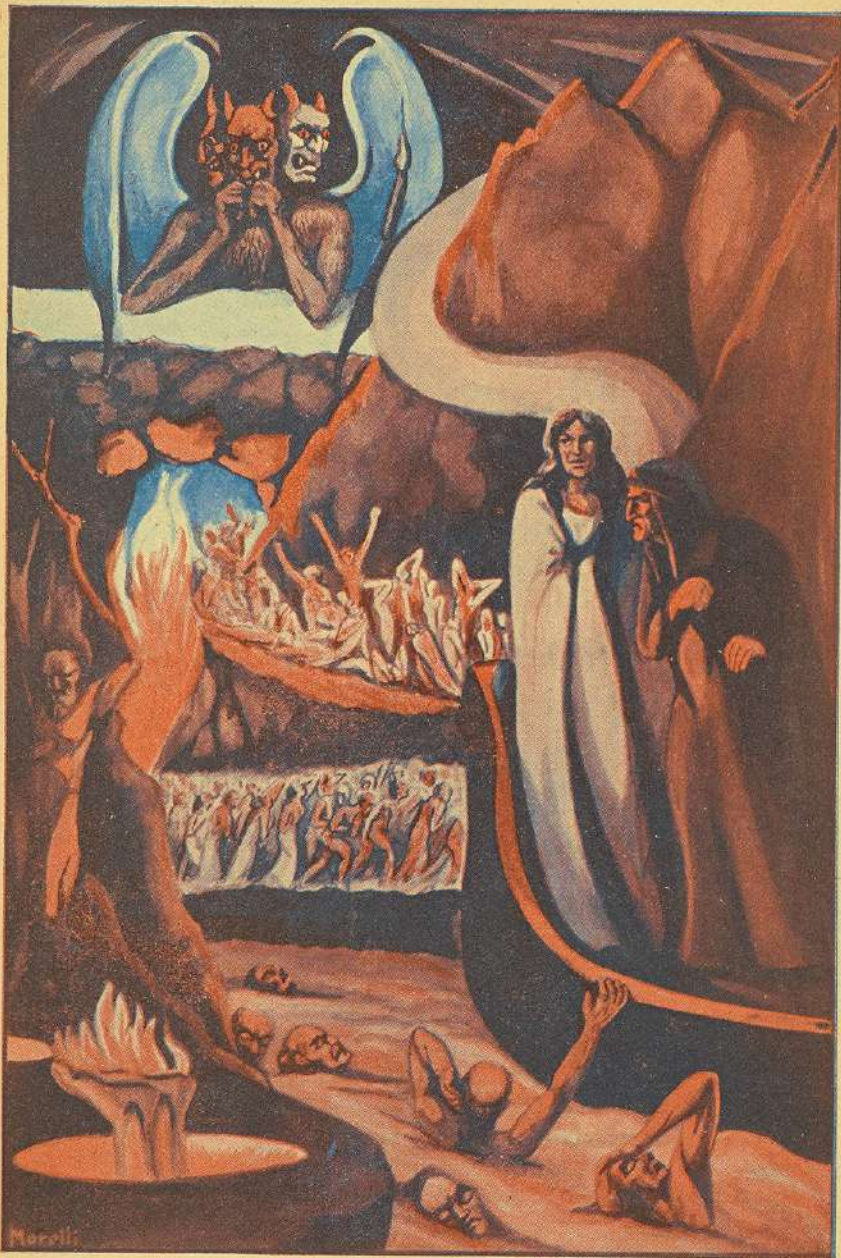
وقد سأله « دانتي » عن مكان « فارينانا » و « تجايو » وكانا من أعيان السراة الذين وهبوا نفوسهم للوطن ، فقال له « شياكو » :

« ستراهما — يا صاح — فى درك أسفل من هذا الدرك » .

ثم سار الشاعران حتى بلغا الدرك الرابع من الجحيم ، فأبصر الزبني العتيد ، الشيخ
« بلوتو » يُصَيِّح بالاثمة ، ويجمجم قولاً لم يدرك له معنى ، وهو ينكل بالمسرفين والبخلاء
جميعاً ، وهم في صفين متقابلين ، كل صف في نصف دائرة تجاه النصف الآخر ، وقد
تنابدوا بالألقاب ، وصاح البخلاء في وجوه المسرفين : « لماذا أسرفتم ؟ » فأجابهم المسرفون :
« ولماذا بخلتم بالمال ؟ » . وقد كابدوا جميعاً من عذاب الجحيم ما لا يحيط به الوصف .

وسار الشاعران في طريقهما ، فأبصر مستنقعا قدراً مملوءاً بالوحل ، وقد انغمس فيه
المذنبون وتدافعوا متناحرين ، فأنشب كل واحد منهم أسنانه في آخر ، فسأل « دانتي » مرشده :
« من هؤلاء ؟ » فقال : « إنهم الحمقى والمستسلمون للحقد ، والذين عجزوا عن أن يكظموا
غيظهم في الدنيا ، فباءوا في الآخرة بخسران مبين ! »

وسارا في طريقهما تاركين تلك الهاوية ، وما زالوا سائرين حتى بلغا سفح برج
هائل في الجحيم .



Marc Chagall

الفصل الرابع

ورأى الشاعران زورقاً صغيراً ينطلق نحوهما في الماء ، كما ينطلق السهم في الهواء ، وقد استقله الشيخ « فلاجياس » وفي يده مجداف واحد يسير به ذلك الزورق ، فصاح في « دانتي » قائلاً : « لقد بلغت مُسْتَقَرَّكَ أيها الروح الشقيّ ، لتلقى ما أنت جدير به من النكال » .

فقال « فرجيل » : « كف عن صياحك أيها الزبّينيّ ، فلن نلبث معك أكثر من الزمن الذي يكفي لعبور هذا المستنقع » . فاشتد بالشيخ الزبّينيّ غضبه لضيق فرصة تعذيبهما من يده ، ودفع المرشد « دانتي » إلى الزورق ، ليعبرا نهر « ستيجه » ، وقد رأى في طريقه شبح كومة من الوحل ، تقول له : « من أنت أيها القادم على الجحيم قبل الأوان ؟ » فقال « دانتي » : « لئن قدِمْتُ على الجحيم الآن ، لقد أزمعت الرحيل وشيكا ، فأخبرني : روح من أنت أيها الشكل المُعزَّع الرابع ؟ » فأجابه الشبح : « أنا المذنب الهالك الشقي ! » وبسط ذلك الروح ذراعه إلى الزورق فدفعه فرجيل من حيث جاء ، وقال له : « عد أدراجك مع رفاقك من كلاب الإنسانية . » فأسرع الشبح إلى « دانتي » وطوق عنقه بذراعيه وقبل وجهه وهو يقول : « بورك فيك أيها الروح المجيد . »

أما هذا الشبح المحترق في الوحل فقد كان « فيلييو أرجنتيني (١) » .

فقال « دانتي » لمرشده : « لودِدْتُ — يا أستاذي أن أرى هذا الشبح يخترق في الوحل قبل أن نخرج من هذه البحيرة » فقال له مرشده : « لن نبلغ الشاطئ قبل أن يتحقق لك هذا المأرب . وما كاد يتم قوله حتى اجتمعت أرواح الهلكى على ذلك الأثيم تعذبه وتفرقه في الوحل ، وتُصَيِّحُ به شامته : « فيلييو أرجنتيني » وهو نائر تصطك أسنانه غيظاً ، ويتلوى جسده كبراً وعُتُوًّا .

(١) هو سرى من أعيان فلورنسا ، وقد كان مضرّب الأمثال في عصره في العجرفة والقسوة والكبرياء

فتركة الشعاران وسارا حتى بلغا أسوار مدينة « ديته » فأيا جمهرة من الشياطين تحاول أن تصدهما عن السير في طريقهما ، ولكن فرجيل استطاع أن يبلغ بتلاميذه المدى — بعد أن قهر تلك الشياطين الصاخبة الهائجة التي كانت تصيح غاضبة : « من ذلك الحى الذى يقتحم عالم الهالكين غير هيّاب ولا وجيل ؟ » .

وما سار الشعاران قليلاً حتى لاح لهما ثلاث ربّاتٍ ، من زبانية سقر ، لهن أشكال النساء ، وفي أعناقهن أصلال خضر تطوقها ، وفي غدائرهن مثلها حيّات هائلة ، وفي ثنايا شعورهن جمهرة من صغار الحيات ، وكلّ تخمش صدورهن وتُصيحُ بالشاعرين متوعدةً وقدم عليهما — حينئذ — ملك من السماء يجتاز نهر ستيجه فلا تبتل قدماه ، فطرد تلك الأرواح الشريرة وفسح لهما الطريق ، بعد أن أشار بعصاه إلى الباب فانفتح ، وأذن لهما بدخول مدينة « ديته » فأيا « الملحدين والأبيقوريين ^(١) » فى قبور من اللهب ، ثم سمع « دانتى » صوتاً منبعثاً من بعض هاتيك القبور ، وهو يقول :

« أيها التّسكانيّ الحىّ القادم علينا من الدنيا ! قف بربك فى هذا المكان فقد عرفت أنك من أبناء هذا الوطن النبيل العظيم الذى أبى لى سوء حظى إلا أن أعقّه ، فلم أكن من أبنائه البررة . »

فاستولى الجزع على شاعرنا « دانتى » وسأل مرشده : « أى صوت هذا ؟ » فقال له : « لا عليك ، فهو صوت فاريناتا ^(٢) وقد خرج من قبره ليحدثك ، فعد إليه لا تخش أى شىء . »

فعاد إليه « دانتى » فرآه شامخ الرأس ، كأنما يزدرى الجحيم ، ولا يابه لما يلقى فيها من عذاب ، ثم قال « لدانتى » فى لهجة العظيم القوى : « من آباؤك وأسلافك القدماء ؟ » .

(١) الأبيقوريون هم الفئة المنسوبة الى « أبيقور » الفيلسوف اليونانى المعروف وأتباعه وتلاميذه لا يعتقدون بالآخرة ولا يؤمنون بغير اللذة فى الحياة . وقد عاش هذا الفيلسوف قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون .

(٢) « فاريناتا » هو زعيم الجليلين ورئيس حزب أسود فى مدينة « فيرنزة » وهو الذى استطاع بمساعدة الجيلاف طرد أسرة دانتى ، ولكن بعد انتصار منابرته فى سبتمبر سنة ١٢٦٠ وقد اقترح عليه أن يدمر « فلورنسه » فثارت وظيفته حيال هذا الاعتداء . ولذلك نشعر أن فيه مزيجاً من الحقد والشمهامة

فكاشفه دانتي بكل شيء ولم يخف عليه أمراً ، فرآه يرفع حاجبيه كأنما يريد أن يعيد إلى ذهنه ذكريات مطوية سحيقة ، ثم قال له : « لقد كانوا من خصومي وخصوم آبائي وحزبي ، وقد أمعنوا في الإساءة إلينا بلا رحمة ، فلم أتوان عن تشثيت شملهم — مرتين — وتمزيقهم كل ممزق . »
فقال له « دانتي » :

« لنن أفلحت في طردهم ، لقد عادوا — بعد أن غلبوا — مرتين ، أما آباؤك فلم يعرفوا هذا الفن كما عرفناه ^(١) »
ثم بدا من مدخل تابوت مفتوح شبح آخر ظهر منه رأسه وذقنه ، ولعله كان جاثيا على ركبتيه .

وعند مدخل الدائرة السابعة شرع « فرجيل » يصف لرفيقه أقسام الجحيم الأخرى التي لم يرها بعد ، وقال له : « إن الدائرة السابعة يعذب في أولى طبقاتها ذوو الشراسة والعنف ، والطبقة الثانية منها تحوى أهل الغش ، والثالثة مقصورة على الخونة »
وقد رأى دانتي في هذه الدائرة الشيطان « مينوتورو ^(٢) » قائماً على حراسة الدرك ، وهو وحش مخوف الهيئة ، نصف جسمه على هيئة ثور ، والنصف الآخر على هيئة إنسان .
ورأى في هذه الدائرة أيضاً فئة من القساة الغلاظ الأكباد .
ونظر « دانتي » تحت قدميه ، فرأى نهراً من الدم يفرق فيه كل من عقَّ — في حياته — أحد أقربائه ، أو أعظم له قلبه .

ثم رأى في الحلقة الثانية من ذلك الدرك غابة موحشة مقفرة وليس فيها غير أشجار

(١) يريد « دانتي » أن يقول إن الجبلين ما كانوا يعرفون السر الذي مكن الجبلف من العودة إلى المدينة التي أقصوا عنها إقصاء ، وربما عنى الشاعر بهذا الكلام نفسه ، فان من المعروف أنه كان على عكس أهله ، فان « فارينانا » قد استطاع أن يطرد « الجبلف » ، وعاد « دانتي » فصار من متحمسي « الجبلف » الملتهمين في نصرتهم .

(٢) « مينوتورو » ومعناه : عجل مينو ، وقد مر ذكره في قصة « بطل أئينا » التي قبسناها للأطفال ، وهي إحدى القصص التي حوتها « أساطير العالم للأطفال » .

ملتوية حالكة السواد ، ثمارها الأشواك السامة ، وأطيافها وحوش غريبة الأشكال أنصافها الأولى أنصاف نساء ، وأنصافها الأخرى أنصاف طيور ، وسمع دانتى صرخات مؤلمة منبعثة من تلك الغابة الراهبة الخيفة ، فسأل مرشده عن مصدرها ، فقال له : « أكسر غصناً من هذه الأشجار » فلما كسره « دانتى » صرخ به جذع الشجرة محزوناً ، وقال : « شد ما قسوت علىّ ، لقد كئنا — كما أنتم — أناسى أحياء ، ثم حق علينا عقاب الله ، فسخنا أشجاراً جرداء ، فما كان أجدرنا بالشفقة منك ولو كنا أرواح أفاع . »

وقد تملك الفرع « دانتى » حين سمع تلك الصيحات ؛ ورأى الدم يتدفق من ذلك الغصن المهجور . فقال فرجيل للغصن وهو يشير إلى دانتى : « لو استطاع هذا أن يؤمن بما وصفته فى أشعارى^(١) من قبل أن يمس غصنك — أيها الروح المجرح — لما مد يده إليك . على أننى — أنا نفسى — لم يكن ليدور الآن فى خلدى أن روحاً إنسانياً يختبئ فى شجرة ، وإنى لنادم على ما أسلفت إليه من اقتراح ، إذ أشرت عليه بكسرك ، وكنت سبباً فى ما لقيت — أيها الغصن — من ألم . »

فقال الغصن : « لقد هون علىّ اعتذارك كل ما لقيت من تعذيب ، فهل تأذن لى أنت ورفيقك — فى أن أحدثك بعض حديثى العجيب :

أنا الشاعر بطرس « دِلَّالِينِيه » صاحب « فرديك الثانى^(٢) » وناصح الأمين ، وقد أسلنى مفتاح قلبه ، وأسلس لى قياده ، فأصبحت موضع سره ، وأمين دخلته ، وكان يمدى مفتاح قلبه ومغالقه ، أديرها متلطفاً كيف أشاء ، ووفق ما أريد ، دون أن أشعره — لفرط لباقتى — بما ظفرت به من هيمنة عليه ونفوذ .

(١) يعنى : لو أن « دانتى » قد استطاع أن يصدق ما قصصته فى احدى قصائدى ، حين ذكرت أن لإنسانة قد تحولت الى شجرة ، لما مس ذلك الغصن بسوء « وهو يعنى بذلك قصته التى قصها عن العذراء « دافنيه » التى تحولت الى شجرة فار .

(٢) كان ببردلالينى جور سكينسول عظيماً ؛ وكان من أوفر أهل زمانه ذكاء ، وهو المستشار الامين للامبراطور فرديريك الثانى ، ولكن حدث أن أوقع به بعض رجال الخاشية ، فعزوا اليه تهماً باطلة فغضب عليه مولاه ، وحكم بأن تعلقاً عينه ، فلم يجد بداً من الانتحار ، وقد عزا « دانتى » وجوده فى الجحيم الى انتحاره ، وقد كان يعجب به ويمولاه .

وقد استطعت — بلطف حيلتي — أن أتفوق في حاشيته على كل منافس إياي فيه ، ومزاحم لي عليه ، وقد أكتسبتني مهارتي وحذقي كل تقته ، وكنت شديد اليقظة دائم الحذر ، فلم أهنأ براحة ليلاً ولا نهاراً .

ولكن ما جبل عليه القدماء — من الحسد — وهو جماع الرذائل المتفشية في أعوان الملوك ، قد أثار على حفاظ المقر بين ، وألهب على قلوبهم ، فشوهوا كل مزية من مزاياي ، وقبحوا كل حسنة من حسناتي ، فكذروا صفوا الامبراطور لي ، فانقلبت كل محاسني عيوباً ، فلم أطق غضبه ونكاله ، ولم أر غير الانتحار وسيلة للخلاص من ذلك المقت والسخط .

*
* *

وسار الشعاران حتى ابتعدا عن الغابة ، ولقي « دانتى » في طريقه — حين التفت إلى الوراء — طائفة من الأرواح تنظر إليهما نظرات كليلة متعبة ، كأنها نظرات الخياط الطاعن في السن إلى سم الخياط . قال « دانتى » : « وقد عرفني واحد من تلك الأرواح — وأمسك بطرف معطفي ، وهو يصيح بي هاتفا . فشخصت بصرى إلى وجهه المحترق ، فعرفت وجهه — رغم احتراقه — فقلت له : « أنت هنا يا سيدى برونينو^(١) ؟ » فقال : « لا يفضبنك أن أعوقك عن السير شيئاً ، لأفضى إليك ببعض حديثي » فقلت له : « لك ما تريد ، ولو شئت أن أجلس إليك لما ترددت في قبول مشيئتك ، إذا أقرها صاحبي ومرشدى فرجيل . »

فقال له الشبح : « لا سبيل إلى الوقوف فإن من يقف لحظة تضاعف له مائة عام ، فامض إلى أسفل وأنا ماض على أترك ، وممسك بمعطفك حتى أتم حديثي فأعود إلى هذه الزرافة من الناس الذين حق عليهم الشقاء الأبدى » ثم قال : « أى قدر أتاح لك القدم علينا قبل أن تحين ساعتك الأخيرة ؟ ومن ذا الذى أرسدك إلى هذه الطريق ؟ فأجابه « دانتى » :

(١) كان « الفلورنتى برونينو لاتينى » عالماً فى الفراماطيق ، وقد عاش من سنة ١٢٢٠ الى سنة ١٢٧٤ ؛ وكان دانتى من تلاميذه . ولما طلب اليه أن يقادر فلورنسة سنة ١٢٦٠ بعد هزيمة حزب الجيلف ذهب الى باريس وأقام بها وكتب بالفرنسية أهم مؤلفاته ، وهو : « الكنز » ولقد تصور دانتى وجوده فى الجحيم لأنه من الجيلف .

« لقد ضللت طريق في أحد الوديان ، وكاد يحين حينى ، وكان ذلك صباح أمس حين أدت ظهري لهذه الحياة ، فلاح لى هذا المرشد وقادنى إلى هنا . »
فقال الشيخ :

« لقد تكهنت لك وأنا حى ، ولا أزال على رأى كهانتى إلى الآن ، وهى أنك إذا درجت على سجيتك ولم تخالف طبعك النبيل ، فإنك بالغ أوج المجد ، فلا تنزلق مع هذا الشعب الأحمق الجاحد من أبناء «فيرنته» الذى يابى إلا أن يعاديك لاستقامة فطرتك ونبل أرومتك ، وهو عداً طبيعى دائم بين الشر والخير ، فإن شجرة التين إذا اكتنفتها أشجار العوسج^(١) لم تدع لها طريقاً للإثمار ! فخذار أن تدنسك أفذارهم ، أو تعلق بك أرجاسهم . إن حزبى البيض والسود استحرقان شوقاً إلى اكتسابك فى صفيهما لتناصر كل واحد منهما على الآخر ؛ ولكن إباء نفسك لن يحقق لكل منهما هذه الأمنية الخرقاء . »

فقال « دانتى » : « أرجو أن أحقق رجاءك فى ، فقد نقشت فى ذهنى صورتك الأبوية العزيزة ، ولم أنس نصحك الثمينة ، ولن أنساها ما حييت ، فلقبى علمتنى كيف يظفر الإنسان بالخلود ، ولا زلت إلى اليوم أردد هذه النصائح ، وأذيعها بين سواد الناس . »

(١) لابن الرومى أبيات فى العوسج ، وقد مرت بالقارىء فى هذا الكتاب .

لفضل الخامس

واستأنف الشاعران سيرهما ، بعد أن طافا ما شاء في الدرك السابع من سقر ، ورأيا القساة وغلاظ الأكباد ، وعرفا من بينهم طائفة من بنى الوطن . ولما أرادا الوصول الى الدرك الثامن ، استدعى فيرجيل وحشا راعب الخلقة ، مفرغ الهيمّة ، اسمه « چيرونه » وهو رمز الغش والخديعة ، ورأى دانتى لهذا الوحش وجه إنسان وجلد أفعى رائع الألوان ، فركب الشاعران ذلك الوحش الجهم ليهوى بهما إلى الدرك الثامن ، وما كادا يبلغانه حتى رأياه مؤلفا من عشر حلقات .

وكان أول ما استقبلهما دائرة « مالمولجه » وبها ينتهى الدرك السابع من سقر ، وكلها من الحجارة القاتمة وهى أشبه بالحديد منها بالحجارة ، وإلى يمين السائر فى وسط ذلك الميدان اللعين ، تلوح بئر واسعة الغوهة سحيقة القاع ، وقد هبط بهما « چيرونه » كما أسلفنا حتى بلغ بهما قرارة الدرك . فرأيا فيه من ألوان العصاة والمعذبين ، وطرق التشكيل بهم ما لا يخطر ببال .

ولمح « دانتى » جمهرة من العرأة فى قاع الدرك ، وطائفة من الشياطين والأبالسة ذوى القرون ، وفى أيديهم سياط يلهبون بها الأثمة والعصاة ، وقد بدت قرون الأبالسة وسياطهم التى يحثون بها المذنبين ليسرعوا فى خطاهم . وخشيت أن تفوتنى الفرصة فلا أعرف شيئا مما رأيت فى ذلك المكان السحيق ، فسألت أحد الخاطئين : « من أنت ؟ » وكان ينعكس رأسه ، ليخفى وجهه من شدة الخجل ، ولكننى عرفته على الرغم من ذلك ، فقلت له : « ما أراك — إذالم أكن مخدوعا — إلا « فنديكو كاشيانيميكو^(١) » ، فماذا جاء بك إلى هذا العذاب المقيم ؟ » فقال : « على الرغم منى أن أفضى إليك بسر شقائى ، وعلى كره منى أبوح لك بدخلتى ، بعد أن أعاد إلى نفسى كلامك الصريح ذكرىات العالم القانى :

(١) كان « فنديكو كاشيانيميكو » — وهو من أهل « بولونى » — مشهورا باقتراف كل رجس فى سبيل الفس ، فلم يججم عن سؤاة منافية للشرف ، مجازاة لأهوائه ومطامعه ، وقد أغرى أخته ببيع عرضها للمركيز « فيزارا » من أجل المال .

« لقد أسلمت « چیزو بللا » إلى المركيز ، في سبيل المال ، وأنت أعرف بما اشهرنا به من البخل والشح . »

وما كاد يتم جملته حتى ألهبه أحد الشياطين بسوطه قائلاً :

« اذهب أيها الساقط الدنس ، فليس في هذا المكان أعراض تتجر فيها . »

وفي الحلقة الثانية رأيت بركا مظلمة قد انغمست فيها طائفة من العصاة تنحى على أبدانها ضرباً بالأيدي من شدة الألم ، ورأيت واحداً ممن تغطيهم تلك الأقدار فلم أستطع أن أتبينه ، ولكنه صاح بي محنقاً : « تب لك من فضولى ، ما الذى استرعى بصرك منى ، وحولى كثير من ذوى الرجس » فقلت له : « أأنت يا صاحبي « ألسيو إنترمينيه ؟ » فقال لى محسوراً : « إنما جاء بي إلى هذا الدرك ما ألفتة من الملق والمداهنة . »

ورأيا في الحلقة الثالثة جماعة ممن التجروا بالدين ، وكانت رعوسهم مدلاة إلى أسفل وأقدامهم إلى أعلى وهى ملتببة ، وكل واحد منهم في حفرة ضيقة مستديرة الفوهة .

ثم رأيا في الحلقة الرابعة معذباً يقاسى من جُرْع العذاب ألوانا ، فقال له دانتى : « من أنت أيها الروح المعذب ؟ »

ولم يكن هذا الروح إلا نيقولا أورسینی^(١) ، فصاح — قائلاً — : « هل جاءوا بك إلى هذا الدرك يا بونيفاشيو^(٢) » وهل قضيت وطرك من تلك الأموال الطائلة التى بذلت قصارى جهدك فى الظفر بها ، وهل أفلحت فى إغراء تلك المرأة الجميلة ؟

ألا ما أسرع ما اتقضى وطرك من تلك الأموال الطائلة التى لم تتورع عن استلابها — بعد أن بذلت قصارى جهدك فى استمالة تلك الغادة الحسنة — ورحت تستولى على تلك الكنوز بكل وسيلة من وسائل الملق والخداع ! »

(١) هذا هو البابا « نيقولا الثالث » وهو من أسرة أورسینی الرومانية الشهيرة وقدمت سنة ١٢٨٠ وكان عطفه على الجليلف سببا فى عقابه فى الجحيم فى نظر دانتى الجليلنى ، على أن دانتى وإن يكن قد قسا على بعض الباباوات فى عصره ، وهم خصوم حزبه السياسى ، لقد كان يبدى الاحترام الأوفى للسلطة الباباوية من وجهتها الدينية (٢) خيل لنيقولا أن الذى يخدمه هو خليفته على العرش البابوى « بونيفاشيو » الثامن الشهير الذى لم يميت الا سنة ١٣٠٣ والمرأة الجميلة التى يتكلم عنها الآن هى « البابوية » .

فدهش دانتي لهذه المفاجأة ، وأذهله ما سمع من كلام لا يققه له معنى ، فقال له فرجيل :
« قل له إنك شخص آخر غير من يعنيه بقوله هذا »

فأجاب دانتي كما لقنه مرشده فرجيل ، وثم تملكه الغيظ ، وتصلبت قدماء من الحق ،
وتنهذ شاكيا ، ثم قال : « فماذا يعينك من أمرى إذن ؟ وأى شأن من شئوني تريد أن
تسألني عنه ؟ أتريد أن تعرف ماهيتي ؟ إذن فاعلم أنني كنت ممن يرتدون الطيالس الطوال^(١)
أما أسرتي فهي أسرة أورسيني ، ولقد حرصت على تنمية موارد الثروة التي تنعم بها أسرتي ،
فلزمت الشح والتقتير ، حتى ظفرت بثروة طائلة ، ارتفعت بها أسرتي في الدنيا وهويتُ بها
إلى قرار الجحيم في الآخرة . وقد سبقني في اقتراف جريمة البخل جمهرة تعذب الآن في أسفل
هذه الحفرة السحيقة ، ومتى جاء الراعي^(٢) الذي حسبك إياه ، هويت إلى أسفل واحتل
هو مكاني ، حتى يقدم زائر جديد^(٣) فيهبى الراعي إلى القرار ، ويحل الزائر مكانه ، وهكذا .
وما زال الشعاران ينتقلان في ردهات الجحيم من طبق إلى طبق ، حتى بلغا الحلقة الرابعة
حيث رأيا الكذبة المتكهنين والعرافين الذين ادعوا الاستئثار بالغيب ورءوسهم متجهة إلى
الخلف ، وليس لهم سير في الجحيم إلا سير القهقري ، ورأيت دموع بعض هؤلاء العصاة
تتساقط من أعينهم فلا تقع إلا على ظهورهم . أولئك الذين أرادوا أن ينظروا المستقبل ، فأصبخوا
في الآخرة لا ينظرون إلا الخلف .

ثم سار الشعاران إلى الحلقة الخامسة فرأياها قائمة عابسة ، وسمعا لوللة الباكين صاعدة من
أعماقها ، وقد لظحهم القار الغالي ، وقد علم دانتي أن السامسة يعذبون في تلك الحلقة .

ثم يستأنفان السير حتى يبلغا الحلقة السادسة حيث يريان المعذبين وقد برح بهم الضنى
وعلت رءوسهم قبعات مرصصة^(٤) ، ولكنها قد طليت بالذهب الوهاج ، فأصبح لها لمعان يكاد
يخطف الأبصار ، وقد ناءوا بحملها عاجزين .

فقال دانتي لمرشده : « لعلنا نظفر ببعض من نعرف بين هؤلاء الخاطئين ، فأجل يا سيدي
لخاطك فيمن يكتنفنا »

(١) - يعني أنه كان « بابا » (٢) يعني بالراعي الذي ينتظر مقدمه : البابا « بونيفاشيوس » الثامن وقد ولى
أمر العرش البابوي (من عام ١٢٩٤ إلى ١٣٠٣) (٣) يعني بالزائر الجديد « كليانوس الخامس » الذي
مات عام ١٣١٤ وقد نقل الكرسي الرسولي في عهده إلى « أفنيون » (٤) أى صب فيها الرصاص .

وسمع أحد المعذنين هذا الحديث ، وقد عرف من لهجته التسكانية أن قائله من أبناء وطنه ، فصاح قائلاً : « قفا أيها الزائران فلعلني طلبت هذا الرجل » فالتفت فرجيل إلى تلميذه وقال : « تريث في مشيتك ولا تعجل ، حتى تتسقى خطاك مع خطى هذا المتشدد » .
قال دانتى :

« فوقفت ، وأسرع اثنان بكل ما فى طوقهما من السرعة بغية اللحاق بى ، وقد أدركت أنهما يسرعان — على الرغم من بطئهما الشديد — لما كان يلوح على وجهيهما من أمارات الجهد والضعف لما ينوءان بحمله من أثقال . وما كادا يقطعان تلك المسافة القليلة حتى أنما النظر فى ، ولم ينبسا بينت شفة ، ثم نظر أحدهما إلى الآخر وقال :

« يظهر من حركات فم هذا أنه من الأناسى الأحياء ، وإلا فأى ميزة أكتسبته انخلاق من حمل هذه القبعات الثقيلة التى أرغمنا على حملها فى هذا الدرك من الجحيم ؟ » ثم قال لى :
« أيها التُّسكانيُّ ! خبرنا من أنت أيها القادم لزيارة معهد الأشرار من الأشقياء المحزونين ، ولا يثنيك الزهوُّ عن أن تقول لنا : من أنت ؟ »

فقلت لهما : « لقد ولدت فى مدينة « فيرنتسة » الكبيرة ونشأت على نهر « أرنو » الجميل ، وما زلت من أهل هذا الوطن إلى اليوم ، فإنى لا أزال حيا كما تريان ، ولكن خبرانى من أنما ، فإنى لأرى عبرات الألم تسيل غزيرة على خدودكما ، وما أدرى مصدر هذا الشقاء ، ومبعث هذا العناء . »

فأجابنى أحدهما : « ألا ترى إلى هذه القبة المذهبة ؟ فاعلم أنها ليست غير رصاص مصبوب شديد الثقل ، ولقد نشأنا — فى الدار العاجلة — أخوين دائمي الفرح ، ناعمي البال ، وكنا من أصل « بولونى » ، أما اسمى فهو « كاتالانو » واسمى أخى هذا : « لدرنجو »^(١)

(١) كلاهما من نبلاء « بولونى » ومن أعضاء جمعية أخوية يطلق عليها اسم « جماعة الاخوان الفرحين » وفى عام ١٢٦٦ منحها الفلورنتيون لقب « بودستا » وقد وقع الاختيار على « لدرنجو » لأنه من الجبلين وعلى « كاتولونا » لأنه من الجلف ، ولكن حكومتها — على ذلك كله — لم تجد سبيلا إلى التوفيق بين الحزبيين . فأثر هذا الحاح كان — بعد أن أخفق سعيهما فى التوفيق — أن ينضويا خفية وخذاعا تحت راية حزب الجلف ، وقد كان هذا الغش سبباً فى حقد « دانتى » عليهما ، لأنهما خانما ما ارتبطا به أمام الشعب من عهد وثيق

وقد وقع اختيار أمتكم على كلينا جميعا ، وكان العرف يقضى بتخير واحد منا فقط ليكون أقدر على صون السلام ، وحفظ الأمن في المدينة ، ولكنكم آثرتم أن يلي أمركم اثنان ، فكان ماذا ؟ لقد تجلبت آثارنا رائعة في تخريب غردنجول^(١) ! »

فاستأنفت قائلاً : « لقد كانت سيئاتكما التي اقترفتها أيها الأخوان . . . » ولم أستطع — بعدئذ — إتمام الحديث فقد قطعه على منظر مفرّع ، إذ بصرت أمامى بأثم من الخاطئين الذين حقت عليهم لعنة الله ، وهو يصب على الأرض مشدوداً إلى أوتاد ثلاثة . وما كاد نظرى يقع عليه حتى زفر محزوناً . وتهد متألماً ، فقال لى الشقيق « كاتالانو » حين رأى من ذلك المصلوب ما رأى :

« أعرف من هذا المذب المائل أمامك ؟ إنه « قيافا » الذى أسدى نصيحته للفر يسين بأن يختاروا رجلاً واحداً ينسكون به ليكون فدية للشعب كله ، وقد لقي جزاءه على خطيئته الشنعاء ، وأصبح كما تراه الآن عارياً تطؤه أقدام العصاة ، وهو ملقى فى عرض الطريق كما تشهد ، وقد بلغ به الضعف كل مبلغ ، فأعجزه أن يشعر بمن بجانبه ، لما هوفيه من ذهول وإرهاق . وهكذا لقي صهره أيضاً . وها هو ذا تراه مطروحاً فى هذه الحفرة ، كما لقي سائر أفراد ذلك المجلس الذى أنفذ كلمة الجائر ، وقد كان اليهود يعدونهم بدمراً ضاراً غير صالح .

وفى الحلقة السابعة يعذب اللصوص أشد العذاب ، وتنهشهم الثعابين والأصلاص الهائلة ، وقد رأينا — من بينهم — واحداً من « توسكانيا » يدعى « فانى بوتشى » وهو من « بستويه » وكان قد تسكهن — فى حياته — لدانتى بهزيمة مقبلة تحل بالحزب الأبيض الفلورنتى . وقد أبصر دانتى جمهرة من « الفلورنتيين » الذين اتهموا باستغلال الجمهور ، وقضى على هؤلاء الأندال جميعاً بالحوالة الدائمة من رجال إلى ثعابين ، ومن ثعابين إلى رجال ، وهكذا دواليك أبد الأبدى ، ودهر الخالدين .

(١) « غردنجول » من أحياء « فلورنسا » حيث تقيم أسرة « اوبرتى » الجليبية وقد نهب هذا الحى وخرب فى عهد هذين الحاكمين البولونيين .

لفضل السائس

قال « دانتى » : « افرحى يا فيرنزة وابتهجى ، فقد بلغت من العظمة مبلغاً جسيماً ، فحنفت أجنحتك في البر والبحر ، كما انتشر صيتك في أطباق الجحيم ! كيف لا ، وقد رأيت بين الهالكين من اللصوص خمسة من أهلك ، فاعتراى من الخجل والغم ما لا يوصف ، وأيقنت أنك محزونة لهذا الخزى المبين . ولئن صح ما يقولون ، من أن أحلام الصبح تعبر عن الحقيقة الراهنة وتنبئ بصدق ما يقع للعالم من أمور وشيكة الحدوث ، لتجدين - إذن - بعد قليل مصداق ما تمناه لك « براتو^(١) » ومن لف لفه من أعدائك الألداء ، ولتوردنك شرور أبنائك وآثامهم موارد الحتف والهلاك ، ولئن مجل الله بوقوع هذه الكوارث التي كتبها عليك ، لقد أحسن إلىّ بذلك ، فإن التعجيل بوقوع البلاء المقدر أهون من ترقبه ، ولو تأخر حدوث الكوارث حتى أطعن في السن ، لضاعف ذلك من ألى في زمن الشيخوخة ، أما الآن فإنى أقدر على احتمال وقعها ، وتجرع غصصها المؤلمة .

*
* *

وفي الحلقة الثامنة رأينا طائفة من الأنفس الخاطئة يكتنف كل واحدة منها عمود من اللهب ، فسألت مرشدى عن هذه الألسنة اللهبية المستعرة ، فقال : « إن في أثناء هذه الأعمدة الملتهبة أرواحاً تصطلي بناهاها » فقلت له : « لقد أيقنت بما تقول ، فمن ترى في هذه النيران من العصاة ؟ وما هذا اللهب المرتفع الذى يلوح - فى أثناءه - رأسان منقسمان » فقال مرشدى : « فى أثناء هذا اللهب ، ترى « عولس » و « ديوميدي^(٢) » وقد لقيما ما هما جديران به من النكال ، ولم يفترقا فى العذاب ، كما لم يفترقا - من قبل - حين حاق بهما الغضب ، وحققت عليهما اللعنة . ها هما ذان يندمان محزونين على ما اقترفا من

(١) « براتو » مدينة صغيرة بجوار « فيرنزة » وقد كانت فى عهد « دانتى » حاقدة على وطنه كبرها من مدن « تسكانيا » الأخرى .

(٢) نمكن « عولس » و « ديوميدي » اللذان أوفدها اليونانيون من الدخول على « أخيل » الشاب بعد أن سلكا إلى ذلك طريق الحيلة والمكر ، وقد كان متخفياً فى زى امرأة ومقياً ببلاد الملك « ليكوميد »

إنهم وخذاع ، إذ مكروا بخصوصهما واخترعا ذلك الجواد الخشبي ، فخذعا به أعداءهما خداعاً مبيناً ، وإن كانا سبباً في إنجاب تلك البذرة النبيلة من الرومان^(١) .

ثم رأينا لهيباً آخر يخرج من فيه صوت غليظ ، خيل إلينا منه أننا نسمع خوار العجل الصقلي^(٢) ، وإذا به صراخ « جويدو دي مُنتَفَلترو » الذي ولد في « منتفَلترو » ، ومات نادماً في « أسيز » حيث دفن فيها بالبازيليك ، فقلت له : « تحدث إليّ ، فإنني رومانيٌّ مثلك ، وخبرني ماذا يخفيك في القاع ؟ » فقال ذلك الروح المعذب :

« لقد نشأت رجل حرب وطعان ، ثم ختمت حياتي بالاندماج في سلك الرهبان ، ولولا سوء حظي الذي أوقعتني في جريمة الغش مرة ثانية ، لظفرت بالفوز ، وإليك قصتي :

لقد وهبني الله مزايا الثعلب ، وحرمني مزايا الأسد ، فقد ذاع صيتي — في العالم الأول — بما عرفت به من أفانين الخداع والغش ، حتى أصبحت بذلك مضرب الأمثال .

فلما اقترب أجلي ، لجأت إلى الرهبان ، ووطنت نفسي على أن أحيا حياة الزاهدين ، وأعيش عيشة النسك طمعاً في عفو الله وغفرانه ، ولكن سوء حظي أبى لي إلا الارتكاس في الخطيئة ، فقد أرغمني أمير الفريسيين على أن أهديه طريق الخداع والغدر ليفتك بطائفة من المسيحيين ، فلم أجرؤ على مخالفة أمره ، واضطرت — بعد تردد — أن أهديه أسوأ سبيل للخداع حتى ظفر بخصوصه . فلما قضيت نحبي جاء القديس « فرنسوا » ليرفعني إلى السماء ، فاعترضه أحد الزبانية السود ، وخطبني منه قائلاً : « لقد غش في النصيحة ، فحقت عليه اللعنة ، وكان من الهالكين . »

ثم سرنا إلى الحلقة التاسعة حيث يعذب الداعون إلى الشقاق والخلاف ، والحاملون ألوية العصيان الأهلي والديني والخلقي ، وذوو البدع الضارة .

(١) كان « عولس » و « ديوميد » قد فكرا مع غيرهم من أقطاب اليونانيين في فتح « طروادة » وقد نجحت حيلتهم بفضل الجواد الخشبي الذي اختبأ فيه المقاتلون ، وقد عني « دانتي » بهذه الجملة أن العنصر الروماني الذي انحدر من « إينيه الطروادي » يرجع أصله إلى هذه الخدعة التي كانت مقدمة لتدمير « طروادة »

(٢) يعني « نجل مينو » وقد فصلنا قصته في أسطورة « بطل أثينا » وهي إحدى « أساطير العالم للإطفال » التي أظهرتها مطبعة المعارف وهذا العجل النحاسي ، قد أهدها صانعه إلى أحد الولاة في صقلية ليعذب مخالفيه بالنار فيه ، فكان أول ما فعله ذلك الطاغية أن أصلى الصانع بناره في ذلك العجل الذي صنعه وكانت هذه أول تجربة أفتمت الوالي بفناسة هذه الهدية وصلاحيتها لتنفيذ آرايه الشريرة .

ورأينا كيف شوهدت أجزاءهم وقطعت تقطيعاً ، وكيف فصلت بعض تلك الأجزاء عن بعض ، جزاء لهم على ما فرقوا بين الناس ، وعقاباً على ما بذروا من شقاق .

فلما بلغنا الحلقة العاشرة حيث يعاقب المزيفون ، سمعنا أنينهم وتفجعهم وشمنا الرائحة المنتنة منبعثة من مقرهم ، ورأينا من بينهم « جريفولينو » و « كابوكيو » وقد مال أحدهما على الآخر ، بعد أن نخر البرص في أجزائهما ، وأبلاها الحلك الدائم ، فقد كانا ينشبان أظافرهما في لحمهما فيهرثانه من شدة الحلك ، كأنما يقطعانه بسكين ، فلما سألتهما عن أمرهما انفصل كل منهما عن الآخر ، ثم قال « جريفولينو » : « لقد حق على العذاب لأنني اتخذت من الكيمياء وسيلة لتزييف الأحجار الكريمة في الدار العاجلة » ، وقال « كابوكيو » : « أما أنا فقد ضربت بي الأمثال - كما عرفت - في الغش والتزييف وقلب حقائق الأشياء . »
ورأينا روحاً شديد الهياج ، ثائر الثائرة ، فلما سألت عنه عرفت أنه روح « ميرا » العاهرة^(١) .
ورأينا هالكاً حَبَنطَى وهو يلهث من انتفاخ بطنه وشدة ظمئه إلى الماء ، وقد علمت أن هذا الخاطيء هو « آدم دى بريشا » الذي زيف النقود التي سكتها جمهورية « فيرنزه »^(٢) ، فلما سألت عن أمره قال لي محزوناً : « لقد ظفرت في حياتي بكل ما اشتتهته نفسي من لذائذ الأطعمة والأشربة ، ثم حرمت الآن كل شيء ، وأصبحت تتمثل لي تلك الحقول النضيرة ، وما تحويه من جنات وعيون ، فأتشهى قطرة واحدة من تلك الأمواه العذبة لأبل بها ريقى فلا أجد إلى ذلك سبيلاً ، وقد احترق جوفى من شدة الظأ ، فقلت له :

« خبرنى من هذان التاعسان المتجاوران اللذان ينبعث منهما هذا الدخان ؟ »

فقال : « لقد وجدتهما هنا أول ما جئت ، ومنذ رأيتهما إلى الآن لم أشهد لهما حركة ، وما أظنهما يتحركان طوال الأبد ، أحدهما هي تلك الخلوقة الخائنة التي اتهمت « يوسف الصديق »^(٣) بأنه اشتهاها ، والآخر هو « سينون »^(٤) الماكر الخادع ، يونانى طروادة . وقد أرهقتما الحمى وألهبت جوفيهما ، فأذهلتما من شدة العذاب الأليم . »

(١) هي بنت ملك قبرص التي هامت جنوناً بعشق أبيها ، ثم دفعها الشهوة الجالحة إلى تدبير مؤامرة خسية لفضاء وطرها ، فانفقت مع مريبتها على أن تظفرها بربتها في جنح الظلام الحالك ، ولكن أمرها قد عرف بعد أن تم لها ما أرادت ، فهربت إلى المشرق حيث مسخت شجرة من النوع الذى يطلق عليه الإيطاليون اسم شجرة « ميرا » (٢) وقد أحرق بفيرنزه عام ١٢٨١ م (٣) هي زوجة « فوطيفار » (٤) سينون اليونانى الذى جاء ذكر خدعته في الألياذة وهو الذى أقنع الطرديانين بقبول الجواد الحشى في مدينتهم « طيرويا »

فضجر أحد الخاطئين بما سمع ، وقد آلمه ما جابهه به « آدم دى بريشا » من أسلوب مهين ، فضرب بطنه المنتفح بجمع يده ، فدوى بطنه كما يدوى الظبل ، وأجابه « آدم » على اعتدائه بصفعة قوية على وجهه ، وهو يقول : « لئن عجزت عن الحركة بجسمى ، فما عجزت يدي عن صفعك ؟ » فأجابه الشيخ الآخر : « لا غرو أن يكون ذلك منك أيها المعذب في النار ، فقد كانت يدك في تزيف النقود أسرع منها في ضربى » فقال له : « الحق ما تقول ، ولقد كنت مزيفاً في شهادتك يوم دعيت في طروادة إلى تقرير الحقيقة »

فقال « سينون » : « لئن زيفت القول لقد زيفت النقود مرات ، ولئن ارتكبت هنة واحدة ، لقد اقترفت من الآثام ما لم يقترفه أى ملعون سواك ! » فقال « آدم » : « أذكر الجواد الخشبي إذ حلفت كاذباً أنك مخلص ، وقد علم الناس جميعاً سوء ما اقترفت من إثم شنيع » فقال سينون اليونانى : « ما أجدرك بما تكابده من حرق الظمأ الذى يبقر بطنك ويجفف لسانك . »

فقال « آدم » : « ما أجراك على الفحش في القول . ولئن أجهدى العطش ، لأنت جدير بما في رأسك من هذيان الحمى »

*
* *

قال « دانتى » :

وكنت أصغى إلى ملاحظتهما بكل ما فى وسعى من انتباه ، فقال لى مرشدى « فيرجيل » هازئاً : « هل وعيت ما سمعت من حديث ؟ لعل كدرت عليك . »

فشعرت بالخلجل ، وانعقد لسانى من الدهول ، وأحس مرشدى ما أنا فيه من الحرج فقال لى : « لا تسرف فى الخجل ، وهون عليك ما تعانیه ، فإن قليلاً مما بدا عليك من الندم يكفى لغفران أضعاف ما اقترفت من ذنب ، فلا عليك ، وما أجدرك أن تسرى عن نفسك ، ولعل فى هذا درساً ينفعك ، فتذكر موقفى منك كلما سمعت مثل هذه الملاحظة المرزية ، فإن الرغبة فى سماع هجر القول تزرى بصاحبها وتخط من قدره ^(١) »

(١) قال المثل العربى : « حسبك من شر سماعه » ، وقال الشاعر : « فسامع الدم شريك له »

فصل السابع

انتهى الشاعران من زيارة أطباق الجحيم ، وأتما تجوالهما في الدرك الثامن ، ورأيا ما حواه من حلقات عشر ، ثم اجتازاه إلى الدرك التاسع ، وعلى حراسته طائفة من المردة الجبابرة . قال « دانتى » : وقد حسبت أن أبراجاً تلوح لعيني ، فقلت لمرشدى : « ترى أى مدينة هذه التى تلوح لنا أبراجها ؟ » فقال « فرجيل » : « أشد ما يخطئ الإنسان فى الحكم على الأشياء إذا بعدت عن ناظره ، كما أخطأت أنت فى توهمك أن ما تراه أمامك أبراج ، وهى ليست إلا أجساد طائفة من العالقة ، ومن عجب أن ما يبدو من أجسادهم لا يزيد على أنصاف قاماتهم ، أما الأنصاف الأخرى فهى غائبة فى آبار سحيفة » فلما قاربتهم ظهر لى صدق ما حدثنى به أستاذى ، وما كدت أنعم النظر فى أحدهم حتى حمدت الله على أن قرض هذا الجنس الجبار الجسم الذى لا يقدر البشر على رد غاراته ، ودفع أذبياته ، فإن ما وهبته العملاق من العقل الإنسانى مع القوة يطغيه ويغريه بالفتك ، ويطلق لرغباته الجامحة العنان ، حتى لا يقدر على دفعه أحد . أما الحيوانات البرية والبحرية الهائلة من أمثال الفيلة والحيتان الكبيرة الجرم ، فقد خفف من أذاها وقلل من بطشها أنها حرمت العقل والتدبير . ولقد استولت على الدهشة والعجب حين رأيت أن نصف هذا العملاق لا يقل عن سبعة أمتار دون احتساب رأسه الضخم العظيم ، وقد جمجم قولاً لم أفهم منه شيئاً ، فسألت مرشدى عن أمره ، فقال لى : « هذا هو العملاق الشرير الذى أوحى ببناء برج بابل ، وكانت فكرته الخبيثة سبباً فى اضطراب الألسن وتفرق اللغات إلى اليوم . وهى أنت ذا تراه يجمجم أفاظاً لا يفهمها كائن كان » .

ثم رأينا عملاقاً آخر ، وقد علمت أنه النمرود الذى أراد أن يبلغ الأسباب ، أسباب السموات ، فهو مقيد فى الأغلال كما تراه الآن .

ثم قابلنا العملاق الهائل « أنتيو » وقد رجا منه مرشدى « فرجيل » أن يُبلغنا أعماق درك فى الجحيم ، فأنحدر بنا إلى أعماق بئر سحيفة ، جوها زمهرير لا توصف شدته وأذيتته ، وقد رأينا فى ذلك الدرك التاسع بركة من الجليد مقسمة أقساماً أربعة ، حيث يعذب فى الدائرة الأولى منها كل من لم يصلوا الرحم وخانوا الأهل والأقارب ، وفى الثانية يعاقب كل من جحد

وطنه وخان بلده ، وفي الثالثة الغادرون الذين خانوا الصداقة وجحدوا الأصدقاء ، وفي الرابعة ناكرو الجميل الذين جزوا الإحسان بالاساءة ، وكفروا بنعمة من أسدوا إليهم حسن الصنيع .
ففي الحلقة الأولى ، بينا أسير مع مرشدى فى مكان منخفض ، إذا بصوت مستغيث خائف يصيح بى قائلاً : « حذار أن تخطو بعد هذا ، وتبين موطئ قدمك ، حتى لا تطأ رؤوس أبناء جنسك من المعذبين الخاطئين » فأنعمت النظر ، فرأيتنى ماشياً على سطح البحيرة الجليدى ، وهو أقرب إلى الزجاج الصفيق منه إلى الماء الرقراق .

وقد رأيت محدثى ورفاقه غائصين فى ذلك الجليد بحيث لا يبدو منهم غير وجوههم ، وقد اصطكت أسنانهم من شدة الزمهرير ، وكان الخطاة يسكبون العبرات ، فلا تلبث أن تتحول ستاراً صفيقاً من الجليد .

وما كدت أبلغ منتصف الحلقة ، حتى وطئت قدمى وجه أحد العصاة ، وما أدرى كيف تم ذلك ؟ وهل كانت مصادفة أم قضاء وقدرًا ، أم كانت مشيئة الله قد ألهمتنى ذلك للعظة والاعتبار ؟ فصيح الخاطئ محزوناً باكياً : « ما بالك تسحق رأسى ؟ أجئت هنا لتزيد فى قصاصى وتضاعف من عذابى ؟ أم أردت الانتقام منى بما يُرى على خيانتى ^(١) ؟ »
فقلت لمرشدى : « تريث — يا سيدى — هنيهة حتى أحسم الشك فى أمر هذا الروح ، ثم عجل بسيرك ماشئت ! » فوقف دليلى ، وتماذى ذلك الروح فى التأفف والسخط بشناعة شديدة ، فقلت له : « من أنت أيها المتسخط الشتام ؟ » فقال لى : « بل خبرنى من أنت أيها القادم إلى هذا الدرك السحيق من الجحيم ، وعرفنى ماهيتك أيها الضارب وجوه التاعسين فى قسوة وعنف ، حتى لحسبتك من أشداء الأحياء فى الدار الأولى ؟ » فقلت له : « ما عدوت الصواب فى أمرى ، فإننى ما زلت حياً ، وسأذيع اسمك فى قصيدى — إذا كنتَ راغباً فى الشهرة — وأكتب لك خلود الدكر متى عدت إلى العالم الأول » فقال : « بل أريد عكس ما تقول ، فاعزب عنى ، واذهب لطيتك ، ولا تزد بهذا القول الآمى وأحزانى ، فإنك لا تحسن التليق والمداهنة فى هذا المستنقع السحيق ! »

(١) يعنى : هل أردت أن تجعل تكفيرى عن خيانتى أشد قسوة من تلك الحيانة نفسها التى اقترقتها فى « متابرقى » ؟

فأمسكت بجلدة عنقه ، وصحت فيه قائلاً : « لا معدى لك عن إخبارى باسمك ، وإلا انتزعت من جلدة رأسك ما فيها من شعرات ! » فقال : « ما دمت تنزع شعرى ، فافعل ، وأيقن أنني لن أخبرك بشيء من أمرى ، ولو أهويت على رأسى بألف ضربة » .
وكنت قد لففت شعره على يدي ، وانتزعت منه أكثر من خصلة ، وهو يعوى مُصَيِّحًا وقد خفض من عينيه ونكس من رأسه حتى لا أتبينه . فصاح به مذنب آخر : « ماذا أصابك »
« يا بوكا^(١) . » ألا تكف عن الصياح ؛ ما كفاك صرير أسنانك ، حتى تزعجنا بصوتك المنكر ، فأى شيطان مسك ؟ »

فقلت له وقد عرفت حقيقة أمره : « لا حاجة بي إلى حديثك أيها الخليث الخائن ، وإني مذبح عنك — فى الدار الأولى — ما عرفته من أنباتك فى هذه الجحيم » فقال :
« اذهب حيث شئت ، وارو من أنبأى ما أردت ، ولكن لا تنس أن تسجل عار هذا الذى كشف لك أمرى ، وأفضى إليك باسمى ، متى عدت إلى مقرك الأول ، انظر إليه تجده محزوناً يبكي تقود الفرنسيين التى أخذها منهم جزاء على خيانتة ، فحدثت بنى الدنيا أنك شاهدت فى درك الجحيم « دويرا^(٢) » يعذب فى أطباق الجليد . وإذا شئت غيره ، فهناك « بكييرا^(٣) » الذى قطع أهل « فيرنزة » حلقه جزاء له على فعلته . »

ثم ذكر أسماء جمهرة من الخونة ، وسرنا فى طريقنا حتى رأينا شبحين يطلان من ثقب واحد وقد لاح الرأسان بحيث يخيل لرائيهما كأن أحدهما قبعة للآخر ، فقد رأيت رأس أحدهما فوق رأس الآخر وهو يقضمه فى شره كما يقضم الجائع الخبز وينشب مخالبه فى مكان التقاء المتخ والتقا « فذكرت قصة « تيديه » الذى لم يقنع باقتراس « ميناليب^(٤) » بل جره الغضب إلى أن يفعل بجمجمة خصمه مثل ما يفعل هذا الغاضب الخانق .

(١) « بوكشا دجلى أبانى » كان من أهل فيرنزة ، وقد قطع فى معركة « منتابرتى » ذراع حامل العلم ، وخانه بذلك وهو من حزبه وشيعته ، ولم يأل جهداً فى هزيمة ذلك الحزب الذى انتسب له .
(٢) « بيوزو دى دويرا » وهو سيد كريمونى ، خان جبليين لمبارديا ليحصل على مال « جونى دى منقور » الرئيس الفرنسى جزاء ما اقترفه من خيانة واثم . (٣) كان « تيشودى بكييرا » كرنالاً قد بعثه البابا « اسكندر الرابع » إلى فيرنزة ، وقد ثار عليه الشعب وقتك به ، لاشتباههم فى أنه سيسلم المدينة للجبليين ، وقد صلبوه عقوبة له على ذلك . (٤) بعد أن قتل « تيديه الكالودونى » خصمه « ميناليب الطيبى » دفعه الغضب والحرق إلى حد بعيد ، فأنشأ يأكل جمجمته من شدة غيظه منه .

فقلت له : « خبرني أيها الهاجج الذي جره الغضب إلى الوحشية ، أفصح لي عن سبب هذا الهياج ومصدر هذه الثورة الجارحة الفاتكة ؟ لعلني أتبين لك عذراً فيما تفعل ، وأتعرّف مبعث شكائتك من خصمك ، ثم خبرني أي خطيئة اقترفت في الدار العاجلة ، فحق عليك هذا العقاب ؟ »

فرفع الخاطي فاه عن رأس فريسته ، ومسحه في شعر ذلك الرأس الذي أكل مؤخرته ، ثم التفت إلى قائله : « أتريد أن تعيد إلى ذهني تلك الذكريات الأليمة المحزنة ، فتجدد في نفسي ذلك الألم المفرط الذي ينقبض له قلبي ، وتزهق منه روحي ؟ على أن عزائي عن هذا الألم القاتل أن حديثي عن هذا الخائن سيفضح لك من أمره ويكشف لك من مخازيه ، ما يبرر تمثيلي به . ولايهولنك أنني أتكلم وأبكي في وقت واحد ، فإن الذكريات جد مؤلمة : لست أعرف من أنت ، وما أدرى كيف قديمت علينا في هذا الدرك من الجحيم ؟ ولكن يبدو لي من جرسك ولهجتك أنك من أهل فيرنزة ، فاعلم أنني كنت — في الدار العاجلة — الكونت « أجليينو » أما هذا الذي فهو « روجيري » رئيس الأساقفة ، وإني لقاص عليك السبب الذي جمع بيننا في هذا الدرك السحيق من النار . لقد أمكنته الفرصة مني ، وتم له القبض على ، لفطتني به ، وأبت له خيانتته وخبث طويته إلا أن يتنكر لي ، أعظم ما أكون ولاء له واستيثاقاً منه ، ثم أفعد في قضاءه ، وتم هلاكى على يديه كما عرقتم ذلك في الحياة الدنيا ، ولكن الشيء الذي لم تعرفوه ، والأمر الذي خفيت عنكم تفاصيله هو : كيف أمعن في القسوة ، وإلى أي مدى أساء إلى هذا الرجل : لقد حبسني في « حصن الجوع »^(١) وإنما أطلقتم عليه هذا اللقب لأنني هلكت وأولادى فيه جوعاً ، ولقد أبصرت القمر — من خلال نافذة غرفتي الصغيرة — عدة أهلة متعاقبة ، فعلمت أن قد مضى على في سجنى

(١) كان الكنت « أجليينو دلاجيرار دسكا » أحد نبلاء « بيز » وقد استولى على هذه المدينة بوسيلة خائنة ، وذات يوم اختلف مع شريكه في خيانتته الأسقف (روجيه) وكان صفيه المحتبي ، فكاد له الأسقف حتى أوقعه في الفخ وقبض عليه وعلى ولديه ، واثنتين من أولاد شقيقه ، وبعد أن لبثوا في السجن سبعة أشهر في أحد بروج (بيز) ، صدر أمر الأسقف (روجيه) ذا صباح بالفاء مفاتيح البرج في (لارنو) فتم له ما أراد ، وهلكوا جوعاً .

عدة أشهر . ثم رأيت حلما رابعاً ، هتك من الغيب ستره ^(١) ، وما كدت أستيقظ قبيل الصبح حتى سمعت أولادى يبكون فى رقادهم ، ويطلبون منى خبزاً . فاسمع قصتى فإنك إن لم تتفجع وتنتحب مما أفضى به إليك ، فلن يثريك بعد ذلك شىء من مبكيات الحياة ونجائع الناس .

لقد استيقظنا — كما حدثتك — ثم دنت الساعة التى أُلِفوا أن يقدموا لنا الطعام فيها ، وقد ساورنا الشك فى ذلك اليوم ، لأن كل واحد منا قد رأى تلك الرؤيا عينها ، ثم صح ما توقعناه ، وسمعنا صرير الباب الخارجى أعنى باب البرج الراهب وهو يغلِق علينا ، فنظرت إلى وجوه صغارى دون أن أنبس ببنت شفة ، وتمجرت الدموع فى عيني ، فلم أذرف دمعة واحدة ، فقد جل مصابى عن البكاء ، واستولى على الألم والانزعاج فى أعماق نفسى . أما أولادى فقد استسلموا للبكاء ، ثم قال لى « أنسلمو » — ولدى الصغير — : « ما بالك يا أبتاه تنظر إلينا هذه النظرات الحائرة المزحجة ؟ » فلم أجبه بكلمة واحدة ، ولم أذرف دمعة واحدة .

ثم طلعت شمس اليوم التالى على الكون ، ونفذ منها شعاع ضئيل إلى سجننا الموحش ، وتبينت وجهى على قسما ت تلك الوجوه الأربعة ، فعضضت يدى متألماً ، فحسب أولادى أننى أُمُّهم بأكلها من السغب ، فهبوا — من فورهم — واقفين ، ثم قالوا : « ألا ليتك تأكل من لحمنا ، لتطفى سورة الجوع ، فإنك أنت قد كسوتنا هذه اللحوم الناعسة ، فهى ملك لك ، لأنك واهبها ، ولك أن تنزعها متى شئت . » فلجأت الى السكينة ، واعتصمت بالهدوء ، حتى لا أزيدهم ألماً على آلامهم ، وظلنا صامتين طوال ذلك اليوم واليوم الذى وليه . فتبنا للحياة ، وواهاً من قسوة العالم الأرضى ، فما أدرى لماذا لا تتشقق الأرض فتهوى بمن عليها إلى جوفها ، قبل أن أرى مصارع أبنائى دون أن أملك لمناياهم دفعاً .

ولما جاء اليوم الرابع ، جاء ولدى « جادو » وانبطح على الأرض عند قدمى ، ثم قال وهو خائر القوى ، واهن العزم : « هل من سبيل إلى معونتك يا أبتاه ؟ »

ثم فاضت روحه صاعدة إلى السماء . ثم شهدت مصارع الثلاثة الباقين واحداً فى أثر الآخر فى اليومين الخامس والسادس ، فَعَشَى بصرى عليهم من فرط الأسى والحزن . ولَبِثْتُ يومين

(١) هنا يقص الكنت (أجلبنى) على الشاعر (دانتي) حلمه الذى رأى فيه عدوه الأسقف (روجيه) وهو يستولى عليه وعلى أولاده ، وقد تمثل له فى الحلم على هيئة ذئب وتمثل ولديه ولدى شقيقه على هيئة ذئاب صغيرة ، وقد أغرى بهم الأسقف جمهرة من الكلاب تهشمهم وتمزق لحومهم .

أناديهم — بعد موتهم — فلا أسمع لندائي جواباً ولا أحس لهم نامة ، ثم ألح على الجوع ، وبرح بي الطأ ، فأسامت روحي بعد عذاب أليم .

✱ ✱

وما كاد « الكونت » ينتهي من حديثه حتى احتدمت عيناه غيظاً ، واندفع إلى الجمجمة التاعسة يسك بها بين يديه ، ويفرز فيها أنيابه حتى تبلغ منها العظام ، وقد لاحت أسنانه قوية محددة كأنها هي أنياب كلب ، ثم صاح يقول لاعناً مُحَنَقاً :

« واهٍ منك يا « ييزى » ! واخجلتاه لسكانك أيُّ هذا البلد الجميل الذى يرى — فى أنحائه وأفيائه — الجرس الإيطالى ، ولعنة الله على أهليك وجيرتك ما داموا متباطئين فى عقابك على ما أسلفت إلى من قسوة وأبلغت إلى من عقوق وكفران ! ألا ليت جبلى : « كبرياً » و « جرجوناً »^(١) ينطبقان فيقفلان باب نهر « الأرنو » — عند مصبه — ليطغى عليك ماؤه ، فيغرق كل من فيك ، ويهلك أبنائك وساكنيك ، لأن الكونت « أجلىنو » إذا كان قد أسلف خيانة إليك ، واشتهر عنه أنه قد باع حصونك وأسلم قلاعك ، لقد كان وحده جديراً بالعقاب . أما بنوه الأبرياء فأى ذنب أسلفوه إليك حتى استحقوا ذلك القصاص الرابح المُفَرِّع ؟ وما بال طفولتهم الطاهرة لم تشفع لهم عندك ؟ »

✱ ✱

قال « دانتي » :

ثم انتقلنا إلى المنطقة « البطلمية »^(٢) ، حيث تتجمد عبرات المذنبين وترتد إلى عيونهم ، فتضاعف من آلامهم .

وقد حدثت — من بينهم — « البريجو »^(٣) ، فقال لى : « إنه يلقي من أهوال الجحيم ما يلقي جزاء له على غدره بخصميه ، كما حدثنى أن جسده لا يزال حياً فى الدار الأولى حيث يحل فيه أحد الأبالسة حتى يمخن يومه ، فيموت . أما روحه فإنه انتقل — قبل موت الجسد — إلى هذا الدرك من النار ، ليعجّل له العذاب .

(١) جبلان قريبان من مدينة « ييزى » ، الواقعة على نهر « أرنو » . (٢) نسبة الى بطلموس حاكم « أريحا » ، وقد غدر بضيفه وولدى ضيفه ، وقتلهم — بعد أن أكلوا طعامه — تفتيلاً ، ومزق أجسادهم بلا رحمة (٣) هو راهب معروف بقتل خصميين له بعد أن احتال على دعوتهما الى الطعام فى بيته .

الفصل الثامن

ثم انتهى بالشاعرين « دانتى وثرجيل » اللطاف إلى « منطمة يهوذا » وهى آخر منطمة فى أقصى درك سحيق من دركات الجحيم ، وقد غطيت كلها بالجليد الصفيق بحيث يكتنف المعذبين فيها من العصاة ، وقد خصت بعقاب الخونة الذين خاسوا بعهودهم ، وآثروا أن يغدروا بين أحسنوا إليهم ، وقد حل فى هذه المنطمة — واسمها مدينة الويل^(١) — الخاطئ الأكبر : « إبليس » قال « دانتى » : وقد أوصانى مرشدى بالشجاعة والصبر حين اقتر بنا من ذلك المكان ، ولا تسلىنى — أيها القارئ — عما أحسسته من الزهير ، فانهقد لسانى من الهول ، وجد الدم فى عروقى من فرط الفزع ، فإن كل بيان — مهما علا — ليعجز عن وصف شئ منه ، وإن كل تعبير — مهما دق — تافه حقير إذا تصدى لوصف هذا الهول . لقد كنت — حينئذ — فى منزل بين الحياة والموت ، وحسبك بين حرم الموت والحياة جميعاً ، ومثل لنفسك — ما دمت على شئ من التفكير ، وما دامت لك مُسكة من عقل — كيف تكون حالى فى ذلك المأزق الحرج ؟

لقد رأيت امبراطور مملكة الويل قد غاص فى الجليد إلى منتصف صدره ، ثم ظهر — من الجليد — ما بقى من جسمه بعد ذلك . ولئن كان البون التاسع بينى وبين من وصفت — للقارئ — من العالقة ، يحول دون الموازنة بيننا . لقد كان الفرق بين أولئك المردة من العالقة وبين ذراعى هذا الخاطئ الأكبر ، بحيث لا تجوز النسبة بينهم وبينه ، ولا يدنو قياسهم بالنسبة إلى تين الذراعين .

ولقد كان هذا الخاطئ أول ما كان جميلاً ، فلما حقت عليه العنة — بعد أن ثار على مشيئة خالقه — أصبح راعب الهيئة ، مُفزع الخلق ، جديراً بأن تصدر عنه الكوارث والنكبات ، ولشد ما استولت على الدهشة حين رأيته يلوح لعينى وفى رأسه وجوه ثلاثة ، الوجه الأول الأمامى أحمر ، والوجهان الآخران — وقد ركبا على جانبي الرأس ، وثبتتا على كتفيه —

(١) أطلق عليها (دانتى) اسم (ديته) وقال انها عاصمة الجحيم ، وقد آثرنا هذه التسمية العربية لها

أحدهما أبيض ممزوج بالصفرة ، والثاني أسود ، شبيه بوجوه قاطنى منابع النيل^(١) ، وقد اجتمعت هذه الثلاثة فى أعلا الرأس ، وبرز — على كل وجه منها — جناحان كبيران ، كأجنحة الطيور ، وقد خيلت لرائها أنها قلاع سفائن هائلة لم أر — فى حياتى — مثلها ضخامة وعظما . ولم يكن فى تلك الأجنحة ريش ، فقد كانت أشبه شىء بأجنحة الخفافيش ، رقة وشكلا وتركيبا ، وكان روحه يديرها ، فتنبعث منها تيارات هوائية ثلاثة غاية فى الشدة ، فيجمد منها نهر الجحيم^(٢) ، وكان ذلك الروح الخاطى يبكى بأعينه الست فتنحدر عبراته الدامية حتى تصل إلى أذقانه الثلاثة محتلطة بما يلقاها من دماء مزبدة مفزعة . وقد رأيت أنيابه المحددة الكبيرة الجرم وهى بارزة من أوجهه الثلاثة ، كما برزت أظفاره كأنها المخالب ، ليفترس بها جميعاً من أوقعه سوء طالعه فى قبضته . وقد رأيت فى كل فم من أفواهه الثلاثة ، عاصياً من الأشقياء ينشب « إبليس » فيه أنيابه القوية بعد أن يمزق جسمه بأظفيره ، فيمزق جلده الذى يغطى السلسلة الفقرية ، ثم يسحقه بماضيه وهما كالطاحونة .

وقد رأينا فى أحد أفواهه الثلاثة « يهودا الأسخريوطى^(٣) » وقد اختفى رأسه بين أنياب « إبليس » وظهرت ساقاه وهما تتحركان فى الخارج مما يكابده من الآلام .

ورأينا فى الفم الثانى روح « بروتس » وهو يعذب أشد العذاب ، دون أن ينبس ببنت شفة . كما رأينا فى الفم الثالث « كاسيوس^(٤) » الضخم .

وكان الليل — حينئذ — قد أرخى سدوله فرأينا مغادرة الجحيم ، بعد أن رأينا كل شىء .

ختم

(١) يعنى أهل (أثيوبيا) .

(٢) أطلق (دانتي) على هذا النهر : اسم (الدوكيت) وهو نهر تصفه الأساطير بأنه نهر الجحيم وقد أطلقنا عليه اسم الجحيم ، وفى القرآن فى صفة أهل النار : « لا يذوقون فيها برداً ولا شرباً ، إلا حمياً وغساقاً » وفيه : « ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الجحيم » .

(٣) هو تلميذ المسيح الذى خان عهده ، وباعه لأعدائه لقاء دراهم معدودة .

(٤) بروتس وكاسيوس : هما قاتلا يوليوس قيصر ومؤبلا جوع الرومان ضده .

دراسة النقاد

كان من صنيعنا في الطبعة الثانية لرسالة الغفران أننا ذيلناها بجملة صالحة مما كتب الباحثون في أدب أبي العلاء ، وعقيدته ، وفلسفته ، وخصائصه في نظمه ونثره . فلما صحت العزيمة على إخراج هذه الطبعة ، كان في النية والأمنية أن نفتح الباب على مصراعيه لكل ما جرت به الأقلام حديثاً عن أبي العلاء ، ودرسا له في غفرانه . فلقد تفتحت له الأذهان في هذه الأيام ، وعرف قراء الأدب له مكاتته الجدير بها . فأردنا أن تكون هذه الطبعة من الكتاب «مجموعة علمية» تبلغ الغاية ، وتشتمل على الممتع المعجب من آرائه في الحياة واللغة والأدب . كما تشتمل على الصفوة من آراء النقاد في صاحب تلك الآراء . ولكننا لم نكد نبدأ في إنفاذ ما اعتزمناه ، حتى هالنا الأمر ، إذ وجدنا هذه البحوث والدراسات تخرج — إن خرجت — مئين أوراقاً ، فليس يسعها إلا سفر ضخم أو سفران . على حين أننا لم نجس عليها أكثر من صفحات معدودة ، فلقد آثرنا أن نفسح المجال للنصوص من رسائل أبي العلاء وما يتصل بها ، مما كان مخطوطاً أو في حكم المخطوط ، فذلك أنفع للقارئ ، وأحق بإيثاره . إلا أننا مع هذا لم نجد بدءاً من نشر أمثلة قليلة مما أخرج الكتاب المعاصرون ، دون أن نحمل من تبعه ما قيل من الآراء شيئاً ، فنحن إنما نشرها لأصحابها ، لا نبالي أن تكون موافقة لآرائنا أو مخالفة لها . ونفتتح ذلك بترجمة لابن القارح بقلم أحد معاصريه ، وترجمة لأبي العلاء كنا كتبناها من قبل ونشرناها في الطبعتين الأولى والثانية :

ترجمة ابن القارح (١)

هو شيخ من أهل الأدب شاهدناه ببغداد راوية للأخبار ، وحافظاً لقطعة كبيرة من اللغة والأشعار ، قوِّوماً بالنحو ، وكان ممن خدم أبا علي الفارسي في داره — وهو صبي ، ثم لازمه وقرأ عليه — على زعمه — جميع كتبه وسماعاته ، وكانت معيشته التعليم بالشام ومصر . وكان يحكى أنه كان مؤدباً لأبي القاسم المغربي الذي وزر ببغداد — لقاء الله سيء أفعاله — كذا قال ، وله فيه هجو كثير — وكان يذمه ويعدد معايبه

(١) بقلم « ابن عبد الرحيم » أحد معاصري ابن القارح وقد ذكر هذه الرواية ياقوت في معجمه

وشعره يجرى مجرى شعر المعلمين ، قليل الحلاوة ، خالياً من الطلاوة ، وكان آخر عهدي به بتكريت في سنة ٤٦١ ، فإننا كنا مقيمين بها واجتاز بنا ، وأقام عندنا مدة ، ثم توجه إلى الموصل ، وبلغتني وفاته من بعد . وكان يذكر أن مولده بحلب سنة ٣٥١ ولم يتزوج ولا أعقب ، وجميع ما أورده من شعره مما أنشدنيه لنفسه ^(١) .

وسئل يوماً أن يميز قول الشاعر :

لعل الذي تخشاه يوماً — به تنجو ويأتيك ما ترجوه من حيث لا ترجو

فقال :

فتق بحكيم لا مرد لحكمه فما لك في المقدور دخل ولا خرج

وحدثني ، قال :

« كنت أودب ولدي الحسين بن جوهر القائد بمصر ، وكان مختصين بالحاكم وأنسين به ، فعملت قصيدة وسألت المسمى منهما جعفرًا — وكان من أحسن الناس وجهًا ، ويقال إن الحاكم كان يميل إليه — أن يوصلها ، ففعل وعرضها عليه ، فقال : « من هذا ؟ » فقال : « مؤدبي »

قال : « يعطى ألف دينار »

واتفق أن المعروف بابن مقشر الطيب كان حاضرًا ، فقال : « لا تتقلوا على خزائن أمير المؤمنين ، يكفيه النصف » فأعطيت خمسمائة دينار ، وحدثني ابن جوهر بالحديث .

وكانت القصيدة على وزن منهوكة أبي نواس أقول فيها :

إن الزمان قد نصر بالحاكم الملك الأغر

وهي طويلة ^(٢) ، واتفق أن الطيب المذكور لحقته بعد هذا بأيام شقفة — وهي التي

(١) وذكر له ابن عبد الرحيم نخبة من شعره ، لا نرى التطويل بذكرها ويمكن الرجوع إليها في الجزء الخامس من معجم الادباء لياقوت من ص ٤٢٥ — ٤٢٧ (٢) ومنها — وهي من أدب الصنعة: —

في كفه غضب ذكر
من غرة على الفرر
في سرعة الطرف نظر
بدر انفاق البدر
فقد عدا على القصر
يمضي كما يمضي القدر
أو السحاب المنهمر
بدرًا — إذا لاح — بهر

تسمى « التراقي » ويقال لها « قملة النسر » أيضاً فمات منها ، وكان نصرانياً ، فقلت :
لما غدا يستخف رضى تيهاً وكبيراً لجمد ربه
أصاهُ صرف الردى ، بسهم عاجلهُ قبل وقت نجبه
بشفقة بين منسكبيه رشاؤها في قلب قلبه . اه .

✱
✱

ذلك ما قاله ابن عبد الرحيم ، ولنا أن نقول : إن هذا شعر مملوء بالصنعة ، لا روح فيه ،
وهي سمة ظاهرة في كل ما قرأناه من شعر ابن القارح إذا استثنينا القليل منه ، كما جازته
قول الشاعر :

لعل الذى تخشاه يوماً به تنجو ويأتيك ما ترجوه من حيث لا ترجو
وليس إعجابنا بذلك كبيراً .

وموجز القول أن ابن القارح ذكى — لا أكثر ولا أقل ، ولكن ذكاه سطحى يشركه
فيه انكثيرون ، فهو ليس مفكراً عميقاً ولا هو واسع الاطلاع ، ولكنه ثثار طيب القلب ،
وربما كان أوجز ما يقال فيه أنه معلم صالح للوظيفة التى مارسها ، وهى تأديب أولاد الملوك
فى عصره ، وهذه صناعة لا تتطلب من الذكاء أكثر مما نراه فى ابن القارح .

صوهر ترجمته أبى العلاء

- (١) اسمه : أحمد ، وكنيته : أبو العلاء واسم أبيه ، « عبد الله بن سليمان المعرى »
واسم بلد : معرة النعمان ، وهى قرية صغيرة فى شمال سوريا بين « حلب » و « حمص »
- (٢) ولد قبل مغيب شمس يوم الجمعة وهو الثامن والعشرون من ربيع الأول
سنة ثلاث وستين وثلاثمائة هجرية — وهى توافق سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة للمسيح
- (٣) وفى السنة الرابعة من حياته (٣٦٧ هـ) أصيب بالجدري ، فكاد يودى بحياته ،
ولم يغادره حتى ذهب بعينه اليسرى وغشى اليمنى بالبياض ، ثم بالعمى ، وبهذه الحادثة تمت
أول نكبة أعدها له الزمن ، فكان لها فى حياته أكبر الأثر

(٤) ذهب إلى الدراسة في حلب بعد أن أتم الدراسة على أبيه - وكانت حلب في زمنه مكتظة بأفاضل العلماء ورجال الأدب ، ممن دعاهم سيف الدولة في زمنه ، وأغدق عليهم النعم ، فهاؤا حلب علماء ، في زمنه و بعد موته ، فانتفع بعلمهم أبو العلاء

(٥) ثم سافر إلى « إناطكية » ووعى ماشاء من نفائس الكتب التي وجدها في مكتبتها الشهيرة ، وكان بها كثير من الروم ، الذين شاهد أبو العلاء صولتهم واعتزازهم بها

(٦) ثم سافر إلى « طرابلس » الشام ، ومر باللأذقية في طريقه ، فنزل بدير فيها ، وأخذ - عن راهب فيه - كان دارسا لعلوم الفلسفة وغيرها كثيراً من الآراء ، واشتدت الصلة بين أبي العلاء وبين النصرارى واليهود ، حتى تمكن من درس دينهم ومناقشتهم فيه ، ثم عاد إلى معرفة النعمان

(٧) ومات أبوه وهو في الرابعة عشرة من عمره سنة ٣٧٧ هـ فرثاه بنونيته المعروفة في سقط الزند ، وهي تمثل شعره في صباه

(٨) ثم رحل إلى « بغداد » سنة ٣٩٨ وذاع بها صيته ، واطلع على مكاتبا الشهيرة ، واشترك في الجامع العلمية والأدبية العامة والخاصة

(٩) ثم دعاه إلى مغادرة « بغداد » مرض أمه وفقره - مع أنفته من التكسب بشعره وأدبه - فتركها في رمضان سنة ٤٠٠ هـ ، واحتفل بتوديعه أهل « بغداد » وحزنوا على فراقه أشد الحزن

(١٠) وإنه لفي طريقه إلى « العرة » إذ وافاه نعي أمه ، فتمت نغمته على الدنيا ، وكانت تلك النكبات الفادحة التي لقيها في حياته ، أ كبر باعث له على الأخذ بقانونه الصارم الذي سنه لنفسه ، وهو اعتزال الناس

(١١) وقد حاول تنفيذ هذا القانون ، فلم يوفق إلى ذلك ، لالتفاف الطلاب حوله ، وإقبال الكثيرين من المعجبين به على زيارته ، ووفودهم إليه من بلاد نائية ليتلقوا عنه العلم

(١٢) وكان له وقف يحصل منه كل عام على ثلاثين ديناراً يعطى خادمه نصفها وينفق على نفسه النصف الآخر ، وكان فقيراً متقشفاً زاهداً لا يمدح أحداً طمعاً في مال أو جاه ؛ يأكل الشعير ويلبس الصوف الغليظ

(١٣) وهو أول من خط للشعر العربي طريقاً جديدة فلسفية خاصة به ، وملاً شعره بأسمى المبادئ الاجتماعية والأدبية العالمية ، التي انفرد بها — دون سواه — من بين شعراء العربية جميعاً

(١٤) نَيَّف أبو العلاء على الثمانين سنة ، ثم أودت به علة لازمتها أياماً ثلاثة ، وكان موته في اليوم العاشر من ربيع الأول سنة تسع وأربعين وأربعمائة

مؤلفات أبي العلاء

أما مؤلفاته فعديدة قيمة، ولكن أكثرها قد فقد لسوء الحظ ولم يبق لنا منها إلا سقط الزند ، ويحتوى شعره في عهد الشباب — وليس فيه إلا بضع قصائد بلغت الذروة في الإجابة ، أما الباقي فأكثره متكلف سخيف أفسدته المبالغات والتقليد ، وقد اعترف بذلك في مقدمته . وكتاب اللزوميات ، ويعد في نظرنا أنفس ديوان عربي ، ويشمل جمهور الفلسفة العلائية الرائعة ، رغم ذلك القيد الثقيل الذي أخذ به نفسه ، وهو مضاعفة القافية ، وديوان الدرعيات ، وهو خاص بوصف الدروع ، ورسائله التي أثبتنا طائفة منها في هذه المجموعة ، ورسالة الغفران ، والجزء الأول من الفصول والغايات ، وكتاب « الأيك والغصون » الذي نيفت أجزاءه على المائة ، وقد فقد كله ، ولا يعلم إلا الله وحده مقدار الخسارة العظيمة ، بل النكبة الفادحة التي ألمت بالأدب العربي من جراء فقد هذا الكتاب الذي أخرجه ذلك الرأس المفكر العظيم ، ولسنا نرتاب فيما قالوه عن محتوياته ، فإن الذي يجيب صاحباً له برسالة كرسالة الغفران ، ويقول في مقدمة لزومياته : « كان من سوائف الأقضية أني أنشأت أبنية أوراق توخيت فيها صدق الكلمة الخ »

إن رجلاً يفعل ذلك ، لا نستبعد عليه — إذا قصد إلى التأليف — أن يخرج للعالم مثل ذلك الكتاب الجليل الشأن !

رسالة الغفران (١)

ولعل أمتع ما كتبه أبو العلاء هو « رسالة الغفران » التي تعد بحق أنفس أثر له — بعد ديوان الزوميات .

وإنما أطلق عليها اسم « الغفران » لأن الفكرة الرئيسية التي دفعته إلى إنشائها — وقت إجابته على رسالة ابن القارح — هي مناقشة من فازوا بالمغفرة ، ومن حرموها في الدار الآخرة ؛ ومما يسترعى انتباهك فيها ، سؤاله — وكثيراً ما كان يوجهه إلى الفريق الناجي : « بم غفر لك ؟ » فيجيبه كل واحد منهم بما نجاه من العذاب ، ويشرح له السبب في دخوله الفردوس ، ويصف له كيف يتمتع به ، وكيف ينعم بدأئه .

وسؤاله الذي كان يوجهه إلى الفريق الثاني — وهو من حقت عليه اللعنة ، وكتب عليه الشقاء — : « لم لم يغفر لك قولك كذا ؟ » فيجيبه أكثرهم عن السبب ، ويشرحون له ما يقاسون من ألم وعذاب ، ويصمت بعضهم لاشتغالهم بما هم فيه من نكال وغصص . وهكذا ألم بطائفة من الحوادث والأسباب ، ومزج الرواية بالدعابة ، والجد بالفكاهة ، والأدب والفلسفة بالنقد الصائب والسخرية الدقيقة .

*
* *

وليس هذا الخيال ، أو تلك الفكرة الفنية التي انتظمت الكتاب فأفردته من بين الآثار الأدبية التي كتب لها الخلود — مما يستغرب من مثل أبي العلاء ذى العقل الراجح ، والبصيرة النفاذة ، والخيال الواسع .

نعم وليس تمثل البعث والنشور ، ونعيم الفردوس ، وتعذيب الأشقياء في الحجم من الأفكار الطارئة التي سببتها رسالة « ابن القارح » أو نبهتها فيه ، ولكنها فكرة متصلة في قرارة نفسه ، نبتت ونمت وتوشجت أصولها ونضج ثمرها في قلبه نحو نصف قرن ،

(١) كتب هذه الرسالة في سنة ٤٢٤ هـ كما مر بك في الجزء الثالث — وهذا من استنتاجنا الخاص — وقد بعث بها إلى علي بن منصور الحلبي ، الملقب بدوخلة ، والمعروف بابن القارح ، ردأ على رسالة كتبها لأبي العلاء ، وألح عليه في ختامها أن يشرفه بالرد عليها .
ورسالة ابن القارح طويلة تحتوي أخبار الكثير من العلماء والأدباء هذا إلى ما اكتظت به من عبارات المدح والاطراء التي صاغها في شكر أبي العلاء . وقد مرت بك في أول هذا الكتاب

فاختلطت بلحمه ، وسيطت بدمه ، وهيمنت على مشاعره منذ حداثة نشأته - حتى أصبحت - من أهم مصادر الفلسفة العلائية .

ولعل أول محاولة رأيناها له - في اكتناه البعث والتردد في قبول الروايات والأخبار المتناقلة ، قوله في مستهل حياته الأدبية ، وهو في الرابعة عشرة من عمره ، في نونيته التي رثى بها أباه ، والتي يقول فيها :

« فياليت شعري ! هل يخف وقاره إذا صار أحد في القيامة كالمهن ؟
وهل يرد الحوض الروى - مبادراً مع الناس ؟ أم يأبى الزحام ، فيستأني ^(١) »

*
* *

وإنك لتلمح الشك يساور نفسه ، التي تتطلع إلى اليقين ، فلا تظفر به ، وتلمس الحقيقة فلا تصل إليها ، فترجع يائسة حائرة - بعد أن وجدت كل معين ناضباً ، وكل ماء سراباً ، وإنك لتجد حيرة من قتل الفكرة بحثاً وقلبها على كل وجه من وجوهها ، وناحية من نواحيها ، فلم يظفر بطائل ، وزاد تفاقم الشك في نفسه الفتية ، فأصبح يتلمس ما يسد به ذلك الفراغ الذي كان يملؤه اليقين فلا يجده . كل ذلك نتمله واضحاً ، في قوله من تلك القصيدة :

جهلنا ، فلم نعلم - على الحرص - ما الذي يراد بنا ، والعلم لله ذى المن إذا غيب المرء ، استسر حديثه ولم تخبر الأفكار عنه بما يغنى
تضل العقول المبرزيات رشدها ولم يسلم الرأى القوى من الأفن

(١) الا ترى اليه كيف لاءم في هذين البيتين بين روعة الموقف ووقار أبيه ، وكيف تردد في أن هذا اليوم العصيب الذي تبدل فيه طبائع الناس من الرزانة إلى الخفة ، ومن العطف على سوام إلى الاهتمام بانفسهم لشدة الهول والفرع ؛ فبصد المرء عن أبيه وأمه وأخيه وصاحبته وبنيه وفضيلته التي تؤوبه ، ومن في الأرض جميعاً ثم ينجي ، أنظر إليه كيف ارتاب في أن هذا اليوم المفرع الهائل مبدل من تؤدة أبيه ورزاقته التي عرفها فيه

انظر إليه كيف لاءم بين هاتين الفكرتين المتناقضتين وكيف جمع بين تمثيل الهول والرعب ، وتمثيل الرزانة والتؤدة !

وأحب أن أنه إلى وصف يوم الموقف في الجزء الثانى من هذا الكتاب ، وكيف يتدافع الناس إلى ورود الحوض ، ليطفئوا غلة العطش الذى أهلكتهم ، وكيف يذودهم الواقفون على الحوض ، ليمنعهم من الوصول إليه !

طلبت يقيناً من جهينة عنهم ولم تخبريني يا جهين سوى الظن
فإن تعهديني لا أزال مسائلاً فإني لم أعط الصحيح ، فأستغنى
وهكذا ظل أمر البعث والنشور ، والجنة والنار ، من أكبر شواغل هذا العقل المخصص
الكبير ، فاكتظت كتاباته وأشعاره بالإشارة إلى ذلك ولم تكدمر به فرصة ، دون أن يشير
إليه إشارة قريبة أو بعيدة ، واضحة أو خفية ، هازئة أو جادة ، ساخرة أو مقررة^(١)

(١) شعر أبي العلاء في البعث

نكتفي باختيار النبتة التالية من أشعاره الكثيرة التي تناول فيها هذه الفكرة ، وهي
— على ما في بعضها من تناقض ظاهري — لا تكاد تختلف في جوهرها :

زعموا أنني سأرجع شرحاً كيف لي ! كيف لي ! وذلك التماسي
وأزور الجنان أحبر فيها بعد طول الهمود في الأرماس !

هي النفس تهوى الرجب في كل منزل فكيف بها ، إن ضاق في الأرض قبرها
أتنى أبناء كثير شجونها لها طرق ، أعيا على الناس سبرها
هنا - دونها - قس النصارى ، وموذاً مجوس ؛ وديان اليهود ، وحرها
وخطوا أحاديثاً لهم في صحائف لقد ضاعت الأوراق فيها وحرها
تخالفت الأشياع في عقب الردي وتلك بحار ليس يدرك عبرها

أما القيامة ، فالتنازع شائع فيها ، وما لحبيثها إحجار
والجهل أغلب — غير علم أننا نفى ، ويبقى الواحد القهار

وأعجب ما نخشاه دعوة هائف : « أتيتم ، فهبوا يا نيام ! إلى الحشر »
فيا ليتنا عشنا حياة بلا ردي — يد الدهر — أو متنا مماتاً بلا نشر

لو كان جسمك متروكا بهيئته — بعد التلاف — طمعنا في تلافيه
كالدن ! عطل من راح تكون به — ولم يحطم — فعاتد مرة فيه
لكنه صار أجزاء مقسمة ثم استمر هباء في سوافيه

ولم يكن يرى حلالهذه المشكلة المستعصية الحل ، إلا وسيلة واحدة مستحيلة التحقيق ،

ويذكر أن في الأيام يوماً* * يقوم من التراب مغيوه
وما يحدث ! فإننا آل عصر قليل في المعاشر منجبوه

ويقال : إن الله — جل جلاله — يوماً ! يطهر أرضه بالنار «

من للدفين بأن يفرج لحده* * عنه ! فينهض — وهو أشعث أغبر
والدهر يقدم ، والمعاشر تنقضى
زعم الفلاسفة الذين تنطسوا
قالوا : « وآدم مثل أوبر ؛ والورى
كل الذى تحكون عن مولاكم
رامت به الأبحار نيل معيشة
العجز تصديق بيمين يحبر
أن المنية كسرهما لا يحبر
كبناته ، جهل امرؤ ما أوبر ؟ «
كذب أتاكم عن يهود يحبر
في الدهر ، والعمل القبيح يتبر

ان يصحب الروح عقلى بعد مظعنها* * وإن مضت في الهواء الرحب هالكة
لموت عنى ، فأجدر أن ترى عجبا
هالك جسمى فى تربى ، فواشجبا

خذ المرأة واستعرض نجومها* * تدل على الحمام — بغير شك —
تمر بمطعم الأرى المشور
ولكن لا تدل على النشور

تخطئنا الأيام — حتى كأننا* * زجاج ، ولكن لا يعاد له سبك

قال المنجم والطبيب ، كلاهما : « لا تحشر الأجسام » قلت : « إلكما »
« إن صح قولكما ، فلست بحاسر ، أو صح قولى ، فالحسار عليكما ! »

فليت الفتى كالبدر جدد عمره* * ولم نر بطن الأرض يلقى لظهرها
يمود هالالا — كلما فى الشهر
رجالا ، كما يلقى إلى بطنها الظهر

حياة كجسر ، بين موتين : أول* * وثان ، وفقد الشخص أن يعبر الجسر

والفقر موت ، غير أن حليفه* * يرجى له تمول إنشار

بعيدة الحدوث ، ولكنها أمنية — على كل حال — من الأمانى التى لا بأس من تحدث

أعلم أنى — إذا حيت قذى *
كم من رجال جسومهم عفر *
وأنى — بعد ميتتى مدر *
تبلى بهم ، أو عليهم الجدر *

رب روح كطائر القفص المسجون ، ترجو بموتها التسريحاً
فروحكم يبطل — شيمة الحشر — فهلا ، لا أوتر التفريحاً
كيف لى أن أكون فى دارى الأخرى ، معافى من شقوة مستريحاً
عجبا لى ! أعصى من الجهل عقلى ويظل السليم عندى جريحاً !

لا نعلم الموتى تهم بكرة *
لكن أحياء تروم لحاقاً *

يكر موتانا إلى الحشر — إن *
قال لهم بارئهم : « كروا » *
يخلف منا آخر أولاً *
كاننا السنبل والبر *

لعلك منجزى أغبار دىنى *
إذا قنا من الأجداث غربا *

ومتى شاء الذى صورنا *
أشعر الموتى نشوراً فنشر *

أيها الملحد ! ، لا تعص النهى *
فلقد صح ، قياس ، واستمر *
إن تعد فى الجسم يوماً روحه *
فهو كالربع خلا ، ثم عمر *

قد يمكن البعث — إن نادى المليك به — *
وليس منا لدفع الشر إمكان *

إذا ما أعظمى كانت هباء *
فان الله لا يعيبه جمعى *

بغلاصة رأى أبى العلاء التى تخرج بها بعد قراءة أشعاره فى البعث والنشور ، هى أن الله
أقدر كل شىء ، وأن قدرته التى أنشأت الانسان من العدم إنشاء غير عاجزة — بلا شك —
عن إنشائه مرة ثانية وثالثة ورابعة — متى أرادت — ولكن القدرة شىء والارادة شىء
آخر ! فقد تقدر على الشىء ولا تريده أو تريده ولا تقدر عليه !

النفس بها ، وإن كانت جد واثقة من قلة غنائها . تلك الوسيلة هي استفسار من ماتوا عما لا قوه من عذاب أو نعيم في عالمهم الثاني ، ليضع بذلك آخر حد لتضارب الآراء ، وتناقض الأخبار ، في هذه المشكلة المستحيلة الحل ، وثم لجأ إلى الأمانى — وإن لم تسعفه الأمانى — فود لو يتاح له الظفر بسؤال أحد الهالكين ، واستفساره عما لقيه — بعد الموت — لتنتهى بإجابته شكوكه وحيرته انتهاء حاسماً ، فقال :

لو جاء من أهل البلى مخبر سألت عن قوم ، وأرخت
« هل فاز بالجنة عمالها ؟ وهل نوى في النار نوبخت ؟ »
وقال :

« أسكنى الثرى ! لا تبعثون رسالة ولم تسلم نفسى عنكم باختيارها ،
إيها ! ولستم سامعى كلم الرسل ! ولكن طول الدهر يذهل أو يسلى ! »
وقال :

« داران . أما هذه فسيئة جدًّا ، ولا خير لتلك الدار
ما جاء منها وافد متسرع ، فنقول للنبا الجديد : « بدار »
وقال :

« فهل قام من قبره ميت يعيب على النفس إخفارها
يقول : « جنينا ذنوباً لنا وجدنا المهيمن غفارها »
إلى آخر تلك الأبيات التي لا حاجة بنا إلى استقصائها .

*
*
*

ولكنه بعد أن سئم هذه التلميحات التي ردها كثيراً . — بلا طائل — لجأ إلى نوع آخر من الأمانى الجدية « وهو الخيال » وما أوسع عالمه ، إذا ضاق بالإنسان عالم الحقائق ! وقد اتهم لذلك مناسبتين :

أولاهما : رسالة سائل — لم يحفظ لنا التاريخ اسمه — بعث بها إليه مستفسراً عن بعض المسائل الصرفية .

وثانيتها : رسالة علي بن منصور الملقب بدوخلة المشهور بابن القارح وهي الرسالة المنشورة بالجزء الأول من هذا الكتاب :

فكان جوابه على الأولى « رسالة الملائكة » وعلى الثانية « رسالة الغفران » .
وفي « رسالة الملائكة »^(١) قد اتهمز المعرى مناسبة كل لفظة سأله المستفهم عنها ، للخروج
منها إلى ما يناسبها من لقاء عزرائيل إلى محاسبة الملكين إلى النفخ في الصور إلى دخول الجنة .
وفي « رسالة الغفران » قد اتهمز فرصة الثناء على رسالة « ابن القارح » وإطراء كلماتها
للتوصل إلى غايته التي رعى إليها ، فتمثل الملائكة ترفع كلها الطيب إلى السماء ، واتخذ من
قوله — تعالى — : « ألم تركيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت
وفرعها في السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها » وسيلة إلى تمثل الأشجار قد غرست
في الفردوس ، بعدد كلمات تلك الرسالة ، لأنها جميعها مما ينطبق عليه معنى الآية التي كأنما
كانت تعنيها بهذا الوصف .

وساقه ذكر أشجار الجنة إلى ذكر أنهارها ، وما فيها من الخمر ، ثم إلى تنزه ابن القارح
فيها ، وتمتعه بنعيمها الخالد وتعرفه بأهلها ، ثم جره ذلك إلى وصف دخوله ، ودخول غيره
من المغفور لهم جنان الخلد ، ثم جره ذلك إلى زيارة أهل النار ، وسؤالهم عن السبب الذي
جرهم إلى هذه العقبي السيئة ، وهكذا إلى آخر أغراض الرسالة .

وبعد أن فرغ من ذلك القسم الممتع ، عاد إلى الرد على رسالة ابن القارح^(٢)

*
*

فأما « رسالة الملائكة » فقد يخيل إلينا أنها كتبت قبل « رسالة الغفران » لأنها
— على جمال أسلوبها ، وتفرد خيالها — مقتضبة إذا قسناها إلى « رسالة الغفران » ، أو هي
— إن شئت — إنما كانت تمهيداً للفكرة الفنية التي قامت عليها الرواية .

أما « رسالة الغفران » فهي — في اعتقادنا — أوضح وأدق وأبرع صورة شعرية
قرأناها عن العالم الثاني ، وأحوال الناس فيه ، وهي كما قلنا من قبل :
« فن من الأدب العالی ، لا يقل عن أجل أثر أخرجه أكبر رأس غربي مفكر . . . ! »

طامل كبيلانی

(١) رسالة الملائكة منشورة في الجزء الرابع من هذا الكتاب (٢) وقد أفردنا للقسم الأول
من رسالة الغفران الجزء الثاني من هذا الكتاب وللقسم الثاني الجزء الثالث منه

الخيال في رسالة الغفران

- ١ -

إن رسالة الغفران نمط وحدها في آدابنا العربية وأسلوب شائق ونسق طريف من النقد والرواية وفكرة لبقة لا نعلم أن أحداً سبق المعرى إليها ، اللهم إلا إذا استثنينا محاولات لوسيان في الأوب والهاوية ، وفذاكة جامعة لأشتات من نكات النحو واللغة ، ذلك تقدير حق موجز لرسالة الغفران . أما أن ينظر إليها كأنها نعمة من نعمات الوحي الشعري على مثال ما نعرف من القصائد الكبرى التي يفتن في تمثيلها الشعراء والقصاص التي يخترعونها اختراعاً ، أو ينظر إليها كأنها عمل من أعمال توليد الصور واللباس المعاني المجردة لباس المدركات المحسوسة فليس ذلك حقاً ، وليس في قولنا هذا غبن للمعرى أو بخس لرسالة الغفران ، كلا ولا هو مما يغضب المعرى أن يقال هذا القول في رسالته .

عباس محمود المقار

- ٢ -

... أعجبت إذن بكتاب العقاد ، على أن شيئاً في الكتاب أعجبنى بنوع خاص ، وهو هذه الفصول التي كتبها عن أبي العلاء عامة ، وعن رسالة الغفران خاصة . لم أكد أرى هذه الفصول حتى حرصت على قراءتها حرصاً شديداً لأنني - كما تعلم - شديد الصلة بأبي العلاء ، وأحب أن أرى آراء الناس فيه وأن أتبين مقدار ما بين هذه الآراء وبين آرائي من قرب أو بعد .

أول هذه الفصول يتناول حزن أبي العلاء وتشاؤمه . وليس ينكر أحد أن أبا العلاء كان حزينا غالباً في الحزن ومتشائماً مسرفاً في التشاؤم ، والناس جميعاً أحرار في أن يحزنوا وأن يتشاءموا كأبي العلاء ، أو أن يبتهجوا ويتسموا كأصحاب المذة ، أو أن يتوسطوا بين الأمرين ، الناس أحرار ، وهم لم ينتظروا أن تقول لهم هذا ليكونوا أحراراً وليذهبوا في الحياة أحد هذه المذاهب الثلاثة . وإذن للعقاد أن يحزن كما يحزن أبو العلاء ، أو أن يبتهج كما يبتهج أبو نواس ، أو أن يتخذ بين الأمرين مكاناً وسطاً ، فالأمر في هذا راجع إلى الطبيعة

والمزاج قبل أن يرجع الى العقل والتفكير ، ولكن الذى أخالف العقاد فيه مخالفة شديدة هو زعمه فى فصل آخر أن أبا العلاء لم يكن صاحب خيال حقا فى رسالة الغفران ، هذا نكر من القول لا أدرى كيف تورط فيه كاتب كالعقاد ! نعم أن العقاد كاتب ماهر يحسن الاحتياط لنفسه ، فهو — بعد أن أنكر الخيال على أبى العلاء — عاد فأثبت له منه حظا قليلا ، ولكنه يستطيع أن يخدع بهذا الاحتياط قارئاً غيرى ؛ أما أنا فلن نخدع له ، فهو ينكر على أبى العلاء أن يكون شاعراً عظيماً الحظ من الخيال فى رسالة الغفران « سنة سوده ! » كما يقول العامة ، وهل يعلم العقاد أن « دانت » إنما صار شاعراً نابغة خالداً على العصور والأجيال واثقا من إعجاب الناس جميعا ، بشيء يشبه من كل وجه رسالة الغفران هذه ؟ أستغفر الله ! إن من الأوربيين الآن من يزعم أن شاعر فلورنسا قد تأثر بشاعر المعرة قليلا أو كثيراً .

وما الخيال ؟ أما إذا كان ملكة تمكن الكاتب أو الشاعر من أن يخترع شيئا من لا شيء ، أو يؤلف شيئا من أشياء لا ائتلاف بينها ؛ فلم يكن أبو العلاء على حظ من الخيال ، لأنه لم يخترع فى رسالة الغفران شيئا من لا شيء ولم يؤلف بين متناقضات . ولكننا نعلم أن علماء النفس لا يسمون هذه الملكة خيالا وإنما يسمونها وهما ، وهم ينبئوننا أن الخيال لا يخترع شيئا من لا شيء وإنما يستمد صورته ونتائجها من الأشياء الموجودة ؛ يؤلف بينها تأليفا غريبا يبهز النفس ويفتنها ، وإذا كانوا صادقين — ونحسبهم صادقين — فحظ أبى العلاء من الخيال فى رسالة الغفران لا حد له .

ليس لأبى العلاء حظ من الخيال ! واذن فإذا يلذنا من رسالة الغفران ؟ ولم يعجبنا حوار هؤلاء الشعراء والعلماء وذكر الجنة والنار وما فيهما ؟ أليس لأن خيال أبى العلاء انخصب القوى قد استطاع أن يؤلف بين هذا كله تأليفا غريبا قيما لذيذاً . لم يكن أبو العلاء ملازما أن يخترع الشعراء والعلماء والجنة والنار ؟ « دانت » لم يخترع « فرجيل » ولم يخترع الجحيم ولم يخترع الأشخاص الذين لقيمهم فيه وإنما أستخدمهم جميعاً من الأدب القديم أو من الدين المسيحى ، ومع ذلك فهو صاحب خيال ؛ وخياله هذا مصدر مجده الخالد . لا تقل أن حظ أبى العلاء من الخيال قليل بل قل إن حظه من الخيال عظيم جداً قيم جداً خليق بالخلود لأنه الخيال المنتج حقا ، هو الخيال الذى تجده عند « دانت » والذى تجده عند « أناتول فرانس » عند « أناتول فرانس » بنوع خاص ، وما أقوى الشبه بين أناتول فرانس وأبى العلاء ، ليس بين

الرجلين ألا فرق واحد وهو أن تشاؤم الكاتب العربي محزن مظلم ، وتشاؤم الكاتب الفرنسي مبتسم مشرق ، ومن غريب الأمر أن من الفرنسيين من ظلم أناتول فرانس على هذا النحو الذى يظلم عليه العقاد أبا العلاء ، انخدع بعض النقاد الفرنسيين بكثرة ما يروى أناتول فرانس عن قدماء اليونان والرومان وأهل القرون الوسطى فقالوا إن الرجل لا شخصية له وإنما هو يجمع آثار غيره لا أكثر ولا أقل . ويكاد العقاد يقول هذا فى رسالة الغفران لأن أبا العلاء مألها بما رواه عن الشعراء والعلماء والفلاسفة وما أخذ عن رجال الدين ، ولكن غير العقاد خليق بأن يتورط فى مثل هذا الخطأ ، فسر البلاغة — واقعد كدت أقول الاعجاز — أقوى وأظهر فى رسالة الغفران من أن يغفله أديب كالعقاد . أرى أن العقاد قد وفق التوفيق كله الى فهم السخرية العلائية فى رسالة الغفران ، ولعل أول من سبق الى ذكر هذه السخرية ولعل لقيت فى سبيل هذه السخرية العلائية شيئاً من العنت والأذى . ولكنى كنت أحب أن يذهب العقاد فى تحليل هذه السخرية العلائية الى أقصى ما تنتهى إليه حرية البحث ، فلم يكن أبو العلاء ساخراً من الناس فى حياتهم العادية ولا فى آمالهم وأعمالهم وحدها ، وإنما رسالة الغفران مثل قوى شنيع للسخر بما كان للناس من مثل أعلى فى الدين ، فهو لا يسخر من شهواتهم ولذاتهم ، وإنما يسخر من دينهم وقيمتهم . والذى أحب أن يلتفت اليه قارئ رسالة الغفران ليس هو هذه السخرية التفصيلية عند ما يعرض أبو العلاء لإوز الجنة أو بقرها أو عند ما يعرض للخصومة بين الشعراء ، وإنما هى هذه السخرية الجميلة العامة المنكرة التى تمثل — الله عز وجل — كأنه قد فرغ للذات أهل الجنة وشهواتهم يديرها ويدبرها ، لا عمل له الا هذا ، ولا تفكير له الا فى هذا .

إن الذى يقرأ رسالة الغفران ويفقه ما فيها من سخرية لا يستطيع أن يسلم بأن أبا العلاء كان مسلماً حقاً . وقد أفهم أن يتجنب العقاد مثل هذا البحث لأن فيه شيئاً من الحرج ، ولكنى أحب أن يكون الناس جميعاً مثلى يكرهون إنصاف الحقائق ويؤثرون العلم والتاريخ على كل شيء ! أنا معجب بما كتب العقاد عن أبا العلاء !

طه حسين

رسالة الغفران (١)

أعود اليوم إلى الكتابة عن أبي العلاء بعد عشر سنين مضت على درسي له وكتابتي عنه (٢) ، وأشعر بأن ذلك الدرس وتلك الكتابة محتاجان إلى شيء كثير جدا من الإصلاح والتنقيح ، ومن الإضافة والتفصيل ، ولكنني أعترف أيضاً بأن رأيي في الرجل لم يتغير ، بل بأنني كلما قرأت أبي العلاء ازددت يقيناً برأيي فيه ، وحكمي عليه ، وتحققت أن كثيراً من نواحيه الأدبية والفلسفية قد فانتني ، أو عميت عليّ حين كنت أقرؤه منذ عشر سنين ، وإن رجلاً واحداً مهما يكن قوياً ماهراً في البحث متقناً له لن يستطيع أن يفهم وحده أبا العلاء ويظهر الناس على دخيلة نفسه ، وعلى وجوه مذاهبه في الأدب والفلسفة وغيرها من فروع الحياة المختلفة للعقل والشعور .

ليس ذلك بالشيء اليسير لرجل واحد ، بل لا بد من أن يتعاون عليه رجال مختلفون ، كلهم قوى في مادة من مواد العلم ، وكلهم ماهرون في منهج من مناهج البحث . يجب أن يفرغ الأدباء الجودون لأدب أبي العلاء ، ويجب أن يفرغ الفلاسفة المتقنون لفلسفة أبي العلاء ، ويجب أن يتقسم الأدباء فيما بينهم أدب أبي العلاء ، يفرغ قوم لشعره العادي ، وآخرون لشعره الفلسفي ، ويفرغ قوم لنثره العادي ، وآخرون لنثره الفلسفي . ويجب أن يتقسم الفلاسفة فلسفة أبي العلاء فيفرغ قوم لفلسفته الدينية ، وآخرون لفلسفته النفسية والخلقية والاجتماعية ، وآخرون لفلسفته الطبيعية وهلم جرا .

ثم يجب أن يفرغ علماء النحو واللغة لعلم أبي العلاء بالنحو واللغة وما يتصل بهما . وعلى هذه القاعدة يستطيع كل هؤلاء الباحثين أن يخلصوا من درس أبي العلاء إلى نتائج — إن لم تكن مقنعة مزيلة للشك — فهي مرضية مشجعة على الأمل .

ولست أدري أيتاح لأبي العلاء نفر من الأدباء والعلماء والفلاسفة يفرغون لدرس أدبه وعلمه وفلسفته على هذا الوجه الذي أشرت إليه ؟

(١) نثبت هنا مقدمة الطبعة الثانية وهي بقلم الدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية

(٢) كان هذا في أول عام ١٩٢٥ أما اليوم فقد مر عليه نحو ثلاثة وعشرين عاماً

ولكنى أعلم أن هناك شيئاً أعتبط به ، وأظن أن الذين يحبون أبا العلاء سيغضبون به أيضاً ، وهو أن الناس قد بدأوا يعنون بأدب أبي العلاء عناية جديدة قيمة لم يكن لهم بها عهد قبل هذا العصر الذى نحن فيه .

بدءوا يقرءونه ويتفهمونه ويتساءلون عن آرائه وأغراضه ووجه الصواب فى فلسفته ، و بدءوا يستبقون إلى كل ما يكتب عنه ويقال فيه ، فهم ظمئون حقاً إلى درس أبي العلاء وفهمه ، وإذا أحس الجمهور حاجة من الحاجات العقلية فهو واجد اليوم أو غداً أو بعد غد من الباحثين من يرضى هذه الحاجة ويشفيها ، وقد بدأ الجمهور الضمى إلى فهم أبي العلاء يجد من ينقع غلته ، ويرضى حاجته ، ويعينه على فهم أبي العلاء ، فأخذ كتاب يدرسون الرجل وينشرون آرائه ويتفقهون تفسيره وتحليله ، والخير كل الخير أن بعض الكتاب والباحثين أخذوا يدرسونه على الوجه المنتج النافع فلا يتناولونه من كل وجه ، ولا يعمدون إليه من كل ناحية ، ولا يطمعون فى أن يدرسوه كله أو يفسروه كله ، وإنما يتناولون وجهاً واحداً من وجوهه ونحوها واحداً من أمثاله ، فيدرسونه الدرس المفصل الجديد ويخرجون نتيجة هذا الدرس للناس سهلة سائغة ، بل محببة لذيدة .

*
* *

أكتب هذا وبين يدي طبعة لرسالة الغفران أذاعها « كامل كيلانى » منذ حين ، أكتبه وأنا أعلم أن هذه الطبعة قد ذاعت ، واستبق إليها الناس استباقاً لم يكن منتظراً ولا مرجواً ، فأغتبط للطبعة نفسها وعناية « كامل » بها ، ثم أعتبط لما ظفر به من التشجيع على هذا الجد وهذه العناية ، ثم أعتبط لأن روح أبي العلاء وفلسفته ومناهجه فى الفهم والتفكير ، قد أخذت تتغلغل فى طبقات المستنيرين من أهل الشرق العربى ، وليس هذا بالشىء القليل ، وما أشك فى أنه سينتج آثاره الحسنة بعد حين ، وسيعرف الناس بعد حين أبا العلاء ، وسيتعاونون على فهمه ، وستنشأ فى هذا الشرق العربى — حول اسم أبي العلاء وآثاره — الجماعات الأدبية والفلسفية ، على نحو هذه الجماعات التى تنشأ فى أوروبا حول أسماء النابغين وآثارهم .

أغتبط بهذا كله ، وأنتظر آثاره ونتائج

على أنى لم أعود الإسراف فى المدح ، ولا أريد أن أعود الناس منى هذه الخصلة ، وإنما تودت القسوة فى النقد وتعودها الناس منى ، ولست أخالف هذه العادة فى هذه الكلمة .
فأنا أثنى على هذه الطبعة التى قرأتها ، ولكنى لا أطلق الثناء إطلاقاً ، ولا أرسله إلى غير حد ، وإنما أريد أن أعرف لصديقى « كامل » عمله وعنايته — دون مبالغة ولا إسراف — وأحسبه لا يطمع منى فى مبالغة ولا إسراف ، فهو لم يذع من رسالة الغفران طبعة علمية نقدية على نحو ما يذيع العلماء الأوربيون من آثار القدماء — وإن كان قد مهد لذلك تمهيداً حسناً بما تراه فى الجزء الثانى — وإنما قصد إلى شىء آخر يخالفه كل المخالفة

*
* *

أراد أن يخدم أبى العلاء فيذيع آراءه ، وأراد أن يخدم هذا الجيل فيظهره على آراء أبى العلاء . وليس هذا بالشىء الهين ، فليس فهم أبى العلاء مقدوراً لمن أحسن القراءة والكتابة ، وليس فهم أبى العلاء مقدوراً لمن ألم بأطراف من النحو والأدب والفلسفة ، وإنما فهم أبى العلاء مقدور — فى عسر وشدة — لمن أتقنوا أدب العرب وفلسفتهم ، وألموا بمناهج البحث الحديث وهؤلاء ليسوا كثيرين فى الشرق العربى ، ولعل إحصاءهم أيسر شىء . قليلون هم جداً ، لا يستحقون أن تعنى بهم عناية تكلفك الوقت والقوة والمال ، فأنت واثق بأن عملك — على نفعه وجلال خطره — لن ينتهى إلى ما تريد من خير ، ولو أنك أردت أن تعنى بهؤلاء فتدرس لهم درساً علمياً دقيقاً صحيحاً لكان من الحق عليك أن تتجنب الطباعات المستقلة التى تكلفك مالاً — لن يرد إليك — وأن تكتفى بالمحاضرات يشهد بها نفر قليل ، أو بمجلات تنشرها فيما يسمونه المجلات والصحف الدورية ، وأنت تثق بأن قراءها لن يتجاوزوا عدد أصابع اليد

*
* *

لم يعن « كامل » بهؤلاء ، وإنما عنى بغيرهم من المستنيرين فى الشرق العربى ، وهم كثيرون تختلف حظوظهم من العلم وإتقانه ، ولكنهم يشتركون جميعاً فى العجز عن فهم أبى العلاء ، إذا لم يسهل لهم تسهيلاً ، ويسر لهم تيسيراً ، ولا سيما رسالة الغفران هذه ، فلست أعرف فى الآداب العربية كلها (لا أستثنى من ذلك شيئاً) أثراً يعدلها ثروة وخصباً وفلسفة ، كما أنى لست أعرف فى الآداب العربية كلها أثراً يعدلها صعوبة وعسراً وغموضاً .

هي كنز نفيس ، ولكن قامت دونه ألوان الصعوبات وضروب المشاق التي لا حد لها ، وأنا أزعم أن الذين يستطيعون أن يبدؤوا قراءة هذا الكتاب ثم يستطيعون أن يمضوا فيه إلى ثلثه ونصفه قليلون جداً .

ذلك أن أبا العلاء كان — كما تعلم — من أشد الناس إثارة للغريب وتهالكا عليه ، ثم كان أبو العلاء إلى هذا — فيما أعتقد أنا — يتكلف الغريب ويتعمده ليصد عامة الناس وجهالهم (سواء في ذلك العلماء وغير العلماء) عن قراءته والظهور على ما فيه . وكأن أبا العلاء كان لا يكتب لعصره ، وكأنه كان يحس أن عصره خليق ألا يكتب له ، وكأنه كان يكتب لهذا العصر الحديث الذي نحن فيه ، وللمصور التي ستليه ، وكأنه كان يخشى على آثاره الأدبية أن يفهمها أهل زمانه فيفسدوها ويشوهوها ويحولوا بينها وبين فهمها ، وكأنه إنما أقام من الغريب وقواعد النحو والصرف والعروض والقافية طلاسماً وأرصداً شغل بها أهل عصره عن هذا الكنز ، حتى لا يصلوا إليه ، وحتى تسلم لنا نحن خلاصته فنترك للقضاء نحوهم وصرفهم وغريبهم وعروضهم وقوافيهم ، ونفرغ لخلاصة هذا الكنز من فلسفة في الخلق والجماعة والدين .

✱
✱ ✱

والإفكيف تستطيع أن تفسر هذا الإغراب الذي لم يكن يدعو إليه شيء إلا خصلة واحدة — أبو العلاء أبعد الناس عنها ، وأقلهم منهم حظاً ، وهي خصلة الغرور والإعجاب بالنفس ؟ نعم ، الرجل المغرور وحده ، الرجل الذي يريد أن يظهر الناس على أنه أعلمهم باللغة ، وأرواهم للغريب ، وأحفظهم للنادرة ، وأفقههم بضرور العلم ، هذا الرجل وحده يتكلف ما تكلفه أبو العلاء من الإغراب ، والإسراف في الإغراب ونحن نعلم علماء — لا شك فيه — أن أبا العلاء كان أشد الناس تواضعاً وأعظمهم زهداً في ثناء ، وأقلهم حظاً من غرور

✱
✱ ✱

فهو إذن لم يرد أن يثني عليه ابن القارح ، ولا أمثال ابن القارح ، بما في هذه الرسالة من علم وأدب ومن غريب ونادرة . وأحسب (أستغفر الله) بل أثق بأن أبا العلاء إنما أراد أن يسخر من ابن القارح وأمثال ابن القارح ، وأن يلهيهم عن نفسه ورأيه وفلسفته بما كانوا يتهاكون عليه من نحو وصرف وعروض وقافية وغريب ونادرة ودين ، فحشا لهم

الرسالة حشواً من هذا كله ، ولكن دون هذا كله ما لم يفقهه القوم ولم يفظنوا له ، ولو فقهوه وفظنوا له لكان لأبي العلاء شأن غير شأنه ، وكان لهم شأن غير شأنهم أيضا .

*

**

نعم مر أبو العلاء في عصره ولم يفهمه الناس منه شيئاً ، فهموا قشره وجهلوا به ، فهموا منه ما كانوا يفهمون من ابن خالويه وأبي علي الفارسي وغيرهما من الرواة والنحويين ، فهموا منه اللغة والأدب والنحو وما يتصل بذلك ، ولم يفهموا شيئاً آخر .

أليس عجيباً أن الذين كانوا يقرءون اللزوميات ويروونها ، وإنما كان يعجبهم منها ما فيها من غريب وإغراب ؟ ولولا أبيات فيها صريحة لا تحتاج إلى تأويل ، لما التفت أحد إلى أن للرجل آراء في الفلسفة أو في الدين .

أليس غريباً أن كتاباً كرسالة الغفران ينشر أيام أبي العلاء ، فلا يحدث ثورة في الرأي ولا اضطراباً في العقيدة ، بل ولا حركة في الأدب ؟ وإنما يتلقاه الناس على أنه أثر من هذه الآثار اللفظية ، فيه غريب وسجع ورواية وما يشبه ذلك مما كانوا يحبون ويألفون ؟

*

**

قلت ، وما زلت أقول ، إن أبا العلاء لم يكتب لعصره وإنما سخر من عصره وازدراه ، وإن عصره لم يفهمه ولم يشعر به ، وإنما رأى فيه علماً من العلماء وأستاذاً من الأساتذة لا أكثر ولا أقل .

فأما الذين كتب لهم أن يفهموا أبا العلاء ويقدروه فهم أهل هذا الجيل ، والذين سيأتون من بعدهم .

*

**

وكيف يستطيع أهل هذا الجيل أن يفهموا أبا العلاء ، إذا لم يعمد القادرون إلى هذه الطلاسم والارصاد فيزيلوها كلها أو بعضها ؟ فأهل هذا الجيل — مع الأسف الشديد — لم يدرسوا روبة ولا المعجاج ولا أمثالهما ، وهم ضعاف كل الضعف إذا عرضت لهم هذه الألفاظ التي اعتادها أبو العلاء ، فكيف إذا عرضت لهم هذه الألفاظ التي تكلفها ؟

لم يكن بد أن تنشر عليهم من رسالة الغفران صورة سهلة سائغة ، وهي التي نشرها « كامل افندي » فلم يكره أن ينالها بشيء من الحذف والاقتضاب لا يغير أغراضها ، ولا

يؤثر في أصلها ولا في صورتها ، وإنما يزيل عنها بعض هذه الطلاسم والأرصاء التي أشرت إليها ! وهو إن ساء طائفة النقاد الاخصائيين في البحث اللغوى والأدبى ، فلا أشك في أنه يسر غيرهم من جمهور المتأدين والمستنيرين .

ولكن ما رسالة الغفران هذه ؟ !

لقد حدثتك عنها كثيراً — دون أن ألم بها إلاماً — وكيف أن ألم بها — وهى فى حاجة إلى كتاب خاص يفرد لها أفراداً ؟

رسالة الغفران هى آية الأدب العربى المشهور ، لا من حيث أنها آية فى البلاغة أو الفصاحة اللفظية ، ولا من حيث أنها مثل ينبغى أن يحتذى الكتاب ويتأثره المقلدون ، ليس حظها من هذا كله عظيماً ! بل أنا أكره أن يكتب الناس اليوم كما كتب أبو العلاء فى رسالة الغفران ، وهى — مع ذلك كله — آية الأدب العربى ، لا أستثنى منه شيئاً ، لا أستثنى منه شعراً ولا نثراً ، ولا أستثنى منه قديماً ولا حديثاً ، لا أستثنى منه شيئاً ما .

هى آية الأدب العربى ، كما أن صاحبها آية كتاب العرب ، هى آية التفكير العربى ، هى آية الخيال العربى ، هى آية السخرية العربية ، هى آية الحرية العربية ، هى آية العرب فى هذا كله .

لا أغلو فى ذلك ولا أسرف ، بل أعترف بأنى دون ما أريد .

شبهها قوم بحديث « دانت » وربما وقفوا فى هذا التشبيه ، وزعم قوم أن « دانت » تأثر بها فى حديثه ، ولعلمهم قاربوا الصواب فى هذا الزعم ، ولكن هذا كله لا يعينى الآن ، وإنما يعينى حين أضع كتاباً خاصاً للدرس هذه الرسالة درساً علمياً . كل هذا لا يعينى الآن ، وإنما الذى يعينى أن أحداً من كتاب العرب وشعرائهم لم يسبق أبا العلاء إلى هذا الفن من الكتابة والفهم والخيال ولم يلحقه فيه ، وإنما انفرد به أبو العلاء انفراداً فى كل هذه الآداب وفى كل هذه الحضارات التى عاشت هذه القرون المتصلة وأزهرت فيها هذا الإزهار الغريب نعم ، رسالة الغفران هى آية الأدب العربى من هذه الجهات كلها قصة غريبة لا تقع فى الأرض وإنما تقع فى السماء ، وليس الغرض منها الفكاهة وحدها ولا النقد وحده وليس الغرض منها كفرةً ولا إيماناً ، وإنما هذا كله هو الغرض من هذه الرسالة .

أراد أبو العلاء أن يتفككه وأراد أبو العلاء أن ينقده وأراد أن يكفر وأراد أن يؤمن ولست أحتاط في لفظ ولا أخرج من معنى ، وإنما أريد أن أكون حراً فيما أفهم وفيما أقول ، فالحرية وحدها هي السبيل إلى فهم أبي العلاء ، وقد أراد أبو العلاء هذا كله ، أراد أن يتفككه فتفككه إلى غير حد ، وأراد أن ينقده فنقده في غير رحمة ، وأراد أن يكفر فكفر بغير حساب ، وأراد أن يؤمن فأمن في غير شك .

أراد هذا كله ووفق إلى هذا كله أحسن توفيق ، ويكفي أن تقرأ من هذه الرسالة شيئاً وتفهمه لتؤمن بصدق ما أقول . كفر أبو العلاء وآمن في هذه الرسالة . كفر بما أجمع الناس عليه من سنة ودين ، وآمن بما وقف عليه حياته كلها من عقل ونقد .

هذه الرسالة هي آية السخرية العربية ، وأحسبها آية من آيات السخرية الإنسانية كلها ، فليس من السهل ولا من اليسير أن تحلل هذا الفن من السخرية الدقيق المعجز الذي تجده في هذا الكتاب .

تقرأ الكتاب فلا تشك في أن صاحبه من أشد الناس إيماناً بالله ، واقتناعاً بالإسلام ، وتصديقاً لما روى علماءؤه من الأخبار والآثار ، ولكن اقرأه في بصيرة وفهم ، وكن حراً حين تقرأه — كما كان حراً حين كتبه — تجده أشد الناس سخرية بالدين وأعظمهم استهزاءً بما آمن الناس به واطمأنوا إليه من الحياة الأخرى . لا يذكر الرجل من حياة الجنة والنار شيئاً إلا استدل عليه بآية من القرآن وأثر من الحديث ، ولكن ما رأيك في أنك لا تستطيع أن تمنع نفسك من الضحك والإغراق في الضحك عند ما تقرأ هذا الاستدلال نفسه ، عند ما تقرأ هذه الآية الكريمة التي يوردها أو هذا الحديث الشريف الذي يستدل به ؟

لا تستطيع أن تقرأ هذا دون أن تضحك وتغرق في الضحك .

*
* *

أفتظن أن هذا الكاتب الذي يضحكك حين يتلو عليك آيات الكتاب الكريم أو يروي لك نصوص الحديث الشريف ، قد كان جاداً فيما كتب أو مؤمناً فيما كان يقص عليك ؟ كلام لم يكن جاداً ولم يكن مؤمناً ، وإنما كان مازحاً ، وقد كان منكرًا وكان مستهزئًا وكان ساخرًا من صاحبه ابن القارح وأمثاله ، ولكنه كان ماهراً وكان على حظ من الفن لا حدله ولا شبيهه ، فاستطاع أن يهزأ وأن يمزح دون أن يأخذ الناس بشيء من هزئه ومزحه .

وهل التفت الناس؟ وهل التفت ابن القارح نفسه إلى ما هذا الكتاب من هزء ومزح؟
وما فائدة الأرصاء والطلاسم إذا لم تشغل عامة الناس عن سخريته ومزحه؟

*
* *

أريد أن التمس مشبهاً لأبي العلاء في هذا العصر الحديث وأن يكون الشبه بينه وبين
أبي العلاء صادقاً قوياً لا يحتمل الشك ولا الجدل، أريد ذلك فلا أجد فيه مشقة ولا عسراً
وإنما أجد يسيراً لذيذاً يعين على فهم أبي العلاء وتشخيصه من الوجهة الأدبية الفنية.
أتدرى من هو هذا الذي أشبهه به أبا العلاء؟ هو الكاتب الفرنسي المعروف «أناطول فرانس»
الذي احتفل الناس منذ حين في الأرض كلها ببلوغه الثمانين من عمره، هو الذي يشبهه
أبو العلاء شبهاً لا يحتمل الشك، هو الذي يفسر شخصية أبي العلاء الأدبية، ولكن
شخصيته في رسالة الغفران لا في اللزوميات.

فلأبي العلاء (يجب أن نعترف بذلك) شخصيتان متناقضتان تناقضاً منكرًا: إحداها
باسمة ودیعة رقيقة رفيقة تعطف على الناس وتسخر منهم في رفق ولين، تسخر منهم لأنها
تحبهم، وتهزأ بهم لأنها تعطف عليهم، لا تلومهم ولا تؤذيههم، وإنما تبسم لهم وتضحك
منهم، وهي في الوقت نفسه تمسحهم وتتلف لهم. هذه هي شخصية أبي العلاء في رسالة الغفران
وله شخصية أخرى مظلمة، هذه عابسة مغضبة تتطير شرراً وتضطرم غيظاً وحقداً،
تسخر من الناس، ولكن سخرية مرة قاسية لا حد لمرارتها ولا لقسوتها^(١). هذه هي
شخصية أبي العلاء في أكثر شعره في اللزوميات.

فأما شخصيته الأولى فتشبه شخصية «أناطول فرانس» وأما شخصيته الثانية فتستطيع
أن تقيسها إلى ما شئت من شخصيات المتشائمين في العصر القديم، وفي العصر الحديث أيضاً.

*
* *

فلنتقف عند هذه الشخصية الباسمة الودیعة ولنحللها إلى أصولها ودقائقها، فما هي هذه
الشخصية؟ وبم تمتاز؟ بشئین اثنين: الشك من جهة، والرحمة من جهة أخرى. نعم الشك
في أديان الناس وعاداتهم وقواعدهم الخلقية والاجتماعية والسياسية، الشك في كل هذا

(١) لعل أصدق وأوجز ما ينثل تلك الشخصية العابسة المغضبة قوله:

وجوهكم كلف ، وأفواهكم عدی وأكبادكم سود ، وأعينكم زرق !

وازدرأؤه واطراحه ، ثم الرحمة التي لا حد لها والرفق بالناس ، والايامن بأنهم مضطرون بحكم طبائعهم الضعيفة ، وبحكم تضليل المضللين وشعوذة المشعوذين ، وبحكم الظروف الأخرى التي ليس لهم عليها سلطان ، مضطرون إلى أن يخضعوا لكل هذه الأشياء ، ويتأثروا بها في حياتهم العامة والخاصة على اختلاف فروعهما .

هم مضطرون لا متمعدون ، فهم إذن مظلومون لا آثمون ، ومتى كان المظلوم خليقا باللوم ؟ ومتى كان المضطر خليقا بالتعنيف ؟ ولم تلومهم ؟ ولم تعنفهم ؟ وأنت واثق بأنك لن تغيرهم ولن تصلح من أمرهم ، وكل ما تستطيع أن تطمع فيه هو أن تهدي منهم نفراً قليلين لهم حظ من ذكاء وفطنة وأنت لا تستطيع أن تهدي هؤلاء النفر القليلين بالشدة ولا بالعنف ، وإنما اللين وحده سبيلك إلى هذا .

الابتسامة والدعة ورقة الحاشية والافتنان في الحديث المبتسم الوديع كما كان يفعل « سقراط » في حوارهِ .

*
* *

الشك والرحمة ! هما العنصران اللذان يكونان شخصية أبي العلاء في رسالة الغفران ، وهما اللذان يكونان شخصية « أناتول فرانس » .

فإذا أردت أن تتم هاتين الشخصيتين ، فأضف إليهما عنصرين آخرين ، أحدهما العلم الواسع بفنون اللغة والأدب ودقائقهما ، واتخاذ هذا العلم وسيلة إلى ما تريد وستاراً لما تريد ، والثاني الفن الأدبي والتفوق في تصريف الكلام على وجوهه المختلفة .

*
* *

هذه الخلال الأربع هي التي تكون شخصية هذين الرجلين . ولقد أود أن تقرأ لأناتوس فرانس : « ثورة الملائكة » و « جريمة سلقتر بونار » و « الآلهة عطشى » و « جنة أبيقور » وغيرها من آثاره المختلفة لتصل إلى هذه النتيجة ، وهي أن أناتول فرانس رجل شاك رحيم عالم نابغ في فن الكتابة . ولتشعر بأنه في شكه ورحمته وفي استمزائه وسخريته يذهب مذهب أبي العلاء نفسه ، فهو دائماً عالم من علماء اللغة والآثار ، ماهر في فن الكتب وتصحيح النسخ الخطية القديمة وما يتصل بذلك ، وهو يتحدثك بهذه الفنون كما يتحدثك أبو العلاء في النحو والصرف والعروض والقافية والغريب ، ولكنه يتحدثك بهذه الأشياء

ليحدثك بأشياء أخرى هي الاستهزاء بالناس وما تواضعوا عليه ، والسخر من الناس وما آمنوا به والرحمة للناس والعطف عليهم وكذلك يفعل أبو العلاء حين يتحدث إليك بما يتحدث به إليك في رسالة الغفران من نحو وأدب ولغة ودين ، لا يريد من ذلك شيئاً ، وإنما يريد شيئاً آخر ، هو أن يذكر حق الناس وغرورهم والنخداعهم وجهلهم ، ثم يضحك منهم راثياً لهم مشفقاً عليهم من هذا كله .

أتريد أن أضرب لك الأمثال ؟ ولكن أظن أن المقدمات تتسع لضرب الأمثال ؟ ولم أضرب لك المثل وأنا أقدم لك الكتاب كله ، فانظر إليه تقتنع بما أقول . انظر إلى الملاحاة بين الأعشى ونابغة بنى جمدة إذ يزعم أحدهما لصاحبه أن دخوله الجنة يوشك أن يكون غلطاً ، لولا أن الله لا يغلط . وانظر إلى قصة ابن القارح يوم القيامة وما يكون بينه وبين رضوان وزفر من حراس الجنة ، ثم ما يكون بينه وبين حمزة وعلى وفاطمة ، ثم إلى قصته وهو يعبر الصراط . وانظر إلى أحاديث الشيخ مع أهل النار ، ومع إبليس وبشار والأخطل بنوع خاص . وانظر إلى الحور ، وأخباره مع الحور ومداعبته للحور . وانظر إلى الحيات وإلحاح الحيات عليه في أن يمكث عندهن حيناً . وانظر إلى قصص الجن وأحاديثهم . وانظر إلى قصص الصيد وشأنه مع هذه الحيوانات التي أدخلت الجنة لأسباب مضحكة ، ثم انظر إلى هذه الصورة التي تدور عليها هذه القصة كلها ، وهي هذه التي تمثل الله — عز وجل — تمثيلاً لا يرضاه مؤمن حقاً ، ولكنها لا تخالف الظاهر من نصوص الدين ، فالله لا عمل له في هذه القصة إلا أن يقدم لأهل الجنة ما يشتهون ؟ وماذا يشتهون ؟ إنهم ليشتهون أشياء لا تخلق بهم ولا تخلق بالله — عز وجل — ولكن الظاهر بنصوص الدين لا يخالف الظاهر من قصة أبي العلاء . وفي هذا مقنع للذين لا يتأولون ولا يتحرجون ، ولكن في هذا مقنعاً للذين يفهمون ويفقهون .

*

* *

ثم إنني لم أحدثك إلا عن جزء من أجزاء الرسالة ، لم أحدثك عن الجزء العلمي ولن أحدثك عن هذا الجزء العلمي ، كما أني لم أحدثك كما كنت أحب عن القسم الخيالي من هذه الرسالة ، وإنما أملت إلاماً وأشرت بإشارات موجزة ، والخير كل الخير أن تحدثك الرسالة عن نفسها ، فاقراها وأنا واثق بأنك ستري رأيي فيها وفي أبي العلاء

أبو العلاء المعري^(١)

فضله — ورعه — عبقريته — رسالة الغفران — السبب في اختصارها

الفكر الإنساني بصيص من النور الإلهي الفائض على الوجود ، والمفكرون مصايحه
ينعكس منهم على من دونهم فيهدون به في سلوك دياجير هذه الحياة ، فلولاهم نخبط
السارون في متاهاتها ، لا يهتدون إلى غاية ، ولا ينتهون من وجودهم إلى نهاية ، لذلك ألقى
في روع الناس ، حتى وهم في أحط درجات التعقل ، إكبار المفكرين وتعظيمهم ، وتلقف
أقوالهم وآرائهم ، ورب أمة رزقت واحداً منهم فنقلها من الظلمات إلى النور ، بعد أن عاشت
قبله أجيالاً تتقلب في كسف من دونها كسف ، ولا تعرف الوجود ولا يعرفها الوجود

*

* *

أبو العلاء المعري واحد من أولئك المفكرين ، عرفه صاغة الكلام شاعراً من المبرزين ،
وعده نقدة الأفهام حكيماً من المقدمين ، فوجد هؤلاء وهؤلاء منه ما يبلغ أقصى ما تتطلع
إليه نفس من تصوير وإبداع ، وخيال واختراع ، وسريان في سرائر الكائنات ، واستجلاء
لحقائق الموجودات .

إلا أن فضل أبي العلاء لم يظهر في عصر من العصور أجلى وأكمل مما ظهر في عصرنا هذا ،
عهد الأبحاث والشكوك ، عهد المذاهب والمقاتلات^(٢) ، حيث اشتجرت العقول ، وتناحرت
الآراء ، وثار أعاصير الريب ، فاكتسحت أمامها أصولاً راسخة من عقائد صحبت الإنسان
منذ عهده الأقدم ، فكان لظهور فضل أبي العلاء في هذا المضطرب الهائل المذاهب ،
والمزدهم الرائع للفلسفات — بعد ما كابدت من حرارة الكفاح ما كابدت — أثر عميق
في نفوس المعاصرين ارتفع الرجل به إلى المكانة التي يجب أن تكون له بين السابقين الأولين .
نعم ، لقي أبو العلاء من الذين يصددهم ظواهر الألفاظ دون بواطنها ، ما يلقاه كل مفكر
خلص من أغلال التقليد ، فاتهمه من لا يفهمه بالإلحاد والزندقة ، وقولوه ما لم يقله من الشعر
المزرى بالأديان ، الحاط من كرامة مؤسسها ، وتصدى كثير من أئمة المتأدبين لتبثرته مما
نسب إليه ، فكان من أثر ذلك أن تكون حول اسمه جو غريب حمل الكثيرين من أهل

(١) نثبت هنا مقدمة الطبعة الأولى وهي بقلم الأستاذ محمد فريد وجدى (٢) المذاهب

الورع على كراهية شعره ، حتى إن مصصح المطبعة الأميرية تخرج منذ أربعين سنة من تصحيح لزوميات أبي العلاء ، وكان ناشرها يطبعها هناك ، فجاءت كثيرة الأخطاء من جراء ذلك ، أين هذا من تزام الأدباء والمفكرين في أوربا على ورود مناهل رجالتهم الأعلام وعنايتهم بجمع كل شاردة وأبدة من أقوالهم وآرائهم ؟

لم يعن الغربيون بنبعائهم من أهل العمقيرية هذه العناية باعتبار أنهم لا يخطئون ولا يخلطون . أو أنهم ملهون ومحدثون ، بل باعتبار أنهم مفكرون أحرار ، لا يتقيدون بالمذاهب ، ولم يخضعوا عقولهم لغاصب ، فخلقوا من عالم المعاني في جو خلص من شوائب الحيوانية ، فقفطوا من حقائقه أزاهر أودعوها نظمهم ونثرهم مختلطة بهنات مما يلزم الطبيعة الأرضية

فالمكبون على رشحات أقلامهم إنما يتنسمون من خلال أسطرها نسمات تلك الأزاهر فتغعمهم برياهها الشذى ، وتحيي أنفسهم بروحها العلوى

فلو أراد ناقد معاصر أن يجمع سخافات أمثال شيكسبير ودانتى وفولتير وبيكتور هوجو ملأ منها أسفاراً ، ولكن ليس هذا من العدل في شيء إذ يكون هذا الناقد قد قصر نظره عن ظاهر الكلام . ولم يتنور الروح المودعة فيه ، فحرم نفسه أحوج ما يكون إليه

*
* *

بهذه العين يجب أن ينظر للناغين والعبقرين ، وبهذه النعمة يجب أن يعنى بما دونه في الطروس من منشورهم ومنظومهم ، وأبو العلاء واحد من هؤلاء ، بل من أبعدهم غوراً ، وأملهم سجلاً ، وأغذبهم مورداً ، وأعجبهم حالاً

لسنا بسبيل إيراد تاريخ صاحب رسالة الغفران ، غير أننا نقول . إنه كان كفيف البصر — ككثيرين قبله وبعده من النواذب — وكان مع عراقته في الشعر ، وتصرفه في فنونه ، لم يقبله مكتسباً ، فلم يقبل جائزة عليه قط ، وكان مكتفياً بغلة وقف له تبلغ ثلاثين ديناراً ، كان يعطى خادمه منها نصفها ، ويقنع بنصفها الآخر طول سنته .

أعجب من هذا كله وأدل على فضله ونزوعه عن قدر هذا العالم ومظالمه ، تعزز نفسه عن أكل اللحم ، وتأثم من قتل الحيوان بعد الأربعين من عمره ، فماش بعدها نيفاً وأربعين سنة

لم تمس شفتهه جثة كائن حي ، حتى إنه لما مرض المریضة التي مات فيها نصحه طبيبه بأكل فروج للتقوى به في زعمه . فأبى أبو العلاء أن يستبق حياته بإزهاق روح ، فعمد أهله إلى فروج فذبجوه دون أن يعلم هو ذلك ، ثم قدموه إليه ، فلما تناوله أدركه نفور منه وألقاه من يده ، فأخبروه بأنهم إنما فعلوا ذلك طلباً لشفائه . فمد يده ثانية وأمسك الفروج وقال كأنه يخاطبه : « مسكين أيها الفروج أمنوا شرك فذبجوك ، ولو كانوا خافوا بأسك لهايونك^(١) » ثم رمى به ولم يتناول منه شيئاً .

(١) يروون أنه مرض ، فوصفوا له الدجاج ؛ فامتنع ، وألحوا عليه حتى أظهر الرضى ، فلما قدم إليه ولمسه بيده جزع وقال : « استضعفوك فوصفوك ، هلا وصفوا لي شبل الأسد: » ثم أبى أن يطعمه

عطف أبي العلاء على الحيوان

وزهد أبي العلاء وعطفه على الحيوان وعزوفه عن أكل اللحم وصرامته في اتباع هذا القانون مما لا يحتاج إلى تنبيه إليه ، فقد اكتظت أشعاره بالرحمة والشفقة حتى أنه رثى لقتل البرغوث — كما رأيت ذلك في بعض موضوعات الكتاب السابقة — ولعل أجمل ما خاطب به الحيوان قوله :

فيا طائر أمتي ، ويا ظبي ! لا تخف شداى — فإيبنى وبينكما فرق
وقوله في التوجع والأسف على ما يصيب الحيوان الضعيف من الأذى :
وابك على طائر رماه فتى لاه ، فأوهى بفهره الكتفا
أو صادفته حباله نصبت فظل فيها كأنما كتفا
بكري يغى المعاش — مجتهداً ، فقص عند الشروق — أو تنفا
كأنه في الحياة ما فرع الغص ن ، فعنى عليه أو هتفا
ومن أجمل ما قاله في العطف على الحمامة ، قوله :

قل للحمامة : « قد أصبحت شادية فهجت للذاكر المحزون تشويقا
كسك ربك ريشا ، تدفعين به قر الشتاء ، وحلى الجيد تطويقا
فهل تراعين من باز — على شرف — يهدى اليك — عن الفرخين — تعويقا ؟
أما ترين قسى الدهر ، وترها رام مصيب ، أعار النبل تفويقا ؟
يفنيك وكرك عن بيت يزينه غاو من القوم ، إذهابا وتزويقا »

مثل هذه النفس لا تحرم نوراً علوياً ، ولا تمنع عروجاً سماوياً ، فلا عجب إن عثرنا في

وأنظر إلى نغمته على الانس لا يذاتهم الحيوان ، وحضه الغراب الذى ينسبون إلى طبعه
اللؤم والميل إلى الأذى على مقابلتهم بالمثل في قوله :

جريا غراب! وأظلم ، لا أرى أحداً إلا مسيئاً ، وأى الناس لم يجر ؟
نخذ من الزرع ما يكفيك عن عرض وحاول الرزق في العالى من الشجر
وما ألومك ، بل أوليك معذرة إذا خطفت ذبال القوم في الحبر
فالمعاشر ضاموا كل من صحبوا ولم يغادوا بسلم ربة الوجر
وما أبدع ما ختم به هذه الأبيات الجميلة ؛ وما أسد حجته في نصرة مذهبه إذ يقول :

لو كنت حافظ أثمار لهم ينعت ثم اقتربت ، لما أخلوك من حجر
وإذا تساوى العرف والنكر عند الناس ، وكان لا بد لهم من الايذاء فأجدر بالشرا أن
يدفع بالشر ، وبالإساءة أن تقابل بمثلهما !

وما أجمل قوله في قصيدة أخرى :

ولا تأخذ ودائع ذات ريش فما لك أيها الانسان بضنه

وإلعل أبرع ما قرأناه لأبي العلاء في حوار الحيوان ميمته الرائعة التى قالها في حوار الديك ،
واقترحها بقوله :

أيا ديك ! عدت من أيديك صيحة بعثت بها ميت الكرى وهو نائم
إلى أن يقول :

ونعم أذين المعشر ابن حمامة إذا سجعت للذاكرين الحمام
وما أحسن قوله في هذه القصيدة :

وفيك — اذا ما ضيع النكس غيرة تضان بها المستصحات الكرائم
وجود — بوجود النوال — على التى حميت — وان لم تستهل الغنائم
يزان لديك الطعن فى حومة الوغى إذا زينت — للعاجزين — المهزائم
إلى أن يقول :

وتؤثر بالقوت الحليمة — شيمة كريمة — ما استعملتها الأرائم
وهكذا يفتن أبو العلاء فى وصفه إلى أن يقول — وقد أفعم قلبه بالرحمة والحنان على الديك :
ولو كنت لى — ما أرهفت لك مديّة ولا رام إفطاراً بأكلك صائم

شعر أبي العلاء ونثره على لطائف وجدانية لا تنزل على سواه من عميد بطونهم ، وأسرى مشاعرهم ، ولا غرو بعد هذا أن حصل له من الشهرة والإقبال في العصر الأخير عصر النقد والتحليل أكثر مما كان له وهو بين ظهرائي معاصريه ، والمحيطين به لالتقاط الدرر من فيه

✱ ✱

وإن أجمل ما كتبه ، وأجمعه لآرائه في الدين والعلم والأخلاق ، وفي أساليب الشعر وفنونه ورجاله وبعيونه ، آيته الموسومة برسالة الغفران فقد صورت من نفسه ما لم يصوره شعره للدعاء ففي الشعر حوائل من الأوزان والقوافي ولزوم ما لا يلزم ، تجعل معانيه بعيدة المنال وتنور الروح المودعة فيه من أشق المحاولات ، ولكن النثر - نخلوه من هذه الحوائل - تتجلى فيه روح صاحبه بأجلى مظاهرها ، وتبين أغراضه بأقل كلفة ، وإن كان دون الشعر من حيث التأثير في النفس ، والسطوة بالعواطف . فرسالة الغفران من هذه الوجهة طلبه كل محب لاستشراق روح أبي العلاء . ولكن يحول دون هذه الفائدة العظمى أنه أكثر من غريب اللغة وأطال في سرد عبارات غامضة ، أو ضرب أمثال شاردة ، أو ذكر ما لا يعنى إلا العربي القح في ذلك العهد . ونحن نعطي قارئنا مثلاً من ذلك . قال :

ولم يفل ماء ، كي تمزق حلة	حبتك بأسناها العصور القدام
ولا عمت في الحمر التي حال طعمها	كأنك في غمر من السيل عام
ولا قيت عندي الخير تحسب عيلا	ينافيك قول سيء وشتائم
فان كتب الله الجرائم ساخطا	على الخالق لم تكتب عليك الجرائم

والقصيدة طويلة لا يتسع المقام لأكثر مما ذكرناه منها ، فليرجع إليها من شاء في الجزء الثاني من كتاب اللزوميات « من ص ٢٢٣ الى ص ٢٢٦ »

✱ ✱

ولا يفوتنا - قبل أن نختم هذه الكلمة - أن نبه القارئ إلى رسائل أبي العلاء التي كتبها رداً على داعي الدعوة في مصر لعلاقتها بهذا الموضوع ، فقد أظهر فيها الأسباب الرئيسية التي دعت إلى تحريم أكل اللحم ، وهي في هذا الجزء

ونذكر بهذه المناسبة أن الأستاذ فريد وجدى نباتي لا يأكل لحم الحيوان ، فهو يشرك أبا العلاء في هذه الحلة ، ولعل هذا الاتفاق هو السر في إعجاب الأستاذ بهذه الحكاية الى هذا الحد ونحن نشارك الأستاذ في إعجابه بنيل أبي العلاء وزهده ، ولكن هذا الإعجاب لن يكون - في لحظة من اللحظات - مغرباً لنا بالعزوف عن أكل لحم الحيوان !

« قد علم الخبر الذي نسب إليه خبريل ، وهو في كل الخيرات سبيل ، أن في مسكني
حماطة ما كانت قط أفانيه ، ولا الناكرة بها غانية » .

وقال :

« وأن في طمرى لحضبا وكل بأذاتي ، لو نطق لذكر شذاتي ، ما هو بساكن في الشقاب ،
ولا يتشرف على النقب ، ما ظهر في شتاء ولا صيف ، ولا مر بجبل ولا خيف الخ الخ » .

*
* *

فالرسالة في مثل هذا المعرض يصعب على الأكثرين قراءتها ومزاوتها والاستفادة مما
حوته من آراء مسددة ، وأحكام عادلة ، ونظرات ثاقبة ، ولو أحصينا عدد من قرأ هذه الرسالة من
جملة المتأدين لما ألفيناهم يجاوزون العشرة في المائة ، وهذا حرمان يألم منه طلاب الأدب العالي .
فتبوفيق من الله أهدى الفاضل الأملعي « كامل افندي كيلاني » أن يلخص هذه الرسالة
على أسلوب تبرز به أغراض أبي العلاء كاملة دون أن يحول بينها وبين القارئ ما أحيطت
به من المترادفات الغامضة ، والشؤون المحلية الخاصة ، مما جعل الرسالة عبئا ثقيلا على
المعاصرين يكدهم أذهانهم ويكل عزائمهم ويقف بهم عند حد منها لا يتعدونه ، ومن محاسن
هذا العمل المشكور الذي نسجله لأديبنا الشاب بالإعجاب ، أنه جاء من حسن الاتساق ،
وتناسب الأجزاء ، وتوافر الأغراض ، بحيث يخيل للقارئ أنه يقرأ رسالة أبي العلاء قبل أن
تتناولها يد التلخيص ، وأعجب من هذا أنه لم يزد فيها حرفا ، ولا من أغراضها غرضا ، فهي
من هذه الوجهة أحسن ما رأينا في هذا الباب .

*
* *

أما فوائد هذا العمل فلا نخالها تخفى على أحد ، فمنها سهولة تداول هذه الرسالة ، وعموم
الإنتفاع بها ، وتيسر تكرارها .

وهي فوائد لا أستطيع أن أحد مداها من النفع العام ، ولا أن أوفي مسبها الشكر على
على جليل خدمته ، فالله يتولى مشوبته ، ويجزل مكافأته ، وينفع بعمله هذا طلاب العربية ،
وعشاق الفنون الأدبية ، إنه أكرم مسئول . . .

محمد فريبر وهري

فهرست

الجزء الأول

رسالة ابن القارح

ص		ص		ص	الاهداء
٤٦	ضراعة وتوبة	٢٨	أبو عيسى بن الرشيد	٣	مقدمة
٤٧	ميتة فاذوه	٢٨	الجنابي	٥	إمامة
٤٨	بدء التعارف	٣٠	الحلاج	١١	تحية
٤٩	ترجمة ابن القارح	٣٢	ابن أبي العزاق	١٧	حنين صادق
٤٩	دراسته وأساتذته	٣٢	ابن الراوندى	١٨	فضل أبي العلاء
٤٩	سفره إلى مصر	٣٣	مصنفات ابن الراوندى	١٨	في حلب
٤٩	مقابلة أبي الحسن المغربي	٣٤	احتضار ابن الرومى	٢٠	أبو القطران ووحشية
٥٠	حجج ابن القارح	٣٥	أبو تمام	٢٠	ذكر أبي العلاء
٥٠	عودته إلى مصر، ثم هربه	٣٥	المعتصم	٢١	رسالة أبي الفرج الزهرجى
٥٢	بين المغربي وابن القارح	٣٥	جعفر بن محمد	٢١	الزهرجى وابن القارح
٥٣	فضل أبي العلاء	٣٦	شكوى الزمان	٢٢	المتنبى
٥٤	ابن خالويه وأبو الطيب اللغوى	٣٧	عزوف ابن القارح عن الغوانى	٢٢	الزمان
٥٥	حافضة ابن القارح	٣٨	قريش والنبي	٢٣	رواية القطر بلى وابن أبي الأزهر
٥٥	أوقات العزوف والملل عن العلم	٣٩	صبر الصحابة	٢٣	الزنادقة والملحدون
٥٦	فساد الثقة	٤٠	بدء الدعوة	٢٤	بشار بن برد
٥٦	سارقة خالها	٤١	العبدرى والنبي	٢٤	صالح بن عبد القدوس
٥٧	أبو بكر الشبلى	٤٣	مساوى الدنيا	٢٤	القصار الأعور
٥٧	ابن السماك والرشيد	٤٣	كل صفاء إلى كدر	٢٥	الصناديقى
٥٨	نعم الله وآلاؤه	٤٤	حسرة وندم	٢٦	الوليد بن يزيد
٥٩	عودة إلى أبي بكر الشبلى	٤٤	الخمير	٢٦	
٥٩	ختم الرسالة	٤٥			

الجزء الثاني

رسالة الغفران — القسم الأول

تمهيد

الفصل الأول

ص	الفردوس	ص	
٣٩	(النابغة الذبياني)	٥	(علقمة الفحل)
٤٥	مجلس غناء	٧	(أبو زيد)
٤٦	حديث لييد	٨	(عدى بن زيد العبادي)
٤٦	(لييد)	٩	(الأقيشر)
٥٠	غناء الحور	١٠	(الحكمي أبو نواس)
٥١	المخبل السعدي	١٢	(النمر بن تولب العكلي)
٥٣	مشاجرة الجعدي والأعشى	١٣	(أحمد بن الحسين المندي)
٥٨	حسان بن ثابت	١٦	ندامى الفردوس
٥٨	(حسان بن ثابت)	١٦	(أخو شمالة المبرد)
٦١	عوران قيس	١٦	(أخو دوس ابن دريد)
٦١	الشاخ معقل بن ضرار	١٩	(الأخفش الأوسط)
٦٣	(عمرو بن أحر)	١٩	(يونس بن حبيب الضبي)
٦٦	حكاية تميم بن أبي	٢٠	(سيديويه)
٦٦	(تميم بن أبي)	٢٠	(الكسائي)
		٢١	(أبو عبيدة)

الفصل الثاني

يوم الموقف

٨١	(زيد بن علي)	٧٦	(يزيد بن الحكم الكلابي)	٦٩	حكاية ابن القارح
٨١	(خديجة بنت خويلد)	٧٨	حديثه مع علي بن أبي طالب	٧٠	حديثه مع رضوان
٨٢	حديثه مع النبي	٧٩	وروده الحوض	٧٢	حديثه مع زفر
٨٢	عبور الصراط	٧٩	حديثه مع فاطمة	٧٤	حديثه مع حمزة بن عبد المطلب
٨٣	حواره مع رضوان	٧٩	(فاطمة الزهراء)	٧٤	(كعب بن مالك)
٨٤	دخوله الجنة	٨٠	(علي بن الحسين)	٧٥	مقابلة أبي علي الفارسي
		٨٠	(محمد بن علي)	٧٥	(أبو علي الفارسي)

الفصل الثالث

نعيم الفردوس

ص		ص		ص	
٩٤	رقص الحور	٨٩	مجلس أنس وغناء	٨٥	حديثه مع حميد بن ثور
٩٦	حديثه مع الحوريتين	٨٩	حديث الجرادتين	٨٥	(حميد بن ثور الهلالي)
٩٦	(الكندي: امرؤ القيس)	٩١	حديث جران العود النخيري	٨٦	حديثه مع لبيد
١٠١	حدائق الحور	٩١	(جران العود)	٨٧	مأدبة في الجنة

الفصل الرابع

جنة العفارىت

١٢٨	حديث الأسد	١١٢	حديث الرجم	١٠٤	أشعار الجن
١٢٩	حديث الحطيئة	١١٤	(حكاية طسم وجديس)	١٠٧	صرع فناة
١٢٩	(الحطيئة)	١٢١	أساطير الجن وسليمان النبي	١٠٩	قصة الجنى
١٣١	(الزبرقان بن بدر)	١٢٢	(حكاية الصيد والجنى)	١١١	لغة الجن

الفصل الخامس

الجحيم

١٦٧	حديثه مع أنى كبير الهدلى	١٤٥	(رأى أبى العلاء فى المرأة)	١٣٣	حديث الخنساء
١٦٩	حديثه مع الأخطل	١٥٦	حديثه مع عمرو بن كلثوم	١٣٣	(الخنساء)
١٦٩	(الأخطل)	١٥٧	(عمرو بن كلثوم)	١٣٥	حديث إبليس
١٧٦	حديثه مع مهلهل	١٦٠	حديثه مع الحارث اليشكرى	١٣٧	حديثه مع بشار
١٧٦	(مهلهل)	١٦٠	(الحارث بن حازة اليشكرى)	١٣٧	(بشار بن برد)
١٧٨	حديثه مع الشنفرى	١٦١	حديثه مع طرفة	١٤٠	حديثه مع امرئ القيس
١٧٨	(الشنفرى)	١٦١	(طرفة بن العبد)	١٤٢	حديثه مع عنتره
١٨٠	حديثه مع تأبط شرأ	١٦٥	حديثه مع أوس بن حجر	١٤٢	(عنتره العيسى)
١٨٠	(تأبط شرأ)	١٦٥	(أوس بن حجر)	١٤٣	(حبيب بن أوس: أبو تمام)
				١٤٥	حديثه مع علقمة

الفصل السادس

عوده إلى الفردوس

١٩١	(العجاج)	١٨٩	جنة الرجز	١٨٣	حديثه مع آدم
		١٨٩	(رؤبة بن العجاج)	١٨٥	حديثه مع ذات الصفا
		١٩١	متاع الخلد	١٨٧	عود إلى حوريته

الجزء الثالث

القسم الثاني من رسالة الغفران — الرد على رسالة ابن القارح

ص	ص	ص	ص	ص	ص
٢٤٧	التناسخ	٢٢٦	شاتم الدهر	١٩٥	وفاء ابن القارح
٢٤٧	(التناسخ)	٢٢٦	الزندقة والزنادقة	١٩٥	شيرين وكسرى
٢٤٩	رأى أبي العلاء في التناسخ	٢٢٧	بشار بن برد	١٩٦	غريزة النفاق
٢٥٢	مذهب التناسخ في الهند	٢٢٩	نادرة من نوادر الزنادقة	١٩٨	المعري يتبرأ من العلم
٢٥٤	ابن هانئ الأندلسي	٢٢٩	نادرة أخرى	٢٠٠	(العزلة)
٢٥٥	عودة إلى الحلاج	٢٣٠	عودة إلى أبي نواس	٢٠٢	الانتحار
٢٥٥	ابن أبي عون	٢٣٠	صالح بن عبد القدوس	٢٠٣	أبو القطران الأسدي
٢٥٩	عبدالله بن ميمون القداح	٢٣١	الصناديق	٢٠٥	التقييم
٢٥٩	رأى أبي العلاء في المنتجمين	٢٣٢	(المزدكية)	٢٠٥	فضل الموت
٢٦٢	ابن الراوندي	٢٣٣	دعوى الربوبية	٢١١	مادح أبي العلاء
٢٦٢	(ابن الراوندي)	٢٣٤	ربيع بن أمية الجمحي	٢١٢	رسالة أبي الفرج الزهرجى
٢٦٣	القرآن الكريم	٢٣٤	سمير بن أدكن	٢١٣	أمثال العرب
٢٦٥	ابن الرومي	٢٣٥	القرامطة	٢١٤	شكاة الأدباء
٢٦٥	(ابن الرومي)	٢٣٦	الوليد بن يزيد	٢١٤	(مالك بن أسماء الفزارى)
٢٦٦	(سبب موته)	٢٣٧	أبو عيسى بن الرشيد	٢١٦	أبو الطيب المتنبي
٢٦٧	حكايته مع أبي بكر بن السراج	٢٣٨	الجنابي	٢١٧	حكاية القطريلي وابن أبي الأزهر
٢٦٨	تشيعه	٢٣٨	(الجنابي)	٢١٨	دعبل بن علي
٢٧٤	(الطيرة والتشاؤم)	٢٣٩	العلوى البصرى	٢١٨	أبو نواس
	(نخبه من شعر أبي العلاء	٢٤١	النجوم	٢١٩	سداجة العرب
٢٧٩	في الطيرة)	٢٤١	الألمى	٢١٩	رسالة آدم
	(نخبه مختارة من شعر ابن الرومي	٢٤٢	الحلاج	٢١٩	زندقة قريش
٢٨٠	في الطيرة والقال)	٢٤٢	(الحلاج)	٢٢٠	عود إلى أبي الطيب المتنبي
٢٨٦	أبو تمام	٢٤٣	إجلال القرد	٢٢١	اختلاف الخواطر
٢٨٧	مناحة القصائد	٢٤٣	قرد زبيدة وقرد يزيد	٢٢٢	الدهر
٢٨٨	المازيار	٢٤٤	(احمد بن حنبل)	٢٢٢	(الدهر)
٢٨٨	(أبو مسلم الخراساني	٢٤٥	مذهب الحلول	٢٢٤	(الزمان)

ص	بدء التعارف بين المعري	ص	عمر بن الخطاب	ص	أعباء الفقير وأشجان الغنى
٣١٣	وابن القارح	٣٠٣	عودة إلى النبي	٢٩٠	(الجدد)
٣١٤	أساتذة ابن القارح	٣٠٣	تميم بن أوس الداري	٢٩١	«موجز رأى الشعراء في الحظ»
٣١٤	حبجج ابن القارح	٣٠٤	احمد بن حنبل والخمر	٢٩٣	على بن أبي طالب
٣١٥	أبو الطيب اللغوي	٣٠٤	الخمر	٢٩٦	دعوى الربوبية
٣١٦	ابن القارح في مصر	٣٠٤	(رأى أبي العلاء في الخمر)	٢٩٦	رجعة إلى ابن الراوندي
٣١٦	الهنود والخمر	٣٠٨	توبة ابن القارح	٢٩٦	أبو جوف
٣١٧	دنانير ابن القارح	٣٠٨	حديث طالوت	٢٩٧	عودة إلى علي بن أبي طالب
٣١٨	بائع كميته	٣٠٨	عودة إلى ذكر الحور	٢٩٨	الزواج
٣٢٠	الجميل في زمن المنصور	٣٠٩	رجعة إلى الخمر	٢٩٩	زواج النبي بمخديجة
٣٢٠	فضل الذهب	٣١٠	المعتصم وابراهيم المهدي	٣٠٠	حاجة الشيخ الى الزواج
٣٢١	ابنة أخته	٣١٠	الهيام بالخمر	٣٠٠	الخدم
٣٢٢	قاتل خاله	٣١١	(الجبر)	٣٠٠	لؤم الخدم
٣٢٢	أدب الخوولة	٣١٢	أبو طاححة والمهودي	٣٠١	التوبة
٣٢٢	غريزة المرأة	٣١٣	حرص الناس	٣٠٢	الفضيل بن عياض
٣٢٤	أبو بكر الشبلي	٣١٣	ميتة فاذوه	٣٠٢	عمر بن عبد العزيز
٣٢٤	ختم الرسالة	٣١٣	أبو الهذيل العلاف	٣٠٢	أبو حذيفة وحماد بن محمد

الجزء الرابع

نصوص ودراسات

٣٨٥	كلمة ختامية	٣٥٩	المرتبة السادسة	٣٢٧	١ - ملقى السبيل
٣٨٦	رسائل الحيوان	٣٥٩	المرتبة السابعة	٣٥١	٢ - بين المعري وداعي الدعاة
	الرسالة الأولى	٣٦٠	المرتبة الثامنة	٣٥١	تمهيد
٣٨٨	من داعي الدعاة	٣٦٠	المرتبة التاسعة	٣٥٣	لم تكتب هذه الرسائل
٣٨٨	الشهادة لأبي العلاء بالأدب	٣٦٢	بين المعري وداعي الدعاة	٣٥٧	المذهب الاسماعيلي
٣٨٨	وجوب التعلق بالعلم النافع	٣٦٤	دفاع المعري عن السجع	٣٥٧	المرتبة الأولى
٣٨٩	دليل نظره في الآخرة	٣٦٦	محور الرسائل	٣٥٨	المرتبة الثانية
٣٩٠	شهرته بالفضل	٣٧١	الخير والشر	٣٥٨	المرتبة الثالثة
٣٩١	علة تحريم اللحوم والألبان		أثر هذه الرسائل في تسوية	٣٥٩	المرتبة الرابعة
٣٩٣	طلب الجواب	٣٧٨	سمعة المعري	٣٥٩	المرتبة الخامسة

ص	ص	ص	الرسالة الثانية
٤٢٨	توسيع رزق أبي العلاء	٤١١	قضية الخير والشر
٤٢٨	أمير حلب في عهد أبي العلاء	٤١٢	رد داعي الدعاة
٤٢٩	زهدي أبي العلاء في العاجلة	٤١٣	إيلام الحيوان
٤٢٩	سجع أبي العلاء	٤١٣	علم الله بالخير والشر
٤٣٠	الاحتجاج للسجع	٤١٤	صوم أبي العلاء
٤٣٠	فواصل القرآن	٤١٥	قناعة أبي العلاء بالنبات
٤٣٠	سجع الحاتم	٤١٥	خلق الله للعصاة
٤٣١	كراهة الرسول للسجع	٤١٦	القول بالرجعة
٤٣١	فطنة داعي الدعاة	٤١٧	سب الدهر
	الرسالة الخامسة	٤١٨	فقر أبي العلاء
٤٣٢	من داعي الدعاة		الرسالة الرابعة
٤٣٢	معرفة داعي الدعاة للناس	٤١٩	من أبي العلاء
٤٣٣	سماعه بأبي العلاء	٤١٩	طلب الرشد
٤٣٣	أقوال الناس في أبي العلاء	٤١٩	قصيدة أبي العلاء
٤٣٤	داعية البيت	٤٢٠	أسرار الله
٤٣٤	جواب أبي العلاء		كراهة السمك للخروج
٤٣٥	جواب داعي الدعاة	٤٢٠	من الماء
٤٣٥	المناقشة في أكل اللحوم	٤٢١	رحمة الحيوان
٤٣٦	ذكر أبي العلاء لعجزه وضعفه	٤٢١	ظلم الطير
٤٣٦	امتناعه من قبول المعونة	٤٢٢	دفاع النحل عن نفسها
٤٣٦	طلب الرشد	٤٢٣	تقشف على
٤٣٧	صححة الدين والعقل	٤٢٤	تقشف المجتهدين
	كراهة السمك للخروج		استرشاد أبي العلاء
٤٣٨	من الماء	٤٢٤	بداعي الدعاة
٤٣٨	تنفل النبي وتعبده	٤٢٤	التنفل والزيادة في الفضائل
٤٣٩	ترك الحلال	٤٢٦	مرض أبي العلاء وضعفه
٤٣٩	تقشف على	٤٢٧	تمثل داعي الدعاة ببيت
٤٣٩	شكوى أبي العلاء من الضعف	٤٢٧	لأبي الطيب
٤٤٠	في الأسجاع	٤٢٧	الاسترشاد بأبي العلاء
٤٤٠	اعتذار داعي الدعاة		
		٣٩٤	من أبي العلاء
		٣٩٤	تواضع أبي العلاء
		٣٩٥	شهرة أبي العلاء
		٣٩٥	عذر أبي العلاء
		٣٩٦	إحساس الحيوان
		٣٩٦	اختلاف القدماء
		٣٩٦	قضية الخير والشر
		٣٩٧	فاعل الشر
		٣٩٨	الحزن على الراحلين
		٣٩٨	شهداء الفتح
		٣٩٩	هجران اللحوم
		٣٩٩	حنين الحيوان في شعر العرب
		٤٠٠	التفجع على الأبناء
		٤٠١	علم الله بالخير والشر
		٤٠١	الرافقة بالحيوان
		٤٠٢	تقاتل الانسان
		٤٠٢	حياة أبي العلاء
		٤٠٣	فتك الحيوان بالانسان
		٤٠٤	تقاتل الطير
		٤٠٤	خالق العصاة
		٤٠٥	إيمان أبي العلاء بالبعث
		٤٠٧	انكار أبي نواس للبعث
		٤٠٨	ديك الجن
		٤٠٨	حديث سب الدهر
		٤٠٩	فقر أبي العلاء
			الرسالة الثالثة
		٤١٠	من داعي الدعاة
			خلق النبات للحيوان
		٤١٠	والحيوان للانسان

٣ - رسالة الملائكة

٤٦١	تصريف طوبى	٤٥١	وزن الارزبة	٤٤١	تمهيد
٤٦٥	تصريف الحيوان	٤٥٢	علم الملائكة	٤٤٢	تبرؤه من مظنة العلم
٤٦٥	تصريف الحور	٤٥٢	الثوم والقوم	٤٤٣	لا كذب مع الشيب
٤٦٧	جمع الاستبرق وتصغيره	٤٥٤	الريم بمعنى القبر	٥٤٣	الثناء على صاحبه
٤٦٧	نسبة العبقري	٤٥٤	واحد الزبانية	٤٤٣	حياة أبي العلاء
٤٦٨	شغل أصحاب الجنة	٤٥٥	تصريف غسلين	٤٤٤	مسائل الصرف
٤٦٨	دعوة الخليل	٤٥٥	تصريف جهنم	٤٤٤	شيخوخة أبي العلاء
٤٦٩	عود إلى جواب الرسالة	٤٥٦	تصريف سقر	٤٤٥	حديثه مع ملك الموت
٤٧٠	عود إلى البراءة من مظنة العلم	٤٥٧	مخاطبة المثني بلفظ الواحد	٤٤٦	وزن الملائكة
٤٧٠	آراء الناس في أبي العلاء	٤٥٨	حديث رضوان	٤٤٨	جواب الملك
٤٧١	تكذيب المادحين	٤٥٩	حاجة أهل الجنة إلى العربية	٤٤٨	وزن عزرائيل
٤٧٣	تقاعد أبي العلاء	٤٦٠	تصريف الكثرى	٤٤٨	حديث منكر ونكير
٤٧٣	علة السؤال	٤٦٠	تصريف السفرجل	٤٤٩	وزن جبرائيل وميكائيل
٤٧٤	رمية من غير رام	٤٦١	تصريف السندس	٤٤٩	وزن موسى

٤ - رسالة الشياطين

٤٩٩	بين عمر وابن عباس	٤٨٥	ترخم التصغير	٤٧٥	ترحيب
٥٠٠	إسراف الشعراء	٤٨٧	أسماء الآباء	٤٧٦	جنى أم ملك
٥٠١	فضل الغربة	٤٨٨	التماس العذر	٤٧٧	مناحة الجن على عمر
٥٠٢	على ظهر ناقة	٤٨٨	جفوة البصرين	٤٧٧	ملائكة الشعراء
٥٠٣	على ظهر جواد	٤٨٨	ضرورات النظم	٤٧٨	شياطين الشعراء
٥٠٤	على ظهر بغل	٤٩٢	كنية المعرى واسمه	٤٧٩	شيطان ابن دريد
٥٠٤	على ظهر حمار	٤٩٢	عتاب المعرى	٤٨٠	أبو زاجية
٥٠٤	المطية الأطاحية	٤٩٣	فروض عروضية	٤٨١	غريزة الشاعر
٥٠٥	خاتمة الرسالة	٤٩٤	فروض صرفية	٤٨٢	أهل البصرة
٥٠٦	أبو حمزة	٤٩٥	حروف الجر وحروف المعاني	٤٨٣	تحريف الاسم
٥٠٦	تحية الختام	٤٩٧	فرض جديد	٤٨٤	تغيير الأسماء

٥ - رسالة الأخرس بين

ص		ص		ص	
٥٢٤	فضل الخرس	٥١٧	الأخرس والخرساء : الحية	٥٠٧	توصية
٥٢٥	طلب العناية	٥١٨	أمثال الخرس	٥٠٧	خرس الحماخاين
٥٢٥	مزرعة الخرس	٥١٩	الخطيب الأخرس	٥٠٨	خرس الحجلين
٥٢٦	أصل الكلمة	٥١٩	دعاء الأخرس	٥٠٨	خرس الدار
٥٢٧	مقعد الفراخ	٥١٩	الجار الأخرس	٥٠٨	الصحیح الأخرس
٥٢٧	الثدى المقعد	٥٢٠	عصا الأعمى	٥٠٩	خرس الفتيين
٥٢٧	السنام المقعد	٥٢٠	مستحق الصدقة	٥١٢	الناقة الخرساء
٥٢٨	قاعد الذئب	٥٢١	المكفوفون	٥١٤	زواج الخرساء
٥٢٨	الأضداد	٥٢١	أم بشار وأولادها	٥١٥	خراسان
٥٢٩	واجبات السلطان	٥٢١	أبناء الفأر	٥١٥	القيد الأخرس
		٥٢٢	المكدون الثلاثة	٥١٦	طعام النفساء
		٥٢٣	اللغة الربعية	٥١٧	البكر الخروس

بين المعري والمعري

٥٤٣	رسالة أبي العلاء	٥٣٨	(شعر أبي القاسم)	٥٣٠	(أبو القاسم المغربي)
		٥٣٩	رسالة أبي القاسم	٥٣٥	(رسائل أبي القاسم)

٦ - رسالة الطيب

٥٦٦	سرور الشاكر	٥٥٤	همة العظم	٥٤٥	فاتحة
٥٦٧	أحلام الهجة	٥٥٥	نخر المعرفة	٥٤٦	نفاسة الكتاب
٥٦٨	القوة والضعف	٥٥٥	منازل القمر	٥٤٧	حكم الأزمات
٥٦٩	أصالة الفضل	٥٥٦	المفاني الأولى	٥٤٨	شوق المعري
٥٧١	وعد كريم	٥٥٨	اتفاق الاسماء واختلاف الصفات	٥٤٩	سحر الكيمياء
٥٧٢	غناؤه عن المدح	٥٦٠	هدى أبي القاسم	٥٥٠	بلاغة معجزة
		٥٦٢	إجلال التقديس	٥٥١	الطبع الصادق
		٥٦٤	ذعر المعرفة	٥٥٢	عجز المنافسين

٧ - رسالة الأغريرض

٦٠٤	ورود الكتاب	٥٨٩	خاطر الأملعي	٥٧٤	حكمة أبي القاسم
٦٠٥	الأخلاق الباهرة	٥٩٠	مزايا أبي القاسم	٥٧٥	قصة الغراب الحجازي
٦٠٦	مقدم الزهيري	٥٩٥	البلاغة الساحرة	٥٧٨	دعاء
٦٠٦	المعري والأدب	٥٩٦	مختصر إصلاح المنطق	٥٨٠	دعوات عروضية
٦٠٨	المعري والنشب	٥٩٧	شواهد الإصلاح	٥٨١	ثريا سهيل
٦٠٩	سبأ بن يعرب	٥٩٨	رجز الضب	٥٨٢	قبة أبي القاسم
٦٠٩	مدائح الشعراء	٥٩٩	كتاب ابن السكيت	٥٨٣	قصة ذات الطوق
٦١٠	خاتمة الرسالة	٦٠٠	فضل الموجز	٥٨٦	هاتف الحمام
		٦٠١	تكرار اللفظ	٥٨٧	بلاغة أبي القاسم

٨ - السكوميديا اللاربية

٦١٣	إلمامة			٦١١	تمهيد
-----	--------	--	--	-----	-------

الفصل الأول

٦٢٠	الوحوش الثلاثة			٦١٩	ضلال دانتي في الغابة
-----	----------------	--	--	-----	----------------------

الفصل الثاني

٦٢٢	حوار دانتي وفرجيل			٦٢٢	حديث فرجيل
-----	-------------------	--	--	-----	------------

بقية الفصول

٦٤٢	الفصل السادس	٦٢٧	نهر كيرنتيه		الفصل الثالث
٦٤٦	» السابع	٦٣١	الفصل الرابع	٦٢٥	على باب الجحيم
٦٥٢	» الثامن	٦٣٧	» الخامس	٦٢٥	آلام العصاة

دراسات النقار

	مقدمة	٦٥٩	(مقدمة رسالة الغفران)	٦٥٤	(ترجمة بن القارح)
٦٦٩	للدكتور طه حسين بك	٦٦١	(شعر أبي العلاء في البعث)	٦٥٦	(موجز ترجمة أبي العلاء)
٦٧٩	أبو العلاء لفرديدو جدي بك	٦٦٦	(الخيال في رسالة الغفران)	٦٥٨	(مؤلفات أبي العلاء)